مجلة الأزهر

٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

سقيفة الصفا العلمية

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

٥٧

المجلد الحادي والخمسون ـ القسم الأول

السنة ١٣٩٩هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف

مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25907497 / 25899823
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٥٠٦

الجزء الأول – السنة الحادية والخمسون – غرة المحرم ١٣٩٩هـ – ديسمبر ١٩٧٨م

عمومى ٦٢٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان الكامل فى نظر محمد إقبال (١)

العلامة أبو الحسن الندوى

بحث عن إنسان :

قال مولانا جلال الدين الرومى فى بعض مقطوعاته « رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة وقد حمل مشعلاً كأنه يبحث عن شيء قلت له : ياسيدى تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب وضقت بها ذرعاً ، وخرجت أبحث عن إنسان فى هذا العالم ، لقد ضاق صدرى من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولى ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال يملأ عينى برجولته وشخصيته ويروّح نفسى ، قلت له : لقد غرتك نفسك ياهذا فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله لا تتعب نفسك وارجع أدراجك فقد أجهدت نفسى وأنضيت ركابى ونقبت فى البلاد فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ إليك

(١) ملخص لمحاضرة ألقاها الأستاذ العلامة منذ سنوات – هنا ننشرها بإذن خاص .

عنى أيها الرجل فأحب شىء إلى نفسى أعزه وجوداً وأبعده منالاً . . .

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الخالد « رسالة الشرق » رداً على تحية الشاعر الألمانى « جيته » التى أرسلها باسم الغرب إلى الشرق ، ولا أظن أن محمد إقبال اختار هذه المقطوعة وحلى بها صدر كتابه إلا لأنها تصوّر نفسيته وتعبر عن شعوره ، فقد كان بحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد ، الباحثين عن « الإنسان الكامل » فهل وجد محمد إقبال ضالته ياترى وظفر بمطلوبه أم قطع منه الرجاء ؟

وإذا كان الجواب : نعم ، لقد وجد محمد إقبال ضالته من الناس وظفر بوطره من الرجال إنه فتح أعظم من فتح « كلمبس » واكتشاف أجل خطراً وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد لأنه اكتشاف الإنسان المفقود وعثور على الإنسانية الضائعة ولا خير فى العالم — قديمه وجديده — إذا فُقد الإنسان وضاعت الإنسانية ، وحاجة العالم إلى إنسان أشد اليوم من حاجته إلى القارات الجديدة والبحار المجهولة .

المسلم هو الإنسان الكامل :

إن محمد إقبال يحدثنا فى شعره بأنه وجد هذا الإنسان المنشود وعرفه واتصل به ونراه قد هام به هياماً وتغنى فى شعره بإنسانيته وشخصيته ، فأين وجد محمد إقبال ، وكيف السبيل إلى هذا الإنسان الرفيع ؟

إن الإنسان الكامل الذى وجده محمد إقبال فوجد فيه ما كان ينشده من معانى الإنسانية والقوة والحياة والجمال والكمال هو (المسلم) لا أقل ولا أكثر .

إن هذا الجواب مفاجأة حقاً للذين يحملون للمسلم صورة قاتمة هزيلة لا تتفق أبداً مع هذا التصوير الرائع الذى قدمه الشاعر للإنسان الكامل ، ولكن محمد إقبال بالعكس من ذلك يرى فى المسلم « الضالة المنشودة » والصورة الكاملة للإنسانية .

المسلم المثالى :

ولكنه يعنى ذلك المسلم المثالى الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عبّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عبّاد الأوطان والألوان

والشعوب بأفاقيته وإنسانيته ، وبين عبّاد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة ، وبين أهل الأثرة والأنانية : بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته ، ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة .. لا يزال الحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول وأما ما عداه فزبد يذهب جفاء ، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، أما ما عداه فشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يقول فى بيت « إنك أيها المسلم حق فى العالم وحدك وما عداك سراب خادع ودرهم زائف ، ويقول فى بيت آخر : « إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق وكل ما عداه فى هذا العالم المادى وهم وطلسم ومجاز » .

المسلم له وجودان :

إن المسلم له وجودان ، الوجود الإنسانى ، والوجود الإيمانى ، أما الوجود الإنسانى فهو الوجود الذى يشاركه فيه كل إنسان يولد ، كعامة الناس وينشأ ويكبر كعامة الناس ويجوع ويظمأ ويشعر بالبرد والحر ويأكل ويشرب ويصح ويمرض .. ويموت ويحيا ويفتقر ويغنى ويزرع ويتّجر ويعول العيال ويربى الأطفال ويقتنى الأموال ويحكم البلاد والرجال ، فهو فى هذا الوجود خاضع للسنن الطبيعية تجرى عليه كما تجرى على غيره وتنفذ فيه كما تنفذ فى أى إنسان آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ولا تتسامح معه لأنه يحمل اسما خاصًا وينتمى إلى جنس خاص ويلبس لباسًا خاصًا ، وهو ذرة حقيرة فى صحراء الوجود المترامية وموجة عادية تأتى وتذهب فى بحر الكون الزاخر من غير أن يشعر بها أحد ، فإذا اقتصر المسلم على هذا الوجود البشرى العام وعاش كإنسان لا أقل ولا أكثر كان كائنًا ضعيفًا فانيا ليست له قيمة كبيرة فى نظر صَيرفىّ الوجود وإذا مات فى وقته ما بكت عليه السماء والأرض وما خسر فيه العالم شيئا كبيراً .

أما الوجود الإيمانى فهو أنه يحمل رسالة خاصة رسالة الأنبياء والمرسلين ويؤمن بمبادئ خاصة ويعتقد اعتقاداً خاصًا ويعيش لغاية خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ودعامة من دعائم العالم وحاجة من حاجات البشرية

يستحق أن يعيش ويستحق أن ينتصر ويستحق أن يزدهر ، بل يجب أن يعيش ويجب أن ينتصر ويجب أن يزدهر ، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون ، فحاجة البشرية وحاجة الكون إليه ليست أقل من حاجتها إلى الماء والهواء والنور والحرارة ، فإذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالماء والهواء والنور والحرارة كانت معانى الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق التى تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ويتكفل المسلم بإعلانها والقيام بها والجهاد فى سبيلها لضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سراً مكتوماً ، إذن فمركزه فى العالم وبقائه كبقاء الشمس والكواكب النيرة تنقرض الأجيال والأمم وتحول الأنهار مجراها وتخرب عمائر وتعمر خرائب وتقوم حكومات وتتقلص حكومات وتأتى مدنيات ، وتذهب مدنيات وهو قائم لا يزول ولا يحول .

المسلم حى خالد :

يعتقد محمد إقبال أن المسلم حى خالد لأنه يحمل رسالة خالدة ويحتضن أمانة خالدة ويعيش لغاية خالدة ، يقول فى بيت « لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم لأن وجوده رمز لرسالات الأنبياء وأن أذانه إعلان للحقيقة التى جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم » ويقول فى بيت آخر « المسلم رسالة الله الأخيرة فلا يعتريه النسخ والتبديل » ولا يعنى محمد إقبال أن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية حى خالد يفلت من الموت ويتمرد على القانون الطبعى ، كيف وقد قال الله تعالى « وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِه الرُّسل » وقال « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » ولكن محمد إقبال يرى أن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام الخضم يأتى موج ويذهب موج وتترامى هذه الأمواج فى أحضان البحر وتتلاشى فى وجوده والبحر لا يتغير فالبحر امتداد دائم وتسلسل قائم — لأجزاء متغيرة ، كبحر الحياة وبحر الوجود ، تتبدل أمواجه — وهى أفراد البشر — ولا يتبدل كيانه .

خلق العالم للمسلم :

ويتقدم محمد إقبال خطوة أخرى فيعتقد أن المسلم هو غاية هذا الكون خلق العالم له وخلق هو لله ، لقد كان العلماء يتباحثون فى صحة حديث « لولاك لما خلقت الأفلاك » ولكن

محمد إقبال لا تهمه صحة هذا الحديث لفظاً ورواية ، إنه يفهم من القرآن ومن دراسة الإسلام وطبيعة المسلم ورسالته السامية ويفهم من دراسة التاريخ الإنسانى الواسعة العميقة والاطلاع الواسع على أوضاع وطبائع الأشياء ، أن المسلم الذى هو جارحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه هو مصداق معنى الحديث فضلا عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو خليفة الله فى أرضه خلق لأجله العالم وعلمه الأسماء وحكمه فى الأرض وأورثه خيراتها وخزائنها وألقى إليه بمقاليدها فيجب عليه أن يعتقد ويقتنع بأن العالم خلق له ويجاهد ويجتهد لتطبيق هذه العقيدة وتحقيق هذه الفكرة ، يقول فى بيت « إن العالم تراث للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا أعد مؤمنا كاملا من لا يعتقد أن العالم خلق له » .

مقام المسلم مقام الإمامة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويسائر الركب البشرى حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ويفرض على البشرية اتجاهه ويملى عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته ، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه ومقام الأمر والنهى ، وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ويظل فى صراع وعراك حتى يقضى الله فى أمره يقول فى بيت « يقول من لا خلاق له « دُرْ مع الدهر حيث دار» وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه ، وأنا أقول إذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحاربه حتى يفىءَ إلى أمر الله » . ويرى أن المؤمن غير مأذون بمجاراة الأوضاع بل هو مكلف بمصادمة الأوضاع الفاسدة يرد الأمر إلى نصابه ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد ، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقض والعملية الجراحية فإن كل ذلك فى سبيل البناء والعمارة والإصلاح ، يقول فى بيت « على المسلم أن يربى فى نفسه الروح وينشىء فى هيكله الحياة ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته وينشىء عالماً جديداً » «ويقول متمثلا

سألني ربي هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت لا ياربي ، فقال فحطمه ولا تبال » .

ويرى محمد إقبال أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام ، يقول في بيت « المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لايرد ويقول «إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه لم يقع في العالم إلا ما يرضاه ويحبه »

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة :

ويرى محمد إقبال أن المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح في التاريخ ومطلع فجر السعادة في العالم ، وأنه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب ورسول الحياة ومؤذن الفجر في الليل البهيم ، وأن أذانه لا يزال صيحة تدوى في هدوء الليل وسكون الموت فيعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ، ونشاطه ويؤذن بطلوع الصبح الصادق وانصرام الليل الغاسق ، وعلى هذا الأذان الصارخ والنداء العالى الذى ارتفع من جبل أبي قُبيس قبل ثلاثة عشر قرناً استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق الذى غطّ فيه خمسة قرون وأكثر وكان نفخة صور للإنسانية الميتة والعالم المختصر وهو الكفيل الآن بإيقاظ الإنسانية وإحياء الضمير البشرى ، يقول في بيت « إن المؤمن إذا نادى الآفاق بآذانه أشرق العالم واستيقظ الكون» ويقول في قصيدة « لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح الذى يطلع على هذا العالم كل يوم ولست أعلم سره ، ولكنى أعلم أن السَّحَر الذى يهتز له هذا العالم المظلم ، ويولى به ليل الإنسانية الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق » .

قوة المؤمن مستمدة من رسالته :

ويعتقد محمد إقبال بحق أن قوة المؤمن الخارقة للعادة ، المحيرة للعقول ، المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وإيمانه وباندماجه واضمحلاله في إرادة الله ، هنا لك يتحول جارحة للقدرة الإلهية وقوة قاهرة لا تصدها الجبال ولا تقف في سبيلها البحار ، يقول في قصيدة أنشأها في قرطبة « إن يد المؤمن جارحة القدرة الإلهية ، فهى غلابة حلالة للعقد والمشاكل فتاحة للأبواب

المقفلة ، لبقة صناع حاذقة ، إن المؤمن : جسمه من تراب وفطرته من نور ، عبد متخلق بأخلاق مولاه ، قلبه غنى عن العالمين » ويقول على لسان القائد الإسلامى الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس وهو يدعو لأصحابه العرب بالنصر ويناجى ربه « إن هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون الذين لا يعرفهم غيرك وقد أصبحوا اليوم يطمحون إلى فتح العالم وإخضاعه ، إذا ركلوا برجلهم الصحراء انشقت ، إذا ركلوا برجلهم البحر انفلق ، انكمشت الجبال وتقبضت بمهابتهم ، إنهم عرفوك وأحبوك فزهدوا فى العالم واستغنوا عن الدنيا ، لا يطلبون إلا الشهادة فى سبيلك ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة الإبل بنعمتك وميزتهم بين أقرانهم فى الخبر والنظر وأذان السحر ، لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب والتوجع للإنسانية المظلومة وفى قلوب هؤلاء الجريحة وفى أكبادهم المتقدة وجد العالم مأربه » « بل إن الشاعر يتقدم خطوة ويقول « ما ظنك بقوة ساعد المؤمن وهو بنظرته يقلب الأوضاع وبدعوته يرد القضاء ، والمطلع على التاريخ ما قاله محمد إقبال فقد هزأ المسلمون المؤمنون فى عصرهم الأول من الجبال والبحار وشقوا طريقهم غير محفلين بما تعترضهم من أشواك وعقبات ، وقصص سعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى وعقبة بن عامر ومحمد بن قاسم الثقفى وموسى بن نصير وطارق بن زياد شاهدة على صدق ما قاله محمد إقبال .

المسلم لا ينحصر فى الأوطان والشعوب :

ويرى محمد إقبال أن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تتخطى حدود المكان والزمان وتفيض كالطبيعة البشرية وكالإنسانية العامة فى مساحة زمانية شاسعة كمساحة التاريخ الإسلامى وفى مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الإسلامى ، يقول فى قصيدة قرطبة « إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ولا يعرف أفقه الثغور ، ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجاً صغيرة فى بحره المتلاطم ، عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد العتيق وغير مجرى التاريخ ، هو فى كل عصر ساقى أهل الذوق وفى كل مكان فارس ميدان الشوق ، شرابه رحيق دائماً وسيفه ماض فى كل معركة ويعتقد محمد إقبال

أن العالم كله وطن للمسلم ، يقول فى بيت « المسلم الربانى ليس بشرقى ولا غربى ليست وطنى دهلى ولا أصفهان ولا سمرقند ، إنما وطنى العالم كله » ويعتقد محمد إقبال أن المسلم يعتبر كل ملك الله وطناً له يقول « لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت ، فجاءه رجال من الجيش ولاموه على فعله وقالوا له: لقد قطعت بنا الحبال فكيف نرجع إلى بلادنا ؟ فوضع طارق يده على السيف وقال أنا لا أفكر فى الرجوع وسنبقى هنا ونتخذه وطناً ، فإن كل ما كان لله من أرض وبلاد وطن لنا ، لا فرق فى ذلك بين العجم والعرب والشرق والغرب » .

المسلم متخلق بأخلاق الله :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم يجمع بين المتناقضات من الأخلاق والصفات وما هى بمتناقضات ولكنها ظلال صفات الله ومظاهر أخلاق الله ، فهو فى تسامحه ورحابة صدره وكثرة صفحه قد تخلق بخلق « الغفار » ، وفى شدته فى الدين وغضبه للحق وثورته على الباطل قد تخلق بخلق« القهار» وهو فى نزاهته وعفته وطهارة ضميره قد تخلق بخلق « القدوس » وفى صلابته إذا تصلب وشدة شكيمته إذا أبى وشدة بطشه إذا حارب تخلق بخلق « الجبار» ولا يكون المسلم المثل الكامل لدينه وصورة صادقة للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوعة فيجمع بين الشدة واللين ، والغضب — والرحمة والصلابة والمرونة والعفة والنزاهة ويكون فى ذلك آية من آيات الله ومعجزة من معجزات الرسول ، ثم يقول الشاعر إن المؤمن هو الميزان العادل والقسطاس المستقيم به يعلم رضا الله وسخطه وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق فى نظره فهو حسن وما استقبحه فهو قبيح وما ثقل فى ميزانه فهو ثقيل وما خف فهو طائش ، وفى عزائمه تتجلى إرادات الله وهو القرآن الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه ، ثم إن حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة فالصبح يطلع كل يوم والليل يتبع النهار لا تخلف فيه ولا تناقض وهو صاحب معان كثيرة ونغمة واحدة فهو كسورة الرحمن فى القرآن تتجدد معانيه وتتكرر فيه آية « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » وقد صدق الشاعر فالمسلم لم يزل يتحف كل عصر بعلومه وتوجيهاته وينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه ويضرب على وتر واحد

ويكرر رسالة الأنبياء ويقول لكل جيل «ياقَوْمِ اعبُدوا اللهَ مالكُم مِن إلهٍ غَيرُه» فهو كالصبح جديد وقديم فهو فى جدته ليس شىء أجد منه وهو فى قدمه ليس شىء أقدم منه ، هو قديم لكنه يتجدد به العالم وتتجدد فيه الكائنات وتنتعش به القوى وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول ، ثم إنه جديد بنفسه تتجدد قواه ويتجدد نشاطه وتتفتح قريحته مع العصور علمه سيار وعقله مبتكر ونفسه طموح وهمته وثابة وهو كالمطر كل قطرة غير الأولى ولكنها قطرات مطر وكلها تحيى الأرض وكلها تنبت النبات وكلها تسقى المزارع والأشجار وكلها تفتح الأزهار وكلها تكون الأنهار وهو معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « أمتى كالمطر لا يدرى أأوله خير أم آخره » .

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً :

ويقول محمد إقبال إن المسلم كالشمس إذا غربت فى جهة طلعت فى جهة أخرى فلا تزال طالعة ، وقد صدق فإن الإسلام لم ينكب فى ناحية من نواحى العالم ولم يخسر إلا وفتح فتحاً جديداً فى ناحية أخرى ولم يخصر فى جانب دولة إلا وقامت له فى جانب آخر ، لم تسقط له راية إلا وخفقت له راية أخرى ولم يغب له نجم إلا وطلع له نجم آخر لقد كانت خسارة الأندلس الإسلامية كارثة كبيرة ومصاباً عظيماً ولكن عوض الإسلام بها بدولة فتيه من أعظم دول العالم هى دولة آل عثمان فى تركيا قامت فى نفس القارة الأوربية وجثمت على صدر الدول والأمم المسيحية التى انتزعت الأندلس الإسلامية وأجلت المسلمين من وطنهم العربى الإسلامى ، وكان سقوط غرناطة وأوج الدولة العثمانية فى عهد سليمان القانونى حادثين فى عصر واحد ، ونكب العالم الإسلامى ونكبت بغداد بغارة التتار وانطمست معالم الحضارة الإسلامية وزلزل المسلمون شديداً ولكن فى نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة فى الهند تتسع وتزدهر ، وأصيب العالم الإسلامى بهزات عنيفة وقواصم مؤلمة فى فجر هذا القرن المسيحى على أيدى الأوربيين ، فقد اقتسمت الدول الأوربية تراث الدولة العثمانية كمال سائب واغتصبت ممتلكاتها فى إفريقية وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق ، ولكن تبع هذا كله اليقظة الإسلامية الهائلة والوعى السياسى القوى

والطموح إلى الاستقلال والحرية والحركات الإسلامية المختلفة التى كان يجيش بها العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ونكب المسلمون فى العهد الأخير نكبات عظيمة فى الشرق الأقصى والأوسط ، وخسرت الدول العربية فلسطين العربية الإسلامية ولكن فى نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان فتيتان فى ، الشرق إحداهما دولة باكستان والأخرى أندونسيا ، وهكذا لم يزل التاريخ الإسلامى متأرجحاً بين الأسفل والأعلى فما تسفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر كالأرجوحة تماماً ، ولم تتوار شمسه فى أفق إلا وبزغت فى أفق آخر . وذلك لأن الإسلام رسالة الله الأخيرة التى لا رسالة بعدها والمسلمون هم الأمة الأخيرة التى لا أمة بعدهم ، فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة — وإذا هلكوا فقد غرقت السفينة التى تحمل الذخيرة .

المسلم هو المنافس الوحيد والخطر الدائم على الباطل :

لذلك لم يزل الباطل يعتبر المسلم المنافس الوحيد والمصارع الشديد لنظامه ووكلائه يحسبون له كل حساب ويتربصون به الدوائر ولا يعدلون بهخطراً من الأخطار ولا يهدأ لهم خاطر ولا يقر لهم قرار ، وهم ينادون بلسان الحال ، « لا نجونا إن نجا الإسلام ولا عشنا إن عاش المسلمون وقد وصف محمد إقبال قصيدته البديعة « برلمان إبليس » فى ديوانه الأخير أرمغان حجاز يعنى « هدية الحجاز » وذكر خطورة الإسلام فى إبليس وجنوده وأنا أنقل هنا ترجمته من كتابى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

« إن الشياطين و زملاء إبليس وأعوانه — اجتمعوا فى مجلس شورى وتباحثوا فى سير العالم وأخطار الغد وفتنه وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسى ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا فى فتن وأخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم وجللوا خطبها وتناذروا شرها فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حساباً كبيراً فقال الثانى : لا يهولنك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهورى إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها فألهيناه بلعبة الجمهورية وليس الشأن فى الأمير والملك ، إن الملوكية لا تنحصر فى وجود شخص ترتكز فيها الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالا على غيره مستشرفاً إلى

متاع غيره سواء فى ذلك الشعب والفرد، أما رأيت نظام الغرب — الجمهورى وجهه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم فى هذه الفتنة الدهماء التى أثارها هذا اليهودى الذى يدعى «كارل ماركس» ذلك الباقعة الذى ليس نبيًا ولكنه يحمل عند أتباعه كتابًا مقدسًا هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده وأثار العبيد على السادة ، حتى تزعزعت مبانى الأوارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطبا رئيس المجلس : ياصاحب الفخامة إن سحرة أوربا وإن كانوا مريديك المخلصين ولكنى لم أعد أثق بفراستهم ، ها هو السامرى اليهودى الذى هو نسخة من «مزدك» (الزعيم الفارسى الاشتراكى) قد كاد يأتى على العالم بقواعده فاستنسر البغاث وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحًا) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية وهاهى قد استفحلت وتفاقم شرها وهاهى الأرض ترجف بهول فتنة الغد، ياسيدى إن العالم الذى كنت تحكمه سينقض عليك وينقلب نظام العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيس المجلس « إبليس » وقال : إنى أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء وسيرى العالم عجبًا إذا حرشت بين الأمم فتهارشت تهارش الكلاب وافترس بعضها بعضًا فعل الذئاب وإذا همست فى آذان القادة السياسيين وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية فكونوا على ثقة أن الخرق الذى أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفأه المنطق المزدكى (يعنى الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفنى هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفًا فإنى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها ولايزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد

اتخذت القرآن مهجوراً وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر وأن — علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التى تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنى أحذركم وأنذركم من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، حامى الذمار حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف دين الأمانة والعفاف دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغى كل نوع من أنواع الرق ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين فى أموالهم ، أمناء لله وكلاء على الأموال ، وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين فى عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلاطين .

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ولينهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه فخير لنا أن يظل مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطيء سحره اشغلوه يا إخوانى عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان فى العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره ، زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، ياويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التى يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه » .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلاً نجح شياطين الإنس والجن فى مهمتهم وكانت مؤامرة مبيتة ضد الإسلام وخطة منظمة ضد أجياله القادمة فأكبر ما اهتموا به هو إطفاء الجمرة الإيمانية التى لا تزال كامنة فى الرماد وتجريد المسلمين فى بلاد العرب والعجم من الحمية الدينية

والعاطفية الإسـلامية التى تحمل أصحابها على التضحية والجهاد وتحمل الشدائد والمكاره فى سبيل الله والثورة على الباطل وقد أوصى بذلك إبليس أشياعة وجنده ، يقول محمد إقبال فى قصيدة عنوانها « وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين » « إن هذا المجاهد الذى يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حسابًا ، أخرجوا روح محمد صلى الله عليه وسلم من جسمه ، فيصبح قليل الصبر ، جزوعاً من الفقر شديد الخوف من الموت ، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربية وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الدينى تتمكنون بذلك من إجلاء الإسلام من الحجاز واليمن ، إن فى الأفغان غيرة دينية وعلاجها أن تنفو العالم الدينى من جبالها وسهولها .

وكان من أقرب الطرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليم الذى يجرد الشباب — المسلم من الروح الدينى والعواطف الإسلامية والعقلية الإسلامية وينشىء فيه طبيعة النفعية والأبيقورية وطبيعة التهام الحياة وانتهاب المسرات وتقديس المادة ورجالها وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك وضعف الثقة بالنفس والشك فى الدين ، لذلك يرى شاعر هندى آخر اسمه أكبر الإله آبادى أن فرعون مصر أخطأ الرمية وجانبه التوفيق فى تحقيق فكرة القضاء على بنى إسرائيل فقد التجأ فى قتلهم وإبادتهم إلى طرق سافرة ألصقت به العار وأثارت عليه اللعنات ، فكان يقتل أبنائهم ويستحيى نساءهم ، ليأمن ثورة بنى إسرائيل وغائلتهم فى المستقبل ، ولو أنه رزق شيئاً من الابتكار وبعد النظر ودقة التفكير لاكتفى بتأسيس كلية لبنى إسرائيل ينشىء الجيل الإسرائيلى الجديد كما يشاء ويسبك العقول والطبائع سبكـًا جديداً لا يدع إمكانا لنشىء شاب مثقف يشعر الشعور الدينى ويحمل العاطفة الدينية والغيرة القومية ويهتم بشىء آخر غير الوظائف والمناصب والمرتبات والدرجات لو أن فرعون وفق لهذا المشروع لتفادى من هذه المتاعب وسوء الأحدوثة ووصل إلى غايته فى سهولة ويسر وهدوء وسلام وزيادة على ذلك اشتهر فى الناس بلقب « حامى العلم » و« مربى الجيل » وناشر الثقافة والتعليم فى الشعب .

نجاح أنصار الباطل فى إضعاف الروح الدينى :

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل

قد نجحوا نجاحًا كبيراً فى فكرتهم وجهودهم فضعف الشعور الدينى فى بلاد الإسلام وخمدت جذوة الإيمان وفقدت البطولة الإسلامية وروح الجهاد وفشت النفعية وجمحت المادية ، يقول الشاعر وقد ساح فى كثير من البلاد الإسلامية والعربية « لقد تجولت فى بلاد العرب والعجم فرأيت خلفاء أبى لهب كثيرين تفيض بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد صلى الله عليه وسلم نادراً كالكبريت الأحمر والعنقاء والمغرب ، ويقول فى قصيدة قالها فى فلسطين « لا أرى فى بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التى كان يمتاز بها العرب ولا فى بلاد العجم ذلك السمو الفكرى الذى كان يمتاز به العجم ، ولا تزال دجلة والفرات متعطشين إلى بطل من أبطال الإسلام ولكنى لا أرى فى قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين ».

يشعر محمد إقبال بهذا التدهور الذى وقع فى حياة المسلمين ويتألم لذلك أشد الألم ويبكى دماً وشعره يفيض بهذه الأنات والدموع . يقول فى أبيات « ياوارث التوحيد الإسلامى لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحد ارتعد فرقًا منك وطار قلبه شعاعًا وقد أصبحت اليوم كسائر الناس لا تحمل روحاً ولا تجذب نفوساً ، ويقول فى موضع آخر « إن السجدة التى كانت تهتز لها روح الأرض لقد طال عهد المحراب بها واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع فى مصر ولا فى فلسطين ذلك الأذان الذى ارتعشت له الجبال بالأمس ، ويقول فى بيت « لقد فقد المسلم لوعة القلب وانطفأت نار الحياة فيه فأصبح ركاماً من تراب ، ويقول » لم أر فى محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة وقد بحثت عنها موجة موجة وتفقّدتها صدفة صدفة ، ويرى محمد إقبال أن مصدر هذا التدهور هو القلب الذى خوى من الإيمان وشعلة الحياة يقول « لقد فقد المسلمون سورة الحب الصادق ونزفهم دم الحياة ، فأصبحوا هيكلا من عظام لا روح فيه ولا دم الصفوف زائغة والقلوب مضطربة والسجدة لا لذة فيها . ذلك لأن القلب خال من الحنان » .

اليقظة الإسلامية :

هذا ولكن محمد إقبال يعتقد أن

الصدمات السياسية التى أصيب بها العالم الإسلامى أقضت مضجع المسلمين وأيقظتهم ودب فيهم دبيب الحياة ، يقول فى قصيدته البليغة «طلوع الإسلام» إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تخفق فاعلم أن الفجر قريب ، هاهى الشمس قد ذر قرنها من الأفق وولى الليل على أدباره ، إن عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام فإنما تتكون اللآلى فى البحر المتلاطم الهائج ، لقد دب دبيب الحياة فى الشرق وجرى الدم الفائر فى عروقه الميتة وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابى . إن المسلم سيمنح من الله الأبهة التركية والذكاء الهندى والنطق العربى ويقول فى بيت « إن إقبال ليس يائساً من تربته الحقيرة فإنها إذا سقيت أتت بحاصل كبير » .

المسلم هو بانى العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ونثرت كنانتها وقد شاخت وهرمت وأينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وأن العالم القديم الذى حوّله مقامرو الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهار قريباً والإنسانية تتمخض بعالم جديد ويعتقد محمد إقبال أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيت الحرام وورث إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام فى قيادة العالم وإرشاده فيهيب محمد إقبال بهذا المسلم النائم وينشده بالله أن يقوم ويمسح النوم من عينيه فقد ظهر الفساد فى البر والبحر وعاث الأوربيون فى الأرض وأفسدوا فيها بعد إصلاحها وخربوا العالم وملئوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ولكن الأوربيين قد حولوها إلى خمارة ، وبيت الفسق والدعارة ومكان النهب والغارة ، وقد آن لبانى البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوربيون ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ويبنى العالم من جديد . . .

أبو الحسن الندوى

إلى أين يتجه الإسلام والمسلمون .. ؟

العلامة أبو الأعلى المودودي

من الطريف فى الأمر أن العنوان الذى اختير للبحث الذى نحن فيه اليوم وضع باللغة الإنكليزية : (ISLAM TO DAY) بينما اللغة التى اختيرت للتحدث عنه كانت الأردية . ولذلك ، قبل أن أدخل فى صلب الموضوع أريد أن أحدّد فحواه ، وأبيّن ما هو مدى نطاق البحث فيه ، وما هى النواحى التى تدخل فيه والتى لا تدخل فيه .

« الإسلام المعاصر » (ISLAM TO DAY) : هذا العنوان إذا أخذناه بمدلوله الإنجليزى أى المفهوم الذى يعبر عنه أهل الغرب لهذا العنوان فيكون معناه : « المسلمون المعاصرون » إذ أن أهل الغرب كثيراً ما يخلطون « الإســلام » بـ « المسلم » فيستخدمون كلمة « الإسلام » حيث تستخدم كلمة « المســلم » ويصفون « المسلم » بما يوصف به « الإسلام » ولذلك يجب علينا قبل كل شىء أن نبعد عن أذهاننا المفهوم الخاطىء لهذا العنوان ونؤكد أنه لا يصح تفسير « الإسلام المعاصر » بواقع المسلمين فى الوقت الحاضر . وهناك مفهوم آخر لهذا العنوان يساور الأذهان وهو « إسلام العصر الحاضر » ، وبهذا المعنى يصبح هذا العنوان أيضًا كلاماً فارغًا واسمًا لا مسمى له . لأن الإسلام لا يختص « بالماضى » أو « بالحاضر » . بل إن الإسلام حقيقة خالدة أبدية ظلت ناصعة بديهية إلى ما قبل بلايين السنين وستظل فى نفس النصاعة والبداهة ما دامت السماوات والأرض . كان من الحقيقة التى لا تقبل النقض ، قبل بلايين السنين ، أن إله هذا الكون واحد لا شريك له وسيكون كذلك من الحقيقة المبرهنة بعد بلايين السنين أن ليس لهذا الكون إلا إله واحد . ومن الحقيقة الخالدة أن ليس للمخلوق من مناص إلا أن يعبد الخالق ويخضع له ، فحيثما وجد المخلوق يتحتّم عليه اتباع طريق العبودية والخضوع والإخبات

للخالق . ومن ثم لا ينشأ السؤال عن كون الإسلام متقيداً بقيود الأزمان من الأمس واليوم والماضى والحاضر والمستقبل.

إذن فليس لهذا العنوان إلا مفهومان اثنان لا ثالث لهما :

الأول : ما هو السلوك الذى يتبعه المسلمون تجاه الإسلام وما هو الموقف الذى يقفون منه فى الوقت الحاضر ، وما هو مدى تأثير الإسلام فى حياتهم الواقعية ؟

والثانى : هل من المحتمل أن تعود البشرية اليوم إلى الإسلام وتسترشد بهديه أم أن هذا احتمال بعيد المنال ؟ إذا كان الجواب بنعم فكيف يكون ذلك . وإذا بالغ أحد فى تفسير هذا العنوان فله أن يقول مضافا إلى التفسير الثانى :

– هل الإسلام صالح للتطبيق فى الزمان الحاضر أم لا ؟

هذان هما السؤالان اللذان يتضمنهما العنوان المطروح وسأتحدث إليكم بما يجول فى خاطرى فيما يتعلق بهذين . السؤالين . وذلك بقدر ما يتسع لى المجال فى هذا المقام ، داعياً المولى الكريم أن يهدينى إلى سواء السبيل .

المراحل التى اجتازتها الأمة الإسلامية

– فيما يتعلق بموقف المسلمين من الإسلام أو بالسلوك الذى يختارونه نحو الإسلام ، وبمدى تأثير الإسلام فى حياتهم الواقعية فى الوقت الحاضر فلا بد لإدراك كل ذلك من أن نلقى نظرة عابرة على « الإسلام فى الزمن الماضى» قبل أن تتناول « الإسلام فى الزمن الحاضر» . إذ أن الذى نحن عليه اليوم إنما هو حصيلة ما كنا عليه فى الأمس . ولا نحصد اليوم إلا ما زرعناه بالأمس . والذى سنكون عليه فى المستقبل سيتمخض عما نأتى به اليوم ونزرعه . وبحكم هذا المنطق إذا أردنا أن نعرف موقف المسلمين اليوم من الإسلام بدقة وإمعان لابد لنا من أن نتعمق فى الموقف الذى اتخذه المسلمون من الإسلام فى فى الأمس الدابر . ومنه نعرف الجذور التاريخية التى يقوم عليها موقفنا الحاضر – كما نستطيع خلال هذه الدراسة أن نحدد الملامح التى سوف تسود موقف المسلمين من الإسلام فى المستقبل . وانطلاقاً من وجهة النظر هذه – إذا استعرضنا تاريخنا وقلبنا صفحاته يتجلى لنا أن مسيرة الأمة الإسلامية اجتازت ثلاث مراحل من تاريخها ودخلت اليوم فى المرحلة الرابعة .

المرحلة الأولى المثالية من مراحل التاريخ الإسلامى

بدء المسيرة الإسلامية :

ابتدأت أولى مراحل تاريخنا ببزوغ فجر الإسلام فى مكة حين بعث الله تعالى رجلا من أهلها ، وأمره أن يشيد صرح الحياة الإنسانية على أُسس من توحيد الله والإيمان بالآخرة واتباع الرسالة الإلهية . وأن هذا الرجل العظيم ظل يعرض دعوته على خلق الله فى مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة متوالية . ولم يكتف بعرض دعوته بلسانه فقط . بل كانت دعوته متجسدة فى حياته الشخصية متمثلة فى كل عمل من أعماله وكل موقف من مواقفه فى الحياة الاجتماعية مصورة الإنسان المثالى الذى ينشده الإسلام ، والأخلاق السامية التى يصنعها الإسلام ، والسيرة التى يتوخاها الإسلام ، والسلوك الذى يجب أن يكون عليه فى الحياة الدنيا كل من رضى بالله ربًّا وبالإسلام دينا . وكل ما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إليه كان يتجلى فى حياته العملية واقعا حيًّا ملموسا .

وقد عاضده صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ مهمته — بعد أن سمع دعوته من لسانه ورآها حقيقة متمثلة فى واقع حياته — ناس آمنوا بدعوته بكل تجرد ونزاهة وفهم ووعى . ولم ينضم أحد إلى دعوته — صلى الله عليه وسلم — عن جهل وعمًى وعـــدم تفهم لحقيقتها ومتطلباتها ، بل لم يعتنقها إلا وهو شاعر بجلالة الدعوة وضخامة مسؤوليتها . وسرعان ما أفرغ حياته فى نفس القالب الذى كانت تريده هذه الدعوة .

والذين قد دخلوا فى دين الله هذه الفترة ، التى امتدت إلى ثلاث عشرة سنة حدث فعلا فى حياة كل فرد منهم انقلاب رائع كان الإسلام يستهدف إحداثه فى حياة البشر . ثم لم يقف الأمر عند ظهور هذا الانقلاب فى نفوسهم فحسب ، بل جعلهم يكافحون بحماس واندفاع بالغين كل قوة من القوى الداخلية والخارجية التى أصبحت حجراً عثرة فى سبيل امتداد المسيرة الإسلامية وإسعاد البشرية ببركاتها وخيراتها فإن رأيت ثم رأيتهم يقومون بأكبر تضحية يمكن لرجل أن يأتى بها فى سبيل مبدأ من المبادئ . أنهم تكبدوا أفدح الخسائر المادية برحابة الصدر وارتياح النفس لأن أعظم قيمة من قيم الحياة الدنيا وأسماها فى أعينهم هى ما نالوها

بفضل الإسلام . فلم يرتضوا التنازل عنها مقابل أى شيء ، واستعدوا لأن يضحوا بعدها بكل شيء فى الدنيا . بل فوق ذلك فجر الإيمان فيهم عاطفة دافقة لجعل العقيدة التى آمنوا بها تسود الدنيا وتحكمها . وصمموا على تحطيم كل احتمال لتغلب نظرية من النظريات الباطلة عليهم ولو اقتضى الأمر إلى التضحية بالنفس والنفائس فى هذا السبيل .

تأسيس الدول الإسلامية :

وهكذا ، فإن الفئة القليلة من المجاهدين المستميتين التى أعدها الرسول عليه الصلاة والسلام وشملها بتربيته الربانية فى خلال مدة ثلاثة عشر عاماً فى مكة المكرمة قد انتقل بها إلى يثرب (المدينة المنورة) وأنشـأ فيها دولة إسلامية صغيرة جداً كانت مساحتها لا تزيد عن مساحة قرية صغيرة من قرى بلادكم ، وكان سكانها لايتجاوزون ستة أو سبعة آلاف نفس . فقد قامت فى هذه القرية الصغيرة دولة جعلت تتحدى الجزيرة العربيـة برمتها . والذى يدعو إلى العجب ويأخذ باللب هو أن تكون الجزيرة العربية الواسعة الأكناف الشاسعة الأرجاء فى طرف وتكون هذه الدولة الصغيرة الناشئة فى الطرف المقابل فى هذه المعركة . ومع ذلك شرع النبى صلى الله عليه وسلم فى تكوين مجتمع بشرى فذ يختلف بحذافيره عن المجتمع الجاهلى آنذاك واستطاع فى سنوات قليلة إعداد ، نموذج حضارى رفيع ، وعرضه على عالم العرب ، وأتاح بذلك لكل رجل أن يشاهد — إذا شاء — بأم عينيه القالب الذى يريد الإسلام إفراغ الحضارة البشرية فيه ، ويتبين الروح الخلقية الذى يستهدف بعثها فيها .

إن العدل الذى دعا إليه الإسلام أقيم فعلا فى تلك الدولة ، وإن المجتمع النزيه الذى يود الإسلام إنشاء ، أنشىء فيها فعلا وصار واقعاً ملموساً ماثلا للعيون . وإن الإصلاح الذى يتوخاه الإسلام فى الحياة الاقتصادية وُضعَ فعلا موضع التنفيذ فيها . وهكذا فإن كل ما كان يدعو إليه الإسلام ويطلبه من الناس أبرزه النبى صلى الله عليه وسلم إلى حيز الوجود وجسّمه فى واقع الحياة ، لكى لا يكون إيمان الناس بالإسلام مقتصراً على ما سمعوه من لسانه بل يرون بأعينهم : ما هو الإسلام ، وما هى بركاته وما هو الطريق لتطبيقه وجعله واقعاً حياً .

ومن أروع معجزات التاريخ البشرى أن الدولة التى أنشئت فى قرية صغيرة من قرى العرب — والتى كانت عبارة عن بضعة أميال مربعة فى مساحتها، وعن بضعة آلاف نفس فى سكانها — استطاعت أن تبسط سلطان الله فى أكناف جزيرة العرب فى غضون ثمانى سنوات فقط. إنها فى هذه المدة القصيرة غزت رقعة من الأرض كانت تحتوى على مليون ميل مربع فأكثر. وكان من بدائع هذا الفتح أن لم يصبح الناس مستسلمين للسلطان السياسى لهذه الدولة فحسب، بل انقلبت بسببه نظراتهم إلى الإشياء رأساً على عقب، وتغيرت مقاييسهم للقيم، وتبدلت أخلاقهم وخصالهم ظهراً لبطن وحصل انقلاب جذرى فى عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية وطرأت على حضارتهم ومدنيتهم ثورة لم تغير وجهة تاريخهم فحسب، بل غيرت مجرى تاريخ العالم بأسره. فانتهج الناس أفراداً وجماعات أسلوباً جديداً للتفكير ونمطاً جديداً من السلوك وغاية جديدة للحياة حرموها منذ مئات القرون فى تاريخهم.

وكان بحسب النبى صلى الله عليه وسلم أن يقضى على الفوضى السياسية التى أنشبت أظفارها فى الجزيرة من القرون المتطاولة، ثم يخضعها لنظام سياسى موحد فكيف وهو قد حقق مايفوق ذلك آلاف المرات: حقق تلك الثورة الشاملة التى لم يشهد لها تاريخ مثلا: ثورة فى التفكير، ثورة فى الأخلاق، ثورة فى الحضارة، ثورة فى المدنية. ومما يدعو إلى الأسف أن النهج الخاطىء لتدوين التاريخ قد تناولت هذه الثورة الكبرى كأنها قامت نتيجة الغزوات فقط. وجاء المستشرقون الغربيون يصرخون ملء الفم:

« إن الإسلام لم ينتشر إلا بقوة السيف مع أن جميع الغزوات والمعارك التى اضطرمت نيرانها فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم تكاد لا يتجاوز قتلاها من الطرفين ألفاً وأربعمائة نفس. وعلى من عنده مسحة من العقل أن يتأمل فيما إذا كان من الممكن أن تحدث ثورة كهذه بقوة السيف على هذا القدر الضئيل من الدماء؟

سر نجاح هذه الدعوة فى مدة قليلة:

إن السبب الحقيقى لحدوث هذه الثورة الكبرى هو غير ما قيل ويقال:

لما كان النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة يدعو إلى الإسلام ويعرضه على المشركين لم يدرك إلا القليلون منهم ما كانت تحمل هذه الدعوة فى أحشائها من الطاقة الهائلة . ولم يفطن إليها إلا الذين كانوا على رصيد كبير من الذكاء والفطنة وكانوا من أصحاب الذهن الوقاد والبصيرة النافذة ، وكانوا يتمتعون بالقابلية التى استطاعوا معها أن يسموا بأنفسهم عن حمأة العصبيات الجاهلية ليعرفوا الحق فيؤمنوا به – لكونه حقًا وصدقًا – ويتبعوه فى حياتهم الواقعية ، ويقوموا برفع لوائه ونشره فى العالم مهما غلا الثمن وعظمت التضحية .

ولما برزت إلى حيز الوجود جماعة هذه سماتها وتلك عزائمها شرع النبى صلى الله عليه وسلم على سواء ببناء مجتمع إسلامى منشود ، وبعد أن تولى زمام دولته الإسلامية المستقلة أخذ يطبق هذا المجتمع ما أوحاه الله إليه من خطة إصلاحية للحياة الإنسانية وما للأوضاع القائمة والظروف السائدة آنذاك إزاء هذه الخطة إلا أن تتبدد بين عشية وضحاها .

وأخيراً شاهدت الدنيا بأم أعينها نتائج هذه الجهود وصاحت قائلة : ما أتم السلام فى هذا المجتمع وما أرسخ قواعد الصلاح وخشية الله فى قلوب أهله ! . وما أعم ظواهر الصدق والإيمان فيه ! وما أنظف العدل فيه ! وما أبعد الفوارق الطبقية فيه ! وما أبرز المساواة والأخوة فيه! وما أطهر الحياة الاقتصادية فيه من المعضلات والتعقيدات والنقائص! وما أجمل الحياة الاجتماعية فيه وأطهرها من الأوساخ الخلقية ! .

وما استطاع إزاء ذلك من وهبهم الله عيونًا مبصرة أن ينكروا ذلك النور الساطع الذى كانوا يرونه يملأ الدنيا ضياء وسعادة ، ولا سيما أنهم كانوا قد خبروا عصر الجاهلية وجنوا حنظلها المر ، ذلك العصر الذى كان الإنسان فيه يبتلع الإنسان ، وكانت حوادث القتل والنهب والسلب والإغارة من الأمور العادية ، وكان الناس غارقين فى إدمان الخمر والزنا والقمار والسرقة وقطع الطريق ، وما إلى ذلك من الرذائل الخلقية حتى أنوفهم . ولكنهم أصبحوا يشهدون الآن تلك القناديل النورانية من السلام والعدل والصلاح والشرف والنزاهة والسمو تملأ أرجاء الدولة الإسلامية ضياء وبهاء ، وتضفى عليها

حللا قشيبة من الجمال والنضرة . ولم يبق بعد ذلك إلا نزر يسير ممن غشيت أبصارهم لم تعجبهم إلا ظلمات الجاهلية كالخفاش الذى لا ينظر إلا فى الظلام وغير هؤلاء الشذاذ آمن بصدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم فى نهاية المطاف جميع من كانوا يضعون العراقيل فى طريقه وكانوا يقاتلونه أعنف المقاتلة : آمن به خالد بن الوليد ، وخضع له عكرمة بن أبى جهل ، واعترف بدعوته عمرو بن العاص ، حتى أنا أبا سفيان وزوجته هند : آكلة كبد حمزة أعلنا بأن الدعوة التى تؤتى هذا النوع من الثمار لا تكون إلا دعوة حق وصدق . وذلك لأنهم رأوا الحق متلألئاً فى واقع الحياة أمامهم . ولم يعد الإسلام فكرة مجردة معروضة عليهم فى شكل دعوة جوفاء بل أصبح يتفاعل فى الحياة الإنسانية ويؤتى ثمراته الحلوة نتائجه الشهية فى الواقع الملموس .

ومن حصيلة هذه الثورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كون أمة بكاملها كانت ترجمة حية للإسلام : كانت عقائدها وأفكارها ونظرياتها مشبعة بالإسلام وكان الدين الذى اعتنقته لا تشوبه شائبة من العبودية لغير الله الواحد الصمد . وكان سلوكها الفردى وأخلاقها الاجتماعية قد صيغت فى قالب الإسلام بعد أن تطهرت من نتن الجاهلية وعفونتها ، وكانت الحضارة والمدنية اللتان رفعت لواءها تفسيراً حياً للإسلام ، وكان نظام دولتها يسير وفق قانون الإسلام . إن هذه الأمة قررت ألا تحيا إلا لأجل الإسلام ، ولا تموت إلا فى سبيله . وقد اتخذت إعلاء كلمة الله فى الأرض شعارها القومى . وكان من مبادئها الأساسية تشييد صرح الحياة الإنسانية على دعائم الإسلام فى كل بقعة تخضع لسلطانها ، ومتابعة نشر دعوة الإسلام فيما لا يخضع لسلطانها من البقاع . وهكذا تهيأت فى العالم الأمة المتكاملة العناصر التى تطبق الإسلام فى حياتها الواقعية وتستهدف نشره على وجه الأرض كجزء من أجزاء مهمته القومية . كما أن الدولة بعناصرها الشاملة قد برزت إلى مسرح الوجود وكان الإسلام متجسداً فى نظامها الداخلى بجميع مبادئها وأسسها فى جانب ، وفى الجانب الآخر رفعت لواء الإسلام فى أدنى الأرض وأقصاها .

انتشار الإسلام فى العالم :

وبعد أن قامت فى الدنيا أمة هذه

سماتها وخلالها وتأسست دولة هذه خصائصها ومزاياها بدأ الإسلام ينتشر فى أرجاء الدنيا فى عصر الخلافة الراشدة بسرعة وصفت فى التاريخ بكلمة «الانفجار» أى مثل السرعة الهائلة التى أخذ بها الإسلام فى الانتشار والازدهار كمثل انفجار المتفجرات . ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى امتدت السيرة الإســلامية من بلاد الأفغان والتركستان شرقًا إلى أفريقية الشمالية غربًا . ونتيجة أى شيء كان هذا الانفجار الرائع يا ترى ! ؟ . ولكم أن تذهبوا إلى جزيرة العرب اليوم لتنظروا كم نسبة العمالقة فيها، وما هى مصادر الثروة المادية فى هذه الجزيرة ؟ دعوا البترول فإنه لم يكتشف إلا مؤخراً . ماذا فيها من الوسائل المادية بعد البترول؟ وانظروا كذلك إلى عددهم : يكاد لا يزيد عددهم فى جزيرة العرب بأسرها على عشرة ملايين من النفوس ومن المؤكد إن كان عددهم فى عصر الخلافة الراشدة أقل بكثير من هذا . فهيمنة شعب كهذا ، على هذا القدر من المساحة الأرضية ، وبهذه الصورة الفجائية لم تكن فى الواقع حصيلة تفوقه على غيره فى القوة المادية ، بل السبب الذى مكنه لإخضاع رقاب العالم كله يكمن فى ذلك السلوك الرائع الفريد الذى سلكه كل فرد من المسلمين بصفته الفردية والأمة الإسلامية بصفتها الجماعية فى الصلح ، والحرب ، وإدارة البلاد المفتوحة ، وحسن المعاملة مع شعوبها .

إن الذين عاشوا تحت الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومية كرعايا لم يكونوا يتصورون ، بله أن يشهدوا . ذلك النوع الفريد من الولاة الذين يمشون على الأقدام فى الشوارع . يعيشون عيشة عامة السكان ، ويتركون أبوابهم مفتوحة على مصراعيها فى وجه كل من مسته الحاجة ، ويضع يده فى عنقهم كل من دهمته الداهية ليطلب منهم إزالة شكواه . إن سكان فارس والروم ما رأوا هذا النمط الرائع من الحكام فى الأحلام فضلا عن أن يروه فى اليقظة . بل لم يدر بخلدهم احتمال وجود هذا النوع الفريد من رجال الحكم والإدارة . إلا أنه لما دخل النظام الإسلامى بسموه ونظافته أرض هذه البلدان ، وقدم لسكانها هذا النوع من الولاة فمن ذا عسى أن يكون منهم من يمنعه التعصب الأعمى من أن لا يعترف بهذا التفوق الخلقى والسمو الإنسانى

اللذين يتفرد بها الإسلام اللهم إلا شرذمة قليلة طمس الباطل معالم فطرتها وعميت أبصارها عن رؤية الحق .

ومن النماذج الرائعة فى السمو الخلقى الذى عرضته الجنود الإسلامية على الدنيا أنها كانت تدخل مدينة تفتحها ، وتجوب فى شوارعها ونساء هذه المدينة واقفات فى الشرفات فى أبهى ثياب التبرج والإغراء يتطلعون إلى المواكب . ولم يحاول جندى من هؤلاء الجنود البواسل أن يرفع رأسه وينظر إليهن ولو بنظرة عابرة . تقطع المواكب الشوارع بدون أن تعلم ما إذا كان هناك من النساء يطللن عليها من الشرفات . الأمر الذى كان يختلف تماما عما جربته تلك الأمم المغلوبة من ويلات الغزاة فيما خلت من القرون ، وما تناقله الناس من القصص والحكايات عن الأمم الغازية . إذ كان من السنة المتبعة أنه كلما وطىء الغزاة أرض قوم عاثوا فيها فساداً ، ولم يتركوا عرض امرأة إلا وانتهكوه وارتكبوا معها الفظائع ، فبعد هذه المواقف الفذة مع أهالى البلاد المفتوحة كيف كان من الممكن أن لا تكسب الجيوش الإسلامية قلوبها : الجيوش التى تكتسح المناطق بدون أن تنتهك حرمة أحد أو تمس بكرامة أحد .

وكذلك من روائع الأخلاق التى تقدم بها هؤلاء الفاتحون الربانيون الجدد أمام الدنيا أنهم إذا اضطروا إلى سحب جيوشهم من منطقة من المناطق المفتوحة أعادوا إلى أهاليها كل ما أخذوه منهم من الضرائب والأموال لدعم الأمن فيها قائلين : إن هذه الضرائب إنما أخذناها منكم للقيام بواجب حراستكم إلا أننا اضطررنا للانسحاب ، ولا نتمكن من القيام بهذه المسئولية فهذه بضاعتكم ردت إليكم . هذا فى الوقت الذى لم يكن الناس يعرفون من الغزاة إلا الذين إذا اضطروا للجلاء من بلد من البلدان المحتلة فبدلا من أن يردوا إلى أهاليها ما كانوا جلبوه منهم من الأموال كانوا ينهبون ما تبقى عندهم من الأموال فلم يكن أحد من الناس يتوقع من الحكام والولاة أن يحتذوا ما عرف عن أنبياء الله وأوليائه من السجايا والفضائل ، ويحتلوا هذه المكانة السامية من الأمانة والنزاهة حتى فى مجال السياسة والحكم .

هذه هى الطاقة الهائلة التى كان يتمتع بها المسلمون فى صدر الإسلام

فغزوا بفضلها القسم الأكبر من العالم . ومن الحقيقة التى لا يكابر فيها أحد أن الذى حققته أخلاقهم السامية وسلوكهم النزيه من المعجزات لا يقارن بما أنجزته سيوفهم . لأن من اعتنق منهم الإسلام اعتنقه بعد إدراكه الكامل لحقيقته ومقتضياته، ثم صاغ فيه شخصيته وسيرته وسلوكه، ولذلك أيما عمل قاموا به مثّلوا فيه الإسلام بكامل أوجهه . وبهذه الخاصية الربانية لم تستطع أية قوة فى العالم أن تصمد فى وجههم . وكان يسبق تأثير أخلاقهم فى قلوب الناس مضاء سيوفهم فى عنقهم، ولهذا السبب نفسه نرى أن الأقطار التى فتحوها لم يكتف سكانها بالخضوع لقوتهم السياسية بل أصبحوا من المولعين بهم والمريدين لهم: اعتنقوا دينهم، واتبعوا حضارتهم، وارتضوا لغتهم . وهاهى الأقطار التى فتحها المسلمون الأوائل ما زال سكانها يعتبرونهم على مدار التاريخ أبطالهم وروادهم، ولا يحبون أن يرجعوا بأواصرهم إلى أسلافهم الكافرين أو ينسبوا إليهم ماضيهم التليد. فهل لسيف أن يحقق هذه المعجزة فى العالم ؟ ! !

هذه هى المرحلة الأولى من مراحل التاريخ الإسلامى . ولا أريد فى هذا المقام سرد المعلومات التفصيلية عن هذه المرحلة . وإنما الذى يهمنى أن أؤكد لكم أن الإسلام إذا تمكن من بسط سلطانه المدهش على القسم الأكبر من العالم لم يتمكن من ذلك إلا لأجل أن الأمة بكاملها قد آمنت بالإسلام إيماناً صادقاً وتمسكت به بعزيمة ماضية وتفهم صادق وإخلاص عميق وصار نور الإسلام يتلألأ فى سلوك أفرادها الفردى والجماعى بمنتهى النصوع والكمال . وقد برزت إلى الوجود دولة تبنت الإسلام هدفاً رئيسياً لها، وهبت تستنفد كل ما تملك من الوسائل والإمكانيات لتغليب كلمته فى العالم . وهكذا تيسرت للإسلام فى أولى مراحله حركة مستميتة قوية مازالت آثارها فى التاريخ واضحة المعالم جلية الملامح حتى اليوم وبعد مرور ثلاثة عشر قرنا على إنشائها . وتستطيعون أن تشاهدوا مع هذه الحالة التعيسة التى تدنت إليها الأمة الإسلامية آثار الطابع الذى انطبعت به الأمة الإسلامية فى أولى مراحل تاريخها .

إن أى فرد من المسلمين مهما فسد أمره وساءت أخلاقه إذا استشففت ذات نفسه وجسست نبضه تعلم أنه لا يحن إلا إلى

نفس المجتمع المثالى الذى أسسه محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون . وهذا هو الهدف الذى يطمح إليه دائماً ولا يتناساه أبداً ، كأن هذا المجتمع شمس تشرق أمامه بنورها الساطع بصفة دائمة لا يدعها تغيب عن نظره . إن كل فرد من المسلمين يرى هذه المرحلة الذهبية نموذجا وقدوة ، ويولع بها لحد الغرام ، ويتمنى رؤيتها متمثلة فى الواقع مرة ثانية . وما انفك الإسلام يشع بنوره على العالم من عصر الخلافة الراشدة إلى هذا اليوم . ولم تبق صقعة من أصقاع العالم إلا قد تغلغلت إليه أشعته . وقد نال هذا الازدهار على رغم ما منيت به هذه الأمة من الأمراء المنغمسين فى حياة الترف والبذخ ، ونكبت بالطغاة والجبابرة ، ولم تعدم متعاطى المنكرات فى يوم من الأيام .

ولم تعد منذ مدة غير قصيرة أمة مثالية تحتذى ، وتنجذب إليها قلوب الناس . ولكن رغم كل ذلك لم تقف دعوة الإسلام من الانتشار . وليس مرجعه كون المسلمين على طريقة مثلى فى الحياة تستهوى الناس إلى دينهم ، بل الذين يعتنقون الإسلام من غير المسلمين لايعتنقونه إلا بعد أن يتأكدوا من أن الإسلام ليس الذى يتمثل فى واقع المسلمين وإنما الإسلام الحقيقى هو الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ثم إنما يوجد اليوم فى واقع المسلمين من بعض السمو والنظافة وجوانب الخير فى تفكيرهم وأعمالهم وسلوكهم وخلقهم فليس كل ذلك إلا البقية الباقية من الآثار التى تركها الإسلام فيهم ، لا تزال تعمل عملها على مرور أربعة عشر قرناً . وبكلمة أخرى إن المرحلة الأولى من تاريخنا كانت تبلغ من حيويتها درجة استحال معها أن يزول أثر طابعها على التاريخ .

الهجرة وآثارها وأنواعها وأحكامها

فضيلة الشيخ / مصطفى الحديدى الطير

قال الله تعالى :

(ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً) .

« سورة النساء الآية ١٠٠ »

البيان

الهجرة بكسر الهاء وضمها تطلق لغة على الخروج من أرض إلى أخرى ، كما تستعمل فى مطلق الترك كالهجْر ، وفى عرف الإسلام تطلق على الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان .

وقد أوجبها الله على المسلمين لما اشتدت فتنة المشركين لهم بمكة ، حماية لدينهم وعصمةً لأنفسهم ، وتوعَّدَ مَنْ لم يهاجر منهم بعذاب الجحيم إن كان قادراً عليها ، قال تعالى : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً[١]) واستثنى من هذا الوعيد من فقدوا الاستطاعة بقوله : (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً[٢]) ، وحرَم المقصرين الذين لم يهاجروا من ولاية المسلمين بقوله : (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من

(١) سورة النساء الآية ٩٧ .

(٢) سورة النساء الآيتان ٩٨ و ٩٩ .

ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير[1]) .

والله تعالى يرغبهم فى الهجرة بقوله: (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة) أى أنهم سيجدون فى أرض الله أماكن كثيرة صالحة للهجرة والاستيطان ، وسيجدون سعة فى الرزق، وأنَّ مَنْ أدركه الموت منهم فى أثناء الهجرة لله ورسوله، وقبل أن يصل إلى دار الهجرة التى أرادها لسلامة دينه ونفسه ، فإن أجره واقع على الله تعالى ومُدخَرٌ له عنده كما لو كانت هجرته قد بلغت غايتها وانتهت إلى مداها والمراغَم هو المكان الذى تحول إليه مهاجراً يبتغى المقام به ، مأخوذ من الرَّغام وهو التراب .

وخلاصة معنى الآية أن من يهاجر فى سبيل مرضاة الله تعالى، فلا يضق صدره بهجرة وطنه ، ولا ييئس من رزق الله ورحمته فى دار هجرته ، فإنه سيجد فى أرض الله تعالى أماكن كثيرة صالحة للاستيطان ، غزيرة الأرزاق .

وفسر السدِّى لفظ (المراغم) بقوله : هو مبتغى المعيشة ، وقال القرطبى : هو موضع المراغمة ، فكأن كفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة ، فلو هاجر منهم مهاجر لأرغم أنوف قريش — أى ألصقها بالرَّغام وهو التراب كما تقدم — لحصوله فى منعة منهم ، فتلك المنعة هى موضع المراغمة ، ومنه قول النابغة :

كطَوْد يُلاذ بأركانه
عزيز المراغَم والمهرب

وتفسير السعة بالبسطة فى الرزق مروى عن ابن عباس والربيع والضحاك ، أما قتادة فيفسرها بما يشمل الدين والدنيا إذ يقول : سعةٌ من الضلال إلى الهدى ، ومن العيْلة — أى الفقر — إلى الغنى ، وقال مالك: السعةُ سعةُ البلاد — وهذا المعنى أشبه بفصاحة العرب[1] ، فإن بسعة الأرض وكثرة المعاقل تكون السعة فى الرزق ، واتساع الصدر لهمومه وفكره ، وغير ذلك من وجوه الفرج ، ونحو هذا قول الشاعر :

وكنت إذا خليلٌ رام قطعى
وجدتُ وَرَاىَ مُنْفَسَحاً عريضا

---

(١) من الآية ٧٢ من سورة الأنفعال .

(١) من هنا إلى آخر البيت الآتى تعقيب القرطبى على رأى الإمام مالك .

وقد استفدنا من الآية أن من توفاه الله فى طريق هجرته قبل وصوله إلى مهجره أثابه الله ثواب من أتم هجرته ، من حيث قصد الهجرة ومباشرتها ، إذ أن المانع من إتمامها لم يأت من جهته بل من قدر الله

سبب نزول هذه الآية

اختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فعن عكرمة مولى عبد الله بن عباس أنه ضمرة بن العيص ، وحكى الطبرى عن سعيد بن جبير أنه هو العيص بن ضَمْرَةَ بن زنباع ، وكان من المستضعفين بمكة ، وكان مريضاً ، فلما سمع ما أنزل الله فى وجوب الهجرة وعقاب من لم يهاجر (فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) قال : أخرجونى ، فهُيىء له فراش ثم وضع عليه ، وخُرِجَ به فمات فى الطريق بالتنعيم ، فأنزل الله فيه (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) الآية .

وقيل غير ذلك ، وتتمة قصة هذا الرجل الذى توفى فى طريق هجرته ، أنه لما أشرف على الموت صفق بيمينه على شماله فقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك صلى الله عليه وسلم ، ومات عقب البيعة .

وحكم هذه الآية يتناول كل مهاجر إلى الله ورسوله يدركه الموت فى الطريق قبل وصوله إلى مهجره ، فى أى عصر من العصور ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

الهجرة من مكة إلى المدينة قبل الفتح وبعده

كانت الهجرة من مكة إلى المدينة فرضاً على المسلمين لنصرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وحماية لدين المهاجر ونفسه من أذى المشركين ، فلما أتم الله نِعَمَهُ على المسلمين بفتح مكة ، انتهى الوجوب بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » .

أنواع الهجرة الواجبة بعد الفتح

قلنا إن وجوب الهجرة من مكة إلى المدينة نسخ لانتهاء دواعيه ، ولكن الهجرة واجبة من دار الكفر إلى دار الإيمان لا تزال واجبة على المسلمين إذا أصابهم اضطهاد من أهل الكفر ، ولم يقدروا على رده ، وخافوا على دينهم

وأنفسهم إن ظلوا بين أعدائهم الكافرين ، وقد حدثت هذه الهجرة بعد هزيمة ملوك الأندلس من الاسبانيين وتعرضهم للإبادة مالم يكفروا ، فلهذا فرَّ منهم مئات الألوف إلى شواطئ البلاد الإسلامية على البحر المتوسط ، ومن بقى منهم بالأندلس أرغموه على تغيير دينه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهناك هجرتان واجبتان غير ذلك ، إحداهما : هجرة المحرمات ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر مانهى الله عنه » .

والثانية : هجرة أهل المعاصى حتى يرجعوا تأديباً لهم ، فلا يخالطون حتى يتوبوا ، كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم مع كعب بن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، قال تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله إلاإليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) سورة التوبة(١١٨) .

هجرة النبى وحكمتها وآثارها

لما علمت قريش ببيعة الأنصار من أهل المدينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الذود عنه حتى الموت ، أدركوا خطورة هذه البيعة وآثارها العظيمة ، فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى دفع هذه الأخطار عنهم ، وبعد أن تبادلوا الاقتراحات وناقشوها ، استقر رأيهم على أن يأتوا من كل قبيلة بشاب قوى ، ثم يجتمع هؤلاء الشباب أمام داره صلى الله عليه وسلم ، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلايقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم ، فيرضون بالدية ، (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) فأعلم نبيه بما دبروه ، وأمره بالهجرة إلى المدينة التى انتشر فيها الإسلام ، وهناك ستكون له العزة والمنعة بالمؤمنين من الأنصار والمهاجرين ، وستكون هذه الهجرة من أعظم الأسباب فى نشر الإسلام فى المشارق والمغارب .

فاستقر رأى الرسول صلى الله عليه وسلم على الهجرة فى الليلة التى سيجتمع فيها أولئك الشباب حول داره ، واتفق مع أبى بكر رضى الله عنه على اللقاء ليلاً خارج مكة ، وأمَرَ علياً أن يبيت على فراشه فى الليلة المذكورة ، وغطاه ببردته حتى يظنوا الرسول نائماً على فراشه ،

فقد كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ، ثم خرج الرسول فى الوقت الذى أراده الله ، وشق طريقه من بين هؤلاء الشبان المتربصين ، وهو يقرأ قوله تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ثم التقى بصاحبه أبى بكر خارج مكة ، وتمت الهجرة على النحو المعروف للقراء مما ينشر عنها فى كل عام .

والحكمة فى أن الإسلام لم ينتشر بأهل مكة بل بغيرهم ، أنه لو آمن أهل مكة بالرسول أولا ، لقال غيرهم من العرب وسواهم : إن قريشاً أرادوا أن يبسطوا نفوذهم وسلطانهم على سواهم ، فعمدوا إلى رجل منهم أن يدّعى النبوة ، لتكون خير وسيلة لهم إلى نيل مآربهم ، فلهذا ألقى الله فى قلوب أهل مكة مقاومة الدعوة الإسلامية ، ومعاداة صاحبها ، لكى يهاجر من أرضهم ويستنصر بسواهم ، فيكون ذلك أدعى إلى إقبال سائر العرب على دعوته ، وهذا هو الذى تم — والحمد لله رب العالمين .

والهجرة سنة النبيين من قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما هاجر تمت له سنة إخوانه الأنبياء صلى الله وسلم عليهم أجمعين ، فما مِنْ نبى إلا أوذى من قومه وهاجر عنهم ، من إبراهيم إلى عيسى عليهما السلام ، وقد تكون هجرتهم لأسباب أخرى ، كما حدث من يعقوب وأولاده ، حيث هاجروا إلى مصر فى عهد يوسف الصديق عليه السلام ، ثم هاجر موسى ببنى إسرائيل عائداً بهم إلى فلسطين ينقذهم من اضطهاد الفراعنة .

وهرب عيسى عليه السلام من اليهود حين كذبوه وأرادوا قتله ، وكان يقول لتلاميذه : « طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات » ويقول : « أفرحوا وتهلّلوا لأن أجركم عظيم فى السموات ، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم » .

أقسام الذهاب فى الأرض وأحكامها

قال ابن العربى : قسّم العلماء الذهاب فى الأرض قسمين هَرَبًا وطلبًا ، **فالأول** : ينقسم إلى ستة أقسام ، (الأول) الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وكانت فرضًا قبل الفتح . من مكة إلى المدينة ، ثم انتهى الوجوب بإسلام أهلها ، ولكن هذه الهجرة لا تزال واجبة إلى يوم القيامة ، من أى بلد عامةُ أهلِه كفار إلى ديار

المسلمين ، فمن بقى فيها كان عاصياً ، أقول : وقد أجاز العلماء البقاء لرجل قوى الإيمان ، لايخشى على نفسه الفتنة ، فإن بقاءه قد تكون له آثار صالحة فيمن حوله من الكفار ، إذ ربما أثر عليهم فآمنوا ، كما كان يصنع تجار المسلمين الذين أسلم بسببهم بعض بلاد الكفار ، كما حدث فى الفليبين وأندونسيا (والثانى) الخروج من أرض تعم أهلها البدعة إذا لم يقدر على تغييرها لقوله تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) أقول : قياساً على ما تقدم إنه إذا كان واثقاً من أن نفسه لا تنحرف فله البقاء (والثالث) الخروج من أرض غلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم (والرابع) الخروج فِرَاراً من الأذى فى البدن ، وأول من فعله إبراهيم عليه السلام ، فإنه لما خاف من قومه بعد أن أبقوه فى النار قال: (إنى مهاجر إلى ربى) وفعله موسى قال تعالى : (فخرج منها خائفاً يترقب) .

(الخامس) الخروج خوفاً من المرض من الأرض الوخمة إلى الأرض النظيفة التى لا ينتشر فيها المرض ، فقد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم للرعاة حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المَسْرحَ[1] ، فيكونوا فيه حتى يصحوا ، وقد استُثْنِىَ من ذلك الخروج من أرض الطاعون ، فقد منعه النبى صلى الله عليه وسلم — قال ابن العربى : بيد أن علماءنا قالوا إن الخروج من الأرض الوخمة مكروه — أقول — : ولعل الكراهة عندهم بسبب أن الهجرة قد تكون سبباً فى نقل المرض من تلك الأرض إلى الأرض النظيفة ، فإن من فيها يحملون ميكروبات الأمراض الموجودة بها ، وذلك هو اللائق بمحاسن الشريعة ، قال صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: « لا ضرر ولا ضرار » .

(السادس) الخروج لتفادى الإيذاء فى الأهل والمال ، وهو مشروع بل قد يكون واجباً إذا كان الإيذاء عند البقاء متوقعاً بأرْجَحِيَّة ، فإن حرمة الأهل والمال كحرمة الدم .

وأما الهجرة والخروج للطلب ، فإما أن يكون لطلب دين ، وإما أن يكون لطلب دنيا ، فالهجرة لطلب الدين كالسفر للعظة والاعتبار — وهو مندوب —

---

(١) أى إلى مسرح الإبل وأماكن رعيها حيث الفضاء الفسيح .

قال تعالى: (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) وكالخروج للحج — وهو فريضة على كل مكلف مستطيع لم يسبق له الحج ، وكسفر الجهاد — وهو إما فرض عين أو فرض كفاية أو سنة . حسب اختلاف الأحوال .

وكالهجرة لطلب المعاش ، فمن ضاق عليه العيش فى بلده وجب عليه أن يهاجر إلى حيث يجد كفايته من الرزق ، أما طالب الزيادة على الكفاية فمباح ، بشرط الاطمئنان على الدين والعرض فى أرض الهجرة ، وليأخذ معه فى مهجره القرآن الكريم ومراجع الدين والخلق والعقيدة بصفة خاصة ، حتى يعيش فى جو إسلامى، ويحمى نفسه من الانزلاق فى أوحال الشبهات والمعاصى .

ومن الأسفار المباحة السفر لمجرد التجارة والكسب الزائد على القوت ، فيباح له الانتقال من بلده لذلك ، والعودة إلى بلده بتجارته أو بثمنها وربحه ، ويدل لهذا والذى قبله قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وذلك فى الرزق الضرورى لإبقاء الحياة ، وقوله تعالى : (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) وقوله : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وذلك فى الرزق الزائد على القوت الضرورى ، ويدخل الرزق الضرورى من باب أولى .

وقد يبدو عند أول النظر أن السفر لطلب الرزق بمختلف أنواعه السابقة يعتبر سفراً لغرض الدنيا ، ولكنه معتبر فى جانب السفر لطلب الدين إن صحبته نية الاستمتاع بنعمة الله وأداء حقوقها وشكر الله عليها .

ومن الهجرة لطلب الدين السفر لطلب العلم — وهو فرض كفاية ، قال تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ومنها السفر إلى البلاد المقدسة الثلاثة مكة والمدينة والقدس . لغرض العبادة فى مساجدها ، وتكثير الثواب بذلك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » وذكر ثلاثة مساجد ، مسجده صلى الله عليه وسلم والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ، والسفر لذلك مندوب ، ومن الهجرة فى سبيل الدين الخروج إلى الثغور الواقعة بيننا وبين الأعداء للمرابطة فيها لرد الأعداء عن البلاد ، ومنها السفر لزيارة

إخوانك فى الله تعالى ، وهى مندوبة لقوله صلى الله عليه وسلم : « زارَ رجل أخـًا له فى قرية ، فأرْصَدَ الله له ملكـًا على مَدْرجَتِـه — أى طريقه — فقال : أين تريد ؟ فقال : أريد أخـًا لى فى هذه القرية ، قال : هل لك من نِعْمة تَربـُّها عليه — أى تملكها عليه — قال لا : غير أنى أحببته فى الله عز وجل ، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبـَّك كما أحببته فيه » رواه مسلم وغيره .

وأما الهجرة لطلب الدنيا أو السفر لذلك من غير نية ابتغاء مرضاة الله بأى وجه من الوجوه فهى مباحة ولا أجر فيها ، بشرط أن لا تكون للمعصية وأن لا تصاحبها معصية ، وإلا كانت حرامـًا .

ودليل إباحتها عند خلوها من المعصية قوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) الآية ، وهى شاملة للمتعة بالطيبات جميعـًا ، حضراً كانت أو سفراً .

هذه هى أنواع الهجرة وأحكامها التى نقلها ابن العربى عن العلماء ، قدّمناها بين يديك أيها القارئ الكريم بأسلوب سهل ميسر ، وقد ذكرنا فيها مالم يذكره من الأحكام والأدلة والتطبيقات ، وأسأل الله لى ولك التوفيق لما يحبه ويرضاه ، والله تعالى أعلم .

مصطفى محمد الحديدى الطير

ما يجب للجار على الجار

ابتداؤه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عليه السؤال ، ويعوده فى مرضه ، ويعزيه فى مصيبته ، ويهنيه فى فرحه ، ويتلطف لولده وعبده فى الكلام ، ويصفح عن زلته ، ومعاتبته برفق عند هفوته ، ويغض عن حرمته ، ويعينه عند صرخته ، ولايديم النظر إلى خادمته . .

أبو حامد الغزالى

هاكم آية واحدة تبعث الحياة بين المسلمين وتجدد شباب العالم

الأستاذ / أحمد حسين

حال المسلمين اليوم، هى كما نعرف، وأنا إذا كنت متفائلا فى كل ما أكتب فذلك لأنى أمد نظرى إلى المستقبل البعيد وأرى فى الحاضر، بذور ما سوف ينمو فى المستقبل .

وأنا بعون من الله وفضل أشتغل بتفسير القرآن الكريم منذ أكثر من عشر سنوات .

وليس فى حياتى بطبيعة الحال ما يمكن أن يقارن إلى هذا الذى وفقنى الله إليه ، ولقد جعلتنى معايشة القرآن ، آية آية ، وكلمة كلمة ، أدرك شيئاً مما فيه من إعجاز يستحيل على أى إنسان فى أى زمان ومكان أن يقول بعض آياته ، فها هى ذى آية واحدة ، نراها فى كلمات معدودة ، تقدم للمسلمين بخاصة ، والبشرية بعامة ، الدواء الشافى المعافى لما تئن منه البشرية .

مرض العصر :

فأما أن البشرية بشرقها وغربها تئن ، بل وفى حالة مرض وإفلاس فذلك يتبين من كثرة عدد المنتحرين فى المجتمعات المقول بأنها أكثر غنى وتقدماً ، وأكثر ممن ينتحرون ، هؤلاء الذين يُجَنَّوْنَ ، وأكثر منهم وأكثر المصابون بأمراض عصبية ، أما الإحساس بالقلق والضياع فهو ما يعانيه الكافة ، كافة من يسمونهم بالشعوب المتمدنة ، ولما كان المسلمون لايزالون يتابعون هذا الذى يتصورونه مدنية ، فقد بدأوا يعانون ، كما يعانى الآخرون .

الإيمان أما الإلحاد والأسرة أم الدولة :

وسنرى فى الآية التى نعرضها المفتاح لكل شىء ، الإيمان بالله أم بالمادة ؟ أن يكون أساس السلطة فى المجتمع ، الحب أم الكراهية والحقد ؟ وهو الفارق بين قيام المجتمع على الأسرة ، وعلى القرابة والمجاورة والتعامل المباشر وبين قيامها على ما يسمونه الدولة حيث يتحول

الناس ومشاعرهم وأحاسيسهم ، ومعاناتهم ، إلى أعداد وأرقام على الورق عند التخطيط ، و « ترس » أو « صامولة » فى الواقع ، وإليك الآن الآية ، وما وفقنى الله لأقوله فى شرحها لأنبه أذهان من هم أكثر قدرة وكفاءة منى على قول المزيد :

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً)[1] .

آية جامعة لصلاح الدين والدنيا :

نحن كما يعرفنا من يتابعوننا ، ممن لا يحبون أن يفضلوا سورة على سورة ، أو يجعلوا لبعضها أهمية تفوق على سورة غيرها ، فالكل كلام الله القديم .

ولكن ذلك لا ينسحب على آيات القرآن ، فهى اللبنات التى تؤلف البناء القرآنى المشمخر ، وقد فرق الله سبحانه وتعالى بين مختلف الآيات فوصف بعضها بأنها محكمات هن أم الكتاب والآية التى نحن بصددها ، آية محكمة من أمهات الكتاب العزيز .

ذرة معنوية :

ولكى نصور لك أهميتها وخطورتها من حيث هى سبيل لصلاح الدنيا والآخرة نسوق لك مثلا مادياً من حياتنا المعاصرة ، فقد أصبحنا نعرف أن الذرة إذا تفتت انطلقت منها قوة جبارة ، وها نحن بإزاء آية تتألف من كلمات قليلة جداً ، ومع ذلك فلا نكاد نتفهمها حتى نجدها شملت جوهر الدين والدنيا معاً ومن يعمل بها يصبح أقوى الأقوياء ويسعد هو ومن حوله فى الدارين الدنيا والآخرة ، وهى بحق مفتاح لعلاج ما أصبحت الدنيا بعامة ومصر بخاصة تشكو منه مر الشكوى ، لأنه أصبح مصدر المعاناة والقلق والضياع للكثيرين ونحن ننصح كل قارئ للعربية ، ولكل مسلم أن يحفظ هذه الآية أو يكتبها ويضعها نصب عينيه دائماً ، ثم يعمل على تطبيقها نصاً وروحاً ، فيفوز فوزاً عظيماً ، وإليك الآن مفردات وأجزاء هذه الآية الكريمة :

واعبدوا الله :

هذا هو سر الحياة وإكسيرها وعلاجها ، والأمر الوحيد الذى له معنى ومغزى ، وإلا كانت شيئاً سخيفاً ،

---

(١) سورة النساء آية ٣٤ .

أن يعيش الإنسان منذ يولد إلى أن يموت فى ألوان من المشاق والمعاناة ، التى تصل أحياناً إلى درجات غير متصورة من الآلام والحرمان والشعور بالقهر والظلم ، فليس سوى الإيمان بأن هذه الحياة الدنيا هى مرحلة مؤقتة وعابرة ، وأن وراءها حياة أخرى ينعم فيها المحروم والمعذب والمظلوم بالعدل والطمأنينة والحصول على ما حرم منه فى هذه الدنيا ، وحيث يجازى المسىء بإساءته ، والظالم بظلمه . . إلخ ليس سوى الإيمان بهذه الحقيقة ، وأن الخالق لهذا الكون ابتداء ، هو سيجرى حكمه وعدله بهذا الأسلوب ، نقول : أن ليس سوى الإيمان بهذه الحقيقة ، من يجعل لمرحلة الحياة معنى ، ويغرس الأمل فى النفوس حيث ينعدم كل أمل .

جحيم الإلحاد :

ولقد حاول أقوام أن يجردوا الناس من هذا الإيمان ، بدعوى أنه سبب التخلف والشقاء ، وقالوا قولتهم المشهورة : « الدين أفيون الشعوب » فماذا كانت النتيجة ؟ كانت هذا الجحيم البشرى الذى أصبح يعيش فيه الغارقون فى المادية فزادت نسبة المجانين ، والمرضى بأمراض عقلية . وأصبحت الكثرة الغالبة ، فى حالة قلق وضياع يشهد بذلك كثرة المنتحرين ، والمجرمين ، والمنحرفين .

ولا علاج لذلك كله إلا فى العودة إلى الدين بشقيه : الإيمان بالله والعمل الصالح ، وهذا ما تدعوا إليه أول جملة فى هذه الآية (واعبدوا الله) .

ولا تشركوا به شيئاً :

الشرك بالله ، بمعنى إشراك آخر فى عبادته من الأمور التى تخفى على الكثيرين فالشرك بالله لا يعنى الكفر به ، فلقد حكى القرآن الكريم فى أكثر من آية أن مشركى قريش ، لم ينكروا وجود الله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فالمسألة إذن لم تكن فى الإقرار بوجود الله أو نفيه ، ولكنها كانت فى هذه الأصنام والأوثان التى اعتبروها شريكة لله فى حكمه وفى تصريف الأمور وتدبيرها فى هذا الكون ، فراحوا يعبدونها ويتقربون إليها بالذبائح والضحايا ، وأهم من ذلك كله يسلكون فى الحياة ، وفق أهوائهم وشهواتهم ، ناسبين ذلك لأصنامهم ، فتصدوا لسيدنا محمد بالمعارضة والإنكار ثم الاضطهاد والحرب بمقولة أن هذا هو ما يفرضه عليهم واجب عبادتهم لهذه الأصنام .

فمشركو قريش ، لم يقفوا عند حد اعتبار الأصنام شركاء لله ، بل تصدوا لمحاربة التوحيـــد ، ولكل ما جاء به الإسلام من تعاليم ، وكان أول ما كفروا به وأنكروه أن يكون سيدنا محمد هو رسول الله وأنه يوحى إليه ، وأنه سيكون هناك بعث بعد الموت ، وحساب ثم جنة ونار ، ولعل هذا يظهر مدى تطرف البعض ومبالغتهم عندما يعتبرون مئات الملايين من المسلمين مشركين لمجرد كونهم يهتفون « ياسيد يا بدوى » أو « ياحسين » أو « ياسيدة زينب » فهؤلاء المعتقدون بسلطان هؤلاء الأولياء ، إنما يؤمنون أولا بالله ووحدانيته وأن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام هو عبده ورسوله ، وهم بعد ذلك يصلون ويصومون ويحجون كما تقضى تعاليم الإسلام . فوصف هؤلاء بأنهم مشركون ، لاعتقادهم أن أولياء الله لهم حظوة عند الله بحيث يشفعون عند الله لمن يحبهم . فهم يحاولون أن يستخلصوا ذلك من أقوال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، أو بعض أعماله وتصرفاته ، أو من بعض آيات القرآن نفسه .

ولسنا هنا بصدد الفصل فى هذه القضية ، وما هو وجه الحق والصواب فيها ، فهى مسألة خلافية يجتهد كل فيها برأيه ، ولكن الذى نقطع به هو أن وصف المسلم بأنه مشرك لأنه هتف بالسيد البدوى أو سيدنا الحسين هو ضرب من ضروب المبالغة والمغالاة التى فرقت بين المسلمين وبالتالى أضعفتهم ونالت من مكانتهم فى العالم .

عبادة المال والدولار كلون من ألوان الشرك :

والآن فلنتحدث عن لون حديث من الشرك بالله فى تصورنا ، ففى بعض المجتمعات أصبحوا يقومون كل إنسان بما يملك من الدولارات وأصبح امتلاك الدولار هو غاية الغايات ، يبذل كل شىء فى سبيله وغنى عن البيان ، أن الدولار هو رمز لتقديس المال وعبادته ، وحقـًا كان الإنسان وسيبقى محبـًا للمال شريطة أن يكون حب الله أقوى ولكن الأمر وصل فى هذه المجتمعات إلى أن يكون المال كل شىء ، أى أنه أصبح إلهـًا يعبد ، ومن الناحية المقابلة ، نجد من جعلوا « الحزب » هو فاعل كل شىء ، والقادر على كل شىء والعالم بكل شىء ، إلى آخر صفات الألوهية ، سئل واحد فى هذه البيئة وكان من رواد الفضاء ، ألم يداخلك خوف ، وأنت

معلق بين الأرض والسماء؟ فأجاب : لا لأنني كنت واثقاً أن الحزب إلى جوارى ولن يتخلى عنى ، وهذا هو الشرك عن طريق إضفاء قوة غيبية لانهائية للحزب وهكذا فعل الآخرون عن طريق إضفاء هذه القوة الغيبية اللانهائية للدولار أعاذنا الله من أن نشرك مع قدرته « شيئاً » .

وبالوالدين إحساناً :

ومن الإيمان بالغيب : الذى هو ينبوع كل قوة أمل ودافع ومحرك فى هذه الدنيا ، إلى المحسوس والملموس وهو السبب الظاهر لوجود الإنسان فى الدنيا ، وهما الوالدان ، فهما وحدهما ، العلة فى وجود الإنسان : أى إنسان مهما بلغ من العظمة والقدرة ، والمجد والعلم ، فهو ما كان ليوجد لولا الأبوان ، فإن جحد الإنسان فضلهما وهما السبب المباشر لوجوده ، فهو لا يمكن إلا أن يكون أكثر جحوداً ، للسبب الخفى وراء وجوده .

ومن هنا قرن القرآن دائماً بين عبادة الله والإحسان بالوالدين ، باعتبارهما وجهين لحقيقة واحدة ، كما هو الحال فى قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) .

ولم يجعل القرآن الكريم لهذه القاعدة أى استثناء ، وظل يطالب بالإحسان إلى الوالدين ، حتى ولو دعواه وحرضاه على الإشراك بالله : (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » . .

كما ورد قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

ولا عجب فى ذلك ، فإن المجتمع البشرى لا يمكن أن يقوم – فضلا عن أن يسعد – إلا استناداً على أساس الأسرة القوية .. ولا مجال للأسرة القوية ، إلا بولاء الأبناء للآباء .

عصر الشيخ محمد عبده :

وليس هناك ما يبرز صورة انحراف المجتمع المصرى الإسلامى فى أيام الشيخ محمد عبده « أوج الاحتلال البريطانى » من أن يطالع الإنسان تفسيره لهذه الآية ، مما جاء فى تفسير المنار ، فقد ترك أمر القرآن للأبناء أن يحسنوا إلى أبويهم ، وراح يندد بالآباء وما يفعلونه بأبنائهم ، حيث يلغون كل إرادة للأبناء ويفرضون إرادتهم هم فى مسائل التعليم والزواج وشتى شئون الحياة. حيث انقلب الأمر اليوم إلى النقيض، فأصبح لا رأى للوالدين فى شأن من

شئون ابنهما أو بنتهما فانهارت الأسرة . وكلا الأمرين شر بطبيعة الحال، وتطرف، وخروج عن جادة الإسلام. فإن القرآن يلزم الأبوين بالتشاور مع أبنائهما الكبار .

(وأمرهم شورى بينهم) .

(وشاورهم فى الأمر) .

وأبناء الإنسان لم يخرجوا من دائرة المؤمنين ، لمحض كونهم أبناء الإنسان . وهدف الشورى بطبيعة الحال هو تحقيق أكبر قدر من الخير والصلاح ، وحق الأبوين على أولادهما هو الطاعة التى لا يجوز لأى ابن أو بنت أن يتحلل منها إلا إذا كانت أمراً بمعصية الله ، فقد جاء فى الحديث الشريف « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

أما إذا كان الأمر الصادر من الأبوين هو الإشراك بالله أو الكفر به فالأمر الإلهى قاطع وصريح : «فلاتطعهما» أما فى خارج الأمر بالشرك والمعصية فالطاعة واجبة ، قال تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأىُّ ولى لأمر الإنسان أكثر من والديه ؟ ! فطاعة الآباء واجبة ، والتمرد على الأبوين إثم يفوق كل إثم .

وبذى القربى واليتامى والمساكين :

أفضنا من قبل كثيراً ، فى اعتبار الإسلام أن الأسرة دعامة المجتمع الأولى ، وإذا كانت الأسرة تتكون أول ما تتكون من الأبوين ، فقد جعل الإحسان إليهما قرين عبادة الله وعدم الإشراك به . وهو فى هذه الفقرة من الآية يمد « الإحسان » كما تمتد الشجرة ، بفروعها وأغصانها وورقها ، فتصبح وارفة الظلال غزيرة النفع والثمر ، فكذلك الإحسان يجب أن يمتد من الوالدين ليشمل بقية أفراد الأسرة : الأقرب فالأقرب .

وقبل أن ينتقل القرآن « مكانياً » أى قبل أن ينتقل من دائرة الأسرة الواحدة والبيت الواحد ليحدثنا عن الجيران نراه يشفع ذكر ذوى القربى باليتامى والمساكين ، رافعاً إياهم من حيث الإحسان إلى مرتبة ذوى القربى ، حتى ولو لم يكونوا من أقرباء الإنسان ، وهذا التكافل والتضامن الاجتماعى هو من أقوى سمات المجتمع الإسلامى ، وهذا ما جعلنا نضيق فى الآونة الأخيرة بكلمة « الاشتراكية » ، حيث إن الإسلام جاء بأعظم منها وأدق وأكمل، فجعل التكافل الاجتماعى

بكل أبعاده ومعانيه هو حجر الزاوية فى المجتمع الإسلامى .

اليتيم والمسكين :

وطالما شرحنا معنى اليتيم : وهو القاصر الذى فقد السند الأول للإنسان فى صغره ، وهو أحد الأبوين بعامة ، والأب بخاصة .

أما المسكين ، فهو ليس الفقير الشحاذ الذى لا يملك شيئًا .. جاء فى القرآن الكريم عن إحدى السفن أنها كانت (لمساكين يعملون فى البحر) فدل ذلك على أن المسكنة مسألة نسبية، فأى صاحب حاجة مشروعة يكون ضعيفًا عن تحقيقها يكون مسكينًا ، ويكون المسلم مأموراً من الله سبحانه وتعالى أن يحسن إليه بمعاونته على قضاء حاجته ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا .

والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب :

فى هذه الدعوة الإلهية للإحسان إلى الجيران يظهر تفوق التعاليم الإسلامية التى لا حد لها من الناحية الإنسانية التى تجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعًا واحداً متكافلا ، وليس هناك ما يظهرك على ما أصبحت عليه حياتنا من دمار وضياع ، إلا أن تقارن هذا الذى يجب أن يكون بما أصبحنا نعيش عليه فى المدن ، حيث نعيش فى بيوت لا نكاد نعرف أسماء من يعيشون معنا فى نفس الطابق ، وهو ما ورثناه من العادات الغربية المرذولة .. ولقد حان الوقت لينتهى كل ذلك ونعود للتمسك بأصالتنا ، وتقاليدنا التى هى من وحى ديننا كما تنطق هذه الآية ، وقد روى البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ما فتئ جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وفى حديث آخر رواه مسلم عن أبى ذر عن رسول الله ما يكمل هذه الصورة الرائعة ، قال : « يا أبا ذر ، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعهد جيرانك » .

وثمة حديث ثالث نختاره ، لأنه يؤلف مبدأً أساسيًّا وقاعدة . وقد رواه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : «قلت يا رسول الله ، إن لى جارين فإلى أيهما أهدى ، قال : إلى أقربهما منك باباً . »

وهكذا أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القول فى اعتبار أن القرب المكانى

هو الذى يحدد أَوْلَىْ الجيران بالهدية، حتى لو كان نصرانياً أو يهودياً .

ومن أراد أن يعرف قوة الإسلام ولماذا لا يزيده مر القرون إلا قوة وانتشاراً فعليه أن يقف طويلا أمام هذه المعانى وعظمة دلالتها ، وقد حدثنى صديق عزيز هاجر إلى أمريكا ونجح فى حياته نجاحاً باهراً ، كيف أنه عندما اشترى بيتاً فى إحدى المدن الأمريكية بدأ بزيارة جيرانه ودعوتهم إلى زيارته ، فاعتبر هذا حدثا جللا، وتوثقت عرى الألفة والمودة بينه وبين جيرانه ، ونكتفى بهذا القدر لنعرف ما المقصود ببعض الألفاظ وما جرى حول ذلك من خلاف نراه ثانوياً .

والجار ذى القربى :

دار التساؤل عن القرب ، أهو فى النسب، أم هو القرب المكانى . والنتيجة واحدة ، وهى وجوب الإحسان إليه .

والجار الجنب :

أى أن حق الجوار لا يقف عند حد الجار « اللصيق » أى المتصل بالبيت مباشرة ، وإنما حق الجوار مسألة نسبية تتحدد بظروفها. وقال البعض: إن الجار ذا القربى هو الجار المسلم ، والجار الجنب هو الجار غير المسلم ، وقيل هو الجار الغريب ، وكل هذا ينتهى إلى نتيجة واحدة هى وجوب الإحسان .

والصاحب بالجنب :

وهنا قال البعض : إن المقصود به هو رفيق الإنسان فى السفر ، وقال آخرون هى : « الزوجة »، وظل بعض ثالث فى دائرة الجوار فقالوا: إنه يمتد حتى أربعين بيتاً .

ونحن لا نرى مانعاً من الأخذ بكل هذه الأقوال ، فالإحسان مطلوب لكل الناس .

وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً :

ويوسع الإسلام دائرة من يجب على الإنسان أن يحسن إليهم ، فبعد أن بدأ بالوالدين ثم الأقارب والجيران واليتامى والمساكين ، وصل إلى حد وجوب الإحسان إلى أى إنسان (أياً كانت ملته أو مذهبه) ما دام الطريق قد جمعكما : وهذا هو « ابن السبيل » .

أو ما ملكت أيمانكم :

وقد تحدثنا من قبل باستفاضة عن الرق فى الإسلام ، فألغاه عند المنبع

بين المسلمين ، فأصبح لا يجوز تحويل المسلم إلى عبد نتيجة أسره فى الحرب ، وهى القاعدة التى سار عليها العالم منذ عرف الحضارة ، وحث الإسلام على تحرير الأرقاء باعتباره من أعظم ألقُربِ إلى الله ، واعتبر تحرير العبد كفارة لعديد من المخالفات الدينية ، وحيث كانت البشرية تعتبر الرقيق كشىء مَمْلُوكٍ لا حساب له فى دنيا البشرية ، فها هو القرآن الكريم يدعو إلى الإحسان إليهم كأقرب المقربين إلى الإنسان .

ويزيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر تبيانًا وشرحا ، فيقول صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه مسلم وغيره عن أبى ذر وقد جاء فى الحديث : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً :

أى أن الله لا يرضى عن المختال ، والمختال ذو الخيلاء أى الكبر ، جاء فى الحديث الشريف : « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر » أعاذنا الله من الكبر والمتكبرين .

والفخور :

هو المغرور الذى يتصور نفسه من طينة غير طينة البشر ويروح يعدد مناقب نفسه : كبراً وتطاولا على الناس ، قال تعالى :

(ولا تمش فى الأرض مرحا[1] إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) .

أحمد حسين

(١) أى فى تطاول وخيلاء .

آداب الغنىّ

لزوم التواضع ، ونفى التكبرّ ، ودوام الشكر ، والتوصل إلى أعمال البر ، والبشاشة بالفقير والإقبال عليه ، وردّ السلام على كل أحد ، وإظهار الكفاية ، ولطافة الكلمة ، وطيب المؤانسة ، والمساعدة على الخيرات . .

أبو حامد الغزالى

بطولات إسلامية

مسلمة بن عبد الملك بن مروان قاهر هرقل وفاتح الأناضول [1]

للسيد اللواء الركن / محمود شيت خطاب

(١)

هو مَسْلَمَة بن عبد الملك ابن مَرْوَان بن الحَكَم بن أبي العاص ابن أُمَيَّة بن عبد شَمْس بن عبد مَنَاف ابن قُصَي القُرَشي الأموي[٢] .

(١) الأناضول : أو الأناطول ، لفظة يونانية ، معناها : المشرق ، اسم لشبه جزيرة كبيرة ، هى عبارة عن آسيا الصغرى كما نطلق عليها اليوم . يحدها من الشمال الغربى الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود ، ومن الشرق جبال إرمنية وفروعها الجنوبية الغربية إلى الإسكندرونة ، من الجنوب البحر الأبيض المتوسط ، ومن الغرب الأرخبيل اليونانى ، وهى ما نسميه : تركيا ، عدا القسم الأوروبى منها ، انظر التفاصيل فى منجم العمران (٢/٦٣ – ٦٥) والجغرافية العمومية (١٨١ – ١٨٥) .

(٢) انظر التفاصيل فى طبقات ابن سعد (٥/٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب ((١٠٣ – ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/٣) وقادة فتح المغرب العربى (٢/٩٥).

أبوه : أمير المؤمنين عبد الملك ابن مَرْوان [١] ، وأمه من أمهات الأولاد ، ويريدون بكلمة أمهات الأولاد : الجوارى والإماء اللّواتى ولدن لمواليهن ذكرانا .

وقد ذكر الإمام ابن حزْم الأندلسى[٢] فى رسالته : « أسماء الخلفاء والولاة وذكر مُدَدهم» ما نصه : « وفى أيامه — يريد أيام سليمان بن عبد الملك — حوصرت القُسطنْطينيَّة[٣] وحاصرها أخوه

(١) انظر سيرته المفصلة فى : قادة فتح المغرب العربى (٢/٩٥ – ١٥٢) .

(٢) الأمام الحافظ أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى (٣٨٤هـ – ٤٥٦هـ) .

(٣) القسطنطينية : مدينة شهيرة جداً ، كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية ، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠م) ، وهى مسورة بسور حصين ، ارتفاعه ما بين أربعة عشر قدماً وعشرين قدماً ، ومحيطها أكثر من اثنى عشر ميلا ، انظر التفاصيل فى منجم العمران (٢/٢٩٩ – ٣٠١) .

مَسْلمة ، وسن مَسْلَمة أربع وعشرون سنة »[1] ، وكان حصار القسطنطينية سنة ثمان وتسعين الهجرية[2] (٧١٧ م) .

ومعنى ذلك أن مسلمة ولد سنة أربع وسبعين الهجرية (٦٩٣ م) .

ولست مع الإمام ابن حزم الأندلسى فيما ذهب إليه ، لأن أول قيادة تولاها مسلمة كانت سنة ست وثمانين الهجرية[3] ، وليس من المعقول أن يتولى مسلمة قيادة جيش من جيوش المسلمين ، فى أخطر جبهة من جبهات القتال بالنسبة للدولة الأموية ، وهى جبهة مقاتلة الروم فى عقر دارهم ، وهو فى سن الثانية عشرة !!

والمعقول أن يكون عمره حينذاك عشرين سنة على الأقل ، أى أن ولادة مسلمة كانت حوالى سنة ست وستين الهجرية (٦٨٥م) .

ومهما يكن من أمر تاريخ مولد مسلمة الذى أغفله المؤرخون ، فإن أبناء الخلفاء لم يكونوا يتولون القيادة ويشهدون المعارك الطاحنة قبل أن يبلغوا السادسة عشرة من سنى حياتهم ، ولكنهم لا يتأخرون عن العشرين إلا نادراً ، خاصة إذا كانوا من ذوى الكفايات القيادية العالية التى تظهر عليهم مبكراً — كما هو الحال فى مسلمة وأمثاله من بنى أميَّة ومن الذين تولوا القيادات العسكرية فى عهدهم كمحمد بن القاسم الذى تولى القيادة وعمره سبع عشرة سنة كما هو معروف .

نشأ مسلمة وترعرع فى ظروف ملائمة لاستكمال متطلبات شخصيته فكرياً وإدارياً وسياسياً وعسكرياً : فهو من بيت السلطة والملك — بنى أميَّة ، وأهله أمراء وقادة وخلفاء ، وظروفهم الإدارية والعسكرية والسياسية لا تخلو من مشاكل وصعوبات تعين على التعلم والتدريب ، وكان التعليم لاستيعاب الثقافة المتيسرة حينذاك ميسوراً لبنى أميَّة ولغيرهم من الناس ، لذلك نشأ فى دمشق عاصمة الخلافة ليتعلم القرآن ويروى الحديث ويحفظ الأخبار ويتقن علوم اللغة وفنون الأدب شعراً ونثراً ، ثم شعراً ونثراً ، ثم ليمارس القضايا الإدارية والسياسية عن كثب ويرى كيف تُصرف الأمور وتُعطى القرارات . كما تدرب على ركوب الخيل والفروسية والسباحة والرمى بالنبال والضرب بالسيف والطعن

---

(١) أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم (٣٦٢) — ملحق بكتاب جوامع السيرة .

(٢) ابن الأثير (٥/٢٧) وابن خلدون (٣/١٥٥) وفتح القسطنطينية(٣٨) والإمبراطورية البيزنطية (٣٦٦) .

(٣) ابن الأثير (٤/٥٢٤)والعبر (١/١٠١)

بالسنان ، حتى أضحى فى الميادين الثقافية والإدارية والسياسية والعسكرية ذا مرتبة سامية ومكانة مرموقة ومنزلة رفيعة .

ولعل مما زاد فى فرص تعليم وتدريب مسلمة ، أنه تلقى علومه وتدريبه فى كنف والده أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان بعد استقرار ملكه فى الدولة الإسلامية واستعادة (الوحدة) سنة ثلاث وسبعين الهجرية ، إذ قضى على الخوارج فى (البحرين) وأعاد بناء (الكعبة) بمكة المكرّمة على ما كانت عليه قبل عبد الله بن الزبير ، فانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح واسترداد المناطق التى سُيْطِرَ عليها فى إيران وبلاد الروم وإفْرِيقيَّة ، وكان من ثمرات استعادة (الوحدة) أن أعادت الدولة الإسلامية بقيادة عبد الملك بعد ما عاناه من فتن داخلية واضطرابات وحروب أهلية ومشكاكل خارجية كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون ، بعد ماكان عبد الملك يدفع الإتاوة لإمبراطور القسطنطينية منذ توليه الخلافة حتى استعاد (الوحدة) أيام الفتن الداخلية والحروب الأهلية [1] .

(١) انظر التفاصيل فى : قادة فتح المغرب العربى (١١٣/٢ - ١١٤) وانظر ابن خلدون (١٥٢/٣) .

وتربى مسلمة فى كنف أبيه بعد استعادة (الوحدة) للدولة الإسلامية بجو كله استقرار وأمن ودعة وبناء علمى وإدارى وسياسى وعسكرى ، فى بداية العصر الذهبى لحكم بنى أميّة ، برعاية والده الحصيف العالم الداهية الذى يُعَدُّ بحق أبرز خلفاء بنى أمية فى الشام علماً وعملاً ومقدرة وذكاءاً فأفاد مسلمة من رعاية والده فى وقت تفرغ فيه عبد الملك لرعاية شئونه الخاصة أكثر من السابق— يوم كان فى دوامة الفتن والقلاقل والاضطرابات ، وبقى يحظى بالرعاية الأبوية والعائلية الكاملة ، حتى توفى عبد الملك سنة ست وثمانين الهجرية [1] (٧٠٥ م) ، فأرسى عبد الملك أسس شخصية ابنة مسلمة وبدت ملامحها واضحة جلية فى وقت مبكر من عمره ، تلك الأسس التى كانت عبارة عن : الدين والتفقه فيه والتمسك بتعاليمه ، والعربية واتقان علومها ، والسياسة وممارسة قضاياها ، والإدارة وحل مشاكلها ، والعسكرية والتدريب على متطلباتها ، فكان مسلمة بحق نسخة طبق الأصل من والده عبد الملك وأشبه الناس به ، عدا الخلافة التى

(١) تاريخ بغداد (٢٩١/١٠) وتاريخ الخميس (٣١١/٢) .

حرم منها ، لأن أمَّه من أمهَّات الأولاد ، وكان لا يتولى الخلافة إلاَّ أمويٌّ أمه عربية حُرة ، بالرغم من : « إنه كان أحق بالملك من سائر إخوته »[١] .

وحين اشتد مرض عبد الملك جمع بنيه وهو على فراش الموت وأوصاهم قائلاً : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها أزين حلية وأحصن كهف ، ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ؛ وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه ، فإنه نابكم[٢] الذى عنه تفترون ، ومِجَنُّكُم[٣] الذى عنه ترمون ؛ فأكرموا الحجاج فإنه الذى وطَّأ لكم المنابر ، ودوخ لكم البلاد ، وأذل الأعداء . وكونوا بنى أم بَرَرة لا تدب بينكم العقارب ، وكونوا فى الحرب أسراراً ، فإنَّ القتال لا يقرِّب ميتة ؛ وكونوا للمعروف مناراً ، فإن المعروف يبقى أجره وذكره[٤] ؛ وضعوا معروفكم عند ذوى الأحساب ، فإنهم أصون له وأشكر لما يُؤْتى إليهم منه ، وتمغَّدوا[١] ذنوب أهل الذنوب ، فإن استقالوا فأقيلوا ، وإن عادوا فانتقموا »[٢] .

لم يذكر الخليفة الداهية عبد الملك ابن مروان فى وصيته الأخيرة لبنيه وهو يحتضر تلك الوصية التى تعتبر خلاصة تجاربه فى الحياة ، صاغها بكلمات معدودات ، غير مسلمة من بين أولاده ، وقد ذكره بالثناء العاطر والتقدير البالغ مما يدل على مبلغ ثقته به واعتماده عليه .

وليس من السهل على أحد أن يحوز على ثقة شخصية فذَّة واعية كعبد الملك. ولولا أن مسلمة كان حريا بالثقة الكاملة والاعتماد المطلق ، لما أشاد به أبوه — وهو على فراش الموت — هذه الإشادة النادرة .

لقد تهيأ لمسلمة الطبع الموهوب والعلم المكتسب والتجربة العملية ، فنال ما نال من تقدير والده بخاصة وأهل بيته بعامة والمؤرخين من بعده ، فكان الرجل المناسب للمناصب المناسبة التى تولاَّها سياسيًّا وإداريًّا وعسكريًّا .

١ — فى أرض الروم

فى سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م) غزا مسلمة أرض الروم[٣] ، وفى سنة

(١) دول الإسلام (١/٦٢) وانظر الأعلام (٨/١٢٢) ومسلمة بن عبد الملك (٤٥) .

(٢) الناب : السن فى جانب الرباعية ، وللإنسان نابان فى كل فك . وناب القوم : سيدهم .

(٣) المجن : الترس . وفلان مجنكم : حاميكم .

(٤) فى رواية : ذخرة .

(١) تمغد الشىء : امتصه ، استوعبه .

(٢) ابن الاثير (٤/١١٧ — ١١٨) .

(٣) الطبرى (٦/٤٢٦) وابن الأثير =

سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦ م) غزا الروم فأثخن فيهم بناحية (المصِّيْصَة)[1] وفتح حصوناً كثيرة منها : حصن (بُوْلق) و (الأخْرَم)[2] و (بُوْلُس) و (قمْقِيْم)[3] وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم[4]

=(٤/٥٢٤) وابن خلدون (٣/١٥٣) والنجوم الزاهرة افتتح مسلمة بن عبد الملك حصن بولق وحصن الاخرم ، وانظر العبر (١/١٠١) وفيه :

افتتح مسلمة حصنين فى بلاد الروم ، وفى تاريخ الإسلام للذهبى (٤/٣٠٢) : : وأول ماولى غزوا الروم فى آخر دولة أبيه ، فافتتح ثلاثة حصون ، وانظر تاريخ خليفة بن خيالى (١/٢٩٣) .

(١) المصية : مدينة على شاطئ نهر جبحاق من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم وتقارب طرسوس ، وكانت ذات سور وخمسة أبواب ، انظر معجم البلدان (٨/٨٠) والمسالك والممالك (٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) .

(٢) انظر الطبرى (٦/٤٢٩) وابن الأثير (٤/٥٢٨) ، وفى ابن خلدون (٣/١٥٥) : الأخزم،وهو حصن فى منطقة المصيصة لا ذكر له فى الكتب الجغرافية التى فى أيدنيا .

(٣) قمقيم : وردت كذا فى ابن خلدون (٣/١٥٥) ، ووردت فى الطبرى (٦/٤٢٩) وابن الأثير (٤/٥٢٨) : قمقم .

(٤) ابن خلدون (٣/١٥٥) ، وانظر — الطبرى (٦/٤٢٩) وابن الأثير (٤/٥٢٨) وحصون : بولق والأخرم وبولس وقمقم سولا ذكرها فى الكتب الجغرافية القديمة التى بين أيدينا ، ومن الواضح أنها حصون صغيرة فى المنطقة الجبلية المحيطة بالمصيصة .

وفى سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) غزا مسلمة والعباس بن الوليد ابن عبد الملك بلاد الروم ، وكان الوليد ابن عبد الملك قد كتب إلى صاحب (إرْمِيْنية) يأمره أن يكتب إلى ملك الروم يُعرِّفه أنَّ (الخزَر) وغيرهم من ملوك جبال (إرمينية) قد أجمعوا على قصد بلاده ، فغفل ذلك. وأكثر الوليد من قواته القاصدة أرض الروم ، فساروا نحو (جزيرة ابن عمر) ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم . واصطدم الطرفان ، فانهزم الروم ، ثم أعادوا الكرَّة فانهزم المسلمون ، ولكنَّ العباس بن الوليد بن عبد الملك ثبت على رأس (الساقة) صارخاً «أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟ !» ، فقيل له : نادهم يأتوك ، فنادى : يا أهل القرآن ! فاقبلوا جميعاً ، فهزم الله الروم حتى دخلوا (طُوَانة)[1] ، وحاصرهم المسلمون فى هذه المدينة ، وفتحوها فى جمادى الأولى من هذه السنة وشتوا فيها[2] ، كما فتح مسلمة

(١) طوانة : بلد بثغور المصيصة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٦/٦٥) والعبر (١/١٠٣) وفى المعارف (٣٥٩) : وفى سنة ثمان وثمانين فنحت الطوانة .

(٢) الطبرى (٦/٤٣٤) وابن الأثير =

فى هذه السنة (حرثومة)(١) . وفى هذه السنة غزا مسلمة الروم أيضًا ، ففتح ثلاثة حصون : أحدها حصن (قُسْطنْطِين) و (غزالة) و (الأخْرَم) وقتل من المستعربة نحو من ألف وأخذ الأموال(٢) .

وقدتكرر فتح حصن(الأخْرَم) سنة سبع وثمانين وثمان وثمانين الهجريتين، ومن المحتمل أنّ الروم استعادوه فعاد إليه مسلمة وفتحه ثانية .

وفى سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) غزا مسلمة والعباس بن الوليد بن عبد الملك الرومَ ، فافتتح مسلمة حصن (عَمُّورِيَّة)(٣) ولقى من الروم جمعًا فهزمهم ، وقيل : إنّ مسلمة قصد (عَمورِيَّة) ، فلقى جمعًا من الروم كثيراً ، وافتتح (هِرقْلة)(٤)

=(٥٣١/٤) والعبر (١٠٣/١)، وفى الطبرى (٦/ ٤٣٤) : إن فتح طوانة كان فى جمادى الآخرة .

(١) العبر (١٠٣/١) والظاهر أنها قرية أو بليدة فى منطقة طوانة لا ذكر لها فى الكتب الجغرافية القديمة التى بين أيدينا .

(٢) فى الطبرى (٤٣٦/٦) : حصن — قسطنطينية ، وانظر ابن الأثير (٥٣٢/٣) .

(٣) عمورية : بلد من بلاد الروم ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢٢٦/٦ — ٢٢٧) وكان اسمها : (Ammorium)

(٤) هرقلة : مدينة ببلاد الروم ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤٥٣/٨ — ٤٥٤) .

و (قَمُونِية)(١) .

وفى هذه السنة أيضًا ، غزا مسلمة الترك حتى بلغ (الباب)(٢) من ناحية (أذْرَبِيجان)(٣) . ففتح حصونًا ومدائن هناك(٤) .

(١) الطبرى (٤٣٥/٦) وفيه : قمودية وابن الأثير (٥٣٥/٤) ، وفى ابن خلدون (٣/ ١٥٤) : قمولية ، ولم أجد لقمونية ذكراً فى الكتب الجغرافية التى بين أيدينا فى منطقة بلاد الروم ، بل ورد ذكرها فى إفريقية ، انظر معجم البلدان (١٦٢/٧) .

(٢) الباب : مدينة باب الأبواب ، ميناء كبير على بحر الخزر ، وهى مدينة كبيرة محصنة انظر التفاصيل فى المسالك والممالك للاصطخرى (١٠٩ — ١١٠) ومعجم البلدان (٩/٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٦) ، وهى مدينة دربند كما يطلق عليها فى الوقت الحاضر .

(٣) أذربيجان : كلمة أذربيجان فى الفارسية معناها : أرض النار أو معابد النار ، وقد اطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التى كانت موجودة فيها حينذاك . وأذربيجان : صقع جليل ومملكة عظيمة ، والغالب عليها الجبال ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١٥٩/١) والمسالك والممالك للاصطخرى (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤) .

(٤) الطبرى (٤٤١/٦) وابن الأثير (٥٤٠/٤) وابن خلدون (١٥٤/٣) . وفى فتوح البلدان (٢١٨) : ولما كانت سنة (٨٩) اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم ، وأتاهم قوم من الروم من قبل الإسكندرونة ورودس ، فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة بن عبد الملك ، فأناخ عليهم فى خلق من الخلق ، فافتتحها=

وفى سنة تسعين الهجرية (٧٠٩) م ، غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح الحصون الخمسة التى بـ (سورية)(١) ، ومن تدقيق سير الفتح التى نهض به مسلمة فى تلك الأيام ، يتضح أن أن الحصون الخمسة تقع شمالى (جزيرة ابن عمر) متاخمة لمدينة (ديار بكر) من الشمال .

وفى سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) غزا عبد العزيز بن الوليد ابن عبد الملك الصائفة(١) ، وكان على ذلك الجيش مسلمة . وفيها عزل الوليد بن عبد الملك عمه محمد ابن مروان بن الحكم عن (الجزيرة) و (إرْمِينْية) واستعمل عليها أخاه مسلمة ، فغزا مسلمة الترك من ناحية (أذْرَبِيجان) حتى بلغ (الباب) ، وفتح مدائن وحصونا ونصب عليها المجانيق(٢) .

وفى سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠ م) غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح حصوناً ثلاثة ، وجلا أهل

= على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير ، وعلى عيالاتهم القوت والقمح والزيت ، وهو مدان من قمح ، وقسطان من زيت ، وعلى أن لا يكرهوا ولا أحد من أولادهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية ، وعلى أن يغزوا مع – المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلون مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين ، فأخرب مدينتهم ونزلوا مناطق (حمص) ، ونزل بطريق الجرجومة فى جماعة من انطاكية ، ثم هرب إلى بلاد الروم . . . انتهى .

وفى معجم البلدان (٣/٨٠) : الجرجومة : مدينة يقال لأهلها الجراجمة ، كانت على جبل اللكام بالثغر الشامى فيما بين بياس وبوقه قرب انطاكية . والجراجمة : جبل . . . انتهى .

أقول به وهؤلاء كانوا يسكنون ما يسمى : جبل لبنان فى الوقت الحاضر مع امتداده إلى انطاكية ، وكانوا نصارى ولا يزالون ، ولكن من الصعب تصديق : أن مسلمة نهض بالقضاء على هذه الفتنة الداخلية سنة (٨٩هـ) ، لأنه كان مشغولا فى تلك الأيام بغزوتين كبيرتين ، ومن المحتمل أنه قضى عليها فى فرصته سنحت له قبل قبل خوضه لتلك الغزوتين أو بعدهما .

وفى تاريخ الإسلام (٤ / ٣٠٢) : غزا مسلمة (عمورية) والتقى بالمشركين فهزمهم .

(١) الطبرى (٦/٤٤٢) وابن الأثير (٦/٥٤٧) وابن خلدون (٣/١٥٤) – والنجوم الزاهرة (١/٢٢١) والعبر (١/١٠٤) . وسورية : موضع بالشام بين خناصرة وسلمية ، والعامة نسميها : سوية ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٥/١٧١) ومن الواضح أن الحصون الخمسة التى فتحها بسورية هى التى تقع فى الإقليم المتاخمة لجزيرة ابن عمر من الشمال ، أى شمالى مدينة ديار بكر الحالية الواقعة فى الجمهورية التركية ، وانظر تاريخ الأسلام (٤/٣٠٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/٣٠٦) .

(١) الصائفة : الغزوة فى الصيف ، وبها سميت غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفاً أتقاء البرد والثلج .

(٢) الطبرى (٦ / ٤٥٤) وابن الأثير (٤/ ٥٥٥) وابن خلدون (٣ / ١٤٥) والنجوم الزاهرة (١ /٢٢٢) وتاريخ الإسلام (٤ / ٣٠٢) ، وتاريخ خليفة بن خياط (١/٣٠٧) .

(سُوْسته) إلى بلاد الروم[١] .

وفى سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) غزا مسلمة الروم فافتتح (ماسة) وحصن (الحديد) و (غزالة) و (بَرْجَمة)[٢] من ناحية (ملْطية)[٣] وكان مسلمة قد فتح حصن (الغزالة) سنة ثمان وثمانين الهجرية كما ذكرنا سابقاً، والظاهر أنَّ الروم استردوها من المسلمين ، فاستعادها مسلمة ثانية .

وفى سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢ م) ، غزا مسلمة أرض الروم ، فافتتح (سَنْدَرَة)[١] ، وهى حصن من حصون الروم التى أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم (القسطنطينية) من الجنوب ، ومن الغزو عاد إلى الديار المقدسة ، فحج بالناس فى هذه السنة[٢] .

وفى سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣ م) ، غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) وفتحها وخرَّبها ثم بناها بعد ذلك[٣] بعَشر سنين[٤] أو تسع سنين[٥] . وكانت هذه المدينة للمسلمين من قبل ، وقد انتقض أهلها فأعادها مسلمة للمسلمين .

وفى سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) غزا مسلمة الصائغة[٦] فى بلاد الروم .

وفى سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) ، غزا مسلمة أرض (الوضَّاحيَّة) ، ففتح الحصن الذى فتحه

---

(١) الطبرى (٦/٤٦٨) وابن الأثير (٤/٥٦٩) وابن خلدون (٣/١٤٥) والنجوم الزاهرة (١/٢٢٥) ، وسوسة حصن من حصون الروم ، هو أكبر الحصون التى فتحها مسلمة فى تلك الغزوة ، وفى النجوم الزاهرة (١/٢٢٥) نص على : ويقال إنه بلغ الخليج ، والخليج بحر دون القسطنطينية ، انظر معجم البلدان (٣/٤٦٠)، ومعنى هذا أن سوسنة تقع فى المنطقة الجنوبية لمدينة القسطنطينية وأحد الحصون المنيعة للدفاع عنها من الجنوب .

(٢) برجمة : حصن للروم ، ورد ذكره فى شعر جرير ، انظر معجم البلدان (٢/١١٢).

(٣) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم بلاد الشام ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/١٥٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٩٧) والبلدان (٢٥) لابن الفقية وتقويم البلدان (٣٨٤) ، وانظر ما جاء عن هذه الغزوة فى الطبرى (٦/٤٦٩) وابن الأثير (٤/٥٧٨) وابن خلدون (٣/١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/٢٢٦) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٣٠٩) .

(١) العبر (١/١٠٩) ، ولا ذكر لسندرة هذه فى الكتب الجغرافية القديمة .

(٢) الطبرى (٦/٤٩١) وابن الأثير (٤/٥٨٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/١٣٠) .

(٣) النجوم الزاهرة (١/٢٢٩) والبداية والنهاية (٩/٣٢٨) .

(٤) البداية والنهاية (٩/١١٧) ، والصحيح بتسع سنين لأنه بناها سنة ثلاث عشرة هجرية ، انظر المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط . (١/٣١١) .

(٥) البداية والنهاية (١/٣٢٨) .

(٦) البداية والنهاية (٩/١٤٢) والنجوم الزاهرة (١/٢٣٣) وتاريخ ابن خياط (٣١٨١).

الوضاح [١] . وفيها أيضاً غزا مسلمة (بَرْجَمَة) وحصن (ابن عوف) وافتتح أيضاً حصن (الحديد) و (سروراً) [٢] وشتى بأرض الروم [٣] ، وكان مسلمة قد فتح حصن (الحديد) وحصن (برجمة) سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، والظاهر أنّ هذين الحصنين انتقضا فأعادهما مسلمة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجرية .

(٢)

٢ ــ حصار القسطنطينية

أدرك المسلمون أن حدودهم الشمالية مهددة بالروم ، وأن فتح القسطنطينية يزيح عن كاهل الفاتحين أعباء الدفاع عن تلك الحدود .

كما أن أرض الشام : فلسطين والأردن وسورية ولبنان من جهة ، ومصر والمغرب العربى من جهة أخرى ، كانت من أملاك الإمبراطورية البيزنطية الشرقية التى كانت عاصمتها القسطنطينية وقد عانى المسلمون ما عانوا من أهوال فى فتحها وفى الحفاظ عليها ، وما دامت القسطنطينية بيد الروم ، فهذه الأصقاع الواسعة معرضة للغزو كلما ضعف المسلمون أو تفرق شملهم ، وقوى الروم واشتد ساعدهم .

لذلك جرت عدة محاولات لفتح هذه المدينة .

أول تلك المحاولات جرت سنة اثنتين وثلاثين هجرية (٦٥٠ م) فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكانت هذه الحملة بقيادة معاوية بن أبى سفيان أمير الشام آنذاك .

والمحاولة الثانية جرت فى أيام معاوية ابن أبى سفيان سنة خمسين هجرية (٦٦٣ م) ، وكانت هذه الحملة بقيادة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان [١] .

---

(١) الوضاح : قائد من قادة مسلمة انظر ابن الأثير (٥) (٨١-٨٢) والظاهر أنه من القادة المرءوسين غير المشهورين وانظر بن الأثير (٥ / ٢٦) حول هذا الفتح .

(٢) ترجمة وحصن بن عوف وحصن الحديد وسرورا . حصون فى منطقة (مليطة) انظر الطبرى (٦/٤٦٩) وابن الأثير (٤/٤٦٩) وابن الأثير ٤/٥٧٨) وابن خلدون (٣/١٥٤)

(٣) البداية والنهاية (٩/١٧٠) والنجوم الزاهرة (١/٢٣٤- ٢٣٥) وانظرنا تاريخ خليفة ابن خياط (١/٣١٩) .

(١) العبر (١/٥٦) ، وشارك فى هذه الحملة عدد من كبار الصحابة ، منهم : الحسين ابن على رضى الله عنهما ، وأبو أيوب الأنصارى الذى توفى فى أثناء الحصار ودفن قرب القسطنطينية حيث يوجد قبره الآن ، وعبد الله بن العباس وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم .

ولكن هاتين الحملتين لم يكتب لهما النجاح[١] .

وفى سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) بدأ سليمان بن عبد الملك بتجهيز الجيوش لفتح القسطنطينية[٢] بعد أشهر معدودات من توليه الخلافة ، فقد توفى سلفه الوليد بن عبد الملك فى جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين الهجرية (أواخر شباط — فبراير — ٧١٥ م) ، فاقتفى سليمان خطة سلفه بضرب عاصمة الروم ضربة كبيرة بقوة جسيمة[٣] ، تلك الخطة التى لم يستطع سلفه تحقيقها فى أيامه لانشغال جيوشه فى حمل مهمة الفتح بجهات مختلفة شرقاً وغرباً وشمالاً ، بالرغم من أنه مهد لفتح القسطنطينية بتعرضه المستمر طيلة أيام حكمه بالجبهة الرومية على حدود دولته من الشمال .

وكان حرص سليمان على فتح القسطنطينية عظيماً ، حتى كأنه لم يتول الملك أو لم يخلق إلا لتحقيق هذا الحلم الذى راود الخلفاء من قبله من أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى أيامه . والواقع هو أن الخلفاء جميعاً الذين واتتهم ظروفهم الداخلية والخارجية

---

(١) بعد حصار القسطنطينية سنة خمسين الهجرية وإخفاق هذا الحصار ، عسكر المسلمون فى ميناء كيزيكوس (Cyzicos) واتخذوه قاعدة أمامية لأعمالهم العسكرية فى سبع سنوات وإلى ذلك يشير ابن الأثير فى حوادث سنة أربع وخمسين الهجرية : « وفيها كان مشتى محمد بن مالك بأرض الروم وصائفة معن بن يزيد السلمى ، وفيها فتح المسلمون ومقدمهم جنادة بن أبى أمية ، جزيرة (أرواد) قرب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين ، وكان معهم مجاهد بن جبر ، فلما مات معاوية وولى ابنه يزيد أمرهم بالعودة «فعادوا» انظر ابن الأثير (٣/٤٩٧) ، ومما يفهم منه أن المراد بجزيرة أرواد هى جزيرة كزيكوس .

(٢) النجوم الزاهرة (١/٢٣٥) وابن خلدون (٣/١٥٥) والبداية والنهاية (٩/١٦٩) وأبو الفدا (١/٢٠٠) وانظر الطبرى ج ٦ /٥٢٣

(٣) ولهاوزن — الدولة العربية وسقوطها(٢٠٩)

الواقع أن المسلمين كانوا يستهدفون فتح القسطنطينية فقد ذكر فازلييف) فى تاريخه الكبير للدولة البيزنطية ، أن العرب بعد أن أخفقوا فى الاستيلاء على القسطنطينية سنة (٦٧٠م) فى عهد قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥) بسبب استعمال الروم للنار الإغريقية التى اخترعها إذ ذاك رجل سورى يدعى (جالينيكوس) ظلوا يترددون على القسطنطيية كل عام حتى سنة (٦٧٧م) ، وقد منى الأسطول العربى بكارثة كبيرة إذ هبت عليه عاصفة عنيفة ، فتحطمت معظم سفنه على الشاطىء الشمالى لآسيا الصغرى . وفى نفس الوقت أخفقت كل المحاولات البرية التى قام بها العرب إذ ذاك ، فاضطر الخليفة إلى استرجاع جنده ، وعقد معاهدة ، مع الدولة البيزنطية تعهدت الدولة بمقتضاها أن تدفع له ضريبة — سنوية » . انظر : (Vasiliev: Hist, de L'empireyzn tin,B 1, pp. 283 — 284)

فكروا في فتح القسطنطينية ، والسبب أن البيزنطيين لم ينسوا أبداً البلاد الشاسعة الغنية التي كانت تابعة لهم وفتحها المسلمون ، وأنهم بذلوا قصارى جهدهم لاستردادها ، وأن هذه البلاد لا تكون آمنة من غزو الروم واستردادها ما بقيت للروم دولة عاصمتها القسطنطينية وهي البلدة الحصينة التي يسهل الدفاع عنها براً وبحراً .

وكانت الخطة السَّوقية[1] للمسلمين تتلخص في مهاجمة الروم في عقر دارهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لأن الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع .

وأمضى سليمان سنة سبع وتسعين الهجرية في إعداد قواته الضاربة مادياً ومعنوياً لتكون قادرة على النهوض بواجب فتح القسطنطينية[2] .

واستشار سليمان القادة المجربين ، ومنهم موسى بن نصير اللخمى[1] بالخطة المناسبة لفتح القسطنطينية ، فأشار عليه موسى بأن يفتح مادونها من المدن والرساتيق[2] والحصون ، حتى يبلغ المدينة ، فلا يأتيها إلا وقد هدمت حصونها ، ووهنت قوتها ، وقال موسى : « فإذا فعلت ذلك ، لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد[3] » .

ثم استشار أخاه مسلمة ، فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عنْوة ، فمتى ما فتحت فإن باقى مادونها من البلاد والحصون تصبح بيد المسلمين ، فقال سليمان : « هذا هو الرأى »[4] .

وأمضى الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة يعمل بكل جهد ونشاط وعزم

---

(١) الاستراتيجية (Strategy) ، انظر المعجم العسكرى الموحد (٨٤٢) إنكليزى — عربى .

(٢) ورد في تاريخ : العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٤) : « وقيل : إن سليمان لما ولى الخلافة حدثه جماعة من العلماء ، أن الخليفة الذى يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبى ، ولم يكن من ملوك بنى أمية من اسمه اسم نبى غيره ، فطمع فيها ، فاستعد لذلك ، ولم يشك أنه الذى يلى ذلك » ، وليس لذلك سند تاريخى أو علمى ، وقد حاصر القسطنطينية قبل أيام سليمان المسلمون في عهد عثمان بن عفان ومعاوية ابن أبى سفيان ، واسماهما ليسا اسم نبى ! !

(١) انظر سيرته في قادة فتح المغرب العربى (١/ ٢٢١ – ٣٠٩) .

(٢) الرساتيق : جمع رستاق ، وهى كلمة فارسية ، وهو كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس ، بمنزلة السواد عند أهل بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٧ – ٣٨) .

(٣) انظر البداية النهاية (٩/١٧٤ – ١٧٥)

(٤) انظر البداية والنهاية (٩/١٧٥) ، والعنوة : أخذ الشىء بالغلبة ، وهو ضد الصلح ، انظر معجم البلدان (١/٤٠) .

لإنجـــاز استحضارات قواته ، وكان الخليفة حين يعتزم أمراً خطيراً له مابعده فى مجال الإعداد العسكرى تطبيقاً لخطة سوْقيَّة حاسمة ، يكتب إلى أمرائه على الأمصار ، ليعد كل أمير أو وال الجيش المناسب للعمل العسكرى المناسب ، وهذا مافعله سليمان سنة سبع وثمانين الهجرية ، واتخذ من مدينة (دابق)[١] بعيداً عن عاصمته (دمشق) مقراً له ، لئلا يشغل بأمور الدولة الأخرى ، وليكون كل وقته من أجل إعداد القوات العسكرية القادرة على الفتح ، إذ تفرغ لهذا الهدف الحيوى تفرغًا كاملا ، وبذل كل طاقاته المادية والمعنوية لتحقيقه .

وحسْب سليمان أنه قضى مدة خلافته بـ (دابق) ، من أجل إنجاز استحضارات قوات فتح القسطنطينية قبل الحملة ، ومن أجل الإشراف على سير القتال فى أثنائه ، حتّى توفاه الله هناك ، فدفن فيها شهيداً بحق من شهداء فتح عاصمة الروم .

(١) دابق : قرية بقرب حلب من أعمال (عزاز)، بينها وبين (حلب) أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب كان ينزله بنو مروان ، إذا غزوا الصائفة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٤) .

لم يبق أمام سليمان بعد إكمال استحضارات قواته وحشدها غير اختيار القائد المناسب لمثل هذه المهمة الحيوية ، فاختار أخاه مسلمة .

ففى سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م — ٧١٧ م) ولّى سليمان أخاه مسلمة قائداً عامًا للقوات الغازية للقسطنطينية[١] ، فسار مسلمة على رأس جيشه اللجب المؤلف من مائة وعشرين ألفًا[٢] فى رواية ، ومن مائة وعشرين ألفًا فى البر ومائة وعشرين ألفًا فى البحر[٣] يؤيد ذلك المصادر غير العربية[٤] ، وأرجح الرواية الأولى ،

(١) الطبرى (٥٣/٦) وابن الأثير (٥/ ٢٧) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) وأبو الفدا (٢٠٠/١) والعبر (١١٦/١) وابن خلدون (١٥٥/٣) مختصر تاريخ الدول لابن العبرى (١١٤) ، وفى تاريخ الإسلام للذهبى (٣٠٢/٤) : « قال زيد بن الحباب : أنبأ الوليد ابن المغيرة عن عبيد الله بن بشر الغنوى عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها» ، قال فدعانى مسلمة فحدثته بهذا الحديث ، فغزاهم » ، رواه أبو كريب وأحمد بن الفرات عن زيد .

(٢) دول الإسلام (٥٨/١) مختصر تاريخ الدول (١١٥) والبدء والتاريخ (٤٣/٦)

(٣) البداية والنهاية (١٧٥/٩) وانظر خطط الشام (١٢٣/١) .

(٤) فتح القسطنطينية (٣٨) : تعلم المسلمون =

لصعوبة حشد مثل هذه القوات الجسيمة بالنسبة لذلك الوقت فى جبهة واحدة ، كما أن المصادر الأجنبية تبالغ فى تعداد قوات المسلمين ــ خاصة البحرية منها ــ لتبرز أهمية النصر على تلك القوات وردها خائبة عن القسطنطينية دون أن تحقق أهدافها المرسومة .

لقد زعمت بعض تلك المصادر الأجنبية ، أنّ المسلمين حملوا قواتهم البحرية التى تعدادها مائة وعشرون ألف مقاتل على ألف وثمانمائة سفينة[1] ، وهذا مالا يتيسر للمسلمين حينذاك .

ومع هذا ، فقد كان جيش مسلمة المؤلف من مائة وعشرين ألفًا ؛ بريًّا فى أكثره وبحريًّا منقولاً بالسفن فى أقله ، حتى يستطيع فرض الحصار براً وبحراً فى آن واحد ، كما سنجد ذلك فى خطة مسلمة فى الحصار حسب مجرى الحوادث للمعركة .

وكانت مدينة (دابق) هى القاعدة المتقدمة لحشد جيش مسلمة ، فقد سار مسلمة حتى نزل (دابق) وجاءته الأخبار من كل ناحية[1] : من الشام والجزيرة[2] ، فسار إلى أرض الروم وانضم إليه فيها جيش المسلمين الذين كانوا هناك[3] ، وسلك طريق (مَرْعَش)[4] فافتتح مدينة (الصَّقَالِبَة)[5] وهجم الشتاء ، فانحرف مسلمة بجيشه إلى مدينة (أفيْق) [6] وشتّى بها وهى ليست القرية من (حوران) فى طريق (الغور)وهوغور(الأرْدُن) المعروف ، إذ ليس من المعقول أن يعود إلى (الأردن)

= من تجربة الحصار الأول ، أن ليس فى استطاعتهم خرق الأسوار المنيعة ، لذلك بنو خطتهم هذه المرة على إنزال بحرى ، يقال : إنهم أعدوا لذلك ألفاً وثمانمائه سفينة تنقل مائة وعشرين ألف محارب جاهزين للإنزال » .

(١) فتح القسطنطينية (٣٨) .

(١) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٥) .

(٢) البداية والنهاية (٩/١٧٥) .

(٣) البداية والنهاية (٩/١٧٤) .

(٤) مرعش : مدينة الثغور بين الشام وبلاد الروم ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/ ٢٥) وهى مدينة صغيرة ، انظر تقويم البلدان (٢٦٢) بينها وبين مدينة (الحدث) وهى من الثغور خمسة فراسخ ، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢١٦) .

(٥) الصقالبة : جيل حمر الألوان صهب ، الشعور يتاخمون بلاد الخزر فى أعالى جبال الروم انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٥/٣٧٢) والقاموس المحيط(١/٩٣) ولسان العرب (٢/ ١٤ وهم السلاف (Slaves) أو الجنس السلافى ، وجبال الروم هى : جبال الطوروس . ومدينة صقالية : مدينة تقع بين (دابق) و(عمورية) فى جبال طوروس .

(٦) أفيق : قرية من حوران فى طريق الغور (الأردن) ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١/٣٠٧) .

ليقضى الشتاء فيه ، والظاهر أن (أفيق) تقع فى منطقة (عمورية) فى السهل الواقع شمالى جبال (طوروس)، وهذا السهل أقل برداً فى الشتاء من جبال (طوروس) التى تغطيها الثلوج شتاء وفى أكثر شهور الربيع أيضا .

ولما خرج الشتاء ، سار مسلمة إلى (القسطنطينية) حتى نزل (عمورية) ، وبطريقها[1] (لِيُون) بن قسطنطين المرْعشى ، فوادعه مسلمة وأعطاه رُهْنا وأخذ منه مثل ذلك ، على أن يناصحه ويظاهره على أهل (القسطنطينية) ويكون عونا له ، وملك القسطنطينية يومئذ (ثيودوس) وهو (ثيودوسيوس الثالث) الذى حكم من سنة (٧١٥ م إلى ٧١٧م) وهو من أسرة (هِرَقل)[2]

وكان (ليون) أو (ليو) هذا ، نصرانيًا من سكان مدينة (مَرْعش) وله بها كنيسة مشهورة تنسب إليه ، أتى القسطنطينية فى أيام الفتن التى كانت بها ، فصار مشهوراً ببيع الخمر وكان فصيحاً بالعربية والرومية . ثم إنه انخرط فى سلك الجندية وشهد المعارك الدائرة بين المسلمين والروم وأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة ، فقدمه الروم ، ولم يزل ينتقل فى المنزلة إلى أن صار (بطريق) مدينة (عموريّة) .

وقيل : إنه لما جاء إلى (عمورية) بكتاب الملك على أنه (بطريق) ردوه وقالوا له : مثلك لا يلينا ، لأنك نبط من أنباط العرب . فقال لهم : « إنى لا أتولى عليكم إلا بأمركم ، وقد بلغكم حالى ورُجلتى وغنائى ، وحالكم مختلط ، ومُلككم مضطرب ، والفتن كثيرة ، وهذا مسلمة بن عبد الملك قد شارف بلادكم ، وهو يُوقع بكم ، فأدخلونى وفوّضوا إلىّ أمركم ، فإن قمتُ فيه كما تُؤْثرون وإلا فأخرجونى واصنعوا بى ما أردتم » . فقالوا : صدق ، فأدخلوه إليهم وولّوه أمرهم ، فنزل به مسلمة وهو يريد (القسطنطينية)[1] .

ولا تختلف هذه الرواية العربية كثيراً عن الرواية الأجنبية التى جاء

(١) البطريق ، رتبة عسكرية فى جيش الروم ، وهو قائد فرقة ، والفرقة فى جيش الروم تتألف من عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق ، ويشابه البطريق فى التنظيم الحديث قائد فرقة برتبة لواء ، انظر عقبة بن نافع الفهرى (٥٨) — الطبعة الرابعة .

(٢) انظر : الإمبراطورية البيزنطية (٤٠١ — ٤٠٣) .

(١) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٣٦ـ ٣٧) ، وانظر : سنى ملوك الأرض والأنبياء (٦٩)

فيها : أن (ليو) نشأ فلاحاً ثم أصبح جندياً مرتزقا ، وتقدم فى الجندية لشجاعته فى القتال ، حتى وصل إلى القِمة بفضل مقدرته وحدها ، وكان ما يزال شاباً[1] .

ولكن كيف اتصل مسلمة بليون ، هل اتصل به مباشرة كما ذكرنا ، باعتبار أن مسلمة كان قد فتح (عمورية) سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨ م) فهو يعرف مداخلها ومخارجها وأهلها[2] ؟

هناك رواية تذكر : أن (ليون) أتى الخليفة سليمان بن عبد الملك من (أذْرَبِيْجَان) وضمن له فتح الروم ، فوجَّه مسلمة معه ، فسارا إلى (القسطنطينية)[3] .

وأرجح أن مسلمة اتصل مباشرة بليون ، الذى كان المسئول عن المنطقة الأمامية للدفاع عن (القسطنطينية) بصفته بطريق (عموريَّة) ، لذلك لم يذكر المؤرخون أن مسلمة صادف مقاومة تذكر فى صفحة مسير الاقتراب أثنـــاء تقدمه من (عموريَّة) حتى (القسطنطينية) ، مما يدل على نجاح مسلمة فى استمالة (ليون) إلى جانبه ، ومن الواضح أن (ليون) كان طموحاً جداً ، وكان يتطلع إلى أن يكون امبراطور الروم ، فوادع مسلمة كمرحلة لتولى السلطة تحقيقا لمطامعه — خاصة بعد وفاة امبراطور الروم السابق (ثيودوسيوس الثالث) آخر أباطرة أسرة (هرقل) .

واستصحب مسلمة (ليون) ليدله على الطريق والعورات ، وأخذ عهوده ومواثيقه على الوفاء والمناصحة[1] ، وكان (ثيودوسيوس) ضعيف الرأى ، سيئ التدبير عاجزاً فيما تقلده من أمر الروم ، وكان أمر الرُّوم مضطرباً وأيامهم أيام هرج ومرج[2] .

أما جيش المسلمين بقيادة مسلمة ، فقد كان موضع اهتمام الخليفة سليمان بن عبد الملك : أخرج لهم الأعطية ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو (القسطنطينية) والإقامة إلى أن يفتحوها ، ثم سار سليمان من (بيت المقدس)

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ – ٣٩) ، وفى تاريخ خليفة بن خياط (١/٣٢١) : أن مسلمة شتى بضواحى الروم .

(٢) جاء فى البداية والنهاية (٩/١٧٤) : « ثم إن مسلمة داخل رجلا من النصارى يقال له : إليون ، وواطأه فى الباطن ليأخذ له بلاد الروم » ، وانظر أيضاً البدء والتاريخ (٦/٤٣ – ٤٤) .

(٣) ابن الأثير (٥/٢٧) وابن خلدون (٣/١٥٥) وانظر الطبرى (٦/٥٣١) الذى ذكر أن (ليون) قدم من (إرمينية) .

---

(١) البدء والتاريخ (٦/٤٤) .

(٢) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٣٦) .

إلى (دمشق) وقد اجتمعت له العساكر، فأمَّر عليهم أخاه مسلمة ثم قال : « سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف » . ثم سار سليمان، حتى نزل (مَرْج دابق) ، فاجتمع إليه الناس أيضًا من المتطوعة والمحتسبين أجورهم على الله ، فاجتمع له جند عظيم لم يُرَ مثله[1] .

وانطلق مسلمة بهذا الجيش ، فلما دنا من (القسطنطينية) ، أمر كل فارس أن يحمل معــه مُدَّيْن[2] من طعام على عجز فرسه إلى (القسطنطينية) ففعلوا ، فلما أتاها أمر بالطعام فألقى أمثال الجبال ، وقال مسلمة للمسلمين : « لا تأكلوا منه شيئاً ، وأغيروا في أرضهم وازرعوا » ، وعمل بيوتاً من خشب ، فشتى فيها وصاف ، وزرع الناس ، وبقي الطعام في الصحراء ، والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات ومن الزرع[1] .

هكذا كان جيش مسلمة من الناحية الإدارية منظماً تنظيمًا جيداً ، وكانت خطته الإدارية خطة جيدة أيضاً ، وللخطة الإدارية الجيدة أثر بالغ في إحراز النصر ، لأنَّ الجندي يمشي على بطنه كما يقول المثل العسكري المشهور .

ولكنَّ أرزاق جيش مسلمة لم تقتصر على ذلك ، بل جاءته العلُوفة والأطعمة ونقلت إليه من الضواحي ومن رساتيق الروم وجاءته في المراكب[2] ؛ كما حشد لجيشه السلاح ، فجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك[3] ، وهكذا استكمل مسلمة

---

(١) البداية والنهاية (٩/١٧٥) .

(٢) المد : من المكاييل الإسلامية ، يختلف من قطر إسلامي إلى آخر ، والمد السوري يساوي (٢,٨٤) كغم ، انظر التفاصيل في هنز ((Walther Hinz)) – المكاييل والأوزان الإسلامية (٧٤ – ٧٧) – منشورات الجامعة الأردنية – ترجمة الدكتور كامل العسلي – عمان – ١٩٧٠ ، وانظر ترتيب القاموس المحيط (٤/١٩٨٢) ومعجم متن اللغة (٥/٢٦١) ، وتنفيذاً لأمر مسلمة يحمل كل فارس مدين ، أي يحمل ما يساوي (٥و٦٨) كغم ، وحمل مثل هذه الكمية القليلة غير معقول ولا يؤدي إلى الغرض المطلوب ، وهو تكديس كيات من الطعام لغرض حصار طويل . وأرى أن مسلمة في قوله : يحمل كل فارس مدين ، لا يريد المعنى الحرفي ، بل يريد : أن يحمل كل فارس ما يستطيع من أرزاق ، والمقدار الذي يحمله الفارس هو عشرون كيلو غراماً كمعدل ، وهذا نتيجة لخبرتي الشخصية باعتباري ضابطاً في صنف الخيالة (سلاح الفرسان) .

---

(١) الطبري (٦/٥٣٠) وابن الأثير (٥/٢٧) ، وفي التنبيه والإشراف (٢٩٠) : وكان مسلمة بن عبد الملك لما بنى مدينته التي على خليج القسطنطينية سماها : مدينة (القهر .)

(٢) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٦)

(٣) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٤)

قضاياه الإدارية تسليحاً وتجهيزاً وأرزاقاً وعلفاً وإسكاناً ، فأعد بخطته الإدارية هذه متطلبات النصر إدارياً .

تلك هى مجمل خطة مسلمة الإدارية ، فما هى خطته العسكرية فى الحصار ؟

تحتل مدينة (القسطنطينية) موقعاً سَوْقِيّاً (استراتيجياً) فريداً ، حبته الطبيعية بأهم عوامل الدفاع الطبيعية التى تساعد المدافعين عنها على الثبات . تحوطها من الشرق مياه البسفور ، وتحدها من الغرب والجنوب مياه (المرمرة) ويقسمها (القرن الذهبى إلى قسمين عظيمين هما : (بيرا) وهو القسم الشمالى الشرقى ، و (استانبول)[1] وهو

(١) استانبول : يسمى المسلمون (Constantiniple) بالقسطنطينية ، أما فيما يتصل باسمها البيزنطى الذى يقال إن منه اشتق لفظ (استانبول) وهو الاسم التركى الحديث ، فإن المسعودى فى النصف الأول من المئة الرابعة الهجرية والعاشرة الميلادية كتب فى كتابه : (التنبيه) ص (١٣٨) : أن الروم فى أيامه كانوا يسمون عاصمتهم : (بولن) – (Polin) أى (Bulin) ، ومعناها المدينة : «وإذا أرادوا عنها أنها دار الملك لعظمها قالوا : (استن بولن) ، ولا يدعونها : القسطنطينية ، وإنما المسلمون تعبر عنها بذلك» ، واستن معناها : دار الملك أو العاصمة ، واستن بولن معناها مدينة دار الملك ، أو المدينة العاصمة . ف (استن بولن) هى : (استانبول) .

المدينة البيزنطية الحقيقية . وتحتل (استانبول) مثلثا عظيماً من المرتفعات الصخرية ، تشرف قاعدته على (المرمرة) وضلعه الأيمن على مياه (القرن الذهبى) والميناء ، وكان كل من هذين الجانبين يحرسها سور واحد . أما الضلع الثالث وطوله ستة أميال ، فهو الجانب المتصل بالقارة الأوروبية ، يحميه خط مزدوج من الأبراج والحصون المنيعة ، وخندق واحد مزدوج ، وفيه عدة أبواب ، وفى كل زاوية من زوايا المثلث الثلاث قلعة منيعة ، وكانت مياه القرن الذهبى الذى يحمى ضلع المدينة الشمالى الشرقى ، تغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور (غلطة) وسور (استانبول) .

وهكذا تهيأت أسباب الدفاع المديد لهذه المدينة : أسباب طبيعية ، وأسباب صناعية ، مما جعلها موقعا حصينا وقلعة آمنة ، من الصعب على الغزاة احتلالها[1] .

وكان بنو أميّة دولة وجيشاً ، يهتمون كثيراً بجمع المعلومات المفصلة الدقيقة عن أعدائهم ، وكانت وسائلهم وأساليبهم للحصول على هذه المعلومات كثيرة

(١) بين العقيدة والقيادة (٣٥٥ – ٣٥٦) وانظر مواقف حاسمة (١٧٥) .

ومتعددة ، كالعيون والأسرى والتجار والمرابطين والمجاهدين ونحوهم ، فكانت القيادتان السياسية والعسكرية لبني أمية في الشام تعمل لتحقيق أهدافها الحيوية وهي على بصيرة من أمرها ، فهي تعمل مفتوحة العينين في النور لا مغمضة العينين في الظلام .

لقد كانت مخابرات المسلمين تعرف كل شيء عن الروم : قواتهم ، قياداتها ، تنظيمها ، تسليحها ، تدريبها ، ما تعانيه من ثغرات ، طبيعة بلادها ، مواردها التموينية ، مشاكلها الداخلية والخارجية ، وغيرها من المعلومات المفصَّلة الدقيقة .

جعل مسلمة من (عمورية) قاعدة متقدمة ، واتجه شمالا نحو (القسطنطينية) فلاقى مقاومة في طريقه [1] تغلَّب عليها ، حتى وصل إلى (الخليج) وهو المضيق الذي يصل بين بحر (بُنْطُس) [2] وهو البحر الذي نطلق عليه اليوم (البحر الأسود) وبين (القسطنطينية) والبحر الأبيض المتوسط ، فقطع (الخليج) حتى نزل (القسطنطينية) ، وعبر من موضع يقال له (أَبِدُس) [1] ، يكون عرض (الخليج) هناك غَلْوَة [2] سهم — مقدار ثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة — وهو الخليج الذي يدعى بحر (بُنْطُس) يقبل من (إرْمِينِية) ، حتى إذا صار إلى (القسطنطينية) افترق من وجهين : شمالاً وشرقاً ، فإذا بلغ (أَبِدُس) ضاق حتى يصير مقدار غَلْوَة بين جبلين ، وبين (أَبِدُس) والقسطنطينية مئة ميل (الميل العربي = كيلومتران) [3] في مستوى من الأرض وسهولة [4] .

---

(١) انظر : M. A. Cheira — (La Lutte entre Arabes et Byzantins). (١٨٠ — ١٨١) وفيه : قامت الحملة بأعمال ضد نيقيا وبرغر وساردوس .

(٢) بحر بنطس : بحر يعرف بهذا الاسم عند اليونانيين ، وهو البحر الذي يتفرع منه خليج القسطنطينية ، أوله في أطراف بلاد الترك في الشمال ويمتد إلى ناحية المغرب والجنوب حتى يتصل ببحر الشام ، وقبل اتصاله ببحر الشام يسمى : بنطس ، انظر معجم البلدان (٢/٦٦) و (٢/٩٣م) وهو البحر الأسود .

(١) لم أجد لها ذكراً في المصادر الجغرافية العربية القديمة التي بين أيدينا ، والموجود هو (اندس : مدينة على غربي خليج القسطنطينية .

(٢) الغلوة : مقدار رمية سهم ، وتقدر بثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة .

(٣) الميل : أربعة آلاف ذراع شرعي ، انظر معجم البلدان (١/٣٥) وهو كيلومتران ، انظر المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري (٩٥) .

(٤) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٦) وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤) .

ومن الواضح أنّ مسلمة عبر من غرب القسطنطينية ، فمدينة (أبدُس) تقع بعد القسطنطينية بالنسبة للبحر الأسود استناداً إلى نص ما جاء عن العبور : « حتى إذا صار إلى القسطنطينية (يريد البحر الأسود) افترق من وجهين : شمالاً وشرقاً ، فإذا بلغ (أبدُس) ضاق . . . إلخ » ، فهو – أى مسلمة قد عبر من المضيق الغربى للقسطنطينية ، كما أنه لا مضايق شمال هذه المدينة يمكن عبورها بسهولة ويسر . ثم إن (أبدُس) التى ورد ذكرها فى هذا النص هى مدينة (أنْدُس) ، وهى مدينة على غربى خليج القسطنطينية بين جبلين ، بينها وبين القسطنطينية ميل فى مستوى من الأرض [1] .

لا أتصوّر أنّ هناك مسوّغا لعبور مسلمة على بعد مئتى كيلومتر (مئة ميل عربى) من القسطنطينية ، فهذه مسافة شاسعة جداً من ناحية ، ولا وجود لمضيق على بعد مئتى كيلومتر من القسطنطينية شمالاً أو جنوباً يمكن عبوره بجيش ضخم مع تجهيزاته العسكرية ووسائل تنقله البرية ومواده الإعاشية ونحوها ، والظاهر أنه عبر من مسافة ميل واحد عربى (كيلومترين) من غرب القسطنطينية . لأنه عبر من (أنْدُس) وهذه المسافة مناسبة حقًّا ، والموقع بين جبلين يخفى العبور عن رصد العدو ، وقد استفاد مسلمة من السفن التى رافقت حملته فى العبور ، والظاهر أنه لم يلق مقاومة تذكر فى عبوره .

وبذلك أنهى مسلمة مرحلة (مسير الاقتراب) [1] من خطته التى رسمها لفتح القسطنطينية ، وبدأ مرحلة جديدة ، هى مرحلة : فرض الحصار فى سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب – أغسطس ٧١٦ م) [2] .

طوّق مسلمة بقواته البرية والبحرية مدينة (القسطنطينية) ، فقد طوّقت قواته البرية هذه المدينة بالقرب من الخندق الذى يحيطها من جوانبها البرية يجرى الماء فيه [3] . كما سدت هذه

---

(١) انظر معجم البلدان (١/٣٤٧) ، ومن المحتمل أن تكون مدينة (أبدس) قد حرفت إلى (أندس) .

(١) مسير الاقتراب : تقدم الجيش من قواعده الرئيسية أو قواعده الأمامية أو المتقدمة إلى ساحة القتال حتى التماس بالعدو .

(٢) (La Lutte entre Arabes el Byzantins) انظر التفاصيل (١٨٠ – ١٨٥) .

(٣) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٧)

القوات المنافذ البحرية من الشمال ، بوضع مراكز مراقبة بريّة قوية على الساحل مزوّدة بالمنجنيقات ، ومن المحتمل جداً أن تستفيد هذه المراكز من السفن المحلية التى يعمل فيها المسلمون أو المرتزقة للمعاونة فى سد المنافذ البحرية للقسطنطينية من الشمال ، ولكن هذه المراكز لم تكن كافية ، وهى ثغرة فى خطة الحصار ، لأن تلك المنافذ البحرية يجب أن تغطى بمراكز مراقبة بحرية لا مراكز برية قوية وقوات بحرية غير كافية.

أما البحرية الإسلامية التى جاءت من سورية ومصر ، فقد قاتلت أسطول الروم فى (رودس) وأسرت بعض سفنه ودمّرت أخرى ، وكان بحارة الأسطول الرومى فى عصيان حينذاك ، ينقصهم الضبط والنظام ، كما هاجمت البحرية الإسلامية سواحل آسيا الصغرى حتّى وصلت إلى قرب القسطنطينية ، فسدّت المنافذ البحرية لهذه المدينة استكمالاً لخطة تطويقها .

وعند حلول موسم الشتاء ، أمر مسلمة أن يبنى رجاله بيوتاً من الخشب[1] ، لتقيهم المطر والثلج والبرد ، وأمر الناس بالزراعة ، فصاف وشتّى وهم يأكلون من زراعتهم ، وطعامهم الذى استاقوه مُدّخَراً[1] .

وكان هدف مسلمة من خطته الإدارية وخطة العمليات ، هو ما ذكره علناً لرجاله : « إنا لا نرجع عن هذا البلد إلا أن نفتحها إن شاء الله »[2] ، وكان سبيله لتحقيق هدفه : فرض الحصار المديد ، لكى يستسلم المحاصَرون جوعاً .

ومنذ فرض الحصار على القسطنطينية حتّى انسحب المسلمون إلى قواعدهم ، جرت حوادث القتال فى صفحات ثلاث .

الصفحة الأولى من تاريخ فرض الحصار فى أواخر صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب – أغسطس ٧١٦ م) حتّى تولى ليون الثالث عرش القسطنطينية فى سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ مارت – مارس – ٧١٧ م)[3] ، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم : صفحة (المبادرة) .

---

(١) الطبرى (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) .

(١) ابن خلدون (١٥٥/٣) وانظر الطبرى (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) .

(٢) البداية والنهاية (١٧٤/٩) .

(٣) البحر الزاخر (٣٦٧/٢) .

وبالرغم من أن المصادر العربية وغير العربية لا تذكر معلومات وافية عن أعمال الجيوش الإسلامية والرومية ، إلا أننا نستطيع أن نذكر أن مسلمة فى هذه الصفحة هاجم أسوار القسطنطينية مرتين : الأولى بحشد أربعة آلاف مقاتل ، وكان اتجاه هجومه منطقة (باب الذهب) ، والثانية بحشد ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكنه لم ينجح فى هذين الهجومين [1] .

واستطاع المسلمون أن يؤثروا فى الروم المحاصرين تأثيراً شديداً ، فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً ليرحل عنهم ، فلم يقبل مسلمة [2] بهذا العرض ، وأصر على فتح المدينة .

وأقام مسلمة محاصراً القسطنطينية قاهراً لأهلها [3] ، مانعاً لهم من كل مرفق براً وبحراً [4] ، وكان معتمداً على جيش المسلمين وعلى جماعة من الروم على رأسهم ليون ، الذى عاون مسلمة فى هذه الصفحة حتى استحوذ على ثقته التامة .

وبعث مسلمة ليـــون إلى أهـــل القسطنطينية فى رسالة ، فلما دخل عليهم ليون قالوا له : رده عنا ونحن نملكك علينا [1] ، فاستوثق منهم وتولى عرشهم [2] ، وبذلك تكللت جهود

(١) La Lutte Entre Arabes et Byzantine انظر التفاصيل فى (١٨٠ – ١٨٥) .

(٢) ابن الأثير (٥/٢٧) وابن خلدون (٣/١٥٥) .

(٣) الطبرى (٦/٥٣٠) .

(٤) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٧) .

(١) البداية والنهاية (٩/١٧٤) وفى ابن الأثير (٥/٢٧) : فقالت الروم لليون : إن صرفت عنا المسلمين ملكناك .

(٢) ابن الأثير (٥/٢٧) والبدء والتاريخ (٦/٤٤) ، وقد جاء فى ابن الأثير (٥/٢٧) أتى ليون مسلمة فقال له : « إن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال ، وأنك تطاولهم ما دام الطعام عندك ، فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم » ، فأمر به فأحرق فقوى الروم وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون . وقيل : إنما خدع ليون مسلمة بأن يسأل أن يدخل الطعام إلى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوه بأن أمره وأمر مسلمة واحد ، وأنهم فى أمان من السبى والخروج من بلادهم ، فأذن له ، وكان ليون قد أعد السفن والرجال ، فنقلوا تلك الليلة الطعام ، فلم يتركوا فى تلك الحظائر إلا مالا يذكر ، وأصبح ليون محارباً ، وقد خدع خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها . وفى ابن خلدون (٣/١٥٥) : قال ليون لمسلمة : «لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك قصدتهم بالقتال ، فتأخذهم باليد ، وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم » فأحرق الزرع ، فقوى الروم ، وعذر ليون ، فأصبح محارباً ، وجاء فى الطبرى (٦/٥٣١) ما جاء فى ابن الأثير (٥/٢٧–٨) ومن المعلوم أن ابن الأثير نقل =

. . . .

= نص ما جاء فى الطبرى . وفى البداية والنهاية (١٧٤/٩) : قال ليون لمسلمة : « إنهم – أى أهل القسطنطينية – ما داموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم فى القتال ، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم ، وسلموا إليك البلد سريعاً » فأمر مسلمة بالطعام فأحرق ، ثم أبحر ليون بالسفن فأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش فى الليل ، وأصبح فى البلد وهو محارب المسلمين . وفى البدء والتاريخ (٤٤/٥) : قال ليون لمسلمة : « لا يفتحون مالم يتنح عنهم » ، فارتحل مسلمة وتنحى إلى بعض الرساتيق ، فدخل ليون ولبس التاج وقعد على سرير الملك وأمر بنقل الطعام والعلوفات من خارج ، فلأوا الأهراء وشحنوا المطامير . وفى العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٨) : أن مسلمة أرسل ليون مع جماعة من أهل ثقاته إلى أهل القسطنطينية يقول لهم : لست أرحل عنكم حتى تملكوا مولاى ليون ويسلم إليه ملككم ثم أرحل عنكم وأدعكم وبلادكم ودينكم وكنائسكم . . .

وأرى أن هذه أشبه بالأساطير منها بالحقائق التاريخية ، فليس هناك قائد يحرق مواد جيشه الغذائية ، وليس هناك قائد يفسح المجال لعدوه بأخذ مواد جيشه التموينية ، وليس هناك قائد يتخلى عن الحصار ويذهب بعيداً تاركاً غلات جيشه كسباً للعدو . كما أن الحجج التى قدمها ليون لمسلمة لا تقنع عاقلا ، إذ كيف يستسلم العدو والجيش إذا أحرقت المواد التموينية لذلك الجيش ، بينما المعقول أن يستسلم العدو إذا وجد خصمه قد كدس الأرزاق الكافية لإدامة حصار طويل ، وكل محاصر يستسلم غالباً من الجوع ، ولا نعرف جيشاً استسلم من الشبع ! !

وليس إجماع المؤرخين حجة دامغة على صحتها ، فالخلف ينقل عن السلف ، وقد اتهم بنو أمية =

ليون التى بذلها لتولى العرش بالنجاح .

لقد كان بإمكان مسلمة أن يحقق إنجازات عسكرية فى هذه الصفحة أكثر مما حققته عملياً ، لولا ثقته بليون الذى منّاه بفتح القسطنطينية بالمكر والخداع ، فاستنام مسلمة لتلك الأمانى العذاب ، وأخيراً ظهر له أن ليون لم يكن حرياً بكل هذه الثقة ، وهو يعمل لنفسه مسخِّراً مسلمة لتحقيق مصالحه الذاتية .

والمهم هو أن نذكر أن قسماً من المؤرخين صوروا أن مسلمة كان ضحية لمكيدة من مكايد ليون جعلته يحرق أكداس الأرزاق والعلف لجيش المسلمين ، وهذه مكيدة لا يقع فيها عاقل كمسلمة ، بل لا يقع فيها أى عاقل ، كما أن اختلاف الروايات لمختلف المؤرخين ، يؤدى إلى زعزعة الثقة بتلك الروايات ، هذا بالإضافة إلى أنها روايات متهافتة لا يصدقها عاقل ، فهى أقرب إلى حكايات الأخباريين منها إلى حقائق المؤرخين .

=بكثير من التهم – خاصة وأن تاريخهم سجل بعد زوال ملكهم وتولى أعدائهم من بعدهم ، فلا يستبعد أن يفترى مفتر ، فيروى ما سمعه المؤرخ ، فيأتى من بعده فينقلون تلك الفرية ، وقد كان مسلمة معروفاً بالدهاء ، فكيف تجوز عليه خدعة لا تجوز على أى إنسان حتى ولو كان من أغبى الأغبياء ! ؟

ولعلّ مصدر تلك الروايات أعداء الأمويين، وما أكثرهم عدداً، وما أشد عداوتهم وأعظمهم لدداً. تلك هى الصفحة الأولى من صفحات حصار القسطنطينية وهى صفحة (المبادرة)، وهى المبادرة التى لم يستند منها مسلمة كما ينبغى، لتحقيق نصر عسكرى وسياسى للمسلمين.

أما الصفحة الثانية فتبدأ بتولى (ليون الثالث)[1] عرش القسطنطينية فى

. . . .

---

(١) ليون الثالث: ليون المرعشى، انظر البدء والتاريخ (٦/٤٣ – ٤٤) وهو ليون بن قسطنطين المرعشى، انظر العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٥)، نشأ فلاحاً ثم أصبح جندياً مرتزقاً، وتقدم فى الجندية لشجاعته فى – القتال، ووصل إلى القمة بفضل مقدرته وحدها، وكان ما يزال شاباً، انظر فتح القسطنطينية (٣٨ – ٣٩). وفى ٢٥ مارت (مارس سنة ٧١٧م جلس ليون الثالث على عرش الأمبراطورية البيزنطية الشرقية وأسس عائلة جديدة عرفت بالعائلة (الايسوريانية)، وكان من أهل (أيسوريا) واسمه الأصلى كونون، وقد قدح فيه المؤرخون الذين من عادتهم القدح والذم، ووصفوه بأنه كان طوافاً على حمار له فى الأمصار يبيع الفراخ، وأن أباه هاجر من آسيا الصغرى وأقام فى نواحى (ثراسة) وعمل فى بيع الحشيش، عمل ليون جندياً وترقى بالتدريج واشتهر اسمه وعلا قدره فى الحرب، فعينه بسطاس قائداً للفرق الأنضولية حتى اختير، امبراطوراً، انظر البحر الزاخر (٣/٣٦٧)، وكان نصرانياً من سكان (مرعش)، فأتى (القسطنطينية) فى أيام الفتن التى كانت بها وصار مشهوراً ببيع الخمر، وكان فصيحاً بالعربية والرومية، وقد حضر الحرب الدائرة بين المسلمين والروم، فأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة، فقدموه، ولم يزل ينتقل فى المنزلة إلى أن صار (بطريق) عمورية. وقيل: إنه لما جاء إلى عمورية بكتاب الملك على أنه (بطريق) ردوه وقالوا له: مثلك لا يلينا، لأنك نبطى من أنباط العرب. فقال لهم: «إنى لا أتولى عايكم إلا بأمركم، وقد بلغكم حالى ورجلتى وغنائى، وحالكم مختلط، وملككم مضطرب والفتن كثيرة، وهذا مسلمة بن عبد الملك شارف بلادكم، وهو يوقع بكم، فأدخلونى وفوضوا إلى أمركم، فإن قمت به كما تؤثرون» وإلا فاخرجونى واصنعوا بى ما أردتم»، فولوه، أمرهم، انظر العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٥ – ٢٦).

وبدأ سلطنته بالمدافعة والمحافظة الكبيرة على القسطنطينية، ولما خلص المملكة. وانقذها من العرب عكف على إحياء رسومها وتقويتها، فنتج من إدخال القوانين والأنظمة الجديدة فيها عصر جديد فى سعادة المملكة وفلاحها، واستتب السلم والأمن فيها، وقد حكم البلاد أربعاً وعشرين سنة، وبعد موته خلفه ابنه قسطنطين الخامس وتولى العرش فى (حزيران ٧٤١م) سنة ثلاث وعشرين ومئة الهجرية، انظر البحر الزاخر (٣ / ٣٦٧)، وانظر أيضاً تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء (٦٩) وابن الأثير (١/ ٣٣٥)، وليون الثالث هو (Leo the Jsau Rian).

وظل المؤرخون يعتبرون أسرة (ليو الثالث) أيسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر، ولكن فى سنة ١٨٩٦م كتب العالم الألمانى (شينك) فى مجلة الأبحاث البيزنطية فى مؤسس هذه الأسرة،

سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ مارت — مارس — ٧١٧م) إلى حلول شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (كانون الأول — ديسمبر ٧١٧ م) ، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم : صفحة (المصابرة) .

ومهما اختلفت الروايات فى حقيقة علاقة (ليو الثالث) بمسلمة بن عبد الملك والطريقة التى اعتلى بها عرش القسطنطينية وتاريخ حياته قبل اعتلاء العرش وبعده ، إلا أنه كان إمبراطوراً عظيماً وقائداً متميزاً محنكاً ، وكان حاذقاً فى وضع الخطط العسكرية[1] .

فقد قدر أنّ الروم سيواجهون حصاراً طويلاً ، لذلك بذل جهده فى تكديس المواد التموينية ، ولما كان هناك خطر الموت جوعاً عند نجاح الحصار البحرى الذى فرضه المسلمون على القسطنطينية ، عمل جهده لتقوية سفنه — وكان عددها قليلاً جداً بالنسبة لأسطول المسلمين ، فهى ليست قادرة على النهوض بمهاجمة الأسطول الإسلامى ، لذلك أمن حمايتها بسلسلة حديدية هائلة أقامها لسد مدخل المرفأ ، فمنع أى سفينة قادمة من الخارج من دخوله ، وكانت هذه السلسلة هى : (السد البحرى)[2] الذى تعلمه منه المدافعون عن القسطنطينية من بعده حتى

=فجعله سورياً لا أيسورياً ، انظر : ا جاء حول ذلك فى : (Scheng, K., Kaiser Leones, Byz.,: V, 296 FF)

ثم جاء بعده من أيده ، انظر :

Jorg, N., Origines de L'Jconoclasme Bulletin Acad, Roumaine, XI, (1924), 149.

وجاء بعده من عارضه ، انظر :

(Kulakovsky, J. A., Hist., of Byzantine, 111, 3 319.)

والسبب فى هذا الاختلاف أن (ثيوفانس) المرجع الرئيسى فى سيرة (ليو) قال عنه من أبناء مرعش (جرمانيكية) ومن أصل إسورى ، انظر :

(Thephanes, Chronographia, ed. Boor, 391).

وكان انسطاسيوس الذى نقل كتاب ثيوفانس إلى اللاتينية فى منتصف القرن التاسع قال فى ترجمته : إن ليون كان من أبناء جرمانيكية ، وأنه كان سورى المولد ، انظر ما جاء حول ذلك فى : (Chronographia Tripertita, ed. Boor, 25) (Sclaves) ، والواقع أن اسطفانوس الأصغر يؤيد القول بالأصل السورى ، ويوافقه على ذلك المؤرخ العربى المجهول صاحب كتاب : العيون والحدائق (٢٥) ، انظر كتاب : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم (١/٢٨٩ — ٢٩١) .

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ — ٣٩) .

(٢) السدّ البحرى هو لإغلاق ممر القرن الذهبى : يبدأ من شمال المدينة ، وينتهى عند حى (غلطة) ، وبالطبع استعملنا الأسماء الجغرافية الحديثة التى لاتزال مستعملة حتى اليوم ، لإمكان إيضاح مكان هذا السد البحرى بالنسبة للدارسين المحدثين ، انظر الخريطة المرافقة .

فتحت على يد محمد الفاتح . وكان لهذا السد دور كبير فى الدفاع عن المدينة المحاصرة ، وأثر فى منع الأسطول الإسلامى من التغلغل فى المياه القريبة من هذه المدينة ، وفى حماية السفن البيزنطية التى تجمعت وراءه من غارات أسطول المسلمين .

ولكن تكديس المواد التموينية وإقامة السد البحرى ، مع الاحتماء بأسوار حصينة منيعة ، والاستفادة من موقع القسطنطينية الحصين المساعد على الدفاع ، غير كافية لترجيح كفة الروم على المسلمين وأخذ (المبادرة) نهائياً منهم ، لأن كل هذه العوامل – على أهميتها – عوامل دفاعية وليست تعرضية ، لذلك ركز (ليو الثالث) طاقاته لابتكار سلاح جديد تعرضى ، فتهيأ له سلاح سرى فتاك هو : (النار اليونانية) ، ذلك السلاح الذى نقل (المبادرة) من أيدى المسلمين إلى أيدى الروم وأثر فى مصير المعركة كلها تأثيراً حاسما .

والمظنون أن رجلاً من أهل الشام اسمه (كالينكوس) هو الذى نقل هذا السلاح إلى الروم ، فى وقت كان الروم فيه بأمس الحاجة إلى هذا السلاح[1] .

(١) تاريخ التمدن الإسلامى (١/١٧٩) .

والمعتقد أن : (النار اليونانية) خليط من النفط والكبريت والقار ، ولكن نسب التركيب كانت سرية ، فكانت ألسنة القائمين بإعداد الخليط تقطع لأغراض الأمن والكتمان ، وكان هذا سراً خاصاً بالقسطنطينية فقط ، احتفظت به طيلة أربعمائة عام[1] .

وقد أفادت هذه النار المدافعين مادياً ومعنوياً ، فاستفادوا منها لفتح ثغرات برية وبحرية بين صفوف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية تسربت منها المواد التموينية للمحاصرين من الروم ، كما رفعت معنويات الروم التى كانت منهارة .

كما أضرت هذه النار بالمسلمين مادياً ومعنوياً أيضاً ، فكبدتهم خسائر فادحة بالأرواح والمواد والسفن ، مما أدى إلى زعزعة معنوياتهم التى كانت عالية فى الصفحة الأولى من الحصار : صفحة المبادرة .

(١) فتح القسطنطينية (٣٩) ، وفى تاريخ التمدن الإسلامى (١/١٨٠) : أن هذه النار مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والأدهان فى شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة ، كانوا يشدونها إلى مقدم السفينة ، فيقذفون منها السائل مشتعلا ، أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان الملوث بالنفط ، فيقع على السفن أو البيوت فيحرقها .

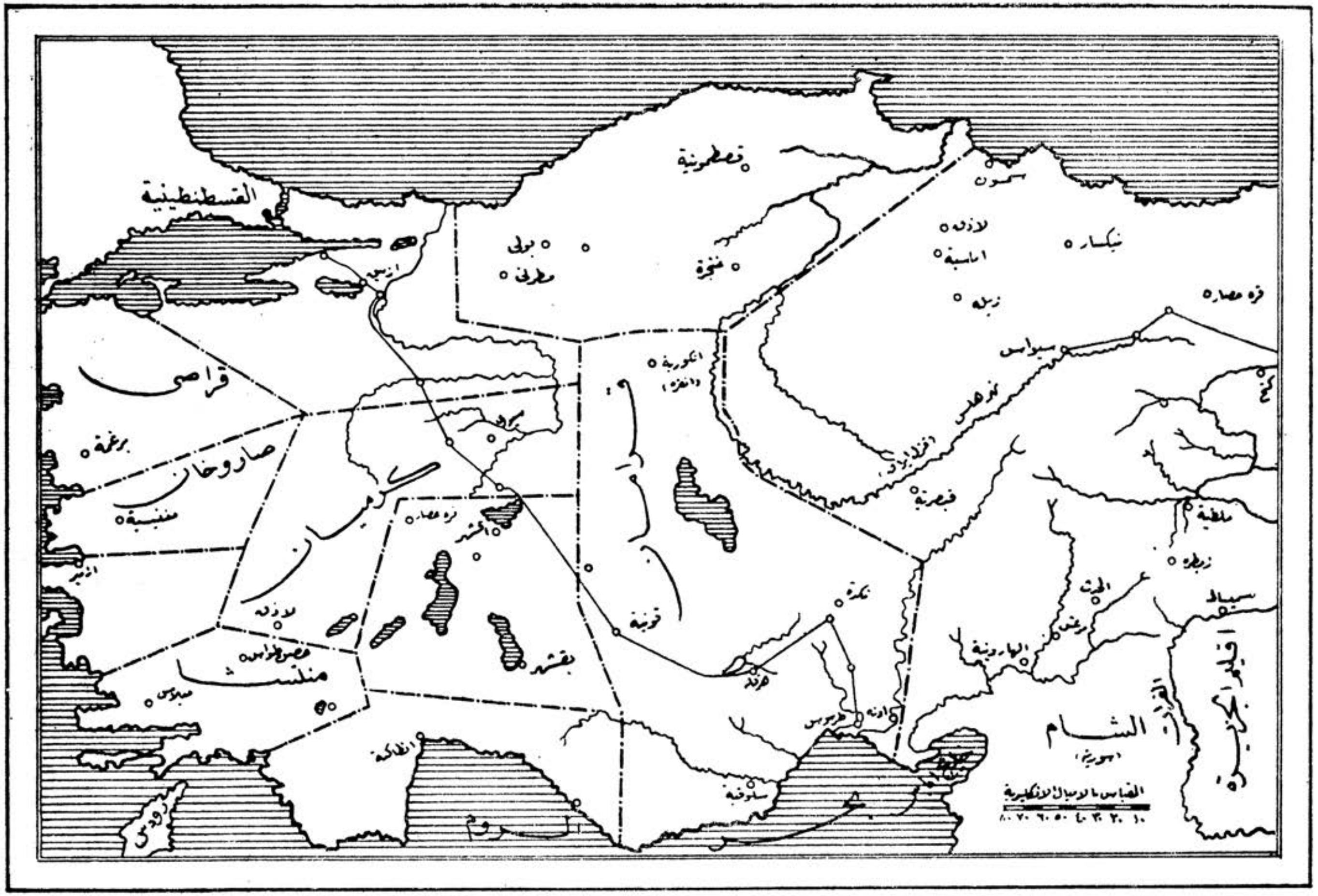
القسطنطينية
قسطمونية
سينوب
لاذقة
نيكسار
اماسية
قره مصاره
سيواس
بولي
قراصي
برغمة
صاروخان
مغنيسية
كرميان
منتشا
انكورية (انقرة)
قيصرية
ملطية
قونية
نكدة
اذنة
طرسوس
سلوقية
الشام
القضابس بالاميال الانكليزية
١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠

بلاد الروم

لقد أصبح موقف الجانب المدافع بقيادة الإمبراطور الجديد الذى أعاد تنظيم قواته ، وادخر لهم ما يكفيهم من مواد تموينية ، مستفيداً من أسوار قوية ودفاعات منيعة تحيطهم من كل جانب ، ومن سفن جيدة فى مرفأ محمى حماية قوية ، توافرت لهم النار اليونانية المؤثرة .

أما موقف المسلمين ، فلم يكن ميئوساً منه ، فكانت الإمدادات تصلهم بانتظام ولكنها لم تكن بشكل تجعل التفوق إلى جانبهم ، وكان أملهم باستعادة المبادرة كبيراً فقاوموا وصابروا وصبروا انتظاراً لقوات ضاربة متفوقة تصلهم من القاعدة لمتقدمة (دابق) التى يرابط فيها سليمان ابن عبد الملك ليشرف على الإمدادات بنفسه .

أما الصفحة الثالثة وهى صفحة : (المكابرة) ، فتبدأ من شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (كانون الثانى — يناير — ٧١٨ م) إلى انسحاب المسلمين من حصار القسطنطينية فى بداية حكم عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

كان موقف الروم فى هذه الصفحة أفضل من موقف المسلمين بكثير ، وكان عامل الوقت بجانب الروم على المسلمين ، فكلما تقدم الوقت ازداد الروم قوة وازداد المسلمون ضعفاً .

انظر خريطة بلاد الروم (ص ٦٩) .

فقد أدى شتاء عام تسع وتسعين الهجرية (٧١٨ م) القارص البرد بثلوجه وأمطاره الغزيرة ، إلى موت آلاف المسلمين ، لأنهم تعودوا الطقس الحار الدافىء ، كما شلت الرياح الهوج العاتية والتيارات البحرية الجارفة فى (البسفور) سفنهم عن العمل[١] .

ونفذت المواد التموينية للمسلمين ولم يبق منها إلا أقل القليل ، فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر وكل شىء غير التراب[٢] .

كما انهارت معنوياتهم ، حتى كان الرجل منهم يخاف أن يخرج من العسكر وحده[٣] .

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك لا يزال مقيماً فى (دابق) ، فلم يقدر أن يمد المسلمين بشىء من الأزواد لكثرة البرد والثلوج[٤] .

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩) .
(٢) الطبرى (٦/٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨) وابن خلدون (٣/١٥٥) ، وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤) .
(٣) الطبرى (٦/٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨) .
(٤) العيون والحدائق (٣٣) وانظر الطبرى(٦/ ٥٣١) وابن الأثير (٥/٢٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) .

لقد كانت الظروف قاسية بالنسبة للمسلمين فى صفحة (المكابرة) بقدر ما كانت مؤاتية بالنسبة للروم .

ولعل الشتاء القارص[1] كان من أقوى حلفاء الروم على المسلمين ، ولكن المسلمين تحملوا وصبروا إلى درجة (المكابرة) ، حتى ضاق بهم الأمر ، فكان لا بد لهم من التخلى عن الحصار والانسحاب إلى قواعدهم .

ولكن لم تكن هذه العوامل وحدها هى التى جعلت كفة الروم ترجح على كفة المسلمين فى ميدان القسطنطينية بالرغم من أهميتها ، إذ كان لتشبثات (ليو الثالث) التعبوية والإدارية أثر ملموس فى رجحان كفة الروم فى ذلك الميدان .

فقد كان من ترتيبات (ليو) التعبوية قصف تجمعات المسلمين بالنار اليونانية فأدى ذلك إلى ابتعاد قواتهم عن الأسوار، فأصبح موقفها موقف المراقب ، ولم يعد لها تأثير مباشر على المدينة المحاصرة[2] .

كما أن (ليو) دأب على شن الغارات الليلية على قوات المسلمين ، كما دأب على وضع الكمائن لهم ، وهذا أدّى إلى تردى معنويات المسلمين كما ذكرنا .

---

(١) كان شتاء سنة ١٩٤١ قارساً فى روسيا ، فكان من أهم عوامل إخفاق المحور فى هجومهم على الاتحاد السوفياتى .

(٢) يبدو أن (ليو الثالث) حرض الصقالبة على المسلمين الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية لكى يخفف الحصار على المدينة المحاصرة .

فقد جاء فى البداية والنهاية (٩/٣٢٨) : أن مسلمة غزا القسطنطينية فحاصرها ، وافتتح مدينة الصقالبة ، وكسر ملكهم البرجان ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية . . . انتهى .

وفى معجم البلدان (٥/٣٧٢) : الصقالبة بلاد بين بلغار وقسطنطينية . . . انتهى .

أقول : ليس : من المستبعد أن يستعين (ليو الثالث) بجيرانه الغربيين لمحاربة المسلمين المحاصرين للقسطنطينية ليشغل قواتهم ويكبدها الخسائر تخفيفاً لضغطها على مدينة ، فأجبر مسلمة على تخصيص قوة مناسبة من قواته لمحاربتهم، مع إبقاء قواته الضاربة محاصرة للقسطنطينية ، والمصادر الأجنبية تؤكد أن (ليو الثالث) تلقى مساعدات حربية من الصقالبة ، وهذا من جملة محاولات (ليو الثالث) لكسب المعركة وجعل المسلمين يخفقون فى مهمة فتح القسطنطينية .

والصقالبة هم ما يسمون : (Solaves) .

والمصادر الأجنبية تؤكد معاونة البلغار لليو الثالث ، ولكنها تبالغ كثيراً فى جدوى تلك المعاونة ، فتدعى أن البلغار فاجأوا جيش مسلمة من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً ، انظر التفاصيل فى : (The ophanes, Chron., 395 — 399).

فكم كان عدد البلغار والمهاجمين حتى يقتلوا عشرين ألفاً من المسلمين ؟

وكيف استطاع البلغار أن يفاجئوا جيش مسلمة من الوراء ؟! وهل كان جيش المسلمين نائماً ؟!

إن المصادر الأجنبية التى ذكرت هذا الخبر لا تخلو من مبالغات غير منطقية ولا تستقيم مع الفكر العسكرى .

كما حرّض (ليو) البلغار فهاجموا جيش المسلمين ، ولكنهم هزموا .

كما بذل جهداً فى وضع الكمائن لضرب مؤخرة قوات المسلمين وطرق تموينهم ، مما أدى إلى حرمانهم من المواد التموينيّة فى وقت هم بأمس الحاجة إليها .

وعندما حل الربيع ، كانت قوات المسلمين قد ضعفت كثيراً ، ولكنهم كانوا يأملون فى استعادة (المبادرة) إلى أيديهم بالاستفادة من تفوقهم فى البحر ، فأعدوا خطة هجومية من اتجاه البحر . وكان (ليو) ينتظر هذا الهجوم لا نزال ضربته الكبرى .

فقد سدت السلسلة الضخمة المرفأ طيلة الشتاء ، فقام (ليو) بفتحها لإغراء المسلمين لتنفيذ خطتهم الهجومية . ولما اقتربت سفن المسلمين من المرفأ كانت سفن (ليو) بانتظارها ، فغمرتهم بالنار اليونانية ، وكانت النتيجة دماراً كاملاً للسفن المهاجمة فقد انهالت عليهم النار اليونانية من كل جهة : من السفن ، ومن أسوار المدينة ، ومن البر . وفى الارتباك الذى نتج عندما حاولت سفن المسلمين الانسحاب طلبًا للنجاة ، أخذت تصطدم الواحدة بالأخرى ، فقفز الرجال إلى البحر وغرقوا فيه ، وتحطمت هياكل السفن ، وهوت للصوارى ، وضاعت المجاديف . وفى تيار البسفور القوى ، انقلبت سفن كثيرة وغرقت ، وعندما انتهت المعركة لم تبق سفينة من سفن المسلمين فى مدى النظر سالمة ، ويقال : إن خمس سفن منها فقط نجت وعادت إلى سورية لتروى القصة . وكانت القصة هى قصة النار اليونانية التى تصب على سفن المسلمين من قدور كبيرة موضوعة على دكاك ، أو تقذف بكرات متوهجة حمراء من الحجارة أو الحديد ، أو ترمى بالأسهم أو الرماح المغمورة بالسائل الملتهب ، أو تنفخ فى أنابيب طويلة من النحاس مثبتة فى مقدم السفن ، فتحدث دخانًا أسود ثم انفجاراً يصم الآذان ، ومن ثمّ ينتشر لهيب لا يمكن إيقافه ويسير حتى على الماء [1] .

لقد كانت هذه المحاولة الهجومية آخر سهم فى جعبة مسلمة ، استعمله لاستعادة (المبادرة) [2] من الروم ،

(١) الطبرى (٦/٥٣) .

(١) فتح القسطنطينية (٣٩ – ٤٠) .

(٢) تشبه هذه المحاولة ما فعله الجيش الألمانى=

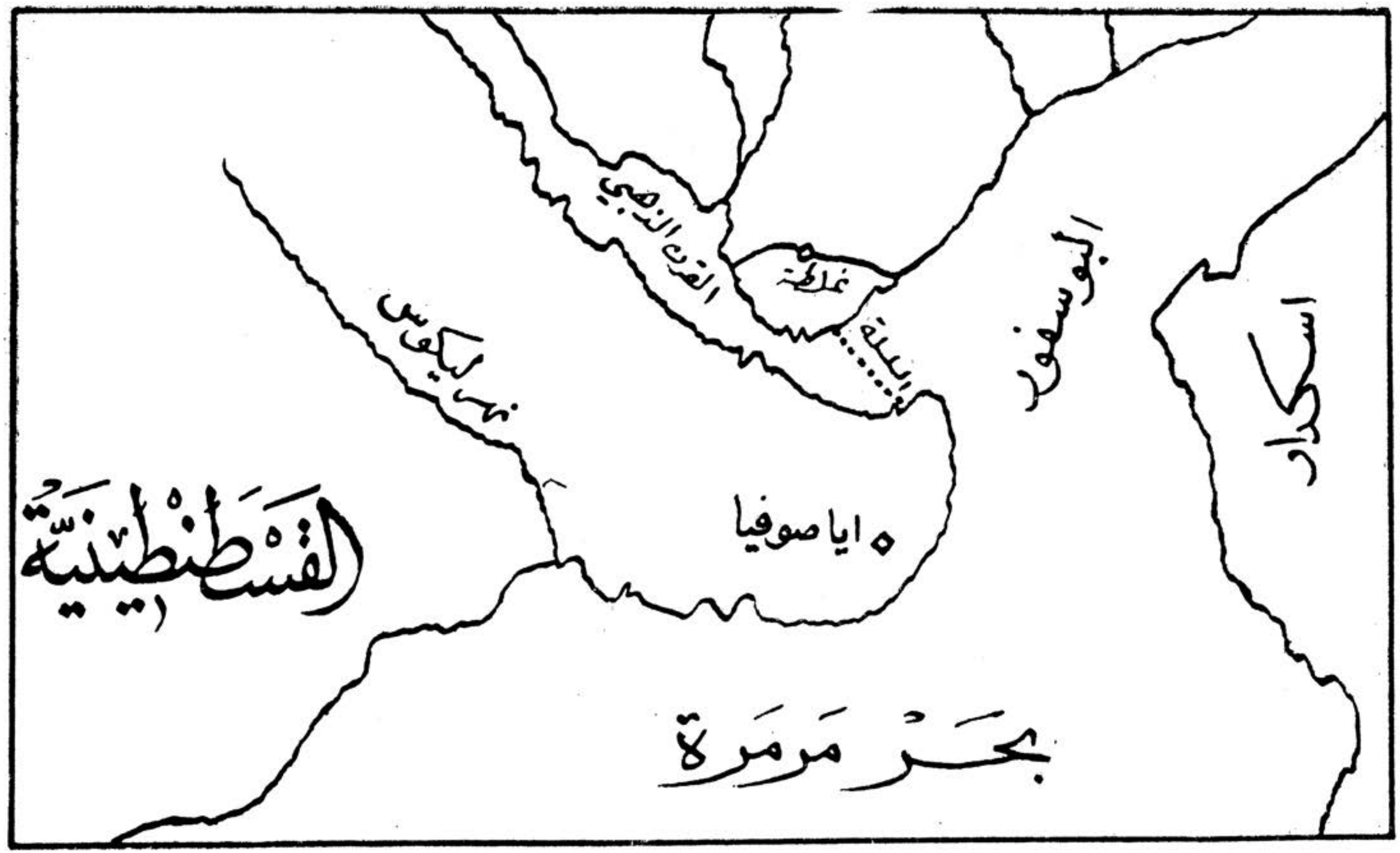
القسطنطينية
نهر ليكوس
القرن الذهبي
غلطة
السلسلة
البوسفور
اسكدار
ايا صوفيا
بحر مرمرة

ولكن لم يكتب لمحاولته النجاح .

ولم يكن مسلمة بدرجة من الغفلة بحيث لا يدرى ما حل بجيشه مادياً ومعنوياً ، وبخاصة بعد نجاح (ليو) فى تكديس الأرزاق الكافية لقواته ، وكان مسلمة يعلم أن المسلك الوحيد المفتوح أمامه هو : الانسحاب .

ولكن أمر هذا الانسحاب لم يكن بيده ، بل كان بيد الخليفة سليمان الذى كان مرابطاً فى (دابق) ، معنياً بفتح القسطنطينية أشد العناية ، ولا يرضى بالانسحاب ولا يوافق عليه .

انظر خريطة القسطنطينية (ص٧٣) .

ومات سليمان بن عبد الملك بدابق لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية [١] ، فتولى الخلافة من بعده عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فوجه إلى مسلمة وهو محاصر للقسطنطينية وأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين [١] ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً ، وحث الناس على معونتهم ، وكان عدد الخيل التى وجهها لمسلمة خمسمائة فرس [٢] ، لأنه كان قد أصاب

= سنة ١٩٤٤ فى الهجوم على قوات الحلفاء المتفوقة فى الجبهة الغربية ، وأطلق على عملياته اسم : تعرض الأردين ، انظر التفاصيل فى كتاب : المشيرفون رونشتد (٢٧٠ – ٢٨٨) .

(١) الطبرى (٦/٥٤٦) وابن الأثير (٥/٣٧) والعبر (١/١١٨) والمسعودى (٣/١٨٢٣) وفى شذرات الذهب (١/١١٦) والعيون والحدائق (٣٣) ، أن سليمان توفى لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية ، وكذلك فى التنبيه والأشراف (٢٧٥) .

(١) تبالغ المصادر الأجنبية فى خسائر مسلمة ومجمل ما ذكرته تلك المصادر : جاء شتاء سنة ٧١٧م – ٧١٨م بثلج دام ثلاثة أشهر ، فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار . وفى ربيع سنة ٧١٨ م ، وصل اسطول احتياطى من مصر وجيش جديد من طرسوس . واحتل هذا الجيش شاطىء البسفور الآسيوى ، ورسا الأسطول فى مياهه ، فتسللت سفن النار الرومية إلى مرسى الأسطول المصرى فأحرقته ، ونزلت قوة من الروم ، وراء الجيش الجديد فباغتته ومزقته إرباً . وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة ، ثم فاجأه البلغاريون من الوراء . فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً ، فتراجع عن عاصمة الروم بعد أن فقد معظم جيشه ، وتعرض الباقى من أسطوله لعاصفة فى بحر إيجة ، فلم يعد إلى شواطىء الشام سوى خمس سفن فقط ، انظر التفاصيل ، فى (Canard, M., Expéditions Arabes, Journal Asiatioue, 1929. 102—80).

والمبالغة واضحة للغاية ، إذ كيف تسللت سفن النار الرومية إلى مرسى الأسطول المصرى فأحرقته ! ! أكان هذا الأسطول فى سباة عميق ؟ ألم يدافع عن نفسه ؟

وكيف فاجأ البلغاريون جيش مسلمة من الوراء ! ! ألم يتخذ مسلمة تدابير الحماية ؟! ألم يكن له دوريات وأرصاد ؟! ثم كيف يمكن أن يتسلل البلغاريون من وراء جيش مسلمه ومن أين ؟ !

تلك مبالغات لا تستحق الرد عليها لأنها لا يمكن أن تحدث فى الحرب فعلا .

(٢) الطبرى (٦/٥٥٣) وانظر ابن الأثير) =

المسلمين مجاعة فقواهم بذلك [١] .

وكان قرار عمر بن عبد العزيز بانسحاب مسلمة حصيفاً صائباً ، لا لأن عمر غير ميال إلى حروب الفتح والاستيلاء [٢] ، بل لأن موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميئوساً منه ، فأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم [٣] . بعد أن بلغ بهم الجهد [٤] ، إذ لم يغفل أبداً عن غزو الروم دفاعاً عن حدود أرض الشام الشمالية . وليس صحيحاً أنه لوطال أجله لأجلى المسلمين عن الأندلس ، لأنه رأى مقامهم فيها غير طبيعي لإحاطة الأعداء بهم [٥] ، لأن (ناربون) من أعمال الأندلس فتحت فى أيامه وحصنت [٦] ، كما سمح بامتلاك الفاتحين للأرض فى الأندلس ، مستهدفاً تعلق المسلمين بأرضهم عن طريق امتلاك الأرض ، وقيل : إنه اتخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه مثالا له فيما عمله بالهند ، فلو لم يعط عمر بن الخطاب المحاربين الأرض فى الهند ، لكان الدفاع عن هذا القطر مستحيلاً [٥] . وبالطبع لم تفتح الهند فى أيام عمر بن الخطاب ، والمقصود بالهند المناطق المتاخمة لها من بلاد فارس .

أما سبب رد جيوش المسلمين من الشرق ، ومنعهم من التوغل فيه قائلاً : « يكفى ما فتح الله على المسلمين من فتوح » [١] ، فسببه المباشر تردى الأوضاع العسكرية فى تلك المناطق .

والواقع أن عمر بن عبد العزيز ورث تركة مثقلة بالفوضى ، فكان همه الأول موجهاً إلى السياسة الداخلية ، فأحدث تغييراً فيها [٢] ، إذ ليس من المعقول أن تصبح بلاده بالفوضى وهى قاعدة الفتح ومرتكزة ، ثم يصرف همه إلى الفتح ، فيكون كالذى يشيد قصراً على جرف هار .

كما أن مد الفتح الإسلامى كان قد بلغ أوجه ، وفقد الدافع الأول لاستمراره ،

= (٤٣/٥) والعيون والحدائق (٣٩) وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) وانظر المعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٢٦/١) .

(١) العيون والحدائق (٣٩) ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) .

(٢) يوليوس ولها وزن — الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

(٣) خطط الشام (٥٥٢/١) .

(٤) خطط الشام (٥٥٢/١) .

(٥) الدولة العربية وسقوطها (١٨) .

(٦) Dozy, Recherches (1881), 1٬ 16.

(١) خطط الشام (٥٥٢/١) .

(٢) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

وهو الجهاد فى سبيل الله ، فغيَّر الناس ما بأنفسهم ، وأصبح أكثرهم يشهد الفتوحات للغنائم .

لقد أحسن سليمان بن عبد الملك فى الإعداد والإمداد ، فقد وضع مهمة فتح القسطنطينية فوق كل مهماته العسكرية والإدارية ، وجعل لها الأسبقية الأولى على كل أعماله الأخرى ، وقضى أيام خلافته كلها فى (دابق) ، وأرسل ولده داءود إلى القسطنطينية مع مسلمة[1] ، دليلاً على شدة حرصه على فتحها ، وأمر مسلمة : أن يقيم على القسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره[2] ، فلم يأمره بالانسحاب حتى توفاه الله دليلاً على إصراره البالغ على تحقيق الفتح .

كما أحسن مسلمة فى قيادته ، فبقى محاصراً للقسطنطينية ثلاثين شهراً حتى أكل عسكره الميتة والعظم وقتل منهم خلق كثير[3] ، فما وهن ولا توانى

---

(١) العيون والحدائق (٣٨) وبقى مع مسلمة إلى نهاية الحملة .

(٢) العيون والحدائق (٣٢) ومختصر تاريخ البشر لأبى الفدا (١/ ٢٠٠) .

(٣) البدء والتاريخ (٦/ ٤٤) ، وقد بدأ الحصار فى ١٥ آب (أغسطس) ٧١٦م وانتهى فى ١٥ آب (أغسطس ٧١٨ م كما تنص على ذلك المصادر الأجنبية ، وبذلك يكون حصار المسلمين للقسطنطينية عامين لا ثلاثين شهراً ، أما المصادر العربية فتنص على أن الأنسحاب جرى فى أيام عمر بن عبد العزيز أى فى تشرين الأول (أكتوبر سنة ٧١٨م) أى أن حصار المسلمين للقسطنطينية سنتان وشهران .

وأرى أن المسلمين لا يمكن سحبهم بعد استلام أمر الإنسحاب مباشرة ، أى بعد تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة مباشرة ، فلا بد من اتخاذ تدابير الأنسحاب حسب خطة مرسومة حتى لا ينقلب الإنسحاب إلى هزيمة ، وهذا يستغرق ما لا يقل عن أربعة أشهر ، لإمكان ترقيق الجبهة والانسحاب تدريجياً ، وبذلك يكون ما جاء فى : البدء والتاريخ ، من حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلاثين شهراً صحيحاً وأقرب إلى المنطق العسكرى . وانظر أيضاً : مختصر تاريخ الدول (١١٤) حول حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلاثين شهراً .

وفى البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) : فلما ولى عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم بالبريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعاً ومنارة ، فهو بها إلى الآن يصلى ، فيه المسلمون الجمعة والجماعة . . . انتهى .

أقول : لا نستبعد أن الروم بالرغم من رجحان كفتهم فى الأشهر الأخيرة من حصار القسطنطينية إلا أنهم كانوا يتمنون انسحاب المسلمين عنهم ، لطول بقائهم محاصرين ، ولخوفهم من قدوم إمدادات جديدة من الرجال والأرزاق ترجح كفة المسلمين عليهم ، لذلك رضخوا لشرط مسلمة وبنوا جامعاً ، ومما يدل على ضعف قوة الروم فى أيام انسحاب مسلمة ، عدم قيام الروم بمطاردة المسلمين فى أثناء انسحابهم .

لقد كانت قوات الروم قادرة على تحمل أعباء

ولا ضعف عن النهوض بواجبه .

كما أحسن عمر بن عبد العزيز فى قراره بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية ، لأن الموقف العسكرى كان يتطلب إصدار مثل هذا القرار ، ولو كانت كفة المسلمين راجحة فى حينه ، لكان من المستحيل عليه الأمر بانسحاب المسلمين ، ولكان هناك مسوغ للادعاء بأن عمر بن عبد العزيز غير ميال لحروب الفتح ، دون تمحيص للموقف العسكرى الراهن .

إن عمر بن عبد العزيز ، مظلوم بهذا الادعاء الذى صدر عن مؤرخين غير عسكريين ذوى اختصاص بالقضايا العسكرية ، ومثل هذا الحكم خارج نطاق اختصاص المدنيين ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولم يكن عمر بن عبد العزيز وشهرته كلها فى حرصه على تطبيق تعاليم الدين الحنيف ، ليجمِّد فرض الجهاد ، وهو روح الإسلام الحركيّ ، وبدونه يبقى الإسلام جثة هامدة بدون روح .

ولم يستطع المسلمون الذين كانوا بقيادة مسلمة فتح القسطنطينية من جراء أخطاء سَوْقية أو تعبوية ارتكبتها قيادتهم القادرة ، ولا من جراء تهاون قواتهم وضعفها ، ولكنهم أخفقوا فى فتحها لأسباب عسكرية قاهرة : منها مناعتها الطبيعية والاصطناعية التى سهلت أمر الدفاع عنها ، ولرصانة أسوارها وخنادقها المحيطة بها قوّة ومتانة ، ولأن الحصار من جراء ذلك طال أمده كثيراً فاستغرق ثلاثين شهراً ، والعرب فى طبيعتهم لا يصبرون على حصار طويل الأمد ، ولأن برد شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٨م) كان قارسا شديداً بصورة غير اعتيادية[١] ، والعرب لا يتحملون البرد القارس الشديد ، وهذا البرد غير الاعتيادى حرمهم من الإمدادات العسكرية والتموينية ، والجندى لا يقوى على البرد وهو جائع ، وأخيراً وليس آخراً مقاومتهم بسلاح جديد لا علم لهم بأسلوب الوقاية منه وليس لديهم سلاح يقاومه ، وهو النار اليونانية التى فتّ استعمال الروم لها فى مقاومة العرب وأثر فى معنوياتهم وكبّدهم خسائر فادحة بالأرواح والسفن والمعدّات .

= حرب دفاعية ، ولكنها لم تكن قادرة على تحمل أعباء حرب تعرضية ، لذلك لم يستطيعوا مطاردة المسلمين بعد انسحابهم .

وفى حوادث سنة خمس وخمسين وأربع مئة ، أن ملك الروم عمَّر جامع مسلمة فى القسطنطينية إرضاءاً لطغرلبك ، وعلق فيه القناديل ، وجعل فى محرابه قوسا ونشابه ، انظر ابن الأثير ١٠/٢٨) .

(١) العيون والحدائق (٣٢) .

وتاريخ الحرب فى جميع العصور ، يقرِّر أن من أهم أسباب عوامل النصر هو : استعمال سلاح فتّاك جديد لا يتوقعه الخصم ، أو استعمال أسلوب قتالى جديد لا يتوقعه الخصم ، أو استعمالهما معاً فى الزمان والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعه الخصم ، وكل ذلك يباغت هذا الخصم ويربك قيادته وخططها المرسومة ، والمباغتة كما هو معروف هى أهم مبادىء الحرب على الإطلاق .

ومن الإنصاف أن نضيف إلى عوامل انتصار الروم فى الدفاع عن القسطنطينية عاملاً آخر هو : كفاية (ليو الثالث) المتميزة فى القيادة ، وتشبعه بمزية إرادة القتال .

وإذا كان هناك ما يلام عليه مسلمة فى حصار القسطنطينية ، فهو عدم استفادته كما ينبغى من صفحة : (المبادرة) ، فى التركيز بالهجوم على المدينة المحاصرة وإدامة زخم الهجوم عليها أولاً ، وثقته غير المحدودة بحليفه (ليو) ، لأن الذى يخون بلاده وقومه أولى أن يخون غير بلاده وغير قومه ، فكانت هذه الثقة العمياء بهذا العميل لامسوِّغ لها ثانياً ، فالحرب من القضايا المصيرية ، ولا بد من إدخال أسوأ الاحتمالات فى كل ما يؤثر فى نتائجها من قريب أو بعيد [1] .

إن حصار القسطنطينية [2] كان

---

(١) ورد فى كتاب : فتح القسطنطينية ، ما نصه : لو سقطت القسطنطينية عام (٧١٧م) ، لما عاشت المسيحية ، ولذا فالعالم المسيحى مدين إلى (ليو الثالث) . بالحفاظ على المدينة والمسيحية لمدة (٥٠٠) سنة أخرى ، ولولاه لكان من المحتمل جداً أن يتبدل مجرى التاريخ ، فلو نجح المسلمون سنة (٧١٧م) ، لكان من المحتمل أن يكون عالمنا إسلامياً بحتاً » .

أقول : وهذا الأدعاء لا يخلو من مبالغة ، لتضخيم انتصار الروم وجعله من الانتصارات الحاسمة فى التاريخ .

وقد فتحت القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح ، فما أصبحت أوربا إسلامية بحته ، وبقى المسيحيون على دينهم فى تلك المدينة وفى البلاد التى فتحها العثمانيون ، وقد فتح المسلمون أرض الشام والعراق ومصر فى الصدر الأول للإسلام على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولا يزال المسيحيون فى تلك البلاد حتّى اليوم !

(٢) أفاض (بروكس (E. W. Brook) فى سرد غزوات المسلمين فى آسيا الصغرى ، مستقياً معلوماته مع التعليق عليها فى بحثة الموسوم : « العرب فى آسيا الصغرى من سنة (٦٤١م إلى سنة ٧٥٠)م وعنوان بحثه (The Arabs in Asia Minor, G41 To 750) المنشور فى مجاة الدراسات الهلّينية المجلد (١٨) سنة (١٩٨م) .

(Jorrnal of Hillenis studies)

وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم فى أيام خلافه سليمان بن عبد الملك فى مقال نشره فى مجلة الدراسات الهلّينية أيضاً (المجلد ١٩) =

ملحمة من ملاحم تاريخ الحرب المهمة، ولكنها لم تكن معركة حاسمة من معارك تاريخ الحرب ، على الرغم من محاولات المؤرخين الأجانب اعتبارها معركة حاسمة ، بادعائهم أن المسلمين لو فتحوها لأصبحت أوروبا قارة إسلامية[٢] .

والواقع أنها كانت معركة تعبوية ، ولو فتحها المسلمون حينذاك ، لأصبحت حدود الدولة الشمالية أكثر أمناً واستقراراً ، وربما امتدت الفتوح إلى قسم من بلاد غرب أوروبا ؛ لأن أوضاع الدولة الإسلامية داخلياً ، لم تكن مستقرة فى تلك الأيام ، بل كانت مضطربة تسودها الفوضى والفتن والقلاقل والاضطرابات ، فكانت الدولة فى شغل شاغل لإقرار الأمن الداخلى ، ولم تكن فى موقف يسمح لها بالانطلاق فى مجالات الفتوح .

وقد استفاد الروم من دروس حصار القسطنطينية استفادة كبيرة ، فكانوا يطبقونها فى الدفاع عن مدينتهم منذ انسحب المسلمون عنها بقيادة مسلمة ، وفى صد محاولات غيره من القادة المسلمين من بعده لفتحها ، وفى دفاعهم عنها حتى أيام السلطان محمد الفاتح[١] ، وهذا مكسب عظيم للروم .

لقد كان حصار القسطنطينية ملحمة رائعة بالنسبة للمسلمين والروم على حد سواء .

(البقية فى العدد القادم)

=لسنة ١٨٩٩م) بعنوان : «حملة سنة (٧١٦م) إلى سنة (٧١٨م) بحسب المراجع العربية :

(The Campain of 716 to 718 from Arabis

(J. B. Bury

وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطى الأستاذ (بورى (J. B, Bury) فى كتابه :

(The History of the Later Roman Empire)

المجلد الثانى – ص (٤٠١) .

وهناك دراسات فى هذا الموضوع كثيرة ، ترجم بعضها إلى العربية ، وكلها تجعل حصار – القسطنطينية معركة حاسمة ، وهى ليست كذلك بحال من الأحوال .

(١) انظر مثلا ما جاء فى كتاب : فتح القسطنطينية–برناردين كيلتى (Bernardine Kielty) ص (٤٠) ، وقد ذكرنا نص ما جاء ، فى هذا الكتاب سابقاً .

(٣) انظر سيرته فى كتابنا : بين العقيدة والقيادة – ص (٣٥١ – ٤٦٦) ، وانظر ما جاء فيه حول غلق القرن الذهبى بسلسلة حديدية هائلة فى ص (٣٥٦) من هذا الكتاب ، وهو درس عسكرى استفاده فى ذلك الزمن المتأخر امبراطور الروم حينذاك من (ليو الثالث) الذى كان أول من استعمل مثل هذه السلسلة فى أيام حصار القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك .

ومن المعلوم أن السلطان محمداً الفاتح فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء (٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٧٥هـ ٢٩ مايس – مايو– ١٤٥٣م) ، انظر ص (٤٠٦) من : بين العقيدة والقيادة :

بين الموالاة والمعاداة

(٣)

الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة

موقف المسلم

تبينا فى المقالين السابقين[١] أن موالاة الكافرين بأى شكل من أشكال الموالاة محرمة فى الإسلام تحريمًا قاطعًا صريحًا مؤكداً ، حتى قيل : إنه ليس فى كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم ، بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده .

فماذا يكون موقف المسلم ! ؟

لقد أصبح واضحًا تمام الوضوح .

إنه ما دام الكافر يظهر العداوة حين يستطيع ، ويضمرها عندما يضطر ، فإننا نكون من السذاجة والغفلة إن لم نبادله عداوته بمثلها .

والفرق بيننا وبينه ، أنه يبادرنا بعداوته ، وأن عداوتنا له رد فعل ، وأن عداوته لنا فى سبيل الباطل ، ونحن نعاديه فى الحق ، ولا يستوى من يبادرك بعداوته مبطلا حين ترد عداوته محقًا ، لذلك أمر الله المؤمنين بجهادهم والإغلاظ عليهم فقال : (يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) (التوبة ٧٣ والتحريم ٩) وذكر للمسلمين موقفًا من مواقف الفصل بين الحق والباطل ، بين التوحيد والشرك ، بين الإيمان والكفر ، ذلك هو موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكيف أنه كان لا يزال يأمل فى هداية قومه وأهله ، فلما تبين

---

(١) فى العدد الثامن (عن شهرى شوال وذى القعدة ١٣٩٧هـ) وفى الجزء السادس (عن شهر شوال ١٣٩٨هـ) من مجلة الأزهر .

له ثباتهم على الكفر تبرأ منهم، ونابذهم العداوة ، وأعلنهم بالبغضاء .

إنه لا محبة ولا مودة ولا رحمة ولا موالاة إلا فى الله سبحانه وفى سبيل الله ، ومن خرج على سبيل الله فلا ولاء له ولا مرحمة .

(قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكمُ العداوة والبغضاءُ أبدا حتى تؤمنوا بالله وحدَه إلا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملكُ لك من الله من شىء) . (الممتحنة ٤) ، ثم ذكر الله عدول سيدنا إبراهيم عليه السلام عن الاستغفار لأبيه بعد أن تبين له أنه عدو لله ، فقال : (وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدَها إياه فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه) (التوبة ١١٤) .

والمسلمون مأمورون أن يتخذوا من هذا الموقف العظيم أسوة ، كما قال الله فى أول الآية (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه) .

وهذا سيدنا نوح عليه السلام ، ماذا قال عندما عرف أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ! ؟ (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) (نوح ٢٦ : ٢٧) .

وهذا سيدنا موسى عليه السلام (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) (يونس٨٨) .

ولقد تهدد الله المسلمين فى معرض الحديث عن موالاة اليهود والنصارى ووصف ذلك بالارتداد ، وبأن الله قادر على أن يستبدل بهم قوماً يحبهم ويحبونه ، يكونون أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله دون خوف .

قال تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا

بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ، يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ، يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لايعقلون » (المائدة ٥١ : ٥٨) .

وفى هذه الآيات يظهر بجلاء أنها إحدى ولايتين :

إما ولاية الله ورسوله والذين آمنوا ، وإما ولاية الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، وأنه من والى طرفاً فهو منه وإليه ، وأن المسلم لا يصح أن يكون انتماؤه وولاؤه إلا للمسلمين ، وأن الكافر لاتقبل منه دعوى الولاء للمؤمنين ، بل ينبغى أن نجعل ولاءهم بينهم ، لأن تظاهرهم بشىء من ولائنا تحت أى ظرف من الظروف يخفى وراءه عداوة مستكنة لا تهدأ ولا تخبو (وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون) (المائدة ٦١) ، (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) (الممتحنة ٢) . (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جُناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً) (النساء ١٠١) (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) (النساء ١٠٢) .

وهكذا حدد الله ولاية الكافرين ، وجعلها فيما بينهم ، وجعل المسلمين برءاء منها ، وحذر عواقب مخالفة هذا القانون الإلهى بقوله (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) (الأنفال ٧٣) وطالب بمعاداتهم ومنابذتهم بهذه العداوة صراحة وعلانية ، دون أن نخاف فى ذلك لومة لائم ، وإلا استبدل الله بنا غيرنا

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى سيدنا محمداً وأصحابه ، صلى الله عليه

وسلم ، بهذا الوصف الجميل فى آخر سورة الفتح فقال (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجليل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيمًا) .

ومن هنا يتبين أن من أهم القواعد التى تضعها عقيدة التوحيد للمحافظة على تماسك المجتمع الإسلامى وسلامته هى قاعدة الموالاة والمعاداة . وأن ولاء المؤمنين بعضهم مع بعض مقابل ولاء الكافرين بعضهم مع بعض يحفظ على المجتمع الإسلامى تماسكه من الداخل ، وأن عداوة المسلمين للكافرين فى مقابل عداوتهم للمسلمين يحفظ على المجتمع الإسلامى كيانه وهيكله العام وسلامته من العدوان الخارجى .

ولقد حذرنا الله منهم ، وطلب منا أن نكون دائمًا على استعداد لمقابلة عدوانهم (يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا) (النساء ٧١) وحث على قتالهم عندئذ مبينًا أن ذلك إنما هو دفاع عن الحق وأهله ، وأنه لا يستوى من يقاتل فى سبيل الله ومن يقاتل فى سبيل الطاغوت (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيمًا ، ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيرا ، الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفًا) (النساء ٧٤ : ٧٦) .

ولقد حث الله سبحانه وتعالى على مقابلة عداوتهم بعداوة مثلها حتى لا نستأصل وتدور علينا الدائرة ، ونصبح فإذا بنا قد غضب الله علينا ، واستبدل بنا قومًا غيرنا .

(ألا تقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) (التوبة ١٣) (يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا

فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولا تضروه شيئًا والله على كل شىء قدير » (التوبة ٣٨ : ٣٩) .

ويجب أن يظل هذا المعنى ماثلا أمام أعيننا واضحًا فى ضمائرنا ، مهما أظهروا لنا من المودة ، وبذلوا لنا من البشاشة ولين الجانب (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) (البقرة ١٠٥) ولا تأخذنا سماحة الإسلام وحسن معاملته إلى المدى الذى يغطى أعيننا عن رؤية عداوتهم ويمنعنا من التألم لما يصيبوننا به من جراح ، إنهم لن يهدءوا ولن يناموا إلا ريثما تواتيهم الفرص لإيذائنا والتسلط علينا أو إخراجنا من ديننا (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) (البقرة ١٢٠) (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) (النساء ٨٩) .

وعندما غفل المسلمون عن هذه الحقيقة ، واتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، واستنصروا بهم على إخوتهم وبنى دينهم حق عليهم ما توعدهم الله به وما حذرهم منه ، فتفتتت وحدتهم ، وتفرقت كلمتهم ، وتمزقت أمتهم ، ودالت دولتهم ، وزالت خلافتهم ، وتمكن منهم أعداؤهم من المشركين وأهل الكتاب ، وتسلطوا عليهم ، وأخرجوهم من حكم الله إلى حكم الطاغوت ، وصار بأس المسلمين فيما بينهم ، وأصبحوا شيعاً يذوق بعضهم بأس بعض ، وما نزال تحت فتنتهم حتى يردونا عن ديننا إن استطاعوا .

وقد أصبح المسلمون على يقين من أصل الداء ، ومع ذلك لا تزال الغفلة تضرب عليهم أطنابها ، ولا يزالون يؤثرون كل كافر وكل ملحد ، مهما يكن دنىء الأصل ، دانى المنزلة ، على أى مؤمن ، مهما يكن رفيع القدر ، عالى الكرامة . بل إنهم يضعون السيف فى أعناق إخوتهم من المؤمنين ، رغبة فى إرضاء هؤلاء الكفرة ، ويتشبثون بحكم الطاغوت دون حكم الله اكتسابًا لمودتهم ، وأى شىء أكثر من ذلك يتمناه عدو من أعدائنا (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) . (النساء ٦٠) . وارجع بصرك حيث شئت من العالم الإسلامى ،

هل ترى لغير الكافر كلمة تطاع أو لغير أعوانهم رتبة أو منزلة ، أو لغير المسارعين فيهم منصباً أو جاهاً ، اللهم إلا من عصم الله ولم يدعوا اه غناء .

ولا عودة للأمة الإسلامية ، ولا صحوة لها ، ولا نهضة يمكن أن تنهض بها من كبوتها ، ما لم تأخذ بهذا الدواء الأساسى ، الذى يساهم فى إعادة الحد الأدنى من الصحة لها ، وهو الموالاة والمعاداة ، الموالاة فى الله ، والمعاداة فى الله ، ولاية الله ورسوله والمؤمنين ، وعداوة الشيطان وأهله من الملحدين والمشركين وأهل الكتاب ، أن نجعل ولاءنا خالصاً لكل مسلم ، مهما تكن علاقتنا الدنيوية به ، وأن يكون عداؤنا خالصاً لكل كافر ، مهما تكن علاقاتنا المادية به ، وأن نبذل جهدنا لإشاعة هذه الولاية بين المؤمنين بعضهم مع بعض وتنبيههم إليها ، وإيقاظهم وتنبيههم إلى عداوة الكافرين لهم مهما تكن مستترة أو مقنعة ، إننا بذلك نسهم فى إعادة الصحة إلى جسد الأمة الإسلامية المتهالك المثخن بالجراح .

ولسوف تظل صحوة الأمة الإسلامية رهينة بإدراك هذه الحقيقة ، والعمل بمقتضاها .

وإذا كنا نريد التعجيل بهذه الصحوة ، فعلينا أن نعجل بإيضاح هذه الحقيقة ونشرها ، وإبرازها بصورة قوية شاملة .

(هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) (آل عمران ١١٩) .

(بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) (آل عمران ١٥٠) .

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) (محمد ١١) .

عن البراء بن عازب : كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أى عرى الإسلام أوثق ! ؟

قال : قلنا : الصلاة .

قال : حسنة ، وما هى بها !

قلنا : صيام رمضان .

قال : حسن ، وما هو به !

قلنا : الجهاد .

قال : حسن ، وما هو به ، إن أوثق عرى الإسـلام أن تحب فى الله وتبغض فى الله .

رواه أحمد وابن أبى شيبة والبيهقى كما روى الطبرانى عن ابن عباس

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والمعاداة فى الله ، والحب فى الله ، والبغض فى الله عز وجل .

فرق بين العداوة والعدوان :

وينبغى عدم الخلط بين أمرين : العداوة ، والعدوان .

إنه ليس من الضرورى حين توجد العداوة أن يقع عدوان ، بل يمكن أن يحل السلام مع ثبوت العداوة .

والمسلمون بحكم إسلامهم وبحكم اتباعهم للحق لا يبدءون بعدوان ، ولكنهم كذلك لا يقبلونه ، ولا يستسلمون له ، والمسلمون أولى الناس بالحرص على السلام إذا وجدوه ، لأن الحق ينمو وينتشر فى ظل السلام أكثر مما يكون فى ظل الحرب ، لذلك يسارعون عندما يجدون فى عدوهم ميلا إلى السلام ، تحقيقاً لقوله تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) (الأنفال ٦١) .

بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى إحسان المعاملة وإقرار العدل والقسط وتنفيذ ما يتم بينهم وبين الآخرين من عقود وعهود بمنتهى الأمانة والدقة ، وقد أمرنا الله بذلك فى قوله (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) (المائدة ٨) ، ولقد فعلوا ذلك حتى مع المشركين حين كان لهم عهد فقال : (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) (التوبة ٤) وقال : (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) (التوبة ٧) .

والفيصل بيننا وبينهم هو العدوان بأى صورة كان ، فإذا وقع منهم عدوان فلا عهد بيننا ولا أمان ، (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (البقرة ١٩٤) .

بل إن سماحة الإسلام تتجاوز هذا الحد فى إحسان معاملتهم فيقول جل شأنه (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) (الممتحنة ٨) .

لهذا ينبغى أن لا يخطر فى بالنا أن قاعدة الموالاة والمعاداة الإسلامية

تمنعنا من أن نعامل بالحسنى من يحسن معاملتنا منهم، ما دامت معاملتنا معهم على مقتضى القواعد والنظم المعتبرة ، والمتفـــق عليها بيننا وبينهم ، بحيث لا يكون فيها مساس بالإسلام ، ولا بأوطان المسلمين وحقوقهم ومصالحهم وبحيث لا تتعارض مع القواعد والنظم التى أقرها الإسلام ونظم بها مختلف العلاقات بين المسلمين وغيرهم من سائر الأديان .

نعم ، قد علمتنا التجارب ، خاصة فى هذه الأيام التى ساد فيها سلطانهم على ديار الإسلام ، أنهم لا عهد لهم ولا أيمان ، وصدق فيهم قول الله ، ومن أصدق من الله قيلا (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) (الممتحنة ٢) .

لهذا فإنه ينبغى أن نكون أشد وعياً وأعظم حرصاً ، وأن نكون أكثر انتباهاً وحذراً ، وأن نكون أتم التزاماً بقاعدة الموالاة والمعاداة الإسلامية .

والله تعالى أعلم .

الدكتور عبد الفتاح عبدالله بركة

ما ينبغى للفقير

أن يلزم القناعة ، وأن يكتم الفاقة ، وأن يتجنب البذالة والتضعضع ، وأن يطمح لا يطمع ، وأن يستبشر الخير ويتأهب له .

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

دكتور / يحيى هاشم

(٥)

اتجاهات فى الفكر الإسلامى لنقد العقل المستقل

تحدثنا فى المقالات السابقة عن استحالة استقلال العلم والعقل عن الدين فى تحصيل المعرفة والوصول إلى اليقين وبيَّنا أن العقل لا بد له من أساس إيمانى تسليمى يقوم عليه، ووجدنا هذا الأساس فى الفطرة ، أو فى الضرورة العملية ، وبقى علينا فى هذا المقال أن نبين موقف الفكر الإســلامى من اتجاهنا إلى إقرار الحدود التى تُحِدُّ العقل ، وتمنعه من أداء القدرة على تحصيل المعرفة اليقينية وتجعله قاصراً عن ذلك إلا أن يستقى هذه المعرفة من إيمان سابق بالله .

إننا نجد فى تراثنا الأصيل ما يعضِّد موقفنا هذا . . .

١ — لسنا بحاجة إلى التنويه بموقف الإمام الغزالى الذى سجله فى « المنقذ من الضلال ». وانتهى فيه إلى أنه لم يتوصل إلى اليقين بالحس ، أو بالعقل ، وإنما بالنور الذى قذفه الله فى قلبه . فهو موقف جليل مشهور .

لكن ما نراه جديراً بالتنويه هو موقف الإمام الرازى الذى ينظر إليه باعتباره قمة الاتجاه العقلى فى علم الكلام . فله مواقف أخرى لم تشتهر عنه .

لقد وجدنا الإمام الرازى فى كتابه (المطالب العالية) يثبت حيرته ، واتهامه العقل بالعجز عن الوصول إلى الحقيقة فى مسائل خالف فيها الأشاعرة واختار التوقف :

فى مسألة جواز رؤيته تعالى . أو العكس . . .

فى مسألة حدوث العالم أو قدمه . .

فى مسألة الجبر والاختيار[١] .

وهو ما جعله يقول :

رأيت فى بعض الكتب أنه نقل عن عظماء الحكمة وأساطين الفلسفة أنهم قالوا : الغاية القصوى فى هذا الباب الأخذ بالأولى والأخلق ، والتمسك بالجانب الأفضل الأكمل ، أما الجزم المانع من النقيض فقد لا يمكن تحصيله فى بعض المباحث. وللقائلين بهذا القول أن يحتجوا بوجوه . .

ثم يذهب الرازى يقرر هذه الحجج :

فالحجة الأولى :

قائمة على أن علم الإنسان بذاته — وهو أظهر المعلومات عنده — (قد بلغ فى الصعوبة والخفاء إلى حيث عجزت العقول عن الوصول إليه) .

فمن باب أولى : يكون علمه كذلك فى الإلهيات .

والرازى يسوق أدلة على أن علم الإنسان بذاته يكون أظهر من علمه بغيرها . ويسوق أدلته أيضًا على أن علم الإنسان بذاته قد بلغ الغاية فى الصعوبة والخفاء ، ثم هو يقرر هذه الحجة بوجه آخر يدخل فيه إلى جانب خفاء علم الإنسان بذاته ، خفاء علمه بالمكان والزمان والجسم .

وهو يوضح كيف خفى علينا العلم بهذه الأمور .

والحجة الثانية :

تشبيهه قوة البصيرة بقوة البصر ، فقوة البصر تخفى عليها المبصرات الحقيرة الضعيفة ، والمبصرات القوية القاهرة ، كقرص الشمس عند غاية لمعانه وإشراقه ، ولا تبصر بإحاطة وتمام إلا المبصرات المعتدلة أو المتوسطة فكذلك قوة البصيرة تخفى عليها — المعلومات الضعيفة الحقيرة والمعلومات القاهرة العالية المقدسة وهذه أشرفها وأعلاها ذات الله وصفاته .

والحجة الثالثة :

قائمة على تقسيم العلوم إلى تصورية وتصديقية ، والتصورية أربعة أنواع الماهيات التى تدرك بالحس ، والماهيات التى تدرك من نفوسنا إدراكًا ضروريًّا كالألم واللذة ، والماهيات التى ندركها بحكم فطرة عقولنا لتصورنا لمعنى الوجود والعدم والوحدة والكثرة ، والماهيات التى يُرَكِّبُهَا الخيال أو

---

(١) انظر مقدمة المطالب العالية تحقيق الدكتور عمران ص ٧٨ — ٨٢ .

يركبها العقل من هذه الماهيات المتقدمة هكذا . . التصورات محصورة فى هذه الأقسام وبالتالى فالتصديقات محصورة فيها ، وحقيقة الحق سبحانه مخالفة لجملة هذه الماهيات بأسرها . ثم يقرر أنه مخالف لها فى سائر الوجوه . (وإذا كان كذلك وجب ألا يكون حقيقته متصـــورة للخلق بوجه من الوجوه وإذا لم تكن حقيقته متصورة للخلق كان الحكم عليها بالسلب والإيجاب البسيطين أو المركبين ممتنعاً .

الحجة الرابعة :

أن الانتقال من المعلوم إلى المجهول لا يعقل إلا بأحد ثلاثة وجوه : الاستدلال بالعلـــة على المعلول ، الاستدلال بالمساوى على المساوى ، الاستدلال بالمعلول على العلة . ولا يجوز الاستدلال على الله بأحد الوجهين الأولين ويمكن بالوجه الثالث . إلا أن الوسائط ما بين المعلول والعلة بحسب درجات الموجودات المجردة المقدسة كثيرة خفية (فلا جرم بقيت أكثر النفوس البشرية فى درجة من درجات هذه المتوسطات . . بل نقول : أكثر الخلق بقوا فى حضيض عوالم المحسوسات ، والشاذ القليل منهم خلص من عالم الحس ، فيترقى من عالم المحسوسات إلى عالم الخيالات والقليل من أصحاب الخيالات انتقل إلى عالم المعقولات ، ثم فى عالم المعقولات مراتب الأرواح المقدسة كثيرة فلا جرم أكثر العقول الواصلة إلى أنوار المعقولات تلاشت وفنيت واضمحلت فى أنوار تلك الأرواح المقدســـة إلا من أيد بقوة قاهرة ونفس إلهية تترقى من زنجبيل المريخ إلى سلسبيل المشترى ومنه إلى كافور زحل ثم استعلى على الكل وترقى على الكل ووصل إلى الحضرة المقدسة عن لواحق الإمكان وغبار الحدوث واستسعد بقوله وسقاهم ربهم شراباً طهوراً)[1] .

وهذا مالا لاحظه ابن تيمية أيضًا إذ يقول :

إن كبار العقليين معترفون بأن العقل لا سبيل له إلى اليقين فى عامة المطالب الإلهية ، فإذا كان هكذا فالواجب تلقى ذلك من علم النبوات[2]

ويقول الإمام الرازى فى خاتمة

(١) المطالب العالية للرازى . تحقيق د. عمران ص ١٠ إلى ٣١ .

(٢) الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية من مجموعة الرسائل الكبرى ج ١ ص ١٠٢ .

الفصل الرابع والعشرين الذى عقده فى إثبات وجود الله عن طريق التدبر فى أجزاء العالم : (إن الدلائل التى ذكرها الحكماء والمتكلمون وإن كانت كاملة قوية إلا أن الطريقة المذكورة فى القرآن عندى أنها أقرب إلى الحق والصواب . وذلك لأن تلك الدلائل دقيقة وبسبب ما فيها من الدقة انفتحت أبواب الشبهات وكثرت السؤالات . وأما الطريق الوارد فى القرآن فحاصله راجع إلى طريق واحد ، وهو المنع من التعمق والاحتراز عن فتح باب القيل والقال .. ويقول فى مرضه الذى توفى فيه :

(ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى التى وجدتها فى القرآن العظيم ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع عن التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات . وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية . .

عن : «عيون الأنباء ٤٦٧ ، طبقات الشافعية للسبكى ٥ : ٣٧ المطبعة الحسينية » ويقول ابن الصلاح : أخبرنى القطب الطوغانى مرتين أنه سمع فخر الدين الرازى يقول (ياليتنى لم أشتغل بعلم الكلام وبكى) . عن شذرات الذهب لابن العماد ٢١/٥ . وروى عنه أبيات يقول فى آخرها :

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا)

عن وفيات الأعيان ٢ : ٢٦٦ وغيرها[١]

ويقول الإمام الشاطبى :

(إن الله جعل للعقول فى إدراكها حداً تنتهى إليه لا تتعداه ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك فى كل مطلوب ، ولو كانت كذلك لاستوت مع البارى تعالى فى إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون . وقد دخل فى هذه الكلية ذوات الأشياء جملة وتفصيلا ، وصفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصيلا .

فالشىء الواحد من جملة الأشياء يعلمه البارى تعالى على التمام والكمال بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أحكامه ولا فى أحواله .

بخلاف العبد فإن علمه بذلك قاصر ناقص[٢] .

---

(١) انظر المطالب العالية . المقدمة للدكتور عمران ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) الاعتصام جـ ٣ ص ٢١٦ .

ويقول الدكتور سليمان دنيا :

(إن البحث فى حقيقة ذات الله ، وحقيقة صفاته فيه مجاوزة للحدود التى رسمها لنا هادينا ومرشدنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » وفيه فضلا عن ذلك بذل لشىء غير قليل من العناء طمعا فى معرفة مالا سبيل إلى معرفته معرفة يقينية) .

ولعل ابن رشد نفسه يعترف بأن الوصول إلى آراء عقلية يقينية فى هذا المجال أمر عزيز المنال . حيث يقول فى المسألة السادسة من كتابه « تهافت التهافت » : إن الأقاويل البرهانية — يعنى فى العلم الإلهى — قليلة جداً ، وهى من الأقاويل بمنزلة الذهب الإبريز من سائر المعادن والدر الخالص من سائر الجواهر .

ويعجبنى فى هذا المقام ما يرويه « الجلال الدوانى » فى شرحه على العقائد العضدية عن بعض الأصفياء (عندى أن زيادة الصفات وعدم زيادتها وأمثالها مما لا يدرك — أى يعلم علما يقينًا — إلا بالكشف ، أى بإعلام الله عن طريق الوحى أو الإلهام ، ومن أسنده إلى غير الكشف فإنما يتراءى له ما كان غالبًا على اعتقاده ، بحسب النظر الفكرى[1] .

وفى رأيى أنه إذا كان اليقين كمالا فى المعرفـــة — وهو كذلك — وإذا كان المتكلمون يرون أنه فى الحكمة النظرية التى هى كمال القوة النظرية فى الإنسان لابد من وضع قيد ، هو أن تكون (... بقدر الطاقة البشرية ..)[2]

فهم إذن — أى المتكلمون — يعترفون ضمنًا بأن القدرة البشرية عاجزة عن تحصيل الحكمة النظرية على الوجه المذكور ، أى عاجزة عن تحصيل لليقين لأن اليقين لا يكون بغير هذه الحكمة سواء كان ذلك بالنسبة للمسائل التى يتعرض لها العقل فى مجموعها أو فى مسألة واحدة .

كذلك فإنه لما كان المتكلمون يحكمون بظنية الدليل النقلى لأنه لايكون يقينيًّا إلا بشرط عدم المعارض العقلى والحكم بعدم المعارض العقلى مستحيل . فإن اشتراط عدم المعارض وارد أيضًا على الدليل العقلى مما يلزم بقصوره عن مرتبة اليقين التام .

---

(١) مقدمة تحقيق تهافت التهافت ص ٤٣ .

(٢) انظر شرح المقاصد للتفتازانى جـ١ ص٤٥ .

ولا يكفى لرفع ذلك — بالنسبة للدليل العقلى — ما ذكروه من أن الناظر فى الدليل العقلى بمقدماته القطعية يحصل له العلم بعدم المعارض بداهة — فذلك شعور فردى لا يصلح فى العقليات ، ولا يتمشى مع « العلم » بمفهومه الاصطلاحى الذى يقتضى حصول اليقين .

وإنى لأختلف مع أستاذى المرحوم الدكتور محمود حب الله إذ يؤكد أن الدور الأساسى فى معرفة الله هو للعقل إذ يقول (فمعرفة الإنسان لله إذن معرفة عقلية) ودور الوحى إنما هو التذكرة والتنبيه ، (فالعقل الخالص من الشوائب هو الحكم فى جميع الحالات ، وقد يساعد كل من الوجدان والعاطفة ، ولكنهما ظهيران فحسب)[1] .

ذلك أن الكلام عن عقل خال من الشوائب هو مجرد فرض لا سبيل إلى تحقيقه ولا إلى التحقق منه ، وهو لا يزيد عن افتراض وجدان خال من الشوائب أيضًا .

ويقول الأستاذ إسماعيل مظهر . .

(حاول بعض الفلاسفة أن يجعلوا العقل حداً للدين . .

حاول هؤلاء أن يجدوا فى عقل الإنسان — وحده — هاديًا ومرشداً أمينًا . . أخفقوا سعيًا وضلوا سبيلا .

لأن الطبيعة لم تحب الإنسان بشىء من ذلك[1] . .

٢ — وفى رأيى أن الذين يعطون العقل هذا الدور الأساسى — من المتكلمين والفلاسفة المسلمين — مدفوعون بنية حسنة ، إذ يتصورون أن رد الأمر إلى العقل وجعله حكمًا يسلم بما يدركه بنفسه ويرفض ما عدا ذلك هو الطريق الوحيد إلى التمييز بين العقائد الصحيحة والباطلة .

وفى رأيى أن هذا ليس هو الطريق . وأن هناك طرقًا أخرى . .

وبتعبير أدق :

ليس العقل طريقًا إذا طلبنا اليقين المطلق فإذا اكتفينا برجحان الظن كانت هناك طرق أخرى تتكامل مع العقل ، وهى أكثر قربًا من طبيعة الإنسان وإمكاناته ، وأقل مشقة وبذلا للجهد . .

إن ما أراه هو أن العقل محتاج

(١) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص٢٥٢ للدكتور محمود حب الله طبعة ١٩٤٨م .

(١) ملتقى السبيل ص ٥١ — ٥٢ .

للشرع احتياجاً رئيسياً لا لمجرد التذكرة والتنبيه ، وذلك فى جميع أنواع العلوم .

فبالنسبة للعلوم الضرورية « البدهيات » نرى العقل فى حاجة إلى الشرع للوثوق بها ، لأنها علوم حادثة والثقة فيها لا تحقق إلا بالثقة فيمن أحدثها ، ومحدثها هو الله تعالى[1] فلابد من الإيمان به سبحانه أولا .. وفى هذا قول الإمام الشاطبى (فالعقل غير مستقل ألبته على غير أصل وإنما يبنى على أصل متقدم على الإطلاق)[2]

وبالنسبة للعلوم النظرية يقول الإمام الشاطبى (لايمكن الاتفاق فيها عادة لاختلاف القرائح والأنظار ، فإذا وقع الاختلاف فيها لم يكن بد من مخبر بحقيقتها . . .

ويقرر الإمام الشاطبى أن العقل محكوم بالشرع وليس حاكمًا ، إذ يقول : (فهذا أصل اقتضى للعاقل ألا يجعل العقل حاكمًا بإطلاق ، وقد ثبت عليه حاكم بإطلاق وهو الشرع . بل الواجب عليه أن يقدم ما حقه التقديم وهو الشرع ، ويؤخر ما حقه التأخير وهو نظر العقل لأنه لا يصح تقديم الناقص حاكمًا على الكامل لأنه خلاف المعقول والمنقول .

والذى أراه أنه ليس من السائغ قول المتكلمين بأن الشرع جاء ليدعو العقل إلى البحث النظرى الطويل المعقد فى حدوث العالم ، ووجود الله ، وكونه عالمًا قادراً مرسلا للرسل ، مظهراً للمعجزة على أيديهم ، وذلك كله قبل أن يكلف الإنسان بالإيمان وتوابعه ، فإذا وصل العقل فى بحثه النظرى إلى الإيمان بوجود الله ولواحقه بدأ الشرع فى تكليف الإنسان . . .

إن معنى ذلك أن الشرع يقف موقف المستأذن من العقل . .

وهذا غير مستساغ لمنزلة الشرع والعقل والإنسان ، إن الشرع هو الأعلى ، إنه صادر من قبل الخالق فلا يتصور أن يقف موقف المستأذن من العقل ، يأذن العقل إذا عرف ولا يأذن إذا لم يعرف .

كذلك فإن الشرع جاء لهداية الإنسان فما الحال إذا لم يأذن العقل — وهذا يحدث كثيراً بحجة أنه لم يعرف ؟

وهل من مهمة الشرع أن يأتى

(١) عند كل من الأشاعرة والمعتزلة أن العلوم الضرورية والنظرية مخلوقة لله تعالى . .

(٢) الاعتصام جـ ١ ص ٤٥ .

بأدلة « عقلية » يقدمها للعقل لكى يعرف فيأذن ؟ وهذه الأدلة العقلية التى جاء بها الشرع ألم تخطر على العقل بدونه ؟ فهل مهمة الشرع أن يذكّر العقل بهذه الأدلة ؟ هذه مهمة متواضعة إلى حد لا يليق بمكانة الشرع ، ولا بقدرة الشارع ولا بحرصه على هداية البشر (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

إن العقل مخلوق للشارع مملوك له ، فلا يليق بنا أن نقول للشارع أن ينتظر من العقل حكومته وإذنه .

إن الأليق بنا فى هذا المقام أن نقول عن الشارع إنه قادر على أن يتدخل بخلق العقل على نحو يضطر فيه إلى معرفة الله ، وهذا هو مذهب الفطرة ، أو معرفة الله بالضرورة ، لا بالبحث والنظر .

أو نقول إنه يتدخل بتبليغ الحكم النهائى الذى ينبغى للعقول المتخالفة أن « تستمع » إليه نزولا على ما نسميه « الضرورة العملية » وهذا هو مذهب التلقّى من الرسول :

تَلَقّى العقائد والشرائع كلها ، لا فرق بين مسألة منها ومسألة أخرى..

والله الموفق .

د . يحيى هاشم

قال أحد الحكماء

لا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك ، وإن بليت بصحبة السلطان فكن منه على حذر ، ولا تمازح لبيباً فيحقد عليك . . ولا سفيها فيجترئ عليك . .

من تراثنا الحديث :

منهج المدرسة الإسلامية الأولى

المرحوم العلامة
محب الدين الخطيب

المدرسة الإسلامية الأولى التى لم يكن للمسلمين مدرسة قبلها ، ولم ينجحوا فى جميع أدوار تاريخهم فى تأسيس مدرسة تضارعها فى مهمة تكوين الرجولة ، وفى تهذيب النفس الإنسانية وتوجيهها إلى الحق والخير — هى هذه البقعة التى لا تزال موجودة إلى اليوم فى المسجد النبوى بالمدينة ، بين منزل أم المؤمنين عائشة الذى تشرف بالقبر المحمدى الطاهر ، وبين موضع منبره صلى الله عليه وسلم فى جنوب ذلك البيت .

وتلك البقعة التى كانت فيها المدرسة الإسلامية الأولى كانت فى الوقت نفسه دار الحكم الأولى فى الإسلام ، ومركز التعبئة الأول لكتائب الحق ، وأول ندوة أعد فيها دعاة المسلمين وقادتهم لإصلاح العالم بعناية عبده ورسوله صلوات الله عليه وسلامه .

ولقد كان من واجبات المشتغلين بالتاريخ من رجال الأمة الإسلامية البحث عن (النصوص السليمة) التى أبقاها انا التاريخ دالة على شىء من الأساليب والطرق التى ربى بها الهادى الأعظم صلى الله عليه وسلم أصحابه الأولين ، وكون منهم أمثلة الكمال فى الرجولة ، وفضائل النفس ، والاستعداد العجيب لممارسة الحكم العادل الرحيم .

والذى عرفناه بتتبعنا لهذا الموضوع العظيم — الذى يتوقف بعثنا السعيد على معرفته والعمل به — أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يهتم بحشد المعلومات الكثيرة فى ذاكرة أصحابه ، وإنما يهتم بتلقينهم المبدأ الصحيح بعد المبدأ الصحيح والحقيقة الناصعة بعد الحقيقة الناصعة ، والفضيلة المصهورة بعد الفضيلة المصهورة ويطالبهم بأن يتخلقوا بكل خليقة من هذه الخلائق حتى تمازج دماءهم وتخالط ينابيع الإيمان من قلوبهم ثم ينقلهم إلى

غيرها . وكان الكتاب الذى يستمد منه هذه المبادئ والحقائق والفضائل هو كتاب الله ، وينتهج — فى تمرين أرواح — أصحابه عليها — منهج التدريج عملا بسنة الله فى تنجيم النزول ، فلا تنزل الآية أو الآيات من وحى الله حتى يكون أولياء الله من أصحاب رسوله تخلقوا بالآيات التى نزلت قبلها وأصبحت سجية لهم لا يعرفون سجية لهم غيرها .

وقد التزم هذه الطريقة تلاميذه من كبار الصحابة فى نقل العلم المحمدى والرسالة الإسلامية إلى نفوس تلاميذهم من كبار التابعين .

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية فى « رسالة الإكليل » عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمى تلميذ أميرى المؤمنين عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأضرابهما من علماء الصحابة كعبد الله بن مسعود وزيد ابن ثابت وأبى بن كعب ثم كان شيخاً لشيوخ أئمة الإسلام كعاصم بن أبى النجود وعطاء بن السائب وأبى إسحاق السبيعى وعامر الشعبى والحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب وعشرات غيرهم من عظماء السلف . يقول أبو عبد الرحمن السلمى فيما نقله ابن تيمية : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا — عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما — أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من « العلم » و « العمل » . قالوا (أى الصحابة) : فتعلمنا القرآن والعلم . ورأيت مثل هذا النص فى ترجمة أبى عبد الرحمن من طبقات القراء لابن الجزرى (١ : ٤١٣ — الترجمة ١٧٥٥) : روى حماد بن زيد وغيره عن عطاء بن السائب أن أبا عبد الرحمن السلمى قال : أخذت القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الآخر حتى يعلمو ما فيهن ، فكنا (نتعلم) القرآن و (العمل) به ، وأنه سيرث القرآن بعدنا قوم لا يجاوز تراقيهم ، بل لا يجاوز ههنا (ووضع يده على حلقومه) .

ومن عملهم بالقرآن ألا يعصوا الله بتناول الأجر عليه . قال عطاء بن السائب : كان رجل يقرأ على أبى عبد الرحمن السلمى ، فأهدى له فرساً ، فردها وقال : ألا كان هذا قبل القراءة ؟

ولو أن أزهرنا ومعاهده ، ومدارسنا

وما بعدها من جامعات ، تعنى بتربية نفوس التلاميذ قبل عنايتها بحشد المعلومات فى ذاكرتهم ولا تملى عليهم إلا الحق والخير ، ولا تجاوز شيئًا من هذا الحق والخير إلا بعد أن يؤمن به تلاميذهم ، ويعاهدوا على العمل به وعلى إقامته فى الأرض حتى يكون هو المعمول به ، وهو المرجوع إليه ، وهو المطلوب فى التعامل والتعاون والتنافس فى كل الظروف والأحوال ، لأنتج هذا المنهج فى التعليم فى هذا القرن الرابع عشر مثل النتيجة التى كانت له فى القرن الأول للهجرة .

مفهوم الإسلام

« الإسلام : تسليم النفس إلى الحق الذى جاء من عند الله بلسان جميع أنبيائه ورسله » .

« والمسلم : هو الذى يوطن نفسه على أن تكون منقادة للحق الذى تولت رسالات الله الدعوة إليه ، ورفعت لواءه فى أجيال الإنسانية من أقدم عهودها » .

بين العلم والثقافة

العلم شىء ، والثقافة شىء آخر . العلم عالمى ، لا تختص به أمة دون أمة ، ولا تحتكره قارة من قارات الأرض فيكون غيرها عالة عليها فيه . إنه مشاع كالهواء الذى نتنفسه ، والبحار التى تحيط باليابسة وتمخر فيها ألوف السفن حاملة مئات الأعلام . ثم إن العلم تراث إنسانى ، ما من أمة إلا لها فيه جهاد وجهود ، وكل درجة ارتقاها العلم فى أى عصر من عصوره على يد أمة من الأمم فى بلد من بلاد الناس ، إنما كان ذلك بفضل درجة أخرى قبلها كان العلم قد وصل إليها فى عصر آخر قبل ذلك العصر وعلى يد أمة أخرى من الأمم فى بلد غير ذلك البلد الذى وصل العلم فيه إلى الدرجة التى تلى تلك الدرجة .

ولكن ما هو العلم ، وما هى الثقافة ، ولماذا كانت غيره وكان هو غيرها ؟

العلم : هو مجموعة الحقائق التى توصل إليها العقل البشرى فى مراحل تفكيره وتجاربه وملاحظاته المتسلسلة بتسلسل الزمن ، والمحررة بالامتحانات المتكررة ، فلا تختلف بتفاوت الأذواق ، ولا تتغير بتطور المصالح ، إن جدول الضرب من المعارف الإنسانية العريقة فى القدم ، وسيبقى حاجة من الحاجات الأولية لطلاب علم الحساب فى كل وطن وفى كل زمن . ولولا ما كان معروفًا قبل

العرب والمسلمين من علم الحساب لما توصل العرب والمسلمون إلى إتحاف الإنسانية بالحقائق الأولية من قواعد علم الجبر والمقابلة ، ولولا علم الجبر والمقابلة الذى توصل علماؤنا إليه قبل مئات السنين لما تقدمت فى العصور الأخيرة العلوم الرياضية الأخرى التى وصلت بها الأعمال الهندسية إلى ماوصلت إليه الآن من التقدم . فالعلوم الرياضية والحقائق الهندسية من العلم العالمى المشاع بين البشر ، والذى اشتركت عقول البشر فى تقدمه وارتقائه منذ العصور العريقة فى القدم ، ولا غضاضة على أمة فى أن تطلب العلم به حيث تجده . وكذلك الطب وعلوم الطبيعة وكل ما تمس إليه حاجة الأمم فى قوتها وأسباب عزتها وتوفير حاجات أوطانها ، والمسلمون على الخصوص يوجب عليهم دينهم أن يتعلموا ما تدعو حاجتهم فى مرافقهم إلى تعلمه من العلوم التى إن لم يحذقوها تولاها عنهم الأغيار ، وكان جهلهم بها من أسباب ضعفهم القومى والملى .

هذا النوع من المعارف الإنسانية هو « العلم » وهو واحد فى كل أمة ، وهو اليوم سبيل القوة فى الحرب والسلم ، وهو الذى ينبغى للمسلمين أن يكون فيهم — دائمًا — العدد الكافى من العالمين به ليتولوا مرافق بلادهم بأنفسهم ، ويحققوا أسباب قوتهم الصناعية والحربية والاقتصادية بأيديهم ، وإذا لم يتحقق ذلك إلا بإرسال البعثات إلى البلاد التى تفوقت به فعليهم أن يوالوا إرسالها إلى أن يتوافر عندهم من أبنائهم رجال الكفاية لسد هذه الحاجة على قدرها .

ولكن ، هذا « العلم » شىء ، و « الثقافة » شىء آخر .

الثقافة فى كل أمة لها لون قومى خاص تستمده من مألوفها ، ومن ذوقها ، ومن مواريثها الأدبية ، ومن ظروفها الجغرافية ، ومن ضروراتها الإقليمية ، وحاجاتها الاجتماعية . ولذلك نرى الثقافة الفرنسية تختلف عن الثقافة الألمانية ، بل نرى الثقافة البريطانية تختلف عن الثقافة الأمريكية مع اتحاد الأمتين فى اللغة والآداب — والصينيون يتفقون مع اليابانيين فى الكثير من المقومات ، وكانوا بين الحربين العالميتين فى حاجة إلى عضد قوى يستعينون به لمقاومة الاستعمار المحيط بهم من كل جانب ، ومع ذلك فإن اختلاف الثقافتين أنشب الحرب بين الصين واليابان سنين طويلة قبل الحرب العالمية الثانية وفى خلالها . ولو لم تكن

الثقافة من الفوارق الجوهرية بين الأمم لكان من المعقول أن تتعاون الصين واليابان وتتحد وجهتهما وكانت تكون منهما حينئذ قوة رهيبة لعلها تكتسح الأمم وذلك ما كان ينذر به إمبراطور ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ويسميه « الخطر الأصفر » .

تاريخ الأمة من عناصر ثقافتها ، آداب الأمة من صميم ثقافتها ، أخلاق الأمة فى كل عصر من عصورها حلقة من سلسلة الأخلاق القومية التى هى من ميراث الماضى ، وقد يكون فى ميراث الأمة من أخلاق ماضيها الكثير من الخير والكثير مما ينافيه فعليها أن تصلح بخيرها المتوارث ما ينافيه من الأخلاق التى تحتاج إلى إصلاح ، فإذا حاولت الأمة أن تتنكر للطيب من تراثها الأخلاقى بتطعيمه بأخلاق أجنبية عنها أضاعت نفسها وفقدت أصالتها وصارت إلى هجنة تنافى الأصالة ، ويحتقرها الأصلاء من أصحاب تلك الأخلاق الأجنبية . وأذكر كلمة حكيمة لبسمارك كان قالها لغليوم الثانى لما كان لا يزال ولى عهد الإمبراطورية الألمانية حينما أرسلوه إلى روسيا ليمثل ألمانيا فى مناسبة من المناسبات ، فقد قال له بسمارك :

« إنك ذاهب إلى بلاد شرقية ، فإذا رأيت الشرقى المتمسك بزيه الأصيل ، وإذا رأيت الشرقى الذى لبس البنطلون تقليداً للغرب ، فاعلم أنه فقد مواريثه فى الفضائل ، ولم يكتسب أخلاق الغرب وفضائله » .

إن القول الفصل بين العلم والثقافة ، هو أن العلم عالمى والثقافة قومية وملية والعلم لا لون له ، والثقافة ذات لون . وكذب أن فى الدنيا ثقافة عالية ، ولا يمكن أن تكون فيها ثقافة عالمية . فعلى كل أمة أن تتمسك بثقافتها ، وأن تبعث فيها أسباب الحيوية يوصل ما بين ماضيها وآتيها ، خصوصاً نحن المسلمين الذين لا نكون مسلمين بارتياد الجامع فقط ، ولا بتصحيح العقيدة فقط ، بل إن إسلامنا يتناول البيت كما يتناول الجامع ، ويفرض سننه وأحكامه على المجتمع كما يفرضها على الفرد . وسنن الإسلام وأحكامه مصدر كريم من مصادر ثقافتنا ، فلا يكفى أن نعرف كيف نصلى ، بل يجب أن نعرف كيف نكون أفراداً مسلمين فى مجتمع إسلامى ، وأن نعرف كيف نكون رعايا مسلمين لدولة إسلامية .

وبعد : فإن للإسلام وهو الدين

الاجتماعى – ثقافة واسعة شاملة فى هذه الأمور وفى كل الأمور . ولولا أن دانلوب حرم المتعلمين فى مصر من أن يتعرفوا إلى ثقافتهم الإسلامية ، فجرد مدارس الدولة منها ، لكان الجيل القائم الآن خيراً منه الآن ، ولقطعنا شوطاً طويلا فى طريقنا إلى القوة وإلى العزة وإلى السعادة والسلامة والعافية .

والمطلوب من وزارة التربية والتعليم – بعد أن جعلت التربية العنصر الأول من عناصر رسالتها . أن تلتمس كل الأسباب للتعرف إلى التربية الإسلامية وتعريف الجيل بها ، لأن التربية من أهم عناصر الثقافة ، وما دمنا فى بلد إسلامى عربى فيجب أن تكون ثقافتنا إسلامية عربية ، وتربية أبنائنا تربية إسلامية عربية ، وهذا – لا ينافى إرسال البعثات إلى أوربا وإلى أمريكا لتخريج مهندسين فى الطبقة الأولى ، وكيماويين وأطباء فى الذروة العليا ، وعلماء معادن وجيولوجيا من الطراز الأول ، لأن هذه المعارف من العلم العالمى الذى لا لون له ، ونحن فى حاجة إليها فى مرافقنا وتعدين معادننا ، واستنباط البترول من تربتنا ، وإصلاح زراعتنا وتوسيعها . وتجهيزها بوسائل الرى والصرف ، وإقامة المصانع لكل ما نحتاجه فى حربنا وسلمنا . هذا العلم يجب أن نأخذه حيث وجدناه .

أما المعارف التى لها لون قومى ، لأقوام غير أقوامنا ، ولها لون وطنى لأوطان غير أوطاننا ، ولها لون ملى لملل غير ملتنا ، فذلك ما يسمى ثقافة . ونحن فى غنى عنه بثقافتنا التى يجب أن نستمدها من مألوفنا ، ومن ذوقنا ، ومن مواريثنا الأدبية وظروفنا الجغرافية ، وضروراتنا الإقليمية ، وحاجاتنا الاجتماعية ولهذه الثقافة مثل فى تاريخنا وتراجم أسلافنا ، فيجب أن نعرفها بمعرفتهم ، وأن ندرسها بدراسة تراجمهم ، وأن نحييها بالتخلق بأخلاق أهلها واتخاذهم قدوة لنا وأسوة .

نحن فى مرحلة انتقال ، ومن النصح للأمة أن نتعاون على معرفة الطريق الذى نسلكه إلى مرحلتنا الجديدة . وعندى أنه الطريق الذى يجمع بين تعلم كل ما عند غيرنا من العلوم العالمية التى لا لون لها ، والاحتفاظ بكل مـــا يحفظ علينا إسلامنا وعروبتنا ومصريتنا من الثقافة التى نحن أغنى أمم الأرض بها ، ما علينا إلا أن تستأنف دراستها وأحياءها والعمل بها ، ويومئذ تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

الأساس الذى تقيم عليه نهضتنا :

الأمم العربية والعالم الإسلامى على على أبواب نهضة وبعث جديد لا شك فيهما . وفى كل يوم ألقى شبابـًا من شبابنا المثقف يسألنى الواحد منهم ، أول ما يسأل :

— ماذا يجب أن نعمل ، بماذا يجب أن أبدأ ، ما هو الطريق الذى تشير على بأن أجعله طريقى فى الحياة ؟

كلهم متوثبون ، وكلهم يريدون أن يعلموا . ولكنهم يريدون أن يجدوا من يدلهم على طريق العمل ، وعلى نوع العمل .

وجوابى دائمـًا لأمثال هؤلاء الشبان الأطهار : إن العمل كثير ، والمهمة التى تواجه هذا الجيل ، وكان يجب عليه أن يضطلع بها كاملة وافية ، أعظم من أن يكفى لها عددنا لو أننا تفرغنا كلنا لها . لأن من ورائنا تراث أربعة عشر قرنـًا فى الإسلام يجب علينا دراسته وتحليله ومعرفة جميع عناصر الخير والشر التى فيه ، وسيرة الذين عملوا لأخذ المسلمين إلى طريق الإسلام ، والآخرين الذين عملوا لتحويل المسلمين عن أهداف الإسلام باسم الإسلام .

وأولئك من الكثرة إلى درجة أن الذين نسمع بأسمائهم وتعرف شيئـًا عنهم لا يبلغون جزءاً من مليون جزء من رجال العلم والأخلاق والفضائل والجهاد فى سبيل الحق والخير . والآخرون الذين أفسدوا فى الإسلام باسم الإسلام قد أنسى الله المسلمين العدد الأعظم من أسمائهم فماتوا وماتت أسماؤهم معهم ، لأن أكثرهم كان يعمل فى الخفاء ، وأهل الظهور من منافقيهم تركوا وراءهم ما سيفضحهم — إن شاء الله — يوم نجرد التركة ، ونحلل التراث ونميز بين ما فيه من خير وحق، وما فيه من شر وباطل. إلا أن أهل الشهرة من دعاة البدع — وإن كانوا قد بادوا وبادت أسماء أكثرهم — لا يزال كثير من بدعهم مشوبـًا به كثير من فضائلنا وتقاليدنا ومحفوظاتنا .

هذا بعض تراث الإسلام فينا من أربعة عشر قرنـًا ، وأن لنا وراءه تراثـًا آخر للعروبة ويتوغل أكثر من أربعين قرنـًا فى أحشاء الماضى ، ومنه هذه اللغة العجيبة الثرية ، الدقيقة ، الجميلة ، الوارفة الظلال ، الأبدية الحياة ، هذه اللغة وما تدل عليه من خطرات نفس

ومدارك عقل ، وعواطف قلب ، وتسلسل وتناسل وتكاثر فى المعانى وفى مشتقات الألفاظ الدالة على هذه المعانى — كل ذلك يحتاج منا إلى دراسات لا آخر لها.

للجهاد بالسلاح أهله الذين وجههم الله إليه ، و يسره لهم .

وللجهاد بالدعوة أهله الذين وجههم الله إليه ويسره لهم .

وللجهاد الاقتصادى أهله كذلك .

وما من عمل ظاهر ويتصل بمعايش المثقفين إلا وله من أبنائنا المثقفين كتائب مجندة للاطلاع به .

أما تراث الإسلام ، وتحليل ما تلقيناه عنه من عناصر إسلامية سليمة ، ومن عناصر أجنبية طارئة عليه فتولدت منها البدع ، وتفرعت عنها المذاهب الشاذة والطوائف المنابذة للأهداف الإسلامية الأولى ، فهذا قلما وجد فى شبابنا من تفرغ لدراسته ، ومعرفة مصادر هذه الدراسة ، وكيفية التمييز بين الحقائق وأضدادها ، والميزان الذى توزن به الفضائل وأهلها .

إن المستشرقين حاولوا هذا بتأليفهم (دائرة المعارف الإسلامية) ، وهو مجهود علمى عظيم تضافروا عليه جميعًا وأسهم فيه كل واحد منهم من الجهة التى له فيها يد ، وسبق له فى موضوعها دراسة وتخصص . إلا أن للمستشرقين وجهة نظر إلى التراث الإسلامى غير الوجهة التى يتجه إليها نظر المسلمين أنفسهم لو درسوا هذا التراث الإسلامى كدراسة المستشرقين له .

وإن مثل هذا الجهد العظيم الذى بذله المستشرقون فى — دائرة المعارف الإسلامية — وهو جهد جهيد وعظيم حقًا — لو بذل المسلمون أنفسهم مثله لجاء منه عمل آخر غير هذا العمل ، لأنهم يدركون من هذه الدراسة مالا يدركه المستشرقون ، ويشعرون بعداوة الأعداء للإسلام فى ماضى المسلمين وبإخلاص المخلصين منهم له مالا يشعر به المستشرقون . وفى الحق أننا أمة تحتاج فى هذا الجيل إلى أن تعرف ما تخلف فى الإسلام من عداوة أعدائه وصدق أصدقائه . ولكن دراسة كدراسة المستشرقين لهذا التراث تحتاج إلى جهود لا نرى فى الذين يسألون من شبابنا « ماذا نعمل ؟ » من يأنس فى نفسه الرضا ببذلها ، وإذا أنس من نفسه ذلك لا يجد من ثقافته التى قدمتها له الدولة فى مدارسها ما يؤهله لذلك ما لم يكن عنده استعداد شخصى يتغلب

على هذه الصعوبة . ومن العجيب أن يستسهل المستشرق الأجنبى عن الإسلام ما يستصعبه الشاب المسلم الناشئ فى مدارس دول تنتسب إلى الإسلام .

العمل واسع ، وكثير النواحى ، وهو دراسة وتحليل وتنظيم لجهود أربعة عشر قرناً فى الإسلام ، وأربعين قرناً فى تراث العروبة قبله . ولا بد لبعث هذا التراث وتنظيمه من أن يتخصص فى المثقفين منا مئات فى مختلف نواحى التراث الإسلامى والماضى العربى . ليصيروا فينا نوابغ فى هذه النواحى كالنوابغ من المستشرقين الذين نرى أسماءهم فى ذيل المواد الدقيقة التى تتألف منها أجزاء « دائرة المعارف الإسلامية » .

وبعث هذا التراث وتدوينه على هذا الوجه هو « الأساس » الذى تقوم عليه « النهضة » والذى نستطيع أن نبنى عليه ثقافتنا المستقبلة .

أما طريقة حملة الأقلام الآن ممن «يسرقون» جهود المستشرقين ، ويعرضونها علينا بعجرها وبجرها ، وبدسائس أصحابها فيها ، ثم يزعمون أنها من « تأليفهم » فإن نظرة واحدة فيها تدل على أنهم لم تقع أنظارهم على المراجع العربية التى أخذ عنها المستشرقون ولا يعرفون عنها شيئاً ، وما دمنا على هذه الحالة ، تبعاً لأسلوب التعليم الذى يتخرج به النشء ، فسنبقى غرباء عن العلم ، وعالة على الأجانب فيه وضحايا لأغراضهم التى يروجونها علينا بأساليب تخفى على أشباه العلماء ، وتنقطع لها قلوب العارفين .

ترى متى نضع « الأساس » لنهضتنا وثقافتنا ببعث تراثنا وتحليله وتنظيمه . إن المسلم فى المجتمع الإنسانى أشبه بابن السبيل الهائم على وجهه فى بيداء الحياة . وبيداء الحياة — التى يهيم فيه المسلم على وجهه منذ ولد إلى أن يلقى الله راضياً عنه أو ساخطاً عليه — هى هذا المجتمع الإنسانى المختلف الأهواء المتضارب العقائد ، المتباين المقاصد والمشارب والأخلاق والسجايا .

والمسلم ليس مسلماً بشهادة الميلاد ، فهذه أخس الشهادات للمسلم على إسلامه . ولا هو مسلم بما يقوم به من الفرائض المكتوبة عليه وحسب ، فهذا شطر من إسلامه الذى لا يستكمله إلا باستيفاء سائر وجوه الإسلام ونواحيه . لأن الإسلام أوسع الديانات دائرة وأعمها أغراضاً وأدقها أنظمة ، وأبعدها هدفاً . وهو أعظم رسالات الله ، وأشملها للمعانى الإنسانية العليا التى حامت حولها أحلام

حكماء الأرض ، وعليها تتوقف السعادة بأكمل ما ترتجى .

ومن الأغراض التى جاء بها الإسلام ، بل من الشروط التى يتوقف عليها تحقيق أغراضه ، أن يجعل من المسلمين فى بيداء الحياة قافلة ممتازة بسجايا ومبادئ وصفات ومظاهر وأنظمة خاصة بهم ، وبها يتحقق اتساع وشمول غرضه والوصول إلى أهدافه . وتفقد هذه القافلة الممتازة صفة امتيازها إذا هى انساقت فى قافلة الملل الأخرى ، ولو فيما تظن أنه لا يمس العقيدة أن ينقص من العبادة ، لأن أهل هذه القافلة أراد لهم إسلامهم ألا ينطبعوا إلا بطابعه ، وألا يصطبغوا إلا بصبغته ، وألا يسايروا فى بيداء الحياة إلا المنتظمين فى نظامهم المنخرطين فى سلكهم ، المتخلقين بخلائقهم وسجاياهم . وليس ذلك أنانية منهم ، أو أثرة من نظامهم ، بل لأن الأسس التى قام عليها نظامهم والأغراض التى يهدف إليها هى التى تتم بها السعادة للإنسانية .

والإسلام كل لا يتجزأ . ففضائله بغير عقائده ناقصة ، وعباداته مجردة من فضائله تلعن صاحبها ، وعقائدها مجردة من أنظمته تعيش مريضة حتى تقام أنظمته فتحيا بها عقائده .

ولذلك كان الإيمان الإسلامى بضعاً وسبعين شعبه ، وكل ما جاء الأمر به كتاب الله وسنة الهادى الأعظم صلى الله عليه وسلم فهو من شعب الإيمان ، وما يتعلق منه بفضائل الأخلاق وحسن التعامل مع الناس أكبر أجزائه وأكثر شعبه . وكل ما جاء النهى عنه فى كتاب الله وهداية المرشد الأعظم صلى الله عليه وسلم فالانتهاء عنه من شعب الإيمان ، وما يتعلق منه بالتنزه عن شوائن الأخلاق والتعفف عن معاملة الناس بالباطل والشر من أكبر تلك الشعب .

هذه الأوامر الإسلامية فى كتاب الله وسنة رسوله تناولت كل حق عرفه البشر ، وكل خير خطر على بال حكمائهم وأذكيائهم وقادة الفكر منهم . وهذه النواهى الإسلامية فى كتاب الله وسنة رسوله أحاطت بجميع معانى الباطل وبكل ما يهدف إليه الشر وأهله . لذلك كانت أوامر الإسلام ونواهيه مناط السعادة ، لأنها جماع الحق والخير ، ووقاية الله من الباطل والشر . وأن دينا جعل مجموع هذا من شعب الإيمان به لجدير بما وصفنا من أنه هو الإنسانية العليا التى أوحت بها السماء إلى أهل الأرض .

وقد نبغ من عظماء دعاة الهداية الخلفاء الراشدون ، والصحابة العدول الهادون المهتدون ، والتابعون لهم بإحسان ، وحملة هذه الأمانات من الأئمة والعلماء والصالحين . وفى سيرة هؤلاء تطبيق عملى لهذه الهداية ، وفى أقوالهم المأثورة تفسير لما ورد منها مجملا فى كتاب الله وسنة رسوله . ومجموع ذلك تتألق منه فى بيداء الحياة معالم للمسلمين تستدل بها قوافل أجيالهم على الوجه التى وجهها الإسلام إليها .

والمسلمون ذلوا وضعفوا ، وأخطأهم النصر والتوفيق ، وأبطأ عليهم الارتقاء والتقدم والتميز على أمم الأرض ، منذ تجاهلوا معالمهم ، وسايروا أهل الحضارات والملل والأهواء فى طرقهم وأنظمتهم وتقاليدهم ومظاهرهم وأذواقهم وأساليب تفكيرهم . وسيستشعرون العزة والقوة ، وينالون الفوز والظفر ، ويقودون حركة التقدم فى الأرض ، يوم يعرفون معالمهم فتسترشد بها قوافلهم فى بيداء الحياة .

أيها المسلمون ، إن لكم معالم ، فانتهوا إلى معالمكم . .

محب الدين الخطيب

آداب الشريف

يصون شرفه ، ولا يأكل بنسبة ، ولا يتعدى بحسبه ،
ويهذب أخلاقه ، ويتحفظ فى الفاظه عند غضبه وخطابه ،
يكرم جلساءه ، ويواصل إخوانه ، ويصون أقاربه ،
ويعين جيرانه ، ويزين بنفسه أخدانه . .

دعوة صادقة :

عالم أزهرى
يدعو إلى السلام العالمى

للدكتور / محمد رجب البيومى
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

فى أوائل سنة ١٩٤٦م بعد أن اخترعت القنبلة الذرية ، وكثر الحديث عن مصائبها الهائلة ، ورأى الناس بأعينهم فظائعها الرهيبة فى اليابان ، كتب أحد رؤساء الأديان مقالا قويًّا تحت عنوان : (يجب أن تختار الإنسانية بين الخوف من الله ، والخوف من القنبلة الذرية) ، وجعل إهداءه لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ، وكان شيخ الأزهر حينئذ ، وله من المكانة العلمية والجلال الدينى والنظر الفلسفى ما يستطيع به أن يفهم مغزى المقال فهمًا إيجابيًّا يدفع إلى العمل قدر الطاقة لإنقاذ البشر من هاوية الفناء المتربص ، وكان الشيخ حكيمًا رزينًا ، فعمل على ترجمة المقال إلى العربية ، وأمر بنشره فى مجلة الأزهر ، بالمجلد السابع عشر فى الصفحات ١٣٠ ، ١٣١، ١٣٢ ، ١٣٣، ١٣٤ ، ثم اجتمع بذوى البيان من أعضاء هيئة كبار العلماء بالأزهر ليدعوهم إلى التفكير فيما كتبه صاحب المقال ، ولإبداء الرأى من وجهة عقلية تقنع كل قارئ مهما كان مذهبه الدينى ، ومعتقده السياسى ، وموقعه الجغرافى ، ليستطيع صوت الدين العاقل أنْ ينقذ البشرية من أعاصير الرعب وزعازع الفزع ، وقد شاء الله أن يلقى الشيخ الأكبر ربه قبل أن يجد من كتابات الكاتبين ما يعلن وجهة نظر الأزهر ، فذهب الموضوع بذهابه . ولكن عالمًا كبيراً من أعضاء

جماعة كبار العلماء هو الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ذو الرأى الحر ، والقلم البليغ ، كان قد احتفل بالموضوع وشغل ذهنه المفكر ، فأخذ يدون خواطره فى أوراق متناثرة ، وكان موقفه من الدقة البالغة بحيث آثر التريث المتئد ، آخذاً فى حسابه أنه يخاطب الناس جميعًا بمنطق العقل وحده ، فلا مجال إلى الاستشهاد بالنصوص الدينية التى يؤمن بها فريق دون فريق ، ولا إلى عرض أحداث خاصة لا تمثل القاسم المشترك بين ذوى الأفهام من أبناء البشر كافة ، حتى استطاع أن يُخرج كتابه الرائع (إنقاذ البشر من أن يفنوا بعضهم بعضا بالحرب الذرية) وكان الظن بمفكرى العالم العربى فضلا عن جميع المفكرين قاطبة أن يعطوا للكتاب ما يستحقه من التحليل والنقد ، ولكن العجب العاجب أن يُهْمَل الكتابُ فى حياة صاحبه ، وبعد أن لقى ربه سعيداً بما قدّم من جهاد فى شتى ميادين الإصلاح العلمى والاجتماعى ، على حين نرى الصحف من يومية وأسبوعية وشهرية حافلةً بتحليل كتب معاصرة تنحو منحى الأستاذ ، كتبها نفر من مفكرى أوربا وأمريكا ، فلاقت استهواءً جاذبًا لدى قوم منا يتلقفون كل غريب بالاحتفاء والتنويه ويعرضون عما يقوله علماؤهم دون أن يقرءوه ! ولعلى أرضى ضميرى الناقم حين أتحدث عن دعوة شيخنا الكبير الأستاذ محمد عرفة رحمه الله فى هذه السطور .

بدأ الأستاذ كتابه بالحديث عن الحياد الإيجابى ، بين الكتلتين المتصارعتين فذكر أن الناس يلهجونَ به ، ويؤيدونه فى مقالات عاطفية ، وندوات خطابية دون أن يُقيموا له فلسفةً نظرية تجمع الأدلة المقنعة على ضرورته ، على حين نرى لكل من الشيوعية والرأسمالية فلسفتها المدعمة بالآراء والأرقام والأحداث ، فإذا شئنا أن نؤيد هذا الحياد ، فلا بد من ارتكازه على نظر فلسفى يقف به أمام ما ينازعه من المذاهب ، وفى هذا النطاق يؤلف الأستاذ كتابه ، والحق أن ما كتبه المؤلف لا يقف عند النظر الفلسفى وحــده ، لأن الفلسفة تخاطب العقل ، وتنأى عن مؤثرات العاطفة ، وكلُّ دعوة يتوجه بها صاحبها إلى الناس لا بد أن تخاطب العقل والعاطفة معًا ، فلو قصر المؤلف كثيراً من قرائه الذين لا يصبرون على

حديثه على الإقناع الفلسفى وحده لخسر غموض الأدلة وتشابكها، وهكذا وفقَ اللهُ الكاتب لأن يكون مفكراً ذا بيان ناصع يُقنع ويُمتع ويَستميل .

حدد الكاتب وجهته الهادفة حين أعلن أنه لا يتحاكم مع رؤساء الدول المتنافسة إلى الدين ، إذ يرى فيهم من يجحده ويراه أُلْهِيَةً ينخدع بها الصغار وقد شبوا عن الطوق فلا ينخدعون . كما أنه لا يتحاكم إلى الضمير إذ يرى فى هؤلاء من يقولون إن الضمير من وحى البيئة والتربية وإنه قد يطمئن إلى الشر إذا حسنتْ لديه بواعثه وغاياته فيظن فيه الخير كل الخير ، كما أنه لا يتحاكم إلى المُثل العليا لأنها فى رأى كثرتهم مظنة التبديل والتغيير ، فما يكون رائعًا جليلا فى عهد من هذه المثل يكون سخيفاً مبتذلا فى عهد آخر ، وإذا كان الكاتب لا يتحاكم إلى الدين أو الضمير أو المثل العليا فإنه يتحاكم إلى المنفعة وحدها ! لأن الفريقيْن من المتصارعين يهدفان إلى المنفعة العاجلة ، ويخططون لها فى كل خطواتهم ، فإذا كانت المنفعة هذه هى وسيلة الإقناع لدى الكاتب ، فلا بد أن يستجيب له من ينشدونها فى كل اتجاه !

وها هو ذا يثبت لهم بالمنطق الصريح أن القنبلة الذرية ستذهب بكل ما يملكون فلا نفع من ورائها حين يتحطم بها الغالب والمغلوب .

وقد أعلن الأستاذ إيمانه بالإنسان ، وبما يتجه إليه من جواذب الخير لو استمعَ إلى صوت الطبيعة فى نفسه ، واستلهم الفطرة التى تهديه سواء السبيل ، ولكنه قد حاد عن الحق حين أصاخ إلى صيحات باطلة أخذت تزين له الشر عصراً بعد عصر حتى نسى طبيعة الخير ، وأصبح يرى أن العدالة ما تُنتجه القوة ، فإذا استطاع الوحشُ أن يصرع ضحيته فهو عادل فى قتلها لأن القوة قد أمكنتْه من فريسته الضعيفة ، لقد وُجدَ هذا المنطقُ الظالمُ فى كل عصر ، وُجد فى عهد الإغريق واعتنقه السوفسطائيون وبذلوا جهودهم فى تأييده بخوادع الأدلة ، ومن الحق أن نقولَ إنه وجد المعارض ممثلاً فى سقراط وتلاميذه ، ولكنه لم يعدم على كر الأيام مؤيديه لأن حب الغنائم والافتراس مما يدعو أصحابه إلى التمسك بسفسطات تُقدم لهم تبريراً سطحيًّا لما يرتكبون ، وقد جاءت الأديانُ لتقيم العدالة على قسطاس سوىٍّ لا يميل ، ولكن ذوى الشر قد

أصمـُّوا آذانهم عن هواتف الخير ، ووجدوا من كبار الكتاب من يؤيد اتجاههم الظالم وكأنـَّه يؤيد ُحقـًّا لا مرية فيه .

يقول الأستاذ محمد عرفة ص ١٢٩ (لقد اعتقد الساسة ُ أن ما يأتون من امتلاك الشعوب والسيطرة على أراضيها وثرواتها عدل ليس فيه ظلم ، لأن العدل هو منفعة ُ الأقوى ، وما يفعله الأقوى فى سبيل وجوده أوْ فِى سبيل وجود أفضل فهو عدل ليس بظلم) .

وبهذا الاعتقاد كان الاستعمار بـُطـُولة َ لدى المستعمرين ، فإذا قاوَمـَتِ الدول ُ الضعيفة ُ من تريد استعمارَها فقهرتها الأمة ُ القوية بالحديد والنار فهذا حق لاعيب فيه ، ومن هنا تسابقت أمم ُ أوربا على امتلاكِ أفريقيا وآسيا ، وأدى هذا الوضع إلى تناحر بين القوى والضعيف ثم إلى تناحر بين الأقوياء طمعـًا فى الاستلاب حين ترى أمة ٌ أوربية ٌ أن نصيبها أقل من نصيب جارتها !! لقد أصبح النزاع بين قـُوًى متكافئة تملك جميعها القنبلة الذرية : وأصبح خطر ُ الإبادة متوقـَّعـًا بين حين وحين !

فقد يرى المعسكر الشرقيُّ أنَّ بلادَه فسيحة الأرجاء وأن دولَ المعسكر الغربى ضيقة مكتظة ، فإذا تكافأ التدمير من المعسكريـْن ، فسيبقى للمعسكر الشرقى ما يعتمد عليه ! وقد يـُخطئ أحد الفريقين تقدير صاحبه ، ويظن أنه سيبدأ بالهجوم فيبادر ُ هو الآخر إلى أن يتغذى به قبل أن يأكله ، وتنفجر القنبلة فتـُقابل ُ بالمثل ، وقد تسقط ُ القنبلة ُ خطأً حين تحملها طائرة من مكان إلى مكان فتحدث ُ خطراً يقابل ُ بالمثل ممن ظن الخطأ متعمدا فيحد ُث الفناء ، وقد تـُرزَق ُ إحدى الدولتيـْن رئيساً متشائم النظرة سيئ الرأى فى الحياة والأحياء فيبدأ الهجوم الذرى دونَ نظر إلى العواقب ، ويقابل صنيعه ُ بالمثل فترجف الراجفة ، وكل ذلك يدعو الأستاذ عرفة إلى أن يقول فى ص ٥٥ :

(ليس الحاجز بين البشر وفنائهم بالقنبلة الذرية حصينـًا ، بل فيه ثغرات بهذه الاحتمالات المفروضة ، وإن واحدة منها لتدك العالم دكـًّا ، وهكذا تقوم الساعة ويفنى البشر) .

إن العلاجَ الحاسم لا يكون بالوعظ وحده ، ولكنه يتغلغل فى رأى الكاتب إلى البحث عما سبـَّب هذه الآراء العدوانية وأصَّلها فى النفوس هذا التأصيل ، وإذا كان المؤلف قد أشاد بسقراط حين واجه السوفسطائيين وأنكر مذهبهم فى

البطش والاستعلاء ، فقد كانَ عليه أن يأخذ على أفلاطون وأرسطو إنكارهم للمساواة بين البشر ، لأن انتشار المذاهب اليونانية فى العالم الأوربى كان مدعاة البطش الظالم ممن يظنون أنفسهم أرقى من سواهم ، وقد رأت أوربا فريقًا من المفكرين ينكرون حق البشرية فى الحرية الشاملة ويدعون إلى أن يستعبد القوى الضعيف ، وقد بلغُوا فى أقوامهم مكانَ الرئاسة العلمية والتوجيه الفكرى حتى صاروا أصحاب مذاهب ذائعة فى السياسة والاجتماع ، وانتشرت آراؤهم انتشاراً ساعد على الظلم والعدوان ، وقد تعرض المؤلف إلى هذه الآراء منددًا مفندًا فنقل ما كتبه الفيلسوف الاجتماعى (مونتسكيو) فى روح القوانين حين قال :

(إذا كان على أن أدافع عن حقنا المكتسب فى اتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبيدًا ، فإننى أقول إن شعوب أوربا ، وقد أفنتْ سكان أمريكا الأصليين لم يكن أمامهما إلا أن تستعبد شعوب أفريقيا ، لكى تستخدمها فى استصْلاح أرجاء أمريكا الشاسعة ، وما شعوب أفريقيا إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ذوو أنوف فطس إلى درجة يكاد يكون من المستحيل أن يرثى لها ، وحاش لله أن يكونَ قد أودع رُوحًا — أو على الأخص — روحًا طيبة فى جسد حالك السواد) .

وهذا قول يهوى بمكانة صاحبه العلمية ، او نُزِعت الغشاواتُ عن العيون ، كما يدل على تحجر إنسانى يجعله صخرة صماء لا تنبض بعاطفة ما ، ومثلُه لا يجوز أن يكتبَ عن روح القوانين ، فيتصدر مقعد التحليل والتشريح ، وقد فقد نور البصيرة ، ورقة الإحساس !

وإذا كانت ألمانيا قد اعتقدتْ مذهب القوة ورأتْ فى نفسها استعلاءً شامخًا ، يدفعها إلى منافسة استعمارية تجعلُها ذات نفوذ سياسى واقتصادى يفوقُ نفوذ إنجلترا المستعمرة الأولى — وتم ذاك — فى العالم فشنتْ حربيْن عالميتين كبيرتين أخذتْ أولاهما سبعةَ ملايين من النفوس وجاوزت الأخرى هذا العدد فأضافت مليونين جديديْن ، إذا كانت ألمانيا كذلك فإن اعتناق مذهب القوّة الذى بشر به فلاسفتها المتكبرون قد كان سببَ كارثتيها المتتابعتيْن فى مدى يقل عن نصف قرن ، فلولا دعاةُ القوة الغاشمة ما ظهرتِ النازية فى ألمانيا ،

وما انتقلت عدواها إلى إيطاليا لتظهر الفاشية مُواخيةً لها فى طريق التدمير والهلاك ، لذلك تحدث المؤلف عن (نيتشة) فيلسوف النازية ، وعن دعوته الباطشة إلى استئصال كلِّ ضعيف بحيث لا يبقى إلا القوى ! ونقل عنه هذه الأقوال الآثمة :

(إن الضعفاء والعجزة يجب أن يفنوا ، فهذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية ، ويجب أن نعلم أن من أشد الرذائل حبنا للضعفاء والعاجزين إذ الخير فيما يعلى شعور القوة وإرادة القوة ، والشر كل الشر فيما يصدر عن الضعف) .

وقد كانت ألمانيا أول من أوذى بهذه الآراء ، ولكنها دفعت الثمن غالياً حتى انكشفت عنها غشاوة الدجل الفوضوى الآثم ، ولو رُزقت قادةً حصفاء لتجنبوا مآزقها الدامية ، وأدركوا أفن هذا الداعية الأهوج ! وقد كان فى حياته الخاصة التى انتهت بالجنون ما يدفع إلى مراجعة أقواله : ولكنها صادفتْ هوى لدى من يُريد استعباد الأمم فاستعبده هواه ، وخسر نفسه ودولته ، ولحقته لعنات اللاحقين .

ولم يبعد نيتشة عن (لينين) فى شىء فكلاهما يدعو إلى استئصال العامة لينعم نفر محدود بالمال والجاه ، وقد ذكر الأستاذ محمد عرفه رسالة كتبها الزعيم الشيوعى لينين إلى مكسيم جوركى الأديب الروسى يقول فيها : (إن هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشىء ! وإنما الشىءُ الهام أن يُصبح الباقى شيوعيين) !

وإذا كان المؤلف قد تحدث عن المعسكر الشيوعى المتربص بالعالم أجمعه ، يثير دفائنه ويبعث أحقاده ، ويجعل بأسه مسلط على نفسه ! فإن الكاتب قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال عنها : ص٥٣ .

(إن العقيدة الشيوعية أصبحت عند معتنقيها ديناً ، ففيها ما فى العقيدة الدينية من حماس واندفاع وفداء ، وقد يخطئ فهم ذلك المعسكر الغربى ، ويقيسه على نفسه فإذا هو يرى خصمه يقتحم المخاطر ، ولا يحسب حساب الربح والخسران وإنما يحسب حساب الفداء والتضحية أو تقدم العقيدة) .

نقول إن الكاتب رحمه الله قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال إنها تنزل منزلة العقيدة الدينية فى حماس معتنقيها ! لقد كانَ ذلك مُتوهَّماً متخيَّلا لدى من يصدقون الشعارات ، ولكن التجربة الواقعيَّة بعد الحرب العالمية الثانية أوضحت أن الشيوعيةَ استعمار جديد ، يؤلب الطبقات ليحتل أماكن النفوذ ،

وليستنزف الثروات ، ولا يقدم للأمم المستنجدة به غذاءً أو كساءً أو تمدناً بل يقدم السلاحَ المدمر بيد، ليعتصر ثمنه بيد أخرى من دماء الضعفاء ! ولو كانت الشيوعية عقيدةً ذات حماس عاطفى لوقفَ الشيوعيون جميعاً فى جبهة واحدة ، ولكن استبداد موسكو الدكتاتورى واغتصابها المادى قد كشفها أمام أصدقائها ، فحاربهما تيتو فى يوغوسلافيا ، وانتفضَتْ عليها الصين بحيث أصبحتْ تراها العدوَّ الأول ، وهاجمتْها الأحزاب اليسارية فى أوربا ! ! وبذلك ظهرت موسكو فى ثوبها المستعمر بحيثُ لا تدعو إلى مذهب اقتصادى إلا لتخدعَ به الفريسةَ حتى تقع وتصبح سهلة الازدراد! ولعلَ المؤلف لم يكنْ يتصور هذه الفجائع حين كتب مؤلفه ، إذ انتهى منه قبل أن تتناكر الوجوه ويفتضح الخداع .

على أن الأستاذ محمد عرفه كان صادق النظرة ، صائب الفكرة حين تحدث عن خداع الشيوعية ، وفساد أسلحتها أمام التطور الاقتصادى فى المعسكر الغربى ، فقال فى وعى أمين : ص ٨٤ .

«إن كارل ماركس لم يكن من غرضه أن يديل الشرق من الغرب ، وإنما أن يديل الضعفاء من الأقوياء ، والعمال من أرباب الأموال فآخى لهم آخية لا يقطعها المهر الأرن ، والتقطتْها روسيا ، ونجحتْ بعض النجاح ، . . . ولكن الغرب بحنكته وبصره بالأمور ، ومسايرته للزمن ، سبق فأعطى العمال ما يبتغون ، وأصبح العمال يوازنون بين العامل فى الغرب ، والعامل فى روسيا فيجدونه فى الغرب أنعم بالا ، وأرغد عيشًا ، لأن العامل فى روسيا كان عليه أن يعمل ليلحق بالغرب فى تقدمه وثررته فبدا مُرهقًا ، وأقل نصيبًا فى الحياة) ومعنى هذا أن بريق المساواة الاقتصادية لم يعدْ جاذبًا لقوم يجدون أنفسهم من ذوى الرفاهية على حين يرون أصحاب المذهب الشيوعى مُقيدين فى آرائهم ، منخفضين عنهم فى مستواهم المعيشى ! ! فكيف — بالله — يفرون من السعة إلى الضيق ، ولهم عيون تنظر ، وعقول تفكر وتحكم !

وما كتبه المؤلف الكبير تحت عنوان (على من تقع التبعة) تبعةُ الواقعة إذا وقعت ! والدمار إذا تبع انطلاقَ القنبلة الذرية الحاصدة للأرواح والمتاجر والمزارع وكل متطلبات الحياة! أقول إن ما كتبه المؤلف فى هذا الفصل دقيق عميق حيث يُلقى بالتبعية على العلماء العباقرة الذين اكتشفوا سر

القنبلة لتضر الناس لا لتنفعهم، وكان عليهم أن يمضوا بجهودهم العلمية إلى حيث يفيدون ويخصبون وَيُبْرِئون ، ثم على رجال السياسة ممن يندفعون إلى المنابذات السياسية ليجلبوا لهم صيتاً مدوياً فى العالم دون نظر إلى خراب الأمم وفناء الشعوب ، ثم على رجال الحروب الذين أصبحوا آلات متحركة فى أيدى الساسة والمتصدرين للزعامات عن انتفاخ متورم يحتاج إلى استئصال ، ثم على الأمم الخاضعة للسادة المتصدرين بحيث أصبحوا لا يملكون الاعتراض بل يساقون كما تساق النعاج ! على هؤلاء الأربعة من الطوائف تقع تبعات الحرب الذرية ، وقد أفاض الكاتب الكبير فى تحديد تبعات هؤلاء بما لا يقبل الجدل من منصف يرى الحق فيذعن إليه فى استسلام منطقى ، إذ ليس بعد الحق غير الضلال .

ومن الأبواب الجيدة التى تحدث عنها الأستاذ محمد عرفه ما كتبه عن القومية وخطرها ، فقد كان المؤلف إنساناً كل الإنسان فى نظرته الرحيمة ، وأحكامه العادلة ، إذ أن اعتناق القومية قد جعل الدولة أنانيَّةً شرهةً ترى النفع لها دون غيرها ، بل تجدُ من أسباب التفوق أن تقهرَ غيرها لتستولى على ثرواتها ، وتستعبد أفرادها ، وإذا كان البشر قد تطوَّروا فى الناحية الاجتماعية من الأسرة إلى القبيلة إلى القرية إلى المدينة إلى الأمة وهى التى تتمثل فيها القومية فإنَّ من الواجب أن تتطور القومية إلى إنسانية عادلة رحيمة ترى الكذب والغدر والخيانة نقيصة عامة تشينُ العدو والصديق والقريب والبعيد، لا أن يصبح الغدرُ مشروعاً مع دولة دون دولة كما نرى فى عالم السياسة اليوم !! إذ يجبُ أن يبقى ولاء الإنسان لأخيه الإنسان مهما كان من غير أبْناء جنسه ولونه ولغته ودينه فإنه مع ذلك كله أخوه ، وكلكم لآدم وآدم من تراب .

وقد كان المؤلف متواضعاً كل التواضع حين قال فى خاتمة كتابه : ص ١٦٢ .

(إن بعض من يقرءون كتابى هذا سيشعرون بخيبة أمل بعد قراءته ، لأنهم كانوا يقدرون شيئاً يشبه المعجزة أو السحر ينقذ العالم قسراً من الحرب الذرية ولكنهم رأوا مقدمات ونتائج وعللا وأسباباً وإشارةً إلى العلة وموضعها وإلى الدواء الذى يزيلها وهذا شىء موكول إلى رؤساء الدول) .

ونحن نقول للرجل الفاضل ، إنْ عليك إلا البلاغ ، ولست صاحب أداة

تنفيذية حتى تجبرُ الناس على اتباع ما تذهب إليه ، وحسبك أن رأيت الداء فدللت عليه وحللتَ بواعثه ، وحدّدتَ دواءَه ، وما عليكَ أن تلزم المريض بالدواء ! فلنْ يكلف الله إنساناً بما لا يطيق ! وأرجو أن ألتقى مع الباحث الجليل فى مقال تال يكشف عن بعض جهاده العلمى الدءوب .

د. محمد رجب البيومى
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

لا تستبق الأحداث

ما أسرع الأيام فى الشهر
وأسرع الأشهر فى العمر

ليس لما ليست له حيلة
موجودة خير من الصبر

فاخطُ مع الدهر إذا ما خطا
واجر مع الدهر كما يجرى

من سابق الدهر كبا كبوة
لم يستقلها آخر العمر

أبو العلاء المعرى

العمل الاقتصادى
من وجهة نظر الإسلام

دكتور / رءوف شلبى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ
يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) ...

(الفرقان ٦٧)

أسس العمل الاقتصادى فى الإسلام :

الدراسات الاقتصادية الحديثة تتنوع إلى عدة شعب ولكل شعبة هدف ومنهج خاص فى البحث .

فالنظريات الاقتصادية تبحث فى آثار الندرة النسبية

وعلم الاقتصاد يبحث فى سلوك الفرد المعيشى .

وتاريخ الاقتصاد يبحث فى الأحداث التى تؤثر فى السلوك الاقتصادى ومجالات الإنتاج والتوزيع .

والاقتصاد السياسى يبحث فى تأثير العلاقات السياسية بين الدول على العمل الاقتصادى .

ولهذا فإن الدراسات الاقتصادية يمكن أن تتركز فى :

الندرة .. الإنتاج .. التوزيع ..

وما يتصل بهذه الأنواع من تفصيلات فإنما هى خاضعة للظروف المحلية والدولية .

ولهذا فإن الدراسات الاقتصادية المعاصرة لا يمكن أن تتصف بالثبات والاستقرار لأنها تخضع للعوامل البيئية المتغيرة . فإذا ما أراد المسلمون أن يتعرفوا على نظام اقتصادى من القرآن فإنما عليهم أن يتعرفوا على أسس العمل الاقتصادى التى تشكل قواعدَ كليةً يخضعون ظروف البيئة الاقتصادية لها

لا أن يخضعوا القرآن لظروف البيئة الاقتصادية . لا سيما إذا كانت ظروف البيئة الاقتصادية من عمل وتقاليد وعادات فكر غير إسلامى .

وبوجه عام فإن القرآن الكريم كتاب الله المعصوم وتطبيقه يكفل السعادة للفرد والأسرة والمجتمع والدولة والإعراض عنه يكسب المسلمين شقاوة :

(مَنْ عَمِلَ صالحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّه حياةً طيبةً ولَنَجزِيَنَّهم أجْرَهم بأحسن ما كانوا يَعملون . .

(وَمَنْ أعرَضَ عن ذِكرِى فإن له مَعيشةً ضَنْكًا ونَحشُرُهُ يَوْمَ القيامةِ أعمَى) . .

وقد أقر علماء الاقتصاد بوجه عام أن هدف الاقتصاد هو تحقيق الرفاهية للناس جميعًا ، ولكن هذا الهدف لم يستطع علم الاقتصاد ولا علماؤه أن يحققوه . وقد كان الأمل عند علماء الاقتصاد أن يصل هذا العلم إلى غايته بالثورة الصناعية ولكنه فشل كذلك .

لقد فشل علم الاقتصاد فى تحقيق السعادة بين العمال وأصحاب العمل .

لقد فشل علم الاقتصاد فى تحقيق السعادة بعد قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م .

لقد فشل علم الاقتصاد فى تحقيق السعادة بعد قيام الثورة البلشفية فى عام ١٩١٧م وها نحن نرى فى روسيا ثورة ضد النظام نفسه .

وهذا دليل على أن العمل الاقتصادى يخضع لقانون آخر ليس فى مقدور الإنسان أن يحققه . . ذلك القانون هو :

(لَهُ مَقاليدُ السموات والأرض يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يشاءُ مِنْ عِباده ويَقْدِرُ إنه بكلِّ شىء عليم) (١٢ الشورى)

وإذا كانت النظريات الاقتصادية تقوم على ثلاث دعائم :

الإنتاج ، والتوزيع ، والقيمة

فقد جاء القرآن الكريم بجملة قواعد تؤلف أسسًا لهذه الدعامات منذ نزول القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقبل أن يوجد أجداد أصحاب هذه النظريات فى الوجود الإنسانى . .

بل انفرد القرآن وحده بحل المشكلة الاقتصادية من ناحيتين :

الأولى :

أنه وَقَى المجتمع من تفاقم المشكلات

الثانية :

معالجة الانحرافات التى تهدد كيان المجتمع . . .

ولا يصدر هذا عن القرآن إلا لأنه وحى غير مسبوق البتة. وسأتحدث هنا عن :

١ - الحاجات الأساسية للإنسان عند علماء الاقتصاد وفى القرآن وعن العمل ودوافعه والأجرة والأجر . .

٢ - وعن التوزيع : الثروة فى نظر الإسلام . . وعن القيمة :

٣ - وعن رأس المال ومفهومه فى الإسلام . .

٤ - وعن المشكلة الاقتصادية وموقف الإسلام منها . .

وعندئذ تظهر لنا الأسس التى يقوم عليها العمل الاقتصادى فى الإسلام . .

أولاً :

الحاجات الأساسية للإنسان . .

السلوك الاقتصادى أثر للتحرك الإنسانى بناء على الدافع Motive أو الرغبة Desire فى الحصول على ما يحقق له العيش، والدوافع أو الرغبة هى الحاجة التى يشعر بها الإنسان لمواد المعيشة . . وقد ناقش علماء الاقتصاد هذه الحاجات وأصالوا فيها فرأى Maslow أن الحاجات الأساسية للإنسان خمس مستويات .

١ - الطعام ، الماء ، الإخراج ، النوم ، الحرارة ، الجنين .

٢ - الأمن المادى : الملبس، السكن، تجنب مصادر القلق . .

٣ - الأمن النفسى : عطف الآخرين، الاطمئنان على فرص العمل ومستقبل الأسرة، صيانة الحقوق والمركز الاجتماعى.

٤ - التقدير الاجتماعى : إخفاء العيوب .

٥ - تأكيد الشخصية ، الإبداع ، إنتاج الأعمال النافعة :

ويتلخص هذا كله فى مسألتين :

حاجات دنيا هى فى المستوى الأول والثانى .

وحاجات عليا هى من المستوى الثالث إلى الخامس .

ويرى علماء الاقتصاد أن الحاجات العليا لا توجد إلا عند التقدم الحضارى.

أما الحاجات الدنيا فهى اللازمة لبقاء الإنسان وهى :

أصل الحديث . . . ولعلماء الاقتصاد نقد ملخصه أن المستريات التى ذكرها (ماسلاو) مكررة ومتداخلة وأن بعضها لا يصلح أن يكون حاجة أساسية لأن الحاجة الأساسية هى : كل ما يلزم لحياة الإنسان بغض النظر عن درجته الاجتماعية أو العلمية أو السيرة فإذا ما قلنا أن الطعام حاجة أساسية كان ذلك معقولاً لأنه يضم جميع الأفراد تحته . أما إذا قلنا أن المدح والثناء حاجة أساسية كنا مجافين صفة العموم فبعض الناس يزيده المدح نقصاً . .

ثانياً :

أما مالينوسكى Malinowski فقد قسم الحاجات إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ ــ حاجات أساسية .

٢ ــ حاجات متفرعة .

٣ ــ حاجات ثقافية .

وهذا الرأى كسابقه كذلك لا يحدد القاسم المشترك بين أفراد الإنسان ويلاحظ كل هذا اتكال الفرد على ما تبذله له الدولة من خدمات .

أما القرآن الكريم فقد حصر الحاجات الأساسية للإنسان كقواعد للحياة فى أربعة عناصر ، ودفع الإنسان إلى الحصول عليها والعمل بجد لاكتسابها وقرر الإسلام أن العمل فى سبيل تدبر المعاش واجب شرعى وأن المسئول مسئولية واجبة عن توفر هذه الحاجات الأساسية للأسرة هو الرجل ، والمرأة لها أن تعمل تطوعاً وذلك كلا فى آية واحدة : (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) .

الجوع : الأكل .

والعرى : النساء

الماء : الشراب .

المأوى : السكن .

وهذا هو القدر المشترك بين جميع أبناء البشر ، وقد سوَّج الإسلام هذه الحاجات الأساسية بسياجين :

الأول : ضرورة العمل للحصول عليها .

الثانى : إطلاق حرية الأفراد فى نشاطهم من أجل الحصول عليها ، فالمسلم لا يكون إلا منتجاً .

والمسلم حر لا تقيده غير قوانين الشريعة ، فلا شروط تقلل من نشاطه وعمله أو تعطل من إنتاجه أو تفرض عليها لوناً خاصاً من المشروعات الإنتاجية ، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ

ذَلُولاً فَامْشُوا فى مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقه وَإِلَيْه النُّشُور) (الملك)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شرًّا يَرَه) . (الزلزلة)

وقد حذر الإسلام من الكسل والبطالة فلقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من العجز والكسل ، وكان ينصح طالبى الصدقات بالاحتطاب والبيع فى الأسواق .

(ب) العمل ودوافعه :

العمل : هو كل إجهاد ذهنى أو عضلى يهدف به الإنسان إلى إيجاد شىء يسد به بعض حاجاته .

والعمل بهذه الصفة واجب إسلامى يقول الله تعالى :

(وَقُل اعْمَلُوا فَسيرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسولُه والمُؤمِنُون) . .

(فَامشوا فِى مَناكِبِها وَكُلُوا مِن رِزْقه وإلَيْه النُّشُور) . .

(مَن عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهوَ مُؤْمِن فَلنحْيِينَّهُ حَيَاةً طَيبةً وَلَنجزِينَّهم أجْرَهم بِأحْسنِ ما كانُوا يَعْمَلُون) .

(وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلحُون) . .

(فَاسْتَبِقُوا الخَيْرات إلى الله مَرْجِعكمْ . . .)

وفى الحديث :

« إنَّ اللهَ يحب مِنْ أحَدِكم إذا عَمِلَ عَمَلاً أنْ يُتْقِنَه » .

« إنَّ من الذنوبِ ذُنوبا لا يُكَفِرُها إلا الهمُّ فى طَلَبِ المَعيشة » .

« مَن طلبَ الدنيا حَلالا تَعففًا عن الْمَسألةِ وَسَعْيًا على عيالِه وَتَعَطفا على جارِه لَقىَ اللهَ وَوَجْهُهُ كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ » .

ما هذا الذى أرى بيدك ؟ قال من أثر المسحاه .. أضرب وأنفق على عيال فقبَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وقال :

هذه يد لا تمسها النار . .

والعمل بهذه الصورة وظيفة أساسية فى أن يجد الإنسان حاجاته الأساسية فى الطعام والكساء والشراب والمأوى . .

فتلك الحاجات هى الحاجات الفطرية التى لا بد منها للإنسان فى أى عصر

---

(١) المسحاه : هى المجرفة راجع كتاب النهاية فى غريب الحديث ج ٤ ص ٣٢٨ .

ثم هى تأخذ مستواها الحضارى بعد ذلك.

فالأكل حاجة أساسية : ونوع العمل ومقداره هو الذى يطور مستوى هذه الحاجة الأساسية .

والشراب حاجة أساسية : ونوع العمل ومقداره هو الذى يطور شكل ومستوى هذه الحاجة .

والكساء حاجة أساسية : ونوع العمل الذى يبذله الإنسان ومستواه هو الذى يطور هذه الحاجة الأساسية .

والمأوى حاجة أساسية : وظروف الإنسان الاجتماعية والعسكرية ، وحالات فى أيام السلم والحرب هى التى تحدد مستوى عمله فى تطوير هذه الحاجة الأساسية .

فالمسلم مثلاً يجد أن الله سبحانه وتعالى حدد له الغاية من الطعام وهى المحافظة على حياته . . وفى سبيل ذلك جعل له فى حالات الاضطرار أن يأكل ما يجده من بعض المحرمات .

ثم فى جانب اليسر جعل له كل ما أخرجه له من الطيبات يقول الله تعالى :

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » (الأعراف) (قل من حرَّم زينة اللهِ التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ..

فأكل الرجل المسلم حاجة أساسية أحاطها القرآن بالرعاية فى لحظة العسرة وفى سعة اليسر ورخاء العيش ، وقد جعل الإسلام النفقة على العيال واجبة وجعل الحفاظ على حياة الإنسان واجبة ، وهنا تدرك حكمة الإسلام فى تحريم الانتحار وقتل النفس بغير حق .

والشراب أو الماء بصفة عامة مطلب أساسى للإنسان فى حياته وفى عادته فعليه أن يشرب ماء نقياً وتنقية الماء تتطلب منه جهداً تحدده مستويات العمل الاقتصادى ، وعليه أن يتوضأ ويغتسل وهذا يوجب عليه أن يسعى اقتصادياً بالتبادل لهذه الحاجة الأساسية على أرفع مستوى ، ليحيا وليعبد الله لأن الماء الملوث والنجس لا تصح به الصلاة ولا الغسل وهى أمور أساسية فى الدين .

والكساء حاجة أساسية ثم هو واجب شرعى لستر العورة وللصلاة والحج فعلى المسلم إذن أن ينشط اقتصادياً ليكفل لحياته هذه الحاجة الأساسية وليستطيع أن يؤدى الصلاة صحيحة ، ولباس الأبيض يوم الجمعة سنة ، ولباس الفاخر من الثياب وجديدها أيام العيد سنة ، والسنة هنا سلوك إسلامى مرغوب فيه .

وإذن المسلم مطـــالب بالنشاط

الاقتصادى الذى يحقق له هذه الحاجة على مستويات الواجب والسنة ليكون متأسياً حقيقة بالسلوك الإسلامى الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحديث يقول :

من رغب عن سنتى فليس منى . . .

والمأوى : حاجة أساسية وهو مأوى الإقامة ومأوى الترحال ، ولقد سبق القرآن الكريم الفكر الاقتصادى حتى الآن فى جعل المأوى قسمين : مأوى ثابت ومأوى انتقال . يقول الله تعالى :

والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . (٨٠ النحل)

فالحاجة الأساسية فى المأوى للمسلم مرتبطة بحياته الشخصية وحياته الدينية « وهو يجاهد فى سبيل الله فلا بد وأن يكون له مأوى .

« وهو حاج فلابد وأن يكون له مأوى كذلك :

مأوى فى الطريق ومأوى فى الإقامة ..

والمأوى يحتاج إلى مواد بناء ومرافق للحياة . . كالمياه والأسواق وغيرها ..

والعمل للحصول على هذه المطالب الأساسية ليس حقاً مشروعاً فقط كما يذهب إلى ذلك المشرعون للقوانين الوضعية ولكنه واجب شرعى .

فى سنة الترمذى :

• لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه فيستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول . .

ويقول :

إن المسألة كد يكد بها الرجل وجهه .

وفى مسلم :

• دينار أنفقته فى سبيل الله .

ودينار أنفقته فى رقبة .

ودينار تصدقت به على مسكين .

ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك .

• لا يتصدق أحد بثمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم قلوصه حتى تكون مثل الجبل أو أعظم .

• وعن مسلم :

ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه نزعة لحم .

• أفضل الكسب كسب الصانع بيده ..

• إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة :

رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك .

ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سداداً من عيش .

ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش فما سواهن من المسألة يأكلها صاحبها سحتا . .

وفى مسلم :

على كل مسلم صدقة قيل أرأيت إن لم يجد ؟

قال يحتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق .

بهذا يخلص الفرد المسلم من الذلة ومن الكسل ويحقق لوجوده حياته بالعمل الشريف وبإرادته المنطلقة فى اختيار ما يحبه من شتى الأعمال .

• • •

ولما كان العمل للحصول على مطالب الحياة الأساسية واجباً فقد أعفى الله المرأة من هذا الوجوب وجعله خاصاً بالرجل . .

قال تعالى :

(فقُلنا يا آدم : إنَّ هذا عدوٌّ لكَ ولزَوْجِك فلا يُخرِجَنَّكُما مِنَ الجنةِ فتَشقَى) .

وجه الخطاب إلى آدم وحواء معاً فيما يتعلق بتحذيرهما من إبليس حتى لا يخرجا من الجنة ، فإن خرجا كانت الشقاوة والتعب لآدم لأنه هو المسئول عن تهيئة وسائل العيش له ولزوجته وأولاده . وليس فى هذا منع للمرأة من العمل ولكن إيجاب العمل على الرجل وحده ويوضح هذا جلياً : (قالتا لا نَسْقى حتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ) .

فبنتا شعيب تسقيان الغنم لأن والدهما شيخ كبير لا يقدر على العمل وليس لهما أخ ذكر يعمل فعملتا ولكنهما لم تستطيعا مُزاحمة الرجال فوقفتا بعيداً حتى ينتهى الرجال من سقى أنعامهم وذلك سعى ونصب فى سبيل الحصول على واحد من مقدمات الحياة الأساسية وهو الماء .

فدل ذلك على أن العمل للمرأة مباح فى حدود تدبير المعاش وبناء الأسرة إن كان فى طلب الرزق حاجة إليها لعدم وجود من يعولهما أو لعجزه إن كان موجوداً .

هذا بالإضافة إلى الأعمال التى يوجبها الإسلام على المرأة . .

فالإسلام يوجب على المرأة أن تكون طبيبة ترعى مصالح النساء إذ ليس كل المباح على إطلاقه أن يداوى الطبيب المرأة إلا عند عدم وجود طبيبة من النساء لهن . . وقد فطن إلى هذه الخلفية شعوب منطقة جنوب شرقى آسيا . .

والإسلام يوجب على المرأة أن تدرّس الفقه للنساء فإن فى مسائل الفقه قضايا لا يجيز الإسلام للرجل أن يشرحها للنساء بالأسلوب العادى فإن الحياء شعبة من الإيمان .

والإسلام يوجب على المرأة أن تكون ممرضة لأقسام النساء فى المستشفيات إذ لا يبيح الإسلام مطلقا أن تتكشف عورات النساء أبداً على الرجال ..

وذلك كله اقتصادى فى ادّخار الشعور بالأمن فى المجتمع وذلك أساس أصيل فى ضمان سلامة الإنتاج . . .

مستوى العمل :

والعمل الذى يوجبه الإسلام على الفرد المسلم إنما هو العمل الطبيعى الذى تستحقه كل صفة إنه العمل المتسق المناسب وليس العمل الردىء السيئ ه

والعمل من الفرد المسلم طاعة لله فالرقيب هنا هو الله وحده . . وفى هذا الجو ترتبط مشاعر العامل المسلم بالله دائماً .

لأن الله هو الذى يطلب إليه أن يعمل : وقل اعملوا ..

والله سبحانه هو الذى يراقبه : اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . .

وفى الحديث :

إنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ أحَدِكُمْ إذا عَمِلَ عَمَلاً أن يُتْقِنَهُ ..

وذلك القــدر هو الذى يُعْجِزُ جميــع علماء الاقتصاد فى مجال التطبيق . . فلا يقــدرون أن يقنعوا العامة والخاصة بقيمة العمل على هذا النحو الإسلامى الذى تحترم فيه الإنسانية ويكرم فيه الإنسان ، حتى ولو ملأوا المكتبات بالفقه والنظريات ، إذ النفس بفطرتها لا تذل إلا لخالقها ، والتمرد على سلطان البشر أمر مألوف وعاقبته وخيمة . . ! !

وبهذا فقد قرر الإسلام :

أن العمل هو السبيل الطبيعى لكسب المعاش . .

ولبقاء الإنسان على قيد الحياة . .

وأنه لا يجوز أن يهبط العمل عن الحد

الذى يكفل تحقيق الحاجات الأساسة للفرد المسلم فى الحالين : الفردى والدينى .

ولا يسمح الإسلام للفرد المسلم أن يعيش عالة أو أن يعطل غيره عن العمل، أما الناحية الإدارية لتنفيذ هذه القواعد فترجع إلى السلطة الإدارية فى الدولة الإسلامية لأنها تتطور حسب الظروف والأحوال وهى جزئيات تتغير وتنقص وتزيد .

وملخص هذا الجزء :

١ — أن العمل واجب .

٢ — وأن الدولة أو الفرد فى المجتمع ليس من حقه أن يمنع أحداً عن طلب هذه الحاجات الأساسية بالأسلوب الحلال المشروع بل على الدولة الإسلامية.

٣ — أن توفر فرص العمل لكل فرد ليحصل لنفسه ولأسرته على هذه المطالب الأساسية .

٤ — وليس من حق أحد أن يفيد نشاط العامل بحد محدود أو عمل معين .

وعلى هذا فكل مال يحصل عليه بغير جهد لا يسمح به الإسلام لأن العمل هو أساس الحصول على الثروة . .

الأجرة والأجير :

لا تتغير العلاقة بين العامل الأجير وصاحب العمل لمجرد تغير التسمية كما جنح إلى ذلك بعض علماء الاقتصاد فغيروا اسم الأجير إلى عامل لأن العمل فى نظر الإسلام من حق كل فرد وواجب على كل فرد ، ومطالب الحياة لا تغلب فهى تقهر النفس الإنسانية وتجبرها على السعى للحصول عليها .

ولقــد فشل النظام الرأسمالى أو الاشتراكى بوجــه عام فى وضع نظام عادل للعمال .

فى الرأسمالية قد يحصل الأجير على أجر يسمح بمستوى مناسب للعيش ولــكنه لا يملك شيئًا من وسائل الإنتاج . وفى الشيوعية قد يملك العامل جزءاً من وسائل الإنتاج ولكنه لا يحظى بمستوى مناسب من العيش ومن الحرية الشخصية فى اختيار العمل الذى يعمل له .

. . أما فى الإسلام فقد قسم الفقهاء الأجير إلى قسمين :

— أجير خاص وهو الذى يقف وقته وجهده على صاحب العمل كالمدرس والموظف الإدارى .

— وأجير مشترك وهو الذى يعمل فى جهات متعددة ومثله الطبيب والمهندس الحر والخياط . .

وفى كلا الحالتين : فإن الإسلام يأمر بإعطاء الأجير كراه قبل أن يجف عرقه ، ففى الحديث الشريف :

أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه . .

عدالة الأجر :

وإذا كانت الأجور فى الغرب تقوم على أساس الخدمة التى يؤديها العامل بغض النظر عن احتياجاته ويرون العدالة فى أجور العمال هى التساوى فى الأجر نظير نوع العمل المتساوى أو المتشابه . .

فإن الإسلام يعتبر العدالة فى الأجر هى عدالة الكفاية . .

يقول الله تعالى :

(واللهُ فَضَّلَ بَعْضَكم علَى بَعض فى الرِّزقِ فَما الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِم علَى ما مَلَكَت أيْمانُهُمْ فَهُمْ فيه سَوَاء) .

(النحل ٧١)

ففى الآيات نص صريح على تفاوت الأرزاق وعدم قبول النفس التنازل عنه إلى العبيد بناء على اختلاف متطلبات الحياة لكل من الصنفين وهذا ابتلاء من الله تعالى ليختبر ويمتحن عناصر الجنس البشرى . .

* وتفاوت الأرزاق ظاهرة طبيعية فى جميع أنواع المجتمعات قديمًا وحديثًا ، لأنها تتبع التفاوت فى الذكاء والقدرات الخاصة والظروف التعليمية والاجتماعية والسياسية بل إن مصلحة المجتمع وتطوره وبقاءه مرتبطة باختلاف هذا التغاير .

فيقول الله تعالى :

(أهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ . نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهم مَعِيشَتَهم فى الحياةِ الدُّنيا . . وَرَفَعْنا بَعضَهم فوْق بَعض دَرَجات لِيتَّخذَ بَعضُهم بَعضًا سُخْرِيًّا وَرحمَةُ رَبك خَيْر مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(الزخرف ٣٢)

فالتسوية نسبية لا حسابية فإذا زيد أجر عامل متزوج ليواجه متطلبات أسرته فإن أجره يزيد على نظيره العزب الذى يشترك فى العمل ، ومع هذا فإنه يقال بحق أن تحديد الأجرين روعيت فيه التسوية وتقوم هذه العدالة على أساس وجدان تأمر به المبادئ الإسلامية ففى الحديث : لا يُؤْمنُ أحَدُكم حتى

يُحِبَّ لِأخيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِه . . فرعاية حقوق العمال أو الأجراء فى نظر الإسلام لا تقوم على أساس من العمل فحسب بل على أساس من الانسجام الوجدانى الذى يقوم على الحب الخالص لوجه الله ، وفى الحديث : وَرَجُلانِ تَحابّا فى الله اجْتَمَعا عليه وتَفَرّقا عليه وذلك ما لا يستطيع أن يصل إليه الشرعيون الاقتصاديون أو السياسيون .

وبذلك فقد ضمن الإسلام مستوى إنسانيًّا لمعيشة الأجير بقيام هذا المستوى على المودة النفسية والحب فى الله . .

ثانياً — توزيع الثروة

« كَيْ لا يَكونَ دُولَةً بيْنَ الأغْنياءِ مِنْكم . (الحشر : ٧)

يعترف الصادقون فى بحوث الاقتصاد أن الاقتصاد المعاصر يرتكب خطئين بارزين .

الأول : النسب فى تحقيق العمالة الكاملة .

الثانى : التوزيع التحكمى الغاشم للثروة والدخل على نحو لا يحقق العدالة .

يقرر ذلك اللورد ماينارد كنز فى كتابه : « النظرية العامة » الذى صدر فى عام ١٩٣٦ . . وذكر أن انجلترا أخذت نظام الضرائب الذى يساعد على حل المشكلة غير أنه أبدى تأسفه الشديد لأن كثرة الضرائب تؤدى إلى التهرب منها . ولذا فقد حكم بأن حل المشكلة عن طريق فرض الضرائب غير مأمون العاقبة .

وقد قرر اللورد ما ينارد كنز : أن العضو المستثمر الذى يقدم أمواله للصناعة والتجارة ويقعد عن السعى والعمل لا يعتبر عاملا فى المجتمع بل هو عضو مشلول وعبارته بالإنجليزية : The Paralyzed investor وذهب إلى أن تحقيق العمالة الكاملة فى نظره لا يتأتى إلا إذا جمعت المدخرات وفائض الإيرادات وسلمت إلى الدولة للتصرف بها فى وجوه الإصلاح لتحقيق العمالة الكاملة . . وهو بهذا لا يتفق مع المذهب الاشتراكى الذى يقول بتمليك أدوات الإنتاج للدولة .

كما عكف جانب كبير من علماء الاقتصاد على دراسة هذه الظاهرة ومنهم : إيفان دوربين Evan Dorbin الذى استمر أكثر من عشرين عامًا لاحظ أن ١٠ ٪ من البريطانيين يحصلون على ٤٥٪ وأن ٩٠٪ يعيشون على ٥٥٪ وأعاد سبب هذا التعاون إلى نظام المواريث الإنجليزى الذى يعتمد على الوصية ، لا سيما

تلك الظروف التى سببت دخلاً كبيراً لأصحاب المصانع .

ولذا فقد كانت الوصية التى استخلصها هؤلاء الاقتصاديون :

خفض الأرباح :

ورفع الأجور :

والاتجاه الأمريكى حول هذا يقول : ليس فى وسعنا أن ننتج بالعمل الرخيص سلعة تجمع بين الجودة وانخفاض التكاليف فهو إذن لا يوافق على خفض الأرباح لأنها تؤثر فى نوعية الإنتاج وإن كانت النظرية الأمريكية توافق على رفع الأجور لأنها تؤدى إلى حرص العامل على جودة الإنتاج . .

فإذا ما رجعنا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وجدناهما يقرران توازنا بين الربح والأجر وعدم إجهاد المستهلك .

فيما يتعلق بالربح والأجر : (إنَّا لاَ نُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً) (الكهف ٣٠)

فحسن العمل مرتبط به الأجر . .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله يحب لأحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه» .

١ — وقد حرص الإسلام على ذلك منذ فجر بناء المجتمع الإسلامى ، ففى غزوة بنى النضير قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفىء وأعطاه كله للمهاجرين لأن الأنصار لهم أملاك وثروة . .

لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار :

إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ؟ فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ونشاركهم فيها . .

والدليل على صحة هذا المبدأ أن[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رجلين قصيرين من الأنصار قسماً كذلك للدلالة على أن المراد هو عمل تعادل فى توزيع الثروة على المسلمين [٢] .

وبهذا وضع الإسلام فى هذا الفجر الصادق لكل مجتمع إسلامى ناشئ مبدأ توزيع الثروة على المستحقين حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء فقط .

٢ — وينظم الإسلام داخل المجتمع الإسلامى عدة مبادئ اقتصادية تساعد على توزيع الثروة على جميع فئات الأمة :

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٣٠ ص ٣١ مجلد ٨ ص ٣١١ حياة محمد .

(٢) العدالة الاجتماعية فى الإسلام ص ١١٧ .

١ ــ فقد أقر الرقب والعمرى ففى البخارى :

قضى النبى صلى الله عليه وسلم بالعمرى إنها لمن وهبت له .

والعمرى هى : تمليك منفعة لأجل تعود بعدها العين إلى المالك إن مات المنتفع أو يملكها المنتفع إن مات المالك قبله .

٢ ــ والهبة ، ففى البخارى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها وفى سبيل ذلك فقد شرع الإسلام مسألتين :

الأولى : عدم العود فى الهدية ففى البخارى . . العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه . .

٢ ــ وعدم احتقار كمية الهدية ففى البخارى .

« يا نساء المسلمات لا تحضرن جارة لجارتها ولو فرش شاه . » .

وفيه أيضاً :

« لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت » .

٣ ــ الزكاة وهى تنظيم متكامل للقضاء على الفقر فى المجتمع الإسلامى :

١ ــ إذ الإسلام يحدد أن هذا الجزء يخرج لواحد من الأصناف الثمانية

٢ ــ وأن الإسلام يحذر من البطالة .

٣ ــ ويحذر من عدم إخراج الزكاة .

● ففيما يتعلق بالنقطة الأولى يقول الله تعالى :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) . . (التوبة ٦٠)

● وأما فيما يتعلق بالمسألة الثانية ففى مسلم :

ــ « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله . وليس فى وجهه نزعة لحم » .

ــ « من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما . . . يسأل أجراً فليستقل أو ليستكثر » .

ــ « من كان عنده مال لم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع فيقول أنا كنزك . » .

● وأما فيما يتعلق بالمسألة الثالثة ففى مسلم :

يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك .

وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على

كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى . » .

٤ — ثم هو يحث على الصدقة والعمل من أجلها : ففى مسلم .

« خير الصدقة عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » .

— إغاثة المحتاج فى سنن أبى داود عن فاطمة بنت قيس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن فى المال حقاً سوى الزكاة .

٥ — وجعل الوصية ونظامها عاملان من عوامل توزيع الثروة .

٦ — وكان الميراث أحد أركان هذا النظام . .

٧ — ومن أجل توازن عادل فى استقرار توزيع الثروة كان هناك نظاماً .

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) إلخ السورة .

١ — للعارية :

كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عارية الدلو والقدر .

٢ — العقيقة ففى البخارى مع الغلام عقيقة فأهرقوا عنه دماً . .

٣ — الكفارات : الظهار ، اليمين ، والقتل الخطأ .

٤ — النذور لله تعالى .

٥ — حقوق الجوار : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه .

٦ — القرض الحسن : (مَنْ ذَا الذى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حسناً) .

بهذه الأنظمة :

١ — الأجر المناسب .

٢ — العمل الجيد .

٣ — توزيع الثروة عن طريق تشريعات هى عبادة الله سبحانه وتعالى يظهر جانب من الاقتصاد الإسلامى فى جانب توزيع الثروة والأجر والعمل . .

ثالثاً — (١) رأس المال فى نظر الإسلام :

رأس المال فى نظر الإسلام ليس هو النقود وحدها ولكن رأس المال ثلاثة عناصر :

١ — الأرض وما فيها . .

٢ — الإنسان وما له من خبرات . .

٣ — والنقود وهى حاصل العمل ويمكن استثمارها فى اتجاهات أخرى ، وبملحوظ أن عمل البنوك فى المال لا يقوم على ادخارها فقط بل هو يربحها عن طريق التجارة أو المشاريع الاقتصادية الأخرى .

١ — أما فيما يتعلق بالأرض كجزء من رأس المال فالقرآن الكريم يقرر :

— اللهُ الذى سخَّرَ لكم البحرَ لتَجرِىَ الفُلكُ فيه بأمْرِه ولِتبتَغوا مِن فَضْله ولَعلَّكم تَشكرُون) .

— (وسَخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منْهُ إنَّ فى ذلك لآيات لِقَوْم يتَفكَّرون) (١٢ ، ١٣ الجاثية)

وإذا كانت هذه الآيات مكية فمعنى هذا أن القرآن منذ فجر الدعوة وهو يوجه المسلم إلى حقيقة أساسية هى : أن الوجود كله سخر للمسلم ليطوِّعه لوجه الله الكريم .

ويقول الله تعالى : (هوَ الذى جعل لكم الأرضَ ذَلُولاً فامشوا فى مناكبها وكُلوا من رِزْقه وإليه النشور) . (الملك ١٥)

— (هوَ الذى خلق لكم ما فى الأرضِ جميعًا) . (البقرة ٢٩)

(وما ذَرأ لكُم فى الأرضِ مُختَلفاً ألوانه إن فى ذلك لآيةً لقَوم يذَّكَّرون وهو الذى سخَّرَ البحر لتأكُلوا منه لحما طَرِيًّا وتَستَخرِجُوامنه حلْيَةً تَلْبَسونَها وتَرَى الفُلْكَ مَوَاخر فِيهِ ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْله ولعلَّكم تَشْكرون) (النحل ١٣ — ١٤)

٢ — أما فيما يتعلق بالقوى العاملة :

فقد جعل الإسلام الذكاء والقدرات الخاصةمن نعم الله على الإنسان ليستخدمها فى كل ما ينفع وفى كل ما هو خير . .

يقول الله تعالى :

(والله أخرَجكم من بُطونِ أمَّهاتكم لا تَعلمون شَيئًا . وجَعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تَشكرون) . (النحل ٧٨)

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن القوىُّ خَير وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيف وفى كُلٍّ خير » .

« المؤمن كَيِّسٌ فَطِن . . » .

٣ — وأما فيما يتعلق بالنقود فقد نظم الإسلام عمليَّة التبادل ففى القرآن الكريم «كَىْ لا يكونَ دُولةً بين الأغنياءِ منكم» وإن صح أن يشمل هذا كل ما له قيمة مالية .

غير أننا نستخدم المال هنا لأنه هو الأثر الظاهر فى العصر الحديث لعين الثراء والمال .

وبهذا فإن الأمة الإسلامية بما وصفها الله فيه من أرض لها إمكانيات كثيرة

هى أنفس ما تعتز به الدولة الحديثة من البترول والمطاط والخشب والذهب والفضة والحديد والفحم والقصدير والثروة المائية . إلخ .

وبما تملكه من أعداد هائلة من البشر ليس لها عذر فى تأخرها عن التقدم الاقتصادى وما عليها إلا أن تأخذ بسبيل الإسلام فيما هيأه لها من الثروات فتعمل بما أتاها من عند الله « ومن يتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجًا ويَرْزُقْهُ من حيثُ لا يَحْتَسِبْ » .

(ب وظيفة المال :

لقد حدد القرآن وظيفة المال، يقول الله تعالى : (ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أموالكم التى جعل الله لكم قيامًا) .

فالمال هو وسيلة العيش وهو أصل تقوم عليه الحركة المعيشية ولهذه الوظيفة حرص الإسلام على المال حتى تضمن الأمة الإسلامية عيشًا مستقراً لها .

وجعل الله فى هذا المال حقوقًا :

(وآتُوهم من مالِ اللهِ الذى آتاكم) (النور ٣٣)

(والذينَ فى أموالهم حقٌّ مَعْلوم للسَّائلِ والمَحْروم) .

(المعارج ٢٤ : ٢٥)

وحفاظًا على المودة والأخوة الإسلامية فقد أكد الإسلام على سداد المسلم فى إخراجه للصدقة أن يراعى مسألتين :

الأولى : النوع الذى يخرج منه الصدقة فقال :

(ولا تيمَّمُوا الخبيثَ منه تُنْفقون) . (ابقرة ٢٦٧)

والثانية : طريقة إخراج الصدقة فقال :

وإنْ تُخْفوها وتُؤْتُوها الفقراءَ فَهُوَ خيرٌ لكم) . (البقرة ٢٧١)

وقد جعل الإسلام للفرد ذاته وللأسرة وللفقراء والمساكين والأيتام حقًا فى المال يقول الله تعالى :

(وآتَى المالَ على حُبِّه ذَوِى القُرْبَى واليتامىَ والمساكينِ وابنِ السبيلِ وفى الرِّقاب) . (البقرة ١٧٧)

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« أفضل دينار ينفقه الرجل : دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على راتبه فى سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله » رواه مسلم .

وعند مسلم عن جابر قال : أعتق رجل من بنى عذرة عبداً له عن دين فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألك مال غيره ؟ فقال : لا

فقال : من يشتريه منى ؟ فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوى بثمانمائة درهم فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفعها إليه ثم قال : ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك فإن فضل من أهلك شيء فلذى قرابتك فإن فضل عن عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا . .

فوظيفة المال إذن هى : إشاعة الرخاء فى المجتمع الإسلامى عامة . . وبهذا العرض الموجز يتضح أن الاقتصاد الإسلامى يقوم على دعائم منبثقة عن العقيدة بالله سبحانه. وأول هذه الدعائم :

١ ــ أن المال أساس للحياة الإنسانية وأن العمل حق واجب يأثم كل مسلم لا يقوم بواجبه على قدر ما منحه الله من الذكاء والقوة .

٢ ــ أن الحركة الاقتصادية حركة تجميع مستقر له سيادة على جميع أفراده وبلاده . .

٣ ــ وأن الثروة الطبيعية هى جزء أساسى من رأس المال الذى يجب على المسلمين أن يطوروه حسب مقتضيات الزمن والبيئة .

٤ ــ وأن وظيفة المال وقيمته لإشباع حاجات الإنسان الضرورية وإشاعة الخير والرخاء فى المجتمع الإسلامى .

وملخص هذه الأسس كما يلى :

يقوم الاقتصاد الإسلامى على عدة دعائم :

١ ــ الجهد الإنسانى .

٢ ــ السيادة والاستقرار للدولة والمجتمع .

٣ ــ الثروة الطبيعية التى تملكها الجماعة الإسلامية . .

٤ ــ إسهام المال فى إشاعة الرخاء لجميع طبقات المجتمع الإسلامى . .

فهل للمسلمين اليوم ملجأ يهرعون إليه فى طلب العدالة الاجتماعية بعد دين الله الحقيقى ؟

أما الله فقد أنذرنا . . (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ، ومَنْ أعرضَ عن ذِكرِى فإن له مَعيشَةً ضَنْكًا) . (طه ١٢٣ ، ١٢٤)

وقد وقع المسلمون فى هذا الضنك فهل يفيقون ويرجعون إلى شريعة الله ودينه الإسلام الحنيف لعلهم يرحمون ؟.

رابعاً ــ المشكلة الاقتصادية :

يدعى الباحث الاقتصادى (بيجو) أن وظيفة الدراسات الاقتصادية هى تحقيق أعلى المستويات الممكنة عمليًا لرفاهية الإنسان .

ومعنى ذلك فى العرف الاقتصادى :

زيادة ما يخص الفرد من السلعة الاستهلاكية والخدمات التى تشبع حاجاته مع تخفيف الجهد الذى يبذله فى طلب الرزق . .

ويستدعى هذا الكشف عن الموارد الطبيعية التى تساعد بتصنيعها على تحقيق هذا الهدف ولكن الواقع المشاهد الآن هو : أن قوى العالم الغربى والشرقى قد اتجهت إلى توسيع رقعة الصناعات العسكرية وأبحاث الفضاء بما لا يدع مجالاً للتفكير فى حل المشكلة الاقتصادية .

فالنفقات العسكرية التى تستغل فى زمن السلم بلغت أكثر من ١٦٠,٠٠٠ مائة وستين ألف مليون جنيه إسترلينى فى العام الواحد .. أما نفقات أبحاث الفضاء فقد بلغت أرقاماً مذهلة وكل ذلك على حساب عيشة الإنسان على وجه الأرض .

وبذلك فإن المشكلة الاقتصادية قد عقدها الغرب والشرق ولم يعد قادراً على حلها بعد أن تورط فى السباق العسكرى والفضائى ..

أما موقف الإسلام من هذه القضية : «المشكلة الاقتصادية» فقد قدم لها الحلول منذ الزمن البعيد :

أولاً : وجه الإنسان إلى الثروة المائية بكل ما فى البحر من معادن وحيوانات يقول الله تعالى :

(وَمَا يَسْتَوِى البَحْرَانِ : هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سائغ شَرَابُهُ ، وهذا مِلْحٌ أجاج ، ومِنْ كُلٍّ تأكلون لَحماً طَرِياً وتَسْتَخْرِجون حِلْيَةً تَلْبَسونها وتَرَى الفُلْكَ فيه مَوَاخِرَ لتَبْتَغُوا من فَضله ولعلكم تَشكرون).

(فـاطر ١٢)

(اللهَ الذى سَخَّر لكم البحرَ لتَجرِىَ الفُلْكُ فيه بأمْرِه ولِتَبْتَغُوا من فَضله ولعلكم تَشكرون ، وسخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منْهُ إنَّ فى ذلكَ لآيات لقوْم يتفكرون) . (الجاثية ١٢، ١٣)

فالقرآن يوجه الفكر الإنسانى خاصة والفكر الإسلامى إلى الاستفادة من البحر فى حل المشكلة الاقتصادية التى ينبنى عليها رخاء عيش الإنسان فى الأرض . .

ثانياً : كما حث على عمارة الأرض وأرشد المسلمين إلى معالجة اقتصادهم عن طريق إضافة أرض جديدة صالحة للإنتاج وحدد لذلك مدة ثلاثة أعوام لأنها المدة التى يراها الإسلام كافية للعمارة والتملك يقول النبى صلى الله عليه وسلم . .

« من أحيا أرضا ميتة فهى له . . وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين »[1].

ثالثاً : استخراج المعادن من باطن الأرض . .

ففى الحديث : « المعدن جبار .

(١) رواه أبو يوسف فى كتاب الخراج .

وفيها خُمسُ ما يستخرج زكاة وأربعة أخماس لمن استخرجه . . » .

رابعاً : قانون الإنفاق :

أباح الله الأكل والشرب .

ولكن بقانون : (وكُلوا واشْربوا ولا تُسْرِفوا، إنه لا يُحِبُّ المُسرِفين). (الأعراف ٣١)

وجعل التبذير علامة على التبعة للشياطين : (إن المُبَذرينَ كانوا إخْوانَ الشَّياطِينِ) . (الإسراء)

وجعل الاعتدال من صفات المتقين :

(والذين إذا أنْفَقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا ، وكان بَيْنَ ذلك قَواماً) . (الفرقان)

ثم أمر الفرد المسلم أن يكون معتدلاً فى كل أحواله .

(ولا تجعلْ يدَكَ مغْلولةً إلى عُنُقِكَ . . ولا تَبْسُطْها كُل البسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مخْذُولاً) (الإسراء)

وذلك القانون له أثره فى حل المشكلة الاقتصادية إذ رفاهية الإنسان خاصة إلى الإنتاج والإنفاق معًا ، فكثرة الإنفاق مع الإنتاج ، لا تحقق الرفاهية ، واتزان الإتقان مع اعتدال الإنتاج ولو غير كثير يحقق الرفاهية لأن كل فرد سيجد ما يحتاجه دون جهد وبذلك تبرز قيمة من قيم الاقتصاد الإسلامى وهى القضاء على المشكلة الاقتصادية . . بكثرة الإنتاج واتزان الإنفاق .

خامساً :

١ — حرم الإسلام جميع الأنظمة المالية التى تعطل الدورة الاقتصادية مثل : كنز المال : (والذين يَكْنِزون الذهبَ والفضَّةَ ولا ينفقونها فى سَبيلِ اللهِ فبَشرْهم بعَذَاب أليم) . (التوبة)

٢ — الربا : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وذَرُوا ما بَقىَ من الربا) . (البقرة)

٣ — الاحتكار : يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا يحتكر إلا خاطئ » (مسلم وأحمد وأبو داود) .

« من احتكر حكرة يريد أن يُغْلى بها على المسلمين فهو خاطئ » (رواه أحمد)

من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس (ابن ماجه)

٤ — والغش : «من غشَّنا فليس منا» . (حديث مشهور) .

٥ — والغضب : « لا يأخذن أحدكم متاع أخيه جاداً ولا لاعباً »

(أحمد وأبو داود)

« لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس . . » . الدارقطنى

٦ — والسرقة : (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيْدِيهما) (المائدة)

٧ — وحرم الرشوة : لعن الله الراشى والمرتشى والرائش : (ولا تأكلُوا أموالكم بَينكم بالباطِل وتُدْلُوا بها إلى الحُكام)

٨ — الميسر : (يَسألونَك عن الخمرِ والميسرِ قُلْ فِيهما إثْم كبير) (البقرة)

سادساً : وأباح كل نظام استثمارى فيه فائدة للأمة الإسلامية فأحل الله . .

١ — السلم : يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل . . » (رواه الجماعة)

٢ — القرض : (مَنْ ذَا الذى يُقْرِض اللهَ قرْضاً حَسناً فيُضاعِفَهُ لَه أضْعافاً كَثيرة) . . (البقرة)

وفى الحديث :

« ومن فَرَّج عن مسلم كُربةً من كُرَبِ الدُّنيا فَرَّجَ اللهُ عنه كُرْبةً من كُرَبِ يوم القيامة . . » .

٣ — والشركة والمضاربة : عن رويفع ابن ثابت قال :

إن كان أحدنا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأخذ نضو أخيه على أن له النصف مما يغنم ولنا النصف وإن كان أحدنا ليطير له الفصل والريش وللآخر القدم .

ولو طبق ذلك النظام لانتهت المسألة الاقتصادية من المجتمع الإسلامى وعادت الأمة التى بعثت لتكون خير أمة أخرجت للناس . .

فهل من صاحب لب حصيف . . ؟

هل من صاحب لب يخلص النية لله ويأخذ بيد الأمة إلى حياض الإسلام الحنيف . . لعل الله يرحمنا من بلاء الاقتصاد الذى أنهكته حقول التجارب بين أضابير النظريات الشرقية المتداعية والغربية المتعجرفة . . ؟

لعل فينا رجلاً شديداً يأوى إلى ركن الإسلام الحنيف ويومها نجد الله قد رضى عنا وجعل لنا من بعد عسر يسراً . . فإنه وحده جل شأنه يبسط الرزق لمن يشاء . . ويرزق من يشاء بغير حساب ؟ . .

دكتور رءوف شلبى

جرير والموالى

الأستاذ / السيد حسن قرون

فى الباب الرابع والثلاثين من كتاب « الكامل للمبرد » كلام كثير صدره المبرد بذلك الخبر وما صحبه من شعر : قال جرير — ونزل بقوم من بنى العنبر بن عمر بن تميم فلم يُقْرُوه حتى اشترى منهم القرى فانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف إن بيعكمُ
رِفْد القرى مفسد للدين والحسب

قالوا : نبيعكه بيعاً فقلت لهم :

بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

لولا كرام طريف ما غفرت لكمْ
بيعى قراى ولا أنسأتكم(١) غضبى

هل أنتم خير أو شاب زعانفة
ريش الذنابى وليس الرأس كالذنب

والمبرد رحمه الله يورد هذا الشعر لجرير لأمور ثلاثة : إعراب « مالك بن طريف » فلك فى مالك وهو منادى النصب والرفع ، ولا أتعرض للعلة فذلك ليس من شأنى ، والثانى حديثه عن القرى ، وتزعم الرواة أن ما أنفت منه جِلة الموالى هذا البيت يعنى قوله : « بيعوا الموالى واستحيوا من العرب » لأنه حطهم ووضعهم هكذا يقول المبرد ، والأمر الثالث « نسب بنى العنبر فى بنى تميم » وسواء لدىّ أن ينسب بنو العنبر إلى تميم أو بهراء فهذا مالا أريده ، إنما همى من ذلك الشعر موقف جرير من الموالى ، والموالى فى أيام جرير كانوا قد دخلوا فى الإسلام وعنوا بالكتاب والسنة ودراسة اللغة العربية ، حتى قال فيهم الشعبى وقد مَرَّ على قوم منهم يتدارسون النحو لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده . وكلام الشعبى لا يغضب الموالى ؛ لأنه يصف واقعاً فاختلاط العرب بغيرهم من البلاد المفتوحة أفسد فصاحتهم وتقويم الألسنة منهم ، لكن جريراً يدخل فى الناحية النفسية فيجعلهم دون العرب منزلة ومقاماً ، وذلك يرجع

(١) أخرت غضبى .

إلى عنجهة جرير وتربيته الأولى ، فقد ولد فى اليمامة سنة ٢٨ هـ وبقى مدة بين الأعراب فشب أعرابياً جافياً أوقل كما قال عامل الحجاج إنه أعرابى باقته أى داهية ، ولم يكن بيت جرير ذا ثراء ودعة ، فقد كان أبوه من فقره وحرصه على المال لا يحلب شاته فى وعاء خوف أن يسمعه مارّ أو جار فيطلب إليه شيئاً من اللبن ، وجدّه (الخطفى) واسمه (حذيفة) كان له مال ضنّ به على ابنه (عطية) والد جرير فلما ولد جرير وهبه له ثم رجع فى هبته ويعلل ابن سلام فى (طبقات الشعراء) لرجوع الجد فى هبته بقوله : « ولد للخطفى صبية فرجع فيما كان نحله جريراً .

ومن هنا جاء شعر العتاب الذى صاغه الحفيد قاسياً منه :

وإنى لعف الفقر مشترك الغنى
سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا
وإنى لمغرور أعلل بالمنى
ليالى أرجو أن مالك ماليا
فأنت أبى ما لم تكن لى حاجة
فإن عرضت أيقنت أن لا أباليا

ومن أعجب مالاقته تلك القصيدة العاتبة أنها نقلت إلى دار الخلافة بدمشق فاستخدمها يزيد بن معاوية على أنها له حين عرض له سوء تفاهم مع أبيه فوجهها إليه ، ويقول ابن سلام : وفد جرير بعد ذلك إلى يزيد وهو خليفة وجرير حدث فأنشده :

وإنى لعف الفقر مشترك الغنى
سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا

قال : كذبت ، ذاك جرير . قال : فأنا جرير . قال يزيد : والله لقد فارق أمير المؤمنين معاوية الدنيا وهو يرى أن هذا البيت لى . ولو طال عمر يزيد لكان لجرير شأن عنده لإعجابه به . أليس قد روى شعره ونحله نفسه ؟ ولكن الأمور تتبدل ، وتنتقل الخلافة إلى مروان وبنيه ، وجرير لا يَعْنيه شىء سوى المال ، والتكسب بالشعر ، ويعيش قابعاً باليمامة ينتظر أن ينتهى الصراع الدائر بين مكة وخليفتها عبد الله بن الزبير ودمشق وخليفتها عبد الملك بن مروان ، ليجد فرجاً من حرج ، ومخرجاً من ضيق ، وانتصر عبد الملك ، وقامت وحدة الأمة الإسلامية من جديد ، وانتعش الفتح والدعوة إلى الإسلام ، وجرير لا يجد سبباً يصله بالخليفة ، وأقرب أرض لليمامة العراق ، وفى العراق والٍ هو بشر بن مروان أخو الخليفة

فليذهب إليه عله يبلغ مناه ، وله موهبته الشعرية الفذة . ألم ينل إعجاب يزيد ؟ يمّم جرير العراق وهناك وجد واليا قرشيًّا أمويًّا ودّ لديه أن ينال الجوائز التى تغنيه عن غنم أبيه ومال جده . ولكن بشراً خيب رجاءه ، وجده يلهو بالشعراء يغرى بعضهم ببعض ليسمع التهاجى ، فنال جرير من منافسيه ونالوا منه ، فرجع إلى اليمامة يحمل جراحه ونواحه ، وجرير لا يرى عيبًا فى التكسب بالشعر فهو ميراث الشعراء من لدن الجاهلية إلى يومه ومات بشر وسمع بوال جديد فراوده أمله وشد رحله إلى البصرة ، ووجد طلبته عند (الحكم بن أيوب الثقفى) وهو ابن عم الحجاج وعامله على البصرة فأنشده :

أقبلن من ثهلان أو وادى خيم
على قلاص(١) مثل خيطان السلم
إذا قطعن علما(٢) بدا علم
حتى أنخناها على باب الحكم
خليفة الحجاج غير المتهم
فى ضنضى(٣) المجد وبحبوح الكرم

وتقبل الحكم شعر الشاعر ، وتحدث إليه وفاطنه فوجده حصيفاً ، وافر العقل والذكاء ، فكتب إلى الحجاج أنه قدم علىّ أعرابى باقعة لم أر مثله ، فكتب إليه الحجاج أن يحمله معه ، فلما دخل عليه قال له (بلغنى أنك ذو بديهة فقل فى هذه الجارية لجارية قائمة على رأسه . فقال جرير : مالى أن أقول فيها حتى أتأملها ، ومالى أن أتأمل جارية الأمير ؟ فقال : بلى ، فتأملها واسألها ، وهنا اتجه جرير إلى الجارية ، فقال لها : ما اسمك ؟ فأمسكت ، فقال الحجاج : خبّريه بالخناء . فقالت : (أمامة) فقال جرير :

ودع أمامة حان منك رحيل
إن الوداع لمن تحب قليلُ
مثل الكثيب تمايلت أعطافه
فالريح تجبر متنه وتميل
هذى القلوب صواديًا يتّمتها
وأرى الشفاء وما إليه سبيل

فقال الحجاج : قد جعل الله لك السبيل إليها : خذها هى لك ، فضرب بيده إلى يدها فتمنعت عليه فقال :

إن كان طبّكم الدلالُ فإنه
حسن دلالك يا أمام جميلُ

فاستضحك الحجاج ، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة .

---

(١) نوق شابة .
(٢) جبلا .
(٣) أصل .

وينبغي أنا تكون أمامة جميلة ، فقد أحبها جرير حباً ملك عليه شغاف قلبه ، ورآها نموذج الجمال فى أوانه ، ولا أدل على شغفه بها من أن إخوتها — وكانوا أحراراً من أهل الرى — تبعوه فأعطوه بها — وهو الضنين على المال — عشرين ألفاً فلم يقبل ، بل أنشد :

إذا عرضوا عشرين ألفاً تعرضت
لأم (حكيم) حاجة هى ماهيا
لقد زدت أهل الرى عندى مودة
وحببت أضعافاً إلىّ المـــواليا

تغيرت نظرته إلى الموالى ، وارتفعوا فى نظره ، وكرموا لديه ، أليسوا أخوال بنيه منها : حكيم وبلال وحزرة هذا هو ما كانت تكنى به أمامة ، فإذا شعر أو مدح ذكرها فى شعره ، وتحدث عما يجرى بينها وبينه فأمام الخليفة عبد الملك هتف باسمها قائلا :

تعزت أم حزرة ثم قالت :
رأيت الواردين ذوى امتناح
تعلل وهى ساغبة بنيهـــا
بأنفاس من الشبم القراح
سأمتاح البحور فجنبينى
أذاة اللوم وانتظرى امتياحى
ثقى بالله ليس له شريك
ومن عند الخليفة بالنجاح

وقد نجح ونال الجوائز الوافرة ورجع إليها قرير العين ، ويقول الرواة إن عبد الملك أعجب بقوله :

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح ؟

وأعلن لمن حوله : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا . وهذا الشعر لايقبله عصرنا فهو أشبه بالسؤال منه بالمديح ، ولكن الشاعر عقله فى قلبه وحبه فيهمه أن يذكرها ويُنَوِّه بها ويحكى ماجرى بينه وبينها ولو تخيلا .

وينبغي أيضًا أن يكون غلوه فى مدح الحجاج وهو الحقود الحسود كما وصف نفسه مرده إلى أمامة فهو الذى وهبه إياها ثم هو بعدُ وصله بالخليفة ، فمن مبالغاته فى مدح الحجاج قوله :

صبرت النفس يابن أبى عقيل
محافظةً فكيف ترى الثوابا ؟
ولو لم يرض ربك لم ينزل
مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سعر الخليفة نار حرب
رأى الحجاج أثقبها شهابا

إلى كثير من مثل هذا مما يجب أن يحظى به غيره من الأئمة المهتدين . وهكذا كان قلب جرير ، فانظر معى

إلى هذا الرجل الذى يقول « بيعوا الموالى واستحيوا من العرب» ويقول فى مهاجاة الأخطل :

لاتطلبن خئولة فى تغلب
فالزنج أكرم منهم أخوالا

تجده يمدح الموالى فيقول :

(ويجمعنا والغرّ أولاد سارة
أب لا نبالى بعده من تعذرا)

[تعذر احتج لنفسه]

وإنك لتعجب من هذا الأعرابى الباقعة التميمى اليربوعى وهو من لب مضر (تميم من إلياس بن مضر) كيف قبل تزويج ابنته من غير أمامة إلى ابن أخى أمامة ؟ ويذكر ابن سلام أنه كان ذا إبل اسمه (عصيدة) لقصر فى يده فلم تزل به أمامة حتى زوجه ابنته وهو على هذا النقص ثم صحا جرير فقال فيه وذكر أثر أمامة فى وجهته فقال :

وغرتنا أمامة فافتحلنا
(عصيدة) إذ تُنُخِّلَت[1] الفحول
إذا ما كان فحلك فحل سوء
خلجت[2] الفحل أو لؤم الفصيل

ويحكى عمارة بن عقيل بن بلال المعاصر للمبرد أنه يوم مدح الموالى وافته مائة حلة من بنى الأحرار، وقد يكون جرير ممن أسهم فى تسمية الموالى ببنى الأحرار .

ومن الغريب أن أبناءها كانوا يفخرون على من أمهاتهم حرائر ، لأن أمامة بثت فيهم الاعتزاز بها والفخر بها ، إليك هذا الحوار الذى جرى بين بلال ابنها وبين الحمانى الشاعر لترى صدق ما نقول .

قال الحمانى لبلال : يا بن أم حكيم ليضع من شأن بلال . فقال بلال . « ما تذكر من ابنة دهقان (أمير) وأخيذة رماح ((أسيرة حرب) وعطية ملك (الحجاج) ؟ ليست كأمك التى بالمروت تغدو على أثر ضأنها كأنما عقباها حافر حمار » وكان رد الحمانى عليه لاله قال : « أنا أعلم بأمك ، إنما عتب عليها الحجاج فى أمر الله أعلم به فحلف أن يدفعها إلى ألأم العرب فلما رأى أباك لم يشكك فيه » .

وكان لها تأثير كبير على فنه الأدبى ، ومذهبه الشعرى ، وكل نسيب بدأ به قصائده أهازيج فى ذكر تلك الجارية التى سكنت قلبه وبيته ، والنقاد القدامى

---

(١) افتحل : اختار فحلا كريماً ، وتنخل : تخير .
(٢) فرقت بين الزوجين .

والمحدثون يكادون يجردونه من لواعج الصبابة ، ويصفونه بالقدرة على الغزل وحسن الأداء فيه ، لأنه لم يفرغ نفسه لفن الغزل كما فعل جميل بثينة وقيس بن ذريح وعمر بن أبى ربيعة وفاتهم أن ينظروا إلى الشعر من حيث هو كلام صادر عن هوى وصبابة ، ولا يغرنك أن يكثر من ذكر الأسماء فى ذلك الغزل من سليمى وخالدة وبوزع وما إلى ذلك فكل رمز لأمامة أم خررة أو أم حكيم ، ومعاصروه تنبهوا لروعة بيانه فى هذا الضرب من الشعر ، وتدارسوا ما يقوله ، وقد أخذت عليه السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنها جفاءه فى قوله :

طرقتْك صائدةُ القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بسلام

ومع أنه أحسن الخطاب لها ودعا لها بالسلامة فى إيابها إلا أنها قالت : ما أجفاه ! ألا يأخذ بيدها ويعاملها بما هى أهله ؟ وقد يكون ذلك قبل أن يعرف أمامة ، وقد يكون قد حزبه أمر لا يود أن يشركها فيه ، وهو رجل بــلاه الله بكثرة الخصوم ، وكان (المربد) فى البصرة فى الإسلام بمثابة عكاظ فى الجاهلية يتناول أقوال الشعراء ويستهجن ويستحسن ما يشاء ، وكان الفرزدق وجل بنى تميم يسكنون البصرة وينوهون بشعره ، فبنو يربوع وهم قومه الأعلون أغروه بأن يطيل مكثه فى البصرة ليكون لسانهم والمتحدث عن أمجادهم ، وكان يستجيب لهم ، وقد يكون الطارق أتاه فى ليلة الهموم حين أراد الرد على الراعى النميرى الذى هجاه ونصر الفرزدق عليه ، وقد حكت السيدة التى نزل عندها أنه كان كالذى مسه طائف من الجن حين نظم تلك القصيدة التى فضحت الراعى ونميرا ومنها .

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعبًا بلغت ولا كلابًا

فكان يقفز ويحجل ويقول : فضحته والله ، أخزيته والله ، فقد جاء خيالها عندئذ فكان ما كان ، وهو رجل صادق لا يزيف العواطف ولا يلعب بالألفاظ ، بل ينبث تلقائيًّا استجابة لمشاعره ، وانسياقاً وراء دوافعه ، لكن حين لا يكون إلا هواه ، ولا تتملكه إلا نجواه يجىء السحر الحلال ، والمنطق الصافى كالماء الزلال ، وإليك دليل هذا المقال . يقول محمد ابن يزيد المبرد فى كتابه الكامل :

وحدثت أن الفرزدق قدم المدينة فنزل على الأحوص بن محمد بن عبد الله ابن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح (الأنصارى الشاعر) فقال الأحوص: ألا أسمعك غناء من غنـاء القرى (المدن) ؟ فأتاه بمغن فجعل يغنيه فكان مما غناه :

أتنسى أن تودعنـا سليمى
بفرع بشامة سقى البشامُ ؟
ولـو وجد الحمام كما وجـدنا
بِسُلْمانيْنِ لاكْتأبُ الحمام

فقال الفرزدق لمن هذا ؟ فقالوا : لجرير . ثم غناه .

أسرى لخالدة الخيال ولا أرى
شيئًا ألذّ من الخيال الطارقِ
إن البلية من تمل حديثـه
فانقع فؤادك من حديثِ الوامقِ

فقال : لمن هذا ؟ فقيل : لجرير ، ثم غناه :

إن الذين غدوا بلبك غادروا
وشلا بعينـك ما يزال معينا
غيّضْنَ من عبراتهن وقلن لى :
ماذا لقيتَ من الهوى ولقينـا

فقال : لمن هذا . فقالوا : لجرير ، فقال الفرزدق : ما أحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى ، وأحوجنى مع فسوقى إلى رقة شعره . والخطأ الذى وقع فيه النقاد أن العفة تنافى الحب والحديث عنه ، وأن جريراً كما قلنا لم يفرد للغزل قصائد خاصة مثل الشعراء العاشقين فى عصره ، والرجل لا يقل عنهم صبابة وهيامًا ، ولكنه حب الزوج ، فما إن يفارقها راحلاً نحو البصرة أو ضاربًا نحو الشام حتى يلم به الخيال الطارق ، أو ذكرى الوداع ، أو الحنين إلى من غيضن من عَبَرَاتِهِنّ ، وبين أثر الفراق فيهن وفيه ، وطبعًا هذا القول لا يصدر عن قلب سليم معافى من داء الحب ، وهواجس التبريح ، ويتحير النقاد فى جمال تعبيره وحسن تصويره ، فيقول ابن قتيبة فى كتابه (الشعر والشعراء) « كان جرير عذهاة (عازفًا عن النساء) وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيبًا » وهذه قضية منقوضة ؛ ففاقد الشيء لا يعطيه فالإناء يفيض إذا امتلأ ، والمصدور ينفث إذا لج به الألم ، ولو لم يكن جرير ملء القلب بالحب لما استطاع أن يصرف الأنظار إليه ، وأن يجعل من « خياله الطارق » منهجًا للشعراء بعده ولا سيما البحترى . فالسيدة سكينة سيدة محترمة

ويهمها أن يجد الإنسان قبولاً فى زيارته من الهشاشة وتقديم الواجب، فما بال النقاد يغفلون عن قلب جرير وهو الذى يقول لولا أن الهجاء شغلنى لقلت شعراً يحرك العجوز فى محرابها أو كما قال، والحمد لله أن شغله الهجاء.

وإذا كان جرير أحسن لقاءها فى مجلس الحجاج فى العراق فقد أحسن توديعها يوم ذهبت إلى بارئها، فقد فتح للشعراء باباً ولجوه بعده، ولم يجدوا غضاضة فى أن يلجوه، وله أسوة فى أبى العاص بن الربيع حين بكى زوجه زينب بنت رسول الله بشعر يقطر حزناً ووفاء، وقد تبع جريراً شعراء مصريون بدأهم البارودى، ثم جاء عبد الرحمن صدقى، وعزيز أباظة ليفرد كل منهما ديواناً من الشعر فى بكاء الزوجة الغاربة. فماذا قال جرير فى أمامة ؟

قال :

لولا الحيـاء لهاجنى استعبـار
ولزرت قبرك والحبيب يُزَار
ولهت قلـبى إذ علتنى كبرة
وذو التمائم من بنيك صغـار
لا يلبث القرنـاءَ أن يتفرقـوا
ليـل يـكر عليهم ونهار
صلى الملائكة الذين تُخُيرُوا
والطيبون عليك والأبـرار
فلقد أراك كسيت أحسن منظر
ومع الجمال سكينة ووقـار

ويختم الرثاء بالهجاء أو بالغضب على الفرزدق ومن تابعه فى تهوين أمرها، والفخر بتشييع الحرائر غيرها فيقول :

أفأم حزرة يا فرزدق عِبْتُمُ
غضب المليك عليكم الجبار

دعك من حياء الشاعر فهو مستعار وهو بقية من أعرابيته فى اليمامة نكصت به عن واجب الوفاء نحو شريكته وأم أولاده النجباء، لكنه بكى واشتكى ودعا، وقضى حق الوفاء لها بهذا الشعر الخالد، وكفاها فضلا أنها ألهمته الشعر فتاة وزوجا وربة بيت، وصانعة أولاد، ورفعت عن عينيه الغشاوة فرأى فى الموالى أناساً يستحقون الثناء وتبادل العطاء.

رحمه الله فقد فارق الدنيا سنة ١١٠هـ بعد وفاة الفرزدق بستة أشهر، وخلف لنا شعراً يطيب تلقيه ودراسته، وهذا جانب من حياة جرير، ولنا عودة إلى نقائضه إذا وفقنا إلى عرضها.

السيد حسن قرون

مع رسالة الأدب الصوفى

الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلى القرنى

القصة الصوفية :

أشرت فيما سبق إلى أن رسالة الأدب الصوفى تتلخص فى إعلاء القيم وبث المثل العليا فى النفوس ، وتذكير الناس بما يجب عليهم نحو واجب الوجود ، وإذا كان للأدب العام

رسالة تشير إليها هذه العبارة التى وردت على لسان أحد الأدباء « الأديب هو كل من يدلنى على الطريق ويسير أمامى » فإن الأديب الصوفى أولى الناس بذلك وأجدرهم به ؛ لما يحتويه كَلِمُه من صدق وروعة وجلال .

وقد تقدم عرض بعض الآثار الأدبية الشعرية والنثرية التى تدور حول بعض المعانى الصوفية ، والتى تجمع بين صدق الوجدان وقوة الفكر وجودة الأسلوب ، حتى إنه ليشعرنا بمدى الرثاء لأدبنا الذى يهمل — عن عمد أو غير عمد — دراسة هذا اللون الممتاز الذى يرفع من قامة الأدب فى الوقت الذى يعنى العناية الفائقة بدراسة نماذج شتى بعضها يضر ولا ينفع ، وإنى لأتساءل : كيف نقدم للمتعلم نصوصا متنوعة من الغزل الصريح لبشار ابن برد وعمر بن أبى ربيعة ومن مجون أبى نواس ، ولا نقدم له نصوصاً من شعر الصوفية الذين نسجوا فى الأخلاق والحكم والمثل العليا ألوانا رائعة وآثاراً خالدة ؟

وإذا كنت قد تحدثت فيما سبق عن بعض موضوعات الأدب الصوفى فلا ينبغى إغفال فن القصة التى أسهم الصوفية فيها بنصيب وافر .

والقصة يأنس إليها الإنسان بطبعه ، وللقرآن الكريم فى ذلك نماذج متعددة تَشْهدُ بما للقصة من تأثير طيب فى النفوس .

هدف القصة الصوفية :

والقصة الصوفية لها هدف واضح لا تتعداه ، وهو تدعيم المبادئ الصوفية وتعظيمها فى النفوس عن طريق ما يجتمع

فيها من عبارات وإشارات وما تحويه من معان وأذواق ، وهى لذلك تبعد عن التفصيلات المثيرة والعبارات الفضفاضة والأوصاف الجانبية التى تعتمد عليها القصص الأخرى وهى فى جملتها موجزة لأنها لم تسق إلا لغرض واضح محدود ، فمن ذلك ما يحدث به « ذو النون » قائلا :

« بينما أسير فى أنطاكية إذا أنا بجارية كأنها مجنونة وعليها جبة صوف ، فسلمت عليها فردت على السلام ، ثم قالت : ألست ذا النون المصرى ؟ فقلت : عافاك الله كيف عرفتنى ؟ فقالت : عرفتك بمعرفة حب الحبيب . ثم قالت : أسألك عن مسألة ، قلت : سَلِى . قالت : أى شىء السخاء ؟ قلت : البذل والعطاء . قالت : هذا السخاء فى الدنيا فما السخاء فى الدين ؟ قلت : المسارعة فى طاعة رب العالمين . قالت : إذا سارعت إلى طاعة المولى فهو أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد منه شيئًا . ويحك ياذا النون ، إنى أريد أن أطلب منه شيئًا منذ عشرين سنة فأستحى منه مخافة أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب الأجرة ، ولكن اعمل تعظيمًا لهيبته وعز جلاله » .

فالهدف من هذه القصة تعليم الناس كيف يكون حب الله عز وجل وطاعته والإخلاص له . وفيها إلى جانب ذلك إشارة إلى القوة الروحية التى يصطفى الله لها من يحب من عباده فيرون ما لا يرى غيرهم من الناس . وتغلب على هذه القصة الصفة الحوارية ، وهى سمة كثير من القصص الصوفى .

ومن هذا اللون الحوارى ما تحكيه القصة الآتية :

« مرإبراهيم بن أدهم برجل ينطق وجهه بالهم والحزن فقال له : أيها الرجل ، إنى سائلك عن ثلاث فأجبنى عنها ، فقال الرجل : سل عما تريد ، قال إبراهيم : أيجرى فى هذا الكون شىء لا يريده الله ؟ قال : لا . قال : أفتنقص من رزقك شىء قدره الله لك ؟ قال : لا . قال : أفينقص من أجلك لحظة كتبها الله لك فى الحياة ؟ قال : لا .

قال إبراهيم : فعلام الهم والحزن إذن ؟

وواضح ما تهدف إليه هذه القصة من تدعيم لقيمة التفويض إلى الله والرضا بقضائه وقدره .

موضوعات القصة الصوفية :

والقصة الصوفية تدور حول موضوعات متعددة :

١ – منها القصة الأخلاقية التي تهدف إلى توطيد الأخلاق في النفوس وتربية السالكين والمريدين مثل هاتين القصتين السابقتين ومثل القصة التالية :

قال عطاء السلمي : منعنا الغيث فخرجنا نستقي فإذا بسعدون المجنون في المقابر ، فنظر إلى فقال : يا عطاء ، أهذا يوم النشور أو بعث ما في القبور ؟ فقلت : لا ، ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقي ، فقال : ياعطاء ، بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية . فقال : هيهات ياعطاء ، قل للمتبهرجين : لا تتبهرجوا ؛ فإن الناقد بصير ، ثم رمق السماء بطرفه وقال : إلهي وسيدي ومولاي ، لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ، ولكن بالمكنون من أسمائك ، وما وارت الحجب من آلائك إلا ما سقيتنا ماء غدقا فراتا تحيي به العباد وتروي به البلاد يامن هو على كل شيء قدير . قال عطاء : فما استتم كلامه حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب ، فولى وهو يقول :

أفــلح الزاهــدون والعابدونا
إذ لمولاهمو أجــاعوا البطونا
أسهــروا الأعين العليلة حبــا
فانقضى ليلهم وهم ساهرونــا
شغلتهم عبــادة الله حتى
قيل في الناس إن فيهم جنونا

فهذه قصة تدعو إلى خشية الله وإيثار الآخرة على الأولى ، والزهد في المظاهر ، والسهر في الطاعة والاهتمام بالعبادة ، وهذا كله مما يدعو إليه الصوفية ويربون مريديهم عليه .

٢ – ومن قصصهم ما يتجه إلى تعظيم الصالحين عن طريق سرد حكاياتهم وقص كراماتهم وإبراز مكاناتهم وعلو كعبهم في الطريق ، وهذا اللون كثير منبث في الكتب ومن نماذجه ما أورده الطوسي في كتابه اللمع .

« أخبرني جعفر الخلدي رحمه الله فيما قرأت عليه قال : حدثني الجنيد رحمه الله قال : دخلت على سري السقطي رحمه الله يوماً فقال لي : أعجبك من عصفور يجيء فيسقط على هذا الرواق ، فآخذ لقمة فأفتها في كفي فيسقط على أطراف أناملي فيأكل ، فلما كان في وقت من الأوقات سقط على الرواق ففتت الخبز في يدي فلم يسقط على يدي كما كان قبل ذلك ، ففكرت في سبب العلة في وحشته عني

فذكرت أنى أكلت ملحاً بأبزار (توابل) فقلت بسرى: أنا تائب من الملح المطيب، فسقط على يدى فأكل وانصرف » .

ولا يخفى ما فى قص هذه الكرامة أيضاً من توجيه روحى عال لزهاد الصوفية الذين أصبح المباح فى نظرهم حجاباً . ولئن كان الخلدى فى هذه القصة ألزم نفسه الشدة فإن غيره من بعض الصوفية لم يقف عند هذا المعنى للزهد ، ولكن نظر إلى أن الزهد الحقيقى فى ترك حظوظ النفس ، وعلى ذلك فتناول الدنيا مع عدم تعلق القلب بها من تمام الزهد ، ويحكى عن الحارث المحاسبى أنه كانت له دار حسنة وثياب نظاف وفى داره شاه مرغ ، وكان بعضهم يقول لمريده : إذا عطشت فاشرب الماء البارد لأنك إذا قلت الحمد لله قلتها برضا نفس وانشراح صدر ، أما إذا شربت الماء الحار وقلت الحمد لله قلتها بكزازة نفس وضيق صدر . وهذا من دقائق التأديب .

ومما يقصه إبراهيم الخواص قوله « تهت فى البادية أياماً ، فإذا بشخص وافانى فقال لى : السلام عليك ، فقلت : وعليك السلام . فقال : تهت ؟ فقلت : نعم . فقال لى : ألا أدلك على الطريق ؟ قلت : نعم ، فمشى بين يدى خطوات وغاب عن عينى فإذا أنا على الجادة ، ومنذ فارقت الشخص ما تهت ولا أصابنى الجوع ولا العطش » .

والقصص التى تدور حول الكرامات كثيرة ، وقد دار حول كرامات الصوفية كلام كثير لا مجال للحديث عنه ، ويكفى أن تكون الكرامة قد ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف ما يثبت حدوثها . على أن الصوفية أنفسهم لم يجعلوا الكرامة هدفاً لهم ولم يقفوا عندها وقالوا فى حقها : ربما يرزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة ، والكرامة الحقيقية فى نظرهم هى ما قاله سهل بن عبد الله رضى الله عنه: « ما الآيات وما الكرامات ؟ إنها تنقضى لوقتها ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً محموداً من أخلاق نفسك بخلق مذموم » وقيل لأبى يزيد رحمه الله : فلان يقال إنه يمر فى ليلة إلى مكة، فقال: الشيطان يمر فى لحظة من المشرق إلى المغرب وهو فى لعنة الله » وأصدق ما قالوه فى ذلك : الاستقامة خير من ألف كرامة .

٣ — ومن القصص ما يدور حول السماع — ولهم فى السماع شرائط متعددة قلما تتحقق — ويكون هذا اللون من

القصص مادة سخية فى القصة الصوفية ، ومن ذلك : « حضر أحد تلامذة ذى النون مجلس قوال فى بغداد ، فلما طاب السماع وتواجد السامعون صرخ ذلك التلميذ ووقع فحركوه فوجدوه ميتًا ، فوصل الخبر إلى ذى النون ، فقال لأصحابه : تجهزوا حتى نصل إلى ذلك القوال ، فلما وصلوا إليه غنى ذو النون وأصحابه ، والقوال يسمع . ثم صرخ ذو النون فوقع القوال ميتاً ، فقال ذو النون : قتيل بقتيل أخذنا بثأر صاحبنا .

ومن ذلك ماحكاه الدقى فى اللمع قال : كنت فى البادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه ، فرأيت فى الخباء عبداً أسود مقيداً ، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدى البيت ، ورأيت جملا قد نحل وهو ذابل كأنه ينزع روحه . قال : فقال لى الغلام المقيد : أنت الليلة ضيف مولاى وأنت عنده كريم فتشفع فىّ حتى يحل عنى هذا القيد فإنه لا يردك .

قال : فقدموا لى الطعام فأبيت أن آكل فاشتد ذلك على صاحبى ، فقال لى : مالك ؟ فقلت : لا آكل طعامًا إلا بعد أن تهب لى جناية هذا الغلام وتحل عنه قيده ، فقال : يا هذا إن هذا الغلام قد أفقرنى وأهلك جميع مالى وأضر بى وبعيالى . فقلت له : ما فعل ؟ فقال : إن هذا الغلام له صوت طيب ، وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال ، فحملها أحمالا ثقيلة وحدا لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة ، فلما وافت وحطت أحمالها ماتت إلا هذا الجمل ، ولأنك ضيفى قد وهبت لك الغلام فحل قيده .

فلما أصبحت أحببت أن أسمع صوته فسألته ذلك فغنى فوقعت على وجهى ، وما أظن أنى سمعت صوتا أطيب من صوته .

وليست قصص السماع عند الصوفية قاصرة على الشعر وغنائه دون غيره ، ولكن السماع أيا كان موضوعه ولغته له فى نفوس الصوفية أثر مشهود ؛ لأنه يصادف ما وقر فى وجدانهم من شعور وفى أذهانهم من معان . حكى عن الجنيد رحمه الله أنه قال : دخلت على سرى السقطى رحمه الله ، فرأيت رجلا بين يديه قد غشى عليه ، فقال لى : هذا رجل سمع آية من كتاب الله عز وجل فغشى عليه ، فقلت : اقرأ عليه هذه الآية التى قرئت . فقرأ فأفاق . فقال لى : من أين لك هذا ؟ فقلت : رأيت يعقوب عليه السلام كان عماه من أجل مخلوق فبمخلوق أبصر

ولو كان عماه من أجل الحق ما أبصر بمخلوق . فاستحسن منى ذلك .

والقصص التى تدور حول السماع إما أن تكون مخبرة بواقعة حال أو بيان أدب فى السماع أو لفت النظر إلى سر من أسراره وهكذا ، والمجال يضيق عن عرض نماذج من ذلك .

٤ — ومن القصص الصوفى ما يدور حول الحب الإلهى وما يعانى المحبون منه ، والصوفيون يعتنون بهذا اللون من القصص لأنه يطابق أحوالهم ويحكى وجدانهم ويشير إلى ما يقاسونه من وجد وشوق .

« حدث أبو على الروذبارى قال : جزت يوماً بِقَصْرٍ فرأيت شاباً حسن الوجه مطروحاً وحوله ناس مجتمعون فسألتهم عنه فقالوا : إنه جاز بهذا القصر فسمع جارية تغنى وتقول :

كبرت همة عبد
طمعت فى أن تراكا
أو ما حسب لعين
أن ترى من قد رآكا

فوقع ميتا » .. ذلك لأن القول صادف هوى فى نفسه وحرك شجونه وأثار وجدانه .

خصائص القصة الصوفية :

سبق الإشارة إلى أن بعض القصص الصوفية فيها إيجاز وحوار ، وهى تتسم إلى جانب ذلك بالواقعية لأن صاحبها يعيش فى الواقع الذى يشغل حياته ويملأ فراغه ، وهو أبعد الناس عن الخيال الذى يعتبره ضرباً من الوهم يتعارض مع مثاليته وأخلاقياته ، وليس المقصود بالخيال بداهة ما يلجأ إليه الشاعر أو الكاتب من صور بلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية مما يعين على تأكيد الواقعية دون معارضة لها .

وباستعراض النماذج السابقة نجد الواقعية واضحة فيها فهى مشتقة من تجاربهم التى يمرون بها .

كما يغلب على القصة الصوفية مزجها بالشعر الذى يصف الحالة الوجدانية التى يمرون بها ، ومن هنا يمكن القول بأن القصة غالباً ما تكون ثمرة تجربة ذاتية ويحكى بها صاحبها واقعة حال ، وندرك ذلك من القصة التالية :

« وقع أبو حمزة الصوفى رحمه الله فى بئر فطموا رأسها ، فجاء سبع ففتح رأس البئر ونزل فتعلق أبو حمزة برجله فأخرجه من البئر ، فسمع هاتفاً يقول : هذا حسن يا أبا حمزة نجيناك من التلف بالتلف : من البئر بالسبع ، فأنشد أبو حمزة :

نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى
وأغنيتنى بالفهم عنك من الكشف
تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى
إلى غائبى واللطف يدرك باللطف
تراءيت لى بالغيب حتى كأنما
تبشرنى بالغيب أنك فى الكف

والقصة الصوفية قصيرة لأنها تقصد إلى المغزى رأساً ولا تعنى بالتفصيلات والجزئيات لأنها فى غنى عن ذلك، ولكنها مع إيجازها الشديد تترك فى النفوس أثرها المنشود، إنها تعتمد على الإشارة أكثر مما تعتمد على العبارة، وخير الكلام ما قل ودل . .

أما القصة الحديثة بعقدتها وحلها فهى لم تعرف طريقها بكثرة فى الأدب الصوفى، وذلك أن القصة الجيدة تستمد مادتها من الخبرة الذاتية التى يحصلها القاص بتجاربه الخاصة ويشترط فيها الصدق مع النفس، وربما نقل عن تجارب الآخرين المدونة أو المروية التى تمثل ثقافته العامة ولكن بشرط صدق الانفعال أيضاً حتى تصبح هذه التجارب كأنها تجربته هو. وقد نجد أمثلة لذلك فيما كتبه الرافعى رحمه الله فى كتابه وحى القلم من قصص استمدت غذاءها من الجو الصوفى وحياة الصوفيين ومن أمثال ذلك قصة «رؤيا فى السماء» التى يصور فيها على لسان أبى خالد الأحول الزاهد قصة الشيخ أبى ربيعة الفقيه الصوفى حين ماتت زوجته، وقصة «بنته الصغيرة» التى يحكى فيها طرفاً من سيرة أبى يحيى مالك بن دينار وغيرهما من القصص، ونستشهد لهذا اللون بطرف من قصته «الشيطان» :

«قال الشيخ أبو الحسن بن الدقاق : كان شيخى أبو عبد الله محمد الأزهرى العجمى رضى الله عنه رجلا صاحب آيات وخوارق مما فوق العقل، كأنما هو سر من الأسرار الجارية فى هذا الكون، وقد بلغ رتبة النجم فى أفقه البعيد ففيه أهواء الإنسان وشهواته وطباعه إلا أنها كنور النجم فى تألقه ولألائه من إشراق روحه وصفائها، وقد ارتفع بآدميته فوق نفسها فأصبح فى الناس ومعه سماؤه يجعلها بين قلبه والدنيا، والرجل إذا بلغ هذا المبلغ كان حياً كالميت ساعة احتضاره ينظر إلى كل ما فى الحياة نظرة من يترك لا من يأخذ، ومن يعتبر لا من يغتر، ومن يلفظ لا من يتذوق . . . ويرى الشهوات كأنها من لغة لا يعرفها فهى ألفاظ فيها معانى أهلها لا معانيه . . .

«وقد سألت الشيخ مرة : كيف تحدث الكرامات والخوارق للإنسان ؟

فقال : يا ولدى ، إن الإنسان من الناس المحجوبين يتصرف فى جسمه ولا يكاد يملك لروحانيته شيئاً ، فإذا أبلى فى المجاهدة ووقع فى قلبه النور تصرف فى روحانيته ولا يكاد يملك لجسمه شيئاً ، فمن أطاق أن ينسلخ من بشريته واتسعت ذاته فى معانى السماء بمقدار ما ضاقت من معانى الأرض ، وكان معداً لأن يتحقق فى روحانيته معاناً على ذلك بطبيعته فوق الاعتدال فقد شاع فى الكون وأصاب له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التى تهدم فى العالم وتبنى وتفرق وتجمع وتنقل الصور بعضها إلى بعض ، فإن الكون كله جوهر واحد هو النور . . »

وربما كان من قبيل القصة الصوفية الحديثة ما نقرؤه بين الحين والحين من ثمرات أقلام بعض الأدباء فى لمحة من لمحات الصفاء الروحى التى يمر بها الإنسان حين ينتصر على ماديته ، وفى أثناء رحلة من رحلات الروح وتجربة من تجارب اليقين ، ولنقرأ مثلا ما نشرته يوماً إحدى الصحف للأستاذ محمد زكى عبد القادر يسرد قصة صديق :

« . . . كنت على موعد فى ينبع آخذ منها الباخرة إلى أرض الوطن ، وبينى وبينها عشرات الأميال ، والشمس توشك أن تغيب ، وأنا والسائق فى خطر الموت جوعاً أو افتراساً فى موقف ليس فيه بصيص من رجاء ، ولم أجزع . كانت بعض نفحات من إيمان قد نبتت من الجزع الذى عشت فيه أكثر العمر والأيام ، وذهبت أمشى فى الرمال إلى غير قصد سوى أن أهدئ من روعى وقد أسلمت أمرى إلى الله .

« والتفت صاحبى وقال : ماذا تحسبنى رأيت فى الصحراء الجرداء ؟ رأيت جدولا من الماء هو نفسه الذى شهدته فى حلم الصبى ذى الاثنى عشر ربيعاً ، ستقول إنها نفحات « دروشة » أصابتنى وأنا على مقربة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قل ما شئت ، فهذا ما حدث والله بينى وبينك شاهد على أننى لا أروى إلا الصدق الصراح ، تولتنى الدهشة وتساءلت : كيف يصبح ما حسبته يوماً من الأيام أضغاث أحلام حقيقة واقعة ؟ وارتويت وصليت وسجدت لله شكراً ، ودعوته أن يكون معى وقد تطهرت من الذنوب والآثام .

« وعدت من حيث الغدير إلى حيث السيارة المغروزة فى الرمال ، واستعنت

بالله ورفعتها فارتفعت ثم دفعتها إلى الأمام . .

« وبلغنا ينبع وقد أوغل الليل وكانت الباخرة قد أقلعت فى موعدها قبل أن نصل . قلت لصاحبى : إنك لن تشاء إلا أن يشاء الله ، وأقمت فى الميناء بعض الوقت أسأل عن الباخرة التالية وأرتب نفسى على حساب جديد ، ولم أكن ضيق الصدر بما حدث من تخلفى عن الباخرة .

« وبينما أعد شأنى انتظاراً لموعد الإبحار الجديد إذا بمن ينبئنى أن الباخرة التى كانت قد أقلعت فى المساء عائدة إلى الميناء . . وأضاف موضحاً . . وقعت على ظهرها حادثة وفاة ، ويقضى القانون البحرى أن تعود الباخرة إلى حيث أقلعت ما دامت لم توغل فى البحر .

« وأغمض المتحدث عينيه كأنه ذهب فى غيبوبة ثم أفاق ليقول : لن تصدق ، اجعله مصادفة ، اجعله قدراً ، اجعله ما تحب مما تريد أن تصفه به ، ولكن ما حدث ردنى إلى صفاء نفس وشفافية إحساس ، وآمنت أن هناك قوة تعطى وتمنع وأننا لا نملك من أنفسنا إلا ما يريد الله » . . .

وهكذا تمضى القصة الصوفية فى تحقيق رسالة الأدب الصوفى من إعلاء للقيم وإحياء للمثل وتذكير بالله وتدعيم لمبادئ الأخلاق وتصوير لجانب عظيم من جوانب المجتمع الإسلامى يصدر كل ذلك عن فطرة صافية ، وما توحى به الفطرة أعمق أثراً مما يخلقه التنميق والتجيد والتزيين كما يقول الأدباء .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

من آداب الوالد مع أولاده

« يعينهم على بره ، ولا يكلفهم من البر فوق طاقتهم ، ولا يلح عليهم فى وقت ضجرهم ، ولا يمنعهم من طاعة ربهم ، ولا يمن عليهم بتربيتهم » .

قضايا لغوية ..
أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

(٣)

رأينا فيما سبق أن اللغة لم تبدأ – فى أول أمرها – بالمنطق والفكر، ومن ثم تبعنا المنهج الوصفى فى تتبع تأريخها ومحاولة الكشف عن حقبها السحيقة ، ولم نتبع المنهج الفلسفى الإغريقى الذى ادعى أن اللغة منطقية .

وتنفرد مجموعة اللغات السامية بميزة ظاهرة ، هى الاعتماد على الجذر والاشتقاق وفى لغتنا العربية نجد أن كل مجموعة تشترك فى الجذر الأصلى ومعنى عامًا يؤلف الطبقة الأصلية المشتركة لمفردات المجموعة . وثبات الحروف الأصلية يساعد على كشف العلاقات بين ألفاظها :

فالصديق ، والصداقة ... من مادة (الصدق) . والعدو ، وعدا واعتدى .. من (العدوان) وهو التجاوز فى الظلم .

ومحصل ذلك : (أن المعانى العامة أو الكلية تتجمع فى مجموعات من الألفاظ هى أشبه بالقبائل العربية ، ويبقى فى اللغة دائمًا عنصر خالد ثابت فى مادة الألفاظ .. وفى معانيها »[1] . وبقيت محافظة على أنسابها مهما نأت ديارها .

وحين لمس علماؤنا القدامى المناسبة بين اللفظ والمعنى أشاروا إلى تلك الظاهرة ، وتتبعوها من قديم : وعقد لها ابن جنى فصلاً فى خصائصه ، بعنوان (باب إمساس الألفاظ أشباه المعانى)[2] ، ذكر فيه : أن الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، قد نبها عليه ، وأن جماعة اللغويين قد تلقته بالقبول .. وحددوا الأماكن التى تكون فيها هذه الظاهرة واضحة جلية .

كما تظهر فى الألفاظ التى تحكى

---

(١) عبقرية اللغة العربية ١٩ .

(٢) الخصائص ١/٥٤٤ .

أصواتا ، كخرير الماء، وأزيز القِدْرِ .

أو فى المصادر التى تتابع حركاتها ، كالغليان، والدوران ، والجمزى والبشكى .

أو فى حروف إذا تصدرت الفعل نقلته من حال إلى حال : فالفعل (غفر) يفيد ثبوت المغفرة ، وحروف الاستقبال ، تنقله إلى طلب المغفرة ورجاء تحقيقها فى (استغفر) .

كما تظهر فى اختيار اللفظ المناسب للحدث قوة وضعفاً ، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث : فالنضح (بالحاء) لرش الماء برقة ، والنضخ (بالخاء) لشدة فورانه وقوته ، إذ فى الحاء لين ورخاوة ، والخاء تزيد عليها شدة وقوة .. ومن هنا نلمح سر الإعجاز فى التعبير القرآنى عن متع الجنة ونعيمها : « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » بالخاء، وفى الأثر (كل إناءٍ بما فيه ينضح) بالحاء . وأيضاً مثل : (خضم) لأكل الشيء الطرى ، و (قضم) لأكل الشيء اليابس الجاف : إذ فى الخاء رخاوة ، وفى القاف صلابة . ولله دَرّ أبى ذر — رضى الله عنه — حين صاح منكراً على الحكام نعيمهم وترفهم وشظف عيش رعيتهم : (ويخضمون ونقضم ، والموعد الله) .

بل عد علماء اللغة من لطيف صنع العرب وحكمتهم اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيباً ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطه ، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود ويمثل ابن جنى لذلك بحروف (بحث) :

(فالباء) لغلظها تشبه بصورتها خفقة الكف على الأرض ، و (الحاء) لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت فى الأرض . و (الثاء) للنفث والبث للتراب[1] .

وأكثر من ذلك ، نجد أن المعنى العام باق مع تقاليب حروف المادة ، وقد نبه على ذلك القدامى كالخليل ابن أحمد وابن دريد ، والفارسى ، وسماه ابن جنى بالاشتقاق الأكبر . والمادة الثلاثية تعطى ست مواد فى تقاليبها ، والرباعية تعطى أربعاً وعشرين ، والخماسية تعطى مائة وعشرين . وقد تستعمل كل التقاليب أو بعضها أو تهمل كلها لإهمال الأصل . فتقاليب (سلم) الستة تفيد معنى السهولة والأصحاب والملاينة .

---

(١) الخصائص ١ \ ٤٥٦ .

وتقاليب (جبر) تدور حول معنى عام هو الشدة والقوة [١] فى (جبر ، جرب ، بجر ، برج ، ربج ، رجب) .

ويرى الشيخ العلايلى ، أن : «القاعدة تقضى بوجود جامع معنوى بين المقاليب الستة ، لا يمكن أن يتخلف ، وإن كل على بعد » [٢] .

وهكذا ظل الاشتراك فى كل الحروف أو بعضها ، مع الصلة الصوتية السبيل لمعرفة الأصل ، وفى معجم مقاييس اللغة لابن فارس الحشد الهائل والأمثلة الوفيرة لتبيان ذلك ؛ إذ قد شارك أصحاب المعاجم فى جمع الكلمات المشتقة من مادة واحدة فى باب واحد ، وزاد عليهم بتتبعه لمعانى مفردات الباب الواحد ، وإرجاعها إلى أصل واحد ، أو عدة أصول من المعانى .

ولذلك فنحن لا نذهب مذهب الأب مرمرجى الدومنكى ، الذى ينفى وجود علاقة طبيعية بين الصوت وحروف الكلمة ، وبين « المعنى المتعلق بها ، لأن الأصوات مجردة ليس من

(١) الجمهرة لابن دريد ١ / ٢٠٧ ، والخصائص ١ / ٥٢٥ .
(٢) مقدمة ١٤٩ .

طبيعتها ما يجعلها دالة حتماً على الشىء الفلانى ، أو الفحوى الفلانى ، إنما تنشأ الصلة بين الصوت ومعناته اتفاقاً ، أو بإرادة المتكلمين عن طريق السماع أو الاستعمال . . . » إلى أن يقول : « إننا لا نجحد أن لبعض الكائنات دوياً ، وللحيوانات أصواتاً ، بيد أن الناس يحاكون هذا الدوى ، وهذه الأصوات بطرق متباينة ، إذ أن كل فريق يتوهم سماع نوع من الدوى والصوت فيحاكيها ، طبقا لهذا الوهم » [١] ونقول له : حسبنا الدوى والأصوات وتوهم المتوهمين ، ليصوغوا منه ما يفهمون وما ينطقون .

وقد بهرت هذه الظاهرة العجيبة فى لغتنا علماء اللغة ، وهى وشائج القربى والصلات الواضحة بين المجموعات اللغوية ، سواء اشتركت فى حرفين أو فى حرف واحد مما يوحى بأن القول بالأحادية فى نشأة اللغة له أساس : ثم تدرجت من هذا الدور نحو الاكتناز ، لتفى بما يطلب منها تبعا لمقتضيات التطور .

فالكلمات المشتركة فى الحرفين (ن ، ف) تدور حول معنى الخروج ، مثل : نفث ، نفح ، نفخ ، نقد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى) . . .

(١) معجميات عربية سامية ١٠٢ .

وكل ما فيه حرف الغين (غ) يدل على الغموض والاستتار ، مثل (غاب غار غاض غام غرب غمض غم غش غز غص غن غبر غبن غبق غفا غطى غرق غمر غفر) . . . .

وفى مقاييس ابن فارس الشيء الكثير من ذلك كما قلنا . .

وكانت إشارات علمائنا القدامى والمحدثين إلى ذلك إيحاء وباعثاً حثيثاً بضرورة معرفة الرأى فى نشأة اللغة العربية والقول بالثنائية أو الثلاثية .

إلا أن الأقدمين — من علمائنا — لم يشيروا صراحة إلى القول بالثنائية وأنها أصل الوضع ،وإنما كان بحثهم تاريخياً ، يرجع باللغة إلى عهود تحاول معرفة تدرج ألفاظ اللغة وتطورها ، حتى استقرت فى طورها الأخير إلى صورها وأشكالها المرضية والمعبرة والمفيدة . . وازدادت الأبحاث عمقاً عند المحدثين فى ضوء أبحاث المجموعات اللغوية الأخرى ، وبخاصة فى الساميات .

* * *

والنظرية الثنائية ، أو المذهب الثنائى فى اللغة ، يقوم على اعتبار الأصول اللغوية — فى الأسماء والأفعال — ثنائية : أى يتركب كل منها من حرفين أساسين وأن الأصول الثلاثية وما فوقها مستنبطة من تلك الأصول الثنائية .

ويرى الأب مرمرجى الدومنكى أن الجذر الثنائى يشمل المجموعة السامية فى عمومها، يقول: « الثنائية » bilitteralime هى النظرية القائلة بأن (الأصول) فى العربية ، وكذلك الحال فى أخواتها السامية : ليست الألفاظ ذوات الحروف الثلاثة ، بل ذوات الحرفين ؛ إذ من شأن الثلاثيات أن ترد إلى الثنائيات »[(١)]

وجورجى زيدان يرى « الثنائية » فى النشوء اللغوى بالاستقراء ، فيذكر أن الألفاظ الدالة على معنى فى نفسها ، يرد معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكى أصواتا طبيعية »[(٢)] أى أن الثلاثى وما فوقه يرد إلى ثنائى سابق، لافى الاشتقاق فقط كما فهمه الأقدمون حين ذهبوا يطبقونه فى الإبدال وتعاقب الحروف ، بل فى النشوء اللغوى أيضاً . ويشير زيدان إلى بعض أسباب نشأة « الثنائية » ويؤكد الحصر والاستقراء ، يقول : « لغتنا مؤلفة من أصول محصورة عداً ، أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ،

(١) المعجمية العربية ٦ .
(٢) الفلسفة اللغوية لجورجى زيدان ٣٨ .

وبعضها عن الأصوات الطبيعية ، التى ينطق بها اللسان غريزيًّا »[١] .

والشيخ العلايلى يرى الثنائية دوراً ثانيًّا من أدوار اللغة فى حياة الإنسان ، الذى حاكى الطبيعة بقصد ، أو بغير قصد ، فأكسبته المحاكاة أكثر المقاطع الثنائية التى يمكن فرضها ، وبخاصة إذا كانت ناشئة عن ضم بعض المقاطع الأحادية التى يحتملها التعبير » . . .

ويقرر الشيخ العلايلى أيضًا أن (المعتل) هو ثنائى لفظا ، وإن كان ثلاثيًّا خطا فى العربية : أى أن المعتل هو ثنائى ألحق بالثلاثى ، وأنه أقدم ما حفظت اللغة من كلمات العهود السابقة[٢] .

ويلاحظ أن الشيخ العلايلى — كما ذكر الدكتور عبد الصبور شاهين فى دراسته الواعية — لا يؤسس تصوره للثنائى على تصوره للأحادى ، بمعنى أنه لم يتبع فى الواقع وجود كلمة « أحادية » صارت إلى الثنائية على أساس افتراضه السابق . ومن ثم نرى أفكاره تتكامل نظريًّا فقط ، دون أن يستطيع تأسيسها على تكامل لغوى » .

(١) المصدر السابق ٣٤ .

(٢) المقدمة ٣٠ .

لكنا نلتمس العذر للشيخ ، ونبيح له التصور الذكى ممزوجا بخيال غير جامح فى فترة يعلوها الضباب ، ويلفها صمت التاريخ[١] .

ويصور الأب أنستاس الكرملى « الثنائية » وطريقة اكتناز الكلمات وتدرجها بأنها : « تطورت فى وضعها من هجاء واحد (أى مقطع) أصلاً ، إلى مضاعف من ثلاثى ورباعى : فيكون ثلاثيًّا إذا لم تتخيل الحركة فى الشىء ، ورباعيًّا إذا تخيلتها فيه . وعلى هذا النحو تطور الهجاء الواحد (صر) بسكون الراء إلى (صرّ) بتشديدها ، وإلى (صرصر) ، ثم تطور فى اتجاه آخر (صار) ، أو (صرى) ، وبذلك عرف المضعف والأجوف والناقص ثم المهموز[٢] . ومعنى ذلك أن الثنائية كانت وفيرة وكثيرة فى وقت ما من عهود اللغة إذا لم تكن هى الأصل ، ثم تحول عدد كبير منها إلى الثلاثى بالإضافة أو التضعيف ، وليس هذا خاصًّا بلغتنا العربية ، وإنما هو قدر مشترك بين الساميات .

وأشار (الأقدمون — كما قلنا — إلى

(١) فى التطور اللغوى ١٢٧ .

(٢) نشوء اللغة العربية ٢٠ .

مبدأ « الثنائية » ، ولكن لم ينصوا عليها صراحة ، وبدأ بها أصحاب المعاجم مواد قواميسهم عند ترتيبها : فبدأ الخليل ابن أحمد (١٧٥ هـ) بالثنائى فى (العين) ، واحتذاه ابن دريد (٣٢٥هـ) فى (الجمهرة) ، والأزهرى (٢٨٢ هـ) فى التهذيب ، والقالى (٢٨٨ هـ) فى (البارع) ، وابن سيده (٣٩٧) فى المحكم [١] .

وحدّدُوا الثنائى بأنه ماتكون من حرفين ولو مع تكرار أحدهما ، وسموا الثنائى المضاعف : الثنائى فى الخط ، والثلاثى فى الحقيقة : الثلاثى الصحيح . والثلاثى المعتل الحواشى والأوشاب [٢] .

ويكاد الأب مرمرجى أن يلزمنا القول بالثنائية ، كما ألزم نفسه بها : فالرباعيات عنده « ليست مجردة كما يقول الصرفيون : بل هى ثلاثيات مزيدة ، والثلاثيات الشاملة : (المثال والأجوف والناقص والمهموز والمضاعف ومكرره) قابلة جميعها الرد إلى (الرس الثنائى) مع استمرار المناسبة المعنوية بينهما . أماما يتعذر رده من الثلاثى إلى الثنائى فيعزى ذلك إلى فقدان فحاويها الأولية مثلما ضاعت ، أو لم ترد الأصول الثلاثية لبعض المزيدات أو المشتقات ، التى بلغ عددها الثمانمائة أو أكثر »[١] فالرساس العربية عنده أوفر من غير العربية ، والثلاثى وما فوقه توسعات اشتقاقية للرساس الثنائية التى بدأت بها نشأة اللغة ، وعنها صدرت جميع التوسعات والاشتقاقات ، حتّى صارت العربية عنده بها « أوفر ثروة من لغات العالم أجمع » [٢] .

● ويؤنس المقام أن نذكر بعض أمثلة ذكرها المؤصلون للثنائية تزيد الأمر إيضاحًا ، وطرق اكتناز الثنائية لترتقى إلى أعلى منها :

يقول جورجى زيدان : إن الجذور الثلاثية ترتد أصلا إلى جذور ثنائية ، هى حوامل المعانى ، وليست الثلاثية سوى وسيلة لتنويع المادة اللغوية ، وتطوير الاستعمال الدلالى .

فالأصل اللغوى « قط » حكاية لصوت القطع ، وهو ثنائى تأتى توسعاته بمعناته ، مثل : (قط ، قطع ، قطب ، قطف ، قطل ، قطم) ، وكلها أفعال بمعنى (القطع) من (قط) . .

---

(١) راجع المعاجم اللغوية د . إبراهيم نجا .
(٢) المصدر السابق .

(١) هل العربية منطقية للأب مرمرجى ١٤٥ .
(٢) معجميات عربية سامية ٧٩ .

وأيضاً مقارب المادة (قط) وهو « قصّ » يفيد تثليثه القطع ، مثل (قصب ، قصر ، قصف ، فصل ، قمم) وأيضاً مجانس (قص) وهو « كس » بمعنى القطع يأتى منه (كس ، كسر ، كسع ، كسم) . ومثله : « جذ » بمعنى القطع ، يأتى منه « جذ ، جذب ، جذر ، جذف ، جذم) وأيضاً : « جز » يأتى منه بمعنى القطع : (جز ، جزا ، جزر ، جزح ، جزع ، جزل ، جزم)[1] . وكل ذلك من باب القطع ، وهى ترد إلى أصل واحد ، هو حكاية صوت ، وذكر الدكتور عبد الصبور شاهين أن هذه الأمثلة كلها نقلها جورجى زيدان عن كتاب المفتاح للسكاكى[2] . أى أن كتاب المفتاح أشار إلى الأصول الثنائية المشتركة فى المعنى العام ، وما ينوع المعنى من زيادة عليه .

والأب مرمرجى يرى : أن كلمة (ح ح) أصلها ثنائى ، لاسم صوت ينطقه المجهدون تخفيفا من عنائهم[3] و « ثب » أصلها « ثب » بمعنى الحركة

(١) الفلسفة اللغوية ٩٨ .

(٢) فى التطور اللغوى ٨٦ .

(٣) المعجمية العربية ٤٨ .

عموماً[1] وعنده أن : « نهى ، نهنه نهر) بمعنى الزجر[2] . أصلها (نه) بمعنى الزجر . ولمعرفة الأب مرمرجى بكثير من اللغات السامية أمكنته المقارنة اللغوية بين الساميات بإلقاء الضوء على كثير من الأصول الثنائية التى بنى عليها نظريته فى « الثنائية » ، ولا ينكر أحد أهمية هذه الدراسات المقارنة ؛ إذ أنها تكشف كثيراً من الغامض وما خفى على الكثيرين . ولذا نظر لكثير من الأفعال التى يقال بأنها ثلاثية فى العربية بنظيرها فى السريانية مما جاء على الثنائية فقط ، فذكر أن فى العربية (حم) بالتشديد ، يقابله فى السريانية بالتخفيف . و (مص ،مس) بالتشديد ، يقابلهما (مص ، مس) بالسكون . ويردف بأن « الثنائى وارد فى كل الساميات متصفاً بمعنى حقيقى وتام »[3] .

وأرجع المضاعف الرباعى مثل : (مرمر ، قرقر ، دب ، دب ، لعلع ، لألأ . .) إلى ثنائيين مكررين . ومن هذا شىء وافر فى العربية وكذا اللغات

(١) معجميات عربية سامية ٩٩ .

(٢) المعجمية العربية ١٣٠ .

(٣) معجميات عربية سامية ٩٨ .

السامية . . ففى السريانية ، bal-bal (zal-zal على وزن زلزل ، وبلبل) . وقد أمكنه جمع ٣٥٠ مادة منها فى العربية الفصحى وحدها ، ويوجد أكثر منها فى اللهجات[١] .

وأكثر من ذلك أن رسالة الألفاظ السريانية تفترض وجود الثنائية دون شعور وقصد منها[٢] .

ومن علمائنا القدامى من أشار إلى طريقة اكتناز المواد الثنائية لتصبح ثلاثية ، بزيادة حرف ، كابن فارس وابن جنى ، فى مثل : (نب) فيصبح (نبأ ، نبج ، نبح ، نبذ ، نبر ، نبس ، نبش) مع بقاء المعنى العام .

وعند الأب أنستاس الكرملى : أن الهجاء الواحد (المقطع) ذا المعنى ، قد يزيد عليه هجاء أو أكثر ، مثل (رم) بالسكون فيصبح (ثرم ، جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم غرم) . . ومثل : (نب) ومنها (نبأ ، نبت ، نبث ، نبيح ، نبح ، نبذ ، نبر نبز ، نبس ، نبش ، نبض ، نبع ، نبغ)[٣] . وهى نفس طريقة القدامى كما أشرنا .

(١) السابق ٩٧ .

(٢) السابق ١٠٠ .

(٣) نشوء اللغة العربية ٣ .

ويطبق الأب الكرملى النظرية على اللغة اللاتينية ، لأن الكلم عنده مبنى على محاكاة الطبيعة وعلى الهجاء الواحد غالبًا ، فيقول :

« قد يتفق مصطلح العرب ومصطلح أبناء الغرب إذا اتفق الخاطران فى توهم صوت الطبيعة ولا يكون هذا الأمر إلا إذا كان ثم هجاء واحد ، أو هجاءان اثنان لا أكثر . فمثال الهجاء الواحد قول العرب (رد) بالتشديد ولا جرم أن أصله (رد) بفتح وسكون ، وهو فى اللاتينية Raddere ومن المعلوم أن ere كاسعة (ما يزاد فى الآخر) تكسع بها كثير من أفعالهم ، إذن Raddere ليست إلا (رد) العربية[١] .

والشيخ العلايلى يرى أن إنسان الدور الثانى استخدم معانى الجدول الهجائى الفنيقى ، وضم بعض المقاطع الأحادية ليعبر عما فى نفسه من معان ، ويمثل بلفظه (عبى) وهو ثنائى فى صورة ثلاثى ، أو ثنائى الحق بالثلاثيات : « فإن العين تدل على الحيوان الزئيرى . والباء تدل على البيت ، وكأن المعنى : حيوان البيت القوى ، الذى هو كناية عن الرجل . وقد وردت فى العربية كلمات مثل (دد)

(١) السابق .

بمعنى اللهو ، و (ببة) للطفل السمين أو لعبة ، ويردهما الشيخ العلايلي إلى (ددا) المعتلة، وإلى (البو) بمعنى ولد الناقة أو جلد يخشى أى شىء لتتسلى به الناقة على ولدها [١] .

واحتفظت القواميس العربية بثنائيات قديمة ، كأسماء الأسرة : (أب ، أم ، أخ ، أخت أم ، بن ، بنت ، حم) . وأسماء الأعضاء : (يد ، دم ، شفه ، لثة) .

وعلى مر العصور ، وترقى الإنسان ضاقت الثنائيات عن التعبير عن المعانى ، فكان لا بد من التوسع فى صور لفظية جديدة ، لتلبية الحاجات الآنية والمستقبلة ، فكان لا بد من الاكتناز والتوسع فى الألفاظ الثنائية ، لتدل على معان إضافية .

« ففرع العرب بزيادة حرف على الثنائى ، أو صوت ثالث ، أدى إلى صورة لفظية جديدة [٢] .

فلجأت العربية إلى طرق أدت إلى اكتناز الألفاظ بالمد ، والتشديد ، وقد تداخل بابهما . أيضاً لجأت إلى تحويل المضاعف ناقصاً أو يحول المضاعف أجوفاً ، أو يتخلى الناقص عن حرفه الأخير لصالح حرف صحيح ، والأمثلة

(١) مقدمة ١٣٣ .

(٢) الألسنية العربية لريمون طحان ٨٤ .

على الترتيب (مص ، مصص ، شد ، شد) (رب ، ربا) (طم ، طما) . (مد ، ماد . ضر — ضار) . (رسا ، رسب) . (سما ، سمق) . (محا ، محق) . (رخا ، رخص) .

— ويوجز الأب مرمرجى طرق توسع الثنائيات ، إمّا :

(ا) بتكرار الحرف الثانى ، مثل : أم — أمم ، جل — جلل .

(ب) وإما بالتكرار والمد معا ، مثل : أز — آزار ، أط — أطيط ، بر — برور .

(جـ) وإما بزيادة تاء فى الآخر ، مثل سك — سكة ، تل — تلة ، جب — جبة .

(د) وإما بالتكرار والمد والتاء معا ، مثل : ضر — ضرورة ، كز — كزوزة كزازة .

وكل هذه التوسعات المختلفة التوسع متضمنة منطوق « الرس الثنائى » [١] المشتقة منه ، وقد أحصى منها الأب مرمرجى ٣٢٧ مادة .

وهذه التوسعات فى الكلمة تتخذ مواقع مختلفة :

(ا) فتسمى الزيادة تتويجاً أو

(١) معجميات عربية سامية ٧٨ .

تصديراً (Prefixe) إذا وقعت فى أول الكلمة مثل (جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم ، غرم) .. تشترك فى (الراء والميم) وفى المعنى العام لها .

(ب) وإذا وقعت آخر سميت : تذيلا ، أو كاسعا (Sufflxie) وهذا هو الغالب ، مثل : (قطب ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم) . . تشترك فى (القاف والطاء) وفى المعنى العام وهو الفصل .

(ح) وإذا وقعت وسطا ، سميت : إقحاماً ، أو حشواً (in Fixe)[١] . مثل : (قحم ، قرم ، قسم ، قصم ، قضم ، قطم ، قلم) .. تشترك فى حرفى (القاف والميم والمعنى العام فى الشق والقطع .

ويزيد الأب مرمرجى بأن المقرر عند علماء العربية قديمًا وحديثًا ، وعند الأجانب من مستسيمين ومستعربين أن الزيادة تجرى بالتتويج والإقحام والتذييل . وفى كل حال من الأحوال يتم الأمر على سبيل الأغلبية ، أى بالسماع ، وليس بقياس محكم »[٢] .

ولا مانع من أن يكون العرب قد اعتمدوا وتعمدوا تسكين الحرف الثانى فى (الثنائية) ، ثم شَدَّدُوه ، ثم فكوا تشديده ، واستبدلوا ثانى المشدد بحرف يختلف عنه ، مروراً من الثنائى إلى الثلاثى وغيره ، مثل (النون والفاء) بمعنى الخروج ، مع تخصيص حاصل بفعل تخصيصها ، فقالوا : (نف ، نفَّ ، نفث ، نفح نفخ ، نقد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى) .

وما قرره الأقدمون من الزيادة بالحروف على الرباعيات والثلاثيات ، يسوغ — عند الأب مرمرجى بكل حق وصواب تطبيقه فى الثنائيات . ومثل لما زاد على الثنائى بالأمثلة الآتية : (يقطين ، من قطن أى أغنى ، وترفل ، من رفل وزنبيل من زبيل ، وعنصل من عصل ، وذمعط من ذعط . . ويلسن من بلس ، وعيدل من عبد . . . وعد من ذلك شيئاً كثاراً فى العربية وبقية الساميات »[١] .

فالزيادة والترقى من الأقل إلى الأكثر ، كانت طريقًا مألوفًا ومعروفًا للعرب فى توسيع المواد وزيادتها وتنويعها ، لتقابل المعنى الجديد . . كما كانت هناك زيادات متنوعة تجرى بضرب من الاعتباط ، أى لدواع غير داعى

(١) نشوء اللغة ٣ ، والمعجمية العربية ١٣٥

(٢) معجميات ١٠٥ .

(١) السابق ١٠٥ ، ١٠٦ .

الدلالة على معنى خاص ، أو على دور معين ، كما ذكر الأب مرمرجى . وضرب مثلا لذلك .

بالزيادة للإلحاق ، لمحض الموافقة بين وزن وآخر ، ليعامل معاملته ، مثل : (قعدد ، وجلبب ، وشملل) فى التذييل . و (حنظل وحوقل ودهور) لزيادة النون والواو والهاء حشواً .

وزيادة للغنة ، مثل : قنبرة من قبره . وإنجاص من أجاص ، وخنزير من خزير . وزيادة لتقوية الحركة ، دون قصد معنى معين ، مثل : (برّع من برّأ ، وينسب إليه برعى أى برانى) و (توقع من توقى) و (شفع من شفى) و (بدأ وبدع من بدأ) .

وزيادة لعذوبة اللفظ وتسهيله مثل (يا أبتى ، وعصاتى ، ودد ، بدل من يا أبى وعصاى ودد) . و (فدنى وقطنى) بإقحام النون . و (لعلت ، ثمت ، ربت) بإلحاق التاء .

وزيادة لإقامة الوزن فى الشعر ، نحو (تبيضضى) عوض تبيضى .

وزيادات أخرى تجرى دون قصد اشتقاق ، مثل : (خوارنة ، جمع خورى) و (أبهات وأمهات) بإقحام الهاء . وكذلك النسبة إلى (صنعانى ، وجوانى ، ويرانى ، وصيدلانى) بإقحام النون .

ويخلص من ذلك الأب مرمرجى إلى أن اللغة تتبع السنة الطبيعية ، وتخضع لأحوال الإنسان المختلفة ، ولأعضاء نطقه ، وللتطورات الاجتماعية والمؤثرات . كما أنها فى بعض أجزائها قياسية منتظمة محكمة ، وفى البعض الآخر سماعية : لا ضابط ولا قيد لها ، وقواعدها ليست قواعد حسابية رياضية[1] .

وكثيراً ما سمعت الشيخ العلايلى يطلق على قواعد العربية ضوابط لا قواعد ، تأييداً لذلك .

ولتوفر الأب مرمرجى على دراسة الثنائية ، وطول نظره فيها ، وتقصيه لها ومزاولتها ، أمكنه بعد التقصى والاختبار أن يصنف الحروف التى تقبل الزيادة على الرساس الثنائية من باب الأغلبية والإطلاق ، كما يلى . :

(ا) حروف تصلح أن تكون متوجة ، ومقحمة ، ومذيلة وهى : (ا ، ت ، ر ، ع ، ل ، م ، ن ، ه ، و ، ى) .

(ب) حرفان يصلحان للتتويج والتذييل ، وهما الحاء ، والشين .

(ح) حروف تستخدم للتذييل ، وهى

---

(١) السابق ١٠٧ ، ١٠٨ بتصرف .

(س ، ب ، ذ ، ك ، ق)[1] .

ثم أفاض فى شرح ذلك وتفصيله فى مصنفاته اللغوية الكثيرة ، تأييداً لدعواه ليثبت دعائم الثنائية التى نصب نفسه محامياً لها ، ومدافعاً عنها طوال حياته .

ومن استعراض الأمثلة السابقة يمكن القول بأن الألفاظ فى العربية جاءت من أصليين أساسيين ، خصهما بمعنى واضح حرف ثالث ، أى أنها عرفت عبر تاريخها الحافل مفاهيم تعود إلى أصول غير ثلاثية ، وإن ارتكزت — بعد تطور وأدوار — على أسس ثلاثية

والحرف الثالث الذى حدد المراد من المعنى العام ، تنوع حسب ما يتطلبه المقام : « فإن أراد العرب إبانة شىء عن شىء وفصله عنه مع معاناة ومشقة قالوا : قالوا : (قطع) وإن أحبوا أخذ شىء من آخر دون مُعَانَاة أو مشقة قالوا : قطف ، لقوة العين وضعف الفاء[2] اللهم إلا إذا عنّ غرض بلاغى فيتجاوز عن ذلك ، كقول الحجاج بن يوسف : (إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها) ، فلشدته وهو أن أصحاب الرءوس ، جاء التشبيه بالزرع والقطاف .

(١) فقه اللغة العربية د. إبراهيم نجا ٨٣ .

(٢) السابق ١٠٦ .

ويعزر ابن دريد فى (جمهرته) وجهة نظر الفريق القائل بأن الكلمات المشتركة فى حرفين وفى معنى عام يضمها كانت فى الأصل ثنائية المقطع نظراً إلى الصورة الملفوظ بها ، دون التفات إلى الحرف المكرر بمثابة حرفين ، وإن كان فى الحقيقة ثلاثياً . يقول ابن دريد : « والثنائى الصحيح لا يكون حرفين ألبتة إلاّ والثانى ثقيل (أى مُضَعَّف) حتى يصير على ثلاثة أحرف . . . اللفظ ثنائى والمعنى ثلاثى . وإنما سمى ثنائياً للفظه وصورته ، فإذا صرت إلى المعنى والحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة ، والثانى حرفين مثلين أحدهما مدغم فى الآخر ، نحو (بتَّ يبتُّ بتاً) بمعنى قطع ، وكأن أصله بتت فأدغموا التاء فى التاء ، فقالوا : « بتَّ » وأصل وزن الكلمة فعل ، وهو ثلاثة أحرف ، فلما مازجوا الإدغام رجعت إلى حرفين فى اللفظ ، فقالوا : بتَّ ، فأدغمت إحدى التائين فى الحروف المعجمة[1] .

« فالنظرة إلى اعتبار المضعف الثلاثى ثنائى الصورة تبدو بجلاء ووضوح عند الأقدمين فى جمهرة اللغة لابن دريد ،

(١) الجمهرة ١ / ١٣ .

وفى المقاييس لابن فارس ، بل إن فى جمهرة اللغة لابن دريدما يدل دلالة أكيدة على توثق النظرة عنده : فإنه عند الكلام على الثنائى ينهى القول على جميع مواده صحيحًا أو معتلاً ، قبل أن ينتقل إلى الثلاثى »[١] .

والمحدثون تتبعوا هذه النظرية ونظروا لها بما هو وارد فى الساميات من ثنائيات مثل (حم ، مص ، مس) بالتشديد فى العربية بما يقابلها فى السريانية (حم ، مص ، مش) بدون تشديد للحرف الأخير[٢] .

إلا أن الشيخ العلايلى يجعل الحرف المزيد على الثلاثى حلقة ثالثة فى الدور الثالث من أدوار الإنسان فى تدرجه نحو الرشد ، فعرف الكتابة وعرف الحروف وتنوعت حاجاته ، فجعل الحرف الثالث

(١) فقه اللغة العربية د نجا ٨٥ .

(٢) معجميات ٩٨ .

حشواً فى وسط الثنائيات — غالبًا ليغطى مفاهيم جديدة ، فجعل من (قف) : (قطف ، فرف ، قذف[٣] . .

ولوفرة الشواهد والأمثلة فى هذا الصدد ، « أطلق بعض الباحثين المعاصرين القول[٤] بأن الذى يتفرس كلم العربية بإنعام نظر ، يجد أن معظم موادها أصلا يرجع إليه كثير من كلماته وإن لم نقل كلها ، وذكر لذلك (فل) فإنها تدور حول الشق والفتح : كفلح ، فتح ، فلح ، فَلَحَ ، فلى . وكذلك نجد ابن فارس فى كتابه (المقاييس) يذكر أن مادة (قط) تدور حول القطع .

وللثنائية أسباب وأدلة ، نذكرها فى مقال آت بإذن الله . .

دكتور توفيق محمد شاهين

(١) المقدمة ١٤٤ .

(٢) فقه اللغة العربية د نجا ٨٥ .

« من آداب اصطناع المعروف »

البداءة به قبل السؤال ، والمبادرة به عند الوعد ، والسّر له بعد الأخذ ، وترك المنة بعد القبول ، والمداومة على اصطناعه . والحذر من إنقطاعه .

اليهودية :
عقيدة ابتدعوها .. وتوراة حرّفوها

الأستاذ زاهر عزب الزغبي

(٢)

فى المقال السابق أوضحنا كيف كانت اليهودية لا تعدوا أن تكون طورا من أطوار الديانات القديمة ، وأنها بطبيعتها لا يمكن إلا أن تكون من الديانات المحلية الموقوتة .. كما أوضحنا أن الشخصية الإسرائيلية ضعيفة متهافتة لا تقوى على الصمود لظروف أقل قسوة مما تعرضت له خلال المحن والأزمات والتشرد والأسر التى صادفت اليهود عبر تاريخهم الطويل » .

ولكن الشخصية اليهودية بقيت صامدة تجتر أوهاماً وأساطير دبّجتها أقلام كتبة التوراة . . تلك التوراة التى حرفها كتبتها وابتعدوا بها عن وصايا الله الموحاة إلى موسى عليه السلام .. وسمحوا للشعب أن يشرك وأن يَعْبُد آلهة عدة .. كما حولوا المعابد إلى مواخير للفسق .

واستشهدنا على ذلك بنصوص من التوراة ذاتها . . وأوردنا بصدد ذلك محاولتين إصلاحيتين قام بهما أحبار اليهود مدعين فى كل مرة أنهم قد عثروا على التوراة الصحيحة ، أو على تابوت عهد الرب الذى أودعه موسى وصايا الله وتعاليمه .. ومع ذلك ظل رجال الدين والكتبة يواصلون عملية تطويع التوراة ويضيفون المزيد من أسفارها .. وقد ظلوا يؤدون مهمتهم هذه حتى ظهور المسيح عليه السلام .

ولأول وهلة لم يكن السيد المسيح ينظر إلى الكيفية التى يؤدون بها هذه المهمة الخطيرة بعين الرضا وقد ظهر سخطه على هذه الطائفة فى قوله لهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراءون لانكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين

يدخلون . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون حقوق الأرامل . . ولعلة تطيلون صلواتكم . . لذلك تأخذون دينونة أعظم . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحداً ومتى حصل تصنعونه إبناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً . . ويل لكم أيها القادة العميان ، القائلون : من حلف بالهيكل فليس بشيء ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم .. أيها الجهال والعميان .. أيهما أعظم ؟ الذهب أم الهيكل الذى يقدسه !! ومن حلف بالمذبح فليس بشيء ولكن من حلف بالقربان الذى عليه يلتزم » . (إنجيل متى ٢٣ : ١٢/١٨) .

وجاء على لسان المسيح أيضاً قوله لهؤلاء الكتبة حينما حضر إليه بعضهم وانتقدوا أتباعه لأنهم لا يراعون قواعد النظافة ويأكلون بأيد غير مغسولة : « حسنا تنبأ أشعيا عنكم ، أنتم المراءون كما هو مكتوب : هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى بعيداً . . وباطلا يعبدوننى . . وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس . . لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس . . غسل الأباريق والكئوس وأموراً كثيرة مثل هذه تفعلون . . ثم قال لهم : حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم . لأن موسى قال : أكرم أباك وأمك . . ومن يشتم أباً أو أماً فليمت موتاً . . وأما أنتم فتقولون : إن قال إنسان لأبيه أو أمه . قربان أى هدية هو الذى تنتفع به ، فلا تدعونه فيما بعد يفعل شيئاً لأمه أو أبيه . مبطلين كلام الله بتقليدكم الذى سلمتموه وأموراً كثيرة مثل هذه تفعلون (مرقس ٧ : ٥/١١) .

ولم يكن المسيح وحده بصفته مبشراً بدين جديد — هو أول من حمل على هؤلاء الكتبة واتهمهم بالتدليس والتحيز فى نقل رسالة الله والتلاعب فى وحيه . بل إن كثيراً من أبناء بنى إسرائيل أنفسهم قد حملوا عليهم حملات شعواء أشد عنفاً ، ووصفوهم بنعوت أكثر قسوة من تلك التى وصفهم بها السيد المسيح فقد كان لهم أشعياء الهجوم والاتهام . ومن ذلك قوله : « ويل للذين يقضون أقضية الباطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً ليصدوا الضعفاء عن العدل ويسلبوا حق بائسى شعبى ، لتكون الأرامل غنيمتهم ينهبوا الأيتام . . وماذا تفعلون فى يوم العقاب حين تأتى التهلكة من

بعيد إلى من تهربون للمعونة . . . وأين تتركون مجدكم . . أما يجثون بين الأسرى وإما يسقطون تحت القتلى (أشعياء ١٠ : ١/٤) .

وقد وصفهم أرميا ضمن الكهنة بالتزوير والتزييف والكذب على الله بقوله : « أما وحى الرب فلا تذكرونه بعد ، لأن كلمة كل إنسان تكون وصيته .. إذ قد حرفتم كلام الإله الحى ، رب الجنود ، إلهنا » (أرميا ٢٣ : ٣٦) .

وإذا كانت التوراة قد وُجِّهَتْ إليها أمثال هذه المطاعن المشينة الكفيلة بإهدار أى مصدر تاريخى وجعله عديم القيمة والجدوى بحيث لا يمكن الاعتماد عليه فى استقاء الوقائع التاريخية واستخلاص الحقائق الصحيحة . . فكيف خدع فيها كل من تصدى للبحث فى تاريخ اليهود ودراسة الديانة اليهودية فى عهدها القديم . وقد كانت التوراة هى المصدر الوحيد لكل باحث فى هذا الموضوع ؟؟ ... سؤال برئ لا ضير فيه . . ولا يمكن أن يتضمن تلميحاً من أى نوع إلى تهافت كل الأبحاث والدراسات التى أجريت على العقيدة والشخصية اليهودية واعتمدت على هذا المصدر المطعون عليه والمشكوك فيه . . . وفى الحقيقة أن معظم الباحثين لم يغفلوا عن المطاعن والشبهات التى تعيب هذه التوراة . . وفى نفس الوقت عرفوا كيف يستفيدون منها على علاتها من حيث إنها قد صورت واقع الحياة اليهودية من جميع نواحيها العقائدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . وتعمقت أبحاث العلماء فى التوراة . . . فلم يكتفوا بمناقشة ما ورد فيها من وقائع ، بل استشفوا من خلال ما تضمنته الصورة الحقيقية للشخصية اليهودية ، تماماً مثلما يفعل الناقد الأدبى فى استخلاص الصورة الحقيقية للكاتب الأديب من خلال إنتاجه .. استناداً إلى أن معظم سمات الكاتب فى أخلاقه ومزاجه النفسى لا بد وأن تظهر أطيافها ظلالا واضحة فى كل ما يدبجه قلمه وتمليه قريحته .. وقد أفادتنا التوراة من هذه الوجهة فائدة عظمى . إذ أنها — كعمل اجتماعى اشتركت فى إنشائه أجيال من المحررين والكهنة على مر الأزمان خلال فترة طويلة — قد أوضحت لنا المعالم الأساسية للمجتمع اليهودى بأسره . . أما من حيث صحة الوقائع نفسها فليس هناك من سبيل إلى التوصل لقرار حاسم . . وبقيت الأفكار والعقائد والمبادئ أموراً مجهولة لا يمكن تقييمها مثل سائر الروايات التاريخية التى

وصلت إلينا من طرق غير محايدة أو فى ظروف غامضة . . ومثل هذه الروايات التاريخية . . إمَّا أن تهمل كلية . .أو تروى على علاتها . . أما فى مجال الاستشهاد فلا يمكن الاعتماد عليها أبداً .

ومع هذا فنحن مضطرون إلى الرجوع إلى النصوص الواردة فى التوراة كى نتعرف كنه العقيدة الدينية لدى اليهود . ومدى ما يمكن أن تستفيد منها البشرية . . . وحتى لا يتهم المرء — كمسلم — بالتحيز فى أحكامه ، فإنى أطلب من القارئ أن يستصحب التوراة ويتابع ما سأرشده إليه من نصوصها . . فإنى لن أستنير فى هذا البحث إلا بما تضمنته أسفار العهد القديم وإصحاحاته من وقائع وروايات . . لن أحتكم إلا إليها ولاسواها .

ولقد بدأت دعوة موسى وانتهت بالتبشير بإله ضنٍّ بهدايته وبركته فلم يمنحهما إلا لشعب إسرائيل الذى اختاره هذا الإله من بين شعوب البشرية كلها كى يحتكر كل منهما الآخر . . . الشعب لا يتعبد لسواه من الآلهة ، والإله لا يمنح البركة ولا يقود إلى العزة والنصر والسعادة سوى هذا الشعب المختار . . شعب إسرائيل . . . ولقد صورت التوراة هذا الإله بصورة هى بدع فى صور الآلهة . . فيهوه إله إسرائيل إله « صارم صعب المراس يتوقد حماساً إلى الحرب والقتال ولا يجنح للسلم أبداً . . . ثم هو فوق ذلك غضوب ، شره فى تعطشه للدماء ، متقلب الأطوار . . . لأتفه الأسباب ينقض كل ما بناه أو يتراجع تراجع الأحمق لا تراجع الداهية الأريب. وهو فى ملكوته السماوى محدود البصر والبصيرة وهو يمشى بصوت مسموع كالبشر فيختبئ منه آدم خلف الشجرة فلا يراه وهو على بعد خطوات منه ، أو يطلب إلى اليهود أن يميِّزوا بيوتهم حتى لا يهلكهم على غير علم منه فى الوقت الذى قرر فيه أن يضرب على المصريين فى مهاجعهم بالليل . . وكثيراً ما يندم هذا الإله على فعل قام به أو على قرار اتخذه . . . وكثيراً أيضاً ما يكون ندمه بعد فوات الأوان . . . وهو ليس بمعصوم عن الخطأ . . . ويتضح له مؤخراً أن أشنع ماوقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان. ويندم أيضاً على أن اختياره لم يقع إلا على شعب إسرائيل . . هذا الشعب النكد المنحوس الجبان الرخو المتمرد المتآمر الذى لا يقدر مسئوليته وينوء بتحمل تبعات واجباته . . فهذا الشعب إذ قاده موسى إلى الحرية ناءت كواهله عن تحمل مسئولياته

فيطمح إلى العودة لذل العبودية والرق عند المصريين . . ويصل الأمر إلى حد تدبير المؤامرات الخسيسة ضد موسى وأخيه هارون حتى لا يخوضوا غمار الجهد المقدس . من أجل الأرض الموعودة ، وحتى يعودوا إلى مصر حيث الرق والمهانة . . ولكن هناك أيضاً القدور المليئة باللحم والطعام الشهى . . .

ثم إن هذا الإله لا يكترث كثيراً بالمبادئ أو القواعد الأخلاقية فهو يخرقها ويتجاهلها فى سبيل الحصول على مغانم رخيصة ، ويستحث يعقوب على خداع لابان .. وضميره لا يقل مرونة عن ضمير الكاردينال ريشيليو أو أى أسقف آخر يندفع فى تيار السياسة . . . وهو ثرثار كثير الكلام ، ويستطيب إلقاء الخطب الطوال .

وقصارى القول فإنه — كما قال ديورانت فى موسوعته قصة الحضارة — «لم يكن للأمم القديمة إله آدمى فى كل شىء كإله اليهود هذا » . . وهذه الصورة البدائية الفظة للإله قد تجاهل العلماء نسبتها إلى موسى واعتبروها من اختراع الخيال اليهودى وحده . . وسواء أكانت تحريفاً للصورة الحقيقية التى بشر بها موسى أم شيئاً يختلف عنها ، فإنها ليست إلا الصورة الوحيدة التى تواءم الحالة النفسية التى كان عليها اليهود حين خروجهم من مصر . . فإن قسوة الرق التى عانوها خلال قرون طويلة جعلتهم يتوقون إلى نهاية ينعمون فيها بالحرية .. ولن تكون هذه النهاية إلا على يد منقذ يخلصهم من قبضة فرعون القوية الجائرة . . وكانت الظروف التى تسود الموقف برمته توحى باستحالة هذا الخلاص إلا بمعجزة . . وفى نطاق الإطار الدينى الذى كان يحيط الحياة المصرية آنذاك . تصورت العقلية الإسرائيلية شكل المعجزة التى ستحقق لهم الخلاص والحرية . . زعامة دينية تعتمد على قوة إلهية أكبر وأعظم من قوة فرعون وجنوده . .

وإذا كان إخناتون قد بشر بدعوته التوحيدية قبيل الخروج الإسرائيلى فإن عقلية الإسرائيليين لم تكن من النضج الكافى لكى تستسيغ أو تتمثل الصورة النبيلة الراقية التى صورت بها تلك الدعوة الألوهية بكل ما فيها من سمو وعظمة . . ولكنها على كل حال قد أتاحت لليهود أن يتصوروا الألوهية على الصفات التى تحقق لهم رغبتهم المكبوتة فى الخلاص . . ولكنها صفات من نوع خاص . . القدرة والمهارة الحربية

والسياسية . . . أما ماعدا ذلك من صفات الإله الأعظم فلم يكن مما يعنيهم أو مما تستسيغه عقولهم . فمضوا يتصورونه على تلك الصورة البشرية . . . حتى الوحدانية المطلقة كما بشر بها إخناتون فقد أنكروها أو تجاهلوها لأنها لا تستقيم مع أهدافهم، وتصوروا إلههم على أنه لهم حدهم لا يؤلهون غيره ولا يعبده سواهم وبذلك ترتبط مصالح هذا الإله بمصالحهم وتتفق أهدافه مع أهدافهم . . وأثر الإخناتونية فى اليهودية واضح لا ينكر ، حتى أن هنرى برستيد[1] وأرثر ويجال عقدا مقارنة — بين صلاة إخناتون وأحد المزامير اليهودية اتضح منها اتفاق فى المعانى لا يمكن نسبته إلى توارد الخواطر أو المصادفات.

وتقول صلاة أخناتون :

أيها الإله آتون :

أيها الإله الواحد الذى لا شريك له

ما أكثر آلاءك وما أعظمها

إنها خفية علينا ونجهل حصرها

خلقتَ الأرض بمشيئتك . . وغمرت الكون بالإنسان والحيوان : الكبير والصغير .

خلقت سفوح سوريا . . وجبال أثيوبيا . . وبساط مصر ، ووطَّنت كل إنسان فى بلاده .

ملأت الأرض بخيرك الوافر

وأفضت على الإنسان بنعمك .

وقتَّ لكل واحد أيام حياته .

وجعلت اختلافاً فى لغات الناس والوانهم وأخلاقهم وأصواتهم لتميز بين خلقك .

الماشية كلها فرحة بمرعاها

والأشجار والنباتات تزهر وتثمر

والطيور تخرج من أكنانها

ترفرف بأجنحتها راقصة لتتعبد لك

والحياة الجميلة تظلل الجميع

لأنك أشرقت عليهم

أنت خالق النطفة فى الإنسان

ومنها خلقت الجنين فى رحم أمه

ووهبت له الحياة

وجعلت فى الأم حناناً لتلاطف الطفل عندما يولد حتى لا يتكدر أو يبكى وتفتح فمه الواهن بأنملة ثديها الناعمة الدقيقة

وتعلمه الكلام . . ولا تدخر وسعاً فى تحقيق حاجاته

إنك يا إلهى : لقوى وجميل

أنت معطى الحياة للفرخ فى البيضة

وجعلته ينمو فيها حتى يكتمل سَوِىّ الخلقة

---

(١) عن كتاب :

"Tfle Development of Religion and intellict in Ancient Egypt.

ليتمكن بقوته أن يثقب جدارها ويخرج منها
فرحاً سعيداً بنورك .
أيها الإله الذى أوجد نفسه بنفسه
خلقت النيل وأرسلت شعاعك الدفىء
ليغذى الحدائق
أنت خالق الفصول المختلفة
فى الشتاء برودة
وفى الصيف حرارة .
أنت رافع السماء عالية لتناسب مقام
شروقك ، منها ومن علاك تراقب مخلوقاتك
تنتعش الحياة وتنشط
والسفن تسير مع التيار شمالا
وتسخّر الريح لتسير جنوباً
وكل طريق يتفتح للسالك . . لأنك
أشرقت فى السماء
أما السمك فيقفز كالفضة فى ضياء وجهك
حينما تخترق أشعتك مياه البحر الكبير
وحينما تغيب فى الأفق الغربى
يخيم الظلام على الأرض كأنها ماتت
ويخدر الوسن جفون الناس
فتتلاقى أجفانهم ولا يرى الواحد منهم
الآخر ، ويخرج الأسد من العرين .
أما الحيّات فتجد رحاباً تسعى فيه ..
ويعم الظلام وتصمت الأرض . . لأن
خالقها يسير فى أفقه .
ثم تضىء فتزول الظلمة .. ويستيقظ
الناس فيغتسلون ويسعون . . ويرفعون
أكفهم إليك بالضراعة ويمضى سكان
العالم يعملون
أنت فى قلبى وفكرى وكيانى
فَتَأَّحِطْ بالرعاية والنجاة
ابنك أخناتون
واجعله يدرك كنه جمالك . . وقوتك

* * *

وبمثل هذه المعانى جاء المزمور الرابع بعد المائة وفيه : باركى يانفس الرب ...
صنع القمر للمواقيت ، والشمس تعرف مغربها .. جعل ظلمة فيصير ليل . . .
فيه يدب كل حيوان الوعر
الأشبال تزمجر لتخطف . . ولتلتمس من الله طعامها

ويستطرد المزمور قائلا :
تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض .
الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء .
ما أعظم أعمالك يارب .
كلها بحكمة صنعت .. ملآنة الأرض من غناك .. هذا البحر الكبير الواسع الأطراف .
هناك دبابات بلاعدد . . صغار حيوان مع كبار
هناك تجرى السفن — لوناثان

« التمساح » هذا خلقته ليلعب فيه .

* * *

ويقابل هذا الجزء من المزمور — ما جاء فى صلاة أخناتون .

وحينما تغيب فى الأفق الغربى . . يخيم الظلام على الأرض كأنها ماتت ويخدر الوسن جفون الناس فتتلاقى أجفانهم . . ولا يرى الواحد منهم الآخر ويخرج الأسد من العرين . . أما الحيات فتجد رحاباً تسعى فيه .

أيها الإله آتون . . . الواحد الذى لا شريك له

ما أكثر آلاءك وما أعظمها إنها خفية علينا ونجهل حصرها خلقت الأرض بمشيئتك. وعمرت الكون بالإنسان والحيوان الكبير والصغير .

السفن تسير مع التيار شمالاً

وتسخر الريح لتسير جنوباً

وكل طريق يتفتح للسالك لأنك أشرقت فى السماء

أما السمك فيقفز كالفضة فى ضياء وجهك

حينما تخترق أشعتك البحر الكبير ثم تضىء فتزول الظلمة . . ويستيقظ الناس فيغتسلون ويسعون . . ويرفعون أكفهم إليك بالضراعة ويمضى سكان العالم يعملون .

* * *

ولم يكن ويجال وبرستيد وحدهما هما اللذان استرعى نظرهما هذا التوافق العجيب فى بعض المظاهر بين الأخناتونية واليهودية . . . بل إن فرويد قد ألف كتاباً كاملا فى هذه المقارنة هو كتاب موسى والواحدانية Moses and- Mono theism وخلص من بحثه حول هذه المقارنة إلى أن موسى عليه السلام ، وقد تربى فى مصر تحت ظلال الوحدانية ، وولد عقيب المعركة بين الأخناتونية وديانة آمون ، فاستعد للنبوة فى بيئة موحدة . ولم يكن من العسير عليه أن يعلّم بنى إسرائيل كيف يوحدون الله ، ويمجدون صفاته .

وقد كان خروج موسى ببنى إسرائيل من مصر فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد . . أما أخناتون فقد بدأ دعوته عام ١٣٥٤ ق . م . أى فى نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ومات عام ١٣٣٦ ق . م . وعلى هذا التقدير يكون قد عاش بمصر فى الجيل التالى لظهور الأخناتونية واكتمال عقيدة التوحيد ، لدى المصريين .

ويمضى فرويد فى افتراضاته وتقديراته حتى يظن أن موسى عليه السلام كان أحد الكهنة المصريين آمن بالإخناتونية ، ولم يستطع الجهر بها خشية بطش كهنة آمون فبشر بها لدى الإسرائيليين وخرج بهم من مصر إلى حيث البقعة الوحيدة التى يمكن أن تكون مهجراً لأمثال هؤلاء اللاجئين .

وإذا كان عالم يهودى مثل فرويد يذهب فى تقديراته عن اليهودية إلى هذا المدى فإن لغيره من العلماء كل العذر فى أن يرتأوا بأن تفاعل الأحداث نفسها مع اليهود فى أخريات أيامهم بمصر جعلهم يتوصلون إلى هذه العقيدة بشكلها البدائى. ولم يكن هناك من حاجة إلى مبشر بها أو داعية إليها وموسى فى زعم هؤلاء شخصية أسطورية لم يكن لها قط وجود . . ولكن أمثال هذه الافتراضات المتطرفة نتجت من عطل التوراة وعدم صلاحيتها لأن تكون مصدراً تاريخياً يعتمد عليه أو يوثق فيه.

وفى أوائل مايو عام ١٩٣١ عثرت بعثة بريطانية للتنقيب عن الآثار فى فلسطين على قطع من الخزف من بقايا عصر البرونز أى قبل ظهور اليهودية بنحو من ستة عشر قرناً . وقد نقش على قطع الخزف هذه اسم إله كان يعبده الكنعانيون يسمى « ياه أو ياهو» . . والأقرب إلى العقل أنه بعد وفاة موسى عليه السلام . لم يلبث أن ارتد اليهود إلى الوثنية فاختاروا هذا الإله الكنعانى وعبدوه. ويبدو أن هذا الإله كان إلها للرعد يعبده . الكنعانيون خوفاً من بطشه وقسوته فحوله كاتبو الأسفار وكهنة اليهود إلى إله للحرب ليقود الجيوش ويدعو للاستعمار والفتح ، وتمثلته العقلية اليهودية بالصورة التى توائم مزاجها وطبيعتها ، ثم رويداً رويداً نسبه كاتبو الأسفار إلى موسى عليه السلام واستبدلوا بصورة الإله الحقيقى الذى بشر به موسى ودعا لعبادته صورة هذا الدعى المزعوم .. وعلى لسان موسى أثبت مؤلفو التوراة فى وصف هذا الإله: « الرب رجل الحرب» . . ويردد داود نفس هذا القول: « ويعلم يدى القتال » ويهوه هذا الإله الجبار يعد « بأن يزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم ، وأعطيك جميع أعدائك مدبرين » . . وبأن «يطرد الحوبيين والكنعانيين والحيثيين» يطردهم « قليلا قليلا » . . وهو فخور معجب بنفسه كالأبطال الرومان يتقبل الثناء ويشتهيه ويغرق فى التباهى بقوته وجبروته فيعرف المصريون أنى أنا

الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه ».. وحين يأمر بنى إسرائيل بأن يقتلوا كل رجال ونساء وأطفال الكنعانيين الذين يتغلبون عليهم لكى تخلص الأرض لشعبه المختار يبدو وكأنه قد تجاهل كل معانى العدالة والرحمة فقد كانت وصيته الوحيدة التى أمر بها شعبه وهو مرتاح الضمير إبادة الكنعانيين فى الحرب الدائرة هى : « اقتلوا كل ذكر حتى الرضيع وكل امرأة عرفت رجلا . . اقتلوها .. لكن جميع الأطفال وكل النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة رجل ابقوهن لكم حيات » (عدد ٣١ : ١٧ : ١٨)

والذى يطالع فى التوراة وصف المعارك الحربية بين اليهود والكنعانيين تقفز إلى خاطره صور الجرائم الدنيئة التى ارتكبها اليهود فى عدوانهم الأخير ضد العرب ، أمثال مذابح دير ياسين وقبية . . وكأن التاريخ يعيد نفسه . . ولكنهم اليهود كانوا منذ ثلاثين قرناً كما هم اليوم . . وعلى الجملة فلم يكن هذا الإله إلا نسخة ثانية من رئيس عمال فرعون الذى عرفه الإسرائيليون قبل الهرب فظاً قاسياً متباهياً يقبل المدح والثناء ، جباراً لا يقيم وزناً للعدالة ولا ينبض قلبه بالرحمة ، ولما بدأ اليهود يزنون مع بنات مواب قال لموسى « خذ جميع رءوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس » (عدد ٢٥ : ٤) فهو فى غضبه على استعداد لأن يبيد بلا رحمة وبلا عدالة » : « أنا الرب إلهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث من مبغضى » (خروج : ٢ : ٥و٦) . وهو يتوعد اليهود بإهلاكهم عن بكرة أبيهم لأن بعضاً منهم قد عبدوا العجل الذهبى ويضطر موسى إلى أن يراجعه ويتسامحه وأخيراً « ندم الرب على الشر الذى قال « إنه يفعله لشعبه » وكذلك يريد أن يفنى اليهود أصلا وفرعاً لعصيانهم موسى ولكن موسى يستثير حميته وكبرياءه فيعفو أخيراً خشية على سمعته : « وقال الرب لموسى حتى متى يهيننى هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعباً أكبر وأعظم منهم ، فقال موسى للرب فيسمع المصريون الذين أصعدت هذا الشعب من وسطهم ويقولون لسكان هذه الأرض الذين قد سمعوا أنك يارب فى وسط هذا الشعب الذين أنت يارب قد ظهرت لهم عيناً لعين وسحابتك واقفة عليهم ، وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً وبعمود نار ليلا . . فإن قتلت

هذا الشعب كرجل واحد . . تكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين : لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التى حلف لهم قتلهم فى القفر . . . فقال الرب قد صفحت حسب قولك » (عدد ١٤ : ١١/٢٠).

وألفاظ السباب التى يكيلها يهوه الإله لشعبه تعد نموذجاً لفحش القول وأغلظه : « ملعونا تكون فى المدينة وملعونا تكون فى الحقل . . ملعونة تكون سلتك ومعجنك ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك ، نتاج بقرك وإناث غنمك . يرسل عليك الرب اللعن والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك . . يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتعبك حتى تفنيك . يضربك الرب بقرحة مصر والبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء . يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب . تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها ، يُسَلَّم بنوك وبناتك لشعب آخر وعيناك تنظران إليهم طول النهار . : يجعل الرب أيضاً كل مرض وكل ضربة لم تكتب فى سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك » (تثنية ٢٨ : ١٥ / ٦٨) .

ولم يكن يهوه هو الإله الوحيد الذى يعترف اليهود بوجوده أو يعترف هو نفسه بوجوده فقد كان موسى — كما تقول التوراة — يتغنى بنشيده المشهور « من مثلك بين الآلهة يارب» (خروج ١٥ : ١١ ، ١٨ : ١١). أما يهوه الرب نفسه فقد كان كل ما يطلبه فى أولى الوصايا العشر هو أن يكون مقامه فوق سائر الأرباب ويعترف بأنه إله غيور لا يرضى أن يشاركه فى شعب إسرائيل إله آخر ويأمر الإسرائيليين أتباعه أن يهدموا مذابح الآلهة الاخرى وأن يكسروا أصنامهم ومن الواضح أن هذه الوصية الإلهية قد أهملت ردها طويلا من الزمن قبل أشعيا النبى فإن اليهود لم يفتأوا بعد وفاة موسى أن أشركوا يهوه الذى لم يعد إله الأسباط جميعاً . فقد كان للموابيين إلههم شمش ولعكرون إلههم بلزنوب ولعمون الإله ملكوم . فقد كان الانفصال السياسى والاقتصادى بين الأسباط قد أدى إلى عدم الوحدة الدينية . . كما كانت عبادة تموز — هو إله من أصل كلدانى على ما يظهر — قد شاعت بين جميع أسباط اليهود حتى غدت معترفاً

بها من القيادة الدينية الرسمية — مجمع الكهنة — الأمر الذى شكا منه حزقيال حين آلمه أن يسمع البكاء حزنا على تموز من داخل الهيكل (حزقيال ٨ : ١٤).

ومن بين المفاسد اليهودية التى جعلت أرميا يتميز غيظاً ما شاهده فى عهده من تعدد الآلهة اليهودية حتى كان لكل مدينة إلهها . ومن قوله فى خطابه لسكان مملكته يهوذا «على عدد مدنك صارت آلهتك يايهوذا» . وليس فقط بعلا وولك اللذين وضعت أصنامهما داخل الهيكل نفسه (أرميا ٢ : ٢٨ ، ٣٢ / ٣٥) .

ومن الواضح أن الوحدة السياسية التى قامت بين الأسباط فى عهدى داود وسليمان كانت بداية لفترة قصيرة ازدهرت فيها عبادة يهوه كإله أوحد لليهود . . إذ أن الوحدة السياسية وتركز القيادة الدينية والعبادة فى الهيكل العظيم الذى بناه سليمان فى أورشليم قد جعلت النفوذ الدينى لهذا الإله يتسلط من جديد على الشعب برمته . . .

وإلى أكثر من القول بأن هناك إلها واحداً لإسرائيل . مع الاعتراف بوجود آلهة أخرى ولكن لشعوب أخرى — لم يخط اليهود فى طريق التوحيد خطوة واحدة . . وظل هذا الإله «يهوه» بصورته القاسية الكئيبة مهيمنا على نفوس وأفكار أتباعه ويشيع الرعب والخوف فى أوصالهم حتى كان عصر الأنبياء . . أو بالأحرى حتى كان ذلك المؤلف المجهول الذى أكمل سفر أشعيا والذى كان يهدف لا إلى — إعادة مجد يهوه فحسب . . بل كان — وهو يعمل على إعادة شعب إسرائيل إلى حظيرة الدين من جديد — يرمى أيضاً إلى الارتفاع بمستوى هذا الدين ، فنى أسلوب جزل مشرق عمل على طمس الصورة القائمة لهذا الإله ورسم له لوحة بهيجة أسطع ألوانها الحب : «روح السيد الرب على . . لأن الرب منحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب مكسورى القلب . . لانادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق» (أشعيا ٦١ : ١) .

ويرسم أشعيا الثانى هذا صورة للرب قائلا : اطلبوا الرب . . ما دام — يوجد ادعوه وهو قريب ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران (أشعيا ٥٥ : ٦ / ٧) . «هوذا الرب يأتى بقوة وذراعه تحكم له . . كراع يرعى قطيعه ، بذراعه يجمع الحملان ، وفى حضنه يحملها ويقود المرضعات»

(أشعيا ٦٢ : ١٦) . . « فرحاً أفرح بالرب ، تبتهج نفسى يا إلهى ، لأنه قد ألبسنى ثياب الخلاص ، كسانى رداء البر مثل عريس يتزين بعمامته ، ومثل عروس تتزين بحليها . . لأنه كما أن الأرض تخرج نباتها ، وكما أن الجنة تنبت مزروعاتها ، وهكذا السيد الرب ينبت . . برا وتسبيحا أمام كل الإمم) (أشعيا ٦١ : ١٠:١١) .

وفى خلال دعوة الإصلاح هذه يوضع أساس فكرة (الخطيئة والخلاص منها بالفداء) . . تلك الفكرة التى هى أساس المسيحية . . بل تأتى البشائر الأولى للمسيح المنقذ وترتسم له صورة توضح سماته وصفاته التى كان عليها إبان حياته وتبشيره بالدين الجديد .

« ما أجمل على الجبال قدمى المبشر . . المخبر بالسلام ، المبشر بالخير المخبر بالخلاص القائل لصهيون قد ملك إلهك . . هوذا عبدى . يعقل ويتعالى ويرتقى ويتسامى جدا . . كما اندهش منك كثيرون . . كان منظره كذا مفسداً أكثر من الرجل وصورته — أكثر من بنى آدم . . هكذا ينضح أمما . كثيرون . . من أجمه يسد ملوك أفواهم لأنهم قد أبصروا — ما لم يخبروا به وما لم يسمعوه فهموه . . محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ، ومختبر الحزن ومسترعنه وجوهنا . . محتقر فلم نعتد به . . . لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها . ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله — ومذلولا — وهو مجروح لأجل معاصينا . مسحوق لأجل آثامنا . . كلنا كغنم ضللنا . . ملنا كل واحد إلى طريقه والرب وضع عليه إثم جميعنا . . وجعل مع الأسرار قوة ، ومع غنى عند موته على أنه لم يعمل ظلماً ولم يكن فى فمه غش . . أما الرب فسر بأن يسحقه ، بالحزن . أن جعل نفسه ذبيحة إثم . . وعبدى البار بمعرفته يبرر كثيرين وآثامهم هو يحملها لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت — نفسه ، وأحصى مع إثمه وهو حمل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين (أشعيا ٥٢ حتى آخره وبكل آيات الإصحاح ٥٣) .

وابتداء من هذه الدعوة الإصلاحية وردت فى الأسفار إشارات إلى أن اليهود يقتربون من التوحيد الكامل ولكن ليس لأن يهوه هو الإله الواحد الذى لاشريك له . . بل لأن النصر قد بات قريباً وأن الإسرائيليين سيسيطرون على العالم وسيفرضون على جميع الشعوب عبادة

إلههم وعندئذ ستبطل عبادة جميع الآلهة ما عداه . . أما يهوه فسيبقى وحده فى علاه يرعى ويبارك شعبه المختار سادة الدنيا وحكام الشعوب .

أما فكرة البعث فى الآخرة فقد خلت منها الكتب الإسرائيلية إذ لم يكن اليهود يعتقدن بالبعث والحساب الأخروى وإنما الأرض السفلى أو الحب أو شيول هى الهاوية التى تأوى إليها الأجسام بعد الموت والاتجاه الميت « وأن الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد . . أما الثواب والعقاب فليس إلا جزاء عاجلا فى الدنيا مرض أو دمار أو هزيمة أو ذل يبتلى به الله العصاة والمذنبين . وخير وكسب وفلاح متحقق عاجلا للمخلصين الطائعين .

وأول إشارة إلى يوم البعث والدينونة فقد جاءت بصورة غامضة غير واضحة فى سفر دانيال يقول : « إن كثيرين من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدى » « دانيال ١٢ : ٢/٣.

ولم ترد هذه النبوءة إلا فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حوالى عام ١٦٥ ق. م.

وأثناء الأسر فى بابل نبتت فكرة المسيح المنتظر فى العقيدة الإسرائيلية وكانوا يتوقعون ملكا فاتحاً مظفراً ويسمونه ابنا لله . وأطلقوا اسم المسيح على كل من يعاقب أعداءهم ويفتح لهم باب الخلاص من أسرهم ، وتهذبت العقيدة مع الزمن فأصبحوا ينتظرون الخلاص على يد الهداة العاديين بعد أن يئسوا من أن يجئ من بين الغزاة الفاتحين . . وقد عقد أحد كبار فلاسفة العصر وهو العلامة غوستاف لوبون فصلا عن اليهود فى كتابه الجليل « تاريخ الحضارات الأولى » . . خلص فيه إلى : أنه لم يكن لليهود فنون ولا صناعة ولا أى شىء تقوم به حضارة ، ولم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت فى شيد المعارف البشرية وأنهم لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التى ليس لها تاريخ ، وأن قصتهم الكئيبة لم تكن غير قصة لضروب المنكرات وأن تأثيرهم فى تطور الحضارة صفر ولايستحقون بأى وجه أن يعدوا من الأمم المتمدنية . . وأن شريعتهم بأسرها لم تكن إلا وجهاً بسيطاً للنظام الملكوتى (فكيف يمكن للمرء أن يتصور إمكانية صمود العقيدة الإسرائيلية أمام تيارات عاتية من الثقافات — والمبادئ الحضارية التقدمية دون أن تندثر أو تزول .. وهكذا التساؤل نفسه يمكن أن يعبر — كما أسلفنا — عن مشاعر العجب من بقاء

الشخصية الإسرائيلية دون أن تذوب أو تندثر مع زوال وتفكك المجتمع الإسرائيلي وانحلاله برمته . ذلك الشعب الذى ملأته أقلام كتبة التوراة بأوهام عجيبة وحيرت لهجته الفارغة ومشاغباته الدائمة الدولة الرومانية التى كانت آخر دولة احتلت الشرق الأدنى قبيل ميلاد المسيح فعاملت تلك الدولة ذلك الشعب فى مبدأ الأمر بالاحتقار والتجاهل ثم ماعتمت فوضاه المزعجة وضوضاؤه أن استنفذت صبر الدولة العظمى فأبادته وشتتته حتى تستريح منه نهائيًا ولا تعود وتسمع حديثاً عنه .

والواقع أنه لا العقيدة اليهودية ولا أية عوامل أخرى ذات صلة بالتقدم الاجتماعى أو الحضارى . قد قامت بدور إيجابى فى بقاء الديانة والشخصية اليهودية ، وحفظهما من الانحلال والضياع وإنما الفضل كله يرجع إلى التوراة وما كان لكتبتها من خيال خصب أعطى لوقائعها حيوية متجددة لها ما للملاحم الشعبية من تأثير يستهوى نفوس الجماهير ، ويأسرهم . وإذا كان كل سكان العالم اليوم (سوى قلة ضئيلة من الذين حصلوا على قدر وافر من الثقافة) لا يعرفون شيئاً عن البطل هانيبال السقرطاجنى ولا عن مقدرته الفائقة فى فنون الحرب ولا عن فتوحاته فى أوربا وآسيا فإن قلة ضئيلة أيضاً من الجهلاء هى التى تعرف شمشون ذلك البطل الأسطورى الذى كان يصرع — كما تقول التوراة — الألوف بعظمة من فك الحمار ولا يمكن بطبيعة الحال أن نقارن بين بطولة هانيبال الحقيقية وبين الهالة الخرافية التى أحاطت بها التوراة ذلك العبرانى فى قصة مع دليلة وخصومه الفلسطينيين . . وبفضل التوراة ظلت الأجيال وستظل تتغنى بقوة شمشون وأمجاده تماماً كما ظل سندباد ألف ليلة وليلة حيا على الدوام فى خيال الجماهير . وكذلك فإن سواد المثقفين فى هذا العصر لا يحيطون علماً بثقافات وتاريخ الحضارات التى اتبعت فوق أرض الهند والصين ولكن غير المثقفين لا يجهلون حكمة سليمان ولا روعة أمثاله — كذلك لا يجهلون ما فى مزامير داود وأناشيده من سمو المعنى وعذوبة الألحان .

وكان من الممكن أن تعمل يد الزمان عملها فتطوى التوراة فى أطواء النسيان . فتذهب ريحها ويعفو أثرها بعد أن قضى الرومان على شعبها الذى تشتت متشرداً فى انحاء الأرض التى أصبحت

كل أرجائها له منفى وأصبح اليهود فرادى أو فى جماعات صغيرة ينشدون الاستقرار فى أى مكان ولكن هيهات فلا استقرار لأيهم ولا قرار . . ولكنها مع ذلك بقيت والفضل فى ذلك كله يرجع للسيد المسيح فإنه قد ظهر بين بنى إسرائيل يبشر بدعوة السلام والخير لا على أساس أنها دين جديد وإنما على شكل ثورة إصلاحية لتنقية الديانة اليهودية مما علق بها من شوائب وترهات « لا تظنوا أنى جئت لا نقض الناموس أو الأنبياء .. ما جئت لأنقض بل لأكمل » (متى ٦:١٧) . فلم تنقض المسيحية قداسة التوراة أو تقلل من أهميتها باعتبار أنها السجل الجامع لأحكام الدين وشريعته . وهكذا بقيت التوراة .. بل إن انتشار المسيحية ورواج أناجيلها قد ساعد على رواج التوراة وانتشارها أيضاً لأن المحافل الكنسية قد اعتبرت الديانة المسيحية وارثة لليهودية واعترفت بصحة أسفار التوراة وضمتها كتراث مقدس إلى ما اعتبرته صحيحاً من أناجيل المسيحية نفسها . . وأطلقت على المجموعة كلها اسم « الكتاب المقدس » . وفى هذا الإطار الجديد سميت أسفار التوراة باسم « كتب العهد القديم » كما لقبت ، الأناجيل باسم « كتب العهد الجديد » .

وفى الحقيقة لا تعتبر المسيحية ديانة متميزة عن اليهودية إلا من حيث إنها قد أحدثت انقلاباً ثورياً . فأطاحت بكل الأرجاس والمفاسد التى طرأت على اليهودية فلوثتها ونجستها . . ومع أن ظهور السيد المسيح كان بعد سلسلة من الحركات الإصلاحية التى انبعثت على يد بعض الأنبياء والمخلصين من أمثال أرميا وأشعياء ودانيال — إلا أن الفساد كان قد تغلغل إلى جميع قطاعاتها سواء فى عقيدتها أو فى شريعتها وفى سائر أصناف وطبقات المجتمع اليهودى نفسه ومن ثم كان الأمر يتطلب لا دعوة إصلاحية فحسب بل ثورة تطيح بكل الكيان اليهودى وتعيد بناءه من جديد على أسس سليمة لا عيب فيها .. وهذه المهمة الشاقة كان يتطلب تنفيذها مصلحاً فدائياً متفانياً من نوع خاص .. وكان المسيح هو ذلك الفدائى الكفء للاضطلاع بتلك المهمة العظمى . .

زاهر عزب الزغبى

الأزهر جامعًا وجامعة
أو مصر فى ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

(٥)

عمارة عبد الرحمن كتخدا للأزهر :

ذكرنا فى المقال السابق شيئًا من تاريخ حياة عبد الرحمن كتخدا وعصره . ونشاطه فى إنشاء وتجديد المساجد ومشاهد آل البيت فى الأنحاء المختلفة بالقاهرة . وكانت عمارته الكبرى فى الجامع الأزهر فقد أنشأه إنشاءاً آخر سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) .

فقد ضم المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية إلى الجامع الأزهر . بعد أن هدم الطيبرسية وأعاد بناءها . وأنشأ من الجهة الغربية المطلة حاليًّا على ميدان الأزهر — (ونقول الغربية للتخفيف فهى فى الواقع شمالية غربية) — خارج المدرستين بابا آخر هو عبارة عن بابين متجاورين مقوصين من الحجر النحيت بأعلاهما نقوش وزخرفة بديعة .

هذا الباب عُرف بباب المزينين . وهو أهم أبواب الأزهر وأشهرها . ويؤدى إلى طرقة تصل إلى الباب الأصلى للجامع . وعلى يمين الداخل من باب المزينين المدرسة الطيبرسية وعلى يساره الأقبغاوية التى بها مكتبة الجامع الأزهر الآن . وبذلك أصبحت المدرستان داخل الجامع .

وباب المزينين عُرف بهذا الاسم لأنه كان يجلس فى الطرقة بينه وبين الباب الأصلى للجامع المزينون لحلق رأس أو ذقن من يريد من المجاورين . وهناك رأى آخر أن الاسم جاء من الزينة التى توضع على هذا الباب الرئيسى للجامع فى المناسبات . ويستدل أصحاب هذا الرأى بما كتب على الباب من أربعة أبيات من الشعر . والكلمات الأخيرة من البيت الأخير تسجل تاريخ بنائه بحساب

الجُمَّل . وهذه الأبيات هى :

إن للعلم أزهـرا يتسامى
كسماء مـا طاولتها سماء
حيث وافاه ذا البنـاء ولولا
منة الله ما تسامى البنـاء
رب إن الهدى هـداك وآيـا
تك نـور تهدى به من تشاء
مـذ تناهى أرَّخت باب علوم
١٤٦ ٥
وفخار بـه يجـاب الدعاء
٨٨٧ ٧ ١٦ ١٠٦
— ١١٦٧ هـ .

وحساب الجمَّل استعمله القدماء للتوفيق بين الأعداد والحروف . وأساسه حروف الأبجدية الثمانية وعشرون . فقد كوَّنوها فى ثمان كلمات (أبجد — هوز — حطى — كلمن — سعفص — قرشت — ثخذ — ضظغ) . وجلعوا للتسعة حروف الأولى أعداد الآحاد من ١ — ٩ . وجعلوا للتسعة حروف التالية أعداد العشرات من ١٠ — ٩٠ . وجعلوا للتسعة حروف الثالثة أعداد المئات من ١٠٠ — ٩٠٠ . ثم جعلوا للغين وهى آخر الحروف العدد ١٠٠٠ . مع بعض الخلاف بين المشرق والمغرب العربيين فى ترتيب حروف الأبجدية ليس هنا مجال شرحه .

وقد ذكرنا فى مقال سابق (المقال الثالث) أن الأشرف قاتيباى جدد الباب الأصلى للجامع سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٥ م) .

والباب الأصلى للجامع يؤدى إلى صحن الجامع ، وحول الصحن أربعة إيوانات مفصولة عن الصحن ببوائك محملة على أعمدة من رخام ، فالغربى خلف المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية به ١٦ عموداً . والشمالى به ١٢ عموداً . والجنوبى به ١٢ عموداً كذلك ، وقد فصل جزء من هذه الإيوانات بدرابزين من الخشب المخروط ، حيث أنشئت الأروقة المختلفة لإقامة المجاورين بالأزهر . وبكل جانب من داخل الخشب المخروط صفان من الأعمدة الرخامية المزدوجة كحرم أمام أبواب الأروقة .

وأعلى البوائك المحملة على الأعمدة بدائر صحن الجامع توجد نقوش عديدة وتعلو البوائك شرفات غاية فى حسن الذوق والتنسيق .

أما الإيوان الشرقى — وبه المقصورة الأصلية للجامع وهو إيوان القبلة — فمتسع بعرض الصحن وعرض الإيوانين الشمالى والجنوبى ، وبه أربعة أصفف من الأعمدة الرخامية كل صف منها عشرون عموداً ، والصفان على يمين

ويسار الداخل الأعمدة فيهما مزدوجة ، فضلا عن عمودين مواجهين للمحراب فتكون عدد أعمدة المقصورة الأصلية للجامع ٩٠ عموداً .

وصحن الجامع سماوى متسع ، وقد كانت به فسقية من عهد قايتباى ، ثم أذيلت ، وحاولوا زراعة أشجار فيه ولكن لم تفلح ، وكانت أرضيته من الحجر ، ثم أزيلت أرضية الحجر وعملت بدلها أرضية من ترابيع الرخام سنة ١٩٧٠ م

وكان بصحن الجامع مزولة ، فلما جددت الأرضية رفعت المزولة وعُلقت على عمود هو العمود الرابع على يمين الداخل أى بظهر المدرسة الطيبرسية .

هذه المزولة من صنع الوزير أحمد باشا كور الذى كان واليًا على مصر من ١١٦١ – ١١٦٣ هـ ، (١٧٤٨ – ١٧٥٠م) . وكان مولعا بالعلوم الرياضية فاتصل بالشيخ حسن الجبرتى – والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى . وكان علامة وقته بالنسبة للعلوم الفلكية والميقات . وصناعة المزاول والمنحرفات وكانت لازمة للمسلمين لتحديد أوقات الصلاة ، فالساعات لم تكن متداولة فى أيديهم وقتذاك ، فعرف الوزير قدر الشيخ حسن ودرس عليه واستفاد من علمه الكثير .

وقال المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى (واشتغل عليه برسم المزاول والمنحرفات حتى أتقنها ، ورسم على اسمه عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفرا بالأزميل كتابة ورسما . ونصب واحدة من هذه المزاول بالجامع الأزهر ، وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعى ، وأخرى بمشهد السادات الوفائية ، وعمل له تاريخًا منظومًا نقشه عليها والكلمات الأخيرة من البيت الأخير تسجل تاريخ عمل المزولة . والأبيات هى :

مزولـــة متقنة   نظيرها لا يوجد
راسمهـــا حاسبها   هذا الوزير الأمجد
تاريخهـــا أتقنها   وزير مصر أحمد
٥٥٧   ٢٢٣ ٣٣٠ ٥٣
– ١١٦٣ هـ

والمزولة المذكورة بالصحن هى إحدى هذه المزاول ، وتوجد بمكتبة الأزهر بالمدرسة الأقبغاوية مزولة أخرى بنفس الأبيات المذكورة فلعل إحدى المزولتين الأخريين قد نقلت إلى المكتبة .

وقال الجبرتى (ج ١ ص ١٥٨ إن سبب تلقيب أحمد باشا بلقب كور أنه كان بعينه حول . وقال إن مزولة الأزهر كانت لبيان دائر العصر

والغروب . ومزولة جامع الإمام الشافعى لفضل دائر الغروب . والمزولة الوفائية للظهر والعصر .

ويفصل الصحن عن المقصورة الأصلية دارابزين من الخشب بين الدعامات الحجرية وبه ثلاثة أبواب تؤدى إلى المقصورة، وهذه الدارابزينات والأبواب جميعها من عهد الأشرف قايتباى كما هو مكتوب عليها (مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أدام ملكه) .

ومكتوب على الأبواب (جددت هذه الدرابزينات على أصلها فى عهد خديوى مصر عباس حلمى الثانى سنة ١٣١٠ هـ) .

ومحراب المقصورة الأصلية من رخام وبه عمودان صغيران من الرخام ، وأمامهما قبة ، وعلى المحراب نقوش بالخط الكوفى

وقد ذكرنا فى المقال الثانى الطلسم المزعوم وجوده لمنع أى طائر أن يفرخ أو يعشش بالجامع . كذلك الأسطورة بأنه كان بجوار المحراب الأصلى صندوق به قطعة خشب من سفينة نوح عليه السلام وقطعة من جلد بقرة بنى إسرائيل . كما ذكرنا رفض المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب للأسطورتين وإثباته عدم صحتهما .

وأضاف عبد الرحمن كتخدا مقصورة أخرى إلى مقصورة الجامع الأصلية ، والمقصورة الجديدة يفصلها عن المقصورة الأصلية عدة دعائم من الحجر النحيت، وترتفع أرضها عن أرض المقصورة الأصلية بثلاث درجات ، وبها ثلاثة أصفف من الأعمدة الرخامية ، وتنقص فى الطول عن المقصورة الأصلية من جهة يمين الداخل حيث يوجد باب يؤدى إلى ضريح عبد الرحمن كتخدا وإلى باب يؤدى إلى رواق الصعايدة لأنه أعلاه ، ومن جهة اليسار تنقص أيضاً بمقدار المدرسة الجوهرية السابق ذكرها فى المقال الثالث .

وذكر الجبرتى — وسايره على باشا مبارك — أن بالمقصورة المستجدة خمسين عموداً من الرخام . ولكننى لم أحصر غير تسعة وثلاثين عموداً .

والمقصورة المستجدة محرابها من رخام ملون وبها منبر من الخشب الثمين المطعم بالصدف مكتوب على صدره (إن الله وملائكته يصلون على النبى) . وعلى أحد جانبيه (بسم الله الرحمن الرحيم . الله أكبر) وعلى الجانب الآخر (الله أكبر تم فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر) .

وبالمقصورة المستجدة محرابان آخران على يمين المحراب الكبير بالنسبة للمصلى الأول منهما من رخام وبه عمودان صغيران وليست عليه كتابة ، والثانى من مصيص وبه عامودان من رخام وعليه كتابة وكان الشيخ الدردير — وسيأتى ذكره بإذن الله — يصلى فى أحدهما فعرف به .

أما المقصورة الأصلية — ففضلا عن المحراب الكبير السابق ذكره — بها محرابان صغيران على يمين المحراب الأصلى بالنسبة للمتجه للقبلة .

هذه هى المحاريب الحالية بالمقصورتين وقد ذكر على مبارك (ج ٤ ص١٦) أن بالمقصورة المستجدة المحراب الكبير ومحراب الشيخ الدردير فقط ، كما ذكر محاريب أخرى كانت موجودة ، ولعله أزيل بعضها فى العمارة التى عملت بالأزهر سنة ١٢٩٠ ﻫ (١٨٧٣م) فى عهد الخديو إسماعيل .

وتواجه المحراب الكبير ، بالمقصورة المستجدة سندرة التبليغ . ويرقى إليها بسلم خشبى خلف المحراب الأصلى ، والسندرة من خشب وشرفتها من خشب مخروط .

وسقف المقصورتين من خشب مدهون ويعلو سقف المقصورة المستجدة عن الأصلية بما يسمح بعده مناور من خشب وسلك ، وبسقف المقصورة المستجدة أربعة مساقط للنور (شخشيخة) بكل منها عدة مناور من الخشب والزجاج على شكل عربى ، وعلقت بسقف الجامع فى المقصورتين المراوح الكهربائية ، كما ركبت أنوار الفلورسنت فى عروق الخشب التى تصل الأعمدة ببعضها للتثبيت .

وأرض المقصورتين مفروشة بالسجاد الأحمر الفاخر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر .

وكان بالأزهر عدد من الأروقة والرواق بمثابة منزل كامل الاستعداد من غرف ودورة مياه ودواليب وخزائن لحفظ الكتب والأمتعة ، ولكل طائفة رواق خاص بهم، وينفق على الرواق من أوقاف محبوسة عليه ، فضلا عن جراية أى : راتب من الخبز يصرف يومياً ويحدد قدر هذه الجراية الأوقاف المقررة للرواق وعدد المقيدين فيه . ولكل رواق شيخ يدير شؤونه ويباشر أوقافه .

وسنعود لذكر هذه الأروقة بإذن الله ، ولكن نقول هنا إن أشهر هذه

الأروقة كان رواق الصعايدة ، لأنه كان أغناها فى جهة الوقف والجراية ، وكانت مشيخته غالبًا للمدرسين من جهة بنى عدى بالقرب من منفلوط بمحافظة أسيوط .

والنسبة إلى بنى عدى المذكورة عدوى (بفتح العين) ، أما عدوى (بكسر العين) فنسبة إلى العدوة بمحافظة المنيا ، أو العدوة بمحافظة الفيوم أو العـــدوة بمحافظة الشرقية .

ورواق الصعايدة المذكور بناه عبد الرحمن كتخدا من ضمن تجديداته للأزهر ، ولعل هذا بسبب تقديره للشيخ على الصعيدى العدَوى فقد كان من شيوخ الأزهر المعدودين ، وكان محل احترام يهابه الأمراء ، وكان يرى عدم شرب الدخان بحضرة العلماء توقيراً لهم ، فكان الأمراء يمتنعون عن التدخين فى حضرته حتّى إنه زار مرة على بك الكبير وكان يدخن الشبُك ، فبمجرد أن علم بحضوره أمر برفع أدوات التدخين ، والشبك عبارة عن قصبة طويلة للتدخين مثل البيبة الحالية ولكنها تزيد عليها سمكًا وطولاً . وقد يصل طولها إلى سبعين سنتيمتراً أو أكثر ، ويتولى الخدم تغذيتها بالتبغ والنار ، وكان بعضها يرصع بالأحجار الكريمة أوشبه الكريمة ،

وكان الشيخ على الصعيدى مقربًا إلى محمد بك أبى الذهب – خلف على بك الكبير فى السلطة – فلما أنشأ أبو الذهب مدرسته المواجهة للأزهر من الجهة الغربية عينـــه فى التدريس بها ولم يترك تدريسه بالأزهر ، وكان يقضى حوائج الناس عنده ولا يرد لهم طلبًا ، وتوفى سنة ١١٨٩ هـ (١٧٧٥م) عن ٧٧ عامًا ، وقال عنه الجبرتى : (وكان على قدم السلف فى الاشتغال والقناعة وشرف النفس وعـــدم التصنع والتقوى ولا يركب إلا الحمـــار ويواسى أهله وأقاربه ويرســـل إلى فقرائهم ببلده الصلات والأكسية والبز والطرح للنساء والعصائب والمداسات وغـــير ذلك . ثم قال : وصُلى عليه بالأزهر بمشهد عظيم ودفن بالبستان بالقرافة الكبرى . رحمه الله ، ولم يخلف بعده مثله) ا هـ .

وبنى عبد الرحمن كتخدا لرواق الصعايدة بابا عظيمًا للخارج عبارة عن باب مزدوج بشارع التبليطة الحالى الذى كان اسمه الشيخ محمد عبده وذكره على مبارك باسم شارع الأزهر ، وهو الشارع جنوبى الأزهر والبـــاب المذكور هو بآخر مبانى الجامع بهذا الشارع .

وأنشأ عبد الرحمن لنفسه فى داخل الباب ضريحًا دُفن فيه ، وبين باب الصعايدة طرقة . وللضريح باب إلى المقصورة المستجدة بداخل الجامع وفوقه قبة مرتفعة ، وعلى القبة تركيبة من رخام عليها أسماء العشرة المشهود لهم بالجنة ، وهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد ، وعبدالرحمن بن عوف وأبو عبيدة الجراح ، والزبير بن العوام. رضى الله عنهم .

وعلى الجانب الآخر المأثور عن الإمام على بن أبى طالب فى وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام وبيتان من الشعر يسجل الشطر الثانى من البيت الثانى تاريخ وفاة عبد الرحمن كتخدا بحساب الجُمل ، مما يدل على أنها عملت بعد عودته من مكة مريضاً ، وقد شعر بدنو أجله أو كان أوصى بها ، والبيتان هما :

بروض نعيم فاز كهف مكرم
وحاز بفضل الخير جنات رضوان
هنيئًا له فالحور فى الخلد أرخت
لقد فاق فى الفردوس عبدالرحمن

لقد	فاق	فى	الفردوس	عبد	الرحمن
١٣٤	١٨١	٩٠	٣٨١	٧٦	٣٢٨

= ١١٩٠ هـ .

ونلاحظ حذف ألف الوصل فى الرحمن ولو أثبتت لكان تاريخ الوفاة سنة ١١٩١ هـ .

وأنشأ عبد الرحمن من داخل باب الصعايدة مئذنة ، كما أنشأ أخرى عند باب الشُّربة .

وباب الشربة كان بالحائط الشرقى للمقصورة المستجدة على يسار المحراب بالنسبة للمصلى ، وقد سُدَّ الآن ، وسمى بهذا الاسم لقربه من مطبخ الشُّربة الذى كان يطبخ فيه الأرز فى شهر رمضان ويفرق على فقراء الجامع .

وكان الباب المذكور يطل على طريق يفصل الجامع عن منزل السيد عمر مكرم المجاهد الوطنى المعروف والذى أنشأت له ثورة سنة ١٩٥٢ الجامع المعروف باسمه بميدان التحرير تخليداً لذكراه ، وكان محل هذا الجامع مسجد يعرف بمسجد الشيخ العبيط بميدان الاسماعيلية المعروف الآن بميدان التحرير .

وفى صحن باب الصعايدة عند ضريح عبد الرحمن كتخدا كان يجتمع شيوخ الأزهر عند المشورة فى المهمات .

أبواب الجامع الأزهر :

وللجامع الأزهر ستة أبواب منها بابان

مزدوجان أى الباب عبارة عن بابين متجاورين .

فأول هذه الأبواب وأكبرها هو باب المزينين على ميدان الأزهر الحالى وهو باب مزدوج من إنشاء عبد الرحمن كتخدا كما سبق ذكره .

وللمدرسة الطيبرسية باب بالوجهة الغربية للجامع جنوبى باب المزينين ، وهو من إنشاء عباس حلمى الثانى سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) كما هو مكتوب عليه .

وبالوجهة الجنوبية أربعة أبواب ، الأول منها هو باب المغاربة ومكتوب عليه (جددت هذه الأروقة فى عهد عباس حلمى الثانى سنة ١٣٢٣ هـ) ، والثانى مستجد أيضاً مع العمارة المذكورة وثابت عليه تاريخها وعليه يافطة باسم رواق الأفغان . والبابان المذكوران لم يذكرهما على مبارك لأنهما أنشئا بعده (الخطط التوفيقية طبعت من ١٣٠٤ – ١٣٠٦ هـ) والثالث باب الشوام ويظهر أنه من الأبواب الأصلية للجامع . والرابع باب الصعايدة فى آخر الوجهة المذكورة وقد سبق ذكره ، وقد جدد هذا الباب فى عهد الخديوى إسماعيل .

هذه هى الستة أبواب ، ويمكن أن نضيف باباً سابعاً هو باب صغير فى المدرسة الجوهرية ، وكان هناك باب الشُربة وقد سُدَّ .

وفى النية تحويل دورة المياه الموجودة فى الجانب الشمالى فى الجامع إلى الفراغ الموجود شرقى الجامع بينه وبين كليات الجامعة الأزهرية .

منارات الجامع :

وللجامع خمس منارات منها ثلاثة فى الجانب الغربى ، الأولى منارة المدرسة الأقبغاوية على يسار الداخل من باب المزينين ، واثنتان على يمين الداخل إحداهما من إنشاء الأشرف قايتباى ، والأخرى على يمينها خلف المدرسة الطيبرسية وهى من إنشاء الأشرف قانصوه الغورى ، وهى منارة ذات برجين وقد سبق ذكرها .

والمنارة الرابعة عند باب الصعايدة ، والخامسة عند باب الشربة .

وكان التقليد ألا يتولى الآذان إلا العميان لعدم جرح الجيران ، ولكل منارة خلوة ينتظر فيها المؤذن وقت الأذان ولا يؤذنون إلا بناءاً على أمر ميقاتى مخصوص لتحديد الوقت ، وكان ينبنِى على أذان الجامع الأزهر الأذان فى باقى المساجد .

مكتبة الأزهر :

وبالمدرسة الأقبغاوية قبتان تعتبران بما فيهما من هندسة وزخارف ونقوش من تحف العمارة الإسلامية ، وقد جُددت هى والمدرسة الطيبرسية فى عهد عباس حلمى الثانى .

وبالأقبغاوية الآن مكتبة الجامع الأزهر ، وهى مكتبة تعتبر من أغنى المكتبات العامة ، بها الآن من الكتب حوالى ١٥٤٠٠٠ مؤلفًا تصل بأجزائها إلى ما يزيد على الربع مليون كتاب ومن هذا العدد ٢٥٠٠٠ مخطوط بعضها نادر ولا يوجد فى غيرها ولا فى دار الكتب العمومية .

وهذه المكتبة جديرة بمكان أكثر اتساعًا حيث مكانها الحالى مكتظ بالكتب والموظفين ، ولا يجد الباحثون فرصتهم فى الاطلاع فترة طويلة لضيق المكان .

ومن التحف الموجودة بالمكتبة — فضلا عن المزولة السابق ذكرها ، وفضلا عن المخطوطات الثمينة من المصاحف — مرصد فلكى من إهداء المغفور له إسماعيل باشا مصطفى الفلكى سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) ، وقد تبرع كثيرون من الأعيان والعلماء بمكتباتهم الخاصة للمكتبة ، منهم سليمان باشا أباظة ، والشيخ محمد نجيب ، والشيخ محمد الأنبابى ، والشيخ حسونة النواوى ، وغيرهم .

وقد أضيف جزء من المدرسة الطيبرسية للمكتبة ، وللآن لم يتم طبع فهرس المكتبة وإن كانت قد طبعت منه أجزاء . وكان هذا منذ حوالى سنتين ولا أدرى هل تم طبع الفهرست جميعه الآن .

وهذه المكتبة غير ما يوجد من كتب ببعض الأروقة تحت إشراف أمناء يحافظون عليها وفى بعضها مثل رواق المغاربة مخطوطات ثمينة نادرة (قصة الأزهر بحث للأستاذ عاطف مصطفى . كتاب الهلال ص ١٨٠ فى يناير سنة ١٩٧٣) .

أروقة الأزهر :

ذكرنا معنى الرواق ، وأنه كان لكل طائفة من المجاورين رواق خاص بهم ، وقد تضاءل الآن شأن هذه الأروقة بإنشاء مدينة البعوث الإسلامية .

ولكن نمر على أسماء هذه الأروقة للقيمة التاريخية ، ولبيان ما للأزهر من مكانة سامية متصلة بجميع البلاد

الإسلامية فضلا عن نواحى القطر المختلفة بالدلتا والصعيد .

وقد ذكر لنا على مبارك ٢٧ رواقاً (الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٢٢) كما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة المجلد الثالث ص ١٩٦) ٣١ رواقًا ، مع خلاف فى أسماء بعض الأروقة عن صاحب الخطط التوفيقية ، وقد ذكر على مبارك ستة أروقة لم تذكرها دائرة المعارف الإسلامية ، كما ذكرت دائرة المعارف عشرة أروقة لم يذكرها على مبارك وعلى هذا يكون عدد الأروقة ٣٧ رواقًا .

وقد أنشئت هذه الأروقة على دفعات وفى مناسبات مختلفة ، وبيانها كالآتى : ونبدأ من يمين الداخل من باب المزينين خلف المدرسة الطيبرسية ثم بالريح الجنوبى للجامع :

١ — رواق الهنود	بالدور العلوى .
٢ — رواق الوناثية	نسبة إلى ونا من محافظة بنى سويف وهو بأسفل رواق الهنود ، ولعله الذى ذكرته دائرة المعارف الإسلامية باسم الطيبرسية .
٣ — رواق البغدادية	
٤ — رواق الأكراد	
٥ — رواق اليمنية	
٦ — رواق الجبرتية	
٧ — رواق البرنية	وهو من الأروقة التى لم تذكرها دائرة المعارف الإسلامية .
٨ — رواق الأتراك	من إنشاء الأشرف قايتباى وقد رممه عثمان كتخدا .
٩ — رواق النارية	من إنشاء محمد على باشا . ولم تذكره دائرة المعارف الإسلامية .
١٠ — رواق المغاربة	من إنشاء الأشرف قايتباى
١١ — رواق السليمانية	
١٢ — رواق الجاوة	
١٣ — رواق الشوام	من أكبر الأروقة من إنشاء الأشرف قايتباى وقد زاد فيه عثمان كتخدا ثم عبد الرحمن كتخدا .

١٤ — رواق الدكارنة	الغورية — وهو من الأروقة التى لم تذكرها دائرة المعارف الإسلامية .
١٥ — رواق الحرمين	وهو من الأروقة التى لم تذكرها دائرة المعارف الإسلامية .
١٦ — رواق الصعايدة	وقد سبق ذكره وهو آخر الأروقة فى الجنوب الشرقى .

فهذه ستة عشر رواقاً . وعلى يسار الداخل من الباب الغربى الكبير أى خلف الأقبغاوية ، ثم بالريح الشمالى للجامع نجد الأروقة الآتية :

١٧ — رواق البحيرة	أو البحاروة .
١٨ — رواق الفيومية	
١٩ — رواق الأقبغاوية	
٢٠ — رواق الشنوانية	ويسمى أيضاً رواق الريافة ، أى : أهل الريف بالدلتا ، ويسمى أيضا رواق المنايفة أى أهل المنوفية .
٢١ — رواق الحنفية	من إنشاء راتب باشا الكبير ، وكان شرع فيه عباس حلمى الأول لأهل بلدة الشيخ الباجورى شيخ الجامع وقتذاك وأتمه راتب باشا رواقاً للحنفية ، وهو الذى ذكرته دائرة المعارف الإسلامية باسم رواق الباجورى .
٢٢ — رواق الفشنية	ولم تذكره دائرة المعارف الإسلامية .
٢٣ — رواق ابن معمر	
٢٤ — رواق البرابرة	
٢٥ — رواق دكارنة صليح	
٢٦ — رواق الشرقاوية	من إنشاء إبراهيم بك الكبير قبل دخول الفرنسيين لأهل (مديرية) الشرقية التى منها الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وقتذاك .
٢٧ — رواق الحنابلة	من الأروقة التى تذكرها دائرة المعارف الإسلامية .

أما العشرة الأروقة التى ذكرتها دائرة المعارف الإسلامية ولم يذكرها على مبارك فى الخطط التوفيقية فهى الآتى ذكرها .

٢٨ — رواق التجارية
٢٩ — رواق الفلاتة | لأهل أفريقيا الوسطى .
٣٠ — رواق الشيخ ثعيلب
٣١ — رواق الدناشرة
٣٢ — رواق الشبراخيتى
٣٣ — رواق الدمنهورى
٣٤ — رواق البشابشة
٣٥ — رواق دارفور
٣٦ — رواق محمد المغربل
٣٧ — رواق عيسى أفندى

وأكبر هذه الأروقة رواق الصعايدة والشوام والأتراك والمغاربة .

حارات الأزهر :

ذكرها على مبارك فى الخطط التوفيقية ، وعرفها بأنها عبارة عن جهات بها الخزن والدواليب موضوعة فى نهاية المقصورة القديمة وخلافها ، فتجد بعض طوائف المجاورين لهم خزن فى جهات مخصوصة تعرف بهم ويسمونها حارة كذا ، وذكر من هذه الحارات :

حارة البشاشة — حارة السليمانية — حارة الدكة — حارة الممشى — حارة النفراوية — حارة البجيرمية — حارة العفيفى — حارة الزرقانية .

مساحه الأزهر :

ومساحة الجامع الأزهر الحالية ١١٥٠٠ م . تقريباً . أو حوالى ٢¾ فدان .

محمد كمال السيد

باب الفتاوَى

الأستاذ عبد الحميد شاهين

س : يتحرج بعض الناس عن عقد الزواج فى شهر المحرم لكونه حرامًا فيه ، أو يتشاءمون من ذلك ويعتبرونه نذير سوء للحياة الزوجية التى تعقد فيه . . . فما حكم عقد الزواج فى هذا الشهر ؟

ج : أجاب فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت عن مثل هذا السؤال بقوله :

كنت أظن هذا النوع من الابتداع فى « الحرام والحلال » أو من « التشاؤم » بالزمان والمكان قد عفى عليه عصر « الإدراك والثقافة » وضيق عليه دائرة الوجود حتى صار لا يجد له مستقراً إلا فى عقول تعاصت على الوعى العصرى والتنبه الزمنى . وظلت ترسف فى أغلال الجهل والتقليد الخرافى مما صرفها عن الحقائق وحال بينها وبين أقل تفكير فى معنى « الحلال والحرام » فنسبت إلى الدين ما ليس منه ، وتقولت على الله الأقاويل (ولا تقولوا لما تَصِفُ ألسنتكُمُ الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرام لتفتروا على الله الكذبَ ، إن الذين يفترون على الله الكذبَ لا يُفْلِحُون) .

شهر المحرم أحد الأشهر الحرم :

والواقع أن الإسلام لا يعرف لشهر المحرم سوى أنه أحد الشهور الأربعة المحرمة من قديم الرسالات ، والمعروفة باسم « الأشهر الحرم » .

(إن عِدَّةَ الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض . منها أربعةٌ حُرُمٌ . ذلك الدين القيمُ . فلا تظلموا فيهن أنفسكُمْ) ومقتضى هذا ن شهر المحرم شهر لايضيق صدره — على الأقل — بفعل الخير إن لم يتسع له ويعظم التفاؤل به ، وأنه إنما يأبى المعاصى والمظالم أن تقع فيه وأنها فيه أشد نكراً عند الله منه فى غيره .

وليس من شك فى أن الزواج من

أبرز أعمال الخير ، به تعصم النفوس ، وبه تنشأ الأسر . وبه يستمر التناسل ، وبه السكن والمودة والرحمة ، وإذن فالإسلام برىء من هذه الفرية ، وبرىء مما يمكن أن يكون منشئا لها فيه ! ! .

جهل وعصبية :

ولم يبق بعد هذا سوى أن هذه « الفرية » محض ابتداع جره : إما جهل واندفاع به فى تيار فكرة « التشاؤم » العامة التى ينكرها الإسلام أشد الإنكار ، والتى تسلطت بالوهم الفاسد على بعض العقول فيما يختص بالزمان والمكان، والكلمات المسموعة ، والأشياء المرئية ، كما هو معروف عند الناس جميعاً ، وإما عصبية خاصة نبتت فى أحضان (فرقة إسلامية) عرفت بآرائها ومبادئها من أواخر عهد الخلافة الإسلامية الحقة ، وكان ذلك بمناسبة حادث وقع فى شهر المحرم وفى العاشر منه[1] واشتد له أسف المسلمين جميعاً ، ولكن هذه الفرقة أسرفت بعصبيتها . فاتخذت الشهر كله زمن حزن تعلن فيه حدادها ، وتجمع فيه ما تتخيل من مظاهر المأتمية فى مجتمعاتها وما كلها وملابسها وسائر شئونها ، وتحرم فيه كل مظاهر الفرح والزينة والمتعة . .

وفى هذا الجو الملبد بغيوم الفتن التى ألبست ثوب الدين نبتت هذه الفكرة واتسع نطاقها . وتسربت إلى جميع الأرجاء الإسلامية ، التى تولت هذه الفرقة حكمها والسلطان فيها ، وقد كانت مصر من هذه الأرجاء . وكان من آثارها فيها (توارث تحريم عقد الزواج فى شهر المحرم) ولا تزال فكرة (الحزن المحرمى) متأصلة إلى اليوم فى بعض الجهات الإسلامية بصفة عامة شاملة ، كما لا تزال شعائر الحزن تقام كل عام فى تلك الجهات على قدم وساق .

العصبية تعمل على الجانب الآخر :

ومن عجيب العصبية — التى تأخذ بالناس عن الحقائق الواضحة — أنها نشرت أجنحتها فى الجانب الآخر أيضاً ، وابتدعت فى يوم عاشوراء « يوم الحزن عند هؤلاء » مشروعية الفرح والسرور والتجميل والتزين وأدخلت كل ذلك على الناس « بمرويات » عن الرسول عليه السلام وآثار من أصحابه كما صنعت « العصبية » عكس ذلك فى الطرف الآخر ، فكرة بفكرة . وحديث

---

(١) هو مقتل الحسين — رضى الله عنه .

بحديث . وابتداعا بابتداع ، فيالله للمسلمين ! ! !

وبالمنازع العصبية المتعاكسة صار الناظر إلى المسلمين وفى كتبهم يرى ويقرأ أن الإسلام يطلب من المسلمين مظاهر الفرح والحزن فى يوم واحد لشهر واحد . . . وهكذا تفرقوا فى دينهم وكانوا شيعًا : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم فى شىء) والحق أن الفريقين قد انحرف عن الصراط المستقيم . وخاصا فيما يحرم الإسلام الخوض فيه .

وإن واجب المسلمين اليوم ليحتم عليهم — وقد بدت البغضاء لهم جميعًا من أعدائهم المتربصين بهم — أن يطهروا أنفسهم من هذه العصبية التى فرقتهم . وأن يجتمعوا على كلمة سواء بينهم . . . وإلا يفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

التشاؤم :

هذا هو أصل فكرة «تحريم عقد الزواج» وقد ألبست هذه الفكرة عند من لم يعرفوا هذا الأصل ثوب «التشاؤم» والتشاؤم هو الآخر قد أخذ مجالا واسعًا عند الناس بدافع الهوى والدجل . .

وواجب المؤمنين أن يتنبهوا إلى عبث الدجالين بإشاعة فكرة التشاؤم بينهم . هذه الفكرة التى يصير بها الإنسان أسير الوهم فى كلمة يسمعها ، أو يوم يمر عليه ، أو منظر يراه ، وأن يطهروا قلوبهم من هذه الأوهام ، وأن يقدموا على أعمالهم وقضاء مصالحهم فى أوقاتها التى تتطلبها . معتمدين فى ذلك على إيمانهم النقى ، وعلى توفيق الله لهم ، غير عابئين بوهم أو خرافة ، فتسلم حياتهم ، وتستقر شئونهم والله ولى التوفيق والهداية .

س : هل السنة إفراد يوم عاشوراء بالصيام أم ضم غيره إليه ؟

ج : قال ابن القيم فى كتابه «زاد المعاد» بعد أن ذكر الآراء والروايات الواردة فى موضوع عاشوراء وناقشها : فمراتب صومه ثلاثة : أكملها : أن يصام يوم قبله ويوم بعده ، ويلى ذلك : أن يصام التاسع والعاشر وعليه أكثر الأحاديث ، ويلى ذلك إفراد العاشر وحده بالصوم . . .

س : مات الميت وعليه زكاة أموال وكفارات وفدية صوم ، ونحو ذلك من حقوق الله .

فهل لأحد الورثة أن يطلب منهم

حجز مبلغ من التركة لأداء هذه الحقوق التى مات عنها وهى فى زمته؟

ج : يجيب عن هذا الشيخ محمود شلتوت فى فتاواه بقوله : إن أول ما يجب أن يخرج من التركة هو تجهيز الميت تجهيزاً معتدلا ، لا إسراف فيه ولا تقتير ، ثم قضاء ديونه التى هى للعباد . . .

أما الديون الواجبة لله كالزكاة ونحوها ، فإن كان قد أوصى بها لزم الورثة أن يخرجوها ، فإذا ما تبرعوا بها وأخرجوها من حقوقهم فهل تسقط عنه الواجب ؟

يرى بعض الفقهاء أنها لا تسقط عنه الواجب ، لأنه عبادة والعبادة لا بد فى سقوطها من فعل أونية ، ولا فعل ولا نية من الميت ، وفعل الورثة لا يقوم مقام فعله إلا بإذنه . ولم يوجد إذن .

ولكننا نرى أن فى إذن النبى صلى الله عليه وسلم بالحج عن الوالد دون وصية منه ما يجعلنا أقوياء الرجاء فى قبول التبرع من الورثة ، ورفع العقاب به عن الميت وإثابته عليه ، نظراً إلى أن المال من كسبه وسعيه ، والورثة أولاده وأولياؤه ، فهم منه ومالهم من ماله .

والله أعلم

عبد الحميد السيد شاهين

من آداب الرجل فى نفسه

لزوم الجمعة والجماعة ، ونظافة الملبس ، وإدامة السواك ولا يلبس المشهور ، ولا المحقور ، ولا يطيل ثيابه تكبراً ولا يقصرها تمسكنا ، ولا يكثر التلفت فى مشيته ولا ينظر إلى غير حرمته ، ولا يكثر لإخوانه الحديث عن زوجته وما فى بيته .

" كتاب الشهر "

الإسلام دين الجماعة
" للرئيس أحمد سيكوتوري "

عرض وتقديم :

الدكتور عبد الودود شلبي

فى أواخر الخمسينيات من هذا القرن ظهرت زعامات جديدة لشعوب ودول لم نكن نسمع عنها من قبل . . . لقد انتصرت حركات التحرير فى إفريقيا وآسيا ، وانحسرت أمواج الاستعمار الكئيب من كل أرجاء الدنيا . . .

كانت بريطانيا تمثل — فى نظر الغالبية العظمى من الشعب — الرمز الكريه لهذا الاستعمار . . . لم يكن يخطر ببال الكثيرين أن بريطانيا ليست إلا واحدة من عدة دول فى هذا المجال . . . فإذا كان لها (أى لبريطانيا) إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس . . فقد كان كذلك لفرنسا مثل هـــذه الإمبراطورية — وكان للبرتغال مثل هذه الإمبراطورية كما كان لهولندا . . وبلجيكا إمبراطوريتان على امتداد قارتى آسيا وإفريقيا .

وربما يرجع سبب هذا التصور لعداء بريطانيا وكراهيتها أنها كانت الدولة التى احتلت مصر بالقوة ، واجتاحت معظم بلاد العالم الإسلامى بالغدر والخديعة فكانت ... تمثل فى نظرنا — العدو الأول لمصر... والمحتل الغاصب لديار الإسلام والعروبة .

حتى إفريقيا التى تقع بلادنا على بابها الشمالى من جهة الشرق ، وتقف حاجزاً فى وجه كل تيار يحاول اجتياحها من جهة البحر . . . إفريقيا هذه لم تكن فى تصور الكثيرين تتجاوز أسوار «جوبا» و «نيمولى» ، على حدود السودان المشتركة مع أثيوبيا ، وفى أحسن الفروض لم تكن تبعد كثيراً عن «زيلع» و «مصوع» على شاطىء البحر الأحمر .

من كان يسمع عن موريتانيا وهى بلد إسلامى مائة فى المائة ؟ . . .

من كان يسمع عن السنغال والمسلمون فيها أكثر من خمس وتسعين فى المائة ؟ ومالى ... وسيراليون وغينيا بل من كان يسمع عن إمبراطورية غانا الإسلامية والحركة الإصلاحية الكبرى التى قادها الزعيم المصلح «عثمان دنفديو» فى نيجريا ؟

لقد كانت هناك صلات وثيقة بين هذه الأقطار وغيرها من بلاد العالم الإسلامى منذ مئات السنين . . . وفى عهود الاستعمار المظلمة أسدل ستار كثيف على هذه العلاقات ، حتى يسهل على الغزاة ابتلاعها . والقضاء المبرم على عقائدها وشعوبها .

وقد حدث إبان ثورة الجزائر أن الجنود الذين عينوا لحراسة المعتقلين من رجال الثورة كانوا من السنغاليين لم يكن يعرف هؤلاء الحراس شيئاً عن الجزائر . . أكثر من أنها إحدى الولايات الفرنسية . . . وأن شعبها من الفرنسيين المتمردين على السلطة . . وأنهم بالتالى كانوا يدينون للبابا بالولاء والقداسة ، وكانت المفاجأة التى جعلت السلطات الفرنسية تغير سياستها . . . بسرعة . . .

لقد دخل أحد هؤلاء الحراس زنزانة أحد المسجونين فوجده يقرأ القرآن ويقف بين يدى الله خاشعاً فى الصلاة . .

لقد ألقى الجندى سلاحه . . وخرج صائحاً فى وجه أصحابه . . . الجزائريون مسلمون . . . مسلمون . .

• • •

ولقد كان من أبرز زعماء إفريقيا بعد انحسار موج الاستعمار ومده عن هذه القارة : الرئيس أحمد سيكوتورى رئيس جمهورية غينيا . . . وقد ذاع صيت هذا الزعيم المسلم بعد رفضه شروط الجنرال ديجول الذى حاول احتواء المستعمرات الفرنسية بعد — الاستقلال فى إطار ما يسمى بـ « المجموعة الفرنسية » أو رابطة المتكلمين بهذه اللغة نظير مساعدات مالية وثقافية وعلمية تقدمها فرنسا لهذه المستعمرات بعد استقلالها . لقد رأى الزعيم سيكوتورى أن هذه محاولة لدخول فرنسا إلى المستعمرات من النافذة بعد أن طردت من الباب بعد فترة جهاد طويلة . . فرفض كل هذه الإغراءات بقوة وآثر لنفسه وشعبه الحرمان والجوع على التساهل قيد أنملة فى الكرامة الوطنية وقال كلمته المشهورة — :

« إننا نفضل الفقر مع الحرية على الغنى مع الذل والعبودية . . » :

وكان هذا الموقف الأبى من الزعيم المسلم صفعة لفرنسا . . . فبدأت تشن حملاتها الدعائية ضده وتلصق بحركته ودعوته أشنع تهمة ، فكان اتهامه بالشيوعية جزءاً لا يتجزأ من حملة العداء والكراهية . . .

وبعد عامين أو أقل من نشوب ، هذه الحملة الإعلامية قام الرئيس أحمد سيكوتورى بزيارة للولايات المتحدة وكان ذلك — على ما أذكر — فى عهد رئيسها الراحل « دوايت إيزنهاور » .

ففوجئت بزيارة الرئيس الغينى للمركز الإسلامى الثقافى ، ومسجده الكبير

فى واشنطن ، وكان مما أثار دهشة الصحفيين فى هذه الزيارة أن الرئيس سيكوتورى حين خلع حذاءه استعداداً لدخول المسجد ، ظهر جوربه ممزقًا من خلف قدمه ، والتقط الصحفيون صورة هذا الجورب الممزق ثم أذاعوها على العالم بشتى وسائل الإعلام الملفق .

لقد أحسست منذ هذه اللحظة أن الرجل كان صادقا مع نفسه ... وأن موقفه من فرنسا تجسد فى صورة هذا الجورب الممزق من خلف ، قدمه .

* * *

وقد فوجئت منذ أشهر بالأخ الصديق « على رشوان » المستشار الفنى لمطابع دار المعارف يبعث إلىّ كتاباً دهشت من موضوعه ، ومن مؤلفه . كان اسم الكتاب « الإسلام دين الجماعة » . واسم المؤلف : أحمد سيكوتورى وقد ظننت لأول وهلة أن هذا المؤلف غير « سيكوتورى » رئيس الجمهورية فهذه الأسماء المتشابهة نجدها كثيراً فى إفريقيا وبخاصة بين الجماعات الإسلامية التى تتفاءل بأسماء أوليائها وشيوخها إلا أن الصفحة الأخيرة من الغلاف نفت أى احتمال لوجود هذه المشابهة وأكدت بالرسم والكلمة أن المؤلف هو نفسه الرئيس أحمد سيكوتورى رئيس الجمهورية .

وكانت المفاجأة الثانية — بالنسبة لى شخصيًا — أن مترجم الكتاب اسمه : محمد البخارى ... محمد البخارى إننى أذكر صديقًا قديمًا يحمل هذا الاسم . . . لقد كان طالبا معى فى معهد القاهرة فى أوائل الأربعينيات ولا زلت أذكر « الخال » الذى يميز وجهه . . والشارع الذى تعود المشى فيه . . كنت ألتقى به دائماً فى شارع الغورية قادمًا من الأزهر أو ذاهبًا إلى شارع المغربلين . . و « الخيامية » حيث يقيم هناك فى منزل والده العضو الشهير فى الجمعية الشرعية .

لقد اختفى محمد البخارى منذ سنوات طويلة لم أعد أراه فى القاهرة . . أو ألتقى به فى أية مناسبة ... وقد قيل لى منذ سنوات قليلة . . . إنه سافر إلى فرنسا للدراسة . وإنه أصبح عضواً بارزاً فى « الحركة اليسارية الفرنسية » .

لقد أحزننى ذلك كثيراً . . فليس من المعقول أن يكون « البخارى » يساريًا وليس مقبولا أن ينفصل بتقاليده عن والده العضو النشيط العامل فى الجمعية الشرعية .

وسواء أكان هو « البخارى » الذى

عرفته أم « بخارى » آخر يحمل نفس الاسم والصفة . فإن ترجمته لهذا الكتاب تعتبر توبة وعودة أكيدة إلى رحاب « الخيامية » وقيمّ الجمعية الشرعية . .

* * *

وقد سلكت فى عرض هذا الكتاب مسلكًا جديداً يختلف عن أساليب العرض الأخرى . . . فلم أهتم بالشكل والتقسيم ولم أتتبع فصوله وأبوابه كما يفعل الكثيرون . . فالمضمون هو الأهم . من وجهة نظرى . . والأفكار التى أضاء بها ذهن المؤلف هى الغاية دون تقيد بفصول الكتاب وأبوابه . . .

لقد أردت أن تكون الصورة واضحة فى ذهن القارئ بكل ألوانها وتفاصيلها فأخذت من هنا وهناك ما يساعد على تجلية هذه الصورة من كل جوانبها . وهكذا : تدور أفكار سيكوتورى — كما يقول مترجم الكتاب حول نقطة واحدة أو محور واحد هو « جماعية الإسلام » فليس المسلم فرداً . بل عضواً فى جماعة .

وتأخذ فكرة الجماعة هذه مكانها كالركيزة فى فكر سيكوتورى فهو يراها فى فاتحة القرآن الكريم إعلانا من من المسلم بانضمامه لجماعة المسلمين حين يتلو قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » فذلك إعلان جماعى يلغى كل إحساس بالذات فى إطار المجموع ويجدها فى كل عبادات الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ففى جميعها يقترب المسلم من أخيه بجسده وفكره بعواطفه وحسه ، وهكذا يرى سيكوتورى المسلم من خلال الصورة الرائعة التى رسمها نبى الإسلام فى حديثه الكريم « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضًا » وهو ما يجعله يقف هذه الوقفة الصريحة إلى جانب « الجماعة » وإن كان لا يستخدم كلمة الجماعة كثيراً ويفضل استخدام لفظ « الشعب » فالشعب فى نظره أكثر تحديداً ووضوحاً وشيوعًا من كلمة « الجماعة » أو « المجتمع » وإن كانت كل منها تؤدى معنى الأخرى ، لكن المؤلف حريص على الوضوح الحاسم أو الحسم الواضح الذى لا يترك لأدنى غموض أن يتخايل أمام الذهن فهو لا يرى فى الإسلام « فردية » تبيح لفرد تميزاً على آخر ، بل جماعية يظفر فيها كل فرد بنفس الحقوق ويلتزم بنفس الواجبات فهى جماعية كل فرد ، وليست « فردية » بعض الأفراد .

يقول المؤلف — :

منذ تأسس المجلس الإسلامى الوطنى

وتصديه لحمل رسالته الطموحة لدعم مكانة الإسلام ونشر فكره وترسيخ قواعده فى أرجاء غينيا ، وفى أنحاء إفريقيا والعالم كله ، وأنا أتامل العلاقة الوثيقة بين فهم الإسلام والدفاع عنه ، ذلك أن المرء لا يملك أن يدافع حقًّا إلا عن الشيء الذى يحبه ، وما يحب المرء إلا ما يعرفه ، وما يعرف إلا ما أتقن تعلمه ، ولهذا لا يستطيع أحد أن يحب الإسلام حبًّا صادقاً دون أن يعرفه ولا أن يعرفه دون أن يعرف ذاته .

ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يعرف ذاته ؟؟

إننى أتصور أن عليه أن يوجه لنفسه عدداً من الأسئلة التى تضيء أمامه الطريق .

عليه أن يتســاءل عما إذا كان يعرف أسرته والمحيط الاجتماعى الذى يحيا وسطه وطبيعة المنطقة التى يعيش على أرضها والقوانين التى تحكم بلاده والتقاليد التى تشكل ملامحه الخاصة وعناصر الطبيعة الجغرافية من حوله .

— فبالإجابة على هذه الأسئلة يهتدى الإنسان إلى معرفة ذاته التى تتطلب تحديد مكانه فى المجتمع وتعيين موقعه الجغرافى ، أى معرفته من خلال معرفة المحيطين به ومعرفة بلاده ، بل وأحيانًا معرفة سلالته العرقية وعقيدته الدينية ، كما تتطلب معرفة سلوكه النفسى وأوجه نشاطه المختلفة ، فليس فى الكون من ينفرد بالوحدانية سوى الله الذى يعرفه الناس فرداً أحداً لا شريك له . بينما لا يمكن معرفة الإنسان وحيداً منبت الصلة عما عداه . ومن هنا تبدأ معرفة الإسلام .

تتطلب معرفة الإسلام (فى إيجاز) الاعتراف بوحدانية الله الفرد الأحد والتسليم بأن الإنسان كائن مركب من عناصر متغايرة تجعل وجوده على الأرض رحلة قصيرة المدى ، فالإنسان متعدد العناصر المتنوعة بين معلومة ومجهولة . فى حين أن الله تعالى أحد باق منزه عن كل شبه بالمخلوقات .

ويعنى هذا أن الله منزه عن المتناقضات وهو أحد باق لا يوصف بأن له عمراً أو حجمًا أو وزنًا . بينما يجتمع فى الإنسان كل ما يمكن أن يتطرق له الخيال . ففيه من الثرى والماء والشجر ، وفيه تكمن ينابيع الخير والحق والنقاء ، ولكن الشيطان يسكنه أيضًا ، أى أنه يطوى بين حناياه الشر والزيف والدنس فالإنسان يضم المتناقضات ، ولما كان

المجتمع يتشكل من مجموع الأفراد الذين يطوى كل منهم صدره على تناقضه الذاتى فمن المحتوم أن يتضمن المجتمع كل تناقضات أفراده .

وهكذا يبدأ الإنسان معرفة الإسلام بمعرفته بذاته وبشعبه وبالطبيعة المادية حوله وبالتسليم لله بالقدرة على خلق كل ما عرفه ، فيجب لمعرفة الإسلام معرفة الله عبر مظاهر قدرته وخلقه .

– ثم إن معرفة الله تتجسد فى وجدان الإنسان من خلال كل ما يراه من أدق الأشياء صغراً إلى أكبرها حجماً ، ومن خلال كل ما يسمعه ، وكل ما يحس به ، وكل ما يحيط به ومن خلال كل ما يتخيله ، ولما كانت كل هذه الأشياء من إبداع الله فإن على الإنسان لكى يسمع صوت الله أن ينظر إلى أعماقه الدفينة ، وأن يستمع إلى صوته الداخلى ، وأن يتأمل خلق الله ومخلوقاته ويصغى إليها ، فبهذا يدرك الإنسان الله ويستمع إليه ويستشعر وجوده داخل وعيه ، حذراً مع ذلك من أن يجعل لله حجماً أو شكلا أو لوناً محدداً لأن الله تعالى مع تجليه لنا يسمو عنا إذ ليس كمثله شىء . . .

والمعرفة بالله معرفة مطلقة ، فى حين أن المعرفة بالإنسان معرفة نسبية ، فحين ترون الإنسان تعرفونه معرفة جزئية فى حين أن هناك جزئيات لا تملكون معرفتها إذ تستند المعرفة بالإنسان إلى خمسة مصادر ، غير أنها جميعاً فى تغير متصل ، وذلك هو السر فى استحالة معــرفة الإنسان بطريقة مطلقة وبشكل نهائى .

١ – ترتبط المصادر الثلاثة الأولى بالزمن . وهى اللحظات الثلاث التى تحدد الفترات الزمنية الأمس واليوم والغد .

من الممكن أن يكون اليوم غير الأمس ، ويمكن أن يختلف الغد عن اليوم ومع ذلك فإن هذه الدعائم الثلاث : أمس واليوم والغد ، تشكل حقيقة واحدة هى اتصال الزمن ، ولكن فبينما يمثل الزمن للإنسان ثلاث مراحل ، فإنه بالنسبة لله وحدة لا تتجزأ فليس هناك ما يعد بالنسبة له أمس ولا اليوم ولا الغد ، لأن الله خالد وأبدى :

٢ – ويتمثل المصدر الرابع فى الشعب ، ذلك أن إنساناً ما يستطيع أن يقول : « إننى فرنسى أو إنجليزى أو أمريكى ، أو إننى عربى » . كما يستطيع مواطن فى غينيا أن يقول حسب إقليمه « أنا سوسى أو مالنكى أو بلهى »

وهذا يعنى : أن الناس أيضًا يعرفون من خلال المجتمعات التى ينشأون فيها ؛ بل إنكم بعد معرفتكم بسورة « قل هو الله أحد » لا تكادون ترون شجرة أو إنسانًا أو حيوانًا أو حجراً حتى تقتنعوا بأن لكل موجود أمًّا وأبًا وأصلا ينحدر منه . . . سوى الله ، فإنه واحد أحد لقد نبت الإنسان من الشعب ، لكن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . .

٣ – ويتمثل المصدر الخامس ، لمعرفة الإنسان فى الحيز المكانى ، إذ يشغل الإنسان دائمًا جزءاً من الكون لكنه لا يشغل الكون كله أبداً ، وإذا كان الإنسان لا يشغل إلا جزءاً من الأرض ، إلا جزءاً من الكون ، فإن الله يضم وحده الكون كله ويشغله كله ؛ وبينما لا يشغل الإنسان غير مكان بالغ الضآلة ، يوجد الله فى كل مكان . ويحيط بكل شىء علمًا .

– على أن المعرفة الحقة بالإسلام تكشف عن دوره الهائل فى توحيد الجماعة وتثقيفها وهدايتها ، فقد جاء الإسلام ليتيح للإنسان أداء جميع واجباته على الأرض تجاه لله ، وتجاه مجتمعه .

– ويستطيع المرء بسهولة أن يدرك أنه لا يوجد دين للشجر ولا للحيوان ، وأن الدين لم يخلق إلا لأفراد الجنس البشرى . . . وليست حياة النباتات ، والحيوانات إلا جزءاً من حياة الطبيعة خاضعًا لها ، فى حين أن حياة البشر ، وإن كانت تعتمد هى الأخرى على حياة الطبيعة ، إلا أنها تتجاوزها مع ذلك ، فقد غرس الله فى الإنسان ذلك الوجدان الذى يتيح له – رغم احتوائه داخل الكون الطبيعى – أن ينفذ خارج إطاره هذا حتى يرى ذلك الكون الذى يحتويه ، بل ليحتوى بفكره هذا الكون الذى يحتوى جسده .

لقد انفرد الجنس البشرى إذن بوجود دين له . لأن البشر هم الذين كرمهم الله وفضلهم على جميع المخلوقات لأنهم وحدهم الذين يتملكون « الوجدان » الوعى .وها نحن هنا حبيسون داخل هذا البيت ، غير أنه لا شىء حبيساً هنا حقيقة إلا أجسادنا أى كل ما أخذناه من التراب والماء ، من الكون الطبيعى ، أما ما خصنا الله به مما هو أعظم من كل هذا وهو الوعى ، وهو الوجدان ، فهذا ما لا يمكن سجنه .

ولو أننا طلبنا الآن إلى أئمة غينيا

أن يتصور كل منهم مسجده كما كان عليه يوم الجمعة المـــاضى ، أو الجمعة السابقة عليه ، لحظة كان يؤم المسلمين لتراءى لكل منهم على الفور مسجده وهو قائم فى مكانه فى صدر إخوانه المصطفين وراءه يؤدون الصلاة ومع هذا فبينما يحلق بكم فكركم وينقلكم خارج هذه القاعة تظل أجسادكم هنا بين جدرانها . فمن الممكن أن يسجن ، الجسد الذى هو امتداد للأرض بينما لا يمكن أن تسجن الروح التى هى امتداد لله ، إن الروح تسمو على — الزمان والمكان ، أما الجسد فرهينهما معاً ، والروح موصولة بالله فهى مثله أبدية وموجودة فى كل الوجود .

— ونحن نرى بعيوننا كل الأشياء الممكنة الرؤية ، فنحن نرى أنفسنا ونرى الأشياء المحيطة بنا ، وبآذاننا نسمع كل ضجيج ، وبأنوفنا نشم كل رائحة وبأيدينا نستطيع أن نلمس كل ما هو حسى ، وهكذا لا تتصل الأعين والأنوف والأيدى إلا بالطبيعة كما هى فى الواقع المادى المحسوس . بينما نعجز عن أن نرى الله بعيوننا أو نسمعه بآذاننا أو نشمه بأنوفنا أو نحسه بأيدينا . ذلك أن اتصالنا بالله إنمـــا يتم عبر وجداننا وفكرنا .

وإذا كانت حواسنا الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، لا تتيح لنا أن نتصل إلا بما خلقه الله فإنها لا تتيح لنا اتصالا مباشراً بالله نفسه وتبقى هذه هى الرسالة المهمة ، التى يتحملها الوجدان وحده ، لأنه هو الذى يمثل فى نفس الوقت العيون المبصرة والآذان المستمعة والفم المتحدث واللسان المتذوق والأيدى الملامسة ، إن الوجدان هو الذى يصل الإنسان بالله ويربطه بخالقه .

* * *

وعندما يقول امرؤ : « إننى أناصر الدين ، وأعادى السياسة » فإنه يشبه من يقول : « إننى أشهر سيفاً ، وسأقتل أبى وعدوى » فهو يحمل سيفاً ولا يعرف ما يفعل به .

فى حين أن السياسة تقول لك : « حارب بالسيف الاستعمار والإمبريالية واقتل به عدو شعبك ، ودافع به عن الحرية ، واحرس خيرات بلادك ، واحم والدك » .

وإذا كنت مثلا إماماً فى أحد الأقاليم ولاحظت فى مدينتك أن محالا مفتوحة فى عدة أماكن ، لا تبيع السلع والكتب والأدوية والملابس

والأنسجة التى يحتاجها الشعب بل تقدم لروادها المشروبات الكحولية، أو لاحظت دوراً يلتقى بها الرجال والنساء لممارسة أمور تحط من قدر الإنسان ، فإنك لن تكون فى هذه الظروف مسلماً ما لم تفضح هذه ، الأوضاع التى تتعارض مع تقدم الإنسان الاجتماعى ومع الخط الإسلامى وإن تستطيع أن تخطو للمسجد وتقول : « الله أكبر» وتؤم المصلين المؤمنين بينما ترتكب أمام عينيك أعمال يدينها الإسلام دون أن تعلن عليها حرباً علنية صريحة .

إن فضح مثل هذه الآثام والعمل على استئصالها هو الذى يحيلك إلى مسلم حقيقى وذلك الكفاح هو كفاح سياسى . وهو كفاح يتطلبه احترام الإسلام وازدهاره الدائم . يجب إذن العمل بالسياسة الخيرة ، تلك التى تحمى استقلال الوطن — وتحرس العدالة والمساواة والأخلاق والتآزر. وبدون ذلك لا يمكن ضمان عظمة الأمة وليست هذه السياسة إلا تطبيقاً للعقيدة الإسلامية التى تجعل من الفرد جندياً فى مجتمعه لكى يحمى القيم الإنسانية الإيجابية .

ونستطيع أن نوجز ذلك قائلين :

إن الإيمان القلبى يتجلى فى عداء الشيطان وعداء كل ما يمثله ، وفى بقاء الإنسان على النهج الذى حدده رسول الله ، وهو النهج الذى يصل بالإنسان إلى الفردوس وهكذا يجب أن يجد الإيمان القلبى ، فى كل لحظة ، ترجمته فى سلوك الإنسان الإيجابى .

فإذا كان سلوك المرء يعادى كل ما يتناقض مع مبادئ الإسلام فهو إذن على الطريق المستقيم .

يعارض المسلم القوى الإيمان بحسم كل ما هو إثم وشيطانى ، ويناصر فى حسم كل ما يتفق مع الإسلام، أى كل ما هو حق وعدل وخير للشعب.

وفى ركن الإسلام الثانى . وهو الصلاة مكافحة للشيطان . فالصلاة يسبقها الوضوء . فأى سر يختبئ وراء هذا الوضوء ؟

— اغسل قدميك اللتين قادتاك إلى أماكن محرمة مطيعة بذلك الشيطان اغسلهما لتفصل عنهما الشيطان .

— ويداك ؟ لقد مسست بهما أشياء محرمة عليك ، نقلت بهما سلعاً مهربة وكتبت بهما أكاذيب ، وضربت بهما بائساً وضعيفاً وصغيراً ، اغسلهما إذن لتطرد عنهما الشيطان .

ــ وأنفك ؟ لقد تشممت به ما حرم عليك شمه .

ــ وفمك ؟ كذبت به وقصصت حكايات منافية للحقيقة .

ــ وأذنيك ؟ لقد استمعت بهما همس الشيطان . . .

اغسل إذن عينيك وأنفك وفمك وأذنيك ويديك وقدميك لتمحو عنها أثر الشيطان ذلك هو معنى الوضوء . وكل ذلك من أجل إقصاء الشيطان .

وفى الزكاة أيضًا مكافحة للشيطان وقد يهمس لك : « ليس صحيحا أن هناك داراً آخرة . فحين تنتهى حياتنا ينتهى كل شيء » وقد يوسوس لك أيضًا : « لا تعط أحداً شيئاً ، كل وخذ كل شيء لك » غير أنك حين تؤدى الزكاة تقصى الشيطان ، لأنك تحتجز لك مكاناً فى الدار الآخرة أولا ، ثم لأن ما تدفعه للغير واجب عليك أداؤه ، إنه دين الفقراء عليك ، لقد فرض الإسلام الزكاة صفعة على وجه الشيطان .

وفى الصوم كذلك معاداة للشيطان فالشيطان يعلى قدر الجسد المادى ، ويخنق فكر الرجل بالكحوليات ــ والمخدرات والأكاذيب ، حتى يتحكم الجسد فى الإنسان ، وهكذا فحين تصوم رمضان يرقى الوجدان ، وتعلو الإرادة والفكر فوق الجسد ، لقد فرض الإسلام الصوم الإلحاق الهزيمة بالشيطان .

وفى الحج كذلك لطمة للشيطان الذى يتمتم لك : « أنك المسلم الوحيد ، فقد انهار الإسلام ولم يعد هناك مسلمون » وحين تسافر إلى مكة تلحظ أن كل بلاد العالم قد أرسلت وفوداً منها . على عكس ما أكده لك الشيطان ، وتفهم ساعتها أن الشيطان قد كذب عليك ، إنك ترى فى مكة ملايين الأفراد جاءوا من كل بلاد العالم لأداء فريضة الحج وهو ما يعطيك فكرة عن المدى الفسيح الذى بلغه الدين داخل المجتمع الإنسانى وسيريحك هذا ويحفزك ، ثم تتبادل مع غيرك المعارف والمعلومات فيزيد كل هذا من صلابة عزمك على محاربة الشيطان .

على أن كل هذا يتجسد فى هذا الحصى الذى يقذف به كل حاج ، الشيطان فى « منى » رمز رفض وإدانة ، وهكذا فرض الحج عداء للشيطان أيضًا .

إن لقواعد الإسلام الخمس نصيبها فى مكافحة الشيطان ، ولو نسى المرء نصيب قاعدة فى مكافحة الشيطان لما كان مسلمًا مكتمل الإسلام .

فلتتذكروا أن الشيطان قد خطر على كل ملليمتر مربع من سطح الكرة الأرضية وأنه يعرف العالم أفضل منا ، لقد شهد خلق آدم وتبعه وأدرك مستوى من المعرفة لا يملك أحد منا أن يبلغه .

إن إسلام المرء يتطلب أن يبحث فى كل مكان ليتعرف على ملامح الشيطان ليفلت منه وليعاديه فى كل زمان ومكان .

* * *

وكم قلنا وأعدنا القول بأنه « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » وهو وحده الذى تفرد بصفاته على جميع مخلوقاته ، فهو وحده الذى لايمكن وصفه بأنه أبيض أو أسود بأنه قصير أو طويل ، بأنه شاب أو شيخ ، وهذا يتيح لكم أن تعرفوا أن بين مخلوقات الله من تستطيعون رؤيته بعيونكم ، وكذلك من لا تستطيعون رؤيته بها ، وهذا يعنى أيضًا أن جميع المخلوقات تولد وتنمو وتموت والله وحده هو الباقى وهذا يعنى كذلك أن هذا المخلوق الذى ولد منذ قليل ، وما يزال صغيراً، يمكن أن يكبر ويشيخ ويندثر . أى أن هناك تغيرات وتقلبات فى حياة كل موجود سوى الله .

لنفكر فى الإنسان جنينًا فى الرحم . إنه ينبثق من جزىء لا تستطيع العين رؤيته حتى لو وضعتم ألفًا منه معًا لما استطاعت العين المجردة أن تلمحها لشدة ضآلتها إن هذا الجزىء الدقيق هو أصل الإنسان ، فنى اللحظة التى يبدأ فيها هذا الجزىء الحياة بعد سبعة أسابيع يكون نطفة « خنثى » أى تجمع خصائص الذكورة والأنوثة معًا ، فإذا كان اليوم الخمسين من نمو الجنين أخذ أحد الجنسين يتغلب على الآخر فى النطفة ، وقد تستطيع خصائص الذكورة التغلب على خصائص الأنوثة وعندئذ يكون المولود صبيًّا . ونستطيع أن نتصور الوضع العكسى وعندئذ يكون المولود فتاة ، ولهذا فحينما ترون رجلا فهناك المرأة داخله . وحينما ترون امرأة فهناك الرجل فى أعماقها . وهكذا خلق الله الإنسان مسكنًا للمتناقضات .

نحن أولا نأكل لحوم الحيوانات ونشرب ألبانها ؟ ونتناول الأعشاب والثمار والجذور ؟ ومع ذلك فإن الحيوانات تأكلنا ، تأكل لحومنا كما تأكل الثمار والجذور وأوراق الشجر ، وحينما نموت ونوارى التراب تأكلنا الأشجار ، أما الشىء الذى لا يستطيع الحيوان ولا النبات أن يأكله منا .

فهو روح الإنسان وفكره .

وهذا يعنى أن بيننا وبين الحيوان والشجر قرابة جزئية . والإنسان الحقيقى أى المختلف عن الحيوان والنبات ، هو الذى يطور فكره ويثقف نفسه ويربى وجدانه فذلك هو ما يميزه عن كل ما عداه من المخلوقات ، ويسمو به عنها جميعًا .

ولما كانت النطفة التى يبدأ منها خلق الإنسان دقيقة إلى حد لا تستطيع معه العين رؤيتها فإن فكر الإنسان هو الذى يتيح له السيطرة على الطبيعة ونسف الجبال وعبور البحار والصعود فى الآفاق والوصول إلى القمر ، وفكر الإنسان هو أساس تفوقه وكل سمو يبديه على الجمادات والنباتات والحيوانات

ولهذا يفرض الإسلام على كل مسلم تحصيل العلم وتعميق المعرفة والتربية ، الصالحة ونشر التعليم على نطاق المجتمع كله .

يظل الإنسان دائمًا تلميذاً فى مجال البحث عن المعارف ، فهو تلميذ أبيه وأستاذه وجميع الذين يكبرونه سنًا ، بل إنه كذلك تلميذ ابنه وحفيده وجميع الذين يصغرونه سنًا ، ممن هم أكثر شبابًا منه .

لنفترض أن (قلما) مايجسد الحقيقة ، فلو أننا سحقناه إلى ملايين الجزئيات ثم نثرنا هذه الجزئيات كالغبار المتساقط فى كل مكان ، فلسوف يكتشف كل واحد أحد جزئياته ، قد يعثر ابنك على جزء وخادمك على ثان ، بل لقد يجد عدوك أيضًا جزيئا كما قد يجد والدك وتجد أنت أيضًا ، ففى كل مكان حيث توجد الحقيقة فلتتعلمها حتى لو كان ابنك هو حاملها ، وقدره كأستاذك من أجل معرفة الحقيقة . ولو كان خصمك أو عدوك الذى تريد قتله هو المحق فسلم بأنه على صواب ، فإنك لا تقدره هو حينئذ ، بل تقدر الله من خلال الحق .

إن الإنسان لا يخترع الحقيقة ولا العلم ، بل يكتشفها ، فالقوانين العلمية قائمة منتشرة ، كما بذرت الحقيقة على سطح الكرة الأرضية . وعلى كل رجل وامرأة وعلى كل شعب أن يبحث عن الحقيقة وأن يكتشف العلم ، فإذا اكتشفتم العلم فسيطروا عليه لتحققوا بواسطته سعادة البشر ، ذلك أن الحقيقة هى الله فاسمه الحق ، والحقيقة لا تخص إنسانًا واحداً حتى قائلها أو مكتشفها .

وطالما أن العلم والحقيقة منتشران

عبر العالم كله فإن من واجبنا أن نبحث عنهما دائبين ، وأن نكتشفهما ونتملكهما ونستزيد منهما ، إنه ليستحيل على إنسان فرد أن يشغل الأرض كلها ، وأن يرى جميع البذور المغروسة فى كل مكان غير أنه يوجد أناس فى كل مكان . فيجب إذن أن يتبادل البشر عبر حدود الأوطان والقارات المعارف بمجرد اكتشافهم لها ، والديموقراطية هى هذا التواصل وهذه — المسئولية التى يتحملها البشر ، الذين يشغلون حيزاً مكانيًّا واحداً ، سواء كان ذلك حيًّا أو قرية أو إقليماً أو وطنًا ، فعلى الرجال أن يقيموا فيما بينهم وسائل اتصال ليتبادلوا المعارف ، وليتدارسوا معًا المشاكل التى يواجهونها ، من أجل الوصول إلى اتفاق على أفضل الحلول .

لنفترض أن لدى رجل من الثمار والأطعمة ما يزيد على حاجته للغذاء ، وأن حوله بعض الجوعى فإن رفض إعطاءهم بعض الأطعمة لكانت تلك جريمة ، غير أن هذه الجريمة أقل خطراً من تلك التى يرتكبها إنسان متعلم يعرف الحقيقة ويرفض نقلها للآخرين ويضن بمعارفه عليهم . إن رفض نقل الحقيقة ، والضن بالعلم على الآخرين بشكل جريمة أكبر من رفض مد الجوعى بالغذاء ، إن من يملك الإمكانات ويرفض أن يغيث فقيراً فإنما يحرم نفسه هو ، لأن الغوث الذى سيقدمه للفقير هو الذى كان الله سيرده إليه غداً وهكذا لم يقف الإنسان الذى رفض تقديم العون إلى المحتاج عند حد حرمان هذا الفقير بل تعداه إلى حرمان نفسه لأنه لم يعن بإعداد مستقبله فى الدار الآخرة إن إثمه كبير لكنه أقل جرمًا من ذلك الذى يغتصب أرث اليتامى ويحرمهم بذلك من حقوقهم المشروعة فى أموالهم الخاصة . إن تجريد اليتامى من إرثهم جريمة تعادل جريمة الذى يعرف الحقيقة ويرفض إيصالها للآخرين ، أو ذلك الإنسان الذى تلقى العلم ويضن به على غيره ، ذلك أن الحقيقة لم تخلق لهذا الفرد ، ثم إنه ليس هو الذى خلق العلوم والمعارف وإنما نقلت إليه ، والأولى أن تكون ملكًا للبشرية جمعاء فهى الميراث المشترك بين جميع البشر ، وليس رفض نقل المعرفة والحقيقة للغير إلا مصادرة ميراث أسرة وترك أفرادها اليتامى بين أيدى الفاقة والبؤس .

لو أنك تملك خزانة مليئة بالفضة

أو الذهب أو صندوقاً مليئاً بالأقمشة أو صومعة مفعمة بالغلال ثم أخذت تغترف منها وتعطى ، فهى تتناقص وزناً كلما أخذت منها قدراً كما تقل قيمتها بقدر الكم المنقوص ، فى حين أنك كلما نقلت الحقيقة إلى الغير كلما ازددت ثراء وكلما أثريت ذلك الذى تلقاها ، وكلما نشرت العلم كلما ازددت ثراء وكلما أثريت الذى ، تلقى العلم . ذلك هو السر فى أن رفض نقل العلم والمعرفة هو عمل موجه ضد الذات أولا ثم ضد البشرية بعد ذلك ، فهو إذن جريمة مزدوجة ، يستطيع المرء أن يقول : « لست أرغب فى إعطاء نقودى للغير فقد أحتاجها غداً ، ولو أننى اقتطعت من مالى جزءاً لقل رصيدى منه » بينما لا يستطيع المرء أن يقول ذلك عن العلم والمعرفة ، من أجل ذلك فنحن نكرر أن نقلهما للغير إثراء للنفس وللغير والأنانية فى مجال العلم جريمة مزدوجة .

والإسلام دين يحث بشكل جوهرى على العدل بين أفراد الأسرة الواحدة ، وبين مواطنى بلد واحد وبين شعوب العالم .

والإسلام كذلك هو الدين الذى ينادى بالمساواة بين جميع أفراد البشر دون تمييز بسبب اللون أو القومية أو السن أو النوع ، إنه يعلن هذه المساواة ويفرض تطبيقها الفعلى واحترامها الدائم .

فلا الثراء إذن ولا الميلاد ولا اللون ولا الجنس ولا قدر الثقافة يمكن أن تكون مصدر تفضيل لبعض الأشخاص على بعض . ثم إنه يجب تسخير الثروة والعلم من أجل الارتقاء الدائم بمستوى الشعب .

وقد عبر النبى محمد عن هذه ، الحقيقة القرآنية قائلا : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى » أى إن الفارق الذى يمكن أن يقوم بين الأفراد لا ينبع من ألوان جلودهم أو من أصولهم العرقية بل من قوة إيمانهم التى تتجلى فى مسلكهم وفى نفعهم الاجتماعى .

يُشبِّه النبى محمد المساواة القائمة بين الناس بالمساواة القائمة بين أسنان المشط ونحن نعلم أنه توجد أسنان أكثر ضخامة وأخرى أكثر دقة وقد يطول بعضها ويقصر البعض الآخر ، لكنها جميعاً متساوية بسبب مهمتها المشتركة التى لا ترى ، ونحن نعلم أن هناك أناساً

أكثر اكتنازاً وآخرين أكثر نحافة ، وأن بعضهم رؤساء وبعضهم وزراء ومنهم أئمة ومنهم مزارعون ، وهنالك مساكين يستجدون العطاء على أبواب المساجد ، غير أن هؤلاء متساوون أمام الله ، لا شيء يفرق أحدهم عن الآخر إلا مقدار تطابق سلوكه طوال عمره مع وصايا القرآن الكريم .

من أجل هذا يلتزم النظام الثورى بمحاربة سيادة المال فى كل مكان ، ومكافحة القبلية والظلم لفرض احترام الروح الإسلامى .

ومن أجل هذا ينبغى التزام المسلمين أيضًا بمحاربة سيادة المال والظلم والكسل والسرقة والقبلية .

لقد دخل رسول الله فى سبيل ذلك معركة ضارية مع قبيلة « قريش » التى ينتسب إليها حين أدان الوثنية والظلم والتجارة غير المشروعة والقبلية وقد كانت قريش تدعى لنفسها التفوق على قبائل مكة الأخرى .

والنهج الإسلامى هو نهج حقيقة ومساواة اجتماعية وعدالة اقتصادية واجتماعية هو نهج يؤازر التقدم الاجتماعى .

إن العدالة فضيلة عسيرة الممارسة ، لأن الناس غالبًا ما يتخاذلون أمام مطالبها وأحيانًا يخشى المرء أن يقول الحقيقة أمام أبيه أو زوجته التى يحبها أو صهره أو أمام رئيسه فى العمل أو أمام رجل من الأثرياء . بينما يطالب الإسلام المرء بأن يقول الحقيقة دون رهبة وفى كل مكان يلتقى فيه الإنسان بأخيه الإنسان .

يحدث كثيراً فى بلاد مختلفة أن يلقى عديد من الأبرياء فى السجون ، بينما يظل المجرمون الحقيقيون مطلقى السراح ، بل إنهم يظفرون بحماية أولئك الذين يقيمون « العدالة » المزعومة ولو أن رجلا أشعل النار ظلمًا فى كوخ رجل آخر لارتكب بذلك جريمة . أما لو عرفت هذه الحقيقة وكنت قاضيًا مكلفًا بإصدار الحكم فأدنت بريئًا وأطلقت سراح المذنب لكان ذلك عدوانًا منك أولا على أوامر الله لأنك بذلك تكون قد عصيته ، كما تكون قد اعتديت على هذا البرىء مرتكبًا بذلك جريمتين . . . إحداهما لا تغتفر .

لقد تحدث النبى محمد إلى أحد صحابته الذى جاء يشفع عنده لمن سرق قائلا : « أتشفع فى حد من حدود

الله ؟ والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

يطالب الإسلام الإنسان بأن يتخذ عملا إيجابيـًا وأن يسلك سلوكـًا أمينـًا وأن يحافظ على كرامته ، وقد كان النبى يقول لابنته فاطمة ولعمه العباس إنهما يستطيعان أن يأخذا من ماله ما يشاءان ، لكنه لا يملك لهما من الله شيئـًا إن ارتكبا إثماً .. فعلى كل إنسان أن يؤدى واجباته تجاه مجتمعه وتجاه ربه ، وإذا كان النبى لن يدافع عن ابنته ولا عن عمه يوم القيامة ، فإن أحداً منا لا يملك أن يدافع عن غيره ولا غيرنا يملك أن يدافع عنا ، يجب أن يحمل كل فرد مسئوليته بوصفه إنسانـًا واعيـًا ومؤمناً مخلصاً وهو يعمل وأن يقدس القواعد الإسلامية التى تفرض على المسلم أن يعيش حياة كدح وأمانة وورع ونفع للجماعة .

علينا أن نعترف بفضل هؤلاء الرواد الكبار فى الإسلام الذين أحيوا موات أرض إفريقيا وغينيا ، ووضعوا شعبنا على طريق الدين الإسلامى ، ومن واجبنا أن نحتفظ بذكراهم دائمـًا وأن نظل معترفين لهم بالفضل ، وأن نواصل نفس المعركة التى قادوها ، لتحرير ذواتنا ، وتسخير الطبيعة لنا حتى ننجح فى كبح جماح الشيطان الذى يمثل النقيض لكل ما جاء به النبى .

وهكذا يجب أن نعرف أننا نواصل العمل الكبير الذى بدأه أسلافنا العظماء من أمثال الحاج عمر طال . والإمام سامورى، تورى ، وأنسافاديجا ، ولا نسينى دومبويا ، وأبو بكر بير وبارى، ومحمد ساميا مومبيا ، وأبو بهاء ندیان ، وموری کابا، وسیکوفاتنا مادى شريف وشريف ساجال، وأبو بكر كوريلاندى . ودیابی ، والفامو الكلابى، وقاسم دياللو .

وإذا كنا قد استبحنا لأنفسنا الحق فى تقديم صورة عامة موجزة لملامح الإسلام فإننا نعلن أن من رأى فى بحثنا خطأ أو خلطـًا أو كذبـًا . فإن من واجبه أن يصحح الخطأ والخلط ، وأن يفضح الكذب ويندد به ، لأنه بذلك يحترم تعاليم الله ، ويدافع عن الإسلام ، ويقدم لنا ، فى نفس الوقت خدمة كبرى ، لأن الإسلام هو دين الحق..

* * *

ونحن نعرف أن حياة الإنسان تمر بمراحل ثلاث ترمز إليها مراحل الزمن الأمس واليوم والغد .

— يتميز الطور الأول من حياة

الإنسان بعجزه التـــام ، فهو أولا لا يختار قريته ولا وطنه، وهو لا يستطيع يوم مولده أن يوفر لنفسه الغذاء ولا الكساء ولا المسكن فهو فى حاجة ماسة إلى عون الآخرين وتلك هى مرحلة عجز الإنسان وجهله .

– يتميز الطور الثانى من حياة الإنسان بقدرته التى اكتسبها بفضل المجتمع طوال الفترة السابقة حين حظى برعاية المجتمع وحمايته له وبتربيته وتعليمه ، ومن هنا كان عليه فى هذه الفترة أن يرد للمجتمع ما استدانه منه وما ظفر به من فضل ، ويتمثل هذا فى العمل الذى يجعله عادلا ونافعاً لنفسه ولغيره .

يبدأ شعار دولة غينيا بكلمة « العمل » لأن العمل هو الذى يتيح للإنسان أن يفى بديونه ، كما أن العمل هو الذى يقيم العدالة الاجتماعية ، ثم إن الإنسان يعرف جيداً أنه إنما يشبع حاجاته الخاصة ويسدد ديونه الاجتماعية من نتاج عمله وأنه بدون العمل لا يستطيع ممارسة العدالة الاجتماعية التى تتطلب بدورها ممارسة التضامن الاجتماعى . ذلك أن على الإنسان بالإضافة إلى أداء ديونه للآخرين – أن يعطى المحتاجين ما يمثل تضامنه معهم حتى يكون نافعاً لمجتمعه عن طريق مساهمته بنصيب فى الممتلكات الجماعية .

يدين كل فرد للمجتمع بالكثير فى حين أنه لا يقدم للمجتمع إلا القليل والإنسان فى حاجة إلى من هو أكبر منه كثيراً ، كما أنه فى حاجة لمن هو أصغر منه كثيراً ، فليس هناك إنسان كامل تماماً ، ولذلك فليس هناك إنسان يستطيع أن يعيش بمفرده خارج إطار المجتمع وفى غنى تام عنه .

إن العمل وحده هو الذى يجسد العدالة التى تصطحب التضامن فى العلاقات الاجتماعية ، ولا يمكن لفرد لا يمارس العمل والعدالة أن يكون متضامناً مع غيره من الأفراد ويشاركهم أفراحهم وآلامهم .

وإذا كان الأمس واليوم هما طورا الزمن الأول والثانى ، والغد هو طوره الثالث ، فإن الإعداد للغد إنما يتم اليوم ولهذا فيجب ألا يقتصر هدف العمل على أداء ديون الأمس ، بل أن يمتد لضمان رفاهية الإنسان فى الغد ، وإرساء مستقبل سعيد للشعب بأسره ، وأن العمل الواعى الذى نقوم به اليوم هو مساهمتنا فى القيام بواجباتنا الاجتماعية وعن طريقه نجسد تضامننا مع أجيال الغد .

من اليسير إذن أن نتبين أن اختيار

شعار الأمة : « العمل والعدالة والتضامن « هو اختيار » للوفاء بالديون عن طريق عمل كل فرد فى إطار الأمة » ولهذا يجب أن نتعلم احترام الشعب فى كل لحظة ، والحياة فى إطاره مع بذل كل طاقات النفع الاجتماعى ، التى يمثل تزايدها المتصل مطابقاً من مطالب الوجدان الحى ، وممارسة للحقيقة — التاريخية والمنطق الاجتماعى .

إن عظمة الإنسان لا تنبع من فخامة الدار التى يسكنها ولا من جمال الثياب التى يرتديها أو كثرة عددها ، ولا من مستوى قيافته ، ولا من جماله الجسدى إنما تقاس عظمة الإنسان بمدى ما يقدمه للمجتمع من نفع وفعالية وتأثير .

العمل إذن هو الذى يرسى أساس عظمة الإنسان سواء كان عملا فكرياً أو حسياً أو عضلياً ، ما دام عملا يستهدف سعادة المجتمع ، فى حين أننا كثيراً ما يتميز أحدنا عن الآخر بصفات جسدية ، فنقول أحياناً إنه جميل الوجه أو أنيق الثياب أو غزير المعرفة أو واسع الثراء ، والواقع أنه لامعنى لكل هذا إذا لم يكن المرء يقدم للمجتمع عملا إيجابياً ، فاللص الثرى والكذاب الذكى وقاطع الطريق المثقف الخبير بالوسائل التكنيكية المتقدمة يمكنهم الإضرار بالمجتمع أكثر مما يستطيعه اللصوص والكذابون وقطاع الطرق المحسورون الذين لا يتمتعون بالمعارف الفنية والتكنيكية والدراسات المتخصصة .

من أجل ذلك يدعونا الفكر إلى أن نحكم على الأفراد لا من أقوالهم بل من أفعالهم ، دون أن نغفل الأهمية الكبرى للتكوين العقائدى للإنسان ولسيطرة فكره على سلوكه الاجتماعى ، طالما أن كيفية تفسير الأفراد للحياة الإنسانية هى التى تقسمهم إلى فئات اجتماعية مختلفة .

ومن أجل هذا فإن من واجبنا أن نقدم الرعاية المادية والمعنوية للمعدمين والمعوقين ، والعجزة البائسين ، بل أن ندرس ظروف حياة هؤلاء المساكين فى كل قرية وكل حى ، وأن نضع الحلول لمشاكل وجودهم حتى نجسد تضامننا فى عمل إيجابى على نحو ما يريده فكر الثورة .

إن علينا أن نفعل كل شىء من أجل أن يعرف الإخوة البؤساء السعادة إن أحداً لا يعرف الشكل الذى يمكن أن تختم به حياته ، ومن يرد نهاية سعيدة لحياته ، ليقدم عونه لمن تعصف بهم المآسى . على أننا من جانبنا نفضل

صداقة المساكين على صداقة الأثرياء، كما أننا نقدم للشباب صداقتنا ونضع فيهم ثقتنا بأكثر مما نفعل مع آبائهم وأجدادهم .

حين يختار الإنسان المجتمع ، فإنه يختار أولا الشباب والمساكين . وإذا أراد المرء إسعاد مجتمعه فعليه أن يغيث من بين أفراده من كانوا يعانون البؤس والحرمان .

يجب أن تقيم كل قرية أو كل سلطة محلية « مدينة تضامن » لإيواء عجزتها وأن تخصص « مزرعة تضامن » يتطوع للعمل فيها لكل مواطن يوماً واحداً وذلك كفيل بإثراء محاصيلها .

ويجب أن تكون فى كل إقليم مؤسسة يتلقى فيها جميع اليتـــامى والأطفال المشردين عون المجتمع ، ويحصلون على قدر من التعليم الجاد والعلاج الملائم :

وتلك مطالب « التضامن »

يجب ألا نتخلى عن إخوتنا البائسين ونتركهم يمدون أيديهم يستجدون الناس على أبواب المساجد ودور السينما ، فى استطاعتنا أن نهيىء ظروف حياة كريمة لهؤلاء الإخوة المحرومين من وسائل العيش ، ومن أجلهم يجب إقامة « مدينة التضامن » التى يعالج فيها مرضاهم ، فإذا استردوا صحتهم أعيدوا إلى مزاولة أنشطة الحياة اليومية التى تلائمهم . ولهذا يجب أن تشمل « مدينة التضامن » عيادة طبية قادرة على علاج المرضى ... ومسجداً تقام فيه الشعائر الدينية ، ومدرسة لتعليم النشء ، ومراكز تأهيل مهنى للقادرين على بذل مجهود عضلى تمثل « مدينة التضامن » امتداداً للمجتمع ، ويجب أن يقدم كل مواطن — مساهمته فى بنائها ، ثم يتناسى صنيعه الكريم ، فلا يأتى يوم يزهو فيه ويقول مفاخراً : « إننى أنا الذى قدمت هذه النقود ، أو هذا الفراش أو فراء الصلاة أو أنا الذى شيدت هذا الجدار . . . « إن كل عطاء لإخوتنا البائسين ، وكل إسهام لمؤازرة المعدمين ، يجب أن ينصهر فى العمل الإنسانى الشامل فلا ينتظر مقدمه ثواباً من أحد ، فهو أقرب ما يكون إلى تسوية حساب قديم يجب أن ينساه المرء تماماً ، أما هؤلاء الذين يقدمون مساهمة مالية لبناء مسجد ، ثم يفاخرون بعد ذلك بعملهم قائلين : « ذلك مسجدنا أو مسجد أسرتنا » فليسوا مسلمين مخلصين حقاً ، بل ليسوا مؤمنين صادقين ، كما أنهم ليسوا أنصار قضية نبيلة ، إنهم يزهون بحمل لقب « المسلمين » دون

أن يصبحوا بعد مسلمين حقيقيين .

حين يفكر المرء فى عالم الغد ويريد أن يبنى لنفسه فيه بيتًا ، ثم يقدم خيراً للمجتمع الذى سيبنى له هذا البيت فى عالم الغد الذى لم يأت بعد فيجب أن ينسى ذلك تمامًا ، كما يفعل حين يقدم مالا لله تعالى فيتقبله الله ، إذ ليس من الممكن أن يقول بعد ذلك : إن هذا المال ماله ، لأنه لن يراه بعد ذلك ، يجب إذن أن ينسى من قدم إسهامًا فى بناء مسجد ما فعل تمامًا ، لأنه لو قبل بعد ذلك حمل لقب « صاحب المسجد » لما كان قدم أية تضحية مادام الذى دفعه مايزال منتسبا إليه .

إننا مدينون بالعرفان لله لأننا ولدنا فى بلد مسلم آوى الإمبراطوريات الأولى التى أظلت غرب إفريقيا كله . وذلك هو السر فى أن جميع بلاد إفريقيا — عدا غينيا — قد سقطت سريعًا فى يد الاستعمار . بينما لم ينجح الاستعمار فى بسط نفوذه على كل أجزاء غينيا كما تستطيع أن تقول : إن أبطالنا الوطنيين أمثال الحاج عمر طال والإمام ساموری توری ، والإمام أبو بكر باری لم يكونوا يدافعون إلا من أجل وجود الإسلام فى إفريقيا . لقد طلبنا إلى كل قرية أن تهدم ما بها من أوثان ، وتحطم ما بها من تمائم وتعاويذ ، وأن تقيم مسجداً ، وأن تربى النشء حسب القواعد القرآنية وحددنا نهاية العمل يوم الجمعة قبل الصلاة حتى يتمكن المسلمون من الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة . . لقد قضينا على الوثنية والشعوذة ، ولم يعد أحد فى بلادنا يقدس الأحجار أو الأشجار أو التمائم وهو ما تعلمه إفريقيا كلها . . ونحن نحرم الخمور والفجور . . وندعم فى كل يوم إجراءات العقاب ضد هذه الأوبئة الاجتماعية .

وقد أعدنا تنظيم القضاء على أساس الفكر القرآنى ، وقررنا مجانية التعليم فى جميع مراحله ، وأعطينا الدولة مسئولية تنظيم رحلات الحج كل عام . وألغينا جميع أنواع التفرقة التى كانت قائمة على أساس الجنس لصالح وحدة المسلمين . وإن كان العدو يتطاول فى تشويه صورتنا حتى ليظن البعض أن غينيا بلد شيوعى .

ونحن لا نعير اهتمامًا لحملات الدعاية الكاذبة التى تشنها علينا الصحافة الغربية فليس لنا نفس النبى [1] . . . بل قد لا نكون نحن وهم نعبد نفس الإله .. « لأن

(١) لعله يقصد بهذه العبارة أن دعوة المسيح كانت خاصة ببنى إسرائيل دون غيرهم من الأمم . أما دعوة « محمد » فقد كانت عامة لبنى البشر جميعاً . . .

الإله فى الإسلام واحد وفى المسيحية ثلاثة » : ولكننا نقول لإخواننا المسلمين .. إن غينيا لم ولن تكون أبداً بلداً شيوعيًّا . .

* * *

وأخيراً . . . لقد قلت فى مقدمة عرضى لهذا الكتاب أننى لم أتبع فى تقديمه وعرضه الطريقة المألوفة لدى القراء . . . لم أهتم بالشكل والتقسيم ولم أتتبع فصوله وأبوابه كما يفعل الكثيرون .

لقد أردت أن تكون الصورة واضحة فى ذهن القارئ بكل ألوانها وتفاصيلها فأخذت من هنا وهناك مايساعد على تجلية هذه الصورة وعرضها فى هيئة متكاملة لتكون إطاراً لأفكار هذا الزعيم الذى ثار لجده الإمام ساموري توري . بعد ستين عاماً مضت على اعتقاله فى حركة جهاد شاملة ضد الاستعمار الفرنسى . . .

دكتور عبد الودود شلبى

أيها الناس : ليس بكافٍ

أننـــا المسلمون بالأسماء ! ؟

إنَّما المسلمون بالعمل الصالح ،

لا بالمظاهر الجوفاء ! ؟

نحن إن لم نَحْكُم بما أنزل الله ؛

فَدَعْوَى الإسلام محضُ إدّعاء ! ؟

ملف خاص عن حياة الإمام الأكبر
المغفور له الدكتور عبد الحليم محمود

عالم عامــــل	للسيد الأستاذ حسن التهامى نائب رئيس الوزراء برياسة الجمهورية
كان صافى الوجدان لا يغضب	فضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار وزير الأوقاف وشئون الأزهر
فقيـــد الإســـلام الدكتور عبد الحليم محمود	فضيلة الدكتور عبد المنعم النمر وكيل الأزهر
كان عالمًا عاملاً	السيد الوزير سليمان متولى
كان للمتقين إماماً	الأستاذ خالد محمد خالد
ظل حتى آخر أيامه يدعو لتطبيق الشريعة الإسلامية	فضيلة الشيخ جاد الحق مفتى جمهورية مصر العربية
وداعًا شيخنا الجليل	الأستاذ نصر عبد الغفور
الإمام عبد الحليم محمود	الأستاذ حافظ محمود
نحـــو النور	للأستاذ محمد زكى عبد القادر
آخر حديث مع الإمام	للأستاذ جلال الحويلى
هذا قضاء الله [قصيدة شعر]	الدكتور سعد ظلام
حياة الإمام فى سطور	التحرير

وفاة شيخ الأزهر

آلاف المواطنين تشترك فى تشييع جنازته

فقدت مصر والعالم الإسلامى عالمًا جليلاً وواحداً من أبرز رجال الإسلام هو فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ، الذى انتقل إلى رحاب ربه ، إثر هبوط حاد مفاجىء فى الدورة الدموية ، نتج عنه نزيف حاد فى المخ : أدى إلى الوفاة .

وقد أناب الرئيس السادات فضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار وزير الأوقاف وشئون الأزهر فى تشييع الجنازة التى بدأت عقب صلاة العصر من الجامع الأزهر واشترك فيها نحو خمسين ألفًا من المواطنين يتقدمهم السيد محمد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية والدكتور مصطفى خليل رئيس مجلس الوزراء والسيد محمد حسن التهامى نائب رئيس الوزراء برياسة الجمهورية والسيد فكرى مكرم عبيد نائب رئيس الوزراء والسيد حسن كامل رئيس ديوان الجمهورية وعدد كبير من الوزراء وسفراء العالم العربى والإسلامى ، كما اشترك فى تشييع الجنازة هيئة كبار العلماء ومفتى جمهورية مصر العربية الشيخ جاد الحق ورؤساء وعمداء وأساتذة وطلبة جامعة الأزهر ورؤساء الجامعات المصرية ، وممثلون للطائفة المسيحية ، وعدد كبير من أعضاء مجلس الشعب ، وجمعية الشبان المسلمين ، والجمعيات الإسلامية الأخرى ، واللواء أحمد بدوى رئيس هيئة أركان القوات المسلحة وكبار قادة القوات المسلحة ، كما اشترك أيضًا عدد من الشخصيات العامة من بينهم اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية الأسبق والسيد حسين الشافعى النائب السابق لرئيس الجمهورية .

وقد قامت الإذاعة بإعلان نبأ الوفاة فى العاشرة من صباح يوم الوفاة ثم أعقبت النبأ بقراءة القرآن الكريم ، وقد تابعت إذاعة القرآن الكريم إجراءات تشييع الجنازة على الهواء مباشرة .

كما اشتركت إذاعات ووكالات الأنباء والصحف العربية والأجنبية فى نقل مراسم تشييع الجنازة .

وقد تم نقل جثمانه الطاهر إلى بلدته قرية السلام مركز بلبيس محافظة

الشرقية حيث تم دفنه هناك ، وقد احتل نبأ وفاته مقـدمة نشرات الإذاعات المصرية والعربية والعالمية ، كما قامت بعض الإذاعات الإسلامية والأجنبية ، بنقل فقرات من حياته الحافلة فى خدمة العلم والإسلام .

وكان فضيلة الإمام الأكبر قد دخل مستشفى الشبراويشى يوم الثامن من شهر أكتوبر لإجراء جراحة استئصال المرارة التى كان يشكو منها منذ فترة طويلة وقد أجريت له بنجاح ، وبدأت صحته فى التحسن . وفجأة شعر بمظاهر تعب استدعى المستشفى على أثره الدكتور إبراهيم بدران وزير الصحة السابق الذى أجرى له الجراحة وظل بجواره مع عدد من الأطباء من بينهم الدكاترة : عبد المنعم أبو الفضل أستاذ التحاليل وأنور بليغ رئيس جراحة الصدر بقصر العينى وصلاح إبراهيم رئيس الأمراض الباطنية بطب الأزهر ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وكانت آخر كلماته : « لا إله إلا الله — الله حق» .

عالم عامل . . وعارف واصل

السيد الأستاذ محمد حسن التهامى
نائب رئيس الوزراء برياسة الجمهورية

« يَرْفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم
والذين أُوتوا العِلم درَجات » .
صدق الله العظيم

يا أخانا فى الله أخوة من يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله . . لا نرتاب يقيناً أنك على مدارج العلا فى مقامك عند رب العرش قد سلكت طريق الأوابين فإن الله لا يضيع عمل عامل مثلك ، ونحن نعرف عنك أحوال علوم الظاهر التى شاهدك بها الناس ودلت عليها آثارك وهمتك مع المؤمنين . . درساً وتلقيناً لمدرسة الإيمان والفكر ومدرسة النشىء ومدرسة حب الله ، وزرع شجرة الإيمان فى قلوب من وجبت علينا أمانتهم وطوقت أعناقنا مسئوليات عقائدنا

قبلهم . ولا تزال أسماعنا وقلوبنا تذكر لك أحاديث الروح فى مقام التوحيد وهو مقام التشريف لبنى الإنسان ، فالتوحيد كالضد للإلحاد — ومقامات السجود لله والاستغفار والتوبة وعلوم القرآن وعلوم السيرة وأعلام التصوف ومدارسهم الفكرية — من الذين هم — بفضل الله قادرون من بعدك على حمل الرسالة وأداء الأمانة . على أرض مصر الطاهرة مصر الإيمان ، مصر دار آل بيت النبوة عليهم الصلاة والسلام ، مصر اليقين برسالة الأصفياء من عباد الله بما يرضى الله وتطمئن به روحك عند رب العرش وأرواح السابقين قبلك من أهل الإيمان وكما كانت تلك حالك فى بقاع الإسلام التى عرفتك عالمًا ومجاهداً ومعينًا على الحق وكما عرفك الموحدون من أهل الكتاب وكنت لديهم — فى كل مواقفك ولقاءاتك بهم — موضع التقدير والاحترام.

كما فتح الله علينا بعض أبواب معرفتك فى حياتك وخلوصك مع ربك فعرفناك ومعى رهط من المؤمنين فى رحاب مسجد سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، وشاهدناك فى بقاع مكة وعلى عرفات وأنت محرم ومتجرد ، فى حالك مع ربك وما كنت تدعو لدنيا أو جاه بل لقد جاءتك مهام الدنيا وكرسيها ونحن فى منى نحمل زادنا إلى عرفات فإذا بالحق تعالى يختم اليوم حياتك معنا والناس على أهبة الرحيل إلى عرفات . وما كانت الدنيا لديك إلا تكليفًا أسند إليك ، وما زادتك إلا يقينًا بأن الأمانة أكبر فاستعنا بالله تعالى سويًّا على أدائها وتحلمت يا شيخ عبد الحليم ما تحملت صابراً محتسبًا لله فليس كل ما يعرف يقال ، واستعنت بالله على دنياك وبستر الله مضيت وارتضيت والحمد لله .

لقد ختمت حياتك وأديت رسالتك فى الدنيا، وكانت روحك وابتسامة هدوئك بادية فى لقائنا الأخير فى ليلة واحدة قبل أن تخطو آخر خطواتك فى هذه الدنيا عندما أقبلت لتطمئن وتستفسر عن مستقبل القدس وأمانة المؤمنين ومسئوليتهم فيها قبل أن يختم جيلنا أواخر مسئولياته وجئت لتطمئن على مستقبل العرب والمسلمين ، وكأنك تؤدى أمانة كلفت بها وأردت أن تودعها قبل رحيلك وسألت عن تطابق الأحوال بين الظاهر والباطن بين ما يجرى على ألسنة القادة والحكماء ومن ولاهم الله فى أركان الدنيا، وبين ما نبتغيه لمستقبل عزة أمتنا على طريق هى لنا واضحة وكنا من خلال

حديثك نستقرئ الأحداث لنرى معًا صورة المستقبل لتودعه وداعك الأخير أو لتودع أمانتك عند الله الذى لا تضيع عنده الأمانات واستودعتنا فاستودعناك والله يجمع بيننا بالحق على شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ياشيخ عبدالحليم.

رحلت عن الدنيا وقد زهدتها والتمست سبيلك من بيننا إلى العلياء وخلفت وراءك الدنيا بحذافيرها ولم تكن الدنيا يومًا هى الغاية والرجاء ، تركتها وكم هى مع غيرك قد تداولت ، كما غاب عنها من قبلك ذوو همة وصفاء . رفاقك فيها قد تفاوتوا ما بين زاهد أو عابد وبين كسالى ما لهم فى الجنة نظراء ، فأنعم بما اجتباك به ربك . الله أكبر . . أعلنتها يومًا مع الشهداء وما تمنى صادق على ربه إلا كان هو الله المقصد والرجاء .

لقد كنت محبًّا لله ولرسوله وآل بيته الأطهار فأحببناك وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يعلمنا بأن لقاء الأرواح على تآلف نعمة كبرى لله على الإخوة من بنى الإنسان وأن المرء يحشر مع من أحب — فى الدنيا والآخرة فإلى أن نلقاك محبين لله وارسوله سنودعك فى مقام عليين —أمانة الله ورسوله— والحمدلله رب العالمين .

كان صافى الوجدان . . لا يغضب حين يغضب الناس

الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
وزير الأوقاف وشئون الأزهر

كان — رحمه الله — زميل الحياة وصديق العمر ، وكانت صلاتنا فى العمل الذى تعاصرنا فيه يحرسها الحب ويغذيها التعاون بيننا . . ومع ذلك إذا اختلفت وجهات النظر فى إبرام أمر من أمور العمل المشترك بيننا كنا سرعان ما نجتمع فى الرأى على أرض — وننطلق من فكر واحد ليس له هدف بيننا ، إلا أن نرعى مصلحة الحق ومصلحة الإسلام والمسلمين وكان — رحمه الله — سريع التحرك بوجدانه إلى ما ينبغى أن يكون عندما يطرأ أمر أو تزحف حادثة من أحداث الحياة .

وكانت حركته بوجدان صاف وفكر

مدرك، وصفاء نفس عميق وما ذكرت يوماً أنه غضب عندما غضبت أو انفعل عندما خولف فى رأى، وإنما كان رحمه الله يبدد الغضب ويصرف الانفعال بابتسامة رقيقة ترتسم على شفتيه معبرة عن معنى دقيق من الأخوة والصفاء وراءها فيض جارف من العواطف الأخوية والعبارات الشفافة الملطفة التى تبدد كل غيم وتوضح كل لبس، وأن ما كنت ألمسه فيه دائماً من ميل إلى السلم والمسالمة فى علاج الأمور وكان يشجعنى أنا — شخصياً — على أن أسالم وأن أتخذ نفس المنهج فى معالجة ما قد يطرأ من اختلاف فى وجهة النظر وما قد يخيم على العلاقات فى التعامل من غيوم سرعان ما تتبدد وتزول .

وقبل أن تجرى له العملية الجراحية التى وافاه فيها قدره المحتوم كنت معه فى المستشفى وكنا نتحدث لنرسم للمستقبل فى حياتنا ولم نكن نعلم أن قضاء الله أقوى وأن قدره قد حل وأن ما خططناه فيما بيننا من أسلوب عمل لصالح الإسلام والمسلمين لن يكتمل بانتزاع أحدنا إلى لقاء ربه ، وإنما أذكر لفضيلته — عليه رحمة الله — فى هذا الموقف أنه قال : «ما تقتنع به أبرمه وما يحاك فى صدرك شيء منه نبحثه إن شاء الله بعد خروجى من المستشفى » وكانت لهذه الكلمات الأخيرة الأثر القوى فى نفسى عندما فوجئت وأنا بمكتبى بوزارة الأوقاف ، بالنبأ الأليم، فقد قطع الموت بيننا أسباب التعاون ، وحال بيننا وبين إكمال مسيرتى معه لتحقيق ما نرجوه للإسلام والمسلمين وما نسأل الله أن يوفقنا إليه من خدمة الوطن والدين .

وإننا لنؤمن بأن له رصيداً عند الله ورصيداً فى قلوبنا يعوضنا عن فقده ، ويطمئننا على مستقبله عند ربه ومنزلته لديه ، فإنه إن شاء الله مع الصديقين، والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

فقيد الإسلام

الدكتور عبد الحليم محمود

فضيلة الدكتور عبد المنعم النمر وكيل الأزهر

رحل عنا رجل من رجالات الأزهر والإسلام شغل حياته كلها بالعمل لدين الله وبالطريقة التى اقتنع بها وارتضاها ، وإن اختلف معه بعض الناس فيها « وكل شيخ وله طريقة كما يقولون » ولكنه وعلى طريقته قد ركز حياته وجهده لما يؤمن به سواء من ناحية الفكر أم من ناحية العمل . عرفته وصادقته منذ عاد من فرنسا حاملاً شهادة الدكتوراه مدرساً بالكليات الأزهرية ، لكنه كان على غير عادة الذين يعودون من أوربا وقتذاك ، فقد عاد بروح صوفية لا بروح أوربية ، وبالرغم من أنه درس فى فرنسا الفلسفة والتصوف أيضاً ، فقد جاء منحازاً تماماً للتصوف حاملاً على الفلسفة ، معتقداً أن التصوف هو الطريق الذى يهدى إلى الله ويعطى النفس روح الاطمئنان على عكس الفلسفة . . ولذلك وهب نفسه وجهده للتصوف فعمل على إحيائه بما نشره وما شجع على نشره من كتب كثيرة ربما كان فى بعضها مآخذ ظاهرة ، لكنه كان يتغاضى عنها بجوار ما تحمله من دفعات روحية . .

وكان فى حياته يسير بروح صوفية فهو يحب الخير لكل من حوله وللناس ، وتغلب عليه هذه النزعة حتى ولو جلبت عليه شخصياً بعض الاعتراضات والمضايقات وإذا وصل إلى رأى فقلما يحيد عنه أو يقبل من أحد رأياً غيره . .

لقد كان المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود طبعة خاصة مميزة من العلماء الذين عملوا للأزهر ولدينهم ، وهب كل لحظة فى حياته من أجل هدفه سواء كان فى بيته أم فى مكتبه أم فى رحلة من رحلاته الكثيرة ، كان يغريه حبه للخير وللأزهر فيتحمل الكثير مما ينوء بجسمه وصحته ، ويسافر هنا وهناك مما يتردد فى حمله الشباب ، وقبل انتقاله للمستشفى بيومين كنت أزوره فى سريره بمنزله ، ورأيت فى وجهه وجسمه علامات المرض ، وتحدث إلى عن بعض ما يعانيه ، وكان عائداً قبل يومين من رحلة فى المنوفية ، فرجوته أن يراعى حالته ، ويقلل من

رحلاته والازدحام فيها ، والمأكولات التى لا تناسب صحته وأن ينيب عنه من يرتضيه فى مثل هذه الرحلات ، حتى يتجنب آثارها ومضاعفاتها ، وكانت آخر جلسة معه عليه رحمة الله . . .

لقد ترك الشيخ الكثير الباقى وراءه ، من مؤلفاته وأعماله وأفكاره ، وتلاميذه ومحبيه فى الأزهر وخارج الأزهر .. ومثله فى ثروته هذه : الروحية والملية ، يظل حيًّا فى النفوس الكثيرة المتأثرة به ، فى مصر وخارج مصر .. ولن ينساه عارفوه ومقدروه ممن عاصروه ، وستذكره الأجيال المقبلة كلما انتفعوا بآثاره الباقية . رحمه الله وطيب ثراه وجزاه خير ما يجزى به العاملين .

كان عالماً ... عاملا

السيد الوزير : سليمان متولى

كان لقائى الأول بفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود — رحمه الله — منذ أكثر من عامين ، سعيت إليه أعرض بعض مطالب محافظة بنى سويف فى مجال إقامة معاهد دينية وإنشاء كلية للأزهر ، وجدته عالماً جليلاً مهيباً — نوع فريد من الرجال يحسن الاستماع ثم يستفسر فى عمق وخبرة ثم يعطى القرار واضحا فى هدوء عن خبرة فى الأسلوب السليم للإدارة وفى فن قيادة الرجال ، ثم بعد ذلك كله يمنح التشجيع والثقة كى تنتشر الدعوة على أيدى قاعدة كبيرة من القادة والمسئولين .

ثم كان اتصالى به بعد ذلك لأبحث معه موضوع المعاهد الدينية فى محافظة المنوفية — أعطانا من الإمكانيات ومن الثقة ما أمكن معه استكمال عدد كبير من المعاهد كانت قد توقفت لقصور فى النواحى المالية وكنا نتابع زيارته للعالم الإسلامى ورحلاته إلى كل مكان توجد فيه جاليات إسلامية ينشر الدعوة ، ويدعو إلى سلوك وخلق الإسلام فكان واجهة الأزهر المشرقة بما تحمله من إيمان الواصلين وثقافة المطلع على معارف الخلق الصالح وتراثه المجيد ، والمساير لموكب العصر ومستحدثاته وكل جديد فيه .

وكانت جولاته فى أقاليم مصر من أقصاها إلى أقصاها يدعو بالقول والعمل

يترك فى كل موقع إشعاعاً للدين من معاهد ومكاتب لتحفيظ القرآن ويدعو إلى التسابق فى عمل الخير وفى التطوع لنشر الدعوة لكل قادر على المساهمة والعطاء .

وتعددت زياراته لنا فى محافظة المنوفية فقد جذبنا إليه ما كان يتحلى به من صفات المؤمن من العالم ، تواضعه وعلمه وخبرته وقدرته الفائقة فى تحريك العمل ودفعه ، وفى حماسه ونشاطه ، وفى تشجيعه لكل من يتوسم الخير فيه .

وفى زيارته الأخيرة لنا ليفتتح المعاهد الجديدة ويبارك افتتاح الكليات الأزهرية — وقد كان صاحب الفضل فى إقامتها — ويوزع شهادات التفوق على حفظة القرآن — ويوافق على فتح جميع المعاهد فترة مسائية لتحفيظ القرآن .

كان يشدنا إليه سلوك المؤمن الحق يرعى كل من حوله ويقربهم إلى مجلسه ويطمئن عليهم واحداً واحداً ، ويشع منه النور والبركة ويهدى دائماً إلى المحبة والسلام ، ويذكرنا فى كل حديث له بما تفرضه علينا دولة العلم والإيمان التى أقامها الزعيم المؤمن محمد أنور السادات من العمل الجاد المخلص والقيم والسلوك والمحبة والترابط .

ثم كان خبر انتقاله إلى الرفيق الأعلى لينعم فى جنة الخلد مع الصديقين والشهداء — وجلت له قلوب المؤمنين الخاشعين — وتوجهت جميعها بالدعاء إلى العلى القدير أن يجزيه لقاء ما قدم وأعطى لمصر والأمة الإسلامية .

كان للمتقين إماماً

الأستاذ خالد محمد خالد

● بالأمس . . رحل عن الدنيا رجل من الأخيار .

● رجل اتقى الله وآمن برسوله فآتاه الله كفلين من رحمته ، وجعل له نوراً يمشى به .

● كان كالأنفاس الطاهرة الهادئة ، والنسمات الوادعة فى صمته ، وصوته ، وجميع سمته .

● كان عظيم الصدق مع ربه ومع نفسه .

● كان شجاعاً فى اختيار طريقه ،

وفى السير على هذا الطريق غير ملق باله لنقد الناقدين ولوم اللائمين .

● لم تكن له شخصيتان .. بل شخصية واحدة اتسقت اتساقاً باهراً مع نور الشريعة والحقيقة معاً .

● وكان يذكر كلما ذكر الإخلاص، والطهر ، والتقى . . ذلكم هو الإمام الأكبر (عبد الحليم محمود) . .

● عاش حياته متبتلاً مخبتاً أوّاباً .. وكان يحمل كل خصائص العلماء الذين كتب لهم أن يكونوا للناس قدوة وأئمة وروّاداً .

● وكان للمتقين إماماً . .

● (عبد الحليم محمود) .. اسم عظيم لرجل عظيم . . رجل شرف به الإسلام كواحد من أبنائه ، وعلم من أعلامه .

* * *

● نشأ فى رحاب الله ، وشب شباباً عفاً وطاهراً ، واهتدى فى ناشئة حياته إلى طريق أهل الله ، ووضع يده فى أيديهم حتى إنه وهو فى فرنسا يتقدم برسالة الدكتوراه عن رجل من أهل الله، وواحد من أعلام التصوف . اهتدى إلى اختياره ببصيرة متصوفة وروح مخبتة .

● ثم عكف بهذه البصيرة ، وبهذه الروح على تنمية شخصيته ، وصوغ حياته ماضياً فى تصوفه الصادق وراء أبطال التصوف المباركين من الذين آمنوا وكانوا يتقون . . والذين لهم ما يشاءون عند ربهم والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . .

● ولما كان (التصوف) فى حقيقته وجوهره ليس إلا (صدق التوجه إلى الله) فقد مضى راحلنا الكريم مع هذه الحقيقة وهذا الجوهر متأسياً بالرواد من الأولياء والأقطاب الذين فتحوا للروح الإنسانى منافذ النور والضياء كان يحبهم أعظم الحب ويعرف منازلهم عند الله ويعلم ما لمحبهم ولوليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

● وكم لامه اللائمون فما خبا حبه ، ولا ضعف ولاؤه ولا تعثرت على الطريق خطاه . . ذلك أنه حب على بصيرة . كما آمن على بصيرة ، وذاق فعرف . . وعاين وشاهد مالا تراه الأعين المثقلة بالأجفان الراقدة .

* * *

● ترى كيف أرثيه وأبكيه . .

● هذا الذى أحسست حين سمعت نعيه أن جزءاً كبيراً من الحياة قد ارتحل واختفى وليس مجرد رجل من الرجال

● إلا أن الحياة التى صاغها لنفسه والتى صحبته فى سفره إلى ربه لن تخلو

منها الحياة فستظل ذكرى شاهقة سامقة تقول للناس :

إذا ما بناء شاده الفضل والتقى
تهدمت الدنيا ولم يتهدم

ستبقى صورته مثبتة على جدار الزمن ولن تدار إلى الحائط أبداً .

● وستبقى حياته كما كانت ، وكما أرادها أن تكون ، مثلاً حياً لشجاعة الاختيار ولمسلك الأبرار .

●فوداعاً للعالم الكبير .. والصوفى النضير .

● وسلام على عباده الذين اصطفى .

● وعزاء للإسلام وللمسلمين . .

● أما أنت أيها الراحل المقيم ..

فروح وريحان ، وجنة نعيم .

ظل حتى آخر أيامه يدعو لتطبيق الشريعة الإسلامية

الشيخ / جاد الحق على جاد الحق
مفتى مصر

فقد العالم الإسلامى عالماً فاضلاً صالحاً قاد الأزهر فترة طيبة ، ونشط فى الدعوة إلى الله فى داخل البلاد وخارجها . وكان — رحمه الله — ورعاً تقياً يعمل لصالح الإسلام وتصحيح مسار العقيدة وأحكامها وتنقيتها مما علق بها فى فترة الركود العلمى التى مرت بالعالم الإسلامى وقد ظل يعمل حتى لقى ربه ، فى سبيل عودة الحكم بالشريعة الإسلامية وأحكامها وقاد مجمع البحوث الإسلامية شوطاً طويلاً فى الوصول إلى الهدف .

لقد كان وإلى آخر لقاء بيننا يعمل على إصدار دستور إسلامى يكون نموذجاً للحكم الإسلامى فى الدول الإسلامية ، موحداً لها على هدف واحد.

كما عمل على إصدار نماذج للتقنين من أحكام المذاهب الفقهية الإسلامية حتى تكون هذه الثروة الفكرية الفقهية المستنبطة من الكتاب والسنة تحت يد المقننين فى الدول الإسلامية يستقون منها الحاجات التى تلزم المسلمين فى هذا العصر.

رحم الله شيخ الأزهر الأستاذ الإمام الأكبر عبد الحليم محمود وأسكنه فسيح جناته وعوض الإسلام والمسلمين خيراً فيه ، فقد كان مجاهداً فى شتى الميادين فاستغل قلمه وعباراته التى أجراها الله على لسانه بيان حكم الإسلام وتاريخ رجاله العاملين فى شتى ميادين المعرفة الإسلامية مدافعاً عنهم مبيناً صائب

آرائهم التى كشفوا بها عن مزايا الإسلام عقيدة وشريعة ، كما دافع عن الإسلام وأوضح حجته بكل وسائل الإعلام الميسرة فى هذا العصر من إذاعة مسموعة ومرئية وصحف ونشرات ، كما جاهد فى سبيل ربط الأمة الإسلامية والجمع بين علمائها ليتدارسوا أمور دينهم فى رحاب الأزهر الشريف وتحت علم مصر رائدة العرب والإسلام والمدافعة عنهم والمجمعة لشتاتهم .

ولقد حدثنى رحمه الله عن مشروعاته وأمله فى أن يعود الأزهر بمعاهده وكلياته إلى ما كان عليه من تحصيل جيد للعلوم الإسلامية والعربية .

وداعاً .. شيخنا الجليل

الأستاذ نصر عبد الغفور
خبير لجنة التعليم بالمجلس القومى

فزعت مصر . . وروع المسلمون . . وجزع الشرق . . حين نعى الناعى الرجل العظيم إمام المسلمين الأكبر وقائد المسيرة القرآنية . . وزعيم علماء العصر بلا منازع وما كان الجزع والترويع والفزع لموت الفقيد الكريم . . فالموت حق على الجميع فلقد مات الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ولكن مظاهر الحزن والفزع كانت للمعانى التى كان يمثلها الإمام الراحل فى حياته .

كان يرحمه الله ويطيب ثراه رجلاً بكل ما تحمله كلمة الرجولة من معان .

كان بطلاً .. تنحنى أمامه الهامات .

وكان صاحب رسالة آمن بها وناضل من أجلها حتى وافته المنية وهو أشد ما يكون حرصًا على الحركة والنشاط ودقة الأداء وقبل أن يدخل المستشفى بيوم واحد كان يجوب القرى فى المنوفية يفتتح المعاهد الدينية وجمعيات تحفيظ القرآن ويوزع الجوائز على الحفاظ والمحفظين .

ويهز الرأى العام بقوة ، داعيًا إلى الله . حافزاً للهمم . . بكل ما يمتلئ به قلبه الكبير من حب لرسالته وإيمان بها . . ودفاعًا عنها .

آمن بالتوسع فى المدارس والمعاهد الدينية وعارضه كثيرون فى الأزهر وخارج الأزهر . . بدعوى التجديد قبل التوسع .. وضيق ذات اليد . . يد الأزهر . . ونقص الموارد المتاحة وقلة الأساتذة .. وهبوط المستوى . . وكانت آخر

كلماته فى (منشاة سلطان) مركز منوف فى افتتاح معهدها الدينى .. أن الذين يدعون إلى عدم التوسع مخطئون .. أنا مع التوسع بلا حدود وبلا قيود .. وإذا قصرت الموازنة فى تدبير الموارد فلدى الكثير من إعانات أهل الخير والبر .. وهم والحمد لله كثيرون فلا تثبيط للهمم بل حفز لها .. وأرد عليهم فأقول عدد الذين يتعلمون فى المعاهد الأزهرية كلها فى جمهورية مصر بما فيها جامعة الأزهر خمسون ألفاً .. وفى وزارة التربية والتعليم سبعة ملايين فأين التوسع .. ولماذا التخوف؟

هل هناك رد أبلغ من هذا الرد ؟ هل هناك مقارنة كهذه المقارنة ؟ خمسون ألفًا إلى سبعة ملايين .. يا له من رقم .

ومنذ ولى أمور الأزهر شيخًا له .

وإمامًا عظيمًا .. وهو لا يكل ولايمل .

جهاداً فى سبيل تعميم التعليم الدينى .. وأثره للفكر الدينى .

لا يمر يوم إلا وله حديث صحفى أو مقالة أدبية أودينية .. ولا يمر شهر إلا وله كتاب يطبع .. ويوزع ليس فى مصر وحدها بل فى العالم الإسلامى كله .

فكر متدفق .. إيمان عميق .. ثقة زائدة لا حدود لها . يهز الرأى العام العالمى الإسلامى بكلماته القوية يخاطب الأمراء والملوك والوزراء وأهل الرأى فى أنحاء العالم .. يطالبهم برعاية الدعوة الإسلامية ودعمها وتقويتها .. ولقد قاد الأزهر منذ إنشائه مئات من شيوخ الأزهر وعلمائه .. وأشهد أن الشيخ عبد الحليم محمود قد سجل فى التاريخ صفحات من أنصع وأعظم الصفحات وأنه يعد بين شيوخ الأزهر السابقين من أكثرهم علمًا وأشدهم تأثيراً فى الأزهر وسيذكر له التاريخ جهده وجهاده ونضاله وسيبقى هذا الذكر للأبد .

لقد كان لى شرف لقائه خارج الحدود .. فى دولة إسلامية وغير إسلامية . لاقيته فى السعودية فى موسم الحج .. يقف على بابه الأمراء والعلماء من جميع الأجناس .. يقبلون يده .. وينحنون فى حضرته احترامًا وإجلالاً .. وهو يستقبل الجميع فى عطف وإعزاز لا يصدر إلا من عظماء الرجال .

لاقيته فى المغرب بنفس الصورة فى فندق الأندلس محل رعاية ملك المغرب المعظم الملك الحسن ومئات السيارات فى الخارج .. وشرطة المرور تنتقل بالمئات لتنظيم خطوط السير لزيارة الإمام الأكبر .. وهو هو بقامته الرفيعة وبسمته التى تلازمه يستقبل الألوف مرحبًا وداعيًا ومهنئًا بشهر رمضان وملقيًا تعليماته الرائعة فى

جلال عميق . وفى لندن . . فى المؤتمر الإسلامى العالمى مهرجان يضم وفود كل مسلمى العالم . . ويتقدمون أمام ملكة بريطانيا فى انحناء إلا هو فقد سلم عليها منتصب القامة وأمام كاميرات التليفزيون من جميع أنحاء العالم تكاد الملكة تنحنى احتراماً لمقدمه الجليل .

إن العيون لتدمع وإن القلوب لتفجع وإن الأفئدة لتتصدع . . ولا نملك إلا أن نقول ما قاله رسول الله الكريم . . إنا لله وإنا إليه راجعون .

لا أقول وداعاً شيخنا العظيم . . بل إلى لقاء فى الملأ الأعلى مع النبيين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

الإمام ... عبد الحليم محمود

الأستاذ حافظ محمود

لست أدرى لم لا تبرح مخيلتى صورة صباه ؟ إننى لم أصدق حين رأيته أول مرة . . أنه من علماء التخصص فى الأزهر ، ولولا ملابسه الريفية الأصيلة لحسبته فنانًا ، فقد كان شابًا ، أريد أن أقول فتى ، فى قسمات وجهه سماحة عجيبة ، وقد انطبعت على شفتيه ابتسامة لا تكاد تفارقهما أبداً ، وكانت ابتسامته تتخلل كلماته دائماً ، فمع أنه جاء ليقابلنى وأنا صحفى جديد فى جريدة « السياسة الأسبوعية » ليتعرف بى وليرد على مقال لى — إلا أنه بدأ — حديثه معى بالسخرية من بعض المظاهر . . وأحببت سخريته منذ اللحظة الأولى ، فقد كانت سخرية مهذبة تخلو من ليونة الهزل ، ومن خشونة الغرور ، وبعد بضع دقائق صرنا صديقين .

تعودت سخريته المهذبة ، حتى إنه حين قال لى: إنه يعتزم السفر إلى باريس ظننته ساخراً ، ولم أصدق إلا حين أطلعنى على حقيبة زاده .

نعم لقد سافر الشيخ « الشاب » عبد الحليم محمود موسراً ، ولم يكن مبهوراً كغيره من الشباب بالعيش فى أوربا ، ولم يكن ينقصه العلم فى تخصصاته . . ورغم هذا كله سافر ليدرس الفلسفة . . وليحصل على درجته العالمية (الدكتوراه) فى هذه المادة . . وكان أعجب ما فى هذا التحدى سخريته بالفلسفة ذاتها .

الإمام والفلسفة :

ظللت السنين الطوال أتعجب من سخريته بمادة الفلسفة، والتى حصل فيها على أعلى الدرجات العلمية ، إلى أن التقينا قبل عام فى النادى الثقافى بلندن ، وكان الأستاذ الإمام قد جاء إلى هذا النادى ليلقى محاضرة على شباب مصر المبعوثين للدراسة فى لندن ، فإذا به يفسر فى محاضراته كيف انتهى من دراسته فى الفلسفة إلى السخرية بالفلسفة.

قال ، عليه رضوان الله : إنه لم يجد فيلسوفاً واحداً قد قطع بشىء أو جزم بشىء . . إنهم جميعاً يتحدثون بلغة الاحتمال الذى لابت فيه . . ولكم — هكذا كان يقول — أن تتصوروا حال الفكر البشرى بين هذه النظريات الاحتمالية التى تتحاشى اليقين دائماً أو غالباً .

ولما سأله طالب: إذن مارأى فضيلتك فى « الفلسفة الإسلامية » ؟ . قال : إنكم تسمون المذاهب الصوفية فى الإسلام فلسفة. . لكنها شىء آخر . . ثم أضاف : إن الفطرة السليمة تبحث عن اليقين لا عن المشكوك ، وقد أثرى الله قلوبنا باليقين فى كلماته ، فمن السخرية أن نترك هذا اليقين لنلتفت إلى متاعب الشك عند الفلاسفة إلا أن يكون هذا من باب الاطلاع والاعتبار .

الإمام والدعوة :

كان الإمام الشيخ عبد الحليم محمود عظيم العقيدة إلى الدرجة التى جعلته يتحول بمنصب شيخ الأزهر إلى داعية من دعاة الله .. فما كان يوم يمر دون أن نسمع للشيخ خطاباً أو محاضرة أو نقرأ له كتاباً أو مقالاً فى الدعوة إلى دين الله ، وقد جعله حبه للدعوة يستجيب لنا فوراً حينما اقترحنا عليه إنشاء دراسة إعلامية فى الأزهر ، وكان هو خير مثال لهذا الجانب الإعلامى .

لقد تخطى نشاطه الإعلامى فى سبيل الله صحف القاهرة إلى كثير من العواصم الإسلامية . . وكان من عجائب القدر أننى استمعت إلى نبأ وفاته من الإذاعة وأنا أقرأ له مقالاً حديثاً فى مجلة من مجلات الأقطار الشقيقة .

إننى أعلم أن البعض كان يأخذ عليه كثرة كتاباته فى الصحف مما قد لايتفق فى رأى هذا البعض مع هالة المشيخة الكبرى . . لكننى أعلم أيضاً أنه كان يعمل هذا عن إحساس صادق بمسئوليته عن توعية المسلمين جميعاً . لقد كان هذا الإحساس يبدو واضحاً جداً وهو يلقى خطبة الجمعة أحياناً . . وكنت تشعر وهو يخطب أن الكلمات ينطق

بها قلبه قبل لسانه وذات مرة وأنا أستمع إليه فى خطبة الجمعة بالجامع الأزهر بكيت . . ثم سارعت إلى تجفيف دموعى لأننا كنا نتهيأ للصلاة .

وقد بكيت مرة ثانية عندما كنا نتهيأ لصلاة الجنازة على جثمان الإمام الشيخ عبد الحليم محمود . . لكننى هذه المرة لم أجفف دموعى لأنها لم تكن مدامع عين لكنها مدامع قلب فقد صديقاً عظيماً .

نحو النور

الأستاذ محمد زكى عبد القادر

جاز إلى ربه راضياً مرضياً المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر ، ففقد فيه الأزهر والعالم الإسلامى فقيهاً كبيراً من فقهائه الكبار ، نذر نفسه لخدمة الدين والشريعة ، وترك وراءه تراثاً فيه الإيمان والفهم والدعوة إلى الأسوة الحسنة ومكارم الأخلاق .

وهو ينتمى إلى كبار الشيوخ ممن آلت إليهم مشيخة الأزهر ، فأحيوا سنة الصالحين وذكرى السلف الصالح ، وذادوا عن الدين الشبه والشكوك ، ووقفوا فى وجه الانحراف والشرك والزيغ فى قوة ويقين . . وهى مهمة ازدادت صعوبة فى هذا العصر الذى ذاعت فيه الشكوك والريب حول الأديان ، وجذبت إليها العديد من الشباب وغيرهم ممن شنوا حملة ضارية ضد الأديان والإيمان بها .

وكان المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود ركناً صامداً يدفع هذه الحملة فى صمود لايتزعزع ، ويقين يزداد يقينا كلما زادت الحملة ضراوة ، فلم يكن يتوقف عن الدعوة إلى الدين ، سواء بالتأليف والكتابة أو الرد على المعترضين والزائغين أو الاشتراك فى الإذاعات والندوات والخطابة فى المساجد فى جموع المصلين . . وهكذا جعل من شيخ الأزهر منارة للهداية والعمل الدائب والنزول إلى الجماهير ، دعوة إلى الدين الصحيح ودفعاً للشكوك والشبهات وتثبيتاً للوحدة الوطنية ومقاومة تيارات الدس والتفريق .

وقد ساعده أفقه المنفسح وعلمه الغزير ومزجه بين الثقافتين الشرقية والغربية على أن يضطلع بهذا الواجب أتم ما يكون الاضطلاع ، تأثيراً فى الناس وجذباً لهم إلى طريق الهداية والنور .

وهو إذ يلقى ربه ، يلقاه راضياً هانئاً أن أتيح له أن بلغ فى أمته ما بلغه من مكانة ، وأن يبلغ فى مجال التقوى والصلاح ما لم يتح إلا للشهداء ممن ذادوا عن الدين ، يجزيه ربه عنهما أوفى الجزاء ويسكنه جنات أعدت للمتقين .

آخر حديث – عن الدنيا – مع الإمام الأكبر

أجرى الحديث الأستاذ جلال الجويلى

فى مسكنه المتواضع فى البيت رقم ٢٤ فى شارع العزيز بالله فى الزيتون كان لقائى مع الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر . . ولم أكن أتصور وقتها أنه اللقاء الأخير .

كان قد انتهى من صلاة المغرب .

هنا يعيش الرجل منذ أربعين عاماً أى منذ أن عاد من باريس بعد أن حصل على درجة الدكتوراه من السوربون .

كان يرتدى جلباباً أبيض . . نفس لون المسبحة التى كان يضغط عليها بين أصابع يديه، لم يتوقف عن الضغط عليها على مدى ساعة أمضيتها أستمع إليه حول هذا الذى أصاب حياتنا من حيث سلوك الناس .

العصبية تسيطر على الكل – الألفاظ الجارحة تبدر من الكل لا فرق بين أستاذ فى الجامعة أو صبى فران . لم يعد أحد يحتمل أحداً كما لو كان الصبر قد نفد من صدور الناس جميعاً ، صحيح أن الحياة اليومية تزداد تعقيداً : لكن هل يعنى ذلك أن تضيع الأخلاق ؟

رد الإمام الأكبر : الواقع أن هناك آفات كثيرة فى المجتمع لم تكن موجودة فى بعض العصور . حقيقة أن كل عصر من العصور فيه آفاته أو فيه مفاسده لكن هذه المفاسد فى كثير من العصور لم تكن عامة على هذه الصورة التى نراها الآن .

سلوك الناس فى المجتمع يصدر عن الوضع الحقيقى الذى ينبغى أن يكون . الإنسانية تركت تشريع الله سبحانه وتعالى فى الأخلاق تركت تشريعه فى السلوك ، تركت تشريعه فى القانون لكى تفرض أهواءها هى .

فى كثير من العصور كانت البلاد تحكم بناء على أهواء الحاكم : ديكتاتورية كاملة من فئة قليلة تسود الأغلبية العظمى اعتماداً على القوة التى تجعل هذه الأغلبية ترتدع ثم تطيع . هكذا عندما انحرفت الإنسانية عن الأوضاع الإلهية كانت كل هذه النواحى

من الفساد فى الأخلاق والفساد فى السلوك . هذا الانحراف عن الأوضاع الإلهية تجده على سبيل المثال فى التعليم عندنا . لم يكن من المنتظر مطلقاً أن ينفصل التعليم عن الدين . كان الرئيس السادات موفقاً حين وضع المنهج الذى ربط فيه العلم مع الإيمان إننا لو اتبعنا هذا المنهج أى حققنا توازن العلم مع الإيمان فى البيئة التى نعيش فيها كانت الأمور قد سارت على أوضاع تختلف عن أوضاعنا التى نعيشها كانت الأمور سارت إلى أوضاع أحسن ، أوكل الله إلى الإنسانية أمر الجانب المادى لكنه لم يكل إليها جانب السلوك ولا جانب الأخلاق ، بل أوكل أمره إلى تشريع منه هو .

فى الجانب المادى تقدمت الإنسانية حتى وصلت إلى القمر إلى الكواكب السماوية أو إلى غير ذلك من وسائل الكشف مع وسائل التدمير أيضاً لكنها فى الجانب الآخر ، جانب السلوك ، جانب الأخلاق ، لم تلتزم تشريع الله .

لو اتبعنا الذى أحبه الله لنا من السلوك والأخلاق والعقيدة ومصدرهم الدين وأن المادة طبيعة أو كيمياء أو فلك إلى غير ذلك مصدرهم التجارب مع الحواس . . كان الأمر يسير على نسق يرضى .

على الهامش :

من كان يتصور أن التعليم فى مصر الذى كان أساسه الدين حتى نهاية القرن الثامن عشر يصبح فى مدارس بلد الإسلام أقل شأناً من الرياضة . . على أى حال : ما من شك فى أن وزير التعليم رجل صالح . رجل مخلص يهمه كل الأهمية أن يأخذ الدين جوه الصحيح فى مدارسنا .

لكن ماذا أقول! إذا كانت التقاليد جرت على أن يكون الدين على الهامش حصصاً ! . على الهامش امتحان . على الهامش من ناحية انتقاء الصفوة الممتازة التى تتولى تعليم الجانب الدينى أرجو الله أن تتعدل الأمور .

فى هذه المناسبة أريد أن أقول : إننا مع الأسف نأخذ عادة الأمور تقليدياً ثم نسير فى هذا التقليد إلى أبعد الحدود . مثلا هذا التعليم المدنى الذى أدخله عندنا فى مصر فى صورته الحالية هو الاستعمار الذى أراد أن يكون التعليم بعيداً عن الجو الدينى الصحيح السليم ، ويقفز الحديث إلى داخل الأوتوبيس فى بلادنا .

ترى : ما رأى الإمام الأكبر فى هذه الصورة المؤلمة ، صورة المواطنة المصرية التى تكافح فى شرف من أجل

حياة أفضل سواء كانت عاملة أو مدرسة أو طبيبة أو مهندسة تهدر كرامتها داخل الأوتوبيسات التى تجرى فى شوارع مصر — قد شكت المواطنة عن كل ما يجرح كرامتها فى الأوتوبيس من أجل أن تكون فى موقع عملها فى الموعد المحدد أو فى البيت من أجل الزوج أو الطفل كيف يرى الإمام الأكبر هذه الصورة ؟

رد الدكتور عبد الحليم محمود :

الواقع أن المجتمع شغل نفسه فى أشياء غير الأشياء الأساسية . من الأشياء الأساسية سهولة المواصلات — لماذا نجد أن البلاد الكثيرة فيها مواصلات سهلة لا تعرف هذا الازدحام أو ليس فيها كما يقولون علب السردين هذه، بينما نحن هنا نجد هذه المشقة فى المواصلات . لماذا لا تيسر المواصلات ؟

ثم أضاف : كما أن النساء أنفسهم عليهن لوم كثير ، المرأة تخرج غير متحشمة إلى جانب أنها تخرج سواء كان هناك سبب أو دون سبب بينما كان من الممكن أن تبقى فى بيتها معززة مكرمة .

من ناحية أخرى هناك أشياء كثيرة غير ميسرة من الواجب أن نعنى بها عناية كبيرة . هناك أمور كثيرة فى مجتمعنا هذا الآن من الممكن تيسيرها لكن مع ذلك لا تيسر ، كما لا يهتم أحد أو يعمل على تيسيرها .

هنــــاك مرفق المياه ، هناك مرفق التليفونات ، هناك مرفق الكهرباء ، هناك التموين كل هذه النواحى لا تسير على الوضع الذى ينبغى أن يكون .

الحرب انتهت من فترة ، البلاد التى دمرت فى الحرب أعيد بناؤها فى سرعة ثم استقرت فيها الأمور أو سارت على خير ما ينبغى . اليابان مثلا أو ألمانيا الغربية كل هذه البلاد دمرت تدميراً فى الحرب ولكن مع ذلك استقرت أمورها بعد ذلك .

نرجو من الله أن يهب لمصر القوم الذين يخلصون لها وتسير الأمور على خير ما ينبغى إن شاء الله .

اقطعوا أيدى النشالين :

ثم مرة أخرى نعود إلى الأوتوبيس فسألته عن رأيه فى موقف المواطن الذى طعن نشالاً فى الأوتوبيس بعد أن حاول هذا النشال أن يطعن المواطن الذى ضبطه أثناء محاولة نشله .

رد : هذا من غير شك دفاع عن النفس لكن المشكلة فى أساسها : لِمَ

يوجد النشال فى مجتمعنا نحن ؟ وجود النشال فى مجتمعنا يبين إلى أى مدى قد بعدنا عن الجو الإسلامى أو الأخلاق الإسلامية .

لو سرنا على النمط الإسلامى ، على الأخلاق الإسلامية ، لما وجد النشال فى مصر .

هذا الرجل أخذ السكين من النشال كان يدافع عن نفسه لكن هناك أشخاصاً من الضعف إلى حد أنهم لايستطيعون الدفاع عن أنفسهم ولذلك يفتك بهم النشال .

هناك حوادث كثيرة من هذا النوع لو ارتدع النشال أى لو طبق عليه العقاب الإسلامى لما عاد إلى هذا .

سبة فى جبين مصر :

ثم من النشالين إلى المتسولين الذين أصبحوا ظاهرة اجتماعيــة خطيرة فى مصرنا — سألته هل يجوز أن يكون عندنا متسولون ؟

يقول الإمام الأكبر : هناك أمر فى غاية الأهمية هو انصراف المجتمع عن أداء الزكاة لو أديت الزكاة على ماينبغى أن تكون عليه لما كان هناك هذا الجمع الغفير من المتسولين . الواقع أن هؤلاء المتسولين سبة فى جبين مصر .

المسألة يجب أن تنتهى على الفور . يجب أن نأويهم ثم نعمل على تدريبهم على الحرف اليدوية حتى نوفر لهم الحياة الكريمة . يجب أن نقيم المؤسسات من أجلهم .

تربية الضمير :

ثم من النشالين إلى المتسولين إلى أجهزة الدولة التى تذيق المواطنين الأمرين قبل أن أن تؤدى واجبها نحوهم .

هناك أمران : الأمر الأول عدم تربية الضمير عدم وجود أهمية لتربية الضمير فى مجتمعنا المصرى سواء عن طريق المدارس أو عن طريق وسائل الإعلام .

الأمر الثانى : عدم مؤاخذة المهمل أو اللامبالى — إننا لو أخذنا هؤلاء أى لو كان هناك عقاب على تأخير ، أعمال المواطنين لما ساروا على هذا .

ثم عن أزمة الشباب فى مصر تحدثنا عن الشباب الذى يقف عاجزاً أمام تحقيق أمنيته فى الزواج أمام الأزمة الطاحنة فى المساكن أو فى المغالاة فى المهور :

قال الإمام الأكبر : فى أقطار كثيرة يحصل الموظف فى بدء حياته على أضعاف ما يبدأ به الموظف فى مصر مع أن الحياة فى مصر فى الواقع أصبحت صعبة

بينما المرتب الذى يبدأ به الشاب حياته ٢٠ جنيهاً أو أكثر لا تكفى حقيقة لا المسكن ولا المعيشة .

لو أن الموظف حصل فى بدء حياته على مرتب لا بأس به يستطيع أن يحقق به الحياة الكريمة ما كنا نسمع عن هذا التحلل الأخلاقى فى كثير من نواحى الحياة : كما يجب تركيز الجهود على بناء المساكن الاقتصادية التى تساعد على حل هذه المشكلة :

الأحياء فى المقابر :

هنا سألته رأى الدين فى شأن المواطنين الذين زحفوا على المقابر يزاحمون الأموات فى سكناهم — إن عدد الذين يعيشون الآن فى الأحواش يزيد على نصف مليون مواطن ، يعيشون حياتهم الدنيوية فوق أجداث إخوتهم الذين سبقوهم إلى العالم الآخر .

قال الإمام الأكبر :

فى حقيقة الأمر كلما كانت هناك ضرورة حتمية كلما كان هناك جواز فى الشرع الذى يبيح أو يسمح حينما تكون هناك ضرورة حتمية .

إن هؤلاء الذين يسكنون المقـــابر ما كانوا يحبون ذلك أو يميلون إليه أو يرغبون فيه لكنهم سقطت بيوتهم دون أن يجدوا مساكن أخرى تأويهم إلا أنه فى حالة انتفاء الضرورة يجب على المواطن الذى يقيم فى المقابر أن ينتقل إلى المسكن الذى يتاح له .

ثم جاء دور التليفزيون . أين هو من كل ما أصاب حياتنا ؟ أين الإذاعة أيضًا من كل هذا ؟

أسرع الإمام الأكبر يرد : هناك برامج كثيرة لا بأس بها فى التليفزيون أو الإذاعة لكن شهر العبادة لم يمنع المسئولين فى التليفزيون من أن يقدموا أشياء لا يرضى عنها الضمير الحى أو يرضى عنها الخلق السليم أو يرضى عنها الإسلام .

كان يجب أن ينتهزوا شهر رمضان الذى هو شهر التقوى لكى يهيئوا المجتمع الإسلامى — الذى هو مهيأ من أجل الصوم — لكى يتقبل النصائح أو المواعظ أى نهيىء له جواً من الإيمان جواً من التقوى سليمًا خالصًا صافيًا من شوائب الخرافات . من شوائب الأساطير من شوائب اللهو فى هذا الشهر المبارك .

الواقع أن التليفزيون أداة من أكبر الأدوات فى مجال إصلاح الأخلاق أو إفسادها . عليه يعتمد الكثير من صلاح المجتمع أو فساده .

ليس من المعقول أن يقدم التليفزيون امرأة راقصة فى يوم إسلامى بينما هى تشبه أن تكون عارية .

إنه يفعل ذلك فى كثير من الأوقات كما أنه ليس من المعقول أن تأتى منه هذه الأغانى العابثة اللاهية التى تدعو إلى أشياء كثيرة من التحلل أو من الإباحة فى الجو الإسلامى .

كما ينبغى أن يكون هناك ضمير حى عند المشرفين على هذه الأدوات حتى تكون هذه الأدوات أداة إصلاح .

لكن ليس من المعقول أن ننفق هذه الآلاف بل الملايين فى هذه الأمور التى تفسد المجتمع .

كان ينبغى أن يكون هناك ضمير حى عند المشرفين على هذه الهيئات .

ثم من التليفزيون إلى الشباب على كل ما هو عليه حيث سألت الإمام الأكبر أن يتكلم إليه فى كل موقع .

قال الإمام الأكبر : أدعوا أبناءنا أن يجدُّوا فى أعمالهم . . الوطن فى حقيقة الأمر فى أشد الحاجة إلى شبان مخلصين يعملون من أجله حتى يرتفعوا به إلى المستوى الذى وصلت إليه الأوطان الأوربية .

كنت قد استأذنت الإمام الأكبر فى ساعة بعد المغرب . حرصت على أن أكون ملتزمًا أمام الرجل الذى يستقبل من بعد المغرب حتى صلاة العشاء عشرات من أبنائه الذين يحرصون على أن يستزيدوا علمًا . . ولكنه رحل وتركهم وكان آخر لقاء .

هذا قضاء الله

إلى روح الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود
الذى رحل عن دنيانا من قريب *

دكتور سعد ظلام

هذا قضاءُ اللهِ فى الأكوانِ ... ورسالة الأحياء والأزمانِ
قضت المشيئةُ . . لا بقاءَ لكائنٍ ... غيرُ الإلـه : . وكل شىء فانِ
أنَّى اتجهتُ إلى الحياة فلم أجدْ ... إلا دُخانًا آخذًا بدخانِ
وأرى الوجودَ كزورق متحطم ... يرنو بإشفاق إلى الربانِ

* * *

أإمامنا . . والفكر فى أوهامه ... والعقل بين تصارُعِ الغيدانِ

ناديتُ قلبي يوم داهمك الــردى يا قلبُ . . جفت أغصُــنى وجنانى
ومضى المغرِّد . . والجراح تؤوده واستسلمتْ لخريفهــا أفنــانى
ومشى على ألق الخميلة عــاصف خشعت لديه سوامقُ الأغصانِ
كانت جنــان أزاهر فتّانة لم يغفُ عن تنسيقها جنّــانى
ناجت بها الفجر الجميل بلابلى أين السنا ؟ وتبسم الألحــان

* * *

هذا الموسَّد أمّة . . مذخــورة أمجاده . . لم يُحصِها حُسبــانى
العالم المفضال فى أقــواله وفعالــه والروح والوجــدان
سبق الزمــان بفكرِه حتى سما وعلا على الأكــوان والأزمــان
مترفِّــع حتى عــلى آلامه كالطود تيَّــاه على الــوديان

* * *

أنا لست أنعى . . كيف يُنعى خالد وهو الخلودُ الثابتُ الأركانِ
إنى أحسك فى النماء وفى الربيــ ع يرف فوق ذوائب الأغصان
وأراك فى جفن الصباح تحوكه ثوبًا لشعبك زاهرَ الألــوان
وأحس روحك فى السهول وفى الربى دوحًا . . تدفق بالشذى الفتّان
وأحسّه بين الجموع حماسها متدفقًا . . كتدفق الفيضــان
وأحسّه فى كل شيء حــولنا نغمًا ودوداً فوق كل لسان
لا . . لم تمت « عبد الحليم » ولن تمو تَ . . فأنت فوق الموت والحدثــان

* * *

لهفى عليك . . وقد نُعيت فروعت منا النفوس . . ورُوِّع الثقلان
ومشى الأسى فى كل قلب . . فاكتوى ألمًا . . وأذكى لــوعة الأســوان
ومشى على الآفاق . . فارتاعت له كلّ القلوب . . قصيِّها . . والــدانى
كم أجهشت روح . . وذابت مهجةٌ وذوى فؤاد . . واكتوت عينــان
وسرى بعاطفة الجموع . . كما سرى بين الهشيم تــوهجُ النــيران
كيف انحنيت أمام أحداث الردى ولأنت عمرك مــا انحنيت لجــانى
كيف ارتضيت هزيمةً . . لم ترضها أبداً . . وأنت بساحة الميدان

لكنها فوق الوجود . . وفوق نا   موس الحياة . . وقدرة الإنسان
قـدر يصيّرنا . . ونحـن إزاءه   مستسلمون . . كريشة الفنـان
وقضاً يريد . . ولا مفر من القضا   أبداً . . فتلك قضية الحدَثان
ومنية . . نجرى فتجرى خلفنا   ولسوف تدركنا بكل مكان . .
ورحى تدور بعُمرنا ووجودنا   فنموت صرعى ذلك الدوَران
ونفورٌ من طيف المنون . . فنلتقى   بطيوفه فى ذلك الجريان
سكن الحراك . . وكنت ملء حياتنا   نبض الحياة . . وخفقةَ الشريان
الله جارُك .. كنت خير جوارنا   والله أمنُك . . كنت خيرَ أمان
بكت الكنانة والعروبة والندى   والشرق والإسلام ينتحبان

* * *

يا راعِىَ الإسلام عشت جِهادهُ   حراً . . وقدتَ فيالق الإيمان
آليتَ لا تدع السلاح مجاهداً   حتى يصلّى النور فى الشطآن
وتمد فوق الضفتين نهاره   وضياءه الألاّق للإنسان

* * *

الأزهر المعمور فى أحزانه   يأسى . . ويبكى أنجب الولدان
قد كنت مئذنتيه حين تأبتا   والقبلتين . . ومهرجانَ أمانى
أعليت فوق النّيريْن مكانه   وغرست دوحته بكل مكان
ودفعته نحو النهوض وشمرتْ   يمناك تُعلى نهضة العرفان
وكم اختلفنا فى السبيل . . وإنما   فى الغاية العصماء متفقان
قد كنت تلقانى بوجه باسم   وتُجل فوق الفرقدين مكانى

* * *

الأزهر المعمور . . فوق جراحه   يقظ المواهب . . واثق الإمكان
ما زال يزأر بالنبوغ وبالحجى   الساح . . والأبهاء . . مأهولان
قالوا : انتهى العلماء .. دعوى .. لم تقُم   فالأم ما عقمت . . ولا القمران
الله باركه . . وأفعم ساحه   بالنابهين . . الشيب . . والشبان
من كل أروع كالسماء شموخه   وعلومه . . والشمس مؤتلقان

قد ماج بالأشبال .. أو ماجَتْ بـــه — متحفزات للوثـــوب الـــدانى
يفدون بالأرواح عذب سنائه — من أجل أن يبقى على الأزمـــان
الأمس شدنـــاه عزيز الشان — واليـــوم نرفعه عزيز الشـــان
وغـــداً ستوقظه مواكب فجرنـــا — ولسوف يحيا فى الغـــد اليقظان

* * *

يا صاحب القلب المضىء نبالـــةً — أفهكذا تنأى عن الميـــدان ؟
وتغيب عن ساح الجهاد .. وينتهى — فى الجيل مـــدُّ البحر والبركان
فى عالم الدين القويم شببتهـــا — غـــراء للـــكهـّـــال والشبـــان
ومضيت تحمل مشعلا متألقـًا — كالشمس فى ألق الشروق الحـــانى
حرّ العقيدة . . لا تخاف . . ومؤمنا — بالحق . . لا متزعزعَ الإيمـــان
لك فى قلوب المسلمين جميعهم — فضل . . يقل إزاءه شكـــرانى

* * *

يا راقداً خلف الغيوب معـــانِقـًا — قرآن ربّك . . حافـــظ القرآن
ما مات من ملأ الزمان مناقبـــاً — وحبـــا الحيـــاةَ مناهلَ العرفان
فى كل ناحية شببتَ أئمـــةً — تسمو إليها أكبـــدُ الظمآن
وبنو الحياة مع الحياة . . يهمهم — أن يسعدوا بتطاول البنيـــان
لما يئست من الحياة . . وأهلهـــا — وسئمت مـــا فى الدهر من بهتان
ناديت للربان : ألْقِ شراعنا — يا للْحيـــاةِ تضيق بالإنسان
وحملت فوق الموج روحـًا حالمـًا — مُزِجت بـــه الأحلام بالأشجان

* * *

أبتى .. وصفوةَ من عرفتُ .. وذاكرى — إن عقنى فى محنـــتى إخـــوانى
إن يقضنى حزنى عليك فإنمـــا — قلب الوفـــاء تغلـــه أحزانى
لـــكن عزائى فيك أنك مؤمن — بالله . . باليوم القريب الـــدانى
أفنيت عمرك جاهـــداً ومجاهـــداً — فى العلم والتقوى وفى الإحسان
حتى غدوتَ . . وكل يوم مشعل — وحياتك الفيحـــاء . خضر جنان

هذا عزائى فيك يـــا أملاً ذوى وعزاء نفسى فى رضا الرحمن
ذهب الردى بالأمنيات . . ولم يعُد إلا الأسى . . وتجرُّعَ الثكلان
الركب أسرع بالمسير . . ولم يزل قلبى الحزين للوعـــة النيران

الحزين الأسيف
د/ سعد ظلام

شيخ الأزهر

(حياته ومؤلفاته فى سطور)

● ولد شيخ الأزهر الراحل فى قرية السلام بالشرقية فى مايو عام ١٩١٠ والتحق بالأزهر حيث حصل على الشهادة العالية عام ١٩٣٢ وفى نفس العام سافر على نفقته الخاصة إلى فرنسا حيث التحق بجامعة السوربون ودرس فيها علم النفس والاجتماع وتاريخ الأديان وفى عام ١٩٣٧ ضم إلى البعثة الأزهرية بباريس فدرس الدكتوراه وكان موضوعها فى التصوف الإسلامى ، ونال عليها درجة الامتياز بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤٠ بعدها عاد إلى مصر وعين مدرساً لعلم النفس بكلية اللغة العربية ، وظل يتنقل فى المناصب العلمية حتى وصل إلى عميد كلية أصول الدين عام ١٩٦٤ .

● وفى عام ١٩٦٨ عين أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية ، ثم أصبح وكيلا للأزهر عام ١٩٧٠ وفى عام ١٩٧١ اختير وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر ، ثم أصبح شيخاً للأزهر منذ عام ١٩٧٣ .

● وقد سافر فضيلة الإمام الراحل إلى معظم البلاد العربية والإسلامية والأوربية حيث سافر إلى السعودية والكويت وأندونيسيا والباكستان والهند ويوجوسلافيا . . وكان أول شيخ للأزهر يزور الولايات المتحدة الأمريكية ، ويلتقى بالرئيس كارتر فى العام الماضى .

● كما اختير أستاذاً زائراً لكثير من الجامعات العربية والإسلامية من بينها تونس وليبيا وجاكارتا وكابول والخرطوم وماليزيا ، كما حضر العديد من المؤتمرات والمهرجانات الإسلامية فى البلاد العربية والإسلامية والأوربية ومن بينها المهرجان

الإسلامى الكبير الذى عقد فى لندن عام ١٩٧٦ .

● ألف وترجم وحقق العديد من الكتب باللغتين العربية والفرنسية وكان آخر كتبه عن تاج الصوفية أبوبكر الشبلى وقد تسلم النسخ الأولى منه وهو على فراش المرض .

● كما صدر آخر كتاب له مترجم إلى الإنجليزية فى الشهر الماضى فى لندن عن (عقيدة الإسلام) وكانت مؤلفاته تتجه بصفة عامة نحو التصوف الإسلامى.

● كانت السعودية آخر رحلاته إلى الخارج ، حيث شارك علماء المسلمين فى المؤتمر الذى عقدته فى الشهر الماضى أمانة المؤتمر الإسلامى بجدة عن تطوير الدعوة الإسلامية وقد قام عقب انتهاء المؤتمر بأداء العمرة وزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

● للإمام الراحل ولدان هما الدكتور محمد عبد الحليم وزير مفوض بالخارجية والدكتور منيع مدرس بكلية أصول الدين جامعة الأزهر وثلاث بنات و ٢٩ حفيداً .

● ومن وصايا الشيخ التى ظل يطالب بها حتى آخر لحظة فى حياته الاستمرار فى فتح المعاهد الأزهرية والاستمرار فى المطالبة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية . كما ذكر أحد المقربين إليه أنه أوصى بأن يدفن بجوار سيدى ابن عطاء الله السكندرى غير أن الأسرة أصرت على أن يدفن فى قريته .

● من آخر قراراته قبل دخوله المستشفى تعميم معاهد القراءات فى جميع محافظات الجمهورية باعتبارها تخدم القرآن وتسد حاجة مصر والعالم الإسلامى من القراء ، كما اعتمد أكبر حركة ترقيات فى الأزهر شملت نحو ألف من العاملين فى الأزهر وقد كانت آخر مذكرة اطلع عليها عن تدعيم المناطق التعليمية والإدارة العامة لشئون القرآن الكريم .

● كان مهتماً فى آخر أيامه بمشروع الدستور الإسلامى الذى سيعرض على المؤتمر الدولى التاسع لعلماء المسلمين الذى سينظمه مجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة — إن شاء الله — عمّا قريب .

● توضأ الإمام الأكبر الراحل وصلى ركعتين لله قبل الدخول إلى غرفة العمليات وظل يؤدى الصلاة متيمماً من حجر جاف بعد إجراء الجراحة وظل هكذا حتى لحق بالرفيق الأعلى .

إلى السادة راغبي الاشتراكات فى مجلة الأزهر

عليكم الاتصال باشتراكات أخبار اليوم (توزيع الأخبار)

٣ (أ) شارع الصحافة – القاهرة

وفيما يلى قيمة الاشتراك للمجلة لمدة ١٠ أعداد سنوياً

أولاً : جمهورية مصر العربية

١,٥٠٠ (جنية وخمسمائة مليم)

ثانياً : دولة اتحاد البريد العربى الأفريقى :

٢,٧٠٠ (جنيهان و ٧٠٠ مليم) أو أربعة دولارات

ثالثاً : باقى دول العالم :

٨,٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ ثلاثة عشر دولار تسدد قيمة الاشتراك فى مصر نقداً أو شيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الأفريقية .

والدول الأجنبية بشيك مصرفى مسحوباً على أحد البنوك العالمية لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم :

المراسلة على هذا العنوان

توزيع الأخبار ٣ (أ) شارع الصحافة – القاهرة

فهرس العدد

	صفحة
١ – الإنسان الكامل فى نظر محمد إقبال للعلامة أبو الحسن الندوى	١ – ١٥
٢ – إلى أين يتجه الإسلام والمسلمون . . . ؟ للعلامة أبو الأعلى المودودى	١٦ – ٢٦
٣ – الهجرة وآثارها وأنواعها وأحكامها للشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير	٢٧ – ٣٤
٤ – هاكم آية واحدة تبعث الحياة بين المسلمين وتجدد شباب العالم للأستاذ أحمد حسين	٣٥ – ٤٣
٥ – مسلمة بن عبد الملك بن مروان للواء الركن محمود شيت خطاب	٤٤ – ٧٩
٦ – بين الموالاة والمعاداة للدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة	٨٠ – ٨٧
٧ – فى مواجهة الإلحاد المعاصر للدكتور يحيى هاشم	٨٨ – ٩٥
٨ – منهج المدرسة الإسلامية الأولى للعلامة محب الدين الخطيب	٩٦ – ١٠٦
٩ – عالم أزهرى يدعو إلى السلام العالمى للدكتور محمد رجب البيومى	١٠٧ – ١١٥

صفحة

١٠ – العمل الاقتصادى من وجهة نظر الإسلام
للدكتور رءوف شلبى ١١٦ – ١٣٦

١١ – جرير والموالى
للأستاذ السيد حسن قرون ١٣٧ – ١٤٤

١٢ – مع رسالة الأدب الصوفى
للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى ١٤٥ – ١٥٣

١٣ – أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية
للدكتور توفيق محمد شاهين ١٥٤ – ١٦٦

١٤ – اليهودية : عقيدة ابتدعوها وتوراة حرفوها
للأستاذ زاهر عزب الزغبى ١٦٧ – ١٨٢

١٥ – الأزهر جامعاً وجامعة
للأستاذ محمد كمال السيد ١٨٣ – ١٩٤

١٦ – الفتاوى
للأستاذ عبد الحميد شاهين ١٩٥ – ١٩٨

١٧ – كتاب الشهر : الإسلام دين الجماعة (للرئيس أحمد سيكوتورى)
للدكتور عبد الودود شلبى ١٩٩ – ٢٢٠

١٨ – ملف خاص عن حياة الإمام الأكبر المغفور له الدكتور عبد الحليم محمود
التحرير ٢٢١ – ٢٤٧

١٩ – القسم الفرنسى
للأستاذ مصطفى جلال الدين ٢٥١ – ٢٦٩

٢٠ – القسم الإنجليزى
للأستاذ زاهر عزب الزغبى ٢٧٠ – ٣٠٤

sur le respect de la personne humaine et défini par le pacte Kellog de 1929; "L'exploitation colonialiste internationale, écrivait-il dans la revue **Hespéria** de Zurich, exploitation savante et implacable, n'est pas le déchaînement d'un matérialisme aveugle, c'est **une dépravation calculée** des forces spirituelles authentiques de l'humanité. L'apparente dispute entre les Anglo Américains n'est qu'une comédie; aleur solidarité financière profonde, par quoi ils prétendent défendre au Proche Orient et singulièrement en Palestine les religions contre l'URSS, n'est qu'une accélération du suicide moral de la civilisation européenne."

Le pieux chrétien qu'était Louis Massignon ne voyait plus luire qu'un seul espoir : la possibilité de relancer un nouveau droit international fondé, cette fois, sur des principes islamiques, au premier plan desquels le droit d'hospitalité, affirmé avec tant de force par les textes sacrés juifs et islamiques (et fondamental aussi dans de nombreuses civilisations qui ne connaissent ni la Bible ni le Coran).

Massignon rejoignait ainsi cet appel à une union dans le cadre de l'Islam que nous venons de citer; et cet appel constitue peut être la seule chance de survie de l'héritage spirituel que nous ont légué les siècles passés, héritage menacé, à l'heure actuelle, de destruction totale.

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

ment, en se conformant aux préceptes révélés de sa religion. Sinon, je vous le demande, **à quoi bon** faire **un monde meilleur,** comme ils disent, **si c'est pour une humanité pire** ? En fait, par beaucoup de ses aspects, cette "civilisation moderne" est une civilisation qui-est sortie de ses rails, et son sort tragique est facile à prévoir....

Mais, en cette fin de 20e siècle, **c'est là le fait nouveau,** cette civilisa tion risque d'entraîner dans sa perte une grande partie de l'humanité. Et c'est pourquoi nous souhaitons que retentissent partout les Avertissements et le Rappel coraniques, adressés de façon pertinente à tous les peuples qui s'engagent sur la voie d'un matérialisme sans issue.

Serait-il impossible d'élever le niveau de vie des masses humaines qui souffrent actuellement dans leur chair de la faim et de la misère, tout en sauvant les facultés suprêmes de l'homme, ses facultés de compréhension et de contemplation des Vérités éternelles, lesquelles peuvent l'aider à se surpasser, à se transformer en développant le meilleur de lui-même pour son salut ou pour sa délivrance ?

A cette question, les Musulmans répondent : Non ! Non, ce n'est pas impossible; citons encore quelques lignes du livre **La Mission civilisatrice de l'Islam,** publié, nous le rappelons, au Caire en 1954 :

"Les progrès de la science positive mettent à la disposition de l'homme des forces naturelles dont, il y a encore peu de temps, son imagination était incapable de concevoir la puissance, — par exemple l'énergie atomique dont le20e siècle, ce géant en science et pygmée en morale, a abusé avec barbarie; ces progrès permettent la destruction rapide de villes et de populations entières par bombardements aériens, et ont développé la crainte de la bombe à hydrogène, capable d'anéantir la civilisation et même l'espèce humaine; d'où la proposition, par certains, d'un gouvernement mondial et de l'abolition des frontières nationales et ethniques, obstacle à l'unité à l'échelle universelle.

Mais est-il possible, demandait l'auteur du livre, de réaliser une telle suggestion, alors qu'une décadence spirituelle générale a conduit à la faillite feue la Société des Nations et l'actuelle Organisation des Nations - Unies ?"

Il ajoutait toutefois: "cependant, sous la pression des événements, le monde entier, pour se sauver, cherche à réaliser son unité, sous une forme ou sous une autre." Et il concluait :

"L'orientation spirituelle nécessaire qui manque à la civilisation occidentale, le monde musulman la possède."

A la même époque, Louis Massignon, professeur au Collège de France, la plus haute institution universitaire française, constatait la faillite du Droit international fondé

J'aurais voulu aussi expliquer ce qu'il faut entendre par le primat de l'intelligence dans l'Islam. Le Coran déclare explicitement que le Christianisme est la religion de la Compassion. L'Islam, lui aussi, fait une place de choix à la compassion, puisque chaque musulman évoque perpétuellement, dans ses prières quotidiennes, Dieu sous le nom de Compatissant; le Christianisme met l'accent sur la Compassion, tandis que l'Islam le mettra sur l'Intelligence, non pas l'intelligence utilitaire qui n'est qu'une sorte de fonction biologique, mais sur l'Intelligence Supérieure, celle qui permet à l'homme de s'élever à la connaissance de l'Unité Suprême, à la Transcendance Divine, à la Contemplation, ce que met en évidence la parole fameuse que la Tradition reconnaît avoir été prononcée par le Prophète (Paix sur lui et sur les siens) :

"L'encre de celui qui sait vaut mieux que le sang des Martyrs"

Nous venons d'évoquer ce qui nous semble une des caractéristiques fondamentales de l'Islam; il faudrait une causerie entière pour examiner d'une façon approfondie le Primat de l'Intelligence, et tout ce qu'il implique; mais je me suis promis de vous dire encore quelques mots à propos de la crise de la civilisation moderne et contemporaine, - et ceci afin de dégager l'idée que l'Islam offre actuellement à l'humanité entière sa meilleure chance.

C'est de façon tragique que, dans plusieurs sourates, le Coran évoque les civilisations de nombreux peuples détruits â cause de leur refus d'écouter les Prophètes à eux envoyés : peuple de Thamoud, peuple de Noé, peuple de Loth et combien d'autres. . . . vieux peuples certes, mais non vieilles hîstoires : chaque fois que j'entends ces versets, je les sais actuels; ces civilisations condamnées pour avoir perdu le sens du Sacré me font penser à cette civilisation contemporaine, essentiellement européenne et américaine, où l'on constate objectivement, et de plus en plus, le refus, conscient ou inconscient, par des millions d'êtres humains, du Sacré...

Ou bien ils se précipitent dans une recherche effrénée du confort matériel, idéal pour lequel, paradoxalement, ils se livrent souvent, pendant des années, à des travaux épuisants et absorbants : leur vraie religion, c'est celle du confort matériel, et cela devient vite la religion de l'Argent,le culte du Veau d'Or.

Ou bien ils espèrent changer le monde où ils se trouvent, mais ce que nous disent des siècles de sagesse et de piété, ce qui est à changer, c'est essentiellement l'homme, ce n'est pas le monde; certes, dans certains cas, il peut être bon de modifier telle institution politique ou économique, - mais à condition de se souvenir que ces transformations ne doivent pas diminuer les possibilités que chaque homme a de s'élever, d'**évoluer** intérieure-

"dure" pour l'homme de cette **civilisation moderne** qui s'est développée sur- tout en Amérique et en Europe. Idée désagréable, idée inopportune, idée qu'on rejette, idée que l'on proclame au besoin "révoltante". L'homme s'examinant lui-même, se trouve bon, intelligent, libre ...

"Alors, si Dieu existe, il reconnaîtra mes mérites, il ne peut me punir . . . " Un tel homme comprend le Jugement de Dieu d'une façon puérilement anthropomorphique. Il s'imagine dans les arrières--plans brumeux de sa conscience un Dieu qui serait un homme aux facultés supérieures élargies et devenu immortel . . . Mais ce n'est pas à tort que les religions nous montrent souvent le "coupable" ou le "méchant" sauvé après repentance, - et celui qui se croyait "sincèrement" bon condamné, condamné pour son aveuglement et les mensonges qu'il se faisait à lui-même. Cet aveuglement se dissipera peut-être dès la mort,et le déchirement devant l'évidence que c'est trop tard, qu'on a jeté ses bonnes cartes et perdu la partie sera peut-être le Feu Brûlant, l'Enfer. Selon la formule coranique, "ses membres mêmes l'accuseront!" Lorsqu'il quittera l'existence, ces quelques dizaines d'années passées entre la naissance et la mort, c'est son essence même, c'est le plus intime de lui-même qui l'accusera, c'est ce patrimoine qu'il aurait dû préserver et faire fructifier, et qu'il a négligé.

J'aurais voulu pouvoir dire aussi quelques mots sur l'existence dans l'Islam de voies spéciales qu'on groupe parfois sous le nom **d'"ésotérisme islamique"**. Certains fidèles désirent vivre leur religion en appartenant à un groupe qui leur fournit des maîtres, des compagnons d'étude et de développement. L'Islam donc ne condamne pas a priori de tels groupements; il enseigne à les considérer avec prudence, leurs particularismes créant des conditions favorables à des déviations qui peuvent être de différentes sortes; pour ne citer que la plus misérable, l'utilisation, à certains moments, par des puissances colonialistes, de certaines confréries menées par des chefs égarés. Ceci posé, il n'est pas indifférent de connaître leur existence. J'ajoute que dans ces confréries, en général, la soumission à un ou plusieurs maîtres spirituels, l'adoption de règles spéciales, la pratique d'exercices particuliers n'exclut nullement l'exécution des actions que l'Islam déclare obligatoires ou recommandées. Pour le faire comprendre, certains, symbolisant l'ésotérisme par la maison et l'exotérisme par la porte, prononcent la formule coranique suivante :

« وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا »

"Entrez dans les maisons par les portes."

lui opposant le Bien; aimer son prochain mais du fond du cœur; savoir pardonner, mais aux vrais repentants; savoir s'opposer fermement à la violence. Tuer un innocent est "aussi criminel que de tuer toute l'humanité, mais celui qui sauve une âme a tout autant de mérite que s'il sauvait toute l'humanité . . ."

La compassion envers tous le-êtres, la piété, l'humilité devants Dieu, l'amour et le respect des parents, la pudeur sont aussi des vertus exaltées en termes souvent sublimes dans le Livre Saint.

Mais plus de 80 fois y est répété le mot PATIENCE. Le mot arabe que nous traduisons par patience évoque le courage et la persévérance dans l'effort, l'adversité et le danger. Cette vertu est espérance, elle est charité, elle est foi. Par elle, le Coran nous invite à supporter les maux, les coups du sort, les vicissitudes de la vie, car notre espérance ne peut mourir si notre foi reste vivante; par cette vertu le Coran fortifie ou fait naître au coeur de l'homme une charité qui nous permet de supporter nos semblables, même lorsque l'ignorance ou la méchanceté les possède, que ce soient nos semblables au sein d'une même nation, ou que ce soit au sein de la famille ou des groupes professionnels.

Corrélativement à la Patience, un des traits les plus frappants de la foi islamique est l'absence de barrières entre Dieu et les hommes, entre l'Adoré et les adorateurs. Comme je le lisais en 1954 dans le livre **La Mission civilisatrice de l'Islam**, de Mohammed Atta: "Le Message du Prophète, déclarant que Dieu est plus près de l'homme que son âme même, mettait ainsifin aux hérésies, aux médiations ecclésiastiques et aux pratiques de ce genre. Le contact étroit entre l'homme et son Créateur, selon l'enseignement de l'Islam, s'établit simplement par la Foi. Chaque Musulman peut facilement se laisser absorber dans l'esprit de l'Islam, en respectant ses commandements, en observant ses préceptes sans astreinte exagérée, sans effort excessif".

CINQUIEME CAUSERIE

Je dois la vérité à mes auditeurs : je me proposais de développer encore quatre points : Jugement dernier, Confréries islamiques, place privilégiée de l'intelligence dans l'Islam et enfin, la crise du monde moderne, quatre questions fort différentes, mais d'importance considérable. Je devrai me borner à les définir rapidement.

J'aurais voulu faire entendre plusieurs passages des nombreuses Sourates qui annoncent l'Evénement inévitable, le Grand Tremblement de la Terre, le Jour qui envel oppera tout, le Ciel qui se fracturera, les Etoiles qui se disperseront, ce jour de la Grande Nouvelle, ce jour du Jugement que le Coran évoque si dramatiquement, et tant de fois, et qui est peut-être si proche. Cette idée est souvent

"patriarcal père de famille."[1]

Le jeune homme évoque alors les nombreuse familles iraniennes où l'homme ayant plusieurs femmes consacre son existence à organiser de façon correcte la vie extérieure et la vie intérieure de ses épouses. Celles-ci s'efforcent d'aider leur mari dans ses obligations de vie; par contre, l'européenne, en général, dès le jour du mariage, considère son mari comme son "bien personnel"; Et, se croyant assurée de cette propriété, elle consacre toute sa vie intérieure à poursuivre "ce quelque chose qui constitue l'Idéal incertain dont s'éprennent dès l'enfance les demoiselles européennes, grâce à la fameuse éducation imaginée à leur intention, ajoute l'iranien, avec toujours plus de raffinement,par certains écrivains malhonnêtes de là-bas". Dans les conditions européennes de la vie familiales où, bin souvent, le nombre de femmes dépasse de beaucoup cel'ui des hommes, l'absence de l'institution bienfaisante de la polygamie, conclut-il, "donne lieu à des milliers d'ennuis et d'inconvénients qui pourraient fort bien ne pas exister."

La polygamie, remarquons-le encore une fois, n'est même pas conseillée par le Coran, et vous vous souvenez des conditions qui y sont attachées. Dans une société musulmane donnée, la proportion des foyers polygames peut être extrêmement faible (moins de UN pour cent).

Mais cette institution permet à certains hommes et à certaines femmes de vivre une vie normale, alors que l'intolérance des législations monogamiques ne le leur permettrait pas. Or, pour me borner au cas des hommes, certains ont besoin (pour une raison ou pour une autre), à certains moments, ou bien tout au long de leur existence, de plusieurs épouses. Est-il besoin de rappeler qu'y voir débauche ou luxure témoigne d 'un esprit superficiel et de l'ignorance des charges que doit assumer le musulman qui a plusieurs femmes?

Ces devoirs qui constituent une éthique conjugale bien définie me donnent l'occasion de rappeler qu'il y a dans le Coran toute une éthique,-que le Livre Saint indique, d'une façon sobre et précise, - bien différente de la plupart des exposés courants de morale religieuse qu'on rencontre en Occident; un certain nombre de "vertus" sont prônées explicitement; on ne peut séparer cette éthique, cet idéal personnel d'un idéal communautaire qui la prolonge, qui s'en dégage naturellement et logiquement; nous sommes obligés de nous borner ici à une énumération un peu sèche, condensant des enseignements disséminés dans les Sourates, notamment 5, 6, 17, 23, 42.

L'homme doit rendre le bien, mais au décuple; chasser le mal, mais en

(1) G.I. Gurdjieff **Récits de Belzébuth** éd. Janus, Paris 1973 (p. 963).

il est fort souvent préférable que l'homme n'ait qu'une épouse, — mais, en certains cas, il peut être bien que l'homme en ait deux, trois ou quatre; il n'y est autorisé que s'il pense être capable de les traiter avec justice. Comprenons bien : une justice rigoureuse est évidemment impossible, mais un effort sincère pour un traitement équitable des épouses est exigé :

"Vous ne pourrez jamais traiter également toutes vos femmes quand bien même vous le désireriez ardemment; mais si vous êtes sur une pente, ne vous laissez pas aller du côté de cette pente : ne laissez pas une autre femme en suspens. Si vous êtes généreux et remplis de la crainte de Dieu, Dieu pardonne dans la Miséricorde."

Par ailleurs, dans le droit musulman, les formes du mariage sont souples et variées; si le mari a toujours le droit de répudiation, la femme peut se réserver la liberté de rompre son mariage par clause inscrite au contrat, par exemple, au cas où son mari prend une deuxième épouse.

Et, si une tradition pose que de toutes les choses permises, le divorce est celle qui plaît le moins à Dieu, la deuxième des citations que nous allons faire montrera que le Coran n'en reste pas à une attitude négative vis-à vis des personnes divorcées. D'abord le Livre Saint recommande, en cas de division entre époux. de leur envoyer deux arbitres, un, pris dans la famille du mari, l'autre, dans celle de la femme. Et, si la réconciliation intervient, Dieu fera régner l'entente entre les époux. Mais:

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

"Si le divorce est irrévocablement décidé, Dieu entend tout et sait tout." Et en ce cas:

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ
وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَلِيماً .

"Si les époux se séparent, Dieu par sa surabondance comblera chacun d'eux, Dieu est immense et sage".

La réglementation musu lmane du mariage est d'une grande souplesse et peut s'adapter bien mieux que beaucoup d'autres à l'extrême variété des situations et des aspirations individuelles.

Donnons la parole à un écrivain grec contemporain (ou plutôt à un de ses personnages, jeune iranien vivant en Europe depuis plusieurs années); considérant sur le mode plaisant tous les couples assis dans le "Grand Café" où il est installe, il s'exprime ainsi : "si vous remarquez dans les voix de ces hommes et de ces femmes certaines notes gaies, tandis qu'un sourire apparaît sur leur visage, vous pouvez être tout à fait sûrs qu'ils apporteront tous leur soins, s'ils ne l'ont déjà fait, à gratifier leur **"légitime moitié"** de la plus grande et de la plus magnifique "paire de cornes". Tout homme tant soit peu rusé passe ici pour un très honnête mari et un

j'estime nécessaire d'avertir certains auditeurs qui pourraient être dérangés dans leurs habitudes mentales par certaines des vues que nous dégagerons (pourtant à mon avis banales et natûrelles); à ceux - là qui pourraient être choqués par quelques - uns des points que je compte aborder, je demande de réfléchir, de ne pas se laisser entrainer par une réaction négative automatique. Et je ne peux mieux faire que de leur demander de faire avant tout un effort de sympathie et de compréhension. Et je prendrai à mon compte ce que répétait souvent un de mes maîtres :

"Le péché contre l'Esprit, le seul péché qui ne puisse être pardonné, c'est de ne pas essayer de faire d'abord un effort pour voir en toute chose, en tout être, le Bien qu'il comporte. Il en comporte toujours".

QUATRIEME CAUSERIE

Nous commencerons aujourd'hui, — comme nous l'avons annoncé — par les prescriptions coraniques concernant la nourriture, avant tout, la boisson. Certains pays-et non des moindres-sont minés par le fléau de l'alcoolisme; chez les peuples musulmans l'alcoolisme et ses méfaits sont à peu près inconnus : ils ne concernent tout au plus que certains cas individuels.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا .

'On t'interrogera sur les boissons fermentées et sur les jeux de hasard. Dis-leur : dans l'un comme dans l'autre il y a du mal et des avantages pour les hommes, mais le danger l'emporte sur les avantages."

Quand on sait les sommes fantastiques que coûtent aux contribuables de grands pays comme la France, ou les Etats-Unis, les conséquences de l'alcoolisme : enfants tarés, adultes malades, fous ou criminels, quand on sait l'impuissance des pouvoirs publics à juguler ce fléau, nous pouvons comprendre la dette de reconnais sance contractée par les pays musulmans envers les quelques versets coraniques qui ont su écarter ce mal de la communauté islamique.

Tout aussi importantes sont les prescriptions relatives à la vie familiale et sexuelle.(1) Sur ce point l'Islam montre une compréhension profonde de la nature humaine; — les occidentaux sympathiques à l'Islam se sont bornés souvent à un aspect particulier, en soulignant que la femme musulmane jouit sur le plan juridique de droits longtemps déniés (ou encore désirés par elles) aux femmes de chez eux. A notre avis, ce n'est pas l'essentiel.

L'Islam est large, compréhensif, to lérant, la nature humaine est complexe et variée, les situations sociales le sont aussi. L'Islam ne condamne ni la monogamie, ni la polygamie;

---

(1) Je passe sur la question l'hygièn tntime, fondamentale pour le musulman.

qui le désire, moi qui me trouve si bien dans mon indolence, ce n'est pas moi qui le souhaite, moi qui me complais dans des rêveries imaginaires et dans la satisfaction de moi-même; c'est la voix du Muezzin qui me réveille, ou l'annonce du Ramadan.

"Bien sûr, dira-t-on, l'habitude peut envahir la Prière et le Jeûne; certes, mais il faut faire l'expérience de la Prière et du Jeûne pour saisir à quel point les deux institutions, face à la masse humaine,contribuent à atténuer les effets pernicieux de l'habitude. C'est d'ailleurs pourquoi ceux qui veulent simplifier, faciliter ou supprimer Prière et Jeûne meurtrissent le coeur même de l'Islam. Dans les détails rituels ont été fixés des préventifs souvent fort efficaces à l'installation d'habitudes mécaniques. Au hasard, un exemple : la Prière n'est pas valable si elle n'a pas été précédé de l'expression **consci ente** de **l'intention.**

J'espère avoir mis ainsi en évidence que le Coran est, au sein des masses, un puissant facteur de régulation d'une existence ordonnée vers une vie spirituelle authentique; quand je dis: masses, ceci implique que l'illettré comme l'homme instruit, le balayeur des rues comme le gros commerçant, le cordonnier du coin comme le président du tribunal, chacun peut y trouver l'aide et le ferment pour le développement de ses capacités personnelles. Mais quand je considère toute une partie du monde actuel, j'ai du mal à séparer des cinq obligations auxquelles je me proposais de me borner les prescriptions coraniques qui concernent la nourriture d'une part, et surtout d'autre part la vie sexuelle et la famille. Non seulement comme nous venons de le voir, au Croyant menacé par la tyrannie éventuelle de l'estomac, du sexe et du désir de dominer, l'Islam rappelle l'urgence et l'exigence du spirituel, mais encore le Coran donne sur la nourriture et le sexe des prescriptions qui diminuent le danger qu'ils peuvent représenter, — en contribuant à leur donner leur juste place. Encore une fois toute une partie de l'humanité, depuis plus ou moins longtemps, me semble égarée pour avoir totalement oublié ou déformé les enseignements révélés dans la Bible Juive et dans le Coran. Mais avant d'aborder ces prescriptions que l'on appelle souvent particulières parce qu'elles sont moins générales que les cinq obligations fondamentales, je tiens à rappeler qu'au rebours des livres saints brahmaniques le Coran ne donne pas de prescriptions pour les détails infimes de la vie journalière; il ne définit pas non plus un statut précis de la vie politique ou économique mais il définit les bases, les principes sur lesquels peuvent s'édifier des systèmes variés, selon les temps et selon les lieux.

C'est ce que nous verrons au début de la prochaine causerie. Mais

témoignage quotidien de la vitalité de l'Islam et de sa grandeur, le Ramadan en est la consécration annuelle. Prière quotidienne et Ramadan, je l'ai constaté depuis longtemps, et je le constate encore, impressionnent fortement les incroyants les plus endurcis parmi les étrangers qui séjournent en pays musulman. Cela ne provient pas tant, au fond, d'une ferveur et d'une sincérité subjectives chez les individus que de la puissance objective de l'institution établie directement par voie prophétique il y a plus de mille ans. Et si Prière et Jeûne ont éminemment un aspect personnel, ils ont aussi éminemment un aspect communautaire. Un voyageur allemand me disait un jour "L'Islam est avant tout une Religion individualiste"; un de ses amis, peu après, s'exclamait: "Quel sens du collectif dans cette religion !" La vérité, c'est que l'Islam se développe sans contradiction dans ces deux dimensions apparemment contradictoires. Prière et Jeûne sont, sur des plans différents, les pulsations de la communauté musulmane à travers le monde, et de même que dans tous les Pays de la terre les hommes se ruent 2, 3, 4, 5 fois ou plus chaque jour sur la nourriture matérielle, les musulmans se ruent cinq fois par jour sur le pain spirituel.

Je ne veux pas m'attarder aujourd'hui sur l'aumône légale et le Pélerinage. Ce n'est pas qu'il n'y ait rien à dire. Ces obligations sont toutes aussi fondamentales que les autres, même si certains sont enclins à penser le contraire. Nous le verrons une autre fois, s'il plaît à Dieu. Il nous faut dégager auparavant le fait que toutes ces obligations, qui ne proviennent pas de la subjectivité de l'individu, mais d'une réalité extérieure, d'une Loi canonique révélée, constituent un **Rappel.**

Que de fois ce mot revient dans le Coran :

(إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

"C'est seulement un Rappel pour l'Univers".

Rappel signifie qu'il y a eu **oubli**. L'homme oublie. L'homme dort, somnole tout au long de son existence; la plupart du temps il agit, il pense comme une mécanique, ballotté au gré d'impulsions extérieures, oubliant l'essentiel.

Dans la sourate 54 revient à intervalles quasi réguliers ce lancinant refrain :

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

"Nous avons rendu le Coran aisé comme un rappel. Mais y a-t-il quelqu'un pour y réfléchir ?"

Le Rappel est un réveil, ou du moins un effort pour réveiller. Et ce rappel, ce réveil, les institutions musulmanes vous l'administrent, si j'ose risquer cette expression, de façon exemplaire. Ce n'est pas moi

retour sur soi sérieux, à susciter en soi une méditation susceptible de garantir la solidité de l'engagement que l'homme éclairé prendra vis-à-vis de lui-même.

TROISIEME CAUSERIE

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

"Vous qui croyez, le Jeùne vous est prescrit, comme il a été prescrit à ceux qui vous ont précédés."

C'est après la profession de foi et la prière, la troisième des obligations fondamentales; nous la définirons brièvement, ainsi que la quatrième et la cinquième.

Chaque année, tous les jours du mois de Ramadan, le Jeûne consiste dans l'abstention de toute nourriture ou boisson et de tout acte sexuel de l'aube au coucher du soleil. Outre ces interdits précis, une orientation religieuse de tous les actes, des sentiments, des pensées est exigée.

La quatrième obligation est l'aumône obligatoire; il s'agit d'un renoncement précis que doivent faire les riches, les gens aisés, et ceux qui ne sont pas indigents. Son produit doit être affecté à des usages bien définis, en premier lieu au soulagement de la misère.

La dernière obligation est le pélerinage qui doit être accompli au moins une fois dans la vie, pour peu qu'on en ait matériellement la possibilité. Il consiste à se rendre à une époque précise à la Mecque, et à s'y acquitter de quelques rites, parfois pénibles sur le plan physique.

Ces cinq obligations, simples à exposer, n'exigent point en général des efforts héroïques, mais elles exigent toujours des efforts sérieux; la prière vient chaque jour arracher; et souvent au sens fort de ce mot, — arracher le croyant au train-train de la vie quotidienne, aux sollicitations de l'extérieur, à la douceur du repos, à la chaleur du lit, aux associations d'idées qui tyrannisent la pensée et la mènent, l'arracher aux émotions, aux sentiments divers qui nous assaillent si souvent de toutes parts.

Le Ramadan joue, sur un plan différent, un rôle analogue. On est encore plus arraché, en un sens, à ses habitudes : la vie sociale tout entière est perturbée, selon un mode provisoire; ce dépaysement facilite une mise au point, un retour en arrière et une perspective vers l'avenir, un examen de conscience sur le plan de l'année, d'une de ces quelques dizaines d'années dont se compose votre existence terrestre. Alors, comme la prière est le

La deuxième obligation est ce qu'on appelle souvent en français la Prière; mais comme elle diffère de ce qu'on nomme ainsi couramment dans d'autres religions, on peut l'appeler aussi la Salutation. Voici comme je répondais l'an dernier à une personne qui m'avait écrit pour me demander de lui exprimer de façon très condensée l'essentiel de ce qu'est la Prière musulmane ou Salutation :

Cinq fois par jour le musulman doit arrêter quelques minutes ses activités, ses pensées, ses sentiments pour se rappeler quel est son vrai but, quel est le vrai sens de la vie.

La prière est précédée d'ablutions et de l'expression claire de l'intention consciente qu'a le fidèle d'exécuter cet exercice religieux.

Les détails des gestes et des attitudes de la prière (qu'on ne peut comprendre qu'après l'avoir souvent exécutée) repose sur une connaissance profonde de l'homme et peut prendre des valeurs symboliques précises.

Deux des prières de la journée sont quelque peu différentes des trois autres et sont aussi différentes entre elles.

Des paroles accompagnent les gestes et les attitudes; elles sont prononcées à haute voix ou intérieurement.

A chacune des cinq prières, on récite plusieurs fois la Fatha, la courte sourate initiale du Coran, sur laquelle nous reviendrons, s'il plaît à Dieu. En attendant, nous définirons au début de la causerie prochaine, les trois autres obligations fondamentales, — puis nous montrerons comment elles peuvent ramener l'ordre, autant qu'il est possible, dans l'existence de chaque musulman (elles le ramènent aussi d'ailleurs, autant qu'il est possible, dans chaque communauté musulmane).

Nous commencerons par l'obligation du Jeûne, c'est pourquoi nous croyons bon de répéter en le traduisant plus littéralement le premier verset sur le Ramadan cité au début de cette causerie, verset où le Coran est défini sous le nom de Distinction ou, si vous voulez, Critère (en tant qu'il nous propose de façon instante une option décisive) :

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) .

"C'est pendant le mois de Ramadan que le Coran est descendu d'en Haut : **Direction** pour les hommes, **Explication claire** de la Direction et **Critère** du Bon chemin".

Chaque nouveau Ramadan comme c'est le cas aujourd'hui, réitère cet appel, cette invitation urgente à chercher la Voie Droite, à choisir la juste route apres un

Voici donc ces cinq obligations — nous verrons ensuite comment elles peuvant atteindre le but dont nous parlions tout à l'heure : ramener l'ordre, autant qu'il est possible, dans l'existence individuelle de chaque musulman.

La première obligation, c'est de prononcer la formule "Il n'y a de Dieu que Dieu et Mohammed est un Prophète".

Cette profession de foi ne comporte que deux points :

1. L'unicité de Dieu. Il n'y a qu'un Dieu, celui auquel s'adressent toutes les grandes religions révélées, le Dieu d'Abraham, si l'on veut, **en se souvenant de l'affirmation** coranique :

"Abraham n'était ni un Juif, ni un chrétien."

(مَا كَانَ إبرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا) .

2. Mohammed est Prophète — non pas le seul, mais il est un prophète. Beaucoup de non-musulmans qui acceptent le premier point, l'unité de Dieu, resteront en suspens : comment être sûr que Mohammed est bien un Prophète ? Je ne puis développer ici cette question, mais je puis indiquer qu'il peut y avoir des preuves directes et des preuves indirectes — j'en citerai une de chaque sorte:

Pour ceux qui parlent arabe l'audition ou la lecture du Coran produit fréquemment, à plus ou moins longue échéance, la conviction qu'il est une révélation véridique venue d'en haut, et ceci entraîne directement l'évidence que Mohammed véhicule du Coran, est un Prophète. Un exemple de preuve indirecte, maintenant : elle consiste dans la constatation que l'on peut être amené á faire de l'excellence des prescriptions ou des enseignements de l'Islam, constatation qui peut se faire d'abord dans un domaine précis et limité, puis s' étendre de plus en plus jusqu'à devenir évidence et amener en conséquence, la conviction de la mission prophétique de Mohammed.

Notons encore une fois l'extrême simplicité de cette affirmation fondamentale sur Dieu. **Dieu est Un.** C'est cette extrême simplicité qui fait peut-être l'extrême puissance de l'Islam. Dieu ainsi affirmé, c'est la reconnaissance de la transcendance divine. Il suffit de cette profession de foi, d'ailleurs, pour être musulman. Comme le dit excellement un écrivain que j'ai déjà cité : "Si l'Islam voulait eneigner exclusivement qu'il n'y a qu'un Dieu et non pas deux ou plusieurs Dieux, il n'aurait aucune force de persuasion. La fougue persuasive qu'il possède en fait vient de ce qu'il enseigne au fond (par l'unité de Dieu) la réalité de l'Absolu et la dépendance de toutes choses à l'égard de l'Absolu."(1)

(1) F. Schuon, livre cité.

Buvez et mangez, mais avec sobriété".

En ce qui concerne l'orgueil et le désir de dominer, l'Islam proclame qu'il ne faut pas plus être leur esclave que l'esclave de certaines formes d'humilité et de faiblesse. Certes l'Islam signifie soumission, donc humilité devant les décrets de Dieu, et certes comme le dit le Coran :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

"Dieu n'aime pas les oppresseurs".

Mais par ailleurs une parole sainte est :

"Dieu n'aime pas les faibles".

«المؤمنُ القويّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف» .

Il faut entendre par là que l'Islam est viril, qu'il exalte l'énergie et la force de caractère; on passe souvent sur la parole du Christ : "Je suis venu apporter non la paix, mais l'épée". L'Islam proclame ouvertement le devoir de juste guerre, l'Islam brandit l'épée, mais ce devoir de juste guerre, c'est essentiellement ce que le Prophète — Paix sur les lui et sur les siens — appelait la Grande Guerre Sainte, la guerre que chacun devrait mener en lui-même contre les puissances inférieures aveugles, "matérialistes, impérialistes", qui veulent prendre le commandement de chacun de nous.

Cet appel à l'énergie, à la lutte ne concerne pas que la vie intérieure; le musulman doit lutter aussi pour la defense des justes causes et des principes éternels. Cette doctrine, qui ressort des textes sacrés de l'Islam et de l'exemple donné tout au long de sa vie par le Prophète, pourrait se rencontrer dans tel ou tel texte de telle ou telle autre grande religion, christianisme, brahmanisme. Mais il ne s'agit pas pour nous de recherche érudite. Une religion s'adresse à la masse humaine et ce qui m'importe, c'est que les institutions de l'Islam se révèlent capables de faire vivre actuellement cette doctrine, et de vivifier ainsi, au 20e siècle, l'existence de centaines de millions d'hommes. Et si elles en sont capables c'est d'abord parce que les cinq obligations fondamentales de l'Islam, les cinq piliers, sont admirablement adaptées à ce rôle, de nos jours comme elles l'étaient déjà du temps du Prophète.

Avant d'évoquer ces obligations fondamentales, soulignons que leur nature et leur petit nombre éliminent les dogmes compliqués, sujets à discussion, qui risqueraient d'être pour les croyants une cause de disputes et d'incompréhension, et qui risqueraient donc de les égarer sur les chemins éloignés des vrais problèmes et des questions sérieuses fondamentales. Nous verrons aussi que rien dans ces cinq piliers n'implique en aucune façon l'existence d'un clergé, d'une "église" constituée.

qu'une vie humaine puisse être ordonnée.

Qu'est-ce que j'appelle ordre et désordre ? il y a ordre quand le supérieur régit l'inférieur tout en le respectant, sans l'opprimer donc, — en le respectant, disais-je, parce qu'il a ses raisons d'existeı, — bref en s'efforçant de lui donner sa juste place.

L'homme est sans cesse sollicité par la nourriture, par le sexe, par l'orgueil et par le désir de dominer, — par l'argent enfin qui constitue un moyen pour satisfaire les impulsions que nous venons d'énumérer. Celles-ci, la plupart du temps, étouffent, plus ou moins complétement les aspirations supérieures de l'être. Ces impulsions, nourriture, sexe, etc. ne sont pas mauvaises en elles-mêmes, mais parce qu'elles dévient très fréquemment de leur rôle propre, parce qu'elles ne sont pas maintenues dans les justes limites; la nourriture est une bonne chose, le sexe aussi; il y a un juste emploi de l'énergie qui suscite l'orgueil et le désir de dominer. Le jeûne du Ramadan, occasion de ces causeries, nous rappelle fort justement que nourriture et sexe doivent être domptés sévèrement. (puisque durant le jour nous leur tenons la bride), mais qu'il ne faut ni les supprimer ni les opprimer, (puisque la nuit nous leur lâchons la bride, que nous retiendrons des l'aurore). Saisissons cette occasion pour citer quelques fragments coraniques à propos du Ramadan :

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ
الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ
الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ
الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) .

"Le mois de Ramadan est celui pendant lequel le Coran a été révélé **pour indiquer avec toutes les précisions désirables** le bon chemin aux hommes . . ."

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ
مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى
اللَّيْلِ) .

"Mangez et buvez jusqu'à ce que vous puissiez distinguer à l'aube un fil blanc d'un fil noir, jeunez alors strictement jusqu'à la nuit !."

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ
إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ
لِبَاسٌ لَهُنَّ) .

"Il vous est permis pendant la nuit du jeûne de vous unir à vos femmes. Elles sont pour vous un vêtement comme vous en êtes un pour elles."

Et, en dehors du Jeûne, le Saint Coran nous le dit encore : "Il ne faut pas négliger la part qui vous revient des biens de ce monde.

"concret" a de la valeur, il ne saurait ni s'accommoder d'une attitude fausse (celle qui consiste à rejeter toute doctrine) ni être tout à fait nouveau : il y a toujours eu des religions et des doctrines, ce qui prouve que leur existence est dans la nature de l'homme; depuis des millénaires, les meilleurs des hommes, que nous ne pouvons mépriser sans nous rendre méprisables, ont promulgué et répandu des doctrines, et ont vécu selon elles, ou sont morts pour elles.

Le mal n'est certes pas dans l'hypothétique vanité de toute doctrine, mais uniquement dans le fait que trop d'hommes ou bien n'ont pas suivi (ou ne suivent pas) des doctrines vraies ou bien au contraire ont suivi (ou suivent) des doctrines fausses; que les cerveaux ont été exaspérés et les coeurs déçus par trop de théories inconsistantes et trompeuses; qu'une erreur innombrable, bavarde et pernicieuse, a jeté le discrédit sur la vérité, qui, elle aussi, s'énonce forcément par des mots et qui est toujours là, mais que nul ne regarde. Trop de gens ne savent même plus ce que c'est qu'une idée, ce qu'est sa valeur ou son rôle; ils sont loin de se douter qu'il y a toujours eu des théories parfaites et définitives, donc pleinement adéquates et efficaces sur leur plan, et qu'il n'y a rien à ajouter aux anciens sages, si ce n'est notre effort de les comprendre. Si nous sommes des êtres humains, nous nous choisissons une doctrine; la lassitude, le manque d'imagination et l'orgueil infantile d'une jeunesse désabusée et matérialiste n'y changeront rien. Si c'est la science moderne qui a créé les conditions anormales et décevantes dont souffre la jeunesse, c'est que cette science est elle- même anormale et décevante(1)".

DEUXIEME CAUSERIE

Dans ma précédente causerie, j'ai cité un texte qui évoquait le désarroi intellectuel de la majeure partie de l'Occident contemporain. Le trouble et le désordre dans les idées, le manque de confiance dans ce qui se présente comme une doctrine, l'ignorance même de ce que c'est qu'une idée, de ce que c'est qu'une doctrine, tout ce à quoi nous faisions allusion se transpose aisément sur le plan de la vie personnelle et de la vie quotidienne.

En effet le désordre s'est installé dans l'existence de la plupart des gens : on a perdu confiance même dans l'espoir et la possibilité d'une vie ordonnée; c'est même chose commune que l'ignorance du fait

(1) Frithjof Schuon **Pour comprendre l'Islam** éd. Gallinard, Paris, 1961 (p. 152).

qui reconnaissent ces deux bases fondamentales, ne sont, chacune, que la vraie Religion, embarrassée d'exagérations, de déviations et obscurcie par l'esprit de rivalité.

Le musulman doit se soumettre à cette vérité; Islam signifie pacification, soumission : soumission à une vérité que le croyant atteste solennellement *: l'existence d'une Réalité Suprême : Dieu, attestation clamée dans l'histoire de l'humanité par de nombreux prophètes, dont Mohammed est le Dernier, celui dont l'enseignement n'a plus besoin d'être complété. C'est la **chahada,** la "profession de foi" musulmane,, :

(لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ مُحَمَّد رَسُولُ اللهِ) .

"Il n'y a pas d'autre dieu que Dieu et Mohammed est un Prophète."

Cette tendance essentielle de l'Islam à l'universalisme entraine logiquement la condamnation des sectes et de l'esprit sectaire :

(وَمَا تَفَرَّقوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) .

"Ne vous divisez pas en sectes."

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقوا دِينَهُمْ وَكَانوا شِيَعًا كلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

"Une secte ne se prévaut que des produits de sa fantaisie".

Mais l'opposition aux sectes ne doit pas se faire par la violence :

(لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) .

"Pas de contrainte en religion !"

(وَلاَ تُجَادِلوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقولوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكمْ وإِلَهُنَا وَإِلهُكُمْ وَاحِدٌ وَنحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

"Si vous discutez avec les gens des autres Ecritures, ne le faîtes qu'avec douceur, sauf s'ils sont injustes. Dites - leur : Nous croyons tout autant à ce qui vous a été Révélé. Notre Dieu et votre Dieu, c'est le même et nous lui sommes soumis".

Permettez - moi une digression. Certains de ceux qui m'écoutent se disent: tout ceci est bien beau, mais cela ne nous in- téresse pas — la religion est une chose périmée. Je voudrais leur lire un texte qui vient de me tomber sous les yeux :

"On dit qu'une grande partie de la jeunesse actuelle ne veut plus entendre parler ni de religion, in de philosophie, ni d'une doctrine quelconque, qu'elle a le sentiment que tout cela est épuisé et compromis, et qu'elle n'est sensible qu'à du "concret" et du "vécu",voire du "neuf". La réponse à cette déformation mentale est simple : si le

je formulerai une traduction, plus ou moins approximative, la traduction exacte du texte saint n'étant point humainement possible. Je ne puis résister au désir de citer à ce propos quelques lignes émouvantes extraites d'un petit livre de l'orientaliste Rissler sur la **Civilisation arabe** :

"Le Coran doit être lu et débité à haute voix. Aucune traduction ne peut rendre ses nuances. Il faut l'entendre dans le texte original pour en apprécier la force et la beauté aussi bien que la noblesse de la forme. Sa prose rythmée et assonancée dégage par elle-même un charme pénétrant, tellement les images et les idées resplendissent de chaleur et d'éclat. Nul ne saurait nier que son pouvoir d'incantation et son élévation spirituelle contribuent à donner l'impression que Mohammed fut illuminé par la Splendeur et la Majesté de Dieu."

Voici maintenant les citations annoncées, d'où se dégage avec force l'idée que la Révélation divine est descendue maintes et maintes fois sur les communautés humaines :

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) .

"Mohammed n'est qu'un prophète; avant lui d'autres prophètes ont passé".

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ) .

"Nous t'avons donné la Révélation, comme nous l'avons donnée à Noé et aux Prophètes qui l'ont suivi, comme nous l'avons donné à Abraham, à Ismaïl, à Isaac, à Jacob, à Jésus, à Job, à Jonas, à Aaron, à Salomon . . . . "

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) .

"Il y a eu des Envoyés dont nous t'avons déjà parlé auparavant; il y en a eu d'autres dont nous ne t'avons rien dit . . . "

L'Islam ne se présente donc point comme une religion nouvelle, au rebours de tant d'autres religions, mais comme la Religion, dont dérivent (par sectarisme et par déviations) de nombreuses confessions qui sont en concurrence sur la planète. En un sens tout homme qui naît naît musulman, et c'est ensuite que, par un rite ou par un autre, il devient membre d'une religion particulière. Il n'y a qu'une Religion, la Religion immuable, la Religion naturelle (en ce sens qu'elle est conforme à la nature de l'homme). L'amour agissant, la charité en oeuvre en est une base fondamentale, de même que l'adoration de Dieu, qui est indispensable à l'homme et l'élève vers la connaissance. Les religions diverses,

(1) Editions Payot.

REVUE DE L'AZHAR

Section française

POLES D'ATTRACTION DE L'ISLAM UNIVERSEL

par **Moustafa Djellal-el-Dine Daumal**

PREMIERE CAUSERIE

Au cours des deux derniers siècles l'impérialisme, les révolutions, les guerres généralisées, le colonialisme ont bouleversé le monde. Rares sont les régions, rares sont les communautés humaines qui n'ont pas été touchées. Que devient, dans ce trouble quasi général, la Religion ? Dans les pays les plus divers de nombreux esprits (et je pense aussi bien à ceux qui assument de hautes responsabilités qu'aux gens les plus simples) ont été et sont encore en désarroi; je pense surtout à ceux qui ont des aspirations religieuses, mais sont décus par les croyances et les pratiques qu'ils connaissent ou qu'ils rencontrent autour d'eux; ils ne peuvent les accepter; ils cherchent, un certain temps, à savoir s'il existe d'autres pistes, d'autres chemins; souvent, tels des voyageurs égarés, sans cartes, sans boussole, ils se lassent et renoncent. A ces chercheurs de vérité, à ces hommes et femmes de bonne foi j'ai souvent déploré qu'on ne présentât point une image simple et juste de l'Islam. C'est une telle image que, dans la mesure de mes faibles moyens et dans le cadre de ces quelques causeries, je voudrais essayer d'offrir ici; je consacrerai la première à quelques aspects de l'universalité de l'Islam.

Dans mon enfance, j'avais appris l'existence de diverses religions; cette diversité m'intéressa; je lus beaucoup, et surtout les différentes Ecritures Saintes; j'en vins à la pensée que, par delà les différences extérieures que présentent les grandes religions de la terre, des éléments communs fondamentaux les unissent. Je constatai d'ailleurs que beaucoup de gens autour de moi pensaient de même, la plupart du temps sans aller plus loin.

Cette idée qu'une même Tradition primordiale s'est manifestée à de nombreuses reprises, sous des aspects très différents, dans l'histoire de l'humanité, cette idée je la trouvai dans les religions de l'Inde, dans St. Augustin même; mais c'est dans le Saint Coran que je la vois le plus clairement et le plus précisément exprimée; comme toujours par la suite, par un respect élémentaire du texte du Coran, je donnerai d'abord la citation que je veux faire en arabe, littéralement, puis

punishments, would stand highly among the greatest acts of Jihad.

And, to stress the point once again, it is natural for a nation with such a role and a way of life, as prescribed by God, to uphold Jihad in its highest levels as a sacred, God — imposed duty, ranking up in weight with prayers and regular charity.

"Fighting (in the cause of Truth) is prescribed for you, and ye dislike it. But it is possible that ye dislike a thing which is good for you, and that ye love a thing which is bad for you. But God knoweth, and ye know not."

(*Holy Quran, Sura II.* 216)

Hussein A. El-Elaimy

O God, our help in ages past,
Our hope for years come,
Our shelter from the stormy blast;
And our eternal home

In Islam, Jihad stands out as àn original and important element. It is the positive means of suppoRessing evil, wheather self — inspired or externally induced. It follows that Jihad is an ever — activated and endless process, so ling as good and evil shall be going abreast in human life, and so long as Islam stands out as the infinite Good and Truth. To this fact the prophetic hadith points out by saying :

"Jihad is ceaselessly going on until the Day of Resurrection."

Let not anyone thinks that Jihad is limited only to war and fighting. The military activity is but one of the many aspects Jihad may take. And although it is the highest and most noticeable in rank and importance, military Jihad is the last of all possibilities to be considered for implementation. This fact has been attested to very clearly during the history of the prophetic call.

For thirteen years, the Prophet and his companions stayed in Mecca performing, as we shall later point out in more detail, all sorts of Jihad. The Meccan period witnessed the Prophet and his companions suffering all types of persecution, offense and falsehood. Yet they went on, patiently enduring, forgivingly bearing, and peacefully inviting people to Islam. Almost fifteen years hadd elapsed in such terrific suffering and endurance before the first Muslim sword was taken out of sheath.

Logical sequence of events, also, certifies that self — feform and self — purification are prerequisites for assuming the responsibilities of military struggle. Prior to assuming their leading role, social reformers must at first be self — reformed.

In studying Islam, one can easily note that Jihad is the intended context and purpose of all Islamic worship, ethics, rules, directions and laws. Praying, fasting, pilgrimage, regular charity, abiding by truth, righteousness, patient perseverence, forgiveness,generosity, obedience in whatever is right, repentence, self — observance, purity, satisfaction, loyalty, self — respect and refraining from the opposites of those qualities are some forms of Jihad centered mainly around one's own self.

Engoining whatever is right, forbidding whatever is wrong, calling for the good of society, providing advice to Muslim caretakers and declaring truth before the unjust ruler are also among the noblest acts of Jihad.

Prophet Muhammad (God's peace and prayers be upon him) said : "The noblest of Jinad is a statement of truth spoken out before an unjust ruler."

God's religion defines the ways by which to fond off corruption, criminal behavior and deviation. Therefore, upholding and applying the religion of God, wheather in worships, worldly dealings or legal

pletion. And so Prophet Muhammad (God's peace and prayers be upon him) was sent to all mankind.

"We have not sent thee but as a universal (Messanger) to men, giving them glad tidings and warning them (against sin)."

(*Holy Quran, Sura XXXIV.* 28)

To him was revealed the everlasting Book, the Holy Quran, which provided an undisputable sign of Muhammad's prophethood and guranteed happiness for all mankind, both in this life and in the hereafter.God Himself has promised to keep Quran from corruption or distortion.

"We have, without doubt, sent down the message; and

We will assuredly guard it (from corruption)."

(*Holy Quran, Sura XV,* 9)

With Islam God has abrogated all preceding messages. And thus He declared it, thundering and straightforward, that :

"The religion before God is Islam."

(*Holy Quran, Sura III,* 19)

"If anyone desires a religion other than Islam, never will it be accepted of him."

(*Holy Quran, Sura III,* 85)

God has inve sted the Muslims with the responsibility of guiding and directing all other nations and leading them to the True Religion. With the illuminating guidance of the Quran, Muslims are entrusted by God to lead mankind out of the depths of darkness to light.

"Ye are the best people, evolved for mankind, enjoining what is right, forbidding what is wrong, and believing in God."

(*Holy Quran, Sura III,* 110)

It is therefore natural, rather inevitable, for a people entrausted with such a role and responsi8ility to advocate Jihad as a way of life. A message as such cannot be carried out except by Mujahids. They are the only ones capable of standing up to the requirements of that message. It is for this choosy nomination that God commands the Muslims to take up Jihad. They are responsible for promulgating God's call and disseminating it to every part of the world. In carrying out this mission, they are entitled to become God's witnesses who would testify that God's call has been brought up to all peoples.

"And strive (Ye who believe) in His cause as ye cught to strive (with sincerity and under discipline). He has chosen you, and has imposed no difficulties upon you in religion; it is the cult of your father Abraham. It is He who has named you Muslims, both before and in this (Revelation); that the Apostle may be a witness for you, and ye be witnesses for mankind !"

(*Holy Quran, Sura XXII,* 78)

THE CONCEPT OF JIHAD IN ISLAM

By

MAJOR HUSSEIN AHMED EL-ELAIMY

For mankind, the whole universe was created by ALLAH, the Great Almighty.

"And He has subjected to you, as from Him, all that is in the Heavens and on earth."

(Holy Quran, Sura XLV, 13)

Man, in his turn, was created for the purpose of serving God and worshipping Him.

"I have only created Jinns and men that they may serve Me."

(Holy Quran, Sura LI 53)

ALLAH has not created people to go astray in life, guessing at the unknown. Nor has He created them to let them strike haphazardly and aimlessly in the course of life. But He has provided them with a light of His own. He has revealed His messages to usher men into the facts of the unknown and the goal of their life on earth. Through God's messages, men get to organize the details of their lives and their interrelations with one another.

It is thus obvious that ALLAH, the Elevated Almighty, has guranteed for mankind both the material and spiritual essentials of their existence; the former as being manifested in subjecting the universe for the benefit of men, and the latter in God's messages of guidance and order.

God's messages to mankind have been revealed one after the other. When a message was obliterated by the people to whom it had been directed, another message was soon to follow. God's[1] apostles also came one after the other, guiding people to the path of God where, by following, man would be a worshipper of God alone and free of any other form of submission.

Yet all those messages were rather ,,national" and "temporary". In other words, every apostle was sent to his own people in particular.

"We did indeed send, before thee, apostles to their (respective) peoples."

(Holy Quran, Sura XXX, 47)

"And there never was a people without a warner having lived among them (In the past)."

(Holy Quran, Sura XXXV, 24)

Such was the case, that is, every apostle was sent to his own people, until it was time for mankind to reach maturity and for God's messages to reach conclusion and com-

(1) God = ALLAH

Glorious Throne".

This is reported in another Tradition;

"There is no God save Him, the Patient, the Beneficient, Lord of the seven Heavens and God of the Tremendous Throne. There is no God save thee, the Almighty and sublime".

It is stated in another Tradition that the Prophet has said "Allah is sufficient for us ! most excellent is He, in whom we trust. There is no power or might except by the will of Him, The Wise, The strong. We depend upon Him and resort to Him for help".

The Prophet has said, "We all are protected against evil by God, The Alive, The Eternal, who never dies. There is no might expept that of Him, The Sublime, The Tremendous".

And he says, "O God, The Benovelent, whose benovelence is above all benovelence, the Owner of Heaven and Earth, the Alive The Erternal, The Dignified, The Exalted who is capable and who grant us health and security in general".

These prayers have a de finite effect and were tried successfully.

CONCLUSION

God has likend striving in the cause of Truth and Justice which means striving in the cause of Allah, to a successful trade.

God sayeth.

"O [1] ye who believe shall I show you a commerce that will save you from a painful doom ? Ye should believe in Allah and His Messenger, and shoud stirve for the cause of Allah with your wealth and lives. That is better for you if ye did but know. He will forgive you your sins and bring you unto Gardens underneath which rivers flow, and pleasant dwellings in the Garden of Eden. That is the supreme triumph".

Abd-Ul-Halim Mahmoud

(1) The Ranks 10 — 12.

Book — Revealer, the clouds — Mover and the parties — Defeater; defeat them, and help us to triumph over them'. In another Tradition he has said, „O God, the Book — Revealer and the quick judge vanquish and shake them'.

It is reported upon the authority of the two "Sahihs" after Anas, God be pleased with him, that when Kheiber saw Mohammed, The Messenger, they said, Mohammed and his army" and took refuge in the fort.

So the Prophet Mohammed raised his hands and said "O Greatest Lord, may Kheiber go to ruin. If we are engaged in a fight with the enemy, may those who warned us have a bad time".

It is reported on the genuine authority in Abi Dawood's "Mosnad" after Sahl Ibn Saad, God be pleased with him, The Prophet has said "Two things cannot be rejected : pleading during prayer, and pleading during hardship while fighting in close contact.

It is reported in Sunan Abi Dawood and Eltirmizy and Elnisai, after Anas, God be pleased with him, that the Prophet, God bless him used to say when fighting "O God! my supporter, my helper, I struggle and fight with your support;;".

It is reported on the authentic authority of "Abi Dawood" and "Elnesai" after Abi Mousa Elashary, God be pleased with him, that when the Prophet fights a nation he says, "God : We appeal to thee to protect us from them.

It is reported on the authority of Ibn El Sawmi after Gaber Ibn Abdullah, God be pleased with them, that the Prophet, God bless him, has said on Hunyn's Day, Do not long for meeting the enemy, as you do not know what affliction will befall you, and if you meet the enemy recite the following :

O Lord, thou are our God and their, our hearts and theirs are yours. It is you God, who will defeat them'.

It is reported upon the authority of Ibn Elsonni after Anas, God be pleased with him, he said "we were with the Prophet, God bless him, during fight and heard him saying O Lord, owner of the Judgement — day, Thee alone we worship, Thee alone we ask for Help". Then the enemies were seen falling dead; they were hit by Angels in front and from behind.

It is reported that El Imam El-Shafi has said., That the Prophet God bless him, has said, Ask God to Grant your request when you fight, when you pray to God and when it is raining'.

Here is a prayer, it was mentioned before, it is written in the two "Sahihs" : "Allah, there is no God save Him, the Almighty, the Patient, there is no God save Him, the Great Lord of The Throne, there is no God save Him, Lord of Heavens and Earth, Lord of the

PRAYER

The Prophet, may God bless him, was controlling firmly the material matters that concern striving for the cause of God. He and the strivers, used to pray and implore God to fulfil His Promise. Here we note some of the Messenger's Prayer, and what he was teaching his companions to recite before and during the battle.

Here in this chapter we refer to what El Imam El Nawawi has said in his blessed book, "Alazhar".

God sayeth,(1) "Oh ye who believed ! when ye meet an army, hold firm and think of Allah much, that ye may be successful, and obey Allah and His Messenger, and dispute not one with another lest you falter and your srength depart from you ! But be stedfast : Lo ! Allah is with the stedfast. Be not as those who came forth from their dwellings of carelessly for mere pretence, and todebar men from the way of Allah, ...,,.

Learned men have said that this glorious context includes much of the battle manners.

It is reported in the two "Sahihs" after Ibn Abbas that the prophet has said, while staying in his hermitage, "O God ! I adore you to keep your Promise and pledge (to support us) otherwise you will not be worshipped.

(1) Sûrah. The spoils of war 45, 46, 47.

Then Abou Bakr, God may bless him, took the Prophet by the hand and said, "Enough O Messenger of God, you have persisted upon God" then he went on saying, "they, all will be defeated and turn tail, the day of doom will be their destination, that day will be a bad and a bitter day.

This is reported after "Elbukhari" ! at Badr-Battle.

It is reported on the authority of "Moslem" that the Prophet, May God bless him, turned his face towards "Elkiblah" extending his hands, and called God saying :

"O Lord, fulfil your promise, if that faithful group perish, there will be no believer to worshipyou on earth.

He continued calling God with extended hands, till his gown fell down.

It is reported in the two "Sahihs", after Abdullah Ibn Abi Awfa, that the Messenger, God bless him, on one of those days when he was engaged with the enemy in fight waited till the sun had set, stood and addressed the people saying :

"O people, do not long for meeting the enemy, and beg God to save you from all misfortunes and if you meet the enemy, be stedfast, and learn that Paradise is under the shadows of the swords".

Then he said; "O God, the

It is reportedon the authority of "Moslem" after Gaber, God bless him, that a man asked the Prophet Mohamed saying :

"Whe is my place, Messenger of Allah, after being killed in the cause of God ?"

The Prophet answered "In Paradise".

The man threw the dates he was keeping in his hand, and engaged himself in the fight until he was slain.

(1) God sayeth ,,Let those fight in The way of Allah who sell the life of this world for the other. Who so fighteth in the way of Allah be he slain or be victorious, on him we shall bestow a vast reward".

God sayeth. (2) "And call not those who are slain in the way of Allah "dead" Nay, they are living, only ye perceive not".

The martyr is happy, because he was killed in the cause of God :

It is reported that Ibn Kathir has said; when the Messenger of God saw that Gaber Ibn Abdulla was concerned about his father's death as a martyr in the battle of Badr, he comforted him saying "Don't you want to know what God has said to your father ?"

Gaber answered in the affirmative.

"God has never spoken to anyone while being seen, but he revealed himself to your father. ,,The Messenger has said.

God sayeth, ,,I shall grant you anything if you but ask."

He answered, "I beg Thee to restore me to life, to be slain again in your cause".

God sayeth "Those who die never come back to earth, as I have said before".

He said, "Let them (the living) know the happiness and prosperity which the martyr enjoys in Paradise".

God sayeht, "think not those who are slain in the way of Allah as dead, Nay they are living with their Lord they have provision. Jubilant (are they) because of that which Allah hath bestowed upon them of his bounty. Rejoicing for the sake of those who have not joined them but are left behind that there shall no fear ccme upoh them, neither shall they grieve. They rejoice because of favour from Allah and kindness, and the Allah wasteth not the wage of the believers".

On the authority of Elnisa'i Elturmithy and Ibn Mageh are reported to have said : The martyr is so happy for striving in the cause of God that he wishes to by restored to life to be a martyr once more.

(1) Sûrah. "The woman" 77.
(2) The Cow 154.

That had taken place during Huneyn Battle.

God has described the situation eloquently, He sayeth.

"Allah hath given you victory[1] on many fields and on the day of Huneyn when you exulted in your multituede, but it availed you naught, and the earth vast as it is, was traitened for you ! then you turned back in flight, then Allah sent his peace and reasurance down upon His messenger and upon the believers, and sent down hosts ye could not see, and punished those who disbelieved, such is the reward of disbelievers. Then afterwards, Allah will relent towards whom He will; for Allah is forgiving Merciful."

(1) Sûrah. Repentance 25 — 27.

THE MARTYR

How he is appreciated by God

The martyr is greatly estimated by God, His place is illustrated by genuine traditions and texts from The Koran.

Haretha Ibn Soraka was martyrized in Badr-Battle. His mother, daughter of Albaraa, came to the Messenger of God and said, "O messenger of God, will you not tell me anything about haretha ? If he is in Paradise, I shall be stedfast, and if not I shall weep and lament him".

Then the Prophet; God may bless him answered "Mother of Haretha, there are many gardens in Paradise and your son has reached the highest one.

It is reported upon the authority of the 2 "sahihs" after Anas, that the prophet God may bless him, has said "No one enters Paradise and wished to return to earth except the Martyr".

The Martyr wishes to come back to earth to be killed scores of times (in the cause of striving) because he will be rewarded by Him. This is reported about the merit of martyrdom by Gaber son of Abdallah, may God bless him "My father was brought and placed before The Prophet, he was disfigured. I tried to uncover his face, but my people forbade me. Then a wailful voice was heard ? it might be the voice of Amre's daughter or that of his sister.

The Messenger has said,[1] "Why do you weep ? you must not do, the Angels are shading him with their wings."

(1) Reported upon the Authority of "The Bokhari and Muslim".

or physical pleasures, but it was meant for striving in the cause of God and His Messenger. Such strife aims at the revelation and promotion of Allah's word (Religion).

The word of Allah is truth, justice, mercy fraternity and universal peace. Regarding the individual, the word of Allah means the security of man's life, blood, wealth and honour. Regarding the nation, the word of God means its dignity, pride and all that is sacred.

"Those[(1)] who believe do battle for the cause of Allah".

Spiritual mobilisations is capable of maging a nation, in its sgrife, as strong as a solid structure.

Hence comes the fourth step which is planned for by the Koran, in the way of triumph.

,,Lo ![(2)] Allah loveth those who battle for his cause in ranks, as if they were a solid structure.

"And dispute not one[(3)] with another lest ye falter and your strength darpet from you, but be stedfast ! Lo ! Allah is with the stedfast".

If evil thoughts of dispute or disagreement are suggested by the devil, or if the heart feels a tendency towards separation or discord, the way of adjusting those differences is clearly laid out.

(1) Sûrah. The women 78.
(2) Sûrah. The Ranks.
(3) Sûrah. The Spoils of war 46.

"And hold fast,[(1)] all of you togehter, to the cable of Allah, and do not separate".

If evil thoughts of dispute or disagreement are suggested by the devil, or if the heart feels tendency towards separation or discord, the way of adjusting those differences is clearly laid out.

"And if ye have a dispute concerning[(2)] any matter, refer it to Allah and the messenger, if ye are (in truth) believers in Allah and the last Day. That is better and more seemly in the end".

The nation that helps God, through striving for his cause, and following the true principles of religion is promised truimph from Him, who never breaks His promise.

"If ye help Allah,[(3)] He will help you and will make your foothold firm"

"Verily Allah helpeth one[(4)] who helpeth Him Lo ! Allah is strong, Almighty".

The last stage is to have confidence in God, recompense Him, depend upon Him and not up on material power or anything else.

Moslems were given a severe lesson by God, when they depended only upon their power, multitudes and arms and said, "We shall not be vanquished today by a minority".

(1) Sûrah. The Family of Imran 103.
(2) Sûrah. The women 59.
(3) Sûrah. Mohamed 7.
(4) Sûrah. Pil grimage 50.

Day, and whose hearts hearts feel doubt, son in their doubt they waver".

The existance, of those who have no faith, amidst the strivers is something harmful.

"Had they gone forth[1] among you they had added to you naught save trouble, and had hurried to and fro among you seeking to cause sedition among you; and among you there are some would have listened to them".

Those whose faith is weak, and those who have no faith show no interest when the struggle begins and remain behind when the strive strats rejoicing at what they have done.

"Those[2] who were left behind re joiced at sitting still behind the Messenger of Allah, and were averse to striving with their wealth and their lives in Allah's way, and they said : Go not forth in the heat ! say : the heat of Hell is more intense of heat, if they but understood"

The Koran order the Prophet, God may bless him, to remove those people (the disbelievers) away from the camp of the believers and not allow them to participate in striving.

"[3]If Allah brings thee bacg (from the campaign) into a party of them, and they ask of thee leave to go out (to fight), then say unto them : Ye shall never more go out with me, nor fight with me against a foe, Ye were content with sitting still the first time. So sit still with the useless". This faith is but an active faith, everything is well prepared and everyone is ready for the mobilisation for striving.

Hence is the second step in the way of truimph represented in the Mighty God's saying.

,,Prepare for them the strongest power you can ever prepare".

This power is not limited within the material one, but it also includes the spiritual moblisiation. There is no doubt that the spiritual mobilisation is an actual power towards stedfastness in facing the enemy courageously.

"[1] Oh Ye who believed ! when you meet an enemy, hold firm, andy thing of Allah much, that ye ma be successful".

This spiritual mobilisation becomes firm and yields its fruits when the goal of striving is a clear and bovious one.

Hence comes the third step which was planned for by the Koran in the way of truimph, and that is the clearness of aim, the aim of The Koran. For striving, is not a material or a worldly goal.

The migration of the strivers was not meant for worldly gains,

(1) Sûrah. The Repentance 47.
(2) Sûrah. The Repentance 81.
(3) Sûrah. The Repentance 83.

(1) Sûrah. The Spoils of war 45.

"You should be stern with them".

From the very beginning the Moslem rulers and people toog this attitude of Islam towards the enemies. And here we find the true believer Abdullah Ibn Abdullah Ibn Ubay askikg the Prophet (God bless him) if he wanted the head of his father, he would bring it to him He says to the Prophet (God bless him).

"Messenger of God. I have heard thae you wanted to kill him just order me and I will bring you his head".

This is the correct attitude of Islam : that a Moslem should never follow those who fight against the Moslems even if they were their fathers, their sons, their brethren, or their clans, or else God and his messenger will be angry with them and thus they deserve to be afficted with Pain in this world before the Hereafter.

(The Koran Plans for the way of Victory)

God sayeth[1], Allah hath bought from the believers their lives and their wealth because The Garden will be theirs : they shall fight in the cause of Allah and shall slay and be slain. It is a promise which is binding on Him in the Towrah and The Gosple and Koran. Who fulfilleth His covenant better than Allah ? Rejoice then in your bargain that ye have made, for that is the superme triumph.

This covenant and agreement between God and the believers is but the covenant of faith, wher: the believer sells his life and wealth, he offers them willingly to God without being avaricious whenever the circumstances require spending nd sacrifice.

So one of the conditions of Belief is sacrificing one's life and wealth. It is the first step in the way of triumph. But it is a step without which there never ill be a straight, correct basis on which the nations and the leaders can depend, in order to have a dignified place among nations. The believer is not considered faithful, according to the Koran, unless he offers his wealth and life for striving in the cause of Allah.

"The true believers[1] are those only who believe in Allah and His Messenger, and afterward doubt not, but strive with their wealth and their lives for the cause of Allah. Such are the sincere". But if the beliefis weak shaky and unsteady' the result will be sloth and retardation striving.

"Those who believe in Allah[2] and the last Day, ask no leave of theeto strive with their wealth and their lives. Allah is aware of those who keep their duty (Unto Him). They alone ask leave of thee who believe not in Allah and the last

(1) Sûrah. The Repentance 111.

(1) Sûrah. The private Appartments 15.
(2) Sûrah, The Repentance 44, 45.

and more stable than any other bond.

Therefore in order that the unity of a nation may continue, there must be sincere cooperation among the members of society. They should be given advice and preaching in this respect. Those who try to split the unity must be severely punished.

No. 4. — *The judgement of God on those who follow the enemies* :

The enemies make war upon God and his messenger, and all those who follow them are also making war upon God and his messenger because in that case they are helping the enemies of God to over come His followers. And so they belong to the enemies and are of them.

God the Mighty sayeth :

"The only reward of those who make war upon Allah and his messenger and strive after corruption in the Land will be that they will be killed or crucified, or have their hands and feet on alternate sides cut off, or will be expelled out of the land, such will be their degradation in the world, and in the hereafter theirs will be an awful doom"(1).

Islam wanted to guarantee safety Inside the Islamic state and resist as much as possible the enemies who are outside it, even if they belonged to Islam. That is why there must be a severe punishment for these and those in the way as Moslem Governor finds suitable as mentioned in the Holy verses of God, like killing or crucifing them, cutting off their hands and feet on alternate sides or expelling them out of the land. God has explained that those people are not following the rules of Islam and that there is no faith left in their hearts.

God sayeth :

"Thou will not find folk who believe in Allah and the last Day loving those who oppose Allah and His messenger, even though they be their fathers or their sons or their brethren or their clan. As for such, He hath written faith upoon their hearts and hath strengthend them with a spirit from Him, and He will bring them into Gardens underneath which rivers flow, wherein they will abide. Allah is well pleased with them, and they are well pleased with Him. They are Allah's Party. Lo : ! it is Allah's Party who are successful"(1)

Those who follow the enemies are creatures without faith in their hearts. And so the Attitude of Islam towards them is that the believers should be stern with the opposers to God and His messenger. For that God demands; saying :

(1) The Table preads : 33.

(1) She that Disputeth : 22.

Ideals. For Islam did not base its unity on the colour of man, discriminating between a white man and a negro, or between the yellow or red races, or to torture one of them without a reason or rob him of his rights unjustly and aggressively.

There are some continents on this earth which pretend to be civilised nations. They consider themselves to have reached the summit in humanity, thought and culture but still they are enslaved by colour. They tourture the innocent first for the cause of colour and not for ideals or moral principles, because all this is against ideals and moral principles. The only reason for injustice, torture and aggression is their fanaticism against coloured traces. For that we ought to be proud of Islam which established unity among people on the basis of benevolence and truthfulness.

There are some countries during our actual age that still discriminate between classes. There should never be any distinction, because their people were brought up in the same place, drank the same water, ate the same food and breathed the same air. Naturally, there should not have been any distinction between them, but still this distinction exists in some countries :

It was not raised by any moral principle or ideal but it is raised only by tradition and covention.

In this case we ought to be proud of Islam because what counts is virtue and right, no matter if the person is an Arab or non-Arab, a white man or a negro.

"Verily, the noblest among you before God is the most virtuous".

Then the unity of principles in Islam produces the equality and the consolidation of the nation.

"For believers, men and women, are friends to one an other". And when the believers are together, helping one another, they are like a building of bricks, each is holding the other.

A moslem is the brother of a Moslem and should never fail him or give him up".

A Moslem is bound to all Moslems wherever they are. He must help the Moslem wherever he is. God reminds us of this bond of principles and that it is a bless of God in return to what man has done of follies, whcih make relations based on colour or home or any thing of that sort, which brings about shame to humanity when it gets rid of its follies. This bond is the root of all relations and home-lands.

God urges us to stick to the unity that is based on His lofty principles.

"And hold fast all of you together, to the cable of God and do not separate. And remember God's favour unto you; how Ye were enemies and He made friendship between your hearts".

The bond of principles in the divine and gigh vision is stronger

Society free from fear of death, it also has made it free from the worry about provision that concerns the man himlself who is in charge of the family and also concerns each member of the family, in both times of War and peace that is because : It is God who gives provision (God provideth every living creature, for he knows where it stays and where it lives).

"That which Allah openeth unto mankind of mercy, none can withhold; and that which he withholdeth, none can release thereafter He is the Almighty, the Wise"(1).

God hastold us that provision is appointed and determined in heaven. God has sworn that it is a truthful fact. God has sworn because of what He knows about the weakness of the human nature and how people are anxious about their living.

He Sayeth :

"And in the heaven is your providence and that which Ye are promised; and, by the Lord of the heaven and the earth, it is the truth, even as (it is true) that Ye speak'(2).

The wealthy man who depends on his broad wealth without putting in mind that it is God the Amlighty who has offered him his living and wealth, might lose all his wealth and his house if God wished as He Had done to Karoon. God might send one of his angels to visit his garden and fields and leave it lucked as God did to the owners of the gardens in the story He related to us in the Holay Koran, in the chapter of the Pen".

There is no doubt that we mustendeavour in order to earn our living. There are certain sins that are ever forgiven exceptable by endeavouring for provisions. It is true that serious and tough work is one of the features of Islam. And as livelihood isin the lands of God and labour is wanted, **then** what Islam forbids is this anxious and greedy Picture of people trying to obtain money by foul means or of those who think it is in the hands of one of the creatures of God to give or stop living, to increase or decrease it and take it or leave it.

This is the attitude of Islamic Society from the worry about provisions which might be a reason for its weakness nd its humiliati.

No. 3. — *The unity of a nation is one of the factors of victory.*

God the Almighty sayeth :

"Your nation is but one nation and I am your Lord, so worship Me".

There is no doubt that the call for the unity of the nation is the nature and one of the principles of Islam, because it is a unity that is based on principles and noble

(1) The Angels : 2.

(2) The winnowing winds : 22, 23.

ded by God for their bravery towards the cause of humanity and religion.

Declarations of Divine Statements to The Believers for The cause of Victory

No. 1. — In order that a moslem would not be a coward :

The primitive humanity since humanity existed is terrifird from death. This remained in the behaviour of the People and the result is Cowardice.

God the Almighty did not wish the Islamic nation fear death and become a nation of Cowards like other nations so He clarified this matterin the Koran and So did the Prophet, God bless him, in the religious law, sunna.

The owner of all Kingdoms is the only one who takes and gives life. He can bring death to the tyrants or leave them alive. When God does so, He does it for a certain wisdom He only Knows about. It is God who decides and fixes the days of our lives. When the day comes no one can postpone it oradvance it.

Being careful of life or being a coward does not prolong life. Bravery and audacity do not shorten life. God explains this very clearly in the Holy book. and as every soul dies at an appointed term, aslo every nation is finished at a certain time. But those who say; "Had we had any part in the cause weshould not have been slain here".

God the Almighty answers them:

"Say : Even though Ye had been in your houses those appointed to be slain would have gone forth to the places where they were to lie"(1). And to those who wrongly said to their brethren.

"If they had obeyed us they would not have been killed" God the Mighty, the Tremednous, orders his messenger (God bless him) To answer them saying :

"Then avert death from yourselves if you are truth ful"(2). But those the true believer is never a coward and the devil cannot misleasd him by whispering to him to fear anyone but God the Almighty.

No. 2. — *In order that a Moslem would not become a coward* :

If fear of death is the first reason for Cowardice then the second reason is what the devil whispers to man about provision and how he could provide his children and wife with provisions when he goes to war or when he dies as a martyr.

As God and his Messenger have explained in detail that life is limited to an appointed term, also God and His messenger have explained in detail that provision is determined by fate.

As Islam has made the Islamic

(1) The Family of Imran : 154.
(2) The Family of Imran ; 168.

with heaviness. Take Ye Pleasure in the life of the world rather than in the Here-after ? The comfort of the life of the World is but little in the Hereafter. If Ye go not forth He will afflict you with a painful doom, and will choose instead of you a folk other than you. Ye cannot harm Him at all. Allah is able to do all things."(1)

God has clarified that those who do not go to fight have no faith in God and in the last Day, for god sayeth :

"Those who believe in Allah and in the Last day ask no leave of thee to strive with their wealth and thier lives. Allah is Aware of those who keep theirduty (unto Him). They alone ask leave of thee who believe not in Allah and the Last day, and whose hearts feel doubt, so in their doubt they waven",(2),

Those who remain, behind thinking that this would escape them, from death are wrong because as we have seen before lives end and appainted terms.

When our Sire Khaled Ibn El Walid was on his death bed and all his body was stabbed by daggers and swords, he was sorry to die in bed. He wished to die as martyr in the field of battle.

As Cowardice does not prolong lives, bravery does not shorten. it. The Cowards sleep with their eyes opened but the brave are rewarded and what he took as spoils of war.

(1) Repentance : 38, 39.
(2) Repentence : 44, 45.

By Him who has the life of Mohammed in his hands, when the dooms day comes, any wound for the cause of God will appear again as it was when it happenend, having a red coulor like blood and 1 smell of fragrance.

By Him in whose hands lies the life of Mohammed; unless it is difficult to Muslims I should like to join any troop of soldiers fighting for the cause of God, but I am unable to do that so are they. It will cause them great trouble if they don't follow me as well.

By Him in whose hands lies the life of Muhammed, I would love to invade for the cause of God and be killed, then invade and be killed and invade again and be killed.(1)

He who is able to Strive but remains behind is a disbeliever

The person who does not pay his duty in striving for the cause of God does not foloow the divine rules of Islam. Because God has ordered us to strive and warned us of remaining behind.

God the Almighty sayeth about those who do not go to fight.

"O ye who believe! what aileth you that when it is said unto you : Go forth in the way of Allah, Ye are bowed down to the ground

(1) Reported by Musslim and Al-Bukhari.

to enter Paradise.(1)

It was reported by Abu Daoud from a Genuine source that Abu Umama - (God be pleased with him) said that a man said to the prophet :

"Messenger of God, give me sanction to travel for worshipping". The prophet said :

"The travel for may nation is their striving for the cause of God the Mighty, the Tremendous"(2)

It was reported by Abi Umama that the Prophet God bless him Said :

"He who does not invade or helps an invader to get ready or bring up one member of his family as a good invader, God will smite him with disaster before the coming of the dooms day."(3)

Abdullah Ibn Omar (God be pleased with him!) said that the Prophet said :

"If you neglect your strive, God will torture you with humiliation which will not be removed until you return back to you religion"(4)

Abu Huraira said that he had heard the Prophet saying :

"Going and coming for the cause of God is better for you than the world and what is in it."(6)

(1) Reported by Al-Turmizi and said : A tradition saying of the Prophet.
(2) Reported by Abu Daoud.
(3) Reported by Abu Daoud.
(4) Reported by Abu Daoud.
(5) Reported by Al-Bukhari.

Gaber Ibn Abdulla (God be pleased with him) said :

"When Abdullah ibn Omar Ibn Huram was killedduring the battle of Uhud, the Prophet said to Gaber, the son of Abdulla :

"Gaber ! do you wish to know what God the Alimighty said to your father ? ,,I answered" Yes.

The Peophet said :

"When God spoke to some one hespoke to him unseen but He confronted your father. God said to him" My servant, ask for anything and I shall give it to you". Abdulla said :

"O God! give me life again and I shall fight and be killed for your cause again". God said :

"As I have said before, those who die do not return to this world 1gain".

Abdulla said "O God ! say it again to all".

So a verse of Koran was revealed on that occasion saying :

"Thing not of those who are slain in the way of Allah as dead. Nay, they are living with their Lord and they have Provision."

It was reported by Al-Emam Musslem from Abi Huraira that the Messenger of God said :

"God assures every one who strives for His cause and who believes in God and His Messenger either to enter Paradise or return him home from war with what he was

the best deed to be done ?[1]

"The prophet answered "It is to have faith in God and to strive for his cause."

It was reported by Abi Daoud, from a Genuine Source, from Anas (God be pleased with him !) that the prophet (God bless him) said :

"Fight in the way of Allah against the disbelievers with your wealth, your lives and your tongues"

It was related that the Prophet (God bless him) said :

"He who died without invading or even thought of invading had died on hypocracy."[2]

It was reported by Abi Al-Dardaa (God be pleased with him) that the prophet (God bless him) said :

"He whose feet were covered by dust in his striving for the cause of Allah, his body will never be touched by Fire.[3]

From Ibn Abbas who said that he heard the Prophet (God bless him saying) :

Two eyes will never be touched by fire, the one that weeps out of fear of God and the other that keeps guard all night for the way of God."[4]

It was reported by Abi Saeed Al-Khudri - God be pleased with

(1) It was reported by Al Bukhari and Muslim.

(2) From Al-Nessai.

(3) As reported by Al-Tabarani in the Awsat.

(4) Reported by Al-Turmizi.

him) that the Prophet was asked :

Messenger of God ; who is the best man among the people ? The prophet answered.

"A believer who strives for the cause of God with his life and wealth".[1]

It was reported by Sahl Ibn Saad Al-sadi (God be pleased with him) that the prophet said :

The suspense of one day for the cause of God is better than the whole world and all that is on it, and the going and coming for the cause of God is better than the world and whatis on it"[2] Abu Haraira (God be pleased with him !) said :

"Once one of the companions of the Prophet (God bless him) passed by a spring of fresh water. He liked the place and said : "I will retire from people and live by the spring but I will not do so until I ask the permission of the prophet "God bless him" He went tot he prophet and asked him and the prophet answered :

"Dont dot hat, because he who strives for the cause of God is better than he who prays for God, in his home, for seventy years. Dont you wish God forgives you and makes you enter his Gardens, then invade for the cause of God. He who fights for the cause of God deserves

(1) Issued by Al-Bukhary.

(2) Reported by the Sheikh.

but begin not hostilities. Lo ! Allah Loveth not aggressors. And slay them wherever ye find them and drive them out of the places whence they drove you out, for persecution is worse thanslaughter"(1)

God sayeth :

"And fight them until persecution is no more, and religion is for Allah. But if they desist, then let there be no hostility except against wrong doers."(2)

God sayeth :

"O prophet! exhort the believers to fight. If there be of you twenty stedfast they shall overcome two hundred, and if therebe of you a hundred stedfast they shall overcome a thousand of those who disbelieve, because they (the disbelievers) are a folk without intelligence.

Now hath Allah lighten ed your burden for He knoweth that here is weakness in you, So if there be of you a stedfast hundred they shall overcome tow hundred, and if there be of you a thousand (stedfast) they shall overcome two thousand by Permission of Allah. Allah is with the stefdast."(3)

God sayeth :

"Say if your fathers, and your sons, and your brothers, and your wives, and your tribe and the wealth ye have acquired, and merchandise for which ye fear that there will be no sale and dwellings ye desire are dearer to you than Allah and His Messenger and striving in His way: then wait till Allah bringeth His command to pass. Allah guideth not wrong diong folk."(1)

God sayeth :

"And strive for Allah with the endeavour which is His right. He hath chosen you and hath not laid upon you in religion any hardship; the faith of your father Abraham (is yours). He hath named you Muslims of Oldtime and in this (scripture) that the messenger may be a witness against you and ye will be witnesses against mankind. So establish worship, pay the poor due, and fast to Allah. He is your protecting Friend, Ablessed Patron and a blessed Helper."(2)

And God Sayeth :

"As for those who strife in Us, We surely guide them to our paths, and lo ! Allah is with the good."(3)

The Tradition sayings of the Prophet (God bless him) are numerous and abundant.

Some of them are as follows :

It was reported by Abi Thur (God be pleased with him) that he asked the Prophet "What is

(1) The Cow : 190 — 191.
(2) The Cow : 183.
(3) Spoils of war : 65, 66.

(1) Repentence : 24.
(2) The pilgrimage : 78.
(3) The Spider : 69.

Here are some verses of Koran and sometradition sayings which illustrate clearly the attitude of Islam to wards striving : God the Almighty sayeth : (Mohamed; L. 4,5).

"Now when ye meet in battle those who disbelieved then it is smiting of the necks until, when ye have routed them, then taking them as captives; and afterwards either grace or ransom till war lays down its burdens. That (Is the ordinance) and if God willed He would have punished them (without you) but (thus it is ordained) that He may try some of you by means of others. And those who are slain in the way of Allah, He renderth nottheir actions vain. He will guide them and improve their state, and bring them in unto the Garden which He hath made known to them."(1)

God sayeth : (Repentance L : 14, 15).

"Fight them ! Allah will chastise them at your hands, and He will lay them low and give you victory over them and he will heal the breasts of folk who are believers. And he will remove the anger of their hearts. Allah relenteth towards whom He will. Allah is knower and wise"(2).

God sayeth "(Repentence L: 16).

"Or deemed ye would be left (in peace) when Allah yet knoweth not there of you who strive, choosing for familiar none save Allah and His messenger and the believers Allah is Informed of what ye do."(1)

God sayeth : (The family of Imran L. 142).

"(Or deemed ye that ye would enter Paradise while yet Allah knoweth not those of you who really strive, nor knoweth those (of you) who are stedfast?"(2).

God sayeth: Muhammed L: 31).

"And verly We shall try you till we know those of you who strive hard (for the cause of Allah) and stedfast, and till re test your record'(3)

God sayeth : (Women L : 74).

"Let those fight in the way of Allah who sell the life of this world for the other. whoso fighteth in the way of Allah, be he slain or be he victorious, on him we shall bestow a vast reward."(4)

God also sayeth: (Repentence L: 41).

"Go forth, light-armed and heaving - armed, and strive with your wealth and your lives in the way of Allah ! that is best for you if ye but knew."(5)

God Sayeth :

"Fight in the way of Allah against those who fight against you,

(1) Mohamed : 4 — 5.
(2) Repentence : 14 — 15.

(1) Repentence : 16 —.
(2) The Family of Imran : 142.
(3) Mohammed : 31 —.
(4) Women; 74.
(5) Repentence : 41.

Thus if the enemy is, for example in Plestine - as the case actually is - Jihad is enjoined upon the Muslims of Pakistan, of India, of Algeria, of Tunis ... etc. It is an injunction upon every Muslim on the globe.

This is not to say that every person-whatever his job is - must give up his work, take to arms and make for the battle - field. It means that the whole state must be fully mobilized.

All the Islamic States have to mobilize their efforts now, in order to pay the duty of striving or else, every individual or state will be considered as a Sinner.

The only Islamic attitude of Islam in concern with striving is that every Moslem should get ready to become a soldier fighting for the cause of God by his life and his wealth.

One day, one of the Companions of the Prophet (God bless him), passed by a spring of fresh water. He liked the place and wished to retire from people and live beside it to worship God, there in isolation. He wanted to retire to the mountain, drink from the water of the spring and eat the plants that grow around it. He wanted to live there in contentment and peace. But he said to himself that he would not do so unless he asked the premission of the prophet (God pless him). The prophet said "Dont do this, because he who fights for the cause of God is better than he who prays for God at home for seventy years", If you wish that God may forgive you and make you enter his Paradise, then invade for His cause. He who fights for the cause of God even for a period as short as the interval between two miliking-times of a she camel; deserves to inter his gardens.

It is the duty of every Moslem to prepare hiself and to be always ready as a soldier to strive for the cause of God. It is also his duty to be careful not to lose this quality because he who learns some technique of war and neglects them, and is careless about defending his home land is considered by God, a big sinner, Nevertheless there is no harm in reminding the people again that; striving is lawful, in Islam, when it is for self-defence, for the restraint of injustice, for the abolishing of tyrany, for the emancipation of people and to give way for truth, guidance and benevolonce which tyrant kings and princes have always tried to stop.

The first verse of Koran that expresses the reason for the legality of striving says : (The piligirmage : 39, 40.) "Sanction is given unto those who fight because they have been wronged; and Allah is indeed able to give them Victory; those who have been driven from their homes injustly only because they said our Lord is Allah(1)".

(1) The Pilgrimage : 39 — 40.

Messenger - blessing and peace be upon himsped, with his companions, so that they might reach Badr before the polytheists.

When the latter arrived, Allah's Messenger - blessing and peace be bestowed upon him - said.

"None of you shall proceed to do anything unless I am in between."

The Polytheists approached, whereupon said Allah's Messenger blessing and peace be upon him.

"Raise ye to a garden as vast as heaven and earth."

Thereupon, 'Umayr-ul-Ansariyy-Allah be pleased with him-said, "Messenger of Allah ! Is it a garden as vast as heaven and earth ?".

Said Allah's Massenger : "yes" said "Umayr" : "hurrah! hurrah!" "Said Allah's Messenger : "What is that prompts you to say Hurrah ! "Said Umayr : "In the name of Allah O Messenger of God, I said so only because I hope to be one of its inhabitants."

Said the messesger : "Nay, you are one of its inhabitants."

At that point, "Umayr produced a few dates, from his sack, and started eating, then said :

"Should I live till I finish my dates, it would be a too long life indeed".

He flung whatever dates were left with him, then went fighting till he perished. (This is related by Muslim).

Thus : Allah's Messenger (blessing and peace be upon him) - says (according to Imam Muslim) after abu Hurayra - Allah be pleased with him - the Messenger, being ever the truthful mouthpiece of the believer :

"By Him in whose hand is Muhamed's soul, I wish had conquered, in the path of Allah, and perished then conquered and perished, then conquered and perished."

Allah's Messenger - blessing and peace be upon him - said that only out of Knowledge of the satisfaction of Allah with the martyrs. Allah enjoins Jihad upon Muslim in a statement that is outspoken beyond all ambiguity and vagueness : He - blessed be His name - said "war is prescribed to you : but from this ye are averse. Yet haply ye are averse from a thing though it be good for you and haply ye love a thing though it be bad for you : and Allah knoweth; but ye know not."

(Cow : 217)

It is understood that this injunction is confined to those who are on the spot and are qualified for fighting, as long as the enemy is outside Muslim lands. But when the enemy is within Muslim lands, Jihad becomes an unqualified injunction upon every Muslim, wherever he is.

that faith is nullified, when one flees from Jihad, or shrinks from it.

The Faith - pact between Allah and ourselves, has — as one of its most important stipulations — the article that we — in fulfilment of the terms of the compactare under the obligation to give a way our lives and property for Jihad in the cause of Allah. The recompense of this self—denial is the Garden of Eden.

Allah makes that clear — beyond all doubt — in this verse :

"Verily, of the Faithful hath Allah bought their persons and their substance, on condition of Paradise, for them in return; on the path of Allah shall they fight, and slay and be slain : a promise for this is pledged in the law, and in the Evangel; and in the Qur'an - and who is more faithful to this engagement than Allah ? Rejoice, therefore, in the contract that ye have contracted : for this shall be the great bliss."

(Repentance : 111)

On the descent of this verse, the Disciples - Allah be pleased with themhailed it in these words : "At a great profit is the sale. We shall not rescind it or ask anyone to do so.

Thus the believer is a person devoted to Jihad "in the path of Allah", at every minute. In the cause of Jihad, he gives away his property his life and his time. Deeds and words are both his instruments of fighting. Human existence must be a Jihad, at all stages of life. Hence, the early Muslims competed along the route of Jihad. Allah - Blessed be his name - protrays them in this verse :

"They who blieve in Allah and the Last Day will not ask leave of thee to be exempt from contending with their substance and their persons. But Allah knoweth these who fear Him."

(Repentance : 44)

As for hypocrites, and those who have no faith, they seek pretests for shrinking from Jihad. They ask leave for flinching from it. They have recourse to sloth and langour. Allah - blessed be He - exposes them, and protarays both their outside and inside :

"They only will ask thy leave who believe not in Allah and the Last Day, and whose hearts are full of doubts, and who are tossed up and down in their doubts."

(Repentance : 45)

Hence for the sake of pleasing Allah - blessed and exalted be He - and for the sake of admission to the Garden of Eden, where one has the sight of His holy image, the Muslimes compete in Jihad. Imam Muslim related that Anas - Allah be pleased with him - said : "Allah's

competing at arrow-shooting, whereupon he said.

"Shoot, ye descendants of Isma'il your father was a bow-man".

The Prophet - Allah's blessing and peace be upon him - hated to hear that any man learned missile - shooting but came to give it up and neglect it."

Imam Muslim related that Ibn - Hammad - Allah be pleased with him - said that Allah's Messenger - Allah's blessing and peace be upon him - said :

"Whoever learns missile - shooting then gives it up, is none of us, or he has sinned."

The Messenger - Allah's blessings be bestowed upon him - did not omit the manufacture of arrows, or the recompense of their maker. He remarked that such a man's reward is the Garden of Eden, as longfas they are made for the cause of Allah. Thus Ibn - Dawood - Allah be pleased with him - related that Allah's messenger - Allan's blessing and peace be upon him - said :

"Allah - for a single arrow - admits three men to the Garden of Eden : its maker (being a good - doer); its shooter and one who prepares it for shooting.

Shoot and ride. Verily shooting is nearer to may heart than riding. Whoever has learnt shooting and then abandons it, throug aversion, throws away a blessing bestowed upon him, or rather, betrays ingratitude."

Allah's Messenger - blessing and peace be upon him - exhorted men to learn riding - both for horsemanship and for Jihad. He urged the breeding of horses, and lavish expenditure of them.

He himself loved them, and rode and tamed them.

Ibn Yasar - Allah be pleased with him - said - according to Imam Ahmad and Nissa'i - that nothing was nearer to the heart of Allah's Messenger than horses. It was he - Allah's blessings be upon him - who said - according to al-Bukhari and Muslim :

"Verily tied to horses' foreheads are good, and moral, recompense and booty, up to the Day of Judgment."

Concerning this readiness, both material and moral, Allah says, commanding and directing :

"Prepare against them whatever power you can command."

This power may be either material or moral. The capacity of commanding power is in truth, limitless. Thus the act of preparation has no end, nor may it slacken at any time.

Allah did draw a close union between faith and Jihad. It is a soild union that is unbreakable. Faith and Jihad are so united by Allah,

The reasons for giving the permission to fight are general ones. They are the very reasons for the Islamic Jihad in the causes of Allah everywhere and in every age, namely putting an end to oppression in general — in its numerous ugly aspects like ejecting the guiltiless and the peaceful from their homes, and dispossessing them, or confining them to their homes in a satate of humiliation, servitude, in violation of the rights of man, andt he principles of morality.

Among the reasons for the permission to fight is the deviation from right and good and from monotheism and justice.

Thus came the permission to fight and came the commandment of Jihad. The persuation to Jihad was sometimes based on purely psychological lines. At other times, it adopted social lines and tackled the place of the Islamic Nation in the universe.

Sometimes, It tackled reasons and motives. At other times it inclined to the expounding of the reward and the recompense; from Allah— blessed and exalted be His name.--

Jihad in Peace And war

"Perscribed for you is fithting, but it is hateful to you. yet peradventure that ye hate a thing while it is good for you, and peradventure that you love a thing while it is bad for you; Allah knows, and ye, do not know."

(Cow : 216)

Related by Imam Muslim that Abu-Hurayra - Allah be pleased with him - said that Allah's Messenger, - Allah's blessing and peace be upon him - said : "Whoever dies, having had no part in nor thought of partaking of conquest die with a tint of hypocrisy."

The holy verse quoted above is corroborated by many other. The honoured Tradition just quoted is also backed by innumerable others. All in all, they enjoin Jihad in the cause of Allah, and impose it, in all its various aspects. The Commandment of Jihad has a far-stretched and varied range, in accordance with the extant conditions and circumstances. It is a commandment whose aspects vary according to the variance of the need to in peace and in war.

Jihad in peace is a state of readiness that never slackens. On the one hand, it is moral readiness, consolidating faith, and confirming the dependence on Allah. On the other hand, it is a material readiness, which is not confined to a single one of the elements required for power.

Allah's Messenger —Blessing and peace be upon him—encouraged missileshooting, and was pleased whenever he saw the Muslim youth learning it. Related by al-Bukhari that Salmah Ibn-al-Akwa' - Allah be pleased with him said :

"The prophet — Allah bestow His blessing and peace upon him — passed by a throng of youngmen

2. Justice
— in the field of legislation.

3. Mercy
— in the field of morals.

When Allah, the Gracious, the Merciful, the Affectionate; the Nigh, the Responsive, speaks of the "raison d'être" of the Islamic mission, its significance, its nature, its general character and its specific character, He proclaims it as "MERCY".

Thus the says :

"We sent you only out of mercy to mankind".

This is the path of Allah, and the mission which the Islamic Nation was enjoined to believe in, to propagate, to guard and to consolidate in souls and ,in all lands.

Should countries allow the call to it, and the propagation of its principles-this bieng monotheism, justice and mercy.

Should communities and people come to believe in this mission, which is right and good.

Should individuals and nation adopt this religion, where - in lie their wellbieng and felicity...

The Islamic nation would have no occasion for armed Jihad, and there would be no fighting in the cause of the Islamic call.

But the Messenger-Allah bestow upon him blessing and peace-continued the persuation of his people day and night, and the more he persuaded, the more they turned away from him. Whenever he called them to the path of Allah, they put their fingers in their ears (they turned a deaf ear), hid their faces under their clothes, persisted, and took to arrogance. The Messenger - Allah bestow upon him blessing and peace - openly invited them to Islam having previously called for Islam in confidence.

The polytheists did not respond to the voice of monotheism and justice. They did not respond to the voice of virtue and noble morals. They did not even adopt a passive attitude. They tormented the Moslems, ejected them from their homes; hence came this holy verse.

"Permission is granted unto those who take arms against the unbelievers, for that they have been unjustly persecuted by them; and Allah is certainly able to assist them : who have been turned out of their habitations injuriously, and for no other reason than because they say, Our Lord is Allah.

(Pilgrimage 39-40)

The polytheists tyrannized, and drove the Prophet — Allah's blessing and peace be bestowed upon him — form their community, and were on the point of murdering him. They displaced his followers, scatteuing them beyond hope of reunion : Some of them going to Abbysinia, the others to Medina.

not measure and weight. Verily I see you to be in a happy condition but I fear for you the puni shment of the day which encompass the ungodly."

(Hûd : 84)

And says He-His be omnipotence and glory - indicating His path through commandment and interdiction :

"Verily, Allah enjoins justice and the doing of Good and gifts to Kindred and he forbideth wickedness and wrong and oppression. He warneth you that haply ye may be mindful."

(The bees : 90)

And says He :

"O prophet, when believing women come unto thee, and plight their faith unto thee, that they will not associate anything with Allah, nor steal, not commit fornication, nor Kill their children, nor come with a calumny which they have forged between their hands and their feet, nor be disobedient to thee in that which shall be reasonable : then do thou plight thy faithunto them, and ask pardon for them of Allah, for Allah is inclined to forgive, and merciful." (The Woman who is tried : 12).

And says He (blessed by His name) :

"Say: come, I will rehearse what your Lord hath made biding on you-that ye assign not aught to Him as partner; and that ye be good to your parents; and that ye slay not your children, because of poverty : for them and for you will we provide : and that ye come not near topollutions, outward and inward : and that ye slay not anyone whom Allah hath forbidden you, unless for a just cause. This he enjoined on you, to the intent that ye may understand.

And come not nigh to the substance of the orphan, but to improve it, until he becomes of age : and use a full measure and a just balance : We will not ask a soul beyond its ability. And when ye give judgment, observe justice even though it be the affair of a Kinsman, and fulfil the covenant of Allah. This hath Allah enjoined you for you monition.

"And 'this is my right way". Follow it then; and follow no other paths, lest ye be scattered from His path. This hath He enjoined you, that ye may fear him.

(Cattle : 151-152)

The messenger - Allah's blessing and peace be upon him sums up his Message in the following statement :

"I have been sent to accomplish nobility of morals."

There is no doubt that nobility of morals consists in :

1. Monotheism
   — in the field of creed.

and dignified statement wonderful in truthfulness, laconism and eloquence - is his saying :

"Verily, that which is preached by Muhammad-were it not a religionis at least beautiful as morals."

(*c*) Even Abu-Sufian, the bitter enemy of Islam, could not deny—before his conversion to Islam—that Muhammad calls for prayer, Almsgiving, and the observance of the blood that ties and inter-Moslem friendship. Abu-Sufian acknowledged that matter amidst a crowd of witnesses, in reply to a question put by Hercules, according to the account of Imam Al-Bukhari, pleased be God with him.

(*d*) The path of Allah is that delineated byAllah—exalted beHe—and revealed by him to his messenger-upon him be Allah's blessing and peace, and thus becoming the Quran and the Sunna.

The path of Allah, according to the Holy Quran and the Honoured Sunna is crystallised and focused in:

1. Monotheism
   (In the field of creed)
2. Mercy
   (In the field of morality)
3. Justice
   (In the field of Legislation)

Says Allah (blessed and exalted be His name) in the field of creed:

"Never have we sent a messenger before thee, but with the revelation that there is no God but I, thus worship me."

(Prophets : 25)

For further evidence He says, in an account of our master, Hûd :

"To' Ad, we dispatched their brother Hûd; he said, "Ye my people, worship Allah; no God have you but He. Verily you are mere slanderers. Ye my people, I ask you no recompense, My recompense being charged to none but Allah. Will Ye not there-fore understand ? My people, plead for the forgiveness for Allah, your Lord, and repent. Thereupon he will send you plenty of rain, and bestow further power upon you. Do not turn your heels, being criminals.

(Hûd : 50-52)

In the account of Salih : God, the Almighty, says : "And to Thamud (We dispatched) their brother Salih - He said : (Ye my people, worship Allah; Ye have no God other than He. It is he who hath produced you out of the earth, and hath given you an habitation therein. Ask pardon of him, and be turned unto him; for my Lord is near; and ready to answer)"

(Hûd : 61)

And in the account of Shu,ayb: "And unto madyan, (We sent) their brother Suh'ayb. He said : "O my people Worship Allah; ye have no god but him, and diminish

brought by Muhammad-God bless him-only came from the same fount whence issued the mission of Iesus-peace be upon him.

The path of Allah, as portrayed by our master Ja'far is Monotheism, the exclusive worship of Allah, veracity, the delivery of trust, the observance of the ties of blood, good will to one's neighbour, and abstinence from sin and bloodsheds; prayer-saying, alms-givings and fating; keeping clear of fornication falsehood, embezzlement of the orphan's property, and slandering the chaste females.

The path of satan is :

Idolatry: servitude to one's appetites, domineering, tyrannizing, enslaving others, ejecting the peaceful from their homes without any reason.

The path of Satan is: doing fornication, isolation of the ties of blood, abuse of neighbourhood, and the oppression of the weak by the strong.

The path of Satan is also: falsehood, propagating false rumours, cheating in all its forms, robbing the orphan, and slandering the chaste females.

Should we look for another representation-a comprehensive one-of the path of Allah, according to a wise man of Arabia, that had not hitherto been converted to Islam, (Aktham-ibn Sayfi, by name), one may, for a more realistic protrayal of the matter, recount the following anecdote :

"When Muhammed made his appearance in Mecca as a prophet, and preached Islam, Aktham-Ibn-Sayfi dispatched his son (Hubaysh). The latter returned with full information about Muhammad, whereupon Aktham assembled-Bani-Tamim Tribe, and addressed them, saying among other things.

"My son has had an interview with that man, and brought full information about him and his book. This man calls for beneficence, and forbids (in it) abomination, and enjoins in it high morals. He preached monotheism-the exclusive worship of Allah-exalted be He, the rejection of idols, and abandonment of swearing by fore. Those who are wise among you have come to know that what he calls for is good, and that leaving what he forbids is good judgment."

Then he said these wonderful words :

"Verily that which is preached by Muhammed—were it not a religion—is at least beautiful as morality".

The path of Allah-as conceived by Aktham-is :

Acknowledgment of Allah as the only God, calling for beneficence, forbidding abomination, and adoption of beautiful morals.

"Adoption of beautiful morals," is an exquisite phrase that is inclusive. But his really admirable

to their people, who are better-informed."

When the Nagashi had listened to them, he deemed it wise not to deliver the immigrants until he heard what they got to say. He thus invited them to his presence, and asked : "What is that religion wherein you have deviated from your people's creed, and yet have not adopted my religion, or that of anybody else.

It was Jaafar-ibn-abi-Taleb that replied, saying :

"Ye King, we were barbarous men that worshipped idols, ate that which died of itself, committed the deadly sins, paid no regard to blood relationship, nor to the right of our neighbour. The strong of us devoured the weak.

"We thus lasted till Allah sentous a messenger, of our own race esteemed by us for his descent, truthfulness, integrity and purity. He invited us to monotheism, to the worship of Allah, to the rejection of the former objects of our worship, the stones and the idols.

"He enjoined veracity, the delivery of trust, the observation of the ties of blood, goodwill towards our neighbour, and abstinence from sin and blood-shed. He forbade fornication, falsehood, robbing the orphans and slandering the chaste. He commanded us to worship none but Allah, to attribute divinity to none other than Him, to observe prayer, alms-giving, and the fast... (Here he expatiated upon the teachings of Islam.)"

We therefore believed him, and accepted his teachings, and followed him in obeisance to that which was revealed to him from Allah. We thus came to worship Allah and none else, to attribute divinity to none but Him. We forbade what he had tabooed, and permitted what he had conceded.

Our people tyrannized over us, tormented us, and prosecuted us on the score of our religion, in order to idolatry, taking us away from the worship of Allah—blessed be He—and to practising our old filthy deeds. When they overpowered us, oppressed us; fettered us and barred us from our religion, we fled to your land.

When a portion of the chapter of Mary was read to him, Nagashi wept and said. "Verily, both this that I hear and that which was revealed to Jesus come from the same source of light. Then he turned to Abd-ullah-ibn-Rabi'a and 'Amr ibn-il-As and said : "Away, both of you; by God, never will I deliver them to you."

Nagashi, immediatehe had heard the discourse, learned the priniciples of Islam.

These principles are sound. They are clear verses, whose truth is evident to the clear-headed. He came to know that that which was

"Fight for the cause of God; and know that God is He who heareth and knoweth."

From these holy Quranic Verses, it is evident that Jihad in Islam is a strife for a principle. This (principle) being expressed by Allah in terms of : the path of Allah, this path being Good, Justice and Right. Thus fighting in Islam is done :

1. So that the only worship be that of Allah;

2. Lest there be civil discord;

3. On behalf of the weak among the men, women and children, these being powerless, victimized by tyrants, and harassed by much evil. Hence they plead with God, (the Almighty to save them from oppression and on behalf of those who have been ejected from their homes, and expropriated, for no reason other than their saying : "Our God is Allah".

One might ask :

"What is the path of Allah ?"

"How may the only worship be that of Allah ?"

In order to indicate the path of Allah, one may point out certain Islamic principles implied in the real accounts that reflect the path of Truth and the path of Error, and point out the followers of Allah and the followers of Satan :

1. Among the earliest of those accounts is that of emigrants to Abbysinia for the cause of their religion. They never emigrated as tourists seeking pleasure or responding to the call of lust. They never emigrated for worldly advancement or in pursuit of a women. They emigrated with their religion, for their religion. They emigrated from the home of tyranny and injustice, for the sake of Allah, noble morals and ideals.

They were ejected from their homes, for no reason other than their saying, "Our God is Allah".

When they arrived, with their religion, in Abbysinia, the Quraishites dispatched, to the Nagashi, a delegation comprising Abdu-llah-Ibn-abi-Rabi'a-and Amr ibn-ul-As. The delegation asked for the delivery of the fugitives, with a view to subjecting them to further persecution.

When the Delegation appeared before the Nagashi, Amr ibn-ul-As began thus :

"There arrived in your land certain ill-advised youngsters that have forsaken the religion of their people, yet have not been converted to your own. They have invented a new creed not known to us, nor to you. We are dispatched by the dignitaries of their people, their fathers, unclesand tribes, to plead for the delivery of these fugitives

THE JIHAD

By

His Eminence Dr. Abd-ul-Halim Mahmoud

Rector of Al-Azhar

The Jihad and Victory by the will of Allah

In the name of Allah, most Gracious, most Merciful. Praised be the Great Allah, Lord of Heaven and Earth. Blessing and Peace be to the noblest of militants, braves of fighters, and best of the whole creation, our Master, Muhammad, his household, his Companions and all that followed his Guidance down to the Day of Judgment.

Jihad in Islam is A Strife For Principles

Allah (Blessed and Exalted be his name) says :

"But what hath come to you that Ye fight not on the path of Allah, and for the weak among men, women and children, who say, "O our Lord ! bring us forth from this city whose inhabitants are oppressors; give us a champion from thy presence, and give us from thy presence a defender".

"They who believe, fight on the path of God; and they who believe not, fight on the path of thagout : Fight therefore against the friends of Satan. Verily the craft of Satan shall be powerless".

(Women : 75-76)

And says He, the Omnipotent and Glorious :

"Fight therefore against them, until there be no more civil discord, and the only worship be that of Allah, but if they desist, then let there be no hostility, save against the wicked."

(Cow : 193)

And says He, Blessed be his name :

numerous advantages, excellences and superiorities. He was thus as erudite scholar, as adequate rector of Al-Azhar, as True Sufi and as brave courageous international Muslem Leader.

I shall not be righteous if I have tried to bewail him or to write a proper eulogium but I have to leave this task to the annals of history.

"Lo ! those who believe and do"

"good works, theirs are the gardens of"

"Paradise for welcome."

Zaher A. El-Zoghby

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd - ul - Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El - Zoghby**

Volume: 51 No. — 1 Mohrram Muharrm 1399 A.H. — December 1978 A.D

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

ABSENCE OF GLITTERING STAR

By

Zaher A. El-Zoghby

"But ah! Thou soul at peace"
"Return unto thy Lord, Content in His good pleasure !"
"Enter thou among My bondmen"
"Enter thou My Garden !"

Waves of painful sadness extended and covered all world with the death of His Eminence, The Grand Imam, SHAIKH AL-AZHAR Dr. ABDUL-HALIM MAHMOUD.

The Grand Imam was of distingwshed merits, superhuman talents and proper manliness.

Aptly he ascended upto the summit position of the international Islamic Leadership that enabled him to preach and defend the effective idealistic principles of Islam.

The Late Dr. ABDUL-HALIM MAHMOUD Was a man of

١٢٢٢٦
دوريات

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبي

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
٩٠٩٩٩٢٢
٩٠٥٩١٤
٩٠٥٥٠٦

الجزء الثاني — السنة الحادية والخمسون — صفر ١٣٩٩ هـ (يناير ١٩٧٩ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

غارة التتار على العالم الإسلامي
" أسبابها و نتائجها "

العلامة أبو الحسن الندوي

غارة التتار وأسبابها الحقيقية في ضوء القرآن :

واجه العالم الإسلامي في القرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها في تاريخ العالم ، وكادت تقضى هذه الكارثة على شخصية العالم الإسلامي ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر . وسيطروا على العالم الإسلامي كله .

والمعروف أن السبب في هذه الكارثة هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما أرسل إليه جنكيز خان سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار قتله أيضاً ، فاشتعل جنكيز خان غضباً وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم

شاه ، ثم على عالم الإسلام كله .

ولكن إذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد نتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار إليه القرآن ، ولا سيما ماذكره فى بدء سورة الأسراء من تدهور بنى إسرائيل وإفسادهم فى الأرض ، وعلوهم وتمردهم وما جرّ ذلك إلى زحف الملوك الظالمين ، وتسلطهم على بنى إسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا أن السبب الحقيقى فى هذه الفتنة الكبرى والمحنة التى أصيب بها العالم الإسلامى ، ليس اقتراف ملك أو حاكم أخطاء فى التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ويفاجأ العالم الإسلامى ، وتصاب الأمة الإسلامية بهذه الفتنة العمياء — التى لم تكن تتوقعها ولا تستحقها — لمجرد أن يخطئ فرد من أفرادها .

إذا حملنا نبراس القرآن فى يدنا ، واستعرضنا أوضاع المسلمين الخلقية والدينية والمدنية والسياسية فى ذلك العصر تحقق لنا كالشمس فى رابعة النهار ، أن هذه الحادثة المشئومة لم تكن مفاجأة وإنما هناك أسباب أكثر عمقاً وأصالة مما ظنه الناس وذكروه ، ولكى نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصيلة يجب أن نرجع سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس بإجمال أوضاع الدول الإسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع فى ذلك العصر .

أوضاع مركز الخلافة والعالم العربى فى هذا العصر :

إن المملكة الأيوبية توزعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٩ هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم فى أداء هذه الأمانة التى آلت إليهم ، شأن كثير من أولاد الولاة وأولى العزم من الحكام ، فقد ظل الصراع قائماً بينهم إلى مدة طويلة ، حتى أن بعضهم لم يتورع عن الاستعانة بالصليبيين وتدبير المؤامرات ضد أخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطراباً سياسياً وانحلالا خلقياً وفوضى فى سائر الولايات التابعة لهذه المملكة ، وكان الناس يعيشون فى جو من القلق والخوف .

هذا وكانت الغارة الصليبية الإفرنجية تتعاقب على تلك الحواضر الإسلامية التى كان السلطان صلاح الدين قد استردها بعد تضحيات ضخمة ، وقد

فشت أمراض وأوبئة ومجاعات شديدة نتيجة لهذا الانحطاط الخلقى والانحراف الإدارى ، وفى سنة ٥٩٧هـ حدثت مجاعة فى مصر إذ لم يفض فيها النيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين : العادل والأفضل ، حتى اشتد الغلاء بأرض مصر ، فهلك خلق كثير جداً من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة ، فى الذيل :

« إن العادل كفَّن من ماله فى مدة شهر من هذه السنة نحوا من مائتى وعشرين ألف ميت ، وَأُكِلَتْ الكلاب والميتات فيها بمصر ، وَأُكِلَ من الصغار والأطفال خلق كثير ، — يشوى الصغيرَ والداه ويأكلانه ، وكثر هذا فى الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهم ، فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوىُّ الضعيفَ فذبحه وأكله » .

واستمرت هذه الحال وفقاً لسنة الله فى الأرض ، وظلت الانذارات السماوية والأحداث الجسام تحذر الناس ، وكانت كفيلة بأن تبعث الناس على التوبة والإنابة إلى الله ، وإصلاح أحوالهم . وحدثت فى نفس هذه السنة زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة والروم والعراق . . . وخُرِّبَتْ محالٌ كثيرة فى طرابلس ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامراء، ومات بها وبقراها ثلاثون ألفاً تحت الردم . . . وماتت أمم لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ حتى قال صاحب « مرآة الزمان » : إنه مات فى هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان قتلا تحتها والله أعلم .

هذا ، وقد تفاقم الشر فى مركز الخلافة (دار السلام بغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبهة الملوكية والسلطان الأعمى ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشم فى قصور الخلفاء وبلغت الثروة والمدنية ذروتها ، ولا يمكن أن تتصور ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار .

ويكفى أن نذكر على سبيل المثال ، أن علاء الدين الطبرسى الظاهرى ، وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ، كان يحصل له من أملاكه التى استجدها ثلاث مائة ألف دينار سنوياً ، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها ، وكذلك مجاهد الدين أيبك الدويدار المستنصرى وقد ملك جزيل الأموال من الينابيع ، والرقيق ، والدواب ، والعقار والبساتين

والضياع ، ويتعذر وصف ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، والجواهر التى جهز بها أولاده وبناته فى ليالى الزفاف ، كما أن الفرّاش صلاح عبد الغنى بن فاخر المتوفى سنة ٦٤٨هـ ، وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة ، كان يعيش — مع خلوه من العلم — عيشة الملوك ، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية فى هذا العصر وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون فى أكبر جامعة إسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ ديناراً شهرياً .

وبجانب ذلك نجد أن ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشرابى على مجد الدين أيبك المستنصرى ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابى للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصل .

ولكى ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ، والتظاهر بالفخفخة والأبهة الملوكية يجب أن نعرف أن المواكب التى كانت تخرج فى مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس حتى أنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات . ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكى ، الذى خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠ هـ واستمر إلى الليل ، حتى صلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء ، وذكر فى « العسجد المسبوك » : « أن العساكر فى عاشر ذى الحجة سنة ٦٤٤هـ خرجوا إلى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس ، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبى ، وحافر الخيل والأرض والرغام .

وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات وتفشى الرشوة وعزل كبار الموظفين ، وإلقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين ، واشتداد النزاع الطائفى والتفكك الخلقى ، والانصراف إلى الملاهى والقيان والتكاثر فى الأموال » .

وفى نفس هذه الأيام كان التتر يعبثون بكرامة فارس وتركستان ويأتون عليهما من كل جانب ، وكانت أبصارهم شاخصة إلى بغداد ، أكبر مركز إسلامى فى ذلك العهد ، ويتحدث المؤرخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦هـ بما يأتى :

« استهلت هذه السنة وملوك بنى

أيوب مفترقون ، مختلفون » ، وظلت بغداد دار الخلافة الإسلامية مركزاً للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولم يستطع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة — التى قد جرت عادة خلفاء الإسلام من قديم بتغييرها — بين ٦٤٠ هـ و ٦٤٣ هـ ، وبقيت جدران الكعبة عارية عن الكسوة إلى ٢١ يوماً ، فتشاءم به الناس.

فى سنة ٥٧٥ هـ جلس الخليفة الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته إلى أكثر من ٤٦ سنة ، وهى مدة طويلة لم تتيسر لأحد من الخلفاء العباسيين ، ولكنها أظلم عهد فى تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير ، فيقول :

« وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالماً ، فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشىء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها ، وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جل همه فى رمى البندق وصيد الطيور ولبس سراويل الفتوة ، وأبطل الفتوة فى البلاد جميعها إلا لمن يلبس منه سراويل يدعى إليه ، ولبس كثير من الملوك منه سراويل الفتوة ، فأجاب الناس بالعراق وغيره إلى ذلك ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك » .

توفى الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢ هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات ، محسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجاً للخلفاء الصالحين فى كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنه — مع الأسف — لم يجد فرصة للتنظيم والإصلاح ، وخلفه ولده المعتصم بالله فى سنة ٦٤٠هـ ، وكان المستعصم صحيح العقيدة متديناً يظهر عليه خشوع وإنابة ، لم ينقل عنه إنه عصى الله بفمه ، ولا بفرجه ، ولا شرب مسكراً ، ولا أخل بصيام الاثنين والخميس من

كل شهر ، وكان يصوم شهر رجب من كل سنة ، وكان يحفظ القرآن ومواظباً على الصلوات فى أوقاتها . إلا أن المستعصم لم يكن بصيراً بتدبير الملك — على ما رواه ابن كثير — ، وكان فيه لين وعدم تيقظ ، ومحبة للمال وجمعه .

وفى سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفة المستعصم بالله محمد بن العلقمى ، ولكنه لم يكن وزير صدق ولا مرضىّ الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين أهل السُّنَّة والرافضة فى سنة ٦٥٥هـ « نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نهبت دور أقرباء الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذى لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد » .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد — وكان الخطر التتارى يقرع الأبواب — كانت جيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش ، كلهم قد صرفوا من إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأمام أبواب المساجد وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كله بسبب آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى » .

كان المستعصم رجلا صالحاً حسن السيرة والفكر ، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكن فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة بلغ مبلغاً لا يؤثر فيه إلاّ مَنْ رزق الإرادة القوية ، والشخصية العبقرية ، ومن يستطيع أن يقف سداً منيعاً فى وجه الفساد ، ويتغلب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع فى مثل هذه الحال إلا العظماء الذين افتتحوا عهداً جديداً وأسسوا حكومات جديدة فى التاريخ .

ولقد تكرر فى التاريخ أن آخر أفراد أسرة حاكمة ، وآخر حاكم فى مملكة آخذة بالانحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى ، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة وبين نهايتها الأليمة التى كان يفرضها قانون السماء وتقتضيها طبائع الأشياء .. وشاءت الأقدار أن

يُعْتَبرَ ذلك الرجل الأخير مسئولا عن نهاية الحكومة فى أسرته الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحا وديانة ، وأحرص على إصلاح الفساد من سلفه الماضيين .

وقد كان عدد من الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة ، كما كان عدد منهم معتزلين فى الزوايا والمساجد ، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين . يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجى يصف أهل العراق يومئذ :

« واهتموا بالإقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر فى المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لايجوز من الأمور الدنيوية ، واشتد ظلم العمال ، اشتغلوا بتحصيل الأموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم » .

القسم الشرقى من المملكة الإسلامية :

وكان ملوك الخوارزم منفردين بالحكم فى الجزء الشرقى للعالم الإسلامى ، قامت دولتهم ذات الشوكة على أنقاض المملكة السلجوقية فى آخر القرن الخامس الهجرى ، وكان العالم الإسلامى كله خاضعاً للحكم الخوارزمى باستثناء مصر والشام والعراق والحجاز والمنطقة السلجوقية الصغيرة الواقعة فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، وكان علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧) أعظم ملوك الأسرة طموحاً ، وأعلاهم همة ، وأكثرهم فتحاً وانتصاراً ، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم فى عهده ، يتحدث عنه المؤرخ « هيرلد ليمب » فى كتابه (جنكيزخان) فيقول :

« كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعاً على عرش الملك فى قلب البلاد الإسلامية وكانت رقعة ملكه تمتد من ثغور الهند إلى بغداد ، ومن بحر الخوارزم (آرال) إلى خليج الفرس ، وكان مسيطراً على الممالك الإسلامية كلها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصليبيين ، وأسرة السلاطين من مماليك مصر ، وكان السلطان محمد إمبراطوراً بالنظر إلى مكانته بالرغم من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله سخط عليه ، ولكنه كان يعترف بقوته ، إن الخليفة فى بغداد بعد ما تجرد عن كل سلطان دنيوى عاد مجرد رمز دينى شأن البابوات فى روما » .

أما المؤرخون العرب فإنهم لا يشيرون إلى موضع ضعف أو عيب شخصى كبير فى سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل

إنهم يعترفون بتدينه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلبه بوجه عام ، ولكن الذى لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته فى القضاء على الحكومات الإسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وجدت فى هذا الجزء الشرقى الواسع ، وأنه أجـــبر السلاجقة إلى التأخر والانسحاب إلى آخر حدودهم فى جانب ، كما أنه ظل يحارب الغوريين فى الشرق والجنوب فى جانب آخر ، واضطرهم إلى الانحصار فى جزء محدود . وأن خيرة عناصر الفروسية والنضال فى إيران وتركستان قد أثخنتها الحروب الطاحنة المتواصلة التى لم تكد تنتهى ، فكان الجو الحربى يسود على المدن والأقاليم الخصبة الغنية وعلى مشاعر أهلها فى كل حين ، وقد اجتمعت غنائم البلاد المفتوحة وحاصلات الأقاليم الخصبة ، وتأنق الصناع فى الصناعات وأدوات الزينة فبلغت ــ بذلك كله ــ المدنية أوجها ، واجتمعت جميع عوامل الغنى والجدة والرفاهية والانتصارات وما يتبعها من ترف وبطر .

ومن الصعب العسير أن يوجد حديث عن الأدواء الخلقية ــ التى كانت تعانيها الحضارة والمجتمع ــ فى كتب التاريخ التى تدور حول البلاط الملكى والسرائى ، ورجال الحكومة . وإن مظنة هذا الحديث هى كتب المشايخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكتب المواعظ التى اكتسح معظمها السيل التتارى ، ولا يسعنا أن نحمل ما صرح به المؤرخ المسيحى « هيرلد ليمب » فى كتابه «جنكيز خان» على مجال التعصب الدينى والمبالغة ، إنه يقول :

« إن العالم الذى كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد وكان لا يخلو من شغف بالغناء والموسيقى ، ومن الطرب والاهتزاز ، لكنه برغم هذا الظاهر كان يعيش فى قلق واضطراب ، فكان المماليك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس فى جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زمام الأمور فى يد أولئك الذين كانوا ينهبون الرعية ، ويترفهون على حسابها ، وكانت حراسة الحرم ، والإشراف على السرائى للخصيان » .

خطأ الملوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفس الخطأ الكبير الذى وقع فيه الحكام العرب فى الأندلس ، ولم يعف عنهم

قانون المكافأة الإلهى ، وبذلك بذلوا كل قواهم فى توسيع رقعة الملك ودعمه ، وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشرى الذى كان يعيش بجوار حدودهم ، وكان بنفسه عالماً مستقلا ، وبصرف النظر عن الدافع الدينى والواجب الإسلامى ، كان مقتضى الحزم السياسى وبعد النظر أن يعنوا بإيجاد الانسجام العقائدى مع هذه الدنيا الإنسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجاً ، يحفظهم من ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كلهم.

زحف التتار نحو العالم الإسلامى :

فى هذه الأحوال والزمان تقدم التتار بادئ بدء ، كعقاب إلهى بقيادة ملكهم « جنكيز خان » نحو الجزء الشرقى للعالم الإسلامى ، إيران وتركستان حتى وصلوا إلى بغداد التى أسلفنا ذكرها ، وأخيراً قاموا بتدميرها وإبادة أهلها سنة ٦٥٦هـ

(واتَّقوا فِتْنةً لا تُصيبن الذين ظَلَموا مِنكم خاصَّة ، واعْلَموا أن الله شَدِيدُ العقابِ) .

إن الدافع القريب لهذا الزحف التتارى فى عالم الأسباب ، هو أن جنكيزخان بعث إلى خوارزم شاه رسولا يقول له : إنك تحكم رقعة عريضة كما أننى أملك مملكة واسعة ، فإذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك فى صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامت العلاقات التجارية وبدأ التجار يتبادلون أموال التجارة بين البلدين ، ولكن ما الذى حدث بعد ذلك حتى شهد العالم الإسلامى ذلك اليوم المشئوم الذى يدعى بغارة التتار ؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك المؤرخ الغربى « هيرلد ليمب » ويصدقه تماماً ما جاء فى التاريخ الإسلامى . إنه يقول :

« انفصمت العلاقات التجارية التى أقامها جنكيزخان بين البلدين فجأة وكان السبب فى ذلك أن قافلة من التجار كانت متجهة من (قراقورم) إلى الغرب ، فلما وصلت إلى « اترار » تعرض لها حاكمها الذى كان يدعى باينل جق وأسر رجالها ، وأخبر ملكه خوارزم شاه بذلك ، وقال إن هذه القافلة لا تخلوا من جواسيس جنكيزخان وكان هذا الخبر مما يؤيده العقل .

وما أن وصل الخبر إلى خوارزم شاه

حتى أمره بقتل التجار كلهم دون أن يفكر فى هذه القضية ، ويتأنى فى إصدار الأمر ، ونفذ أمره بقتل التجار الذين جاءوا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيز خان ، أرسل سفراءه إلى خوارزم شاه يشكو إليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهز خوارزم شاه الفرصة فقتل رئيس السفراء ، وأمر بإحراق لِحَىْ الباقين الذين رجعوا إلى جنكيزخان وقصوا عليه القصة ، وفور سماع هذه القصة صعد جنكيزخان على جبل فى « صحراء الجوبى » ليفكر فى القضية ، لأن قتل رسول المغول كان جريمة لا تغتفر ، وكان لا بد من القصاص لها حسب ما جرت عادة المغول فى مثل هذه الأمور .

وأعلن جنكيزخان قائلا : إذا كانت السماء لا تحتمل وجود شمسين ، فإن الأرض — كذلك لا تحتمل وجود ملكين » .

أبوالحسن الندوى

هو ما وافق القرآن

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — فى شأن ما صحت روايته عن رسول الله قوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأحاديث ستكثر عَنِّى بعدى كما كثرت عن الأنبياء من قبلى ، فما جاءكم عَنِّى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فهو عَنِّى ، قلته أو لم أقله .

إلى أين يتجه المسلمون ..؟
المرحلة الثانية عصر الملكية

العلامة أبو الأعلى المودودى

(٢)

هيا بنا نأخذ الآن المرحلة الثانية من مراحل التاريخ الإسلامى . إن هذه المرحلة تبدأ من عهد امتد فيه الإسلام إلى جنبات الأرض وانتشر نوره فى أرجائها بسرعة تفوق التصور ، وقد دخل فى حظيرته العدد الهائل من خلق الله . إلى أن تعذر على المسلمين الأوائل العناية الكافية بتربية هذا العدد الضخم تربية إسلامية وتثقيفه ثقافة إسلامية ، مع أنه كان فى المسلمين رجال الصلاح والتقوى ، ولم يكن الناس يقبلون على الإسلام إلا لإعجابهم بما كانوا عليه من سلوك حسن وعمل صالح وخلق كريم ، فكانوا يدخلون فى دين الله أفواجا ، ولم يكن من السهل الميسور بتاتاً أن يحدث فى حياة هذا البحر الخضم من البشر نفس الانقلاب الذى حصل فى حياة المسلمين الأولين من حيث الكم والكيف . الأمر الذى تسبب فى تقلص عدد المسلمين فى الدنيا رويداً رويداً ، ومن ذلك النمط المثالى الرائع ، الذى كان مسلما حقًّا واعيًّا وكان قوله يطابق فعله. فانخفضت نسبة هذا النمط من المسلمين فى المجتمع من جهة ، ومن جهة أخرى تصاعدت نسبة الذين هم وإن كانوا قد دخلوا فى الإسلام إعجاباً بمبادئه وأسسه ، وخضعوا له بتجرد وإخلاص إلا أن الناحية السلوكية فيهم لم تكن منطبعة كليًّا بطابع الإسلام ولم يكونوا موفورى الرصيد من الفهم للدين والتعمق فيه . وهذه الظاهرة أدت إلى انقلاب خطير فى مجرى التاريخ الإسلامى وهو تحويل نظام الخلافة إلى نظام الملكية .

وتُسْرَدُ أسباب كثيرة ساعدت فى هذا التحول ، غير أن السبب الرئيسى

لهذا التحول فى نظرى هو تناقص عدد المسلمين المتعمقين الواعين فى المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين . إن الذين كانت حياتهم الواقعية ترجمة حية للإسلام أخذ عددهم فى انحسار وتقلص بينما الذين كان ينقصهم الفهم الحقيقى للإسلام وكان لا يتلاءم سلوكهم مع الإسلام قد تصاعدت نسبتهم إلى درجة أصبح معها من المستحيل تخليص المجتمع الإسلامى من المضاعفات المنبثقة من فقدان الوعى الإسلامى الصحيح فيهم ، وأصبح معها من المستحيل المحافظة على المجتمع من آثار عاهاتهم الخلقية . ونتيجة لذلك حلت الملكية محل الخلافة ، وانفرط عقد النظام الذى أقامه المسلمون الأوائل ببذل مهجهم . وطالت هذه المرحلة من مراحل تاريخنا قروناً طويلة . ولا يسمح لى المقام أن أتناول بالبحث مخلفات هذه المرحلة وما كان وراءها من العوامل بتفصيل واف . وإنما أذكر لكم الآن أربعة أو خمسة من أهم نتائجها التى لا يزال طابعها ثابتاً ملموساً على وضعنا الحاضر . وبكلمة أخرى ، لا تزال ملامح تلك المرحلة من « ماضينا » تتجلى فى « حاضرنا » .

انقسام القيادة :

إن أول ضرر من الأضرار الرئيسية التى نكبت بها الأمة الإسلامية من جراء النظام الملكى هو أن انقسمت قيادة الأمة المسلمة إلى قسمين ، بعد أن كانت هذه القيادة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه الراشدين رضى الله عنهم موحدة تستقطب جميع نواحى الحياة الروحية والعلمية والفكرية والسياسية حول محور واحد بحيث كانت التوجيهات السياسية والتدابير القضائية والتعليمات الإدارية والتنظيمات العسكرية وشئون الحرب أو الصلح تنطلق من مصدر بعينه . ونفس القادة الذين كانوا يوجهون هذه النواحى هم الذين كانوا فى الوقت نفسه قادة المسلمين فى إصلاح الأخلاق ، وقادتهم فى الفكر والعلم ، وقادتهم فى التربية الروحية . إن هذه القيادة بجميع نواحيها كانت تدور حول محور بعينه . إلا أنه لما نجم قرن الملكية اعترى القيادة الانقسام وانشقت إلى شقين . ففيما يتعلق بالشئون السياسية استأثر به الحكام ، وفيما يرجع إلى النواحى الخلقية والفكرية والروحية انتقلت أزمته إلى رجال العلم والفقه

والتصوف : أصبح فقهاء المسلمين وعلماؤهم القادة فى الشئون الروحية والخلقية والدينية ، وأصبح الملوك والأمراء قادتهم فى الشئون السياسية . وكان هذا الانقسام فى القيادة فى حد ذاته فتنة مدمرة كان من المحتوم أن تعكس آثارها السيئة فى المجتمع . ثم زادت الطين بلة طبيعة القيادة السياسية إذ من مقتضاها الطبيعى أن تقحم نفسها فى كل شأن من شئون الحياة وتدس أنفها فى كل أمر من أمورها . وانطلاقاً من هذه الطبيعة هبت القيادة السياسية تفرض سلطانها على كلتا الناحيتين من الحياة : الدينية والخلقية . بينما كان أصحاب العلم والفقه والتصوف لم يكونوا ليرضوا وما كان ينبغى لهم أن يرضوا بحال من الأحوال تدخل القيادة السياسية فى شئون الدين والأخلاق كى لا يشوه وجه الدين ، ولا يغير الفكر الإسلامى ، ولا تمسخ المبادئ الخلقية . فنجم عن كل ذلك التباعد بين هاتين القيادتين ، واتسع الصدع بينهما ، ثم شرع التناحر والتصارع بينهما بدلا من التعاون والتلاحم ولا نزال نشاهد هذه الظاهرة الغريبة على قدم وساق فى تاريخ الإسلام المعاصر ومما لا يستحق الجدل أن عصر الملكية فى التاريخ الإسلامى لا يقاس أبداً بعصور الملكية فى تاريخ الشعوب الأخرى . لأن الملكية فى تاريخنا الإسلامى مع ما جاءت به مشحونة بكثير من السيئات والويلات إلا أنك سوف لا ترى عبر التاريخ الإسلامى تلك العصور المظلمة التى هى علائم بارزة فى تاريخ الأمم الأخرى . ولا أملك نفسى فى هذه المناسبة إلا لأسجل إعجابى واستحسانى لما توافر فى التاريخ الإسلامى من الملوك الأتقياء الصالحين ، وما استطاع أى شعب أن ينجب هذا العدد الوفير من الملوك الصالحين . وبرغم إعرابى عن خالص تقديرى لوجود هؤلاء الأفراد الصالحين فى وسط النظام الملكى لا أملك إلا القول كذلك أن الذى نجم عن هذا النظام من نتائجه الفطرية وآثاره الحتمية جلب على الأمة الأضرار الباهظة ، أبرزها أن الحكومات الإسلامية تخلت عن فريضة الدعوة إلى الإسلام ، وحمل مشاعله فى الدنيا بل اقتصر أمرها فى أكثر الأحايين على فتح البلاد وجباية الأموال . وانتهى بها المطاف إلى ما نعانيه فى وضعنا الراهن .

ونرى فيكم اليوم عدداً هائلا من

الذين هاجروا إلى باكستان من المناطق التى حكمها المسلمون طيلة ثمانية قرون كبلدة « دلهى » وضواحيها ، ومنطقة شرقى بنجاب ، ومقاطعات الهند الوسطى وولاية حيدر آباد الدكن . كان الحكم فى هذه المناطق كلها بيد المسلمين . ولو كانت حكوماتهم التى تعاقبت عليها داعية إلى الإسلام رافعة لواءه ، وجاعلة نصب أعينها تبليغه فى أرجاء المعمورة لتوطدت فيها دعائم الإسلام ولكان هو وحده يعم أرجاءها ، ويبدل الوثنيين فيها بالموحدين . نعم ، لو كان الأمر كذلك لما انتهى الأمر بكم اليوم إلى هجرتها تاركين دياركم وأموالكم فيها . ولكن لجوءكم إلى باكستان يصرخ بلسان الحال ، إن حكام تلك المناطق لم يؤدوا مسئولياتهم نحو الإسلام ولم يوفوا بحقه كحكام مسلمين مخلصين ، وإذا قدر الله للإسلام أن ينتشر فى تلك الأقطار على رغم ذلك فلم ينتشر إلا بفضل الجهود التى كرسها الفقهاء والمصلحون أما الحكام فبدلا من أن يكون لهم ضلع فى انتشاره وامتداده غالباً ما وقفوا فى وجهه عقبة كأداء أو وقفوا غير مشجعين لانتشاره على الأقل . وهم بسبب استخدامهم وسائل البطش والإرهاب والقهر لتوطيد حكمهم ، وانغماسهم فى حياة الترف والبذخ ، وظهورهم فى مظهر الأخلاق الرذيلة صاروا منفرين للناس من الإسلام . والأعمال التى كان من شأنها تحبيب الإسلام إلى القلوب فلم يأتوا بها إلا فى النادر القليل . وأعود فأقول : إن الحكام الذين كانوا على رصيد كبير من التقوى والصلاح أتقدم إليهم بالثناء العاطر والتقدير البالغ ، إلا أن النظام الملكى فى مجموعه لم يثمر إلا عواقب وخيمة وانحرافات خطيرة ، ولا سيما فى عهد الملوك الذين لم يبق لديهم من حركة الإسلام الأولى إلا كباقى الوشم على ظهر اليد . ومن الحقيقة بدون منازع أن كل ما تحقق للإسلام من الانتشار والازدهار ما كان إلا بفضل الجهود الجهيدة من جماعات راشدة من أهل العلم والفقه والتصوف ولم يكن فى وسعهم من أن يستميلوا الناس إلى الإسلام بطيب الكلام ونبيل الأخلاق وصالح الأعمال ، وينيروا لهم طريق الحق بالدروس والمواعظ وبطريقتهم المثلى . ولم يكن بمقدورهم أن يتخذوا التدابير اللازمة لتربية الملايين من البشر الذين كانوا يدخلون

حظيرة الإسلام تربية إسلامية كافية ، لأن الحكومات هى التى كانت مدعوة إلى أداء هذا الواجب ولكنها لم تعر أى اهتمام بهذه الناحية . ولو كانت هناك حكومة تدعم هؤلاء الدعاة وتشد أزرهم وتقدر مساعيهم أو أن تبذل عنايتها – فى أقل . الاحتمالات – على أوسع نطاق بتربية وتوعية الموجات البشرية التى كانت تدخل فى دين الله متجاوبة مع المحاولات الفردية من جهة هؤلاء الدعاة لكان الأمر عكس ما تراه اليوم . ولكن لم يحدث هذا ويا للأسف ، ولم يتجاوز الأمر أن يهب عبد من عباد الله يعرض على الناس الإسلام ويقدم لهم نماذجه العملية من خلال نظافة حياته وسمو سلوكه وطهارة ذيله : النماذج الرائعة التى تضرب على أوتار قلوبهم ، وتستهويها لدعوته فإذا بهم يتقدمون إليه فى غمرة من الانفعال يطلبون منه إدخالهم فى نفس الدين الذى سما به إلى هذا المستوى من طهارة الخلق ونزاهة العيش . فهذا العبد الصالح – على غرار المئات من أمثاله – يلقن الناس كلمة الشهادة ، ويبدل أسماءهم الكافرة بالأسماء الإسلامية ، ويعلمهم ما يلزم من الآداب والطرائق للحياة الإسلامية فماذا عسى بوسعهم أن يأتى به هؤلاء الدعاة أكثر مما أتوا به . وكان من واجب حكومات المسلمين أن تشعر بمسئوليتها وتزود المسلمين حديثى العهد بالإسلام بما يجعلهم عنصراً حيويا نافعاً فى المجتمع الإسلامى . ولكن مع الأسف فإن الحكومات المسلمة تقاصرت عن إدراك مسئوليتها نحوهم . نعم إن رجال الجود والإحسان فى الأمة حاولوا ملء هذا الفراغ بصفتهم الفردية بوقف أموالهم وعقاراتهم فى مختلف العهود ، فأنشئت المعاهد والزوايا لتأمين المطالب التعليمية والتربوية وكان لتلك المواقف أجمل الآثار وأعظم النتائج ، إلا أنه ما دامت الحكومات متهاونة فى أداء مسئوليتها فى هذا الباب ومتخلفة عن توعية عامة السكان فإن انتزاع المسلمين الجدد من براثن الجاهلية ورواسبها وجعلهم مسلمين واقعيين يتمثل الإسلام فى حياتهم حيا ملموساً كان من باب المستحيل .

ومن الحق أن نقول إن وضعنا الحاضر هو أيضاً مطبوع بنفس الطابع الذى يرجع إلى هذه المرحلة الثانية من التاريخ الإسلامى . وما أشبه الليلة بالبارحة . فها أنتم قد تستطيعون أن تشاهدوا عشرات

الملايين من المسلمين فى المدن والقرى : ما أغرقهم فى تقاليد الجاهلية وأعمال الشرك وما أفرغهم من الوعى الإسلامى ! . وما أصبرهم على الخزعبلات الهندوكية مع أنهم مسلمون ! . وما أشد تدنس حياتهم بآثار الديانة البوذية وما أرضاهم بالآثار التى امتازت بها المجتمعات الجاهلية قبل الإسلام فى مجتمعاتهم ! . وملخص القول إن أوضاعنا الحاضرة لا تزال متسمة بنفس الطابع الذى أوجدته المرحلة الثانية من مراحل تاريخنا. وإن شئت فقل : إن الذى نحصده فى « العالم المعاصر » هو ما غرس فى « ماضينا الغابر » ، وهذه هى سنة الله فى الكون . ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ازدهار العصبيات :

ومن سيئات هذه المرحلة أن نجم فيها قرن العصبيات الجنسية والقبلية والوطنية والجغرافية مرة أخرى بعد أن أفلت نجومها بطلوع شمس الإسلام .

وكانت هذه العصبيات قد رفعت رأسها فى العصر الأموى من جديد ثم ما فتئت تشتد وتترعرع فى المجتمعات الإسلامية وتنتشر فيها انتشار الأمراض المعدية كأوبئة الطاعون والكوليرا . وتؤتى حصادها المر . وإذا تأملتم فى صفحات ماضيكم وجدتم الكثير من الإمبراطوريات ناطحت هذه الصخور فتكسرت وأصبحت أثراً بعد عين . وهذا الداء الوبيل هو الذى هوى بالحكم الأموى إلى الانهيار ، وهو الموضوع الرئيسى فى قصص الصراع الذى استعر أواره بين القبائل العربية فى ذلك العهد وإليه يرجع الدور الأكبر فى تدمير العرش الأموى فى الأندلس ، والقضاء على الكيان الإسلامى فيها . وما يوم سقوط الإمبراطورية المغولية والحكومات الإسلامية فى ولاية حيدر آباد الدكن فى الهند ببعيد . وما يوم حليمة بسر . وخلاصة القول : إنكم حيثما سرحتم النظر وجدتم فى دمار المسلمين وذهاب حكوماتهم العظيمة ضلعاً كبيراً لهذا الداء الفتاك . إن المسلمين بالرغم من أن الله قد ألف بينهم . وجمعهم على كلمة التقوى وجعلهم بنعمته إخوانا . تناسوا هذه النعمة الجليلة من وقت لآخر فعاودتهم النوازع العصبية التى سوغت لهم اللجوء إلى الشعارات القبلية والألوية الجنسية(١) والفوارق العنصرية كالعربية والفارسية والأفغانية والتركية والمغولية والهندية فالتهمتهم غوائلها ونهشتهم عواديها فى النهاية . وهذا هو السر فى

(١) RACIAL

تدهور المسلمين وانفكاك عراهم إربا إربا ، وتمزق صفوفهم شذر مذر فى التاريخ . وهو من مساوئ الملكية التى توارثها المسلمون .. إن الملوك فى عصور الملكية كانوا يستغلون هذه العصبيات لتحقيق مصالحهم الشخصية فانتعشت حركة بنى العباس تقاوم بنى أمية وتؤلب عليهم الفرس باستغلال العصبية القومية . لماذا ؟ لتحقيق مآربهم وإقامة عرشهم ولا غير .

وهكذا هذه الداهية النكر — داهية العصبيات الجاهلية — قد أناخت بكلكلها فى المرحلة الثانية من تاريخنا . ولا نزال نشعر بمرارتها ونعانى من ويلاتها فى « حياتنا المعاصرة » .

وأسرد إليكم ، كالجملة المعترضة ، مثلا من تاريخنا المعاصر وهو أنكم ، أيها المسلمون ، قد جمعتم شملكم تحت لواء الإسلام فنصركم الله نصراً مؤزراً وكتب لكم النجاح والتوفيق فى إنشاء باكستان : بلدا إسلامياً مستقلاً تعيشون فيه أحراراً مكرمين ، ولكن بعد هذا الفتح المبين والنجاح الباهر تشرعون تستذكرون أصول الجاهلية : فهذا ينادى بالعنصرية البشتوية ، وآخر يعلن بأنه بنغالى ، وثالث يهتف بجنسيته السندية ، ورابع يدعو قومه إلى شعار البلوشية ، وخامس يعتز بكونه بنجابيا . إن هى إلا إحدى الكبر ، نذير للبشر ، وأشراط الساعة ، والساعة أدهى وأمر .

الأثرة وعبادة النفس :

وهناك داء آخر تولد فى ذلك العصر أيضاً . وتفاقم خطبه واستفحل أمره على مر الزمان . وهو أنه قد طويت صحف جميع النواحى من الولاء الإسلامى فى المسلمين ولم يبق إلا ولاء الرجل لنفسه أو لقبيلته فقط . بينما الإسلام قد وضع تحت قدميه جميع الأنواع من الولاء سواء أكان للجنس أو للون أو التراب أو اللغة . إلا الولاء لله ولرسوله ولدينه . وهذا هو الولاء الذى كان ينصاع فيه سلوك المسلم إن فردى أو جماعى ، فأخذ هذا الولاء يتضاءل فى عصر الملكية رويداً رويداً . ولما أخذ هذا الولاء الذى كان من ركائز معنوياتهم ومقومات تفوقهم الخلقى ينخر ويضمحل حلت محله — طبيعيا — الأنانية واتباع الهوى . ومن طبيعة البشر أنه إذا لم يسعفه الولاء الأعلى لا يضحى بنفسه ونفيسه فى سبيل مبدإ من المبادئ مهما شرف وعظم بل كان ما يصدر منه بعد ذلك يكون مبعثـه إما مصلحته

الذاتية أو مصلحة قبيلته وأسرته ، وكان من جراء هـذا الأمر أن نشأت في المجتمع الإسـلامى فئة مرتزقة من الجنود والضباط والإداريين قد تدنوا خلقياً لدرجة أن كل من سولت له نفسه أن يشترى ذممهم ، ويساوم ضمائرهم مقابل ثمن زهيد كان له ما أراد . وكان مثلهم كمثل الوحش الأليف الذى إذا أطعمته يتبعك ثم إذا أغريته بأحد يعدو عليه ليفترسه ويفتك به . وخذوا — مثلا — ما جرى فى تاريخ بلادكم : على أى مدى كان الشعب المسلم يؤمن للحكومات المتعاقبة جماعات من الجنود المرتزقين . أرى أنه لا يخفى عليكم أن دولة المرهتا التى كانت ألد أعداء المسلمين ولم تسلم من تطاولها أموال المسلمين وأنفسهم وأعراضهم . إن هذه الدولة أيضاً كانت فى جيشها فرق من الجنود المسلمين ممن كان لهم كعب عال فى ضرب المدافع وإلقاء القنابل . ولما دخل الإنجليز هذه البلاد ظفروا هم الآخرون أيضاً من الشعب المسلم نفسه بحشود كبيرة من الجنود المأجورين الذين أتموا لهم الاحتلال وحققوا لهم ما أرادوا لدرجة أن الإنجليز أصبحوا فى غنى من استقدام القوات من الخارج . لأنهم وجدوا فى هذه البلاد نفسها من أكمل لهم الغزو العسكرى ، وأصبح لهم الساعد الأيمن فى استتباب الأمن وتنظيم شئون البلاد . ولم يكن أحد من هؤلاء المرتزقين يستشعر فداحة دوره ويتفكر : فى مصلحة من يجند طاقاته وكفاءته ؟ وأى بلد نهض يغزوه مع الغزاة ؟ ولأجل أية جهة يتولى شئون الإدارة والتنظيم ؟ هل تفكرتم لماذا كان كل ذلك ؟ لأن جميع أنواع الولاء النبيلة انعدمت فيهم ، وآخر ولاء كان شأنه أن ينقذهم من النذالة والهون « وهو الولاء لله ورسوله ودينه » قد أتوا عليه أيضاً . ولم يبق فيهم إلا الولاء للنفس الأمارة بالسوء . وهل من ولاء غير الولاء للنفس يُمْكِنُ أن يحمل صاحبه على ذلك النوع من الأعمال الخسيسة التى يرفضها العقل ويمجها الذوق .

وعلى هذا ، فإن جميع الحكومات الإسلامية من جزر الفلبين شرقاً إلى المغرب العربى غرباً شرعت تذهب أيدى أيدى سبا واحدة تلو الأخرى . وفرض الاستعمار الفرنسى سيطرته عليها . وليست سيطرة الاستعمار الغربى على الشعوب الإسلامية وليدة الصدفة بل

مردها إلى جذور تاريخية عميقة لا يسمح لى المقام أن أستعرضها بالتفصيل وإنما أذكر لكم – متوخيًا الإيجاز – الدوافع التى شكلت المرحلة الثالثة من مراحل تاريخنا . أى المرحلة التى أضحت فيها جميع الشعوب الإسلامية ضحية الجشع الاستعمارى بدون استثناء .

وإن بقيت دولة أو دولتان بمنجاة من الاستعمار فآل أمرها أيضاً إلى أسوأ ممّا كانت عليه الدول المحتلة . فبقاء تركيا أو إيران أو أفغانستان مثلا بمنجاة من تطاول الاستعمار لم يكسبها موقفاً محسوداً بل انحدرت إلى ما هو أسوأ حالا وأردى وضعاً من البلاد المحتلة نفسها .

المرحلة الثالثة : دور الاستعباد وآثاره السيئة

ولنأخذ الآن المرحلة الثالثة والأوضاع التى مررنا بها فى هذه المرحلة . ولسنا بحاجة إلى الدراسة التفصيلية عن هذه المرحلة . إذ أننا لسنا ببعيدى العهد بها بل قد اجتزناها قبل عشرين سنة فقط . والذين كانوا فى ميعة الشباب فى تلك الفترة قد شهدوها عيانا فلا يخفى عليهم ما مر عليه من الأطوار والأحوال . اللهم إلا الذين كانوا فى تلك الأيام فى سن الطفولة . وهم إن كانوا لا يستذكرون أحداث هذه المرحلة بحكم سنهم غير أنهم قد سمعوا من آبائهم وإخوانهم ما جعلهم فى غنى عن الدراسة التفصيلية .

إن الاستعمار الغربى بعد تعميق مخالبه فى البلاد الإسلامية جعل يصب على المسلمين وابلا من الظلم والعدوان والبطش والتنكيل ، وأنزل بهم ضروباً من الفتن كقطع الليل المظلم . كما دك حكوماتهم ، واحتل أراضيهم الخصبة وسيطر على أوقافهم ، وتلاعب بأنفسهم وأموالهم وأعراضهم . بيد أن جميع هذه الأعمال الإجرامية لا تساوى ظلماً ارتكبه الاستعمار حين فرض علينا النظام التربوى الحديث الغريب عن معتقداتنا والبعيد عن قيمنا ، قسراً ، فى جانب ، وفى جانب آخر عطل نظامنا التليد للتعليم والتربية وحوله إلى حالة العقم ، وجعله فى وضع يرثى له . وحاول بهذه الطريقة أن ينشئ منا أجيالا تتنكر لشخصيتها الإسلامية . وتبغض دينها ، وتجهل تقاليدها ،

وتنظر إلى تاريخها الحافل بالأمجاد بنظرة الاستحقار ، وتعتبر حضارتها الرائعة شيئاً أكل عليه الدهر وشرب وتقتنع بأن ثقافتها قد تقادم عليها العهد ، وتؤمن بأن نظامها للفكر والعمل لا يصلح للعصر الحاضر ، ويترسخ فى ذهنها وقلبها أنه إذا كانت هناك معارف فهى التى تدون فى الغرب ، وإذا كانت هناك حضارة فهى التى مهدها الغرب ، وإذا كانت هناك أخلاق فهى التى يتخلق بها الغرب ، وموجز القول أنه إذا كان هناك شىء يتسم بالمثالية الجديرة بالتأسى ، وبالتصور الإنسانى الرفيع الحقيق بالتقدير والاعتناء فهو ما عند الغرب كما قال الشاعر :

إذا قالت حذام فصدقوها
فإنّ القول ما قالت حذام

هذا هو أعظم ظلم مارسه الاستعمار فى حقنا . أما النظام التربوى الذى كان يواجهنا إلى ديننا ، ويربطنا بتقاليدنا ، ويوطد صلتنا بحضارتنا عاد نظاما مرفوضاً لا يجد سوقا رائجة . ولأجل ذلك فإن أى فرد من المسلمين كان يتوق إلى التقدم المادى صار يرغب عنه وينبذه وراء ظهره ، ويتلهث وراء النظام الحديث الخلاب . فكانت لهذا التحويل آثار بعيدة الأغوار فى مجتمعنا ، وما لبث أن مال إلى هذا النظام التربوى النخبة الممتازة من هذه الأمة ، المتمثلة فى ذوى الثراء والفطانة والنباهة ، وفيمن كانوا يتعمقون بقسط وافر من المواهب والحيوية وقوة العمل والتفكير وقابلية التوجيه . إن جميع تلك العناصر الصالحة اندفعت إلى نظام الاستعمار للتربية والتعليم تحت ضغط منطق الظروف مع العلم أن هذا النظام لم يكن ليبعدنا عن ديننا وتاريخنا وحضارتنا فحسب ، بل ليكون منا أمة تتقزز من تراثها العقائدى وتنفر من قيمها الحضارية .

تحول قيادى :

وتعميقاً لهذه السياسة قصر الاستعمار جميع مجالات التقدم وفرص الترقى على الذين كانوا يتخرجون من هذا التعليم ، لأن الاستعمار قد أتى بخطة محكمة الدرس ومتقنة الأداء فى هذا الصدد ، كان من نتائجها الطبيعية أن الذى أراد أن ينال فى الدنيا عيشاً رغيداً ووضعاً مزدهراً — بل وحتى الذى أراد الحياة فقط — لا يتأتى له ذلك إلا أن يسلم أولاده لنظام التعليم الحديث لينزعهم من دينهم وقيمهم . نفذ الاستعمار هذه الخطة على المدى البعيد ، وفى

جميع البلدان الإسلامية شرقاً وغرباً . أى حيثما ألتى عصاه لجأ إلى هذه الخطة الممقوتة . وليس الاستعمار الإنجليزى بالوحيد فى هذا الأمر ، بل تلتقى عليه جميع القوى الاستعمارية كالاستعمار الهولندى والبلجيكى والفرنسى والألمانى. وعلى كل . فإن كل بلد من البلدان الإسلامية دخلته الشعوب الاستعمارية طبقت فيها نفس المكيدة .

ثم إن السياسة التى اتبعها الاستعمار فعلا فى توظيف المتخرجين من هذا النظام فى تسيير دفة الحكومة وفى المجالات الاقتصادية كانت تحتم أنه قدر ما يكون المرء متجرداً من آثار الإسلام قدر ما يتقلد أرقى المناصب . ولا شك أن هذه السياسة الإجرامية لم تدون ولم تطبق فى شكل القانون ، ولم يكن الأمر يحتاج إلى صياغتها وإدراجها فى لوائح الموظفين . بيد أن الوضع السائد والتخطيط الإدارى كانا يتجهان — جملة وتفصيلا — إلى أن الموظف كلما ينسلخ فى حياته العملية من الصبغة الإسلامية ، وينطبع بطابع الحياة الغربية كلما يجد الفرص مواتية والحظوظ حليفة فى إحراز التقدم . وهكذا تجد المستعمرين يتدرجون بالأمر حتى يتربع على المناصب الرئيسية الحكومية « المسلمون » الذين وإن كانوا يحملون أسماء إسلامية ولكنهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه . وسرعان ما رأينا نتيجة لذلك أن جميع المناصب الرئيسية تحولت إلى هذا الضرب من المسلمين ، وجميع القطاعات الاقتصادية (أى العصب الحساس) لا تُفْتَحُ أبوابها إلا على وجههم ، وشوهدت هذه السياسة نفسها متبعة فى جميع البلدان الإسلامية . وأينما توجهت فى البلدان الإسلامية تفاجئك هذه السياسة بقضها وقضيضها وويلاتها وثبورها .

الحركات التحريرية :

ولما أطلت الحركات التحريرية برأسها فى البلدان الإسلامية ، وبدأت فى قلوب الناس تلتهب جذوة تحرير الوطن بعد أن درسوا المؤلفات الغربية وتاريخ الشعوب الغربية ، وتفطنوا لوضعهم المزرى اقتضى منطق الأوضاع أن يتولى قيادة هذه الحركات الزعماء الذين كانوا يعرفون لغة الشعب الغازى . وكانوا يدركون طبائعه وطرائقه . وكانوا يفهمون منافذ الدخول إليه . هذا النمط من القيادة إنما فرضها منطق الأوضاع على الشعوب الإسلامية الطامحة للتحرير ، ولم

يكن لها بد من التسليم لها والاعتراف بها.

أما خريجو المعاهد الدينية– والأصح خريجو النظام القديم للتعليم – فلم يكونوا يصلحون لقيادة المسلمين بل لم يكن باستطاعتهم أن يتحملوا عبء قيادة الشعوب وخوض غمار المعارك التحريرية . فاتجه الناس فى عجز واضطرار إلى النوع الأول من الزعماء ، وألقوا إليهم مقاليد القيادة ، وبدأوا الحروب التحريرية ضد الاستعمار تحت إشرافهم وتوجيههم . ولذلك فإنك إذا أجلت نظرك فى أى قطر من الأقطار الإسلامية ، وفى أية رقعة من الأرض ، طيلة هذه المرحلة ، وجدت أن الذين يقودون الحركات التحريرية ويضطلعون بالدور الطليعى فيها فى شرق الأرض وغربها هم الزعماء من النوع الأول . كما رأيتهم فى خلال المعارك يلجأون إلى إذكاء عواطف المسلمين الإسلامية ومناشدتها لأنهم ما كانوا يستطيعون تصعيد التحرير بدون إثارة هذه الجذوة .. أهاب هؤلاء الزعماء بالشعوب الإسلامية باسم الإسلام فى كل أرض إسلامية قامت فيها معارك تحريرية ، معلنين : أن هذه الحرب إنما هى حرب فاصلة بين الإسلام والكفر . وعليكم – يا معشر المسلمين – ألا تألوا جهداً فى التضحية بأنفسكم وأموالكم ومواهبكم وأوقاتكم حتى يتحقق النصر ، ويكون الأمر كله لله ، وتعود المياه إلى مجاريها ويعود للإسلام مجده التليد ، وتشرق الأرض بنور ربها .

إن هذه الظاهرة لم تلعب دورها فى بلد واحد فقط بل فى أى بلد من المسلمين تدرسون تاريخه تجدون نفس الظاهرة تتحكم فى الأوضاع . وأضرب لكم مثلا من الجزائر التى نالت الاستقلال فى عهد قريب بعد أن خاضت غمار الحروب الدامية ، إن نفس الظاهرة لعبت دورها فيها . ولا أقول ذلك جزافاً ، بل تَوصَّلْتُ إلى هذا الرأى عن الجزائر بعد دراساتى القريبة لأوضاع هذا القطر الإسلامى . إذ كنت متتبعاً لتطور الأحداث فيه ، ثم ناقشت فى هذا الموضوع ، أكثر من مرة ، القادة الجزائريين فى الوقت الذى كانت فيه الحرب حامية الوطيس ، فلم يسعهم إلا أن يصدقوا وجهة نظرى ، ويقولوا بصراحة : إنهم إذا لم يؤكدوا للرجل العادى من الجزائر أن المعركة التحريرية التى ألهبنا نيرانها هى معركة الإسلام والكفر ، هى الجهاد فى سبيل الله الذى أمرنا به

الله ورسوله ، ومن استشهد فيه دخل الجنة ، إذا لم نقل له ذلك لا يستجيب لنا ويلبي نداءنا ويتقدم إلى ساحة القتال واضعاً رأسه على راحته . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الشعب الجزائرى لم يندفع إلى المعركة التحريرية إلا باسم الإسلام ، امتثالا لما يأمر به الدين وينادى به الله ورسوله ، ثم تعرض لما تعرض من أنواع البطش والتعذيب ، وتكبد ما تكبد من الخسائر وسجل ما سجل من التضحيات والبطولات مما يحير الألباب ويأخذ بمجامع القلوب ، ويجعل الإنسان يستغرب كيف أن شعبا أعزل يستطيع أن يحقق كل ذلك فى هذا العصر ضد الاستعمار المدجج بأحدث السلاح وأفتكه .

وخذ لذلك مثلا آخر من تركيا . لما غزا اليونان آسيا الوسطى بعد الحرب العالمية الأولى هب مصطفى كمال يقحم نفسه فى الجيوش التركية وفى يده مصحف وناشدهم بحماس دافق : أيها الأتراك : هل تعلمون ما هذا الكتاب الذى بيدى إنه المصحف الشريف . فيقول لهم : إنكم إذا لم تخرجوا معى للحرب مع اليونان فلن يكون لهذا الكتاب بقاء فى هذه الأرض . وهكذا فإن مصطفى كمال حرض على الجهاد المسلمين الأتراك الذين خرجوا واضعين رءوسهم على أكفهم ، وطردوا اليونان من أرضهم مسجلين التضحيات الجسام على ما كانوا عليه من قلة العتاد الحربى ونقص الإمكانيات المادية بينما كان اليونان يساندهم الحلفاء .

وكل بلد إسلامى درست تاريخه تجد نفس هذه الظاهرة تلعب دورها : تجد الذين بيدهم أزمة القيادة والتوجيه بعيدين عن الإسلام ، جاهلين به ، لا يعرفون عنه شيئاً ولا يجدون فى أنفسهم ميلا إلى تطبيقه لأنهم تثقفوا بثقافة تبدلت بها مقاييسهم للقيم ، وتبدلت بها أذواقهم وتبدلت بها خصالهم ، وبهرت عيونهم حضارة أخرى غير حضارة الإسلام ، وأخذ بمجامع قلوبهم منهاج غير منهاج الإسلام . وكانت الجماهير الإسلامية مضطرة كما قلنا إلى إسناد القيادة إليهم طوعا أو كرها . ثم إن كل ما حققه هؤلاء القوم من الانتصارات حققوها باستثارة جذوة المسلمين الإسلامية ، وما من معركة تحريرية تحقق انتصارها إلا بهذه الطريقة نفسها .

مَات الرجل الذى كان وجوده على رأس الأزهر إرهاصًا بما هو مقبل عليه من مَجد و سؤدد .

الأستاذ / أحمد حسين

ما كان لصاحب هذا القلم ألاّ يرثى فقيد الأزهر وفقيد مصر والمسلمين من كان وجوده على رأس الأزهر إرهاصاً بما سوف يكون عليه الأزهر من زعامة وقيادة لمصر كما كان شأنه دائماً وبالتالى للعالم الإسلامى كله .

ولم يكن لى صلة خاصة بالفقيد ، ولم أتشرف بلقائه ولو مرة واحدة ، ولكنى كنت على صلة به من ثلاثة محاور تلتقى كلها عند نهاية واحدة ، وهى أننا بإزاء عالم جليل تقى ورع عالم زاهد .

فأما المحور الأول فأشخاص أجلهم وأحترمهم كانوا على صلة بى ، وهم فى نفس الوقت يتصلون به ، وكانوا جميعاً يثنون عليه أطيب الثناء ، وإن أنس فلست أنسى أنه أرسل إلى بيتى بمجرد أن ولى وزارة الأوقاف موظفاً كبيراً يقول إنه موفد من الوزير ليشترى أى قدر من كتبى الدينية ، وعلى الرغم من أننى قلت : إن جميع كتبى الدينية يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وهو صاحب الحق فيها ، أقول بالرغم من ذلك ، فقد ترك هذا الموقف من الشيخ أثراً عميقاً فى نفسى .

أما المحور الثانى الذى جمعنى والشيخ فهو بعض كتبه فى السيرة النبوية التى كتبها ، وقد رجعت إليها وأنا أضع كتابى « نبى الإنسانية » ، وقد لاحظت جنوح الشيخ إلى تأكيد كل ما نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من خوارق لازمته منذ الميلاد ، ومن ذلك قصة شق الصدر ، فالحديث الصحيح المتفق عليه أنها حدثت مرة واحدة إبان طفولته فى بنى سعد ، ولكن هناك رأيا آخر يقول إن عملية شق الصدر قد تكررت أكثر من مرة ، وأن إحداها كانت قبل عروجه إلى السماء ، وفى معرض البحث العلمى فقد نقلت أقوال الشيخ فى كتابى ، وعارضتها بما أتصوره

ولكن الشيء المؤكد . أن مذهب الشيخ هو آية تصوفه وورعه ، فقد لا توافقه على رأيه ، ولكنك لا تستطيع إلا أن تقر له بالورع والتقوى .

مشيخة الأزهر :

ويجيء المحور الثالث من محاور اتصالى الروحى بالشيخ وذلك بعد صيرورته شيخاً للأزهر ، هنا وقد بدأت نفسه الكبيرة تتجلى ، إذ أعطى المنصب الكبير حقه ، من حيث الأزهر أعظم جامعة فى الدنيا فى الفقه الإسلامى والشريعة الإسلامية بعامة من حيث هى علم وعمل ، فأبقى التصوف لنفسه وسلوكه الخاص مع الناس ، حتى قيل لى من أحد المقربين إليه ، إنه لم يرفض أبداً دعوة وجهت إليه من أصغر الناس شأناً فلو دعاه أحد السعاة والفراشين إلى بيته ، لما اعتذر أبداً ، ولقد قال لى أحد إخوانى يوماً « أتحب أن يزورك الشيخ » وقد استوقفنى منه صيغة القطع واليقين التى راح يتحدث بها ، وكيف أنه ما علىّ إلا أن أقول نعم ، لكى يحضر فوراً ، ولكن الكتاب كان أسرع .

فالشيخ المتصوف البسيط الزاهد ظل كذلك حتى آخر لحظة فى حياته ، ولكنه ككبير لعلماء الأزهر قام بواجبه على الوجه الأكمل ، من حيث هو عالم فقه وشريعة ، بل إن الرجل ، وقد كان من القلائل الذين تثقفوا إلى جوار ثقافتهم الإسلامية بالثقافة الغربية فهو حائز على درجة الدكتوراه من جامعة السربون الفرنسية ، فقد حرص على مناقشة الماركسية ، والوجودية ، وبقية الفلسفات المادية ، مناقشة علمية موضوعية ، وقد كنت ألتهم مقالاته فى مجلة الأزهر التهاماً ، وأتلقى منها ، وأستزيد من معارفى .

ويتحدث المتصلون به عما فعله فى شئون الأزهر الإدارية ، للمحافظة على كرامة الأزهر وتحريره من كل تبعية ، ويقولون إنه ولى الأزهر ويتبعه بضعة وسبعون مؤسسة دينية وتربوية ، ولحق بالرفيق الأعلى وقد ناهزت هذه المؤسسات السبعمائة ، وهذه إحصاءات لا دخل لى فيها ، بمعنى أنى لم أحققها ، وإنما رويت لى ، ولكن الشيء المحقق (كما شاهدته فى التليفزيون) أن الرجل أعاد للأزهر تقليده العريق ، وهو أن يجلس شيخ الأزهر على « الكرسى » فى المسجد ليلقى درساً فى الدين ، ليستفيد به كل من حضر ، وقد

لايعرف الكثيرون أن هذاالتقليد قد نقل من الأزهر إلى كل جامعات الدنيا ، فأصبح منتهى ما يمكن أن يصل إليه أستاذ هو أن يقال إن له كرسى .

وهكذا أعاد الشيخ تقليداً أزهرياً كاد أن يندرس ، وباطل هذا النهج الذى اتبع فى السنوات الأخيرة وهو أن يحال كبار الأساتذة فى الدين إلى التقاعد ، فلا تقاعد للعالم إلا بموته ، ويجب أن يعود علماء من أمثال الشيخ حسنين مخلوف ، والشيخ عبد الجليل عيسى ، ليجلسوا على الكرسى فى الأزهر ويفيضوا من علمهم إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا (من الناحية الصحية) وشكراً للراحل الكريم الذى أعاد هذا التقليد .

رحلة أمريكا :

وبحكم ظروفى الصحية (الشلل الكامل) لم أعد أتابع من الأحداث إلا أضخمها ، وعلى رأس هذه الأحداث رحلة الشيخ إلى أمريكا ، وهى أول رحلة من نوعها يقوم بها شيخ الإسلام .

ولا أذيع سراً إذا قلت إن بعض المسئولين سواء فى أمريكا أو مصر ، كانوا يشفقون من نتائج هذه الرحلة ، واقترحوا على أقل تقدير أن تؤجل بضعة أشهر ، ليكملوا الاستعداد لها بما يتفق ومكانة الرجل فى العالم الإسلامى ، ولكن الرجل البسيط المتواضع لم يلق بالا بكل هذا ، لقد تلقى دعوة من جمعية إسلامية صغيرة فى لوس أنجلوس (الشاطئ الغربى لأمريكا) لافتتاح مسجدها الصغير ، ولم يفكر الرجل لحظة فى المشقة التى سوف يعانيها فى هذه الرحلة ، لم يفكر فيما فكر فيه الرجال الرسميون ، مما يجب أن يحاط به من مظاهر التكريم ، لم يفكر الرجل إلا فى شىء واحد ، وهو أنه دعى لافتتاح مسجد ويجب أن يلبى ، فالأمر كله فى سبيل الله .

وسافر الرجل الشيخ إلى أمريكا ، وانقلبت الرحلة إلى غزوة ، غزوة مباركة بكل ما تعنيه الغزوة من معان ، أى يعقبها فتح مبين ، ولست بصدد وصف وقائع الغزوة ، وكيف تسابقت محطات التليفزيون والإذاعة والصحف على تلقف كل كلمة تخرج من فم الرجل ، وتصوير كل حركة وكل لفتة ، وكيف احتشد مئات الألوف من المسلمين ، فى كل مكان قصد إليه ، وانتهى ذلك كله

إلى قمة ، عندما يدعى إلى مجلس الشيوخ الأمريكى (الكونجرس) ليحاضر فى الإسلام ويرتل الشيخ الحصرى (الذى رافق الشيخ) يرتل القرآن لأول مرة فى التاريخ تحت قبة الكونجرس ، يقول لى صاحبى : لقد تخيلنا أن السموات والأرض كانتا ترتلان معه ، كما كان يتجلى على وجه أعضاء الشيوخ الذين كانوا فاغرى الأفواه منبهرين بما يسمعون ، ثم تولى الشيخ إفهامهم ما سمعوا ومن هنا هنأت الشيخ بعد عودته ، على هذا الفتح المبين .

الدعوة إلى تطبيق الشريعة :

على أن دور الرجل الكبير والخالد كان فى وقوفه بكل ثقله كشيخ للأزهر خلف الدعوة للحكم بالشريعة الإسلامية وهذه الدعوة ليست جديدة بطبيعة الحال فمصر كانت تحكم بالشريعة الإسلامية قبل دخول الإنجليز ، أى حتى عام ١٨٨٢ وحتى بعد أن دخلوها حرصت الحكومة المصرية ، ألا تكون القوانين الوضعية الجديدة غير متمشية مع الشريعة ، فتضمنت المجموعة المدنية ، كل الأحكام الشرعية التى جرى عليها العمل فى مصر كالشفعة والبيع الوفائى والوقف والحكر ... إلى آخره ، وتضمن قانون العقوبات نصاً فى أوله يقرر أن لا عقوبة على عمل ارتكب بنية سليمة بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية ، كما حظر على محكمة الجنايات أن تقضى على أى مصرى بالإعدام إلا بعد كلمة المفتى .

فالشريعة الإسلامية كانت حتى فى أيام سيطرة الإنجليز ، هى المثل الأعلى عند المصريين ، وعند ما نزلت إلى الحياة العامة ، كان أحد مطالبنا الرئيسية هى الحكم بالشريعة أكثر من هيئة دينية ، ونمت إحدى الهيئات الدينية وتضخمت وعظم تأثيرها فى الحياة المصرية ، لأنها جعلت محور جهادها الحكم بالشريعة الإسلامية .

فالدعوة ليست جديدة ، ولكن الجديد أن يتبناها رسمياً وينادى بها شيخ الأزهر ، فيُعْقَدُ مؤتمر يضم الهيئات الدينية الداعية لهذا المطلب تحت رعايته وتشجيعه ، ويبعث برسائله إلى رئيس مجلس الشعب ، وإلى رئيس الدولة مطالباً بتطبيق الشريعة .

هذا هو الرجل الذى فقده الأزهر ، وفقدته مصر وفقده العالم الإسلامى ، وليس هو أول من يموت ولا آخر من يموت فهى سنة الله تعالى فى هذه الدنيا ،

إن كل من يولد يموت ، قال تعالى لأعظم إنسان عرفته الدنيا وهو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: (إنَّك ميِّت وإنَّهم ميِّتون) فالقضية ليست قضية أن شيخاً صالحاً للأزهر قد مات، فكل إنسان يؤدى رسالته ، وعلى الأحياء من بعده أن يكملوا هذه الرسالة إن كانت صالحة ، ولا خلاف بين أحد وأحد على أن رسالة الشيخ الصالح بشقيها وأعنى بهما، التقيد فى الحكم والمعاملات بالشريعة الإسلامية ، والإعلاء من شأن الأزهر ومكانته ، وعندنا أن ذلك يبدأ بإعادة تقليد قديم من تقاليد الأزهر وهو إعادة هيئة كبار العلماء ، لترشح لرئيس الدولة واحداً أو اثنين أو ثلاثة ليختار واحداً منهم ليكون شيخاً للأزهر .

والله ولى التوفيق .

أحمد حسين

من صفات الكريم

إن الكريمَ ليخفى عنك عُسرتَهُ
حتى تراهُ غنيًّا وَهوَ مَجهودُ

إذا تكرَّهت أن تعطى القليل ولم
تقدر على سعة لم ينفع الجودُ

أورِق بخير تُرجَّى للنَّوال فما
تُرجَّى الثمارُ إذا لم يورق العودُ

بُثَّ النَّوالَ ولا تمنعكَ قِلَّتُهُ
فكل ما سَدَّ فقراً فهو محمودُ

« بشار بن برد »

بطولات إسلامية

مسلمة بن عبد الملك بن مروان
قاهر هرقل وفاتح الأناضول

للسيد اللواء الركن / محمود شيت خطاب

(٢)

٣ – توطيد الأمن الداخلى

(ب) القضاء على حركة شوذب الخارجى :

فى سنة مائة الهجرية (٧١٨ م) ، خرج شَوْذَب الخارجىّ ، وهو بِسْطام من بنى (يَشْكُر)[١] فى (جُوْخى)[٢] وكان فى ثمانين رجلاً .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب عامله بالكوفة ، ألاّ يُحَرِّكهم حتى لا يسفكوا دماء ويفسدوا فى الأرض ، فإن فعلوا وجَّه إليهم رجلا صلباً حازماً فى جُند .

وبعث عبد الحميد والى الكوفة محمد ابن جرير بن عبد الله البجلى[١] فى ألفين ، وأمره بما كتب عمر بن عبد العزيز إليه ، كما كتب عمر إلى بِسطام الخارجى يسأله عن مخرجه ، فقدم كتاب عمر إلى بِسْطام ، وقد قدم عليه محمد بن

(١) هو يشكر بن وائل ، انظر التفاصيل فى جمهرة أنساب العرب (٣٠٨) .

(٢) جوخى : وردت فى معجم البلدان (٣/١٦١) : جوخا : اسم نهر عليه كورة واسعة فى سواد بغداد ، ولم تكن ببغداد مثل كورة جوخا .

(١) انظر سيرة والده : جرير بن عبد الله البجلى فى كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ – ٣٧١) .

جرير ، فقام بإزائه لا يتحرّك .

وكان فى كتاب عمر بن عبد العزيز إلى بِسْطام : « بلغنى أنك خرجتَ غضباً لله ولرسوله ، ولستَ أولى بذلك منى ، فهلمّ إلىّ أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا ، دخلت فيما دخل الناس ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرك » .

وكتب بِسْطام إلى عمر : « قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » .

ووصل الرجلان إلى عمر ، وناظراه فاقتنعا بوجهة نظره[1] .

ومات عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه سنة إحدى ومائة الهجرية[2] ، (٧١٩ م) ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لا يتعرض إليهم ولا يتعرضون إليه ، كل منهم ينتظر عودة الرُّسل من عند عمر بن عبد العزيز ، فتوفى عمر والأمر على ذلك[3] .

وتولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة بعهد من أخيه سليمان بعد عمر ابن عبد العزيز[1] ، فأحب عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أمير الكوفة أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك ، فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمناجزة شَوْذب ،

ولما رأى الخوارج محمداً يستعد للحرب ، قالوا : « ما فعل هؤلاء هذا إلا وقد مات الرجل الصالح » ، يريدون عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

ونشب القتال بين الطرفين ، فأصيب من الخوارج نفر ، وقتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا ، وجرح محمد بن جرير فدخل الكوفة ، وتبعهم الخوارج حتى بلغوا الكوفة ، ثم رجعوا إلى مكانهم .

ووجه يزيد بن عبد الملك تميم بن الحباب فى ألفين ، فحاربه الخوارج وقتلوه وقتلوا أصحابه ، ولجأت فلول جيشه إلى الكوفة وإلى يزيد بن عبد الملك هاربين .

وأرسل يزيد قوة بقيادة نجدة بن الحَكَم الأزدى فقتلوه وهزموا أصحابه ، فوجه يزيد السَّجَّاح[2] بن وداع فى ألفين

---

(١) انظر التفاصيل فى الطبرى (٥٥٥/٦) وابن الأثير (٤٥/٥ - ٤٨) .
(٢) الطبرى (٥٦٥/٦) وابن الأثير (٥٨/٥) والعبر (١٢٠/١) وشذرات الذهب (١١٩/١) .
(٣) ابن الأثير (٤٨/٥) .

---

(١) ابن الأثير (٦٧/٥) .
(٢) فى الطبرى (٥٧٦/٦) الشحاج ، وفى ابن الأثير (٦٩/٥) : السجاح .

فقتلوه وهزموا أصحابه أيضاً .

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة ، فشكا إليه أهل الكوفة مكان شوذب ، فأرسل إليه مسلمة سعيد بن عمرو الحرَشىّ ، وكان فارساً ، فى عشرة آلاف ، وأتاه وهو بمكانه ، فرأى شوذب وأصحابه ما لا قبل لهم به ، فقال لأصحابه : « من كان يريد الشهادة فقد جاءته ، ومن كان يريد الدنيا فقد ذهبت » . وكسر الخوارج أغماد سيوفهم وحملوا ، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً ، حتى خاف سعيد الفضيحة ، فوبخ أصحابه وقال : « من هذه الشرذمة لا أبَ لكم تفرّون! يا أهل الشام! يوماً كأيامكم! » وحمل أصحاب سعيد على الخوارج ، فطحنوهم طحناً ، وقتلوا بسطاماً — وهو شوذب — وأصحابه[1] .

وهكذا قضى مسلمة على حركة من حركات الخوارج ، استعصت على الآخرين وكان يمكن أن تتطور فتصبح خطراً داهماً يهدد أمن الدولة واستقرارها .

(١) انظر التفاصيل فى الطبرى (٥٧٥/٦ - ٥٧٨) وابن الأثير (٦٨/٥ - ٧٠) .

(ب) القضاء على فتنة يزيد بن المهلب :

فى سنة مائة الهجرية (٧١٨ م) ، كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة والى البصرة لعمر[1] ، يأمره بإنفاذ يزيد بن المهلب إلى دمشق موثقاً . وكان عمر قد كتب إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويقبل إليه ، فاستخلف مخلداً ابنه وقدم من (خراسان)[2] ونزل (واسطاً)[3] ، ثم ركب السفن يريد (البصرة) ، فبعث عدى بن أبى أرطاة موسى بن الوجيه الحميرى ، فلحقه فى نهر (معقل)[4] عند الجسر ،

(١) جمهرة أنساب العرب (٢٥٦) .

(٢) خراسان : بلاد واسعة تتاخم العراق من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها ، وتمتد من الشمال إلى أقصى تخوم إيران . من أمهات مدنها : نيسابور وهراة ومرو وبلخ ، انظر التفاصيل فى الممالك والمسالك للإصطخرى (١٤٥ - ١٦٠) ومعجم البلدان (٤٠٧/٣) .

(٣) واسط : مدينة كبيرة بناها الحجاج ابن يوسف الثقفى ، وسميت واسطاً لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣٧٨/٨ - ٣٨٧) وقد أطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهى محافظة الكوت على نهر دجلة .

(٤) نهر معقل : منسوب إلى معقل بن يسار =

فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز فى دمشق .

ودعا به عمر ، وكان يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أحب مثلهم » ، وكان يزيد يبغض عمر ويقول : « إنه مُرَاءٍ » ، فلما ولى عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء . ولما دعا عمر يزيد ، سأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك فقال : « كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى به ! » ، فقال عمر : « لا أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها » .

وحبسه بحصن (حلب) ، وبعث إلى الجراح بن عبد الله الحكمى فسرحه إلى (خراسان) أميراً عليها ، فبقى يزيد فى محبسه حتى بلغه مرض عمر[1] .

ولما اشتد مرض عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، خاف يزيد بن المهلب من يزيد بن عبد الملك[2] ، فأرسل إلى مواليه يخبرهم بعزمه على الهرب من السجن ، فأعدوا له إبلا وخيلا . وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه ، وبعث إلى عامل (حلب) مالا وإلى الحرس الذى يحفظونه وقال : « إن أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء ، وإن ولى يزيد بن عبد الملك يسفك دمى » ، فأخرجوه فهرب إلى المكان الذى واعد أصحابه فيه ، وركب هناك الدواب وقصد (البصرة) . وكتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه : « إنى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكنى خفت أن يلى يزيد فيقتلنى شر قتلة » ، فورد الكتاب وبه رمق ، فقال : « اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً

= المزنى ، صحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٣٤٥ – ٣٤٦) ، وفيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر أبا موسى الأشعرى أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزنى ، فنسب إليه .

أقول ولا يزال النهر موجوداً حتى اليوم وعليه ضاحية (المعتقل) التى هى من ضواحى البصرة حالياً فى شمالى البصرة وبالقرب منها ، وهى معروفة جداً فى الوقت الحاضر ، يقصدها السائحون خاصة فى الشتاء ، وفيها مناظر خلابة جميلة .

(١) الطبرى (٦/٥٥٦ – ٥٥٨) وابن الأثير (٥/٤٨ – ٥٠) وانظر كتاب الوزراء والكتاب (٣١) .

(٢) كانت بين اليزيدين عداوة قبل أن يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ، وقد توعد كل منهما صاحبه ، انظر ابن الأثير (٥/٥٧) .

فألحقه به وهضه فقد هاضنى » ، وكان هروب يزيد بن المهلب سنة إحدى ومائة الهجرية[1] (٧١٩ م) .

وكتب يزيد بن عبد الملك بعد توليه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة وإلى عدى بن أرطاة عامله على البصرة يأمرهما بالتحرز من يزيد ويعرفهما هربه ، وأمر عديا أن يأخذ مَن بالبصرة من آل المهلب فأخذهم وحبسهم .

وأقبل يزيد حتى ارتفـــع إلى (القُطْقُطَانة[2]) وبعث عبد الحميد جنداً إليهم عليهم هشام بن ساحق العامرى القرشى – عامر بنى لؤى ، فساروا حتى نزلوا (العذيب)[3] . ومر يزيد قريباً منهم ، فلم يقدموا عليه . ومضى يزيد نحو (البصرة) وقد جمع عدى بن أرطاة أهل البصرة وخندق عليها ، وبعث على خيل البصرة المغيرة بن عبد الله ابن أبى عقيل الثقفى .

وبعث عَدِىّ على كل خمس من أخماس البصرة رجلا . خُمس الأزْد ، وخمسِ تميم ، وخمس بكر بن وائل ، وخمس عبد القيس ، وعلى خمس العالية من قريش وكِنانة والأزد وبَجِيْلة وخَثْعَم وقيس عَيْلان كلها ومُزَيْنَة ، فأقبل يزيد لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن طريقه حتى نزل داره .

واختلف الناس إلى يزيد ، فأرسل إلى عَدِىّ « أن ابعث إلى إخوتى وإنى أصالحك على البصرة وأخيلك وإياها حتى آخذ لنفسى من يزيد ما أحبّ فلم يقبل منه .

وسار حُمَيد بن عبد الملك بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالد القُسْرِىّ وعمرو بن يزيد الحكمى بأمان يزيد بن المهلّب وأهله .

وأخذ يزيد بن المهلب يُعْطى من أتاه قطع الذهب والفضة ، فمال الناس إليه ، وكان عَدِىّ لا يُعْطِى إلاّ دِرْهَمَيْن درهمين ويقول : « لا يَحِل

---

(١) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦/ ٥٦٤ – ٥٦٥) وابن الأثير (٧٥ – ٥٨) ابن خلدون (٣/١٦٦) .

(٢) القطقطانة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٧٦/١٢٥) .

(٣) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال ، أنظر التفاصيل فى معجم البلدان (٦/ ١٣١) ، والمغيثة منزل فى طريق مكة بعد العذيب نحو مكة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/ ١٠٦) .

لى أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك ، ولكن تبلّغوا بهذه حتى يأتى الأمر بذلك » ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

أظنُّ رجال الدرهمين تقودهم
إلى الموت آجال لهم ومَصَارعُ
وأكْيَسُهُم من قرّ فى قعر بيته
وأيقنَ أن الموت لابد واقعُ

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عدىّ ، فنزلوا (المِرْبَد)[1] ، فبعث إليهم يزيد بن المهلب مولى له يقال له « دارِس » فحمل عليهم ، فهزمهم .

وخرج يزيد بن المهلب حين اجتمع الناس له ، حتى نزل جبّانة بنى يَشْكر وهى النصف فيما بينه وبين قصر الإمارة فى البصرة ، فلقيه قيس وتميم وأهل الشام واقتتلوا هنيهة ، ثم حمل عليهم أصحاب يزيد فانهزموا وتبعهم ابن المهلب حتى دنا من القصر ، فخرج إليهم عدى بنفسه ، ولكن أصحابه انهزموا بعد قتال تكبدوا فيه خسائر كبيرة .

وجاء يزيد بن المهلب حتى نزل داراً إلى جنب القصر ، وأتى بالسلالم وفتح القصر . وأتى بعَدىّ بن أرطاة فحبسه وقال له : « لولا حبسك إخوتى لما حبستك » .

فلما ظهر يزيد ، هرب رءوس أهل البصرة من تميم وقيس وغيرهما ، فلحقوا بالكوفة ، ولحق بعضهم بالشام . وخرج المغيرة بن زياد بن عمرو العَتَكىّ نحو الشام ، فلقى خالداً القَسْرى وعمرو بن يزيد الحُكَمِىّ ومعهما حميد بن عبد الملك بن المهلب ، قد أقبلوا بأمان يزيد ابن المهلّب وكل شىء أراده ، فسألاه عن الخبر ، فخلا بهما سرًّا من حميد وأخبرهما : بأن يزيد بن المهلب قد ظهر على البصرة ، وقتل القتلى ، وحبس عَديا ، فارجعا ، فرجعا وأخذا حُمَيْداً معهما .

وأصبح الموقف خطيراً للغاية ، فأرسل يزيد بن عبد الملك إلى الكوفة شيئاً من المال ، ومَنّى أهلها الزيادة ، وجهّز أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك فى سبعين ألف مقاتل من أهل الشام وجزيرة ابن عمر ، وقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، فساروا إلى العراق . وقدما الكوفة

(١) المربد : مربد البصرة من أشهر محالها وكان فيه سوق الإبل قديماً ، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/١١ – ١٣) .

ونزلا بـ (النخيلة) (١) .

ولما سمع أصحاب ابن المهلّب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك فبلغ ابن المهلّب فخطب الناس يشجّعهم ويهون من أمر أهل الشام . وكان الحسن البصريّ يسمع ، فرفع صوته يقول : « والله لقد رأيناك والياً ومُوَلّى عليك ، فما ينبغي لك ذلك ! » ، فوثب أصحابه وأخذوا بفمه وأجلسوه ، وكان النّضر ابن أنس بن مالك يثبّط أهل البصرة كما يثبّطهم الحسن البصري منعاً لاقتتال المسلمين فيما بينهم وقطعاً لدابر الفتن .

وسار يزيد من البصرة ، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلّب ، وأتى (واسطاً) ، فلما نزل (واسِطاً) أقام بها أياماً وخرج سنة إحدى ومائة هجرية .

ودخلت سنة اثنتين ومائة الهجرية (٧٢٠ م) ، فسار يزيد من (واسط) واستخلف عليها ابنه معاوية وجعل معه بيت المال والأسرى ، وسار على فم (النيل) (١) حتى نزل (العقر) (٢) وقدم أخاه عبد الملك بن المهلب نحو الكوفة ، فاستقبله العباس بن الوليد بن عبد الملك بـ (سورا) (٣) ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، كانت الجولة الأولى منه لآل المهلّب ، ولكن تغيرت المعركة لصالح العباس بن الوليد ، فانكشف جيش ابن المهلّب ، وانهزموا عائدين إلى يزيد بن المهلب .

وأقبل مسلمة يسير على شاطئ الفرات إلى (الأنبار) (٤) ، فعقد عليها الجسر وعبر ، ثم سار حتى نزل على ابن المهلّب .

وأتى إلى ابن المهلب ناس من أهل (الكوفة) كثير ومن الثغور ، فقسمهم أقساماً وجعل على كل قسم منهم

---

(١) النخيلة : موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٨ - ٢٧٧) .

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٥٧٨/٦ - ٥٨٩ وابن الأثير (٧١/٥ - ٧٧) وابن خلدون (١٦٦/٣ - ١٦٩) وانظر خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٦) .

(١) النيل : بليدة في سواد الكوفة قرب (حلة) بني مزيد يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير ، انظر معجم البلدان (٣٦٠/٨)

(٢) العقر : عقر بابل ، قرب كربلاء من الكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٤/٦ - ١٦٥) .

(٣) سورا : موضع بأرض بابل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٨/٥) .

(٤) الأنبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٤٠/١ - ٣٤٢) ، وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم .

قائداً ، وكان هذا التقسيم بالنسبة للقبائل العربية : الأزد ومذحج وأسد وكندة وربيعة وتميم وهَمْدان ، وجعل من كل تلك الأقسام إلى المفَضَّل بن المهلب ، وأحصى ديوان يزيد بن المهلب مائة ألف وعشرين ألفاً ، فقال « لوددت أن لى بهم من بخراسان من قومى » ثم قام فى أصحابه وحرضهم على القتال .

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن قد عسكر بالنُخَيلة ، وشق المياه ، وجعل على أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا إلى ابن المهلب ، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع سبرة بن عبد الرحمن بن مِخْنَف ؛ ولكن مسلمة عزل عبد الحميد عن الكوفة واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى المُعيط ، وهو ذو الشامة .

ومن الواضح أن عبد الحميد لم يكن مسيطراً على الكوفة ، لذلك تسرب أكثر أهلها إلى ابن المهلب ، كما لم يكن ذا كفاية قيادية ولا يتحلى بمزية المبادرة ، وكان ضعيفاً متردداً ، لذلك عزله مسلمة وولى قائداً متميزاً ، ليضمن قاعدته الأمامية : الكوفة .

وجمع يزيد بن المهلب رءوس أصحابه فقال : « قد رأيت أن أجمع اثنى عشر ألفاً ، فأبعثهم مع أخى محمد بن المهلب حتى يبيِّتوا مسلمة ، ويحملوا معهم البراذع والأكف والزُبُل لدفن خندقهم ، فيقاتلهم على خندقهم بقية ليلته ، وأمده بالرجال حتى أصبح ، فإذا أصبحت نهضت إليهم فى الناس فأنا جزهم ، فإنى أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم » ، فأجابه أحد أصحابه[1] قائلا : « إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » ، فثنى على قوله آخر[2] قائلا : « صدق ! هكذا ينبغى » . فقال يزيد : « ويحكم ! ... إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم ، فلا يسبقوكم إليه . إنى لقيت بنى مروان ، فما لقيت منهم أمكر ولا أبعد غدراً من هذه الجرادة الصفراء » : يعنى مسلمة فقالوا : « لا نفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » .

وكان مروان بن المهلب بالبصرة

---

(١) اسمه : السميدع .

(٢) هو أبو رؤبة رأس الطائفة المرجئة ومعه أصحاب له .

يحث الناس على حرب أهل الشام ، والحسن البصرى يثبطهم فهدد مروانُ الحسن بالعقوبة الصارمة وتوعده ، فقال الحسن : « والله ما أكره أن يكرمنى الله بهوانه » (١) ، فقال ناس من أصحاب الحسن : « لو أرادك ثم شئت لمنعناك » ، فقال لهم : « فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه ! آمركم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيرى ، وآمركم أن يقتل بعضكم بعضاً دونى ! » .

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومسلمة بن عبد الملك ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر ، بعث مسلمة من يحرق الجسر .

وخرج مسلمة مُعَبِّئاً (٢) أهل الشام ، ثم قرب من ابن المهلب ، ثم عبأ العباس بن الوليد رجاله ، وكان مسلمة على الناس قائداً عاماً .

وعبأ يزيد بن المهلب رجاله أيضاً .

وأحرق الجسر ، فسطع دخانه ، وقد أقبل الناس ونشبت الحرب ولم يشتد القتال ، فلما رأى الناس الذين مع ابن المهلب الدخان ، وقيل لهم : أحرق الجسر ، انهزموا ! فقيل ليزيد : قد انهزم الناس ! فقال : مم انهزموا ؟! هل كان قتال يُنْهَزَمُ من مثله ؟! » ، فقيل له : قالوا أُحرق الجسر ، فلم يثبت أحد ! فقال : « قَبَّحَهم الله ! بَقٌّ دُخِّنَ عليه فطار ! » .

وخرج يزيد مع أصحابه المقربين إليه فى محاولة لرد المنهزمين من جيشه ، ولكنه أخفق فى محاولته .

ونزل يزيد يقاتل ، فجاءه من ينعى إليه أخاه حبيباً الذى قتل فى المعركة ، فقال يزيد : « لاخير فى العيش بعده ، قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة وقد ازددت لها بغضاً ، امضوا قُدُماً » ، فعلموا أنه قد استقتل ، لذلك تسلل عنه من يكره القتال ، وبقى معه جماعة حسنة ، وهو يتقدم ، فكلما مر بخيل كشفها ، أو جماعةمن أهل الشام عدلوا عنه .

وأقبل يزيد نحو مسلمة لا يريد غيره فلما دنا منه أدنى مسلمة فرسه ليركب فعطفت على يزيد خيول أهل الشام وعلى أصحابه ، فقتل يزيد ومحمد بن المهلّب .

وكان المفَضَّلُ بن المهلب يقاتل أهل الشام وما يدرى بقتل يزيد

(١) يريد بعقوبته وتوعده .

(٢) كانت التعبئة حينذاك : ميمنة وميسرة وقلبا ومقدمة ومؤخرة .

ولا بهزيمة الناس، وكان كلما حمل على الناس انكشفوا . ولكن أصحابه تخلوا عنه هاربين وهو يقاتل، فقيل له : ما تصنع هاهنا وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ طويل ؟!

ولما تفرق الناس عنه ، مضى إلى (واسط) ، ولم يكن فى العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة للحرب ولا أغشى للناس منه .

وأسر مسلمة نحـــو ثلثمائة أسير فسرحهم إلى الكوفة ، فحبسوا بها . وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة والى الكوفة يأمره بضرب رقاب الأسرى ، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى ، فجاء رسول بكتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسرى ، ثم أقبل مسلمة حتى نزل (الحِيرَة) [1] .

ولما أتت هزيمة يزيد إلى (واسط) ، غادرها آل المهلب إلى البصرة ، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم فى السفن البحرية ثم لجوا فى البحر ، فلما كانوا بحيال (كرمان) [1] خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب ، وكان المقدَّم عليهم المفضل بن المهلب .

وكان بكرامان فلول كثيرة اجتمعوا إلى المفضل ، فبعث مسلمة قوات من أصحابه ، فقاتلوا فلول المفضل وانتصروا عليهم وكبدوهم خسائر فادحة بالأرواح .

ومضى آل المهلب ومن معهم إلى (قَنْدَابِيل) [2] ، فطاردهم أصحاب مسلمة ، فتفرق الناس عن آل المهلب ، ولكن آل المهلب تقدموا بأسيافهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ومنهم : المفضل ، وعبد الملك ، وزياد ، ومروان بنو المهلب وثلاثة من أبنائهم ، فبعث مسلمة برءوسهم إلى يزيد بن عبد الملك

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك خبر مقتل يزيد بن المهلب وكثير من آل المهلب ، سره هذا النصر سروراً عظيما [3] .

(١) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على موضع يقال له النجف ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٣٨٦) ، والنجف اليوم قريبة من الكوفة ، وفيها مرقد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(١) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى واسعة فى إيران ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان . (٧ / ٢٤١) والمسالك والممالك للاصطخرى (٩٧ / ١٠٠) .

(٢) قندابيل : مدينة بالسند ، انظر ، التفاصيل فى معجم البلدان (٧/١٦٧) .

(٣) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦/٥٩٠– =

وهكذا انتصر مسلمة على يزيد بن المهلب وآل بيته ، فخدم الدولة خدمة لا تقدر بقضائه على ثورة يزيد الذى خلع يزيد بن عبد الملك ، وقاد أخطر ثورة هـدّدت كيان الأمويين .

ومن الإنصاف أن نذكر أن يزيد ابن المهلب كان قائداً فذّاً وإدارياً حازماً ، ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلب ، لأنه قاد جيشاً لا يثق به ولا يعتمد عليه ، أفراده مرتزقة كل همهم كسب المال ، لذلك لم ينفذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته . ولم يكن يجهل قابلية جيشه المتضعضعة ومعنوياتهم المنهارة ، وأدرك فى أول المعركة بأنه خسرها ، ولكنه قاتل عن شرفه وأحسابه ولم يرض لنفسه الفرار أو الاستسلام .

وكان مسلمة أيضاً يقود جيشاً أكثرهم من المرتزقة ، ولكنهم كانوا ملتزمين ، أما جيش يزيد بن المهلب فكان من المرتزقة غير الملتزمين ، لذلك كان جيش مسلمة يتحلى بإرادة القتال فانتصر ، وكان جيش يزيد لا يتحلى بهذه المزية فانهزم .

= ٦٠٤) وابن الأثير (٥/٧٧ - ٨٩) وابن خلدون (٣ / ١٦٦ - ١٧٢) وانظر المسعودى (٣/١٩٩ - ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ - ١٦) والمعارف (٤٠٠) .

وقد خسرت الدولة بالقضاء على يزيد ابن المهلب وبنى المهلب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أمرائها وولاتها وهى خسارة كبيرة بلا مراء[1].

وأدهى من ذلك وأمرّ ، أن الاقتتال الذى نشب بين الإخوة أدى إلى عداء عميق الجذور بين القبائل العربية فى العراق قاعدة الفتح الإسلامى الرئيسية فى المشرق الإسلامى ، وفى فارس قاعدة الفتح الإسلامى المتقدمة ، مما أدى إلى انصراف الفاتحين عن الفتح إلى الاقتتال فيما بينهم ، فأصبحت طاقاتهم موجهة إلى أنفسهم بدلا من توجيهها إلى أعدائهم ، فانحسر مد الفتح وتقلص

(١) فى العبر (١ / ١٢٤) : أن يزيد كان ممدّحاً كثير الغزو والفتوح ، وانظر أيضاً شذرات الذهب (١/١٢٤) . وفى يزيد وآل المهلب يقول الشاعر

نزلت على آل المهلب شاتياً
غريباً عن الأوطان فى زمن المحل
فما زال بى إحسانهم وافتقادهم
وبرهم حتى حسبتهم أهلى

انظر مختصر تاريخ البشر لأبى الفدا (١/٢٠١-٢٠٢) ، وفى النجوم الزاهرة (١/٢٦٩) وقال الفرزدق :

إن المهالبة الكرام تحملوا
دفع المكاره عن ذوى المكروه
زانوا قديمهم بحسن حديثهم
وكريم أخلاق بحسن وجوه

نفوذ الدولة فى العراق وفارس وفى السند والأفغان وفيما وراء النهر .

وانتهز هذه الفرصة السانحة العباسيون للقضاء على الأمويين ، وأصبح دعاة بنى العباس يسرحون ويمرحون فى بلاد فارس بخاصة بحرية كاملة دون رقيب فعال وحسيب مؤثر .

لذلك كان انتصار مسلمة فى هذا الاقتتال تعبوياً ، ولكنه كان هزيمة سوقية (استراتيجية) على المدى البعيد .

والانتصار التعبوى لا قيمة له بالنسبة للهزيمة السوقية كما هو معروف .

(ج) ترصين الجبهة الشرقية :

لما فرغ مسلمة بن عبد الملك من حرب يزيد بن المهلب ، جمع له إخوة يزيد بن عبد الملك ولاية الكوفة والبصرة وخراسان وذلك سنة اثنتين ومائة الهجرية[1].

كانت مهمة مسلمة صعبة ، لتناحر القبائل ونشوب العداوة بينها ، وضياع الأمن والاستقرار ، مما أدى إلى توقف الفتح وتهديد مصير الفاتحين فى البلاد المفتوحة فى بلاد فارس والسند وما وراء النهر .

لذلك عمل مسلمة على اختيار الرجال الذين يثق بهم ويعتمد على كفاياتهم ، لغرض معاونته فى ترصين الجبهة الشرقية للدولة ، فأقر محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط على الكوفة ، لأنه سيطر على الكوفة فى أيام نشوب القتال بين مسلمة ويزيد ابن المهلب سيطرة كاملة ، وأمد مسلمة بالرجال والمواد التموينية ، وحمى خطوط مواصلاته ، وجعل من الكوفة قاعدة متقدمة لقوات مسلمة المقاتلة .

وكان قد قام بأمر البصرة بعد آل المهلب شبيب بن الحارث التميمى ، فبعث عليها مسلمةُ عبد الرحمن بن سليمان الكلبى ، وعلى شرطتها وأحداثها عمرو بن يزيد التميمى[1] .

والظاهر أن عبد الرحمن بن سليمان الكلبى كان والياً ناقماً منتقماً ، لأنه أراد استعراض أهل البصرة فيقتلهم ، انتقاماً منهم لميلهم إلى آل المهلب

---

(١) الطبرى (٦ / ٦٠٤) وابن الأثير (٥ / ٨٩) وانظر المعارف (٥٧١) وفيه أن مسلمة كان بين أول من جمع له المصران : الكوفة والبصرة وانظر التنبيه والإشراف (٢٧٧ – ٢٧٨) .

(١) فى ابن الأثير (٥ / ٨٩) : ورد اسمه عمرو ، وفى الطبرى (٦ / ٦٠٤) ورد اسمه عمر .

وعطفهم عليهم ومعاونتهم لهم مادياً ومعنوياً ، فنهاه عمرو بن يزيد التميمي ، وكتب إلى مسلمة بالخبر ، فعزله وولى البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم ، وأقر عمرو بن يزيد التميمي على الشُّرُط والأحداث[1] .

لقد كان مسلمة بعيد النظر حقاً ، لذلك كان يحاول تضميد الجروح لا تعميقها ، فلم يرض عن أسلوب عامله على البصرة باتجاهه إلى الصرامة والانتقام ، فقد كانت الجروح غائرة وهي ليست بحاجة إلى تعميق ، فعزل عامله فوراً وبعث مكانه عاملا جديداً.

واستعمل مسلمة على خراسان سعيد ابن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وهو الذي يقال له : سعيد خُذَيْنَة[2] ، وكان سعيد زوج ابنة مسلمة . وقد غزا سعيد الترك وعبر النهر وغزا (الصُّغْد)[3] ، وأراد السيطرة على تلك المناطق وترصين قواعد الفتح المتقدمة ، ولكن نجاحه كان محدوداً ، لأن كفايته لم تكن بالمستوى المطلوب[1] .

ولم يكد مسلمة يمضي بضعة أشهر على العراق وخراسان[2] حتى عزله أخوه يزيد بن عبد الملك سنة اثنتين ومائة الهجرية .

وكان سبب عزله أنه ولي العراق وخراسان ، فلم يرفع من الخراج شيئاً إلى يزيد بن عبد الملك . واستحيا يزيد أن يطالبه أو يحاسبه ، كما استحيا أن يعزله ، فكتب إليه : «استخلف على عملك وأقبل » .

ولم يلبث مسلمة حتى أتاه عزله بعمر بن هُبَيْرَة الفزاري الذي تولى مكانه العراق وخراسان ، فعزل عماله واستعمل الغلظة عليهم ، فقال الفرزدق :

راحتْ بمسْلَمة البغالُ عَشيَّةً
فارْعَيْ فَزَارَةَ لا هَنَاكِ المرتَعُ

(١) الطبري (٦ / ٦٠٤ — ٦٠٥) وابن الأثير (٥ / ٨٩) .

(٢) خذينة بالفارسية هي الدهقانة ربة البيت ، انظر ابن الأثير (٥/٩٠) وهو من أبناء عمومة مسلمة يلتقي نسبها بالحكم والد مروان بن الحكم ، انظر أنساب الأشراف (١٦١/١) وفتوح البلدان (٦٠٠) .

(٣) الصغد كورة عجيبة قصبتها سمرقند وقيل هما صغدان : صغد سمرقند وصغد بخارى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٢/٥) .

(١) الطبري (٦٠٥ — ٦١٥) وابن الأثير (٩٠/٥ — ٩٧) ، وفي أنساب الأشراف (٣ / ١٦٢) : أن أهل خراسان شكوا خذينة فعزله .

(٢) المعارف (٣٥٨) ، وفي العيون والحدائق (٧٥) : أنه بقي ثمانية أشهر وقيل ستة أشهر .

عُزِلَ بنُ بشرٍ وابنُ عمرٍو قبلهُ
وأخو هراة لمثلها يتوقع

يعنى بابن بشر : عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم ، وبابن عمرو محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ابن أبى معيط ذا الشامة ، وبأخى (هراة) سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص بن أمية[1] ، وهم عمال مسلمة .

والذى يبدو أن يزيد بن عبد الملك عزل أخاه مسلمة ، لأنه لا يستطيع السيطرة عليه فى تصرفه بالأموال وفى توجيهه سياسة الدولة فى تلك البلاد الشاسعة الغنية ، فأراد أن يولى من يستطيع السيطرة عليه ويوجهه كما يريد[2] .

كما أن خراج العراق وفارس كان مصدراً غنيا من مصادر تمويل الدولة ، فلا يمكن السكوت عمن يتصرف به كما يشاء دون قيد أو شرط .

ولم يكن مسلمة ممن يضع أموال المسلمين فى غير مواضعها ، فمن المحتمل أن يكون الخراج فى تلك السنة قد تأثر بظروف الحرب فى العراق وظروف التسيب فى خراسان ، مما أدى إلى ضعفه وقلة موارده ، خاصة وأن حياته فى تلك الظروف مع تغير الولاة ، من موالين لبنى المهلب إلى موالين لبنى أمية ، وقتل قسم من أولئك الولاة ، ضيع المسئولية وأدى إلى ذهاب الأموال بدداً .

فلما تولى مسلمة ، كان عليه أن ينفق ما جباه فى التعمير وتأليف القلوب وتقوية جيشه ، لذلك لم يبق فى يديه ما يبعث به إلى الخليفة فى الشام ، ولو بقى منه شىء لفعل .

لقد استفاد يزيد بن عبد الملك من أخيه مسلمة فى أيام الشدة والحرب ، وبعد أن استقرت الأمور أو كادت تخلى عنه فى أيام الرخاء والسلم .

ولم يكن بمقدور أحد من رجال يزيد ، أن ينهض بمهمة القضاء على ثورة يزيد بن المهلب ، وهى ثورة

---

(١) الطبرى (٦ / ٦١٥) وابن الأثير (٥/ ٩٧ - ٩٨) ، وفيهما رواية أخرى عن سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان لا تتفق مع المنطق ولا يصدقها العقل ، وانظر المعارف (٣٦٤) عن تولية عمر بن هبيرة العراقين ، وانظر أنساب الأشراف (٣ / ١٨١) حول عزل عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم وشعر الفرزدق .

(٢) فى العيون والحدائق (٧٥) : قدح فيه عند يزيد ، وقالوا : إنه غير مأمون على الخراج فعزله . . . انتهى .
يقصد : قدح فى مسلمة عند الخليفة يزيد ابن عبد الملك .

عارمة هددت الدولة تهديداً خطيراً جداً، ولو كان بجعبة يزيد بن عبدالملك من يستطيع النهوض بمثل هذه المهمة الصعبة ، لرمى به ابن المهلب دون تردد .

ولم يكن بمقدور كل قائد أن يسد ثغرة فى قلب الدولة أيام الحرب كما فعل مسلمة ، فبمجرد قدومه على رأس جيشه إلى العراق ، جعل معنويات جيش ابن المهلب تنهار ويتخلى عنه رجاله ، كما جعل معنويات رجاله ترتفع ، وازداد الإقبال عليه .

ولكن بمقدور كثير من الولاة أن يحلو محل مسلمة فى أيام السلام .

إن مسلمة خلق ليكون غازياً، ولم يخلق ليكون والياً .

ويظهر أن يزيد بن عبد الملك تخلى عن مسلمة والياً، ولكنه لم يتخل عنه ناصحاً ومستشاراً ، فاستبقاه إلى جانبه فى (دمشق) يستنصحه ويستشيره فى إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها فكان له نعم الناصح المخلص والمستشار الأمين .

ومما يدل على ثقة يزيد بن عبدالملك بمسلمة ، أنه بايع لهشام بن عبد الملك ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك باستشارة مسلمة[١] .

وحين عزل يزيد عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة ومكة لغضبه عليه ، لم يجد ملجأ يلجأ إليه غير مسلمة الذى أجاره وكلم أخاه يزيد بن عبد الملك ليعفو عنه[٢] .

وكان يزيد بن عبد الملك يحب جارية اسمها (حَبَابَة) ، فلما توفيت وجد عليها وجداً شديداً ، وخرج مشيعاً جنازتها ومعه أخوه مسلمة ليسليه ويعزيه وقيل إن يزيد لم يطق الركوب من الجزع وعجز عن المشى ، فأمر مسلمة أن يصلى عليها . وقيل : منعه مسلمة من الصلاة عليها لئلا يرى الناس منه ما يعيبونه به[٣]، ومكث يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس ، أشار عليه مسلمة بذلك ، وخاف أن يظهر منه ما يسفهه عندهم[٤] .

---

(١) ابن الأثير (٥ / ٩١) وابن خلدون (٣/١٧٤) والأغانى (٧/٢) .

(٢) ابن الأثير (٥ / ١١٦) وابن خلدون (٣/١٨٢) ، وقد أجار أيضاً عمر بن هبيرة على يزيد ، فقبل شفاعته ، انظر العيون والحدائق (٨٥) .

(٣) ابن الأثير (٥ / ١٢٠) والعيون والحدائق (٧٨) .

(٤) ابن الأثير (٥ / ١٢١) وتاريخ الموصل (٢٠) .

ولما مات يزيد سنة خمس ومائة الهجرية ، صلى عليه مسلمة[1] ، وهذا يدل على أن مسلمة كان أقرب المقربين إلى يزيد حتى توفاه الله[2] .

لقد استأثر يزيد بمسلمة لرجاحة عقله واتزانه وإخلاصه له وللدولة ، ولم يعزله عن العراق لأنه كان يخشاه ويتوقع منه شراً ، إذ ليس من شأن مسلمة ولا من سماته إشعال نار الفتن وضرب إخوته وأهل بيته من الخلف وتفريق صفوف المسلمين .

٣ — أرمينية[3] وأذربيجان[4] :

وفى سنة سبع ومائة الهجرية (٧٢٥م) . . . .

---

(١) ابن الأثير (٥/١٢٠) .

(٢) لقد ذكرت هذه الحوادث لافند ما زعمه أحد المؤلفين فى كتابه : مسلمة بن عبد الملك (٥٦) ما نصه : ويبدو أن يزيد بن عبد الملك كان يخشى مسلمة ويتوقع منه شراً ، إذ وجدناه يعزله عن العراقين . . . ومما يدل على خوف يزيد من مسلمة وحذره الشديد منه ، أنه لم يستعمل مسلمة على ولاية طيلة خلافته ، ولا سند لهذا الادعاء ولا دليل عليه .

(٣) أرمينية : بكسر أوله ويفتح ، وسكون ثانيه ، وكسر الميم ، وياء ساكنة ، وكسر النون ، وياء خفيفة ، مفتوحة ، اسم صقع عظيم واسع وقيل هما : إرمينيتان : الكبرى والصغرى ، وحدهما من برذعة إلى باب الأبواب (درنيد) من الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب = السرير . وقيل : إرمينية الكبرى خلاط ونواحيها وإرمينية الصغرى تفليس ونواحيها ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١/ ٣٠٣ — ٢٠٦) والمسالك والممالك للأصطخرى (١٠٨) وتقويم البلدان (٣٨٧) ومختصر كتاب البلدان (٢٨٦ — ٣٠١) والمسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٢ — ١٢٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤) ، وكتاب الأقاليم (٧٩) والبلدان لليعقوبى (١٥٦) والأعلاق النفسية (١٠٦) . وإرمينية اليوم فى الجزء المتاخم لإيران — تركيا — الاتحاد السوفياتى وهى فى هذه البلاد جميعاً وأهلها أرمن .

(٤) أذربيجان : كلمة أذربيجان الفارسية معناها : أرض النار أو معابد النار ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التى كانت موجودة فيها حينذاك . وأذربيجان صقع جليل ومملكة عظيمة ، والغالب عليها الجبال ، وأشهر مدنها تبريز وهى قصبتها ، وأكبر مدينة فيها أردبيل ، ومن مدنها : المراغة وأرمية وخوى وسلماس ومرند وموقا ... إلخ انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١/١٥٩ — ١٦١) والمسالك والممالك للاصطخرى (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤ — ٣٧٨) وكتاب الأقاليم (٧٩ — ٨٥) والأعلاق النفيسة (١٠٦) والبلدان لليعقوبى (١٠٦) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (١١٨ — ١٢١) وتقويم البلدان (٣٨٦ — ٤٠٧) ومختصر تاريخ البلدان (٢٨٤ — ٢٨٦) ، وأذربيجان اليوم فى إيران والاتحاد السوفياتى ، بينهما الحدود التى تفصل بين البلدين ، وإحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتى هى : جمهورية أذربيجان ، وهى القسم للذى ضمن حدوده من هذه البلاد الشاسعة .

استعمل هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة على إرمينية وأذربيجان خلفاً للجراح بن عبدالله الحَكَمِيّ، فاستعمل مسلمة الحارث بن عمرو الطائى، فافتتح رستاقاً[١] وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً[٢].

ومن المعروف آن تلك المناطق قد فتحها عُتْبَة بن فَرْقد السُّلَمِى[٣] وبُكَيْر بن عبد الله اللَّيْثى[٤] وسراقة بن عمرو ذو النور[٥] فى أيام عمر بن الخطّاب رضى الله عنه، فيكون دور مسلمة وقائده فى هذا المجال هو: القضاء على اضطرابات داخلية، وتوطيد أركان الأمن فى منطقة من المناطق المفتوحة.

وفى سنة ثمان ومئة الهجرية (٧٢٦م)، غزا مسلمة الرُّوم مما يلى (الجزيرة)[٦]، ففتح (قيسارية)[٧] وهى مدينة مشهورة[٨].

وفى سنة تسع ومائة الهجرية (٧٢٧م) غزا مسلمة التّرك[٩] من ناحيـــة

(١) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو أخص من الكورة والأستان، انظر معجم البلدان (٣٧/١)، والكورة اسم فارسى بحت يقع على قسم من أقسام الأستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للأستان، فالكورة والأستان واحد. والكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة، لقولهم دارا بجرد مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته: كورة دارا بجرد، ونحو ذلك نهر الملك، فإنه نهر عظيم من مخرجه من الفرات ويصب فى دجلة عليه نحو ثلثمائة قرية، ويقال لذلك جميعه: كورة نهر الملك، انظر معجم البلدان (٣٦/١). وأما الأستان والكورة واحد، انظر معجم البلدان (٣٧/١).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٣٧ – ١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب (١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥) وتاريخ ابن خليفة (٣٥٠/٢).

(٣) انظر ترجمته فى كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤١٥ – ٤٢٢).

(٤) انظر ترجمته فى كتابنا: قادة فتح فارس (٢٠٥ – ٢٠٨).

(٥) انظر ترجمته فى كتابنا: قادة فتح فارس (٢٠٩ . – ٢١٣)

(٦) الجزيرة: هى جزيرة ابن عمر.

(٧) قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة فى بلاد الروم تقع مدينة سيواس فى شرقيها ويتنقل منها إلى قونية، انظر معجم البلدان (٧/ ١٩٥) وتقويم البلدان (٣٨٢ – ٣٨٣) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٦٤ – ٣٦٥).

(٨) ابن الأثير (٥/ ١٤٠)، وفى العبر ١٣١/١) وشذرات الذهب (١/ ١٣٤ أن قيسارية فتحها مسلمة سنة سبع ومئة هجرية فى رمضان عنوة، وكذلك فى تاريخ الموصل (٢٦) وانظر النجوم الزاهرة (٦٢/١).

(٩) فى تاريخ الموصل (٢٩) أنه غزا الخزر لا الترك.

(أَذْرِبِيجَان) فغنم وسبا وعاد سالماً[١].

وهذه غزوة أخرى من غزوات توطيد سيطرة الدولة فى البلاد المفتوحة وإشاعة الأمن والاستقرار فى (أَذْرِبِيجَان) الجبلية ذات البرد القارس.

وفى سنة عشر ومائة الهجرية (٧٢٨م) غزا مسلمة الترك من باب (اللاّن)[٢] فلقى (خاقان)[٣] فى جموعه، فاقتتلوا قريباً من شهر، وأصابهم مطر شديد فانهزم خاقان، ورجع مسلمة على مسلك (ذى القرنين)[٤] منتصراً[٥]. وهذه الغزوة تسمى غزوة (الطين)، وكانت ملحمة عظيمة فى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة[٦]، ويبدو أنها سميت غزوة (الطين) لهطول أمطار غزيرة جعلت ساحة المعركة أوحالاً.

وفى سنة إحدى عشرة الهجرية (٧٢٨م) استعمل هشام بن عبد الملك هشام الجراح بن عبد الله الحكمى على إرمينية وعزل أخاه مسلمة[٧]، فدخل الجراح بلاد الخزر من ناحية (تَفْليس)[٨] ففتح مدينتهم (البيضاء)[٩] وانصرف سالماً، فجمعت الخزر وحشدت وسارت إلى بلاد الإسلام، وكان ذلك

---

(١) ابن الأثير (٥/١٤٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الإسلام (٤/٣٠٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٢)

(٢) اللاّن: بلاد واسعة طرف إرمينية قرب (باب الأبواب) مجاورون للخزر، انظر معجم البلدان (٧/٣١٦) وتقويم البلدان (٤٠٤).

(٣) خاقان: لقب ملك الترك، ومعناه: الملك.

(٤) ذو القرنين: أحد الفاتحين العظام، ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سورة الكهف، واختلف المؤرخون فى اسمه الحقيقى وتاريخ حياته وهو الذى بنى سد الصين المشهور، ويسمى سد يأجوج ومأجوج، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٦٢ – ١٦٤).

(٥) ابن الأثير (٥/١٥٥).

(٦) النجوم الزاهرة (١/٢٦٧) وتاريخ الإسلام (٤/٣٠٢).

(٧) ابن الأثير (٥/١٥٨) والنجوم الزاهرة (١/٢٧٠) وابن خلدون (٣/٢٩٩) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٣).

(٨) تفليس: بلد بأرمينية الأولى، وبعض يقول بأران، وهى قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهى مدينة قديمة، انظر معجم البلدان (٢/٣٩٦) وتقويم البلدان (٤٠٢ – ٤٠٣) وكتاب صورة الأرض (٢٩٢ – ٢٩٤).

(٩) البيضاء: مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الأبواب، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٣٣٦) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٧٧ – ٧٨).

سبب استشهاد الجراح[1] سنة اثنتى عشرة ومائة الهجرية (٧٢٩ م) ، وكان الجراح خيِّراً فاضلا من عمال عمر بن عبد العزيز ، ورثاه كثير من الشعراء[2].

ولا يذكر المؤرخون سبباً لعزل مسلمة ، ويبدو أن مسلمة كان فى (دمشق) سنة إحدى عشرة الهجرية ، فلم يغز فى تلك السنة ، كما أن الترك سارت إلى (أذربيجان) فلقيهم الحارث ابن عمرو فهزمهم[3] ، مما يدل على أن مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال فقاد المعركة قائد من قادته الذين يعملون بإمرته ، وهذا يدل على أن مسلمة كان فى (دمشق) لأسباب قاهرة ، وقد يكون مريضاً ، لأن هشام بن عبد الملك لا يمكن أن يستغنى عن يده اليمنى فى تلك المناطق النائية المضطربة ، كما لا يمكن أن يعزله بدون رغبته ولأسباب قاهرة .

ولو أن هشام بن عبد الملك عزله لريبة أو لأنه قصر بواجبه لما أعاده إلى منصبه سنة اثنتى عشرة ومائة الهجرية (٧٢٩م) والياً على (إرمينية) و (أذربيجان) ، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك فى شتاء شديد ، حتى جاء (الباب)[4] فى آثارهم[5] .

وثبت مسلمة لمدينة (الباب) ففتحها وكان فى قلعتها ألف رجل من بيوتات الخزر ، فحاصرهم ورماهم بالحجارة ، ثم رماهم بقنابل من الحجارة ، ولكنه لم ينتفع بذلك ، فعمد إلى العين التى يجرى منها الماء إلى صهريجهم ، فذبح البقر والغنم وألقى فيه الفرث والمواد الأخرى التى لا ينتفع بها الناس ، فلم يمكث ماؤهم إلا ليلة حتى دود وأنتن وفسد ، فلما جن عليهم الليل هربوا وأخلوا القلعة . وأسكن مسلمة مدينة (الباب) أربعين ألفاً من أهل الشام على العطاء ، وبنى هُرْياً للطعام وهُرْيا للشعير وخزانة للسلاح ، وأمر بكبس الصهريج ورم المدينة[6] .

---

(١) ابن الأثير (٥/١٥٨) والنجوم الزاهرة (١/٢٧٠) .

(٢) ابن الأثير (٥ / ١٥٩) وابن خلدون (٣/٢٩٩) والنجوم الزاهرة(١ / ٢٧١) وتاريخ الموصل (٢٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٤) .

(٣) ابن الأثير (٥/١٥٨)

(٤) الباب: وهى باب الأبواب (دربند) مينا على بحر الخزر ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٩) وتقويم البلدان (٤٠٤ – ٤٠٥) .

(٥) ابن الأثير (٥ / ١٦٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٧) .

(٦) فتوح البلدان (٢٩١) .

وفى سنة ثلاث عشرة ومائة الهجرية (٧٣٠ م) ، فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ، ففتحت مدائن وحصون على يديه ، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ، ودان له من وراء جبال (بَلَنْجَرْ)[١] ، وقتل ابن خاقان[٢] ؛ فاجتمعت تلك الأمم جميعها : الخزر وغيرهم عليه فى جمع لا يعلم عددهم إلا الله، وقد جاوز مسلمة (بَلَنْجَرْ) ، فلما بلغه خبرهم ، أمر أصحابه ، فأوقدوا النيران ، ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد وعسكره جهيدة ، وقدم الضعفاء وأخر الشجعان ، وطور المراحل كل مرحلتين فى مرحلة ، حتى وصل إلى (الباب) فى آخر رمق[٣] فأكمل بناء (الباب)[٤] وحصنها .

وفى سنة أربع عشر الهجرية (٧٣١م) استعمل هشام بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على (الجزيرة) و (أذربيجان) و (إرمينية) وعزل مسلمة[٥] ، فأقبل بعد ما هزم خاقان وأحكم ما هناك وبنى (الباب)[٦] .

فما هو سبب عزله ؟

لقد كان مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم — وهو آخر خلفاء بنى أمية مع عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر ، فلما عاد مسلمة إلى (الباب) سار مروان إلى هشام بن عبد الملك ، فلم يشعر به حتى دخل عليه ، فسأله عن سبب قدومه ، فقال : « ضقت ذرعاً بما أذكره ، ولم أر من يحمله غيرى ! » ، قال : « وما هو ؟ » ، قال مروان : « قد كان من دخول الخزر إلى بلاد الإسلام وقتل الجراح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين ، ثم رأى أمير المؤمنين أن يوجه أخاه مسلمة بن عبد الملك إليهم ، فوالله ما وطئ من بلادهم إلا أدناها ، ثم إنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك ، فكتب إلى الخزر يؤذنهم

(١) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف (باب الأبواب ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٢٧٨) .

(٢) فى المعارف (٣٦٥) : أنه قتل خاقان ملك الترك .

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٧٣ – ١٧٤) .

(٤) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٩) .

(٥) ابن الأثير (٥/١٧٧) والنجوم الزاهرة (١/٢٧٣) وتاريخ الموصل (٣٤) والعبر (١/١٤١) وشذرات الذهب (١/١٤٧٤) وابن خلدون (٣/٣٠٠) .

(٦) ابن الأثير (٥/ ١٧٩) وتاريخ ، خليفة بن خياط (٢/٣٥٩) .

بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر ، فاستعد القوم وحشدوا ، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية ، وكان نصاراه السلامة ، وقد أردت أن تأذن لى فى غزوة أذهب فيها عنا العار وأنتقم من العدو » ، قال هشام : « قد أذنت لك » ، قال : « وتمدنى بمائة وعشرين ألف مقاتل ؟ » ، قال : « قد فعلت » ، قال : « وتكتم هذا الأمر عن كل واحد ؟ » قال : « قد فعلت ، واستعملتك على إرمينية »[1] .

وقد خرج مروان مختفياً عن مسلمة إلى هشام[2] ، أى أنه عاد إلى الشام من الجبهة الأمامية دون إذن مسلمة ودون علمه ! ! !

وفى رواية أخرى : لما أقبل مسلمة ، زحفت إليه الخزر ، فلم يشعر مسلمة حتى طلعوا عليه ، فقاتلهم وحال بينهم الليل ، وبات المسلمون يحيون ، وانصرف الخزر . وقفل مسلمة واستخلف مروان بن محمد وذلك كله سنة عشرة ومائة الهجرية[3] .

والتناقض بين الروايتين واضح ، فإن مسلمة عاد بعد أن قتل خاقان وأحكم ما هنالك[4] ، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذاً . كما أن مسلمة تغلغل فى بلاد الخزر ، فكيف لم يطأ من بلادهم إلا أدناها ؟ !

أما أنه كتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر حتى استعد الخزر وحشدوا ، فليس ذلك معقولا ، إذ لا يمكن أن يتصرف أى قائد هذا التصرف ، فينذر عدوه بالحرب ، ويفسح له المجال للاستعداد ثم يتراخى عن العدو ثلاثة أشهر !

أما أن مسلمة لم تكن له كفاية بالخزر ، فهذا ما يدحضه سير القتال وما أنجزه مسلمة فى الحرب .

يبقى ما ورد عن خروج مروان بن محمد مختفياً من مسلمة إلى هشام بن عبد الملك ، فلو كان مروان مبيتاً الوشاية بابن عمه مسلمة ، لاستأذنه فى القفول إلى دمشق لسبب من الأسباب ، ثم يعود أدراجه إلى دمشق ، إذ ليس من المعقول أن يعود مروان من (الباب) إلى دمشق ، وهو قريب القربى من مسلمة ، فيبقى أمر عودته سراً مكتوماً على مسلمة ، ولا يعرف مسلمة عن رحيله شيئاً ! !

(١) ابن الأثير (١٧٥/٥) ، وابن خلدون (١٩٧/٣) .

(٢) ابن خلدون (١٩٧/٣) .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٩/٢) .

(٤) ابن الأثير (١٧٩/٥) .

كما أن العلاقة الوثيقة بين مسلمة ومروان من جهة ، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومسلمة من جهة أخرى ، تجعل من الصعب على مروان أن يشى بمسلمة ، وتجعل من الصعب على هشام أن يصدق وشاية مروان ، خاصة وأنها تناقض الحقائق الناصعة ولا يصدقها عاقل .

كل ذلك يجعلنا نعتمد الرواية الثانية وهى أن مسلمة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام ، قفل راجعاً إلى دمشق ، واستخلف مروان على ولايته .

ويبدو أن مسلمة بعد عودته ، اقترح على هشام أن يولى مروان مكانه فاستجاب هشام لاقتراح مسلمة .

ولم يكن هشام ليعزل مسلمة الذى كان الرجل الثانى فى الدولة الأموية ، وليس من المعقول أن يعزل مسلمة لعدم كفايته ، لأن كفايته فوق الشبهات ولأن هشام بن عبد الملك ولاه لكفايته حتى يعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية .

ومما يلفت النظر أن مسلمة لم يَغْزُ ولم يتول ولاية منذ سنة أربع عشرة ومائة الهجرية ، حتى توفاه الله سنة عشرين ومائة الهجرية أو سنة إحدى وعشرين ومائة الهجرية .

وغيابه عن تحمل أعباء الجهاد ، وهو من هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الغرض — ليس طبيعياً ، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة ، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ .

وإذا كان بالإمكان أن يتخلى مسلمة عن تولى المناصب الإدارية ، فليس بالإمكان أن يتخلى عن تولى المناصب القيادية ، وهو الذى حمل السيف قائداً ولم يتجاوز العشرين من عمره ، وقضى كل سنى حياته فى ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومائة الهجرية ، فمن المعقول أنه تخلى عن المناصب القيادية لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته .

والذى يبدو أن تخليه عن القيادة مكرهاً ، كان لاعتلال صحته وإصابته بالمرض ، ومن المعروف أن من مزايا القائد المتميز تمتعه بالقابلية البدنية المتميزة ، ليستطيع تحمل مشاق التنقل وأعباء الجهاد ، وإلا فليس هناك ما يسوغ ابتعاده عن ساحات الوغى غير المرض الذى أقعده عن قيادة الجيش .

وعلى كل حال ، فقد أدى ما عليه من واجبات قيادية وإدارية بما فيه الكفاية ، وخدم الدولة فى ميدان القيادة والإدارة على حد سواء بشرف وأمانة وإخلاص وقوة . « يتبع »

محمود شيت خطاب

محمد
دعوة إبراهيم .. وبشرى عيسى

فضيلة الشيخ / مصطفى الحديدى الطير

قال تعالى فى سورة البقرة « الآية ١٢٩ » حكاية عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو، عليهم آياتك . .) وقال فى سورة الصف « من الآية ٦ » حكاية عن عيسى عليه السلام : (يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

البيان

حكى الله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل فى سورة البقرة، أنهما دعوا الله تعالى وهما يرفعان القواعد من البيت قائلين (رَبنا تَقَبل مِنا إنك أنتَ السَّميعُ العليمُ رَبنا واجْعلنا مُسلمين لك ومن ذُرِّيتِنا أمَّة مُسلمةً لك وأرنا منَاسكنا وتُب عليْنا إنَّك أنت التَّوابُ الرحيم) وجاءت هذه الآية : (رَبنا وابعثْ فيهم رَسولاً منهم . .) لآية : تكملة لدعائهما[1] عليهما السلام ، وهى تفيد أنهما طلبا منه سبحانه ، أن يبعث فى ذرياتهما رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم :

وقد استجاب الله دعاءهما فبعث فى أهل الحرم — وهم من ذريتهما — بعث فيهم رسولا منهم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى الإسلام فأصبحوا بنعمة الله مسلمين ، وبذلك تحققت دعوتهما بجزأيها (١) أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة لله (٢) وأن يبعث فيهم رسولا منهم يكون سبباً فى إسلامهم وذلك بأن يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، ولهذا قال

(١) انظر الآيات ١٢٧ — ١٢٩ من سورة البقرة .

صلى الله عليه وسلم «إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك . دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين» أخرجه الإمام أحمد عن العرباض ، والمراد برؤيا أمه ما رأته فى منامها من أنها خرج منها نور أضاءت له قصور الشام . كما أخرجه الإمام أحمد عن أبى أمامة ، وسنتحدث عن بشرى عيسى بعد توفية الحديث عن دعوة إبراهيم .

فإن قيل إن إسماعيل شارك أباه إبراهيم فى الدعاء ، فلماذا قال صلى الله عليه وسلم (أنا دعوة إبراهيم) ولم يقل . أنا دعوة إبراهيم وإسماعيل ، قلنا : لعل الدعاء كان أصلا من إبراهيم أما إسماعيل فكان يؤمن على دعاء أبيه ، فلذا اقتصر الرسول على إبراهيم لأنه هو الذى دعا ، واعلم أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإن بدأت فى ذريتهما ، فقد انتقلت منهم إلى سواهم وبجهادهم ، قال تعالى فى سورة الجمعة (هُو الذى بَعَث فِى الأُمِّيين رَسُولاً منْهم يَتلوا عليهم آياتِه وَيزكِّيهم وَيعلمهم الْكتاب والِحكمة وإن كانوا من قبل لَفِى ضلالٍ مبين (١) وآخَرين مِنهم لمَّا يلحقوا بهم وهو العزيزُ الحَكِيمُ) (٢) والمراد بهؤلاء الآخرين جميع الناس كما قال مجاهد وغيره[1] ، ومما جاء فى عموم رسالته للناس جميعاً قوله تعالى: (وَأرسلناكَ للنَّاس كَافَّة) كما أنها عامة للجن أيضًا ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الأحقاف: (وَإذ صَرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حَضروه قالوا أنصتوا فلما قُضِى وَلّوا إلى قومهم مُنذِرين (٢٩) قالوا يَا قومنا إنَّا سَمِعنا كِتاباً أنزل من بعد مُوسى مُصدقًا لما بين يديه يهدى إلى الحقِّ وَإلى طَريق مُستقيم (٣٠) يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمِنوا به يَغفر لكم من ذُنوبكم ويجرْكم من عذابٍ أليم (٣١) وَمن لا يجب داعىَ الله فليس بمعجز فى الأرضِ وليس له من دُونه أولياءُ أولئك فى ضلالٍ مبين) (٣٢) .

وقوله تعالى : (يتلوا عليهم آياتك ويُعلمهم الكتابَ وَالحكمة ويُزكيهم).

تضمنت هذه الآية الكريمة أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، دعوا الله تعالى أن يبعث فى أهل الحرم رسولا

(١) وعلى هذا تكون (من) فى قوله (وآخرين منهم) بمعنى من أى وآخرين بعيدين عنهم ليسوا من العرب الأميين — كما يصح أن تكون (من) ابتدائية — ، وهى فى كلتا الحالتين ليست للتبعيض .

منهم يتلو عليهم آياته ، لترشدهم إلى توحيد الله سبحانه ، وتدلهم على ما يوصلهم إلى معرفته ، وتكون شاهدا على نبوة هذا النبي الذى دعوا الله أن يكون من ذريتهما .

كما تضمنت أنه يعلمهم الكتاب ، أى يعرفهم طريقة أدائه ، ويفهمهم معانيه وأسراره وأحكامه ويخرجهم به من الظلمات إلى النور – ويعلمهم أيضًا الحكمة – وهى وضع الأشياء فى مواضعها ، أو هى السنة النبوية المبينة للكتاب ، ففيها شرح المعانى المرادة لله تعالى ، وفقًا لقوله جل ثناؤه (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) .

وكما يعلمهم الكتاب والحكمة يزكيهم ، أى يطهرهم من أرجاس الشرك والشك والمعاصى ، فإنهم إذا أخذوا بما علمهم إياه من الكتاب والحكمة استقامت عقائدهم ، وزكت نفوسهم ، وطهرت أخلاقهم وأعمالهم ، وقد حقق الله دعاءهما بإرسال نبينا محمد من ذريتهما ، وتعليمهم القرآن وتزكيتهم به .

ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعاءهما بالثناء على الله تعالى ، حيث قالا (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أى إنك أنت الغالب القادر يا ألله على تحقيق دعائنا ، بإرسال رسول من أبنائنا برسالة عامة وكتاب حكيم ، يؤدى إلى زكاتهم وطهارتهم من العقائد الفاسدة ، والمعاصى المهلكة ، وأنت يا رب عظيم الحكمة فى رعاية مصالح عبادك .

بشارة عيسى بالنبى فى القرآن :

قلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى » فأما أنه دعوة إبراهيم فقد بيناه فى شرحنا لقوله تعالى (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك .) الآية

وأما أنه بشارة عيسى فقد جاء ذلك فى قوله تعالى فى سورة الصف) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . .) الآية (٦) وأحمد من أسمائه صلى الله عليه وسلم ، فقد صح عنه أنه قال « لى خمسة أسماء ، أنا محمد وأحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى تحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » وفى حديث لمسلم عن أبى موسى الأشعرى قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى نفسه أسماء ، فيقول : أنا محمد وأحمد والمقفّى والحاشر ، ونبىُّ التوبة

ونبى الرحمة » إلى آخر ما جاء فى السنة من أسمائه الكثيرة — صلى الله عليه وسلم .

بشارة عيسى بالنبى فى إنجيل برنابا :

تعددت بشارة عيسى بالنبى صلى الله عليه وسلم فى إنجيل برنابا ، ومن ذلك ما جاء فى الفصل السابع عشر : « ولكن سيأتى بعدى بهاء كل الأنبياء والأطهار ، فيشرق نوراً على ظلمات سائر ما قال الأنبياء ، لأنه رسول الله » ٢٢ ، ٢٣ .

وفى الفصل السادس والثلاثين عدد (٦) « وقد جاء الأنبياء كلهم إلا رسول الله الذى سيأتى بعدى ، لأن الله يريد ذلك حتى أهيئ طريقه » .

وفى الفصل التاسع والثلاثين من الفقرة ١٤ إلى الفقرة ٢٨ ما يلى :

« فلما انتصب آدم على قدميه ، رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس ، نصها : لا إله إلا الله . محمد رسول الله ، ففتح حينئذ آدم فاه وقال : أشكرك أيها الرب إلهى ، لأنك تفضلت فخلقتنى ، ولكن أضرع إليك أن تنبئنى ما معنى هذه الكلمات (محمد رسول الله) فأجاب الله . مرحبا بك يا عبدى آدم ، وإنى أقول لك إنك أول إنسان خلقت ، وهذا الذى رأيته إنما هو ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة ، وسيكون رسولى الذى لأجله خلقت كل شىء ، متى جاء سيعطى نوراً للعالم الذى كانت نفسه موضوعة فى بهاء سماوى ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئاً ، فضرع آدم إلى الله قائلا : « يا رب هبنى هذه الكتابة على أظفار أصابع يدى » ، فمنح الله الإنسان الأول تلك الكتابة على إبهاميه ، على ظفر إبهام اليد اليمنى ما نصه (لا إله إلا الله) وعلى ظفر إبهام اليسرى ما نصه (محمد رسول الله) فقبل الإنسان الأول بحنو أبوى هذه الكلمات ، ومسح عينيه وقال : بورك ذلك اليوم الذى ستأتى فيه إلى العالم .

وقد تضمن هذا النص أن نفس محمد صلى الله عليه وسلم كانت فى بهاء سماوى — أى نور سماوى . ستين ألف سنة قبل خلق الأشياء ، إلخ ولعله يشير إلى هذا ما جاء فى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على

الماء ، ومن جملة ما كتب فى الذكر — وهو أم الكتاب — أن محمداً خاتم النبيين » : اهـ

ومن أعجب تصريحات السيد المسيح فى تعظيم سيدنا محمد ما نقله عنه الحوارى برنابا فى إنجيله (فصل ٤٢ فقرات ١٠ — ١٣) حيث قال برنابا : « فقال حينئذ يسوع : أنا صوت صارخ فى اليهودية كلها ، يصرخ : أعدوا طريق رسول الرب كما هو مكتوب فى أشعيا » ثم قال : « أجاب يسوع . إن الآيات التى يفعلها الله على يدى ، تظهر أنى أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه ، لأنى لست أهلا أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى ، وسيأتى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » وهذا التصريح الأخير موافق لما جاء فى القرآن المجيد من أنه صلى الله عليه وسلم (خاتم النبيين) وذلك فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (ما كان مُحمدٌ أبا أحد من رجالكُم ولكن رسول اللهِ وخاتَمَ النَّبيِّين) كما أنه موافق لما جاء فى آخر حديث مسلم السابق من « أن محمداً خاتم النبيين » فإنه إذا كان خاتم النبيين فلا يكون لدينه نهاية ، كما جاء فى الفقرة الأخيرة السابقة عن إنجيل برنابا .

وفى بقاء الإسلام إلى قيام الساعة يقول صلى الله عليه وسلم « ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة » .

عموم بعثة محمد فى إنجيل برنابا :

جاء فى الفصل الثالث والأربعين من إنجيل برنابا ، ابتداء من الفقرة ٩ ما يلى :

« وهكذا لما أراد أن يخلق قبل كل شىء نفس رسوله الذى لأجله قصد إلى خلق الكل ، لكى تجد الخلائق فرحًا وبركة بالله ، ويسر رسوله بكل خلائقه التى قدر أن تكون عبيداً له ، ولماذا وهل كان هذا هكذا إلا أن الله أراد ذلك ؟ الحق أقول لكم : إن كل نبى متى جاء فإنه يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله ، والملك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذى أرسلوا إليه ولكن رسـول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده ، فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض

الذين يقبلون تعليمه ، وسيأتى بقوة على الظالمين ، ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزى الشيطان ، لأنه هكذا وعد الله إبراهيم فإنى بنسلك أبارك كل قبائل الأرض » .

« ولما سألوه : أهو نسل إسحاق أم من نسل إسماعيل ؟ أجاب : صدقونى لأنى أقول لكم الحق : إن العهد صُنعَ بإسماعيل لا بإسحاق » .

وفى الفصل الرابع والأربعين ابتداء من فقرة (١٩) يقول برنابا فى إنجيله ما يلى :

« لذلك أقول لكم : إن رسول الله يسره كل ما صنع الله ، لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة ، روح الحكمة والقوة ، روح الخوف والمحبة ، روح التبصر والاعتدال ، مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح العدل والتقوى روح اللطف والصبر ، التى أخذ منها ثلاثة أضعاف ما أعطى الله لسائر خلقه ، وما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم ، صدقونى : إنى رأيته وقدمت له الاحترام ، كما رآه كل نبى لأن الله يعطى روحه نبوة ، ولما رأيته امتلأت عزاء قائلا : يا محمد ليكن الله معك ، وليجعلنى أهلا أن أحل سير حذائك[1] ، لأنى إذا نلت هذا صرت نبيًّا عظيمًا وقدوس الله إلخ .

وفى عموم بعثته ورحمته يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء (وَما أرْسلناكَ إلا رحمةً للْعالمين) ١٠٧ .

نبذة عن إنجيل برنابا :

هذا الإنجيل كتبه برنابا أحد حواريى عيسى ، وهو أحد الأناجيل الصريحة فى إثبات وحدانية الله تعالى وإنسانية عيسى ونفى نبوته لله ونفى شركه فى الثالوث ، وإثبات نبوة محمد صلى الله الله عليه وسلم بالاسم والعلامات الصريحة وقد ذكرنا نموذجًا فى صراحة فى حق خاتم المرسلين .

وكانت توجد فى العصور الأولى للمسيحية فرق تدين بالتوحيد ، ولها أناجيلها الصريحة فى ذلك ، ولما انعقد مجمع الأساقفة بنيقية سنة ٣٢٥ تحت إشراف الملك قسطنطين ، قرروا التثليث ، وتكفير من يقول بإنسانية المسيح ، وإحراق الكتب التى أنكرت ألوهيته أو تحريم قراءتها ، ومن هذه الكتب إنجيل برنابا ، ولكن نسخة منه

(١) تلك درجة عظيمة من التواضع وهضم النفس من السيد المسيح عليه السلام .

سلمت ، وعثر عليها راهب لاتيني اسمه (فراموينو) فى المكتبة البابوية فى روما ، ولما انتشر خبرها فى بداية القرن الثامن عشر أحدث ضجة عظيمة ، وجدلا بين العلماء والباحثين فهو ينكر ألوهية المسيح وبنوته لله ، ويذكر أن المسيح أعلن ذلك أمام الجنود اليهود ، كما أعلن برنابا فى إنجيله المذكور أن المسيح لم يصلب ولم يقتل ولم يعذب بيد اليهود .

وقد ترجم إنجيل برنابا إلى الإنجليزية الدكتور (منكيوس) أحد أساتذة كلية (أكسفورد) وترجمه من الإنجليزية إلى العربية الدكتور خليل سعادة (المسيحى المصرى) وطبع بمطبعة المنار سنة ١٩٠٧ .

وإذا كانت هذه النسخة سَمّت النبى صلى الله عليه وسلم بمحمد وسَمّته تارة أخرى بمسيا ، فقد جاء فى نسخة أخرى للإنجيل باسم أحمد ، فقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنجليزى أنه رأى فى المكتبة البابوية بروما نسخة من الإنجيل بالقلم الحميرى قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيها يقول المسيح (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

ومما يدل على أن مسيا هو محمد ما جاء فى الفصل السابع والتسعين من إنجيل برنابا فقرة ١٣ — ١٨ ونصه « أجاب يسوع أن اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق روحه ووضعها فى بهاء سماوى ، قال الله : اصبر يا محمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجمًّا غفيراً من الخلائق التى أهبها لك ، حتى إن من يباركك يكون مباركًا ، ومن يلعنك يكون ملعوناً ، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولى للخلاص ، وتكون كلمتك صادقة ، حتى إن السماء والأرض تهنان ، ولكن إيمانك لا يهن أبداً ، إن اسمه المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا ألله أرسل لنا رسولك، يا محمد تعال سريعاً لخلاص العالم » .

وحيث عرفت أن مسيا هو محمد ، وأنه جاء بلفظ أحمد فى بعض النسخ ، فلهذا يكون قوله تعالى (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) إنما هو حكاية لبعض ما كان عيسى عليه السلام يذكره من أسماء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا ينافى أنه كان يذكره تارة باسم محمد وأخرى باسم

(ميصيتًا) أو غير ذلك كإيليا[1] ، فقد جاء فى إنجيل متى (الإصحاح ١١ فقرة ١٤) . « وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى ، من له أذنان للسمع فليسمع » إلى غير ذلك من مختلف الأناجيل وإن طمسها الطامسون.

تظليل الغمام للرسول فى إنجيل برنابا :

هذا الإنجيل عجيب فى بشاراته الصريحة برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أكثرها – ومنها ما جاء فى الفصل الثانى والسبعين ابتداء من الفقرة (١٠) ونصه ما يلى على لسان السيد المسيح « أما من خصوصى فإنى قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذى سيأتى بخلاص للعالم ، ولكن احذروا أن تغشوا ، لأنه سيأتى أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامى وينجسون إنجيلى ، حينئذ قال إندراوس : يا معلم . اذكر لنا علامة لنعرفه ، أجاب يسوع . إنه لا يأتى فى زمنكم ، بل يأتى بعدكم بعدة سنين ، حينما يبطل إنجيلى ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً : فى ذلك الوقت يرحم الله العالم ، فيرسل رسوله الذى تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختارى الله ، وهو سيظهره للعالم وسيأتى بقوة على الفجار ، ويبيد عبادة الأصنام من العالم ، وإنى أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقى ، وسينتقم من الذين سيقولون إنى أكبر من إنسان ، الحق أقول لكم : إن القمر سيعطيه رُقَاداً فى صباه ، ومتى كبر هو أخذه فى كفيه ، فليحذر العالم أن ينبذه ، لأنه سيفتك بعبادة الأصنام ، فإن موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيراً » .

وهذا الذى رواه برنابا عن السيد المسيح من تظليل الغمام للرسول روته السيرة الشريفة ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الشيماء أخت النبى صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، رأت غمامة تظله ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت ، أيام كان عند حليمة .

وروى البيهقى وأبو نعيم أن بحيراً الراهب النصرانى رأى النبى صلى الله عليه وسلم وهو مسافر مع عمه إلى

---

(١) ومن أسمائه فى الأناجيل (البار قليط) ومعناه قريب من أحمد أو محمد ، ويجوز أن يرجع اختلاف أسمائه صلى الله عليه وسلم فى الأناجيل المختلفة إلى الترجمة من لغة إلى أخرى ، ومن ذلك أنه جاء فى بعض الأناجيل باسم (منحمينا) ترجمة لمحمد .

الشام ، وفوق رأسه غمامة بيضاء تظله من بين القوم ، وأن بحيرا قام فاحتضنه وجعل يسأله عن أشياء فى نومه وأحواله وأموره المختلفة ، فيخبره الرسول بما يوافق ما عند بحيرا من صفته ورأى خاتم النبوة بين كتفيه كما ثبت عند بحيراً ، فطلب من عمه أبى طالب أن يرده إلى مكة خوفاً عليه من اليهود ، فإنه نبى آخر الزمان ، فرده أبو طالب — إلى غير ذلك من الخوارق العجيبة التى ظهرت عليه قبل النبوة وبعدها ، ولولا أن التعليق على هذا النص المنقول عن إنجيل برنابا يطول لبسطنا فيه القول ، ولبينا مراميه وأغراضه البعيدة .

التبشير به فى التوراة :

جاء فى الإصحاح الثامن من سفر التثنية — من العهد القديم — خطابا لموسى عليه السلام « وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه ، يكلمهم بكل شىء آمره به ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى ، فأنا الذى أنتقم منه ، فأما النبى الذى يجترئ علىَّ بالكبرياء ويتكلم باسمى بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل ، وإذا أحببت أن تميز بين الصادق والكاذب فهذه علامتك ، أن ما قاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ، ولذلك لا تخشاه » .

وورد فى القرآن ما يوافق ما جاء فى هذه البشارة ، قال تعالى فى سورة الحاقة : (وَلَوْ تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) وقد مكث النبى صلى الله عليه وسلم يدعو قومه ثلاثة وعشرين عاماً عصمه الله فيها ممن يريدون قتله من المشركين ، وفاء بقوله سبحانه (وَاللهُ يَعْصِمكَ من الناس) وروى الواقدى عن ثعلبة ابن أبى مالك أن عمر بن الخطاب ، سأل أبا مالك ثعلبة بن هلال — وكان من أحبار اليهود — فقال : أخبرنى بصفات النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال : إن صفته فى توراة بنى هارون التى لم تبدل ولم تغير هى (أحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم وهو آخر الأنبياء ، وهو النبى العربى الذى يأتى بدين إبراهيم الحنيف ، يأتزر على وسطه ، ويغسل أطرافه ، فى عينيه حمرة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ليس بالقصير ولا بالطويل ، يلبس

الشملة ، ويجتزىء بالبلغة[1] ويركب الحمار ويمشى فى الأسواق ، سيفه على عاتقه ، لا يبالى مالقى من الناس ، معـــه صلاة لو كانت فى قوم نوح ما هلكوا بالطوفان ، ولو كانت فى قوم عاد ما أهلكوا بالريح ، ولو كانت فى ثمود ما أهلكوا بالصيحة ، يولد بمكة ، وهو أمى لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وهو الحمَّاد ، يحمد الله شدة ورخاء ، سلطانه بالشام ، وصاحبه من الملائكة جبريل ، يلقى من قومه أذى شديداً ثم يُدَال عليهم فيحصدهم حصداً تكون الواقعات بيثرب ، منها عليه ومنه عليها ، ثم له العاقبة ، معه قوم هم أسرع إلى الموت من الماء من رأس الجبل إلى أسفله ، صدورهم أناجيلهم ، وقربانهم دماؤهم ، ليوث النهار رهبان الليل ، يرهبه عدوه مسيرة شهر ، يباشر القتال بنفسه ثم يخرج ويحكم ، لا شرط معه ولا حرس الله يحرسه » .

وجاء فى الإصحاح ٢٣ عدد ٢ من سفر التثنية على لسان موسى عليه السلام ما يلى :

« جاء الرب من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار ، فى يمينه سنة[1] من نار ، أحب الشعوب ، جميع الأطهار بيده » .

هذا ما قاله موسى فى وصيته قبل موته ، وقد رمز بمجيء الرب من سيناء إلى مجيء شريعته تعالى ، وبإشرافه من ساعير إلى ظهورها من ساعير على يد عيسى ، ورمز باستعلائه من جبال فاران إلخ إلى ظهور شريعته فى بلاد العرب على يد نبيه محمد ومعه الألوف من أصحابه الأطهار ، ورمز بالسنة من النار إلى أنه صلى الله عليه وسلم هاد للناس وسراج منير لهم كما جاء فى قوله تعالى (يَـٰأيها النَّبيُّ إنا أرسَلناك شاهداً ومبشراً وَنذيراً وداعيًا إلى الله بإذْنه وَسراجًا مُنيراً) . ويجوز أن تكون رمزاً إلى شدته على الشرك والمشركين .

وقد جاء فى وصف النبى وأصحابه فى التوراة والإنجيل قوله تعالى فى آخر سورة الفتح (مُحمد رَسولُ الله وَالذين مَعه أشِدَّاء علىالكُفار رُحَماء بَينهم تراهم رُكعاً سُجداً يبتغونَ فضلاً

---

(١) البلغة الطعام القليل الذى يتبلغ به من البلاغ وهو الكفاية .

(١) أى قبس من النار ، مأخوذ من السنى وهو الضوء .

مِن اللهِ وَرِضْوانا سِيماهُم فى وُجوههم مِن أثرِ السُّجودِ ذلك مَثلهم فى التوراة وَمثلهم فى الإنجيل كزَرع أخرَج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه يُعجب الزُّراع لِيغيظ بِهم الكفَّارُ وَعدَ الله الذين آمنو وَعملوا الصالحاتِ منهم مَغْفرةً وأجراً عظيمًا) آخرسورة الفتح وفى بشارة التوراة والإنجيل بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول البوصيرى فى همزيته :

بينته توراتكم والأناجيـ
ـل وهم فى جحودهم شركاء

إن يقولوا ما بينته فمازا
لت بها عن قلوبهم عشواء

من هو الفارقليط والمنحمينا
ء وبالحق تشهد الحصماء

أخبرتكم جبال فاران عنه
مثلما أخبرتكمو سيناء

وأتاكم من المهيمن قديـ
ـس وكم أخبرت به الأنبياء

وصفت أرضه نبوة شعيا
فاسمعوا ما يقوله شعياء

أرض بدو عطشى حكت أرض لبنا
ن لقد ناسب الرواة الرواء

عرفوه وأنكروه وظلمًا
كتمته الشهادة الشهداء

أو نور الإله تُطفئه الأفوا
ه وهو الذى به يستضاء

نبوءات أشعياء

أشارت همزية البوصيرى إلى نبوءة أشعياء ، وهو صاحب سفر من أسفار العهد القديم ، ولعله يقصد ما جاء فى الإصحاح ٢١ فقرة (١٣) ونصها « وحى من جهة بلاد العرب ، فى الوعر تبيتين ياقوافل الداوينين ، هاتوا ماء لملاة العطشان ، وخبزة للهارب من أمام السيوف ، يأسكان التيمن قال الرب : تفنى جبابرة قيدار » .

فالوحى من جهة بلاد العرب فى الوعر صريح فى صدق نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فإنه بعث فى أرض مكة الجدباء ، وقوله (هاتوا ماء لملاقاة العطشان وخبزة للهارب) إشارة إلى هجرة الرسول من مكة إلى أرض الماء والطعام الشبيهة بلبنان وهى المدينة ، وأهلها هم سكان التيمن والتفاؤل والخير ، فقد انتصر بهم ، الإسلام ، وجبابرة قيدار إشارة إلى الجبارين من أحفاد قيدار الذى هو

من أولاد إسماعيل ، وقد توعدتهم البشارة بالفناء ، وهذا ماحدث ، فقد قضى الإسلام على دعاة الوثنية من أحفاد إسماعيل فى الجزيرة العربية ،

وقد ترجم سفر أشعيا إلى اللغة الأرمنية القسيس أوسكان الأرمنى وطبع سنة ١٧٣٣ بمطبعة أنتونى بورتلى ويوجد فى الباب ٤٢ هذه الفقرة « سبحوا الله تسبيحاً جديداً وآثر سلطته على ظهره ، واسمه أحمد » والمراد بأثر سلطته الذى على ظهره خاتم النبوة الذى يشبه (زر الحجلة) كما جاء فى صحيح البخارى وغيره ، وبالجملة فإن سفر أشعيا ملىء بالبشارات الصريحة ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتى يفيق العالم ، ومتى يشرح الله صدورهم للإسلام ليكونوا على نورمن ربهم .

مصطفى محمد الحديدى الطير

قال تعالى

« شَرع لكُم مِن الدين ما وصَّى به نوحاً والذى أوحينَا إليكَ وما وصينا به إبراهيم ومُوسى وعيسى أن أقيموا الدينَ وَلا تتفرقُوا فيه كبُرَ على المشركينَ ما تدْعوهُم إليه الله يَجتْبى إليْه من يَشاءُ ويهدى إليه من يُنِيبُ » .

صدق الله العظيم

إيمان بغير دين ... إلحاد مُبين

دكتور / عبد الفتاح بركة

أن تكون صاحب دين . . هذا شرف . وأن يكون هذا الدين هو الحق . . هذا شرف أعظم وأن تكون على يقين من هذا الدين الحق . . . فهذا هو أعظم الشرف .

معنى الدين :

ويكفى لفهم المعنى الذى نقصده من لفظ الدين بهذا الإطلاق ما يتبادر منه إلى أذهان القراء مباشرة دون الدخول فى تفصيلات اصطلاحية ، ذلك لأننا لانريد فى هذا المقال أن نخرج من التفصيلات الاصطلاحية بأكثر مما يوحيه إلينا هذا المعنى المتبادر . إنه نظام أساسى كلى إذا التزمه الإنسان أعطاه مطلق الهيمنة على فكره وشعوره وسلوكه .

فمعنى الإلزام والالتزام ملاحظ فيه ، وهو ملاحظ فى معظم تأويلاته الاصطلاحية وهو لذلك يكفينا فى هذا المقام .

والتزام الفرد بنظام يفرضه بنفسه على نفسه لا يحمل معنى الإلزام ، لأن الإلزام الذاتى هو والالتزام وجهان لشىء واحد هو إرادة الفرد ، ولذلك لا يشعر الفرد معه بالثقل والكلفة التى يجدها عندما يلتزم بنظام مفروض عليه من خارج نفسه ، وإن وجد تجاوبًا مع طبيعته وفطرته ، وعندما يتضح لهذا الفرد أن النظام الذى ألزم به نفسه لايتفق مع تحقيق ما رسمته من أهداف ، لم يجد فى ذلك مثاراً للغضب والجحود ، لأنه سيجد نفسه هى موضوع هذا السخط وهذا الجحود ، وهو لا يستطيع بحكم فرديته أن يفاصل

نفسه بالعداء ، لكنه ينتقل فى يسر وتسامح إلى تعديل خطته وإصلاح نظامه وانتهاج خطة جديدة لحياته ، فإذا لم يكن ملتزماً بغير ما تفرضه نفسه عليه ، كان ملحداً لا دين له .

لكن الفرد بحكم فرديته لا يستطيع أن يلتزم بنظام مفروض عليه من خارج نفسه إلا إذا لم يجد مناصاً من قبول هذا الالتزام ، تحكم به عليه الضرورة بوجوهها المختلفة : عقلية ووجدانية وعملية ، كما يدركها هو ، فعندما يدرك هذه الضرورة المركبة لا يجد مناصا من قبول الالتزام بحكمها ويصبح هذا الالتزام وكأنه ناشىء من داخل نفسه بحكم إدراكها لهذه الضرورة ، ويصبح هذا الالتزام ، عملا من أعمال إرادته ، أملته عليها الضرورة المركبة المحيطة به والمسيطرة على منافذ إدراكه ويتحقق بذلك معنى الدين بوجه عام .

إبليس نموذج للإلحاد :

وقد تتأبى إرادته على الرضوخ لهذا الإلزام ، إمعاناً فى الفردية الأنانية ، واستكباراً على حكم الضرورة ، ونفوراً من قيودها .

ولقد كان إبليس — فيما قصه علينا القرآن الكريم — أول من فعل ذلك ، حيث وصفه بأنه أبى واستكبر مع أن الضرورة التى كانت تحكم عليه بالامتثال والخضوع كانت واضحة صريحة مباشرة : لقد صدر الأمر الإلهى الكريم للملائكة أن يسجدوا ، والضرورة الماثلة فى الأمر الإلهى تحكم بالامتثال والضرورة الماثلة فى العظمة الإلهية تحكم بالخضوع ، والضرورة الماثلة فى تدبير الله لآدم أن يكون خليفة فى الأرض تحكم بالتواضع ، وقد استجاب الملائكة لحكم هذه الضرورة ، فالتزموا بها وسجدوا طائعين ولم يسجد إبليس مع إحاطة هذه الضرورة به من كل جانب ، ومع إدراكه لها بكل ما أوتى من وسائل الإدراك ، ولم يكن عدم التزامه ناشئاً عن جهل ، أو نقص فى المعرفة والإدراك ، ولكن فرديته الأنانية ثارت به ، فأبى واستكبر ، (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) (البقرة : ٣٤) .

هل آمن إبليس :

وليس من شك فى أن إبليس

كان — كسائر الملائكة — يعرف ربه ، ويعرف له ماتستوجبه ربوبيته وألوهيته ، لكن الملائكة التزمت ما عرفته، ولم يلتزم، فحفظت لله دينها، وجحد إبليس دينه ، لذلك وصفه الله تعالى بأنه كان من الكافرين فلم يصفه — مع هذه المعرفة التى كانت له ضرورة — بأنه كان من المؤمنين .

وحين نقرأ القصة لما وقع بعد ذلك نجد إبليس يتحدث حديث الذى يعلم يقينا مقام الله وعزته وربوبيته يقول تعالى : (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين. قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) ص : (٧١ — ٨٣).

فهو يخاطبه بالربوبية ، قائلا (رب فأنظرنى) ويعترف له بالعزة ، مقسما بها (فبعزتك لأغوينهم) ، ومع رسوخ هذه المعرفة وثبات هذا الإدراك لديه فإنه لم يكن مؤمناً ، وإنما كان من الكافرين .

فالمعرفة وحدها دون التزام لا تستتبع وصف الإيمان ، أى أن المعرفة بغير التدين ليست من الإيمان فى شىء ، وإنما هى أدخل فى باب الكفر ، لأنه جحود وإنكار مبنى على علم ، واستكبار .

تحريف لفظ الإيمان عن معناه :

وكثيراً ما يلتبس الأمر على بعض الناس ، حتى على بعض المثقفين منهم ، فيطلقون وصف الإيمان على كل من أقر لهذا الكون بمكون عظيم ، بصرف النظر عن موقفه من الأديان ، فسواء التزم بدين أو لم يلتزم ، فإنه يعد مؤمناً ، ما دام يقر بهذا المكون لهذا الكون البديع .

والإقرار بمكون أو بخالق للعالم ليس — فى الحقيقة — مشكلة ، لأن كل الضرورات العقلية والعملية والوجدانية تلجىء إليه ، ولا يسع إنساناً

سليم العقل والإدراك أن ينكره ، وإنما يحتاج المنكرون إلى تبرير موقفهم بما لا يستطيعون إقامته من شبه وأوهام .

تبقى المشكلة فيما تستتبعه هذه الضرورة من معرفة هذا الخالق حق معرفته ، ومعرفة حقه على مخلوقاته، وما يلزمهم به عن طريق وحيه ورسله من شرائع وتكاليف ، فيها الأوامر والنواهى التى تنظم مجمل حياتهم وعلاقاتهم تنظيما صحيحاً ، مبنيًّا على صخرة الحقيقة الأولى وهى ربوبية الله وما تستتبعه هذه الضرورة — أيضاً — من نتيجة حتمية هى إثابة من أقر والتزم، وعقاب من أبى واستكبر ، وذلك فى يوم خاص هو يوم الدين .

وقد وقف إبليس عند الضرورة الأولى ، فلم يتجاوزها إلى لوازمها ، فأصبحت بذلك فاقدة الأثر ، عديمة الجدوى ، ولم يمكن وصفه بالإيمان من أجل ذلك ، بل وصف — على الرغم من ذلك — بأنه كان من الكافرين .

وكان هذا الموقف بعينه هو موقف الكفار الأولين فلم يأت رسول من الرسل ليدعو الناس إلى اكتشاف وجود الله ، وإنما ليدعوهم إلى توحيده ، والالتزام بطاعته وعبادته (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) (لقمان : ٢٥ ، والزمر : ٣٨)، (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) (العنكبوت :٦٣) ، (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون) (يونس: ٣١) ، (قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون (يونس : ٣٤)، إلى غير ذلك من الآيات ، ومع إقرارهم واعترافهم بهذه الضرورة فإن مشكلتهم كانت فى التوقف دون ما تستلزمه هذه الضرورة من ضرورات أخرى ، فاستنكروا الوحى ، ثم تدرجوا فاستنكروا أن يوحى إلى بشر ، ثم تدرجوا فاستنكروا أن يكون هذا البشر من طبقة أو طائفة لا تنال رضاهم ثم تدرجوا فاستنكروا أن يكون هناك بعث أو حياة أخرى ، مع إثارة الشبه فى كل درجة يتدرجون منها إلى ما بعدها .

ولا يزال هذا الموقف هو موقف

الملحدين فى كل زمان مع تغيير فى صورة الشبه ، يساعد عليه تطور العلم وظهور نظريات وافتراضات تتجدد فى كل أوان .

ولكن الإلحاد لفظ كريه ، يتعرض صاحبه للمقت العام ، نظراً لأنه يصادم الشعور الضرورى لدى الإنسانية بالاعتراف بحق الله ، لذلك لبس الملحدون ثوباً غير ثوبهم ، كمن وضع اسم الفلفل على علبة السكر تضليلا للنمل ومصرفاً لأنظاره ، فجعلوا الإلحاد اسما لمن ينكر وجود الله جملة بعد أن جعلوا من إثبات وجود الله — وهى قضية ضرورية — مشكلة تحتاج إلى بحث وإلى برهان ، ومن لم يهتد إلى هذا الدليل ، أو لم يقتنع به ، فأنكر وجود الله فهو ملحد ، لكنه عندئذ ملحد معذور ، لم تنتصب أمامه الدلائل الكافية أو البراهين المقنعة ، وأقاموا له من شبه العلم ما يستند إليه فى دعواه ، كأن الأصل وجود الكون بغير خالق ، فإذا ظهر من يدعى وجود الخالق طولب بالدليل وهو عكس للقضية ، إذ الأصل ألا يوجد كون بدون خالق ، ويطالب من ينكر ذلك بالدليل ؟

وإذا نجحوا فى قصر لفظ الإلحاد على إنكار وجود الله ، كان مجرد الاعتراف بوجوده خروجاً من دائرة الإلحاد المقيتة ، إلى دائرة مقبولة مرضية هى دائرة الإيمان ؟

وبذلك لبس هؤلاء الملحدون ثوب الإيمان ، بعد أن اتسع حجمه إلى الدرجة التى يستطيع فيها أن يلبسه كل من لا يلتزم بدين ؟

لا إيمان بغير دين :

بل وسعوا من إطاره ليسع كل من أقر لهذا الكون بموجد أو مكون ، مهما نسب إلى هذا الموجد من صلات إلى درجة تجعل الإقرار به مساوياً لعدم الإقرار به ، فيصبح الإيمان والإلحاد فى قرن سواء ، فاتخذوا آلهتهم من العقـــل مرة ، ومن الروح أخرى ، ومن المادة ثالثة ، ومن النظام الذى يشتمل هذا الكون تارة ، ومن الإنسانية تارة ، ومن القوة أو الطاقة أو ما شابه ذلك تارات أخرى ، وذلك للابتعاد عن مقتضى الضرورة فى الاعتراف للخالق بربوبيته ووحدانيته ، واستقلاله وسلطانه ، مما يقتضى الخضوع له والامتثال لدينه ؟

فالإيمان بوجود الخالق دون الالتزام بدينه يساوى إنكار وجوده ، وسواء اعترفنا بوجوده أو أنكرناه فإن ذلك لن يغير من واقع الأمر شيئًا ما دمنا — مع ذلك — نجحد سلطانه ، ولا نقر له بحقه فى فرض دينه .

وحقيقة الإيمان بالنسبة لهؤلاء الأدعياء تجاوز كل عقل ، وكل منطق ، وكل واقع تجريبي ، لأن عقولهم قد حاصرتها المادة ، ومنطقهم قد أفسدته التجارب ، وتجاربهم قد دارت فى نطاق فروضهم وتخميناتهم ، وأصبحوا فى النهاية أسارى ظنونهم وأوهامهم ، لا يقبلون إلا ما يريدون قبوله ، وهم لا يريدون أن يقبلوا الدين ، لأنه مفروض عليهم من قوة عليا خارجة عن نفوسهم ، مع ما فى نفوسهم من الكبر الإبليسى ورفض الدين لا يتم ما دامت الحقيقة الكبرى لهذه القوة العليا ما ثلة أمامهم لذلك لم يكن بد من رفضها حتى يستريحوا من عناء الخضوع للدين والالتزام به .

ولقد وجدنا من الملحدين من واجه هذه الحقيقة فى صراحة دون أن يتوارى خلف هذه الغلالة المتهافتة من دعوى الإيمان ، فاعترف بإلحاده وإنكاره للألوهية إنكاراً مطلقًا — رغم اعترافه للمادة بكل شىء — ونصب من نفسه داعية للإلحاد على طول العالم وعرضه ، وأقام للإلحاد هيكله ودولته فى الاتحاد الشيوعى الاشتراكى العالمى .

وكل من تابعه فى خطته واقتفى آثار نظرياته فهو ملحد يتعبد فى هيكل الإلحاد ، ولو تقمص ثوب الإيمان وارتدى بعنوانه ، فدعوى الإيمان الذى يدعيه هؤلاء المدعون مع عدم اعترافهم بالدين دعوى لا تؤيدها الحقيقة كاسم الفلفل فوق وعاء السكر .

لكن رفض وجود الخالق وإنكاره جملة غير مستساغ عند الكثيرين ، لكونه حقيقة ثابتة أثبت من أى حقيقة أخرى ، حيث إنها أصل الحقائق ، وكل الحقائق التى يريدون أن يتعاملوا معها تؤدى إليها ، وتنتهى عندها ، فاعترف بها من اعترف كرها ، وكان اعترافهم بها مظهراً من مظاهر الإلحاد وإن أخذ صورة الإيمان ، لأن مصدره الشعورى والوجدانى والعقلى ملحد ، يدل على إلحاده أنه بدل أن يخضع نفسه لما تمليه هذه الحقيقة من واجبات الدين ، أخضع هو هذه الحقيقة لتجريداته العلمية ، وافتراضاته الظنية

ثم لم يلبث أن تحلل من كل واجب قبلها ، ومن أى التزام تجاهها .

وليس الإيمان كذلك ، ليس الإيمان أن تضع مبدأ تعتنقه ثم تجرده من كل تأثير ، وتعزله عن مجــرى الشعور ، وتجعله فى موضع الشك أو فى موضع التردد أو فى موضع التجهيل ، أو أن تنصبه بنفسك لنفسك ، فتــكون صاحب الحق فيه ، إن شئت خولته السلطان ، وإن شئت عزلته عن السلطان ، كمن يصنع صنمه من عجوة يسجد له فى الصباح ليلتهمه إذا جن المساء .

لا تستقيم الحياة بغير دين :

وهذا الإلحاد فى الإيمان لا يقتصر تأثيره على الفرد ، بل إن حياة المجتمع نفسها لا تستقيم مع هذا الإلحاد .

إذ ما معنى أن يكون الفرد مؤمنا لا دين له ؟ معناه أن يكون متحللا من أى التزام تجاه تلك الحقيقة الكبرى المهيمنة على هذا الكون ، وإذا زال هذا الالتزام لم تعد هنالك جهة أخرى تستطيع إلزامه ، إذ لا توجد جهة هى أولى بذلك من جهة .

وإنما يكون التزامه تجاه نفسه ، فما تمليه عليه نفسه ، وما تختاره إرادته هو الذى يحظى بقبوله ورضاه .

وإذا كان هذا الإلحاد مذهبا سائداً فى مجتمع من المجتمعات لم يكن عجيبًا أن نجد من السلوك والتصرفات أنواعًا بعدد الأفراد ، لأنك لا تكاد تجد فردين يتماثلان فيما تمليه النفس وما تختاره الإرادة ، وليس هنالك معيار واحد تفرضه قوة واحدة تملك الحق فى فرضه ، وتقتنع به نفوس هؤلاء الأفراد اقتناعاً يؤدى إلى الالتزام بل كل فرد وطائره .

كما أنه لا يوجد قالب تصب فيه هذه الأفراد لتخرج جميعها نسخة متماثلة متآلفة الطباع ، متناغمة الميول متوحدة الاتجاهات .

ومثل هذا الفرض لا يفيد المجتمع ، بل يضره أبلغ الضرر ، لأن المجتمع الذى لا تتنوع أفراده ، ولا تختلف نزعاتهم واتجاهاتهم ، مجتمع متجمد، لا ابتكار فيه ، ولا مجال للتطور أو التقدم .

بل إن مثل هذا المجتمع الموحد الأفراد لا يستطيع أن يكفى حاجاته ، لأن حاجاته تختلف وتتنوع وتتجدد ، وهم على وضع لا يختلف ولا يتنوع ولا يتجدد .

ولا يصلح المجتمع إلا أن يكون

كما خلقه الله متنوع النزعات والميول والاتجـــاهات بحسب تنوع الأفراد والشخصيات ، كما لا يصلح المجتمع مع ذلك – إلا إذا تحكمت فى هـــذه الاختلافات قواعد ملزمة تؤلفها وتوجهها إلى رشدها وفلاحها . ولا تتركها لتتوزع وتتشتت ، فتتبدد وتضيع سدى .

والملحدون الذين يتهربون من الالتزام تجاه هذه الحقيقة الكبرى لا يجدون مهرباً من هذه الحقيقة الاجتماعية التى تسوقهم إلى الله ، ولكنهم يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خـــير ، ويفرضون هم باسم المجتمـــع – ومن دون الله – قواعـــد وقوانين يحكمون بمقتضاها أفراد المجتمع ، ويلزمونهم باحترامها ، ويطلبون منهم أن يلتزموا بها .

فهى قواعد وقوانين تحل محل الدين ، وليست هى الدين ، تفرضها الضرورة الاجتماعية ، ولكنها لا تعتمد على الضرورة العقلية أو الضرورة الوجدانية ، لذلك كانت قداستها مصطنعة ، واحترامها تقليداً ، وممارستها تبادلا للمنافع ، ثم لا يتجاوز أثرها بعد ذلك إلى مجرى الشعور ، ولا إلى قرار الإدراك .

بل إن هذه القواعد وهذه القوانين التى تحل محل الدين ، ليست فى حقيقة أمرها ضرورة اجتماعية ، وإنما هى نتيجة مزيفة لهذه الضرورة الاجتماعية ظهرت بعد أن أغفلنا الحقيقة التى تتطابق مع الضرورة الاجتماعية وهى الدين ، فلما أغفلنا الدين وظلت الضرورة الاجتماعية قائمة تنادى بوجوب الإلزام والالتزام ، ظهرت تلك القوانين ، والقواعد ، والمبادئ والتنظيمات ، والتنظيرات ، والأيديولوجيات ، وكل ذلك ليس بحكم الضرورة الاجتماعية ، بل بحكم أفراد تواضعوا عليها ، وفرضوها فيما بينهم ، بالتراضى ، أو بالقسر والإكراه ، ليسدوا بها خلة الضرورة الاجتماعية ، وهيهات ، فما تزال هذه القواعد والقوانين – التى أرادوا لها أن تحل محل الدين – عرضة لكل غالب يغير فيها وفق هواه ونزعاته ، بطريقة من هذه الطرق التى تفرض بها هذه القوانين عادة وهى فى النهاية محصلة التزام الفرد أمام نفسه وتبعاً لهواه ، وإن سرى حكمها بين الآخرين ولذلك كان صلاح المجتمع بها حلم واهم أو خيال حلم .

الدين الحق لا يكون إلا لله :

ولقد نجد العذر إذا استشرى الإلحاد فى بيئة محرومة من الدين الصحيح حيث يجد فى الأديان السائدة ما يثير معانى التناقض وعدم الاقتناع ، ولا يلبث موقف الفرد حينئذ أن تنتاشه مختلف الأفكار والاتجاهات ، وكلها تسلمه إلى الشعور بالغربة والضياع وعدم الارتكان إلى الحقيقة ، ويجد نفسه مطالبا بدين لا يملأ عقله ووجدانه ، ولا تبرهن تشريعاته العلمية على ثبات أصله ورسوخ بنيانه .

وذلك ما جعل الإلحاد يترعرع فى أوربا ، وفى البلاد التى تثقفت بثقافتها وتشربت بأفكارها ومبادئها .

ذلك أن الدين لا يكون ديناً صحيحاً إلا إذا اعتمد على مصدره الصحيح ، وسلك فى وصوله إلينا طريقًا سليمًا ، وتلقيناه بروح الاتباع بغير ابتداع ، أما إذا خلا من ذلك فإنما هو دين عند أصحابه ، لا فى الحقيقة والواقع .

ولذلك نجد القرآن الكريم يجارى أصحاب الأديان المختلفة ، فيصف مذاهبهم ومللهم بوصف الدين ، حسبما يعتقدون ويقول لهم (لكم دينكم ولى دين) الكافرون : آخر آية ، ولكنه لا يعترف بحقيقة الدين إلا لدين واحد ، هو الحق لا سواه وهو الإسلام فيقول : (إن الدين عند الله الإسلام) آل عمران : ١٩ ، والإسلام هنا يشمل مختلف معانيه كاسم للدين الذى أرسل به محمد عليه الصلاة والسلام ، وكوصف لما فيه من معانى الإسلام لله وحده .

أما غيره من الأديان ، فليست بأديان على الحقيقة ، لأنه إذا كان الدين يشتمل على الإلزام والالتزام فهذه الأديان — وإن ظهر فيها نوع من الالتزام — لم يستند فيها أصل الإلزام إلى مصدره الصحيح وهو الله سبحانه وتعالى ، حيث إنها إما صادرة فى أصلها عنه لكنها حرفت أو شوهت أو استبدلت ، وإما أنها لم تصدر عنه وإنما صدرت عن وسائط انتحلوا من حقوق الربوبية ما ليس لهم باسم الأرواح الخفية والقوى الغيبية ، وغير ذلك من وسائط شيطانية ما أنزل الله بها من سلطان .

لذلك لا اعتبار لهذه الأديان فى ميزان الحق . ولا غرو أن ينشأ الإلحاد فى مهدها ويترعرع فى سهلها ونجدها .

كيف يوجد الإلحاد فى ديار الإسلام !؟

ولا غرو أن يصل الإلحاد إلى البلاد التى تقتفى آثارها ، وترضع لبانها ، مع وجود الإسلام وهو دين الحق بين ربوعها ، ذلك لأن دعاة الإلحاد فى أهلها قد قطعوا صلتهم بدينهم ، ولم يعرفوا من وجه الدين إلا ما رأوه فى دعايات أولئك الإلحاديين وظنوا أن الدين كله سواء ، ما كان منه دينا على الحقيقة وهو الإسلام ، وما كان منه دينا باعتباره تظرة أهله إليه وهو ما عدا الإسلام فقاموا يدعون إلى الإلحاد خفية وجهرا ، ويبثون مبادئه ، وينشرون قواعده بكل وسيلة من وسائل الدعوة ، صريحة أو ملتوية ، عنيفة أو لينة ، يؤزهم على ذلك الاستعمار الذى سيطر فى غفلة طال أمدها على ديار الإسلام ويمد لهم فى حباله ، ويمكن لهم من مفاتيح التوجيه ووسائل الريادة والقيادة .

ولقد قنع فى بداية الأمر أن يترك النص على أن دين الدولة هو الإسلام موجوداً فى دساتير تلك البلاد ، ولكنه فرض قوانينه وشرائعه ، وجعلها هى التى تسود وتحكم ، فجرد هذا النص من معناه ، وأفزغه من محتواه .

وفات المسلمين حين حكموا فى بلادهم قوانين الغرب أنهم خطوا بذلك أولى الخطوات العملية فى طريق الإلحاد ، لأنهم تحللوا من التزامهم بتطبيق شريعة الله ، وهو لب الدين وجوهره .

وقد حدث ذلك بالفعل ، فتحت هذا التناقض بين النص والقانون الذى يخالفه فتحت الأبواب لكل ذى مذهب منحرف واتجاه إلحادى أن يبيض ويفرخ ، ويطير بإلحاده شرقاً وغرباً ، وما نراه الآن من أفعال وردود أفعال بين الانحراف المنحرف والتطرف المتطرف ينبىء عن فوضى فكرية ، واضطراب نفسى ، وقلق عقيدى وهو نتيجة طبيعية لكل ما ذكرناه .

ثم خطا الإلحاد خطوات أخرى فى ضمائر المسلمين ومشاعرهم ، وزيف عليهم مفهوم الإيمان ، وجعله يكتفى بمجرد الاعتراف بإله لهذا الكون ، فمن اعترف بذلك فقد خرج من ربقة الإلحاد ، وأصبح أهلا للتسامح وأن يعامل معاملة المؤمنين .

ثم أصبح هذا المعنى شعاراً يرفع رسمياً فى بعض البلاد الإسلامية ،

كما نجـــد ذلك فى البــانشاسيلا الإندونيسية ، وإندونيسيا بلد إسلامى أصيل يبلغ تعداد المسلمين فيه أكثر من مائة مليون ، وبنسبة تربو على ٩٠٪ .

وفى ظل هذا الشعار أينع الإلحاد وازدهر ، وسرح بين ربوعهـــا ، ومرح فى جـــزرها وشطآنها ، ينشر عوامل التحلل والوثنيـــة واللادينية[1] باسم الشيوعية مرة ، وباسم التبشير المسيحى كرة ، وباسم الروحية عدة كرات ، مستتراً فى كل ذلك خلف شعار الإيمان فحسب .

ولقد يشفع للمسلمين فى جميع بلدانهم ، أنهم لم يرتضوا ذلك يوماً ، ولم يقبلوه ، ولم يهنوا فى رفضه ومقاومته ، والمطالبة بتغييره ، وإنما فرض عليهم بفعل الاستعمار وأعوانه وأذنابه ، وبثقل الضغوط الدوليـــة والأوضاع الاقتصادية ، وقد آن الأوان أن نتخلص من هذه الآثار ، ونتخفف من تلك الآصار ، ونتبرأ إلى الله من جميع الأوزار ذلك أن الإيمان بغير دين كفر صراع ، وإلحاد بواح .

وإنها لبشريات طيبة أن يسود هذا الشعور بلاد المسلمين ، فنجد فى باكستان — مثلا — من ينادى بوضع إطار سياسى إسلامى للبلاد ، بدلا من النظام الحالى المخالف للتعاليم الإسلامية ، وأن نرى قيادانه تنادى بضرورة جعل باكستان دولة إسلامية حقاً[1] .

كما نرى مثل هذا الشعور عاماً متبادلا بين الشعب والقادة فى مصر العربية ، ويتبلور ذلك الآن فى مؤسساتها التشريعية[2] ، ويقوم مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بالإعداد لعقد مؤتمر خاص يدرس مشروع دستور إسلامى يكون فى متناول الدول الإسلامية الراغبة فى سلوك هذا المنهج وفى العودة إلى حظيرة الإيمان الصحيح .

كذلك نجد أن إندونيسيا قد غارت لدينها وإسلامها فأصدرت مؤخراً عدة قرارات مجيدة تمنع هؤلاء الملاحدة — الذين يلبسون مسوح الرهبان ، ويتزيون تحت شعار الإيمان ليعيثوا فى الأرض

---

(١) قد نعود إلى الحديث فى هذا الموضوع فى مقال آخر .

(١) الأهرام ٢ من المحرم سنة ١٣٩٩هـ الموافق ٢ من ديسمبر سنة ١٩٧٨م .

(٢) انظر حديث الدكتور صوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب فى الأهرام ٣ من المحرم سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٣ من ديسمبر سنة ١٩٧٨ .

فساداً – تمنعهم من اقتحام أسوار الأسر المسلمة ومن إزعاجهم عن إسلامهم بالترهات والخزعبلات .

ولكن ما يعنينا بالمقام الأول أن نبين أن الإلحاد يلبس أردية مختلفة ، فيستخفى حين لا يستطيع أن يستعلن ، ويداور ويناور حين لا يستطيع أن يواجه ويجابه ، ففى بلد كعدن من بلاد اليمن – معقل الإسلام – يكشف عن وجهه القبيح بالقتل والتذبيح ، وفى بلد كإندونيسيا يستتر خلف مبادئ البانشاسيلا ويتخذها درعاً ، ومتراساً ، ويقول كلمة حق مبتورة ليصل بها إلى باطل صريح ، مدعياً أن مبدأ الدولة هو الإيمان بالله ، وماذا يقول كثير من الملاحدة غير ذلك ؟!

ألا إن هذا المبدأ وحده لا يكفى ولا يمكن أن يكون وسيلة لإيمان صحيح، بل إنه يفتح الباب للإلحاد على مصاريعه وتلك القرارات التى أصدرها مؤخراً وزير الشئون الدينية خطوة طيبة ، ولكنها تحتاج إلى ردء ووزر وقوة تعضدها وتساندها بوضع هذا المبدأ فى وضعه الصحيح ، وهو النص على أن دين الدولة هو الإسلام ، كما تفعل كل البلاد الإسلامية التى لا تريد أن تتحلل من دينها .

بقى أن نقول :

إنه لكى يكتمل الإيمان وتستقيم أمور الحياة فى ظلاله ، لا بد لكل بلد إسلامى أن يعترف وينص رسمياً على أن دين الدولة هو الإسلام وأن شريعته هى القانون .

والله أعلم .

د. عبد الفتاح عبد الله بركة

من آداب العالم

« لزوم العلم ، والعمل به ، ومنع التكبر ، والرفق بالمتعلم ، وإصلاح المسألة للبليد ، واستماع الحجة والقبول لها ، وإن كانت من الخصم » .

في مواجهة الإلحاد المعاصر ..
استمرار الصراع بين الدين والعلم

دكتور / يحيى هاشم

(١)

تمهيد :

١ — لا شك فى أن للعقيدة الدور الأساسى فى حياة الإنسان وينبغى ألا يكون هناك شك أيضًا فى أن ما يحتاج إليه الإنسان ليس مطلق عقيدة ، ولكن العقيدة الصحيحة فى الواقع ونفس الأمر .

إن الخطر الداهم الذى تتعرض له مجتمعاتنا الإسلامية من استيراد العقائد الغريبة عنها لا ينحصر فى كونها أداة للسيطرة الأجنبية ، وإنما يرجع فى الأساس إلى كونها عقائد باطلة موضوعيًّا .

وإنه لمن الخطأ الاتجاه إلى المزج بين « أيديولوجيات متناقضة » وعلى ذلك فإنه لمن الضرورى المحافظة على صفاء العقيدة الصحيحة التى اهتدى إليها مجتمعنا منذ انتشر فيه ضياء الإسلام .

وفى مجال العقيدة الإسلامية لا مبرر للحديث عن « جمود الأيدلوجية » لأن العقيدة الصحيحة القائمة على هدى الإسلام ، صالحة للإنسان فى كل زمان ومكان وهى فى نفس الوقت لا تقوم بهذا الدور الأصيل إلا إذا احتفظت بأصالتها وصفائها ونقائها مهما توالت عليها الأزمان والدهور ، ومن ثم فإن شعار الجمود الذى قد يطرح فى هذا المجال يصبح مضللا إلى أبعد الحدود .

وإذن فإن ما يحتاج إليه المسلم هو تشدده فى التمسك بأصالة عقيدته الصحيحة وصفائها إذ أنه فى هذا الصفاء وفى هذه الأصالة تكمن صلاحيتها للإنسان فى كل زمان ومكان وللمجتمع فى أى طور من أطوار نموه ، ومن ثم فإنه لا يصح أن نفترض احتمال وجود تعارض بين مصالح الفرد أو

الأمة ومشاكلها الحاضرة وبين العقيدة الصحيحة التى نشير إليها وعلى ذلك فإنه كلما ظهر أن هناك تعارضا بينهما يكون المطلوب هو الرجوع إلى العقيدة فى منهلها الصافى الصحيح .

وهنا يقتضينا المقام أن نذكر كلمة موجزة عن معنى « الدين » والمراد بتعريف الدين تعيين الخصائص التى لا يكون الدين ديناً إلا بها .

والكلمة الأوربية التى تدل على ما تدل عليه كلمة دين عندنا هى (Religion رلجيون) المقتبسة من اللاتينية . وترجع الكلمة فى مبدأ اشتقاقها Religio إلى معنى الربط ، الشامل لربط الناس ببعض الأعمال وربط الناس بعضهم ببعض . وربط الناس . بالإلهية . وهى تفيد أيضًا معنى الشعور بحق الآلهة فى الخشية والإجلال .

أما الكلمة الحديثة (Religion) فتدل على وجود نظام يؤلف بين جماعة من الناس بإقامة شعائر وعبادات معينة ، وبالإيمان بقوة روحانية أسمى من الإنسان حالة أو متعددة ، أو واحدة يستحق الاحترام والخشوع ، ويمكن الاتصال بها . كما تدل على الخضوع لقانون أو عادة أو عاطفة ، لها علاقة بتلك القوة الغيبية .

ويرى كل من سبنسر وماكس موللر :

أن الدين مرادف لما وراء العقل — فالدين نوع من الإدراك لما يفوت العلم وينقطع دونه العقل .

ويرى برونتيير أن مايميز الدين هو الأمور الخارقة للطبيعة.

ويرى آخرون أن الدين هو ربط الحياة الإنسانية برابطة تقوم بين الروح الإنسانى وروح غيبى له سلطانه على العالم كله . وذلك الروح الغيبى هو الله . وفى بعض الأديان تقوم مقام هذه الروح أرواح الأموات أو أرواح أخرى متعددة فى المراتب لها قداستها ومناسكها واعتبارها الدينى وإن لم تكن آلهة بالمعنى الحقيقى .

ويرى دوركايم أن الأمور الدينية تنقسم بطبيعتها إلى قسمين أصليين .

عقائد وعبادات . .

والعقائد الدينية تقسم الأشياء إلى مرتبتين :

مقدسة وغير مقدسة .

وعلى ذلك فالعقائد الدينية تتعلق بالأمور المقدسة وعلاقاتها ببعضها

وعلاقتها بالأمور غير المقدسة :

أما العبادات فهى تنظيم للسلوك الإنسانى بإزاء الأمور المقدسة .

ويضيف دوركايم إلى الدين خاصة أخرى تفرق بين الدين والسحر فى نظره .

تلك هى ما للدين من الصبغة الاجتماعية الملازمة .

ويرى الأستاذ لا لاند أنه لا تناقض من جهة الشكل بين تعريف بروتنير وبين دوركايم ، لأن المقابلة بين المقدس وغير المقدس عند دوركايم تطابق المقابلة بين الطبيعى والخارق عند بروتنير .

وليس يحتم عند لاند أن تكون الأمور الدينية شأنا من شئون الجماعة .

وليس كل العلماء على رأى دوركايم فى ضرورة الفصل بين الدين والسحر إذ قد يختلطان فى بعض العقائد الساذجة .

على أن قيد الصيغة الاجتماعية لا يحقق لدور ككايم ما أراده من التفرقة بين الدين والسحر ، إذ أن السحر أيضًا متصل بالجماعة وقائم على عقائدها .

أما كلمة « الدين » فى اللغة العربية :

فقد ذكرت المعاجم للفظ دين عشرين معنى ، بعضه مولد وبعضه مجازى ، وبعضه متداخل .

يرى الأصفهانى فى كتاب «المفردات فى غريب القرآن » أن الدين يدل أصالة على الطاعة والجزاء .

ويدل مجازاً أو توليداً على الشريعة والملة .

ويرى النيسابورى فى تفسيره .. أن الدين يدل أصالة على الجزاء ويدل مجازاً على الطاعة لعلاقة هى السببية .

أو على الشريعة وذلك الرأى منقول عن كليات أبى البقاء .

والشهرستانى فى الملل والنحل يرى :

أن الدين يدل أصالة على الطاعة والانقياد والجزاء والحساب ويدل مجازاً على الملة والشريعة .

والمستشرف ما كدونالد نقلا عما كتبه فى دائرة المعارف الإسلامية فى لفظ دين يرى أن للكلمة ثلاثة أصول مختلفة المعنى :

(ا) أصلى آرامى عبرى بمعنى الحكم.

(ب) أصل عربى بمعنى العادة .

(ح) أصل فارسى بمعنى الملة .

وينكر فولرس الأصل العربى للكلمة

ويرى أنها مستمدة من اللغة الفارسية . وهذا رأى مستبعد لما ذكره ماكدونالد ولما يجده الباحث من تفنن العرب فى اشتقاقها لهذه الكلمة وتعديد صيغها واستعمالاتها مما لم تجر لهم به عادة فى الكلمات المعربة .

ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الكلمة مولدة من اللفظ العربى « دين » فهما من مادة واحدة وهما مصدران لفعل واحد وهما يستعملان للدلالة على شىء غير حاضر . وكانت لفظة « دَين » أصلا ، لأنها على وزن فعل وفعل أكثر استعمالا فى العربية من فعل . ومع ذلك فإن هذا الرأى لا يمنع أن تكون الكلمة مستعملة فى معان أخرى كثيرة كالطاعة وغيرها .

وأما استعمال كلمة « الدين » فى القرآن الكريم :

فقد ورد لفظ دين فى القرآن فى أكثر من ثمانين موضعاً .

ويفهم من كلام الراغب الأصفهانى أنها ترجع إلى ثلاثة معان : الطاعة ، الجزاء ، الملة .

ولا شك أن القرآن يستعمل الكلمة فى المعانى المعروفة عند العرب ، وإذا كان العرب يستعملونها بمعنى الملة فهم يريدون بذلك الملل المعروفة لديهم .

لكن ما هى الملل المعروفة عندهم ؟

إن المرجع الصادق فى ذلك هو القرآن ، وهناك آيات نستخلص منها الملل المعروفة التى سميت باسم الدين ، وهى التى ينتسب إليها الجماعات الرئيسية الآتية :

١ — المؤمنون ، ٢ — اليهود .

٣ — النصارى ، ٤ — الصابئة .

٥ — المجوس ، ٦ — المشركون[١] .

٧ — وآخرون مختلفون فمنهم :

(ا) من أنكر الخالق والبعث والإعادة وقال بالدهرية[٢]

(ب) ومنهم من أقر بالخالق وبالحدوث وأنكر البعث[٣] .

(حـ) ومنهم من أقر بالخالق وبالحدوث وبنوع من البعث وأنكر الرسل وعبد الأصنام كوسطاء[٤] .

---

(١) الآيات ٦٢ سورة ٢ .
٦٩ سورة ٥ .
١٧ سورة ٥ .
(٢) الآية ٢٤ سورة ٤٥ .
(٣) الآية ٧٨ ، ٧٩ سورة ٣٦ .
(٤) الآية ٣ سورة ٣٩ .

وأما المعنى الشرعى لكلمة دين :

فنذكر أن القرآن قرر فى الدين أصولا جعلت له معنى شرعياً خاصاً .

١ – فهو لا يكون إلا وحياً من الله إلى أنبيائه[١] .

٢ – وهو واحد لا يختلف فى الأولين والآخرين[٢] .

وننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الصراع بين الدين والعلم .

* * *

لا شك أن العقيدة الإسلامية – والحضارة الإسلامية بوجه عام – لم تجد نفسها فى عداء مع العلم تحت أى ظرف من الظروف .

ولما كنا بصدد تكييف العلاقة بين العلم والدين ، فإننا نجد أنه من غير المستساغ – إسلامياً – الظن بأن هناك تعارضاً بينهما ، أو القول بأن العلم والإيمان يكمل أحدهما الآخر ، ذلك لأن الدين الإسلامى مكتمل بالوحى لا بغيره (اليوم أكملت لكم دينكم) .

ونؤكد أن العلم يجب أن يكون خادماً مطيعاً للإيمان[١] ، وليس لنا أن نتحرج من القول بذلك . فقد كان الأمر ولا يزال على هذا النحو فى جميع الحضارات والعصور وإنما يأتى الفرق بين حضارة وأخرى ، وعصر وآخر ، من طبيعة الإيمان الذى تعتنقه الحضارة أو يعتنقه العصر ، وفى الحضارة الإسلامية تسمح العقيدة الإسلامية للعلم بآفاق من النمو لا مزيد عليها فى عقيدة أخرى .

ولسنا نريد فى هذا المبحث أن نتعرض لهذه القضية – قضية العلاقة بين العقيدة الإسلامية والعلم الصحيح – ففى المكتبة الإسلامية اليوم طائفة كبيرة من الكتب

---

(١) انظر الآية ٣ سورة ١٣ .
والآية ٤٣ سورة ١٦ .
والآيات ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥ .
سورة ٤ والآية ١٣ سورة ٤٢ .

(٢) انظر الآية ١٣ سورة ٤٢ .
والآية ٥٣ سورة ٢٣ .
والآية ٤٨ سورة ٥ .
والآية ٨٣ ، ٩٠ سورة ٦ .
والآية ٦ ، ٧ سورة ٩٥ وانظر تفسير محمد عبده لجزء عم إذ قال (الدين ههنا هو خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل وهو ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وسلم وسائر إخوانه من الأنبياء .

وانظر كتاب الدين والوحى والإسلام للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(١) هذا ما نثبته فى مبحثنا الخاص بمشكلة القيم .

والمباحث التى أنصفت الإسلام .

ولكن الذى نريد أن نتعرض له هو دعاوى الإلحاد الذى يحارب الدين باسم العلم ، وهذه الدعاوى تحتاج إلى معالجة مستقلة ، إذ هى تظل قائمة مهما أبدع الكاتبون فى بيان الوفاق بين الإسلام والعلم.

إنه من المسلم به أن العصر الحديث هو عصر ازدهار العلم التجريبى .

وبالرغم من أن لهذا العلم مجاله الخاص الذى لا يتعارض فيه مع الدين — « الإسلام » فإنه لا تزال هناك بعض المواقف الإلحادية التى يبدو فى الظاهر أنها تستند إلى العلم التجريبى .

وفى تقديرى أن هذه المواقف تنبع من سوء الفهم لقضية المنهج العلمى والادعاءات التى تروج له .

لا بد لنا أولا من أن نقرر .

أن القول بأن المنهج العلمى التجريبى من اختراع الحضارة الأوربية الحديثة فى عهد النهضة على يد فرنسيس بيكون قول مبنى على كثير من الغرور والإدعاء والمغالطة . .

إن فرنسيس بيكون عندما دعا إلى المنهج التجريبى كان مستمداً من سلفه الذى ظهر قبله بقرنين (روجر بيكون) ١٢١٤ — ١٢٩٢ .

وكان هذا مستمداً من علماء — الحضارة الإسلامية عندما ما أطلع على تراثهم ، وتتلمذ على أيديهم ، والحضارة الأوربية بصفة عامة متتلمذة فى هذا على الحضارة الإسلامية أثناء احتكاكها بها فى الحروب الصليبية .

كذلك فإن الحضارة الإسلامية كانت مستمدة هذا المنهج من روح الإسلام القرآن والسنة .

إن البحث التجريبى له تاريخ طويل ينشط بنشاط الحضارة ويضمحل بجمودها وتأخرها .

ولم يكن توهم الغربيين أنهم كانوا البادئين بالمنهج التجريبى إلا لأنهم كانوا العاملين على إماتته وإخماده فترة مرورهم فى عصور الظلام ، والعصور الوسطى ، فلما تحركت فيهم عوامل النهضة تنبهوا إلى هذا المنهج وبهروا به وحسبوا أنهم أصحابه ومريدوه ، بينما هم فيه تبع لغيرهم .

ونحن لا ندعى بذلك أن هذا المنهج اليوم كما كان فى بداياته فى عصر اليونان ومن قبلهم فى عصر المصريين القدماء .

لا شك أنه اليوم أكبر وأحمق وأشد سيطرة على العقول والقلوب والسلوك والتطور ، ومجرى الحياة .

كان فى بدايته أكثر التصاقاً بالتفكير العقلى التأملى المجرد لأسباب منها ضعف وسائل المنهج التجريبى ، وآلاته حينذاك .

أما اليوم فهو يبتكر هذه الآلات ويتقدم بها وينمو فى أطوار متلاحقة يتضاعف فيها كل طور عن طور سابق . . . ، ويبدو تراكم النمو فى الأطوار الأخيرة هائلا مدهشاً بينما معدل النمو واحد تقريباً فى البدايات والنهايات ، إذا أسقطنا من الاعتبار — عوامل التأخر الحضارى الأخرى .

* * *

وهنا يمكننا أن نقول :

إن هذا المنهج التجريبى منذ ظهر فى الحضارة الأوربية فى عصر النهضة أعلن استقلاله عن الكنيسة ، دون أن يحسم موقفه من الدين بصفة نهائية حاسمة حتى ظهرت الثورة الفرنسية .

وفى أتون الثورة الفرنسية ظهرت الفلسفة الوضعية على يد الفيلسوف — الفرنسى أوجست كونت (ت ١٨٧٥م) التى أعلنت أن الدين طور متخلف من أطوار الفكر البشرى وكذلك الميتافيزيقا ، وأن العلم هو الذى سوف يحل محلهما بحكم قانون التطور.

وهذه النظرة تنبع من طبيعة استقلالية المنهج التجريبى ووحدانيته ، لا من مجرد احتواء الديانة المسيحية على مواقف معادية للبحث العلمى .

وتكاثرت بعد ذلك أو حول ذلك المذاهب المادية التى ترتدى مسوح العلم منكرة للدين مدعية أنها تستغنى عنه بالعلم .

وانتهت الصلة بين الدين والعلم فى القرن التاسع عشر إلى ثنائية حاسمة فكلاهما مطلق على طريقته ، ومتميز عن الآخر من كل وجه تميز الذكاء والعاطفة ، أو العقل والقلب .

واستناداً إلى هذا الاستقلال لاح إمكان وجودهما معاً فى ضمير واحد ، بحيث يقومان جنباً إلى جنب — كأنهما ذرتان ماديتان صامدتان متجاورتان قد تفاهما — ضمنا أو صراحة — على أن يتفادى احدهما بحث مبادئ الآخر .

وكما يقول أميل بوترو : حلت بذلك مشكلة الصلة بين العلم والدين بكل سهولة فى عالم التصورات . .

ولكن لم يكن الأمر كذلك فى عالم الواقع .

إذ أين نجد فى الإنسان الحد الفاصل بين القلب والعقل ؟ وفى الطبيعة الحد الفاصل بين الأجسام والأرواح .

كان هذا هو السبب فى أن الدين

وجد نفسه محصوراً فى محراب الضمير ، بل فى نطاق ضيق منه ، فاضطر إلى العمل على استرجاع مكانه السابق .

ومن جهة أخرى أعلن العلم — وقد اكتسب باستقلاله قوة ونجاحاً واهتماماً متزايداً .. أن عالم الحقائق بأسره وبجميع أجزائه أصبح مفتوحاً لبحوثه .

ومنذ ذلك الحين ، أصبح الصراع الذى استبعد — بلباقة — نظرياً ، لا يمكن تجنبه عملياً .

هذا الشعور بالمواجهة بين العلم والدين ظهر بوجه عام فى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر . . [1]

ومن هنا فإنه **إذا كان البعض يعتقد أن قضية الإلحاد باسم العلم تتداعى بمجرد إظهار حدود العلم** وأنها أى هذه الحدود — تقف به دون التدخل فى قضايا الدين سلباً أو إيجاباً . .

فالحقيقة أن القضية لا تنحسم عند هذا الحد . وأن دعوى استقلال العلم عن الدين تفتح الباب بين حين وآخر لتأييد دعاوى الإلحاد ، وتساعد فى التشويش على قضية الدين .

والسبب فى ذلك كما يوضحه أميل بوترو :

(أن العلم أصبح يكفى نفسه فى نموه وتطوره وأن أول سمة للروح العلمية الآن هى عدم التسليم بأى مبدأ للبحث وأى مصدر للمعرفة سوى التجربة .

فالعلم يوضع فى نظر العالم كأنه أمر أولى مطلق ومن العبث أن يطلب منه اتفاقه مع أى شىء آخر ، إذ صحت مشيئته على أن يتفق مع الوقائع وحدها .

فإذا شئنا الاستماع لكلمة العلم ، فلا غنى لنا عن قبول وجهة النظر التى يتخذها . ويقول أيضاً :

(إن الروح العلمية الراهنة لا ريب أنها لم تعد دجماطبقية بالمعنى الذى تخلعه الفلسفة النظرية على هذا اللفظ ..

ولكنها تضع لنفسها ضرباً من الدجماطيقية النسبية القائمة على التجربة ، وهى تعتقد فى قدرتها على الانتشار غير المحدود ، وفى قيمتها المتزايدة إلى ما لا نهاية[1] .

ويتحدث أميل بوترو عن المخاطر التى تهدد الدين اذا اقتصر على محاولة الإفادة من تواضع العلم واعترافه بحدوده...

يقول (لاشك أن العلماء لايخاطرون الآن — كما كان الحال من قبل بإعلان نتائج مطلقة لا تتناسب مع وسائل معرفتنا ، ويصرحون بأن كل علم نسبى ... إلخ ..

---

(١) والمراد بالدوجماطيقية اليقين القطعى .

لكن يجدر بنا أن نعرف أن هذه العبارة لا تدل — فى مفهوم العلم التجريبى على أن خارج الميدان الذى يتحرك فيه العلم يوجد ميدان آخر هو ميدان المطلق يباح لأنظمة أخرى أن تعيش فيه .

ولكنه — بالعكس — يعمل على أن يمنع العقل البشرى من ارتياد أى ميدان ليس فى متناول العلم . لأنه إذا كان ثمة شىء لا يمكن أن يعرفه العلم فهذا الشىء من باب أولى لا يمكن أن يعرفه أى نظام آخر « هكذا » . .

والعلم بحسب إحساسه بالكفاية التى يختص بها وحده فإنه حين يقول : إنى أعلم ، فمعنى ذلك أن الشىء موجود بالنسبة للعقل البشرى . وحيث يقول العلم .

ولا أعلم ، فهذا يعنى أن أحداً لن يدعى المعرفة .

ليس من الواضح إذن بأى حال أن العلم الحديث على الرغم من زى التواضع قد يكون أكثر ملاءمة من العلم الدجماطيقى بالنسبة للدين . فالدين من وجهة نظر العلم ليس إلا مجموعة تصورات تعسفية . . .

ولا يكفى أن نتعلل بأن ما نتمسك به مما يتجاوز حدود العلم يمكن أن يأخذ مكانته باعتباره « اعتقاداً » لأن **« الاعتقاد » من وجهة النظر العلمية ليس له قيمة إلا إذا كان قائماً على ملاحظ الوقائع وموجهاً فى طريق العلم .**

والدين وقد اقتصر على ميدان الاعتقاد الذى يلوح له أن العلم قد هجره لا يمكنه حتى فى داخل هذه الحدود أن يضمن استقلاله وأمنه ، لأن كل تقدم من جانب العلم يهدده » .

ويخطىء من يظن من جانب آخر أن الدين — فى عصر العلم — يسترجع مكانته الأصلية ، بتلقى فئات العلم الذى لا يقر العلم بمشروعية استفادة الدين به ، وإن اتفق مع حقائقه .

يقول أميل بوترو :

(والدين — أو الفكر الدينى — يثير بحماسته من أجل التلاؤم والتوافق مع العلم — يثير موازنة بينه وبين العلم تسىء إليه ، لأنه يقابل بين سير العلم الوطيد وبين شكوكه ومخاوفه ، ويلوح على الفكر الدينى — فى هذه الحالة — أنه لا يعيش إلا كاسم رنان كان يستند فى القديم إلى شىء عظيم ، ولم يعد اليوم

إلا ذكرى خالصة لا يزال المخلصون يحتالون بتقواهم وخيالهم على صبغها بألوان من الحقيقة . . .) .

إن تصديق العلم لبعض حقائق الدين إنما يقع اتفاقاً ، وهو لا قيمة له فى نظر العلم لأنه كما يقول أرنست هيكل ١٨٤٠ – ١٩١٩ (الأديان تقوم على الوحى » **والعلم لا يعرف إلا التجربة ، ولا قيمة فى نظره لأى فكرة إذا لم تكن تعبيراً مباشراً عن وقائع ، أو نتيجة لاستنباط محدود قائم على القوانين الطبيعية ...)** .

• • •

ولما كان الإلحاد المعاصر فى شتى مذاهبه يرتدى مسوح العلم . .

فإن المذاهب التى تتصدى لفصم عراها بالعلم التجريبى تتفق غالباً فى نظرتها إلى المادة باعتبار أنها أصل الوجود .

وهروب بعض هذه المذاهب من التسمى باسم المادية منشؤه كما يقول الأستاذ جون سومرفيل :

(أن مجرد تسمية إحدى الفلسفات لنفسها « بالمادية » يعتبر عادة فى نطاق حدودنا الثقافية أمراً يدعونا إلى النفور منها ، وقفل الأبواب دونها ، وأن كلمة « مادية » تستخدم فى العادة فى سياق الاتهام لامن أجل التصنيف فقط) ثم يقول (لهذا فهم يميلون إلى إطلاق اسم « التجريبية » و « الطبيعية » و « الإنسانية » و « الواقعية » وما شابه ذلك على فلسفات كان من الأدق أن تسمى « مادية ») .

والماركسية لم تختص باسم الفلسفة المادية المعاصرة إلا لأن (المفكرين السوفيت يحذون حذو ماركس وإنجلز فى مقت أى تحايل لتفادى استخدام كلمة « مادية » فأطلقوا عليها بجرأة كلمة « المادة ») .

ومن هنا أيضاً يمكننا أن نقول إن بحثنا هذا يرد على أسس الاتجاهات المادية فى المذاهب المختلفة ولا ينصرف إلى بعض هذه الفلسفات دون بعض وإنما يشملها جميعاً طالما أن تناولنا هو للثالوث المشترك بينها :

وهو الاستناد إلى العلم أولا .

وإنكار الدين ثانياً .

والإيمان بالمادة ثالثاً .

• • •

هذا هو الثالوث غير المقدس للإلحاد المعاصر .

وغاية هذا البحث هو أن يفضح الصراع الدفين الدائر بين أركان هذا الثالوث، ذلك أن العلم الحديث أصبح لا يقر المادية المتخلفة « مادية هو لباخ » المغلقة . . .

فإذا تصالح العلم مع المادية على صعيد المفهوم الغيبى للمادة الذى تقدمه لنا الفيزيقا الحديثة ، كان لا مفر من إلغاء الركن الثانى من هذا الثالوث « إنكار الدين » . . فإذا تصالحت المادة التى تقدمها الفيزيقا الحديثة مع الدين كان لابد من إلغاء الركن الأول من هذا الثالوث « العلم » كمبدأ يرى أن المعرفة لا يمكن أن تأتى من غير بابه . . .

وعلى هذا النحو يستمر الصراع وينهار الثالوث وتنفضح مهانته ويصبح واضحاً لدينا أنه لابد من إعادة تكييف العلاقة بين العلم والدين ، وأنها — كما سيتبين لنا — لا تستقيم إلا إذا قامت على أساس تبعية العلم للدين ونعنى به الإسلام .

دكتور / يحيى هاشم

ما يصفو به الود

قال على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — : لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه فى ثلاث : فى نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

وقال أبو العتاهية :

أحب من الإخوان كل مُواتى وكل غضيض الطرف من عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده ويحفظنى حياً وبعد مماتى
ومن لى بهذا ليت أنى وجدته فقاسمته مالى من الحسنات

نظرة إسلامية إلى المال ووظيفته

الدكتور رءوف شلبى

١ ـ حوادث الحياة تشرح آيات القرآن:

تضغط حوادث الحياة على حركة العقل المفكر . . . ليدرك فى أعقابها المتلاحقة معنى مؤكداً هو . .

● أن الحياة بكل ما فيها من متع سامقة فى رقى الحضارة المادية تافهة ...

● وأن هذه التفاهة التى يدركها العقل أخيراً قد وضحها القرآن الكريم للبصيرة المستعدة للإيمان قبل البصر المناقش للقضايا .

وينتهى العقل : إلى أن الحياة بأحداثها ، إنما تفسر محكم آيات القرآن الكريم التى قضت فى حكم نهائى أنه لا يمكن لواحدة من الأحداث أن تمر فى نهرها دون أن تفسر هذا المعنى :

مادية الحياة تافهة وأن الآخرة هى دار الحيوان ، وهى خير وأبقى . .

ويستقر فى فكر العلماء بعد هذا أن إعجاز القرآن له منطق ذاتى هو : أن الحركة البشرية فى جلابيب إيمانها أو إلحادها ، وزحمة أفكارها ، وحمأة وطيسها ، إنما تجرى على نظام مألوف لدى فقه الآيات الصادقة بذاتها فى كتاب الله القرآن الكريم .

ومن هذه القضايا التى انتهى النشاط البشرى الطويل فيها إلى حقيقة ما حكم به الإسلام .

قضية المال :

فقد فشل فلاسفة الاقتصاد جميعاً فى إبراز تخطيط عادل لعملية التوزيع الاقتصادى وشهدت الحياة صخب المناقشات بين موائد فلسفة التوزيع الشيوعى والتوزيع الرأسمالى ولم يجد كلاهما مسعفاً له يحمى مخططاته إلا رهبة الحديد ووهج النار ، وأخرج التعصب حدود التفكير فى كل من المعسكرين عن الوضع الطبيعى لمعنى الكرامة الإنسانية .

ونشأت مشكلات فى كل من

المذهبين : الشيوعى ، والرأسمالى ، لا علاقة لها أصلا بفكرة المال أو الاقتصاد ، ولكنها أقحمت وسارت كنتيجة شبه طبيعية لدافع التعصب الردىء فى عمهه فكان الإلحاد قرين المبدأ الشيوعى ، كرد فعل لما لاقاه الكادحون فى ظل القيصرية الروسية القديمة من السطو الكنسى الذى سخر عرق الشعب ظلماً لترفيه البلاط القيصرى.

وفى المذهب الرأسمالى ، ولدت العنصرية ، والأنانية الفردية ، واستغل قانون العرض والطلب فى خلق طبقات متناحرة على المادة فى قرصنة تجارية جائعة ، حتى خرج الإنسان عن حدود الإنسانية وأنزل نفسه من درجات السمو فى علاقاته البشرية إلى أحط ما تكون العلاقات بين عوالم الحيوان الأعجم الذى لم يشهد التاريخ أن واحداً من أجناسه قامت بينها عداوات أو أحقاد كالتى يشهدها دائماً بين طوائف البشر من أجل المادة والمال .

وكان مرد هذا الفشل أن فلاسفة الاقتصاد لم ينتبهوا إلى أن مسألة التوزيع عملية خاصة بالتنظيم الإلهى للسلوك الإنسانى . فكانت حصيلة الثقافة الاقتصادية بمذاهبها المتعددة ، وكانت الزحمة الحديدية التى خلقت لتحمى المخططات الفلسفية للتوزيع المتجافية مع الطبع الإنسانى ، كانت هذه العمليات كلها تفسيرات لمحكم آيات القرآن الكريم :

١ – (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ٣٠ – الإسراء

٢ – (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) . ٣٢ – الزخرف

٣ – (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) . ٢٧ – الشورى

٤ – (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها . ٦ – هود

فيرد القرآن الكريم عملية التوزيع الاقتصادى إلى الله وحده ، وهذا هو سر فشل الأبحاث الاقتصادية كلها فى نظرية التوزيع .

ويعلل القرآن الكريم رد عملية التوزيع الاقتصادى إلى الله وحده بعلتين :

الأولى :

إن الله وحده هو المتكفل بأرزاق العباد وهو المسخر للأسباب النفسية والمادية للكسب والعمل (وهذا القانون لم يتوصل إليه بعد علماء الاقتصاد) .

الثانية :

إن الله لو بسط الرزق لعباده لأفسدوا فى الأرض (وهذه العلة توصل إليها أخيراً جداً فلاسفة الاقتصاد فى القرن التاسع عشر الذين ذهبوا إلى أن الكم يؤثر فى الكيف وهو المعبر عنه بلغة القرآن « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

٢ ــ الكم والكيف ووظيفة المال :

ويمضى القرآن الكريم بعد هذا يصور الانفعالات النفسية والسلوك البشرى المنتظر تجاه ملكية المال وعدمها فتتلو الآيات :

١ ــ (يحسب أن ماله أخلده) .
٣ ــ الهمزة

٢ ــ (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) . ١٥ ، ١٦ ــ الفجر

٣ ــ (وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما) ١٩ ، ٢٠ الفجر

٤ ــ (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) . ٣٤ ، ٣٥ ــ سبأ

ومع عملية الكشف عن نزعات النفس التى تتأثر بالمال كثرة وقلة وتفسر السلوك المترقب نتيجة لذلك ، فإن القرآن الكريم يحدد وظيفة المال ، ويبين ملكيته الأصيلة فيقول :

١ ــ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا . (٤٦ ــ الكهف)

٢ ــ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . (٧ ــ الحديد)

٣ ــ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم (٣٣ ــ النور)

٤ ــ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل ــ واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى . (٥ ــ ١٠ الليل)

فيجعل القرآن وظيفة المال ثانوية فى الحياة ، فهو فقط وسيلة لتعمير الأرض لإقامة العدل الطبيعى من أجل حياة أفضل سرمدية فى المستقبل عند الله.

ويرجع الملكية كلها إلى الله وحده ، ويحدد مقدار تسلط يد البشر على المال

بمقدار ما يكون للوكيل من يد فى مال موكله .

وتفسر السنة الإسلامية هذه النصوص الرئيسية فتقول :

« إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه عن طيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكأنه كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » .

٣ ــ العدل الاجتماعى وسياسة الإنفاق :

ومع هذه القواعد التى تحدد قيمة النظرة إلى المال ، فإن القرآن الكريم يحفل :

١ ــ بقواعد التوزيع الإلهى التى تحترم القدرات الخاصة فى البشر وتساند ذكاءه فى عملية الإنتاج وتخلق منه طاقة هائلة تحترم مبدأ الكفاية والعدل لتحقيق التكافل الاجتماعى .

٢ ــ كما يحفل بسياسة الإنفاق الفردى ــ فى ظل فكرة ثانوية المال حتى لا يتكالب الناس على جمعه فيعطلون وظيفته الطبيعية ويسيئون استعماله

(ا) فسن خطوطاً رئيسية للرعاية الاجتماعية تحقق العدل المعيشى للمتخلفين ، كما تسد خللا طارئة لبعض الأثرياء كإسعاف لحالاتهم التى ولدتها ظروف خاصة ، وبذلك يصون ــ القرآن الكريم فى المجال التطبيقى ــ وحدة الأمة النفسية ، ويقرب بين طوائفها الذين خلقوا على تباين فى الذكاء ، والقدرات والمهارات ، والاستعدادات ... إلخ .

فيبرأ المجتمع من الطبقة المادية التى تخلخل أركانه وتزئم نفسيته . يقول الله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .
(٦٠ ــ التوبة)

وإلى جوار هذه الضريبة الأساسية ، يوصى القرآن الكريم كل مسلم بأصحابه فى كل اتجاه مع وصيته بضعفاء السابلة وجميع المحاويج ، فيما تتلوه سورة النساء :

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً) .
(٣٦ ــ النساء)

وتجعل آيات سورة آل عمران البذل والإنفاق من كمال صفات المؤمنين :

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) .
(١٣٣ — ١٣٤ آل عمران)

كما تشترك فى هذا التفسير آية سورة الأنفال :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) (٢ — ٣ الأنفال)

وهذا المنهج الواضح لا يحتاج إلى تخطيط أو تنسيق بأكثر من احاجته إلى قيادات تتفهم سبيل تطبيقه ، وتهرع إلى تحقيق العدل والكفاية على نظام طبيعى تألفه الفطرة وتحميه العقول ، وتسرع به الأيدى مع العواطف إلى درجة أسمى من الكرم وأكبر من المشاركة والمعاونة ، درجة الإيثار وبذل التضحية .

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . (٩ — الحشر)

(ب) وتتسق مع الفكرتين السالفتين :

١ — فكرة نظرة الإعلام إلى المال .

٢ — وفكرة التوزيع للرعاية الاجتماعية وتحقيق الكفاية والعدل .

تتسق مع هاتين الفكرتين (فكرة الإنفاق) فيوصى القرآن الكريم بنى البشر فى قواعد عامة ترتبط بالسلوك الدينى المفوض إثابته إلى الله تعالى وحده فيقول :

١ — (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) . (٢٩ — الإسراء)

٢ — (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) .
(٢٦ — الإسراء)

ويضع القرآن الكريم هذا التحذير داخل إطار لصورة تقشعر منها نفسية المؤمن الصادق فيقول — تكملة للآية :

(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا) .
(٢٧ — الإسراء)

وفى لحظات الإيقاظ العفيف للعواطف يخاطب الله عباده فى مجال تحديد صفات عباد الرحمن فيقول :

(. . . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا

ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما) . (٦٧ — الفرقان)

وتوضح السنة الإسلامية المطهرة فقه هذه الأسس فى قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن يأكل فى معا واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » . (رواه البخارى)

وملخص الحديث فى الجو الاقتصادى — أن المؤمن يتناول من متع الحياة الحلال بقدر التوسط الذى لا يخرجه عن الاعتدال الطبيعى إلى الشراهة فى الإنفاق بالإسراف أو إلى شح فى الجمع بالتقتير .

فهو يتناول من المال بالقدر الوظيفى له ، والذى يجعله عبداً تقياً :

١ — يبر بالوالدين .

٢ — ويحض على طعام المسكين ورعاية اليتيم .

٣ — ويرعى بحساسية اجتماعية جميع المحاويج .

٤ — ويسعف ذا النكبة والجار والملهوف :

٥ — ويجهز جيش الإسلام ويكثر صفوف المسلمين .

٦ — ويقى نفسه شر الفاقة والعوز .

وهذا كله فى ثوب الإيمان بالله الذى يقوى رباط التماسك الاجتماعى ، ويصفى هموم القلب من الأحقاد التى يجيشها فى الصدر العوز والحاجة ، ويمكن عناصر الوحدة فى كنف الأخوة الحانية من الدوام ، فإن جوع الفرد وسط الجماعة يدفعه الشعور به إلى السطو أو الانفصال عن الجماعة فى الفكر والذوق والشعور . . . إلخ .

وحول هذه المعانى يمكن أن يفهم ذلك — أدبا — من قول الله تعالى : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» (٧ — الحشر)

وتكون النتيجة الحتمية الطبيعية لهذه التشريعات :

١ — عدالة فى التوزيع تحترم الظروف النفسية والأحداث الزمنية .

٢ — رعـــاية متكاملة الجـــوانب للمحتاجين .

٣ — هدوء النفس من الفقراء واطمئنان على مستقبلهم المعيشى .

٤ — سماحة ورضا وإسهام من جانب الأثرياء .

٥ — وحدة متماسكة للأمة فى المشاعر والفكر ، والعمل والإنتاج ... إلخ . الفرد فيها وحده أمة .

والأمة فيها معقل نضال، وقلعة أمن، للخير والسلام .

٤ ــ القرآن وضع الحد الطبيعى لقضية المال . . . ولكن :

وبهذه الخطوط :

١ــ النظرة إلى المال على أنه ثانوى فى الحياة .

٢ ــ وتحليل السلوك البشرى نتيجة الشعور بالغنى أو الفقر .

٣ ــ وتوزيع يحقق العدل والتكافل .

٤ ــ وتنظيم لحياة الفرد الاقتصادية على نظام التوسط والاعتدال .

بهذه الخطوط القليلة فى الكم الكتابى انتهى القرآن الكريم من مشكلات (قضية المال) ، وانتهى منها فى سرعة تتلاءم مع الفطرة الحقيقية للمال دون احتفال به على وجه أو نظام فسيح قد يبرز أهميته أكثر من وظيفته الثانوية ، ولكن فلاسفة الاقتصاد أنفسهم قد أتعبوا تفكيرهم كثيراً فى تحديد تخطيط ولو شبه عادل لعملية التوزيع والإنفاق، حتى ألجأهم إلى حماية آرائهم بالحديد والنار، فقد نسوا :

١ ــ أن مسألة التوزيع مردها إلى الله تعالى وحده .

٢ ــ وأن المال تافه فى ذاته ، فإنه قد يذهب من أجل متعة رخيصة أو يرجى أن يدفع كله لدفع مصيبة .

وإذا كانت عظمة الشىء فيما ينتجه فإن المال لا ينتج إلا شيئاً رديئا ، فهو حقير تافه، حقارة نتيجته وتفاهتها ...!

إن المال ليس بذى قدسية ذاتية ، لأنه وسيلة ، وإذا أخذت الوسيلة قدسية الغاية فقد ضل الناس الطريق .

وصدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » (رواه البخارى)

وصدق الله العلى العظيم (المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) . (٤٦ ــ الكهف)

(ما عندكم ينفد وما عند الله باق)
(٩٦ ــ النحل)

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

دكتور / رؤوف شلبى

التدين غريزة فى طبع الإنسان

الدكتور محمد عبيد عابدين

إن ارتباط الفكر الإنسانى بالعقيدة قديم قدم الحياة ، وغريزة من غرائز النفس البشرية .

فالإنسان مشوق بفطرته إلى اعتناق عقيدة يدين بها ويحتذى هديها ويسير فى ركابها . ومبعث هذا التأثر الطبيعى فى الإنسان هو ما يراه من تلك الظواهر الطبيعية فى الحياة وما هى عليه من إبداع وإتقان ونظام أبهر العقول وأدهش النفوس بما فيه من جميل الصنعة وقوة الإبداع وحسن النظام ، فالأرض منبسطة ممهدة تعج بالذهاب والإياب وتجود بالقوت أنى طلبه الإنسان والمعادن فى باطنها قد مكنته بتوافرها وكثرة عناصرها من إيجاد ما يحتاجه من الآلات ، والأنهار متدفقة لا ينضب معينها ولا ينقطع عطاؤها .

(وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون) .

وهى كذلك منذ ملايين السنين كى تمنح الكائن الحى الدفء والرحمة والطعام والحياة (وجعلنا من الماء كل شىء حى) والليل لا يفتأ يطرق الكون لا يختلف عن ميعاده ، حتى إذا اشتدت ظلمته وأليل صدعه نور الفجر ليمزق تلك الأستار الحالكة ، ويسلم الكون إلى ضوء النهار الذى ينشر الحركة والتجديد والنشاط — (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) .

والنجوم تتعاون مع القمر فى هداية الضالين السائرين بالليل : (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) والشمس لا تضن بأشعتها على الحياة ولا تبخل بها يوماً أو يومين أو أياماً بل نعماؤها دائماً مسبغة وآلاؤها دائماً مغدقة .

وأعجب من ذلك أن الإنسان — ويكاد يكون أضعف حيوانات الأرض — قد تمكن من تسخير ما حوله من الظواهر الطبيعية بتحقيق أغراضه ومآربه التى لا تفتأ يتطلع منها إلى ما بعد : حتى إلى ما وراء الكون . .

وهذه الوحوش الضارية يستطيع أن يسجنها وأن ينال منها ، وهذه الأجسام الضخمة التى كالإبل والبقر يستطيع أن يستعملها ويستفيد من كل جزء من جسمها وهى له طيعة لينة . بل ما هذا الصنع العجيب وهذا الإبداع العظيم فى جسمه هو ، رجلان تحمله وإلى أى غرض توصله ، وقد صممت على أحـــدث نظام يمكنهـــا من السير والصعود والهبوط ناهيك بما هو داخل تجويف البطن من آلات وعصارات وأجهزة عجيبة نائية عن قدرة الإنسان مهما سما فكره أو اشرأب إلى الاختراع بصره وبصيرته فلا يستطيع ولن يستطيع أن يخترع بديلا لجلده أو شحمه أو لحمه .

لقد حاولوا إحداث آلة تقوم بدورة الدم فى الجسم عند توقف القلب فكانت فى حجم كبير يثقل كاهل حامله ولا تعمل إلا بقوة دافعة لها « الكهرباء » أو « الذرة » أو « الطاقة » فأين هذه من قطعة لحم لا تزيد على قبضة اليد تقوم بهذا العمل بلا توقف ولا ملل ، ولا تحتاج إلى تجديد : ألا وهى القلب الذى أودع الله به من غريب الصنع وحسن الإبداع وقوة التركيب بما فيه من عروق وحجرات :

(صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون) .

وهذه اليد التى تبدو فى عين رائيها لأول وهلة أنها قطعة من اللحم والعظم سهلة لكنها مع سهولتها ويسرها استطاعت بما وراءها من القوة المحركة لها أن تصنع ما أذهل العقول وحير الأفكار وأحال الحياة من طور إلى طور ، فالحديد فى قبضتها كالعجينة اللينة صنعت منه القطار ، السيارة ، الطائرة بل وسفن الفضاء ، وحينما يريد الإنسان آلة لتشكيل حديدة معينة ذات وضع معين لم تستطع تلك الآلة بعد أن تقوم بعمل آخر غير الذى صنعت من أجله (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

إلا أن دلائل تلك القوة التى وراء هذه المظاهر والتى تؤثر فى تغيرها من ولادة إلى ولادة ومن غصن إلى شجرة ومن بيضة إلى طائر ، ومن منبع إلى مصب ، ومن نهار إلى ليل ، الكل

فان ويتجدد والقوة التى وراءها لا تمل ولا تكل . تسير فى فلكها الدائب ونظامها المحكم وجمالها البديع .

ولقد دفع ذلك بعض المفكرين من العلماء أن يقولوا بوجوب الإيمان على الإنسان مهدياً بتلك الظواهر التى تدل بلا شك على وجود موجدها وأن فلاسفة الإغريق وهم الذين شهد لهم الدانى والقاصى بجادة العقل والذكاء وقوة الفطنة والتفكير نراهم — وهم لا يدينون بدين — يفكرون ويعملون الفكر بإمعان وروية فيما وراء هذا الإبداع ، فيعترفون أن هناك قوة محركة لهذا الكون وإن كانوا لا يسمونها إله ، وعلى رأس هؤلاء أفلاطون الإغريقى وتلميذه أرسطو وبعض المفكرين يعزوا هذه الحياة وما فيها من رقى وتقدم ووجود وحركة وتجدد إلى قوة وراء الكون يسمونها العقول العشرة .

العقل الأول :

وله ثلاث جهات : جهة وجوب ، وجهة وجود، وجهة إمكان ، وبالجهة الأخيرة أوجد العقل الثانى الذى له أيضاً تلك الجهات الثلاث وبجهة الإمكان أوجد الثالث .. وهكذا .. حتى العقل العاشر وهو المدبر لهذه الحياة والمحرك لشئون هذا الكون .

ولا أدرى لماذا هذا التسلسل ولم لم يقم العقل الأول بالتدبير . .

بين الأديان السماوية والعقول المتحجرة :

ولكن الناس لم يستطيعوا مع تعنتهم وجحودهم لدعوة السماء أن يكفوا عن التفكير فيما وراء هذا الكون ، ومن الذى أوجده ويغيره وينظم ليله ونهاره ويوجد فى أرضه وبحره مئات الآلاف من الأجناس المختلفة والأحجام والأشكال المتباينة ؟ ما هذا ؟ لابد لذلك كله من صانع ، من موجد ، من محرك . فبعض الناس ضلت عقولهم فتوهموا تلك القوة أو تمثلوها فى شخص رجل صالح فنحتوا له صنماً وعبدوه، أو تمثلوها فى ملك أو طائر فشكلوا له صنماً أو وثناً وقدسوه ، وبعض الناس ترسم تلك القوة فى النار أو الشمس أو بعض الحيوانات كالعجول واتخذوا من تلك المعتقدات الضالة التى تنأى عن الرشاد ديدنا لهم وهدفاً لمعتقداتهم فضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم ، ومن هؤلاء « زرادشت » وغيره من أصحاب المذاهب والعقائد الوثنية التى لا تستمد عقيدتها إلا من وحى هواها وأغراضها الفاسدة .

فلذلك كانت العقائد غير السماوية لها نزعات وشطحات تأباها العقول

السليمة وتمجها الأنفس العالية .

وفى الهند كثير من تلك العقائد والنحل . .

دخل ذات يوم بعض المشركين وهو أبىّ بن خلف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك بعظمة قد رمت وبليت من طول ما لبثت ، ففتتها بيديه أمام النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد أترى أن ربك يحي هذه بعد رميمها ؟ . .

فقال عليه السلام : « نعم ، ويبعثك ويدخلك النار » ، وفى ذلك نزل قول الله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

وإن بعض الناس ذهب إلى أبعد من ذلك وادعى أن الطبيعة هى التى أوجدت الكون ، وأنكر وجود الإله مطلقاً ، ومن العجيب أن من بينهم الفلاسفة والمخترعين ، ويعتقدون أنهم يسيرون دفة الأمور فى الدنيا وحينما صعد جاجارين بسفينته إلى الفضاء مخترقاً الغلاف الجوى دائراً حول الكوكب الأرضى ظنوا أنهم قد قبضوا بأيديهم على ملكوت السماوات والأرض وأنهم آلهة هذا الوجود ، وسخروا من وجود المعبود ، وقال كبيرهم لقد طلبنا من جاجارين أن يحضر لنا معه شيئاً من المن والسلوى فلم يجد ، وهم يريدون بذلك إلزام الحجة لذوى العقائد السماوية بسفينة الفضاء التى لم تخرج عن فلك الأرض ، وحتى لو خرجت فإلى مجموعة الشمس التى نعيش فى كنفها ونحيا بإشعاعها وفى الكون آلاف الشموس وهم لا شك إلى الوصول إليها عاجزون ولو وصلوا فليروا آيات الله وقوة قدرته وحسن إبداعه (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

لقد عميت بحق بصائر هؤلاء الضالين الذين يشيحون بوجوههم عن الهدى المبين ويعرضون بسموم أفكارهم عن النور واليقين ، إنهم يعيشون فى الأرض وتعيش معهم حيواناتهم التى يعتمدون عليها فى أعمالهم وأقواتهم وكذلك تحيا معهم كثير من الكائنات ، وها هى الطيور التى تسبح فى الفضاء والخلائق التى تحيا بين طبقات الماء كل ينطق بقدرة مقتدرة وحكمة بالغة وقوة عالية محركة . لقد وضعوا أرجلهم على القمر بإرادة الله ليروا نعمة الله عليهم فى الأرض ، لقد وجدوا القمر خالياً من كل أسباب الحياة وعناصرها ، وأنه

كوكب لا يصلح مطلقاً للبقاء فيه أو التواجد على سطحه لأنه خال تماماً من الهواء أو على الأقل من عنصر الأكسجين الذى هو أهم عنصر فى الهواء ولولا ما يحملونه معهم من الأكسجين والماء والطعام لهلكوا .

ومناخ القمر كما أخبرونا إما بارد إلى حد القتل ، وإما ساخن إلى حد الغليان ، ولولا الملابس التى يرتدونها المزودة بأحدث الأجهزة العلمية التى تدرأ عنهم هذا الانعكاس الجوى الذى لا تألفه ولا تحيا فيه المخلوقات لكان مصيرهم الهلاك والدمار ، ذلك ليعلموا أن وجود الحياة فى الأرض ليس عبثاً إنما هو إعداد حكيم خبير هيأها وبسطها وأوجد من الحياة ما يتلاءم وبقاء الإنسان وغيره من سائر الحيوان : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) ، (والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا) ، (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) .

قيل إن بعض الطبيعيين الذين لا يؤمنون بوجود الإله اشتد ضلالهم وكبر فى نفوسهم فدخلوا على أحد الخلفاء العباسيين يحاجونه فى وجود الخالق العظيم واهب الحياة لجميع العالمين فدعى لمناظراتهم بعض أئمة المسلمين وحدد لتلك المناظرة العظمى ميعاداً معلوماً ، فلما حان الوقت وحل الأجل لم يحضر الفقيه المسلم فسخر الطبيعيون من الخليفة حتى أوغروا صدره على الإمام وكاد يشتد غضبه عليه ، وبعد ساعة أو ساعتين حضر الفقيه العظيم فاستقبله بغضب ووجوم شديد ، واستقبله الطرف الآخر من المناظرين بالسخرية والضحك واتهموه بالهروب والعجز ، ولكن الإمام العظيم وقف ثابتاً واثقاً من صلابته وقوة حجته وناضج برهانه فقال فى هدوء : « مهلا ياســادة إننى أسكن فى البر الثانى من المدينة ووقفت أنتظر سفينة تنقلنى إلى هذا البر فلم أجد ، وفجأة وجدت ألواحا تجرى على الماء ودسرا «مسامير» تجرى حولها حتى حضرت عندى فقامت الألواح مع الدسر بالتشابك والالتئام حتى تكونت منها بصورة تلقائية سفينة كاملة فركبتها وجئت إلى هذا البر .

ولكن المناظرين الطبيعيين علا ضحكهم واشتدت قهقهتهم ساخرين من هذا

النبأ وقالوا : أرأيت يا أمير المؤمنين ما ينبئنا به صاحبك ؟

فقال الإمام العظيم كيف تستبعدون صنع سفينة بلا صانع ولا تستبعدون وجود الكون بلا خالق ؟ .. فأرتج عليهم وسقط فى أيديهم ورأوا أنهم ضلوا فألجمت ألسنتهم وغاب الجواب عن عقولهم لأنه لا جواب ، بل هو فصل الخطاب والإلزام والبرهان والحجة ، وقاموا من مناظرتهم مهزومين . فأجزل الخليفة العطاء للإمام الفقيه . .

وروى أن بعض فقهاء المسلمين وأئمتهم قد ألف كتاباً يزيد على ألف صفحة يسرد فيه مئات الأدلة على وجود الله واحتفل الناس بالعالم الجليل لإتمامه هذا العمل العظيم ، ورأت بعض المتصوفات من المؤمنات هذا الاحتفال الكبير فسألت ما هذا ؟ فأخبروها به فقالت إلىّ بالإمام فأقبل عليها فقالت ما هذا يا أخى لقد أتعبت نفسك بلا داعى كمن يحاول إثبات الشمس فى وضح النهار بلا غيوم ، ثم قالت : البعرة تدل على البعير والخطوة تدل على المسير فليل داجى ونهار ساج وسماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير فعند ذلك بكى الإمام وأمر بتمزيق للكتاب .

فضل الله تعالى على الإنسان بإرسال الرسل :

إن الله الذى خلق الإنسان ومنحه العقل وعلمه البيان وهو بتفكيره خبير وبميوله ورغباته بصير ، يعلم أن له فى الأرض عدواً مبينا يحيك له دائماً شباك الفتنة والوقيعة حيث يجره إلى مهاوى الرذيلة والضلال ، هذا هو الشيطان الرجيم الذى أخرج أبويه من الجنة وأقسم من قبل لأغوينهم أجمعين .

فلذا اقتضت حكمة الله ورحمته بعباده أن يحول بينهم وبين عدوهم ويدفع عنهم ما يلحقهم منه من ضرر فتعهدهم منذ أبيهم آدم بإرسال الرسل مصلحين ومرشدين منذرين ومبشرين يبصرونهم بعاقبة أمرهم وضراوة عدوهم ومآل أعمالهم وأنزل معهم الكتب والصحف مليئة بالعظة والاعتبار محفوفة بالرحمة والمعرفة والتبشير أو الإنذار لتكون دستوراً به يهتدون وصراطاً بهديه يسيرون.

ومن رحمة الله بالإنسان أنه أرسل كل رسول بلسان قومه ليبين لهم . . . (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم) . .

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . فاستجابت لهم العقول السليمة وآمنت بهم القلوب الواعية واعتنق دعوتهم ذووا الكفاءة والخبرة فى الناس لما وجدوا فى دعوتهم من الصدق واليقين الذى تؤيده آيات الله فى الأرض والنفس والسماوات ، وتؤيده أيضاً المعجزات فنجا بهديهم المفكرون وانحرف عن طريقهم الضالون وظلوا فى ظلمات الجهل والعنت يسقطون ويهوون والشيطان بحكم عداوته للإنسان يزين لهم سوء صنيعهم ليحقق مأربه ويجنى مكسبه .

حكمة الله تعالى فى إرسال الرسل :

لمـــا لعب الشيطان بعقل الإنسان وأضل بنى آدم عن الصراط السوى ، اقتضت حكمة الله البالغة وهو الرحيم بعباده أن يأخذ بأيديهم إلى السعادة والفوز والنجاة . فكلما أضلهم وأنساهم ذكر الله وما أنزل فيهم من الشرائع والنواميس والصحف والكتب المليئة بالعظة والتوجيه السليم والإرشاد الحكيم ، غمرتهم العناية الإلهية وحفتهم الرحمة الربانية بإرسال رسول منهم ناطق بلسانهم ليهديهم إلى الحق ويسلك بهم سبيل الرشاد .

ولكن الشيطان الذى آل على نفسه إضلال الإنسان وغوايته لا يفتأ ينشب أظافر غوايته فى عقولهم فتطفىء نور الحق فى صدورهم وتنسج حجب الغواية والضلال على بصائرهم وقلوبهم فيبدلون دين الله ويغيرون معالم الهداية السماوية ويكتم علماؤهم الحق بعد ما تبين يشترون عرض الدنيا والمناصب وينسون الله تعالى فأنساهم أنفسهم ويحرفون الملل والعقائد حتى يدين الناس لهم بالولاء والطاعة ويقبضون على زمام الأمور باسم العقيدة أو الدين (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .

١ – لذلك كان بعث الرسل لإيضاح ما عمى على الناس من الإيمان الحق واليقين الصدق ليخبروا الناس بأن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم من الدين بالضرورة ، مع الإيمان بوحدانية الله تعالى وأنه لا إله إلا هو لا شريك له ، ويجب له كل كمال ويستحيل عليه أى نقص وأن الرسول هاد مرشد أيده الله بالمعجزات وأمرنا أن نطيعه وأن نأخذ عنه الشرع ونؤمن بما جاء به .

٢ – وكذلك ليبينوا للناس كيفية العبادة التى يعبد الله بها المؤمنون من طهارة وصلاة وصوم وزكاة وحج وبيان كيفية كل ركن من هذه الأركان .

٣ – وكذلك لينظموا بشريعة الله التى أرسلوا بها العلاقة بين الناس وما يجب لكل إنسان على أخيه الإنسان وما عليه نحوه من واجبات بما فى ذلك المعاملات المالية والعلاقات الخلقية والحفاظ على الكرامة الإنسانية ووضع القواعد والمبادئ والأسس التى تنظم علاقة الفرد دون استغلال أو سيطرة أو استحواز على ما فى يد الغير بالكراهية والجبر والإذلال وتنظيم الأسرة واحترام الأعراض وبقاء النسل وحصول كل فرد على ما يريد من أخيه الإنسان برضاء وقبول .

٤ – وكذلك لتكون دعوتهم إلى هذا الإيمان الحق تحقيقاً لسعادتهم ونعيمهم وتصفية لنفوسهم ورضا كاملا فى معاملتهم وتوفير العزة والكرامة لهم ونجاتهم فى يوم الآخرة يوم تسأل كل نفس عما كسبت « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

٥ – الرجوع بالإنسان إلى قيمته البشرية وإعمال العقل بعد أن دعاه الشيطان إلى إهماله فلباه وسجد لغير الله مما هو واضح تمام الوضوح أنه لا ينفع ولا يضر فمن عبدة الأصنام إلى سجد للنار إلى ركع للكواكب والعجول ومن العجيب أنهم يرون وجود الله فى آياته فيضلون عنها ثم يصنعون الصنم بأيديهم وينسون أنهم صنعوه فيبتغون عنده الأمل والرجاء والسعادة والنعيم فيخرون لما صنعت أيديهم ساجدين .

لهذه الحكم وغيرها اقتضت حكمة الله البالغة أن يذكر الإنسان دائماً بعداوة – الشيطان له وأن يرشده دائماً إلى الطريق المستقيم المعبدة فيضيؤها له بهداية المرسلين ودعوة الأنبياء الذين يرجعون إلى أعمال الفكر والعقل دون تعسف ولا عنت ليدفعوا عنه ضرر الغواية والإضلال .

اتفاق أهل العقائد السماوية :

وإنه مهما احتدم الخلاف أو نأى الفكر بين ذوى الملل السماوية فإنهم متفقون على أدق القضايا مساساً بالحياتين وأعظمها ارتباطاً بالعقيدة والعقل . ذلك فإن مدار العقائد واحد لأن الإيمان له أركان ومقومات لا يختلف فى التبليغ بها أى رسول ، والأديان السماوية مستمدة من دعوى الأنبياء الذين تيقن الناس

بثبوت رسالتهم وتحقيق نبوتهم لذلك كان اتباعهم مهما تباعدالزمان واختلف المكان لازماً، لأنهم متفقون على المبادئ القويمة للإيمان التى منها :

١ — اليقين بأن الموجد لهذا الكون المهيمن على كل شىء فيه القادر على إبقائه أو إهلاكه هو الله عز وجل سبحانه وأنه واجب الوجود ، قديم لاأول له ، باق لانهاية له ، قادر لاحد لقدرته ، وأنه عليم ببواطن الأمور وظواهرها ، واجب له كل كمال يليق بذاته العلية ويستحيل عليه أى نقص وإن كمالات الله تعـالى لا تتناهى ولايحصرها العد ولا يحصيها الفكر .

٢ — إن طاعته سبحانه واجبة على كل مؤمن وأنها نجاة من عذاب خالد ، وأن معصيته مستحيلة على كل مؤمن وأنها مهلكة مبعدة عن نعيم خالد .

٣ — إنه تعالى المعبود بحق ولا معبود سواه وأن للشريعة أسساً ومبادئ لابد من تنفيذها وعبادة الله بها سواء كانت ظاهرة الحكمة فى عقولنا أو كانت خفية الحكمة عن إدراكنا كوجوب الطهـارة والصلاة والصوم والتصديق ومساعدة المحتـاجين وزيارة الأماكن المقدسة .

٤ — إن الله تعالى أرسل بالحق رسلا مؤيدين بالمعجزات مبلغين عنه الرسالات يدعون إلى الخير وينهون عن الشر تسامت فى الإنسانية صفاتهم وتناءت عن الدنايا ميولهم وصفت فى حب الله قلوبهم وطهرت من الدنس والأرجاس نفوسهم بعثهم الله مصلحين لفساد القلوب ، مبلغين قانون السماء الذى لا يأتيه الباطل ولا يشوبه الانحراف ، ليكون مبدأ العدل فى حياتهم ومنار السعادة فى دنياهم وآخرتهم ومرشداً لهم إلى مآل خلودهم ، ومحذراً لهم من غواية عدوهم ليكونوا لهم فى الدنيا هداة مرشدين وعليهم شهوداً يوم الدين .

٥ — إن الله تعالى ذود هؤلاء الرسل بكل كمال بشرى كالعصمة والبعد عن الزلل والحيطة عن الحرام والفطانة ، وتجوز عليهم الأعراض البشرية البعيدة عن الخلل فى الشرف والكرامة كالأكل والشرب والزواج والإنجاب والأمراض غير المنفرة والتى لا تخل بتبليغ الرسالة ويستحيل عليهم كل نقص يخل بأداء الرسالة كارتكاب المنكرات سواء كانت صغيرة أو كبيرة .

٦ — إن جميع الأديان السماوية تدعو إلى الخير وتنهى عن الشر فهى

تدعو إلى احترام الوالدين وتربية الأولاد وبذلك تنشئ الأسرة السعيدة وتدعو إلى الحلم والصفح والنجدة والمروءة ومساعدة الضعفاء والبذل والجود والعطاء والعفو ، وتنفر من أضداد هذه الصفات :

٧ ـ الكل متفقون على أن الدنيا دار انتقال وأنها باب يمر منه الإنسان إلى الشقاء أو النعيم ، وأنه لا خلود فيها لأحد ولا بد أن تعقبها حياة البقاء الأبدى يوم القيامة ، فالبعث عقيدة يقينية عند ذوى العقول والأبصار والإيمان باليوم الآخر جزء من الإيمان المنجى من عذاب الله ومن أنكر البعث فى أى دين سماوى فقد عصى الله ورسوله الذى آمن به وأقحم نفسه فى زمرة الملحدين الخاسرين .

العقل يؤيد البعث والنشور :

إن الإيمان بالعودة وتجدد الحياة ليس وليد الأديان السماوية وحدها بل هو عقيدة جارية فى دماء الذين عبدوا الأحجار والكواكب والذين لا دين لهم ، الكل يؤمنون بأن للإنسان عودة بعد تلك الحياة التى كل ما يجرى فيها يدل على التجديد والتغير .

وقد زعم بعض الهنود وغيرهم تناسخ الأرواح أى انتقالها من جسم إلى جسم فالموت عندهم إذا كان نهاية الجسم فهو انتقال للروح من جسد إلى جسد . وقد حكى ذلك صاحب مسلم الثبوت فى أول باب النسخ .

وليس أدل على تعمق اعتقاد تجدد حياة أخرى عند من لا دين لهم ، هو ما نشاهده اليوم من الآثار التى ترجع إلى آلاف السنين ، فيها يحتفظ الأهل والآباء والأحباب والأصدقاء بما يكفل النعيم والسعادة والراحة للميت حينما تعود إليه الروح وتدب فى عروقه الحياة من طعام وكساء وحلى واحتفاظ بكنه الجسم بالتحنيط . وقد وجدت بعض هذه الآثار فى أمريكا الجنوبية وفى المكسيك وغيرها من الدول ، وفى إفريقية كثير من هذه المعتقدات . ولعل فى بلادنا مصر آكد دليل على ذلك فالأهرام بأنواعها المختلفة وما عثر عليه فيها من الأدوات والحلى وما على جدرانها من النقوش والتعاويز ما يدل على اعتقادهم بالحياة الأخرى بل أنهم يعتقدون أن الإنسان بعد عودة الروح إليه سيحاسب حساباً شديداً على ما قدمت يداه وما اقترف من إثم . فسيقف بين محكمة مكونة من ٤٢ إله يرأسهم الرب

« أوزريس » . وبقضاء تلك المحكمة يخلد هذا العائد فى الحياة الأخرى إما فى الشقاء وإما فى السعادة والنعيم .

فلم يكن عجباً على العقول والأسماع أن تبلغهم الأديان السماوية بتلك الحياة الأخرى التى أقرها من حولهم والتى يدل عليها كل ما فى الوجود ، والعقل لا ينكر ما اقتنع به من برهان ، وما ظهر له جلياً من الحجة والبيان وهناك من الأدلة القاطعة والبراهين العقلية الساطعة ما يرشد إلى ذلك بصرف النظر عن أى دليل سمعى فى أى كتاب دينى .

١ – التجدد والحدوث :

منذ آدم حتى الآن والكائنات الحية متوالدة حادثة لا تنقطع عن التجدد ولا ينقرض نسلها وفق الطبيعة والفطرة فهى فانية متجددة وكأن الجنس مع موته وهلاكه عائد إلى الحياة ففناؤه غير مستمر وليس ذلك خاصاً بذى الروح بل النباتات باقية بولادتها من بذورها وأغصانها .

فشجرة الموز تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها وقبل أن تميل إلى الأرض هالكة فانية تترك مولودها ليجدد حياتها ويقوم بعملها من بعدها وفى فصل الشتاء تعرى الأشجار من أوراقها حيث تصفر وتتساقط مؤذنة بانتهاء دورها فى الحياة ليخلفها الورق الأخضر فى فصل الربيع والشمس تجرى فى فلكها لتوجد النهار ، فيه الحركة والضوء والعمل يحمل الحياة فى يوم جديد بعد الموت الصغير الذى يرتدى ثيابه كل ذى روح إذا ما انصرم النهار وجن الليل وأسدل أستاره على الكون فيأوى إلى كنفه الكادحون المتعبون ليستريحوا من العناء والتعب متشوقين بعد كدهم وجهدهم إلى حياة جديدة يعيدون فيها ما عسى أن يكون فاتهم من السعادة والرقى والنعيم .

فتغير الحياة على هذا النحو يدل على عدم استقرار هذا الكون وإن القوة المسيرة له التى انفردت بالبقاء والدوام لا تريد له إلا الفناء والإعدام ليكون الخلود لله والتجديد والحدوث لما عداه .

والمناخ نفسه متجدد فمن ربيع إلى صيف إلى خريف إلى شتاء تحيل الحياة إلى ألوان متطورة من قوة إلى ضعف ثم إلى قوة بعودة الربيع ، كل ذلك يدل على أن الحياة لا بد بعدها من حياة ومن عودة .

٢ ــ العدل الإلهى :

لقد ثبت بما لا يرقى إليه الشك أن موجد هذا الكون هو الله تعالى الذى استقرت على ألوهيته كل العقول واعترفت بجلاله وعظمته وعدله وحكمه كل الملل والأديان ، والكون ملىء بظلم الإنسان لأخيه الإنسان وتمادى الظالمين فى ظلمهم وشقاء المظلومين فى ظلامتهم فمن قتلة سفاكين إلى مقتولين منكوبين ، ومن فقراء محتاجين يبيتون على الطوى إلى أغنياء وأثرياء هانئين متمتعين يميلون فى سعادتهم مع الشهوات والهوى ، بل قد يتعدى هذا التباين بين الناس إلى التباين بين الحيوانات فمن قوى ذا مخلب وناب يأكل من الضعيف الكبد واللباب ، وكثيراً ما ينسى القوى إنسانيته وضميره فيفتك بالضعيف أو يمتص دمه أو يسترقه ويستعبده وليس هذا قصراً على الأفراد بل قد تعداه إلى الجماعات فالدولة ذات المال والبأس والقوة لا تشعر بأى غضاضة فى إزلال من حولها وسلب أراضى جيرانها وسومهم سوء العذاب إذا لم يدينوا لها بالولاء والطاعة .

ومن الناس من يسرى المرض فى عروقه فيقعده عن تنشق أريج النعيم وما على الأرض من ملذات وشهوات وآخرون قد ألبسهم القدر ثوب القوة والصحة والعافية فهم فى السعادة يرفلون وبنعيم الدنيا وملذاتها يتمتعون .

ومن الناس من أقعدهم الفقر أو التكوين العقلى عن التمتع والتلذذ بالعلم وحلاوته وآخرون اتخذو من العلم وسيلة إلى إسعادهم ونيل ما يرجون من دنياهم بل أنهم اتخذوا من العلم مطية لإرهاب الضعفاء وإذلال البائسين الجهلاء ، ولو أن الله تعالى قلب عليهم سوء صنيعهم وسلط أيديهم على رؤسهم لتكون القنبلة الذرية مثلا وغيرها من مخترعات الدمار والإهلاك شبحاً مخيفاً ووحشاً ضارياً يقض مضجعهم ويملأ فراشهم بالشوك .

ولا شك أن عدالة الحكيم الذى اتفق الكل على عدله وحكمته لا ترضى أن تكون هذه الحياة وحدها فيصلا ونهاية للجميع بفنائها وهلاكها يتساوى المحقون والمبطلون والسعداء والأشقياء ، والفقراء والأغنياء والمرضى والأصحاء . بل أن العقل الثاقب يستحيل على عدل الله ذلك ولابد أن تكون هناك حياة أخرى على نمط غير الذى ألفناه وعلى نهج

غير الذى عرفناه تعود الأمور فيها إلى نصابها وتنزع الحقوق فيها إلى أصحابها ويجزى المسئ فيها على إساءته ، ويعطى المحسن فيها جزاء إحسانه وتبتله وعبادته .

٣ ــ الجزاء والثمرة :

إذا اجتهد التلميذ فى مذاكرته وأمعن الطبيب فى علاج مرضاه وحرص القائد على إحكام خطته وحياة جنوده ، وأتقن العامل صنعته فلا بد أن يجنى هؤلاء ثمرة جدهم وجزاء جهدهم ، ولا بد لأضدادهم أن يحصدوا سوء صنيعهم وأن يسقطوا فى مهاوى رذائلهم وإهمالهم .

وفى الدنيا كثير من الأضداد والمتناقضات . فغصن البرتقال لا يثمر حنظلا . والقصب لا يخرج ملحاً ولا تستوى الحسنة ولا السيئة بل لا بد أن يكون لكل غصن ثمرة ولكل عمل جزاء وفضل الله لا يسوى بين الكادحين والراقدين بل لا بد من الوفاء فى يوم الدين .

دكتور محمد عيد عابدين

دعاء

اللهم صن وجهى باليسار ، ولا تبدل جاهى بالإقتار ، فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك ، وأستعطف شرار خلقك ، وأبتلى بحمد من أعطانى وأفتتن بذم من منعنى ، وأنت من وراء ذلك كله ولى الإجابة والمنع .

على بن أبى طالب

التربية الدينية وبناء المسلم السوى

الأستاذ / السيد حسن قرون

قال محمد بن إدريس الشافعى — رحمه الله — : « العلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان » ونحن فى حاجة إليهما ، ولك أن تتوسع فيما ذهب إليه ، فتجعل العلم شاملا لما تقوم عليه العقيدة والزلفى إلى الله من العلوم التى ظهرت نتيجة لنزول القرآن على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون إزاء هذه العلوم الدينية علوم تدرس الكون وما حوى مما يفيد الإنسان فى معاشه والدفاع عن نفسه ، وربطها بروح الدين ما أمكن .

لكن مجالى الذى أقصد إليه ، وأريد الإفاضة فيه هو « التربية الدينية » فى المدارس المصرية ، وما قمنا نحوها من جد وعمل ، وما رغبنا فيه من تحقيق الأمل فى أننا نخرج على الناس بناشئة قد وعوا شئون دينهم ، وعرفوا قدره فى نفوسهم ، وامتلأت قلوبهم برقائقه وحقائقه ، ليكونوا جند الله وبناة حضارة كما كان أسلافهم فى سالف الأزمان .

والدين أو التدين طبيعة فى البشر يحسون بأثره إذا ألمت بهم مصيبة أو ضاقت عليهم السبل ، أو وقعوا فى خطر ، حينئذ تراهم يلجئون إلى الله ويجأرون بالتضرع إليه أن ينقذهم مما هم فيه . (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض[1]) والله — سبحانه — رحيم بعباده لم يتركهم هملا ، بل أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، يبصرونهم بخالقهم ورازقهم ، ويدعونهم إلى توحيده وتمجيده وطاعته حتى يكونوا من الناجين ، والأديان على تعاقب الحقب والعصور كانت السبيل إلى طمأنينة الإنسان ورضاه ، وهدايته إلى معرفة الله ، وسلوك الطريق المستقيمة ، واتباع الحياة القويمة مما به يسعد فى نفسه وجنسه ، ويحسن التعامل والتعايش مع غيره ، ولولا الأديان لعاشت الإنسانية فى دياجى الجهالة ، ولضلت العقول

(١) آية ٥١ فصلت .

عن الاهتداء إلى سوء السبيل ، ولما عرفت للتآخى معنى ، ولا للعدالة ميزة ، ولا للعمل طعماً ، ولا للحضارة مسلكاً ، ولا تقل لى : قامت حضارات فى الأمم القديمة فى مصر واليونان والهند والصين ، فالجواب حاضر إنما ذلك يرجع إلى فطرة الإنسان نحو الدين ، وإن كانوا من معرفة الحق فى ضلال مبين .

ومعنى هذا أن الدين هو العاصم من الخطل ، والدافع إلى خير السبل ، والنور الذى يطلبه من كره الظلام ، والحمد لله الذى هدانا إلى الدين الإسلامى الذى هو خاتم الرسالات ، وجعلنا خير أمة أخرجت للناس ، وجعل القرآن مهيمنا على الكتب السماوية ، والدال عليها ، والمبين لمراميها ، والمنبه على التغيير الذى حدث فيها ، وواجبنا أن ننشىء أبناءنا على فضائله من نعومة أظفارهم حتى يشبوا صالحين كاملين لا تغرهم فتن الدنيا ولا تستهويهم مطالب المادة . فماذا قدمنا لهم ؟ وكيف وصلنا النور إليهم ؟ إن ما نقوم به هو ضرب من مطالب الحياة اليومية أو المدرسية ، لأن الدولة أرادت أن تقوم التربية بجوار العلوم التى تدرس ، والتى عليها تقوم الآمال والأعمال ، وما من شك فى أننا بحاجة إلى النظرة الجادة فى هذا الطريق الذى عبدناه ، والأمر الذى اتفقنا عليه ، فعجيب أن يدرس التلاميذ والطلاب مصادر دينهم من سن السادسة حيث المرحلة الابتدائية إلى سن الشباب فى المرحلة الثانوية ، ثم لا تجد محصولا فى صدورهم ، ولا أثر فى نفوسهم ، ثم نشتكى من الفراغ الدينى كأن تلك السنوات فى هذه المرحلة لم تكن شيئاً مذكوراً ، وقديماً قالوا :

العلم قائد والعقل سائق ، والنفس ذود[1] فإن كان قائد بلا سائق هلكت ، وإن كان سائق بلا قائد أخذت يميناً وشمالا وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرها

ومعنى هذا أن نجاة النفس مرجعها إلى العلم والعقل وهذا هو واجبنا نحو الناشئة : أن يعلموا ويعقلوا فتصفو نفوسهم ، أو بمعنى أدق أن نصل بهم إلى الإيمان وهو المنارة والهداية والدليل الذى لا يخيب . فما وسائلنا إلى ذلك ، هناك فى وزارة التربية أجهزة ومشرفون ينظرون فى المناهج ، ويقومونها ثم يقدمونها علوماً ومعارف ، ومنها التربية الدينية .

ونظرة عاجلة إلى تلك المناهج تجدها

---

(١) إبل من ثلاثة إلى عشر .

وافية بالغرض ، ملائمة لكل مرحلة وكل فرقة ، فيها سور وآيات من القرآن الكريم وطائفة من الأحاديث الشريفة ، ودراسات فى العبادات والتهذيب والسير والشخصيات الإسلامية ، ومن الآيات ما يحفظ ، ومنها ما يرتل ويفهم ، وتجد ترابطاً بين كل هذه الأنماط ، كل ما فى المنهج يسير وفق الآيات القرآنية حتى يسهل الفهم والحفظ ، ويستقر الأثر فى القلب والعقل معاً ، وهذا أمر سار وبار فمن أين جاءه النقص فحاد عن المراد .

١ — مفهومات قديمة أو رواسب استعمارية من عهد دانلوب المستشار الإنجليزى فى وزارة المعارف آن ذاك فقد جعل النظرة إلى « الديانة » كما كان يسميها ، والقائمين عليها نظرة ازدراء ، وعاشت فكرته جيلا بعد جيل ، ومع أن الاستعمار حمل عصاه ورحل فلا تزال وساوسه ودعاواه تملأ الأفق المدرسى إلى حد التأثير على مدرس اللغة العربية فيراه كبار رجال التعليم أقل إدارة من زملائه الآخرين فى الحقل المدرسى ، وجاء يوم على رجال اللغة والتربية الدينية حين كان للغة مدرس أول وللتربية الدينية مدرس أول أن الثانى يشعر بغضاضة تجعله دون مدرس أول اللغة العربية ، ولو نظرنا نظرة سامية لعد نفسه من ورثة الأنبياء ، وطريقه طريق الخلفاء ، لكنها الرواسب الاستعمارية ، والجو العكر الذى يحيط به يدفعه إلى سوء الظن بنفسه وبعمله .

٢ — ويتبع ذلك أنه يتقاعس عن أداء الواجب كما ينبغى ، فيذهب إلى تلاميذه متأخراً ، ويؤدى درسه متكاسلا ، فقد الروح الصافية ، والقدوة الحسنة ، وران على تلاميذه شعور بضآلة هذا الدرس فلم يتحمسوا لأثره فى حياتهم وحياة مجتمعهم ، وأخذوه على أنه شىء على هامش الحياة المدرسية ، وقد يترك الحصة لزميله إن احتاج إليها بحجة تأخره فى المنهج ، وقد يقف طويلا عند إعراب جملة فراراً من كشف ما بدرسه من المثل العليا ، والمقاصد النبيلة ، والأهداف الجليلة ، ويعتقد أن ذلك فى صالح طلابه .

٣ — والإدارة المدرسية توحى إليه بذلك عمداً أو على غير عمد ، فتجعل درسه فى آخر اليوم المدرسى ولها حجج لا ترد فى هذا الأمر ، لأنها بصدد تجميع المسيحيين فى فصل واحد ، أو أن هناك عجزاً فى المدرسين أول العام

الدراسى ، أو أنها فى حاجة إلى تقوية الطلاب فى المواد الأخرى آخر العام الدراسى مما يجعل الدروس الدينية عاجزة كل العجز عن بناء الشخص المتدين الذى يعرف ربه ورسوله ومعجزة القرآن والأحاديث التى تفصّل مجمله أو توضح مشكلة ، أو تقيد مطلقه ، ويمر على السيرة مر الكرام ، ويتصفح سيرة الخلفاء أو الصحابة أو الشخصيات الإسلامية تصفحاً لا يؤتى المنشود منه ، وأنا لا أهتم بالامتحان فى التربية الدينية من حيث النجاح أو الرسوب اهتمامى بالأهداف والمقاصد ، فالنجاح الحقيقى أن تبعث فى صدر الطالب خفقة الحب والتقديس لشئون دينه ، فيتمثل ما يدرس ، ويفيض من قلبه نور يدفعه إلى الوفاء بعقوده مع ربه ومجتمعه ، يقبل على العبادة بصدق ويعامل غيره بشرف ، وتأتيه مناعة صلبة فلا تؤثر فيه دعاوى المغرضين ممن يريدون تنحيته عن منهج الدين بأفكار مستوردة أساسها الهزء بالأديان ، وأنها من مخلفات القرون الأولى ، أنها تبعد بالإنسان عن أخذ حقه فى الحياة أو التمتع بخيرات الدنيا .

ولو كانت التربية الدينية درست كما نص المنهج ما استطاعت الوساوس المضللة أن تجد إلى نفسه سبيلا . اقرأ معى بعض ما تقول المناهج الدينية . إنها تقول مبينة الأهداف .

– بناء إيمان الطالب بالله تعالى ورسوله وما جاء به من تشريع وأحكام وحدود على اليقين والتبصر والاقتناع .

– تقوية الوعى الدينى فى نفسه تقوية تحول بينه وبين التيارات الهدامة لنظام المجتمع ، وتعصمه من المبادئ الإلحادية وتحرره من الخرافات والأساطير ، والتقاليد المخالفة للعقيدة الإسلامية .

– إقامة إيمانه بالفضائل الخلقية والقيم الاجتماعية على أساس من التفكير والفهم والتحليل ، واتجاهه فى حياته إلى المثل العليا من العزة والشجاعة والثقة بالنفس وحب الإيثار ، وتشربه معانى الخير والحق والواجب ، ونزوعه إلى التفاؤل واتساع آماله فى الحياة ، وميله دائماً إلى الطموح والبناء وتحمل الأعباء .

– تقوية ميله إلى المحافظة على شعائر الدين ، ومبادئه السامية فى غير تزمت أو نفور أو تشدد متخذاً من يسر الإسلام وسماحته ما يحمله على الاتزان فى جميع أعماله مع البعد عن نزعات الهوى والميل .

– تقوية واتصاله بالقرآن الكريم والحديث الشريف وزيادة اطلاعه على ألوان الثقافة الدينية ، وانتفاعه بها انتفاعاً عملياً فى حياته الفردية والاجتماعية وإدراكه أن الدين لا يتعارض مع العقل ولا مع التقدم العلمى والحضارى ، وأنه كفيل بتحقيق مجتمع شورى يستهدف الرخاء والأمن والسلام .

– تنمية قدرته على فهم مرامى الدين الإسلامى فى تكوين الأسرة ورعايتها ودعم نظامها ، وبنائها على أساس من الدين والخلق والقومية .

– توسيع فهمه لمرامى الدين فى تكوين الجماعة الكبرى ، وقيام الحكم فيها على التشاور والعدل والحرية والمساواة والإخاء وإدراكه معنى التكافل والتعاون بين المسلمين .

– ازدياد ولائه لوطنه ولأهدافه السامية التى تتفق مع أهداف الدين ، وجهاده فى مقـاومة أساليب الاستعمار ، واعتزازه بالتراث الإسلامى الخالد ، وإنتفاعه بهذا التراث ثقافياً خلقياً ، وتقوية ميوله إلى البناء على أمجاد الماضين بإرادة قوية ، وحب للتضحية فى السلم والحرب متخذاً من البطولات الإسلامية أحسن قدوة .

– تعميق إيمانه بأنه عضو عامل فى الأمة ، يقدر العمل فى كل ميدان ، ويحرص على تنمية الثروة العامة ويحافظ عليها أن تضيع فى غير حق .

– تنمية روح التعامل الاجتماعى الصحيح فى الطالب ، وعنايته بآداب المجتمع الذى يعيش فيه على فهم صحيح لروح الدين وجوهره .

– التسامى بالغرائز والميول فى نفوس الشباب لتحريرهم من الخوف والضعف والعقد النفسية ، وتربيتهم تربية وجدانية صحيحة تقوم على الاستقرار النفسى والاتزان العاطفى .

– تذوق ألوان الجمال الفنى واللغوى فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

– تبصير الطلاب بالعالم الإسلامى وما بين المسلمين من روابط .

هذه بعض الأهدف سقتها لك من كتاب « المناهج المعدلة لسنة ١٩٦٦ لترى إلى أى حد هى صالحة البناء المسلم السوى .

ولكنك تنظر فلا ترى صورة عملية فى هذا الجيل كما أرادها ذلك المنهج . لماذا ؟ لأننا لم ننفذ ما حددناه ووصينا

به ، فالمدرس من الجائز أنه قرأه وهزَّ رأسه استخفافاً به ، ومن الجائز أنه لم يقرأه ولم يتابعه الموجه ولم يناقشه فيه . ولم يقومه حسب ما دعا إليه ، المدرس والموجه والإدارة كل أولئك مسئولون عن الناشئة ، وردد كثيراً فى مجالسنا ومناقشاتنا القول المأثور « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك ومن الدنيا وما فيها » والأمر متاح لنا أن نصل إليه ، والفرصة سانحة لاقتناصها ومع ذلك نتركها تفوت ولا نحرك نحوها ساكنا هل أعد المعلم ليقوم بهذا الأمر الجليل إن الخريجين من الأزهر ودار العلوم وكليات الجامعة التى تدرس اللغة العربية هم المنوط بهم تنفيذ هذا المنهج وأمثاله . هل هم على مستوى المسئولية ، إن النتائج تقول لا ، إن المنهج يريد تكوين مسلم مثالى فى ضوء ما يدرس وما يؤدى فليس يكفى أن يشرح المدرس الدرس ، ولا أن يحفظ الطالب ما يحفظ ، فلا بد من أن تخالط مفاهيم الدين مشاعره ولا بد أن تكون لديه هى الحياة وهى السمو وهى النجاح ، قرب من الله ، وسمو عن الرذائل ، وإنبعاث للمشاركة فى البناء ، وفهم لما يجرى حوله قريباً أو بعيداً ، والقدوة الماثلة هى خير سياج للناشئة .

فى المنهج حديث عن الشريعة الإسلامية ، والمدرس الحصيف يستطيع أن يبلغ بتلاميذه كنه أحكام الشريعة الإسلامية ، وأنها صالحة لكل زمان ومكان ، فقد رأيت من بعض المحامين ازوراراً عن حديث الشريعة الإسلامية وإحلالها محل التشريع الوضعى ، ذلك أنه لم يتعمق فى دراسة الفقه الإسلامى الذى نوه به أساطين رجال القانون أمثال المرحوم السنهورى وغيره من الأحياء . وهل الدراسة الدينية فى الطفولة والشباب إلا فتح الباب على مصراعيه للدراسة ؟

وفى المنهج بحث عن انتشار الدين الإسلامى ، والمدرس الواعى يستطيع أن به أن يرد على من يقول إن الإسلام انتشر بالسيف ، والواقع معه ، فما انتشر بفضل التجار المسلمين ورجال الطرق الصوفية أكثر مما صاحبه السيف ، وما صاحبه السيف كان دفاعاً ولم يكن هجوماً واندفاعاً .

إذا درس المنهج حق الدراسة ، وقامت القدوة مقام الدعاية ، وراعينا الله فى أبنائنا بلغنا الهدف وبعدنا عن الخطر فى زمن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر ، الفتنة فيه تعترض الشباب فى كل سبيل ووسائل

الإعلام تغريه بكل وبيل ، ومطالب الحياة الملحة تطير به كل مطير ، فالمسلم فى حاجة ماسة إلى إقرار الإيمان فى قلبه حتى لا تستهويه زينة الحياة الدنيا ، وليس معنى هذا أن نجعله راهباً زاهداً فيها ، ولكن نسير به حسب ما جاء به ديننا ، ووقر فى صدورنا من قوله تعالى « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وقول بعض أسلافنا : أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . دين وسط فى كل شىء ، وخير الأمور الوسط ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » .

ويتحدث المنهج عن العلم والحضارة وهنا يجد المدرس فرصته ، فيبين جهد أسلافنا فى هذا السبيل وأن علمهم قاد الإنسانية إلى النهضة العلمية فى أوربا فى كل نواحى الحياة من طب ورياضيات وفلك وغيرها ، فيدفع طلابه إلى الطموح ليكونوا كأسلافهم بناة حضارة ، وأصحاب كشف واختراع ، لا أن يمر على هذا مراً غافلاً ، أو يترك الطلاب لقراءته ، فمناقشة ما فى الكتاب أمام الطلاب ينير عقولا ، ويبعث هماً ، ويغير سلوكاً ، ويصنع قادة ورواداً وحالمين .

وإغراء الطلاب بالقراءة مطلب رشيد فمن حين إلى آخر يثير المدرس قضية أو فكرة أو أثر شخصية ثم يدعوهم إلى البحث عنها ، والكتابة فيها ، ويصحبهم إلى مكتبة المدرسة ؛ لينقبوا ويبحثوا ويسجلوا ، وحبذا لو خصص ركن بالمكتبة يحتوى على الكتب الدينية والثقافية المتصلة بالإسلام ورجاله ، وينتهز فرصة المواسم والأعياد ؛ ليقدم من طلابه من يتحدث من الهجرة أو المولد أو عيد الفطر أو عيد الأضحى ، مما يمرن الطالب على القول ، ويغرى غيره بالعمل على منواله ، وفى هذا إثراء للثقافة الدينية ، وربط الحاضر بالماضى وتجديد الصورة المثلى فى الأذهان .

وحين يثار واقع المسلمين بالموازنة بين الحديث والقديم ، أو الموازنة بين المسلمين وغيرهم اليوم يجب أن يكون المدرس لبقاً فاهماً قادراً على الإقناع حتى لا تهتز الصورة الجميلة فى نفوس طلابه ، وحتى يحول بينهم وبين الانبهار بما يرى من علوم الغرب واختراعاته ووصوله إلى القمر والسير على أرضه .

يقول الدكتور طه حسين فى كتابه (مرآة الإسلام) «نامت الأمة الإسلامية قروناً طوالاً ، ولكنها حين استيقظ بعض

«الممتازين منها ، ودعوها إلى اليقظة فى إلحاح أتيح لها فى الوقت القصير شىء لا بأس به من التنبه ، بل شىء لابأس به من التقدم ، وإن لم تزل بعيدة أشد البعد عن أن تكون جديرة بتاريخها الإسلامى البعيد » .

ومعنى هذا أن يشعر المسلم أن هناك تخلفاً وقع ، وتقصيراً عاقنا عن مساواة غيرنا فى العلم والتقدم وأن حاضرنا لا يتوافق مع ماضينا السعيد،وأن علينا أن ننهض ولا ننسى الحفاظ على هذا الماضى وارتباطنا به ، ومع أن الدكتور طه حسين من دعاة الأخذ من علم الغرب خيره وشره فإنه يقرر فى هذا الكتاب (مرآة الإسلام) قائلا : «والمستعمرون فى هذا العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا عليهم — المسلمين— ضروباً من العلم قد تخرجهم من الجهل ولكنها ستقطع الأسباب فيما بينهم وبين تاريخهم وتفنيهم فى الأمم المستعمرة إفناء » أرأيت كيف حذرنا من مغبة الارتماء فى أحضان الغرب وعلمه ، فالأخذ عن الغرب وإتباع طرائقه فى التفكير ، وإهتمامنا بعلمه وإبتكاراته لا تدعونا إلى الانفصال عن تراثنا وما به من كنوز علمية وأخلاقية وتشريعية ، وقديماً قال شاعرنا :

لسنا وإن كرمت أوائلنا
يوما على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا
تبنى ، ونفعل مثل ما فعلوا

ميزان عادل لا حيف فيه ، العلم للجميع نأخذ منه ، وننهض به ، ويكفينا مئونة الالتجاء إلى غيرنا فى التسليح ونظم الادارة ، ونجعل ماضينا نبراساً يهدينا سواء السبيل ، وتحذير الدكتور طه فى محله ونظرة شاعرنا كريمة فيها الحفاظ والانطلاق ، ويصوننا الإيمان والهداية بالقرآن .

فعلى القائمين بأمر التربية الدينية فى مصر وفى غيرها أن يتوخوا الجد فى عملهم ، وأن يوطدوا أمرهم على أن يكون ناشئة المسلمين على صراط مستقيم بالبناء السوى السليم ، فى صلاح المدرس وصلاح الإدارة والإشراف الصادق ما ينأى بنا عن الزلل ويقربنا من الأمل ويعطينا نماذج بشرية صالحة لحمل الأمانة وأداء الرسالة بين هذا الخضم المترامى الأطراف من الفتن والمحن والمغريات حتى يسلم الكيان وتبقى دار الإسلام فى سلام . والله المستعان .

السيد حسن قرون

الأزهر جامعًا وجامعة
أو مصر فى ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

(٦)

رأينا فى المقال السابق من أسماء أروقة الأزهر كيف كان الأزهر مقصداً للطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامى .

فرواق المغاربة لأهل المغرب العربى ،

وأروقة الشوام والبغدادية والحرمين واليمنية للمشرق العربى .

والجبرتية والبرابرة والفلاتة لأفريقيا الإسلامية .

والجاوة والهنود للمسلمين بالشرق الأقصى .

والأتراك للعثمانيين المنتشرين فى مصر والعالم الإسلامى .

وذكرنا أن المدارس التى أنشأها الأيوبيون والسلاطين المماليك قد تعطلت بعد الاحتلال العثمانى، لنهب أوقافها وإهمال مرافقها . فاندرس بعضها وتحول الباقى إلى مجرد دور للعبادة .

وكان هذا هو الحال أيضاً فى باقى البلاد العربية . وظل الأزهر طوداً شامخاً بما كانت له من المكانة . فاستمر محافظاً عليها . وأصبح الجامعة الكبرى لجميع العالم الإسلامى . والمرجع إلى شيوخه فى كل ما يتعلق باللغة أو الدين . وقلما تجد عالماً من علماء مصر السابقين للفتح العثمانى إلا وله بالأزهر صلة الدراسة أو التدريس .

وكان لعلماء الدين منزلة ومكانة فى كل العصور الإسلامية . فقد ذكرنا ما جرى بين العادل الأيوبى والقاضى ابن الوراق . كما ذكرنا موقف شيخ الأزهر أحمد بن عبد الحق بن داود باشا الوالى العثمانى .

ونذكر أيضاً قاضى القضاة عز الدين ابن عبد السلام (٥٨٧ — ٦٦٠ هـ)

الذى تصدى لبيع أمراء المماليك . ومنهم نائب السلطنة . لأنه لم يصح عنده عتقهم . وبذلك يصبحون ملكاً لبيت المال . وصمم على هذا . وباعهم فعلا بالمزاد بأغلى الأسعار . وقبض ثمنهم . وضمه إلى بيت المال .

وهى قصة مشهورة ذكرها السيوطى فى حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٩٩) . ولم يذكر السيوطى اسم السلطان الذى حصل فى عهده هذا الأمر . ولكنه ذكر أن ابن عبد السلام استعفى من القضاء بعد ذلك مرتين حتّى قبل السلطان إعفاءه . واكتفى بالتدريس فى مدرسته (أى مدرسة السلطان) بين القصرين . وابن عبد السلام توفى سنة ٦٦٠هـ . ولم تكن هناك مدرسة بين القصرين قبل هذا التاريخ غير مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧هـ . وهى للمذاهب الأربعة . ومدرسة أبيه الكامل المتوفى سنة ٦٣٥ هـ وهى لعلم الحديث . وابن عبد السلام ولى القضاء سنة ٦٣٩ هـ . فيكون السلطان وقت هذه الحادثة هو الصالح نجم الدين أيوب .

وذكره السيوطى بين الأئمة المجتهدين وقال عنه : إن العارف بالله أبا الحسن الشاذلى كان يقول : ما من مجلس فى الفقه أبهى من مجلس عز الدين بن عبد السلام . وأن ابن كثير قال عنه فى تاريخه : انتهت إليه رياسة المذهب وقصد بالفتوى من جميع الآفاق .

وروى عنه أيضاً أنه أسقط شهادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ استذدار الصالح نجم الدين . ولم يعترض السلطان ثم أرسل الصالح نجم الدين رسولا إلى الخليفة العباسى فى بغداد فى أمر ما . فسأل الخليفة الرسول : هل سمع الرسالة من السلطان ؟ فقال الرسول : لا ولكن نقلها إلىّ عنه فخر الدين بن شيخ الشيوخ . فقال الخليفة : لقد أسقط ابن عبد السلام شهادة فخر الدين فلا نقبل الرسالة التى نقلها .

ونذكر منهم أيضاً قاضى القضاة تقى الدين محمد المعروف بابن دقيق العيد (٦٢٥–٧٠٢هـ) تلميذ عز الدين ابن عبد السلام . ذكره السيوطى بين الأئمة المجتهدين كما ذكره بين قضاة الشافعية . وقال إنه دخل مرة على السلطان لاجين فقام له السلطان وقبّل يده . فلم يزده الشيخ على أن قال : أرجوها لك بين يدى الله .

ودقيق العيد لقب جده . وسمى

بهذا لأنه خرج مرة يلبس ثوباً ناصع البياض فرآه أحد الغلمان فقال : كأنه دقيق العيد .

واستمرت مكانة علماء الأزهر فى العهد العثمانى . وكان علماؤه كما ذكرنا صمام الأمان للشعب ضد عسف الولاة وعبث البكوات المماليك .

ففى سنة ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ م) تسلط مماليك مراد بك على الناس بالمصادرات والهجوم على البيوت ونهبها بسبب وبغير سبب . وعلى رأسهم مملوك اسمه حسين بك شفت أى اليهودى .

وثار الناس وذهبوا إلى شيوخ الأزهر يشكون . فأيدهم الشيخ أحمد العدوى الشهير بالدردير (بفتح العين والدال نسبة إلى بنى عدى بلدة الشيخ على الصعيدى وكان الدردير من تلاميذه وتولى مشيخة رواق الصعايدة بعده) وكانت للدردير مكانة كبيرة عند الجميع فقال لهم : سنذهب باكر لنهب بيوتهم كما ينهبون ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله . وطلعوا على المآذن يصيحون ويلعنون المماليك .

وخاف إبراهيم بك — قسيم مراد بك فى الحكم وأكبر المماليك شأناً — من استفحال الأمر . فأرسل إلى الشيخ الدردير بأنهم مستعدون لرد المنهوبات أو دفع قيمتها . وأرسل إلى حسين بك شفت فكان جوابه : كلنا نهابون . أنت تنهب ، ومراد بك ينهب. وأنا كذلك أنهب . ولم يرتدع .

وطلب إبراهيم بك من الشيخ الدردير كتابة قائمة بالمنهوبات . وتعهد بأن يأتى بها من محل ما تكون . واتفقوا على ذلك . وقرأوا الفاتحة ... وقال الجبرتى : وانفض المجلس وبردت القضية .

وتوفى الدردير سنة ١٢٠١هـ (١٧٨٦ م) . ودفن بزاويته الموجودة للآن بشارع الدردير بالكحكيين .

وفى سنة ١٢٠٠هـ أيضاً لما ساءت سيرة إبراهيم بك ومراد بك . أرسلت الدولة العثمانية حسن باشا القبطان على رأس حملة لقمع الفتنة والقضاء عليهما . وتمكن من التغلب عليهما . فهربا من العاصمة . وهرب أيضاً أتباعهما من المماليك . وانطلق الجنود الأتراك فى بيوت الأمراء الهاربين ينهبونها . وأنزلوا من بها من الجوارى فباعوهن بينهم بالمزاد . حتى أن حسن باشا أمر ببيع زوجات الأمراء وأولادهم . فتصدى له الشيخ محمد السادات ، والشيخ أحمد العروسى ، والشيخ أحمد الدردير وقالوا

إن الشريعة تمنع بيع الأحرار وأمهات الأولاد . فعدل عن أمره .

وكان إبراهيم بك قبل هروبه قد زار هؤلاء المشايخ الثلاثة . وتصاغر فى نفسه جداً – كتعبير الجبرتى – وأوصاهم بالمحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت .

والشيخ أحمد العروسى كان شيخاً للأزهر وقتذاك . وتوفى سنة ١٢٠٨ هـ . وتولى بعده مشيخة الأزهر الشيخ عبدالله الشرقاوى الذى عاصرت مشيخته الحملة الفرنسية ، وأوائل حكم محمد على .

وفى سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤ م) أخذت عوامل الغضب تتجمع فى نفوس الشعب . وأثارها أن بعض الأهالى (مديرية) الشرقية حضروا إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وشكوا من ظلم محمد بك الألفى وتعديه عليهم . فاتصل الشرقاوى بإبراهيم بك ومراد بك فلم يفعلا شيئاً . فاغتاظ الشرقاوى ، وجمع المشايخ ، وأغلق الأزهر ، وطلب من الأهالى إغلاق الحوانيت ، واستجاب الأهالى ، فقد كانت نفوسهم مكبوتة بالغضب من عسف الحكام .

ثم اجتمعوا بمنزل الشيخ محمد السادات وأحس الأمراء . فأرسل إبراهيم بك مندوباً عنه يحضر الاجتماع . ويخبرهم أن رفع المظالم يضايق الأمراء فى معايشهم ونفقاتهم (هكذا !!) . فقالوا له : ليس هذا بعذر عند الله. فما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك؟ والأمير يكون أميراً بالعطاء لا بالأخذ .

ثم تجدد الاجتماع عند مراد بك بالجيزة حيث كان مسكنه . وكان تقريباً بموقع حديقتى الحيوان والأورمان (الغابة) والشارع الذى به حديقة الحيوان اسمه الحالى شارع مراد بك .

وبعد جدال اجتمعوا أخيراً فى ذى الحجة سنة ١٢٠٩ هـ بمنزل إبراهيم بك . وحضر الاجتماع الباشا الوالى ، والقاضى ، والشيخ البكرى ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر . وفى الاجتماع أعلن الأمراء أنهم تابوا والتزموا بما شرطه العلماء ، وتعهدوا بإرسال غلال الحرمين والصرة والعوايد المقررة (والصرة هى المال الذى كان يرسل سنوياً للحرمين وكان هذا من التزامات الحكومة المصرية فى عهد العثمانيين) . وأن يصرفوا غلال الشون وأموال الرزق (جمع رزقة) ويبطلوا ما استحدثوه من ضرائب ومكوس، وأن يسيروا سيرة حسنة .

وكتب القاضى حجة بما تم الاتفاق عليه . وفَرْمَن عليها الباشا الوالى أى وضع عليها ختمه . وختم عليها إبراهيم وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضاً .

وانجلت الفتنة وفرح الناس (الجبرتى جـ ٢ ص ٢٥٨) .

ويعطى بعض المؤرخين أهمية كبيرة لهذا الاجتماع . ويعتبرونه باكورة لتحرك الشعب المصرى للمطالبة بحقوقه .

ونجد كثيراً من مثل هذه المواقف المشرفة . وسنذكر غيرها أيضاً بإذن الله عند الكلام على شيوخ الأزهر . ونكتفى بما ذكرناه من الأمثلة . وننتقل إلى ذكر ما كان للأزهر وعلمائه وطلبته من من شأن أثناء الحملة الفرنسية .

الأزهر فى عهد الفرنسيين :

دخل الفرنسيون مصر فى المحرم سنة ١٢١٣ هـ (يولية سنة ١٧٩٨ م) . وكان هذا بادثة تحول فى تاريخ مصر الحديث .

وكان استيلاء الفرنسيين على مصر سهلا . فالمماليك لم يكونوا يفكرون إلا فى مصالحهم الشخصية والتنافس عليها فيما بينهم . والولاة الأتراك — لقصر مدتهم وضعف سلطانهم إزاء المماليك — قد أهملوا كل تفكير فى مرافق البلاد . ومن ضمن المرافق الحيوية الهامة تدعيم وسائل الدفاع عنها . فالطوابى والقلاع التى أقامها السلاطين المماليك كانت قد وصلت إلى حالة من الضعف جعلتها لا تصلح لصد أى عدوان .

وبرغم ما عرف عن المماليك من شجاعة وفروسية . فقد كانوا متخلفين عن الفنون الحربية الحديثة — بالنسبة لذلك الوقت — بعدة قرون . وكان ينقصهم الحافز الذى يجعل الفداء والتضحية فى سبيل الوطن أثمن من الحياة .

هذا فضلا عن تزعزع وحدتهم للتنازع بينهم على مراكز الحكم . فبينما كان مراد بك فى البر الغربى من النيل عند إمبابة يحارب القوات الفرنسية . كان إبراهيم بك فى البر الشرقى ببولاق ينظر إلى المعركة ، ولم يفكر أن يمد له يد المساعدة . وما إن تحققت هزيمة مراد بك وهربه حتى انسحب إبراهيم بك والوالى التركى أبو بكر باشا الطرابلسى هاربين إلى بلبيس .

وصدم الشعب بما رآه من أن جل هم المماليك أثناء المعركة كان إنقاذ ما أمكنهم إنقاذه من أموالهم بالقاهرة .

ولكن الشعب لم يقصر فى واجب الدفاع عن بلاده . فقد بلغ الحماس فى القاهرة الذروة . بقيادة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وقتذاك . وخرج كل قادر على الحرب إلى بولاق . واستعانوا بكل ما وصلت إليه أيديهم من أسلحة وعصى ليقفوا بجانب القوات النظامية . وفوجئ بهزيمة هذه القوات فى أقصر فترة . وشل تفكيره وأضعف عزيمته هروب هذه القوات فلم يجد مناصاً من التسليم .

وأنف السيد عمر مكرم من التسليم بالهزيمة فخرج مع إبراهيم بك إلى بلبيس .

والسيد عمر مكرم من خريجى الأزهر ولكنه لم يشتغل بالتدريس . وكان منصرفاً إلى الحياة العامة حيث كان استعداده العقلى والنفسى يميل به نحو السياسة والاهتمام بشئون المجتمع المصرى . (سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ محمد فريد أبو حديد ص ٤١) .

وبدأ نابليون حملة التمويه وخداع الشعب . فأصدر من الإسكندرية منشوره الأول بتاريخ ١٨ المحرم من سنة ١٢١٣هـ (٢ / ٧ / ١٧٩٨ م) . وأرسل منه صوراً للبلاد ومنها القاهرة قبل وصوله إليها. ذكر فيه : (أن الفرنسيين حضروا لتطهير البلاد من ظلم المماليك . وأنهم أصدقاء السلطان ، ويساعدونه ضد روسيا عدوته وعدوة الإسلام ، وأنهم يحترمون الإسلام . وقد حاربوا البابا الذى كان يحض دائماً على حرب المسلمين) .

ويبدأ المنشور : بسم الله الرحمن الرحيم ولا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له . . . إلخ . ويطلب من الأهالى عدم مساعدة المماليك حتى يكونوا فى مأمن وأمان ، وأن المخالفين يتعرضون لأشد العقاب . وأن كل قرية تقاوم الفرنسيين تحرق بالنار . وعلى جميع القرى أن تنصب العلم الفرنسى بجانب العلم العثمانى . وأن يتحفظ مشايخ البلاد على ثروات المماليك . وختم المنشو بالدعاء بدوام إجلال السلطان العثمانى . ودوام إجلال العسكر الفرنساوى . ولعنة المماليك، وصلاح حال الأمة المصرية.

وكان المنشور معداً من قبل . وهو أول منشور بالعربية للفرنسيين . وذكر أمين باشا سامى (تقويم النيل ج ٢ ص ١١٤) أنهم أحضروا معهم مطابع من أوربا تطبع بخمس لغات : الفرنسية والعربية واللاتينية واليونانية والسريانية . وذكر الرافعى (تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٤) .

أن المطبعة كانت تسمى أولا بمطبعة جيش الشرق . ثم نقلت من الإسكندرية إلى القاهرة بدار عثمان بك الأشقر فى الأزبكية بالقرب من بيت الألفى الذى اتخذه نابليون سكناً له . وسميت المطبعة الأهلية . ثم نقلت إلى الجيزة أثناء ثورة القاهرة الثانية . ثم إلى القلعة إلى حين جلاء الفرنسيين عن مصر . فأخذوها معهم . ولم تعد الطباعة لمصر إلا فى عهد محمد على .

ولم ينخدع الشعب بهذه التمويهات فقد قاوم الفرنسيين باستمرار . وما إن خرج الجيش الفرنسى من مديرية البحيرة إلى القاهرة حتى ثارت القرى على الحاميات الموجودة بها ، وما إن أفاقت القاهرة من صدمة هزيمة المماليك ودخول الفرنسيين القاهرة فى ٢٤ / ٧ / ١٧٩٨ حتى قامت بثورتها الأولى فى ٢١ / ١٠ / ١٧٩٨ . ثم بثورتها الثانية فى مارس أبريل ١٨٠٠ . وكان هذا حال باقى البلاد . فلم يهدأ للفرنسيين بال . ولم يستقر لهم حكم شامل لجميع البلاد طوال الثلاث السنوات التى أمضوها فى مصر . فما يكادون يخضعون قرية فى الصعيد ، ويتركونها لإخضاع أخرى حتى تهب الأولى ثائرة مرة أخرى . وكان هذا أيضاً الحال فى الوجه البحرى .

ولسنا بصدد تاريخ وجود الفرنسيين بمصر ، ولكن يعنينا موقف الأزهر وشيوخه وعلمائه أثناء الاحتلال الفرنسى .

فبعد معركة إمبابة اجتمع فى الأزهر بعض العلماء ، وفكروا فى الاتصال بالفرنسيين كما ذكر الجبرتى ، أو أن تجار الفرنج أشاروا عليهم بهذا الاتصال كما قالت المراجع الفرنسية . وبعد اتصالات تمهيدية انتدب العلماء اثنين منهم هما الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى — وسيرد ذكرهما ثانية بإذن الله — فقابلا نابليون فى معسكره بالبر الغربى . فأحسن مقابلتهما . وأظهر شعوره الودى نحو الأهالى ومكثا عنده إلى المساء . ولما عادا اطمأن برجوعهما الناس .

ودخل نابليون القاهرة فى ٢٤ يولية . وسكن بيت محمد بك الألفى بالأزبكية

وعرف نابليون قيمة الأزهر وعلمائه . وأثرهم فى قيادة الرأى العام . فأنشأ فى ٢٥ يولية ديواناً من عشرة أعضاء من علماء الأزهر هم :

١ — الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر .

٢ — الشيخ خليل البكرى (عينه

نابليون فى ١٧ من أغسطس نقيباً للأشراف بعد خروج السيد عمر مكرم كما سبق ذكره) .

٣ – الشيخ مصطفى الصاوى .

٤ – الشيخ سليمان الفيومى .

٥ – الشيخ محمد المهدى .

٦ – الشيخ أحمد العريشى .

٧ – الشيخ موسى السرسى .

٨ – الشيخ محمد الدواخلى .

٩ – الشيخ يوسف الشبراخيتى .

١٠ – الشيخ مصطفى الدمنهورى .

وجرت عادة الاستعمار من قديم الزمان أن المستعمر لا يستطيع حكم المستعمَرين حكماً مباشراً . فيقيم حكومة وطنية أو لجنة من المواطنين تكون واسطة الاتصال بين الأهالى وقوات الاستعمار وإنشاء مثل هذه اللجان ضرورى المستعمر فى بادئ الأمر على الأقل .

واختلفت الآراء فى تقدير من يقبلون عضوية هذه اللجان . هل يُعتبرون خائنين لوطنهم ومن أعوان الاستعمار ؟ أو يُعلون مواطنين صالحين يتحملون هذه المسئولية مع التضحية بسمعتهم لتخفيف ويلات الاستعمار عن مواطنيهم ؟

فقد رأينا السيد عمر مكرم يرفض البقاء تحت حكم المستعمر وغادر البلاد كما أن الشيخ محمد السادات لم يقبل عضوية هذا الديوان سواء عن شعور وطنى أو ترفعاً بمركزه الاجتماعى عن هذا المنصب . فهو سليل بيت السادات الوفائية العريق بنسبه الشريف . ومع ذلك ظل محل تقدير الفرنسيين يعملون حسابه . وإن كانوا يشكون فى إخلاصه حتى قامت ثورة القاهرة الثانية فى مارس سنة ١٨٠٠م فاضطهدوه أشد الاضطهاد .

ولا نريد ونحن نؤرخ للأزهر وشيوخه أن ندمغ أعضاء هذا الديوان بما يشين . كما لا نريد أن نصفهم بالبطولة . ولكن للتاريخ حقه . ونحن بشر غير معصومين ويجب ألا ننسى ظرف الاحتلال وأنه من الصعب رفض ما تطلبه القوة الغاشمة .

ولكن إذا ترجمنا لهؤلاء الأعضاء قد نصل إلى نتيجة فى سلامة الحكم . وطبيعى أن يختلف هذا الحكم من شخص لآخر .

ولن نترجم لهم جميعاً ، وإلا طال بنا الموضوع أكثر مما يجب . ولكن سنكتفى بإذن الله بالخمسة الأعضاء الأولين . لأن أولهم كان شيخ الأزهر ، وأن الخمسة كانوا أعضاء فى الديوان الأول والثانى والثالث فى عهد الفرنسيين وسنسوق هذه التراجم بعد إيجاز شرح هذه التشكيلات وظروف تشكيلها .

لم يدم الديوان الأول كثيراً فقد ذكر الجبرتى أنه فى ١٦ من ربيع الآخر سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨/٩/٢٧ م) أهمل شأن الديوان الذى يحضره المشايخ ، فاستمروا أياماً يذهبون فلم يأتهم أحد ، فتركوا الذهاب فلم يُطلبوا .

وأنشأ الفرنسيون ما أسموه محكمة القضايا من ستة أعضاء من تجار المسلمين وستة من تجار القبط والنصارى وجعلوا رئيسهم ملطى القبطى . وفوضوا إليهم الفصل فى أمور التجار والعامة ، والمواريث والدعاوى ، وطلبوا فى قرار تشكيل هذه المحكمة أن يتقدم الأهالى بما يثبت ملكيتهم للعقارات ، وإجراءات إثبات الملكية تستلزم رسوماً فى كل خطوة ، ثم يدفع رسم على العقارات بحسب قيمتها ، فإذا عجز الشخص عن إثبات ملكيته صودر العقار . كذلك فُرضت ضريبة على التركات وعلى جميع المعاملات من بيع وإيجار وهبة وغير ذلك . كما فرض أيضاً رسم على التصريح لانتقال أحد الأهالى من جهة إلى أخرى . ورسم على إثبات المواليد يقال له رسم الحياة . . إلخ .

وكان الفرنسيون مضطرين للمبالغة فى فرض الضرائب بعد أن حطم الأسطول الإنجليزى الأسطول الفرنسى فى ٢٨ / ٧ / ١٧٩٨ فى موقعة (أبو قير) أى بعد معركة إمبابة بأيام . فحوصر الفرنسيون فى مصر وانقطع عنهم أى إمداد من فرنسا .

وكان من ضمن الأسطول الفرنسى الذى دُمِّر البارجة Orient أى الشرق وذكرها الجبرتى فقال القايق الكبير المسمى (بنصف الدنيا) . وعلل المرحوم عبد الرحمن الرافعى هذه التسمية من الجبرتى بأنه ما دامت الدنيا شرقاً وغرباً . فيكون الشرق نصف الدنيا وهو تعليل فيه لباقة .

ولم يكن فرض هذه الضرائب هو السبب الوحيد لتذمر الشعب الذى اتضح له خداع الفرنسيين . ولكن كان هناك شعور يغلى فى نفوس هذا الشعب الذى استكان لعسف الحكم التركى لأنه حامل لواء الخلافة الإسلامية فلم يحتمل وجود هذا الأجنبى المختلف عنه ديناً وتقاليد . وألفى (بالفاء) العثمانيين لا حول لهم ولا قوة ، كما رأى المماليك يهربون بأنفسهم ، فلم يجد مناصاً من اعتماده على نفسه .

وهبت ثورة القاهرة الأولى فى ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ م . أى بعد ثلاثة

أشهر من دخول الفرنسيين القاهرة .

ولم تستمر الثورة غير يومين . فقد قمعها الفرنسيون بمنتهى الشدة والقسوة . وكانت منطقة الأزهر والحسنية وداخل باب النصر هى قوام الحركة . فأطلق الفرنسيون مدافعهم من القلعة وتلول البرقية (شرق القاهرة الفاطمية) مركزين على الجامع الأزهر وما حوله .

ولم يستطع الشعب الأعزل الاستمرار فى المقاومة ، فذهب المشايخ إلى نابليون وطلبوا إيقاف القتال فأجابهم ، وكف الأهالى عن المقاومة .

ودخل الفرنسيون المدينة فأزالوا ما أقامه الأهالى من متاريس وحواجز فى الشوارع والدروب . ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر فعاثوا فيه . وبحثوا فى الدواليب عما فيها من ودائع ومخبآت ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وداسوها بالأقدام ، وأهانوا كل من وجدوه من الأهالى ، وأخذوا فى القبض على كل من اعتقدوا أن له ضلعا فى الشغب .

وممن قبضوا عليهم خمسة من شيوخ الأزهر . وليسوا من رؤوس العلماء . منهم الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان . فاعتقلوهم بمنزل البكرى بالأزبكية فى ٢٤ أكتوبر – ٤ نوفمبر ثم نقلوهم ليلا إلى القلعة وأعدموهم . ولم يعلم إعدامهم إلا فيما بعد .

وفى هذه الثورة قتل من الفرنسيين ما يقرب من المائتين ، ومن المصريين أربعة آلاف تقريباً .

وبرهن المصريون أثناء هذه الثورة على ما جبل عليه هذا الشعب من كريم الطباع والسجايا بشهادة الفرنسيين . فقد آوى كثيرون من الطبقة المتوسطة من وجدوه من الفرنسيين أعزل من السلاح . وما حصل من النهب لبعض النصارى لم يقم به إلا عامة السوقة من المغاربة . والنهب لم يكن قاصراً على أملاك النصارى بل تعداه إلى أملاك المسلمين أيضاً . أى لم يكن هناك أى تعصب دينى .

وكان أثر الثورة فى النفوس بالغاً . فقد قضى نهائياً على تمويهات الفرنسيين . وكما ضاعت الثقة عند المصريين ، فقد زال الاطمئنان عند الفرنسيين ، فأمروا من كان سكنه بعيداً بالانتقال إلى الأزبكية ليكونوا قريبين من بعضهم وامتنعوا عن التجول فرادى أو غير مسلحين كما كانت عادتهم .

وعطل نابليون الديوان عقاباً للشعب ، وظل معطلا حتى ديسمبر سنة ١٧٩٨ م

ولكنه لم يستطع قطع همزة الوصل بينه وبين الشعب ، فاضطر إلى إعادته ثانية ولكن بصورة أخرى .

ففى ٢٤ / ١٧٩٨/١٢م قرر عمل ديوان من مجلسين . الأول عمومى من ٦٠ عضواً معينين بمعرفة الفرنسيين يمثلون العلماء والتجار والأعيان وأصحاب الحرف والنصارى والأقباط والشوام والجاليات الأجنبية . والثانى خصوصى من أربعة عشر عضوا ينتخبهم أعضاء الديوان العمومى .

وأصبح تشكيل الديوان الخصوصى خمسة أعضاء من العلماء (هم الخمسة الأولون فى الديوان الأول) واثنين من الأقباط ، واثنين من التجار المسلمين واثنين من السوريين ، وثلاثة من الأوربيين ، فكان هذا الديوان سبعة من المسلمين وسبعة من غير المسلمين . وانتخب الديوان الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيساً ، والشيخ محمد المهدى سكرتيراً .

وأصدر الديوان الخصوصى بيانه الأول فى ٢١ من شعبان سنة ١٢١٣هـ (٢٨ / ١ / ١٧٩٩ م) يحث الناس على الهدوء . وأن نابليون قد عفا تماماً عن حوادث الثورة . وأنه أعاد الديوان الخصوصى (لأجل قضاء حوايج الرعاية وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام ، وتنظيمها على أكمل نظام وإحكام .

نابليون يذهب إلى الشام :

وخرج نابليون فى فبراير سنة ١٧٩٩ فى حملته الفاشلة لغزو الشام . فتحطمت آماله تحت أسوار عكا . وأمد الله العرب بجنود لم يروها من ميكروبات الطاعون ففتكت بالجيش الفرنسى . واضطر نابليون للعودة إلى مصر فى يونية سنة ١٧٩٩م بعد أن خسر أكثر من ثلث قواته .

وعزل نابليون القاضى التركى . وكان يُعين من استانبول ولم يكن دائماً ذا كفاءة علمية تؤهله لمنصبه . فالمحسوبية والأغراض المختلفة كانت تتدخل فى تعيينه . وكلف نابليون أعضاء الديوان الخصوصى بانتخاب قاض مصرى من العلماء . فانتخبوا الشيخ أحمد العريشى عضو الديوان الأول وعضو الديوان العمومى الحالى . واعتمد نابليون الانتخاب وقرر رسماً اثنين فى المائة للتقاضى . وكانت هذه خطوة نحو استقلال القضاء فى مصر ، ورمزاً لديمقراطية لم يعهدها الشعب بانتخاب القاضى انتخاباً حراً من العلماء .

ويئس نابليون من تحقيق أحلامه بإنشاء إمبراطورية فرنسية فى الشرق ، فبرغم أنه فى ٢٥ / ٧ / ١٧٩٩ م انتصر على القوة التركية التى احتلت (أبوقير) بمساعدة الأسطول الإنجليزى فقد شعر بابتهاج الشعب لقدوم الأتراك حتى أعضاء الديوان الخصوصى الذين توجب عليهم مراكزهم مجاملة الفرنسيين لم يستطيعوا إخفاء هذا الشعور .

ورأى نابليون ضرورة عودته إلى فرنسا لما بلغه عن الحالة فيها وفى أوربا فسافر سراً فى أغسطس سنة ١٧٩٩م . وترك القيادة فى مصر لكليبر .

وبعد سفر نابليون استمرت الحالة الاقتصادية تتدهور من سيء إلى أسوأ بسبب كثرة الضرائب والمصادرات . وبدأ كليبر استكمال مفاوضات الصلح التى كان قد بدأها نابليون قبل سفره .

وكانت تركيا مصممة على جلاء الفرنسيين عن مصر . فى حين أن انجلترا كانت نيتها القضاء عليهم فى مصر . وأرسلت تركيا حملة بقيادة يوسف باشا ضيا الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) فتمكن من احتلال العريش فى ٣٠ / ١٢ / ١٧٩٩ م .

ثم أبرمت معاهدة العريش فى يناير سنة ١٨٠٠ م . واتفق فيها على جلاء القوات الفرنسية ومواعيد الجلاء عن البلاد المختلفة . وتأمين سفرهم إلى أوربا. ولم يوقع السير سدنى سميث قائد الأسطول الإنجليزى المعاهدة — مع أنه كان واسطة فى عقدها — وذلك لعدم تقييد حكومته بشروطها ولأنه كان فى تصميمه أخذ القوات الفرنسية فى مصر أسرى فى طريق عودتهم إلى أوربا حتى لا تزداد بهم فرنسا قوة فى عدائها مع الإنجليز .

وشرع الفرنسيون فى الاستعداد للجلاء وفرح الشعب بقرب رحيلهم وتقدم الجيش التركى حتى عسكر فى منطقة بلبيس ، وتقدم جزء منه حتى المطرية وعين شمس ، وبدأ العثمانيون وأمراء المماليك يدخلون القاهرة فرادى ، وذهب بعض العلماء لتحية الصدر الأعظم .

ولكن وصل إلى كليبر إنذار من الحكومة البريطانية بأنها غير مقيدة بمعاهدة العريش . وأنه سيقبض على أى قوة فرنسية تغادر مصر . وعلى القوات الفرنسية أن تسلم للإنجليز مالديها من أسلحة وذخائر . وأن يسلموا أنفسهم أسرى حرب .

فأنذر كليبر يوسف باشا ضيا الصدر

الأعظم بضرورة انسحاب الجيش التركى إلى الحدود السورية . ولم يضع كليبر وقتاً فباغت الجيش التركى فى ٢٠/٣/١٨٠٠م (٢٣ من شوال سنة ١٢١٤هـ) وكان الجيش التركى آمنا وفى حالة من عدم الانتظام وفقد الاحتياط . فهزم شر هزيمة . وانسحب يوسف باشا إلى فلسطين .

ولكن كانت كتيبة من الجيش التركى قد انفصلت عنه وأمكنها دخول القاهرة . ولما سمع الناس قصف المدافع فى عين شمس هاجت النفوس المتذمرة وقامت ثورة القاهرة الثانية فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ م . وكان من زعمائها السيد عمر مكرم والشيخ محمد السادات والسيد أحمد المحروقى كبير التجار .

« يتبع »

محمد كمال السيد

من عمريات عمر

كان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وهو خليفة ، كلما لقى أسامة بن زيد ، قال له : السلام عليك يا أميرى . . فيعجب زيد لهذا . .

فيقول له عمر : لا أدعوك إلا بأميرى . لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، مات ، وأنت أمير على .

وذلك أن أسامة كان أميراً على الجيش الذى أعده الرسول قبيل موته لغزو مؤتة ، وفى الجيش عمر ، فمات الرسول الكريم قبل أن يتحرك الجيش إلى وجهته ، فأمضى أبو بكر ما أمر به رسول الله ، واستأذن زيداً فى أن يدع له عمر ، ليكون إلى جانبه فى مواجهة الأحداث التى حدثت بعد وفاة النبى ، فأذن له .

هواتف إسلامية :

ترابط هذه الأمة

الدكتور إبراهيم أبو خشب

الإسلام فى أوامره ونواهيه . وتكاليفه وواجباته ، يربى اتباعه على نمط خاص من السلوك والأخلاق . والطباع والعادات والميول والأهواء ، ينتهى بهم إلى الحدب والعطف والمودة والحب ، ويجعل الاتصال فيما بينهم لايقوم على ضرورة العمران الذى تقضى به حياة الجماعة التى يضمها وطن واحد ، أو منفعة مشتركة ، أو أمانى غير متعددة . كما تقضى به المدنيّة التى تعيش فى ظلالها الأمم والشعوب وكفى ، وإنما يقوم على ترابط البعض بالكل ، أو الأعضاء المتنوعة بالجسم الواحد . وهى تكمل بناءه وتقيم هيكله وتبرز وجوده ، وتسهم إسهامًا لا شك فيه فى قوته وفاعليته ، أو معنى وجوده الذى به يكون شيئًا مذكوراً ، له خيار فى الفعل أو الترك والنفع أو الضرر . وليس أدل على ذلك كله من قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » واللبنة الواحدة إذا سقطت من البناء ، أو فارقت موضعها من الجدار أو كان بها خلل يفقدها أثرها الذى كانت تضيفه إليه ، أو عملها الجاد فى تماسكه ، جعلته عرضة للتداعى والسقوط ، ويبدو ذلك واضحًا تمام الوضوح وهو يصور ما يكون بين الناس من التواصى بالخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بجماعة حملتهم سفينة واحدة فى عرض البحر وكان بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها وكان هؤلاء الذين يحتلون الأسفل إذا أرادوا شيئًا من الماء تخطوا رؤوس الناس حتى وصلوا إلى العلو ليلقوا بالدلو فى الماء ليجئ إليهم بحاجتهم منه ، ولما شق عليهم هذا الصنيع قالوا ألا نخرق خرقًا من تحت أقدامنا ليجىء إلينا الماء من غير تلك المعاناة ، وفاتهم أنهم بهذا كالذى يسعى إلى حتفه بظلفه ، وهنالك يتحتم على الجميع

أن يضربوا على أيديهم ليحولوا بينهم وبين هذا الضرر الجماعى الذى سيودى بركاب السفينة كلهم — كما تقول الآية القرآنية — (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهكذا يكون هذا الدين فى تهذيبه لأبنائه وإرشاده لأتباعه ، وإعداده لمن ينضوى تحت رايته ، ونراه فى ذلك كله إنما يحث الفرد الواحد على أن تفنى فرديته فى الجماعة ، وتتلاشى فى الأمة ، وتذوب فى غيرها من سواء المسلمين ، وهو يهتم بأمورهم ، ويعمل لإسعادهم وبجلب لهم فى كل تصرفاته معهم البر والخير ، والهدوء والاطمئنان ، ويقول جل جلاله إعلاناً لهذا المعنى : (إن هذه أمتكم أمة واحدة) وكلمة أمة على انفرادها تعنى هذا اللقاء الوجدانى والامتزاج العاطفى ، والتقارب الشعورى وكأنما كانت كلمة (واحدة) بعد ذلك بمثابة التأكيد لما تؤديه كلمة أمة من الترابط والتلاحم ، وتقوية الأواصر ، وتلاقى الأهواء ، لأن كلمة أمة ، فى اصطلاح علماء الاجتماع تعنى هذا السواد من الناس الذين تضمهم مصلحة واحدة ووطن واحد . ولغة يتخاطبون بها ، ودين يعتقدون به اعتقاداً لا يختلف .

وكل هذه المعانى تبلورت فى شريعته صلى الله عليه وسلم التى جعلت رباط العقيدة وحدة بمثابة ما يكون بين الأفراد من الرحم والقرابة ، والنسب والمصاهرة ويوضح ذلك بشكل لا ريب فيه فرضية الجهاد على كل من يحمل السلاح إذا وجد من نفسه القدرة على الدفاع ، وصد غارة العدو ، فإنه مأمور بإغاثة غيره والدفاع عنه ، والإحساس بما يحس به إخوانه من هنا أو هنالك من المسلمين مهما تباعدت الديار أو كانت المشقة .

وإذا كان أقصى ما يكون بين الإنسان والإنسان من الاتصال والارتباط أن يكونا من أب واحد وأم واحدة ، ليكون كلاهما للآخر أخا ينتهى وإياه إلى وشيجة واحدة عنوانها هذه الأبوة وتلك الأمومة ، فإنه سبحانه وتعالى يؤكد ذلك كله فى قوله (إنما المؤمنون إخوة) ومن هنا كان علماء الشريعة الإسلامية يقولون إن حاجة الجماعة مقدمة على حاجة الواحد . وكان من سلوك الأنصار فى المدينة — مع هؤلاء الذين وفدوا عليهم من مكة مطاردين من عصابة الشرك — الإيثار الذى كان يقتضيهم أن يوفروا لهم الراحة والأمن ، والطعام والشراب ،

والمسكن والمأوى (يحبون من هاجَر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجَةً مما أُوتوا وَيُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بِهم خَصاصة) أما الأخوّة التى كان يصنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هؤلاء وهؤلاء فشىء آخر وراء ما يتصوره العقل البشرى من مصلح اجتماعى ارتآه خيراً بوعيه وإدراكه ، وحزمه وبصره . وعقله وتفكيره . لطائفة يريد لها أن تتماسك أجزاؤها ، وتتقارب أهواؤها وتتعاطف قلوبها وأفئدتها . إلى ذلك كله تؤتى أكلها ، وتتحقق ثمرتها .. إلى جانب ما كان ينادى به من البر ويدعو إليه من الخير ، ويرغب فيه من صنوف الإحسان ، وخلال الذوق واللياقة . التى تهفو إليها الطباع السليمة والميول المستقيمة ، كإماطة الأذى عن طرق المارة ، وعدم الإساءة إلى الجيران ، وهو يقول « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » ووصاته بالتجاوب الوجدانى الذى لا بد من وجوده بين أبناء آدم وبنات حواء والذى يتمثل فى عيادة المريض . والسؤال عنه ، وألا يبيت الرجل شبعان وإلى جانبه معدم يشكو من الجوع ، ويقاسى مرارة الحرمان ، وهى كلها أمور تؤكد هذا الترابط ، وتنمى هذا الامتزاج ، وتجعل التعاطف قائماً بين الناس مقام القانون . . وربما كان موقفه صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع مع الملأ المحتشد فى عرفات ليقول لهم « المؤمنون تتكافأ دماؤهم . ويسعى بذمتهم أدناهم . وهم يد على من سواهم » تجسيداً لتلك الحقيقة ، وإعلاناً عنها ، وطلباً لها ، إلا أننا نتساءل بعد هذا الذى ذكرناه من الوشائج المتنوعة ، التى لا تدع مجالاً للشك فى أن هذا الدين الذى اختاره الله لنا مائدة عامة نلتف حولها ، وتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، ونجعلها فيما بيننا قائمة مقام الرحم والقرابة ، والنسب والمصاهرة : هل ألفت الأجزاء ، وربطت الأهواء ، وقربت الأنحاء ، وضمت المتفرق ، وأزالت السدود والحدود ؟ ! . والحقيقة المرة — كما يقولون — ونحن نتحد فى الصيام والفطر، ويومى العيد ، وصلاة الجماعة ، والاتجاه إلى القبلة ، والاجتماع فى الحج الذى يعلل الله سبحانه وتعالى حكمة مشروعيته بقوله : (ليشهدوا منافع لهم) وهى كلها دلالات ناطقة من غير شك على أن يكون المسلمون كالجسد الواحد

إذا اختل فيه عضو من الأعضاء تداعى له كل الاعضاء بالحمى والسهر ، إلا أن منطق أرسطو لا محصل له أكثر من كونه قواعد نسلم بها ، ونذعن لها ، على أنها قضايا تحتمل الصدق والكذب وأن ارتباط المقدمات بالنتائج ذهنياً — أو عقلياً — غير الارتباط الخارجي ، ولو أن هذه الأشياء كلها قربت المسافات ، وألغت الفوارق ، وأيقظت عواطف الأخوة ، وربطت — بحق ما بين المسلم والمسلم . لما كانت هذه الإحن التي نعانيها ، والمحن التي نكابدها ، وذلك النفور الذي يجده النازح من بلده إلى بلد أخرى من تلك البلاد التي تشاركنا في شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وقد أصبح السعار على العيش ، والتكالب على الحياة ، والحرص على جمع المال هو القانون الذي يتحكم في السلوك والطباع . والآداب والأخلاق ، وكأنما الدين عندنا لم يكن إلا تكاليف جامدة . وعبادات تقليدية ، يؤديها أصحابها ليخرجوا من عهدة التكليف لا أكثر ولا أقل . من غير نظر إلى أن لها مغزى يحتم على الناس أن يلتزموا بنوع من الحدب والأدب . ولون من المودة والعطف ، ومعنى من التقارب والاتصال يحمل الفرد على أن يفنى في الكل ، أو يذوب في الجماعة كما تقضي بذلك كله الأوامر والنواهي لهذا الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ملك السماوات والأرض ، ومن هنا نهيب بالمسلمين أن يثوبوا إلى رشدهم ليجعلوا من دينهم هذا الرباط الذي يصل ما بين قلوبهم وأفئدتهم ليكونوا كما أراد الله لهم خير أمة أخرجت للناس .

د . إبراهيم على أبو خشب

قضايا لغوية ..
أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

(٤)

وهبَّ مؤيدو « الثنائية » يدعمون أسسها ، ويرسون مبادئها ، ويسوقون شواهدها :

● فذهب بعضهم إلى : « أن الطبيعة عينها ميالة إلى الثنائية، لا إلى الآحادية ، لأن أعضاء النطق عينها لا تخـــرج للمتكلم حروفاً صامتة متفرقة ، بل مقاطع مركبة من الصامتات تحركها الصائتات »[١] .

● ويرى بعضهم أن القـــول بأن اللغة الإنسانية نشأت بطريق المحاكاة وهذا رأى من آراء كثيرة قيلت فى نشأة اللغة — يرسى مبدأ هاماً من مبادئ « الثنائية » إذ أن هذا الرأى كشف عن عدد كثير من الأصوات اللغوية فى مجموعاتها . ولوحظ أن جل الألفاظ التى نشأت عن طريق المحاكاة هو وضع ثنائى . ولذا قال كثير من الباحثين : إن أصل حكاية

(١) معجميات عربية سامية ٩٨ .

الأصوات فى اللغات السامية — ومنها العربية — هو ثنائى يعتمد على حرفين صامتين ، حين حاكى الإنسان أصوات الطبيعة وغيرها من حوله بصيحاته وصرخاته الانفعالية ، وعبر بعد ما قلد عن حاجياته الطبيعية والحياتية .

ويرى الأب مرمرجى أن البرهان الحسى الجلى على وجود الثنائية هو : «فى أصل اللغة» ، يستخرج من العناصر الأولية للغة العربية ، وهى أسماء الأصوات ودعاء الحيوانات ، أو زجرها ، وبعض أسماء الأفعال ، فهى ثنائية ، ومنها كان بدء صوغ الفعل المضاعف ومكرره . دونك الألفاظ التالية — على سبيل المثال لأن منها فى اللغة شىء كثار — : « أف » كلمة تكره وتضجر ، و « آه » كلمة توجع و « به » و « بخ » كلمتان تقالان عند استعظام الشىء و « عس » « كلمة زجر للهر »[١] .

(١) معجميات عربية سامية ٩٩ .

وليس هذا خاصاً بالساميات ، بل لاحظ العلماء — أيضًا — أن لفظ « مو » في المصرية القديمة والصينية يعني (هرة) ، وجاء التوافق من أن الهرة سميت بالصوت الذى تحدثه .

(وسواء أكانت المحاكاة لصوت إنسان : كالقهقهة ، والنحنحة ، والتأوه ، والتأفف) .

(أم كانت محاكاة لصوت حيوان : كالزقزقة ، والمواء ، والصهيل ، والزئير) .

(أم كانت محاكاة لصوت الطبيعة ويطلق عليها المحدثون نظرية (بو — وو) (Bow-waw) ، وذلك كحفيف الشجر ، وخرير الماء وصرير القلم وهزيم الرعد) . .

وليس (ماكس موار Max Mueller هو صاحب نظرية « المحاكاة » حين أشار إليها فى محاضرته بلندن سنة ١٨٦٤ وأعطاها اسماً جديداً تعرف به هو (Ding-Dong) كما أشـــار بعض المعاصرين[١] . بل إن علماءنا القدامى عرفوها ، وأشار إليها ابن جنى (٣٩٢هـ) وحكاها عمن سبقه ، ووصفها بالصلاحية والقبول ، حين قال : . . . وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك . . . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ، ومذهب متقبل »[١] . فابن جنى يحكى عمن سبق . وفى حكايته هذه دلالة قاطعة على أنه كان مذهباً مقرراً وشائعاً بين السابقين من علمائنا .

وارتضى الشدياق هذا الرأى ، وذكر له أمثلة كثيرة تعزز رأيه ، فى كتابه القيم[٢] .

وأيد ذلك المستشرق الفرنسى (رينان) فى كتابه : (التاريخ العام للغات السامية) ، وذكر أمثلة كثيرة توضح التشابه بين الأصوات اللغوية فى مجموعتى اللغات الآرية والسامية[٣] .

والقول فى نشأة اللغة من أقدم المشاكل التى جابهت عقل الإنسان ، لأنه أمر يثير الخيال ، والحق الذى يقال بصدده أن كل النظريات فى القول بنشأة اللغة

---

(١) نظريات فى اللغة لأنيس فريحة ١٩ .

(١) الخصائص ١/٤٦ .
(٢) سر الليال فى القلب والإبدال ٢٢–٢٧ .
(٣) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ سنة ١٣٩٢ .

الإنسانية الأولى ليست يقينية ، ولا يسلم بها العلم ، لأنها حدس وخيال ، ونحن ندرسها على أنها افتراضات قيد البرهان ، وإن فسرت كل نظرية قدراً من الألفاظ فسيبقى قدر لا تتناوله هذه النظريات ، والسر : أن اللغة لم تبدأ — كما ذكرنا — منطقية ، إذ لم يكن هناك منطق ولا فكر ، كما أن قضيتها ليست لغوية بحتة ، ولا تدخل فى نطاق علم اللغة Languis Tic وحده ، بل تتشعب فى نطاق (البسيكولوجيا) (والأنثروبولوجيا) ، والفلسفة .

فنظرية المحاكاة وإن تعلق بها الثنائيون وفسرت جانبًا ، فهى تعطيهم شيئًا وسببا يؤيد وجهة نظرهم ، وعليهم سوق أدلة أخرى .

«ولكن يسجل لهم أن معظم الأصوات الثنائية كانت محاكاة لأصوات الحيوان أو الطبيعة ، أو الأصوات التى تسمع عند مزاولة الإنسان للأعمال التى تدل عليها الأصوات »[1] .

والنظرية تفسر ما يدل على المحسوس ويخرج عن دائرتها ما يدل على المعقول .

● وتعلق بعض مؤيدى « الثنائية »

(١) المصدر السابق نفسه .

إلى أن (نشأة اللغة إنما هى ثنائية المواد) أى أن قانون التطور يرشد إلى أن اللغة نشأت أول أمرها ثنائية المواد ، يتركب كل منها من مقطع واحد مغلق ، (أى من حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن) ، وحين دعت الحاجة إلى التنوع والمزيد اكتنزت هذه المواد إلى الثلاثية وما فوقها بالطرق السالفة وأن المعنى العام كامن فى الأصل الثنائى ، وما زاد عليه لم يزد المعنى إلا تنوعاً حسب الحاجة والمقتضى .

وحفلت المقاييس اللغوية لابن فارس بالأمثلة الوفيرة التى تؤيد ذلك ، وحذا حذوه الشدياق فى كتابه : « سر الليال فى القلب والإبدال » ، وللدكتور أمين فاخر بحث قيم لدراسة معجمية إحصائية ، فى ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية ، وعلاقتها بالأصول الثلاثية هو بمثابة التطبيق للنظرية التى نحن بصددها[1] .

ويذكر الدكتور محمد مصطفى رضوان — فى مقاله القيم عن الثنائية فى اللغة[2] طرقاً من أقوال المستشرقين الذين يؤيدون « الثنائية » ، ويستشهدون

(١) انظر ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية . طبعة أولى .

(٢) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ .

لها بما فى أخوات السامية ، يقول :

لقد طبق المستشرق الألمانى (فورست) النظرية الثنائية تطبيقاً عملياًّ فى معجمه الكبير الإنجليزى العبرى . مؤيداً نشأة اللغة ثنائية المواد ، من مقطع واحد مغلق أى من حرفين : أولهما متحرك حركته قصيرة ، وثانيهما ساكن .

ويقول المستشرق الألمانى (جزينس) فى كتاب له عن اللغات السامية ، وقد شرح فيه الثنائية شرحاً وافياًّ مؤيداً بالأمثلة : « إن ثلاثية الأصول اللغوية فى الفعل والاسم تلتزم بدقة واطراد فى اللغات السامية . . . إلى أن يقول : غير أن كثيراً من الأصول الثلاثية يمكن ردها إلى أصول ثنائية ، نسميها : جذوراً ، تفرعت منها جذوع ثلاثية وفوق الثلاثية .

والمستشرق الفرنسى (رينان) ، فى كتابه — التاريخ العام للغات — يزيد الأمر وضوحاً فى هذا الصدد ، يقول : إن من بين الأصول الثلاثية أنواعاً من الأفعال ، تعد ثنائية ولا تعد ثلاثية إلا لاعتبارات صرفية ، تلك هى الأفعال المضعفة والمعتلة التى لا يكون فيها لتكرار الحرف الثانى ، أو لإضافة حرف العلة تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل الثنائى ، وذلك نحو « ند » فإنه أصل ثنائى يفيد معنى الحركة أو الابتعاد ، سواء ضعف ثانيه ، فقيل : (ندّ) أو مد أوله فقيل : (ناد) أى تحرك أو تمايل من النعاس ، ومنه (تندد) الغصن ، أى تحرك . أو مد ثانيه فقيل : (ندا) يقال : ندا الشىء ، بمعنى تفرق ، والإبل النوادى ، هى الشوارد .

وان الأفعال الثلاثية المركبة من حروف صحيحة نجد — فى جميع الحالات تقريباً — أن أحد أحرفها الثلاثة أضعف من الآخرين ، وأنه لايحدث فى المعنى الأساسى إلا تعديلا طفيفاً[1] .

ومن ثم يبدو أن الأصل السامى الثلاثى يمكن رجعه فى الغالب إلى حرفين أساسيين أضيف إليها ثالث ليس له فى تغيير المعنى الأساسى إلاتأثير طفيف ، وأن الأصول الثنائية السامية هى العناصر البدائية التى لا تقبل النقص .

والقيمة التى تضيفها دراسة المستشرقين هى إلمامهم بلغات شقيقات للعربية ، وغيرها ، تبعد مدى الرؤية ، وتعلى من قيمة الشاهد ، وتقيم النظرية والتطبيق .

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ .

والأب مرمرجى يرى هذا الرأى ، وكثيراً ما ذكره فى مصنفاته ، ولخص فى أحدها بعض مبادئ الثنائية ورأى أن من نتائج هذه النظرية : أن المثال والأجوف والناقص «ماهى سوى مزيدات أو توسعات فى الرس الثنائى الذى يجرى فيه أول التوسع بتكرار الحرف الثانى منه ، أو بتشديده : أى بتكراره لفظًا ووضع الشدّة عليه كتابة ، وعادة يجرى التشديد فى اللغات السامية : إما لعذوبة اللفظ أو تسهيله ، وإما للمبالغة ، وإما للتأكيد والتأييد» . وعلى ذلك فالفعل (قام) مثلا ، أصله (قم) أشبعت حركة حرفه الأول ، مما يظهر فى السريانية فى كلمة (IAM) ولو تتبعت تصريف الفعل قام ، واتصاله بالضمائر ، لوجدت أن الأصل ثنائى وأنه يدل على معنى تام فى حالة الثنائية[1] .

ويؤكد الأب مرمرجى أن من الأدلة على وجود الثنائى فى أصل اللغات ولا سيما السامية منها : « هو أن المضاعف العربى الذى يقال : إنه مركب من ثلاثة أحرف أصلية — لانجد مقابله فى السريانية إلا بحرفين اثنين لا أكثر ، مثلا مقابل « حم » بالتشديد فى العربية نرى فى السريانية (حم) بالسكون ، وبإزاء (مص ومص)[1] .

● ويرى بعض العلماء أن الثنائية طبيعية التكوين ، بمعنى أن « طبيعة الحرفين اللذين تتكون منها المادة الثنائية لها دخل كبير فى بنائها على صورتها الثنائية ، إذ أن هذين الحرفين فى الغالب شديدان أو رخوان أو متوسطان بين الرخاوة والشدة .

ويرى كثير من علماء الفرنجة : أن المواد الأصلية المكونة من حروف شديدة هى على وجه العموم أقدم من المكونة من حروف رخوة أو متوسطة ويرجح أن الأخيرة نشأت عن الأولى بتخفيف الحروف الشديدة[2] .

ويؤيد ذلك ما ذكره الشهاب الخفاجى من أعجمية الكلمات التى تجتمع فيها حروف معينة ، مثل جردقة ، وجلنيق لصوت باب وكذلك : صنجة وصولجان . وأيضًا : نورج ونرجس . وأيضًا : مهندز وهندازة . وبست اسم لبلدة وسذاب وساذج ،

---

(١) معجميات ٩٦ — ٩٨ بتصرف .

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ .

(٢) شفاء الغليل ٦ ، ٧ .

وطاجن ، واصطبة . . . لأن الجيم والقاف ، والصاد والجيم ، والنون بعدها راء ، والزاى بعدها دال ، والباء والسين والتاء ، والسين والزاى ، والطاء والجيم والصاد والطاء لايجتمع شيء من هذه الحروف إلا ودل على أن الكلمة معربة ، وإن استعملها العرب .

ويعلق الدكتور محمد مصطفى رضوان على هذا بقوله : « لكن يبدو أن ترجيح أسبقية المواد المركبة من حروف شديدة على المركبة من حروف رخوة أو متوسطة لا يستند إلى دليل تاريخى .

ولعل الدافع لهذا الترجيح أن سنة التطور تقضى بالانتقال من الصعب إلى السهل كما أن العقيدة الغالبة لدى العلماء أن الأصوات القوية هى التى لفتت نظر الإنسان فى أول الأمر ، فحاكاها بحروف شديدة مثلها ، ثم حاكى الأصوات الخفيفة التى هى أقل من الأولى شأنا بحروف رخوة أو متوسطة [1] » .

وهو باستدراكه على ما بدأ به قد كفانا مئونة الرد ، والتعقيب . وبخاصة واللغة — كما أسلفنا — لم تنشأ منطقية ولا عقلية ، وتوحى سنة التطور والرقى بهذا التدرج .

● ووقف العلماء المؤيدون للثنائية طويلا عند طبيعة الحرف الذى يثلث المادة الثنائية .

وخلاصة رأيهم فيه : أن المعنى العام للمادة الثنائية كامن وباق فيها مهما توسعنا فى المادة بالزيادة ، وكلما رددنا موادها المزيد إلى الصورة الثنائية وجدنا الحرف الذى ثلث أصلها ما يبرح ذا قيمة تعبيرية ذاتية توجه المعنى الأصلى العام توجيها خاصًا ، وتزيده تنوعاً وتقييداً فقط .

وبعض علمائنا القدامى حذق الثنائية على هذا النمط ، كالراغب الأصفهانى (٥٠٢ هـ) كما فى مؤلفه : « المفردات فى غريب القرآن » إذ اعتبر المضاعف هجاء واحداً ، ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، لأنه عنده من وضع الخيال ، لا من وضع العلم والتحقيق .

ورد ابن فارس ، فى « مجمل اللغة » باب (الجيم والذال وما يثلثهما) إلى معنى الأصل ، كما فى جذر ، وجذع ، وجذل ، وجذم .. وإن تفاوت الاستعمال نتيجة للحرف الثالث : فالأصل العام للشجرة جذل ، وللنخلة جذع ، وللحساب جذر . . .

وفارس الحلبة فى شرح هذا المبدأ هو العلامة أحمد فارس الشدياق ،

(١) مجلة كلية الآداب .

والمستشرق الألمانى (جزينس)، وأجاد الدكتور محمد مصطفى رضوان فى عرض آرائهم عرضاً يوضح أهم مبدأ من مبادئ وأسس الثنائية فى نظره .

ولابد لنا فى هذا المقام من تلخيص هذا المبدأ ، كما ورد فى (مجلة الآداب الليبية فى عددها الرابع عام ١٣٩٢هـ) زيادة فى الفائدة ، ولتتضح جوانب الحقيقة فى هذه المشكلة التى طال أمدها ، وإظهاراً لبراعة الحس اللغوى للشدياق ، وكشفاً لعديد من مؤلفات لغوية حديثة غمرت الأسواق ، تسوق فكر الشدياق وغيره ، وبضاعتهم دون أن تذكرهم أو تعزو إليهم علمهم وفضلهم وسبقهم :

فقد رأى العلامة (جزينس) أن تنمية المادة الثنائية ، يتم بواحدة من خمس طرق أولها : تضعيف الحرف الثانى ، وتلك وسيلة أولى وطبيعية فى التنمية ، كما قال كثير من العرب والمستشرقين ووافقهم الشدياق ، وذكر ستة أسباب[1] للتدليل على صحة ما ذهب إليه ، نوجزها فيما يلى :

١ ـــ أن معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت أو صفته ، وحكاية الصوت إنما تأتى من المضاعف مثل : دب ، دق ، قر .

٢ ـــ أن الفعل فى الأصل كالاسم : فى كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفاعله ، فإذا اتصل بفاعله فتح : فحين وضع الواضع (دق) لم يقصد بها فى أول الأمر أن تكون فعلا ولا اسما ، بل مجرد حكاية لصوت توهمه ، بقطع النظر عن أى شىء آخر ، فلما وصل (دق) بفاعله ، قال : دق الرجل . فلما أراد تخصيصه بأن يكون اسما قال : دق الرجل . وكثيراً ما نرى صيغة الاسم والفعل واحدة لهذا .

٣ ـــ أن اللغة ـــ كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية ـــ لا يحدث شىء منها تاماً كاملا من أول وهلة ، ولكن على التدرج . فالأحرى أن نقول : إن الفعل السالم جاء آخر الأفعال أما الأجوف فإنه غالبًا ما يأتى عقب المضاعف ، مثل (طب) وطاب ، وصر وصار (أى صوت) . وأما الناقص : فإنه صدى غيره من الأفعال ، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب . نحو : همر وهمى ، والأسف

(١) سر الليال فى القلب والإبدال ٢٢-٢٧.

والأسى [1] .

٤ ـ أن حكم ترتيب المزيد المضاعف لا يكاد يتخلف : فقلما ترى للمضاعف معنى إلا ورأيت فى مزيده مثله أو ما يقاربه . والمراد بالمزيد هنا ما يكون الحرف الثالث فيه أو لامه غير عينه. وذكر لذلك أمثلة كثيرة تبلغ سبعة وخمسين ، منها : سل وسلب ، وكد وكدح ، ومن ومنح . . .

٥ ـ أن زيادة حرف على المضاعف أليق بحكمة الواضع فى التفنن من نقصه ، إذ لو جعلت السالم أصلا لزم عنه العدول من الكمال إلى النقصان ، والاختصار فى الأفعال ليس من مذهب العرب كما تدل على ذلك الأفعال المزيدة . ودليل آخر : وهو أنهم يشبعون الفتحة فى آخر الفعل فيتولد منها ألف ، كما فى : (دحب ودحبى ، وسلق وسلقى) ، وقس على ذلك زيادة الهاء فى هجزع للجبان ، والنون ، فى ضيغن ، والراء فى بحتر وبعثر .

٦ ـ أننا نجد أفعالا مجهولة الأصل وأصلها من المضاعف معلوم ، مثل : امتخر العظم ، أى استخرج مخه فهو لابد أن يكون من امتخ إذ لم يجئ المخر بمعنى المخ . وقس على ذلك تمخى العظم ، بمعنى تمخخه » .

ونخرج من ذلك بأن كل المضاعفات هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد حتى فى الساميات ، متصفاً بمعنى حقيقى وتام كما سبق أن ذكرنا للأب مرمرجى .

ثانيها : إضافة حرف علة إلى أول المادة أو وسطها أو آخرها : ويعلل الشدياق الإضافة فى الأجوف بقوله :

إن الأجوف غالباً ما يأتى عقب المضاعف ، كطب وطاب ، وضر وضار وجب وجاب . . .

وهو كثير فى العربية .

ويظهر أن السبب فى العدول عن المضاعف ، إلى الأجوف ، هو الرغبة فى التخلص من تشديد عين الفعل بمد حركة فائه ، لأن التشديد ثقيل ، حتى لا يكاد يوجد فى اللغات الآرية .

وسبق أن علل الإضافة فى الناقص بأنه : صدى غيره من الأفعال ، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب ، كما فى شجب وشجا ومحق ومحا .

(١) السابق ٢٩ ، وراجع أيضاً معجميات عربية سامية ٩٦ ـ ٩٨ .

والتقارب شديد بين معنى المضاعف والناقص ، كما فى : قضى . وغمى الحبر وغم .

والتقارب أيضًا شديد بين المضاعف والمثال ، كما فى : وقص (قطع) وقص . ووخز وخز .

ثالثها : إضافة حرف من حروف الزلاقة [1] ، إلى المادة الثنائية ، مثل : قص قصم ، قصر ، قصب ، قصف قصل . . .

رابعها : إضافة أحد حروف الحلق [2] إلى المادة الثنائية ، مثل : فق (فرق وفتح) وفقأ وفقع ، وفقح . ورد وردع . وقط وقطع . ومن ومنح ... فالمضاعف والحلقى معناهما واحد .

خامسها : إضافة حرف من أحرف الصفير [3] إلى المادة الثنائية ، مثل فر ، وفرز وفرس ، وقرص ، وكلها بمعنى فصل وفرق وقطع . ومثلها : فل وفلذ . . .

تلك هى الطرق الخمسة التى تثلث المادة الثنائية ، كما لاحظها علماء اللغة ، وكلها شاهدة بأنه لافرق بين المعنى العام للمادة الثنائية ، وبين المعنى بعد أن أضيف إليها ما يثلثها .

ويعرض علينا الدكتور رضوان — فى نهاية عرضه لآراء العلماء — مادة ثنائية حكائية ، مبيناً المواد الثلاثية المشتقة منها بالطرق المختلفة ، وهى مادة (قع) ، مما يؤيد أن أصل الثنائية فى لغتنا مكين وثابت ، يقول :

ويظهر أن مادة (قع) فى الأصل حكاية لصوت الرعد المزعج ، ومنها القعقعة ، وتقعقع أى اضطرب .

والمواد المتفرعة عن هذه المادة تفيد معنى الخوف أو الانكماش أو الاسترخاء بصورة ما ، لما يترتب على سماع هذا الصوت من خوف .

فمن ذلك (قبع) القنفذ : أدخل رأسه فى جلده ، بإضافة حرف زلاقى فى الوسط ومثله (قنع قنوعا) أى تذلل .

وبإبدال القاف كافاً ينشأ : (كع) الرجل كعوعاً ، أى جبن وضعف .

وبإضافة الواو فى الأول ينشأ (وكع) البعير ، أى سقط ضعفاً .

---

(١) حروف الزلاقة (أى الخفة) يجمعها قولك : (مر بنفل) .

(٢) حروف الحلق يجمعها قول الناظم :
همز فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء .

(٣) أحرف الصفير ، هى : السين والزاى ، والصاد ، ويلحق بها ما يقاربها .

وبإضافة حرف علة ، فى الوسط ينشأ (كاع) ، إذا هاب وجبن .

وبإضافة حرف علة فى الآخر ينشأ (كعا) ، أى جبن . والأكعاء ، الجبناء .

ويقال : كبع ، أى ذل ، و(كنع) انقبض . و(كنع) هرب . وكثعت الإبل : استرخت بطونها .

وبإبدال الكاف خاء تنشأ المواد : (خنع) الصبى ، أى فحم وأنهكه البكاء . . .

(وخنع) السراب : اضمحل و(خرع) الرجل : ضعف . ومثله : خشع خضع خنع . ولخع الرجل أى استرخى جسمه .

وأن نظرة على الطرق التى مرت عليها المادة السالفة ، والمعنى العام الذى يرتبط بالثنائية بقوة ، يدعونا أن نقرر : أن عدداً كبيراً من الأصول الثلاثية جاء تنمية لأصول ثنائية .

« يتبع »

دكتور / توفيق محمد شاهين

دعـــــاء

إلهى إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون .

إلهى تجنبت عن طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً .. فسبحانك ما أعظم حجتك على وأكرم عفوك عنى ، فبوجوب حجتك على وانقطاع حجتى عنك ، وفقرى إليك وغناك عنى إلا غفرت لى ، يا خير من دعاه داع ، وأفضل من رجاه راج ، بحرمة الإسلام ، وبذمة محمد عليه الصلاة والسلام .

الغزالى

الأمن الاجتماعي في الإسلام

العقيد / فكرى الجوهرى

طلع فجر الإسلام بنوره على شبه الجزيرة العربية وبدأ نشر الدعوة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانت تتفشى الآفات الاجتماعية فى المجتمعات من جرائم خلقية إلى تعدٍّ على النفس والمال إلى انحلال فى السلوك والتصرفات . ولم يكن من السهولة بمكان محاربة هذه الآفات التى تأصلت من قرون عديدة قبل الدعوة . . .

وقد تعرضت الدعوة الجديدة لمقاومة شديدة رغم أنها تدعو إلى خير الناس والعباد وإلى صلاح المجتمع ومحاربة الكفر والفسوق والعصيان ، إلا أن هذه المبادئ اعتبرها سادة القبائل العربية انتقاصاً من سلطانهم ونفوذهم وسلبا لحقوقهم ومحاربة لأهوائهم وتقوية للضعفاء والفقراء على حسابهم . .

ويرجع هذا إلى أن البشرية عاشت فى عصور ما قبل الإسلام تحت وطأة تهديد القوى التى تملك المال والسلطان ، وظلت القوة هى المسيطرة ، وظل الضعفاء يستجيبون لمطالب ورغبات الأقوياء صاغرين مستذلين .

وهذا الأسلوب فى المجتمعات ، لا يتفق مع المبادئ الأساسية فى حياة الفرد الإنسانى وأمنه فى رزقه وشرفه ومعاشه واستقلاله ، ومن ناحية أخرى حجر على فكره وسلامة تصرفاته ورغباته وعقيدته وحريته وهى أغلى ما يبتغيه فى حياته .

وكانت سياسة الإسلام فى محاربة هذه الآفات الاجتماعية بعيدة عن الاندفاع والقوة والاضطهاد لأن الإسلام يأبى أن تكون سياسته فى العلاج وتغيير أنماط السلوك فى المجتمع بنفس الطريقة التى كانت سائدة ، لذا كانت تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيِّبة والإيضاح المقنع . . . فلا إكراه فى الدين . . ولم يلجأ المسلمون

إلى الحرب إلا بعد أن أصبحوا مهددين بالعداوة المستمرة من أرباب الضلال وأهل السوء حتى رأينا الإسلام يستعمل القوة فى حالتين فقط حالة الدفاع عن النفس أو العرض أو المال ، وحالة الدفاع عن الدين والعقيدة . . .

والآفات الاجتماعية موجودة فى المجتمع منذ أن خلقه الله تبارك وتعالى بعد أن عصى آدم وحواء أمر ربهما واستمعا إلى صوت الشيطان واستجابا لدعوته وعصيا أمر الله وهبطا إلى الأرض حيث كان منهما فيما بعد قابيل وهابيل اللذان وقع بينهما أول صدام انتهى بجريمة قتل راح أحدهما ضحيتها — واستمرت الجرائم والآفات الاجتماعية تزداد وتستفحل فى المجتمعات وكان الله سبحانه وتعالى يهدى الناس بالرسل إلى أن ارتضى الله الإسلام دينا لخلقه ، وجمع فيه أسس أمن المجتمع وسلامته واستقراره بل ليجعل العالم كله أسرة واحدة لا فرق بين أحد وآخر لأن الجميع من آدم وآدم من تراب :

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).
(الحجرات ١٣)

ومن هذه المبادئ التى وضعها الإسلام للمجتمع :

١ — العدل ودفع الظلم عن الناس :

كانت أولى دعائم الإسلام لإصلاح المجتمع العدل والمساواة بين الناس ودفع الظلم عنهم . . . قال تعالى :

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).
(المائدة ٨)

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)
(النحل ٩٠)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله تعالى لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وهكذا كانت العلاقة بين الراعى والرعية منذ فجر الإسلام ، ويحكى أن الرشيد قال لابن السماك : عظنى فأتى له بماء يشربه فقال السماك الزاهد: لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك قال الرشيد : نعم قال : فما خير فى ملك لا يساوى جرعة ماء .

٢ ـ الإهتمام بالفرد كإنسان :

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن معاملة الفرد خاصة النساء والأطفال والشيوخ والرهبان . . حتى فى القتال مع عدو الحق فيقول :

« اغزوا باسم الله فى سبيل الله . . قاتلوا من كفر بالله ... اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » .

وأوصى أبو بكر أسامة بن زيد فقال ! : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفـــلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة » .

وهكذا لا يفرق الإسلام بين فرد وآخر لجاه أو سلطان أو لون أو جنس كما نراه فى الدول المتحضرة فى التفرقة بين الأسود والأبيض وبين المواطن وغير المواطن فقد ولى رسول الله بلالا وهو عبد حبشى على المدينة .

كما أوصى بإكرام الخدم والمماليك فقال :

« إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن فعلتم فأعينوهم » .

٣ ـ أهمية دور المرأة فى المجتمع :

اهتم المجتمع الإسلامى بالمرأة وكان لها دور كبير فى النهضة بل ألزمها الإسلام بمشاركة الرجل فى كفاحه ضد المبادئ الفاسدة ، لذا اشتركت المرأة فى الحروب جنبا إلى جنب مع الرجل بل وحملت السلاح وخاضت غمار معارك شأنها شأن الرجال ، وكان لها دور فى الحث على القتال وهذه أسماء بنت أبى بكر تقوم بدور كبير فى الهجرة ، تكتم الأسرار وتعرض نفسها للمخاطر .

٤ ـ احترام ملكية الغير والأموال العامة :

حرم الإسلام التعرض لأموال الغير والأموال العامة حتى لا يضار الإنتاج وحتى إذا كانت ملكية هذه الأموال فى بلاد العدو . . ومن وصية أبى بكر لأسامة قوله :

« ولا تعقروا نخـــلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل » ..

وقال الرسول الكريم :

« ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » .

٥ – السلام فى المجتمع :

الإسلام دين السلام نشأ فى أرض تعددت فيها الطوائف والأديان فى الجزيرة العربية وزادت فيه المنازعات بين العرب وتحكمت العصبية فى أمور المجتمع فجاء الإسلام ليعلن الأخوة الإسلامية داعياً إلى التضامن والمحبة مقرباً بين النفوس المتنازعة جامعاً الناس جميعاً فى وحدة واحدة . .

(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) (آل عمران) ثم إن كلمة الإسلام مشتقة من السلام والمؤمنون اتخذوا – المسلمين – اسما لهم (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) .
(الحج ٧٨)

كما أن تحية المسلم لأخيه المسلم هى– السلام عليكم – وختام الصلاة ، سلام على اليمين وسلام على الشمال – والقرآن نزل فى ليلة السلام :

(إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر (سورة القدر) والله تعالى يحيّ عباده بالسلام . .

(تحيتهم يوم يلقونه سلام)
الأحزاب ٤٤)

« كذا الملائكة يلقونهم بالسلام :

(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم) .
(الرعد ٢٣)

وجنة الله سميت بدار السلام (لهم دار السلام عند ربهم) الأنعام ١٢٧ كما أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى

٦ – الدعوة إلى مكارم الأخلاق :

أوصى الإسلام –لما فيه صلاح المجتمع – بالأمر بالمعروف والبعد عن الفساد الاجتماعى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .
(آل عمران ١٠٤)

ومن وصايا لقمان لابنه :

البر بالوالدين (ووصينا الإنسان بوالديه) .

والاستقامة (يابنى أقم الصلاة وأمُرْ بالمعروف وانه عن المنكر) .

والرجولة (ولا تصعر خدك للناس) .

والتواضع (ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور) .

٧ – حسن استخدام موارد الفرد والمجتمع :

حث الإسلام على الانتفاع بالأموال بما يعود بالخير على الفرد والمجتمع بأن يكون الإنفاق فى سبيل الارتفاع بالمستوى الاجتماعى للكافة . . . وذلك ببذل المال فى وجه من وجوه الخير وجعل الله الإنفاق فى مستوى الإيمان :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .
(الحجرات ١٥)

ومعنى السبيل هنا الطريق وسبيل الله طريقه الذى شرعه وارتضاه وأمر الناس بالاتجاه إليه والاستقامة عليه .

بل جعل الله الإنفاق وجها من وجوه البر :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة) .
البقرة (١٧٧)

وأنذر الله الذين يكنزون الذهب والفضة ويبخلون ويحبسون الأموال عن التعامل مما يعود بالضرر على الفرد والمجتمع :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) (التوبة ٣٤) .

ومن ناحية أخرى احترم الإسلام حرية تصرف الفرد فى أمواله حتى بعد وفاته فأرشد إلى احترام الوصية :

(كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًا على المتقين) .
(البقرة ١٨٠)

كما اهتم بالمواريث الشرعية وبين حدودها . .

(يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثلُ حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس . .) إلى نهاية الآية .
(النساء ١١)

(يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم) .
(النساء ١٧٦)

وضع حدود الأمن الجنائى :

قام الإسلام بوضع الحدود التى تكفل سلامة المجتمع والجرائم والآفات الاجتماعية لكى يأمن الناس على أموالهم وأعراضهم وحقوقهم . .

فوضع الحد للسرقة (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم) (المائدة ٣٨)

وفى هذا الشأن كانت السيرة النبوية فقال الرسول الكريم . . .

« والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وذلك ليبين الرسول الكريم أن القصاص يكون على كل فرد فى المجتمع مهما كانت منزلته أو درجته الاجتماعية .

ووضع الحد للقتل (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً) .

(ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) (النساء ٩٢)

وبين عواقب الربا (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا . (البقرة ٢٧٥)

(يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) . (آل عمران ١٣٠)

كما يبين ضرورة الوفاء بالديون وإثباتها (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) إلى نهاية الحكم فى الآية (البقرة ٢٨٢)

(بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) (آل عمران ٧٦)

كذا اهتم بالآفات الاجتماعية الأخرى: (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) (المائدة ٩٠)

كما وضع الحد على الآداب العامة وبين كيفية عقاب الزانى والزانية لما فى الزنى من اختلاط الأنساب وميلاد أطفال أبرياء ميلاداً غير شرعى ، ويكون مآلهم أن يصبحوا لقطاء مشردين .

والإسلام فى بيانه للحدود وتشريعه لأحقية الفرد فى الدفاع عن نفسه أو عرضه لم يفته بيان حدود الدفاع الشرعى بأن يكون رد الدفاع والاعتداء بالقدر اللازم دون مغالاة أو مجاوزة أو تنكيل :

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) . (البقرة ١٩٤)

احترام العقائد :

من مآثر الإسلام احترام العقائد الأخرى (لا إكراه فى الدين)

وهاهو الرسول الكريم يجيب يهود خيبر إلى طلبهم فى الصلح ويبقيهم على أراضيهم التى آلت له بحكم الفتح ووجد الرسول بين ما غنمه المسلمون عدة صحائف من التوراة فطلب اليهود ردها فاستجاب إلى طلبهم ولم يفعل معهم كما فعل الرومان فى فتح أورشليم عندما أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم . . كما لم يفعل ما فعل النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا التوراة .

وفى بلاد الشام طلب الأسقف صفرنيوس أن يسلم بيت المقدس للخليفة دون غيره .

وجاء عمر بن الخطاب بنفسه وهو خليفة المسلمين وصالحهم رغم مقدرة القوات الإسلامية على دخولها عنوة وجاء فى كتاب الصلح « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم » .

احترام العلاقات الأسرية :

اهتم الإسلام بالأسرة عماد المجتمع كما اهتم بالعلاقة الأسرية بين الزوج وزوجته وبين ضرورة قيام الحب والوئام والاحترام بينهما وأوضح أن للزوجة حقوقاً قبل زوجها كما للزوج حقوق ، وعلى كل منهما واجبات يجب أن يقوم بها لانتظام الأسرة ودوامها .. وشروط الزوجة الصالحة :

(ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) . (البقرة ٢٢١)

حتى العلاقة الخاصة بين الزوجين :

(نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين)
(البقرة ٢٢٣)

كذا العلاقة الصحية بينهما :

(ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) (البقرة ٢٢٢)

فإذا كان مآل الأسرة إلى الانفصال فهناك حدود للطلاق :

(والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) . (البقرة ٢٢٨)

(الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) (البقرة ٢٢٩)

ـ كما أن للأطفال حقوقاً فى الأسرة

(والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) (البقرة ٢٣٣)

ولليتامى حقوق حتى لا يستغل ضعفهم الاجتماعى .

(وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً) (النساء ٢)

ولاحترام كيان الأسرة الكبيرة واحترام أفرادها وعدم اختلاط الأنساب وحسن السلالة التى تتكون منها الأسرة قال تعالى . .

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) . (النساء ٢٢، ٢٣)

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم للفرد المقدم على الزواج الزوجة التى يختارها فقال :

« تنكح المرأة لأربع : لمالها وحسبها وجمالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » . . صدق رسول الله .

تلك هى بعض تعاليم الإسلام ونظمه فى إصلاح المجتمع ، والتى يستغلها البعض فى الشرق أو الغرب لينظمها فى مواد أو نصوص يعتبرها مبادئ حديثة ونظماً مبتكرة ولو عاد المسلمون إلى كتابهم المقدس وسنة رسولهم لصلح حال المجتمع وقلت مفاسده .

عقيد شرطة / فكرى الجوهرى

المسيحية توحيد لا تثليث
والإسلام ضرورة عالمية

الأستاذ زاهر عزب الزغبي

إذا تفحصنا جوهر الديانة المسيحية وخطوط تحركاتها والنهج الذى سار عليه نبيها عليه السلام نجد أن السيد المسيح فى البداية قد حاول أن يبقى من البناء اليهودى حوائطه السليمة بعد أن يغسلها مما شابها من أرجاس، وأن يحصر دعوته فى إصلاح المجتمع اليهودى لاسواه فى إطار من الاعتراف بفكرة تفوق العنصر الإسرائيلى وأنه الأول والأحق بهداية الله . . ومن ذلك ما رواه إنجيل متى فى إصحاحه الخامس عشر من أن امرأة كنعانية وليست من بنى إسرائيل اعترضت سبيله حينما كان فى طريقه إلى صور وصيداء مستغيثة متوسلة إليه أن يشفى ابنتها المجنونة فلم يأبه لها ولم يجبها بكلمة وطلب منه تلاميذه أن يصرفها .

فأجاب وقال : « لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة — فأتت وسجدت له قائلة : يا سيد أعنى فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب » وقد رويت هذه القصة أيضًا فى غير إنجيل متى من كتب العهد الجديد .. ولكنه فى داخل هذا النطاق مضى فى دعوته الإصلاحية فارتقى بالعقيدة الدينية حيث أعطى للألوهية صفاتها الأسمى ونزع عن الإله قناع الغلظة والجبروت ، وركز الأضواء على الصفات الإلهية المحببة . . فهو الإله الرحيم البار ناصر الضعفاء ومواسى المكلومين وسعت رحمته كل شىء فى ملكوته « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات . طوبى للحزانى لأنهم يتعزون . . طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض . . طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون . . طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . . . طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون . . طوبى للمطرودين من

أجل البر لأن لهم ملكوت السموات . طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين . افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات » . (إنجيل لوقا ٥ : ١٢/٣) . ولم يعد الإله بعد المسيحية كما كانت تصفه أسفار العهد القديم بالغطرسة والكبرياء والاندفاع مع قصور الإمكانيات والعجز والحماقة فى كثير من الأحيان . . بل هو الإله الكامل « فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (لوقا ٥ : ٤٨) .

« أبانا الذى فى السموات .. ليتقدس اسمك . ليأت ملكوتك .. لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض .. خبزنا كفافنا اعطنا اليوم . اغفر لنا ذنوبنا ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير . لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد » (لوقا ٦ : ١٣/٩)

وصحح المسيح العقيدة اليهودية فيما يختص بالثواب والعقاب واليوم الآخر فقال بالبعث والحياة الآخرة . . وأن الناس جميعاً سيحاسبون على ما قدمت أيديهم فى الحياة الدنيا ويلقون جزاء وفاقا على كل كبيرة وصغيرة من أعمالهم : « ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حسابا يوم الدين — لانك بكلامك تدان » (متى ١٢ : ٢٧/٢٦) .

وكان اليهود قد استهانوا بشريعة موسى حتى أصبحت أحكامها مجرد قيود شكلية . . فاليهودى غير ملزم باتباع هذه الأحكام فى تعامله إذا كان الطرف الآخر غير إسرائيلى . . أما بالنسبة لفعاليتها فى تنظيم الشئون الدينية والمدنية داخل المجتمع الإسرائيلى نفسه فإنه كان لكل مخالفة لأى من أحكامها قربان يمحو إثمها كما كان لكل خطيئة صدقة تغفرها . . فجاء السيد المسيح والشريعة الموسوية برمتها شبه معطلة . فعاب على اليهود مخالفتهم الآثمة لشريعة الله وأحكام دينه وحاول أن يعيد للشريعة قداستها فتركزت مواعظه على إظهار حكمة التشريع وتشدد فى المطالبة باتباع روح القوانين لا جوانبها الشكلية . . » قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل . ومن قتل باطلا يكون مستوجب الحكم . . وأما أنا فأقول لكم : إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم . . ومن قال لأخيه رجساً يكون مستوجب المجمع . . ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم

فإن قدمت قرباتك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئًا عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولا واصطلح مع اخيك . . وحينئذ تعال وقدم قربانك . . قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، وأن كل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم : إن من طلق امرأته إلا لعلة يجعلها تزنى ، ومن تزوج مطلقة فإنه يزنى . . أيضًا سمعتم أنه قيل للقــدماء لا تحنث بل أوف للرب أقسامك . . وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة . لا بالسماء لأنها كرسى الله ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه . ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم . ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء . . بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا . . وما زاد على ذلك فهو من الشرير .

سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا .

سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ـــ وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم . . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم . . لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين . . لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم . أليس العشارون أيضًا يفعلون ذلك . . فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو أيضًا كامل (متى ٥ : ٢١ /٤٨) . . ويمكن تلخيص نظرة المسيح إلى قوانين الشريعة بأنه تشدد فى المطالبة باحترامها إلى درجة تباعد بين ضمير الإنسان وبين مجرد التفكير فى انتهاكها ، وليس فى حضه على الاستسلام للطمة . وعدم مقاومة اللاطم أى تعطيل لمبدأ القصاص لأنه لم يسقط العقاب الرادع للاطم وإنما هو يأمر بالابتعاد عن الشر والعنف حتى فى مقام مقاومة الاعتداء .

ولقد ظلت المسيحية دعوة خاصة بالإسرائيليين أو حركة إصلاحية لتصحيح ما طرأ على اليهودية من مفاسد طوال حياة المسيح فى الأرض . ولكن الموقف العدائى الفظ الذى وقفه كافة اليهود من هذه الدعوة والذى كانت خاتمته مؤامرة دنيئة دبرها اليهود لهذا النبى المسالم لتودى به فى النهاية حسب ما اعتقدوا إلى خشبة الصليب ظلما وبلا مبرر . . وجعلت

حوارييـــه المخلصين يجدُّون للنجاة برقابهم فى الهرب بعيداً عن ظلم اليهود ووحشيتهم. وتفرق هؤلاء الحواريون فى أنحاء الأرض يلتمسون الملجأ والأمان فى سائر بقاعها لدى كل من يجدون عنده استعداداً للعطف عليهم والتصديق بدعوتهم والاعتراف بمبادئهم . . ومن ثم أتيح لغير الإسرائيليين أن ينعموا بالزاد الإلهى الذى أعرض عنه بنو إسرائيل ورفضوه . . وعندما خرج التبشير بالتعاليم المسيحية عن نطاق الإسرائيلين وجد قبولا شديداً لدى سائر الشعوب التى كانت متعطشة إلى الإيمان بالله والاسترواح برحمته وهداه فسرعان ما انتشر الدين الجديد حتى غطى فى زمن وجيز معظم أنحاء العالم الوسيط ، بما فيه من الشعوب والأجناس ، أما الإسرائيليون فسرعان ما لقوا الجزاء الوفاق — على ما كانوا فيه من غى وظلم وبهتان — على يد الرومانيين الذين وجدوا فيهم شعباً متمرداً يستحيل إصلاحه أو تقويمه ووجدوا أن لا مناص لقمع الفتنة من استئصال جذورها ، فلجأوا إلى وسائل العنف والقسوة وأطلقوا فيهم يد التقتيل والإبادة ،وبذلك انتهى عهدالإسرائيليين كشعب بعد أن قتل منهم من قتل والذى بقى منهم حياً هرب بجلده إلى حيث لا تمتد إليه يد الرومان لاجئاً يلتمس الأمان فى ذلة ويبغى الحياة فى مهانة .

ولقد مضت المسيحية فى عهدها الأول تكتسح بروحانيتها وبساطتها مناطق شاسعة فى أوربا وحوض البحر الأبيض المتوسط ولكن الوثنية والفلسفة الإغريقية سرعان ما تسللا إلى تلك العقيدة السمحة . . فنى القرنين الأولين من ميلاد المسيح كان الاعتقاد بإله واحد لا شريك له هو أساس الديانة المسيحية . . ولكن بعد أن اعتنقت هذه الديانة الجديدة شعوب شتى من الوثنيين اليونان والرومان والمصريين. وكلها شعوب قد تأصلت فيها وعمقت جذور الوثنية نشأت طوائف وفرق ترى كل منها فى العقيدة رأياً يخالف الأخرى. وكانت شخصية المسيح نفسها موضوع الخلاف ومحوره — فمن قائل بأن المسيح ليس إلا رسولا من عند الله فقط ، وليست له منزلة أكثر من شرف السفارة بين الله وخلقه كسائر الأنبياء . . بينما يرى فريق آخر أن للمسيح علاقة بالله من نوع خاص فهو فى منزلة أشرف وأعلى من مجرد الرسول لأنه من الله بمنزلة الابن . .

فقد خلق من غير أب . ولكن ذلك لا يمنع أن يكون المسيح مخلوقًا لله ، لأنه هو كلمته ، ويرى فريق ثالث أن المسيح ابن لله ، له مثل أبيه صفة القدم والدوام السرمدى . . وإذا كانت البيئات الوثنية التى نشأ فيها المؤمنون الجدد لها تأثيرها فى هذا الانحراف الخطير — فإن الأرجاس التى علقت بالمسيحية منذ البداية فى منبتها الأصلى لا تقل عن ذلك تأثيراً أو خطورة .

وقد كان اليهود يعتقدون منذ البداية أنهم كشعب مختار ينتمون أيضًا إلى عنصر إلهى ، فقد جاء فى الإصحاح السادس من سفر التكوين : « حدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسناوات اتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . . وبعد ذلك أيضًا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم » .

فلما جاء المسيح وحاول جهده أن يصحح الصورة الفظة التى رسمها الكهنوت اليهودى لله كان دائماً (ليؤكد رحمته ولطفه وبره) يدعوه مجازاً بالأب الذى فى السماء .

وفى خضم هذه الفوضى العقائدية التى اشتد فيها الخلاف إلى درجة هددت[1] ما تضمنه الدين الجديد من مبادئ سامية ومثل أخلاقية رفيعة بالضياع والزوال . قام فى مصر داعية جرىء قوى الحجج ينقد بجرأة وبأسلوب فصيح لاذع رؤساء كنيسة الإسكندرية فيما يبثونه بين المسيحيين ويروجون له من ألوهية المسيح . وكان هذا الداعية هو آريوس الذى أخذ على عاتقه أن ينقذ المسيحية من أن تسلك نفس الطريق الخطر الذى ضلت فيه وضاعت من قبل اليهودية ، وكان رأى آريوس أن الإله واحد وليست هناك أية وجوه للاقتران أو التشابه بين طبيعتى الله والمسيح الذى هو مجرد بشر . وأن الله كان بينما لم يكن المسيح إلا بعد أن خلقه الله وصنعه كما يخلق ويصنع كل ابن أنثى من بنى الإنسان فى أوانه ووقته المقدور المحدد . . ومضى آريوس يفسر نصوص الأناجيل التى وصف فيها المسيح ربه بأنه أبوه بأن ذلك لم يكن إلا محض تعبير مجازى لا يعنى حقيقة البنوة — وإنما يعنى الحب والرحمة . . ولقد ازداد أتباع

---

(١) ملخص عن كتاب محاضرات فى النصرانية للشيخ أبو زهرة .

آريوس وكثر مشايعوه إلى درجة جعلت كنيسة أسيوط تعترف بهذه المبادئ الآريوسية اعترافاً مطلقاً وتنفصل كلية عن كنيسة الإسكندرية التى تمسكت بتأليه المسيح واعتباره ابنا حقيقياً لله .

ولما اشتد النزاع وكثر أشياع آريوس ومؤيدوه فى كل من مصر ومقدونيا وفلسطين وأوشكت الفتنة الدينية أن تقع بعد أن استشرى الخلاف واتسع لم يجد قسطنطين إمبراطور الرومان بداً من أن يدعو رجال الدين وزعماء الطوائف فى جميع الإمبراطورية إلى مؤتمر عام، وفى سنة ٣٢٥م اجتمع بدعوة من الإمبراطور فى مدينة نيقية حشد من البطاركة والأساقفة قدره ابن البطريق بألفين وثمانية وأربعين ليتدارسوا المصادر الدينية ويقرروا الأوفق والأصح فى العقيدة والدين .

ولقد أسفر هذا المؤتمر الذى عرف باسم « مجمع نيقية » عن قرارات خطيرة أهمها الاعتراف بألوهية المسيح وأنه من جوهر الله وأنه قديم بقدمه ولايعتريه تغيير ولا تحول . . كما قرر المجمع إعدام كل الكتب والمأثورات التى تخالف القرار واعتبار كل من يقول بغير ذلك كافراً مجدفاً ملعوناً مطروداً من حظيرة الرحمة والغفران .

وابتداء من مجمع نيقية أخذت العقيدة المسيحية تتعقد وتبتعد شيئاً فشيئاً عن إمكانية الإدراك والفهم . . وأخذت شخصية المسيح تأخذ مكانها المرموق على عرش الألوهية ضريباً وقريناً لله ذاته باعتبار أنهما من طبيعة واحدة أومن طبيعتين مختلفتين توحدهما روح القدس أو أن المسيح نفسه يتكون من طبيعتين متباينتين ناسوت ولاهوت تقربه الأولى من الناس وتربطه الثانية بالله .

وفى هذه الآونة راح الملايين من المسيحيين ضحايا للخصومة العاتية بين الفرق والطوائف المسيحية بسبب خلافات سفسطائية أضاعت للدين هيبته وذهبت ببهاء قدسيته وتحولت تعاليم المحبة والرحمة وصفاء القلب ونقاء الروح التى تضمنتها المسيحية (على يد المسيحيين أنفسهم) إلى دواعى للفرقة وللخلاف وللقسوة .. بل باسم هذه المبادئ نفسها قتلوا الأنفس وأزهقوا الأرواح ونكلوا بمخالفيهم وعذبوهم بأفظع ما عرفت الإنسانية من صور القسوة والوحشية .. وفى سبيل الفوز فى هذا التطاحن الدينى راح رجال الدين ورؤساء الطوائف يتقربون إلى الأباطرة والولاة وينافقونهم

ليستعينوا بهم على خصومهم . وليس من جديد الآن أن يقال بأن رجال الدين قد ذهبوا آنذاك إلى حد تزييف التعاليم المسيحية وتحريفها على نحو يصادف هوى ومطامع ذوى السلطان حتى يتقربوا إليهم ويضمنوا نصرتهم .

ولم يأت القرن الخامس الميلادى حتى كان العالم كله يعانى فوضى فى الأخلاق وبلبلة فى الفكر وفقراً فى الروح . . فالمسيحية بسبب انحرافها إلى معركة عقائدية قاسية قد دمرت مثلها وروحانيتها وداخلها الكثير من الأباطيل والأراجيف التى دست إلى التعاليم الصحيحة فشوهتها مما أفقدها القدرة على مواصلة التقدم نحو هدفها المنشود فى تكوين مجتمع فاضل تنظم شئونه بوحى الله وهدايته ويسوده الحب والإخاء والمساواة والإيثار والرحمة . . وتحولت من دين حق تنبنى فلسفته الرئيسية على مبادئه ومثله الرفيعة إلى دين يدور حول محور واحد ويعتمد على ركيزة واحدة هى شخصية الداعية وبدلا من أن تتطور من خلاله العقيدة والإيمان بالله هبطتافيه إلى درك يرفضه كل من العقل والفطرة .

تجددت ضرورة العالم إلى دين جديد :

وفى هذه الآونة كانت الفلسفة الإغريقية والتجربة التى خاضتها البشرية خلال اليهودية والمسيحية قد ارتقت بالمعارف الإنسانية والثقافة العامة إلى درجة كبيرة من النضج فلم تعد نفوس الناس ولا عقولهم تقنع بما دون المثالية الكاملة .

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه العقول والنفوس تواقة إلى المثالية والكمال فى الفكر وفى القول وفى الأخلاق . . كان العالم كله يعانى من الفوضى فى كل مجال من مجالات الحياة . . فالوثنية الدينية كانت لم تتزحزح بعد عن عرش أمجادها فى أنحاء شتى من العالم المعمور . . بل كانت قد تمكنت من التسلل إلى حيث خالطت العقيدة الدينية فى قلوب المؤمنين بالمسيحية واليهودية . . وكانت شريعة الغاب هى الدستور الأقوى فى كيان المجتمعات ونظم الحكم . . وكان التسلسل الطبقى فى كل مجتمع قائم آنذك يضمن لقلة ضئيلة التمتع بكل ما أتيح للأحياء من مباهج واستمتاع بينما لم يبق للغالبية العظمى إلا التعاسة والقسوة والشقاء ، وفى مثل هذه المجتمعات لا يمكن أن تتحقق عدالة اجتماعية أو مثالية أخلاقية أو استقرار فكرى . . ومن ثم كانت هناك ضرورة ملحة تقتضى ثورة إصلاحية شاملة تقوض كل القيم الفاسدة من أساسها وتشيد من جديد

عالماً آخر تتحقق فيه للإنسان كرامته ويجد فيه مثالية فى الأفكار ومبادئ الأخلاق تقتنع بها العقول وتمتلىء منها الأرواح وتتشبع بها النفوس .

ولما كانت الحضارة قد وصلت فى العالم إلى طور بلغت فيه الإنسانية دور الاستواء والنضج وازدادت فيه الروابط والصلات الفكرية والتجارية والسياسية بل وتشابكت فيه كل المصالح الإنسانية بين سائر المجتمعات فى العالم . . فكان من غير المجدى أن تجىء الثورة الإصلاحية لتعالج العيوب والمفاسد السائدة معالجة جزئية أو محلية . . بل كان يتحتم أن تكون هذه الثورة عامة شاملة من حيث أسسها ومبادئها حتى تناسب العالم كله وحتى تتيح للبشرية كلها نمطاً من التنظيم القويم وتنتشلها من وهدة الفوضى والارتباك اللذين يعوقانها عن أن تنطلق بعد أن تم نضجها واستواؤها — لتبنى صرح أمجادها ولتحقق كيانها ولتستغل كافة إمكانياتها وقدراتها فى زيادة غير محددة لجميع الآفاق والمجاهل حيث يتيح التوسع الفكرى والعلمى أن يزداد الإنسان معرفة بربه وبذاته وبعالمه وأن يعرف متى وكيف ينتفع بكل ما يحويه هذا الكون الهائل من خيرات لا تحصى فيتحقق له ما ينشده وما يريد له الله من سعادة وهناء ومتعة .

وكانت كل الظروف مهيأة والعوامل متوفرة لهذه الثورة الإصلاحية العالمية المنشودة . وكان مرور كل برهة زمنية مهما كانت ضآلتها يسبب يأساً وقنوطاً فى النفوس المتشوقة المترقبة للإصلاح بعد أن استطال صبرها على الفساد والبؤس ، وفى نفس الوقت كان الفساد الاجتماعى والدينى قد عمقت جذوره واستشرى بحيث كان كفيلا أن يقضى على أية ثورة فكرية أو دينية أو اجتماعية ؛ وكانت عناصر الرجعية والتعصب والفساد الدينى والاجتماعى قد تركزت وتحصنت فى منطقتين استراتيجيتين فى العالم وهما دولة فارس العظمى والإمبراطورية الرومانية الشرقية . . وفى هاتين الدولتين كانت أية محاولة للإصلاح كفيلة بأن يقضى عليها وهى لا تزال وليدة فى مهدها .

وفى وسط هذا العالم القلق المضطرب المشوق للخلاص كانت شبه الجزيرة العربية بقعة يسودها الهدوء والاستقرار النسبيان لأن الترابط القبلى بين أعراب الصحراء وبدوها قد جعل بين سكان تلك البقعة المنعزلة تماسكاً اجتماعياً يناسب ظروف المكان والبيئة ، فألفته

النفوس وعاشت فى كنفه ردحاً طويلا من الزمان . . ومع أن هذا النظام القبلى فى شبه الجزيرة كان مشوباً بالكثير من عناصر الإقطاع والعنجهية الطبقية إلا أن ما خالطه من شوائب الفساد الاجتماعى كان شيئاً لا يستحيل أو يعز إصلاحه كما أنه كان من طبيعة العرب أن يتمدسوا حرية الرأى كما كانت القبيلة تتكالف على نصرة كل من ينتمى اليها وحمايته من كل أذى ، فكانت البقعة الوحيدة التى يمكن أن تقوم فيها دعوة للإصلاح الدينى والاجتماعى تجد لها الداعية الكفء بين قوم يجيدون فن التعبير ويحترمون حرية الكلمة وتضمن تقاليدهم الأمان لهذا الداعية الذى تجد قبيلته أن واجبها يحتم عليها أن تنصره وتبعد عنه كل ما يهدد حياته أو يعوقه عن مواصلة مهمته . وفى حاضرة هذه الصحراء « مكة » ومن قبيلة من أشرف قبائل العرب وأشدهم بأساً وجاهاً « قريش » .ومن أعرق بطون هذه القبيلة وأنقاها نسباً وأعلاها شرفاً جاء محمد بن عبدالله يتيما فقيراً كفله جده ثم عمه فقضى صباه فى غير يسر وعاش أيام عمره الأولى فى غمرة الحياة كادحاً فى غير بؤس ، فبقيت له نفسه النقية لم تتلوث بأوشاب الغنى والبطر كما بقيت له روحه السمحة لم تكدرها مرارة التعاسة والحقد شأن كل معوز . ومنذ كان صبياً عرف عنه أنه يتصف بكل مزايا الإنسان وليس فيه شىء من نقائصه ، ثم اشتغل بالتجارة — شأن كل شريف من قومه — فازداد خبرة بالحياة وتجربتها وتكامل اتساعاً فى الحجى ونضجاً فى الرأى ، فكان الرجل الأصلح للاضطلاع برسالة الله والدعوة لها .

ونحن إذا تدبرنا كل ظروف ذلك العصر وملابساته وجدنا أن العالم كان فى حاجة ملحة إلى إنقاذ عاجل . . إلى رسالة إلهية تقضى على فوضى عارمة كانت كفيلة بأن تقضى على الإنسانية أو تبقيها فى جاهلية بهيمية . . وكان لا بد لهذه الرسالة الإلهية حتى تنجح أن تكون شاملة عامة غير موقوتة أو محلية وأن تتوافر لها فى البداية البيئة المناسبة حتى تنضج وتتكامل تعاليمها ومبادئها . . وأن يقوم بها داعية كفء

وبالاختصار كان ولا بد للدعوة الإسلامية أن تقوم فى وقتها وفى مكانها وأن تكون دعوة عالمية شاملة . وأن يكون داعيتها هو محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وتسليماته .

زاهر عزب الزغبى

الشريعة الإسلامية والقانون الإنجليزى

حَد شُرب الخَمر

المستشار حسن حسب الله

(١٤)

عرفت البشرية صناعة تقطير الخمور منذ عهد بعيد وتشير الآثار إلى انتشار هذه الصناعة بالهند وسيلان منذ سنة ٨٠٠ قبل الميلاد .

والخمر : هى الشراب الناتج من تقطير بعض النباتات لإفراز الكحول بها مع إضافة بعض المواد التى تعطيها طعماً معيناً flavour ورائحة معينة والتحكم فى نسبة الكحول الموجودة بها .

والأنواع المعروفة حالياً من الخمور هى البيرة beer والويسكى Whisky ويصنعان من الحبوب (كالشعير والأرز والذرة) والفودكا Vodca وتصنع من البطاطس والروم rum ويصنع من قصب السكر والجن gin ويصنع من الثمار الجافة لشجر الصنوبر والبراندى brandy ويصنع من الفواكهة كالتفاح والعنب والخوخ والبرقوق والكريز وغيرها) وشراب البراندى يضم عدة أنواع من المشروبات liquers مثل النبيذ والكونياك وغيرها وذلك حسب نوع الفاكهة المستخدمة فى عملية التقطير .

أما المواد التى تستخدم لإعطاء هذا الشراب طعماً معيناً فمنها الشيكولاته والفانيليا والنعناع والورد واليانسون — والبرتقال .

وتشترك هذه المشروبات جميعها فى أنها تحتوى على نسبة من الكحول تصل فى بعضها إلى ٤٩٪ (الويسكى) .

والكحول أصلا لفظ عربى نقله بعد ذلك الأوروبيون إلى لغاتهم فليست كلمة الكحول العربية ترجمة للفظ alchol وإنما العكس هو الصحيح

وقد انتشرت صناعة الخمور فى جميع أنحاء العالم وتدخلت الدول فى تنظيمها بمنح التراخيص اللازمة لصناعتها وتحديد مواصفاتها وتعيين مندوبين عن الحكومة

فى المصانع المنتجة لها لمراقبة الإنتاج وحصر كمياته كما فرضت جميع الدول المنتجة والمستوردة على الخمور ضرائب مرتفعة سواء على ما تنتجه الدولة محليًّا أو ما تستورده من الدول الأخرى وأصبحت هذه الضرائب تشكل جزءاً هاماً من موارد هذه الدول مما رفع من أسعار الخمور فى كل مكان ، ومع ذلك فقد أصبحت ظاهرة شرب الخمور ظاهرة عامة فى كل الدول حتّى تلك التى لا تنتج ولا تستورد حيث يعتمد بعض الأفراد فيها على تهريب الخمور إليها أو تصنيعها محليًّا على نطاق ضيق وسرى أو شرب بعض السوائل المطهرة التى تحتوى على مادة الكحول والتى تباع فى كل مكان ولا يمكن حظر تداولها .

وقد ساعد على انتشار شرب الخمر منذ العصور الوسطى الأطباء فى ذلك الوقت حيث كانت تعتبر الخمر علاجاً طبيًّا وجرعة محببة ومثيرة للشهوة الجنسية وشراباً منعشاً أو منبهاً إلا أن العلم الحديث قد أثبت أن الفائدة الطبية للكحول ضئيلة القيمة وأن شرب الخمر وإن كان يهدئ ويسكن الألم ويذهب بالقلق إلا أن كل ذلك يكون لفترة محدودة وعلى حساب الجسم والعقل فى آن واحد .

وتأتى مضار الخمر من أنه عقب شربها مباشرة تمتصها المعدة والأمعاء الدقيقة بسرعة كبيرة وترفعها إلى مستويات عالية بالدم فى وقت قصير جداً . وعن طريق الدم يتم توزيع مادة الكحول على جميع أجزاء الجسم بما فيها المخ والرئتين ويبقى الكحول بعد ذلك فى الجسم لمدة ثمان عشرة ساعة بعد شرب الخمر وبذلك يتأثر جسم وعقل شارب الخمر دفعة واحدة فى وقت واحد .

فمن الناحية البدنية تتغير خلايا الجسم لتكيف نفسها مع الكحول — adapted to alchol وتصبح تعمل بأقل من طاقتها فى حالة عدم تزويد الجسم بالكحول ، كما يصاب الشارب بعسر الهضم وضعف وألم الأعصاب خاصة أعصاب الساقين ويعانى الكبد من تغيرات كثيرة ويبدأ به مرض التليف الكبدى الذى يؤدى إلى الإصابة بالإغماء والموت أحياناً ، كما يتضخم التجويف البطنى ويصاب شارب الخمر أيضًا بصداع قاس ودوار وغثيان وقىء إلى جانب ما تتأثر به الأذن الوسطى فيفقد الجسم توازنه .

ومع مرور الجسم بهذه التغيرات تتأثر نفسية شارب الخمر فبعد أن كان يشرب أولا فى فترات عرضية للحصول على الراحة النفسية تجده يشرب بعد ذلك باستمرار

للحصول على الراحة النفسية أكبر وقت ممكن وبذلك يعتاد الشراب وتبدأ الجرعات فى الزيادة حتى يصل إلى فقد كامل للذاكرة فى الصباح فينسى كل ما قاله أو فعله فى مساء اليوم السابق ويبدأ فى الشعور بالألم لشربه الخمر ويفقد السيطرة على نفسه ويتعرض للضغط ممن حوله بسبب شربه الخمر فيختلق المبررات والأعذار لشربها وأخيراً قد ينتهى به الحال إلى أن يتلف عقله ويصبح غير مكترث بمظهره ومهملا لأسرته فلا يشعر بمسئوليته الاجتماعية ويصبح قاسياً فى معاملته لا يخجل من أى فعل يرتكبه رهذه كلها أعراض مرض التسمم الكحولى — adapted toalchol الذى يعتبر أخطر ما يتعرض له شارب الخمر ، رمرض التسمم الكحولى يجعل المصاب به فى حالة رغبة دائمة لشرب الكحول ولا يمكنه السيطرة على هذه الرغبة .

وهذا المرض غير مرتبط بالانتظام أو عدم الانتظام أو الاستمرار فى شرب الخمر ، فقد يصاب به من يشرب الخمر لأول مرة فى حياته وقد لا يصاب به من شربها واستمر على شربها مدة طويلة وبذلك فلا أمان إطلاقاً فى شرب الخمر ولو مرة واحدة .

ومرض التسمم الكحولى من الأمراض غير القابلة للشفاء وكل ما يرجى من وسائل العلاج بالنسبة له هو وقف زيادة سوء الحالة ووقف تقدم المرض .

وقد بلغت أعلى نسبة للإصابة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث وصلت إلى ٤٪ من السكان وتليها فى ذلك بالترتيب فرنسا والسويد وسويسرا والدنمرك وكندا والنرويج وفنلندا واستراليا وانجلترا وإيطاليا .

ولا يخفى على أحد الآثار الصحية السيئة والآثار الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن تفشى شرب الخمر فى أى مجتمع من المجتمعات للأسباب التى سبق أن ذكرناها .

وقد عرف العرب فى الجاهلية شرب الخمر وكانوا يشربونها بإسراف ويتسابقون إلى مجالسها ويمدحونها فى شعرهم :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
إن مسها حجر مسته سراء

وكان يصاحب مجالس الشراب طعام من الذبائح التى ينحرونها على الأنصاب وهى أصنام لهم كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها ويقتسمون هذا الطعام بينهم فى مجالس الشراب عن طريق الأزلام وهى قداح

يستقسمون بها الذبيحة فيأخذ كل من الجالسين نصيبه منها بحسب قدحه فالذى قدحه (المعلى) يأخذ أوفر نصيب وهكذا تتناقص الأنصبة حسب قدح كل منهم .

وقد اعتاد العرب شراب الخمر فى الصباح (عادة الصبوح) وبعد العصر وفى المساء (عادة الغبوق) .

وهكذا كانت مجالس العرب تضم الخمر والميسر وعبادة الأصنام فى وقت واحد ولذلك نزلت الآيات (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون — إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون — وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) ، المائدة ٩٠ و ٩١ و ٩٢) .

وهذه الآيات صريحة فى تحريم الخمر والتحذير من مخالفة الأمر باجتنابها وإن استعملت لفظ الاجتناب وليس لفظ التحريم ، ولفظ الاجتناب أعم وأشمل فالتحريم قد يقتصر على الشرب فقط أما الاجتناب فيشمل كل ما يتعلق بالخمر من تصنيع وتجارة وشرب وغير ذلك .

وقد أوضحت هذه الآيات الحكمة فى تحريم الخمر ذلك أن الإسلام يفرض على الإنسان أن يكون متصلا بالله دائماً مراقباً له فى كل أعماله وخطواته وهذا يتطلب يقظة الجسم والعقل وصلاحهما وأن شرب الخمر لا ينتج عنه إلا غيبوبة السكر وفساد الجسم والعقل معاً مما ، يهدد الحياة الاجتماعية والاقتصادية وينشر الضعف والفساد فلا يكون هناك أمان من الاعتداء على الأنفس والأعراض. هذا الاعتداء الذى لم تنج منه أمهات وأخوات المخمورين — وفى محاضر الشرطة فى مصر — ما يثبت العديد من هذه الحالات وأن المعتدى كان شارباً للخمر وقت الاعتداء.

ولذلك حرص الإسلام على تجنيب الإنسانية آثار هذا الشر المستطير الناتج عن شرب الخمر وذلك بإجراءين هامين :

الإجراء الأول : هو عدم رفع المسئولية عن شارب الخمر عند ارتكابه لأية جريمة وهو تحت تأثير الخمر فإن شارب الخمر الذى يقتل أو يزنى وهو تحت غيبوبة السكر غير راع لما يفعله يعاقب على جريمته كما لو كان واعياً تماماً ومدركاً لكل ما يفعل فكل ما يعاقب

به الصاحى يعاقب به السكران وفى هذا تحذير كبير له لأنه لا يدرك ما سوف يفعله بعد سكره ، وقد رأينا كيف أن بعض السكارى فقد التمييز حتى وصل به الأمر إلى الاعتداء الجنسى على والدته أو أخته ولعل فى هذا التحذير ما يجعله يفكر فى عدم الاقتراب من الخمر. وأما الإجراء الثانى فهو: عقاب شارب الخمر لمجرد شربه لها حتى وإن لم يتأثر بالشراب ولم يفقد وعيه ولم يصدر عنه أى فعل ضار بالغير وسواء كان ما شربه قليلا أو كثيراً .

وحد شرب الخمر قد ثبت بالسنة النبوية حيث لم يرد به نص قرآنى كباقى الحدود لقوله عليه الصلاة والسلام: « من شرب الخمر فاجلدوه » .

وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم ضرب شارب الخمر ولكن الفقهاء اختلفوا فى مقدار الحد فقال أبو حنيفة ومالك والثورى وأحمد بن حنبل (فى رواية عنه) : أنه ثمانون جلدة استناداً إلى أن هذا القدر حصل عليه إجماع الصحابة فى عهد عمر .

وقال الشافعى وأحمد (فى رواية عنه) : إن حد شرب الخمر أربعون جلدة لأن ذلك هو ما جرى عليه العمل فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث روى عن أنس بن مالك أنه قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب الخمر فضربه بالنعال نحوا من أربعين » .

ويرى بعض الفقهاء أن ما جرى عليه العمل فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤيد الرأى القائل بأن حد شرب الخمر هو ثمانون جلدة لأن الضرب كان بنعلين أربعين مرة فكان مجموع الضربات فى الواقع ثمانين ضربة وهو ما حدا بالصحابة لأن يجمعوا فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه على القول بأن مقدار حد شرب الخمر هو ثمانون جلدة ، ونرى أن هذا الرأى هو الأصح ، لأن إجماع الصحابة فى عهد عمر بن الخطاب وكلهم شاهد على ما جرى عليه العمل فى عهد رسول الله أقوى فى الدلالة على مقدار الحد ، من تفسيرات من أتى بعدهم من الفقهاء .

وتثبت جريمة شرب الخمر بأربع وسائل :

الوسيلة الأولى: هى اقرار شارب الخمر بشربها ولا يشترط أن يتعدد الإقرار كما تتعدد الشهادة فيكفى أن يكون الإقرار مرة واحدة ، وهذا ما يأخذ به مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد .

وأما الوسيلة الثانية فى إثبات جريمة شرب الخمر : فهى شهادة الشهود . وقد اشترط الفقهاء فى هذه الحالة ألا يقل عدد الشهود عن رجلين اثنين ويشترط فى كل شاهد أن يكون بالغا عاقلا وعدلا أى غير فاسق والقاعدة أن كل مسلم عدل حتى يثبت عليه الفسق . ويرى ابن تيمية وابن القيم قبول شهادة غير المسلم على المسلم فى كل ضرورة كما يذهب ابن حزم بجواز قبول شهادة النساء ونرى الأخذ برأى ابن تيمية وابن حزم فلا يشترط إسلام الشاهدين والاكتفاء بشهادة رجل واحد وامرأتين تيسير الإثبات هذه الجريمة الخطيرة والشائعة .

أما الوسيلة الثالثة من وسائل إثبات شرب الخمر : فهى وجود رائحة الخمر فى فم الشارب أو فى قيئه .

والوسيلة الرابعة : هى وجود الشارب فى حالة غيبوبة السكر .

وهاتان الوسيلتان يمكن أن يعبر عنهما بحالة التلبس بارتكاب الجريمة لأنهما غالبا تتلوان الشرب بفترة قصيرة وعلى الشارب إثبات أنه شرب الخمر فى هذه الحالة للضرورة أو نتيجة للإكراه الملجىء أو عن جهل بأن ما شربه خمر حتى يدرأ عن نفسه الحد .

ويشترط فيمن ثبت ارتكابه لجريمة شرب الخمر عدة شروط حتى يمكن إقامة الحد عليه فإن انتفى أحد هذه الشروط لم يعاقب على ارتكابه هذه الجريمة بعقوبة الحد ، وإن كان يمكن معاقبته تعزيزاً كما سيجىء بعد ذلك .

وأول هذه الشروط : هو أن يكون مكلفاً أى بالغًا عاقلاً فلا يقام الحد على الصغير ولا على المجنون أو المعتوه .

وثانى هذه الشروط : هو أن يكون قد شرب الخمر مختاراً فإن شربها مكرهاً فلا حد عليه سواء كان الإكراه تاماً (ملجئاً) أو غير تام (غير ملجىء) فإذا هدد بالضرب أو الجرح أو القتل أو إتلاف ماله فشرب فلا حد عليه وتأخذ حالة الإضطرار نفس حكم حالة الإكراه ، فمن كان فى حالة جوع أو عطش شديد ولم يجد أمامه إلا الخمر فشربها ليدفع عن نفسه الهلاك فلا حد عليه لقوله تعالى : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) ، البقرة ١٧٣ فالضرورات تبيح المحظورات وإذا انتفى الإثم فلا حد .

ويشترط أخيراً أن يشرب المسكر وهو عالم بأن كثيره مسكر وإن كان قليله غير مسكر فإن كان لا يعرف ذلك ولم ينبه

إلى ذلك فإنه لا إثم عليه ولا حد ما دام لم يعلم ولم يكن فى إمكانه أن يعلم .

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة وأصحابه إلى عدم إقامة الحد على غير المسلمين المقيمين فى بلد إسلامى إستناداً إلى أن الخمر مال مقوم عندهم وشربها مباح فى شرائعهم وأننا أمرنا بتركهم وما يدينون ، وذهب بعض الحنفية إلى أنهم إذا شربوا وسكروا فإنه يقام عليهم الحد كعقاب على السكر وليس على الشرب .

وعلى خلاف الحنفية فإن جمهور الفقهاء يرون إقامة الحد على غير المسلمين المقيمين فى البلاد الإسلامية لأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولأن الخمر محرمة فى كل الأديان السماوية وأن تحريمها هو لحماية المجتمع من الفساد وذلك يسرى على جميع الذين يعيشون بين المسلمين .

ونرى أن رأى الجمهور هو الأصوب وهو الواجب الأخذ به لأن جريمة شرب الخمر يتأثر بها فى المجتمع الإسلامى المسلم وغير المسلم ولا يمكن أن نترك المسلم فى بلد إسلامى يتعرض للمخاطر الناجمة عن سكر غير المسلم ، فالسكران عند اعتدائه على الغير لا يستطيع أن يفرق بين مسلم وغير مسلم فى عدوانه ولا يليق بالبلد الإسلامى أن يترك الخمر تشيع فى أرجائه حرصا على إرضاء نزوات غير المسلمين مع ما فى ذلك من ضرر بليغ بالمسلمين أنفسهم وتيسير لهم على ارتكاب هذه الجريمة .

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام عن حد جريمة شرب الخمر وننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن جرائم البغى وقطع الطريق والردة .

المستشار / حسن حسب الله

التوجيه الإسلامي لعلم النفس

الدكتور فؤاد أبو حطب

(١)

مقدمة :

لعل علما من العلوم الإنسانية أو السلوكية أو الاجتماعية لم يلق من الهجوم من أطراف عدة ما لقية علم النفس ، وكانت أشد هذه الحملات ضراوة فى السنوات الأخيرة تلك التى صدرت عن فريق من الكتاب المسلمين ، ومع ذلك لم يجد هذا العلم من رجاله — كما وجدت العلوم الأخرى كالاقتصاد والاجتماع — من يرد أو يصد أو يدافع .

وقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يطلع على قدر لا بأس به من كتابات النقاد الإسلاميين لعلم النفس ، كانت حافزاً لتأمل ميدان هذا العلم — الذى يعتز بالانتماء إليه درساً وتدريساً — منذ سنوات قبل تلقى هذه الدعوى الكريمة للمشاركة فى هذه الندوة الجليلة * ، ثم كان اشتغال المؤلف بتدريس علم النفس بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة خلال الفترة بين عامى ١٩٧٣ — ١٩٧٧ حافزاً أكبر لمزيد من التأمل . وطوال هذه السنوات كان الكاتب يشعر مع زيادة الاهتمام والاندماج فى موضوع « الإسلام وعلم النفس » مشقة المسألة ووعورة الطريق ، ولولا ما وجده المؤلف خلال السنوات الأربع التى قضاها بمكة المكرمة من أمل عظيم من قلة من الزملاء ونخبة من الطلاب (وبخاصة فى الدراسات العليا) لطالت فترة التأمل ولازداد الشعور بصعوبة

* ندوة (علم النفس والإسلام) الذى وجهت جامعة الرياض الدعوة إلى عقدها خلال شهر ذو القعدة ١٣٩٨ — أكتوبر ١٩٧٨ ، وقد أقيمت بالفعل فى الفترة من ١٤ — ١٨ أكتوبر ١٩٧٨ وحضرها المؤلف وألقى فيها هذا البحث .

العمل ليصل إلى حد الإحساس بالعجز أو المقاومة .

وكان الخروج من المأزق – عند المؤلف – فى عام ١٩٧٥ مع صدور العدد الأول من مجلة جامعة الملك عبد العزيز التى كتب فيها دراسة عن « الإدراك السمعى والبصرى فى ضوء القرآن الكريم (٣٨) » – ووعد أن تكون بداية لسلسلة من البحوث النفسية فى ضوء كتاب الله ، وبالفعل كتب دراسة أخرى عن « التوسط والاعتدال فى سلوك الإنسان » فى إطار هذه الوجهة للنشر فى العدد الثانى من نفس هذه المجلة (٣٩) .

ثم كانت دعوة جامعة الرياض لحضور ندوتها عن « علم النفس والإسلام » والاشتراك ببحث فيها فكانت أكبر الحوافز لتناول الموضوع من منظور أكثر عمومية وشمولا هو ما نسميه « التوجيه الإسلامى لعلم النفس » وكانت هذه الدراسة التى وجدنا من الملائم أن نبدأها بمناقشة بعض الانتقادات الموجهة إلى علم النفس من الكتاب الإسلاميين ، ثم عرض ناقد للاتجاهات المختلفة فى بناء « علم نفس إسلامى » وسنخصص بعد ذلك القسم الأعظم منها لأسس توجيه علم النفس توجيهاً إسلامياً .

حجج نقاد علم النفس–تحليل ومناقشة :

يمكن أن نلخص حجج نقاد علم النفس من وجهة نظر إسلامية فيما يلى * :

١ – أن علم النفس ليس علما بالمعنى المتعارف عليه للعلم ، بل لا تنطبق عليه شروط العلم الواجبة وأهمها اليقين والموضوعية . وهى شروط العلوم الطبيعية وقد ردد هـذا النقد كثيراً الدكتور مصطفى محمود (٥٤ : ٥٥) ، كما ركز عليه الدكتور : اسماعيل راجى الفاروقى (٦١) فى إطار رفضه العام للعلوم « الاجتماعية » ودمغه إياها جميعاً بأنها علوم زائفة False .

٢ – غلبة الاتجاه المادى على علم النفس بحيث جعله يتصور « النفس الإنسانية » تصوراً مادياً ، فهى مجموعة « غرائز » تتطالب الإشباع المادى المباشر . والإنسان فى إطار هذه النظرة المادية

* قد يكون أكثر هؤلاء النقاد شهرة الكاتب الأديب الذائع الصيت الدكتور مصطفى محمود فى كتبه الخفيفه ومقالاته فى الصحف السيارة ، وقد ضمنا حججه مع حجج الآخرين هنا ، وسوف نشير إليها فى موضعها إذا تطلب الأمر ذلك .

مدفوع دائماً بقوى لا معقولة ، ومغلوب على أمره ، تصدر عنه أفعال قهرية ، وكل ما يملكه العقل من « حيل » هو تبرير هذه الأفعال ، أو البحث عن وسائل مقبولة لإشباعها ، أو التسامى بها ليزاولها بصورة أجمل (٥٥) .

٣ – معظم النتائج التى توصل اليها بعض أصحاب الاهتمامات النظرية فى علم النفس – وعلى رأسهم فرويد – استخلصت من الحالات المرضية ثم عُمِّمَت على حالات الأسوياء . وبنيت نماذج نظرية كاملة فى هذا الإطار الزائف (٨، ٥٥) .

٤ – علم النفس التجريبى هو أيضًا كذبة كبرى – على حد تعبير الدكتور مصطفى محمود (٥٤ ، ٥٥) : لأن النفس – كما يقول أيضًا – « ذات كُلّيّة » ولا يمكن تحويلها إلى موضوع أو تشريحها تحت المهجر ، وهى بالتحليل والتشريح تصبح شيئًا آخر غير النفس الحية المطلوب فهمها . والنفس بطبيعتها تتقلب وتستخفى على التجريب ، وإذا اقتطعت من النفس جانبًا فى عملية التحليل فإن ما تراه لا يكون هو النفس ، لأن النفس كل لا يقبل التجزئة وواحد لا يقبل القسمة » (٥٥) .

وقبل أن نبدأ بتحليل هذه الحجج ومناقشتها لدينا حكم عام عليها بأنها من نوع خلاصة « قراءات خارجية » من غير أهل الاختصاص . وفى مجملها لا تتفق مع كثير مما هو شائع وموطد ومستحدث فى علم النفس وفى نظرية المعرفة « الايستمولوجيا » . لذلك فهى فى رأينا تستحق وقفة موجزة لضيق المقام .

ونبدأ بمناقشة هذه الحجج بالتتابع الذى عرضناها به فنقول : إن رفض علم النفس لأنه – كما يقال – لا تنطبق عليه شروط العلم الواجبة كاليقين والموضوعية حجة متخلفة . وحسبنا أن نشير إلى أن مفاهيم اليقين والموضوعية فى الايستمولوجيا المعاصرة – تتعرض لتطور كبير إلى حد يدفعنا إلى القول بأنه لا يوجد فرع من فروع العلم التجريبى – ومنه العلوم الفيزيائية – يؤدى إلى المعرفة اليقينية . ولا توجد ملاحظة بشرية معصومة من الخطأ Infallible . وكل ما نطمح إليه فى العلوم التجريبية فى الوقت الحاضر أن يكون ما يقرره الملاحظ أكثر احتمالا فى ضوء ما يمكننا أن نستنتجه من دقته وثباته فى الملاحظة ومن غير ذلك من الحقائق المتصلة بعملية الملاحظة .

والرفض بحجة اللاموضوعية واللايقين فى علم النفس له تاريخ قديم وكان رد الفعل إزاءه عنيفاً ، وأشهر نماذجه التطرف السلوكى فى أطواره المتعددة ابتداء من راطسون ثم كلارك هل وحتى السلوكية المعاصرة . وقد ناقشنا هذا الاتجاه فى موضع آخر ، وبيننا آثاره فى علم النفس الحديث ، ومعظمها آثار سلبية يصل بعضها إلى مستوى « المحنة » وليس أقلها اهتمام هذا العلم — فى إطاره السلوكى — بالصور الدنيا والبسيطة من السلوك ، وإهمال النشاط العقلى المعرفى للإنسان .

وبالطبع فإن هذه الحجة عند نقاد علم النفس من الكتاب الإسلاميين لا يقصد بها الدعوة إلى مزيد من التطرف « الموضوعى » كما فعل السلوكيون وأشياعهم ، وإنما تتضمن نوعاً من الحكم « بالإعدام » على هذا العلم ، ما دامت تعوزه الموضوعية وما دام لا يستطيع تحقيقها ، وقد أشرنا إلى تهافت هذه الحجة فى ضوء طبيعة الملاحظة فى العلم عامة ، ونشير إلى تهافتها أيضاً فى ضوء التناقض الذاتى الذى وقع فيه بعض الكتاب فى دعوتهم إلى « الغاء » علم النفس بسبب لا موضوعيته وإلى « بناء » علم نفس إسلامى فى وقت واحد ، فهل يعنى ذلك أن دعوة البناء عندهم تتضمن أن يقوم « علم النفس الإسلامى » على الأسس الموضوعية للعلوم الطبيعية ما دام علم النفس لا تتوافر فيه هذه الأسس ؟

إن الإجابة على هذا السؤال ليست بالإيجاب قطعاً . وكل ما نستلخصه من من كتابات النقاد الذين استخدموا هذه الحجة بإسراف شديد أنهم يرفضون «الوجهة الوصفية الإمبريقية» Positivistic Empirical approach التى تغلب على علم النفس الحديث ، وهو موقف يوافقهم عليه معظم الكتاب المحدثون فى علم النفس وفى نظرية المعرفة ، ومنهم أقطاب وصفيون وامبريقيون قدامى لهم باع طويل من أمثال كارناب وبردجمان ، ويكفينا أن نشير إلى الاهتمام المعاصر بالعوامل « الشخصية » و « الذاتية » فى المعرفة كالحساسية والتميز والاستبصار والحكم الشخصى والحدث بالاضافة إلى ما يسميه بولانى بالمعرفة الضمنية والاندماج Indwelling وما يدعو إليه بردجمان — مؤسس الإجرائية — من عودة للاهتمام بالاستبطان .

* راجع دراستنا عن السلوكية فى علم النفس. مجلة عالم الفكر ، الكويت سبتمبر ١٩٧٢ .

والحجة الثانية التى يطرحها نقاد علم النفس هى غلبة المادية عليه . ومن الطريف أن أحد هؤلاء النقاد (٥٥) يقبل العلم « الطبيعى » بمنجزاته الصناعية والتكنولوجية ، فهذا العلم فى رأيه « محايد » والحقائق العلمية من هذا النوع « واحدة » . ولا ندرى كيف غاب عنه أن المادية فلسفة حياة ، وإذا كانت قد تركت بصماتها صريحة — بحيث استطاع إدراكها — فى علم النفس وغيره من العلوم الإنسانية ، فإن « جراثيمها » مضمرة فى العلوم الطبيعية التى يقبلها ويتحمس لها ، ولا ندرى كيف لا يدرك هذا الناقد وغيره ما أحدثته منابع العلم الطبيعى ومراجعه الأصلية « المحايدة » — كما يقول — من صراع بين « الدين » و « العلم » لدى المسلمين من المثقفين والعامة . وقد أشار إلى هذه المسألة أحد علماء الجيولوجيا المسلمين المعاصرين (١٦) حين حلل مصادر التحدى الحضارى الذى يتعرض له المسلمون اليوم ، وخص منها « ما يحملة تيار العلم — الوافد إلينا من الغرب ومن الشرق — من خلفية إلحادية واضحة فى طياته جعلت من الكفر بكل ما هو غير مادى سمة هذا العصر » .

ثم أليست سيطرة المادية على العلوم الطبيعية — ومضمونها الإلحادى — هى التى دعت فريقاً من العلماء المسلمين إلى محاولة إعادة كتابة علومهم من جهة نظر إسلامية ، ورفض بعض إدعاءات هذه العلوم ؟ مثل مبدأ أزلية المادة والطاقة ، ونسبة كل شىء فى الكون إلى الطبيعة وقوانينها ، ومحاولة تفسير التدرج فى عمران الأرض على أنها عملية مادية تلقائية بحتة (التطور المادى — التطور الكيميائى — التطور العضوى) . وقد بذلت جهود جادة فى هذا الصدد لا يتسع المقام لتناولها وخاصة فى ميدان الجيولوجيا والفسيولوجيا والطب .

أما الحجة الثالثة والتى تركز خاصة على فرويد فليست من الحجج الجديدة على ميدان علم النفس ذاته ، فآراء ، فرويد وأتباعه — بل وآراء أصحاب مدرسة التحليل النفسى عامة — تواجه بالنقد العنيف داخل الإطار السيكولوجى ذاته ، وتتسع دائرة هذا النقد ابتداء من فرويد شخصاً وشخصية (٢٠) حتى التحليل النفسى مدرسة ومنهجاً وفلسفة حياة (١٠) .

ومن الأمور الملفتة للنظر حقاً هذا الجمع الغريب بين التحليل النفسى وعلم النفس على نحو يكاد يجعل منهما

صنوين . بل إن الأمر يصل أحياناً — داخل الكتابات السيكولوجية المتخصصة ذاتها إلى حد التوحيد بينهما ، فما بالك بغير المتخصصين . وربما تكون لشهرة فرويد وانتشاره الهائل أسباب ثقافية وحضارية ، بل وأيديولوجية لا يتسع المقام لتفصيلها ، إلا أن هــذا لا يعنى أن يصمت علمــاء النفس من العرب والمسلمين على هذا التشويه شبه المتعمد لميدانهم وتحــويله إلى بؤرة للدعاية الرخيصة لاهم لها إلا الجنس عند فرويد ويهوديته بل وصهيونيته ، مما يصل بهم إلى حد الشلل الكامل أو العجز المطلق ما دام يربط هذا كله على نحو تعسفى بعلم النفس ، وأخيراً فماذا فى علم النفس التجريبى ؟

إن المنهج التجريبى الذى يؤكد لعلم النفس « علميته » لا يتعارض بحال مع قيم ومبادئ وتعاليم الإسلام ، فالإسلام قد دعا إلى البصر فى النفس ودراستها . وفى كثير من المواضع التى أشار فيها القرآن الكريم إلى التفكر فى آيات الله فى الكون أشار أيضًا إلى التفكر فى آيات الله فى النفس . وهذا فى رأينا دعوة صريحة فى كتاب الله تعالى إلى استخدام نفس منهج دراسة الكون فى دراسة النفس لأن دراسة الكون والإنسان واكتشاف سنن الله وتأمل آياته فيهما من أعظم الأدلة على إبداعه سبحانه وتعالى وقدرته فى خلقه . وعلى هذا النحو يمكن لعلم النفس — كأى علم تجريبى آخر أن يكون « ماديًّا » مغرقًا فى ماديته — كما حدث بالفعل له ولغيره من العلوم الإنسانية بل وللعلوم الطبيعية كما بينا ، كما يمكن أن يوجه وجهة إسلامية كما سنحاول أن نفعل فى هذه الدراسة .

أما عن رفض منهج « التحليل » فليس أمراً جديداً فى السياق السيكولوجى ذاته ، وتاريخ الصراع بين المدرسة التحليلية والمدرسة التركيبية الكلية (والتى سميت أحياناً بمدرسة الجشطالت ، وأحياناً أخرى بمدرسة المجاليين) تاريخ معروف مألوف للمبتدئ فى علم النفس . وليست الحجج التى سقت — وأشرنا إليها آنفا — بجديدة على الميدان ، إلا أن الخطأ الذى وقع فيه أصحاب هذا الجدل بأطرافه جميعًا هو التزامهم الصارم بأحد أطراف ثنائية التحليل — التركيب دون محاولة التأليف الابتكارى بينهما ، وهو منهج إسلامى فى جوهره . وقد سبق للمؤلف (٣٦) أن ناقش هذه المسألة بشىء من التفصيل ، وحسبنا هنا أن نقول

إن الملاحظة باعتبارها جوهر « العلم التجريبى » الذى يحض عليه الاسلام، هى عملية تحليلية فالاشخاص – كالأشياء لا تعرف إلا بخصائصها وسماتها ، كما أنها لا تتميز إلا بأضدادها . فنحن نصف الشىء بأنه مستدير أو حاد أو ثقيل أو بهذه الصفات جميعًا . وبالمثل فإننا نصف الشخص بأنه يستجيب بسرعة أو بعنف أو بدقة أو بغير ذلك من الطرق .

والخصائص أو السمات هى تجريدات نصل إليها بتحليل الكليات وتجريد إحدى السمات من كلية معينة لا يؤثر فيها ، لأنها تظل ثابتة محتفظة بكيانها الكلى الذى هى عليه قبل التحليل . فوصف البرتقالة بأنها صفراء اللون ، سكرية الطعم ، كروية الشكل لا يقضى على « كيان » البرتقالة ككل ، أو على « وجودها » المتميز بذاته ، وكذلك فإن وصف الشخص بأنه عدوانى فى انفعالاته ، متوسط فى ذكائه ، عملى فى ميوله ، محافظ فى اتجاهاته لا يؤدى إلى تجزئة « الشخصية » أو القضاء على « وجود » الشخص ككل .

ولا يستطيع أحد أن يزعم أن تجريداته مهما تعددت وتنوعت تستغرق الشىء أو الشخص الذى يلاحظه أو تصفه وصفًا كاملا ، ومع هذا فإن ذلك ليس سببًا كافيًا لرفض المنهج التحليلى ، لأن ملاحظاتنا يمكن أن تصل إلى قدر كاف من الشمول إذا توافر لدينا الجهد والوقت .

وفى جميع الحالات يجب أن يتبع الباحث منهجه التحليلى بنظرة تركيبية بنائية تكاملية ترسم « البروفيل » النفسى الذى يربط بين مختلف الخصائص والسمات حتى يحدد « النمط الكلى الفريد لهذه السمات » والذى يميز الشخص أو الشخصية . والباحث النفسى هنا يشبه الفنان الذى يرسم صورة مجمعة Identific وهى عادة ما تكون صورة لشخص غير محدد يرسمها الفنان – اعتماداً على السمات أو الصفات التى يشهد الشهود أنها تشبهه . ويتطلب هذا بالطبع دقة فى استخدام منهج التحليل أولا ليزود الفنان بمجموعة كافية من التفاصيل والأجزاء . وتتوقف درجة اقتراب الصورة المجمعة من الحقيقة الموضوعية الخارجية على مقدار هذه الأجزاء والتفاصيل ودرجة الدقة فى وصفها . وبالمثل فإن دقة وصفنا « للنمط الكلى الفريد للسمات » – وهو تعريف الشخصية كما يستخدمه المؤلف (٣٦) يتوقف

على كفاية منهجنا التحليلى فى تحديد هذه السمات .

اتجاهات فى بناء « علم نفس إسلامى » :

يتبين لنا مما سبق قصور الجهود التى تسعى إلى استبعاد علم النفس أو رفضه، والأفضل من ذلك بذل محاولات تحدد موضع هذا العلم فى النسق المعرفى الإسلامى العـــام . وقبل شيوع الانتقادات السابقة لعلم النفس ، بل وقبل ظهور علم النفس الحديث ذاته ، اهتم علماء المسلمين بهذه المسألة ، ويمكن أن نصنف اتجاهاتهم فى هذا الصدد إلى ما يأتى :

١ ــ بناء علم نفس « دينى » إسلامى :

وأول من دعا إلى هذا الاتجاه المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى عام ١٩٦٣ (٥) بل نكاد نقول إن الأهوانى هو أول من استخدم عبارة « علم النفس الإسلامى » على نحو ما يقال بوجود علم نفس بوذى أو يهودى أو نصرانى « لاختلاف خصائص كل دين من هذه الأديان » .

وهذا الاتجاه فى رأينا محاولة لبناء فرع إسلامى لعلم النفس شبيه بما يسمى علم النفس الدينى Psychology of religion والذى ظهر وتشعب فى أوربا والولايات المتحدة ، ابتداء من الكتابات المسيحية المبكرة والعصر المدرسى فى العصور الوسطى ، وعصر الإصلاح الدينى فى أوربا ، ثم ارتباطه بنشأة علم النفس الحديث عند فوندت والذى شملت بحوثه فى سيكولوجية السلالات البشرية اهتماماً بالدين يجعله أقرب إلى أصحاب المدرسة الوضعية فى علم الاجتماع (ومنهم إميل دوركايم وليفى بريل فى بحوثهما فى علم الاجتماع الدينى) .

وقد تتابعت بعد ذلك كتابات علماء النفس الأوربيين والأمريكيين حول « الخبرة الدينية » وكان أشهر هذه الأعمال كتاب وليم جيمس W. James الذى صدر عام ١٩٠٢ بعنوان Varities of religious experience ثم كتاب برات Pratt الذى صدر عام ١٩٢٠ بعنوان The religions consciousness بل إنه لا تكاد توجد مدرسة رئيسية فى علم النفس إلا وتناول أقطابها ما يسمى علم النفس الدينى ، ومن هؤلاء فرنسيس جالتون وأصحاب مدرسة فوزبرج ورواد التحليل النفسى (ومنهم فرويد ويونج) وغيرهم ، ويمكن الرجوع إلى

بعض المصادر المتخصصة لاستطلاع تاريخ هذا العلم واهتماماته الأساسية (٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦) .

وهذا الاتجاه نحو بناء « علم نفس دينى إسلامى » قد يكون مفيداً إلا أنه ليس كافياً ، لأن التركيز على « الظاهرة الدينية » لا يتفق مع خصائص الإسلام الذى لا يضاد بين « الدين » و « الدنيا » ومعنى ذلك أننا – كعلماء نفس مسلمين مطالبون بما هو أكثر من مجرد إنشاء فرع جديد لعلم النفس نسميه علم النفس الدينى الإسلامى ؛ إننا – فى الحق – مطالبون بالنظر إلى علم النفس من منظور شمولية الإسلام ليصبح هذا العلم الذى يشمل مختلف جوانب سلوك الإنسان الدينية والدنيوية موجها وجهة إسلامية .

دكتور/ فؤاد أبو حطب

« من كلمات خليفة رسول الله أبى بكر الصديق »

- أولى الناس بالله أشدهم توليًّا له .
- الصدق أمانة والكذب خيانة .
- إن عليك من الله عيوناً تراك .
- اهدم الكفر بعضه ببعض .
- ثلاث من كن فيه كن عليه : البغى والنكث والمكر .
- حق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلا ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

أخطاء شائعة

الأستاذ / عباس أبو السعود

٤٥٢ — فى صحيفة الأهرام عنوان هو (غداً الأحد أول محرم بداية العام الهجرى الجديد) :

وهذا العنوان على الرغم من قلة كلماته به غلطتان ، **إحداهما** : أنها قالت : محرم بدون أل وهذا ضلال بعيد ، والفصيح أن اسمه المحرم بأداة التعريف ، وإنما أدخلتها العرب عليه لمحاً للصفة فى الأصل ، وجعلته علماً بها كما فعلت مثل ذلك فى النجم وهو الكوكب ، والدبران بالتحريك وهو منزل للقمر ، والمحرم أيضًا من الإبل هو الذلول الوسط الصعب التصرف ، وكذلك هو الأعرابى الذى لم يخالط الحضر ، جمعه محارم ، ومحاريم ومحرمات والأشهر الحـــرم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد ، والحرم وزان القفل هو الإحـــرام ، قالت عائشة رضى الله عنها : كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحله وحرمه أى عند إحرامه والحرام ضد الحلال ومنه قوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حـــرام) ومثله الحـــرم بالكسر وزن الشِّرْك ، وقرئ به قوله سبحانه (وحرم على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) وقولك حرام الله لا أفعل كذا قسم كقولك يمين الله لا أفعل كذا .

ويقال : حرُم الشىء يحرم حُرمة بالضم ، وحرَمَه الشىء يحرِمه حرِمًا بكسر الراء فيها مثل سَرِقه يسرقه سَرِقا.

والغلطة الأخرى : كلمة بداية ، إذ لم ترد فى العربية ، والصواب أن يقال : بَدْء العام الهجرى أو بَدْأته ، أو بَدَاءته بنصبهن أو مبتدؤه بضم الميم ، كما قالوا كان ذلك فى بدء الإسلام ومبتدئه أو يقال : أول العام الهجرى أو صدره .

٤٥٣ — وكتبت صحيفة الأخبار فى

صدر صفحتها الأولى (لن نلتزم بأى تعهد تعطيه أية دولة لإسرائيل) وفى هذه العبارة أغلوطتان: إحداهما أنها عدت الفعل نلتزم بالباء ، والحق أنه (يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد لأنه مطاوع لفعل يتعدى إلى مفعولين ، تقول : ألزمته الشيء فالتزمه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) وقوله (وألزمهم كلمة التقوى) وقوله(أنلزمكموها) أما الذى يجوز أن يتعدى بنفسه وبالباء فهو الثلاثى تقول : لزمت الشيء لزوماً ، ولزمت به،وأما ما كان بزنة فاعل فلا يتعدى إلا إلى واحد تقول : لازمته ملازمة إذا تعلقت به ويقال : التزمت الشيء إذا تعلقت به واعتنقته فهو ملتزم بصيغة اسم المفعول ، ومنه يقال لما بين باب الكعبة والحجر الأسود : ملتزم ، لأن الحجيج يعتنقونه ويضمونه إلى صدورهم.

ويقال : صار الشيء ضربة لازم ، وصار ضربة لازب أى لازماً ثابتًا : واللزوب اللصوق .

والأغلوطة الأخرى : قولها تعطيه ، لإسرائيل بتعدية تعطى إلى المفعول الثانى باللام والصواب أن هذا الفعل يتعدى إلى مفعوليه بنفسه كما فى قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به ، فمن حذف الأول قوله سبحانه (حتى يعطوا[1] الجزية عن يد وهم صاغرون) ومن حذف الثانى قوله (ولسوف يعطيك[2] ربك فترضى)

وقد يحذف المفعولان معًا للعلم بهما كما فى قوله (فأما من أعطى[3] واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) .

٤٥٤ — فى صحيفة الأهرام عنوان كتبته بخط عريض وقالت فيه :

(إيطاليا تهدى وزير البترول قلادتها)

وهذا العنوان يشوبه الخطأ ، لأنها جعلت الفعل تهدى ناصباً مفعولين ، وهو لا ينصب إلا مفعولا به واحداً ، تقول : أهديت لفلان أو إلى فلان كذا ، فكان عليها أن تقول :إيطاليا تهدى لوزير البترول أو إلى وزير البترول قلادتها .

والهدى بزنة العدل ما يهدى إلى الحرم من النعم ، والهدية ما أتحف به جمعها هدايا ، وهداوى وتكسر الواو ، وهداو بتنوين الواو مكسورة .

---

(١) حتى يعطوا الجزية : أى يعطوا ما تقرر عليهم .

(٢) يعطيك ربك كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين .

(٣) أعطى واتقى : أعطى الله طاعته واتقى معصيته .

وسميت هدية لأنها تقدم غالبًا فى مهدى بالكسر وهو الإناء يهدى فيه ومن يهدى يسمى مهداء بالكسر والمد، سواء أكان رجلا أم امرأة .

ويقال : فلان يهدى للناس بتشديد الدال مكسورة إذا كان كثير الإهداء قال أبو خراش :

لقد علمت أم الأديبر أننى
أقول لها هدِّى ولا تذخرى(1) لحمى

وتقول : هديتُ العروس إلى زوجها هِداء بكسر الهاء إذا دللتها فهى هَدِىّ وهدية ويبنى للمفعول فيقال : هُديت العروس فهى مهدية ، هذه لغة تميم .

أما قيس عيلان فيقولون : أهدينا العروس إلى زوجها إهداء أى جعلناها هدية فهى مُهداة .

ويقال أهديت لفلان كذا بالألف إذا بعثت به إليه فهو هدية ، وأهديت الهدى إلى الحرم إذا سقته إليه .

ومن معانى الهدى السيرة ، تقول : ما أحسن هدى فلان أى ما أحسن سيرته ، وهَدَى هدْى فلان أى سار سيرته ، وفى الحديث « واهدوا هدى عمار »

فيقال أيضًا : ما أحسن هَدية فلان بكسر الهاء وفتحها أى ما أحسن سيرته .

٤٥٥ـ كتبت صحيفة الأهرام تقول على لسان رئيس الجمهورية :

(لو بعث إلى كارتر بما لا يوافق آراءنا **سأقول له : لن أذهب إلى جنيف)** .

والفصيح أن يقال : لو بعث إلى كارتر بما لا يوافق آراءنا لقلت له: لن أذهب إلى جنيف ويؤيد هذا قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقوله (ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم) .

وقوله (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وقوله (ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها) وقوله (ولو شئنا لطمسنا على أعينهم) وقول توبة :

فلو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى جندل(1) وصفائح(2)
لسلمت تسليم البشاشة(3) أو زقا(4)
إليها(5) صدى من جانب القبر صائح

---

(1) تذخرى : تدخرى .

(1) الجندل : الحجارة .
(2) الصفائح : صفائح الباب : ألواحه .
(3) البشاشة : طلاقة الوجه وفرح الصديق بصديقه .
(4) زقا : صاح .
(5) الصدى : ما يجيبك بمثل صوتك .

٤٥٦ – قرأت فى صحيفة الأهرام عنواناً هو (نميرى يعلن عودة المنشقين) وكلمة المنشقين تعنى الصحيفة بها من خالفوا الرئيس السودانى وخرجوا عن طاعته وصاروا له خصماء ، وهذا خطأ لأن الانشقاق لا صلة له بهذا المعنى، وإنما له معنى آخر هو أن تحدث فى الشىء المنشق فرجة ، كما أن المنشق لا يكون إلا من غير الأناسى ، إذ تقول: شق الرجل الرغيف شقا من باب رد فانشق بالفعل المطاوع فالرغيف انشق، وشق الولد البطيخة فانشقت فهى منشقة والقمر ينشق فى قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) والسماء منشقة فى قوله (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) وقوله (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) والأرض منشقة فى قوله سبحانه (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض) .

ومن المجاز قولك : شق فلان عصا المسلمين إذا خالفهم ، وانشقت العصا بينهم إذا تفرقوا أما الشِّق بالكسر وقد يفتح فهو نصف الشىء ، تقول : المال بينى وبين أخى شق الشعرة أى نصفان سواء ، وكذلك هو الأخ ، تقول : هو أخى وشقيقى وشق نفسى ، كأنه شق نسبه من نسبه وهو الجانب والناحية تقول : أقام فلان فى شق من الدار، وهو المشقة كما فى قوله تعالى (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) .

والشُّقة بالضم والكسر البعد والناحية يقصدها المسافر والسفر البعيد ، ومنها قوله عز شأنه (لو كان عرضًا قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة) جمعها شقق كصرد ، وشقق كعنب .

والشقاق بالكسر الخلاف والعداوة تقول : بين فلان وجاره شقاق ، ومنه قوله تعالى (وإن تولوا فإنما هم فى شِقاق) .

٤٥٧ – ويخطىء كثير من المثقفين حينما يقولون : فلان مستهتِر بكسر التاء الثانية يعنون أنه يبيح لنفسه ما لا يباح والصواب فتح هذه التاء لأن كلمة مستهتَر لا تكون إلا اسم مفعول من فعل مبنى للمجهول دائماً ، ولها معان مختلفة أوردها ابن منظور فى لسان العرب ، ملخصها ما يأتى :

١ – يقال : رجل مستهتَر لمن لا يبالى ما قيل فيه ، ولا ما قيل له ، ولا ما شتم به .

٢ – ويقال فلان مستهتَر بالشراب أو بلعب الميسر إذا كان مولعاً به ، وفى

حديث ابن عمر رضى الله عنه « اللهم إنى أعوذ بك أن أكون من المستهترين »

٣ — ويقال : استُهتر فلان بالبناء للمفعول فهو مستهتَر إذا كان كثير الأباطيل لأن الهتر هو الباطل .

٤ — والاستهتار أيضًا هو الولوع بالشيء والإفراط فيه ، والمستهترون بفتح التاء هم المولعون بالذكر والتسبيح من حديث نبوى ، وفى حديث آخر « هم الذى استُهتروا بذكر الله » أى أولعوا به .

٥ — ويقال : استُهتر فلان بكذا إذا أولع به ، وقد أهتر بفلانة واستهتر بها إذا فتن بها وأولع ، مما عرضنا استبان أن مستهتَر لابد أن تكون بصيغة اسم المفعول وأنها تستعمل كثيراً فى المعنى الشائع أى فى الأحوال المكروهة ، كما فى أمثلة الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، وتستعمل أيضًا بمعنى الولوع بالشيء والإفراط فيه ولو كان حسنا كما فى مثالى الرقمين ٤ ، ٥ .

٤٥٨ — أثبتت صحيفة الأهرام فى صفحتها الأولى عنوانًا قالت فيه :

(محاولة إسرائيلية جديدة لإعاقة السلام)

تعنى به صرف السلام وتثبيطه وحبسه وهذا التعبير خطأ ، والفصيح أن يقال : لعوق السلام ، أو اعتياقه ، أو تعويقه فقد قالت العرب : عاقه يعوقه عوقاً من باب قال إذا حبسه وثبطه ، ومثل ذلك اعتاقه اعتياقاً ، وعوقه تعويقاً واسم الفاعل من هذا مُعَوِّق بضم الميم وزان مُنظِّم ، ومنه قوله جل شأنه (قد يعلم الله المعوقين منكم) .

ويقال : أخَّرَنا عن لقائك عائقة من عوائق الدهر وهى الشواغل من أحداثه قال أبو ذؤيب :

ألا هل إلى أم الخويلد مرسَل
بلى خالد إن لم تعقه العوائق

والتعويق التثبيط ، ومنه تقول : فلان صحبه التعويق فهجره التوفيق ، ويعوق علم على صنم كان لقوم نوح عليه السلام وفى التنزيل (ولا تذرن ودًّا ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) .

ومنه تقول :

يا مَن عَن الخير تعوق
إن أحق أسمائك تيوق

٤٥٩ — ويقولون : لا يمكن لأحد من هؤلاء الشباب أن يصعد هذا الجبل ، كما لا يمكن لنا أن نصعده فيعدون الفعل خطأ باللام ، والصواب أن يتعدى بنفسه ، فيقال : لا يمكن أحداً أن يعمل كذا ، أى لا يسهل عليه ولا يتيسر له ، فأحداً مفعول به ليمكن

والمصدر المؤول من أن يعمل كذا فاعل، ويقال أيضًا : كما لا يمكننا أن نصعده فنا مفعول به والمصدر المؤول فاعل .

ومن هذا يقال : فلان لا يمكنه النهوض بهذا العمل، أما أنا فلا يمكنني تركه وإهماله .

ويقال : مكّنت فلاناً من السفر تمكيناً ، وأمكنته منه أى جعلت له عليه سلطاناً وقدرة فتمكن منه واستمكن أى قدر عليه ، فالفعل الرباعى المضعف والرباعى المهموز سواء فى المعنى .

وأما الثلاثى فيقال منه: مكُن مكانة كضخم ضخامة إذا عظم وارتفع فهو مكين وهم مكناء والمكِنة بكسر الكاف القوة ، تقول : لفلان مكِنة على كذا أى قدرة وشدة والمكِنة أيضًا ببضة الضبة والجرادة ونحوهما، جمعها مكِن[1] ومكِنات بكسر الكاف فيهما ، وفى الحديث « أقروا الطير على مَكِناتها » أى بيضها فلا تزجروها ولا تؤذوها .

٤٦٠ — كتبت صحيفة الأهرام عنواناً، هو (الشعراوى يحضر مولد عبد الرحيم القنائى) تعنى أنه منسوب إلى قنا .

وها هى ذى قد أخطأت فى هذا النسب ، لأن قنا اسم مقصور مؤلف من ثلاثة أحرف، وقاعدة النسب إلى الاسم المقصور أن ينظر إلى ألفه ، فإن كانت ثالثة وجب قلبها واواً . فيقال : فى قنا قنوى، وفى طما طِموى وفى بِبا ببوى ، وفى قها قَهوى، وفى الثرى وهو التّراب ثروى .

أما إذا كانت رابعة وثانى الاسم ساكن فإنه يجوز حذفها ، وقلبها واواً ، ويجوز مع القلب أن تزاد ألف قبل الواو ، فيقال فى النسب إلى بِنها : بِنهىّ ، أو بنهوى أو بنهاوىّ ، وفى النسب إلى بشلا : بِشلى أو بشلوىّ أو بشلاوى ، وفى النسب إلى شبرا : شبرى ، أو شبروى ، أو شبراوىّ .

وأما إذا كانت رابعة وثانى الاسم متحرك ، أو كانت خامسة أو سادسة فإنه يجب حذفها فيقال فى النسب إلى قلما : قلمى وإلى سنفا سنفى، وإلى كسلا كسلى

وفى النسب إلى مصطفى مصطفىّ ، وإلى مرتضى مرتضى ، وفى النسب إلى إدفينا إدفينى وإلى مستشفى مستشفى .

٤٦١ — ويقولون : هذا الرجل شيّال يشيل كثيراً من الأحمال الثقال ، وهذا

(١) مكِنة ومَكِن ومكنات ككلمة وكلم وكلمات .

فاسد وبيان ذلك أن الفعل اليائى الذى استعملوه فى عبارتهم لا وجود له فى العربية ، وإنما هو عامى ، وأما الفعل الذى استعملته العرب فهو الواوى .

تقول : شالت الناقة بذنبها تشول شَوْلا من باب قال ، وشَوَلانا أيضًا إذا رفعته للقاح ، وشالت العقرب بذنبها ، وشالت القربة إذا ارتفعت قوائمها عند الملء أو النفخ .

ويقال : شال الميزان إذا ارتفعت إحدى كفتيه عن الأخرى ، قال الأخطل :

وإذا وضعت أباك فى ميزانهم
قفزت حديدته إليك فشالا

ويقال : شالت نعامتهم إذا خفوا وطاشوا خوفاً فهربوا ، وشال القوم إذا خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم أو ذهب عزهم ، وامرأة شوّالة بالتشديد إذا كانت نمّامة .

والأفصح فى هذا الفعل أن يتعدى بالباء كما قلنا آنفاً ، أو بالهمزة كما فى قولك : أشال الرجل الجرة فانشالت هى ، ويتعدى بنفسه فى لغة فيقال : شال الرجل يده إذا رفعها يسأل بها .

ولإصلاح عبارتهم لتؤدى المعنى المبتغى ينبغى أن يقال : حمل الرجل الشىء يحمله حملا من باب ضرب وحُملانا أيضًا بالضم فهو حمال والشىء محمول وحَميل ، والحمل بالكسر ما حمل ، جمعه أحمال .

ويقال : حمله على الأمر فانحمل إذا أغراه به ، وحمّله للأمر تحميلا وحمّالا بالكسر ككذاب فتحمله تحملا وتحمّالا بالكسر ، وتحامل فى الأمر ، تحاملا وبه إذا تكلف على مشقة ، وتحمل عليه إذا كلفه ما لا يطيق .

٤٦٢ — فى صحيفة الأهرام عنوان قالت فيه : (اكتشاف عقار لتفادى النوبات القلبية) .

وهذا العنوان على الرغم من قصره يحوى ثلاث غلطات .

إحداها : كلمة اكتشاف ، لأن لها معنى غير الذى يقصدون إليه ، تقول : اكتشفت المرأة لزوجها إذا بالغت فى التكشف له عند الجماع ، واكتشف الكبش إذا نزا ووثب .

والصواب أن يقال : كَشْف بمعنى الإظهار كالمكاشفة »

تقول : كشفته الكواشف إذا فضحته فتكشف أى افتضح ، وتكشف البرق إذا ملأ السماء ، وكشفت فلاناً تكشيفاً

عن كذا إذا أكرهته على إظهاره .

ومن المجاز قولك كشف الله غمه وهو كشاف للغمم .

والثانية : كلمة عقار إذ معناها الأرض والضياع والنخل ، والصواب أن يستبدل بعقار دواء فيقال : كشف دواء ، ولو قالت الصحيفة عقّار بزنة عطّار لكان هذا حسناً وسليماً ، لأن كلمة عقّار بالتشديد جمعها عقاقير وهى أصول الأدوية .

والثالثة : كلمة لتفادى النوبات بإضافة تفادى للنوبات والفصيح أن يقال للتفادى من النوبات ، لأن التفادى لا بد أن تذكر بعده من الجارة فقد قالت العرب : تفادى فلان من كذا إذا تحاماه ، وفداه من الأسر إذا استنقذه بمال ويؤيد هذا قول ذى الرمة :

(تفادى الأسود الغلب منه تفادياً)

٤٦٣ — وفى صحيفة الأهرام عنوان آخر قالت فيه :

(الرئيس يكلف حسنى مبارك بالإعداد لجولة بالعواصم الإفريقية) :

فجعلت الفعل يكلف متعدياً إلى المفعول الثانى بالباء ، والحق أن هذا الفعل يتعدى بنفسه إلى مفعوليه كما فى قوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وقوله (لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) وقد يكون المفعول الأول نائباً عن الفاعل كما فى قوله سبحانه (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) .

٤٦٤ — وينكر عدد وافر من الأدباء والمثقفين أن يقول الصائم : لقد فطرتُ عقب غروب الشمس ، فأنا الآن فاطر بالفعل الثلاثى ، ويصرون على أنه كان من الواجب أن يقول : لقد أفطرت بالفعل الرباعى فأنا الآن مفطر من مفاطير .

ففى القاموس : فطر ناب البعير فَطراً وفُطوراً طلع ، وفطر الله الخلق خلقهم وبدأهم ، وفطر فلان الأمرَ أنشأه ، وفطر الصائم أكل وشرب كأفطر .

وفطرت فلانا بالفعل الثلاثى وفطرته تفطيراً بالفعل المضعف وأفطرته بالفعل المهموز كل أولئك بمعنى واحد .

ويقال : رجل فِطر بكسر الفاء أى مُفطر ، وقوم فِطْر أى مفطرون فهو صالح للمفرد والجمع لأنه فى الأصل مصدر والفَطور بالفتح ما يفطر عليه ، وبالضم المصدر ، والاسم الفِطر بالكسر .

٤٦٥ — أثبتت صحيفة الأهرام فى صدر صفحتها الأولى عنواناً هو « اتفاق

وجهات النظر المصرية والفلسطينية حول الموقف من كافة جوانبه » وهذا العنوان مشوب بالفساد من ناحيتين

أولاهما : أنها أضافت كلمة كافة إلى ما بعدها ، وهى لا تضاف أبدا .

والأخرى : أن كافة واجبة النصب دائماً ، تقول : غاد الحجيج من الحجاز كافة أى عادوا جميعاً ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ، ويؤيد هذا قوله تعالى :

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقوله (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) أما نصبها فعلى الحال نصباً لازماً ، لا تستعمل إلا كذلك ، فقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس) معناه وما أرسلناك إلا للناس جميعاً .

قال الفراء فى كتاب معانى القرآن : نصبت على الحالية لأنها فى مذهب المصدر ، ولذلك لم تدخل العرب فيها الألف واللام ، وهى فى مذهب قولك : قاموا معاً ، وقاموا جميعاً .

وقال الأزهرى : كافة منصوبة على الحال ، وهى مصدر على فاعلة كالعافية والعاقبة كما لو قلت : قاتلوا المشركين كافة . ولا خلاف فى ورود المصدر حالا كقوله عز وجل (وادعوه خوفاً وطعما) أى خائفين طماعين وقد قال ابن مالك فى ألفيته :

ومصدر منكر حالا يقع
بكثرة كبغتة زيد طلع

ومثل ذلك قولك : جاء فلان ركضا وقتلت المجرم صبرا ، وهو عند سيبويه والجمهور على التأويل بالوصف ، والتقدير طلع باغتاً مفاجئاً ، وجاء راكضا وقتلته مصبوراً أى محبوساً فكان على صحيفة الأهرام أن تقول : حول الموقف من جوانبه كافة بنصب كافة منونة .

٤٦٦ — يقول كثير من الخاصة والأدباء زارنا ليلا أحد الشعراء المفلقين ، وظل يتحفنا برائع شعره ، وهذا خطأ فاحش لأن كلمة ظل لا تستعمل إلا نهاراً ، تقول : ظل فلان يفعل كذا يظل من باب تعب ظلولا بضم الظاء إذا فعله نهاراً .

ففى مختار الصحاح وغيره : ظل الرجل يعمل كذا إذا عمله بالنهار دون الليل ، ومنه قوله تعالى (فظلتم تفكهون)

وقال الخليل : لا تقول العرب ظل إلا لعمل يكون بالنهار .

ولتأدية المعنى المبتغى يجب أن

يقال : بات يتحفنا برائع شعره ، وذلك لأن التبيت معناه التفكير والتدبير ليلا تقول : بيت فلان أمره تبييتاً إذا دبره ليلا ، ومنه قوله عز شأنه (إذ يبيتون مالا يرضى من القول) ويقال : بيت الجيش العدو إذا أوقع بهم ليلا ، وبيتك الله فى عافية أى منحك العافية ليلا .

والبيات بالفتح الإغارة ليلا وهو اسم من بيت تبييتا ومنه قوله سبحانه « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون » وقوله (قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً) أى أتاكم عذابه ليلا أو نهاراً .

عباس أبو السعود

« فضل الأدب »

يروى أن أعرابيًّا وقف على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك ، وإن أنت لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك . فقال له على : خطّ[1] حاجتك فى الأرض ، فإنى أرى الضر عليك ، فكتب الأعرابى على الأرض : إنى فقير . فقال على لخادمه ، ادفع إليه حلتى الفلانية . فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كسوتنى حـلة تبلى محاسـنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبـه كالغيث يحيى نداه السّهل والجبـلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به فكل عبد سيُجزَى بالذى فعلا

فقال على لخادمه : أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألته ، وأما الدنانير فلأدبه .

(١) إنما دعاه إلى كتابة حاجته رفقاً به وصيانة لماء وجهه .

باب الفتاوى

الأستاذ / عبد الحميد السيد شاهين

س : سؤال من طالبة حقوقية بجامعة الإسكندرية تقول فيه : قد اختلفت أنا وزميلاتى فى تفسير قول الله تعالى فى سورة النمل (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) . الخلاف ينحصر فيما يأتى : هل الدابة حيوان وله رأس إنسان وجسد طير ؟ وهل صحيح أنها تكلم الناس ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ؟ أو هى حشرة من الحشرات المؤذية يسلطها الله على عباده فما رأيكم ؟

ج : هذا السؤال وجه إلى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله – فأجاب عليه بما يأتى :
الواقع أن هذه الدابة قد قيل فى شأنها أكثر من ذلك ، وعملت فيها الروايات والآثار عملها المعروف فى كل أمر غيبى أخبر به القرآن ولم يتصل به بيان قاطع عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قيل ذلك فى حقيقتها ، وقيل فى صفتها .

ومن أغرب ما قيل فى حقيقتها :

أنها إنسان ، وأنه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقيل : إنها ولد ناقة صالح فر هارباً حينما عقر القوم أمه . وانفتحت له فى طريقه صخرة فدخلها ثم انطبقت عليه ، فهو فى باطنها إلى أن يخرج قرب يوم القيامة ..

وقيل : إنها دابة قديمة خلقت فى عهد الأنبياء المتقدمين . وإن موسى سأل ربه أن يريه إياها . فأخرجها ثلاثة أيام ولياليها . تذهب فى السماء لا يرى واحد من طرفيها . فرأى عليه السلام منظراً فظيعاً ، فقال : يا رب ردها فردها . . .

أو إنها هى الثعبان الذى كان فى جوف الكعبة ، واختطفته العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام فمنعهم ، فألقته

العقاب بالحجون ، فالتقمته الأرض وهو فى باطنها حتى يخرج يوم القيامة .

ومن أغرب ما قيل فى صفة الدابة : أن طولها ستون ذراعاً بذراع آدم عليه السلام لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب . وأن لها مع جميع دواب الأرض مشابهة تامة مع عضو من أعضائها : فلها وجه إنسان . ورأس ثور ، وعين خنزير . وأذن فيل « إلى آخر ما سودت به الصحف . وضاع الوقت فى نقله » وهى كلمة حق قالها أحد المفسرين ونقلها الألوسى فى تفسيره وأقرها . . وقال معتذراً عن ذكره شيئاً من أخبارها : وأنا إنما نقلت بعض ذلك دفعاً لشهوة من يحب الاطلاع على شىء من أخبارها صدقاً كان أو كذباً .

وقال الإمام الرازى بعد أن حكى هو أيضًا شيئًا من أخبارها : « واعلم أنه لادلالة فى الكتاب على شىء من هذه الأمور فإن صح الخبر فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وإلا لم يلتفت إليه » وهو يعنى أنه لايصح من أخبارها شىء غير المذكور فى القرآن الكريم . .

هذا وقد فات المفسرين أن يضعوا حدًّا لصون التفسير عن هذا الإسرائيليات التى أظلمت الجو على طلاب الهداية القرآنية وشغلتهم عن اللب والجوهر بما ألصقته بالقرآن .

وليس هذا خاصًّا بالدابة بل فى كل أمر غيبى أخبر به القرآن فقد قيل مثله فى « يأجوج ومأجوج » وفى « الصور » وفى « اللوح المحفوظ » وفى غيرها . .

الوقوف فى شئون الغيب عند النصوص :

والذى أحب أن أقرره هنا — فيما أخبر به الله من شئون الغيب التى لم يتصل بها بيان قاطع عن الرسول : من الدابة . والصور . ونحوهما هو : أنا نؤمن به على القدر الذى أخبر الله به دون صرف للفظ عن معناه ، ودون زيادة عما تضمنه الخبر الصادق ، فنؤمن مثلا بأنه سيكون فى آخر الدنيا صور ينفخ فيه . فتكون صعقة ، ثم ينفخ فيه أخرى فيكون البعث به ، أما الخوض فى حقيقته ومقداره وكيفية النفخ فيه أو حمله على أنه تمثيل لسرعة إفناء العالم وبعثه بسرعة النفخة المعروفة للناس ، فإنه رجم بالغيب . وتقول على الله بغير علم .

ونؤمن بأن القرآن — كما أخبر الله — فى لوح محفوظ ، أما الخوض فى حقيقته ، أو تأويله . بأنه تمثيل لصونه

عن التغيير والتبديل . فإنه رجم بالغيب وتقول على الله بغير حق .

ما يجب أن نعلمه عن الدابة :

وعلى هذا نؤمن – بأنه حينما يقع أمر الله وتحق كلمته . ويأتى اليوم الذى لا ينفع فيه نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل – ستظهر للناس دابة . ولكن هل تتولد من الأرض أو هى من دوابها ؟ ذلك يعلمه الله !!! وهل هى صغيرة أم كبيرة ، وعرضها كذا وطولها كذا ؟ وهل تحمل معها عصا موسى . وخاتم سليمان . أو لا تحمل شيئاً ؟ ذلك يعلمه الله ! ! !

نؤمن فقط أن دابة ستخرج وتكلم الناس ، هل تكلمهم بلسان عربى ذلق أو بغيره ؟ كذلك هذا يعلمه الله ؟!!! نؤمن بها وبكلامها دون استبعاد أو إنكار .

وقد قص الله علينا فى السورة نفسها أن عصا موسى وهى جماد (تحركت واهتزت كأنها جان . وأنها تلقف ما يأفكون ، وقص علينا أن الحيوان الذى ليس من شأنه أن ينطق ولا أن يعبر عن الإيمان أو الكفر « كالهدهد » نطق وعبر عن الإيمان والكفر – وأن نبى الله سليمان فهم منه كل ما أراد ، وانتفع برحلته التى قام بها من تلقاء نفسه إلى ملكة سبأ .

وإذا كانت الحمادية تلحقها فى الدنيا بسنن الله الخاصية الحيوانية فتتحرك وتبتلع ، والحيوانية كذلك تلحقها بالسنن الخاصية الناطقية . فتفكر وتدبر وتنطق وتعبر – فما بالنا بالنشأة الأخرى التى لا سبيل إلى معرفتها ولا معرفة أحداثها ، ولا سنن الله فيها إلا بالخبر الصادق عنه سبحانه ؟

نعم يجب الوقوف فى الإيمان به عند الحد الذى جاء به الخبر الصادق ، ولا ينبغى التصرف فيه بالحمل على التمثيل أو الزيادة عليه وضم شىء إليه ، فضلا عن استبعاده أو إنكاره . وهذا هو شأن المؤمنين بالله وبكتابه وغيبه .

س : هل تجوز صلاة القائم خلف إمام قاعد ؟

ج : اتفق [1] العلماء على أنه ليس للصحيح أن يصلى فرضًا قاعداً منفرداً كان أو إماماً لقوله تعالى : (وقوموا لله قانتين) .

واختلفوا إذا كان المأموم صحيحاً

---

(١) المرجع فى هذه الفتوى كتاب بداية المجتهد – وكتاب سبيل السلام .

فصلى خلف إمام مريض يصلى قاعداً على ثلاثة أقوال ؟ أحدها : أن المأموم يصلى خلفه قاعداً ، وممن قال بهذا القول أحمد وإسحاق . . والقول الثانى : أنهم يصلون خلفه قياماً. قال أبو عمر بن عبد البر . وعلى هذا جماعة فقهاء الأمصار – الشافعى وأصحابه – وأبى حنيفة وأصحابة – وأهل الظاهر وأبى ثور وغيرهم .

الثالث: روى ابن القاسم أنه لا تجوز إمامة القاعد وأنهم إن صلوا خلفه قياماً أو قعوداً بطلت صلاتهم ، وذهبت الهادوية ومالك وغيرهم إلى أنه لا تصح صلاة القائم خلف القاعد لا قائماً ولا قاعداً . .

وقد روى عن مالك أنهم يعيدون الصلاة فى الوقت – وهذا إنما بنى على على الكراهة لا على المنع . والأول هو المشهور عنه . . .

وسبب الاختلاف تعارض الآثار فى ذلك – ومعارضة العمل للآثار ، أى عمل أهل المدينة عند مالك وذلك أن فى ذلك حديثين متعارضين : أحدهما حديث أنس وهو قوله صلى الله عليه وسلم : «وإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً» وحديث عائشة فى معناه وهو «أنه صلى (صلى الله عليه وسلم) وهو شاك جالساً وصلى وراءه قوم قياماً ، فأشار إليهم أن اجلسوا ، فلما انصرف قال : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا ، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً» ...

والحديث الثانى : حديث عائشة «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فى مرضه الذى توفى منه – فأتى المسجد فوجد أبا بكر وهو قائم يصلى بالناس – فاستأخر أبو بكر فأشار إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن كما أنت ، فجلس رسول الله إلى جنب أبى بكر ، فكان أبو بكر يصلى بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر» .

فذهب الناس فى هذين الحديثين مذهب النسخ ومذهب الترجيح ، فأما من ذهب مذهب النسخ فإنهم قالوا: إن ظاهر حديث عائشة «وهو» أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يؤم الناس وأن أبا بكر كان مستمعا» لأنه لا يجوز أن يكون إمامان فى صلاة واحدة ، وأن الناس كانوا قياماً وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالساً ، فوجب أن يكون هذا من فعله صلى الله عليه وسلم

إذا كان آخر فعله ناسخاً لفعله وقوله المتقدم .

وأما من ذهب مذهب الترجيح فإنهم رجحوا حديث أنس بأن قالوا : إن هذا الحديث قد اضطربت الرواية عن عائشة فيه — فيمن كان الإمام هل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أبو بكر؟

وأما مالك فليس له مستند من السماع لأن كلا الحديثين قد اتفقا على جواز إمامة القاعد ، وإنما اختلفا فى قيام المأموم أو قعوده » . . .

وقد رجح العلماء جواز إمامة القاعد للقائم وصحة صلاته خلفه — والله أعلم .

عبد الحميد شاهين

(حكم)

- من أحب الحمد أحسن السيرة .
- الاختيار دليل العقل .
- إخوان السوء كشجرة النار يحرق بعضها بعضا .
- الهوى مفتاح السيئات .
- شرار الناس الذين يُكرَمون اتقاء شرهم .

" كتاب الشهر "

شَبابنا المثقف أمام الإيمَان والتديُّن

سماحة الشيخ / نديم الجسر
مفتي طرابلس وشمال لبنان

يسر مجلة الأزهر أن تعيد نشر هذا البحث خدمة للشباب الذى يتعرض لضغوط نفسية وثقافية وبخاصة فى هذه الأيام ، وهو سبحانه ولى التوفيق .

الظاهرة الغريبة :

إننا أمام ظاهرة اجتماعية خطرة يشكو منها العالم الإسلامى بأسره وهى : أن أكثر شبابنا المثقف بالثقافة العلمية العالية هم أقرب إلى الإلحاد ، وأن القلة المؤمنة منهم أميل إلى إهمال العبادات والشعائر .

إن هذه الظاهرة الغريبة بدأت مع عصر النهضة العلمية فى بلاد العرب والإسلام ، وأخذت تزداد خطراً كلما ازدادت النهضة انتشاراً وازدهاراً ، وقد منيت بالفشل كل المحاولات التى قام بها المصلحون فى سبيل معالجتها .

فما هى أسباب هذه الظاهرة ؟.

ولماذا ترافق العلم ، والعلم نور يهدى إلى الحق والخير ، والإيمان والإسلام نور وحق وخير ؟ .

وما هى أسباب الفشل فى معالجتها ؟.

أكاد أقرأ فى أفكار بعضكم أيها السادة ، أن الموضوع — على خطره — لا يستحق بحثاً طويلا عن أسباب هذه الظاهرة ، لأنها بينة ظاهرة . ولكن كلا . إن الأسباب أكثر وأعمق وأخفى وأدق من أن تعرف بنظرة عابرة أو دراسة عاجلة .

إن لها أسباباً كثيرة معقدة ومتشابكة منها الخارجى ، ومنها الداخلى المحلى ، ومنها العقلى ، ومنها النفسانى ، ومنها الذى يستشرى فى قطر أكثر من قطر آخر . ومن كل هذا التعقيد والتشابك والتنوع والظهور والخفاء كان الفشل فى العلاج .

لذلك سأحاول ، بقدر استطاعتى ، أن أبسط هذه الأسباب ضمن المباحث الآتية . وأنا على تمام اليقين من أن السادة العلماء الأعلام هم أدرى بها منى ، ولكنى أجمعها تيسيراً للبحث على صعيد واحد ، أمام أنظارهم الثاقبة ، وعقولهم النيرة ، ليصلحوا ما فيها من أخطاء ، ويتمموا ما فيها من نقص ، ويتولوا وصف العلاج الصحيح .

شبابنا فى شخصيتهم والمحيط :

لكى نتوصل إلى دراسة صحيحة لأسباب هذه الظاهرة المزدوجة المتجلية فى الإلحاد وإهمال الشعائر ، لابد لنا أن ندرس شخصية شبابنا ، والمحيط الذى يعيشون فيه ، والأفكار التى تغزو عقولهم .

إن شبابنا — فى عقله وجسده وميوله وأخلاقه — يقف مرتبكاً بين عدة تيارات : سلطان العقل ، أوهام التعقل ، سلطان العلم ، أوهام العلم ، سلطان الجهل بحقيقة الإسلام ، عدوى الملحدين ، كيد المستعمرين ، أخطاء المستشرقين والمؤرخين ، العقد النفسية ، فساد المحيط .

فوارحمتاه لكم يا شباب الجيل !!...

إن العقل فطرة تظهر آثاره ، وتسيطر أحكامه ، حتى فى الطفل ، ثم تزيده التجارب انكشافاً ونضوجاً . ولكن طالب العلم اليوم يفرض عليه ، من أول خطوة يخطوها فى دراسة الحساب ، إلى آخر خطوة يخطوها فى دراسة الرياضيات والفلكيات والطبيعات والمنطق والفلسفة أن يستعمل عقله دون سواه . فيشعر بسلطان العقل شعوراً طاغيًّا ، ترافقه انتفاضة من الزهو والعجب والكبرياء ، كالتى ترافق كل قوى يشمخ برأسه فوق أعناق الضعفاء ، وترافق كل عالم يشمخ بعقله وعلمه فوق رءوس الجهال والبسطاء ، حتى يبلغ هذا الاعتزاز بالعقل والعلم حد الغرور والتقديس .

هذا فى مجال الإيمان بالله وتعقل القضايا الدينية . وأما فى مجال العمل بوصايا الدين وشعائره ، فإننا بين زخم الشباب وشبوبه ، وزخم المحيط وعيوبه نجد العوائق ، فالأجساد فى بركان من العواطف والشهوات ، والمحيط فى زلزلة من الفوضى والفجور ، والحياة كلها فى تيار جارف من الكدح السريع المرير .

هذا واقع شبابنا عقلا وجسداً ومحيطاً فما لم نقنعهم بأن الإيمان بالله هو من أصدق وأوجب أحكام العقل ، وما لم نيسر لهم التربية الصالحة ، والمعرفة الميسرة ، والقدوة الكريمة لن يكونوا عاملين .

سلطان العقل فى الإسلام :

كما فعلت فى محاضرة ألقيتها فى نادى المعلمين بالقاهرة أطرح على سمع الشباب المسلم السؤال الآتى . ما هى أعظم مزية يمتاز بها دين الإسلام ؟ .

لا ريب عند المسلم فى أن الأديان السماوية كلها ، هى فى أصلها وأساسها

من عند الله ... ولا ريب عند العاقل فى أن الأديان السماوية تتلاقى ، فى أصلها وأساسها ، على كل معانى الحق والخير بلا أدنى خلاف .

ولكن مزية الإسلام هو أنه قد جعل للعقل السلطان الأعلى فى فهم النصوص المنزلة . هذا العقل الذى أمرنا الله فى آيات كثيرة من القرآن أمراً قاطعاً أن نحتكم إليه عند جدلنا مع أنفسنا فى معركة الشك واليقين ، وعند جدلنا مع غيرنا من الملحدين والمشركين ، يشمل سلطانه كل معنى فى الوجود ، ابتداء من أبسط الأمور ، كإماطة الأذى عن الطريق إلى أعظم معنى فى الوجود ، وهو الألوهية والوحدانية .

فليس فى الإسلام إيمان يتناقض مع العقل ، ولا نص خبر يتناقض مع العقل ، ولا أسرار ، ولا خرافات ، ولا أوهام تتناقض مع العقل والعلم الصحيح ، وكل نص يوجب ظاهره تناقضاً عقليًّا فى الذهن ، يتوجب علينا تأويله تأويلا يرتفع به التناقض العقلى .

وهذا شأن الإسلام مع قضايا العلم التى بلغت مرتبة اليقين فى الحكم العقلى القاطع .

أوهام التعقل :

ولا بد لى قبل أن أضرب للشباب الأمثلة على سلطان العقل فى قضايا الإيمان والدين أن أكشف لهم النقاب عن أوهام التعقل وأبين لهم الفرق .

١ — بين المستحيل العقلى والمستحيل العادى .

٢ — بين استحالة التعقل وصعوبة التصور .

٣ — بين حكم عقلى عام تتفق عليه كل العقول السليمة ، وبين نظرة فردية خاصة تختلف بشأنها العقول السليمة .

٤ — بين الحقائق العلمية المقطوع نهائيًّا بصحتها والآراءالعلمية غير المقطوع نهائيًّا بصحتها ، والتى تظهر وتبزغ على مسرح التفكير حقبة من الزمن ، ثم تخبو إلى الأبد .

إن الخلط بين هذه الحقائق والفوارق هو من أوهام التعقل التى يقع فى أغاليطها كثير من الناس ، حتى المثقفون بأعلى الثقافات . فمن الواجب على الشاب الذى يدخل فى جدل مع نفسه ، أو مع غيره ، حول أية قضية دينية ، أن يقف تمام الوقوف على هذه الفوارق ، كى لا يقع

فى أحبولة أوهام التعقل .

فالمستحيل العقلى هو الذى يوجب تصور وجوده أو تصور عدمه تناقضاً عقليًا فى الذهن : كقولنا الواحد نصف الثلاثة ، أو قولنا الجزء أكبر من الكل أو قولنا إن جبل المقطم يدخل فى الفنجان.

أما المستحيل العادى فلا يوجب تصور حصوله أو عدم حصوله تناقضاً عقليًّا فى الذهن ، ولكن جرت عادتنا نحن البشر ، أن نعده مستحيلا فى العادة ، كخرق النواميس الكونية بالمعجزات الإلهية .

فأرجو أن يكون هذا الفرق نصب أعين الشباب .

كذلك نقول عن الفرق بين استحالة تعقل الشىء وبين صعوبة تصوره . فكم من حقيقة يمكن تعقلها ، أى أن العقل يقطع بصحتها ، ولكن يصعب على الذهن تصورها ، كأحجبة الورقة الرقيقة التى يكرر تقطيعها مع التضعيف خمسين مرة ، فيبلغ سمكها ، إذا ركمت المقطعات ، إلى سطح القمر . . . أو كعدد ذبذبات الصوت التى أثبت العلم أنها قد تبلغ بالحساب الدقيق القاطع إلى نصف مليون ذبذبة فى الثانية . فيمكن تعقلها ، ولكن لا يمكن تصورها مطلقاً فى الذهن ، لأننا مهما جمعنا خيالنا وركزناه لا نستطيع أن نتصور أن ثانية من الزمن تتسع لنصف مليون ذبذبة .

وإنى لأرجو أن يكون هذا الفرق بين استحالة تعقل الشىء وصعوبة تصوره نصب أعين الشباب فلا تحملنهم صعوبة التصور على القول باستحالة التعقل . فما كل شىء يصعب تصوره يكون مستحيلا عقلا ، ولا كل معقول يسهل تصوره ... فإن الشباب إذا تنبهوا إلى هذا الفرق بين التعقل والتصور وفروا نصف طريق الجدل والمراء . مع أنفسهم فى معركة الشك واليقين ومع غيرهم حول قضايا الإيمان .

كذلك نقول عن الفرق بين النظر العقلى العام الذى تتفق على صحته كل العقول السليمة بلا خلاف ، وبين النظرة الخاصة التى تختلف فيها العقول . فلا يقولن الشاب أثناء الجدل العقلى على قضية من قضايا الدين : هذا رأيى وهذا عقلى . لأننا نقول له : عقلك وحدك ليس بحجة على الحكم الصحيح ولكن اتفاق كل العقول هو الحجة .

كذلك نقول عن الفرق بين الحقائق

العلمية المقطوع عقلياً ونهائياً بصحتها، وبين الآراء والنظريات العلمية الظنية المرجحة ، التي لم يقم الدليل القاطع على صحتها ، ويحتمل أن تظهر أدلة جديدة تنفي صحتها وتوجب بطلانها ، والأمثلة كثيرة لا تخفى على الشباب المثقف.

كروية الأرض . حركة الأرض . حركة الشمس . حقيقة النور . حقيقة الألوان . الطيف الشمسي . العالم غير المنظور . حقيقة العناصر الكونية بمقتضى القانون الذرى . الجاذبية . الكهربائية . أوهام التاريخ التي تلبس ثوب الحقيقة القاطعة ، وغير ذلك من الآراء والنظريات العلمية ، التي كانوا يحسبونها حقائق علمية قاطعة ، فإذا بالعلم يتطور فيكشف عن بطلانها من أساسها . أو بطلان مقاييسها ، وما زال العلم إلى اليوم يعدل ويبدل في الكشف عن أسرارها . كما رأينا في نظرية النسبية الحديثة .

فعلى الشباب – إذاً – ألا يبنوا آراءهم النهائية وجدلهم في إنكار القضايا والأخبار الدينية ، على أساس آراء علمية خاطئة أو ناقصة يظنونها حقائق علمية . ثم يظهر لهم بعد ذلك أن هذا الأساس الذى بنوا عليه جدلهم وجحودهم وإلحادهم هو أساس باطل . تعبوا في البناء عليه ، ولما ظهر الحق خر البناء من القواعد .

أمثلة على سلطان العقل في الإسلام :

١ – قضية وجود الله الخالق لهذا الكون : هي حقيقة ذكرتها الكتب المنزلة . وعند عرضها على العقل ، كما أمرنا الله في آيات كثيرة من القرآن ، نجد أن إقرارها لا يشكل تناقضاً عقلياً ، بل إنكارها هو الذى يشكل تناقضاً عقلياً ، لأنه يجعل العالم الممكن الحادث المعلول موجوداً بغير علة ولا فاعل ، وهذا مستحيل يشكل تناقضاً عقلياً فاضحاً .. . أو يجعل المعلول عين العلة وهذ أيضاً مستحيل يشكل تناقضاً عقلياً فاضحاً ، وعن هذين المستحيلين عبر القرآن بقوله : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون)[1] .

٢ – والوحدانية حقيقة ذكرتها كل الكتب السماوية ، وعند عرضها على العقل – كما أمرنا الله – نجد أن إقرارها لا يوجب تناقضاً عقلياً . بل القول بتعدد الآلهة هو الذى يشكل تناقضاً عقلياً .

٣ – قضية المعجزات التي ذكرتها

---

(١) الطور ٣٥ .

الكتب السماوية ، عند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصولها يوجب تناقضاً عقليًّا ، بل ادعاء استحالتها استحالة عقلية لا عادية ، هو الذى يوجب تناقضاً عقليًّا عند من يؤمن بأن الله هو خالق الكون وخالق النواميس ، لأن المعجزات هى خرق للنواميس الكونية وهذا الخرق مستحيل فى العادة ، ولكنه غير مستحيل عقلا ، لأن الذى خلق النواميس قادر على خرقها .

وهنا يطيب لى أن أستنكر تفسير المعجزات الإلهية تفسيراً علميًّا ، لأن هذا التفسير يفقد المعجزة معناها ، ويرد الشباب المثقف الذين نريد حملهم على تصديق المعجزة إلى نكسة عقلية فى معجزات يستحيل تفسيرها على أساس علمى ، كما أوضح الشيخ أبو النور الموزون السمرقندى فى (قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن) .

٤ — قضية البعث التى ذكرها وأكدها القرآن : عند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصول البعث يوجب تناقضاً عقليًّا ، بل القول باستحالة حصول البعث هو الذى يوجب تناقضاً عقليًّا . لأن البعث هو خلق جديد ، والذى خلق الإنسان أول مرة ، قادر على إعادة خلقه بل هو أهون عليه .

وعن هذه البداهة العقلية عبر القرآن بقوله : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم)[1] وقوله : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)[2] .

٥ — قضية الإسراء التى ذكرها القرآن : عند عرضها على العقل لا نجد حصولها يشكل تناقضاً عقليًّا ، بل القول باستحالة وقوعها هو الذى يشكل تناقضاً عقليًّا . لأنها إن كانت معجزة وخرقاً للناموس فالله خالق النواميس قادر على خرقها وإن كانت تصريفاً لقوة السرعة فالعلم قد اكتشف وتوصل اليوم إلى قطع المسافة بين مكة والقدس بأقل من المدة التى قطعها بها محمد بقدرة الله .

٦ — ولكن إذا عرض لنا نص يوجب الأخذ بظاهره تناقضاً عقليًّا كما فى الآية السادسة والثمانين من سورة الكهف التى حدثنا بها القرآن عن ذى القرنين ، حيث قال : (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) . وجب علينا التأويل لرفع التناقض ، لأن نص هذه الآية إذا أخذ على

(١) يس ٨١ .
(٢) الروم ٢٧ .

ظاهره اللفظى يشكل تناقضاً عقليًّا ، إذ من الثابت ثبوتاً قاطعاً ، أن الأرض أصغر من الشمس بمليون وثلثمائة ألف مرة . ومن البديهيات العقلية أن الجسم الكبير لا يدخل فى الوعاء الصغير فنقول ، كما قال العلماء الأعلام من قبلنا : معنى الآية أن ذا القرنين رأى الشمس تغرب وراء الأفق ، أى وراء البحر أو وراء بحيرة ، كأنها تغرب فى عين حمئة ، كما يرى أحدنا الشمس تغرب فى النيل ، وهو يعلم أنها تغرب وراء الأرض لا فى النيل .

٧ — وإلى الشباب المثقف مثالا آخر على وجوب عدم الاسترسال مع النظريات العلمية الظنية وذلك فى الآية ٩٠ من سورة الكهف حيث يقول القرآن عن ذى القرنين : (حتّى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) .

هذه الآية كانت تبدو مشكلة فى عهد النظرية القائلة بأن الأرض منبسطة وساكنة وأن الشمس هى التى تدور حولها. فما معنى أن الله لم يجعل بين هؤلاء القوم من البشر وبين الشمس ستراً ؟ وكيف لا تغيب الشمس عنهم ؟ وكيف التوفيق بين هذا النص وبين ذكر القرآن لنعمة الليل والنهار وجعلهما خلقه ؟ .

أما اليوم — بعد أن بطلت النظريات القديمة ، وظهر أن الأرض كروية ، وأن لها حركة سنوية حول الشمس تجعل أحد قطبيها فى نهار دائم والآخر فى ليل دائم عدة أشهر من السنة ، وظهر أن هنالك أقواماً فى أقاصى القطب ، فإن معنى الآية أصبح واضحاً ومفهوماً .

وهذا المثل من خير الأمثلة على وجوب عدم التسرع فى رفض النصوص الدينية لمجرد الظن بأنها تتناقض مع العلم .

تيسير الفهم والتفهيم :

إن تيسير فهم النصوص ، وفهم حكمة أحكام الدين ، له أثر كبير فى جذب الشباب المثقف نحو القيام بالعبادات والشعائر . وشبابنا مسدودة فى وجوههم أسباب هذا التيسير للفهم من كل النواحى : مسدودة فى البيت مسدودة فى المدرسة ، ومسدودة بركام من الكتب الضخمة ، التى يجفل الشباب من مجرد رؤيتها ، بل يعسر فهمها حتّى على بعض رجال الدين ، ومسدودة بجمود كثير من المعلمين المرشدين ، الذين يقابلون كل سؤال بغضبة وكل استفهام بلعنة ، وكل

اعتراض وبحث عن المعقول بالتكفير .
وأضرب على عدم تيسير الفهم مثلا بسيطاً يخص العرب .

هذا القرآن الذى يقول الله به للعرب (إنا أنزلناه قرآناً عربيًّا لعلكم تعقلون)[1] فيه أكثر من ألف كلمة عربية لا يعرف الشباب المثقف معناها اللغوى وهو يسمعها فى كل يوم وليلة من الإذاعات فكيف الحال مع غير العرب ...؟

فى سبيل تيسير الفهم والتفهيم على الشباب ، يجب أن نضع بين أيديهم كتباً دينية واضحة سهلة جذابة ، وأن نقيم على تعليمهم فى المدارس أساتذة يحسنون الفهم والتفهيم . ويدركون أساليب التربية النفسية ، ولهم صدور واسعة ، وعقول نيرة ، وثقافة واسعة تتناسب مع ثقافة الشباب المعاصر .

ولا يغرنكم أيها السادة فى القاهرة ومصر وبعض البلاد العربية من بعض أسباب التيسير ، فإن هنالك فى آسيا وفى إفريقيا أقطاراً إسلامية عربية وغير عربية لا يعرف شبابها من الدين إلا اسمه ، وهم عرضة لهذا الغزو الإلحادى الذى يعانيه الناس رغم كونهم فى جوار الأزهر.

(١) يوسف ٢ .

المثقفون والخرافات :

ومن أعظم ما ينفر الشباب المثقف من الدين تلك البدع والشوائب والخرافات والأباطيل التى ألصقت بالإسلام وهو براء منها .

ولذلك كان من أخطر المهام الملقاة على عاتق مجمع البحوث الإسلامية بمقتضى نظامه — تطهير الإسلام من هذه الشوائب .

وليس أدل على بعد الإسلام وترفعه عن هذه البدع والخرافات ، من هدى القرآن والسنة الصحيحة وهما المنبعان الأصيلان للتشريع .

فإذا تصفح الشبان القرآن وجدوا أنه فى كل سورة ، بل فى كل صفحة يعلى كلمة (الحق) ، ويجعل العقل إليه هاديًا ، والعلم عليه دليلا ، والعلماء عليه شهداء ... ويحذر من الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئاً ... ويستهزئ بالخرافات والأساطير ... ويفصل فصلاً صارماً بين الألوهية والبشرية ، ويخوف أشد التخويف من الشرك الخفى ، ويصل العبد بالله من غير وسيط ، ويفتح باب التوبة والاستغفار له من غير شفيع إلا بإذنه

فأين محل الأباطيل والخرافات والبدع من هذا القرآن ؟ .

وإذا تصفح الشباب السنة الصحيحة – وهى هدى رسول الله قولا وعملا – وجدوا أنه ، صلى الله عليه وسلم ، كان أبعد الناس عن أوهام الخرافات والأساطير وأشدهم إنكاراً للتنجيم والعرافة والسحر والشعوزة والاسترقاء ، والاستجارة بغير الله ، وكان أعظم الناس تبرأ من معرفة الغيب ، ومن كل ما يرفعه عن مستوى البشرية والعبودية لله .

انكسفت الشمس يوم مات ولده إبراهيم فقال الناس : انكسفت الشمس لموت إبراهيم ، فخرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عجلا يجر رداءه ، حتى انتهى إلى المسجد ، وثاب الناس إليه ، فصلى بهم ، ثم خطبهم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله » .

وكان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس عبادة وصلاة وصياماً ، ولكنه لم يخرج عن سمت البساطة التى شرعها له ربه . . . وكان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس ذكراً لله ولكنه لم يخرج عن حدود الوقار والإخبات والخشوع والسكينة إلى هرج الطقوس والحركات والرقص والتخبط ، وكان عليه الصلاة والسلام أعظم الناس زهداً وتقشفاً ولكنه لم يخرج فى زهده وتقشفه وتصوفه – إذا جاز التعبير – عن بساطة الإخلاص إلى تعقيد الرياء الذى سرت طقوسه إلى المسلمين من الأمم التى اختلطوا بها بعد الفتح .

فنرجو أن يعلم الشباب كل هذا حتى لا يخلطوا بين حقيقة الدين وشذوذ بعض المسلمين .

عقدة الكبت :

ومن أسباب انصراف الشباب عن الشعائر عقدة الكبت .

إننى أعرف كثيراً من الشباب المثقف يكره ممارسة الشعائر من أثر كبت نفسى حصل له فى صغره ، بسبب الطريقة التى ساقه بها أبوه أو معلمه فى المدرسة إلى ممارسة الشعائر ، وهى طريقة القسوة .

هذا الكبت يجب أن يحل محله التشويق والترغيب والإيحاء والاستهواء ، مع شىء من الشدة عند اللزوم .

ولهذا النهج من الترغيب أساليب : منها أن يكافأ الولد على الصلاة من أبيه بالمال ، ومن المدرسة بزيادة علامات

حسن السلوك ، ومن ذلك أن نجعل من أول يوم فى رمضان يوم فرح وسرور واحتفال وهدايا للصائمين من الأولاد ، حتى يصبح دخول شهر الصوم عندهم مفرحاً كيوم العيد ، ومن ذلك أيضاً أن نكافئ الولد الذى يتصدق على الفقراء من « خرجيته » بعطاء أجزل ليستقر فى نفسه أن قرش الصدقة معوض بأمثاله كما وعد الله المتصدقين .

أما الشباب البالغون فمن أهم أساليب الإيحاء لهم أن تحمل الجماعات الرياضية والكشفية وأمثالها على أن تدخل فى نظامها إقامة الصلاة وصيام رمضان ، فإن تأثير الإيحاء الذى يأتى للشباب من رفاقه وفرقته وجمعيته ، ومن نظام فرضه هو على نفسه ، أشد من النصيحة والوعد والوعيد .

كذلك يحسن فى باب التوجيه أن نجعل للمصلين والصائمين من الموظفين والعمال الشباب علامات تدخل فى إضباراتهم ، ويكون لها شأن فى الترقية والمكافأة ، وتوسيع مدة الإجازة ، فإن هذا التوجيه له أثره .

وأخيراً يجدر بنا ونحن ندرس عقدة الكبت ، أن نتذكر الطهارة للصلاة وما يعترى الشباب أحياناً من الحياء والخوف والكرب من بعض موجباتها . فإن كثيراً من الشباب يتركون الصلاة لهذا المانع . فعلينا أن نيسر لهم أمر التطهر بالماء وبغير الماء عند المانع ، كى يستهلوا الصلاة ويتعودوا عليها ، وهى بعد ذلك تنهاهم عن الفحشاء والمنكر وتنهاهم عن التيمم بلا عذر صحيح . فهذا خير من ترك الصلاة . كذلك يحسن أن نيسر لهم الجمع بين الصلاتين عند العذر ، أخذاً بمذهب ساداتنا الحنابلة وفى هذا العصر عصر الكدح السريع المرير فى سبيل العيش ، وهذا أرجح وأولى من التعسير المؤدى إلى ترك الصلاة .

عقدة التقنيط :

ومن أسباب إصرار الشباب على ترك الشعائر : التقنيط .

فالشبان ، بحكم مرح الشباب وفورته وجموحه ولهوه ، لابد أن تكون لهم فى حياتهم مزالق إذا اتفق لأحدهم أن أسرف على نفسه ، ثم سمع من الوعاظ أهوال المنذرات ، تكونت فى صدره عقدة القنوط ، فازداد إمعاناً فى الإسراف ، ولو أن الوعاظ اتبعوا نهج القرآن فى الترغيب ، والترهيب ، لفتحوا لذلك الشاب فى جدار يأسه كوة ينفذ منها إلى الأمل ويخرج منها إلى التوبة ،

وقد علم ربنا وخالقنا . وهو أحكم الحاكمين ، ما يترك التقنيط فى نفوس المذنبين المسرفين . ففتح لهم بحكمته باب الأمل والخروج من سجن الذنوب على مصراعيه بقوله تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً)[١] .

لذة التنفيس :

ومن عقد القنوط تتكون . عند الشاب المسترسل فى الإلحاد والفساد لذة التنفيس عن نفسه بثلاث طرائق : طريقة الجدل فى الإلحاد ، وطريقة الاستهزاء بالشعائر . وطريقة جر الرفاق الزملاء إلى الانزلاق .

ذلك لأن الضمير الدينى لا يموت موتاً نهائياً فى صدور الناس . مهما أسرفوا على أنفسهم ، لأن الشعور بالمسئولية هو شىء فطرى ولد معنا . كما ولدت فطرة الحنو على أطفالنا وقد نما هذا الشعور وترعرع فى صدورنا بإرث الأجيال . . فلا تصدق أن إنساناً يستطيع أن يتخلص من خوف السماء ، مهما ظهرت على لسانه وقلمه وأعماله مظاهر الكفر والإلحاد ، ولكن الذى يتورط فى أوحال الإلحاد والإسراف ، ويغلق عليه سجن القنوط ، يشعر برغبة فى التنفيس عن نفسه ، إما بالجدل دفاعاً عن إلحاده ، وإما بالاستهزاء بالشعائر دفاعاً عن تقصيره وتهويناً لذنوبه ، وإما بجر الآخرين إلى مهاوى الإلحاد والرذيلة ، لكى لا يكون وحده فيها ، وتلك طبيعة المجرمين المطرودين من رحمة الله ، وبسببها قال إبليس لربه بعد أن لُعِن وطُرِد : (رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين)[١] .

الفراغ والتقليد :

وسرت إلى شبابنا المثقف عدوى التقليد بعد أن قرأ تاريخ النزاع الطويل بين المفكرين ورجال الدين فى أوربا الذى انتهى عند بعض المفكرين إلى الشك ، وانتهى عند الماركسية المادية إلى الكفر والإلحاد واحتقار الشعائر ومحاربة الدين ورجاله .

إن شبابنا الذى فتحت فى تفكيره هوة من (الفراغ) بسبب ما يحمل فى رأسه من غرور العقل وأوهام التعقل

---

(١) سورة الزمر ٥٣ .

(١) سورة الحجر ٣٩ .

والجهل بحقيقة الإسلام ، وما يحمل فى صدره من عقد الكبت والقنوط ، أصبح بحاجة طبيعية لملء هذا الفراغ بأية فكرة تلائم نفسيته ، فانجرف مع تقليد الغربيين فى شكوكهم ، ثم زادته المشاكل الاقتصادية المعاصرة فراغاً ، فانجرف مع تقليد الماركسية بشيوعيتها وإلحادها .

ولكن شبابنا فاتهم ، وهم ينجرفون مع هذه التيارات أن يفهموا ، بل فاتنا نحن علماء الدين أن نفهمهم الأسباب التى حملت المفكرين فى عصر النهضة الأوربية على النزاع مع الدين ، الأسباب التى حملت الماركسية على الإلحاد ومحاربة الدين ورجاله ، ولو فهمناهم لظهر أن أسباب الشك والإلحاد ومحاربة الدين ورجاله عند الغربيين والشيوعيين ليس لها فى تاريخ الإسلام أى أثر .

فمحاربة الدين ورجاله فى أوربا بنيت على أسباب أربعة :

١ — النزاع الذى قام بين الفرق الدينية من عهد آريوس الإسكندرى حول الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية .

٢ — النزاع المسلح الدامى الذى قام بين الكنيسة والحكام من أباطرة وملوك .

٣ — النزاع الذى ظهر فى عهد الإصلاح الدينى منذ قيام لوثر والبروتستانتية وغيرها من الفرق وأسفرت عنه حروب دامية .

٤ — القسوة التى عومل بها بعض العلماء والمفكرين من قبل رجال الدين قتلا وإحراقاً وتعذيباً لقولهم بآراء علمية فلكية كشفت الأيام عن صحتها .

عقدة التخاذل والاستخزاء :

ومن جملة عقد الشباب عقدة التخاذل والاستخزاء التى تظهر عند بعض الشبان الذين لم تتحمل رءوسهم زهد الثقافة فداخوا بكل معنى كلمة (الدوخ) الفصحى والعامية : أى ذلوا ودارت رءوسهم فتخلوا — باسم التقدمية والبرء من الرجعية — عن شعائر دينهم وعزتهم الإسلامية والعربية فى آن واحد .

هؤلاء المخاذيل ليسوا كلهم ملحدين بل قد يكونون فى قرارة نفوسهم من المؤمنين ، ولكن إذا ضمتهم المجالس والنوادى مع الإفرنج والمتفرنجين أظهروا من باب التفاخر بالتقدمية العصرية ، أنهم لا يبالون بشعائر الدين ، واستخفوا أمامهم بالصلاة ، وهم من المصلين ، واستهزءوا بالصوم وهم من الصائمين .

هؤلاء المستخرون المتصاغرون المتعيرون بدينهم وملتهم وقوميتهم ، لو كان أحدهم منتسباً إلى فرقة رياضية أو كشفية صغيرة ، أو حزب سياسي هزيل ، أو حزب عقائدي ملحد ، لرأيته يحمل شارتها ، ويرفع شعارها ، ويفتخر بها ، ويدفع عنها ، ويقاتل في سبيلها ، ولكنه ، وهو المنسوب إلى أمة عظيمة تؤلف ثلث العالم بشراً وأرضاً ، ولها في تاريخها ما يرفعها في كل مستويات المثل العليا من الحق والخير فوق كل الأمم ، يتعير منها ومن شعائرها وتقاليدها ، ويكاد لولا تذكره الهوية يتبرأ منها . هذا الاستخزاء سببه جهل شبابنا للتاريخ ، ولو زعموا أنهم قرأوه واجتازوا به امتحانات البكالوريا والليسانس ... فأنا أعرف كيف يدرس التاريخ في كل البلاد العربية والإسلامية التي كانت إلى عهد قريب تحت نير الاستعمار ، وأية صفحاته تنشر وأية صفحاته تطوى عن قصد أو عن غفلة .

وعلاج هذا الجهل عندي كتاب موجز في التاريخ المقارن للأعمال بين أمتنا وكافة الأمم التي لها شأن في التاريخ يوضع على أساس البعد أو القرب من المثل العليا في كل باب من أبواب الحياة .

ككل أمة عظيمة لها في التاريخ أمجاد ولها أخطاء ومخاز مسطورة تنبئ عن دورها في كل مجالات التفكير والتشريع والعمل ، فيما يتفق مع المثل العليا أو يتناقض مع المثل العليا ، ولكن الذين كتبوا تاريخ الحضارة من المؤرخين الغربيين . وهو التاريخ الذي يقرؤه العالم ويقرؤه شبابنا ، ولا يكادون يقرأون سواه ، لم يكونوا مجردين من أثر العاطفة القومية والدينية ومن رواسب الأحقاد ، أو على الأقل ، من غشاوات الجهل لتاريخ العرب والإسلام فأبرزوا القليل من أمجادنا ، والكثير من مخازي بعض ملوكنا وأمرائنا وجهالنا ورعاعنا ، ونسبوا جميع تلك المخازي إلى دين الإسلام . فلو وضعنا التاريخ المقارن للوقائع والأحداث لاستطعنا أن نبرهن لشبابنا وللناس ، على أن لنا في ميادين الحق والخير أمجاداً تفوق أمجاد كل الأمم ، وأن المخازي التي تؤخذ علينا هي أقل بكثير من مخازي الأمم الأخرى ، ولاستطعنا أن نبرهن لذلك الفيلسوف على أن البحر المتوسط الذي يريد أن يستدرج العرب إلى شطانه ليغسلوا سيوفهم من الدماء في مياهه ، قد

غسلت فيه من قبلنا ، ويجب أن تغسل فيه من بعدنا وإلى اليوم ، سيوف كثيرة ، عليها مع الدماء من أقذار الظلم ، وأرجاس القسوة وأنجاس البربرية المترفة ، ما لا تكفى لغسله مياه المتوسط إلا إذا أضفنا إليها أمواه المحيطات الثلاثة من شواطئ السود فى إفريقيا ، والهنود فى أمريكا ، وقليلا من مياه بحر اليابان فى شواطئ هيروشيما... إننا حملنا كاليونان ، مشعل العلم والفلسفة وأمددناه بلهب من الذكاء والعبقرية والدرس والبحث ، ولكن بدون أن تكون لنا وثنية وبدون أن تكون لنا آلهة تسكر وتزنى ، وكان لنا كالرومان تشريع وأدب وفتوح وحروب وأسرى ، ولكننا لم نكن نتلذذ بمشاهد تسليط الضوارى المجوعة على الأسرى والمسيحيين لتأكلهم عضواً عضواً . .

وفتحنا الأقطار ، كما فعل غيرنا ، لنفسح لأنفسنا مجالا حيويًّا ونفتح لنهر شريعتنا المجرى الذى يتدفق فيه إلى العالم ، بدلا من أن يتحول إلى مستنقع يجف فى أرض الجزيرة العربية الجرداء كما يقول (غوتة) ولكننا كنا أرحم الفاتحين كما يقول (غوستاف لوبون) . وفى معارك الفتح كنا نحارب الجنود المحاربين الذين يقاوموننا ، فإذا تم لنا الفتح ، ظفراً أو صلحاً ، آمنا السكان والأسارى على أرواحهم ، ولم نقل بلسان (رب الجنود) : إذا ظفرتم بمدينة فاقتلوا جميع الرجال ، والنساء والأطفال والرضع ، وأحرقوا المدينة بالنار كما فعل بنو إسرائيل .

ونشرنا شريعتنا للناس ، بدون أن نكرههم عليها ، لأن ربنا رب العالمين يقول لنا : (لا إكراه فى الدين)(١) ويقول لمحمد عبده ورسوله : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)(٢) فلم نعذب الناس بالحديد والنار ، ذبحاً ، وتقصيباً ، وشيئاً على الجمر كما فعلوا مع العرب فى الأندلس . ولم نشو الناس فى (الأفران) كما فعل الألمان . . . وكنا فى فتوحنا نحارب الجنود المحاربين ، ونأمر بترك غير المحاربين الآمنين فى المدن من الرجال والنساء والرهبان ولكننا لم نهلك بقنبلة واحدة (٢٨٥) ألف نسمة ، من الشيوخ والعجائز والصبايا والأطفال غير المحاربين كما فعل غيرنا فى هيروشيما ...

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .
(٢) يونس ٩٩ .

سوء القدوة :

ومن أعظم أسباب ضعف الإيمان عند الشباب سوء القدوة في البيت ، وفى المدرسة ، وفى المعبد ، ذلك لأن القدوة إنما تبنى على الاحترام والثقة . وما لم يكن للشباب ، فى قرارة نفسه ، احترام لرجل الدين ، وثقة بعلمه وخلقه قولا وعملا ، لا يمكن أن يتخذ منه قدوة ، بل يكون غير الصالح من رجال الدين سبباً لتجرؤ الشباب على الإلحاد . وعلاج هذا الأمر يفتقر إلى تحضير جيل كامل من رجال الدين ، يتولى هو بدوره تخريج جيل من الآباء والأمهات والمعلمين الصالحين القدوه ، لتستكمل الحلقة دورتها . وتحضير هذا الجيل يرتكز على الأسس الآتية :

١ — اختيار النخبة من الطلاب الأذكياء ، الأصحاء جسما وعقلا ، للسلك الدينى ، وتسليحهم بكل أسلحة العلم الدينى والدنيوى ، التى تصلح لمواجهة الشباب المثقف .

٢ — رفع مستواهم المعاشى حتى لا يكونوا محتاجين .وأذلاء . فالناس لا يقتدون بالمحتاج الذليل ولو طبق الدنيا علماً . وقديماً قد قيل :

(لو رأى الناس نبياً : سائلا ما وصلوه) .

٣ — جعلهم تحت رقابة مملكية صارمة تحفظ عليهم دوام الاحترام والثقة .

سلطان الرأى العام :

وفوق كل هذه العلاجات لعقد الكبت والتخاذل والتقليد ، علاج لا بد أن نستعين به لأن الله فرضه ، وهو (سلطان الرأى العام) .

إن أولئك المصابين من شبابنا بتلك العقد ، والذين بلغ الأمر بهم إلى حد إعلان الإلحاد والاستهزاء بالدين ، وإغواء الآخرين ، وتخذيل الأمة ، هم مرضى ويجب أن نعالجهم كما نعالج كل الأمراض النفسية ، والعقلية . أى تارة بالعطف واللطف والإيحاء والاستهواء والإرشاد ، وتارة بشىء من القسوة .

أما علاج الإرشاد فهو من عمل المرشدين الذين تحدثنا عنهم . وأما علاج القسوة فهو من عمل الرأى العام .

هذا الرأى العام ، الذى وضع به التشريع الإسلامى أعظم ركائز الإصلاح والزجر فى المجتمع ، وجعله من مزايا الإسلام بقول القرآن : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

عن المنكر ...) [١] . (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) [٢] .

هذا الرأى العام له سلطان وهيبة لا تقل عن هيبة الدولة ، بل قد تفوقها لأنه ينفذ إلى حيث لا تصل عين الدولة ، فنرى الشاب ، مهما كان مستهتراً ، يتكتم عن الناس ويستخفى فى الذنوب التى يشعر أن الرأى العام ينكرها أشد الإنكار .

فلو أن الرأى العام درج على إظهار الاستنكار والاحتقار للمجاهرين بالإلحاد والمستهترين بالدين ، والمفاخرين بترك الشعائر ، والساخرين من أحكام الشرع ، لأحدث ذلك أثراً عظيماً فى الإصلاح .

الإيمان بالله ضرورة :

وآخر طرق العلاج مع الشباب المثقف بل أولها عند البعض ، أن نقنعهم بجدوى الإيمان وأنه « ضرورة » إنسانية .

فى فلسفة البراغماتيزم Yragmatisme التى سموها فى العربية « فلسفة الذرائع » ، أن الفكرة إنما تكون « حقًّا » لأنها « نافعة » وإنما تكون نافعة لأنها حق .

(١) آل عمران ١١٠ .

(٢) آل عمران ١٠٤ .

وأن « الحق والنافع » يعبران عن شىء واحد . أى أن القضية تصبح حقًّا عندما تبررها العواقب . فنحن فى زعم البراغماتيزمية الأمريكية ، نخلق « الحقيقة » ونخلق « الحقيق » حسب حاجة المجتمع .

إن هذه الفلسفة ، التى تتخذ من القيمة العملية للفكرة مقياساً للحقيقة ، ليست صحيحة فى أساسها . وليس هذا مقام الكشف عن جوانب الخطأ فيها . ولكننا نتخذ منها منطلقاً لطرح السؤال الآتى :

هل نبدأ التفكير فى « الحق » أولا ، لنستخرج منه « النافع » أم نبدأ التفكير فى النافع الضرورى لنقول عنه إنه حق ؟ إننى ، مع الشباب المثقف بالذات ، وفى قضية الإيمان بالذات ؛ أرى أن نبدأ بالثانى . ولكن من أى جوانب النفع والضرورة نمسك خيط الجدل مع هؤلاء الشباب الذين تحيط بهم الشكوك فى الدين من كل جانب ؟ .

يقول القرآن : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا [١]) فكيف إذا كان هذا الإنسان من الشباب المزود بسلاح العلم المجادل فى كل القيم ؟ .

(١) الكهف ٥٤ .

إن السنين الطوال سوف تنضج ، على جمر العذاب ، تفكير الشباب حتى يصدقوا أن الإيمان « حق وضرورة » ولكننا نريد أن نختصر لهم السنين الطوال ، ونوفر عليهم عذاب الندم والحسرة إذا (جاءت سكرة الموت بالحق) كما يقول القرآن . فمن أين نبدأ الكلام فى أن الإيمان بالله ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية ؟ .

لا ريب فى أن البداية يجب أن تكون أمراً نتفق نحن والشباب على أنه « حق وضرورة » . فما هو هذا الأمر؟ .

إنه « إنسانيتنا » التى يمكن أن يجادل الشباب فى كل شىء إلا فيها .

يقول الفيلسوف الإسلامى الكبير « ابن مسكويه » فى كتابه الموجز الجليل « تهذيب الأخلاق » إن المزية الوحيدة التى يتميز بها الإنسان عن الحيوانات الكثيرة كلها ؛ هى « مكارم الأخلاق » .

ذلك أن كل مخلوق يشترك مع غيره من المخلوقات فى بعض الصفات ، ويمتاز عنها لنفسه بصفة ومزية خاصة لا يشاركه فيها غيره ، كالأسد يمتاز بالقوة ، والفرس بسرعة الجرى ، والبغل والحمار بحمل الأثقال ، والعندليب والكنار بالتغريد ، والطاووس بجمال الشكل ، إلى غير ذلك .

أما الإنسان فإنه يشارك الحيوانات الأخرى ، بصفات الحركة والتغذى والتناسل ، ويمتاز عنها بمزية واحدة : وهى « النطق » أى العقل ، ومن هنا أطلقوا عليه اسم « الحيوان الناطق » أى العاقل .

ولكن التحقيق العلمى قد أثبت أن الحيوانات لا تخلو من عقل تدرك به كثيراً من أمور معيشتها لذلك صار علينا أن نبحث عن مزية أخرى خاصة يمتاز بها الإنسان عن الحيوانات ، وبها يسمى إنساناً .

هذه المزية الخاصة هى : « الأخلاقية » التى تتجلى « بالضمير الإنسانى » .

فالحيوان يعقل ، وقد ترتقى فيه قوة التعقل ، كما فى بعض القرود ، ولكنه لا يفهم معنى « الأخلاقية » ، ولا يمكن أن يكون له الشعور الذى نسميه « الضمير » .

فأخلاقيتنا ، إذاً ، هى المزية الوحيدة التى نثبت بها « إنسانيتنا » ، وإذا خرجنا عن هذه المزية عدنا إلى مرتبة الحيوانات ، بل كان كل حيوان ،

بمزيته الخاصة ، خيراً منا لأننا فقدنا مزيتنا الخاصة ، وليس لنا مزاياه .

هكذا قال ابن مسكويه ، وهكذا من بعده بعصور ، جاء « دارون » يقول إن الضمير أو الحس الأخلاق هو أظهر فاصل يفرق بين الإنسان والحيوان جاء « كانط » يتخذ من هذا « الشعور الأخلاق » منطلقاً لإثبات خلود الأرواح ويوم الحساب ، ووجود الله الحكم العدل القدير . هذا الضمير الأخلاق إنما يصونه الصيانة الكاملة الدائمة الساهرة ، النافذة من وراء حجب الخفاء شيء واحد ، وهو الإيمان بوجود الله الحكم العدل القدير .

فتحقيق إنسانيتنا ضرورة اجتماعية ، وإنسانيتنا لا تتحقق إلا بأخلاقيتنا ، وأخلاقيتنا لا تصان إلا بالإيمان. فالإيمان إذاً ، أمر ضرورى لأنه يمسك أخلاقيتنا التى تثبت بها إنسانيتنا .

وأكرر القول للشباب : إن الإيمان بالله هو :

أس الفضائل .

ولجام الرذائل .

وقوام الضمائر .

وسند العزائم فى الشدائد .

وبلسم الصبر عند المصائب .

وعماد الرضى والقناعة بالحظوظ .

ونور الأمل فى الصدور .

وسكن النفوس إذا أوحشتها الحياة .

وعزاء القلوب إذا نزل الموت أو قربت أيامه . . .

والعروة الوثقى بين الإنسانية ومثلها الكريمة . .

فلا يخدعنكم ، أيها الشباب ، من يقول لكم إن مكارم الأخلاق تغنى بوازع الضمير ، عن الإيمان ، لأن مكارم الأخلاق التى تواضعنا عليها للتوفيق بين غرائزنا وحاجات المجتمع لا بد لها ، عند اعتلاج الشهوات ، فى الشدائد والأزمات ، أن تعتمد على الإيمان . بل إن هذا الشيء الذى نسميه ضميراً إنما يعتمد ، فى سويدائه على الإيمان . . .

وانقياد الناس لمكارم الأخلاق ، إنما يكون بزاجر من سلطان، أو وازع من القرآن ، أو رادع من المجتمع ، فإذا كنا فى نجوة من سلطان القانون والدين والمجتمع لم يبق لنا وازع إلا الضمير . ونحن فى معركة الشهوات والغرائز مع الضمائر قل أن ترى الضمير منتصراً ، إلا عند القلة من الناس ، وهذه القلة نفسها لا تتمسك بضمائرها عند جموع

الشهوات ، إلا إذا كانت تخشى الله .

ولو تركنا مكارم الأخلاق جانباً ، ونظرنا إلى حاجتنا للإيمان من حيث هو سند فى الشدائد وبلسم للمصائب ، وسكن للنفوس ، وعزاء للقلوب ، وعلاج لشقاء الحياة ، لوجدنا أننا عند فقد الإيمان نكون أسوأ حظًا فى الحياة ، وأدنى رتبة فى سلم المخلوقات من أذل البهائم ، وأضعف الحشرات ، وأشر من الضوارى :

فالبهائم تجوع كما نجوع ، ولكنها فى نجوة من هم الرزق وخوف الفقر ، وكرب الحاجة ، وذل السؤال . . . وهى تلد كما نلد ، وتفقد أولادها كما نفقد، ولكنها فى راحة من هلع المشكلة ، وجزع الميتمة ، وهم اليتامى المستضعفين . .

وهى فى أجسادها، تلتذ كما نلتذ ، وتألم كما نألم ، ولكنها فى راحة مما يأكل القلوب ويقرح الجفون ويقض المضاجع ويقطع الأرحام ، ويفرق الشمل، ويخرب البيوت من المهلكات : كالحسد ، والكذب ، والنميمة ، والفرية ، والقذف والنفاق ، والخيانة ، والعقوق ، وكفر النعمة ، ونكران الجميل ...

وهى تعرف ، بنوع من الإدراك ما يضرها وما ينفعها ، ولكنها فى نجوة من أعباء التكليف ، وأثقال الأوزار ، ومضض الشك ، وكرب الحيرة ، وعذاب الضمير . . .

وهى تمرض كما نمرض ، وتموت كما نموت ، ولكنها فى راحة من التفكير فى عقبى المرض ، وفراق الأحباب ، وسكرات الموت ، ومصير الموتى وراء القبور . . .

والضوارى تسفك الدماء لتشبع ، بلا سرف ، ولكنها لا تسفكها أنفاً ، ولا جنفاً ، ولا صلفاً ، ولا ترفاً ، ولا علواً فى الأرض ، ولا استكباراً .

أما هذا الحيوان الفيلسوف ، الضعيف الهلوع ، الجزوع ، المطماع ، المختال، الفخور ، المترف ، المتكبر ، المتجبر السافك الدماء ، الذى لا يأتيه شقاء الحياة ، أكثر ما يأتيه ، إلا من تفكيره فإنه لاعلاج لشقائه إلا بالإيمان فالإيمان هو الذى يقويه ، وهو الذى يعزيه ، وهو الذى يسليه ، وهو الذى يمنيه ، وهو الذى يرضيه ، وهو الذى يجعله إنساناً يسعى إلى مثله الأعلى لتسجد له الملائكة . . . ومن دون هذا الإيمان يكون هذا الإنسان المسكين أتعس الخلائق ، وأسوأها حظاً ، وأعظمها شقاء

وأشدها بلاء وأحطها رتبة، وأرزلها مصيراً .

وسبيله إلى الإيمان هو ذلك « التفكير » الذى كان سبب شقائه . إنه عبد لتفكيره قبل أن يكون عبداً لربه ولا يكون عبداً لربه، حق العبد، إلا بهذا التفكير الذى ينسج أكثر خيوط سعوده ونحوسه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

لقد خلق الله هذا الإنسان ، ورفعه، وكرمه ، وميزه بهذه النفس العاقلة المفكرة التى علمه بها الأسماء كلها وخلفه بها على الأرض ، وصيره بها فوق الملائكة ، وكتب الفلاح لمن زكاها ، والخيبة لمن دساها (ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) [1] فكيف نزكيها ؟

إننا نزكيها بالتفكير ، حتى تتسامى إلى مثلها الأعلى وتصل إلى « اليقين » من الحق والخير والجمال ، فنرى الله عنده . . . وتجد من حلاوة الإيمان ما تدرك به سر شقائها وسعادتها وضعفها وقوتها ، وعجزها وقدرتها ، وعبوديتها وحريتها . . . بل سر خلقها ، ووضعها على مفترق « النجدين » وتركيبها على هذه الصورة القابلة « للضدين » ، التى من دونها لا يفهم معنى « العبودية » ولا يستقيم معنى « العبادة » . . .

لذلك كان حقاً علينا ، من باب الحاجة والضرورة ، إن لم يكن من باب الحق والعبادة والتقوى ، ومن أجل سلامة عقولنا ، وسلامة قلوبنا ، وسلامة ضمائرنا ، وسلامة إنسانيتنا ومثلها العليا ، وسلامة المجتمع ، أن ندعو إلى الإيمان بالله ، ونيسره للعقول ونشرح له الصدور.

نديم الجسر

(١) سورة الشمس ٧ — ١٠ .

فهرس العدد

الموضوع	الصفحة
١ ـ **غارة التتار على العالم الإسلامى (أسبابها ونتائجها)**	
العلامة أبو الحسن الندوى	٣٠٥ ـ ٣١٤
٢ ـ **إلى أين يتجه المسلمون ؟ المرحلة الثانية عصر الملكية**	
العلامة أبو الأعلى المودودى	٣١٥ ـ ٣٢٧
٣ ـ **مات الرجل الذى كان وجوده على رأس الأزهر إرهاصاً بما هو مقبل عليه من مجد وسؤدد**	
الأستاذ أحمد حسين	٣٢٨ ـ ٣٣٢
٤ ـ **بطولات إسلامية ـ مسلمة بن عبد الملك بن مروان قاهر هرقل ... وفاتح الأناضول**	
اللواء الركن محمود شيت خطاب	٣٣٣ ـ ٣٥٤
٥ ـ **دراسات قرآنية ـ محمد دعوة إبراهيم وبشرى عيسى**	
الشيخ مصطفى محمد الحديدى	٣٥٥ ـ ٣٦٦
٦ ـ **إيمان بغير دين . . . . إلحاد مبين**	
الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة	٣٦٧ ـ ٣٧٨
٧ ـ **فى مواجهة الإلحاد المعاصر ـ استمرار الصراع بين الدين والعلم**	
الدكتور يحيى هاشم	٣٧٩ ـ ٣٨٩
٨ ـ **نظرة إسلامية إلى المال ووظيفته**	
الدكتور رؤوف شلبى	٣٩٠ ـ ٣٩٦
٩ ـ **التديُّن غريزة فى طبع الإنسان**	
الدكتور محمد عيد عابدين	٣٩٧ ـ ٤٠٩
١٠ ـ **التربية الدينية وبناء المسلم السوىّ**	
الأستاذ السيد حسن قرون	٤١٠ ـ ٤١٧

الموضوع	الصفحة
١١ — الأزهر جامعاً وجامعة ؛ أو مصر فى ألف عام	
الأستاذ محمد كمال السيد	٤١٨ — ٤٣٠
١٢ — هواتف إسلامية — ترابط هذه الأمة	
الدكتور إبراهيم أبو الخشب	٤٣١ — ٤٣٤
١٣ — قضايا لغوية ؛ أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية	
الدكتور توفيق محمد شاهين	٤٣٥ — ٤٤٤
١٤ — الأمن الاجتماعى فى الإسلام	
العقيد فكرى الجوهرى	٤٤٥ — ٤٥٢
١٥ — المسيحية توحيد لا تثليث والإسلام ضرورة عالمية	
الأستاذ زاهر عزب الزغبى	٤٥٣ — ٤٦١
١٦ — الشريعة الإسلامية والقانون الانجليزى (حد شرب الخمر)	
المستشار حسن حسب الله	٤٦٢ — ٤٦٨
١٧ — التوجيه الإسلامى لعلم النفس	
الدكتور فؤاد أبو حطب	٤٦٩ — ٤٧٧
١٨ — أخطاء شائعة	
الأستاذ عباس أبو السعود	٤٧٨ — ٤٨٧
١٩ — الفتاوى	
الأستاذ عبد الحميد شاهين	٤٨٨ — ٤٩٢
٢٠ — كتاب الشهر — شبابنا المثقف أمام الإيمان والتديُّن	
سماحة الشيخ نديم الجسر	٤٩٣ — ٥١٤
٢١ — القسم الفرنسى	
إشراف الأستاذ المهدى حامد عساكر	٥٢٠ — ٥٢٩
٢٢ — القسم الانجليزى بقلم المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة	
إشراف الأستاذ زاهر عزب الزغبى	٥٣٠ — ٥٧٦

إلى السادة راغبي الاشتراك فى مجلة الأزهر

عليكم الاتصال باشتراكات أخبار اليوم (توزيع الأخبار)

٣ (أ) شارع الصحافة – القاهرة

وفيما يلى قيمة الاشتراك للمجلة لمدة ١٠ أعداد سنوياً

أولاً : جمهورية مصر العربية

١,٥٠٠ (جنية وخمسمائة مليم)

ثانياً : دولة اتحاد البريد العربى الأفريقى :

٢,٧٠٠ (جنيهان و ٧٠٠ مليم) أو أربعة دولارات

ثالثاً : باقى دول العالم :

٨,٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ ثلاثة عشر دولار ، تسدد قيمة الاشتراك فى مصر نقداً أو شيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم . تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الأفريقية . والدول الأجنبية بشيك مصرفى مسحوباً على أحد البنوك العالمية لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم :

المراسلة على هذا العنوان

توزيع الأخبار ٣ (أ) شارع الصحافة – القاهرة

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

et se bornant par conséquent à recevoir ce qui vient à lui en quelque sorte spontanément et sans aucune initiative de sa part, ne saurait avoir de méthode; il ne peut donc pas y avoir de **tariqah** mystique, et une telle chose est même inconcevable, car elle est contradictoire au fond. De plus, le mystique, étant toujours un isolé, et cela par le fait même du caractère "passif" de sa "réalisation", n'a ni "cheikh" ni maître spirituel" (ce qui, bien entendu, n'a absolument rien de commun avec un "directeur de conscience" au sens religieux), ni **silsilah** ou "chaîne" par laquelle lui serait transmise une influence spirituelle (**baraqah**)".

Et c'est avec logique et bon sens que René Guénon conclut qu'il faut traduire **tassawwuf** par "initiation", en se souvenant que voie initiatique et voie mystique sont rigoureusement incompatibles. Faut-il ajouter, précise-t-il, qu'il n'y a en arabe "aucun mot par lequel on puisse traduire même approximativement celui de "mysticisme", tellement l'idée que celui-ci exprime représente quelque chose de complétement étranger à la tradition islamique,"

Rappelons a ce propos la très-précieuse distinction que l'Islam établit entre le domaine de la Connaissance pure, de la "vérité intime" (**Haqiqah**) et la Route Générale (**Chariyah**) : tous les autres aspects de la Religion, rituels. émotifs, sociaux, législatifs, etc...). Pas de contradiction.

En effet, c'est la **Haqiqah** qui donne sa vraie valeur et sa vraie signification à la Route Génér1le. La **Haqiqah** est comme le Centre et la **Chariyah** est comme la circonférençe engendrée à partir de ce Centre. Les rayons représentent les voies d'accès pour ceux qui, partant de la Circonférence, veulent rejoindre la **Haqiqah**; celle-ci et les voies d'accès constituent un ensemble; cet ensemble, c'est l'ésotérisme islamique; les **voies** sont multiples et se rapprochent les unes des autres au fur et à mesure que chacune se rapproche du Centre.

sont eux qui répandront l'Islam par contre-coup dans une vaste zone de l'Afrique Noire, du Sénégal jusqu'à l'Ethiopie.

Replacée dans ce contexte, l'entreprise du grand Sanoussi n'a rien d'extraordinaire, d'"original" au mauvais sens du terme.

Qu'est-ce que le Soufisme ?

C'est un mot qu'il vaudrait mieux ne pas employer; les finales en-isme font penser à une doctrine ou à une systématisation et rien n'est plus déplacé en l'occurrence; en fait c'est un mot inventé par des orientalistes non musulmans, qui en ont fait un synonyme d'**ésotérisme islamique**; pourtant le mot arabe(1) qu'ils traduisent "soufisme" s'applique à tout enseignement ésotérique traditionnel, quelle que soit la forme religieuse ou philosophique qu'il ait pu revêtir; le mot **soufi** lui-même, en arabe, désigne celui qui a atteint le plus haut degré de développement possible à l'homme; nul ne peut se dire soufi, mais on peut être "mutassawwuf", c'est-à-dire à un degré, ou à un autre, de l'évolution spiriuelle : cela nous rappelle Pythagore refusant le titre de SOPHOS (généralement traduit par "sage") et revendiquant celui de PHILO-SOPHOS ("chercheur amoureux de la Sagesse").

Nombre d'orientalistes occidentaux ont voulu insinuer que le "soufisme" serait venu s'ajouter à l'Islam pour ainsi dire **du dehors,** alors que les doctrines traditionnelles auxquelles ils prétendent se référer sont un élément essentiel de l'Islam depuis ses origines. Cette déformation, consciente ou inconsciente selon les cas, des réalités musulmanes s'est aggravée quand ces messieurs se sont mis à nous parler de "mystique musulmane", à propos des Ordres initiatques islamiques, exposant ainsi aux yeux des gens avertis leur incompétence et leur ignorance, mais aussi abusant et induisant en erreur quantité d'esprits que personne ne songe à mettre en garde. Comment des esprits sérieux, formés aux méthodes "scientifiques" de la critique universitaire allemande ou française ont-ils pu délibérément entretenir de pareilles confusions? Comment... ou **„pourquoi"** ?

Quand un chercheur de bonne foi croit trouver en dehors du Christianisme des équivalents du mysticisme,manifestation qui n'appartient en fait qu'à cette religion, c'est qu'il est abusé par quelques ressemblances extérieures accidentelles, souvent fondées sur le vocabulaire: ces vagues analogies n'ont aucun poids en face des différences fondamentales que l'on a oubliées. Le but du mysticisme n'est pas la Connaissance pure, aussi fait-il partie du domaine général de la Religion, de l'exotérisme. "Le mystique ayant une attitude "passive"

(1) Tassawwuf.

veulent bien laisser, de leur constitution intime, de leur base, de leur organisation ésotèrique.

C'est ainsi qu'on peut relever des traces d'infiltration de l'Ordre Qadiryah en Afrique du Nord au 12e. siècle; mais ceci ne nous permet point de juger de l'importance effective, numérique ou autre, de cette pénétration d'un Ordre qui s'était constitué au 11e, siècle.

Quand s'éteint, vers 1200, le grand initié de Tlemcen, Abou Madyan, c'est au Maghreb que son disciple Noureddine al-Shadili, mort en 1258, jette les bases de ce qui deviendra bientôt, après son exode en Egypte, l'Ordre shadiliyah; le succès de al-Shadili avait été si foudroyant en Tunisie que les autorités en prirent ombrage; laissant là des quantités de disciples déjà organisés, el Shadili recratera avec une aussi grande facilité en Egypte, en Syrie, en Arabie des adeptes enthousiastes.

Comparativement aux Qadiriyah et aux Shadiliyah, les deux autres grands ordres, tous deux apparus en Asie entre 1200 et 1250, fondés l'un par Shihâb el-Dine et l'autre par Djelaleddine Roumi, ont eu en Afrique du Nord une diffusion modeste, au moins du point de vue quantitatif. Ces grands ordres fondamentaux sont tous les quatre marqués, dès cette èpoque, dans l'enseignement de leurs cercles ésotèriques, par la pensée et l'oeuvre prestigieuse de Mohieddine Ibn-Arabi, mort vers 1240, — Ibn-Arabi qui repose dans une mosquée de Damas et auprès de qui a voulu reposer son disciple Abd-el-Kader, le chef de la résistance algérienne au 19e siècle, auteur lui-même de commontaires sur Ibn-Arabi et d'ouvrages divers.

Laissons passer deux siècles : vers 1400, l'action des confréries en Afrique du Nord a été telle que les centres vitaux de l'enseignement islamique ne sont plus simplement les mosquées et les medersas, mais aussi, sinon plutôt, les communautés organisées des ordres religieux, concrétisées dans des édifices : les zaouyas. Aux yeux de beaucoup de gens, les gardiens du pur Islam, les défenseurs de la foi sont moins les ulémas, les théologiens, que les dirigeants des confréries et leurs collaborateurs.

C'est un fait indiscuté d'ailleurs que, bien souvent, la résistance à l'expansionnisme européen viendra des Ordres, bien plus que des Pouvoirs, - et certes, dès 1700, ce sont les Ordres qui, sur le plan international, apparaitront comme les défenseurs de l'Islam, plus que les Califes; si les historiens orientaux n'insistent guère à ce propos, n'oublions pas que l'Orient musulman a souvent méconnu l'Afrique du Nord, lui a donné une place insignifiante dans ses préoccupations, ainsi que dans les oeuvres des géographes et des historiens. Ce sont les Ordres qui, de Tunis jusqu'à l'Atlantique, feront face aux missionnaires et aux colonisateurs de tous poil, ce

laisse pas d'entretenir avec les Ordres ivitiatiques, dont nous allons parler, des rapports plus ou moins étroits selon les conjonctures.

F. — Les Medersas et les Ordres

Partout au fur et à mesure que dans les régions troublées par les envahisseurs et par les guerres, le calme s'était rétabli, on avait vu apparaitre, déjà aux approches de l'an mil, les medersas; comme nous l'avons déjà dit, c'étaient des institutions d'état, auxquelles était dévolu l'enseignement de l'Islam selon le rite malékite; elles devaient aussi défendre l'Islam contre les déviations; ces medersas sont patronnées directement par des hommes influents, souvent des souverains.

Mais quand s'effondrent les Almohades et pendant qu'en Espagne l'Islam chancelant se maintient, ici et là, encore un siècle[1], les Ordres initiatiques commencent à se faire connaitre à de larges couches des populations islamisées, ils en viennent souvent même à s'incorporer étroitement à la vie populaire; jusqu'à l'an mil, on avait surtout connu des réunions libres de chercheurs de perfection autour d'un Maître vénéré. Dès 1200, se présentent des organisations puissantes : les Confréries. Elles affrontent sans crainte, s'il le faut, la Théologie officielle et les Pouvoirs.

Elles prétendent ainsi, elles aussi, contribuer à la revivification de la foi; par delà le noyau d'initiés qui est le coeur de l'organisation, elles veulent agir sur le plan exotèrique, sur les masses, grâce, à leurs adhérents (les "mountasibin", que nous avons définis au début du chapitre IV) et grâce à leur organisation matérielle, centrée sur un certain nombre de "Maisons" de la Confrèrie; la "maison" s'appelle tantôt **ribat,** tantôt **zaouya,** tantôt **khanaqua,** tantôt **tekkié**).

Les zaouyas d'Afrique du Nord, comme le seront celles des Sanoussis, ne se contentent pas de donner l'enseignement propre à l'Ordre qui les a créées, elles offrent aussi des cours généraux de sciences islamiques (théologie orthodoxe, droit musulman, etc. .). Souvent elles documentent la population sur les évènements politiques et sociaux, jouant un rôle d'information des plus importants. La revivification de l'Islam s'appuie donc, dès lors, sur un nouvel élément; jusqu'alors, elle avait été le fait de penseurs vigoureux, comme ghazali, Ibn Taimyah et tant d'autres, — ou bien de personnalités puissantes, à la fois initiés et chefs politiques et militaires, comme Ibn Tachfine ou Ibn Toumert.

Penseurs et conquérants ne se cachent pas à l'historien, leurs livres et leurs victoires ne peuvent rester dans l'ombre; il est bien évident que les Ordres religieux ne laissent souvent que les traces qu'ils

(1) Plus longtemps encore à Grenade.

de maitres prestigieux; il revient, passant par Alexandrie, puis par la Tunisie, proclamant avec zèle l'Unité divine. Ses disciples porteront le nom d' "al-muwabhid-doun" ("les gens de l'Unité"); de ce mot déformé proviendra l'appellation "almohades".

E. — Les Almohades

Revenu chez lui, Ibn Toumert, puisqu'il faut citer son nom, dénonce les déviations des Almoravides, prêche contre la musique, l'usage du vin, le luxe, contre les Califes de Baghdad et du Caire... il finira même par se présenter comme le "Mahdi". A sa mort (1142), un de ses disciples, originaire de Tlemcen, Abd el-Moumen, poursuit son oeuvre; après d'âpres combats, il soumet le Maroc, puis l'Algérie et la Tunisie, prend le titre de Calife, et règne sur l'Afrique du Nord tout entière, de l'Atlantique jusqu' à la Tripolitaine.

Défaits au Maroc, les Almoravides n'avaient pas pu tenir non plus en Espagne islamique; le pouvoir s'y était émietté, derechef, entre de nombreux petits émirats particularistes. Certains appelèrent les Almohades à l'aide; d'autres, n'ayant pas oublié ce qui s'était passé après l'intervention almoravide, s'allièrent à des princes chrétiens. Aussi lorsque abd-el-Moumen reconstitua l'Espagne islamique, dut-il laisser de côté une petite zone orientale; mais pendant cinquante ans, sous le sceptre almohade, l'Islam va briller à nouveau, d'un éclat incomparable, au milieu d'une prospérité économique jusque là inégalée; et non seulement l'Espagne, mais le vaste Empire dont elle fait partie, qui va du Maroc à Tolède, de la Mauritanie à la Libye: seule époque dans l'histoire connue où l'Afrique du Nord ait été totalement unie.

C'est ainsi donc qu'en moins de deux siècles Almoravides et Almohades achevèrent, par la constitution de vastes empires unifiés, l'islamisation et l'arabisation de l'A-frique du Nord. Austères, rigoristes au début les uns et les autres, leurs successeurs s'assouplirent et goûtèrent aux douceurs de l'Espagne musulmane. Tout en restant malékites, les Almehades encouragèrent une libre recherche intellectuelle; c'est l'époque d'Ibn Tofail et d'Averroès(1) pour ne citer que deux noms au hasard; ils montrèrent aussi une tolérance compréhensive envers le culte des saints qui se popularise de plus en plus, et ne

(1) On l'oublie trop souvent : ce sont des circonstances politiques accidentelles qui poussèrent un prince almohade à exiler Averroès, pour se concilier les théologiens orthodoxes : et c'est ainsi qu'émigra en Europe la recherche philosophique libre; et c'est un saint chrétien, le plus grand philosophe sans doute que l'Europe ait produit, Thomas d'Aquin, qui conitnuera l'ocuvre d'Averroès : singuliers caprices des circonstances.

Celui-oi fonda dans l'ile de Tidris, au large de la Mauritanie, une Ecole, un sorte de monastère où il vécut avec quelques fidèles, sous une rude règle; le nombre des disciples s'accrut; ayant réuni une équipe de collaborateurs endurois et qualifiés, Yassine s'attacha à créer, tout au long des pistes caravanières, espacés d'étape en étape, de nombreux monastères fortifiés[1].

La piété et le courage des "moines-soldats" enthousiasmèrent les Sanhadja; quand leur nombre atteignit le millier, ils décidèrent d'agir; ayant soumis aisément les tribus des alentours immédiats, ils lancèrent des raids en direction du "Soudan"[2], châtièront la ville renégate d'Adouaghost, ainsi que Sigilmassa, où les moours étaient par trop corrompues. Enfin, Ben Yassine et son général victorieux, en même temps son disciple, Ben Omar, moururent à qualques années de distance, vers 1058, alors qu'ils piétinaient aux confins du Maroc, à la tête de leurs moines-chevaliers voilés d'une fine éteffe violette ou indigo . . . Image légondaire.

L'austère et vaillant Youssef ben Tachfine prit la relève, et péntra au Maroc en 1062, fondant aussitôt Marrakech, puis soumettant rapidement le Nord du pays, Fez, Ceuta, atteignant Alger en 1082 : le Maroc avait largement refait son unité pleine et entière.

Ben Tachfine jugea alors le moment venu de répondre aux invites répétées des Emirs d'Andalousie qui, depuis des années, réclamaient son appui militaire[3]. Sept fois, il traverse la mer, livre des batailles spéctaculaires, écrase ses adversaires, s'empare de Valence, Cerdoue, Séville, Tolède, Saragosse; puis, en raison de leur vie molle et relâchée, de leur apparente tièdeur religiouse, il dépose ces Emirs-là mêmes qui l'avaient appelé au secours. Une nouvelle ère de grandeur s'ouvre pour l'Espagne islamique, pendant que de 1106 à 1142 le fils de Ben Tachfine, Ali ben Yousssef, consolide l'oeuvre de son père.

Mais, au bout de deux générations, l'Espagne musulmane avec ses arts, ses musiciens, ses chanteurs, ses poètes et as douceur de vivre ont déjà bien altéré le mode de vie prôné par les premiers Almoravides; on le sait vite au Maroc, où commencent aussi à s'infiltrer les influences amollissantes de l'Espagne. Issu de la tribu des Masmouda, un homme se lève, prend le bâton du voyageur, va à Damas, puis à Baghdad où il étudie dix ans auprès

(1) De "ribat", mot qui désigne ce type de couvent-forteresse, on a tiré : "almaraboutin" (**les gens du ribat**) qui s'est transformé en "Almoravides".

(2) Soudan : littéralement "le pays noir".

(3) Depuis la mort d'al-Mansour (1002) l'Espagne musulmane s'etait morcelée en plus de vingt états, divisés par d'incessantes querelles.

soeur des bords du Guadalquivir, la Grande Mosquée de Cordoue : l'orthodoxie sortait triomphante de ses épreuves.

Beaucoup de ceux qui avaient espéré une revivification de la foi sous l'étendard kharidjite ou chiite, constatant en définitive la désunion de l'Islam et les troubles incessants, reviennent à l'orthodoxie; des faits analogues pouvaient s'observer au Khorassan, en Asie Centrale, en Iran oriental : c'est là que, dés le 10e siècle, commencement à s'ouvrir des écoles enseignant I'Islam sunnite, formant des ulémas et des cadres : ce sont les "madrassas", qui, peu après, fleuriront en Afrique du Nord, sous le nom de "médersas".

Les controverses, les disputes nées des hérèsies et leurs implications politiques et sociales avaient constitué en fait une longue orise de croissance; l'enseignement religieux en avait reçu une impulsion vigoureuse, de même les méditations sur la doctrine de l'Islam; cette crise n'avait pas été cantonnée à quelques milieux intellectuels, mais avait dominé la vie quotidienne et le destin des foules.

1050, date du ralliement ziride à Baghdad, marque donc un tournant dans l'histoire de l'Afrique du Nord; à l'Ouest, en Mauritanie se lèvent les Almoravides, dont nous allons parler, — à l'Est c'est le bouleversement social réalisé par les Beni Hilal: détruisant d'un côté les réalisations de la civilisation sédentaire et urbaine, villes et villages, par ailleurs ils font revivre la vie tribale et son organisation complexe; ils donnent ainsi à l'arabisation et à l'islamisation des Berbères, qui n'étaient jusque là achevées que dans les villes, un coup de fouet énergique, sinon décisif.

Mais, bien sûr, tout aussi capitale en ce sens fut à l'Ouest la double épopée Almoravide - Almohade (1050 — 1200); si les Almohades s'opposèrent aux Almoravides, les détruisirent et les remplacèrent, il n'empêche qu'au départ de ces deux prissantes dynasties, il exista une même volonté de revivification de la religion, de retour à la pureté première, sous l'impulsion d'une personnalité exceptionnelle qui, pour son dessein, n'a pas choisi de créer une Ordre religieux, mais un Empire.

D. — Les Almoravides

Entre l'an 900 et l'an 1000, les Sanhadja, affaiblis par des divisions intestines, avaient été subjugués par les troupes de l'Etat du Ghana. Au 11e, siècle, un chef énergique, Yahya el-Godali, rétablit leur unité, fit le pélerinage, d'où il revint pour consulter à Kairouan Abou Imran el Fasi, maitre illustre d'origine marocaine; il rejoignit ses Berbères, bien décidé à revivifier leur foi par des méthodes appropriées. Il confia cette tâche à un prédicateur du Sud-Narocain, Ben Yassine.

En effet, vers 750, les Arabes améliorent la piste qui joint le Sud-Marocain à l'Adrar et lancent une attaque exploratrice contre le Ghana; ils en reviennent chargés d'or. "Pays des Noirs - Pays de l'Or", ce slogan incite marchands et aventuriers à risquer la traversée du désert : arabes et berbères islamisés, vont se fixer, nombreux, en ce "Pays des Noirs : à la source même du trafic du métal jaune, ils en profitent pour vendre aux habitants les produits amenés du Nord: céréales, sel, étoffes, armes, métaux, etc ... Le pays leur fournit, outre l'or la noix de kola, fort appréciée au Maghreb; les conversions se multiplient en pays noir. Et, au sein de la grande tribu berbère des Sanhadja, qui contrôle toutes les pistes caravanières venant du Maroc, une de ses importantes subdivisions, les Lentoumna, s'assure assez vite l'hégémonie. Islamisés dès le 9e siècle, les Sanhadja contribueront à la prospérité de la cité commerciale d'Adouaghost, bien vite pourvue de mosquées, et capitale d'un puissant royaume, rival du Ghana.

B. — 900 : Les Fatimides

Un "Mahdi" apparaît, vers 900; selon ses dires venu de Syrie, descendant d'Ali et de Fatima, fille du Prophète, il annonce pour sa lignée un triomphe imminent, qui se réalise effectivement; les Fatimides vont, en peu de temps, dominer une partie de l'Afrique du Nord, la Tunisie toute entière, la Sicile, la Syrie, l'Egypte et la Nubie.

Installé au Caire en 973, le chef des Fatimides se proclame solennellement Calife, déniant toute légitimité au Calife de Baghdad. Déjà, sous les coups des Fatimides, s'étaient effondrés en 909 les Rostomides et en 920 les Idrissides; en 975, c'est Kairouan qui tombait aux mains d'une petite tribu berbère, vassale des Fatimides, les Zirides. Pendant trois quarts de siècle, les Fatimides vont régner sur une partie du Maghreb et sur une partie de l'Orient Arabe; une grande propérité s'ensuivra pour tous, un esprit de large tolérance se développera.

C. — 1050 : Moment - clé pour l'Afrique du Nord :

Mais en 1050 l'Emir ziride al-Moezz va rompre avec le Caire et proclamer son allégeance au Calife de Baghdad. Les Fatimides donnèrent alors le feu vert aux puissantes tribus des Beni Soliman et des Beni Hilal, jusque là contenues dans les frontières de la Nubie; c'est un déferlement destructeur qui, traversant la Libye (une partie de ces tribus s'y attarde ou s'y fixe), s'abat sur la Tunisie, la proie désignée : elle est ravagée presque de fond en comble ...

Vingt ans après, Kairouan renaît au milieu du désert créé par l'expédition vengeresse; la Grande Mosquée se remet à enseigner l'orthodoxie sunnite, de concert avec sa

d'autres religions); nous voulons parler du Kharidjisme et du Chiisme[1]; c'est d'ailleurs à cette époque qu'arrivaient jusqu'au Maroc, comme dans tout le monde musulman, de véritables "missionnaires" d'une importance secte chiite : les Ismaêliens; les opposants étaient aussi portés à se rallier à ceux.

(Parfois chiites) qui faisaient leur la croyance au "Mahdi", croyance qui s'était plus ou moins répandue selon les régions (le "Mahdi" étant un Envoyé de Dieu qui doit venir restaurer l'Islam dans sa pureté primitive).

A. la Période 750 — 900 :

Entre 750 et 800, de nombreux soulèvements kharidjites locaux aboutissent, en quelques décades, à la constitution de trois importants royaumes qui rejettent l'autorité du Calife de Baghdad : **Sigilmassa,** dans le Sud-Ouest marocain), **Tlemcen,** qui va connaîre un prodigieux essor commercial et devenir en même temps un grand centre à la fois de théologie dogmatique et de libre recherche spirituelle ; enfin au Sud-Est de Mostaganem, le Royaume de Touhert (**Tiaret** pour les Français) fondé par l'iranien Ibn Rostom, état fort, dirigé par un roi élu (investi dès lors d'un pouvoir absolu, et tenu à une vie simple, rude et pieuse).

Chiite par contre, le gouvernement du Royaume Idrisside, créé par Idris I^{er} à la fin du 9e siècle[1]; il fonde Fès, bientôt capitale du nouvel Etat, que son fils Idris II va étendre, en un quart de siècle, à peu près jusqu'aux frontières du Maroc actuel.

Enfin, simultanément, se constituent peu à peu en Mauritanie les conditions qui permettront l'essor, trois siècles après, de deux mouvements de revivification essentiels dans l'histoire de l'Islam : Almoravides et Almohades.

(1) Aprè la mort du Prophète, certain musulman pensaient que son gendre, Ali, devait lui succéder comme chef de la Communauté islamique. Les Chiltes, partisans d'Ali, se divisèrent très vite en de nombreuses sectes. Les Kharidjites (du verbe **kharadja,** sortir) "sortirent" de la communauté musulmane; persuadés qu'Ali avait un droit imprescriptible au Califat, ils s'indignèrent de le voir accepter, sur cette question, un arbitrage. Très violents et sectaires au début, ils prirent souvent par la suite des formes plus modérées (ibadisme, etc). Au total chiites et kharidjites n'ont jamais constitué, au sein de l'Islam, qu'une très petite minorité.

(1) Fuyant l'Orient, oû sa famille avait été massacrée, Idris trouva accueil chez les Berbères Awraba; il se présentait comme un arrière petit-fils d'Ali; fait assez fréquent, l'équipe directrice chiite groupée autour d'Idris ne prétendait pas enseigner à la population la doctrine particulière qui était la sienne; membres de sociétés ésotèriques ils pensent que l'enseignement fondamental auquel ils se rattachent n'a pas à être vulgarisé.

REVUE DE L'AZHAR

Section française

par

Moustafa Djellal-el-Dine Daumal

NOTE SUR L'HISTOIRS DE L'AFRIQUE DU NORD ET LES ORDERS RELIGIEUX

Le Prophète Mohammed mourut en 632.

Moins de vingt ans après, les Arabes, maitres de l'Egypte, poursuivaient déjà en Afrique du Nord le prodigieux mouvement d'expansion qui avait suivi la Révélation coranique; la conquête fut aisée, hormis l'Extrême - Ouest et les régions montagneuses, où elle exigea un demi-siècle. Les conversions étaient nombreuses, en général volontaires, sincères, car les nouveaux arrivants ne cherchaient pas, pour de multiples raisons, à convertir systématiquement juifs et chrétiens; ils les considéraient comme "Gens du Livre", adorateurs du même Dieu que le leur. A cette masse de néophytes, il fut difficile de donner d'emblée un enseignement religieux suffisant; on fit au mieux; des théologiens s'y employèrent, agissant parfois sur l'ordre des Pouvoirs, parfois de leur propre initiative.

Peu après l'an 700, une nouvelle vague de conversions : après la défaite de leur reine, âme de la résistance, Kahina, de nombreux berbères rebelles se font musulmans; avant de mourir, Kahina avait solennellement prédit le triomphe de l'Islam; ses fils se convertirent; leurs soldats allèrent grossir les troupes du Calife; et bientôt, après la conquête de l'Espagne par les armèes berbères musulmanes de Tariq (720), des conversions massives se produiront à nouveau.

Aux opposants qui subsistaient, opposants par intérêt, opposants par tempérament, l'Islam lui-même offrait une voie d'intégration: l'adoption de positions doctrinales frondeuses ou subversives (que certains baptisent "hérèsies" en forçant abusivement l'analogie avec

have it in abidance with God's admonition "And if any of the idolaters shall demand protection of thee, grant him protection, that he may bear the word of God; [and afterwards let him reach the place of his security."

The Prophet has also stated that any believer could conclude a security covenant or an immunity pledge with enemy men, both individuals or groups. Any of the enemy's soldiers so immunised, were treated as Zimmis and no longer prisoners of war. A security pledge was deemed finally effective only through the sanction of the authorities or the army leaders; it took effect, however, from the date it was issued and could not be abrogated except where it was established that he who had been given it was a spy on the Muslim armies.

Even slaves were allowed to give security pledges to the enemy; such tolerance having been so attended to spare as much as human blood as possible, and to minimise the possibilities of continued warfare.

Coptives

57 — Islam preserves human dignity both in war and peace. It dealt mercifully with war prisoners; history having known no warriors other than Muslims that were so tolerant towards captives.

The Prophet admonished the believers to administer respectful treatment of the prisoners of **Badr** as if they were his own guests.

Muhammad Abu Zahrah

created the heavens and the earth: Of these, four are sacred. This is the right religion : theretore deal not unjustly with yourselves therein. But attack the idolaters in all the months, as they attack you in all."

The truce besides its value in facilitating the performance of pilgrimage, might inspire the two disputant parties with peacerul sentiments when the trace is over and peace could thus be restored.

53 — The second case where truce is compulsory is when peace is requested by the enemy, unless this would prejudice Muslim interests, as laid in God's words "And if they 'incline unto peace, do thou also incline thereto ; and put thy confidence in God, for it is he who hearth and knoweth. But if they seek to deceive thee, verily God will be thy support. It is He who hath strengthened thee with His help, and with that of the faithful." This means that enemy's request for a cessation of hostilities should be granted while maintaining proper precautions.

End of War through Permanent Peace :

54 — That war could be terminated with a permanent peace is borne out by the Quranic texts already quoted in substantiation of the fact that the basis of relations between Muslims and the others, is peace.

Observance of a permanent peace would not impede precaution, however. It should rather make such precaution necessary as a safeguard against possible treachery by the enemy.

Permanent peace could also be achieved through the enemy's entry into covenant with the Muslims.

End of War Through Surrender:

55 — War could also be ended through the defeat of either party. Should defeat be the lot of Muslims, they must not give up or submit to oppression for Islam is the religion of dignity and self-prestige.

If a cessation of hostilities be brought about by the enemy surrender, old enmities should be removed and justice and tolerance substituted for them. Islam admonishes mercy and not punishment for the vanquished. The reason for this is that war is not between peoples but rather confined to the camps of sovereigns who dominate these peoples. With the surrender of a sovereign's troops, there can be no further causes of hostility and amicable relations should be restored.

Immunity :

56 — War as already stated is not with peoples but with a dominating and despotic ruler. It could be terminated any moment, and such of the enemy's men who would seek a safety pledge, should

them, ordained piety for "God is with the pious." Piety here is meant for virtue in the sense that the believers while repelling aggression in like manner should not profane the sanctity of virtue even though it is violated by the enemy in raping women, disfiguring dead bodies, leaving the captives to die of hunger, or killing them.

The conduct of war at the times of the Prophet, the Prophet's successors, and many Muslim leaders was characterised by these principles. An outstanding example is provided by Saladin El-Ayubi's behaviour towards war prisoners. A large number of captives fell in his hand upon the recovery of Jerusalem. Feeling that he would not be able to feed them, the Muslim leader decided to release them to avoid their dying of hunger. The captives once they were set free, rallied together and fought him again but the Muslim leader never regretted his act.

An opposite example was set by Richard, leader of the enemies, who after giving three thousand Muslims a safe conduct if they surrendered, killed them in violation of this pledge.

Napoleon Bonaparte set a similar example by exterminating the troops he took prisoner at the battle of Acre.

50 — The fact that certain Muslim leaders such as Moguls, and Turkman committed barbaric crimes was due to their own perversion, and violation of Islamic precepts.

5 — **Cessation of Hostitities**

51 — War is terminated in either of three cases : (a) if it outlives its purpose through enemy surrender, concluding a covenant, adopting Islam, accepting an armistice whereby fighting will be called off for a permanent peace.

Truce :

52 — This is an armistice declared in the course of the fight which could end in a permanent peace, or lead to another flare-up of hostilities.

Truce is compulsory in two cases:

a) During the four forbidden months of Zu Al-Ke'da, Zu Al-Hejja, Al Muharram, and Ragab for the three first months cover the pilgrimage season and the fourth the period for the pilgrims' return. Muslims are forbidden to fight in these months unless they are driven to it ; God having said, "and when the months wherein ye are not allowed to attack them shall be past, kill the idolaters wheresoever ye shall find them, and take them prisoners, and besiege them, and lay wait for them in every convenient place, "And" the couple number of months with God, is twelve months, which were ordained in the book of God, on the day whereon he

The Prophet also forbade the killing of workers provided also that they neither fought nor acted in such a manner as to fortify the armies.

We are to apply these Muslim rulings to contemporary times, We would prohibit the use of all the weapons being used against innocent peoples.

Prevention of Destruction :

48 — Abu Bakr could not have advised against the destruction of prosperous places and the cutting of fruitful trees had he not been inspired by the Prophet to this effect.

Nevertheless, the scholars differed over the permissibility of cutting the trees. According to Awza'i, a scholar of Syria and a contemporary of Abu Hanifa, he confirmed the ban on the cutting of trees and the destruction of prosperous places unless there be a military necessity to do so as in the event of the enemies hiding in the trees or the buildings when trees could be removed and the buildings demolished. As to demolition for the mere sake of weakening the enemy or kindred purposes, it is not lawful.

Other scholars held different views and in support of their contention on the permissibility of cutting the trees, quoted God's words in the chapter of Exile, "What palm-trees ye cut down, or left standing on their roots, were so cut down or left by the will of God."

They also quoted the Prophet as having ordered the Believers to destroy the homes of Beni Al-Nadeer; and to hit Thakeef's citadel with catapult. The same scholars further contend that if souls were allowed to be wasted what value was there for property ?

A review of the sources of the Muslim Code, however, would give much weight to Awza'i's opinion to the effect that the uprooting of trees and the destruction of homes was permitted only for military needs and not for ruin or the vexation of the enemy. It is illogical that destruction should have been allowed for the mere sake of destruction. These are the rules of the Muslim jurisprudence which further prohibit any harm to the peoples in battles, the destruction of both land and plant, or the raiding of peaceful citizens.

4. **Observance of Virtue During Wars** :

49 — Virtue governs Muslim actions even though war is raging. If God has ordered the believers to fight and to treat the enemy on equal footing, He has made this contingent upon the observance of virtue. In the chapter of the Cow God, while commending them to attack the infidels in the same manner as the latter had attacked

This choice is intended to ensure that the enemy shall not be taken by the Muslims unawares. Islam has recognised this choice to be the right of the offenders as borne out by orders once given by Omar ibn Abdul-Aziz to Muslim armies under Qutayba ibn Muslim to withdraw from lands they had conquered in Samarkand without such choice being offered to the people.

When the choice was eventually offered, the people chose a covenant. Some of them adopted Islam.

The Prophet made it a point to show mercy even in the field of battle and to proclaim human unity even when swords are unsheathed to strike. In his pre-battle prayers he used to say, "My Lord, we are your slaves just as they are; and our destinies are in your hand; may you grant us victory over them." This prayer manifests human unity and thus creates the feeling that war is but to ensure mercy for Humanity.

The Prophet also counselled the leaders he despatched against the infidels not to fight them until "you have called them to reason, if they fail to respond do not fight them until they take the initiative; if they do wage not the fight until they kill one of you, whereupon show them their crime and invite them to the course of righteousness. That God guides one man through you, is better than anything over which the sun shines and sets."

Peaceful intentions are manifest in this counsel even where two armies meet.

3. In the Battle :

46 — The same benevolence that attended the commencement of battles, lasted till the very end. The Prophet called his men to be patient and try to rally the people together. "To bring them to me as Muslims is nearer to may heart than to bring their women and children."

Muslim wars were thus characterised by conciliation and not by killings, and by the preservation and the wasting of human lives. The Prophet's successors followed suit and commanded the same virtues. Abu Bakr ordered his men to kill no woman, juvenile or a senile; nor to cut off fruitful trees, to ruin a prosperous place, or kill a sheep or a vow except for food."

47 — Foremost among Abu-Bakr's other commandments is prohibiting the killing of the religious who shut themselves up in monastries and thus protected the temples and the hermits against the sword.

Both the Prophet and Abu-Baker after him also forbade the killing of women, and children.

The killing of those advanced in age was also prohibited unless they partook in planning or inciting people to war.

Relations in War

43 — God has said, "Warfare is ordained for you, though it is hateful unto you; but it may happen that ye hate a thing which is good for you, and it may happen that ye love a thing whih is bad for you. Allah knoweth, ye know not."

However, Islam would not take a negative attitude towards 'injustice' for Muslim virtue is positive and active.

Since corruption on land should be repelled and prevented otherwise corruption will prevail in both land and sea, God has said, "And if Allah had not repelled some men by others the earth would have been corrupted. But Allah is a Lord of kindness to (His) creatures."

The general mercy which God has made a duty would require the people of the right to fight in order to repel the wrong for it is no mercy to men to leave the unjust devour the weak.

10 Motive for war :

44 — As already stated, war has been made justifiable in Islam for two objects :

a) To repel aggression.

b) To safeguard the Muslim Call, being the Call to justice, by ensuring that peoples shall be free to embrace it, and be immune against persecution if they do.

It should not be imagined for a single moment that fighting was prescribed to coerce anybody into believing in Islam for there is no compulsion in the Religion according to Islam. The Muslim Call, nevertheless, should be enabled to reach all the peoples to whom it is addressed for them to adopt the Faith of their own free will without coercion. The existence of non-Muslim communities in Muslim lands ever since Muslim conquests, provides conducive evidence of non-compulsion and of religious freedom. Had coercion been legitimate in Islam, such communities would have been persecuted as Nero had done with the Christians Diocletian with the Copts and the despotic rulers of Spain and other countries.

Preparation for the Battle :

45 — The Prophet advised against precipitation to the battle. He used to say "Don't desire to meet the enemy and if you meet them be patient."

However, should the fight be unavoidable, the enemy should beforehand be given the choice of:

1. Islam so as to be one hand with the Muslims,

2. a convenant for the Muslims to enjoy peaceful neighbourhood,

3. the fight.

bring about a rally of Muslim forces to repel it. Aggression on a Muslim party is but aggression on all the Muslims combined; the Prophet himself having fought the Muslims of Syria. A Muslim state might well be the aggressor. The duty of Muslims in such a case is to use their good offices towards a settlement through counsel and calling the people to the road of righteousness.

Third Form : The event of fighting between two non-Muslim states, which has three sub-divisions :

1 — The situation where either fighting state is on hostile terms with the Muslims, and a truce or temporary armistice is being observed. The truce in this case is binding unless it be discovered that the truce is intended to gain time for an aggression on Muslims.

2 — The situation where a support-treaty exists between the Muslims and either fighting country in which case the Muslims could not adopt a neutral stand for they should put the treaty into execution. The Prophet declared war on Quraish for having violated the covenant by attacking Khoza' who had joined the Prophet's ranks.

3 — A situation where neither fighting country has a covenant or treaty with the Muslims. According to sources, Muslims are bound to hold to neutrality in such a case for the origin of Muslim relations is peace. This is so long as no aggression is waged on Muslims by either country at war. Malik has advised non-belligerance in this case for "God to punish a wrong-doer by another wrong-doer" and also because Muslim intervention might entail support for either evil party. The Prophet has also said "He Who backs an unjust party will suffer Hell fire." Neutrality in cases such as this will also spare Muslim force.

Supposing, however, that either country is just and the other not, will a Muslim intervention in support of the wronged be justifiable? Muslim logic would advise intervention with due regard to Muslim interests as in cases of supporting the weak or the distressed provided that ample safeguards are obtained for the benefit of Muslims.

42 — To sum up, international relations in peace-time are based on three foundations :

a) The establishment of justice and the realisation of human understanding and beneficial cooperation among people in implementation of Quranic ordinances.

b) Preventing Muslim aggression on other peoples for Islam has forbidden aggression in all forms.

c) The protection of non-Muslims' freedoms especially the religious.

in the Quran where war flared up between Muslims, and other peoples while other countries, desirous of neutrality, kept aloof from the conflict. The Quran has made it imperative to respect such cou-n tries' neutralism as in God's words:

"Except those who seek refuge with a people between whom and you here is a covenant, or (those who) come unto you because their hearts forbid them to make war on you or make war on their own folk. Had Allah willed He could have given them power over you so that assuredly they would have fought you. So if they hold aloof from you and wage not war against you and offer you peace, Allah alloweth you no way against them."

This text is frank in tha t whoever wishes neutrality should have it without condition other than to make sure that he harbours no intention of aggression nor does he use the proclamation of neutrality as means of passing time for an carly war. In the event of such aggressive intentions being ascertained, precautions should be taken as in God's words, "O be who believe! Take your precautions, then advance the proven ones, or advance all together."

41 — This is the case of neutrality if called for by non - Muslims. As for neutrality in the event of war between two countries it has three forms :

Fire form : The occurrence of a dispute between two parties of believers such as happened at the time when dissensions were wide open among the Muslims and they had no league to bring them together and prevent inter-Muslim aggressions. The Quran covered this case in God's Words, "And if two parties of believers fall to fighting, then make peace between them. And if one party of them doth wrong to the other, fight ye that which doth wrong till it return unto the ordinance of Allah; then, if it return, make peace between them justly, and act equitably. Lo! Allah loveth the equitable. The believers are naught else than brothers. There-fore make pecae between your brethren and observe your duty to Allah that haply ye may obtain mercy."

Neutrality in this case is unpermissible for a non-belligerant Muslim state should work towards conciliation and if either of the warring parties continueg the agression, it (the neutral) should join the victim to bring about a decisive conclusion to the dispute.

Undoubtedly, the set-up of a Muslim, league regulating Muslim relations, is imperative as means of obviating inter-Muslim aggressions.

The Second Form is the case where war is already raging between one Muslim and another non-Muslim State in which case neutrality shall also be unjustified, for aggression on a Muslim should

Zimmis and Covenanted Peoples' Treaties :

39 — It is to be noted that the security pledge given to Zimmis under a covenant could be only permanent. The divergence of opinion over permanent peace does not cover this kind of pledge neither does it affect the treaty with a covenanted people which must always be everlasting in case the Muslims assume such people's de-v fence.

It has already been stated that a covenanted people are that of a country governed by its own sons who are left free by the Muslims to manage their own affairs provided they (the Muslims) would defend tham against all aggression in return for payment towards the equipment of the defending army.

The Prophet has also stressed the necessity of fulfilling pledges towards covenanted peoples and their protection as in the Prophet's words "If you fight and conquer a people and such people would protect themselves against you by their money and not their sons, you must come to terms with them over this and get nothing from them thereafteri".

Thes treaties are possibly made with the Kings but since Islam always has a special regard to the interests of the people themselves without flattering their Kings, a treaty should be based on justice to the people. Al-Sarkassi in his 'Mabsut' said :

"If a Zimmi King should ask to be left free to rule the people of his Kingdom in the way he likes by killing, crucifixion or other means which are not tolerated in the land of Islam, his demand should not be complied with, for the recognition of injustice with prohibition being possible, is an unlawful act and because a Zimmi is a person who is bound to abide by the rulings of Islam on dealings and any conditions in his security pledge which run counter to Islam, are invalid as stated by the Prophet in the words, "Every condition that exists not in God's Book is invalidi".

5 — **Neutrality** :

40 — Neutrality is imposed where there exist two contesting powers, influence and the desire to dominate. It is also imposed upon the occurrence of war between two or more states, when one or more states would declare having nothing to do with such a war or dispute.

Neutrality would, however, appear to have not been known by that name to Muslim scholars hence the contention by some contemporary writers that the neutral system was not known in Islam.

Such contentions are erroneous, however, for situations are related

overcome them if ye are (indeed) believers."

But permanent peace through power is in point of fact the height of human relations and not weakness or submission.

Some scholars absolutely confirmed permanent peace as did Ibn Taymieh in his Treatise on Fighting.

Divisions of Treaties :

38 — Treaties are of two parts: **Provisional** treaties which conti nue to be valid until their expiry and **absolute** in the sense that they are tied to no time-limit. A third division is of permanent treaties on which scholars' views have already been quoted.

Provisional treaties should be carried out until their expiration. As for the absolute treaties for which no time-limit has been set, the point has been raised whether they should be deemed to be valid for all times as if they were perpetual. The scholars did not interpret the absoluteness of such treaties as perpetuality but made it contingent upon the circumstances in which the treaties have been concluded. They said that so long as such circumstances existed the treaties should be regarded as valid otherwise Muslims could have the treaties annulled. But if the treaties were no longer required could they be legitimately cancelled ?

To this the scholars said there should be no fight under changed conditions unless there be aggression or suspected aggression as borne out by God's words, ,,... except those with whom ye made a treaty near the sacred Mosque ? As long as these stand be true to them."

A school of thought has said all treaties in the interest of Muslims should be fulfilled where such interest would be served through fulfilment, otherwise they should be returned to the contracting partyi This view was held by a ctertain section of Hanafi scholars who further stated that treaties are concluded for the benefit of Muslims at the time when they are held. Should conditions change with the result that the continued application of a treaty and abidance by its terms would prejudice Muslim interests, it should be annulled. This would be tantamount to the abolition of contracts for changed conditions; treaties being of the same nature as cintracts, are affected by emergencies.

This in point of fact, is contradictory to the Quranic texts and the Prophet's tradition that render necessary the fulfillment of pledges unless treachery is feared. This is borne out by God's saying : "And if thou fearest treachery from any folk, then throw back to themv (their treaty) fairly. Lo ! Allah loveth not the treacherous.

they are bound to this pledge by the conscience of God and His Prophet, ana he amongst them who will act charitably and piously, will be granted victory.

All these treaties are evidently pacts for the establishment of peace and good neighbourliness.

37 — It will also be seen that the Prophet's treaties were in most cases aimed at the regulation of peace. Some of them such as the Hodaybieh peace-treaty had appeasement or truce for their objective. In the times of the Prophet's successors, treaties were not intended for the regulation of peace but rather for the cessation of hostilities or to offer the choice between covenants, Islam or the fight before warfare was launched. Among the treaties that stemmed from such choice was the one which Commander of the Faithful Omar ibn Al-Khattab with the people of Jerusalem.

The Umayyad and subsequent eras witnessed treaties for the temporary cessation of war. Peace then was of the nature of an armistice and not a permanent peace.

This happened in the age of **Iditihad** when Mohammad ibn Al-Hassan Al-Shibani, Al-Awzai, Abu-Yussef and Al-Shafei recorded their views on war and peace while the battles were raging. Only temporary peace pacts were known there for the Muslims in the expectation of an enemy ag gression at any time, could not con clude a permanent peace.

Al-Sarakhsi in the commentary the 'Al-Siyar Al-Kabir' said that permanent peace was not permissible, quoting the Prophet's temporary paece at Hodaybieh in confirmation of his view. He stressed that, only that form of peace was familiar while fighting raged. Al-Rakhi confirmed this as the majority opinion.

The Hodaybieh peace undoubtedly was different from a provisional peace-pact but it did not impede the possibility of a permanent peace. It is established in God's words, ,,. . . so, if they hold aloof from you an wage not war against you and offer you peace, Allah alloweth you no way against them."

The truth is that those who said the basis of relation between Muslims and others was peace have permitted permanent peace, being a return to normal conditions, and considered war mere emergency. Those who have been influenced by accomplished facts, have been likewise influenced in connection with peace by stating that peace cannot be permanent. They had seen relations to be permanent war and could not help advising except in the light of actual situations. They thought peace to be a sort of forbidden weakness quoting in support of this view by God's words "Faint not nor grieve, for ye will

inheritance in such a case for he regards such juridical difference as the criterion.But manyscholarssaid inheritance was possible because of the same residence although agreeing that different jurisdictions would impede inheritance.

4. **Pacts and Peace** :

36 — Treaties before Islam were used by the strong as means of imposing their domination over the weak or the conquered. Once the weak grew strong, they discarded the treaties and fought to liberate themselves from the yoke of the strong. This continued to be the practice of the strong until very recently, and still prevails in contemporary relations. Pacts are resorted to in some cases to regulate peace but, it is the unjust form of peace that imposes on the weak the will of the powerful. The Holy Quran takes a different attitude towards treaties for it orders the fulfilment of pledges in an absolute manner unrest licted by power or weakness.

Since the basis of international relations in Islam is peace as we have already concluded, treaties could be aimed either at the termination of a casual war and the return to a state of permanent peace, or the establishment of peace and the consolidation of its bases to obviate any future aggression.

This latter aim was the purpose of the Prophet's covenant with the Jews of Al-Medina at the time of Al-Hijra. The covenant was designed to establish peace and good neighbourliness, and based upon cooperation to check any external enemy or aggression.

When the covenant was concluded the Prophet in an instrument confirming it, wrote, "This is a pledge to you upon the conscience of God and of His Messenger, that you will be reassured about your lives, your religion, your wealth, your slaves and all your possessions, and that no army will tread your soil . . . He of You who goes on a journey will be safe through the protection of God and of His Messenger : There is no compulsion in Religion."

It will be seen from this covenant that the Prophet undertook to provide full protection for the Jews' religious freedom, and concluding the text he quoted God's words "No Compulsion in Religion". The Jews, nevertheless, violated the pledge and broke the covenant.

Another pledge to protect covenanted peoples' lives and property was made by the Prophet in his covenant with the Arab tribes of Beni Damra; the pledge said, "This letter by Mohamed, the Messenger of God, to Beni Damra, is to pledge security for their lives and property, and that they will be accorded victory over those antagonistic towards them ; and that they will respond to the Prophet if he calls on them for support;

Should he be creditor of some Muslims, his debt shall be forfeited for there is no money without claimant. According to certain scholars it is the Muslim Common Fund that should claim such money as its right.

Application of the Muslim Code to Protegés :

34. **In relation to financial dealings, a protegé is subject** to the Muslim Code in that he is forbidden to practise usury or conclude contracts which Islam regards as invalid. This is because a protegé deals with Muslims and should as such be governed by the same rules as apply to them. In matters of marriage and divorce, however, a protegé just as Zimmis, is governed by his own religious beliefs.

Punishment is divided into two groups : (a) penalties applied for transgression on people's rights such as encroachment on the right of a Muslim, an alien, or a fellow protegé. The punishment here shall be the same as prescribed for Muslims or aliens for it is necessary to those wronged, and (b) penalties prescribed for transgression on a right of God such as adultery, theft or libel. In this context, a majority of scholars hold the view that a protegé should suffer the same punishment as a Muslim or a Zimmi for such crimes and their like would spoil the Muslim society and are counted among the acts recognised as vices by all the religions. Islam deems the defence of virtue a basis for all the human relations and an offending protegé should thus suffer the same punishment as a Muslim.

Abu Hanifa differed from this majority opinion for the basis of punishment in his view is full subjection from both the actual and the juridical points of view. A protegé from the juridical standpoint, belongs to a country other than the Muslim state.

The scholars' view is verily rational and more in conformity with religious provisions.

A Protegés Heritage :

35 — As already stated the money of a protégé should pass to his heirs after his death, contrary to Al-Shafei's views. In the event, however, of the existence of relationship between a protegé and a Zimmi, will the former inherit the latter or vice versa in the event of the Zimmi's death ? In reply, we would state that in case the Zimmi dies while the protegé lives in another state, or the protegé dies while the Zimmi resides in a Muslim land, there can be no inheritance between them because of different countries.

But in case either of them dies while the protegé lives in Muslim lands, could there be inheritance despite the difference in jurisdiction ? Abu Hanifa advised against

commercial and other activities unrestricted.

In this respect Al-Sarakhsi said, "Their property has come to be guaranteed by the security pledge and cannot be taken away as legitimate prize."

He who remains in Muslim land keeps his property which never goes out of him even though he returns to the land of war; he shall never forfeit such property even if he bears arms to fight Muslims.

This view was held by most of the scholars as evidenced by a report in (Moghni) by Ibn Qodama, to the effect that: "If a Zimmi enters a Muslim land in peace, where he deposits his money with a Muslim or a Zimmi or lends such money to them, and then returns to a land of war, the case should be considered thus : if the man has entered that land of war as a merchant, a messenger or a tourist, or for some business before he gets back to the land of Islam, he should be assured of both his life and property for he had not deviated from the intention of residing in the land of Islam. Should a Zimmi enter a land of war for residence, hid life as distinct from his property, shall no longer be secure. This is because his entry into the land of Islam, security was established for his property, so that when the security of his life is no more following his entering the land of war, the security remains valid for his property.

The scholars in connection with the theory of continued security for such person's property, have laid the rule that in the event of the death of a protegé in a land of war or his being murdered in battle between his country and the Muslims, his entitlement to his own property shall not be forfeited, and the property shall pass to his heirs. The Islamic State has to transfer such property to him safe and sound.

According to Al-Shafei, however, the money shall not pass to such man's heirs for, it was him and not his heirs that enjoyed security pledge, and because the money was his. The scholars on the other hand, consider the security a right attached to money which being the property of the protegé in his life, should pass to his heirs after he dies, just as any other rights.

If the owner has no heir, even in a land of war, the money should accrue to Bait Ul-Mal (The Muslim common fund) on the ground that it has no proprietor.

Scholars would authorise the confiscation of a protegé's money in one single case; this is in the event of his return back to his country and his fighting the Muslims, and falling a prisoner of war. In such a case he is not deemed eligible for ownership and his property should accrue to the Muslim Common Fund for there can be no money without owner.

may God be gracious, to treat Zimmis with equity in abidance with the tradition of our Prophet and your cousin, Mohamed on whom be God's peace and blessings, and to inspect their conditions lest they should be wronged and to spare them any harm or obligations beyond their ability, and so that nothing of their property be taken from them without right. For the Prophet has said, "He who wrongs a covenanted person or have him suffer obligations beyond his power, will be my enemy on the Day of Reckoning." Omar ibn Al-Khattab on his death bed, also said, "I recommend the Caliph after me to abide by the Prophet's commandments in fulfilling Zimmis' contract, to fight for their protection and not to impose obligations on them beyond their endurance."

Abu Yussof elsewhere in his same work has said, "It is related that Omer ibn Al-Khattab passing by the door of certain people's house, found a blind and elderly beggar knocking at it. Omar asked, "From whom of the people of the Book are you ?" The beggar said that he was a Jew. Omer again asked "what has reduced you to this pitiable state ?" The beggar answered, "Ask the tribute, the need and the age," whereupon Omar took the man's hand and led him to his own house where he gave him some money. Omar then sent for the treasurer of Bait Ul-Mal (Muslims' Fund) and ordered that he should pay him a permanent allowance, saying, "Look after this man and his like for God will not grant us justice if we eat up his youth and let him down in old age. Charity is prescribed for the poor and the destitute. The poor are the Muslims, and this man is one of the destitute from amongst the People of the Book. "Omar ordered that the tribute payable by him and his like should be waived.

The Protegé :

33 — A protégé is a person who enters a Muslim land without the intention of living in it, but only for a specified stay under a contract known by the name of a residence contract. He may simply be given the right of residence for trade, tourism or visit. Such residence was normally limited to a specified period, renewable for further periods. If it developed into permanent residence, the protegé was deemed a Zimmi.

Islam, being tolerant and because it considered wars a temporary circumstance that they were confined to camps and would not extend to peoples, made the door of its lands wide open for protegés to enter. This was so even in case such persons who belonged to a country at war with the Muslims. Muslims. Islam also safeguarded protegés' lives and property against all aggression so long as they held to the security contract. They were likewise left free to exercise their

modities constitute respected property for the Zimmi and not the Muslim.

Abu Hanifa differed from this majority view which declared such commodities unlawful for non-Muslims and that such prohibition in Islam was by way of protectnig society against their evil. What is prescribed as protection for society should thus form part and parcel of the public order which must apply to all.

Supposing for the sake of argument that those commodities are allowed by a Zimmi's religion, the forbidding of anything permitted cannot in all cases be deemed interference in personal liberty. Such interference materialises only where a Zimmi's religion orders something for which the Muslims are punished. Permission in such a case would be tantamount to the abrogation of a religious law.

It should be noted, however, that the non-application of Islamic rules to the marriage and divorce affairs of Zimmis is to consolidate their liberty in family matters and to ensure that such affairs will continue to be governed by their religious beliefs, thereby strengthening family bonds. This is not a privilege for Zimmis but a grant as already stated. A grantor has no doubt the right to withdraw the grant if it should engender manifest harm which in this case, is the harm of "privilege."

32 — The protection of a Zimmi is incumbent upon the state for his blood is safe-guarded and he must not be the target of aggression. His personal liberty is also guaranteed against all encroachment so is his dignity for he is a man; with safe-guarded dignity.

Since the execution of these lofty and equitable principles could be difficult to some people in the presence of divergent religions, religious laws have stressed the necessity of respecting Zimmis' rights lest religious over-enthusiasm by some Muslims should waste Zimmis' rights. The Prophet has also said, "He who harms a Zimmi will be may enemy on the Day of Judgement; and he with whom I am unreconciled will be an adversary".

It was also the practice of Omar ibn El-Khattab to send spies to watch the Walis (Rulers) and see to what extent they deal justly with their subjects. The thing that occupied his best attention was their treatment of the Zimmis. Everytime deputations came to him from the provinces, his first enquiry was about such treatment.

Scholars in all the ages were most anxious to recommend Muslim rulers to be just with the Zimmis. An example of this solicitude is provided by an address reported in "Al-Kharaj" by Abu Yussef, to Haroun Al-Rasheed as follows :

"It might be necessary O Commander of the Faithful to whom

person who committed a crime in a land of war cannot be deemed as actually subject to the Muslim state although he might juridically be subject to it because of his citizenship.

If a Muslim perpetrates a crime on a land of war that carries the capital penalty such as the deliberate murder of another Muslim, and his crime has been proved in Muslim land, he should, also according to Abu Hanifa, suffer such a sentence but should rather he ordered to pay ransom so that Muslim blood may be spared.

A majority of scholars held the different view that the culprits should suffer the capital penalty, for it is the juridical and not the actual considerations that count. Muslims, they hold, are Muslims citizens from the juridical viewpoint.

State Sovereignty Over non-Muslims :

31 — A state has also an established sovereignty over those residing in its land. These are divided into Zimmis and protegés.

A Zimmi is a non-Muslim living among the Muslims, having the same rights and obligations. He is a Muslim citizen by virtue of the contract he had with the Muslims, which imposed obligations and accorded rights to civilians. It was a perpetual contract that applied to the contracting party and his posterity as well.

Scholars have laid two conditions for Zimmi contracts :

a) Zimmis should meet certain financial obligations to be levied on those who can afford it as contribution to state development ; they should also subscribe to the financial resources of the state.

b) They should comply with Muslim rules in financial dealings and Muslim penalties so as to enjoy the same rights and incur the same obligations as Muslims.

As for family affairs in matters of marriage and divorce, the authorities left them free to practise such matters, being connected with their religion. According to Hanafi scholars Zimmis could drink alcoholic drinks and eat swine flesh if they thought this was permissible in their religion lest any restriction on their consumption of these commodities should be considered intervention in their personal freedom. Zimmis, therefore, were not punished for drinking liquor except where they incite Muslim youth to drink, by words or action. It is for this deed only that they are punished.

The same school of thought called for the protection of Zimmis freedom in this respect to the extent that a Muslim who spilled a Zimmi's liquor or killed his swine, should pay indemnity for the harm he had done. In the opposite case, the offending Zimmi was not to indemnify the Muslim for such com-

each state claiming to be the seat of the Caliph, we state that a majority of scholars had given the view that there could be only one Caliph and as such, some, if not all, of those who have claimed the Caliphate have a false cause.

According to Zayd ibn Aly Zein Al-Abedin, caliphs could be numerous if this be deemed to be in the interests of Muslims, but the view of the majority should have the upper hand, however, to ensure that the Caliphate shall bring all the Muslims together. However, the conditions of the Caliphate should be fulfilled by whoever would claim it so that his claim may be sound and be established.

This situation will arise where the difference is over claims for the Caliphate. Should the difference stem from local prejudices consequent upon the expansion of the Muslim state's territory, this should not impede all the lands being regarded as one state. It does not behove the Muslims to render such differences conducive to strife or wrongful regional bias among them.

A Muslim is a Muslim Subject:

30 — Despite the regional difference of contemporary times and of past differences, scholars establish the rule that Muslims and the People of the Book holding a Muslim pledge of security should be regarded as Muslim citizens. A Muslim of whatever nationality : be he English, French, German or American is a Muslim citizen wherever he is while the People of the Book so long as they are covered by Muslim citizenship, should be governed by its dictates.

These rules entail the following consequences :

A — A Faithful who lives in a non-Muslim State should emigrate and reside in a state governed by a Muslim ruler if physically capable of making the trip.

B — A Muslim can inherit another Muslim whatever his home country and nationality, an English Muslim would thus inherit an Egyptian Muslim in the presence of a relationship between them in support of such heritage.

C — A Muslim who commits a crime in lands other than Muslim lands, and on his arrival in Muslim territory, his crime has been proved to a Muslim judge, he must suffer puni hment according to Muslim tenets whatever the penalty prescribed for the crime so long as the victim could not be lawfully killed. This was the view held by a majority of scholars, but Abu Hanifa held a different opinion, he said that a crime committed in non-Muslim lands should not be punished by the state on the ground that a Muslim culprit to be punished should have been subject to the Muslim state from the actual and juridical points of view at the time he prepared the crime. A

law Books. It denotes a situation where the power of a state is original and not derived from another state, and that such power should cover all parts of the state — however numerous the elements and the religions in it, and however extensive its area may be.

The sovereign ty of state has thus two aspects : **one external** which consists in the regulation of international relations on a basis of independence that is not shared by any other state, and **the other** the spread of the power of the state within its territory so as to bring all the subjects under one legal system unless special status is granted to certain communities in some dealings including marriage and divorce. This grant, however, should be liable to be withdrawn at such time as the state authourities so desire. It used to be accorded by the Islamic State as religious freedom, but if such a privilege develops into fetters upon the state sovereignty, it must be abolished.

European states would not allow such privileges in so far as concerns civil status for family affairs in these countries which are deemed to constitute part of the public order. If a woman gets married in Britain according to the Muslim Code, the marriage contract will not be deemed to be valid; nor would the State recognise it. The same applies to many other countries where marriage on terms other than those of the Christian faith is not respected Muarriage under the Muslim Code is also not respected even though both parties be Muslim.

We would not, however, recommend the Muslim countries to follow the same practice. We should rather maintain religious freedom under Islam as established by our Muslim predecessors.

29 — The sovereignty of the Muslim State is established in its territories if Islam has one state throug which the Islamic unity is achieved. Two points should, however, be observed in this regard; **First** that in legislation the power of the Muslim State is not absolute; it is rather restricted by the stipulations of the Quran and the Prophet's traditions, and no legislation to the contrary of these stipulations, should be enacted. This, however, does not at all clash with sovereignty, for the fact that a ruler is bound by an inviolable constitution which would not reflect on his sovereignty; **Second** will sovereignty be disputed now that the Muslims have been divided into various countries with each having its own king or head of state ?

In reply to this we would say that Muslims had been used to have a Caliph whose authority reigned supreme no matter whether he was strong or poor. If the difference over sovereignty arises from

Najran, and that between Leader Abu Obayda Amer ibn Al-Jarrah with the people of Hims (Emesa). The latter covenant embodied a pledge of protection for the people against the payment of a tribute (Jizyah). It happened, however, that the Islamic army, having been weakened by pestilence, was unable to check the Roman invasion whereupon the faithful commander whom the Prophet called the Honest one, returned the money back.

Under Uthman's rule, Egypt's Wali — Ibn Abi Al-Sarh — concluded a peace treaty with the people of Nubia whereby he pledged to ensure their safety, to protect their independence and to exchange trade with them. He levied no money for these privileges. The same was done by Moawieh with his country folk; he concluded a peace treaty with them that established their in ternal sovereignty.

It goes without saying that countries which enjoyed this type of covenants cannot be considered lands of war; the question is whether they should be deemed lands of Islam or merely land of appeasement. Some scholars held the view that they are lands of Islam for the Muslims are the people of the Sunna. Al-Shafei and Muhammad ibn Al-Hassan would call it a third land, the land of covenant, and make it a land of Islam in certain circumstances and not in others. In his Book 'Al-Seyar Al-Kabeer' — Muhammad ibn Al-Hassan said, ,,The criterion determining the nature of a certain land is the sovereignty and power of the rule (meaning the Islamic Rule). Should the rule be one of appeasants, Should the rule be that of a sovereign power in another land, none among the first land's people shall be treated according to the rules of appeasement."

It follows that Muhammad ibn Al-Hassan puts forward the supposition that the people of the covenant or the appeasement could be subjected in their government to another state that does not come under the category of covenanted countries. He then lays the rule that in the event of sovereignty and power being held by the people of the land that appeased, such land should be deemed a land of covenant if on the other hand, the power and the sovereignty be for another state, neither of them should be deemed a covenanted country un- less it is covered by a covenant.

We may now safely say that a covenanted state cannot be a land of war but is not deemed as alien to a land of Islam and is governed by some of the latter's rules though it has an independent entity of its own.

3. Sovereignty

28 — This is a technical term commonly used in International

above, and aggression no longer requires neighbourhood to be launched, for the destructive bombs would travel between the remotest points on earth. We would thus deem the condition has outlined its purpose. Had Abu Hanifa been alive he would have abandoned it and now that we disregard it, we will in fact be following his logic. The only difference between us is one of time and place and not of argument and proof.

Even if we adhere closely to the logic of Abu Hanifa and his companions, we come across two categories of land which do not come under the definition of either the land of Islam or the land of war. These are :

a) The lands where no Muslim sovereignty is established, or aggression feared to be launched. Such category of land should be deemed as non-belligerent as it comes under those who have kept aloof and desisted from attacking the Muslims as the Quranic text goes.

b) The second category is that of non-contiguous land. This also should be regarded in the same light as the first category unless there be aggression, or support for the enemies of Islam.

We have already stressed the point that contiguity was not essential for aggression to be launched, for aggression could still take place without contiguity. Remote lands on the other hand would prevent Muslims to send preachers who would guide their peoples and call for Islam. If there be aggression by them they should be deemed as aggressors, their fight will be justified and their land deemed a land of war on the strength of actual act and not by imagination.

Land of Covenant :

27 — This category of land is a fact rendered necessary by the exigencies of academic research and established in practice. For there existed tribes and states having respectable covenants and sovereignty in their lands, which did not fully come under the influence of Muslims, and Muslims had no power in managing their affairs except in so far as concerns the redressing of wrongs and injustices.

These countries had concluded covenants with the Muslims either before any decision to conquer them or at the outset of fighting. They had been offered the choice between Islam, a covenant or war, and chosen a covenant upon conditions that varied in power according to such terms as more agreed upon by the two parties in the light of the strength or otherwise of such lands, and the extent of their need for Muslim support.

A covenant may be a pledge of protection against certain payment as was the case with the Prophet's covenant with the Christians of

scholars includinq Abu Yussef, a leader of the Hanafi School of Thought.

The second view advocated by Abu Hanifa, the Zaydieh and other scholars, holds that the mere fact that sovereignty and power are held by non-Muslims, would not render the country a land of war, for three conditions should first be fulfilled :

a) That sovereignty and power be denied the Muslim ruler to such an extent that he is rendered unable to carry out Islamic rules.

b) That the region concerned happens to be bordering Muslim lands that aggression may be expected from it. It follows from this condition that deserts adjacent to Muslim countries cannot be deemed lands of war nor should the territory beyond them be regarded as such even though the Muslim ruler has no sovereignty or power over them. The same rule applies to seas surrounding Muslim land; neither these seas nor the territories beyond them should be treated as land of war.

c) That neither Muslims nor the people of the Book who are considered Muslim subjects, should remain in the land under the protection of the first Muslim assurance which had enabled the Muslims to live in it. Applying this condition, we find that a land which the Muslims had conquered, pledged saftey to its people, but had to withdraw from it under the pressure of war or other factors cannot be deemed a land of war if the non-Muslims who had dominated it, left the subjects of the Muslim State to reside in it under the pledge of safety, and preserved their liberties. This condition, however, could of course be fulfilled only where the new State has turned peaceful towards the Muslims. If it violates the peace pledge, however, and fight the Muslims, such country should be regarded a land of war.

26. — It is the second viem which accords fully with the fundamental rule that peace forms the basis of relations between Muslims and other peoples. This is because it considers a country land of war only where actual ag- gression by it disturbs the peace of the Mus lims, or an attack is to be expected through adjacency. The absence of a covenant or a non-aggression pact between two lands having common borders would render war possible at any time. This view conforms even in letter with the Quranic text, unlike the first which would appear contradictory with the terms of the Holy Book, for the basis of the relation here is one of war.

Although the second view is closer to the texts, we consider it no longer tenable to make adjacency a condition for its fulfilment. Man on earth has now been able to control the atmosphere and the space

Islam had been governed by accomplished facts and not by lofty religious ideals. In other terms they were very much like contemporary relations which would justify present-day statesmen in their aggressions.

In reply to this enquiry we would say that what the jurists have adopted of the real facts was only the denomination and not the Islamic rule. They have not abandoned the lofty principles laid by Islam, of defending virtue, liberties and justice. Nor had they the power to call things by names other than their own, for war was actually and factually in progress and the land of the offenders was actually the land of war unless they had concluded a covenant or a peace treaty.

This denomination, however, did not impede the relations between Muslims and others being based on justice, liberty, and virtue; the scholars having never mentioned that conquest gave the Muslim State, a sovereignty which was not based on virtue, justice and piety. There was no master and slave in Islam and no victor and manquished but only justice and equity.

3. The Lands of Islam, of War and of Covenant

24 — The land of Islam is the State that governs the Muslims, in which the means of power are held by them. It is the bounden duty of Muslims to defend this land and repel aggression to it. This defence is incumbent on those who can afford it in case the enemy has not entered the land, otherwise it shall be compulsory as regards every individual Muslim. Every country where Muslims form a majority is deemed a Muslim land even though it may be dominated by a non-Muslim ruler.

The lands of war and of covenant need more amplification.

Land of War :

25 — Scholars have differed over the definition of the land of war; two divergent opinion have been held in this context :

First : The land of war is where no sovereignty or power are held by a Muslim ruler, and where no covenant exists which regulates such country's relations with the Muslims, and safeguards them against aggression.

The sovereignty and the power of the ruler constitute the criterion in the view of the authors of this school. They hold that so long as a land is not under Muslim sovereignty or bound by covenant, it should be deemed a land of war from which aggression is to be expected at all times. God, the Almighty, they further maintain, has ordered the Faithful to be on the alert and always ready to fight and repel the aggressors.

This is the view of numerous

ticed to make preparations for aggression on the Muslim community. The Prophet, through his wisdom, could not have waited until his people have been attacked.

b) That the Kings should constitute a bar between him and the Muslim call, and then persecute the Muslims to give up their Faith as the Roman King has done.

23 — We are no doubt in agreement with Ibn Taymieh's assertions and have supported what he thought more likely, but a reader of the Books of Muslim jurisprudence in the Chapters of Wars and Expeditions would possibly come to the conclusion that they incline to establish war and not peace as the basis of relations. The point arises whether the Books of Jurisprudence have contravened what the Holy Quran has called for and the Prophet's Traditions has pointed to. If such a supposition be correct, could Ibn Taymieh, the most prominent scholar, have reported what the jurists had not said especially that they have called the land of the offenders as the land of war without distinction between the aggressors and the non-aggressors unless there be a charter and a covenant in which case, they would call it the land of covenant ?.

The truth is that jurists have divided lands in that way because the nature of things at the time of Al-Idjtihad (deductions by jurists) called for such division. There was no fourth land the land of those who have abandoned the fight though they were dissidents.

Muslims ever since they have gone out on wars for dear of an invasion of their lands, or the extinction of the light of their religion have been the target of campaigns from every corner of the earth for the Kings would not leave the people of this Religion at peace to call on men to embrace it. Muslims had therefore to guard themselves against their neighbours, and offered them three alternatives : (a) To conclude a covenant to gain security against aggression(b)entry into the new religion, or (c) the fight. If such neighbours would not agree to embrace the religion of their free will, and reject the covenant that would ensure the Muslims against the fear of aggression and enable the Muslim call to proceed on its course, they would no doubt be harbouring aggressive intentions, and could not have possibly been left by the Faithful until they have launched their aggression. As Islam's eminent warrior Ali Ben Abi-Taleb has put it "No people invaded on their land escaped humiliation."

It could be argued that this division by jurists would give the impression that relations between Muslims and other peoples were governed by war until peace has been concluded. It might also be said that international relations in

to it, and trust in Allah. Lo ! He is the Hearer, the knower. And if they would deceive thee, then Lo ! Allah is sufficient for thee. He it is who supporteth thee with His help and with the believers, And (as for the believers) hath attuned their hearts. If thou hadst spent all that is in the earth thou couldst not have attuned their hearts, but Allah hath attuned them. Lo ! He is Mighty, Wise"; and ". . . Say not unto one who offereth you peace : "Thou art not a believer," seeking the chance profits of this life (so that ye may despoil him). With Allah are plenteous spoils. Even thus (as he now is) were ye before; but Allah hath since been gracious un to you," and "So if they hold aloof from you and wage not war against you and offer you peace, Allah alloweth you no way against them."

All these texts embody an unrestricted call for peace and indicate that no adherer to peace should fight even though he belonged to tribes at war with the Prophet. The last-quoted verse was revealed in this sense, referring to those who could not choose whether to fight the Prophet or their people and eventually elected to abandon warfare and keep neutral.

God, therefore, later said, "Ye will find others who desire that they should have security from you, and security from their own folk. So often as they are returned to hostility they are plunged therein. If they keep not aloof from you nor offer you peace nor hold their hands, then take them and kill them wherever ye find them. Against such We have given you a clear wararnt."

22 — We have put forward this difference of views in the above context despite the fact that it is more appropriate as an illustration of the motive for warfare and should, as such, have been set out in connection with relations in wartime. The reason for this displacement is that such divergence of views would indicate the basis of the Arabs' relations with other peoples : it was until a covenant and a charter have been laid; or peace until aggression has been bunched. According to the conception that the motive for war is idolatry, the basis of such relations is war as means of safeguarding the Muslim call, while the other conception, which Ibn Taymieh thought more probable, and attributed to a majority of scholars, the basis of these relations should be peace so long as no attack or aggression is launched, even in the absence of a covenant guaranteeing such peace, consolidating its provisions or regulating its terms.

A review of the Prophet's traditions would show that the Prophet fought only in two cases :

a) An attack on Muslims or the expectation of such an attack in the event of an enemy being no-

tacketh you, attack him in like manner as he attacketh you, "and "If you punish, then punish with the like of that where with ye were afflicted. But if ye endure patiently, verily it is better for the patient".

It is derived from the Prophet's tradition that the Prophet called for the religion in peace but was molested and hurt by the idolaters. They persecuted the Prophet's companions to coerce them out of the creed they had chosen for themselves. The Prophet held to patience and appeasement, and rendered good counsel to them. When they determined to uproot the religion and to kill the Prophet, be emigrated, but they continued to molest him with hostility' When Islam was eventually established in 'Yathreb' the Prophet proceeded to a warfare with the idolaters in defence of the call of Islam and to prevent the persecution in which they had persisted, and for the Faithful to shelter themselves by the call from the horror of their persecution on the idolaters' hands. When the Faithful thought warfare an excessive measure God told them in His Book "Persecution is worse than slaughter."

The Prophet did send an expedition to fight the Romans in Syria only because the Romans persecuted the Faithful to give up their creed. Hercules had ordered the murder of all those of the people of Syria who had embraced the Religion, and war was thus imperative for the defence of the Faithful. The Prophet willed it with emphasis that the army be led by Osman ibn Zayd whose father had been killed in the first battle. The Army was despatched at the time of Abu Bakr Al-Seddik despite the renegades' tightened pressure, and attempts at besieging the pure city.

The Prophet's companions followed the same example, for they sent armies to the land of Kisra who tried to commit against the Prophet the same crime as the idolaters had attempted before. But God saved the Prophet. The story is that in response to the Prophet's call for Islam, Kisra sent out people to murder Muhammad. It was thus imperative to consolidate the Muhammadan call and to repel this aggression, for the Muslims to fight the Persians.

21 — Quranic texts verily support the view quoted by Ibn Taymieh as being the opinion of a majority of scholars, for the call for peace is free and unrestricted in the Quran while the texts permitting the warfare are restricted by the exigence of meeting attack with attack. God, calling for peace, said "O ye who believe ! come, all of you, into submission (unto Him); and follow not the footsteps of the devil. Lo ! he is an open enemy for you."

God also said, "And if they incline to peace, incline thou also

has also said, "Keep me with those who are weak amongst you; for you are supported and endowed with God's bounty only for the sake of those weak."

Islam aims not only at the defence of a weak state against a powerful one, but would also defend those peoples who have been harrassed by oppression and their prowess humbled by tyranny.

In his letters to Kings and Heads of State calling them to Islam, the Prophet stressed their obligations towards their subjects and that such obligations made it incumbent upon them to leave such subjects free to understand Islam and adopt it as a religion, if they so wished out of their own free will. The Prophet's message to Hercules, King of the Greek, thus ran as follows, "If you embrace Islam, you will be unhurt otherwise you will bear the sin of the "Yarissis" meaning the growers, workers and other power less classes.

For this noble principle, Islam always made it a point to defend the freedom of the weak, particularly the freedom of creed, Muslims fought only to protect this freedom. They fought the infidels only because they tempted the Faithful out of their religion. Their war with the Greeks was only because they had killed those who had embraced Islam from among the people of Syria. Compare this principle and the attitude of present-day countries ?

International Relations in Peacetime

Basis of Relatians between Muslims and other Peoples :

20 — Of fighting, Ibn Taymieh enquired whether war had been prompted by the transgression of the infidels upon Islam, and the desire to repel such aggression or was it motivated by the infidels' infidelity. He said that different views on this matter were held by the scholars for while a school of thought (the majority of scholars) would consider the repelling of aggression to be the motive, another school attributed to the Shafeis hold the motive to be fighting the infidels because of their infidelity, thus consolidating the Muslim call; it being the mission of every Muslim to call for Islam so that God's word will always be the highest.

Ibn Taymieh expressed himself in favour of the former view held by the majority and quoted in its confirmation, verses from the Quran, examples from the Prophet's traditions and the acts of the Prophet's traditions and the acts of the Prophet's companions. From the Holy Quran he quoted God's words, "Fight in the way of Allha against those who fight against you, but begin not hostilities," And fight them until persecution is no more, and religion is for Allah. But if they desist, then let there be no "And wage war on all the idolators as they are waging war on all of you," "And one who at-

whereupon the Prophet said, "Let aside their intentions; we will invoke God's help against them."

10. **Amity** :

The general human brotherhood whereby understanding was recommended by Islam as means of settling the differences of peoples both as races or tribes, should be joined to amity, action towards reform and the prevention of corruption even though peoples might differ in religion, land and race. God has said, "Allah forbiddeth you not those who warred not against you on account of religicn and drove you not out from your homes, that ye should show them kindness and deal justly with them. Lo ! Allah loves the just dealers. Allah forbiddeth you only those who warred against you on account of religion and have driven you out from your homes and helped to drive you out, that ye make friends of them. Whosoever make the friends of them — (All) such are wrong-doers."

Consistent amity could not be interrupted by war nor by the difference in religion. It is related that at the time of Hodaybieh, the Prophet was informed that Quraish had been hit by famine. The Prophet promptly despatched five hundred dinars to Abu Sofian, leader of the infidels, to byu wheat for the poor.

It could well happen during wars that relations were severed between the Muslim State and the warring country while bonds were maintained with the non-belligerent subjects of that country. They were thus allowed to reside in Muslim lands, and were not harmed in themselves or their properties. Those assumed in the definition of scholars are those persons who resided in Muslim lands for a specified period under assurance of safety, for trade or the exchange of benefits.

To promote amity between peoples could possibly end the war and open the door for an honourable and dignified peace.

If amity be consistent and uninterrupted, it will go side by side with mercy. The latter is more comprehensive, however, for amity exists between peoples while mercy prevails among peoples and in the battlefield as well. No wounded, captive or surrenderer is allowed to be murdered.

19 — Of the aspects of equitable mercy and constant amity is to support the weak. Islam is a divine religion that lays down God's orders, and all divine religions have urged that protection of the weak against the strong, whether they be individuals, communities or states God has said, "And we desired to show favour unto those who were oppressed in the earth, and to make them examples and to make them the inheritors." The Prophet

Reciprocal treatment is restricted by the exigencies of virtue as already stated. Should an enemy violate the sanctities of virtue, the army of virtue should not follow their unworthy example. The Holy Prophet's sayings have already been quoted in support of this.

On the other hand, reciprocal treatment should not exceed those fighting in the field of battle in the sense that an army of justice should not kill those who are not belligerent.

9. **Fulfilment of Promises** :

This is the ideal means of ensuring safety and basing understanding on solid foundations namely treaties of peace and non aggression.

Such treaties derive their power not only from their terms but from the intention of their signatories to fulfil such terms. Islam has thus urged fulfilment of promises which it said, is power in itself while repudiations are aspects of weakness. God, the Almighty, has established that whoever amongst the Faithful who has covenanted has taken God surety for him. God has also ruled that the desire to extend the area of a state or its strength should serve as justification for treachery. The Quranic verse embracing all these meanings reads "Fulfil the covenant of Allah when you have covenanted, and break not your oaths after the asseveration of them. and after ye have made Allah surety over you. Lo ! Allah knoweth what ye do. And be not like unto her who unravelleth the thread, after she hath made it strong, to thin filaments, making your oaths a deceit between you because of a nation being more numerous than (another) nation. Allah only tieth you thereby, and He verily will explain to you on the Day of Resurrection that wherein ye differed."

God in this verse has likened those leaders who would violate their covenants to a stupid woman who unravels threads into thin filaments after having made it strong. God also points out the impermissibility of deceit or treachery as a means of rendering a country more numerous or wealthy than others for any power derived through the violation of covenants is doomed to extinction.

The Prophet has defined the best of people to be those fulfilling their promises saying, "Shall I tell of the best people amongst you . . . they are those who honour their promises." He also said "I am all for the fulfilment of one's promises." This was borne out by the incident of the Hodaybieh peace treaty whereby the infidels covenanted not to fight the Prophet and keep on peaceful terms with him for ten years as aforesaid. Some Muslims told the Prophet that the infidels harboured treacherous intentions and prepared for his fight,

Islam's ideal system for God has said, "Lo ! Allah enjoineth justice and kindness, and giving to kinsfolk, and forbidded lewdness and abomination and wickedness. He He exhorted you in order that ye may take heed." Scholars refer to this verse as the most compre hensive of Islam's meanings, in the Holy Quran.

If every religion has a dominant feature, Islam's feature is justice It is the perfect criterion whereby relations between peoples in both peace and war times are determined. So while in peacetime, good neighbourliness should be based on equality, the motive for war in wartime should also be justice. This is particularly so since all the human principles of tolerance and liberty, should be chracterised by equality. Tolerance that engenders loss of rights cannot be deemed as tolerance or mercy; it is rather injustice leading to the severest forms of cruelty. Forbearance towards the unjust whether they be individuals or communities is injustice to those whom they had wronged, and denied legitimate rights.

Furthermore, the world will be a worthy place only when justice has became the basis of human relations in all their forms. No strong party would thus transgress on the weak, or rights be wasted on the strength of accomplished facts such as now recognised to be common logic. This is so much so that international relations are now based on accumulated injustices.

Justice, moreover, is the criterion of human understanding as proclaimed in the Quranic verse on general understanding between races and peoples.

8. Reciprocity :

16 — Equal treatment or reciprocity is an offshoot of equality; the Prophet having recommended us to "treat other people in the same manner in which we would wish them to treat us." By virtue of this equitable law a Muslim has to extend to whoever would trangsress upon him, the same treatment without excess except within the limits of such safeguards as would obviate repeated aggression. If aggression be injustice, its repelling will be only equitable.

This concept will not clash with the principle of tolerance and virtue for these should not be allowed to engender injustice for this would constitute indisputable corruption. Furthermore, Muslim virtue is far from being weak or submissive; it is rather a positive and vigorous virtue that succumbs to no evil or evildoers, but towers over them all.

Justice is surely not the antithesis but the very reflection of mercy. Wherever justice prevails, mercy is there, but no mercy could exist side by side with injustice. Equal treatment would therefore, repel injustice more vigorously.

them, they should be given the choice between a covenant to be concluded with them, entry into Islam, or the fight. If they choose the covenant they must have it. If Islam be their choice, they will be deemed as Muslims.

6. *Virtue :*

God, the Almighty, concluding the verse that emphasises understanding to be the ultimate aim of the peoples' dispersion as tribes and nations, said, "Lo ! the noblest of you in the sight of Allah, is the best in conduct."

Piety is the sum-total of all human virtues. Understanding should go side by side with virtue; the latter being required of individuals as much as it is incumbent on communities.

The Quran has urged adherence to piety, the embodiment of all the virtues in both peace and war times, with emphasis on holding to it in the latter eventuality; God having said, "... And one who attacked you, attack him in like manner as he attacked you. Observe your duty to Allah, and know that Allah is with those who ward off (evil)." The reason for this is that men would behave impulsively during wars and possibly commit acts, contrary to virtue, especially if the enemy profaned their sanctities.

Muslims should not follow the example of their enemies in transgressing upon virtues by distorting the dead, killing women and children, and profaning women's chastity.

It happened at the time of the Prophet that some Muslims, following the enemy's example, killed the children. The Prophet commenting on this act said, "I wonder how certain people should exceed proper limits by murdering children ... Don't kill them ... Don't kill them ... "

The Prophet also urged that no prisoners should be killed, saying "no one of you should molest his brother's own captive and kill him".

Muslim treatment to foreigners has thus been based on virtue. The limits of virtue are not allowed to be exceeded whatever the enemies' flagrant behaviour.

7. *Justice:*

15 — Human relations as regulated by Islam, are based on equality no matter whether such relations be with loyal or hostile peoples. The Holy Quran has stressed justice to be more conducive to piety; God having said, " ... let not hatred of any people seduce you that you deal not justly, Do justice that is nearer to your duty," and "O Ye who believe ! Be ye staunch in justice, witnesses for Allah, even though it be against yourself ... "

Equity in all its forms represents

Islam has defended all these elements by preventing imitation without proof, and urged that behaviour should be in conformity with belief. Islam has also protected the creed of those taking shelter with it, entering into cover-out with Muslims or keeping on peaceful terms with them. It has also facilitated the performance by such people of their religious rites. Muslim scholars through their deductions from Quranic texts, the Prophet's traditions and the acts of the Prophet's companions, have laid the rule that "We have been ordered to leave people free to practise their creed." By this conception over which there is a consensus of viewpoints among scholars, the freedom of religious thought has been defended, and no non-Muslim was harmed but rather left free to perform his religious duties undisturbed.

In this context it is related that Omar ibn Al-Khattab on his visit to Jerusalem beheld a Jewish synagogue hidden from sight by dirt, only its top visible. Omar went over to the building and with his own garment, removed some of the dirt. The Muslim army followed suit until all the dirt has been lifted and the synagogue, thus cleared, was again fit for the Jews to celebrate their rites.

In this same blessed trip, Omar happened to be near a church at the time when the midday prayer was due to be said. Omar prayed outside the church. When asked whether prayers would be invalid if said inside, the free leader replied in the negative, but explained that he feared the Muslims might remove the church after his death or use it as a mosque if he prayed inside.

Muslim scholars in establishing the concept of freedom in such a free manner, drew on the clear idea that a man with a religion is better than another without one, for the former though erroneous, has a religious conscience.

13 — Islam has ensured all the human freedoms, namely those of residence, speech, opinion and work. It has also guaranteed the freedom of self-determination. It is worthwhile to dwell a little on this last-mentioned freedom.

In relation to Muslims, a faithful should not submit to a non-Muslim state, nor should he follow non-Muslim banners for in such a case he will not be able to carry out the stipulations of his religion in dealings or punishments.

For non-Muslims, Islam has forbidden any transgression on their liberties, or their expulsion from their homes so long as they will not transgress on Muslims. Islam has also forbidden the fighting of non-Muslims unless they are the aggressors, as will be pointed out in connection with legitimate warfare.

Even in the case of fighting where aggression is expected of

control of one's whims and prejudices. Freedom also is a social meaning that manifests itself in man's relations with others and his others and his observing others' rights as much as he values his own. Freedom and egoism are perfect antitheses that never meet; freedom accords with self-denial but not with selfishness.

In our contemporary times we come across leaders of peoples, who are described as free men and their peoples as free nations, but as a matter of fact let their prejudices control their attitudes towards others' own affairs. We see the world of to-day being dominated by the prejudices of rulers and of parliamentary councils, that contravene the judgement of free and straight minds. This as viewed by Islam, is nothing short of domination by whims over men's destinies; it has nothing in common with liberty.

12. — Islamic rules governing human relations fully respect free creed. The Holy Quran has rejected compulsion as means of driving people to embrace a certain religion and forbidden the Faithful to compel anyon to adopt a creed. God said. "There is no compulsion in religion," and addressing the Prophet, ordered him to forbid such compulsion in the words "Wouldst thou (Muhammad) compel men until they are believers ?".

Islam has further considered the persecution of a believer for his need as being worse than slaughter. God said ".... sedition is worse than slaughter...." Fighting in Islam was permitted only as a means of protecting religious freedom and preventing the persecution of the Faithful; God having revealed; "But fight them that there be no sedition."

But the freedom of religion could not be realised only through the ban o persecution; it should stem from one's own self in that one's thought of the creed should be free and his judgement unrestricted by whims, or controlled by prejudices. The freedom of creed has thus been established to be made up of three elements :

A — A clear judgement which is not restricted by fanatic inclinations towards a certain nationality, tradition, or whim; prejudices and fanaticism often dominate in the name of piety.

B — The prohibition of temptation or compulsion as means of driving people to embrace a certain belief, for no man shall be free who adopts a religious creed through the lure of gold, high rank or standing. One of the most abhorrent means of compulsion is to apply drugs or strong drinks as some Christian missionaries would do in Africa.

C — Acting in line with the dictates of the creed, for the convenience of every follower of a religion without compulsion.

warriors embraced Islam including Amr ibn Al-Aas, the mastermind, and Khaled ibn Al-Waleed, the great hero. Quraish was unable in later years to launch any war on the Prophet despite its haughtiness and bitter enmity. This tolerant peace was thus a significant victory.

But the incident of tolerance that soothed the hearts and guided them more was provided by the Prophet's acts in theWake of Mecca's invasion and the conquest of the infidels who had wanted to kill him, and turned him together with his companions out of their land. At his first meeting with Quraish after the great victory, the Prophet said, "What do you think I shall do with you ? They replied, "An honourable brother you are and the son of an honourable brother whereupon the tolerant and honourable Prophet said, "I would tell you what my brother Joseph had told his brethren : "Have no fear this day ! May Allah forgive you, and He is the most Merciful of those who show mercy."

This was the usual practice of the Prophet in all wars; he treated hearts with pardon and forebearance instead of creating grudges by humiliation and revenge. A further example is provided by the war of Beni Al-Mostaleq. The Muslims had taken over one hundred of their houses and taken the people as slaves. The Prophet in a desire to render them a favour, married Jawrieh, daughter of Al-Harith, and with every Muslim who held a prisoner releasing his captive, the whole people were set free. In this context Aisha said, "No woman has blessed her people more than Jawrieh; through her one hundred Arab homes were liberated." The marriage had this tolerant act for its sole motive. It was prompted by no lustful ends as the mischievous and the ignorant would allege. If the Prophet had desired Jawrieh he would have owned her as a slave.

This is an example illustrating that tolerance was the policy laid by the Prophet to govern relations between men, a policy that healed wounded hearts in the wake of wars, for an injured heart should be treated rather than be left to fester.

5. *Liberty :*

Liberty is a fruit of the Islamic understanding called for by the Holy Quran for true understanding could exist only between the free. There would thus be no master and slave, or victor and vanquished. All will be free and on equal footing since equality. prevails only where all men are equal in freedom.

True liberty lies in the appreciation by a free man of the liberty of others as much as he appreciates his own liberty. Freedom does not conform with prejudice, or egoism. It represents one's control of oneself; the first aspect of it being one's

case in the times of Omar, on whom be God's peace.

There could be no just peace on this earth without respect for human dignity in every man and on every land irrespective of colour or race.

4. Tolerance :

10. — Forbearance is only essential for the call of human understanding to bear fruit, and for hearts to meet without hostility. Islam has thus advocated dignified tolerance for it builds human relations among individuals, communities or states on tolerance without submission to evil. The Prophet has been ordered to show benevolent forbearance towards his enemies in God's words : "So forgive, O Muhammad, with a gracious forgiveness" meaning pardon with dignity and power without humility or submission.

The Prophet has also applied the principle of tolerance in his relations even with the infidels in his covenants and wars. It happened at the time of the Hodaybiah peace-treaty between him and the infidels that the Prophet was impeded to enter the Holy House for pilgrimage. The peace-treaty was permeated with gross injustice on the infidels' part, and tolerance by the Prophet for they insisted on preventing him from performing the pilgrimage that year, and he accepted the condition despite his powerful army that could have subjugated their land. They made it a further condition that whoever left Mecca as a Muslim following the Prophet and the Faithful should be turned over to them unless his people agreed to his departure and whoever left the Prophet as a renegade would be accepted by them. The Tolerant Prophet likewise approved of this further condition against strong protestation by some of the Faithful. Omar Ibn Al-Khattab enquired at the time "why should we tolerate shameful deeds in our religion ?" But it was another instance of the Prophet's wisdom. He chose rather to be patient and tolerant to spare human blood. This act on his part was not of the nature of tolerating a shameful deed, but rather of Muslim foresight and guidance that urged patience in lieu of murder, and forbearance in the stead of violence. To achieve one's aim belatedly with peace is far more beneficial than to attain it early with violence. God has called that peace a 'signal victory' in the words : "Lo ! We have given thee (O Muhammad) a signal victory, that Allah may forgive thee of thy sin that which is past and that which is to come, and may perfect His favour unto thee, and may guide thee on a right path, and that Allah may help thee with strong help."

This opened many hearts that had been sealed on infidelity. During the truce many of Quraish's talented leaders and staunch

truthful. They said : Be glorified ! We glorified ! We have no knowledge save that which Thou hast taught us. Lo ! Thou, only Thou, art the knower, the wise. He said : O Adam ! Inform them of their names, and when he had informed them of their names. He said : Did I not tell you that I know the secret of the heavens and the earth ? And I know that which ye disclose and which ye hide. And when we said unto the angels : Prostrate yourselves before Adam, they fell prostrate, all save Iblîs. He demurred through pride, and so became a misbeliever."

With such learned aptitudes whereby God enabled him to dominate all that exists on earth, man deserved angels' gesture in prostrating themselves before him, and was worthy of such dignity on earth. God has pronounced these honours in the words, "Verily we have honoured the children of Adam. We carry them on the land and the sea, and have made provision of good things for them, and have preferred them above many of those whom We created with a marked preferment."

A man is deserving of such honours in recognition of his humanity and not because he is white, urban, cultured or advanced. The honours are due for all the colours and all the races; it is a common privilege for all people : urban and beduin, advanced or backward. A strong man should go to the aid of the weak; an educated should teach the ignorant and an advanced should help the backward.

Dignity, furthermore, is a requirement of the code of mutual understanding and co-operation for it is not of co-operation that one man should be arrogant and another humble. True understanding and intercourse, both spiritual and practical, as well as co-operation will be best achieved where one helps another.

To make distinctions between peoples according to whether they are urban or beduin, or through colour or race is a fundamental cause of strife on this earth. Ever since human dignity was profaned and the strong men controlling world politics exploited the coloured and the underdeveloped, disputes have been raging between these exploiters over the control of such peoples as if they were coveted goods. Struggle up between the peoples and the exploiters of their land. This, on the part of the vanquished, was a legitimate self-defence dictated by nature, and rendered incumbent by dignity, the just divine codes and the Muslim Religion which nurtures dignity and self-respect in the hearts of those who embrace it, and behoves them to respect dignity in others.

Examples are many of the Prophet,s glorification of man, and the acts of his companions confirming such glorification are considerable. This was particularly the

based on cooperation for good, maintaining virtue and prohibiting evil. The Jews repudiated the pact; however, and in collusion with the infidels, plotted against the Prophet although the basis of that accord was to cooperate in the upholding of justice and the aversion of aggression.

The Prophet used to enter into pacts with Arab tribes, both Muslim and otherwise, for the sake of good. Such action in contemporary times is termed "peaceful co-existence".

When the Prophet went on pilgrimage to the Holy Shrine[1] in Mecca, escorted by a heavy force, Quraish tried to prevent him from his resolve. The Prophet, nevertheless, extended to them a hand of peace and rather than stirring a war or dispute, called for mutual respect of the Shrine. In this context the Prophet said, "If Quraish should call me to an act whereby the prestige of this Shrine is enhanced, I will favourably respond to them."

The strongest forms of cooperation are those aimed at supporting the weak. The Prophet in his youth attended a rally of Quraish dignitaries held in the home of Abdullah ibn Jodaan, at which they undertook to support the weak against the strong. The Faithful Prophet said of this rally, "I attended a meeting in the house of Abdullah ibn Jodaan which was considered a worthy mission. If I had been called to it in Islam, I would have responded to it.

The moment all men feel being one hand in exploiting the sources of wealth on earth and that they respond to each other in amity and co-operative spirit, the urge for dispute will disappear from among them, and the strife for existence as advocated by the oppressor will vanish. It was this strife that caused the world incalculable disaster with every people conceiving their existence to be the extinction of others.

Islam abhors strife for existence since Islam prescribes understanding and amicable response, both spiritual and practical, as means of existence. It has therefore recognised human co-operation as the spring of life for it leads to construction and the promotion of love amongst men.

3. **Human Dignity:**

10. — Several Quranic verses declare that God has entrusted the earth to man, that God, the Almighty, has consecrated the universe to his service, and bestowed on him such mental powers as would enable him to know things and means of putting them to good use.

God, stating the beginning of creation has said, "And He taught Adam all the names, then showed them to the angels, saying : Inform me of the names of these, if ye are

(1) The Ka'abah.

Among the causes that would hinder equitable treatment and human understanding is unjust fanaticism and prejudice for one's tribe or country. The Prophet has thus prohibited fanaticism, saying that "He is not one of us he who advocates or fights with fanaticism."

But does the prohibition of fanaticism imply the ban of patriotism? It certainly embraces nationalism that engenders injustice; otherwise nationalism is not a vice such as in cases where fanaticism or patriotism would prompt its people to improve their conditions and promote their resources without aggression. **Such sentiments in** cases as these will be unmixed virtue for they will further the interests of humanity and prompt co-operation for good.

Some of the companions of the Prophet seeing him strongly prohibiting fanaticism and advising against it, asked "Is it of fanaticism O Messenger of God that a man should love his people?", whereupon the Prophet replied, "No ! but it is fanatic of a man to support his people unjustly."

The Prophet has also likened he who would support his people without just cause as a camel falling into a pit of fire."

This simile is only too perfect; it is borne out by facts and events in modern times. The blind support now given by leaders and statesmen to their peoples and the backing of unjust causes helped such peoples devour others' land and exploit their resources, thus making hell of the whole universe. Hardly does God put down a fire when mortals start another through their fanaticism that would bring about the downfall of peoples.

2. **Human Co-operation**

9 — Co-operation is first and foremost among the forms of understanding, being the ultimate purpose of different races and colours. It is an aspect of intellectual intercourse in societies, both big and small; as well as practical understanding in the human family.

God's saying, "Help ye one another unto righteousness and pious duty. Help not one another unto sin-and transgression," was intended for the faithful of all mankind, and stressed the prohibition of aggression even on the cooperation with aggressors themselves. The whole text of the verse is "And let not your hatred of a folk who (once) stopped your going to the inviolable place of worship seduce you to transgress; but help ye one another into righteousness and pious duty. Help not one another into sin and transgression, but keep your duty to Allah. Lo ! Allah is severe in punishment."

The Prophet duly applied the principle of international cooperation on his arrival in Medina. He concluded a pact with the Jews

Allah, is the most righteous of you," as already stated.

2. Rules of International Relations

7 — The basis on which all the rules governing international relations in Islam are established, is the acquaintance of peoples with each other which is the ultimate purpose of their differences in race and dispersion in tribes.

1. Equality :

8 — This acquaintance could exist only between two equals and not between parties of differing ranks. For domination and the lust for power would set in wherever a party of a higher standing and another of a lower rank acted together. Conflicts would also flare up in consequence, and man would harbour evil intentions towards his fellow men. Equal treatment is therefore expedient, a principle which the Prophet on whom be peace has called for in the words "Like for thy brother what you like for thyself; and hate for him what you hate for thyself."

This saying applies to communities and states in the same way it applies to individuals for no distinction is made in the code of justice and equality between individuals and groups. What an individual is required to do is also expected from a community as represented in the State. Means of attaining this objective may differ since an individual is more easily persuaded than a group. Still the objective is one and the same whatever difficulties obstruct our path.

The colour of man's skin has been used as an argument to justify domination which has prejudiced the chances of equal treatment to the detriment of peoples. The Prophet strongly fought against this conception. Once he heard a man scornfully calling another "Son of the Black Woman," whereupon the Prophet on whom be peace angrily said "this is gross injustice", repeating his words three times. He added that a son of a white woman can never be more favoured than the son of a black except through piety.

People of our contemporary times have also used ignorance as pretext for the domination of the civilised over those scientifically and culturally backward. The Muslim logic has fought such trends for it made it incumbent upon the learned to teach the ignorant and considered a learned man who would not teach the ignorant as withholding his knowledge. The Holy Quran has cursed those who would not impart their knowledge. In this context Ali Ibn Abi Taleb on whom be God's peace has said "The ignorant will not be asked why they have failed to learn until the learned have been asked why they have failed to deucate".

their common origin and formation. They spread all over the universe and underwent changes in both race and colour.

Their nature enclosed a love for conquest and an aspiration to authority and an urge for occupation, whether as individuals, communities, or countries. Conflicts flared up among them for power, land and wealth with the people of a certain region seeking to rule othrrs in satisfaction of tribal fanaticism, or in the name of economy, wealth or religion. The only justification for this was power on the part of those desiring to conquer, and weakness, even relative, in those opposing the conquest or succumbing to it.

Hostility has since replaced unity, and complicity in vice and aggression has superseded benevolence piety and justice.

6 — The mutual understanding which the Holy Quran has called for and considered a worthy end because of the racial differences between peoples and tribes and their dispersion on earth, would undoubtedly provide proper solution for every dispute. But peoples like individuals are dominated by the same conceit that tempted Satan himself, and it is necessary in the circumstances, to regulate friendly relations and render them effective in human relations between the human communities on earth.

It is evident from the past and the present of humanity that amity has never been established among its countries since the urge for conquest, power and authourity has destroyed all possibilities of amity based on cooperation, and substituted for it a desire for domination through racism, the ignorance of certain peoples, the domination of certain races over others on wrongful assumptions or economic allegations that certain regions stand in need of others' wealth, and so on and so forth.

Since disputes would thus replace human relations if peoples should exclusively undertake such regulation, some divine guidance was needed to help them in this process and guide them along the right path. Divine messages were thus conveyed and prophets sent with promises of bountiful reward for those who obey and menaces of punishment for the obstinate.

Islam, the last of all the divine religions revealed through Mohamed, the last of the Prophets, was the last stone in the edifice of Divine Message. It regulated the rules that govern human relations between individuals and countries on the most ideal bases, and made understanding the cornerstone of international relations; God having said : "O Mankind ! Lo ! we have created you male and female, and made you nations and tribes that ye may know one another. Lo ! the noblest of you, in the sight of

the truth that it might judge between mankind concerning that therein they differed. And only those unto whom (the scripture) was given differed concerning it, after clear proofs had come unto them, through hatred one of another. And Allah by His will guided those who believe unto the truth of that concerning which they differed. Allah guideth whom He will unto a straight path".

God has so stated human unity in the sense that peoples are one nation and that such unity embraces the unity of origin, of formation, of instincts, and of propensity for good or evil. This is because human instincts are one, the instincts of the man in the northern most regions are the same as those of peoples in the most distant south, as borne out by God's saying that every soul has a tendency for good and an inclination towards evil. He has also said, "And guide him to the parting of the mountain ways ?" Meaning the way of good and the way of evil. God has further said "And a soul and Him who perfected it and inspired it (with conscience of) what is wrong for it and (what is) right for it."

From these common instincts, and from this unity of propensity towards good and evil, emanated the apparent disparities among human beings. Some people, overcome more by evil than good and in response to the call of evil in them, led an unworthy life. Others were fortunate in being influenced more by the good in them and followed a virtuous road. Both parties unavoidably had to clash because of their different dispositions; hence the wisdom in sending Prophets to explain good and its features. Conflicts continued, nevertheless, for some people responded to the appeal of virtue, while others adamantly persisted in their evil conduct and deviated from the path of righteousness. Thus evolved the enmity between the good and the bad, or in more proper terms, the hostility of the bad towards the virtuous.

Ever since Satan declined to kneel in homage to Adam, and emphasising his deviation from the right path, said, "My Lord ! Because those who have sent me astray, I verily shall adorn the path of error for them in the earth, and shall mislead them every one, save such of them as are Thy perfectly devoted slaves."

Satan has been tempting people and luring them into the perpetration of wrongful acts. Some were infatuated while others resisted and held to piety. The conflict thus continued between the virtuous and the evil, a situation which God has stated to people in His words : "Fall down, one of you a foe unto the other ! There will be for you on earth a habitation and provision for a while".

5 - - Peoples differed, despite

women. Be careful of your duty towards Allah in whom you claim (your rights) of one another, and toward the wombs (that bore you). Lo ! Allah has been a watcher over you."....

God has also said, "It is He who has created you from a single soul and from it created its mate."

This same unity was also stressed by the Prophet in his saying "You all are Adam's offspring, Adam is of earth, and the only credit that an Arab has over an alien is piety".

The Quran in connection with Adam's creation has likewise emphasized the fact that all people are but the sons of Adam and that their differences in colour, tongue, tribes, peoples and races despite this common parentage, are of the signs of God in the univrese and its aspects.Different are as must produce a difference of colour and of tongues. God, the Almighty, on the link between the creation of earth and the skies and the difference of colour and of tongues has said, "*And of his signs is the creation of heavens and the earth, and the difference of your languages and colours. Lo ! herein indeed are portents for men of knowledge.*

Furthermore, the difference between human appearance and earth, the source of humanity, no doubt entailed a disparity in many aspects, hence God's saying : "And of his signs is this : He created you of dust, and behold you human beings, ranging widely !

3 — This difference, however, would not clash with the principle of unity, nor should it be the cause of conflict but rather of acquaintance with each other, and of mutual friendship as substantiated by God's saying : "O mankind! Lo ! We have created you male and female, and have made you nations and tribes that you may know one another. Lo ! The noblest of you, in the sight of Allah, is the most righteous of you".

This difference is therefore intended to serve as a medium for people to get together and not to clash or despise each other.

Acquaintance here is not the abstract but rather the fruitful form of knowledge where all human forces meet for man's own benefit.

Acquaintance would serve human interests when the people of every region made the fruit of their land available to others and thus exchange benefits for the good of all humanity. Peoples' deviation from this mutual aid as outilned in the Holy Quran led to conflicts and disputes over God's bounty to human beings on earth.

4 — God has stated this conflict in just a position with human unity; He said, "mankind were one community, and Allah sent (unto them) Prophets as bearers of good tidings and as warners, and revealed herewith the scripture with

INTERNATIONAL RELATIONS IN ISLAM

By

His Eminence The Late Sheikh Mohamed Abu-Zahra

Member of The Islamic Researches Academy

IN THE NAME OF GOD, THE MERCIFUL,
THE COMPASSIONATE.

Praise be to God, and peace and blessings on Prophet Mohamed, his Family and Companions.

This research deals with the bases of international relations as regulated by the Quran, and as the Prophet on whom be God's peace and blessing carried out and guided his comrades therein.

Through God's help we rely in this study upon the text of the Holy Quran, the traditions of the Prophet, the acts of his companions, and the deductions of Mujtahids.

We shall be dealing with the following topic :

1 — Human unity as set out in both the Quran and the Prophet's traditions, and the causes of conflict in this universe.

2 — The rules governing relations between peoples, and their application to countries in the same manner as they are applied to individuals.

3 — Relations in peace-time and the basis of relations between Muslims and other peoples.

4 — Relations in wartime, the restrictions imposed on believers in the conduct and in the aftermath of wars.

1. Human Unity

2 — Many verses in the Holy Quran refer to peoples as one Nation; that they emanate from one origin and share the same end when they meet God who has created them, though their reward may range from good to bad, and from everlasting bliss to excruciating pain.

All the peoples belong to one soul though they differ in shape, races, or tongues or as nations or tribes, believers or atheists, good or bad, constructive or destructive. God has said, "O mankind ! Be careful of your duty to your Lord who created you from a single soul and from it created its mate and from them twain hath spread abroad a multitude of men and

other. But if there come unto you from Me a guidance, then whoso followeth My guidance, he will not go astray nor come to grief.

But he who turneth away from remembrance of Me, his will be a narrow life, and I shall bring him blind to the assembly on the Day of Resurrection.

He will say : My Lord ! wherefor hast Thou gatherd me (hither) blind, when I was wont to see ?

He will say : So (it must be). Our revelations came unto thee but thou didst forget them. In like manner thou art forgotten this Day.

Thus do We reward him who is prodigal and believeth not the revelations of his Lord; and verily the doom of the Hereafter will sterner and more lasting.

Surah XX (TAHA) : 111/127.

وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا
وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ *
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ
كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ
ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ
تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ
وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ
ٱلْأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ * .

صدق الله العظيم

سورة طه : ١١١/١٢٧

Tru King ! And hasten not (O Muhammad) With the Qura'an ere its revelation hath been perfected unto thee, and say : My Lord ! Increase me in knowledge.

And verily We made a covenant of old with Adam, but he forgot, and We found no constancy in him.

And when We said unto th angels: Fall prostrate before Adam, they fell prostrate (all) save Iblîs; he refused.

Therefor We said : O Adam ! This is an enemy unto thee and unto thy wife, so let him not drive you both out of the Garden so that thou come to toil.

It is (vouchsafed) unto thee that thou hungerest not therein nor art naked,

And thou thirstest not therein nor art exposed to the sun's heat.

But the Devil whispered to him, saying : O Adam ! Shall I show thee the tree of immortality and power that wasteth not away ?

Then they twain ate thereof, so that their shame became apparent unto them, and they began to hide by heaping on themselves some of leaves of the Garden. and Adam disobeyed his Lord, so went astray.

Then his Lord chose him, and relented toward him, and guided him.

He said : go down hence, both of you, one of you a foe unto the

وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً * وَلَقَدْ
عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ
وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ
إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ
إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا
يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ *
إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ *
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ *
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ
يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ
ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا
فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ
وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ
ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ *
قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي
هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd - ul - Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El - Zoghby**

Volume : 51 No. — **2** Safar 1399 A.H. — January 1979 **A.D**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

The Meaning of Tho Glorious Qurâan

And faces humble themselves before the Living, the Eternal. And he who beareth (a burden of) wrongdoing is indeed a failure (on that day).

And he who hath done some good works, being a believer, he feareth not injustice nor begrudging (of his wage).

Thus We have revealed it as a Lecture[1] in Arabic, and have displayed therein certain threats, that peradventure they may keep from evil or that it may cause them to take heed.

Then exalted be ALLAH, The

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَا يَخَـافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً *
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً *
فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ
بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ

(1) Ar. Qura'an.

رئيس التحرير
والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبي

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٤ – ٩٠٥٩١٤ – ٩٠٥٥٠٦

الجزء الثالث – السنة الحادية والخمسون – ربيع الأول ١٣٩٩ هـ (فبراير ١٩٧٩م)

م ٤٢
ع ٢٢٢٢٦
دوريات

بسم الله الرحمن الرحيم

عودة الروح إلى باكستان
خطاب مفتوح إلى الرئيس ضياء الحق ...

الدكتور/ عبد الودود شلبى

باكستان . . .

الأمل والحلم . . . بلاد الإيمان والطهر . . .

ماذا أقول ؟ ومن أين أبدأ . . ؟

طوفان من المشاعر والذكريات يتدفق فى أعماق هذه اللحظة ، إن باكستان تتجلى أمامى الآن فى أجمل صورة . . .

مئات الألوف والضحايا دفعوا حياتهم ثمن هذا الحلم . . . كانوا وقود هذه الجذوة المقدسة تشبثا بالإيمان فى غابة الوثنية والموت ، فمضت قوافل الشهداء منهم إلى ربها وهى تهتف بأعلى صوت . .

باكستان زنده باد .

●●●

ولئن كنت مصريا نشأ فى مصر . إلا أننى مسلم يحتوى قلبه بلاد الإسلام كلها

من الشرق إلى الغرب ، وقد كان لـ « باكستان » فى قلبى منزلة خاصة تجل عن الوصف .

غير أنى لا أنكر فضلها على ، وتكريمها لى فقد عشت فيها دارسا ، وزرتها عابرا ، واختلطت بشعبها من أقصى الشمال الغربى فى « بشاور » إلى « كراتشى » على شاطىء بحر العرب الهادر . !

لم تغب عنى حتى هذه اللحظة ذكرياتى فى « لاهور » وباد شاهى مسجد وأجهرة . . . وحى أنا ركلى . . . وجامعة البينجاب . . والقلعة الحمراء . . . والمكتبة العلمية ، والدكان الذى كان يستقبلنى صاحبه بنشيد « اسلمى يا مصر » . . . لم تغب عنى حتى هذه اللحظة أطياف شاليمار . وقائدى أعظم مزار . . . وضريح العلامة إقبال .

●●●

لقد قامت باكستان بالإسلام . . . وللاسلام . ولولا ذلك ما كان لقيامها معنى . . . ولكن الأمر استحال علاجه بسبب التناقضات الصارخة فى العقائد ، وبسبب الطبقية الجـــــائرة فى نظام الحكم ، وبسبب التفرقة الهائلة فى العرق والجنس . . . وقد كان السؤال – ولا يزال – هل يعبد المسلم البقرة أم يذبحها ؟ وكما يقول المرحوم محمد إقبال :

إننا وإن كنا ولدنا فى بلاد عريقة فى الوثنية . . . ،

رفضنا أن نعبد الثور والبقرة . . .

وأبينا أن نطأطىء رءوسنا أمام الكهان والسدنة . . فلم نخر بين يدى الآلهة القديمة . . .

كانت « لا إله إلا الله » هى فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة . . .

●●●

ومنذ قامت باكستان . . . ونحن هنا فى مصر نتابع أحداثها ، ونحلل أخبارها ونرصد ما يقع فيها . . . إن باكستان عزيزة علينا لأنها تجسيد للعقيدة ، وواحة للإيمان وارفة . . . والعقيدة هى الرباط الأوثق بين المؤمنين فى أى أرض ، والحبل المتين الذى يربط بين المسلمين فى الشرق والغرب .

لقد قامت باكستان . . وكان لقيامها معنى كبير فى دنيا السياسة ، هاهنا دولة تذوب فيها فوارق اللون ، وفوارق الجنس ، وفوارق اللغة . دولة تقوم بعقيدة دينية لا تفرق بين الناس ، وبروح إسلامية لا تعرف التعصب .

ما الذى جمع « البنغال » إلى « البنجاب » ؟ وما الذى وحد بين « السند » و « بلوچستان » وما الذى جعل

« أردو » لغة تعلو على غيرها من اللغات ؟

إنه الإسلام . . . العقيدة التى انتشلت مسلمى الهند من الذلة والهوان . . .

●●●

« ولما كان لله سبحانه وتعالى الملك كله . . ولما شاءت إرادة الله جلت قدرته أن يمنح دولة الباكستان السلطة والقوة تزاولها بواسطة شعبها فى الحدود التى رسمها لها وهو الوديعة المقدسة .

قرر المجلس التأسيسى الذى يمثل شعب الباكستان أن يضع دستورا تسير وفقه باكستان المستقلة ذات السيادة . دستورا تمارس الدولة به وظائفها مقتفية أثر التعاليم التى توحى بها الديمقراطية والحرية والمساواة والتسامح والعدالة الاجتماعية كما جاءت فى تعاليم الإسلام . . دستورا يكيف حياة المسلمين أفرادا وجماعات حسب تعاليم ومعتقدات الإسلام كما وردت فى الكتاب والسنة [1] » .

لقد كان هذا الدستور حدثاً تاريخيًا بالنسبة لشعوبنا . . كنا فى هذا الوقت لانزال شبابا يمتلىء قلبه بالإيمان والحماسة ، وقد وجدنا فى باكستان ودستورها الأمل الذى تخفق به قلوبنا فى كل نبضة .

« ولكن هذه العملية – التى قفزت إلى الوجود لأسباب تاريخية وسياسية – لم تجد فرصة تهيئة هذا الجيل وإعداد هذه القيادة ، وقد عجز نظام التعليم الغربى السائد فى الأقطار الشرقية ، وعجزت الجامعات الغربية التى تلقى فيها زعماء هذه البلاد ثقافتهم عن أن تقدم خيرا منهم فى عامة الأحوال ، وعن أن تنتج غير هذا الطراز من التفكير ، وغير هذا الإسلوب من الحياة .

ومن المؤسف . أنه « فى هذه المدة غير اليسيرة – منذ أنشئت باكستان لم يقم زعماؤها بخطوة جريئة نحو توجيه المعارف – التى هى العمود الفقرى لتوجيه الدولة ، وإنشائها إنشاء جديدا يتفق مع روح الإسلام وأهدافه ، وصياغة المجتمع صياغة إسلامية جديدة . ووضع دستور إسلامى ، وسد منابع الفساد والتفسخ الخلقى والفوضى الفكرية ، ولم تكن هناك محاولة جدية تدل على أن باكستان (معمل) إسلامى جديد تثبت فيه أهمية الحياة الإسلامية وصلاحية القانون الإسلامى ، وتفوق الحضارة الإسلامية ، وتقدم فيه نموذجا عمليا للأقطار الإسلامية الناهضة – بل – بالعكس من ذلك – قد برهنت بعض التشريعات ، وبعض الإصلاحات وبعض الاتجاهات على أن واضعى الدستور فى

(١) دستور باكستان .

باكستان ، وولاة أمرها – ليسوا مأخوذين بالأقطار الغربية فحسب – بل يعتبرونها أساسا للتشريع ، وشرطا لتقدم البلاد .

وقد كان انصراف باكستان عن أهدافها الأساسية الأولية ، مأساة ضخمة وغدْراً بذمة الملايين من المسلمين الذين تحملوا فى سبيلها من المصائب ما يشيب لهولها الولدان ، وقدموا لها ثمنا من الدماء والأرواح والأعراض . . ثم إن هذا النكر والانحراف يخمدان العاطفة الدينية التى لم تزل تراود نفوس العاملين للإسلام ، ويزهدهم فى محاولة إعادة هذه التجربة [1] . . . »

أكثر من هذا . . إن تمزق باكستان كان نتيجة طبيعية للتنكر للإسلام وإهمال مبادئه فى أسلوب الحياة والحكم ، والوقوع فى شراك القومية البغيضة التى شطرت الدولة إلى دولتين فى الشرق والغرب .

لقد كان « البنغاليون » من أسبق الناس هتافا لباكستان قبل قيامها بل إن – « مجيب الرحمن » كان من أشد الناس حرصا على قيام هذه الدولة وتضحية فى سبيلها فما الذى حدث ، وغير قلب الأخ على أخيه . وجعل من شقيق الأمس عدوا لشقيقه ، وجعل من – العدو المشترك – حليفا ومنقذاً بعد ربع قرن من الحروب والقطيعة ؟

إن النظرة الخاطفة تجاه هذه المأساة تعزو ذلك إلى اختلاف اللغة والجنس ولكن هذه اللغة وهذا الجنس لم يقفا حائلا عند قيام الدولة . . . وكانت باكستان الشرقية قلعة من قلاع الصمود فى وجه أية محاولة للقضاء ، على هذه الدولة . . لقد اختفت سمة الإسلام من وجه الحياة الباكستانية ، وتسلم الحكم طائفة من الطغاة والمردة ، وابتليت باكستان بزعماء يعبدون أنفسهم من دون الله سبحانه . وإذا كان « ذو الفقار بوتو – يحاكم اليوم بجريمة قتل منفردة ، فإن الجريمة الكبرى التى ارتكبها كانت أضعاف أضعاف هذه الجريمة مليون مرة ! !

لـو استجاب لنداء العقيدة والعقل ، لما تمرد « حزب عوامى » وزعيمه فى الشرق ولو خضع لمنطق الحياة والإيمان لما كانت المأساة التى لطخت وجه الأشقاء بالدم ولكن عبادة « الذات » ، وحب التملك والتسلط ، وإهدار مبادىء الشورى والعدل والاستهجان بكل ما هو « ليس منى » ، قاد باكستان المسلمة الى اتخاذ مواقف لم تكن فى حسبان أى فرد من

---

[1] (١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية – العلامة أبو الحسن الندوى .
Islam in Modern History.

شعبها ؟ ولا فى تقدير أى جندى من جيشها ؟

وليسمع شعب « باكستان » هذه الكلمة التى يقولها البروفسور سمث [١] . . .

« ربما يتخيل الباكستانيون أن عملية تكوين المجتمع الإسلامى صعبة وعسيرة أكثر مما قدروها أول الأمر ، ولكننا إذا تأملنا فى هذه القضية رأينا أنه لا مفر لهم الآن . . لقد كانت وعودهم ومزاعمهم صريحة واضحة إلى حد لا يمكن التخلص منها ، والإغماض عنها . سيكون تاريخهم « تاريخ الإسلام » . . . لقد وقعت على عواتقهم مسئولية ضخمة ، إنهم لا يستطيعون راضين أو كارهين – أن يصرفوا النظر عن فكرة « الحكم الإسلامى . أو يتركوها لمدة طويلة . . . ذلك بأن القضاء على هذه الفكرة لا يعنى التعديل فى الأسلوب والمنهج . . . بل إنه يعنى الضربة القاضية على الدين والوطن . ويستنتج العالم منه شيئا واحدا ، وهو : أن نظرية الدولة الإسلامية نظرية فارغة ، وأن شعارها وهتافها تضليل وخداع لا غير ، وهى لا تستطيع أن تساير مطالب الحياة المعاصرة ، ويؤمن بأن أهل باكستان أخفقوا فى تطبيقها على حياتهم القومية كأمة وشعب ، وفى هذه الحال تصبح معتقدات المسلمين موضع شك ومحل نقاش ونقد فى نظر العالم . . . !

وهذا الكلام . . . خطير . . . وصادق . . .

فالتجربة الباكستانية لم تعد ملك باكستان وحدها . . . إنها للمسلمين جميعا . . لقد تجسدت فيها العقيدة . . . نظاما وأسلوباً ومنهجا وما يحدث فى باكستان سوف ينعكس تلقائيا على هذه العقيدة ونظامها وأسلوبها ومنهجها . . . وأى خطأ يرتكب ضد هذه العقيدة . . . فلسوف يفسر تفسيرات (مجدفة) . . . وينحرف بالناس عن الحق والحقيقة . . .

●●●

لقد عشت فى باكستان عاما كاملا [٢] . . تجاوزت فيه تأثير العاطفة إلى صوت العقل . . . كنت أرصد ما أراه وأسمعه فيزداد ألمى بما أرى وبما أسمع . . . فليس معقولا أن يتحول الحكم إلى قوة غاشمة لحساب نفر أو زعيم أو حزب وطائفة . . . وغير ممكن أبدا ولا مقبول أن تحرم الباكستان من حكم الشورى والديمقراطية ويسير شعبها المؤمن إلى كارثة وطنية ، وتكم أفواه الدعاة والمخلصين للدين

(١) نقلا عن العلامة الندوى . . .

(٢) ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م .

والأمة . . .

. . . . غير ممكن ولا مقبول هذه الصيحات والشعارات التى تحمل فى ثناياها الموت والخراب لهذه الدولة . . . مستحيل هذا الذى أراه من القادة ورجال الحكم والسياسة . . . من تحلل وإباحية ، وإهدار لجميع القيم الأخلاقية والدينية . . . إن هؤلاء الزعماء يدمرون أنفسهم وبلادهم بهذه الطريقة . . . فإذا وهن الإسلام وأهدرت قيمه . . فقد ذهب المبرر الوحيد لقيام هذه الدولة ، وخرجت – من جحورها – الثعابين والأفاعى لتنفث سموم الفتنة . . .

أين محمد إقبال ؟ بل أين محمد على جناح ؟ بل أين أرواح الألوف من الضحايا والشهداء الذين قدموا حياتهم رخيصة فى سبيل باكستان المسلمة المؤمنة ؟ لم أكن أتصور أن تحيط بمقام « إقبال » أماكن اللهو والمجانة ؟ لم يكن يخطر ببالى ما أراه فى الفنادق التى لا تبالى بأية فضيلة ؟

كنت أحدث نفسى بألم . . . وأتحدث إلى الناس بصراحة . . ما تركت وزيرا أو أستاذا أو تاجرا . . أو طالبا إلا أفضيت إليه بما فى نفسى من ألم ومرارة . . .

بل كنت أتابع انتخابات (إتحاد الطلبة) فى جامعة البنجاب فأرثى للذين يهتفون بالعلمانية ، والإشتراكية وأقول للعقلاء منهم . . . إن باكستان قامت بغير هذه الشعارات القاتلة . . . وحين تسيطر عليها هذه النزعات الهدامة فلن تقوم لكم قائمة وسينتهى وجودكم من الحياة فى أول « كميونة » . ! !

ولقد رأيت من واجبى كمسلم . . وكمواطن « باكستانى » . يستحق هذه « المواطنة » كمسلم . . رأيت أن أسهم بنصيب فى هذه المعارك التى كانت تدور خارج مسكنى فى نيوكمبس **New Campus**

كنت ألتقى بممثلى الطلبة المسلمين لأمنحهم تجاربى فى مثل هذه المعركة . . . وكنت أنتفض من سريرى خارجا كلما سمعت هتافات « إشيا صرخة هى » أى أسيا حمراء . . . نفس الهتاف الذى كان يردده القمر الصينى حين أطلق لأول مرة فى الفضاء ليعلن « إن الشرق أحمر » .

كنت اتفرس فى وجوه هؤلاء المساكين الذين يطالبون بالموت والخراب فى الوقت الذى يظنون فيه أنهم أحياء . . وأظل فى مكانى جالسا . . حتى تجىء مظاهرة أخرى تتقدمها الأغصان الخضر والمشاعل . . . وشبابها يهتف بإيمان وعمق الله أكبر . « إشيا سبزه هى » أى أسيا خضراء . .

وبحركة لا شعورية أذهب لأشترى بعض الحلوى وأوزعها على هؤلاء كى تجلو أصواتهم وهى تهتف الله أكبر : إشيا سبنزهه هى . . .

لم أنس حتى هذا الوقت . . الطالب عبد الشكور رئيس إسلامى جمعية طلبة . . . ولم أنس أيضا – على الرغم منى – الطالب علام عباس مرشح الشيوعيين وال .(P.P.P) وغيرهما من أحزاب الدمار والموت . . . !

● ● ●

يا سيادة الرئيس :

لقد تركت باكستان فى أوائل ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م . . . ولكن قلبى بقى هناك يشارك رجال الله معاركهم ضد جحافل الكفر والشيطان .

لقد عرفت أناسا كثيرين من مختلف الاتجاهات والأحزاب . . . من الجماعة الإسلامية . والرابطة الإسلامية . . . وحزب مارشال الجو السابق « أصغرخان » . .

ومن حزب بوتو أو باكستان بيبلز (P.P.P.) بارتى .

كنت أرى التضييق فى كل مكان على كل إنسان . . وكان صدرى يضيق بالاضطهادات المتلاحقة لـ « جماعت إسلامى » . . هذه الجماعة التى بقيت وحدها وسط هذا الإعصار تقاوم التجديف والتزييف ومعاول الهدم التى تهوى على رأس باكستان كل يوم والأغرب من ذلك كله . . إن القيادة الدينية أسندت إلى رجال سيئى السمعة ولم يبق فى باكستان كلها صحيفة أو مجلة تنطق بالحق والحقيقة والصحيفة أو المجلة التى تحاول ذلك ينتهى أمرها بالإعدام أو المصادرة ، وقد رأيت بعينى ما حدث لصحيفة « جسارت » فى كراتشى . . وما وقع لمجلة « أوردو دايجست » فى لاهور . . .

يا سيادة الرئيس :

لن أحدثك عن النزعات الانفصالية التى أفرزها حكم « بوتو » فتحت يدى الكثير من قصاصات هذه المحاولات السخيفة التى تمولها دول كبرى ، أو دول مجاورة تتستر وراء أشخاص باعوا ضمائرهم فى أسواق العمالة السفلى . . . ؟

لقد مضى « بوتو » إلى سبيله يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله . . إن أمره الآن بين يدى العدالة . . إن المأساة فى العالم الإسلامى . . إن الذين جرعوه الذل ، وصفدوا شعوبه بالأغلال . . . وادعوا رعايتهم للفقراء تحت شعارات خادعة وكاذبة . . كانوا فى حياتهم أباطرة من

أباطرة القرون الوسطى . . .

لقد أممت أكثر المصانع ، وصودرت أكثر الأراضى والممتلكات . . ولكن زعيم الـ (P.P.P.) بقى وحده مالك الملك . . وأصبحت « لاركانا » فى عهده « ملكة المدن » . !

ويكفى أنه وعد كل فقير ببيت يسكنه ، وكل فلاح بحقل يملكه ، وكل سائق « ركشا » بـ (ركشا) جديدة تطعمه وتحمله . . . !

لقد مضى هذا كله كما قلت . . انكشف الغطاء عن الزيف والتزوير الذى عاشته باكستان المسلمة لفترة طويلة . . لم أكن أر فى باكستان سوى الجيش . . كنت أراه المؤسسة الوحيدة التى بقيت محتفظة بتقاليدها العسكرية الصارمة ، وكنت أفرح كثيرا حين ألتقى بالجنود والضباط وأحاول الاستماع أو الاستمتاع بروحهم الإسلامية الأصيلة . . لم يكن يخطر ببالى أن تقوم بحركتك الإسلامية العاقلة . . فأنا رجل سيىء الظن بتحركات الجيوش من ثكناتها لغير الدفاع عن الوطن والعقيدة . . بل لم أكن أسمع بك حين إقامتى فى باكستان طوال سنة كاملة كان اسم الجنرال « تيكاخان » هو الظاهر فى كل صحيفة ومجلة .

وظل الحال كما تركته فى باكستان حتى بدأت الأزمة فى الانتخابات الأخيرة . . . لقد حدثنى أكثر من « مطلع » إن حركتك قامت فى اللحظة التى قرر فيها « بوتو » إخضاع الجيش لمآربه الشخصية وأن تحرككم كان عقب الأحداث الدموية التى شهدتها لاهور وكراتشى وغيرهما من المدن الكبرى .

وأيا كان الأمر . فإن حبى لك بدأ أيام الاحتفال بالذكرى المئوية لمولد العلامة «إقبال» كنت عضوا فى وفد مصر إلى الاحتفال . . . وفى اليوم الأخير لهذا المؤتمر وقفت تتكلم وبدأت كلماتك تشق طريقها الى قلبى المحطم . . . !

لقد تميزت كلماتك بالإخلاص والصدق . . . وكان الإسلام نابضا فى كل حرف تنطق به فى هذا الحفل . . . لم أصدق أول الأمر . . . ظننتنى أحلم . . أو أن – « العلامة إقبال » بعث من قبره ليتكلم . . . !

لقد عادت الروح إلى باكستان . . ودبت الحياة والعافية فى الجسم الجريح وأشرق ضياء الحق بعد ظلام ليل قبيح . .

وأظنك تذكر يا سيادة الرئيس . . أنى تقدمت إليك بعد إلقاء الكلمة . . وانصراف المدعوين إلى حفل الشاى

خارج القاعة ، لقد عانقتك كزعيم مسلم . . . وأهديتك مسبحتى تقديرا لهذا الحديث الملهم . . .

وأظنك تذكر يا سيادة الرئيس . . . أن خطاب المغفور له الإمام الأكبر عبد الحليم محمود – والذى بعث به إليك رداً على رسالتك إليه – قد نوه بهذه العاطفة التى ذكرتها للإمام الأكبر. لقد قلت لفضيلته عقب عودتى من باكستان مباشرة . .

إن زعامة جديدة ولدت فى باكستان . . زعامة تعتز بالإسلام وتعمل لإحياء مجده وتراثه . .

وقد التقيت بك ثانية فى كراتشى عقب صلاة الجمعة أيام المؤتمر الإسلامى الأسيوى فرأيت فى بساطتك وإيمانك ما جعلنى أخاف عليك . إن الشرق والغرب يا سيادة الرئيس يختلفان فى كل شىء ما عدا شيئا واحدا لا يختلفان فيه أبدا ، هذا الشيىء الوحيد هو ضرب الإسلام . . وضرب كل قيادة صحيحة تدعو إلى هذا الإسلام . .

إن يقظة الإسلام تعنى موت كل الفلسفات . . وتعنى زوال كل الإمبراطوريات ، وتعنى نهاية الظلم الذى تعانيه البشرية على يدى قياصرة الغرب . وأكاسرة الشرق . . وقد بدأت بعمل لم تُسبق إليه فى باكستان إن معنى الحكم بما أنزل الله . . . إسقاط كل حكم خارج دائرة هذا الحكم . . ومعنى تقنين الشريعة . . إلغاء كل قوانين الجاهلية فى الشرق والغرب . .

وكما يقول العلامة إقبال على لسان « أبو جهل » :

إن قلوبنا معشر الجاهلين قروح وجروح تسيل دما بما صنع محمد . .

لقد نعى قيصر وكسرى . .

« وتنبأ بزوال الملوك والسلاطين . . .

ونادى بأعلى صوته : (إن الحكم إلا لله) .

لقد جعل اللات ومناة جذاذا بضرباته الموجعة . .

فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآلهة . .

ولهذا يا سيادة الرئيس يحارب الإسلام ويطارد فى كل بقعة من الأرض . . (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) . .

●●●

فليكن ذلك فى خاطرك . . فإنك اليوم لكل المسلمين فى العالم لا لمسلمى باكستان وحدهم . واسمح لى أن أضع

أمامك مشروعا تقدم به علماء باكستان بعد خمس سنوات من قيام دولتكم النقية الطاهرة . . .

● إن الحاكم الحقيقى من حيث التشريع والتكوين هو الله وحده .

● يكون قانون البلاد مبنيا على قواعد الكتاب والسنة ، وإلغاء ما يخالف ذلك من القوانين التى تتعارض مع الكتاب والسنة .

لاتقوم الدولة على أساس نظرية إقليمية أو قومية أو جنسية وإنما تقوم على مبادىء وغايات أساسها ما جاء به الإسلام من نظام شامل للحياة البشرية .

● مهمة الدولة الإسلامية هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى ضوء ما أرشد إليه الكتاب والسنة .

● على الدولة إتخاذ كل الوسائل والأسباب لتوثيق عرى الإخاء بين الشعوب والأمم الإسلامية . وسد كل المنافذ والطرق التى تؤدى إلى إحياء النعرات الإقليمية والجنسية .

● تتكفل الدولة بتوفير كل حاجيات المواطنين الضرورية كالمأكل والملبس . والمسكن والتعليم والعلاج ، وتوفير العمل لكل قادر ، ورعاية العجزة والضعفاء وحمايتهم من الفقر والفاقه .

● يتمتع أهل البلاد – فى حدود القوانين – بجميع الحقوق التى نصت عليها الشريعة الإسلامية من حماية النفس والمال والعرض ، وحرية الرأى والعبادة وحرية التنقل وحرية الاجتماع والمساواة فى العمل ، وتكافؤ الفرص ، والاستفادة من المرافق العامة .

● لا يسلب أى مواطن حقا من هذه الحقوق ما لم يكن فيه نص من الكتاب والسنة .

● حرية أبناء المذاهب الإسلامية فى القيام بواجباتهم الدينية ، وإنشاء المدارس الخاصة ، ونشر أفكارهم والدعوة إليها بكل حرية .

● لأبناء الدولة – من غير المسلمين – الحرية فى ممارسة شعائرهم الدينية والتحاكم حسب مذاهبهم الخاصة فى الأحوال الشخصية .

● المحافظة على العهود والمواثيق التى التزمت بها الدولة تجاه غير المسلمين من سكان البلاد ، ويكون من حق هؤلاء التمتع بجميع الحقوق المدنية دون – تفرقة بينهم وبين المسلمين .

● النص على أن يكون رئيس الدولة مسلما ذكرا وأن يختار بالانتخاب العام من الشعب أو عن طريق النواب الذين

يختارهم الشعب ولابد فى الحاكم من توفر شروط معينة كالتدين والكفاءة وسداد الرأى .

● رئيس الدولة هو المسئول الحقيق عن تسيير شئون الدولة ، ويجوز أن يفوض جانبا من صلاحياته الى فرد أو جماعة

● الشورى هى أساس الحكم . ويجب أن يلتزم الرئيس بهذا المبدأ ويمارس تطبيقه مع الوزراء ونواب الشعب . .

● ليس من حق رئيس الدولة أن يلغى الدستور كله أو بعضه .

● عزل الرئيس أو انتخابه من اختصاص نواب الشعب الذين يملكون تثبيته أو عزله .

● رئيس الدولة يكون مساويا لجمهور المسلمين فى الحقوق المدنية . . ويحاكم أمام القانون فى حال انتهاكه لهذا القانون أو مخالفته .

● القانون سيد الجميع ويستوى أمامه الحاكم والمحكوم بدرجة واحدة .

● استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية .

● محاربة الأفكار والمبادىء التى تمس أمن الدولة وتعرضها للقلاقل والفتنة .

● تقسم ولايات البلاد تقسيما إداريا لا يخضع لاعتبارات عرفية أو جنسية أو إقليمية

● لا يقبل تفسير أية مادة من مواد هذا الدستور تفسيرا يخالف الكتاب والسنة .

يا سيادة الرئيس ضياء الحق . . .

إن لـلأسماء نصيبا فى حياة الرجل وسلوكه . . وقد كان نبينا ﷺ يوصى أصحابه باختيار أحسن الأسماء . . وكان يغير اسم الرجل إذا رأى فى هذا الاسم ما يوحى بالضيق والتشاؤم . . وفى تصورى – كرجل مسلم – أن فى اختيار الله لك – لتقوم بحركتك هذه – سرا خفيا . . . ؟

فنى اسمك « الضياء » . . . والضياء هو نور الشمس . وفى اسمك « الحق » والحق ضد الباطل . . وكأنما أراد الله سبحانه أن يكون مجيئك إيذانا بنهاية عهود الباطل والظلام فى باكستان الغالية . . . ولسوف تجد من كل مسلم فى أقصى مكان من الأرض وأدناه عونا لك فى رسالتك المقدسة ، فامض لما اختارك الله له بقلب ثابت . . . واختر لنفسك أعوانا يعينونك على طاعة ربك . . وإياك وغرور السلطة وشهوة الحكم ، . . فقد لقى المسلمون بسببهما الويلات من حكام كانوا شرا عليهم من العدو . . . واذكرك بما قال

إقبال حكيم الإسلام والشرق :

لولاك يا رسول الله :

ولولا جهادك ودعوتك التى وسعت وفتحت البلاد . .

ولولا دينك الذى آمن به أباؤنا فخرجوا به من حياة الخمول والهوان والعزلة عن العالم إلى حياة الشرف والطموح والمغامرة . .

فأسسوا دولا واسعة وفتحوا بلادا شاسعة . .

ولولا هذا الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الانطواء على النفس ، والحياة القبلية الضيقة إلى غزو وفتح الأمم . .

لما ارتفعت لنا راية ، ولا رويت لنا رواية ، ولبقينا فى الصحارى القاحلة ، والأودية الضيقة نتصارع ونتناحر . .

يأكل القوى منا الضعيف ويظلم الغنى منا الفقير ، طعامنا أفقر طعام ، وعيشنا أخس عيش . .

نعيش فى عالم من نفوسنا وتجاربنا المحدودة . .

أسماك بركة . . وضفادع بئر . . .

ولكنك يا رسول الله . .

ألقيت علينا ضوءاً من دينك تفتحت به عيوننا ، واتسع به خيالنا . فخرجنا إلى أرض الله الواسعة نحمل دينه الواسع . ورابطته الجامعة . وأشعلنا مواهبنا الخامدة الجامدة . . .

نحارب الشرك والوثنية . .

والجهالة والظلم . . .

فأسسنا هذه الدولة العظمى ، ونعمنا ونعم أولادنا فى ظلها . .

وها نحن نقدم إليك تحياتنا ، ونقدم إليك ضريبة الإجلال والتعظيم والحب . . . وهى ضريبة نقدمها طوعا واختيارا . . .

ونعترف بتقصيرنا فى جنب دينك وتطبيق قانونك . . . قانون الله . . . .

●●●

وليحفظ الله باكستان . . .

ولتعش إلى الأبد دولة الطهر والإيمان . . .

دكتور عبدالودود شلبى

شُعراء العجم فى مَدح سيد العرب والعجم

العلامة/أبو الحسن الندوى

جزى الله صديق زيداً أنه يتفنن فى « ضيافة » الأذواق ويتلطف فى إثارة العواطف الخامدة ، والقرائح الجامدة ، فيؤلف نوادى أدبية يتساجل فيها الشعراء والأدباء وينشدون من أبياتهم ، أو يتمثلون بأحسن ما قاله الشعراء قديما من الشعر الوجدانى ، فترق النفوس ، وتلين القلوب ، وتفيض العيون ، وينقشع السحاب المادى الكثيف ، وينتقل الناس من عالم تسيطر عليه الآلام والهموم وتكاليف الحياة وأعباؤها ، فكل شىء فيه ثقيل يرسف فى القيود ، ويتعثر فى السلاسل ، كأنما يصعد إلى السماء ، إلى عالم تسيطر عليه العواطف والأشواق ، وتهب فيه النفحات القدسية فيشعرون بخفة الروح ، وسرور القلب ، ورقة الشعور ، وصفاء النفس ، ويشعرون بلذة الحياة وخفتها ، فيصبح ماكان جحيما نعيما ، وماكان ثقيلا خفيفا .

وقد خصص ندوة أمس بما قاله شعراء العجم فى مدح النبى ﷺ والحنين إلى مدينته ، وما تغنوا به ، وفاضت به قريحتهم ، وشاء شوقهم وحبهم وإيمانهم ، وقد تحقق عند المطلعين على الأدب الإسلامى العالمى ، والذين درسوا آداب اللغات التى تكلمت بها الشعوب الإسلامية فى بلادها ، وتذوقوا شعرها ، أن اللغة الفارسية هى أغنى ثروة ، وأسعد حظا فى المدائح النبوية من غيرها وتليها « أردو » التى هى سليلة الفارسية ، وأن ما قيل فى إيران والهند فى هذا الموضوع ، يمتاز عن غيره قوة وتأثيرا ، ورقة وعذوبة ، قد تجلت فيه العاطفة أقوى وأروع منها فى غيره ، وقد ابتكر هؤلاء الشعراء معانى وأخيلة ، وجاءوا بتعبيرات لم يسبقوا إليها ، ولا يزال السر فى ذلك موضوع تفكير الباحثين ، وعلماء الأدب .

وقد علل ذلك بعضهم بالمزاج الإيرانى والهندى ، وأن طبيعة الفرس والهنود طبيعة الحب والغرام ، وأن لغتهم لغة الغزل

والهيام ، فلما انصرف ذلك كله إلى شخصية خصها الله بأعظم معانى الحسن والإحسان ، وأكبر مظاهر الجمال والكمال جاء بالعجب العجاب ، وصادفت قوة التعبير وبراعة التصوير ، وعاطفة الحب والتقدير ولوعة القلب والضمير ، ممدوحا ، وحبيبا ألقى الله عليه محبة منه ، وكساه أجمل لباس من الظاهر والباطن ، جاءت بكل معجب مطرب .

وعلل ذلك بعضهم بالبعد والهجر ، فلهما تأثير غريب فى تفجير منابع القلب والحب ، وتوليد المعانى الغريبة وإشعال المواهب الدفينة ، وقد كان أكثر هؤلاء الشعراء يعيشون فى بلاد بعيدة عن الجزيرة العربية ، والمدينة النبوية وفى عهد يسود فيه الاضطراب ، والفوضى ، والقلق ، وكانت قوافل الحجاج تتعرض فى غالب الأحيان للنهب والغارة ، فاستعاضوا عن الرحلة الطويلة المملوءة بالأخطار بالشعر والتعبير فيه عن حنينهم ، وأشواقهم ، ولم يزل الشعر بريد القلب والشوق وهو الحمام الزاجل الذى لا يزاحمه شيء ، ولا يعوقه شيء .

وعلله بعضهم بالتصوف الذى عاش وازدهر فى إيران والهند ، وهو مهما انتقده المنتقدون – بحق وبغير حق – معروف بإثارة عاطفة الحب ، وتغذيتها وتنميتها ، ويصح أن يقال : إن أساسه الحب والعاطفة ، ومن لم يرزق حظا منهما لم يفلح فيه إلا نادرا ، فقد كان هذا التصوف الذى رافق الشعر الإيرانى والأدب الإيرانى فى أكثر مراحل حياته ، وساهم فى تكوينهما ، ثم فى توسيعهما وتقويتهما . مصدر هذا الشعر الغزلى الرقيق ، والأدب الوجدانى العميق ، فإذا امتلأت الكأس طفحت وإذا طفحت فاضت ، ولابد أن يعقب الرى السكر ، ولابد أن يعقب السكر التغنى ، وقد عبر الشاعر العربى القديم عن هذه الحقيقة فى بلاغة وجمال ، وأنشد بلسان الحال فقال :

سقونى وقالوا لا تغن ولو سقوا
جبال سليمى ما سقيت لغنت

وعلى كل فقد زخر الشعر الفارسى سواء ما قيل منه فى إيران ، أو فى الهند – التى تتلمذت عليه واقتبست منه ، حتى كانت مدرسة مستقلة بجوار المدرسة الإيرانية الأصيلة – ببدائع المديح النبوى ، وغرره .

وكان الصديق الفاضل موفقا فى اختيار هذا الموضوع وفى هذا الصنف من الشعر ، وقد ضم المجلس أصنافا من الأدباء أكثرهم يتذوق الشعر الفارسى ، ولا يحتاج إلى ترجمة ، وضم طائفة من أدباء العرب

الذين لا يفهمون اللغة الفارسية ، ولكنهم يتلذذون بموسيقى الشعر الفارسى ، وجمال النغمة ، وحسن الإنشاد .

وكلفنى المضيف بترجمة بعض الآيات ، وكنت أعرف أن مهمة الترجمة ، وترجمة الشعر بصفة خاصة ، وترجمة الشعر الفارسى أو الأردى بصفة أخص ، من أصعب الأعمال الأدبية وأدقها ، فلكل لغة أجواء تعيش فيها ، وتعبر عن نفسها ، ولا يمكن نقل الأجواء وما يكتنف هذه اللغة من جو ، ومحيط ، وإقليم ، وطبيعة ، ونفسية أبنائها ، وتاريخ أدبها .

والشعر أرق وأدق من الزجاج الذى يسرع إليه الكسر ، ويبطئ عنه الجبر ، وما كان سر رقته وتأثيره فى لفظه وتعبيره ، وفى أسلوبه وأمثاله ، ومناهج كلام أهله ، كانت ترجمته أصعب أو شبه المستحيل ، فتكفلت بنقل ما يأتى فى هذه الأبيات من المعانى الجديدة والأفكار اللطيفة وأن يسمح لى بتخير بعض الأبيات التى تنسجم مع الذوق العربى وما يسهل تناوله واستساغته فأذن لى فى ذلك مشكوراً .

وكان صديق قد لقن طائفة من الأدباء والشباب المثقف المختار من شعر شعراء إيران والهند ، وقد أحسنوا حفظه وإنشاده ، ومثلوا أصحابه تمثيلا رزينا وقورا يتجلى فيه جمال الذوق ، وحسن الأدب ، ومعرفة البيئة التى عاش فيها هؤلاء الشعراء .

وكان أول من تقدم فى هذا النادى هو الشيخ سعدى صاحب الكتابين الخالدين اللذين يحتلان الصدارة فى مكتبة الأدب العالمى ، وهما «كلستان وبوستان» حديقتان زاهرتان إلى هذا الوقت ، وكان الشعر الذى تعلق به القلب ووقع عليه الاختيار شعرا سهلا سائغا كان مثالا للسهل الممتنع ، وكأنه بحر صب فى كأس ، أو مكتبة حشيت فى سطر واحد ، يقول :

« إن اليتيم الذى نشأ أميا وعاش أميا ، ولم يقرأ القرآن فى كتاب ، استطاع أن ينسخ مكتبات شعوب كثيرة ، فتفقد قيمتها وحيويتها ، وينشىء مكتبة جديدة كانت مصدر العلم والعرفان ، ومنهل كل رائد وظمآن » .

وقد لخص فى هذا الشعر تلك الثورة التى تفوق كل ثورة فى القديم والجديد فى عالم الأديان والأخلاق ، والعلوم والآداب والحضارات والمدنيات ، والقيم والمفاهيم وكيف تحققت هذه المعجزة على يد أمى . لم يجلس فى كتاب يوما واحدا ، ولم يخط سوادا فى بياض ، وكيف انبثق هذا العهد الجديد الذى لا ناسخ له ، وهذا الانفجار

العلى الهائل الذى خضعت له العصور والتاريخ ، من أمية مطبقة لا تشوبها دراسة ولا صناعة . إنها لغزة لا يحلها إلا الإيمان بالقدرة الإلهية ، وإنها غريبة لولا التواتر ، ولولا البَدَاهة ، ولولا المشاهد ، ولولا التاريخ المقطوع بصحته ، لما جاز تصديقها والإيمان بها .

وجاء الشيخ « فريد الدين العطار » صاحب منطق الطير وصاحب الدواوين السائرة ، والكتب المقبولة ، فأنشد أبياتا تكاد تسيل رقة وعذوبة تجلت فيها الإنابة والتواضع والخشية والاعتراف بالتقصير ، وطلب فيها أن يسعد بشفاعة الرسول ، وأن لا يفتضح أمام العالمين ، والذى هز قلبى ، هو قوله : « إن له حقا لكونه سمى باسمه الشريف . والكرام يراعون الأولاد الذين يسمون باسمهم ويعرفون الحق » .

وجاء بعده شاعر الهند الأمير « خسرو » الذى سلم له شعراء إيران بالزعامة والإمامة ، وشهدوا له بالإجادة والإبداع فى الشعر الفارسى ، كأبرز أبنائها ، وشعرائها وقد استرعى انتباه المستمعين ، وملك إعجابهم واستحسانهم بحسن إنشاده ، ورخامة صوته ، وحلاوة جرسه ، فكان مما قال :

« إن أنفاسه وأخلاقه قد نفخت الحياة فى العرب الذين كانوا فى الاحتضار وأطفأت فى وقت واحد شعلة أبى لهب . الوهاجة التى كادت تأتى على الأخضر واليابس إنه وصل فى خطوتين من هذا العالم إلى ذلك العالم . وفى جولة من العالم المادى إلى العالم الروحى » .

وجاء مولانا « عبد الرحمن » الجامى الذى يعتبر من أكبر شعراء المديح النبوى فى التاريخ الإسلامى ، وقد تغنى بشعره أهل القلوب والعلماء والأدباء فى جميع البلاد التى تفهم اللغة الفارسية ، فأنشد أبياتا من قصيدة له سارت بها الركبان ورقت فى اللفظ والتعبير ، فكان مما احتملته الترجمة قوله :

« يا من نسبه عربى ، ولقبه أمى ، لقد دان بولائك ، وخضع لسيادتك العرب والعجم سواء ، إن فصاحتك استأثرت العرب ، وإن ملاحتك ملكت قلوب العجم . ما ضرك أن لا تقرأ ولا تكتب ، فبفضل جهودك ، وبعثتك ، تعلم الأميون ، ونبغ الجاهلون ، بك ابيضت صحيفة الأعمال ، وأشرق نورك فى الظلمات ، فلا ضير أن لا تخط سوادا على بياض ، أو تضم سوادا إلى سواد » .

وقد اهتز لهذا الشعر الرقيق البليغ السامعون ، وترنحت أعطافهم ، فاستزادوا

الشيخ وأنشدوا الشعر العربى القديم ، فإن الشيخ من كبار فضلاء العربية ، ومن أئمة النحو والبلاغة .

وحدثتنا ياسعد عنهم فزدتنا
شجونا فزدنا من حديثك ياسعد

وطلبوا منه أن يذكر فضل البعثة المحمدية وما لها على العالم الإنسانى ، فأنشأ قائلاً :

« لقد كانت الكعبة قبل بعثته بأصنام من الحجارة ، وكان الحرم على سعته ضيقا على من طلب الله وسعى إليه ، إنه هو الذى اجتث هذه الأصنام وقطع دابرها واستأصل شافتها ، وألقاها فى مهاوى العدم . لقد رجع بفضله مقام إبراهيم إلى مكانته الأولى ، وحقق غايته من بناء البيت الحرام » .

وقد استحسن ذلك الحاضرون . وقد عرفوا أنه سافر على جناح الشوق إلى المدينة ووقف على قدم الحب فى المسجد النبوى ، وأملاه حبه وشوقه ، الشعر الرائق ، الذى طار فى الآفاق ، وسار مسير المثل ، فاقترحوا عليه إنشاد قطعة من هذه القصيدة الشوقية فكأنه صادف رغبة فيه ، وأثار قيثارته ، فانطلقت منها نغمات ، فكان مما قال :

« لقد كان من سعادتى الكبرى أن وصلت إليك ، فكان من شكرى واعترافى بهذه النعمة ، وكان من هيامى وغرامى ، أن كنست بأجفانى ومقلتى غبار طريقك ، وسجدت لله شكرا فى المسجد ، وجعلت روحى فراشة تتهافت على سراجك المنير ، هطلت سحابة عينى التى كان عهدها بعيدا بالمنام ، نضحت بمائها عتبة بيتك ومدفنك ، لقد سعيت إلى منبرك فمسحت بوجهى قوائمه ، ووقفت فى محرابك وسجدت لله ، وغسلت موضع قدمك بدم العين لا بدمعها ، لقد وقفت أمام كل سارية ، وسألت الله أن يرزقنى مقام الصادقين الذين صلوا إلى هذه السوارى فى صدق وإخلاص » .

وقد كان فى المجلس بعض العلماء ، فرفعوا رؤوسهم عند بعض الأبيات ، ونظروا إلى الشاعر شزرا ، وإلى المترجم إشفاقا وحذرا ، وكأنهم خافوا من تورط الشاعر فى بعض مالا يجوز ، فقلنا : إن الشاعر من الراسخين فى العلم ومن أصحاب العقيدة الصحيحة ، ولكنها لغة الحب والشعر لا لغة الفقه والكلام ، وأنها مجازات واستعارات لا حقائق وقضايا .

وجاء بعده الشاعر الإيرانى العظيم الذى هو من أئمة الغزل والقصيد ، ومن أصحاب المذهب الجديد ، فى الشعر الفارسى ، وهو

الملقب بـ « عـرفى » وكنت أعـرف أنه شاعر البلاط ، ومداح الملوك ، وأستاذ الشعراء فى عهده وأن عهده قريب بمدح ممدوحه وسيده ، ولكنه تأدب لمقام الرسالة ، واعتذر عن مواقفه القريبة ، وقال : إنه – لا يمكن أن يتغنى رجل بمدح الملوك والسلاطين ، ومدح الرسول الأمين ، وسيد الأولين والآخرين فى وقت واحد ، ومن إساءة الأدب وقلة الذوق ، أن يجمع الإنسان بين المدحين وأن يكون له نفسان متقاربان ، نفس فى مدح سلاطين العجم ، ونفس فى مدح سيد العرب والعجم .

وأعذره الحاضرون ولم يلحوا عليه بإنشاد مديح نبوى ، وأخروا ذلك إلى مناسبة أخرى .

وجاء شاعر المديح النبوى المعروف بـ « القـدسى » وهـو الـذى لا تزال الأوساط العربية ، والصوفية ، تردد صداه ، وتنشد أبياته ، وتجدد بها الإيمان والحنان وشعره يمتاز بجمال النغمة ، وحلاوة الوزن ، واندراج الكلمات العربية فى اللغة الفارسية لذلك هام به المغنون ، وقلده الشعراء والعلماء ، وكان من أكثر الأشعار التى تغنى بها الناس ، وكان البيت الوحيد الذى استطعت أن أنقله بجماله وكماله ، هو قوله : عزوت نفسى مرة إلى كلب من كلاب حيك .

وخجلت وأطرقت رأسى حياءاً ، وقلت هذه إساءة أدب وقلة ذوق .

وقد شعرت وأنا أنقل معناه ، أنه تورط فى مبالغة وغلو ، فالإنسان الذى أكرمه الله بالإنسانية ، ثم أنعم عليه بالإيمان ، هو أشرف على كل حال من الكلب ، ولكنى قلت إن حبه وتواضعه قد ورطاه فى هذا التعبير ، وللمحب عذر وللشاعر عذران .

وقام من بين شعراء الهند الكبار « غـالب » ليلحق بهذا الركب الميمون ويساهم فى هذه الندوة الجديدة الإيمانية ، وأنشد مما طاب وراق من أشعاره السهلة وكان شعره من غير مبالغة فى المدح واسترسال فى الخيال وإغراق فى الصناعات اللفظية .

« إن بنانه لم يمسك القلم لكنه سطر ما عجزت عنه أقلام التاريخ ، وما وضع قدمه على الصحراء إلا وتحولت إلى جنة خضراء .

حلو كلامه يجعل الكافر مسلما والزنديق مؤمنا ، أضاء الدنيا بنور الدين وأنقذ المؤمنين من عذاب يوم الدين .

حرر العباد من عبادة الأوثان وعمر العالم بيت واحد ، بيت الإيمان ، أذاب

قلوب الأعداء ونفوس القساة الغلاة ، ولا غرو ، فحصاة عتبته تذيب الحديد ، وتلين الشديد .

عاكف فى المحراب وقلبه معلق بخلق الله » .

وجاء من بعد هؤلاء الإيرانيين الأقحاح هندى من المعاصرين ضارع شعراء إيران فى رشاقة اللغة وحلاوة اللفظ ، وجمال الأسلوب ، وهو الأستاذ مسعود على المحوى [١] فأنشد قائلاً :

« رفعت الفطرة اللثام عن وجهها وتجلت بأجمل مظاهرها وفعلت فعل الربيع فكست الأرض لباسا أحمر من الزهور والورود ، ذلك كله لأجل محمد ﷺ إن نظره يعمل عمل الكيمياء فيحول الخزف الأسود الذى لا قيمة له تبرا خالصاً ، وذهباً وهاجاً ، إنه سيد استطاع من غير جيش وكتائب ، أن يجعل من التائهين فى البادية ملوكاً يحكمون العالم ، وأساتذة يعلمون الأمم » .

وجاء دور شعراء « أردو » وكان عددهم كثيراً ، فكان التغنى بمدح الرسول والتحنن إلى بلده ، ومسجده ، موضوع شعراء الهند المفضل ، وحديثهم الأثير الحبيب وقد ردد صداهم الشعب الهندى المسلم فى حماس وطرب ، وتسلى به فى أحزانه ، واستمد القوة الروحية والاعتزاز بحب الرسول النبى العربى ﷺ فى مقاومة تيارات القومية الهندية المتطرفة ، أو الوطنية الملحدة ، حتى اتهمه الغلاة من دعاة القومية والوطنية بتفضيل الوطن الروحى على الوطن الجسدى ، ووكر الروح على وكر البدن .

هنالك اقترح الحاضرون على شاعر المديح النبوى « محسن كاكوروى [١] الذى وقف حياته كلها على المدائح النبوية ، وقيل عنه إنه لم يخط بيمينه غير المدح النبوى ، ولم يكن يحب أن يمدح غيره بالقلم الذى مدح به النبى ﷺ .

وتقدم الشاعر يصف ليلة الإسراء التى سعدت بأنوارها ونفحاتها البشرية ، وسعد بها حظ الأرض ، والدرجة التى فاز بها جبريل الأمين ، وهو يتمثل أمام النبى ليسير به فى هذه الرحلة الخالدة عبر السماوات السبع إلى ما يشاء الله .

« أيقظ النبى الكريم فى أدب وتواضع ، بل أيقظ – فى تعبير أصح وأفصح – حظه وجده وطالعه فإذا هو ﷺ يرى فى هذه الليالى من العجب العجاب ما يأخذ بالألباب ، إن تتابع الأيام والأعوام ، وتقلب الليل والنهار ، لم يلد ليلة مباركة كهذه الليلة ، إن هذا

الإكرام الذى نالته الأرض فى هذه الليلة لا تناله الآن إلى الأبد ولو أصبحت تبرا وتحولت درا وجوهرا ، وإكسيراً ، تتابعت فيها الرحمات كالندى واتصلت الأرض بالسماء » .

ثم تقدم زعيم الشعر الإسلامى الحديث الشيخ « ألطاف حسين » الملقب فى شعره « بحالى » صاحب المنظومة أو الملحمة الإسلامية التى كان لها التأثير الكبير فى هز مشاعر المسلمين بعد ثورة ١٨٥٧ م وإيقاظ النخوة الإسلامية فيهم ، وهى التى خظيت بإقبال وقبول لم يحظ بهما شعر آخر ، وامتاز شعره الذى أنشده فى هذه المناسبة بحسن تصويره للواقع التاريخى وبعده عن المبالغة ، وأساليب شعراء العجم ، وكان مما جاء فيه :

« لقد خص من بين النبيين بلقب « رحمة للعالمين » هو الذى كان من دأبه إسعاف حاجات الفقراء ، وتحقيق رغباتهم المكنونة ، وكشف كربات الأعداء والبعداء ومشاركة البعيد والقريب فى أحزانهم ، ونوائبهم ، يتألم بألمهم ، ويفرح بفرحهم ، ملجأ الفقراء ، ومأوى الضعفاء وولى الأيتام ، ومربى العبيد والأرقاء ، يصفح عن الأخطاء ويحسن إلى من أساء ، ويصلح ما أفسده الناس ، يوحد القبائل المتناحرة ، ويؤلف بين القلوب المتنافرة . نزل فى غار حراء وفى يده إكسير من السماء وحول التراب تبرا ، والحصى درا وجوهرا ، أقبل إلى الأمة العربية التى كان يخيم عليها الجهل من قرون ، فأحدث فيها ثورة جذرية ، انقلبت بها أوضاعها وتغير بها مجرى التاريخ ، فقد ظل هذا المعدن الكريم مطمورا مغمورا فى التراب ، وتحت ركام الجاهلية لا يعلم أحد قيمته وغناءه . وقد أصبح ما طبعه الله عليه من أوصاف وفضائل ، ضائعاً عاطلاً ، فما وقع نظره على ذلك ، وما هبت عليه نفحة من نفحات بعثته حتى تلألأ نورا وصفاء ، وأصبح ذهباً خالصاً ، إن الحجر الذى رفضه كل بناء ، وزهد فيه كل معمار ، تناوله بيده الكريمة وجعله حجر الزاوية .

لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره ، وشرق وغرب رعدها وبرقها ، فبينما رعدت على نهر « تاجه » فى إسبانيا ، أمطرت على نهر « الكنج » فى شبه القارة الهندية . لقد أحيا غيثها مزرعة الإنسانية القاحلة ، وعم برها البر والبحر فما ترى فى العالم من رواء وبهاء ، ونور وسناء ، إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمدية .

وتبعه الشاعر الكبير « ظفر على خان »

الذى أحدثت مدائحه النبوية دويا فى الأوســاط الإسلامية والأدبية ، ولاحظ ضيق الوقت وتأدب مع الأساتذة الكبار فاقتصر على أبيات من قصيدته السائرة التى يفتتح بها كثير من الثانويات الإسلامية . حفلاتها ودراستها ، وقد امتازت هذه الأبيات بجمال البحر والوزن ، وحسن النغمة واللحن ، وكان مما جــاء فى هذه الأبيات :

« إن السراج المنير الذى ظل سنين طوالاً يتلألأ فى الخلوات ، وفى بيئة ضيقة محدودة ، لقد سبق علم الله أن تستنير به مجالس الملوك والعلماء وتقتبس نوره وتمشى فى ضوئه قوافل العلم والحضارة ، إنه سر الوجود ، ولولا دينه ورسالته ولولا نبوته ، وبعثته ، لما أخذت الأرض زخرفها ، ولما أكملت السماوات زينتها » .

« إن اللغزة التى عجز عن فكها النوابغ والأذكياء ، وأخفق فى شرحها الفلاسفة والحكماء ، أفشى سرها ، ورفع اللثام عن وجهها ، أمى كان يرتدى نمرة ، فى لفظ وجيز ، وفى إشارات لطيفة . ليس الإيمان بضاعة رخيصة ، ولا سلعة معروضة فى دكان الفلسفة ، إنه عقل نفيس ، يبحث عنه الباحثون العقلاء فيجدونه فى أجزاء القرآن ، إن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا أشعة شمس واحدة ، إنها حلقة مفرغة لا يعلم طرفاها »

واتجهت الأبصار نحو الشاعر « إقبال أحمد سهيل » . الذى عرف بمدائحه المشهورة ، وقصائده السائرة ، واقترح عليه الحاضرون ، أن ينشد قصيدته المشهورة — (موج كوثر) فقدم بعض أشعاره ومختاراته التى جاء فيها :

« غرة ناصية البشرية ، ونور جبين الإنسانية ، النبى الذى بدد ظلمات الكفر ونثر درر الإيمان ، ورفرف راية التوحيد ، حارس حديقة البشرية ، وروضة الإنسانية ألغى عادة الرق ، وحطم سلاسل العبودية والذل ، أعاد إلى الروضة رواءها وأفاض عليها خيرها وبركتها ، كانت أسرة البشرية متفرقة ، فجمعها على مائدة واحدة ، وكانت لآلى الحق والإيمان منتشرة ضائعة ، فربطها فى سلك واحد .

قضى على أوهام الجاهلية ، وخرافات الوثنية ، وأتاح للإنسان أن يتصل بالخالق الأحد الصمد ، صب على من عاداه وآذاه رشحات حبه وعفوه ، وشمله برعاية عطفه وحنانه ، جمع بين سلطان الفقر والغنى ، والجسد والروح ، والدين والدنيا « ﷺ »

وتقدم بعده صاحب الملحمة الإسلامية المشهورة « حفيظ الجالندهرى » فأنشد أبياتا

من ملحمته المشهورة ، وقد جاء فيها بعض الحقائق التاريخية فى لفظ رشيق ، وأسلوب أدبى ساحر ، منها قوله :

« إنه رد إلى الإنسانية كرامتها واعتبارها ، وإلى أفراد النوع الإنسانى حقهم فى الحياة ، ونكس الباطل ، وقلب عروش الملوك الجبابرة ، رفع رأس كل إنسان صابر ، وشرف قدر الأجير ، وأهان المترى المستأثر ، لقد كان الفقر فخره ، ولكن كانت سطوة كسرى وقيصر تحت قدمه . إنه كسر سلاسل الظلم والباطل النارية التى يصعب كسرها ، وجبر القلوب المنكسرة المتهافتة التى يصعب جبرها ، فصلوات الله عليك يامن كان كسره معجزة وجبره معجزة » .

وما أن وقف الشاعر ، حتى رنت العيون إلى « ماهر القادرى » وطلب الحاضرون من الشاعر أن ينشد فى هذه المناسبة الكريمة قصيدته التى صور فيها النعمة العظيمة التى فازت بها الإنسانية . عن طريق هذا « النبى العظيم » والذى لا يمثل إلا الواقع ، ولا يعبر إلا عن المشاهد الحية التى مرت على مسرح العالم فتقدم وأنشد ما طاب له من أبيات رائعة عن مبعث النبى ﷺ .

« هبت نفحات الرحمة ، وتحققت أحلام البشرية ، وسقيت الأرض المجدبة القاحلة بوابل من جوده وكرمه وأخلاقه ، فأضاء رعاة الإبل شموع الحضارة ، وجعل الأشواك أزهارا ، وذرات الصحراء كواكب ونجوما » .

« أقام الصلة بالرب ، وفك طلاسم الباطل ، وغير مجرى التاريخ وأنزل السفينة على بر الأمان والسلامة والإيمان ، رغم أمواج هائلة ، ورياح عاتية ، منح الإنسانية سيفا وصحفا . ودنيا وآخرة ، وجعل الموت شهادة ، وعلم آداب الحياة » .

« نصر المظلومين وأغاث الملهوفين ، كان بلسما للجروح وشفاء للصدور . أضفى على المرأة رداء الحياة ، ورقة الزجاج ، وأضاء جوهر السيرة والأخلاق ، فلم يقف سيل التوحيد ولم تنتكس راية الإسلام رغم غيظ الكفار والمشركين ، ومقت الشياطين ، فما أن تردد اسمه الحلو الحبيب على اللسان ، حتى تجاوبت الشفاه والعيون معا ، هذه بالدموع الفائضة وتلك بالبسمة العريضة ، وذلك شأن المحب الهائم إذا تذكر حبيبه الذى بلغ المنتهى فى الحسن والإحسان » .

وجاءت نوبة (محمد إقبال) فارتفعت رؤوس الناس واشرأبت أعناقهم ، وغمرت

المجلس موجة من الاهتزاز والتطلع فقام المضيف الكريم وقد شعر بأن المجلس قد طال . فقال : حسبكم أيها السادة ما سمعتموه وتذوقتموه ، وإن لشاعرنا الكبير مجلسا خاصا ، وحديثا خاصا ، لا يشاركه فيه أحد ، ووافق الجميع وقاموا ، وألسنتهم تلهج بالشكر ووجوههم تفيض بالبشر .

أبو الحسن الندوى

« الوصايا النبوية »

قال النبى ﷺ : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطق ذكرا ، ونظرى عبرا » .

صدق الله العظيم

إلى أين يتجه الإسلام والمسلمون ؟

المرحلة الرابعة عهد الاستقلال

العلامة / أبو الأعلى المودودى

٣

وقد انتهت المرحلة الثالثة إلى ما ألمحنا إليه من الأوضاع وها نحن دخلنا اليوم المرحلة الرابعة من تاريخنا . وهى المرحلة التى قد نالت فيها جميع البلاد الإسلامية الاستقلال فى فترات متباعدات .

المأساة الحديثة :

والذى تعيشه المرحلة الرابعة من أوضاع هى : أنه يتولى فى كل بلد وفى كل قطر أزمّة الحكم وشئون الحياة الاقتصادية رجال يخلون من الوعى الإسلامى والتفهم الصحيح للدين . بل ينظرون إلى تقاليد المسلمين المتوارثة بنظرة الازدراء والاستحقار ، ويعتقدون أنهم إذا اتبعوا الحياة الإسلامية ، وتمسكوا بأهداب القيم والمبادئ الإسلامية تصيبهم الذلة والمهانة فى الدنيا ، ويسقطون من عيون الدنيا ولا تقوم لهم فيها قائمة ، ويحرمون من التقدم والنهضة التى تصبو إليهما أنفسهم . وأنهم إذا أرادوا اللحاق بالركب الحضارى فلن يكون ذلك البتة بدون أن يعتنقوا الأفكار والمبادئ الغربية ويتبعوها بنصها ويقلدوها بحذافيرها .

ووجهات النظر هذه ليست عفوية قائمة على المجازفة والاعتباط بل هى وجهات مدروسة نشأ القوم عليها وترعرعوا فيها . وهم الذين اختيروا ليحتلوا مكانة الصدارة فى جميع المجالات الحيوية ، ومازالوا هم مصدر التوجيه والإرشاد فى كل شعبة من شعب الحياة وفى كل قطر من الأقطار الإسلامية بصورة عامة .

وهل هناك من شئ أغرب من أن تضطرم معركة التحرير باسم الإسلام ويضرب المسلمون ، باسم الإسلام الرقم القياسى فى تسجيل البطولات ، ثم إذا تحقق لهم ما أرادوا يعود الإسلام أول

ضحية من ضحايا قيدتهم : يتنكرون له ويلفظونه لفظ النواة . . الإسلام الذى باسمه وببركته وبقوته تحقق اندحار القوى وانتصار الضعيف هل هناك من موقف أغرب من هذا ؟

وها أمامكم الجزائر أحدث مثال لذلك . وسبق أن قلت أن الجزائريين لم يظفروا بحسناء الاستقلال إلا بعد أن ضحوا فى سبيله بأرواح الآلاف المؤلفة من البشر وبعد أن تقدموا بالقرابين المدهشة من براءة الصغير وطراوة الشاب وكهولة الشيخ : ونعومة المرأة تشهد بذلك وديان الجزائر وجبالها ومدنها ودساكرها . ومن يخطب الحسناء يعطى مهرها . ثم إذا رفرفت على البلاد أعلام الاستقلال فإن أول ما بشر به المسلمون فيها : ان الجزائر ستكون « الجمهورية الاشتراكية » . ونفس المسرحية أقيمت فى تركيا وفى باكستان وفى تونس وفى مصر ودلونى على بلد إسلامى لم تلعب فيه هذه المهزلة دورها المشؤوم . وأضرب لكم مثالا ثانيا من تونس : تعالت فيها صرخات تحرير الوطن باسم الإسلام . وسارع المسلمون لبذل أرواحهم وأموالهم إلى ساحة الجهاد فى سبيل الله . ولما نالت تونس الاستقلال فى آخر الأمر على جماجم الشهداء وأشلائهم يأتى زعيمها يطلع الدنيا على أن الصيام فى شهر رمضان بسبب انخفاضا فى الإنتاج كأن الأمر الذى يلقيه الشيوعيون فى روسيا فى روع المسلمين فيها أصبح السيد بورقيبة أيضا يردده وينسج على منوالهم ويأمر الذين يشتغلون فى حقول الإنتاج أن لا يصوموا شهر رمضان كيلا تتناقص نسبة الإنتاج . ومن الظاهر أن الذين كبرت بهم السن لا يطيقون الصيام . فهم معذورون بحكم الشريعة . وأما الشباب فما داموا يعملون لزيادة الإنتاج فى مصانع (بورقيبة) فلا صوم عليهم فى شريعة بورقيبة . إذن على الركن الثانى من أركان الإسلام الخمسة السلام .

هذا النوع من الرجال يشكلون طبقة مستقلة بذاتها بيدها صلاحيات النقض والإبرام ومقاليد الحكم . وهناك طبقة أخرى توصف بالطبقة الدينية . وهذه الطبقة حقا أنها تضطلع بأحكام الدين ، وتعلم ما أمر الله به وما نهى عنه ، وتدرك ماهى الحضارة الإسلامية . إلا أن هذه الطبقة لم تتمكن من الحصول على الثقافة العصرية التى تجعلها موضع ثقة المسلمين فيما إذا كانوا قد انتزعوا أزمَّة الحكم والتوجيه من أيدى الطبقة الأولى الحاكمة وحولوها إلى الطبقة الأخيرة لتبرهن على جدارتها فى تسيير دفة الدولة والقيام بالدور القيادى على

أفضل منهج وأكمل وجه . وحقاً أن الطبقة الثانية أقرب الطبقات إلى أحاسيس المسلمين وأكثرها التحاما مع مشاعرهم الدينية وأن المسلمين يضعون فيها ثقتهم فيما إذا ولوها الحكم لا تخرب دينهم ، ولا تحطم تقاليدهم ولا تسلط عليهم أنظمة الكفر والفسوق ولكنهم لا يتوقعون منها أن تستعمل دهاءها وقدرتها فى تسيير شئون الدولة العصرية على وجهها الصحيح – أو تثبت كفاءتها فى قيادة الشعب فى العواصف العاتية من الحضارة الغربية ، أو تستطيع تنظيم شئون القضاء والاقتصاد والداخلية والخارجية وما إلى ذلك بموجب مقتضى العصر إن هذه الأمور لا يرى المسلمون – ورأيهم قائم على الحجة والمنطق – أن تنتظم بصورة مرضية على أيدى الطبقة الثانية .

العقدة الرئيسية :

إن عامة المسلمين يقفون حيارى مشدوهين أمام هاتين الطبقتين . وصحيح قد يسودهم الجهل ، وربما فسدت عاداتهم وتفككت أخلاقهم . ولكننا ، كما ألمحنا إليه سابقا ، إن القوة الهائلة التى كانت تملكها الحركة الإسلامية الأولى لم يستطع أحد محو أثارها الخالدة من كيان الأمة الإسلامية ، ولأجل ذلك فإن أى فرد من عامة المسلمين مهما بلغ من الفساد قمته إذا سألته عما إذا كان الخمر حلالا أم حراما لا يقول أبداً بأنه حلال . وكذلك إذا استوضحت رأيه عن الزنى أو عن القمار : هل هما حلال فى الإسلام أم حرام فلن يقول بحلها . سله عن جميع المنكرات والسيئات تجده يستقبحها . لماذا ؟ . . لأن القيم الإسلامية التى يؤمن بها ما تبدلت لديه إلى هذه الدرجة ، ولا يزال ينظر إليها نظرة الإجلال والتقديس ، ويشعر بسموها وجلالتها على رغم ما طرأ على عاداته وسلوكه من التفسخ والفساد ، لأن هذه القيم غذى بها من لبان أمه ، وتجرى فى نفسه مجرى الدم . وكذلك إذا سألت أحدا من المسلمين عما إذا كان من مظاهر الحضارة الإسلامية أن ترقص فتاة شبه عارية على المسرح ؟ يأبى ذلك بدون ما تأمل ، بل لن يخطر بباله كون هذا النشاط يمت إلى الإسلام بصلة . وحقا أنه يجهل الإسلام ، وحقا أنه لا يفهم القرآن ، وحقا أنه لا يلم بما فى كتب السنة ولكن كيف للتصورات التى توارثها كابرا عن كابر عن الحضارة الإسلامية أن تندثر من مخيلته وتروح من سليقته ؟ بل هو على رغم قلة معرفته بالإسلام يستعرض كل ما يتعرض له من الأوضاع والقضايا فى ضوء تقاليده وقيمه الإسلامية ولا يقرر رأيا إلا فى حدود

إطارهما . وكل مسلم من عامة المسلمين يكون فى ذهنه تصور إجمالى عن الإسلام ونظامه ومقتضياته ولك أن تجول فى أكناف العالم الإسلامى ، فلن تجد الجمهور من المسلمين إلا على نفس ما أشرت إليه من عواطف وأحاسيس . لا يختلف فى ذلك المسلمون فى باكستان عن المسلمين فى تركيا ، ولا مسلمو إيران عن مسلمى مصر ، ولا مسلمو الجزائر عن مسلمى شقيقاتها ، حيثما رأيتهم لا يؤمنون إلا بنفس القيم الإسلامية ولا يجلّون إلا إياها ولا يحنون إلا إليها . وليس فى مقدور أحد أن يقنعهم بأن « القيم الإسلامية » هى تلك التى جاءتنا من الغرب ووجدنا عليها سادتنا الغربيين . .

والأمر الثانى أن المسلم العادى وإن كان لا يعلم عن الإسلام إلا علما مبسطا إلا أنه يحبه حب الولهان . وأنك لشاهد بعينك فى التاريخ الحاضر كيف استحثه قادته باسم الإسلام خلال الحروب التحريرية ، ثم كيف كتب صفحات ذهبية من بذل النفس والنفيس . ولا يمكن استثارته إلا باسم الإسلام ، ولا يمكن أن يرحب بالموت ويقارعه إلا بعد أن يتأكد من أنه ينال بذلك الشهادة فى سبيل الله ، ويكرمه الله تعالى بجنته . وإذا أعوزه هذا المستوى من اليقين والقناعة فلا تجد أحدا من الناس أجبن منه فى مواجهة الموت ، ولا تنتظر منه أبدا أن يريق دمه ، أو يقدم على ذات الشوكة ، أو يسلك طريقا محفوفا بالمكاره .

هذا ما عليه المسلم العادى . ولكن الويل كل الويل فى الطبقة التى تملك أزمَّة التوجيه والحكم فى معظم الأقطار الإسلامية . هذه الطبقة لاتزال تحاول دفع قطار الحياة القومية إلى جهة تعاكس جهة الإسلام ، وتخالف آمال الأمة وأحلامها وعواطفها وأحاسيسها . وهى حينا تنادى باللادينية علنا وعلى رؤوس الاشهاد كما شوهد فى تركيا الكمالية ، وحينا آخر تستغل الإسلام لتحقيق مطامعها وتتستر وراءه ولكن بعد تشويه حقيقته ومسخ ديباجته : كأن تحتضن الحضارة الغربية بما تحويه من شرور وآلام ثم تغلفها بغلاف الإسلام . هذا ما نشاهده اليوم فى كل بلد يضج بالشعارات المستوردة والمبادىء الهدامة التى تبعد عن الإسلام بعد السماء عن الأرض . ولكن عامة المسلمين ليسوا على هذه الدرجة من الحمق والبلاهة حتى يسلموا بهذا الزيف . وهذه الكارثة لا تخص باكستان بل تعم أرجاء العالم الإسلامى . إذ فى كل ناحية من نواحيه تتكرر هذه الطبقة وتتشابه قلوبها وتتجانس معالمها وتتوحد نوازعها . هذه

الطبقة انهزمت أمام الغرب ، وتتربع على كرسى الحكم فى بلادنا ، وتملك مقاليد حياتنا الاقتصادية وترغم الأمة الإسلامية قسرا على اتباع النظام الغربى للحياة . بينما الأمة تأبى هذا التحويل وترفض هذا الطريق المنحرف .

وفى الواقع أننا لا نستطيع أن نتصور : كم استخدم من الوسائل الجهنمية لجعل المسلمين غير مسلمين فى تركيا وروسيا . إذ أن فى تركيا وحدها قد أريقت فيها دماء الآلاف من المسلمين لا ذنب لهم إلا أنهم عارضوا استبدال القبعة بالطربوش كأن هذا الأمر أيضا من الإصلاحات الجذرية التى ما كانت لتتم إلا به ومن الطريف فى الأمر أن قادة الإصلاح المزعومين لما لم يجدوا الكمية الوافرة من القبعات الأوربية استوردوا من أوربا أكواما من القبعات المعدمة لاستيفاء حاجة الشعب التركى إلى القبعات وكان هذا الإصلاح من الأهمية بمكان فى نظر القادة حتى لجأوا لتطبيقه إلى وسائل الحديد والنار وإلى إعلان الحكم العرفى فى البلاد . ولكن مع كل ذلك ظل الأتراك على نفس ما كانوا عليه من حبهم للإسلام ومن تحمسهم له . لم يطرأ عليه أى شئ من التغيير والتحوير . إذن من الواضح جليا أن هذه الطبقة لا تستطيع أن تحول — الشعب الإسلامى عن الإسلام ، ولا تستطيع أن تسوغ له الكفر مهما أقامت الدنيا وأقعدتها .

الصراع الحديث :

أما الحالة الراهنة التى نحن عليها اليوم فخلاصتها أن الحكومات تأبى أن تتبع النهج الذى تريده الأمة الإسلامية ، والأمة ترفض أن تتبع الوجهة التى تتجه إليها الحكومات . فهناك صراع مستمر عنيف بين الشعوب والحكومات فى جميع البلدان الإسلامية . وهذه الحالة تمثل : « الإسلام المعاصر » تبذل الجهود الجبارة ويستنفد آخر ما فى الجعبة من السهم فى جعل المسلمين غير مسلمين وتجند لذلك جميع الوسائل والإمكانيات . ويستخدم لذلك مجال التعليم والتربية بصفة خاصة ؟ فتوضع مناهج من شأنها أن تقضى على جميع ما يوجد فى المسلمين من القيم الإسلامية ، وتفسد اخلاقهم وأذواقهم ، وتبعدهم عما توارثوه من التقاليد كما تشجع فيهم ثقافة تدمر كل شئ من البقايا الخلقية ، وتروج فيها العلوم الغربية لتثير فيهم الشبهات حول الإسلام . ولا ينتهى هذا الأمر إلا أن يطرأ الضعف والوهن والخور والانحلال على سلوك المسلمين ويصبحوا قوما فاقدى

الشخصية وهذا ليس من المستحيل . وإنما المستحيل أن ينسلخوا عن الإسلام عمدا ويكونوا لهم دولة لا دينية عن طواعية أنفسهم .

والذى تقاسيه البلدان الإسلامية من وخيم العواقب من هذا الصراع ، حسبك لمعرفة أبعاده أن تنظر فى نسبة الأرقام التى حققتها هذه البلدان فى مجال النهضة . هل تنظر أى مجال من مجالات الحياة حصل فيها التقدم . وهاك تركيا التى تعيش كدولة مستقلة ذات كيان وسيادة من عام ١٩٢٤م ، إلى أى مدى أنعشت فيها الصناعة ؟ وكم جاوزت من الأشواط فى باب التجارة ؟ بينما اليابان التى من لدات تركيا فى الاستقلال قد بلغت من النهضة المادية شأوها البعيد . والسبب فى ذلك ليس خافيا على أولى الألباب . إن تركيا تنكبت الصراط السوى ، وتحولت إلى حلبة الصراع الداخلى : حاولت الحكومات المتعاقبة إظهار الشعب التركى فى مظهر الشعب غير المسلم ، وأبى الشعب التركى أن يتحول شعبا غير مسلم ، بل يود أن يولى وجهه شطر الإسلام . مما أثار بين الحكومة والشعب صراعا مستمرا مستعرا فكيف لتركيا بعد ذلك أن تخطونحو الأمام وتحرز التقدم المادى .

وبلغ الأمر ذروته فى الفترة الأخيرة حين تسرب التصدع إلى الجيش أيضاً فأقصى منه حتى اليوم ستة آلاف ضابط . والذى يقال عن تركيا يقال عن البلدان الإسلامية الأخرى .

وتأكدوا ، أيها الأخوان . . أنه حيثما يحدث التعارض بل التناحر بين ضمير الشعب وسياسة الحكومة ، ينشب الركود أظفاره ولا يدع الشعب يتخطى نحو الأمام ولا شبرا واحدا ولا تأخذ حوافز التقدم سبيلها إليه . ولا يمكن لأية حكومة أن توفر لنفسها القوة والمنعة إلا إذا حصل التناسق والتلاحم بين ضمير الشعب وسياسة الحكومة بحيث أن كل ما تضع الحكومة من سياسة تباركها أحاسيس الشعب ومشاعره وإذا وضعت هذه السياسة موضع التنفيذ يستميت الشعب فى إنجاحها . هذا هو الطريق الوحيد لجعل الشعب شعبا ناهضا متطلعا أما إذا ظل الأمر عكس ذلك . وظل الشعب فى واد ، والحكومة فى واد ، فلا يتأتى له أى تقدم للأبد ولنفترض أن الشعب على رغم محاربة الحكومة لرغباته ، لا يعلن الخروج عليها ولكن عدم مناصرة الشعب للحكومة ومساندته إياها يكفى لسوق البلاد إلى الدمار المحقق ، إذن أن عدم ارتياح الشعب لحكومته هو أمر خطير ووضع رهيب فى حد ذاته .

وأصرار هؤلاء القوم على هذا الإتجاه المعاكس ليس مبعثه غير أنانيتهم وأثرتهم واتباعهم لسلطان الأهواء مع أنهم لا يجهلون ما يريد شعبهم ، كما أن تجاربهم الماضية خير شاهد على أن هذا الشعب لم ينتفض ولم يسجل دوره البطولى فى المعارك التحريرية إلا باسم الإسلام . وأن انتفاضته المنبثقة من الإسلام قد أوصلتهم إلى شاطئ الحرية وإلى منصة الحكم . ولذلك فإن هؤلاء الناس لا يجهلون أبدا صلة شعبهم الوثيقة بالإسلام . وبما أنهم ربطوا مصيرهم ومصير أولادهم بالغرب وحضارته وسرابه وانغمسوا فى الحضارة الغربية وطبعوا عاداتهم وأذواقهم بطابعها ، ولا يريدون اتباع طريق الإسلام . وتحول أنانيتهم دون أى عمل إسلامى . والمنطق الذى – يستندون إليه فى ذلك هو : « أنهم هم الذين كتب لهم أن يحكموا شعوبهم البائسة التعيسة على كل حال ، ولا يروقهم الإسلام : دين هذه الشعوب . إذن على الشعوب أن تتخلى عن دينها الإسلام » .

هذه هى القاعدة الكلية التى اتخذوها أساسا لجميع نشاطاتهم واتجاهاتهم .

هذا هو « الإسلام اليوم » والآن أوجز لكم القول عما ينبغى أن يكون عليه الإسلام فى المستقبل » .

مستقبل العالم الإسلامى :

إن مستقبل العالم الإسلامى يتوقف على ما سيختاره العالم الإسلامى من السلوك نحو الإسلام . أما إذا استمر العالم الإسلامى فيما هو عليه اليوم من موقف مبنى على النفاق والتمويه والازدواج ، وواصل سلوكه المعادى للإسلام أخشى أن لا تتمكن الشعوب الإسلامية من المحافظة على استقلالها وصونه من الضياع ، بل ستنكب – ولا سمح الله – بأغلال الاستعباد ثانيا وتصير إلى حالة أسوأ مما عاشت فيما سبق من عهد الاستعباد ، نعم ، إذا عاد إلى القادة الذين يملكون أزمة الحكم فى العالم الإسلامى رشدهم قبل فوات الأوان ، وعملوا لاستعادة الحياة الديمقراطية النزيهة فيه ، ورجع أمر انتخاب أهل الحكم إلى الجماهير لتنتخب من تشاء وتلقى مقاليد الحكم إلى من تحب بإرادتها الحرة ، ووضعت أنظمة السياسة والاقتصاد والتعليم منسجمة مع مبادئ الإسلام وأهدافه وحضارته فإنى على يقين من أن الشعوب الإسلامية سرعان ما تتحول إلى قوة كبيرة فى العالم بل تملك ميزان القوة فى المجالات الأممية ، وتكون لها الكلمة الحاسمة . إن وجود كتلة الشعوب الإسلامية

ليس بأمر يستهان به ، إن الكتلة التى تتسع أطرافها من اندونيسيا شرقا إلى المغرب الأقصى غربا وتملك من الوسائل والإمكانيات مالا حصر له ، وتتمتع بالقدر الهائل من الطاقات العددية .

إذا انتفضت هذه الكتلة تتبع مبادئ الإسلام وتتضامن على أسسه فهل لقوة فى الدنيا غربية كانت أم شرقية أن تصمد فى وجهها ؟

مدى قابلية الإسلام لقيادة العصر الحاضر :

وأتناول الآن السؤال الثانى الذى أثرته فى مفتتح الحديث وارد عليه بكلمات موجزة وهذا السؤال هو : هل بإمكان الإسلام أن يسود الدنيا فى هذا العصر أم لا ؟ وهل من المحتمل أن ترجع إليه الأمم العالمية ؟ وإذا ترجح احتمال رجوعها إليه فكيف يكون ذلك ؟ وهل الإسلام قابل للتطبيق فى العصر الحديث ؟ — هذه هى عدة نواحى من السؤال الذى يكثر عنه الحديث فى هذه الأيام .

وأقول : لم يعلن الدهر من تلقاء نفسه فى أى عصر من عصور التاريخ بأنه مستعد للاستمساك بالإسلام . وأكبر برهان على ذلك هو عصر النبى ﷺ نفسه فانه لما أعلن ﷺ دعوته فى المجتمع العربى الجاهلى قام مستجيبا لدعوته ملبيا لندائه قائلا : « رضيت بك ، يا محمد ، رسولا وبالله ربا » . بل الأمر يقتصر على قوة الداعية وصموده وبسالته وإبائه ، الذى يقول للدهر : أيها الدهر إذا لم تبتغ السير معى طائعا فأنا أرغمك على السير معى » . . . .

أين الشيوعية من الإسلام . بينهما ما بين الأرض والسماء . إلا أنى أقول لكم ، على سبيل المناقشة . أنظروا إلى الانتصارات التى حققتها الشيوعية بينما الإسلام ، لا يريد انقلابا متطرفا يقلب الأمر من الأساس كما فعلت الشيوعية التى حاربت الفطرة البشرية ، فألغت الملكية الفردية نهائيا ، وجعلت الحكومة تسيطر على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم واستجمعت الثروة القومية برمتها فى يد واحدة . هذه الثورة إنما هى تطرف وهدم وتدمير يتحاشاه الإسلام ويقلب وجهها معكوسا . إن الإسلام دعوة تتجاوب مع فطرة الإنسان الذى يتوخى البناء والإصلاح . وكل دعوة إذا لم تجد العزائم الماضية والجهود المضنية والنيات الحسنة تبوء بالفشل . وقد نجحت دعوة الإسلام لما قام جماعة من الناس يعقدون العزائم على تغليبها فكان لهم ما أرادوا وأصبح الدهر ينساق وراءهم .

وكذلك السؤال عن قابلية الإسلام للتطبيق اليوم فهو من لغو القول لأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، أثبت قابليته فى الماضى ، ويحظى بنفس القابلية اليوم ، وسيظل كذلك إلى أبد الدهر ، وإنما الأمر يتوقف على وجود شعب فى الدنيا ينهض للأخذ به كاملا غير منقوص . وكما قلت فى مطلع الحديث إن تاريخنا ابتدأ باستعداد الأمة العربية لأن تقيم بناء نظامها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والحضارى على دعائم الإسلام وأن تصهر حياة الناس الفردية وأوضاعهم الجماعية فى قالب الإسلام . فآلت هذه الأمة على نفسها أن تخرج إلى الدنيا رافعة للواء الإسلام مبلغة دعوته فى أقاصى العالم ، ولا تحيا إلا لأجله ولا تموت إلا فى سبيله .

ولما تهيأت فى الدنيا أمة كهذه رأيتم كيف تفجرت بطاقاتها وحيويتها وأصالتها على العالم انفجار القنبلة ، وكيف رسمت على وجه المعمورة آثارها التى لاتزال خالدة باقية حتى اليوم . نعم ، إذا خرجت اليوم أمة بهذه السمات تأخذ بالإسلام ، وتسير وفقه نظام حياتها ، وتجعل حياتها ومماتها لله رب العالمين فليس من المستبعد أن تجد الدنيا نفسها مستعدة للاستمساك بالإسلام والاستظلال بظله الوارف والاستنارة بهديه الكريم . وليس من المعقول أن يرى الناس الإسلام متمثلا نابضا فى الواقع البشرى ثم يتلعثمون فى قبوله . غير أنكم إذا ما اقتصرتم على نشر الإسلام بالمواعظ والكتب والمحاضرات فمهما انهمكتم فى هذا « العمل الشريف » إلى قيام الساعة لا تكاد الدنيا تقتنع بقابلية الإسلام وصلاحه لقيادة الحياة الإنسانية العملية .

وفى الختام أريد أن أعرب لكم عما فى نفسى من أمل . بما أن الله تعالى خلقنى فى هذا الشعب أى الشعب الباكستانى المسلم لذلك أود أن يكون هذا الشعب هو الشعب المنتظر الذى يعيد إلى الإسلام مجده وبهاءه . وإذا كانت لى سياسة فهذا الأمل منطلقها وإذا كان لى دين فهذا مطلبه . إن جميع مجهوداتى تتركز على أن شعبى الذى خلقنى الله فيه وجعلنى أحد أفراده ، يشعر بمسئوليته نحو الإسلام ، ويرفع لواءه ، ويتمثل الإسلام فى واقعه الحى الملموس .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . . .

أبو الأعلى المودودى

الهجْرة النبوية فى ضوء جَديد

الأستاذ / أحمد حسين

هذا مقال أكتبه فى مطلع السنة الهجرية الجديدة ولست أعرف متى ينشر ، ولكنه على أية حال ليس من مقالات المناسبات ، ولكنه بحث يشتمل على رؤيا جديدة ، وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو أول من قدر البعد الحقيق لحادث الهجرة وأنه بدأ انتصار الإسلام ، فجعله نقطة الابتداء فى التاريخ الإسلامى وكان من بين ما عرض عليه من اقتراحات ، أن يكون يوم ميلاد النبى صلوات الله عليه هو بدأ التاريخ الإسلامى . وقيل بل فليكن يوم مبعثه ، وقيل بل يوم وفاته ، وقد تصور البعض ، أن اليومين الأولين (الميلاد والبعثة) غير محققين بالضبط ، فلم يكن لرسول الله ﷺ من الشأن فى صفوف قريش ، ما يجعلهم يحددون بدقة هذين اليومين ، وعندنا أن تحديد عام الميلاد سهل وميسور ، فقد روى عن رسول الله قوله « ولدت عام الفيل » وهو صاحب الحادثة المشهورة ، عندما أراد أبرهة الحبشى أن يهدم الكعبة ، وكان من بين ما أراد به أن يحقق هذا العمل هو استخدام « فيل » فكان من أمره ما كان . وأبيد الجيش الغازى تقريبا . وكان بطل اليوم هو عبد المطلب جد سيدنا محمد ، ونحن ما كنا لنشير لهذه الواقعة ، لمجرد ورودها فى كتب السيرة ، بل لقد ذكرها القرآن فى سورة الفيل : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ● ألم يجعل كيدهم فى تضليل ● » إلى آخر السورة . فحادث الفيل حادث جسيم هز قريشا ، بل هز جزيرة العرب كلها ، وكان إرهاصا بما سيكون لمكة من خطر فى حياة البشر المادية والروحية إلى أبد الآبدين فعندما يقول رسول الله ﷺ : ولدت عام الفيل ، وعندما تؤرخ قريش بعام الفيل ، فقد كان من المستطاع بطبيعة الحال أن يكون مولد النبى صلوات الله عليه وسلامه ، وهو بدأ للتاريخ الإسلامى . وإذا كان يوم وفاته ﷺ هو يوم حزين فى تاريخ الإسلام طاش فيه عقل الكثيرين من الصحابة بما فيهم عمر بن الخطاب ، فهو على كل حال

لا يصلح ليكون بداية للتاريخ الإسلامى الذى كان قد بدأ بالفعل ، بل وانتصر ودانت له الجزيرة العربية كلها (لأول مرة ولآخر مرة فى تاريخها) بل إن وفاة سيدنا محمد ﷺ ، كانت ذروة نجاح التعاليم الإسلامية وتحرر العقل البشرى نهائيا من الشرك بالله ، حيث خرج أبو بكر الصديق وهو من هو فى محبة رسول الله والإيمان به ، خرج ليعلن للناس وفاة رسول الله ، فقال : « يا أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله . فإن الله حى لا يموت » ولست أحسب أن هناك لتعاليم الإسلام ، أعظم من ذلك فالرسول لم يغادر الدنيا ويلحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل رسالته ، فالقول بأن التاريخ الإسلامى يبدأ بيوم وفاة رسول الله هو قول يجافى الواقع .

فلم يبق سوى يوم البعثة ، ويوم الهجرة فأما يوم البعثة ، فقد كان يوما خاصا خالصا بين سيدنا محمد ﷺ ، وبين ربه ، وقد علمه جبريل بطبيعة الحال ، إذ كان هو الذى نزل بالقرآن ، ورجع سيدنا محمد يرتجف فى حالة من الفزع لزوجته السيدة خديجة . وهو يقول : زملونى زملونى . أو دثرونى . دثرونى . ففى القرآن الكريم إشارة إلى هذه الواقعة . وهو ينادى مرة بياأيها المزمل ، ومرة أخرى بياأيها المدثر ولأمر شاءه الله ، فقد شاء أن تجهل تاريخ هذا الحدث الذى يعتبر بدء للتاريخ الإسلامى بلا جدال أو شبهة ، واكتفى القرآن الكريم ، بتعظيم الليلة التى أنزل فيها :

(« إنا أنزلناه فى ليلة القدر ● وما أدراك ماليلة القدر ● ليلة القدر خير من ألف شهر » وتحدث القرآن فى مناسبة أخرى عن الشهر الذى نزل فيه القرآن : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » . وشاء سيدنا محمد ﷺ ، بتوجيه من الله بطبيعة الحال ، أن يبقى ليلة القدر مجهلة إلى حد ما ، فقال : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان » وهكذا شاء السميع العليم ، أن يبقى يوم مبعث رسول الله ﷺ حيث نزل القرآن فى ليلته ، مجهلا .

يوم الهجرة :

فلم يبق يوم مشهورا ، بل ومحققا بالساعة وبالدقيقة . سوى يوم الهجرة ، فمذ تسامع أهل يثرب بمقدم رسول الله ﷺ . إليهم من مكة ، أصبح الأمر شغلهم الشاغل . لا فرق فى ذلك بين كبير أو صغير . رجلا كان أو امرأة . مسلما كان أو منافقا . أو حتى يهوديا . لقد كان معنى

وصول رسول الله إليهم ، نهاية عهد وبداية عهد جديد ، وقد ضاعف فى قلقهم وتوترهم ، بل وخوفهم على رسول ﷺ ما ترامى إلى سمعهم ، من أن قريشا ، أجمعت على قتله وأنها خرجت فى أثره لتنفيذ هذه الغاية ، ولم يحدث فى تاريخ العرب أن عجزت جماعة قلت أو كثرت عن تعقب إنسان يسافر فوق بعير ، وهم يركبون الخيل ، فلا عجب أن يرقب أهل المدينة وصول سيدنا محمد ساعة بعد ساعة ، بل دقيقة بعد أخرى فيوم وصول سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، هو يوم مشهود بكل المقاييس وليس أدل على خلوده ، من أن التاريخ قد حفظ لنا نشيد هذا اليوم الذى رتله الصغار قبل الكبار والنساء قبل الرجال وأعنى به نشيد :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

فلا جدال أو شبهة فى أن أعظم أيام الإسلام الذى جرى تحت سمع الناس وبصرهم هو يوم هجرة الرسول ، فلا عجب أن جعل منه عمر بن الخطاب مبدأ التاريخ الإسلامى .

الرؤية الجديدة

ولا يوجد شئ جديد فى كل ماسبق . فقد قيل ماهو أكثر منه وأروع لإظهار عظمة يوم الهجرة ، وحسبك أن تعلم أن مكة كانت دولة الشرك والظلم ، أما المدينة ، فقد كانت منذ اللحظة الأولى التى وصل فيها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هى المجتمع الإسلامى ، والدولة الإسلامية الكاملة ، تحت رئاسة سيدنا محمد وزعامته وقيادته ، وهذا ما سجلته كتب السيرة ، ولكن كتب السيرة الأولى ، ظلت تتحدث عن المعارك التى حدثت بعد ذلك بين رسول الله ﷺ ، وبين المشركين ، كما لو كان أمر الإسلام لايزال فى مد وجزر ، فإذا كان المسلمون قد انتصروا فى بدر فقد هزموا فى أحد ، ثم كانت غزوة الخندق الشهيرة ، حيث تجمعت كل العناصر المعادية للإسلام بزعامة قريش ، وتحريض من اليهود ، على استئصال شأفة المسلمين ، وهكذا . وتابع كل من كتب فى السيرة المحمدية هذا التصور بغير تدبر أو تأمل .

وكان من توفيق الله لنا ، أن لم نشرع فى كتابة هذا القسم من السيرة ، إلا بعد أن درسنا القرآن وتصدينا ، لتفسير سوره على صفحات منبر الإسلام ، فلم نر فى القرآن الكريم هذه الصورة التى جاءت فى كتب السيرة ، من أن حظ الإسلام فى المعارك الحربية ، ظل يتأرجح بين النصر والهزيمة متأثرين فى ذلك ، أو بالأحرى منساقين ،

وراء عبارة رددها أبو سفيان بن حرب ، فى غزوة أحد ، حيث قال : « يوم بيوم » أى أن ما جرى فى أحد ، هو فى مقابل ما جرى فى بدر ، وأضاف أن ضرب موعدا من العام المقبل لجولة ثالثة . ولم يكن ذلك كله إلا محض مهاترة من أبى سفيان ، وأن ما حدث فى غزوة أحد هو آية ما كان المسلمون قد وصلوا إليه من عزة ومنعة واستقرار تام وكامل : فقد انتصر المسلمون فى غزوة أحد عند الصدمة الأولى ، وانهزم المشركون بالفعل وبدأ بعض المسلمين يتنازعون على الغنائم ، وهو ما قرره القرآن ، بأوضح وأجلى عبارة :

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . . .الآية) وهذا كما قدمنا نص صريح : فى أن المسلمين قد انتصروا فى المعركة وانتهى الأمر (أراكم ما تحبون) وما يحبه المسلمون هو النصر بطبيعة الحال قال تعالى : (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) .

فإذا كان بعض المسلمين بعد حدوث النصر بالفعل قد انشغلوا بجمع الغنائم تاركين بذلك مواقعهم ، فاستغل خالد بن الوليد هذه الفرصة لكى يباغت القوم المشتغلين بجمع الغنائم ، فأحدث من الارتباك ما أحدث وقتل من قتل ، فلم يكن ذلك إلا أمرا عارضا ، لم يغير من حقيقة الوضع العسكرى ، من أن المشركين ،كانوا قد انهزموا وانتهى الأمر ، وأن قريشا كانت قد بلغت من الضعف والهوان ما يجعلها ، لم تعد نداً للمسلمين وأن غزوة أحد بالذات ، قد أكدت هذه الحقيقة ، ولم تجعلها محل شك ، وليس أدل على ذلك ، من أن أباسفيان لم يكد يقول هذا القول حتى أصدر أوامره بالتراجع السريع ، الذى يشبه أن يكون فرارا إلى مكة ، إلى الحد الذى جعل رسول الله ﷺ يخرج إليهم فى صبيحة اليوم التالى ، ويرفض أن يصحبه إلا من كان معه فى اليوم السابق ، فلا يعثر لهم على أثر .

ولما جاء الموعد الذى ضربه أبو سفيان للتلاقى ، ذهب إليه رسول الله ﷺ بجيشه ، ولم تذهب قريش ، فقد كانت قد أصبحت على ثقة ، أن لا قبل لها بمواجهة المسلمين ، بل إن خالد بن الوليد نفسه ، لم يلبث وهو القائد العسكرى ، أن غادر مكة سراً ولحق بسيدنا محمد ﷺ فى المدينة ، بحيث سنراه على رأس قسم من جيش المسلمين ، الذى دخل إلى مكة فاتحا ، بل إن أبا سفيان نفسه سوف يدعو آل مكة إلى

الترحيب بجيوش المسلمين . على أننا قبل فتح مكة نريد أن نقف بعض الشيء أمام صلح الحديبية ، فما كانت قريش لتبرمه مع سيدنا محمد إلا لأنها كانت قد وصلت إلى حضيض الضعف ، بحيث تعلق كل أملها ورجائها ، فى أن يرجع عنهم المسلمون عامهم هذا فلا يدخلون مكة برغم أنوفهم فى مقابل أن يتركوها لهم فى العام المقبل ، وقبل الرسول ﷺ هذا الحل فقد رأى الثمرة وقد أصبحت دانية القطوف ، فى سلام ووفاق ، فعلام الخصام ، والحرب والقتال وسفك الدماء ، وقد وصف القرآن الكريم ما حدث بوصفه الصحيح فنزلت على رسول الله ﷺ وهو عائد إلى المدينة : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) فليس صحيحا ما يتصوره الكثيرون من أن قوة المسلمين العسكرية ظلت فى خفض ورفع ، ونصر وهزيمة ، حتى فتحت مكة ، وليس أدل على ذلك من أن هذا الجيش الظافر ، الذى لم تشهد له جزيرة العرب مثيلا من قبل ، قد انفرط عقده ، « تحت تأثير المباغتة » فى غزوة حنين : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا . . . الآية) . فالأمر كان قد قضى وتم لصالح المسلمين بمجرد وصول رسول الله إلى المدينة ، وأصبح مشركو قريش هم الجانب الأضعف الذى لا يزيدهم مر الأيام إلا ضعفا ، حيث المسلمون هم الجانب الأقوى الذى يزداد قوة يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد أخرى ، وهو ما قدره مشركو قريش ، مذ استقر عزم رسول الله ﷺ على الهجرة ، فعقدوا عزمهم على وجوب قتل رسول الله للحيلولة بينه وبين مبارحة مكة بأى حال من الأحوال فأصبحت مجرد هجرة الرسول من مكة واستطاعته الوصول إلى المدينة ، هو هزيمة عسكرية من الدرجة الأولى تجعل كلمة سيدنا محمد والمسلمين هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ما قبل الهجرة :

أنا نعلم أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام ، قد أمضى بين ظهرانى قريش فى مكة ثلاث عشرة سنة على أرجح الآراء وقد شهدت قريش ، كيف فشلت كل وسائلها فى إيقاف موجة الإسلام ونموها وتصاعدها على مر الأيام ، بحيث فشل كل ما اصطنعوه من وسائل . بدأت بإظهار عدم الاكتراث والسخرية ، وأرهبت واضطهدت ، وقاطعت ، وعذبت إلى درجة الموت ، ولكن ذلك كله لم يزد سيدنا محمداً ﷺ ، ومن تابعه ، إلا إيمانا وعزما

وإصرارا بلغ إلى حد الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وبعد أن كانت قريش تعزى نفسها ، بأن أكثر من تبعوا سيدنا محمداً على دعوته ، هم من المستضعفين والأرقاء ، فلم يلبثوا أن رأوا بعض أقطابهم يدخلون فى الدين الجديد ، فبعد أن تصوروا أن الأمر قد اقتصر على الرعيل الأول من أمثال أبى بكر وعثمان بن عفان وسعد بن أبى وقاص ، إذا بهم يفاجأون بإسلام حمزة بن عبد المطلب ، ثم إسلام عمر بن الخطاب وغنى عن البيان ، أن من اعتنقوا الإسلام من قريش ، كانوا قد وصلوا إلى درجة من القوة والمنعة يعمل حسابها ، ولم يكن يمنعهم من التصدى لقريش ، إلا كون الرسول لم يأمرهم بالقتال بعد ، وإنما كان يدعوهم إلى الصبر والاحتمال ، وأن لا يردوا على القوة بالقوة :

(ادفع بالتى هى أحسن)

(لكم دينكم ولى دين)

(وأعرض عن الجاهلين)

هذا الموقف من المسلمين ، هو الذى استغله كفار قريش ، فظل الموقف يبدو كما لو كانت قريش الكافرة متفوقة تفوقا ساحقا ، على قريش المؤمنة بعد ثلاثة عشر عاما ، حيث لم يكن الأمر كذلك .

بشائر النصر والغلبة :

وأخيرا شاء الله أن ينهى هذه المرحلة وأن يحقق النصر للإسلام ، فإذا به يقذف بنور الإسلام ، إلى سكان يثرب الذين كانت كثرتهم الغالبة تتألف من الأوس والخزرج ، وهم من أشد من عرفت جزيرة العرب تمرسا فى القتال ، وقد كان ممثلو هاتين القبيلتين ، هم من جاءوا فى موسم الحج يبايعون سيدنا محمداً ويطلبون منه أن يرسل معهم من ينشر الدعوة ويفقههم فى الإسلام ، فلم يحل الحول حتى تضاعف من جاءوا لمبايعة سيدنا محمد ﷺ أكثر من خمسة أضعاف فالإثنا عشر نقيبا فى بيعة العقبة الأولى . قد أصبحوا بعون الله سبعينا (٧٠) فى بيعة العقبة الثانية ، وعلم منهم سيدنا محمد ﷺ أن الإسلام قد تفشى فى يثرب بحيث أصبح فى كل دار وطلبوا من رسول الله أن يهاجر ليصبح القائد والزعيم ، وبايعوا رسول الله على أن يحاربوا معه دفاعا عن شخصه وعقيدته ، كما يحاربون دفاعا عن أنفسهم وأموالهم وأبنائهم ، وبلغ الأمر من جدية الموقف وقوته ، أن جاء العباس « عم النبى » وهو لايزال على دين قومه ، ليستوثق لابن أخيه ، من حقيقة ما هو مقدم عليه : وتم الاتفاق نهائيا على أن

يلحق بهم رسول الله ﷺ ، فلا يكاد يصل إليهم حتى يكونوا جيشا له ضد كل من يعترضه وعلى رأس الكل قريش الكافرة ، أو بالأحرى من ظل منهم على كفره .

أدركت قريش ما يعنيه ذلك كله :

ولم يفت قريشا بطبيعة الحال معنى ذلك كله ، وأنه لو تحقق فسوف تدور عليهم الدائرة ، بلا جدال أو شبهة فقرروا أن يحولوا دون وقوعه بأى ثمن من الأثمان ، فنراهم يخرجون على تقاليدهم ، ومصالحهم التى تحتم عليهم أن لا يغضبوا الأوس والخزرج ، فهم فى طريق قوافلهم نحو الشام ، ضربت قريش بذلك عرض الحائط ، وأسرعت تعدو خلف حجاج يثرب الذين بايعوا سيدنا محمداً ﷺ ، فلم تظفر بهم ، ولكنها أدركت واحدا منهم يبدو أنه كان متخلفا عن بقية الركب فقبضت عليه وعادت به إلى مكة وهى تضربه وتَهْبَنَهْ وأوشكت أن تفتك به لولا أن أجاره أحد زعماء قريش ، فخلوا سبيله طبقا للتقليد الذى كان متبعا .

وهاجر المسلمون :

وبدأ المسلمون الأقوياء الأشداء ممن أثبتوا على مر السنين قوة شكيمتهم وعزمهم وصبرهم ، على الهجرة إلى المدينة . وطبعا بدأوا فى الهجرة دون أن يعلنوا عن ذلك . فلما تنبهت قريش إلى حقيقة ما يجرى بدأت تعمل للحيلولة دون ذلك ، فراحت لا تسمح لأى مهاجر بالهجرة إلا بعد أن يتجرد من كل أمواله . وفاجأهم المهاجرون بأنهم لا يترددون لحظة فى التضحية بكل شىء ، وفرحت قريش بالاستيلاء على أموال المهاجرين ، فتركتهم يهاجرون ، ولم تكتشف إلا أخيرا جدًّا غلطتها القاتلة وهى تركها هذا الحشد من المجاهدين المقاتلين الأشداء . يتجمع فى المدينة لحربهم بعد أن انضم إلى صفوفهم جموع الأنصار .

ولما لم يعد لدى قريش بعد هجرة سيدنا عمر بن الخطاب إلى يثرب شك ، أن لابد لاحق بهم رسول الله ﷺ قرروا قتله ليتفادوا هزيمتهم التى بدأت تلوح على الأفق ، وقصة ما جرى بعد ذلك معروفة ومشهورة ، وكيف أصبح القبض على سيدنا محمد وصاحبه أبى بكر وقتلهما مسألة حياة أو موت بالنسبة لقريش . ومرة أخرى لن نكرر المفهوم العام عن خطورة الهجرة فى الإسلام ، ولكن الرأى الذى نسوقه ، أن الأمر كله كان معركة عسكرية ، بكل ما تعنيه المعركة العسكرية من أبعاد وبخاصة

تغير موازين القوى بين الجانبين المتصارعين ، وقد نظر لها القرآن الكريم هذه النظرة فلم يصف نتائجها بالنجاح أو الفلاح أو الفوز ، وإنما استعمل كلمة « النصر » وهو مالم يستعمله القرآن الكريم إلا بصدد معارك القتال من مثل قوله تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) .

وكان التعبير بكلمة « النصر » هو ما اختاره الله عز وجل ليحدثنا عن موقعة الهجرة ، واقرأوا إن شئتم :

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار . . الآية) .

أحمد حسين

« الحسد »

الحسد : تمنى زوال نعمة المحسود ، وحصول الحاسد على مثلها ، من أحسن ما قيل فيه من الشعر قول الشاعر :

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم
غيرى من الناس أهل الفضل قد حُسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهم
ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وقال شاعر آخر :

اصبر على حسد الحسو د فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

مأساة المسلمين فى اليونان وأحوالهم فى يوغوسلافيا وتركيا

تقرير أعده

اللواء/ أحمد عصمت محمود

عـــام :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين . وبعد .

فبناء على توجيهات فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر التى تتوخى دائما العمل من أجل نشر الدعوة الإسلامية فى جميع أنحاء العالم ودعمها وانطلاقا من رسالة الأزهر الشريف الذى يعتبر بحق كعبة العلم والمعرفة ، فقد صدر قرار فضيلة الإمام الأكبر رقم ٣١٥ بتاريخ ١٨ من رجب سنة ١٣٩٨ هـ الموافق ٢٤ من يونيو سنة ١٩٧٨ م بإيفاد وفد من القائمين على رعاية شئون الطلبة الوافدين لدراسة النشاط الدينى لخريجى الأزهر والمشاكل والعقبات التى تصادفهم والتعرف على الهيئات والمنشأت الإسلامية ومدى احتياجها إلى معونة الأزهر ، سواء من منح دراسية أومن مبعوثين أو أى معونات أخرى فى حدود إمكانيات الأزهر لأداء رسالتها ولتدعيم الروابط بين الأزهر وبين خريجيه وبين الهيئات الإسلامية فى كل من اليونان ويوغوسلافيا وتركيا .

وقد تشكل هذا الوفد من السادة :

١ – السيد/أحمد عصمت محمود إبراهيم
وكيل أول الوزارة – المشرف العام
على مدينة ناصر للبعوث الإسلامية

٢ – فضيلة الشيخ عبد السلام عبد الخالق الشبراوى

الأمين العام المساعد
لمجمع البحوث الإسلامية

٣ – السيد/محمد ثروت محمد حلمى عبد اللطيف
مدير إدارة المنح الدراسية
بمدينة ناصر للبعوث الإسلامية

وكانت أول خطوة فى إجراءات تنفيذ

هذه المهمة أن أُخْطِرَتْ وزارة الخارجية بصورة من قرار المشيخة رقم (٣١٥) وبصورة من الجدول الزمنى لتحركات الوفد قبل السفر بمدة شهر تقريبا .

كما حصل الوفد على المعلومات المطلوبة عن كل بلد من طلاب هذه الدول المقيمين بمدينة البعوث الإسلامية .

أولا : زيارة اليونان فى المدة من ٧٨/٩/٧ - ١٩٧٨/٩/١٣

قمنا من مطار القاهرة الساعة ١٢,٣٠ ظهرا وقبل مغادرتنا فوجئت بإذاعة الاستعلامات تطلبنى وإذا بأحد المسئولين بسفارة اليونان ويدعى دكتور ميشيل يقبل على وأخبرنى أنه حضر لتوديعنا متمنيا لنا التوفيق فى الرحلة وأفادنا بأننا سنسر من أحوال المسلمين فى اليونان فهم يتمتعون بكافة الحقوق الممنوحة لسائر المواطنين هناك فشكرناه لتكبيده مشاق الحضور لتوديعنا وعند وصولنا إلى مطار أثينا لم نجد فى استقبالنا أحداً من المسئولين المصريين ليقوم بمهمة تسهيل الإجراءات وكل ماحصل أن القائم بأعمال سفارة مصر فى اليونان الأستاذ أحمد عبد الوهاب حمدى علم بوصولنا عن طريق أحد خريجى الأزهر فحضر إلينا فى مساء يوم الوصول بالفندق ومكث معنا حوالى ساعة استأذن بعدها لارتباطه بمواعيد أخرى ومنذ ذلك الحين لم نر أى مسئول مصرى باليونان ، ولقد اشتكى خريجو الأزهر من سلبية المسئولين بالسفارة المصرية وعدم تجاوبهم مع خريجى الأزهر والمسلمين هناك .

هذا وقد وافق يوم ٩/٨ يوم جمعة ومنذ الصباح حاولنا العثور على مسجد واحد فى أثينا عاصمة اليونان ذات الحضارة العريقة - لنؤدى صلاة الجمعة ولكن للأسف لم نجد فيها سوى مسجد واحد قديم أنشئ فى القرن الثامن عشر الميلادى فى عهد محمد الفاتح لايستخدم لأداء الصلاة وإنما حول إلى متحف أثرى يضم مكاتب الموظفين ومرافق أخرى للمتحف ولم نستطع أن نؤدى صلاة الجمعة وأسفنا لذلك أسفا شديدا .

زرنا المسلمين فى محافظتى أكسنتى وكومنتينو وبعض القرى المجاورة وتعتبر هذه المناطق مراكز تجمع المسلمين فى اليونان ، كما اجتمعنا بالسادة مفتى المحافظات ورؤساء الأوقاف الإسلامية كما زرنا بعض المدارس الأهلية والمعهد الدينى بكومنتينو وعقدنا اجتماعات بخريجى الأزهر بهذه المناطق واستمعنا إلى كثير من الأهالى المسلمين فى أنحاء متفرقة ، وقد كشفت لنا هذه الزيارة وهذه اللقاءات عن الحقائق المؤسفة التالية :

تعيش فى شمال شرقى اليونان فى منطقة تسمى بتراقيا الغربية منذ أكثر من نصف قرن اقلية إسلامية تعدادها أكثر من مائة الف نسمة بمقتضى معاهدة لوزان التى ابرمت عام **١٩٢٣م** مقابل الأقلية اليونانية المسيحية فى مدينة استانبول بتركيا. وللاقليتين حقوق متساوية مع أفراد الدولة الى تعيش فيها إلا أننا وجدنا المسلمين فى اليونان يعانون من التفرقة فى المعاملة. فالحكومة اليونانية لاتسمح للمواطن المسلم بامتلاك الأرض أوالعقار، ولاتسمح للمالكين القدامى ببيع ممتلكاتهم إلالغير المسلمين. كما لاتسمح لهم بالتوظف فى وظائف الحكومة، كما لاتسمح الحكومة اليونانية أيضا بإقامة أى مساجد جديدة وكل المساجد الموجودة قديمة ترجع إلى العهد العثمانى بل إنها لاتسمح بإصلاح هذه المساجد القديمة وبعضها قد آل للسقوط. وفى حالة طلب الأهالى إجراء إصلاحات أوترميات بالمسجد على حسابهم الخاص، فإن طلبهم يحال إلى الأسقفية فى أثينا وقيل لنا إن هناك طلبات مضى عليها حوالى خمس سنوات ولم تأت موافقة الأسقفية بعد.

تتدخل الحكومة فى تعيين المدرسين فى المدارس التى يقيمها الأهالى المسلمون وتعين مدرسين من قبلها دون النظر إلى الكفاءة ويمثل مدرس الحكومة مراكز قوى بهذه المدارس فلهم دون سواهم الأمر والنهى والذى أكد لنا هذه الحقيقة أننا ذهبنا لزيارة إحدى المدارس الأهلية الابتدائية بقرية قريبة من مدينة كومنتينى اسمها «كيكيديون» وأردنا أن نأخذ صورة تذكارية مع الأطفال والمدرسين وبعد ماتأهبنا للتصوير أوقف مدرس الحكومة المصور ومنعه من التصوير وكأننا كنا على وشك أن نصور ثكنة عسكرية.

وعندما زرنا المعهد الدينى الإسلامى «المدرسة الخيرية» بكومنتينى والمفروض أن مستواه التعليمى – يعادل التعليم الثانوى – وباطلاعنا على الكتب الدراسية وجدناها لاتزيد عن مستوى التعليم الابتدائى كما أنه تابع لتفتيش المدارس الابتدائية وعدد مدرسيه عشرة. منهم خمسة فقط من المسلمين والباقين من غيرهم والطالب المسلم بعد تخرجه من هذا المعهد ليس له حق فى الالتحاق بأى كلية جامعية بل له أن يلتحق بالأكاديمية الخاصة لمسلمى تراقيا الغربية فى اليونان التى أنشأتها الحكومة اليونانية فى مدينة سالونيكى والتدريس بهذه الأكاديمية ضعيف جدًا ويستمر لمدة ثلاث سنوات وباللغة اليونانية ولايدرس بها الدين

الإسلامى ولايوجد بها مدرس مسلم واحد وقد طالب المسلمون بتعيين أحد المدرسين لتدريس الدين الإسلامى ولم يستجاب لطلبهم ، وكنتيجة حتمية فإن خريجى الأكاديمية مستواهم ضعيف جدًّا وخاصة من الناحية الدينية وتعيهم الحكومة لمدارس المسلمين الابتدائية والمعاهد الدينية ، ولقد اتضح لنا أن خريجى الأزهر الشريف من غير المرغوب فيهم ندر أن يعين منهم أحد فى التدريس .

تقوم الحكومة بتأميم أوقاف المسلمين بحجة المنفعة العامة ، وسبق أن قامت بهدم مسجد ومقبرة إسلامية بأكسنتى ، وعلمنا أن أوقاف المسلمين فى أكسنتى يديرها موظف معين من قبل الحكومة وهو غير حائز على ثقة المسلمين فى هذة المحافظة ويتصرف تصرفات تضر بالأوقاف بها بإيعاز من الحكومة وكان المفروض أن يعين بالانتخاب بعد إنهاء الحكم العسكرى كما هو الحال فى محافظة كومنتيى . هذا وقد اضطر المسلمون إلى رفع الأمر إلى القضاء فى محاولة لوقف هذه التصرفات الى تضر بموارد الأقلية المسلمة الفقيرة ، وعلمنا أنه توجد حاليا قضية رفعها مسلمو أكسنتى فى هذا الشأن .

هذه بعض الحقائق التى تكشفت لنا كنتيجة لهذه الزيارة والتى أسفنا لها كل الأسف وقد علمنا من المسلمين باليونان أن مطالبهم تنحصر فى الآتى :

١ – مساواتهم فى الحقوق الإنسانية مع قرنائهم المواطنين من غير المسلمين خصوصا وأنهم يؤدون ماعليهم من واجبات سواء من ناحية الضرائب أوأداء الخدمة العسكرية .

٢ – وقف تأميم أوقاف المسلمين التى دأبت الحكومة اليونانية على تأميمها بغرض إكراه المسلمين على الهجرة .

٣ – ضم الأوقاف المصرية فى كافالا « قولة » إليهم لتدعيم مواردهم الضعيفة .

ومما أثار دهشتى عندما عدت إلى القاهرة أنى علمت من منزلى أن شخصا من سفارة اليونان قد طلبنى قبل عودتى بيومين مرتين ، كما طلبتنى السفارة كذلك فى مكتبى ، وقد اتصل بى بعد ذلك الدكتور ميشيل بالمنزل وأخبرنى أنه يريد مقابلتى بالمكتب ، وفعلا قابلته فى اليوم التالى لاستئناف عملى بالمكتب ، فوجدته متلهفا لسماع رأيى فى أحوال المسلمين هناك ولما صارحته بالحقيقة كما سبق أن بينت ، أبدى لى تأثره العميق ووعدنى بالاتصال بوزارة الخارجية اليونانية ليصحح كل هذه الأوضاع ثم أشار إلى فى سياق كلامه بأنه يستطيع – عن طريق كبار المسئولين – أن

يوقف كل أثر لما سنرفعه من تقارير ولكنى لم أعر هذا الكلام اهتماما . وبعدها حضر إلىّ الملحق الثقافى والصحفى بالمكتب لنفس الغرض .

وفيما يلى نص رسالة بعث بها سفير تركيا بالقاهرة إلى عضو بالوفد ، وقد آثرنا نشرها بنصها لعلاقتها بهذا الموضوع :

القاهرة فى ١٢ ديسمبر ١٩٧٨

السيد/الشيخ عبد السلام عبد الخالق الشبراوى

الأمين العام المساعد للأبحاث الإسلامية

إدارة معاهد الأزهر

٣١٧ شارع بورسعيد – الدور الثامن

السيدة زينب – القاهرة

تحية طيبة وبعد :

أتشرف بأن أحيط سيادتكم علما بالآتى :

بما أن السيد مصطفى حلمى مفتى مدينة اسكتشى « اكسانتى » فى اليونان قد قام ببناء مبنى صغير فى المقابر بجوار جامع كونيكوى « كيميروا » لاستخدامه فى أغراض الدفن ، وأيضا بسبب إهماله الحصول على إذن البناء مسبقا ، قد قامت محكمة اسكانتى الابتدائية بصدور حكم ضده بالسجن لمدة شهرين وبغرامة مالية قدرها ٥٥,٠٠٠ دراخمة .

إن إدانة المفتى وهو الزعيم الدينى لإحدى المدن الكبيرة فى غرب تراقيا بسبب تصرف ليس ذو أهمية وغير مقصود ومجرد نتيجة اهمال إدارى ، قد أثار اهتماما بالغا وأسفا شديدا من جانب الجالية التركية الإسلامية فى غرب تراقيا وقد أثار أيضا أسفا ودهشة بالغة فى تركيا .

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام . .

ايكوت بيرك

مستشار سفارة تركيا بالقاهرة

ثانيا : زيارة يوغوسلافيا فى المدة من ٩/١٤ – ١٩٧٨/٩/١٩

نستطيع أن نقرر من واقع زيارتنا لبلغراد وجمهورية البوسنة والهرسك وعاصمتها ساراييفو ولقائنا بكبار الشخصيات الإسلامية والمسئولين عن الشئون الدينية من المسلمين وغيرهم بالحكومة ، نذكر منهم فضيلة مفتى بلغراد وفضيلة رئيس هيئة كبار العلماء بساراييفو والسادة الأساتذة أعضاء هيئة التدريس بالمعهد الإسلامى الثانوى وكلية الدراسات الإسلامية بساراييفو والسيد وزير الشئون الدينية بحكومة بلغراد – أننا وجدنا المسلمين بحالة أسعدتنا فهم يمارسون شعائرهم الدينية

فى حرية تامة كما أنهم يقومون ببناء المساجد الجديدة – بالإضافة إلى أعمال الصيانة التى تتم فى المساجد المقامة وفى كل منها مدرسة لتعليم الصغار والكبار القرآن الكريم باللغة العربية . وقد حضرنا احتفال افتتاح مسجد جديد فى إحدى قرى البوسنة والهرسك .

ويبلغ تعداد المسلمين فى يوغوسلافيا أكثر من أربعة ملايين مسلم ويوجد بها حوالى ألفى مسجد .

ولقد علمنا أن الدولة تهتم بترميم وتجديد وصيانة المساجد القديمة ، ويصل المسلمون إلى أعلى المناصب فى الدولة فمنهم من وصل إلى درجة وزير ومنهم قادة فى الجيش وأعضاء بالبرلمان وعديد من المناصب الكبرى بالدولة .

وقد قمنا بزيارة المعهد الإسلامى الثانوى وكلية الدراسات الإسلامية بسارايفو وأعجبنا حسن الإعداد والتنظيم والنظافة كذا المستوى العلمى بها .

واجتمعنا بهيئة التدريس التى طلبت تبادل الزيارات مع أساتذة الأزهر للاستفادة من الخبرات فى إعداد المناهج وأسلوب التعليم ، كما تقابلنا وخريجى الأزهر وتبين لنا حاجتهم إلى عدد من منح الدراسات العليا ووعدنا بعرض الأمر على لجنة شئون الطلبة الوافدين للحصول على موافقتها ، وزرنا مكتبة خسرو وهى مكتبة كبيرة تضم مجموعة كبيرة من الكتب القيمة والمخطوطات التاريخية .

هذا وقد علمنا أن سفارتنا فى يوغوسلافيا لم يكن لديها أى خبر عن البعثة .

ثالثا : زيارة تركيا فى المدة من ٢٠/٩ – ١٩٧٨/٩/٢٥

قوبلنا بترحاب كبير من عدة هيئات رسمية وأهلية نذكر منها وزارة التربية والتعليم والجمعية الخيرية الإسلامية وحزب السلام الإسلامى والمسئولين عن الشئون الدينية ورؤساء هيئات الأوقاف كما استقبلنا الدكتور نجم الدين اربكان رئيس حزب السلام الإسلامى .

قمنا بزيارة عديد من الهيئات الإسلامية والمعاهد والكليات نذكر منها المعهد العالى الإسلامى – معاهد الأئمة الخطباء – المعهد الحسكى العالى – ومدارس تحفيظ القرآن الكريم للبنين والبنات – والتقينا بخريجى الأزهر الشريف .

وزرنا المكتبة السليمانية وهى مكتبة ضخمة تضم ١٠٠.٠٠٠ مائة ألف من المخطوطات والمطبوعات . وقد أعجبنا بنظافتها الفائقة وحسن التنظيم والتنسيق

البديع وطريقة عرض المخطوطات والمطبوعات ذات الأهمية التاريخية وتطور طرق التجليد فى العصور المختلفة إلى أن وصل إلى مرحلة أصبح آية من الفن الجميل .

كما تضم أجهزة حديثة للتصوير « الميكروفيلم » والتكبير والتجليد ومعامل كماوية لإجراء أبحاث لمعالجة الورق الذى أتلفه السوس والافات الأخرى بالمواد الكماوية وترقيعه بطريقة علمية وفنية حديثة ، وذلك للمحافظة على قيمتها ، وقد شاهدنا بها مصحفاً بالخط الكوفى لسيدنا عثمان بن عفان .

ملخص

ملاحظات وتوصيات الوفد

على ضوء الزيارات الميدانية لكل من

اليونان – يوغوسلافيا – تركيا

أولا : اليونان

إن حالة المسلمين فى اليونان تؤكد ضرورة اهتمام الأزهر الشريف بالأقليات المسلمة فى جميع أنحاء العالم بصفة عامة ، ومن هم فى مثل حالة مسلمى اليونان بصفة خاصة ، كما تحتاج إلى تضافر جهود الأزهر مع باقى الجهات المعنية بالشئون الإسلامية للعمل بكافة الطرق والوسائل حتى ينال المسلمون هناك حقوقهم الإنسانية المشروعة والتى أقرتها جميع الرسالات السماوية بل والمنظمات الدولية .

ولقد كان لزيارة وفد الأزهر عميق الأثر فى نفوس المسلمين فقد كانت تغمرهم السعادة لشعورهم باهتمام الأزهر بهم وبأحوالهم من خلال هذه الزيارة ، وقد أفصحوا لنا عن امتنانهم بهذه الزيارات لأنها تعزز من وضعهم وتمنحهم القوة الروحية والنفسية كما أنها تهئ لهم الفرصة لكى يعبروا عن مشاعرهم ومشاكلهم ومطالبهم المتعلقة بالأمور الدينية بطريقة مباشرة وعلى الطبيعة لإخوانهم المسلمين وليطلعوهم على الحقيقة المؤلمة التى يعيشونها

خاصة وأنهم يؤمنون بأن الأزهر هو قلعة الإسلام ومنار العلم والثقافة الدينية وحامل الرسالة المحمدية المبنية على الحق والحرية والمساواة والسلام .

وقد وجدنا أنهم فى حاجة إلى زيادة عدد المنح الدراسية بالأزهر كما طالبونا بإرسال عدد من مجلة الأزهر وأعداد الجمعة من الصحف المصرية اليومية لاحتوائها على مواضيع دينية ، ووعد الوفد باتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذه الطلبات ، ونفذ فعلا جزء منها وسنقوم بمشيئة الله بتنفيذ باقى الطلبات .

كما رجونا رفع التماس بضم (أوقاف قولة المصرية) إليهم حتى تساهم فى إصلاح حالتهم الاجتماعية وتعوضهم عما قامت الحكومة بتأميمه من أوقافهم ، ونحن نعرض الأمر ونضم صوتنا إلى صوتهم .

ثانيا : يوغوسلافيا :

أما بالنسبة لمسلمى يوغوسلافيا فحالتهم مطمئنة فهم يمارسون شعائرهم الدينية فى حرية تامة ويبنون المساجد والمنشآت التعليمية دون أى قيود ولقد حضرنا حفل افتتاح مسجد جديد فى جمهورية البوسنة والهرسك وتقوم وزارة الشئون الدينية برعاية جميع الأديان دون أى تفرقة وللمسلمين من الحقوق مالغيرهم وعليهم من الواجبات ماعلى الآخرين ، ولذلك وجدناهم فى حالة معنوية ونفسية عالية مما أسعدنا وأثلج صدورنا .

وانحصرت طلباتهم فى عدد من المنح الدراسية وتبادل الأساتذة فى المعاهد والكليات مع معاهد وكليات الأزهر .

ثالثا : تركيا

لمسنا فى كل ممن لاقيناه من هيئات دينية رسمية أو أهلية ومن جمهور الشعب ، كل حب ومودة تجاه الأزهر ومصر وشعبها ورئيسها كما وجدنا اهتماما كبيرا بالشئون الدينية على جميع المستويات وهم يتطلعون إلى زيادة الروابط بينهم وبين الأزهر الشريف وأبدى لنا الدكتور نجم الدين أربكان زعيم حزب السلام الإسلامى رغبته الشديدة فى الاجتماع بالمسئولين بالأزهر للاسترشاد بما يتبع فى المعاهد والجامعات لتطوير المناهج الدينية وسبل التعليم بتركيا . ونحن نذكر له أنه كان له فضل الاعتراف بشهادات كليات ومعاهد الأزهر حينما كان حزبه فى الحكم .

وهناك مطالب وجدنا الجميع مجمعين عليها وتتلخص فى :

- إعادة النظر فى الأشخاص الذين توجه

إليهم الدعوة لحضور المؤتمرات فى المناسبات الدينية المختلفة بحيث توجه إلى المسئولين المهتمين بالشئون الدينية فعلا دون النظر إلى أى اعتبارات أخرى– وسيقوم الوفد بتقديم كشف بالأسماء التى يقترحها لجميع الجهات المعنية .

–كما أبدى خريجو الأزهر رغبتهم الملحة فى ضرورة استمرار الرابطة التى تربطهم بالأزهر الشريف عن طريق إيفاد من يمثلهم لحضور المؤتمر السنوى الذى سبق أن تقدمنا باقتراح عقده صيف كل عام بمدينة البعوث وطالبنا برصد اعتماد له بميزانية المدينة لتغطية نفقاته ، علاوة على مطالبتهم بمداومة إرسال وفود عن الأزهر لزيارتهم من وقت لآخر لما يترتب على ذلك من فوائد جليلة ، وفقنا الله إلى مافيه خير الإسلام والمسلمين .

والله ولى التوفيق . .

اللواء/أحمد عصمت محمود

من كلامه صلى الله عليه وسلم

من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين . نعم الرجل الفقيه فى الدين : إن احتيج إليه نفع ، وإن استغنى عنه أغنى نفسه .

لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

لا هو لحساب الإسلام
ولا لحساب المسيحية .

الدكتور/عبد الفتاح عبد الله بركة

ليس من شأن المسلمين ، ولاهو من غايتهم أن يثيروا مسائل خلافية تمس ولو من بعيد بعض الأديان الأخرى ، وذلك استرشادا بقوله تعالى (كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) الأنعام : آية ١٠٨ ، وكذلك لأنه يكفينا أن نتحدث عن محاسن ديننا الحنيف ومزاياه ، ونترك للآخرين أن يعقدوا بأنفسهم وبمحض تفكيرهم مايرونه مناسبا من طرق الفهم والتمييز .

بالإضافة إلى أن لدينا من المسئوليات الخاصة – فى إرشاد المسلمين وتوجيههم الوجهة التى تتفق مع دينهم وترضى ربهم وتسعد حياتهم فى نطاق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر– مايستغرق الجهد المخلص ، ولايدع منه فضلا لمثل هذه الأغراض الأخرى .

وكنا نود أن يترك المسلمون لما تفرغوا له من شئونهم . ويكفينا أن نجابه تلك التيارات الإلحادية والمنحرفة عن الفطرة الإنسانية بما يعصم قومنا وبلادنا من شرورها وويلاتها ، ويبصرهم بوسائلها وأساليبها ، وأن يحظى هذا الموقف بتقدير أصحاب الأديان الأخرى من مسيحيين وغيرهم ، فيكفوننا أمرهم ، ويبادلوننا مسالمة بمسالمة واحتراما باحترام .

ولكن يبدو أن بعض رجالات المسيحية قد وجدوا لديهم من الفراغ والجهد ماصعب عليهم أن يشغلوه وأن يوجهوه إلى مثل هذه الغايات النبيلة ، فوجهوه إلى الإسلام والمسلمين .

جماعة الإخاء الدينى . . .
ومحاضرة باسم القس جورج شحاته قنواتى :

فقد طلع علينا قسم الصحافة والنشر بجماعة تسمى نفسها « جماعة الإخاء الدينى » بنشرة عن محاضرة عنوانها « الإيمان المشترك بالله بين المسيحية والإسلام » بقلم الأب الجليل جورج شحاته قنواتى ألقيت بتاريخ

١١ من سبتمبر سنة ١٩٧٧ بقاعة الشبان المسلمين بالقاهرة .

ولست أدرى هل نسبة هذه المحاضرة إلى هذا القس صحيحة أم لا ، وهل هذه النشرة هى نص المحاضرة ، أم أنها اختصرت عنها ، وإذا كانت قد أختصرت ، فهل بقيت معانيها الأساسية بغير تحريف ، أم وقع فيها تحريف ! ؟

وقد نشأت عندى هذه التساؤلات لعلمى بمدى إكبار الرجل بين قومه ، ومعرفتهم بمدى علمه وسعة اطلاعه وحدة ذكائه ، فظننت أن ماوقع فى هذه النشرة من تلبيس لايصح أن يقع من أمثاله ، إلا إذا كان قد بدا له فى ذلك شأن .

وسواء صحت نسبة هذا الكلام إليه أم لم تصح ، فإنه قد طبع ووزع بين المسلمين ، ولم يعد هناك مناص من أن نتعرض لمناقشته تبصيرا لإخوتنا وأهل ديننا من المسلمين ، بصرف النظر عمن وجهوا هذا الكلام ، وإن كنا نرجو أن يجدوا فى مناقشتنا مايقنعهم بالحق ، إن كانوا يجهلون ، أومايقنعهم بالعدول عن هذه المحاولات العابثة ، إن كانوا يفعلون مايفعلون وهم يعلمون .

التلبيس ابتداء من عنوان المحاضرة :

أما عنوان المحاضرة فهو جميل خلاب ، يجتذب إليه الأفئدة والألباب ، وليس أحب إلى قلب المسلم من ترديد هذه الأنشودة الجميلة « الإيمان بالله » فاختيار هذا العنوان والاقتصار عليه . . يخدم هدف المحاضر من ناحيتين : من ناحية كونه مدخلا جذابا محبوبا إلى قلوب المسلمين ، ومن ناحية كونه يغفل المفهوم الصحيح الكامل للإيمان بالله فى الإسلام ، كما يغفل المفهوم الصحيح الكامل للايمان بالله فى المسيحية ، مما يهيء الأذهان لقبول كونه مبدأ مشتركا بين المسيحية والإسلام .

ومن المعلوم أن بتر اللفظ من سياقه ، أو اقتطاع المعنى دون بقيته يفسده ، ويجعله غير المراد أوالمقصود ، وهذا المفهوم الذى ينطبع من هذا اللفظ ليس هو المفهوم الصحيح الكامل لعقيدة الإسلام فى الله ، كما أنه ليس هو المفهوم الصحيح الكامل لعقيدة المسيحية فى الإلٰه . مما يجعل العنوان – بادئ ذى بدء – فاسدا لامعنى له ، ولايمكن أن ينبنى عليه مايريده المحاضر من التقارب ! ؟

ولكن التركيز على مفهوم هذا العنوان دون بيان المفهوم الصحيح الكامل له فى

الإسلام ، وتوجيه أنظار المسلمين إليه وحده يترتب عليه توهين العقيدة الإسلامية ، وإماعة مبادئها وتشتيتها فى نفوس المسلمين ، فهل هذا هو الهدف المقصود من وراء هذه النشرة ! ؟

الإيمان الإسلامى بالله ليس مماثلا للإيمان المسيحى :

إن إيهام المسلمين بأنه لافرق بين العقيدتين : الإسلامية والمسيحية ، أوأن الفرق بينهما ضئيل لايكاد يذكر ، ولايؤثر فى اتجاه كل من الجانبين ، لايضر المسلمين وحدهم ، بل يضر المسيحية أيضا ، إذ لو تحقق كل من المسلم والمسيحى أن أساس العقيدة بين الإسلام والمسيحية مشترك ، فما هو معنى أن يوجد دينان يفترقان ويختلفان ! ؟

أليس يكفى عندئذ لكل من المسلم والمسيحى أن يؤمن بالله ، بصرف النظر عن الإسلام كدين ، وبصرف النظر عن المسيحية كدين ، ونعود بذلك – مسلمين ومسيحيين– شعوبا لا دينية هى إلى الكفر أقرب منها إلى الإيمان ! ؟

فالقصد إلى إماعة العقائد ، والتهوين من حدودها ، ورفع معالمها الأساسية لايضر الإسلام وحده ، إن كان هذا هدفكم ، بل يضر– فيما يضر– المسيحية نفسها ، بل لعله إلى ضرر المسيحية أقرب ، لأن مقومات العقيدة الإسلامية أبسط ، وهى لذلك أرسخ وأيسر قبولا ؟

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة ، وإلافلوكانت عقيدة الإسلام فى الله مشتركة مع المسيحية ، فلماذا جاء الإسلام بعد المسيحية ، وكيف أقبل الناس عليه دون المسيحية مع أن ماجاء به يتفق معها ؟ ؟

ثم دعونا نسألكم ، هل ذات الله التى يؤمن بها المسلم هى ذات الإله التى يدين بها المسيحى ؟ وإذا كانت العقيدة فيه مشتركة فهل تسمحون لأى مسيحى منكم أن يقبل الإيمان بالله كما هو محدد ومبين فى العقيدة الإسلامية ؟ أم أن إطلاق اسم الله من قبيل المشترك اللفظى فحسب ! ؟

لو كان هذا الإيمان مشتركا –كما هو لفظ العنوان؟ فما هى أسباب الفرقة والتباعد ولماذا أنكرتم رسالة نبينا محمد ﷺ ؟ مع إنكم تقولون إنكم تؤمنون بما يؤمن به ، وأن هذا الإيمان مشترك ! ؟

الواقع أن هذا الإيمان غير مشترك ، وهذا هو الذى ميز الإسلام عن المسيحية ، ومن أجل ذلك جاء الإسلام لتصحيح مفهوم الإيمان عندكم ، وهذا هو الذى جعلكم لاتؤمنون بالرسول محمد ﷺ .

ولقد نادى رسول الله ﷺ أجدادكم

من قبل ، امتثالا لأمر الله ، قائلا : (يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) آل عمران : آية ٦٤ ، فهذا هو تمام الإيمان بالله فى الإسلام ، ومازال الدعاء إليه قائما ، ولكنكم توليتم عنه كما تولى أجدادكم من قبل ، ولهذا نمتاز عنكم باسم الإسلام ونُشهِد كل أهلٍ للشهادة أننا مسلمون .

بل لقد دعاهم ﷺ إلى المباهلة استجابة لقوله تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) آل عمران آية ٦١ ، فنكصوا ونكلوا ، ولم يباهلوا . ترى لوكانت العقيدة فى الله والإيمان به مشتركا أكان هناك مجال للخلاف والمباهلة؟ وهل كانوا ينكصون عندئذ ويعرضون ؟ وفيم الخلاف الذى يصل إلى درجة الدعوة إلى المباهلة ، إن لم يكن فى أساس الدين وهو الإيمان بالله ، وقد حددته الآية فيما سبق كما ينبغى أن يكون التحديد .

الإيمان بالله مشترك بينكم وبين المشركين :

ولو كان مجرد الإيمان بالله – بغير التحديد المذكور – كافيا للحكم بالاشتراك فى أساس العقيدة ، لكان كذلك كافيا للحكم بالاشتراك فى أساس العقيدة بينكم وبين المشركين من عبدة الأوثان ، فإنهم مثلكم يؤمنون بالله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لقمان : آية ٢٥ ، والزمر : آية ٣٨ .

ولكن إيمانهم ذلك لم ينفعهم ، ولم يجعلهم مقبولين لاعند الله ولاعند المسلمين ، ولقد كان هؤلاء المشركون – الذين يؤمنون بالله كما تؤمنون – حربا على الإسلام وعلى رسوله ، واستمروا يناصبونه العداء ويثيرون معه معارك لاتهدأ ولاتفتر ، حتى نصره الله ، ومازال الإسلام يعانى من حربهم وحرب أمثالهم – ممن يؤمنون بالله – إلى اليوم ، وسوف ينصره الله – إن شاء – كما نصر رسوله من قبل .

فهل كان يمكن لهذه الحرب أن تكون بهذه الضراوة التى يرويها التاريخ لو كان هناك أساس مشترك من العقائد يمكن أن يقام عليه بناء المحبة والتقارب ؟ ؟

وهل تراكم بعد ذلك تعتقدون أن

بينكم وبين أمثال هؤلاء المشركين اشتراكا فى الإيمان بالله ! ؟ اللهم إننا لانظن ! ومع هذا فأنتم وماترون . أما نحن فنبرأ إلى الله تعالى أن يكون بيننا وبينهم اشتراك فى هذه العقائد التى جاء الإسلام لإنقاذ البشرية منها وإخراج الناس من ظلماتها إلى نور الإيمان الصحيح بالله الواحد القهار .

الإيمان بوجود الله وعلم التوحيد :

ويبدو أن « شركاء الإيمان » هؤلاء قد توهموا أن المسألة فى الإيمان بالله هى مجرد الاعتراف بوجوده ، وأنه مادام كل من المسلم والمسيحى يعترف بذلك فقد أصبحا شريكى عقيدة ، حتى ذهب صاحب النشرة « المحاضرة » فى استيفاء وجوه الشبه فى هذا المجال إلى حد إظهار التشابه فى البراهين التى يقيمها علماء الدين المسيحيون والمسلمون . وأنها مبنية على الحركة والإمكان والغائية ونظام الكون . وإلى إظهار التشابه بين مافى القرآن من الحث على التأمل والاعتبار بآيات الله الكونية ، ومافى كتبهم المقدسة من مثل هذا الحث ، ثم ضرب ضربة كبرى بناء على هذه القضية الجزئية ، فادعى وجود تشابه كبير بين علم التوحيد المسيحى « هكذا » وعلم التوحيد الإسلامى .

ونحن لانجرد المسيحية من الإيمان بوجود الله ، فقد كان لدينهم – كما نعتقد – أصل صحيح ، ولامن بقايا توحيد الله ، فتلك هى المشكلة المستعصية التى لم يستطيعوا التخلص منها عندما اعتنقوا التثليث ، وأصبحت تشكل لهم عقدة لايستطيعون حلها للجمع بين التوحيد الذى بقى لهم من أصل دينهم . وبين التثليث الذى فضلوه فى النهاية ، ومازالوا إلى اليوم بين متشبث بالجمع بينهما على رغم العقل والمنطق ، وبين رافض لهما معا رغم وجود الدواعى إلى مطلق الإيمان ، وبين مضح بالتثليث من أجل التوحيد .

وعلم التوحيد الإسلامى لم يبن على قضية وجود الله ، حتى تؤخذ فى اعتبار وجوه الشبه . ولكنها مذكورة فيه من باب استيفاء مسائل العلم . ولوحذفت منه هذه القضية ببراهينها ماتأثر بنيانه . ولكفاه التحقق من أن وجود الله مسلم به حتى عند المشركين . وأنه لاينكره إلاالمعاندون . وتبقى بعد ذلك أهم مسائله . والتى أقيم علم التوحيد الإسلامى من أجلها . وهى قضية الوحدانية – فى ذات الله وصفاته وأفعاله – لذلك سمى هذا العلم – بالإضافة إلى أسمائه الأخرى – بعلم التوحيد ، لما أنها من أهم مسائله . وأبرز قضاياه . ولما أن الإسلام

هو وحده دين الوحدانية المطلقة بغير منازع ، حتى اشتهر بهذا الاسم – وهو دين التوحيد – دون غيره من الأديان .

وأما علم العقائد المسيحية فما سمعنا من قبل بأنه يجمع بين أسمائه اسم علم التوحيد المسيحى ، وإن كنا نعلم أنه علم اللاهوت ، وأنه لايشبه علم التوحيد الإسلامى إلافى هذه القضية الجزئية التى أشرتم إليها من إثبات وجود الله ، أما من حيث الوحدانية ، فوحدانية الله فى الإسلام بنت بجدتها وفريدة حقيقتها ، وليس كمثلها شىء من العقائد القائمة ، وبقية المسائل التى يعالجها علم التوحيد الإسلامى لايشبهها شىء من علم اللاهوت المسيحى ، وإلافهل يعالج صفات الله تعالى كما يعالجها علم التوحيد الإسلامى ، أم يعالجها من خلال مفهومه فى الأقانيم ؟ ؟ وهل يعالج النبوات والرسالات كما يعالجها علم التوحيد الإسلامى ؟ ؟ أم يعالجها من خلال تغاضيه عن خاتمة الرسالات ، ومن خلال تمييزه لشخصية عيسى عليه السلام عن بقية إخوته من الأنبياء ، وتلمسه للأنبياء عليهم السلام مالايصح نسبته إليهم ، حتى تظهر شخصية عيسى المسيح عليه السلام وحدها بهذا الامتياز مما يخول لهذا العلم حقا فى إضفاء نعوت الألوهية وصفاتها عليه ؟ وهل يعالج أمور الغيبيات من بعث وحساب وغير ذلك كما يعالجها علم التوحيد الإسلامى أم يعالج عقيدة الخطيئة الموروثة والفداء وغير ذلك من هذه المفاهيم ؟ ؟

الحق أنه لايوجد وجه لعقد مشابهة بين علم اللاهوت المسيحى وعلم التوحيد الإسلامى ، ومحاولة عقد هذه المشابهة ، والاستماتة فيها إلى درجة انتحال الاسم الإسلامى لعلم العقائد وهو علم التوحيد . ووضعه لعلم العقائد المسيحى ، محاولة أقل ما توصف به أنها محاولة لتضليل المسلمين . وإيهامهم أن المسيحية لا تختلف عن الإسلام فى عقيدتها ، بل ولا فى كتبها وعلومها الأساسية .

فهل يعتقد صاحب المحاضرة المنشورة ذلك حقا ! ؟ أم أنه يتلاعب بالألفاظ ويستخدم العبارات العامة المطاطة تلبيسا على المسلمين فى محاضرة علنية . وفى قاعة جمعية إسلامية ! ؟

إن كان يعتقد ذلك حقا ، فلماذا لايبرهن لنا عمليا عن اقتناعه بعدم الفارق ويؤمن بما يؤمن به المسلمون صراحة وعلنا حتى نصدقه فيما يقول ، وإلا فنرجو ألايتوجه إلينا باللوم إذا نحن حملنا محاضرته على محمل الاستخفاف بالمسلمين ومحاولة تضليلهم . وهو أمر نرفضه ونأباه ، ونرده

عليه بوضوح وإصرار .

التلبيس فى صفات الله :

ولقد ذكرت لنا النشرة « المحاضرة » عقيدة المجمع المسكونى الفاتيكانى الأول فى سنة ١٨٧٠ « هكذا » باعتبار أن جميع مافيها من صفات « الله » موجود فى القرآن ، وتخاطب النشرة المسلمين بذلك لتوهمهم بأن صفات الله فى الإسلام تشبه تلك المذكورة فى عقيدة المجمع المسكونى الفاتيكانى .

والحقيقة تجافى ذلك وتأباه ، فقد تبينا فيما سبق أن الموصوف عند المسلمين يختلف عنه عند المسيحيين ، والاتفاق بعد ذلك فى الصفات لايقرب فى العقيدة شيئا ، لأنها لم تحمل على موصوف واحد ، كيف والصفات كذلك مختلفة !!؟ تقول تلك العقيدة المسكونية الكنسية : إن الكنيسة تؤمن وتعلم بأن الله واحد ، وهو الحق الحى خالق السماء والأرض وربهما على السواء . إنه القدير السرمدى ، لاحد له . ولايحيط به غيره علما ، وليس أى أحد بعقله ومشيئته وكماله ، وبما أنه جوهر روحى واحد فى طبيعته ، لايتركب ولايتغير أبداً ، يجب على الجميع أن يقولوا إنه يتباين عن مخلوقاته فى الواقع وبذاته ، وإذ أنه يجد رضاه فى ذاته وبذاته لأنه متعال عن كل ماسواه مما هو موجود فى الدنيا أو ممكن الوجود . ا هـ .

فوصف الله فى هذه العقيدة بأنه جوهر روحى واحد فى طبيعته ، لاأصل له فى القرآن الكريم . ولايوصف الله فى الإسلام بأنه جوهر ، ولابأنه روح ، ولابأنه روحى ، ولابأنه طبيعة ، ولابأنه ذو طبيعة . إنما يوصف بذلك مخلوق كالمسيح عليه السلام فى المسيحية ، ولف هذه الصفات المجافية للإسلام بصفات أخرى لها أصل فى القرآن الكريم – كوصفه بأنه هو الحميد المجيد ، أوبأنه ذوالغفران والرحمة (١) ، أو غير ذلك من الصفات – لا يجعلها مقبولة فى جملتها لدى المسلمين ، بل يتعدى فساد الفاسد منها إلى صحة الصحيح ، ولن يجعل هذا الكلام عقيدة المسلمين تتحول من توحيد الله فى ذاته وصفاته وأفعاله لتنسب شيئاً من صفاته إلى شيء من خلقه ، أو لتنسب شيئاً من صفات مخلوقاته إليه .

الإنسية القائمة على الله :

النقطة الثانية من النقاط الثلاث التى تحدثت عنها النشرة « المحاضرة » هى الإنسية

(١) الصفة الصحيحة فى القرآن الكريم (.. وربك الغفور ذو الرحمة) الكهف ٥٨

القـــائمة على الله نتيجة الإيمـــــان بالله .

ولاحديث لنا فى هذه النقطة ، بعد أن عرفنا أن الأساس الذى ينيت عليه وهو المفهوم المشترك لله والإيمان به غير ذى موضوع ، فكل مابنى عليه – بعد ذلك – غير مقبول ، ولايدخل فى ميدان الموضوعات المشتركة بحال ، وإنما نحب أن نعلق على عبارتين توضيحا للأمور وإزالة للالتباس فيهما – :

– فإننى لم أفهم ماهو المراد بقوله : « الإنسية القائمة على الله » . هل المراد بذلك : المخلوقة لله ، والمعتمدة فى وجودها وبقائها ومصيرها عليه سبحانه !؟ أو المراد بها أن يكون لذات الله دخل فى تكوينها وحقيقتها . . إننا فى الإسلام نعتقد أن الإنسان كغيره من سائر المخلوقات مدين بوجوده وبقائه ومصيره لله وحده ، وأن الله سبحانه كرمه وأعطاه الكثير من عطاياه وهباته وفضله على كثير ممن خلق .

أما المفهوم الثانى فلعل له أصلا فى المسيحية ، ونحن نختلف معها فى ذلك كل الاختلاف ، ودعوى اشتراكنا معا فى هذه الناحية غير مقبولة .

–العبارة الثانية فى هذه النقطة من النشرة « المحاضرة » هى : لقد خول إلى الإنسان باستعمال مواهبه العقلية أن يعمل على تنظيم المجتمع بموجب الشرع الطبيعى ، هذا الشرع الطبيعى يقابل الطبيعة الإنسانية العالمية ، إذ هو مبنى على العقل . ومن ثم كما يقول اللاهوتيون المسيحيون إنه قبس من الشريعة الإلهية السرمدية ، ولذا يستطيع العقل ، أقول : العقل الخاضع للحكمة الإلهية أن ينظم صلات العدل بين مواطنين من أديان مختلفة . اهـ .

نعم . . نحن لا نمنع ما تدعيه من أن هذا الكلام هو كما يقول اللاهوتيون المسيحيون . ولكننا لا نقر لك أن هذا الكلام معـترف به فى الإسـلام أو بين المسلمين ، فلا اعتراف عندنا بما يسمى عند علماء اللاهوت بالشرع الطبيعى ، لأن الله أغنانا عنه بالشرع الإلهى وهو أعظم مُزكٍ للفطرة ، ودعواكم أن هذا الشرع الطبيعى يقابل الطبيعة الإنسانية العالمية لأنه مبنى على العقل نفهمها نحن بأنها جديرة أن تمنع أسباب التقارب ، وأن توقع الفرقة والشحناء بين بنى البشر ، لأن العقل البشرى ليس واحدا بالذات فى جميع البشر . ولا واحدا بالدرجة والقـوة والاتجاه . . والشرع الطبيعى الذى يقابل عندكم الطبيعة البشرية المبنية على العقل جدير أن يتوزع تبعا لتوزع هذه العقول

طرائق قددا ، وقد عصم الله من اعتصم من المسلمين بشرعه الإلهى الموحّد ، الذى يسع جميع الطبائع البشرية فى إطاره ، وماأجدر من يسعى إلى التقريب بين البشر ، أوبين الأديان ، أن يلوذ بكنف هذا الشرع الشريف ويحتمى بحماه .

أما دعوتكم للمسلمين بأن يشتركوا معكم فى استعمال مواهبهم العقلية لوضع مثل هذا الشرع الطبيعى فهى دعوة لهم للخروج من جنة التوحيد الإلهية إلى نار الرغبات الشهوية البشرية ، وهيهات أن يقتنع بدعوتكم مسلم يعرف شريعته كما يعرف مافى تلافيف أحاديثكم من تلبيس وتضليل يقصد به هدم الشريعة الإسلامية لاغير .

أغنية التقارب بين الأديان :

من هذه المناقشة يظهر أن النتيجة قد تؤدى إلى تمييع العقائد الإسلامية بذكر مايتوهم أنه مشترك بينها وبين المسيحية ، وعدم الاهتمام بماعداه ، وقد تؤدى كذلك إلى تمييع العقائد المسيحية بذكر مايتوهم أنه مشترك بينها وبين الإسلام ، وعدم الاهتمام بما عداه ، رغبة فى التقريب بين الفريقين ، ولكن ذلك مسخ للعقيدتين ، وإبطال للدينين ، ولايفيد أيا من الطرفين !؟

ولِمَ كل هذا العناء فى إقناع المسلمين بذلك مع أن العقيدة الإسلامية لاتلزم من يخالفها ، ولاتكره أحدا على اتباعها ، وهى تأمر أهلها باحترام غيرهم من أهل الأديان السماوية ، وإقرارهم على دينهم وعباداتهم وكنائسهم وبيعهم ماسالمونا وتركونا وشأننا .

لِمَ كل هذا العناء فى إقناع المسلمين بذلك ، مع أن ماعندهم من هذه القواعد ركن ركين من أركان التقريب لمن يريد أن يخلص فى الدعوة إليه ، أما التقارب عن طريق تحريف العقائد فأمر لايصح لأنه يفسد الأديان ، ويضيع معناها ، وينبغى إذن أن يكون التقارب –كما يتضح من قواعد الإسلام– فى النواحى العملية التى تتم من خلال العلاقات بين الجانبين ، فبذل الجهد فيها أولى وأكثر فائدة .

ومع ذلك ، فكم هى الدعوات التى نسمعها من أقطاب المسيحية شرقاً وغربا تنادى بالتقارب بين المسيحية والإسلام ، ثم لانجد منها أى اهتمام بهذه النواحى العملية التى تترتب معها العلاقات وتنتظم ، ولكنها تتوجه إلى العقيدة وقواعد الشريعة ، فماذا يريدون ؟ ؟ هل يريدون إفساد الأديان ؟ أم يريدون زعزعة الإسلام ؟

لقد أصبحنا من كثرة تكرار هذه

الدعوة ، واتخاذها ستارا لتشويه العقيدة الإسلامية وتعطيل الشريعة الإلهية ، نشك فى كل صوت يرتفع بذلك .

ولقد ذكرنا من جانبنا النواحى العملية التى يفرضها علينا ديننا تجاه أهل الأديان السماوية ولذلك اشتهر الإسلام بأنه دين التسامح ، نظريا فى عقيدته وشريعته ف وقوانينه ، وعمليا فى تاريخه وواقعه وحياة المسلمين العامة والخاصة ، ولقد ذكر بابا الكنيسة المصرية الأنبا شنوده من تسامح المسلمين مع رفاقهم المسيحيين فى مصر مايكفى برهانا .

فماذا وجدنا نحن من جانب المسيحية العالمية ومن جانب أصحاب الدعوات إلى التقارب بين المسيحية والإسلام ! ! ؟

إننا نحسن الظن - كما هى سجيتنا - ولكن عندما تتكرر عوامل الخداع والإحباط ، فإننا لانكاد نأمن لمثل هذه الأصوات .

أغنية قديمة مكرورة :

ومثل هذه الأصوات المضللة ، والدعوات المزيفة ، ليست جديدة ، ولاهى بدعة هذه الأيام ، ولكنها بدعة قديمة قدم هذه العداوة ، وإن كانت تتخذ أشكالا مختلفة ، فقد حدث مثل ذلك فى عهد الرسول ﷺ ، وحكى القرآن الكريم قصتها فقال : (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) آل عمران : آية ٧٢ .

وقد عقد المؤتمر العالمى للأديان فى لوندرة بتاريخ ٣ يوليه سنة ١٩٣٦ م للمناداة بمثل هذه الشعارات ، واشترك فيه فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر حينئذ ببحث عن « الزمالة الإنسانية » .

وظلت يد المسلمين ممدودة تعرض هذه الزمالة وماتزال .

وظلت أمثال هذه المؤتمرات والندوات والمحاضرات تعقد وتقام وتلقى ، والموضوع هو الموضوع ، والمحاولة هى المحاولة ! ؟

فماذا يريدون منا أكثر من الزمالة الإنسانية - على حد تعبير الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ! ؟ هل يريدون أن نسلمهم عقيدتنا ونعطل شريعتنا ونلغى ديننا ؟ ؟ ما أصدق قول الله تبارك وتعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) البقرة : آية ١٢٠ .

وضع هذه الدعوة . . معكوس :

ومن الغريب أن يتولى الدعوة لهذه المؤتمرات والندوات ، ولفكرة التقارب هذه رجال من العالم المسيحي دون العالم الإسلامي ، وهو أمر يخالف الوضع الطبيعي والمنطق .

إذ من المفروض أن ينادي بهذه الدعوة وأن يطالب بتطبيقها المضطهدون والمظلومون ، والمحرومون من النفوذ والجاه والسلطان ، المتعرضون لبطش الجبارين وقهر المستبدين ، استثارة للإنسانية في نفوس الطغاة الظالمين ، وتحريكا لمشاعر الرحمة في قلوب المتحكمين والجبارين .

لهذا كان من الطبيعي والمنطق أن يكون أصحاب هذه الدعوة من العالم الإسلامي لا من العالم المسيحي .. ذلك لأن نظرة سريعة إلى العالمين — الإسلامي والمسيحي — تبين أن العالم الإسلامي قد عانى خلال هذين القرنين ذروة العسف والتنكيل ، والظلم والاضطهاد والقهر والاستعباد ، وأبشع أنواع الاستغلال . بكل صوره وأبعاده على يد العالم المسيحي وأن العالم المسيحي — وهو يمارس هوايته في إذلال العالم الإسلامي وتجريده من كل مقوماته — يمتلك القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية والعلمية والفنية . ويصب بها جام سخطه وكراهيته وكبريائه واستعلائه على العالم الإسلامي .

ترى أين تجد الجوع والعرى ، وأين تجد الأمراض والأوبئة ، وأين تجد البطالة والتشرد ، وأين تجد اللاجئين والمنبوذين ! ؟ في العالم الإسلامي ! أم في العالم المسيحي ! ؟؟

ترى أين تجد الشبع والتخمة ، وأين تجد الإسراف والرفاهية ، وأين تجد الراحة والمتعة ، وأين تجد الغنى والرخاء ! ؟ في العالم الإسلامي ! أم في العالم المسيحي ! ؟

فأى الفريقين أولى أن يجأر بهذه الدعوة ؟ دعوة التقارب بين أصحاب الدينين ! ؟

إنها قضية واضحة بديهية . ومع ذلك فلم تصدر هذه الدعوة من العالم الإسلامي ، لأنها داخلة في شريعته لا يحتاج معها إلى إعلان .

ولكن الغريب كل الغرابة . . أن يظل الغرب المسيحي يردد هذه الأغنية العذبة الجميلة . . بينما تغوص يداه القويتان الفولاذيتان في الجراح الغائرة في أعناق المسلمين .

فعلى أى معنى يمكن لنا أن نفسر هذه الدعوة ! ؟؟ إن لم يكن تحذير الفريسة للإجهاز عليها كلية ! ؟

الوجوه التى يمكن فيها التقارب :

التقارب – إذن لايصح أن يكون على حساب العقائد ، ولاعلى حساب الشريعة الإسلامية ، لأنها – وفى المقام الأول – هى الأساس الذى يضمن للمسيحيين روح التسامح لدى المسلمين ، ولأنه لايوجد لدى المسيحيين مثل هذا التشريع الشامل لكل نواحى الحياة .

يتبقى بعد ذلك النواحى العملية فى العلاقات الإنسانية ، وهى التى يمكن فيها التقارب ، وهى التى نظمتها الشريعة الإسلامية أدق تنظيم وأوفاه ، بحيث لم نعد فى حاجة لمن يوجه إلينا دعوة بعدها .

ومع ذلك فقد ذكر لنا صاحب النشرة « المحاضرة » فى نقطته الثالثة الخطوط العريضة للتقارب الإسلامى المسيحى فى سبيل عالم أفضل ، فذكر بعض المسائل العملية وخلطها بقصد أوبدون قصد بأعمال المبشرين والمستشرقين وجهودهم . فاستوفى بذلك نواحى التخريب للإسلام ، من ناحية العقيدة فى النقطة الأولى . ومن ناحية الشريعة فى النقطة الثانية ، وأخيرا من ناحية العلاقات الإنسانية فى النقطة الثالثة .

ونحن لانريد أن نرد عليه هذه النقطة الثالثة ردا غير جميل ، بل نريد أن نجاريه فيها ماوسعنا الجهد ، وماوسعنا حسن الظن ، فنذكر له أننا من جانبنا أقرب مما يدعون ، ومما يطلبون ، ومن الناحية العملية والعلاقات الإنسانية ، والتاريخ والواقع شهيدان ! ؟

بقى أن نرى استجابتهم لما يدعون هم إليه فى هذا المجال .

نريد أن نرى هؤلاء الدعاة ، وهم يعملون جهدهم لإيقاف المذابح التى يقوم بها أبناء دينهم لأبناء المسلمين فى كل بقاع العالم الإسلامى ، من الفلبين شرقا إلى بلاد إفريقيا غربا ، وأن يمنعوا السلاح عن هؤلاء الذين يستعملونه فى إبادة الأقليات الإسلامية فقط .

نريد أن نراهم وهم يعملون جهدهم لإقناع الساسة من بنى دينهم برد حقوق المسلمين فى بلادهم وأرضهم ، وفى حكم أنفسهم بأنفسهم ، إليهم .

نريد أن نراهم وهم يعملون جهدهم لإقناع بنى دينهم بعدم التدخل فى شئون البلاد الإسلامية التى تريد أن تحكم بما أنزل الله ، وتتخلص من أوزار الشيوعية الإلحادية الماحقة ، والرأسمالية الربوية الساحقة ، وأن تمتنع عن تحريش الدول الإسلامية بعضها ببعض .

نريد أن نراهم وهم يبذلون جهدهم لمنع تسليط الأقليات المسيحية على المسلمين فى البلاد ذات الأكثرية المسلمة .

نريد أن نراهم يبذلون جهدهم لإقناع المبشرين المسيحيين فى البلاد الإسلامية بالكف عن تجريح المسلمين والطعن فى قرآنهم ورسولهم ومهاجمة دينهم واحتقار شعائرهم ومساجدهم .

نريد أن نراهم يبذلون جهدهم لإقناع أصحاب النفوذ والسلطان والمال من بنى دينهم بعدم إيذاء المسلمين ببناء كنائس فى بلاد إسلامية لايوجد فيها مسيحيون ، وبدق النواقيس تحديا واستفزازا للمسلمين . والتطاول عليهم فى البنيان .

نريد أن نراهم يعملون ماوسعهم لإقناع المبشرين من أهل دينهم فى البلاد الإسلامية بعدم استعمال أساليب الإغراء الوضيعة ماديا وخلقيا لإفساد أبناء المسلمين واستدراجهم لترك دينهم – تحت ضغط الفقر والحاجة – دون مراعاة لوجه الحق والشرف والمروءة .

نريد أن نبنى السلام ، نريد أن نبنى المحبة ، نريد أن نوزع الرخاء ، نريد أن نعمر الأرض البور بما يكفل الغذاء والكساء لكل بنى البشر ، مسيحيين وغير مسيحيين ، وأن نعمر الأرض باستخراج خيراتها وكنوزها التى سخرها الله للإنسان ليستفيد منها جميع بنى البشر ، مسيحيين وغير مسيحيين ، نريد أن نشبع الجائعين ونكسو العرايا ، ونعالج المرضى ، ونسعد الطفولة ، ونرعى الشيخوخة ، ونتيح العلم والمعرفة للجاهلين .

ترى لو فعلوا ذلك ، ألايتحقق مايزعمون أنهم يدعون إليه من وجود علاقات أفضل فى عالم أفضل ! ؟

أم القصود هو تقليم مخالب المسلمين أولا بأول ، وتخدير أعصابهم إلى الحد الذى يمكنهم فيه أن يتلاعبوا بعقولهم وعقائدهم ، تحت تأثير تلك الأغنية المكرورة .

نريد أن نراهم مرة واحدة ينتصفون لحق بلد إسلامى أهدر . وأن نراهم مرة واحدة يردون على المستعمر المسيحى استعماره واستغلاله وسوء معاملته . . باسم المسيح . . باسم السيد المسيح عليه السلام . .

وماتوفيق إلا بالله

د . عبد الفتاح عبد الله بركة

مشكلة الهلال ...
أليس لها من حل .. ؟

الشيخ / على حسن البولاقى

نشرت مجلة العربى بعددها الصادر فى شعبان سنة ١٣٩٨هـ مقالا للأستاذ عبد المحسن صالح تحت عنوان «سؤال كل عام – نعتمد الرؤية – أم الحساب الفلكى ؟ لماذا الخلاف فى صيامنا وأعيادنا ؟ والعلم قادر على قياس الزمن لجزء من بليون جزء من الثانية ؟ »

وإلى القارئ الكريم بعض المقال ببعض تصرف :

«غريبة أحياناً أمور بعض من يوكل إليهم تحديد الشهور ! ! ووجه الغرابة أنهم يعتقدون فى صحة الأسس العلمية تارة ، فيركنون إليها فى صلاتهم وإمساكهم وإفطارهم ، أو أى شأن من شئون دنياهم ، ثم إذا بهم يعودون فيفكرون بها تارة أخرى .. فكلما انقضى شعبان وحل رمضان ، أو جاء عيد من الأعياد ، تراهم يرسلون رسلا منهم ، ليستطلعوا الهلال ، فيعلنوا ما رأوا فى البلاد ، وكثيرا ما يضعون الناس فى حيص بيص ، خاصة عندما تتضارب أقوالهم ، فلا يكاد المسلمون – لفترة – يعرفون رءوسهم من أرجلهم لا فى صيامهم ولا أعيادهم والكون – بلاشك – بمثابة ساعة كونية دقيقة غاية الدقة ، لأنها من صنع الله الذى قدر فسوى ، وعلى هذه الساعة المضبوطة نعتمد ، ونحن مطمئنو الفؤاد ، صحيح أننا لا نستطيع أن نرى هذه الساعة الكونية كما نرى ساعاتنا التى نضعها حول معاصمنا ، لكنّ العالمين ببواطن الأمور ، والذين ينظرون إلى الكون نظرة أعمق وأشمل ، يدركون أن حركة الأرض والقمر والشمس والكواكب والنجوم والمجرات والمذنبات تضع أمام أعيننا ، وفى عقولنا ، نظما لا يأتيها الباطل فالعلماء الذين يتعاملون مع نواميس الوجود ، هم وحدهم الذين يعلمون أنهم أمام أفلاك متقنة ، وأزمنة محددة ودورات مقننة ، وهم بتطلعهم الطويل إلى الأجرام السماوية ، واستعانتهم بأجهزة ومعدات ومناظير فلكية متطورة قد استطاعوا صياغة

كل هذا الإبداع فى معادلات وقوانين توضح لنا بجلاء ما يغم على عيوننا القاصرة ، وعقولنا المحدودة ، فإذا بالكون العظيم يتجلى لنا بصورة أروع وأبدع من كل مارآه الأقدمون ، ثم إن التقويم الزمنى الذى يعتمدون عليه فى النتائج لا ينبع من فراغ بل جاء أساسا من حركة الكون المضبوطة وليعودوا إلى القرآن الكريم ليستلهموا منه فصل الخطاب (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصّل الآيات لقوم يعلمون) ، (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا) ، (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) ، (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) ، (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) ، (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) .

كل هذه الآيات وغيرها تشير بوضوح أو من طرف خفى إلى أن الزمن الفلكى أو الكونى ، إنما هو انعكاس حقيق لحركة الكون وما حوى ، وطبيعى أن الإنسان ولو كان متفقها فى الدين لا يستطيع أن يرى الإتقان فى التقدير ، والدقة فى التسخير والإبداع فى التسيير والانضباط فى الأفلاك ، إلا إذا درس القوانين والمعادلات التى تحكم هذه الأكوان المحيطة ، فإذا بها تريه مالا يستطيع الاجتهاد فيه ، أو الاعتراض على ما تطويه ، إن رجل العلم الحقيق يضع نصب عينيه دائما حقيقة لامفر منها ، فهو يطوع عقله لفهم قوانين الكون ولا يخضع الكون لبصره أو إدراكه المحدود ، ولو فعل لأخطأ وغوى ولما أدرك من الأسرار العميقة شيئا مذكورا ، إذاً فالحركة والتسخير والمنازل والأفلاك التى تسبح فيها هذه الأجرام ، إنما هى دليلنا إلى علم السنين والحساب والأرقام أو هى – كما يراها رجل العلم التجريبى – حركة تؤدى إلى زمن إلى أرقام تنبع من معادلات ، أو العكس ، فلولا دوران الأرض حول نفسها لما عرفنا شيئا اسمه زمن ولا كان هناك ليل أو نهار ولا شروق ولا غروب ولا صيام ولا أعياد ولا فصول وعندئذ لن يكون لوجودنا معنى ، ولقد اقتبسنا من حركة الأرض حركة أودعناها فى تروس وعقارب لتتحرك حركة إيقاعية

تفصلها وحدات زمنية نعرفها فى حياتنا بالثانية والدقيقة والساعة واليوم والشهر وعندئذ تشعرنا بمرور الزمن إذا غم علينا سريانه وكما يعتمد بعض تروس الساعة على بعض ، كذلك تكون الأجرام السماوية فكيانها ووجودها وزمنها تعتمد على حركات ودورات وجذب وغير ذلك من قوى تحمل كل ما فى الأرض والسماء موزونا وقائما بغير عمد ترونها وعلى أساس هذا التعادل جرت معادلات العلماء وحساباتهم لتوضح لنا أن كل شيء فى الكون يسرى بحساب (يفصل الآيات لقوم يعلمون) والذين يعلمون يدركون تماما لماذا استمرت السموات والأرض بلايين من السنين ليس هذا فحسب فهم يستطيعون من خلال معادلاتهم أن يقدروا ما يمكن أن يكون عليه الكون العظيم لبلايين أخرى من السنوات القادمة ، ومن أجل هذا صمد الكون ويصمد وسيصمد بفضل الدقة المتناهية فى حركته وزمنه ، فالفوضى التى نعيش فيها أحيانا ، إنما تنبع من عقولنا وتنبثق من أنماط تفكيرنا ، فالقمر تابع للأرض يدور حولها وله حول نفسه دورة لها زمنها ، والأرض لها حول نفسها دورة لها زمنها ، ولها حول الشمس دورة لها زمنها أيضا ، وللشمس والأرض وكواكبها الأخرى وما يتبعها من أقمار دورة فى المجرة لها زمنها وللمجرة أيضا زمن ودورة .. إلخ (كل يجرى لأجل مسمى) ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وطبيعى أن كل هذه العلوم العصرية لاتجد تقبلا من بعض القائمين بتحديد الشهور لأنهم يهجرونها كلما أقبل رمضان أو جاء عيد من الأعياد ولابد أن يختلفوا لأن مواقعهم على الأرض تمنع من توحيد الرأى والزمن ، وطبيعى أننا نعرف أن لكل دولة زمنها ولقد علم الاختلاف بين زمن قطر وقطر من التقدم العلمى الذى انعكس على آلات وأدوات تقيس الزمن لجزء من بليون جزء من الثانية ذلك أن هذه الساعة الكونية تتأثر بقوى ومقاومات كامنة فى طبيعة تلك النظم فتتدخل فى حركاتها فتجعلها تبطئ أو تسرع كل ذلك يتوقف على الظروف السائدة ونحن لا نحس بزيادة السرعة أو إبطائها لأن ذلك يتم بمعدلات بطيئة للغاية لاتصبح محسوسة إلا بمرور ملايين السنين لكن العلماء حسبوها وقدروها ، فمن العوامل التى تتسلط على أرضنا الآن وتبطئ سرعة دورانها حول نفسها كالجاذبية يتبين أن هذا الإبطاء ينعكس على إبطاء فى زمننا الأرضى بحيث يؤدى إلى جعل يومنا هذا أقصر من غدنا

بحوالى ٢٥ جزءا من بليون جزء من الثانية ويترتب على ذلك أنه بعد خمسة آلاف مليون عام من الآن ستبطئ الأرض فى حركتها إلى الدرجة التى يصبح فيها اليوم ٣٦ ساعة من ساعاتنا الحالية ويقدر العلماء أيضا أن هذا الإبطاء سوف يؤدى إلى ضعف فى قبضة الأرض على القمر فيبدأ فى الهروب بعيدا فى الفضاء، فهو يبتعد عن الأرض بمقدار قدم واحدة فى كل ثلاثين عاما أى أنه يبتعد عن الأرض بحوالى خمسين ألف كيلو متر بعد خمسة آلاف مليون عام ولهذا سيبدو أبعد وأضعف نورا، وعندئذ تتمدد الشمس وتعطى الأرض دفعة فتزيد سرعتها فتشتد جاذبيتها لقمرها فيعود إلى حظيرته بل يزداد قربا من وضعه الحالى. وبهذا يتبين أن الذين يحسبون بجزء من بليون جزء من الثانية ويقدرون المسافات بالمتر والسنتيمتر لن يعييهم أن يحسبوا بدقة تامة منازل القمر وطبيعى أنه كلما تقدم بنا الزمن كانت الحسابات أدق؟ وقد يقول قائل: وما يدرينا أن هذه الحسابات صحيحة؟ الواقع أن الحديث فى ذلك يطول ويكفينا أن نذكر أنه ما كان ليتيسر للإنسان أن يستكشف الفضاء بصواريخه وأقماره ويدفعها فتدور حول الكواكب إلا بمعرفة دقيقة لمواقعها وسرعة دورانها وقوى جاذبيتها، فإن الخطأ - وإن قل - كفيل بتحطيم آمال العلماء فى غزو الفضاء ثم إنه من ميكانيكا هذه الأجرام المتقنة يمكن حساب عدد مرات الكسوف والخسوف مقدما وموعد كل منها، ففى موقع محدد بجنوب الأطلنطى مثلا سوف يسجل العلماء أطول كسوف لم يحدث لمئات السنوات إذ ستنكسف الشمس لمدة سبع دقائق وثمان وعشرين ثانية فى يوم ٢٦ يونيو عام ٢١٨٦ أى بعد مرور ٢٠٨ عاما من الآن وحتى المذنبات التى تقترب من الأرض فى أزمنة متفاوتة لها حساباتها فمثلا مذنب هالى سيظهر فى تمام الساعة التاسعة والنصف من مساء ٩ فبراير ١٩٨٦ ودورة هذا المذنب حول الشمس تقع فى حدود ٨١ و ٧٥ عاما وإلى هنا ورغم تقدم العلوم الفلكية نرى الذين لايعلمون عن أمور هذا التقويم شيئا لايستفتون الذين يقدرون ويحسبون مع أن الله عز وجل قال: (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وفى الحديث: اطلبوا العلم ولو بالصين(١). والعلم الآن بين أيدينا ونركن إليه فى تقاويمنا، فنصلى

(١) هذا الحديث رواه العقيلى وابن عدى والبيهقى وابن عبد البر كلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ.

الفروض بهديها أو نصوم ونفطر ونحن مطمئنون لحساباتها دون أن نلجأ إلى الخروج للخلاء لنستطلع الخيط الأبيض من الأسود ، أو نسجل غروب الشمس وشروقها . . فإن لم يسرع القائمون بإثبات الشهور بالأخذ بأسباب العصر وعلومه ، فإن الزمن لا يرحم ، وسوف تنطلق قافلة العلم بسرعة الصاروخ ! ؟

* * *

أقول : إن الإسلام هو الدين الحنيف الصالح لكل زمان ومكان ، والعوام فى كل زمان ومكان أضعاف أضعاف العلماء ، فكان من الحكمة أن يربط الإسلام جميع عباداته وغيرها بظواهر كونية يعرفها العوام والخواص جميعا فالصلوات الخمس مرتبطة بالفجر والزوال وصيرورة ظل الشيء مثله وغروب الشمس ومغيب الشفق ، والصوم مرتبط برؤية الهلال ليلة الثلاثين من الشهر المنتهى فإن لم تتحقق أكملت عدته ثلاثين ، وربطت زكاة المال والأنعام والتجارة بالحول وهو اثنا عشر شهرا قمريا ، وزكاة الزروع بالحصاد وهو معروف للزراع والفقراء جميعا ، وربط الحج باليوم التاسع من ذى الحجة للوقوف بعرفات ، والعاشر لرمى جمرة العقبة وذبح الأضاحى والأيام الثلاثة التى بعده لرمى الجمار والمبيت بمنى وكذلك ربطت عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها ، والرضاع والإيلاء والحضانة والبلوغ وغيرها بظواهر معروفة .

وهذا تيسير من الشارع على الأمة وهو لاينافى تعلم الحساب الذى يعرف به وضع القمر فى ليلة الثلاثين ، فالرؤية هى الأصل ، والحساب مهما كان دقيقا فهو مبنى عليها ، ولولاها لما استطاع الحاسبون تكوين قواعدهم التفصيلية الدقيقة ، فإذا أغنى الحساب عن الرؤية من حيث العلم فلا يغنى عنها من حيث الذكرى والتفكر والتدبر فى خلق الله (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وفى استطلاع الهلال وانتظار ثبوت الشهر أو نفيه اعتناء واهتمام واحتفاء بالأمور الدينية فهو شعار للصوم والفطر والحج ، كالأذان للصلاة مع علم الناس بمواقيتها بالساعات وغيرها . وارتياح الناس بالاطمئنان والمعرفة التامة بعد الانتظار القليل فيه من اللذة والبهجة ما ينسى ألم الحيرة بل إن الحيرة نفسها وسؤال الناس بعضهم بعضا فيهما من الاعتناء والاهتمام ما فيهما فلا داعى للتهويل ورمى الأمة والائمة بالرجعية والجمود والتأخر والتخلف عن ركب الحضارة إذا تراءوا الهلال ليلة الثلاثين من كل شهر مع تقدم

علم الحساب الفلكى ، فليس فى ذلك غمط للعلم ولا إنكار له ولا كفر به ولا كفران بنعمته فهى من الله (ومابكم من نعمة فمن الله) والمحققون من أئمة الهدى لم ينكروا العمل بالحساب الصحيح الذى لاشبهة فيه ، وقد اعتنى مجمع البحوث الإسلامية منذ سنوات بمسألة تحديد أوائل الشهور القمرية فكلف أحد أعضائه – وهو الأستاذ الكبير الشيخ محمد على السايس .. رحمه الله – كتابة بحث فى تحديد أوائل الشهور القمرية فكتب بحثا نفيسا فى ذلك اشتمل على بيان أقوال علماء المذاهب الأربعة وبعض الشيعة الإمامية والزيدية فيما يثبت به هلال رمضان وشوال وغيرهما فى حالتى الصحو والغيم ، مع بيان وجهة كل منهم ومناقشة الأدلة وترجيح المختار منها ، وبيان آراء علماء الإسلام فى مطالع القمر وهل يؤثر اختلافها فى إثبات الشهور أو لا عبرة باختلافها فيمكن توحيد البلاد الإسلامية واجتماعها على مبدأ واحد ؟ وبيان أنواع الحساب الفلكى وما جرى عليه العمل قديما وحديثا فى التقاويم الرسمية وغيرها حتى يتميز ما يصح عليه التعويل وما لايصح . وبيان آراء العلماء فى الأخذ بقول أهل الحساب والفلكيين فى تحديد الشهور القمرية .

– ثم ذكر خاتمةً فى بيان ما يجب على الدول الإسلامية القيام به فى شأن إثبات الشهور القمرية لتصل إلى هذه الغاية المنشودة من أقرب سبيل فقال : «تبين من كل ما تقدم فى هذا البحث أن الراجح ما يأتى :

أولا : أن إثبات الشهور فى حد ذاته من غير نظر إلى ما يتعلق به من حقوق العباد – من باب الإخبار لا من باب الشهادة ، وأنه لا يدخل تحت الحكم والقضاء ، فلا تلزم فيه شروط الشهادة ويستوى فى المخبر أن يكون ذكرا أو أنثى حرا أو عبدا ، ولا يشترط مجلس الحكم ولا تقدم الدعوى ولاقضاء قاض ولا أمر حاكم ولا لفظ أشهد ويكفى أن يكون المخبر مستورا غير ظاهر الفسق .

ثانيا : أن الشهور جميعا سواء فى حالتى الصحو أو الغيم يكفى فى إثباتها خبر الواحد متى غلب على الظن صدقه ولم يكذبه الحساب الموثوق به القاضى باستحالة الرؤية وأنه لا تشترط الاستفاضة ولا العدد إلا عند مظنة الغلط أو الخطأ أو رجحان تهمة الكذب .

ثالثا : أنه لا عبرة باختلاف المطالع فإذا ثبت الشهر فى حكومة إسلامية ونقل هذا الثبوت إلى سائر البلاد الإسلامية بطريق موثوق به فإنه يعم حكمه الجميع

ماداموا مشتركين مع بلد الرؤية فى جزء ولو يسيرا من ليلة الرؤية .

رابعا : أنه لايصح التعويل فى إثبات الشهور على قواعد الفلكيين القدماء فيما قبل النهضة الإسلامية فى العصر العباسى لأنها قواعد تقريبية ظنية غير متيقنة ولا منضبطة كما لا يصح التعويل على الجداول الفلكية التى تجعل بعض الشهور ثلاثين يوما أبدا وبعضها ٢٩ يوما أبدا فقد تبين خطؤها وأنه قد تتوالى أربعة أشهر حقيقية كل منها ثلاثون وثلاثة أشهر كل منها تسعة وعشرون .

كما ثبت أن الحساب الفلكى المعمول به الآن فى التقاويم الرسمية وغيرها لا يتفق مع الحساب الشرعى الذى يعتمد على القطع بالرؤية أو إمكانها على الأقل لأن التقاويم الحالية تعتمد فى تعيين أوائل الشهور على اجتماع الشمس والقمر فيجعلون أول ليلة يغرب فيها القمر بعد غروب الشمس هى أول الشهر ولو استحالت الرؤية ومن المقرر أنه قد يتفق الحسابان وذلك فيما إذا غرب القمر بعد الاجتماع وقد يتقدم أول الشهر بالحساب الفلكى الاجتماعى على أوله بالحساب الفلكى الشرعى المبنى على إمكان رؤية الهلال بيوم فى الأكثر أو بيومين فى الأقل ويلزم على الأخذ بهذه التقاويم تغيير أوقات العبادات عما حدده لها الشارع وبالتالى يلزم إحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله فقد حرم الله صوم أيام العيدين وأيام التشريق وأحل الفطر فى شعبان كما يلزم عليه أن يكون الوقوف بعرفة فى غير التاسع وأن تذبح الأضاحى قبل وقتها .

خامسا : أن الحساب الفلكى الشرعى المبنى على الوضع الهلالى وإمكان رؤيته بعد غروب يوم ٢٩ من الشهر السابق بحساب الرؤية يصلح مناطا مستقلا لإثبات الشهر ، كما اختاره طائفة من العلماء الأثبات كالسبكى ، وابن سريج ، وابن مقاتل وغيرهم ، ورجحه الشيخ محمد بخيت المطيعى فى كتابه « إرشاد أهل الملة إلى إثبات الأهلة » وأن ذلك لايتنافى مع أحاديث إثبات الشهور بالرؤية أو الإكمال بناء على أن المراد العلم بالرؤية لاحقيقتها ، بدليل وجوب الصوم على الأعمى والمحبوس وسكان القطبين ، وهم محرومون من الرؤية حتما ويدل على ذلك أيضا ما جاء فى بعض روايات الحديث من قوله ﷺ « فإن غم عليكم فأقدروا له »

فقد فسر من يرى من العلماء الأخذ بالحساب القطعى قوله ﷺ « فأقدروا له » بمعنى فانظروه وتدبروا فيه من قولهم قدرت الأمر نظرت فيه ، وتدبرته ، وذلك بالحساب عند من خصهم الله بهذا العلم .

قال تقى الدين السبكى قاضى قضاة دمشق فى كتابه العلم المنشور فى إثبات الشهور : إن البحث فى الحديث فى موضعين أحدهما قوله فأقدروا له قال بعض من يقول باعتماد الحساب معناه : احسبوا له ويكون معناه قدروه بالحساب والمنازل كما قال تعالى (وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) قال مطرّف بن عبد الله من التابعين وابن قتيبة من المحدّثين وابن سريح من الشافعية وابن مقاتل من أصحاب محمد ابن الحسن وطائفة من المتأخرين . قالوا : ولا يلزمنا ما قال بعضهم من أن الناس لو كلفوا بالحساب ضاق عليهم لأنه لا يعرفه إلا أفراد قلائل ، لأنه إنما يلزم ذلك لو كلف عامة الناس بالحساب ، ولم يقل بذلك أحد ، بل الذى قلناه : أن قوله ﷺ «فأقدروا له» بالمعنى الذى اخترناه : خطاب لمن خصه الله بهذا العلم وقوله ﷺ « فأكملوا العدة ثلاثين يوما » كما فى الرواية الأُخرى خطاب للعامة . فالذين خصهم الله بهذا العلم يكون نظَرهم بالطريق المقدور لهم وهو طريق الحساب ويكون نظر العامة الذين لايعرفون الحساب أولا يقلدون من يعرفه بالطريق المتيسر لهم وهو الرؤية أو إكمال العدة ، فلا تنافى بين الروايتين بل نحن ننزلها على حالين مختلفين فنكون عاملين بهما .

سادسا : يجب وجوبا كفائيا أن يكون فى كل حكومة إسلامية هيئة شرعية من مهمتها إثبات الشهور العربية بوجوه الإثبات المعتبرة شرعا مع مراعاة الاتصال بالمراصد والفلكيين العدول الموثوق بهم فى دينهم وعلمهم ليتحققوا من جواز الرؤية أو استحالتها حتى لا يقعوا فى الخطأ ويثبتوا الشهر قبل موعده كما حصل فى بعض السنين من قاضى الرؤية المنفرد بهذا الإثبات وترتب عليه صيام المسلمين يوما من شعبان وفطرهم يومين من رمضان .

سابعا : ليتحقق الأمل المنشود وهو توحيد أوائل الشهور العربية فى جميع البلاد الإسلامية يجب أن ينبه ناشروا التقاويم الرسمية وغيرها إلى أنه يلزمهم أن يبنوا تحديد أوائل الشهور القمرية على الوضع الهلالى الحقيقى فيكون أول الشهر هو أول ليلة يمكن أن يرى فيها الهلال بعد الاجتماع وأن يراعوا خط عرض مراكش وهو ١٥° درجة « غرب جرنينتش »[1] لتكون تقاويمهم هلالية شرعية عالمية مساندة ومنظمة لعملية الرؤية

---

(١) الصحيح أن مراكش على خط طول ٨° غرب جرينتش ، وينبغى أن يقال : خط طول ١٧° غرب جرينتش وهو الخط المار بمدينة داكار فى السنغال . وأولى من ذلك فى نظرى أن يراعى أقصى خط غرب أمريكا . كما سيأتى .

فى جميع الحكومات الإسلامية » اهـ .

* * *

وهذه النقاط بحاجة إلى بعض الإيضاحات :

– أما النقطة الأولى وهى أن إثبات الشهور من باب الإخبار لا من باب الشهادة فهى تيسير على المسلمين كما أنها تيسير على القائمين بإثبات الشهور كما لا يخفى .

وأما النقطة الثانية ، هى أنه يكفى فى إثباتها خبر الواحد متى غلب على الظن صدقه ولم يكذبه الحساب الموثوق به القاضى باستحالة الرؤية – فهى نقطة جديرة بالاعتبار غير أنها تحتاج إلى تطبيق دقيق جدا ، وسيأتى مزيد تفصيل بهذه القضية .

وأما النقطة الثالثة وهى أنه لا عبرة باختلاف المطالع فهى جارية على رأى الجمهور وإن خالف فيها أكثر الشافعية وبعض الحنفية والمالكية والزيدية والإمامية ولكن جاء فى آخر الكلام عليها تقييد بلد الرؤية بكونه مشتركا مع البلد الذى يراد إثبات الشهر فيه فى جزء من الليل ولو يسيرا . والذى يرجع البصر فى البحث كرتين يتبين له أن هذا القيد ليس للاحتراز وإنما هو لبيان الواقع ، فإن الدول الإسلامية التى يراد توحيد الشهور فيها تنحصر بين خط ١٧° غرب جرينتش وهو الذى يمر بداكار بالسنغال وخط ١٢٥° شرق جرينتش ، وهو الخط الذى يمر بشرق أندونيسيا فبينهما ١٤٢° درجة أى تسع ساعات وثمان وعشرون دقيقة ، فإذا رئى الهلال بعد غروب الشمس فى داكار أمكن تبليغه إلى أندونيسيا قبل الفجر بساعة تقريبا ، وهى مدة يمكن فيها السحور وتبييت النية وستأتى لهذا الكلام بقية .

وأما النقطة الرابعة وهى عدم صحة التعويل على التقاويم ... فلا حاجة بنا إلى مناقشتها وإن كانت محل مناقشة فإن علماء المرصد عندنا يرسلون إلى فضيلة المفتى الموكول إليه إثبات أوائل الشهور – بيانا تفصيليا بوضع الهلال من غرب إفريقيا إلى شرق آسيا ، وهذا البيان دقيق جدًّا ويغنى عن النظر فى التقاويم المختلفة فإذا تقرر بالحساب الموثوق به أن الهلال فى الرباط من بلاد المغرب لايمكث بعد غروب الشمس أصلا أو يمكث مقدارا أقل من سبع دقائق – علم أنه تستحيل رؤيته فى جميع الدول الإسلامية ، فلا يؤخذ بأقوال شهود الرؤية فى هذه الدول وهذه مسألة تكثر فيها الحساسيات والعصبيات التى تشبه ما كان فى الجاهلية الأُولى فهى بحاجة إلى

المعالجة بالحكمة – وسيأتى مزيد تفصيل بهذه المسألة :

وأما النقطة الخامسة : وهى أن الحساب المبنى على وضع الهلال وإمكان رؤيته بعد الغروب يصلح مناطا مستقلا لإثبات الشهر فهو واضح لكن يجب التنبه إلى أن الحاسب لا يكتفى بحساب مكث الهلال فى بلده بل يحسب مكثه فى خط ١٧° غرب جرينتش ، فإمكان الرؤية فى الخط المذكور يوجب ثبوت الشهر فيه وفى جميع الدول الإسلامية إلى شرق أندونيسيا ، واستحالة الرؤية فيه يوجب إكمال الشهر ثلاثين يوما فى جميع الدول والأولى – كما سيأتى – اعتبار غرب أمريكا بدلا من غرب إفريقيا

وأما النقطة السادسة وهى وجوب إنشاء هيئة للتوقيت فى كل بلد فهى واضحة .

وأما النقطة السابعة : وهى تنبيه واضعى التقاويم إلى أن يبنوا أوائل الشهور على إمكان رؤية الهلال بعد الغروب لا على مكثه ولو دقيقة واحدة فهى واضحة والمقصود إمكان الرؤية فى غرب إفريقيا بأن يمكث الهلال فى داكار سبع دقائق أو أكثر – ولنا كلام فى هذا الموضع نذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى ؟

* * *

وصايا المؤتمر :

هذا ، ولما عرض البحث على المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية المنعقد فى جمادى الآخرة سنة ١٣٨٦هـ أوصى المؤتمر بما يأتى :

(أ) يقرر المؤتمر ما يلى :

١ – أن الرؤية هى الأصل فى معرفة دخول أى شهر قمرى كما يدل عليه الحديث الشريف فالرؤية هى الأساس لكن لايعتمد عليها إذا تمكنت فيها التهم تمكنا قويا .

٢– يكون ثبوت رؤية الهلال بالتواتر والاستفاضة كما يكون بخبر الواحد ذكراً كان أو أنثى ، إذا لم تتمكن التهمة فى إخباره لسبب من الأسباب ، ومن هذه الأسباب مخالفة الحساب الفلكى الموثوق به الصادر ممن يوثق به .

٣ – خبر الواحد ملزم له ولمن يثق به ، أما إلزام الكافة فلا يكون إلا بعد ثبوت الرؤية عند من خصصته الدولة الإسلامية للنظر فى ذلك .

٤ – يعتمد على الحساب فى إثبات دخول الشهر إذا لم تتحقق الرؤية ولم يتيسر الوصول إلى إتمام الشهر السابق ثلاثين يوما .

(ب) يرى المؤتمر أنه لاعبرة باختلاف

المطالع وإن تباعدت الأقاليم ، متى كانت مشتركة فى جزء من ليلة الرؤية وإن قلّ ، ويكون اختلاف المطالع معتبرا بين الأقاليم التى لاتشترك فى جزء من هذه الليلة .

(ج) يهيب المؤتمر بالشعوب والحكومات الإسلامية أن يكون فى كل إقليم إسلامى هيئة إسلامية يناط بها إثبات الشهور القمرية ، مع مراعاة اتصال بعضها ببعض والاتصال بالمراصد والفلكيين الموثوق بهم ! ؟

* * *

إيضاح هذه الوصايا :

(ا) الوصية الأولى : العمل بالقرارات الأربعة الآتية :

١ – القرار الأول : أن الرؤية هى الأصل فى معرفة دخول الشهر القمرى لكن لايعتمد عليها إذا تمكنت فيها التهم تمكنا قويا .

هذا القرار يبين أن الرؤية هى الأصل وليس المقصود رؤية البلد الذى يراد إثبات الشهر فيه ، بل المقصود – أخذاً مما يأتى – ما يشمل رؤية البلد نفسه ورؤية بلد آخر يجمعه معه جزء من الليل ، فأهل أندونيسيا مثلا يثبت الشهر عندهم بالرؤية فى بلدهم أو فى أى بلد آخر يجمعه وإياهم جزء من الليل كمكة ومصر وتونس والمغرب وموريتانيا .

وشرط العمل بالرؤية ألاّ تتمكن التهمة فيها ، وأعظم شىء يمكّن التهمة فى الرؤية هو أن يدل الحساب الموثوق به من الحاسب الفلكى الثقة على عدم إمكان الرؤية فى البلد الذى ادعى بعض أهله أنهم رأوا الهلال فيه – فهذه الدلالة الحسابية الفلكية اليقينية تدفع الإخبار بالرؤية بالخبر إما كاذب عمدا ، وإما واهم أومتخيل ! ؟

ويؤخذ من هذا الشرط أن السادة المكلفين بإثبات الشهور فى الدول الإسلامية المختلفة يجب أن يكون عند كل واحد منهم علم سابق بوضع الهلال مأخوذ من حاسب ثقة ، ونعنى وضع الهلال فى الدولة نفسها وفى الدول الأُخرى التى يجمعها مع الدولة جزء من الليل .

وهذا ليس بعسير ، ففى مصر مثلا معهد للأرصاد يقوم بحساب وضع الهلال فى جميع الدول الإفريقية والآسيوية ، ويرسل حساب ذلك مفصلا موضحا إلى دار الإفتاء كل شهر ، ولا شك أن مدير هذا المعهد وأساتذته ثقات متخصصون لا يتطرق الشك إلى حساباتهم التى يؤيدها المرصد فيما بعد .

فلا يسوغ التشكيك فى هذا الحساب ومعارضته بحساب بلاد أُخرى ليس فيها

مثل هذا المعهد ، ولا مثل هذا المرصد ، ولا مثل هؤلاء المتخصصين ، كما حدث فى الأعوام التسعة أو العشرة الماضية التى خولفت فيها حسابات، مصر فى جميع الأشهر تقريبا ، فكل شهر من شهور تلك السنين كان أوله يسبق أول الشهر فى الحسابات المصرية مما أدهش جميع الناس حتى قالوا : إن المعهد الذى يخطئ فى حساب الأشهر أكثر من ثلاثين مرة فى نحو عشر سنين لا يصح أن يسمى معهدا بل يجب إغلاقه حتى يتعلم أساتذته كيف يحسبون وهذا أمر مؤسف جدًّا ، ونرجو من فضيلة المفتى الجديد أن لا ينسج على منواله .

غير أنّا نرجو من السادة الحاسبين بمعهد الأرصاد أن يتخذوا بدل الرباط ومراكش موقعا غربياً أبعد يجمعه مع مصر ومكة جزء من الليل ، وليكن هذا الموقع مدينة « نيو أورليانز » الواقعة على خط ٩٠° غرب جرينتش فهذه المدينة بينها وبين مصر ١٢١° درجة وبينها وبين مكة ١٣٠° درجة ، والدرجة أربع دقائق أو جزء من خمسة عشر جزءاً من الساعة فيكون بينها وبين مصر ثمان ساعات وأربع دقائق ، وبينها وبين مكة ثمان ساعات وأربعون دقيقة ، وحساب وضع الهلال فى المدينة المذكورة كثيرا ما يجعل أول الشهر سابقا بيوم على ما فى التقويم المصرى – ولعل هذا يقرب شقة الخلاف بين تقويمنا وتقويم أم القرى الذى تسبق أشهره أشهرنا غالبا ، ولقد ضربت المثل بهذه المدينة والحاسبون أعلم منى بها ولعلهم يختارون موقعا أبعد منها يكون عند خط مائة .

– فإن قيل : إن المدينة المذكورة وغيرها من بلاد أمريكا ليس فيها من يتراءون الهلال ولا الحاكم المسلم الذى يثبت عنده الشهر ! ؟

– قلنا : إن التقدم العلمى يقيم إمكان الرؤية مقام الرؤية ويقيم الثبوت بهذا الإمكان مقام الثبوت عند الحاكم المسلم ، والله عز وجل قال فى كتابه العزيز (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى مَنْ علم منكم بدء الشهر فليصمه سواء أكان العلم ناشئا عن رؤية أم حساب وسواء أكان بحكم حاكم أم لا ! ؟

٢ – القرار الثانى يكون ثبوت رؤية الهلال بالتواتر والاستفاضة ، كما يكون بخبر الواحد ذكرا كان أو أنثى إذا لم تتمكن التهمة فى إخباره لسبب من الأسباب ومن هذه الأسباب مخالفة الحساب الفلكى الموثوق به الصادر ممن يوثق به .

هذا القرار صريح فى أنه يجب أن

يكون القائم بإثبات الشهر مزودا بالعلم بوضع الهلال قبل تلقى شهادة الشهود ، فهذا العلم المأخوذ من أقوال الفلكيين الثقات هو الذى يعرف به خطأ الشهود الذين يشهدون بالرؤية إذا دل العلم على استحالتها، ثم إن المقصود بالرؤية هو الرؤية فى البلد الذى يراد إثبات الشهر فيه وفى كل بلد يجمعه معه جزء من الليل كما سبق .

٣ – القرار الثالث : خبر الواحد ملزم له ولمن يثق به ، أما إلزام الكافة فلا يكون إلا بعد ثبوت الرؤية عند من خصصته الدولة الإسلامية للنظر فى ذلك .

هذا القرار واضح لا يحتاج إلى بيان ، والمقصود أن حاكم كل دولة ملزم دولته التى تحت حكمه لا غيرها

٤ – القرار الرابع : يعتمد على الحساب فى إثبات دخول الشهر إذا لم تتحقق الرؤية ولم يتيسر الوصول إلى إتمام الشهر السابق ثلاثين يوما .

هذا القرار معناه أنه يعتمد على الحساب الذى يبين إمكان أو عدم إمكان الرؤية فى البلد أو فى بلد آخر يجتمع معه فى جزء من الليل ، ويشترط فى اعتماد الحساب أن لاتتحقق الرؤية لغيم أو غبار فى البلد والبلاد الأخرى التى يجمعها مع البلد جزء من الليل وهذا الشرط شرط شكلى لا موضوعى ، فإن الحساب الدال على إمكان الرؤية لابد منه عند الرؤية وإلا كانت رؤية وهمية أو خيالية فالحساب إذاً معتمد عليه عند تحقق الرؤية لنفى التهمة عنها كما يعتمد عليه عند عدم تحققها ، ولكن فى الحالة الأولى يقول مثبت الشهر : إن الشهر قد ثبت للرؤية ليكون عاملا بحديث « صوموا لرؤيته . . » وفى الحالة الثانية يقول : غم علينا الهلال فقدرنا له فثبت الشهر للعلم بإمكان رؤيته لولا المانع عملا بقوله ﷺ « فإن غم عليكم فأقدروا له » ويشترط فى الاعتماد على الحساب شرط آخر وهو أن لايتيسر الوصول إلى إتمام الشهر السابق ثلاثين يوما ، وهذا الشرط معناه أن لا يدل الحساب على استحالة الرؤية فى البلد وفى جميع البلاد التى تجتمع معه فى جزء من الليل فإنه إن دل على استحالة الرؤية تيسر الوصول بل وجب الوصول إلى إكمال الشهر ثلاثين ، وهذا شرط شكلى أيضا فإن الحساب إذا دل على استحالة الرؤية لزم من ذلك إتمام الشهر السابق ثلاثين ، فهذا الإتمام من لوازم الحساب لكن مثبت الشهر لا يقول : إن الشهر لم يثبت لاستحالة الرؤية بمقتضى الحساب وإنما يقول : إن الهلال قد غم علينا فوجب إتمام السابق ثلاثين عملا بحديث فإن غم عليكم فأكملوا العدة

ثلاثين » والخلاصة أن الشرطين شكليان والحساب معتمد عليه فى جميع الأحوال .

– ولنا تعقيب على عبارة هذا القرار حيث تضمنت هذه الجملة وهى « ولم يتيسر الوصول إلى إتمام الشهر السابق ثلاثين يوما » وهذه الجملة صعبة الفهم وقد شرحناها بما استطعنا وكان يغنى عنها أن يقال : « يعتمد على الحساب إذا أمكنت الرؤية ولم تتحقق » والله أعلم .

(ب) الوصية الثانية من وصايا المؤتمر :

« يرى المؤتمر أنه لاعبرة باختلاف المطالع وإن تباعدت الأقاليم متى كانت مشتركة فى جزء من ليلة الرؤية وإن قلّ ، ويكون اختلاف المطالع معتبرا بين الأقاليم التى لاتشترك فى جزء من هذه الليلة »

هذه الوصية مبنية على مذهب الجمهور القائل « لاعبرة باختلاف المطالع » غير أن مذهب الجمهور لم يقيد بما قيدت به الوصية وهو قولها « متى كانت مشتركة فى جزء من ليلة الرؤية » وهذه كتُبُ الفقهاءِ بين أيدينا ليس فى شىء منها تقييد بهذا القيد .

ثم إن هذا القيد يحتمل احتمالين :

الاحتمال الأول : أنه لاعبرة باختلاف المطالع بين الدول الإسلامية المتجاورة المحصورة بين خط ١٧° غرب جرينتش وخط ١٢٥° شرق جرينتش فهذه الدول لاعبرة باختلاف المطالع بينها لأنه يجمعها جزء من الليل فرؤية الهلال ليلة الثلاثين فى أقصى غربها كالمغرب وموريتانيا والسنغال يثبت بها الشهر فى أقصى الشرق وإن لم يروا الهلال كأندونيسيا وماليزيا وباكستان ويكون المقصود من القيد توحيد أوائل الشهور فى هذه المجموعة الإسلامية ويبقى بعد ذلك مسلمو أمريكا واليابان وشرق أستراليا فهؤلاء يعملون برؤية الهلال فى بلدهم أو البلاد القريبة من بلدهم وقد يبلغهم خبر إثبات أوائل الشهور فى مجموعة البلاد الإسلامية فيسلكون سبيلهم عملا بقول الجمهور « إذا ثبت الشهر فى بلد ثبت فى جميع البلاد »

الاحتمال الثانى : أنه لاعبرة باختلاف المطالع بين الأماكن مطلقا سواء أكانت من مجموعة الدول الإسلامية المتجاورة أم غيرها متى كانت متحدة فى جزء من ليلة الرؤية فمصر مثلا واقعة على خط ٣١° شرق جرينتش فلا عبرة باختلاف المطالع بينها وبين البلاد التى فى أمريكا مثل نيو أورليانز الواقعة على خط ٩٠° غرب جرينتش فإنها يجمعها مع مصر جزء من الليل ، وكذا تجتمع المدينة المذكورة مع مكة الواقعة على

خط ٤٠° شرقا فى جزء من ليلة الرؤية .

وهذا الاحتمال هو ظاهر لفظ الوصية وهو أوسع من الاحتمال الأول

والقيد على كلا الاحتمالين لاداعى إليه فيما أرى ولا دليل على التقييد به ولو حذف لأدى إلى توحيد الصوم والإفطار وجميع أوائل الشهور فى الأرض كلها لا فى مجموعة الدول الإسلامية وحدها ، وليس ذلك بعسير على الفلكيين فإنهم يستطيعون أن يحسبوا مكث القمر بعد الغروب ليلة الثلاثين فى مثل « لوس أنجلوس » وغيرها من البلاد التى فى غرب أمريكا ولو بالقرب من خط التاريخ الدولى[1] ومتى عرفوا وضع الهلال فيها أمكنهم أن يثبتوا أول الشهر بها ليلة الثلاثين أو الليلة التالية ، فإذا ثبت الشهر بها ثبت فى جميع البلاد الإسلامية وغيرها ، والثبوت بالحساب يغنى عن شهادة شهود وحكم حاكم وانتقال قوم من بلد إلى بلد بالإخبار ، بل لايحتاج إلى انتقال الحاسبين إلى المكان الذى يريدون التعرف على وضع الهلال فيه ، ولعل حاسبى تقويمنا المصرى يجعلون الشهور مبتدئة من الليلة التى يمكن رؤية الهلال فيها فى غرب أمريكا بدلا من الليلة التى يمكث الهلال فيها ولودقيقة فى القاهرة فيسبق أول الشهر غالبا مايجرى عليه العمل الآن فلايغضب الناس إذا سمعوا من قاضينا أن الشهر ثبت أوله مع عدم إمكان رؤيته بالقاهرة وسائر البلاد الإسلامية – ونضرب لذلك مثلا أول شهر ذى الحجة من العام المنصرم ، فقد كان أوله بحسب إمكان الرؤية فى القاهرة وسائر البلاد الإسلامية ليلة الخميس ، لأن الهلال غرب فى مصر وسائر البلاد الإسلامية قبل غروب الشمس ليلة الأربعاء فكانت الليلة المذكورة ويومها آخر شهر ذى القعدة عندنا وعند جميع الدول الإسلامية ، ولكن القائمين بإثبات أوائل الشهور فى السعودية قضوا بأن أول ذى الحجة ليلة الأربعاء بناءً على شهادة من شهد عندهم بالرؤية مع أنها مستحيلة على ماقرره الفلكيون الثقات وحزن الناس وقالوا : كيف يصدقون الشهود مع استحالة الرؤية وكيف يقف الناس بعرفات يوم الثامن بدل التاسع ؟ ويضحون يوم التاسع بدل العاشر... ولو علموا أن ثبوت أول الشهر فى أقصى بلد غربى يستلزم شرعا عند الجمهور ثبوت أول الشهر فى جميع البلاد الشرقية – لو علموا ذلك لأراحوا أنفسهم

(١) هو خط طول ١٨٠° فإذا اعتبرناه غرب أمريكا يكون اليوم مثلا يوم الجمعة أول المحرم الموافق لأول ديسمبر وإذا اعتبرناه شرق آسيا فإن ذلك اليوم نفسه يكون يوم السبت ثانى المحرم وثانى ديسمبر وتفصيل ذلك فى الكتب الجغرافية ! ؟

فإن الهلال الذى غرب قبل غروب الشمس ليلة الأربعاء بمصر ومكة وغيرها قد غرب بعد غروب الشمس فى الليلة المذكورة فى غرب أمريكا ومكث زمنا تمكن فيه الرؤية فثبت أول الشهر فى أمريكا وبثبوته يثبت أول الشهر بمكة فأول ذى الحجة شرعا ليلة الأربعاء ووقوف الناس بعرفة كان يوم التاسع وتضحيتهم كانت يوم العاشر على الرغم من أن الشهود الذين زعموا أنهم رأوا الهلال ببلدهم كانوا كاذبين قطعا ، ولكنهم صادفوا الحق ، وليس هذا تبريراً لصنيعهم فإن شهادة الزور من أكبر الكبائر كما لايخفى ، ولعل هذه المصادفة من المعجزات لرسولنا ﷺ حيث قال « صومكم يوم تصومون وأضحاكم يوم تضحون » رواه البيهقى فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه ورواه الترمذى عنه بلفظ « الصوم يوم تصومون والفطر يوم تفطرون والأضحى يوم تضحون » .

ولو فرضنا أنهم وقفوا بالثامن وضحوا بالتاسع فالله عز وجل أكرم من أن يبطل حجهم وأضحيتهم ، فإنهم فعلوا ما فى وسعهم ولم يكلفهم الله بالعمل بالحساب رحمة بهم .

(ج) الوصية الثالثة من وصايا المؤتمر :

« يهيب المؤتمر بالشعوب والحكومات الإسلامية أن يكون فى كل إقليم إسلامى هيئة إسلامية يناط بها إثبات الشهور القمرية ، مع مراعاة اتصال بعضها ببعض والاتصال بالمراصد والفلكيين الموثوق بهم . »

هذه الوصية ظاهرة لاتحتاج إلى إيضاح غير أننا نؤكد لزوم الاتصال بالفلكيين الثقات والمراصد ، ونأمل أن يكون عند السادة العلماء القائمين بإثبات أوائل الشهور القمرية ثقة فى الحاسبين المتخصصين بحيث يجرءون على ردّ شهادة الشهود الكاذبين بالحكمة ، ولنضرب لذلك مثلا :

– إذا كتب مدير معهد الأرصاد بمصر أنه لامكث للهلال ولا تمكن رؤيته بها ولا بغرب إفريقيا ولا بغرب أمريكا فى ليلة الثلاثين . فمعنى هذا أن الشهود الذين يشهدون بالرؤية فى بلد من البلاد كاذبون فلا تقبل شهادتهم ، ولا الأحكام المترتبة عليها . . ولكن التصريح بهذا يغضب القضاة المتعصبين لرؤية أهل بلدهم ولو كانت مخالفة للواقع ، فالحكمة تقتضى :

أولا : إعلام قضاة البلاد بعدم إمكان الرؤية قبل الشهر بأُسبوعين أو بثلاثة أسابيع

ثانيا : عدم الاتصال بهم فى ليلة الرؤية .

ثالثا : الاكتفاء بالقول بأن المستطلعين عندنا لم يروا الهلال، وأن أهل الخبرة أثبتوا أن الهلال لاتمكن رؤيته فى هذه الليلة بجميع البلاد فعلى هذا يبدأ الشهر من الليلة التالية .

* * *

وأختم هذا المقال ببيان المشكلة وأسبابها وعلاجها بإيجاز :

(ا) أما المشكلة فهى تفرق الدول الإسلامية فى أوائل الشهور ، فبينما يكون أول شهر رمضان مثلا الخميس عند قوم يكون الجمعة عند آخرين والسبت عند فريق ثالث والأحد عند فريق رابع مع أن القمر لا يجتمع مع الشمس إلا مرة واحدة كل شهر فيجب أن يكون مبدأ الشهر واحدا فى جميع البلاد .

(ب) وأما أسباب هذه المشكلة فهى ثلاثة :

السبب الأول : الشهادة بالرؤية من قوم توهموا أو تخيلوا أو تعمدوا الكذب فيقضى القضاة بشهادتهم تحسينا للظن بهم فيتقدم الشهر يوما فى البلاد التى اعتمدت على هذه الشهادة دون البلاد التى لم تعتمد عليها فلا يتوحد أول الشهر.

السبب الثانى : إكمال الشهر ثلاثين عند من غم عليهم الهلال بغيم أو غبار وعدم إكماله عند من لم يغم عليهم

السبب الثالث : اعتبار اختلاف المطالع فالدول التى لم تر الهلال تكمل الشهر ثلاثين غير ناظرة إلى الدول الأُخرى التى رأت الهلال فجعلت الشهر تسعا وعشرين .

(ج) وأما علاج هذه المشكلة فيتلخص فى مبدأين :

المبدأ الأول : اعتبار جميع الدول الإسلامية المحصورة بين خط ١٧° غ و ١٢٥° ش كأنها دولة واحدة فإذا أمكنت رؤية الهلال فى أقصى دولة غربية فيها كالمغرب وموريتانيا والسنغال ليلة الثلاثين ثبت الشهر فى جميعها وإن لم تمكن وجب إكمال الشهر ثلاثين فى جميعها .

المبدأ الثانى : القضاء على شهادة الزور التى تقدم الشهر عن موعده الشرعى يوما أو يومين والقضاء على التأخير كذلك يوما أو يومين بسبب الغيم أو الغبار .

– ولا يقضى عليهما إلا الاعتماد على الحساب الموثوق به من حاسبين ثقات يحسبون سير القمر ويعرفون زمن مكثة بعد الغروب فى جميع هذه الدول على أنهم يكفيهم أن يعرفوا مكثة فى أقصى دولة

غربية منها فإن من الحقائق التى لايشك فيها اثنان أن استحالة الرؤية بالغرب تقتضى استحالة الرؤية بالشرق ، فإذا حسبوا وضع الهلال فى هذه المنطقة الغربية فعرفوا أنه لاتمكن رؤيته فيها أثبتوا أنه لاتمكن رؤيته فى مجموعة الدول كلها ، فيكون كل من شهدوا بالرؤية فيها مخالفين للواقع ، وإذا عرفوا إمكان الرؤية فى هذه المنطقة الغربية عرفوا ثبوت الشهر فيها ومتى ثبت الشهر فيها ثبت فى جميع الدول ، إذ لاعبرة باختلاف المطالع ، وحينئذ يقضى على الإكمال بالغيم أو الغبار أو عدم الرؤية بأى سبب كان ، فلا يتأخر الشهر عن موعده الشرعى ، فالحساب هو العنصر الحاسم الذى به يتوحد الشهر فى مجموعة الدول الإسلامية إما بثبوته ليلة الثلاثين لإمكان رؤيته فى الغرب وإما بثبوته فى الليلة التالية بعدم إمكان رؤيته فى الغرب .

– وبهذا يتبين أنه يجب أن يكون عند السادة المكلفين بإثبات الشهور أرضية أو خلفية أو معلومات يقينية أو شبه يقينية بوضع الهلال فى بلدهم وفى أقصى موقع غربى كالسنغال وموريتانيا والمغرب وأن تكون هذه المعلومات مأخوذة من حاسب موثوق به سواء أكان من أهل البلد أم من غيرهم وألاّ يعارضوا هذا الحساب بحساب آخر للتوصل إلى سقوطها والعودة إلى استجداء الرؤية والشهادة ممن دلت التجارب على مخالفتهم للواقع

– وبهذه المعلومات يعلمون مقدما أنهم سيثبتون أول الشهر لإمكان رؤيته فى بلدهم ، أو سيثبتونه لإمكان الرؤية فى الموقع الغربى ، أو سيجعلون أوله من الليلة التالية لعدم إمكان رؤيته فى مجموعة الدول .

– فإذا استقرت عندهم هذه المعلومات قبل الشهر بثلاثة أسابيع أو أُسبوعين أو أُسبوع فليتصل بعضهم ببعض قبل الشهر للإعلام والاستعلام ، لا ليرجع واحد منهم عن معلوماته بغير اقتناع ، فإن هذا ليس من الدين ، وقد قال رسول الله ﷺ « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » رواه البخارى فى التاريخ والإمام أحمد فى المسند عن وابصة بن معبد بسند صحيح ، ومعلوم أن هذا خطاب لمن شرح الله صدره بنور اليقين .

– والحذر الحذر من اتصال بعضهم ببعض ليلة الثلاثين فإن هذا الاتصال مجلبة للقيل والقال ، لأنهم إن اختلفوا بعده كانوا كالمتخاصمين ، وإن اتفقوا كان فى الاتفاق تخلى بعضهم عن معلوماته بغير اقتناع ! ؟

– وفى ليلة الثلاثين يندب كل واحد منهم

رجالا موثوقا بهم استطلاعا للهلال لزيادة الاطمئنان وسيخبرونهم بما يتفق مع معلوماتهم إن كانت صحيحة .

– فإن أخبروهم بالرؤية وكانت ممكنة أثبتوا أول الشهر بناءً على الرؤية .

– وإن أخبروهم بعدم الرؤية حكموا بإكمال الشهر ثلاثين لعدم تحقق الرؤية إن كانت مستحيلة فى الموقع الغربى .

– فإن أخبروهم بعدم الرؤية وكانت ممكنة فى الموقع الغربى : حكموا بإثبات الشهر بناء على أنه لاعبرة باختلاف المطالع ! ؟

* * *

وقبل إلقاء القلم : أذكّر القارئ الكريم بأن المبدأ الأول الذى ذكرته هنا وهو اعتبار الدول الإسلامية المحصورة بين غرب إفريقيا وشرق آسيا كدولة واحدة : هو المعمول به حتى الآن ، وفى رأيى – كما سبق – اعتبار الأرض كلها كدولة واحدة ، فإن مذهب الجمهور أن ثبوت الشهر فى موضع من الأرض يقتضى ثبوته شرعا فى جميع بقاع الارض سواء أكان يجمعها جزء من الليل أم لا – كما سبق – فعلى هذا يحسب الحاسبون وضع الهلال فى أقصى موقع غربى ممكن مثل البلاد الواقعة فى غرب أمريكا الوسطى أو الجنوبية ، فإن اقتضى الحساب أن الهلال يمكث بها بعد غروب الشمس ليلة الثلاثين بحيث تمكن رؤيته ثبت الشهر فى هذا الموقع وفى جميع بلاد الأرض وإن كان بعضها لم ير الهلال ، وإن لم يقتض الحساب مكثا بهذا الموقع الغربى أو اقتضى مكثا لاتمكن معه الرؤية كخمس دقائق لم يثبت الشهر فى الليلة المذكورة ، بل يكون فى الليلة التالية فى جميع بلاد الأرض .

وبهذا تتوحد أوائل الشهور فى جميع الدنيا لا فى المجموعة المحصورة بين إفريقيا وآسيا فقط ! ؟

* * *

– والرأى بعد هذا للسادة أعضاء مؤتمر مجمع البحوث إن رأوا تعديل ما أوصوا به فى المؤتمر الثالث .

والله الموفق إلى سواء السبيل .

على حسن البولاقى

الفقه الإسلامى بين المثالية والواقعية

الدكتور/محمد مصطفى شلبى

٣
غاية الأخلاق

بقى الأمر الثانى وهو جعلهم غاية الأخلاق غاية مثالية هى تهذيب النفوس دون ان يكون لها أثر فى تنظيم المجتمع .

وهو مردود كسابقه ، لأن الشارع حينما شرع الأخلاق لم يقصد بها إعداد النفوس البشرية لتكون ملائكة تحلق فى عالم الروح بعيداً عن المجتمع الواقعى ، بل قصد بها تهذيب النفوس لتكون نفوسا خيرة غير شريرة ، فيصلح المجتمع الذى يتكون منها ، وما المجتمع إلا بناء ضخم لبناته الأفراد فإذا كانت اللبنات صالحة كان البناء سليما[١] ، وإذا فسدت اللبنات أو بعضها كان البناء عرضة للانهيار فى كل حين ، فأثر الأخلاق بيّن واضح فى تنظيم المجتمع ، والقوانين بدونها لاتغنى غناءها ولا تحقق هدفها[٢] .

فلو تصورنا مجتمعاً ترك فضيلة الصدق ، وتخلق بنقيضه وهو الكذب ،

---

(١) أو كما يقول أستاذنا الأكبر فى كتابه نظرية الإسلام فى بناء المجتمع «وما المجتمع فى واقعه إلا الأفراد التى هى لبناته ومنها يتكون ، وما الأفراد فى واقعها إلا المجتمع الذى منها يتكون ، فبقدر صلاح الأفراد يصلح المجتمع وبقدر فسادهم يفسد المجتمع» .

(٢) ولقد اعترف بعض الفقهاء الغربيين بأثر الأخلاق الظاهر فى تحقيق القانون غايته ، فالفقيه الفرنسى ريبير فى كتابه «عن القاعدة الخلقية فى الالتزامات المدنية» كما نقل عنه الدكتور كيرة فى أصول القانون ص ٤٠ - يذهب إلى أنه لا يوجد فارق بين القانون والأخلاق لا من حيث الغاية ولا من حيث النطاق ، فقواعد القانون كلها محكومة بالأخلاق ، وهو ما يعطيها سنداً متيناً من الشرعية والإلزام فى نفوس الأفراد يجعلها أكثر قبولاً ومراعاة فى التطبيق العملى» وبعد أن بين أن الأخلاق فى صراع مستمر على التسلل إلى القانون لتوجيه حكمه قال : إن الغلبة فى النهاية لابد مكتوبة للأخلاق طالما يفتقد القانون الأساسى المثالى ، وطالما يوجد رجال يؤمنون ويكافحون فى سبيل سيادة المثل الأخلاقية .

وفى كتابه عن «القُوى الخلاقة للقانون» يحذر من انحراف القانون عن قواعد الأخلاق لما شهده من هذا الانحراف فى السنوات الأخيرة - ويؤكد استمساكه بالأخلاق كأساس للقانون وكعاصم مما يتهدد المدنية من انتشار هذه الظاهرة» . .

والكذب قلب الحقائق أو الأخبار بما لايطابق الواقع . كما يقول علماء الأخلاق . فماذا يكون مصير العلاقات فى هذا المجتمع الكذاب ، وأى فائدة للقوانين فيه ؟

وكيف تصل الحقوق إلى اصحابها مع هذا الكذاب المفسد للذمم ؟

ألم توجب القوانين كلها تحليف المدعى علية إذا انعدمت البينة ؟

فأى فائدة لليمين مع انعدام الصدق ؟ بل أى فائدة للشهادة التى تبنى عليها الأحكام مع عدم الاطمئنان إلى صدق الشهود ؟ (١)

ولو تجاوزنا ذلك وتصورنا مجتمعا عمت فيه النميمة وحب الانتقام واستباح كل واحد أن يتقول على غيره مايحلو له غير متقيد بميزان الخلق ، وقابل المفترى عليه ذلك بالانتقام من المفترى ، فماذا يكون نصيب ذلك المجتمع من الأمن والسلام والاستقرار التى تنشدها القوانين ! ؟

ألم يكن العفو والتسامح والإحسان إلى الغير وحب الخير لهم من دعائم الاستقرار فى المجتمع .

فالعفو يولد العفو ، والتسامح يقتل عداوة النفوس (ادفع بالتى هى أحسن فماذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) والإحسان يأسر النفوس ويجلب المحبة والألفة وحب الخير للناس وينتزع الغل والحقد من النفوس ! ؟

وهل ينكر عاقل ماللحياء من أثر فى عصمة النفوس ومنعها عن ارتكاب المخالفات ، وأنه إذا انعدم الحياء أو قل فى مجتمع انعدم فيه الخير أو ندر ، فتكثر الموبقات ، وقديما قيل : « إذا لم تستح فاصنع ماشئت » وهل يستطاع إنكار ماللإخلاص فى العمل من أثر فى رقى المجتمع وتقدمه ، وماللعزة والكرامة والحذر والاحتياط من الإبقاء على استقلال الشعوب واحتفاظها بهيبتها ؟ ؟

وهكذا تسهم كل فضيلة فى بناء السلام والاستقرار ، وبعكسها تكون الرزيلة معْوَلاً يهدم صرح الأمن والطمأنينة ، فماذا نبغى من الأخلاق وراء هذا كله ؟ ؟

نعم إن أثرها الأول يظهر فى النفوس فيطهرها ، ثم ينتقل ذلك الطهر إلى المجتمع فينقيه من الأدران ، فيصبح بذلك مجتمعا صالحا يأمن كل واحد فيه على نفسه وماله وعرضه .

ثم إن الأحكام العملية ذاتها وإن قصد

(١) ولقد أدرك المشرع الوضعى هذا الخطر فرتب على شهادة الزور عقوبات تختلف تبعاً لاختلاف المشهود عليه والأثر الذى يترتب عليها ، فقد تكون : السجن ، أو الأشغال الشاقة المؤقتة أو المؤبدة – وقد تصل إلى الإعدام راجع المواد ٢٩٤ – ٢٩٩ من قانون العقوبات .

بها تنظيم العلاقات أولا فهى تعود فى غالب صورها إلى النفوس بالتهذيب لتقوى العلاقات ، وتقوم على دعائم متينة ! ؟

ألا ترى معى : أن الصلاة وهى مظهر من مظاهر العبودية لله يتعدى نفعها إلى المجتمع ، فالنفس إذا خضعت لله وذلت له ، وأيقنت بمراقبته سمت بذلك وترفعت عما يضر المجتمع ، كما صرح بذلك القرآن (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) [1] ومن هنا قال رسول الله ﷺ فى شأنها « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » ! ؟

والزكاة وهى ضريبة اليسار فى الإسلام التى شرعت لتحقق التعاون بين الأغنياء والفقراء ، لها أثر كبير فى تهذيب النفوس ، فتغرس المحبة فى قلوب الفقراء بعد أن — تستل منها رذيلتى الحقد والحسد لأرباب الأموال ، كما تنتزع رذيله الشح والحرص على المال من نفوس الأغنياء ، ثم تحليلها بفضيلة البذل والعطاء ، وبهذا وذاك تتلاقى النفوس على الخير ، ويعم الأمن والاستقرار مجتمع الناس .

ولا يقل الصيام عن ذلك ، فهو مران على فضيلة الصبر ، وجهاد النفس الذى سماه الرسول الكريم : الجهاد الأكبر ، ويشعر الغنى بمرارة الحرمان ، فيلين قلبه عطفاً على المحتاجين .

ولا يخفى على منصف مافى تشريع المعاملات فى الإسلام من نواح خلقية ، إذا تأملها بعين واعية . فالربا الذى حرمه الإسلام : يهدف إلى حماية المجتمع من شر الأنانية وحب الذات والتحكم فى الغير وسلب أمواله بدون وجه حق ، ويبث روح التعاون فتطهر النفوس وتتحلى بثوب القناعة .

ولما فى الربا من خطر على المجتمع توعد الله فى كتابه المرابين بإعلان الحرب عليهم فى الدنيا (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) [2] وبالعقاب الشديد فى الآخرة (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [3]

وأعلن رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع إهدار ربا الجاهلية ، وانه موضوع تحت قدمه فقال : ألاإن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، وربا الجاهلية موضوع كله ، وأول ربا أضعه ربا عمى عباس بن عبد المطلب [4]

ولم يقتصر تحريمه على هذه الأمة بل قد

---

(١) العنكبوت — ٤٥ .

(٢ ، ٣) البقرة — ٢٧٩ ، ٢٧٥ .

(٤) امتاع الأسماع للمقريزى جـ ١ ص ٥٢٣ .

حرمه الله فى الشرائع السابقة [1] وهو دليل قبحه الدائم ، وقل أن يخلو تشريع إسلامى من مراعاة الجانبين .

جانب الفرد وجانب المجتمع وإن اختلف فى أيهما قصد أولاً ، وأيهما يأتى فى المرتبة الثانية ، وهو بذلك يجتث جذور الفساد ، ويبنى المجتمع بناء سليما من العيوب ، ولاغرو فمصدره الأول وحى الله الذى يملك الظاهر والباطن ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو أعلم من غيره بما ينفعه فى ظاهره وباطنه ، وقد قال سبحانه – عند خلق آدم – ردًّا على استفسار ملائكته عن الخليفة الذى يكون فى الأرض (إنى أعلم مالا تعلمون) [2]

وبمقارنة بين تشريع الإسلام والتشريع الوضعى فيما يتعلق بجريمة ماسة بالعرض – والشرف والنسب« جريمة الزنى » تلك الجريمه الخلقيه الفاضحة : نجد الفرق بينهما شاسعا .

فالتشريع الوضعى أباحها فى الأصل ، بل ونظمها بفتح بيوت البغاء الرسمى ، وقد فتحت فى بلدنا الإسلامى ، وبقيت مفتوحة إلى عهد قريب ، ثم أغلقت ، وإن كان إغلاقها لم يؤثر إلا فى منع علانيتها فقط ، وإلا فالقانون لايزال يحميها ويغمض عينه عنها . حيث لم يفرض عليها عقوبة إلا فى حالات خاصة ، حالة الإكراه ، وفى فراش الزوجية ، والصغيره التى لم تبلغ سن الثامنة عشرة – وفيما عدا ذلك لاعقاب ، بل لامؤاخذة مادام الرضا متوفراً بين الزانى والمرأة البالغة سن الزواج ، بعيداً عن فراش الزوجية [3] .

وأحكامها تتلخص فى أن العقوبة لاتوقع على الزانية إذا حدث الفعل برضاها وكانت غير متزوجة ، أوكانت متزوجة ولم يرفع زوجها الدعوة عليها ، أو رفعها ولم تسمع منه لسبب ما ، أو رفعها وسمعت منه ولكنه أوقف الإجراءات ، أو أوقف تنفيذ الحكم برضائه بمعاشرتها . والرجل لايعاقب

---

(١) لقد صرح القرآن بتحريمه على اليهود (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحلت لهم ، وبصدِّهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الرِّبا وقد نُهُوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل) ، (المائدة ١٦٠ ، ١٦١) .

ويقول ابن كثير فى تفسيره جـ ١ ص ٥٨٤ « إن الله قد نهاهم عن الرِّبا فتناولوه ، وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع الحيل » .

ويقول أبو حيان فى البحر المحيط جـ ٣ ص ٣٩٤ عند تفسير الآية السابقة : «قالوا : والربا محرم فى جميع الشرائع » .

وروى الكاسانى فى بدائعه جـ ٢ ص ٣١٢ « أن رسول الله كتب إلى مجوس هجر : إما أن تَذَرُوا الرِّبا أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله» .

(٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) راجع المواد – ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ من قانون العقوبات .

إذا زنى بامرأة غير متزوجة أو متزوجة ولم يرفع زوجها الدعوة عليها ، أو رفعها ولم تسمع منه لسبب ما ، والمتزوج لايعاقب إذا ارتكبها بعيداً عن منزل الزوجية ، أو فيه ولم ترفع زوجته الدعوى عليه .

ولم يلتفت المشرع الوضعي للآثار السيئة التي تترتب على هذا الفعل من اختلاط الأنساب ، وكثرة وجود الأولاد غير الشرعيين الذين تزدحم بهم الملاجئ ، والعار الذي يلحق الطرفين بما يجره التمادي في هذه الفعلة الشنيعة من استخفاف بالأعراض وإهدار كرامتها .

ولعل السر في سلوك قانوننا الوضعي هذا المسلك هو أنه مستمد في أصله من القانون الفرنسي الذي تأثر واضعوه بعادات بلادهم وتقاليدها ، فهي لاتعتبر هذه الفعلة جريمة إلا إذا صحبها إكراه أو كانت في فراش الزوجية . . . وهل مثل ذلك يستسيغه العقل في بلادنا ذات التقاليد والعادات المغايرة تماما لما عند الفرنسيين ؟ ؟

أما التشريع الإسلامي فقد اعتبرها جريمة في جميع صورها يستحق فاعلها العقوبة المقررة متى ثبت وقوعها بدليل صحيح من إقرار أو شهادة – يستوى في ذلك الرضا والإكراه في فراش الزوجية أو بعيداً عنه ، رضى الزوج بذلك أو لم يرض ، بلغت المزنى بها سن الزواج قانونا أو لم تبلغه (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) [١]

وفي هذا التحريم الشامل والعقاب الزاجر : اقتلاع لبزور هذه الفعلة الدنيئة من أرض المجتمع الطاهرة [٢] .

وبهذا ظهر لنا أن عنصر الأخلاق في التشريع الإسلامي لايبعده عن الواقع بل هو عامل من عوامل واقعيته وصلاحيته لسياسة المجتمع .

وإذا بطلت شبهاتهم الأولى إلى شبهتهم الثانية – وهي تأثره بعنصر الدين – لنكشف عما بها من زيف . . .

د. محمد مصطفى شلبي

---

(١) سورة النُّور : ٢ .

(٢) ويلاحظ أن مجرد تقدير العقاب الشديد كاف في الزجْر عن الجريمة ، ولا يلزم من تقريره إقامته في كل حالة ، لأن الشارع بعد تقريره تلك العقوبة احتاط في إقامتها احتياطاً يجعل توقيعها نادراً كما سيأتي توضيحه فيما بعد . .

في مواجهة الإلحاد المعاصر
" عقائد العلم "

الدكتور يحيى هاشم

نظراً لأن الخصم الذى نصاوله فى هذا البحث «الإلحاد» يهاجم «الدين» باسم العلم ، دون أن يبرأ من اعتناق نوع من «الدين» الزائف ، فقد رأينا أن نكشف عن هذا التناقض بين ما يتصف به ، وبين ما يدعيه ، ولذلك فإنه يصبح من الجائز لنا أن نقصد بالدين فى هذا الباب . . المعنى العام ، الذى لا يختص بالدين الصحيح ، وإنما يشمل أى نظام من المعتقدات تتوفر لها الخصائص التالية كلها أو بعضها :

أولا : أن تقوم على إيمان أولى .

ثانياً : أن تقوم على التسليم بوجود غيبى غير خاضع للإدراك الحسى المباشر أو غير المباشر .

ثالثاً : الإيمان بأصل للكون يتصف بالقدم والخلود .

رابعاً : وترجع إليه الأشياء فى طبيعتها وقوانين وجودها .

خامساً : انتظار الحياة المؤجلة التى يستكمل فيها ما نقص من هذه الحياة الحاضرة «الآخرة» . .

يقول الدكتور جيمس . ب . كونانت فى كتابه «مواقف حاسمة فى تاريخ العلم» :

إنه ليس بين الملاحدة واللا إدريين من كان فى قلبه من الإيمان باطراد الطبيعة واتساقها ما يكفى لممارسة العلم : وتجاريب العلماء .

ويقول أينشتاين :

«إن العلم لا يخترعه إلا أولئك المتشبعون تماما بحب الحق والإدراك السليم وهذا المصدر من مصادر الشعور ينبع من ميدان الدين . ويتصل بهذا الميدان أيضاً الإيمان بأن القواعد التى تنطبق على عالم الوجود معقولة . أى يمكن إدراكها بالعقل .

ولا أستطيع أن أتصور عالما حقا بغير هذا الإيمان العميق . ويمكن التعليق على هذا الرأى بهذه الصورة : العلم بغير دين أعرج ، والدين بغير علم أعمى»

«ويقول دكتور جون كيمينى فى كتابه «الفيلسوف والعلم» :

«إن العالم يبحث عن قوانين الطبيعة ،

لأن بحثه يكون عقيما لو لم تكن ثمة قوانين طبيعية إذن بالافتراض الأساسى فى العلم برمته هو أن هذه القوانين موجودة بالفعل »

ويقول الدكتور هرمان راندل فى كتابه « تكوين العقل الحديث » :

« إن العلم الحديث ولد من إيمان فى تفسير الطبيعة الرياضى أخذ العلماء به طويلا قبل أن يثبتوه بالتجريب . .

يلتهب هذا الإيمان قويا فى كتاب ليوناردو « قطع أدبية وفلسفية » .

إذ يبدو فيه مقتنعا بأن كل قوة فى الطبيعة تنتهى إلى نتائج من نوع معين وتفصح عن ذاتها فى نظام معين .

فالضرورة هى قيد الطبيعة الأبدى وقاعدتها لأن « الطبيعة محكومة بقانونها الذى يعيش مبثوثا فيها » ومع أن اكتشاف جوهر هذه القوى – وهو الذى هدف الأرسطوط اليسيون إلى البحث عنه – قد يكون فى غير متناول البحوث الإنسانية غير أن نتائج فعلها يمكن أن تعرف ، إن تحديد ماهية العناصر ليس فى مقدور الإنسان ولكن الكثير من نتائجها معروف وتعرض قوانين الطبيعة ذاتها فى طريق ثابت لا تتغير وفيه تتبع كل نتيجة سببها . .

يقول راندال :

« وهذه النظرة الكونية العلمية التى عرفت فى نهاية القرن التاسع عشر كانت بالطبع إيمانا يمكننا أن نصفه بأنه ضرب من التشبث . »

« لقد كان من المستحيل تقريبا أن يتجنب الباحث انتخاب حقائقه التى يريدها على نور نظرية سبق أن اعتقد بها . »

ويقول : كونانت :

« إن باستور كان يدفعه فى كل ما صنع إيمان عنده قوى بالفروض يبتدعها من عند نفسه ، وكان إيمانه الشديد تسنده أشياء أخرى غير الحقائق ، وما يخرج منها بالمنطق . . .

فهذا مثل لما أعنى ، حمله إلى النصر فيه الإيمان القوى الذى لم يعتمد فيه إلا على الدليل القليل . »

ويقول د . جون كيمنى :

« مهما تكن الوسيلة التى نعتمدها لتشكيل النظريات فلن نحيط علما بأكثر من أن النظريات قد طابقت المشاهدات الماضية وأن علينا أن نؤمن بأنها ستكون كذلك فى المستقبل . إنه بينما يجب علينا أن نقبل بصحة فرضيتنا عن إيمان بها نستطيع التنويه بأنه لو لم تكن فرضية ما صحيحة لغدت الحياة البشرية مستحيلة وإن الطبيعة

لو صممت بشكل يجعل الاستقراءات المعقولة تبدو ، فى النهاية ، خاطئة باستمرار لاختفى الجنس البشرى خلال مهلة قصيرة .

إنه قد لا يمكن أن نسوغ فرضية معينة ، إلا أن علينا أن نؤمن بفرضية على شاكلتها إذا أردنا للحياة أن تغدو ممكنة . »

ويقول وليم جيمس فى كتابه العقل والدين :

« نحن نؤمن كل الإيمان بأن الأشياء حتى ما يبدو منها كثير التعقيد والاضطراب لابد أن يصاغ يوما فى قاعدة جلية واضحة . . . »

التحقق من النظريات العلمية يخضع للإرادة والإيمان :

مفتاح التحقق من النظريات هو أننا لا نتحقق منها البتة هذا ما يقرره الدكتور جون كيمنى ، يقول : لأن ما نتحقق منه هو المترتبات المنطقية للنظرية .

فالتحقق هو عملية التأكد من أن ما قد تكهنا به هو فى الواقع كذلك . ولما كنا لا نستطيع سوى مشاهدة حقائق منفردة . . . فإن علينا أن نتحقق من المترتبات المنفردة لنظرية ما وليس النظرية بالذات .

وحتى إذا تبين لنا أن تكهناتنا غير صحيحة فلا يمكن لنا أن نتأكد أى النظريات هى الخاطئة إلا أننا واثقون من أن نظرية ما هى نظرية خاطئة – وعليه نعود إلى البحث عن ابسط الطرق لتحسين مجموعتنا من النظريات .

إنه بإمكاننا أن ننقذ أى نظرية ولكن على حساب جعل النظريات الأخرى أكثر تعقيداً ومن أجل هذا ، يكثر من يذهب إلى أن كل تجربة هى فى الواقع امتحان لمعرفتنا قاطبة .

ولنأخذ مثالا على ذلك من حياتنا اليومية .

فنحن ما فتئنا نسمع الكثير عن الصحون الطائرة . .

هنالك فرضية تقول بأن هذه الصحون الطائرة هى قذائف من الفضاء الخارجى .

إلا أننى أود أن أثبت بأنى لو أردت القول بأن لهذه الصحون سببا أرضيا ، فلن يثنينى عن اعتقادى أى دليل . ! !

ففى إمكانى أن أعدها وهما جماعيا فحسب . .

وإذا قيل إن شاشة الرادار قد تبينت وجودها منذ عهد قريب كان فى وسعى رد ذلك إلى أن عامل الرادار هو نفسه مصاب بالوهم وخداع الحواس .

وإذا أكد الكثيرون رؤية هذه الصحون على شاشة الرادار أمكن لى أن أفترض وجود تأثير كهربى مسبب عن كثرة أجهزة الإرسال التلفزية التى تؤدى كثرة عددها إلى تشكيل هذه « الصحون » وصورها على شاشة الرادار .

ولا شك أن هذا قد يتضارب مع ما نعرفه حول العلم الكهربى إلا أننى أستطيع تعديل النظرية الكهربية المغناطيسية لإنقاذ فرضيتى المفضلة .

ومازلت على استعداد لتعديل عدد كاف من النظريات الأخرى . .

أما إذا أسقطت قذيفة من هذا النوع بالفعل فإنه يجب على عندئذ أن أطرح جانبا الفرضية القائلة بأن الأمر كله وهم .

إلا أننى أستطيع الافتراض بأنها أتت من بلد آخر من بلدان العالم .

وإذا تبين أن بداخل « الصحن » الطائر كيانا حيًا يختلف عن كل ما نعرف فإنه لايزال بإمكانى أن أفترض بأنه قد جاء من جزيرة مجهولة أو حتى من جوف الأرض . .

إلا أن افتراض وجود الحياة فى جوف الأرض الحار يتطلب تعديل عدد من النظريات فإذا لم أتردد فى ذلك أمكننى أن أنقذ فرضيتى المفضلة .

وإذا حملنى أحد ركاب هذا الصحن وحلق بى إلى الفضاء الخارجى فإنه يمكننى أن أقول بأن الآلة التى أركبها قد حملتنى فى رحلة صاروخية عرض على خلالها شريط سينمائى شعرت معه كأننى أنظر إلى الأرض وهى تتباعد عنى .

وحتى لو حط الصحن بى فوق سطح المريخ فإنه يمكن لى أن أعلل ذلك بأننى قد وقعت تحت تأثيره المغناطيسى .

وإذا عيل صبر القارئ من ارتيابى بالأمور فمرد ذلك إلى أنه بلغ نقطة يعدو فيها القبول بوجود هؤلاء المسافرين بين الكواكب السيارة أسهل من تعديل نظريات أساسية . غير أننى آمل أن أكون قد أقنعت القارئ بأنه يمكن لنا منطقيا ، أن ننقذ نظرية ما إذا كنا على استعداد للتخلى عن نظريات أخرى .

والسبب فى ذلك هو التالى :

يجب علينا حين نحاول التحقق من صحة نظرية ما ، أن نستخلص مترتبات لهذه النظرية يمكن التحقق من صحتها عن طريق المشاهدة . .

ويلزم لهذه المترتبات أن نستعين لها بعدة نظريات ، فإذا لم تتطابق هذه المترتبات مع الخبرة الحسية فإن السؤال الذى يتبادر إلى ذهننا هو :

هل نظريتنا هي الخاطئة أم إحدى النظريات الأخرى ؟ ويمكن لنا دائماً أن نفترض أن النظريات الأخرى هي الخاطئة ، كما فعلنا في المثل الذي أعطيناه عن الصحون الطائرة .

ولكن ما القول في المشاهدات المؤيدة للنظرية التي أريد أن أستبعدها ؟

إنها أولا :

نقريبية هي الأخرى مما يجعلنا غير متأكدين بأنه قد جرى التحقق من صحة التكهن ، ثانياً : أن التحقق من تكهن واحد أو من عدد محدود من التكهنات لا يجعل النظرية أكيدة ، ذلك لأنه سيظل ثمة عدد لا متناه من الفرضيات المتنافسة تستطيع كلها أن تعلل جميع الحقائق المعروفة ، إذن ففي هذه الحال أيضاً نجد بأننا لا نستطيع إلا القول الاحتمالي » .

وهكذا اندفع كارل بيرسن إلى أن يقرر أن القانون العلمي ليس كشفا ولكنه اختراع ؟ . !

يقول :

« فالقانون العلمي ليس كشفا لعلاقات موجودة في طبيعة الأشياء ، وإنما هو اختراع لهذه العلاقات ، وهو وصف مختصر لطريقة تعاقب الانطباعات الحسية في مجال معين ، أو اختزال ذهني يحل لدينا محل الوصف المطول لتعاقبات الانطباع الحسي » .

ويقرر هرمان راندال أن الإيمان الرومانتيكي كان هو الضامن للأفكار الأساسية التي كتب لها أن تكون مقولات علم التطور الجديد .

وأنه من هذه الرومانتيكية جاء الحافز الأعظم لدراسة الإنسان والعالم من ناحية النمو الوراثي . ثم يقول مصرحا : —

« وهذا هو الدِّيْن العظيم الذي يدين به العلم للمذهب اللاعقلي » . .

ثم يوضح لنا أن الإيمان بالتطور والتقدم كان أقوى من الشك ، وأقوى من العلم وكما يقول « لم يعد التقدم في نظر أصحاب مذهب التطور الأوائل شيئا يتوقف تحقيقه على المجهود الإنساني . .

بل أصبح أمرًا محتوما ، لقد شك تنيسون — وهو الذي عبر عن إيمان عصره بقواف شعبية — شك في الخلود بل وفي الله : ولكنه لم يشك أبداً في التقدم » . .

أما هربرت سبنسر فقد ذهب ، إلى أبعد من ذلك ، إذ اعتقد أن التقدم لم يكن مجرد ظاهرة إنسانية بل هو القانون الأساسي للطبيعة بأسرها .

فالنجوم السايرة في أفلاكها ، ليست أقل يقينا بأن الكون كله متقدم حتما من

أشكال بسيطة إلى أفراد معقدين ومترابطين عضويا . والفردية هى غاية الخلق . ولا يستطيع شىء على الأرض أن يوقف تقدمها الثابت .

وأن الإنسان سوف يبلغ الكمال ، وأنه لا ريب فى أن التطور سيصل فى نهاية الأمر إلى الإنسان المثالى .

وأقول : هذا قول يعادل أقصى ما يذهب إليه الدين من الإيمان .

الإلهام فى العلم . .

من المسلم به فى الأوساط العلمية أن المنهج العلمى كان محتاجا إلى غيره لإحراز تقدمه وانتصاراته :

يقول الدكتور كونانت :

« أعظم الفروض التمهيدية الكبرى التى جاء بها تاريخ العلم نشأت نتيجة لعملية ذهنية يعبر عنها أحيانا بأنها « مسة من عبقرية » أو « خاطرة ملهمة » أو « ومضة من خيال باهر » .

وقلما يتبين فيها الناظر أنها كانت نتيجة تمحيص للنتائج كلها أو تحليل منطق لها أو محاولة منظمة لصياغتها صياغة أدت إلى ما أنتهى إليه صاحبها . .)

ويقول د . جون كيمن :

« إنى مقتنع بأن تشكيل النظريات الممكنة سيظل أبدا محصورا بعبقرية العالم الخلاقة .

إن القواعد يمكن لها أن تعين على الخيار إلا أنه ليس ثمة قواعد يمكن لها أن تحل مكان التفكير المبتكر . . » .

ويقول الدكتور ليونيل روبى فى كتابه « فن الإقناع » ، « إن العلماء كثيراً ما يتحدثون عن بارقة البصيرة التى تنفذ إلى لب مشكلة عويصة .

يقول ألبرت أينشتين « إن العنصر ذا القيمة الحقيقية هو عنصر البديهة »

ويقول : « إن اكتمال البحث قد يكون أحيانا بديلا كافيا عن الخيال ، كما يحدث فى البحث الصناعى ، ولكن . . .

فى المستويات العليا للعلم لا يمكن أبدا أن يكون بديلا كاملا »

* * *

ليس الأيمان ضرورة من ضرورات الدين فحسب ، وليس ضرورة من ضرورات – « المعقولات » فحسب أيضا . ولكنه فوق ذلك كله :

١ – ضرورة من ضرورات التسليم « بالمحسوسات » . .

« يقول كانط فى كتابه مقدمة لكل ميتافيزيقا . . « إننا نسلم بالكائنات المعقولة ، ولكننا نتمسك بهذه القاعدة التى

لا استثناء فيها وهي :

إننا لا نعلم شيئاً عن الكائنات المعقولة الخالصة ولا يمكن معرفة أي شيء عنها لأن تصورات الذهن المجردة لا تنطبق إلا على موضوعات التجربة الممكنة ، وبالتالي على الكائنات المحسوسة فقط ، فإذا ما ابتعدنا عنها فإن التصورات تفقد كل - دلالتها . » .

ثم يقول عن المحسوسات - وهذا مدخلنا إلى ما نحن بصدده : -

« توجد موضوعات محسوسة وخارجة عنا . . .

لكننا لا ندري ما يمكن أن تكون عليه في ذاتها ، إننا لا نعرف غير ظاهرها ، أي التمثلات التي تحدثها فينا وتؤثر بها على حواسنا . . وبدون أن نتشكك في الوجود الواقعي للأشياء الخارجية نستطيع أن نقول عن عدد كبير مما نصفها به : أنها لا تخص الأشياء في ذاتها ، إنما تخص فقط ظواهرها التي ليس لها وجود خارج تمثيلاتنا » .

ويقول « إن ما هو جوهري يكون غير معلوم » .

٢ - ويقرر هربرت سبنسر في كتابه « المبادئ الأولى » في كلامه عن الأفكار العلمية القصوى : أن العلم مضطر إلى الاستعانة بالكثير من المفاهيم الغامضة التي لا سبيل إلى تفسيرها : كالزمان ، والمكان ، والمادة ، والحركة والقوة وما إلى ذلك وليس في استطاعة العقل البشري أن يستغني عن أمثال هذه المفاهيم . .

وإننا لو حاولنا أن نتصور كل هذه المفاهيم العلمية في العقل تصورا واضحا متمايزا لانتهينا إلى مجموعة من المتناقضات التي لا يمكن أن يقبلها العقل ولننظر مثلا إلى مفهومي المكان والزمان : فهل نقول بأنهما مفهومان واقعيان موضوعيان أم نقول بأنهما مفهومان ذاتيان ؟ هذا ما يجيب عليه سبنسر بقوله : إن العقل البشري عاجز تماما عن تفهم حقيقة أمر كل من « المكان ، والزمان . . .

وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى المفاهيم العلمية الأخرى كمفاهيم المادة ، والحركة والقوة ، فإنها جميعا تصورات غير قابلة للتعقل .

ومع أن سبنسر يحاول أن يكشف شيئا عن حقيقة هذه المفاهيم ، فهو في هذه المحاولات ينتهي إلى ، أن ما يعلم منها يدل على حقيقة مجهولة نسلم بوجودها من غير أن نعرفها .

يرى سبنسر أن الزمان والمكان مفهومان مشتقان على سبيل التجريد من شعورنا بنوعين من العلاقة هما علاقة التتابع ،

« الزمان » وعلاقة المعية ، « المكان » ، وأن مفهوم المادة يرجع إلى أبسط صورة لإدراك المادة ، وهى تلك التى نجد أنفسنا فيها بإزاء أوضاع متحيزة ذات مقاومة ، وهو يرى أننا لو جردنا الجسم من ضروب المقاومة التى ينطوى عليها لاختفى شعورنا بالجسم تاركا وراءه مجرد شعور بالمكان .

وأما فكرة الحركة فيرى سبنسر أنها مجرد فكرة لاحقة على شعورنا بالقوة .

وشعورنا بالقوة يأتى من إحساسنا بالتوتر الذاتى ، والمقاومة الموضوعية ، ولذا يرى سبنسر أن « القوة » هى الفكرة النهائية للأفكار العلمية النهائية .

ويرى سبنسر أن القوة التى تحدث بمقتضاها كل ما نحققه من مظاهر التغيير هى بطبيعتها قوة نسبية ، محدودة وهى معلولة لعلة أخرى غير مشروطة هى القوة المحضة التى نجد أنفسنا مضطرين إلى إقرارها لتكون بمثابة الطرف المقابل للقوة المعلومة .

وهذه القوة المحضة هى العلة الوحيدة التى تتمتع بالثبات أو الدوام . والتى ليس لها بداية أو نهاية ويستنتج سبنسر من ثبات القوة ، واستمرارها ثبات العلاقات القائمة بين القوى واضطراد القانون .

ويمضى سبنسر إلى حد أبعد من ذلك حيث يستنتج من مبدأ ثبات القوة نتيجة أخرى هى : « تحول القوى وتكافؤها » ويرى أن ذلك لا يصدق على القوى الطبيعية وحدها بل يصدق أيضاً على العلاقة القائمة بين القوى الجسمية والقوى النفسية .

ومعنى هذا أن مظاهر القوة التى نسميها باسم الحركة والحرارة والضوء ، و . . إلخ ، تقبل التحول أيضاً إلى المظاهر الأخرى التى نسميها باسم الإحساس ، والانفعال ، والتفكير ، إن لم نقل إن هذه - بدورها - تقبل التحول إلى المظاهر التى سبقتها .

وهكذا نجد أنه فى التحليل النهائى الذى يقدمه سبنسر لما يسميه الأفكار العلمية القصوى . تنهار الحدود التى يضعها الماديون للمادة لتقف فى نفس الموقف الذى توجد فيه المجردات المسلمة .

٣ - ويقرر برترند رسل - بالرغم من لا أدريته التى يوظفها لمحاربة الدين - « أن المبادئ العامة اللازمة لتدعيم الاستدلالات العلمية غير قابلة للبرهان بأى معنى مألوف »

وما يستدل به على ذلك إيمانه بما يسميه « التوقع الحيوانى » الذى لا يمكن البرهنة عليه منطقيا - كتوقع الحيوان فى خبرته رائحة بعينها تدله على صلاحيته للأكل أو عدم صلاحيته - هذا التوقع

الذى يرقى حتى يستخدم فى أرقى قوانين الفيزياء الكمية .

ويؤكد أنه « ليس من الممكن أن ننتقل خطوة واحدة إذا نحن بدأنا من الشك الديكارتى . » .

ويقول « فعلينا إذن أن نبدأ من تسليم عريض بكل ما يبدو أنه معرفة أيا ماكان وأنه ليس ثمة سبب معين لرفضه » .

ويقرر أن عدد ما توصل إليه من مسلمات خمس هى الآتية :

« مسلمة شبه الدوام ، ومسلمة « الخطوط السببية القابلة للانفصال ومسلمة « التمثيل » ومسلمة « الاستمرار المكانى الزمانى ، والمسلمة « البنائية »

ولا نريد أن نثقل على القارئ بشرح هذه المسلمات فى هذا المقال [1] ويكفى أن نذكر هنا أن رسل يقرر أنه لا برهان يقوم على هذه المسلمات ، ولكنه يسلمها – كما يقول – لأنها متضمنة فى الاستدلالات العلمية ولأن بناء العلم كله ومعرفتنا فى الحياة اليومية يتوقف عليها .

ويستبدل رسل هذه المسلمات كما يقول بمسلمات أخرى هى مسلمة « السببية » أو « انتظام الطبيعة » بدعوى أن مسلماته أكثر تحديدا وفاعلية .

هكذا بغير برهان . .

هكذا لأنها أكثر تحديدا . . .

هكذا لأنها من الناحية العملية ضرورية . . .

وهل يفعل المؤمن بالدين شيئاً يستغنى فيه عن البرهان بأكثر من ذلك ؟

إلا أن عنق رسل تغلظ ورأسه يتصلب ، وقلبه يقسو ، ليصير « كالحجارة أو أشد قسوة » كلما كان المتجه إلى الله . . .

ولكن هذا العنق يسخو ، وهذا الرأس يطأطئ ، وهذا القلب يلين . . . إذا كان المتجه لغيره .

فهو كما يقول بسكال – ١٦٢٣ – ١٦٦٢ – : إلحاد تدفع إليه « إرادة » الفيلسوف .

ولنا مع رسل لقاءات أخرى .

ويكفى أننا أوضحنا فى هذا المقام أن لهذا اللا أدرى إيمان ، وله مسلمات لكنه يخصصها « إراديا » لغير الله .

٤ – ولقد عدد الأستاذ « بيتى كروزيار » ست حقائق يجب علينا الاعتقاد بصحتها فى حين أن العلم يعجز عن معرفتها وإثبات وجودها بطرقه الموضوعية . هى :

١ – الاعتقاد بوجود عالم خارج عن حيزنا . .

(١) نحيل القارئ هنا إلى كتاب رسل « فلسفتى كيف تطورت » من ص ٢٤٥ إلى ص ٢٥١ .

خذ مثلاً : التكأة التى أكتب عليها . . .

كل ما فى مستطاعك أن تعرف منها ليس سوى مدركات حواس مختلفة موجودة فيك وليست خارجة عن حيزك . . . . إلا أن تركيب عقلك قد وضع على نظام يحملك على الاعتقاد بأنها كائنة فى حيز خارج عنك . . .

٢ – وجود العقل فى ذوات من البشر غير ذواتنا .

. . . لأن مفخرة العلم ادعاؤه بأن كل مستنتجاته من المستطاع أن توضع تحت حكم الحواس ، فإن وجود العقل فى صاحبى كوجود « واجب الوجود » كلاهما اعتقاد إلزامى ، لا نستطيع أن نعرفه من طريق العلم ، وفى الوقت ذاته ملزمون بالاعتقاد به كأحد الفروض الجوهرية التى يقوم عليها أكبر جزء من معرفتنا ومعتقدنا .

٣ – الاعتقاد فى تفوق العقل على المادة ، والشجاعة على حب الملاذ . . . .

إن خلايا المخ – التى تنشأ من نشاطها وحركتها تلك الانفعالات والخصائص المختلفة – كلها تماثل المادة ولا تدرك – كالمادة – شيئاً من هذه الانفعالات . . .

ومع كل هذا نجد أنفسنا مسوقين إلى الاعتقاد بأن هنالك فرقا فى المرتبة واقعا بين الانفعالات المتشاكلة . .

٤ – الاعتقاد فى ثبات القوة . .

يقرر هربرت سبنسر مبدأ ثبات القوة . . .

لأنها إذا لم تكن كذلك . . . تصبح كل المعارف الطبيعية غير ممكنة . . .

لذلك كان مبدأ ثبات القوة – ولو لم نستطع أن نثبته علميا – اعتقادا إلزاميا . يعجز العلم عن إدراكه .

٥ – الاعتقاد فى أن المادة توجد بوجود قوتى الجذب والدفع . .

أما أن قوتى الجذب والدفع حقيقة طبيعية فذلك لا سبيل إلى إدحاضه . . .

ومع كل هذا فإن هذه الحقيقة تعدو الإدراك العلمى فى تعليل أن دقيقة واحدة تجذب أخرى فى حين أنها تدفعها وتقاومها .

يقول سبنسر « ومع هذا فإن الاعتقاد بذلك إلزامى ضرورى . »

٦ – الاعتقاد فى السببية :

أى أن كل نتيجة لابد لها من سبب وهو اعتقاد فى حقيقة نساق إلى اليقين بها ولا يمكن معرفتها من طريق علمى .

إذ لا يوجد فى مجرد تتابع الظاهرات ما يسوقنا إلى الاعتقاد باتصالها اتصال العلة بالمعلول . وكل ما فى مستطاعنا أن نرى أن هنالك سلسلة من سوابق ولوا حق ومع

ذلك نجد أنفسنا مسوقين إلى الاعتقاد فى تلك الحلقات غير المرئية من المسببات التى تربط بعض الأشياء ببعض الاعتقاد الذى يحفظ علينا ألفة العقل ونظامه » .

ويقول الإستاذ إسماعيل مظهر . .

« يعتد الماديون المنكرون للقوة المدبرة لهذا الكون بعقليتهم أكثر مما فى مستطاعهم أن يثبتوه لها .

فهنالك أشياء يستحيل على العلم الطبيعى أو الفكر نفسه أن يصل إليها : أهمها الماهيات .

خذ مثلا ماهية الحرارة أو الكهرباء ، فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا فيها إنها أكثر من قوة طبيعية .

على أن كلمة « قوة » و« مادة » تلك الأشياء التى يعتبرونها من الأوليات الضرورية - وإنها لكذلك من حيث ظاهراتها المحسوسة - لا تؤدى إلى العقل إلا معانى غامضة إذا نظر إليها من ناحية ماهياتها .

وكذلك الحال فى « الحياة » إذا نظرت إليها من ناحية الماهية فإنى لا أستطيع أن أعرف مهما قلبت صفحات الماديين ما هو الفرق الحقيقى بين القول بخلقها وبين القول بأنها تولدت ذاتيا ، مادمنا لم نعرف ماهيتها ولا حقيقتها لأن كلا الأمرين يلزم العقل بأن يفرض أن فى الطبيعة قوة مبهمة غامضة .

فالقائلون بالخلق يقولون بأن قوة مدبرة بثتها فى المادة ، والقائلون بالتولد الذاتى لايتزحزحون خطوة واحدة عن معارضيهم أصحاب الخلق . . لأنهم بقولهم هذا إنما يضيفون إلى القوى الغامضة المبهمة التى يفرضونها فى الطبيعة قوة من قواتهم يسمونها الحياة . لا يعنينا فى هذا البحث أن نعرف بأن الحياة قد وجدت بداءة ذى بدء فى صورة خلية حيوانية أم نباتية ، ولا يعنينا أن نعرف إن كان التولد الذاتى لا يزال يحدث حتى اليوم ، أم أنه حدث فى أزمان خالية مرة أو مرتين ثم لم يتكرر لتغير الظروف الطبيعية . لا يهمنا شىء من هذا بل يهمنا أن نعرف ونسلم بأن الحياة حقيقة لا نعرف منها إلا ظاهراتها »

ويقول أميل بوترو فى كتابه « العلم والدين » :

٥ - (أن مقالة ديبوا رايموند[١] المشهورة التى اختتمها بقوله « لا أعلم » لم تزل منذ سنة ١٨٨٠ تتعقب عقول المفكرين . فقد نص على الغاز سبعة ، أربعة منها على الأقل لا تقبل الحل أبدا

---

(١) عالم ألمانى من أصل فرنسى اشتغل بعلم وظائف الأعضاء ١٨١٨ = ١٨٦٩ .

وهي :

ماهية المادة والقوة ، وأصل الحركة ، وأصل الإحساس البسيط والحرية » أما الباقي فهو « أصل الحياة ، والغائية الظاهرة للطبيعة ، وأصل الفكر واللغة ، وهذه الثلاثة الأخيرة يمكن إرجاعها إلى الميكانيكا العلمية) .

٦ – وإذا كان أرنست هيكل (١٨٨٤ – ١٩١٩) في كتاب ألغاز الكون لم يقبل ما أعلنه ديبواريموند وقرر « أن جميع ألغاز ديبواريموند قابلة للحل أو قل أنها منذ الآن قد حلت) تبعا لمذهبه الواحدي . .

فإنه استبقى سرا منها هو :

(الجوهر . . . فما هو هذه القوة الهائلة . . التي يسميها العالِمُ الطبيعة أو العالم ؟

ويسميها المثالي الجوهر أو الكون ؟

ويسميها المؤمن الخالق أو الله ؟

. . . ينبغي الاعتراف بأن ماهية هذا الجوهر تصبح أعمق سرًّا ، وأشد خفاء كلما نفذنا إلى العلم بصفاتها وتطورها فنحن لا نعرف الشيء في ذاته « ذلك الذي يكمن وراء الظواهر المدركة) .

وهكذا يمكننا أن نقول إنه حتى في نظر أرنست هيكل الملحد يتساوى التسليم بالله والتسليم بالطبيعة ، والتسليم بالجوهر من حيث كونه إيمانا بما هو أعمق سرًّا وأد خفاء كلما خيل إلينا أننا نعرف عنه شيئاً . .

٧ – ويقول وليم جيمس . « إن فكرة الموضوعية التي تتميز بها التجربة المحسوسة تنطوي من قبل على شيء من الاعتقاد الأولى لأن مقولة الوجود المستقلة عن كل عنصر شخصي هي في نهاية المطاف اعتقاد ، والاعتقاد أو الإيمان داخل في صميم كل معرفة » .

٨ – ويقول كارل بيرسن عن لا تجريبية الهندسة :

إن الهندسة تقوم أساسا على فكرتين لا وجود لها في التجربة . هما فكرتا المماثلة والاتصال فمفهوم الخط مثلا يفترض مماثلة تامة واتصالا كاملا بين كل أجزائه . .

ولكن هذا الاتصال وهذه المماثلة لا وجود لها إلا بالفكر . .

أما التجربة فلا تعرف عناصر تقوم بينها مماثلة كاملة أو اتصال تام . .

ولعلنا لن نجد مثلا أفضل من الهندسة لإثبات العلم يصف عالم الظواهر بمساعدة مفاهيم لا تطابق أية حقيقة واقعة في الظواهر ذاتها . .

٩ – يقول جون كيمني عن مفهوم القوة في العلم التجريبي : « رأينا كيف

ينبغى للنظريات أن تكون مرتبطة بالخبرة عن طريق تكهنات قابلة للمشاهدة . إلا أننا لم نقل أنه ينبغى لكل ما يصدر عن النظرية أن يكون قابلا للتثبت أو أنه يجب أن تكون جميع المفاهيم قابلة للتحديد العملى .

إن كثيراً من المفاهيم التى يقبل بها دعاة الفلسفة العلمية فى الواقع مفاهيم يمكن وصفها بأنها « وهمية » ومفهوم « القوة » مثل جيد على ذلك .

ويصرح قانون نيوتن المشهور للحركة بأن ق = ك × ث

حيث يرمز « ق » إلى القوة ، و « ك » إلى كتلة الجسم المعرض لتلك القوة ، و « ث » إلى التسارع معبرا عنه بوحدات قياسية .

وإنه لمن العسير جدًّا أن يتهرب من الاستنتاج بأن قانون نيوتن ليس نظرية بل هو تعريف للقوة) .

أى أن القوة ، بكلمة أخرى ، مفهوم خيالى يقوم مقام ك × ث ، وقد نشأ نتيجة للتجارب النفسانية التى تمر بها عندما نبذل قوة ما ، فإذا بنا نحول هذا الشعور بالإجهاد إلى الطبيعة عندما نتكلم عن قوة التجاذب أو القوة الكهرطيسية ، وقد يكون هذا التدبير مفيدا من الناحية النفسانية ، إلا أنه غير ضرورى منطقيا) .

أما عن مفهوم الزمن فى العلم الحديث ، فإنه يقدم لنا عن ذلك أفكارا بعيدة عن التصور ، ويكفى أن نشير فى هذا إلى نظرية « فايمّان » عن « عكس الزمان » أى الزمن ذى البعدين يتجه أحدهما إلى المستقبل ، والآخر إلى الماضى ! ! ، ويقول فيلسوف العلم هانزر يشنباخ « إن نظرية فايمّان ، تمثل أقوى لطمة منى بها مفهوم الزمان فى الفيزياء » .

كما يكفى أن نشير إلى نظرية النسبية لأينشتين ، وما قدمته لنا من نسبية الزمان واختلافه باختلاف المكان ، واختلاف جاذبية المادة وكثافتها . . . إلخ ، ولا تترك لنا هذه النظرية فرصة للاعتقاد بأن وراء هذا المفهوم المتذبذب للزمان يوجد مفهوم ثابت مستقر ، يقول الأستاذ فريترها ينزنبرج : « إن قلب نظرية النسبية الخاصة هو التقرير بأن تزامن حادثتين فى مكانين مختلفين هو مفهوم مبهم وبنفس الشكل نجد أن نظرية الكم أعطت أهمية قصوى للتقرير بأنه لا معنى للحديث الآنىٍّ عن مكان محدد وعن حركة محددة للجسيم ، ولقد وضع نفس هذين التقريرين مرارا فى صورة أخرى هى :

أن قضية « الأنية الحقيقية » لحادثتين

هى مشكلة « باطلة » شأنها شأن المكان المضبوط والحركة المضبوطة للجسيم هذه مسائل لا إجابة لها ، لأنها مطروحة بشكل خاطئ)[١].

* * *

يقول رسل :

« تعمل الفيزياء الرياضية مستعينة :

بمكان مكون من نقاط

وزمان مكون من لحظات

ومادة مكونة من جزئيات

وليس هناك عالِم معاصر فى الفيزياء يعتقد أن فى الطبيعة مثل هذه الأشياء)[٢] ؟ .

ويقول وليم جيمس :

« نحن نؤمن كل الإيمان بأن الأشياء حتى ما يبدو منها كثيرا التعقيد والاضطراب لابد أن يصاغ يوما فى قاعدة جلية واضحة . . .

ذلك وصف حق الروح العلمية .

فهل تختلف فى الجوهر عن الروح الدينية ؟

وهل لأحد أن يتنبأ ويقول إن مظهرا خاصا من مظاهر العقيدة سوف يصادفه النجاح ، وإن مظهرا آخر لابد أن يكون نصيبه الإخفاق ؟[٣]

وفى مقالنا القادم نتحدث عن « غيبيات المادة » بإذن الله .

دكتور يحيى هاشم حسن فرغلى

دعاء

إلهى إن كنت لا ترحم إلا المجدين فى طاعتك فإلى من يفزع المقصرون ؟ وإن كنت لا تقبل إلا من المجتهدين فإلى من يلجأ المخطئون ؟ وإن كنت لا تكرم إلا أهل الإحسان فكيف يصنع المسيئون وإن كان لا يفوز يوم الحشر إلا المتقون فبمن يستغيث المذنبون .

(من دعاء على بن أبى طالب)

---

(١) المشاكل الفلسفية للعلوم النووية .

(٢) فلسفتى ص ٢٥٣ .

(٤) العقل والدين ص ٨٩ .

حقائق سافرة

الأزهر والسلام الدينى

الدكتور محمد رجب البيومى

١

رددت بعض الصحف اليومية قولا قديما للكاتب الفرنسى « موريس جودفرى دى موبين » يذهب فيه إلى أن الأزهر بمصر لا يسهم إيجابيا فى السلام الدينى ! وأنا أعرف أنّ صاحب هذا القول المسرف قد أصدر كتابا سمّاه « النظم الإسلامية » حشاه بأخطاء كثيرة نسبها إلى الإسلام خطلا دون صواب ، فإذا نسب للأزهر هذا الرأى الجائر فليس من المستغرب ، لأن من المستغرب فعلا أن ينصف الأزهر من لا ينصف الإسلام .

وواضح أن الأزهر يمثل الإسلام فى كلّ رأى يبديه ، فإذا دعا الإسلام إلى السلام الدينى فهى الدعوة التى يحتضنها الأزهر ويلتزمها أىّ التزام ، وليس ، رأى الإسلام فى السلام الدينى بعيدا عن كاتب يعالج شئون المسيحية والإسلام فى باريس ، وينقل عن الإمام محمد عبده رضى الله عنه آراء كثيرة سردها فى كتاب « الإسلام والنصرانية » كما يعرف سلفاً ما كتبه الأستاذ الإمام فى ردّه على المسيو هانوتو مبينا دعوة الإسلام إلى السلام ومؤاخاة العلم ، واحترام الرأى المخالف ! فيالله كيف يتحدث مؤلف النظم الإسلامية حديث من لا يعرف الإسلام ، وقد تفرغ للبحث عن الشئون الإسلامية حتى عُدَّ متخصصا فيها لدى معشره ، وها هو ذا يتحدث عن الأزهر دون دراية ، ولا نَعْذُره فى خطئه المغرض ، لأن رأى الأزهر فى السلام الدينى ذائع مشتهر فى أوروبا وأمريكا أذاعه شيخه الأكبر الإمام محمد مصطفى المراغى فى مؤتمر الأديان ببروكسل عام ١٩٣٦ ، وأذاعه فى باريس عالم من ألمع علماء الأزهر ونابغيه وهو الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز فى مؤتمر الأديان سنة ١٩٣٩ ، ومازال ممثلو الأزهر يعلنون فى كل

مؤتمر يلتمس فيه النفع ! أفتكون محاضرات مؤتمر الأديان فى باريس بعيدة عن كاتب متخّصص ، يتحدث عن الشئون الإسلامية ، ويفرد المؤلفات الخاصة بها ، ثم لا يأذن لنفسه أن يلتفت إلى ما يدور حول تخصصه العلمى فى وطنه . بل إلى ما قيل فى أمور يتصدّى للبحث عنها مصدرا رأيه النهائى ! وإذا كان ما قيل عن السلام الدينى والأزهر مِمّا لا يقنعه فلماذا لا يرد عليه بالمنطق الصّائب لنعرف أن للرجل أبعادا شاسعة يجهلها الباحثون . أمّا أن يصدر الحكم عاريا عن أسبابه . وغافلا عما قاله الفاقهون بشأنه فهذا هو الجور الصريح .

وقد يكون من المفيد أن نلقى بعض الضوء على ما قاله الإمام المراغى . والدكتور دراز فى موقفيْهما الجهيريْن . لأن ما قالاه منذ أكثر من أربعين عاماً يدل على أنّ الأزهر لا يلبس أردية مختلفة تتنوع وفق الاتجاهات المتعارضة ، بل يلتزم بمنطق الإسلام فى مواجهة الأحداث ، وآية ذلك أن رجال الأزهر اليوم يقولون عن اعتقاد ما قاله أسلافهم الفاقهون ، لا لأنّ اللّاحق يقلد السالف ، بل لأن المصدر واحد لا يختلف وهو القرآن الكريم .

٢

انتشر التبشير بمصر فى الثلاثينيات انتشارا أساء إلى القائمين به ممّن لا يراعون حرية العقيدة فى بلد إسلامى يرعى روابط الإنسانسة والوطنية ، وبحثت الهيئات الإسلامية أسباب هذا الاعتداء الصارخ على حريات المعتقدين وفى مقدمتها مشيخة الأزهر فأدركت أصابع الاستعمار المحرّكة للمهزلة المنكرة من وراء ستار ، فانبرت الأقلام المؤمنة تفضح ما استتر من الدسائس ، وتدين قوماً يتظاهرون فى الخارج بالدعوة إلى سلام الأديان ، ويقيمون المؤتمرات الداعية لهذا السّلام . ثم جاءت الدعوة إلى شيخ الأزهر يمثّل الإسلام فى مؤتمر بروكسل . ولو كان الأستاذ الأكبر أسير عاطفته الشخصية وحدها لرفض الدعوة من قوم ينضم إليهم من يكيد فى الباطن . ويتظاهر بالمودّة فى العلن . ولكنّ الإمام المراغى قد اهتبل الفرصة ليدعو باسم الأزهر إلى سلام دينى حقيقى . وليوجد أرضا مشتركة يقف عليها دعاة الأديان المختلفة غير متنابذين ، وهو فى ذلك يصدر عن دينٍ أمر دُعاته أن يهدوا الإنسانية بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا كان جدال فبالتى هى أحسن ، وقد استعان

الأستاذ الأكبر بثقافة العصر الحضارية ، ومقررات العلوم الإنسانية حين أشار فى بدء كلمته إلى أن فكرة الزمالة بين المتدينين فكرة طبيعية ، وهى ليست نظرية فلسفيّه بل حاجة ضرورية تولدت فى النوع البشرى . ومع الشعور بهذه الزمالة . فإن أسباب التفرق أَيْضاً لَهَا مُوجباتها الضرورية إذ أن الإنسان لا يسير بالعقل وحده حتى تنحسم أموره مع المخالفين على وجه حاسم صريح ، ولكنه يخضع لغرائز قاهرة تضطره إلى مجانبة المنطق فى بعض الأحيان ولذلك كان الإخاء الإنسانى العالمى أمراً ميئوساً منه ، مادامت هناك شهوات تمليها الغريزة ، ولن يقدر التقدم العلمى على التغلب على هذه الشهوات المتأصلة ، وإذا أمكن بعامل من العوامل أنْ تخبو جذوة تلك النار المنبعثة من قوى الطبيعة فى الإنسان فإنه لا يمكن أن تنطفئ تلك النار .

والتدين – فى رأى الأستاذ الأكبر – أصيل فى كل نفس ، ولا يحجبه إلا غشاوات عارضة تنقشع أمام النظر البصير وفى هذا التدين ما يهبط بقوى الغرائز الهائجة ، فيخفف من شرورها الكثيرة فالشعور الدينى إذا عمق وتأصّل فلّ من أسلحة الأنانية والتجبر ، ورفع الإنسان إلى ما فوق الاعتزاز باللّون والدم والجاه والطبقة ، ودعا إلى طمأنينة وسكينة تهونان الرزايا والأحزان ، وبعد أن تحدث الإمام المراغى فى مرارة عما ارتكب من المآسى بسبب الخلافات الدينية ، والدين منها براء ، عمد إلى إيضاح رأى الإسلام فى السلام الدينى فقال (١) .

« وهذا ما جعل اغتباطى بهذا المؤتمر عظيما ، فإنه فضلا عن سعيه للبحث عن الوسائل الموصلة لتحقيق المثل العليا للإنسانية ، وهى الزمالة العالمية بين أفراد النوع الإنسانى وأممه ، فإنه بهذا السعى يحقق غرضا أساسيا من الأغراض التى سعت إليها الأديان ، وعنى بها الإسلام الذى أدين به ، فقد نبه القرآن إلى وحدة الأبوين الموجبة للتعارف والتعاون والتناصر ، والمبعدة عن التناكر والاختلاف ، ولم يقم وزنا لشرف المولد . وكرم الجنس ووضع معيارا للتفاضل لم يعرفه الناس من قبل ، وهو تقوى الله . وفى القرآن الكريم (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفى القرآن الكريم (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا

(١) مجلة الأزهر ، المجلد السابع ص ٣٠٤ .

إليهم إن الله يحب المقسطين) .

ثم تحدث الإمام المراغى عن الزمالة المنشودة بين رجال الدين ، داعيا إلى الوئام الحقيق ، وقد اضطر إلى أن يدين فى وضوح ما يرتكبه المبشرون من منكرات حين يلجئون إلى ديار الإسلام ، لِيُغْرُوا الضعفاء بالمال والمنصب والعقار كى يتركوا دينهم دون إقناع منطقى ثم وضع النقط على الحروف حين قال :

« ومما يثير العجب ويضاعف الألم أن أهل الأديان يحشدون جهودهم لمقاتلة بعضهم بعضا مقاتلة أسرفوا فيها وجعلتهم ضعفاء أمام عدوهم المشترك ، وسلكوا طرقا فى التناحر مخالفة لأبسط قواعد المنطق ، مما جعلهم سخرية أمام العلماء والفلاسفة ، وجعل كل جهودهم عقيمة النتائج فقد تركوا التأثير على الإنسان من ناحية عقله الذى هو موضع الشرف ، وموطن العزة والكرامة ، واستعملوا طرق الإكراه والإغراء بالمال وغيره من الوسائل وركن بعضهم إلى القوى المادية للدول ، وقد نسوا أن الإيمان لا يحل القلب ، بالإكراه ، وأن العلم لا ينال إلا بالدليل ، ونسوا أن العدو جادٌّ فى إنزالهم من مكانهم اللائق بهم وأن شرور العالم تغمر الإنسانية وتطغى على ما بقى فى النفوس من هيبة واحترام للنظم الآلهية ، وكان عليهم بدل ذلك كله أن يتعاونوا على درء الخطر ، وأن يحاربوا هذه الشهوات الجامحة وهذه الإباحية التى يئن منها العقلاء [1]) .

ثم ختم الأستاذ الأكبر كلمته باقتراحات هادفة تدعوا إلى تنمية الشعور الدينى من الضغائن والأحقاد ، وتوجيه الوعظ الدينى إلى الطريق الإنسانى المجّمع لا المفرق ، وجعل الدعاية الدينيّة قائمة على أساس عقلى محض يدعمه حب الحقيقة ، واستشهد بما يؤيد فكره الناصح بأصول إسلامية من آيات القرآن مثل قوله تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وقوله عز وجل (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وقد قوبلت كلمة الإمام المراغى بما هى جديرة به من الاحتفاء ، وليس لمدعٍ بعدها أن يعلن أن الأزهر يقف فى وجه السلام الدينى تخرصا دون برهان .

٣

أما الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فإن قراءه الكثيرين يعرفونه بإصابة القول وجزالته وجدّته ، وأشهد أنه ما قرأ له عارفوه مقالا أو كتابا أو استمعوا إلى محاضرة

(١) المرجع السابق ص ٣٠٨ .

علمية من محاضراته إلاّ انتفعوا بالجيد الطريف الزاهر ، فَهُمْ فى دوحة مورقة ذات ثمر وظلّ ونسيم ، وقد أحسن الأزهر اختياره ليمثل شيخه الأكبر فى مؤتمر الأديان بباريس حين انعْقد سنة ١٩٣٩ ، فألقى محاضرة هادفة قال عنها السير فرنسيس رئيس المؤتمر : إنّ كلمة الأزهر هى الكلمة الرئيسية ، وقد وافق الحاضرون بالإجماع على اقتراحين قدمها الشيخ دراز للمؤتمر فكان فوزه الباهر فوزًا للسلام الحقيقى كما ينادى به مسلم داعية غيور ، وقد بدأ الدكتور محاضرته متسائلا عن سرّ العداوة والشحناء اللتين تعمان عالم اليوم ، وألمح إلى أثر الماديّة فى التزاحم على الاستلاب والغزو والاستعمار ، وقد رأى فى الدين مرفأ النجاة ، وهو يعلم أن رجال الدين يتنازعون كما يتنازع الماديون ، وقد أعمل فكره ليجمعهم فى جبهة واحدة ينتفى معها النزاع ، وقال فى توضيح ذلك[١] .

« غير أنا إذا رجعنا إلى الأديان نلتمس منها المعونة ، هالنا ما نراه من اختلافها اختلافاً ظالماً كان من أسباب الخصومات والحروب بدل أن يُساعد على حسن التفاهم والتقريب بين القلوب ، فهل نستطيع أن نجد من وراء هذا الاختلاف وحدة مشتركة فى المبادئ والمطامح تصلح أن تكون محورا لتقرير السّلام بين معتنقيها ، وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك للجميع ، هذه هى النقطة الأساسية التى تدور عليها أعمال المؤتمر ، وهذا هو الإشكال الذى يحاول المؤتمر أن يجد له حلاً .

أما أنا – أى الشيخ دراز – فأميل إلى أن يكون الحل على أساس الفصل فى الأديان بين ناحيتها الاجتماعية وبين نواحيها الأخرى ، وأعتقد أن افتراق الأديان فى عقائدها وشعائرها وكثير من تعاليمها لا يمنع أن تلتقى من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة هى أساس التعاون المطلوب ، وذلك أنها كلها تأمر بالعدل والإحسان ، وتنهى عن الظلم والعدوان ، وكلها تسوّى فى هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها » لقد نادى الأستاذ إذن بالحلّ العملى ، بعيدا عن الغوص الجدلى فى مشكلات لا تصل إلى نتائج ، وبعيدا عن التظاهر بالعمق النظرى تظاهرا يعود على القائل بالمباهاة دون أن يفيد المجتمع الإنسانى شيئا ذابال ، وقد ساعد الأستاذ اطلاعه المقارن الشامل على أن يتحدث عن الديانات المختلفة من هندية وبوذية ويهودية ومسيحية وإسلامية حديثا واعيا بصيرا ليأخذ من كل دين دعوته إلى السلم المتسامح

---

(١) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ص ٥٣٣ .

فيعتدها حجر الزاوية فى لقاء هذه الأديان ، وكان من الطبيعى أن يفصل رأى الإسلام نظريا وعمليا فى قضية السلام العالمى فيرى أن دعوة الإسلام إلى الائتلاف قد قامت من الناحية النظرية على دعامتين أولاهما من طريق توحيد الغاية وذلك بدعوة الناس جميعا إلى عبادة رب واحد ، وثانيتهما من طريق التوفيق بين وسائل هذه الغاية حين أرجع القرآن الكريم الشرائع السماوية إلى أصل واحد ، ودعا إلى الإيمان بجميع الرسل والأنبياء وكتبهم المنزّلة (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) بل إن الإسلام نفسه — فى اصطلاح القرآن الكريم — اسم مشترك يضعه كتاب الله على لسان أنبياء الله قبل محمد ، فيقول فى شأن إبراهيم (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) ويقول فى شأن يعقوب (إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) ومضى الباحث يستعرض نظائر هذه الآيات .

أما الوجهة العملية فالإسلام قد حذر من مناوشة مخالفيه أو مضايقتهم ماداموا مسالمين ، فإذا تركوا السلم إلى الحرب فإن الإسلام يدعو إلى إعداد القوة دون أن يغفل الإنصات إلى دعوة المهادنة حيث تثمر خيرها دون عنت وإرهاق ، فإذا لم تثمر وئاما يحفظ الأرواح كان على المحارب المسلم أن يحصر القتال فى أضيق نطاق يقول الله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) . . . (١) .

وفى ختام كلمته البارعة استخلص الأستاذ نتائج ثلاثا تنحصر فى أن الأديان — أولا — يجب من الآن أن تكون سبب وفاق ووئام لا مدعاة نزاع وخصام ، كما أن السبب — ثانيا — فى الخصومات الدينية هو الانحراف عن الدين لا اتباعه أما العلاج الحتمى — ثالثا — فهو العناية بين رجال الأديان جميعا بالجانب الخلقى العام لتنمو العاطفة الدينية لدى المتدينين جميعا فيعيشون فى سلام » .

هذا بعض ما يمكن تلخيصه من كلمة الدكتور دراز ، فإذا ضُمّت إلى كلمة الإمام المراغى وقد ترجمتا معا إلى الفرنسية ووزعتا على المؤتمرين من شتى ممثلى الأديان فى الشعوب والقارات ، فليس لأحد من

(١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ص ٥٣٧ .

المتحدثين عن الأزهر أن يصمه بمجافاة السّلام ، بل إن المنصف ليقدّر لممثليه تسامحهم الإنسانى حين أغضوا عن اتهام خصومهم بما ارتكبوه فى ديار الإسلام شرقا وغربا من اعتداء صارخ على الحرية الدينيّة ، وفى وسعهم أن يستشهدوا بما ذكرته الصحف الأوربية نفسها من هذه الفظائع المخجلة ، لأن الحق لا يعدم أنصاره حتى من بين مناوئيه ، ولكنّ داعيتى الأزهر قد أسدلا الستار على ما كان ، طمعاً فى أن يميل الميزان إلى الاعتدال ، وارتقابا ليومٍ تنفع فيه النصيحة المخلصة ، والدعوة الصادقة فتغنى عن عناء كثير.

٤

وبعد ،

أفيكفى فى وقتنا العصيب أن يكون السلام بين الأديان هو المطمح الأمثل ، أم يجب أن نمتد بالسلام السلبى إلى تعاون إيجابى أمام ما يتهدد الإيمان من خطر شيوعى يزحف إلى كل مكان.

إن الذين ينكرون عالم الغيب مرتكنين على شبه تتسم بسمات العلم دون أن تؤسس على يقين جازم ، فى حاجة إلى من يعارضهم بسلاح العلم نفسه ليثبت أن الإيمان بالله حقيقة مكينة ، لها أثرها الحىّ فى طمأنة النفوس ، وبُعدها عن الهواجس المريبة ذات الفزع والاضطراب ، ثم إن دعاة الإلحاد يجدون طريقهم سهلا هينا لأنهم ينفون كلّ التزام جزائى فى ارتكاب الموبقات ، إذا لم يقدّر لها أن تذاع على ملأ من الناس ، والنفوس بطبيعتها تميل إلى التحللّ من القيود فهى إلى دعوات التحلل أسهل مقادة وألين عريكة مما يجعل الماديين يسبحون مع التيار العام ، أما دعاة الإيمان فيحاولون إقامة السدود المنيعة أمام الأهواء ، ويدعون إلى قوة الإرادة وشدة الحسم نفوسا يسوءها أن تكبح بلجام ، فطريقهم شاق وعر وعليهم أن يتعاونوا متساندين لِيُعلوا كلمة الله ، وإذا كنا نرى دعوات الإلحاد تمتد وتتّسع بحيث تحتل معاقل جديدة على فترات متعاقبة ، فإننا نهيب برجال الأديان أن يحموا أوطانهم من الزحف الراصد ، وإذا كنّا بالأمس نركن إلى الإغضاء عمن يحاربون الإيمان استخفافا بأثرهم فقد أثبتت الأيام أنهم يتقدمون وراء خطة مدروسة ، ويقفون جميعا متأهبين للانقضاض ، ولن تندحر جموعهم إلا إذا قوبلت بإعصار كاسح يستأصل الجذور الثابتة فى الأرض ، ويضع مكانها بذور الحب والإيمان.

د. محمد رجب البيومى

الردة والخوارج

الأستاذ / السيد حسن قرون

هل لحروب الردة دفعة فى ثورة الخوارج ؟ قد تبدو الإجابة عسيرة عن هذا الاستفهام ، وقد يكون الاستفهام نفسه غير وارد على الافهام ، ولكن شاعر الخوارج أجاب إجابة واضحة لا تحتاج إلى تأويل ، أو إلى إحسان الظن به قال :

ألم تر أن الله أظهر دينه
وصلت قريش خلف بكر بن وائل

وتزيدك المناسبة بيانا ، قال الرواة ومنهم الطبرى والجاحظ : إن الخوارج بعد مقتل الوليد بن يزيد جيشوا الجيوش بقيادة « الضحاك بن قيس الشيبانى » وملكوا العراق وساروا فى خمسين ألفا ، وانضم إليهم بعض أمراء البيت الأموى ، فبايع « عبد الله بن عمر بن عبد العزيز » « وسليمان بن هشام بن عبد الملك » الضحاك زعيم الخوارج ، ومن هنا كانت بهجة الشاعر وتغنيه بالصلاة خلف « بكر بن وائل » وهذا يدعونا إلى الرجوع إلى الوراء ، إلى « الردة » فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق ونهوضه لحرب أعادت الأمر إلى نصابه ، فعادت الجزيرة العربية إلى الإسلام كما خلفها محمد ﷺ ، وكانت القبائل التى أظهرت قسوة وتنكيلا بالمسلمين بينها بنى أسد ، وتميم ، وبنى حنيفة والأخيرة فرع من بكر بن وائل ، وبنو حنيفة وقفوا موقفا عدائيا من الإسلام حسدا لقريش بزعامة مدعى النبوة « مسيلمة الكذاب » فكلفوا المسلمين بذل الدماء والأموال .

وأبلى خالد بن الوليد وجنده بلاء حسنا حتى قضوا على مسيلمة فى حرب ضروس لا داعى لتفصيلها . وقد دفعنى شاعر الخوارج الذى فرح بصلاة قريش خلف بكر بن وائل أن أراجع تاريخ الردة والتاريخ الإسلامى عامة حتى أستوثق من الإجابة عن السؤال الذى بدأت به هذا المقال ، فرجح لدى أن عامل الحسد على قريش لما أتاها الله من النبوة والخلافة هو الذى دفع إلى الردة ، والردة لها أثرها فى الثورة على عثمان بن عفان والخروج على علىّ بن أبى طالب ، فالثائرون على عثمان لم ينالوا ما

أملوا ، فقد لجئوا إلى أحد القرشيين فاتخذوه خليفة بعده وهو « على » وبدت لهم خيبتهم حين رأوا عليا يولى أربعة من بنى عمه العباس ولاة على الأقاليم . قال قائل منهم : كيف فعل هذا ؟ قال الأشتر النخعى : لا يكون إلا هذا ، ومعنى هذا أن الخليفة يختار لعمله من يثق به ، ولا مانع أن يكونوا من أقرب أقاربه ، وما فعله عثمان لا يعدو ما فعله على .

ومن هنا بعدوا عن الإخلاص ، وبيتوا الخذلان فكانوا أخبث جند كما وصفهم معاوية بن أبى سفيان . وحكاية التحكيم ضرب من الخروج وشق العصا والثورة على الخليفة القرشى ؛ فما إن رفع أهل الشام المصاحف فى « صفين » طالبين حكم القرآن بين الفئتين المتقاتلتين حقنا للدماء حتى أعلن أصحاب على قبول التحكيم ، فبين لهم علىّ أنها وهن وخديعة ، فأبوا إلا قبول التحكيم ، وعلىّ رجل يحب الشورى واتفاق الجماعة ، يناقش الرأى فإذا رأى مخالفيه لا يرتضون رأيه دخل فيما دخلوا فيه ، بايع أبا بكر وعمر وعثمان ولم يحدث خلافاً ولو أراده لكان ، فلما رأى جنده يرون ما رأى جند الشام نزل عند رأيهم .

وأراد اختيار عبد الله بن عباس ليكون قريع عمرو بن العاص فأبوا إلا « عبد الله بن قيس » المشهور بأبى موسى الأشعرى[1] فنزل عند رأيهم أيضا ، وأبو موسى لا يعرف للخلافة إلا عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ، وعند بدء خلافة على رفض البيعة ولولا تهديد الأشتر النخعى له ما بايع عليا ، ويقال ، إن عليا كان يريد أن يكون أحد الحكمين « أبا الأسود الدؤلى » وقد سأله معاوية عام الجماعة فقال له : بلغنى أن على بن أبى طالب أراد أن يجعلك أحد الحكمين ، فما كنت تحكم به ؟

قال : لو جعلنى أحدهما لجمعت ألفا من المهاجرين وأبناء المهاجرين ، وألفا من الأنصار وأبناء الأنصار ثم ناشدتهم الله : آلمهاجرون وأبناء المهاجرين أولى بهذا الأمر أم الطلقاء ؟ قال له معاوية : لله أبوك ! أى حكم كنت تكون لو حكمت . ولكن أبا موسى لم يفكر هذا التفكير، ولم يذهب هذا المذهب وأصحاب على لم يفكروا فيما وقعوا فيه وفرحوا أن يكون أحد الحكمين ليس قرشيا ، وظهر من ينكر التحكيم ، فرجع معاوية وأهل الشام بالمودة والألفة ورجع على وأهل العراق بالشقاق والافتراق . وهنا يذكرون أن أول من حكَّم وقال : « لا حكم إلا لله » رجل من بنى تميم هو « البرك » واسمه الحجاج بن

(١) خلع أبو موسى عليا وثبت عمرو معاوية .

عبد الله ، وهو أحد الثلاثة الذين تآمروا على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص وهو الذى ضرب معاوية على أليته تنفيذا للمؤامرة ؛ فإنه لما سمع ذكر الحكمين قال : أيحكم فى دين الله ؟ فسمعه سامع فقال : طعن والله فأنفذ .

وقيل : أول من حكَّم بين الصَّفَّيْن رجل من بنى يشكر بن بكر بن وائل ، فإنه كان فى أصحاب على ، فحمل على رجل منهم فقتله غيلة ، ثم مرق بين الصفين فحكم ، وحمل على أصحاب معاوية فكثروه ، فرجع إلى ناحية على فحمل على رجل منهم ، فخرج إليه رجل من همدان فقتله ، فقال شاعر همدان :

ما كان أغنى اليشكرى عن التى
تَصَلَّى بها جمرا من النار حاميا
غداة ينادى والرماح تنوشه
خلعت عليا باديا ومعاويا

منى عينه أن يخلع عليا ومعاوية ، فمن يكون الخليفة إذن ؟ إن مسيلمة الكذاب قال لهم : « لنا نصف الأرض ولقريش نصفها » وهذا الخارج الأول يريدها خالصة ولا يقبل نصفها ، لقد خلع عليا ومعاوية .

فالبرك وهو تميمى أنكر الحكومة وطعن فأنفذ ، واليشكرى جال بين الصفين يقتل ويروع ويخلع الخليفة ومنازعه ، لأنهما قرشيان ، وكل من ذكر فى المبادرة إلى الخروج على القائد والخليفة تجده إما من تميم وإما من بكر بن وائل وقد يكون بينهم أحد من بنى أسد ، فبنو يربوع من تميم لا تنسى مقتل « مالك بن نويرة » وبنو حنيفة وإخوتهم من بكر بن وائل لا تنسى حرب اليمامة وحديقة الموت ونهاية مسيلمة الكذاب وبنو أسد ، ولو أن طليحة بن خويلد رجع إلى الإسلام وصار مجاهدا يستحق الثناء الجميل إلا أن بنى أسد كانوا يحبون أن يذكروا ولو بالسوء ، وخروجهم لا يعد خروجا فهم يرتضون خلافة قريش لأنهم مضريون مثلهم .

وأعود فأقول : إنى لا أكتب تاريخا له بدء وانتهاء ، ولكنى أريد أن أبين أن الخوارج ليسوا – كما وصفوا – بأنهم أول من تطور من المجتمع الإسلامى فارتفع عن دعوى القبلية ، وأحلوا محلها الأخوة الإسلامية ، وأنهم ناضلوا عن مذهب رأوه يتفق والتعاليم الإسلامية ، إنهم قبليون فى تصرفاتهم ، وإن كان بعض أتباعهم من القبائل الأخرى أو من الشعوب المفتوحة اغتر بدعاواهم ، ورأوها هدى ونورا . وانظر معى حين صاروا فرقا وشيعا ، من كان رؤساء تلك الفرق ؟ تجد النجدية نسبة

إلى « نجدة بن عامر الحنفى » والأزارقة نسبة إلى « نافع بن الأزرق الحنفى » والصفرية وأشهرهم عمران بن حطان – وكان رأس القَعَد من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم وهو منْ بنى شيبان إحدى قبائل بكر بن وائل .

إن رواسب الماضى تحركهم وتدفعهم إلى قتال كل خلافة قامت منذ مقتل عثمان إلى القرن الثالث الهجرى ، فقد عاقوا المسلمين عن القيام بواجبهم نحو نشر النور فى الشعوب ، ورفع المعاناة عن البشرية التى تعبد الأوثان والطغيان ، بدءوا بإنكار التحكيم وانتهوا بتكفير جميع المسلمين ، وجعلوا الخروج على السلطان هجرة لها ثوابها ومن المبادئ الأساسية تكفير عثمان فى الست الأخيرة من سنوات حكمه ، وتكفير على بقبوله التحكيم ، ثم تكفير جميع الأمة الإسلامية ممن لا يؤمنون بما آمنوا ، ويعتقدون بما اعتقدوا ، فكانوا حربا على الأمن والنظام ، فما إن يحلون بأرض حتى يعيثوا فيها فسادا قتلا وتخريبا ، ولا أريد أن أظلمهم فعلى أن أذكر شيئا من حوارهم لنرى مدى الإنصاف عندهم وبدهى أن نبدأ بحوارهم مع على وأتباعه ؛ لأن المؤرخين يجعلون بدء تاريخهم من لدن قبول على التحكيم وإن كان الأمر غير ذلك كما بينت فى صدر المقال .

قال المبرد فى كتاب « الكامل » فى حديثه عن « الحرورية » إن عليا ناظرهم بعد مناظرة ابن عباس رحمه الله إياهم فكان مما قال لهم : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم : هذه مكيدة ووهن ، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لم يأتونى ثم سألونى التحكيم ، أفعلمتم أنه كان منكم أحد أكره لذلك منى ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فهل علمتم أنكم استكرهتمونى على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشترطت أن حكمها نافذ ما حكما بحكم الله عز وجل فإن خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء ، وأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدونى . قالوا : اللهم نعم . . ثم قالوا : حكمت فى دين الله برأينا ونحن مُقرّون بأنا قد كفرنا ونحن تائبون فأقرر بمثل ما أقررنا وتب ننهض معك إلى الشام . فقال : أما تعلمون أن الله جل ثناؤه قد أمر بالتحكيم فى شقاق بين رجل وامرأة فقال تبارك وتعالى : (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وفى صيد أصيب فى الحرم كأرنب يساوى ربع دينار ، فقال عزَّ وجلّ : (يحكم به ذوا عدل منكم) فقالوا : إن عمراً لما أبى عليك أن تقول فى كتابك : هذا ما كتبه عبد الله على أمير المؤمنين محوت اسمك من الخلافة ، وكتبت « على ابن أبى طالب »

فقال لهم : لى برسول الله ﷺ أسوة حيث أبى عليه سهيل بن عمرو أن يكتب هذا كتاب كتبه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو فقال « سهيل » : لو أقررنا بأنك رسول الله ما خالفناك ، ولكنى أقدمك لفضلك . ثم قال : اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال لى : يا على امح رسول الله ، فقلت : يارسول الله لا تسخو نفسى بمحو اسمك من النبوة .

فقال عليه السلام : قِفْنى عليه ، فمحاه بيده ﷺ ، ثم قال : اكتب محمد ابن عبد الله ثم تبسم ، فقال : يا على أما أنك ستسام مثلها ، فتعطى ، فرجع منهم ألفان من « حروراء » وسماهم « الحرورية » ثم تعرضوا بعد الحوار للرجل الصالح « عبد الله بن خباب » وقد لقيهم وفى عنقه مصحف ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا له : إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك . قال : ما أحيا القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه . ثم حدثت أمور منهم جعلته يحسن الظن بهم ، منها أن خارجيا وثب على رطبة فوضعها فى فيه ، فصاحوا به ، فلفظها تورعا ، وعرض للرجل منهم خنزير فضربه الرجل فقتله ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض ، فاطمأن عبد الله بن خباب وقال لهم : ما على منكم بأس ، إنى لمسلم .قالواله : حدثنا عن أبيك ، قال : سمعت أبى يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، فكن عبد الله المقتول ولا تكن القاتل ، قالوا : فما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيرا . قالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم وفى عثمان ست سنين؟ فأثنى خيرا. قالوا : فما تقول فى الحكومة والتحكيم ؟ قال أقول : إن عليًّا أعلم بكتاب الله منكم وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة . قالوا : إنك لستَ تتبع الهدى إنما تتبع الرجال على أسمائها ، ثم قرَّبوه إلى شاطئ النهر فذبحوه .

وهنا كان لابد من القصاص وهو من حدود الشريعة الإسلامية والإمام هو على ابن أبى طالب ، فطالبهم بتقديم قاتل عبد الله بن خباب ، وكانوا ستة آلاف وقف إزاءهم وأمرهم بالرجوع وتسليم القاتل ، فركبوا رءوسهم وقالوا : كلنا قتله وشرك فى دمه وانتهى الكلام فكان القتال . حمل رجل منهم على صف على – وقال على : لا تبدءوهم بقتال – فقتل ثلاثة من أصحاب على وهو ينشد :

أقتلهم ولا أرى عليا
ولو بدا أو جرته الخطيا[١]

فخرج إليه على فقتله ، فلما خالطه السيف قال : « حبذا الروحة إلى الجنة » فقال عبد الله بن وهب الراسبى وهو من رؤساء الحرورية : ما أدرى ألى الجنة أم النار ؟ فقال رجل من بنى سعد : إنما حضرت اغترارا بهذا – إشارة إلى الراسبى – وأراه قد شك فانخزل بجماعة من أصحابه ، ومال ألف منهم إلى راية أبى أيوب الأنصارى ، ودارت الدائرة على الخوارج ، وما كان أغناهم عن قطع الطريق وقتل مسلم لم يشهر سيفا ولم يدع إلى حرب ، وقد فطن الأذكياء من المسلمين إلى مسلكهم فكانوا يحتالون لأنفسهم إذا وقعوا بين أيديهم من ذلك ما حدث « لواصل بن عطاء » رأس المعتزلة بعد سنوات كثيرة من حادث ابن خباب ، أقبل فى رفقة فأحسوا الخوارج فقال واصل لرفقته : إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعونى وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العطب ، فقالوا : شأنك ، فخرج إليهم . فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده . فقالوا : قد أجرناكم . قال : فعلمونا فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، فجعل يقول :

قد قبلت أنا ومن معى ، قالوا : فامضوا مصاحبين ؛ فإنكم إخواننا ، قال : ليس ذلك لكم ، قال الله تبارك وتعالى . (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) فأبلغونا مأمننا ، فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن . وحيلة « واصل » تدلك على هوسهم الدينى ، وعمايتهم عن نور الحق ، وتنكيبهم الطريق السوى . وحين يحدث الحوار معهم قد يخيل إليك أنهم يقتنعون إذا ظهرت البينة وقام الدليل ، ولكن حوارهم يعقبه غالبا امتشاق الحسام وإراقة الدماء إلا إذا كان محاورهم فى منعة لا يطاولونها ، ومن حوارهم ما جرى بين نجدة بن عامر الحنفى وعبد الله بن الزبير حين قام بالخلافة بمكة ، وكان مع نجدة نافع بن الأزرق الحنفى وجماعة كبيرة ، وجرى بينهم نقاش طويل ، وقالوا قبل لقائه نناظره فإن قدم أبا بكر وعمر وبرئ من عثمان وعلى وكفَّر أباه وطلحة تابعناه ، فدخلوا وهو متبذل غير مستعد لقتال وأصحابه متفرقون عنه ، وعرضوا عليه ما تناظروا فيه .

---

(١) الرمح نسب إلى خط موضع باليمامة تحمل إليه الرماح من الهند فتقوم به .

وختموا مقالهم بالوعد والوعيد قالوا له : إن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا ، ونسأل الله التوفيق ، وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين التى أحلت دمه وأفسدت أمانته خذلك الله وانتصر منك بأيدينا . فكان رد عبد الله بن الزبير : إن الله أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العُتاة بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى وأخيه فى فرعون : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله ﷺ : (لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى » فنهى عن سب أبى جهل من أجل « عكرمة » ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك والجاد فى المحاربة ، والمتبغض إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنبا ، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؛ فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى [١] بسب أبى وصاحبه وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن فى أبويه : (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) ، وقال جل ثناوه : (وقولوا للناس حُسْناً) وهذا الذى دعوتم إليه أمر له ما بعده وليس يغنيكم إلا التوقيف والتصريح ، ولعمرى إن ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه ، فروحوا إلىّ من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله .

فلما كان العشى راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدة قال : هذا خروج مناجز ومنابذ لكم ، ثم خطبهم ابن الزبير وبين فضل أصحاب محمد ﷺ ونوه بجهادهم وما كان منهم بعد أن غاب هاديهم ثم قال : فإن يكن ما سعوا فيه حقا فأهل ذلك هم ، وإن يكن زلة ففى عفو الله تمحيصها . وابن الزبير فى كل ما ذكره أولا وأخيرا أصاب كبد الحقيقة ، ولو أنهم ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه لهدوا إلى الرشد وإلى طريق مستقيم ، ولكنهم اعتقدوا عقيدة وأرادوا أن يكرهوا عليها كل مسلم وهم فى نظر مخالفيهم من الضالين .

ولنافع بن الأزرق حوار مع عبد الله ابن عباس نذكره لطرافته .

قال عكرمة [٢] : رأيت عبد الله

---

(١) تغضبونى .

(٢) مولى ابن عباس وعالم من علماء المسلمين .

ابن عباس وعنده نافع بن الأزرق وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جلَّ ثناؤه : (والليل وما وسق) فقال ابن عباس : وما جمع . فقال : أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إنَّ لنا قلائصا حقائقا
مستوسقات لو يجدن سائقا

القلائص : النوق الشباب والحقائق ما استحقت أن يحمل عليها . وسأله عن قوله عز وجل : (قد جعل ربك تحتك سريا) فقال ابن عباس : هو الجدول ، فسأله عن الشاهد فأنشده :

سَلْماً ترى الدالج منها أزورا
إذا يعج فى السرىِّ هرهرا

السلم الدلو الذى له عروة واحدة وهو دلو السقائين ، والدالج الذى يمشى بين البئر والحوض ، والسرى هو الجدول كما قدمنا . وسأل ابن عباس عن قوله : (عتل بعد ذلك زنيم) ما الزنيم ؟ قال : هو الدعىّ الملزق . أما سمعت قول حسان بن ثابت :

زنيم تداعاه الرجال زيادة
كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وسأله عن قوله جل اسمه : (والتفت الساق بالساق) قال ابن عباس : الشدة بالشدة ، فسأله عن الشاهد فأنشده :

أخو الحرب إن عضَّت به الحرب عضَّها
وإن شمرت عن ساقها الحرب شمَّرا

واستطرد نافع إلى شىء آخر ، فسأل ابن عباس قائلا : أرأيت نبى الله سليمان ما خوله الله وأعطاه كيف عنى بالهدهد على قلته وضؤولته ، فقال له ابن عباس : إنه احتاج إلى الماء والهدهد «قناء» الأرض له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها فسأل عنه لذلك . قال ابن الأزرق : قِفْ يا وَقَّافُ ، كيف يبصر ما تحت الأرض والفخ يغطى له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه ؟ فقال ابن عباس : ويحك يا ابن الأزرق ، أما علمتَ أنه إذا جاء القدر عشى البصر ، وقد عرضت لك عقل كل من نجدة وابن الأزرق لأن لهما شأنا فى مجرى الأحداث ، وأصحاب نافع هم أصحاب الجد والحد والقوة وقد روعوا البصرة والكوفة أياما وليالى وأعواما ثقالا ، وانتدب لهم أكثر من قائد فكانوا بين قتيل وهارب حتى قام لهم المهلب بن أبى صفرة ، فصمد لهم وانتصر عليهم فى مواطن يطول الحديث عنها .

ولِمَ افترق نجدة بن الأزرق وكيف نشأت القطيعة بينهما ؟ كان ذلك لحب الخوارج الجدال والغلوفيه تجد ذلك عند الإباضية والصفرية والنجدية والأزارقة

وأصحاب أبي بيهس ، وكل من سار على نهجهم وهو أعوج وإن بدا آخذا بطريق الكتاب والسنة ، وهل هناك أضل ممن يجعل نفسه مهاجرا وجميع المسلمين كفرة ؟ إلى أين يهاجر ؟ وأين يثرب التي يهاجر إليها ؟ وما موقفه من قول الرسول ﷺ « لا هجرة بعد الفتح » ؟

قال الرواة : إن نافعا أقام بموضعه بالأهواز بعد أن ترك البصرة فطرد عن الأهواز عمال الحكومة جبي الفيء ومعه نجدة وأعوانه وهم جميعا على رأى واحد يتولون أهل النهر وان قتلى على بن أبي طالب ومرداسا ومن خرج معه حتى جاء مولى لبني هاشم إلى نافع فقال له : إن أطفال المشركين في النار ، وإن من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال حلال . قال له : نافع : كفرت وأدللت بنفسك . قال له : إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلني . (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم ، فشهد نافع أنهم جميعا في النار ، ورأى قتلهم ، وقال : الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومن جاء منهم فعلينا أن نمتحنه وهم كفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل ؛ فإن الله تعالى يقول : (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) وقال عز وجل فيمن كان على خلافهم : (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) لقد كان نافع بن الأزرق ذا عقل ، يذهب إلى ابن عباس ليتفقه في الدين ويتفهم القرآن فإذا به يأخذ برأى مولى بني هاشم وكيف يثق بمولى قد يكون على ضغن للعرب والإسلام جميعا ؟ ولذا حاجه نجدة ابن عامر بقوله : يقول الله عز وجل « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ويقول : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) والقعد منا والجهاد إذا أمكن أفضل لقوله جل وعز :

(وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) وفارقه نجدة جاعلا وجهه اليمامة . وانقلب ابن الأزرق وحشا ضاريا يستعرض الآمنين ويقتلهم لا يفرق بين الرجال والأطفال والنساء ، ونسى وصايا رسوله التي تدعوه إلى الكف عن قتل الشيوخ والأطفال والنساء ، ولم يتركه نجدة وشأنه بل راسله مبينا خطأ ما ذهب إليه من الاستعراض وقتل الأطفال واستحلال الأمانة ، ورد نافع على نجدة ثابتا على رأيه مستدلا بالقرآن يفسره حسب منهجه .

ولم يكتف بالكتابة إلى نجدة فكتب إلى عبد الله بن الزبير داعيا له إلى الابتعاد عن تولى غير المسلمين ، وندد بموقفه من على فى حياته وبعد مماته خاتما رسالته بما يمسك بخناقه : « لقد كنت له عدوا ولسيرته عائبا ، فكيف توليته بعد موته ؟ فاتق الله ؛ فإنه يقوله : (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) كما كتب إلى أهل البصرة من « المحكمة » شارحا مذهبه الذى سبق القول فيه ، فاختلف القوم حول مذهبه ، فأقبل أبو بيهس على عبد الله بن إباض المرى فقال له : إن نافعا غلا فكفر ، وأنت نصرت فكفرت تزعم أن من خالفنا ليس بمشرك وإنما هم كفار النعم لتمسكهم بالكتاب وإقرارهم بالرسول ، وتزعم أن مناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حِلّ طِلْق . وأنا أقول : إن أعداءنا كأعداء رسول الله ﷺ تحل لنا الإقامة بينهم كما فعل المسلمون فى إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجرى فيها ، وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز ؛ لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وأن حكمهم عند الله حكم المشركين . فهذه أقوال ثلاثة لنافع وأبى بيهس وابن إباض ، وأقربها إلى أهل السنة آراء ابن إباض ، والصفرية والنجدية يذهبون مذهبه ويأخذون برأيه . عسكر نافع بالأهواز ، وروع الآمنين واشتدت شوكته فاجتمع أهل البصرة على رأسهم الأحنف بن قيس وذهبوا إلى الوالى وهو « عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب » يسألونه أن يحارب الأزارقة فأجابهم إلى طلبهم واختار لهم قائدا « ابن عبيس بن كريز » وكان دينا فاضلا ، فخرج بجيشه قائلا :

إنى ما خرجت لامتيار ذهب ولا فضة ، وإنى لأحارب قوما إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم ، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع ، فرجع نفر قليل ، ومضى الباقون معه ، فلما بلغوا « دولاب » خرج إليهم نافع فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل ، وكثرت الجراح وكثر القتل ، وتضاربوا بالسيوف والعمد ، وانجلت المعركة عن قتل قائدى الجيشين : قتل ابن عُبَيْس ، وقتل نافع بن الأزرق ، وتولى قيادة الجيش الحكومى رجل من غدانة هو « الربيع بن عمرو » وتولى قيادة جيش الأزارقة « عبيد الله ابن بشير » من بنى سليط ، وكلاهما من بنى يربوع ، انتهى نافع ولم تنته دعوته ، وتغيرت الحكومة وتوحدت الدولة بخلافة عبد الملك بن مروان بعد القضاء على الزبيريين ومازال القتال دائرا بين الخوارج

وجيش الحكومة والمهلب بن أبى صفرة يومئذ يداورهم ويقاتلهم حتى تغلب عليهم أو قل شتتهم بعد هرب قطرى بن الفجاءة وقتل عبد ربه الصغير.

ولم تكن معارك الخوارج سهلة أو منقطعة فقد كانت أشد قتال قابلته الدولة ، وكان الشعر يصف تلك المعارك ويشيد بالأبطال من الجانبين ، وقد خلَّد الشعر «يوم دولاب» ورثى نافع بن الأزرق ونعته بأمير المؤمنين ، ومن طرائف الأحداث أن مصعب بن الزبير التقى بعبد الملك بن مروان بمسكن ، فانتصر عبد الملك وقتل مصعب ، وأتى خبر مقتله الخوارج ولم يأت المهلب وأصحابه ، فلما تقابل جيش الخوارج وجيش المهلب . ناداهم الخوارج ، ما تقولون فى «مصعب» ؟ قالوا : إمام هدى . قال الخوارج : ما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : ضال مضل .

فلما كان بعد يومين أتى المهلب قتلُ مصعب وأن أهل الشام والعراق اجتمعوا على عبد الملك وورد عليه كتاب عبد الملك بولايته . فلما تواقفوا ناداهم الخوارج : ما تقولون فى مصعب ؟ قال أصحاب المهلب . لا نخبركم . قالوا : فما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : إمام هدى . قال الخوارج : يا أعداء الله بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى ، يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله ، وإنه يملأ القلب أسى أن تتطور قصة التحكيم إلى هذا التطور ، وأن ينبثق منها مذهب كان أشد فتق فى الإسلام ولا تحسبن أن الخوارج لم يكن لهم تأثير فى تفكير العلماء والشعراء وأولى الفضل ، فقد غرت دعوتهم كثيرا من الناس ، وكان الخوف يملأ قلوب ذوى الشأن فيخافون أن يتهموا بتهمة الميل إلى رأى الخوارج . هذا الراعى النميرى يخاطب عبد الملك قائلا :

إنى حلفت على يمين برّةٍ
لا أكذب اليوم الخليفة قيلا
ما إن أتيت أبا خبيب وافدا
يوما أريد ببيعتى تبديلا
ولا أتيت نجيدة بن عويمر
أبغى الهدى فيزيدنى تضليلا
من نعمة الرحمن لا من حيلتى
أنى أعدله علىَّ فضولا

ألم تره فى شعره قرن «نجدة بن عامر» بأبى خبيب عبد الله بن الزبير ، وجعله قوى البيان يزيد سامعه تضليلا ؟ إنهم الخوارج أفسدوا العقيدة بخلطهم السياسة بالدين ، وخلقهم من التحكيم أمرا دينيا تدور حوله الحجج والبراهين ، وهو أمر لا يحتاج إلى نظر ونقاش وعداوة لداء ، ودماء تسيل ،

وتكفير لأمة تقرأ القرآن وتروى السنة ، ويتحرز جل خلفائها وأمرائها من مخالفة أوامر الله ونواهيه ، وكانت بدعة ظهرت بعدها الفرق المتناطحة حول الإيمان والكفر والفسق ، ومن حين إلى حين يحدث زلزال من الخوارج ، وكان أشده ما حدث فى عهد الرشيد ، وكان الخارج من بنى شيبان أخت يشكر ، وحنيفة اسمه « الوليد ابن طريف » ولقبه الشارى والشارى تساوى الخارجى كان رأس الخوارج وأشدهم بأسا وصولة ، فاشتدت شوكته ، وطالت أيامه ، وأخاف الطريق ، وأهم الخليفة هرون الرشيد ، فوجه إليه « يزيد بن مزيد » ابن أخى « معد بن زائدة الشيبانى » فجعل يقاتله ويماكره وينتظر الوثبة عليه ، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد – هكذا يقول صاحب الأغانى – فأغروا به الرشيد ، فقالوا : إنما يتجافى عنه للرحم ؛ لأنه من عشيرته . . فكتب إليه الرشيد كتابا مغضبا يقول فيه : « لو وجهت بأحد خدمى لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليوجهن إليك من يأخذ رأسك إلى أمير المؤمنين » ويزيد بن مزيد لم يكن مداهنا ولا مقصرا ، ولكن للحرب مكايدها وطرقها ووضع الخطط وترقب تنفيذها . والتقى الجيشان فى رمضان عشية خميس ، وقد جُهد يزيد وعطش عطشا شديدا جعله كما تقول الرواية يرمى خاتمه فى فمه ويلوكه ويقول لمن معه من الجند :

فداكم أبى وأمى ، إنما هى الخوارج ولهم حملة فاثبتوا لهم تحت التِّراس ، فإذا انقضت حملتهم فاحملوا ، فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا ، فكان كما قال ، حملوا حملة وثبت يزيد ومن معه من عشيرته وأصحابه ، ثم حمل عليهم فانكشفوا ، وتبع يزيدٌ الوليد بن طريف فلحقه بعد مسافة بعيدة فقتله ، وكان الوليد يقول :

أنا الوليد بن طريف الشارى
قسورة لا يصطلى بنارى
جوركم أخرجنى من دارى

وما أدرى ما الجور الذى لحقه ؟ وإنما أخرجته وساوس الشيطان ، ورواسب ماضى بكر بن وائل وحسدها لقريش منذ ظهر نبى الإسلام من قريش . وكان المنتظر أن تهدأ الحرب . فما إن جاء الصباح حتى خرجت ليلى أخت الوليد تقود الخوارج عليها الدرع والجوشن ، فجعلت تحمل على جيش يزيد ، فقال : دعوها ، ثم خرج إليها ، فضرب بالرمح مؤخر فرسها ، ثم قال

لها : اغربى غرَّب الله عليك ، فقد فضحت العشيرة فاستحيت وانصرفت وهى تقول :

أيا شجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى
ولا المال إلا من قنا وسيوف

فرجع يزيد إلى بغداد ظافرا منصورا ، فلما رآه الرشيد سرَّ بمرآه وقال له : مرحبا بالأعرابى ، ثم أجازه وكرمه ، وأخذ الشعراء يهنئونه ، وأجود ما قيل فيه قصيدة مسلم بن الوليد صريع الغوانى ، ومنها :

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة
لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل
لا يعبق الطيب خديه ومفرقه
ولا يُمَسِّح عينيه من الكحل

وهو وصف هادف بمقاتل اتجه إلى الخشونة والجد والاستعداد فى زمن أسرعت الحضارة فيه إلى التطرف والقطرية ليصنع الشباب صنيعه ، ويسلكوا مسلكه ، ويصطنعوا همته .

وترانى بدأت البحث بأول من حكم وسار بين الصفين يطعن ويقتل وهو من بنى يشكر ، وانتهيت بالبحث عند الوليد بن طريف الشيبانى وكلاهما من بكر بن وائل ، ولم تصل قريش خلفها جاعلة منها الخليفة كما ادعى الشاعر مشيرا إلى أن حروب الردة كان لها أثرها فى تحريك الأحداث ، وتغذية النفوس ، وجلب النكبات والكوارث .

لقد كانت معركة الوليد بن طريف مؤذنة بنهاية الصراع بين القبائل ، فقد جاء على العرب ما يشغلهم عن التحاسد والتباغض ، فقد أظل ظل الشعوبية ثم امتد قرنا بعد قرن حتى لم يبق للعرب إلا الخليفة العباسى الذى تحكم باسمه الدنيا وهو بمعزل عنها ، باسمه حكم الترك والسلاجقة والأكراد والمماليك ، والعرب يتأخرون ويتخلفون ولا يتعظون بالأيام ولا يستيقظون ، فهل آن لنا أن نقول : إن التحكيم ليس بضلال ولا هدى ؟

السيد حسن قرون

مراجع البحث :

١ – الكامل للمبرد
٢ – تاريخ الطبرى
٣ – الطبقات لابن سعد .
٤ – العقد الفريد لابن عبد ربه
٥ – الأغانى لأبى فرج الأصفهانى
٦ – البيان والتبيين للجاحظ

مركز السُّنة الإسلامية فى التشريع الإسلامى وموقف المستشرقين منها .. ؟

الدكتور/رءوف شلبى

١ - مفهومها وَحُجِّيَّتُها .
٢ - شُبهات حول الحُجِّية .
٣ - وظيفتها ومكانتها .
٤ - المستشرقون وموقفهم من السُّنَّة النبوية .

١
مفهوم السُّنة ومصدريّتها

(ا) مفهوم السنة :

فى الأسلوب العربى تُطلق السنة - قبل أن تكون اصطلاحاً إسلامياً - على الطريقة : سواء كانت طريقة حسنة ، أو كانت طريقة سيئة ؟

- وقد جرت بعض آيات القرآن الكريم على هذا المعنى فى مقام توضيح موقف الله - جل شأنه - من الأُمم السابقة تأكيداً لسرمدية طريقة الله مع معاندى أنبيائه ورسله - يقول الله تعالى :

١ - (قد خلت من قبلكم سُنَنٌ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) آل عمران : ١٣٧ .

٢ - (سنة مَنْ قد أرْسلنا قَبْلك مِن رُسُلنا ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تحويلا) الإسراء : ٧٧

٣ - (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)

الأحزاب : ٦٢ .

٤ - (اسْتِكْباراً فى الأرض ومَكْرَ السّيىءِ ولا يَحيقُ المكْر السّيىءُ إلاّ بأَهْلِهِ فهل ينظرون إلاّ سُنَّةَ الأوّلينَ ، فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً)

فاطر : ٤٣ .

* * *

- كما جرت بعضُ الأحاديث على هذا المعنى . . يقول النبى - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُها وأجْرُ مَن عمل بها

إلى يوم القيامة ، وَمَنْ سَنّ سُنّةً سَيِّئَةً فعليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة » .

– فَيَدُورُ مفهوم لفظ « السُّنّةِ » فى الاصطلاح الْعَرَبِىّ حَوْل الطريقة : حسنةً كانت ، أو سَيِّئَة . .

(ب) مفهوم السُّنّة فى الاصطلاح الإسْلامى :

– غير أن المفهوم بعد الإسلام : أخَذَ وضعاً خَاصًّا ، كما أخذت أوْضاعُ الحياةِ الإنسانية كلها بالإسلام – الحنيف – وَضْعاً خَاصًّا ، فأخذت السُّنّة فى حركة هذا النشاط الإسلامىّ طابعاً جديداً حَدّدَ فيه علماءُ الإسلام على اختلاف مَنَاحى اشتغالهم بالفكرة الإسلامية : تقاسيم السُّنّة . .

– فكان للسُّنّة اصطلاحٌ خاصّ عند عُلماءِ : التشريع ، والقانون ، والفقه الإسلامىّ .

وكان لها اصطلاحٌ مُغاير عند عُلماء أُصول التشريع ، والفقه الإسلامىّ . .

(ا) السنة فى اصطلاح المشَرّعين والْفُقهاء :

١ – فالسُّنّة فى اصطلاح الفقهاء ، هى : الفعل الذى دَلّ الخطاب على طلبه طلباً غير جازم » .

فهى تُقابل الواجب ، ولا تشمل . . المَنْدُوب ، والمسْتَحَبّ ، والتّطوُّع فى دائرة هذا التعريف .

٢ – ويُعَرِّفُها جانب آخر مِنَ الفقهاء بأنّها : ما يثابُ فاعلُها ، ولا يُعاقب تَارِكُهَا » .

– فتكون فى مُقابل الواجب قَسِيماً ، ولكنها تشمل : المَنْدُوب ، والْمُسْتَحبُّ ، والتّطوُّع . .

وهذا المفهوم مُرْتَبِطٌ بالسُّنة مِنْ حيث جانبها [الْعَمَلىّ السُّلُوكىّ] والفَرْقُ بين المفهومَيْنِ اللذين ذكرهما علماءُ الفِقه :

– أن التّعريف الأوّل : يَجْعَلُ السُّنّة فى مُواجَهَةِ الواجب ، فهو خاصّ بالسُّنة المؤَكّدَةِ . .

– وأمّا التعريف الثانى . . فيجعل السُّنّة شامِلَةً للمؤَكّد منها ، وغير المؤكّد . .

(ب) عند علماء أُصول التشريع وأصول الفقه :

أمّا هىَ عند علماءِ الأُصول ؛ فإنّها : كلّ ما ورد عن النبى – ﷺ – أو صَدَرَ عنه مِنْ قول ، أو فِعْل ، أو تقرير . فَهِى تُقَابِل القُرآن فى مصدَرِيّتِهِ للفقه

والأحكام ، وتشمل الحديث الشريف وإخبار الصّحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – فِيمَا نَقَلُوهُ عَنِ النبى – ﷺ – من آثار تَحْمِلُ تَشْرِيعات . . .

(ا) الفَرْقُ بين مفهوم السُّنة عند الفقهاء ، ومفهومها عند الأُصوليِّين :

– ومن هذا التوضيح الموجز لمفهوم السُّنة عند جماعات العلماء المشتغلين بالثقافة الإسلامية . . نَلْحَظ الفرق بين المفهومَيْن : أنّ السُّنة عند علماء التشريع ، والفقه ، هى : نفس الحُكْم الشرعىّ التّكْلِيفِىّ فرَكْعَتَىْ الصبح . . قبل صلاة الْفَجْرِ . . هى السّنة المرادة عند الفقهاء وصَوْم ثلاثة أيّام من أوّل كُلّ شهر . . هى السُّنة التى عَرّفها الفقهاءُ .

– أمّا عند عُلَمَاء الأُصول . . فهى الدليل الذى يَسْتَنِدُ إليه الحكْمُ الشرعىّ . . إنّها هىَ : حديث النبى – ﷺ – الذى يَرْوِيهِ مُسْلم مِن طريق الزُّهْرِى عن سالم عن أبيهِ : أخبرتنى حفصة : أن النبى – ﷺ – كان إذا أضاءَ لَهُ الفجر صلّى ركعتين . .

– وَيَرْوِى مُسْلم مِنْ طريق يحيى بن سعيد عن ابن جُرَيْج ، قال : حَدّثنى عَطَاء عَنْ عُبَيْد بن عُمَيْر عن عائشة : أنّ النبى – ﷺ – لم يكُنْ عَلَى شَىْءٍ من النّوافل أشدُّ معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح «باب استحباب رَكْعَتَىْ سُنّة الفجر ، والحثّ عليها» .

– والذى يعْنينا هنا من السُّنة : هو المفهوم الأُصولىّ الذى نقدّم لَهُ هذا البحث حِسْبَةً لوجه الله الكريم . .

(ب) مَصْدَرِيّة السُّنة للتشريع الإسلامىّ :

الاحتجاج بالسُّنة على ثبوت الحكم الشرعىّ . . معناه :

– الاعتماد على السنة فى استنباط الحكم الشرعىّ ، وثبوت التكليف به .

والاحتجاج بالسُّنة على ثبوت الحكم الشرعىّ مُرتبطٌ بالنُّبوّةِ لسيدنا محمد ﷺ .

١ – فالعِصْمَةِ صفة لاَزِمةٌ ، وصفة واجبة بالشرع للنبى – ﷺ – وعليها يترتّب حتمية تصديقه – عليه الصلاة والسلام – فى كل ما ينطق به من :

– قرآن كريم تلقّاه عَنْ رَبِّه جلّ شأْنه .

– أحاديث قدسيّة بلّغها إليه الْوَحْىُ باللفظ ، أو بالمعْنى فقط ، أو بهما معاً .

– أحاديث نبوية يَشْرَحُ بِها النّبى

ﷺ حُكْماً شرعيًّا يُبيّن حِلّهُ ، أو حُرْمَتَهُ .

وفى هذا : ثبت عن النبى ﷺ أنّه قال :

« ألا إنّى أُوتِيتُ القرآن ومِثْلَهُ مَعَهُ [ألا يُوشك رجلٌ شبعان على أريكَتِهِ يقول : عليكم بهذا القرآن] ، فما وَجَدْتُم فيه مِنْ حلال فأَحِلُّوه ، ومَا وجَدْتُم فيه مِنْ حَرام فحرِّمُوهُ . . أَلاَ : إنّ مَا حرّم رسول اللهِ كما حَرّم الله » .

والقرآن الكريم نفسه واضح فى هذا الصّدد — :

(وما آتاكم الرّسول فَخُذُوهُ وما نهاكم عنه فانْتَهُوا ، واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب) الحشر : ٧ .

٢ — بل : إنّ القُرآن لَيأْمُرُ المسلمين عامّة بالطاعة لرسول الله ﷺ .

يقول الله تعالى — :

(مَن يُطِعِ الرّسُول فقد أطاعَ اللهَ ، وَمَنْ تَوَلّى فَمَا أرسلناك عليهم حفيظاً)

النساء : ٨٠ .

٣ — بل إن القُرآن لَيَضَع تلك الطاعة للنبىّ ﷺ فى أسْلُوب قانونىّ عامّ :

(ومَا أَرْسلنا مِنْ رَسُول إلاّ لِيُطَاع بإذْنِ الله ، وَلَوْ أنّهم إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُم جاءُوكَ فاسْتَغْفَرُوا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً) النساء : ٦٤

٤ — بل إن القرآن يجعلُ طاعةَ رسولِ الله ﷺ علامةً مِنْ علامات الحبّ للهِ — :

(قل : إنْ كُنْتُمْ تُحبُّون اللهَ فاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمْ الله ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١ .

٥ — ثم : إن القُرآن الكريم . . يُقْرِنُ طاعَةَ النبى — ﷺ — بطاعة الله فى أسلوب الأمر للجماعة الإسلامية ، ويجعل عدم تنفيذ تلك الطاعة مُقابلاً للكفر ! ؟

— يقول الله تعالى — :

(قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسُول فإن تَوَلّوْا فإنّ الله لا يحبُّ الكافرين)

آل عمران : ٣٢ .

(إنّ الذين يُبَايِعُونَكَ إنّما يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فوق أيْدِيهِمْ) . الفتح : ١٠

٦ — ثم : يُهَدّدُ القرآن الكريم الْمُشَاقِّينَ لِرَسُول الله — ﷺ — بِالْخِزْىِ فى الدُّنيا والآخرة — :

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّن لَهُ الْهُدَى وَيتّبعْ غَيْرَ سَبِيلَ الْمُؤْمِنينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنّمَ وَسَاءَتْ مصيراً) .

النساء : ١١٥

« فليحذر الذين يُخَالِفُونَ عن أمره أن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أوْيُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

النور : ٦٣

— وحَوْلَ هذا الحق الواجب للنبى

- ﷺ - يَرْوِى الحاكم عن ابن عبّاس - رضى الله عنهما : أن النبى - ﷺ - قال فى خطبة الودَاع : «إن الشيطان قد يَئِس أن يُعْبَدَ بِأرْضكُم ، وَلكن : رَضِىَ أن يُطاع فيما سوى ذلك ، ممّا تُحَاقِرُونَ مِنْ أمْرِهِ فاحْذَرُوهُ ، إنى قد تركتُ فيكمْ مَا إن اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أبداً : كتاب الله ، وسنة رَسُولِهِ » .

٧ - وفى المجال التشريعىّ : حذّر اللهُ جَماعة المؤْمنين أنْ يَتَقَدّمُوا عَلى النبىّ - ﷺ - فى إثبات حكم ، أو فى اقتراحِ حكم قبل أن يأْتِيه الوَحْى الْمُبِين . .

يقول الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا : لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ واتَّقوا الله إنّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ) . الحجرات : ١

- ولم يجعل لأحدٍ رأْياً بعد حُكم النبى - ﷺ - (وما كان لمؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَة إذا قضى الله ورسوله أمْراً أنْ يكون لهم الخِيرَة من أمرهم ، ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد ضَلّ ضلالاً مُبيناً) . الأحزاب : ٣٦

٨ - بل قبل أن يُفوِّضَ الله الوُجَهَاء منَ علماءِ الأُمَةُ الإسلامية فى اسْتِنْبَاطِ الحكْم الشرعىّ رَدّ الأمر أوّلاً إلى رسُول الله -ﷺ - يقول الله تعالى - :

(وإذا جَاءَهُمْ أمْرٌ مِنَ الأمْنِ أوِ الْخَوْف أذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرّسُول وإلى أُولى الأمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الّذين يَسْتَنْبِطونَهُ مِنْهم ، وَلَوْلاَ فضل الله عليكم وَرَحْمَتُهُ لاَتّبَعْتُمُ الشّيطان إلاّ قليلاً) . النساء : ٨٣

٩ - ولا يَسْمَحُ القرآن الكريم للجماعة الإسلامية أن تُطيع أُولى الأمر إلا بعد إطاعة الرّسول ﷺ يقول الله تعالى - :

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولى الأمر منكم ، فإنْ تَنَازَعْتُم فى شَىْء فردُّوهُ إلى الله والرسول إنْ كنتم تُؤْمِنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً) . النساء : ٥٩

- فكرّر الفعل « أطيعوا » فى جانب الله وفى جانب الرسول لِيُفيد : أن طاعة الرسول هىَ طاعة الله ، ولم يكرّر الفعل مَعَ أُولى الأمر ، لِيُفيد : أن طاعة أُولى الأمر مُرتبطةٌ بطاعة الرسول ﷺ .

فطاعة النبىّ مُقدّمَة على طاعة أُولىِ الأمْر ، وطاعة أُولى الأمْر مُرْتَبِطةٌ بدائرة الطاعة لرسول الله - ﷺ - فإن خرج أُولوا الأمْرِ عنها ، فلا طاعة لمخلوقٍ فى مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

١٠ - والمدلول مِنْ هَذه الطّاعة ، أو الردّ إلى النبى - ﷺ - يُفَسِّرُهُ سيدنا مَيْمُون بن مَهْرَان - رضى الله عنه - فيقول :

« الردّ إلى الله . . هو : الرُّجُوعُ إلى كتابه ؟

والردّ إلى الرسول ﷺ هو : الرُّجوع إليه فى حياته وإلى سُنّته بعد مَماتِهِ » ؟

– وابنُ الْقَيِّم . . يُوَضِّح لنا هذا المدلول فى شرحه لقول الله تعالى : (إنّما المؤْمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمْرٍ جامع لم يذْهبُوا حتّى يَسْتَأْذِنُوهُ) . النور : ٦٢

يقول : إذا كان الله – سبحانه وتعالى – جعل مِنْ لَوازِم الإيمان ألاّ يذهب المسلمون إذا كانوا مع رسول الله – ﷺ – فى أمرٍ جامعٍ – أىَّ مَذْهبٍ – إلاّ إذا استأْذَنُوهُ ؛ فإِنّهُ مِنَ الأحْرَى والأوْلَى أن يكون مِنْ لَوازم الإيمان ألاّ يذهب المسلمون إلى مذهب مّا مِنْ تَشْريعٍ أو علم . . . إلاّ بعد أن يَسْتَأْذِنُوهُ ؟

واسْتِئْذَانُهُ – عليه الصلاة والسلام :

– إمّا بالرّجوع إليه فى حياته ؟

– وإمّا بالرجوع إلى سُنّتِهِ بعد مماته ؟ » .

١١ – وقد رجع الصحابة إلى سنة رسول الله – ﷺ – حال حياته كذلك ؟

– والقصّة مشهورةٌ فى الوَسَط الفكرى الإسلامى عندما بَعَثَ رسُولُ الله – ﷺ – سيدنا مُعاذ بن جَبَل – رضى الله عنه – إلى الْيَمَنِ . .

قال له : بم تَقْضى إنْ عَنَّ لك قضاءُ ؟

قال : بكتاب الله . .

قال : فإنْ لَمْ تجد ؟

قال : بسنة رسول الله . .

قال : فإن لم تجدْ ؟

قال : أجتهدُ ولاَ آلُوا . .

– فضرب رسول الله ﷺ فى صدره ، وقال : الحمد لله الذى وَفّقَ رَسُولَ ، رَسُولِ الله إلى ما يُرضى الله ورَسُولِهِ . .

١٢ – وخاتمة الأمر . . فى أنّ السُّنة مصدر للتّشريع الإسلامى ، هو أن الحياة الفاضلة للإنسان الْمُسلِم هى فى إقامة أُمة القرآن . .

(إن هذا القرآن يهدى لِلّتى هىَ أقومُ ويُبَشّرُ المؤْمنين الذّين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً) . الإسراء : ٩

– وأنّ المفوّض من قبل الله – جل شأْنه – فى توضيح هذا القرآن إنما هُو النبى – ﷺ – يقول الله تعالى – :

(وأنزلنا إليك الذكر لِتُبَيِّن للنّاس ما نُزِّل إليهم ، ولعلهم يتفكّرون) .

النحل : ٤٤

– ومن بعد هذه الآية – فى سورة النحل – تؤكد هذه الوظيفة الخاصّة بالنبى

- ﷺ - يقول الله تعالى - :
(وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الّذى اختلفوا فيه وهُدًى ورَحْمَةً لِقَوْم يُؤْمنون) . النحل : ٦٤

- وتَبْيِينُ ذلك مِنَ النبى - ﷺ - إنما هو بالسُّنة : بقوله ، أَو بِفِعْله أو . بتقريرِهِ ، وموافقته وبرضاهُ .

وقد حَشَدَ القرآن الكريم لطاعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - آيات عديدة . . ثُمّ وَعْىُ المؤمنين إلى امْتِثَال أوامر النبى - ﷺ -

يقول الله تعالى - :
(يا أيها الذين آمنوا اسْتَجِيبُوا لِلّه ولِلرّسول إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم واعلموا أَنّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وقَلْبِهِ وأَنّه إليه تُحْشَرُون) . الأنفال : ٢٤

- ولقد جعل القرآن الكريم طاعة النبى - ﷺ - هى الفارق بَيْنَ سِمَات الجماعة الإسلامية وَسِمَات المُنَافِقِينَ .

يقول الله تعالى - :
(ويقولون : آمَنّا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثُمّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنْهمْ مِنْ بَعْد ذَلك ، وَمَا أُولَئِكَ بالمؤمنين .
- وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم إذا فَرِيقٌ منهم مُعْرِضون .
- وإنْ يكن لَهُمُ الحق يأْتُوا إليه مُذْعِنِين .
- أَفِى قلوبهم مَرَضٌ ؟
- أَمِ ارْتَابُوا ؟
- أَمْ يَخَافُون أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُه ؟
- بَلْ أُولـٰئِكَ هُمُ الظّالِمُون. النور : ٤٧ - ٥٠

(إنّمَا كان قَوْلَ المؤْمِنِينَ إذا دُعُوا إلى الله ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بينهم ، أن يقولوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولـٰئكَ هُمُ المفْلِحُونَ .
ومَنْ يُطِعِ الله وَرسُولِهِ وَيَخْشَ اللهَ ويَتَّقِهِ فَأُولئك هُمُ الفائِزُون « النور » ٥١ ، ٥٢ .

- قال الخازن فى شرح هذه الآيات :
« هذا تعليم أدب الشّرع على معنى . . أنّ المؤْمِنين كذا ينبغى أن يكونوا . . وهو : أنْ يقولوا : سَمِعْنَا الدُّعَاءَ ، وأطَعْنَا بالإجابة [لباب التأويل فى معانى التنزيل ج ٥ ص ٨٥] .

* * *

- هٰذا كانت السُّنة الإسلامية التى وَرِثَها المسلمون عَنْ رسول الله - ﷺ - مصدراً من مَصَادِرِ التّشْرِيع الإسلامى .

أقوال علماءَ التشريع ، والفقه الإسلاميّ فى حُجّيّةِ السُّنة :

– ونَسْتأْنس إلى ما نذهب إليه مِنْ مَصْدَرِية السُّنة لِلتّشْريع الإسلامى . . بأقوال أئمة التشريع ، والفهم ، والفقه ، الذين مَنَّ الله عليهم بفضله ، فَبلّغوا عَنْ رسول الله – ﷺ – أحكام الشّريعة الإسلامية ، حِفاظاً على دين الله ، وصِيَانة للمجتمع الإسلامى مِنَ الانْزلاقِ فى عُبوديّة البشر باتّباع الأفهام الوَضْعِيّة !؟

١ – يقولُ الإمام أبو حنيفة – رضى الله عنه – :

(أ) إذا جاء الحديث عن رسول الله – ﷺ – أخذنا به . .

(ب) ويَقُول : آخذ بكتاب الله تعالى ، فما لم أجد . . فَبِسُنّة رسول الله – ﷺ – .

(جـ) ويقول :

. . لعن الله مَنْ يُخَالِف رسول الله – ﷺ – بهِ أكرمَنَا الله . .وبه اسْتَنْقَذَنَا . .

٢ – ويقول الإمام مالك – رضى الله عنه – :

. . كل أحد يُؤْخَذُ من قوله أو يُتْرك إلا صاحب هذه الرّوْضَةِ .

– وقد بلغ إجلال سيدنا مالك – رضى الله عنه – لسنة رسول الله – ﷺ – مبلغاً لا يطيقه كثير من العُلماء فقد رُوِىَ أنّه كان لا يخرج للنّاس فى مجلس الحديث بالرّوْضة الشريفة بالحرم النبوىّ إلاّ وقد :

اغتسل . . وَتَطَيّب . . ولبس جديد ثيابه . . وسار خاشعاً إلى مَقَرّ دَرْسِهِ فى رِحَاب النبىّ –عليه الصلاة والسلام– فى الرّوْضَةِ الشريفة . .

– وقد روى أن عَقرباً لدَغته –رضى الله عنه– وهو فى مجلس الحديث . . فلم يقْطع الرِّواية ، ولم يَتَمَلْمَل ، ولمّا سُئل ؟ قال : صَبَرْتُ إجلالاً لحديث رسول الله – ﷺ – .

٣ – ويقول الإمام الشافعى – رضى الله عنه – :

(أ) إذا صح الحديث فهو مذهبى . .

(ب) هل لأحد مع رسول الله – ﷺ – حُجّة . .

(جـ) أىّ أَرْضٍ تُقِلُّنى وأىّ سماء تُظَلّنى . . إذا رَوَيْتُ عن رسول الله – ﷺ – ولم أَقُلْ : على الرأْس والْعَيْن .

(د) مهما قُلتُ مِنْ قولٍ ، أَوْ أخذتُ مِنْ أَصْلٍ وفيه : عن رسول الله – ﷺ – خِلاَفُ مَا قُلْت ، فالْقَوْلُ ما قال رسول الله

- ﷺ - وهو قولى . .

(هـ) كل شىء خالف أمْرَ رسول الله - ﷺ - سَقَطٌ ، وَلا يَكُونُ معهُ رأى وَلا قياسٌ ؛ فإنّ الله تعالى قطع العُذْر بقول رسول الله ﷺ فليس لأحد معه أمر وَلا نَهْىٌ غير ما أمر به . .

٤ - ويقول الإمام أحمد بن حنبل :

. . إنّ الله - جلّ ثناؤه - بَعَث مُحمداً بالهُدَى ودِينِ الحق ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّهِ ، ولَوْ كَرِهَ المشركون ، وأنزلَ عليه الكتابَ بالهُدَى والنُّور لمن اتبع ، وجعل رسوله الدالّ على ما أراد مِنْ ظاهره ، وباطنه وخاصّهِ ، وعامّهِ . . وناسخه ، ومَنْسوخهِ . . ما قصد له الكتاب . . فكان رسول الله - ﷺ - هو المَبَصِّر عن كتاب الله الدّال على مَعَانِيهِ .

وخلاصة الرأْى مِنْ أقوال الأئمة الفقهاء . .

١ - أنّهم قدّموا لنا دليلاً نظريًّا فكريًّا عَلى وُجُوب الأخْذ بالسُّنّة كمصدرٍ للتّشريع . .

٢ - وأنّهم طَبّقُوا ذلك عَمَليًّا فى مَذاهبهم الّتى اسْتَنْبَطُوهَا مِنَ القُرآن الكريم ، ومِنَ السُّنّة . .

٣ - وأنّهم قدّموا لنا : الموطّأ ، والمسند ، من كتب الحديث النّبوىّ كمرجع لمصدريّة السُّنّة فى التشريع الإسلامى .

دكتور رءوف شلبى

دعـــــاء

اللهم إنى أسألك الشكر على نعمائك ومزيد أفضالك ، والخيرة فيما قضيت ، والبركة فيما أعطيت . . وتوسلى إليك بجاه محمد ، ﷺ ، أن تعاملنى بلطفك فى أقضيتك ، ونعوذ بالله العظيم من طول الغفلة ، واستدراج المهلة ، ونستعينه ونسأله الهداية ، ونستمد من توفيقه حسن العناية ، فإنه ولى ذلك والقادر عليه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الشهاب الرملى

ابن الفارض سلطان العاشقين

الدكتور/ سعد ظلام

قيثارةُ سماوية – صدحتْ بالحبِّ الإلهٰىِّ وتَغَنَّتُ به ، وأفصحت عن كلِّ ما تضُمُّ جوانحُها من أعمقِ معانى الحبِّ وأروعِ آياتِ الجمال والجلالِ ، وشاعر رقيقُ الحسِّ ، فيَّاضُ العاطِفة ، وصوفىٌّ من أصحابِ الرِّياضاتِ والمجاهداتِ ، وأربَابِ الأذواق والمشاهداتِ

هو عمرُبنُ الحَسَنِ علىٌّ المرشدُ بن علىٍّ .

وكُنْيَتُهُ أبَو القاسِم وأبُو حفِصٍ .

ويُنْعَتُ بسلطان العاشقين . يقول – :

كلُّ مَن فى حماكَ يَهواكَ لكن :
أنا وحدى بكل من فى حِمَاكا
فِيكَ معنىً حلاَّكَ فى عينِ عَقلِى
وَبِه نَاظِرِى مُعَنًّى حِلاَكا
فُقْتَ أَهلَ الجمالِ حسناً وحُسِنَى
فَبِهِمْ فاقَةٌ إلى مَعْناكا
يُحْشَرُ العاشِقُون تَحتَ لِوَائى
وَجَمِيعُ المِلاَحِ تَحْتَ لِوَاكا (١)

* * *

– ولِدَ بالقاهرة سنة ١١٧٨ م فى أسرة دينية . فقد كان جدُّه شيخاً من شيوخ الطُّرُقِ الصوفية وله مريدُون وأتباع وكان والدُه عالماً بالفرائض أى عِلِم المواريث ، ولذلك لقب بابن الفارض .

– تولى أبوه مرتبة القضاء ، وعندما طلب منه العزيز بالله : أن يكون قاضياً للقضاء امتنع واعتزل الخدمة ، وزهد فى الحياة ، وتفرّغَ للعبادة ، فنشأ عمر فى كنف أبيه فى عفافٍ وصيانةٍ وعبادةٍ ودراسةٍ ، وزهدٍ وقناعةٍ .

* * *

– يقول ابن الفارض :

رَجَعتُ لأِعمالِ العبادةِ عادةً
وأعدَدْتُ أحوالَ الإرادةِ عُدَّتِى
وصُمْتُ نَهارِى رَغبةً فى مَثُوبَةٍ
وأحيَيْتُ لَيْلِى رَهبةً من عَقُوبَةٍ
وعَمَّرتُ أوقاتِى بِوِردٍ لِوَارِدٍ
وصَمْتٍ لِسَمْتٍ واعتكافٍ لِحُرْمة
وبِنْتُ عَنِ الأوطانِ هِجْرانَ قاطعٍ
مُوَاصلةَ الإخْوانِ واختَرْتُ عُزْلَتِى (٢)

(١) الديوان ص ١٠٠ .

(٢) الديوان ص ٤١ .

– وحفظ ابنُ الفارض القرآن والسنْة وكان من أساتذَته : الحافظُ ابنُ عَسَاكِر . والحافظ المُنْذِرِىّ ، وتَفَقَّهَ على مذهب الشافعى .

وقرأ فى التصوف ، فاصطبغ فِكرُه بالصبغة الدينية . وتقوّى جانبُ الرُّوحِ عنده .

وكان يلازم أباه فى مجالس الحُكْمِ والعِلم . وكانت الحياة كلها مشبَّعة بأرج الروح وسُلطانِ الصوفيّة .

– وممن عاصرهم : السَّهْرَوَرْدِى . ومحيى الدين ابن العَرَبِىّ ، والعِزّ بنُ عبد السلام والبُوصيرى ، وأبو العبَّاس المرسى وغيرهم .

– واشتاق إلى الخلوة والتجرّد .

وبدأ يأخذ نفسه بالرياضة والمُجَاهَدَةِ .

وكشفُ حِجَابِ الجِسْمِ أبرَزَ سِرَّ مَا
بِهِ كانَ مستوراً له مِنْ سَرِيرَتِى
فكنتُ بِسِرِّى عَنْهُ فى خُفْيَةٍ . . وقَدْ
خَفَتْهُ لِوَهْنٍ مِنْ نُحُولِى أَنَّتِى
فَأَظْهَرَنِى سُقْمٌ بِهِ كنتُ خَافِياً
له . . والهوى يأتى بكل غَرِيبَةِ[1]

* * *

– وصرفَ نفسه كلَّها عن كل شىء ، وأفنى نفسَه حتى فَنِى عن نفسه ، فكان يذهب إلى المساجد المهجورة فى وادى المستضعفين بالجبل الثانى من المقطم .

وقد مهّدَ هذا التكوين روحَ ابن الفارِض ، وساعد عليها الجوّ الروحى والحياة كلها المعطّرة بالروح والنورِ – :

وهذَّبتُ نفسى بالرِياضةِ ذاهباً
إلى كشفِ مَا حُجْبُ العوائِدِ غَطَّتِ
وجرَّدتُ فى التجريد عزمى تزهُّداً
وآثَرْتُ فى نُسْكِى استَجابةَ دَعْوَتى[2]

– وبدأ الحنين يراودُه إلى منازِل الوحىِ ، يملأ نفسه وروحه وعقله بالسكينة والهداية والحبِّ واليقين ، حتى قابل ذات يوم شيخاً يتوضأ فى المدرسة السيوفية دون أن يُراعى الترتيب فى أعضاء الوضوء ، ولما نصحه ابنُ الفارِض ، أشار عليه الشيخ أن يرتحِلَ إلىَ الحجاز ، وأوصاه بالمُسارعة ! ؟

– وقد لقيتْ هذه الوصيَّة استجابةً فى نفسِه ، وكان لها أثر كبير فى حياته فاحتفل بها وجدانُه ، واستعلت بالفرحة أحناؤه ، وبدأ يستعِدُّ لِلقاءِ الأحباب فى الحجاز ، وقد كان كثيراً ما يحنُّ إليهم ويناجيهم – :

أحِبَّةَ قَلبِى والمحَبَّةُ شافِعِى
لَدَيْكُمْ إذا شئتُم بها اتَّصَل الحَبْلُ

(١) الديوان ٢٦ .

(٢) الديوان ص ٤٢ .

عسى عَطفةٌ منكم عَلىَّ بِنظْرَةٍ
فقد تَعِبَتْ بينى وبينَكمُ الرُّسْلُ
أحِبَّاىَ أنتم . . أحسنَ الدَّهْرُ أَمْ أسا
فكونوا كما شئتُم . . أنا ذَلِكَ الخِلُّ ؟
إذا كان حَظِّى الهَجْرَ مِنْكُم . . ولم يكُن
بُعَادٌ . . فذاك الهجْرُ عندى هُوَ الوصْلُ
وما الصَّدُّ إلاّ الوُدَّ . . مالَم يكن قِلىً
وأصعبُ شَىْءٍ – غيرَ إعْراضِكُمْ – سَهْلُ
وتعذيبُكم عَذْبٌ لدىَّ . وجَوْرُكُمُ
عَلىَّ بِمَا يقضِى الهوَى لَكُمُ عَدْلُ
وصَبْرِىَ صَبْرٌ عَنْكُمُ . . وعليْكُمُ
أرى أبداً عندى مرارَته تحْلُو
أخذتُمْ فؤادى وهو بعضى ، فما الّذى
يضُرَّكُمُ . . لو كان عندَكُمُ الكُلُّ ! (١)

* * *

– وارتحل إلى الحجاز سنة ١٢١٥ م وبقى بها حتى ١٢٣٠ م . لقد قضى فيها خمسة عشر عاماً كان لها أكبر الأثر فى تكوينه الروحىِّ ومستقبل حياته الْوَضِىْءِ . .

– وكانت نفسه قد تهيأت للفتوحات الإلٰهية ، وبدأت تستعِدُّ لتقبُّلِ الفُيُوضات وتصعد فى معارج السموّ الرُّوحىِّ والنفسىِّ – :

فنفْسى كانت قبْلُ لوّامةً متَى
أُطِعْها عَصَتْ أو أَعْصِ كانتْ مُطيعَتى
فأوردْتُها : مَا الموتُ أيْسَرُ بَعْضِه
وأتعَبْتُها كما تكونَ مُرِيحَتى
فعادتْ ، ومهما حُمِّلَتْهُ تَحَمَّلَتْـ
ـهُ مِنىّ وإن خَفَّفْتُ عنها تأذَّتِ ! ؟
وكَلَّفتُها . . لا ، بل : كفلتُ قيامَها
بتكلِيفها حتى كَلِفتُ بكُلْفَتى
وأذْهَبْتُ فى تهْذِيبِها كلَّ لَذَّةٍ
بإبعادِها عن عادها . . فاطمأنَّتِ (٢)

– يقول :

وما هىَ إلا النفسُ عند اشتغالها
بعالَمِها عن مظهر البشريَّةِ !
تَجلّتْ لها بالغيب فى شكل عالَمٍ
هَدَاها إلى فَهْمِ المعانى الغريبة
وقد طُبِعتْ فيها العُلُومُ وأُعْلِنَتْ
بأسمائها قِدْماً بوَحْىِ الأبُوَّةِ (٣)

* * *

– تفرّغ ابن الفارض فى مكة للسياحة الدينية والروحية والرياضة الصوفية : من طواف وسعى ، وذكر ، وتخشُّنٍ ، وخشوع ، وتمرينٍ على المجاهدة والمعاناة – يقول :

ولا اختُصَّ وقتٌ دون وقتٍ بطيبَةٍ
بها كلّ أوقاتى مَواسِمُ لَذَّةِ

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) الديوان ص ٣٧ .

(٣) الديوان ص ٦٧ .

نهارى أصيلٌ كلُّهُ إن تَنَسَّمَتْ
أوائلُه منها بردَّ تحيَّتى
ولَيْلِىَ فيها كلُّه سحرٌ إذا
سرى لِىَ مِنْها فيه عَرْف نُسَيْمَةِ
وقد نِلْتُ منها فوق ما كنتُ راجياً
وما لم أكُنْ أمَلْتُ مِنْ قُرْبِ قُرْبَتى (١)

* * *

– لقد كان فى مصر سائحاً روحيا مبتدئا ، بدت له طلائع عوالمه الروحية ، فلما استقرَّ بمكة ، بدأت مرحلة التأمل حتى مرحلة التحقُّق ، ووصل إلى نهاية الطريق وتحققت له الغاية التى ما بعدها غاية ، من الفتوحات الإلهية التى يختص بها الله من يشاء من عباده .

– أجل . . لقد سما ذوقُه ورهف حسُّه ، وانفتحت أمامه أبواب المشاهدات وراحت تنعكس على مرآة فنِّه ما جاشت به روحه الصافية ، وما احتدم فى باطنه وخواطره من انفعالات ، وما فاض به قلبه من عواطف شريفة فانطلقت شاعريته بالفنِّ الرائق ، والشدْوِ الجميل ، والحبِّ الجليل – :

إذا لاح معنَى الحُسْن فى أىِّ صورةِ
وناح مُعَنَّى الحُزْنِ فى أىِّ سُورةِ

(١) الديوان ص ٤٨ .

يُشاهِدُها فكرى بطرفِ تخيُّلى
ويسمعها ذكرى بِمَسْمَعِ فِطْنَتى
ويُحْضِرُها للنّفس وَهْمِى تَصَوُّراً
فيحسبُها – فى الحِسِّ – فَهْمى نَديمتى
فأعْجَبُ من سُكْرى بغَيْرِ مُدامَةٍ
وأطَرَبُ فى سِرِّى وَمِنِّىَ طَرْبَتى
فيرقُص قلبى . وارْتِعاشُ مَفاصِلِى :
يُصَفِّقُ كالشادِى ورَوْحِىَ قَيْنَتى
وما بَرِحَتْ نفسى تَقَوَّتُ بالمُنَى
وتمحو القُوى بالضعْفِ حتَّى تَقَوَّتِ
هنالك وجدتُ الكائنَاتِ تحالفَتْ
على أنَّها والعونُ مِنِّى مُعِينَتى
لِيَجْمَعَ شملى كلُّ جارحةٍ بها
ويشمَلُ جَمْعِى كلَّ مَنْبتِ شَعْرةِ (٢)

* * *

– لقد ملك الجلالُ عليه كلَّ خلجاتِ نفسه ، وكلَّ جوارِحِه وكل حواسِّه ، حتى إنه لم تَعُدْ له القدرةُ على التّخَلِّى بعد التحلِّى ! ؟

– لقد انجذب قلبه إلى آيات الجمالِ ذاتِه ، الجمالُ المطلقُ الذى لا يستوعبُه بَصَرٌ ولا يمتلئ به سمع ، ولا تستطيع الحواسُّ الظاهرةُ تذوُّقه أو تَعمُّقه أو اكتِنَاهَ أَمْرِهِ وسِرِّه ، وما الجمال الظاهرىَّ فى صُورَةِ

(٢) الديوان ص ٥١ ، ٥٢ وجاء البيت الأخير فى الديوان «ليجعل شملى» وصحة ما ذكرت .

الباهرة إلا نفحةٌ من نفحاتِه العُلْويَّة — :

تَبَارَكَ اللهُ ما أحلى شمائلَه
فكَمْ أماتَتْ ، وأحيَتْ فيه من مُهَجِ
تراهُ إن غاب عنّى كُلُّ جارِحَةٍ
فى كلِّ معنىً لطيفٍ رائقٍ بَهِجِ
فى نغمةِ العُودِ والنَّاىِ الرَّخيمِ . . إِذَا
تَأَلَّفا بينَ ألحانٍ من الهَزَجِ
وفى مَسارِحِ غِزْلَانِ الخمائِل . . فى
بَرْدِ الأَصَايِل. والأَصْبَاح.. فى البَلَجِ
وفى مَسَاقِطِ أنداءِ الغمامِ . . عَلَى
بِسَاطَ نَوْرٍ من الأزهارِ مُنْتَسِجِ
وفى مَسَاحِبِ أَذْيالِ النسيمِ . . إذا
أهدى إلىّ سُحَيْراً أطيبَ الأَرَجِ
وفى الْتِثَامِى ثَغْرَ الْكَأسِ مُرْتَشِفاً
رِيقَ الْمُدَامَةِ فى مُسْتَنْزَةٍ فَرِجِ
لم أدْرِ ماغُرْبَةُ الأَوطان.. وَهْىَ مَعى
وخاطِرى أين كُنَّا غيرُ مُنْزَعِجِ [1]

* * *

لقد وصل إلى درجة التلاشى فى بوتقة الجلالة ، وفَنِيتْ حواسُّه الظاهرة تماماً وانقلب هو برُمّتهِ إلى أجهزةٍ حسّاسة ، أو جهازٍ حسَّاسٍ كبيرٍ مُسْتَعِدٍّ للتلقى وتَراسُلِ الحواسّ — :

وكُلِّى لِسَانٌ ناظِرٌ مِسْمَعٌ يدٌ
لِنُطقٍ وإدراكٍ وسَمعٍ وبَطْشَةِ
فَعَيْنى ناجَتْ واللسانُ مشاهِدٌ
وَيَنْطِقُ مِنِّى السمعُ ، واليَدُ أصغَتِ
وسَمْعِىَ عينٌ . . يَجْتَلى كلَّ ما بدا
وعينِىَ سمعٌ إن شدا القوم تُنْصِتِ
وما فِىَّ عضوٌ خُصَّ من دُونِ غيرِهِ
بتعيينِ وَصْفٍ مثلَ عَيْنِ البصيرةِ [2]

ويقول — :

أغار عليها أن أهيم بغيْرِها
وأعرفُ مِقْدارى فَأُنكِرُ غيْرتِى
فتُخْتَلسُ الروح ارتياحاً لها . . وما
أُبرِّئُ نفسى من تَوَهُّمِ مُنْيَةِ
يَرَاها على بُعدٍ عن العينِ مِسْمَعى
بِطَيْفِ مَلَامٍ زائرٍ حين يَقْظَتِى
فيغبط طرفى مِسْمَعى عِندَ ذكرِها
ويَحْسُدُ ما أفْنته مِنِّى بَقِيَّتِى
أمتُ أمامى فى الحقيقة . . فالورى
ورائى . . وكانت حيث وجّهتُ وِجْهَتِى
يراها أمامى فى صلاتِى ناظرِى
ويشهدنى قلبى أمَامَ أئمّتِى
ولاَ غَرْوَ إن صَلَّى الإمامُ إلىّ . . إن
ثوتْ فى فؤادى وَهْىَ قِبْلةُ قِبْلتِى
وكلُّ الجهاتِ السّتِّ نحوى . . توجَّهتْ
بما تَمَّ من نسكٍ وحَجٍّ . . وعُمْرَةِ
لها صلواتى بالمقام . . أقيمُها
وأشهد فيها أنَّها لِىَ صَلَّتِ

(١) الديوان ص ٩٢ .

(٢) الديوان ص ٦١ ، ٦٢ .

كِلاَنا مُصَلٍّ وَاحِدٌ ساجِدٌ إلى
حقيقتِه بالجمع فى كلِّ سَجْدةِ(١)

* * *

إلى هذا الحد من الصفاء والفناء والاتحاد : صفت نفسُ هذا الصوفىّ العاشِق ، ورقَّتْ عنها حُجُبُ المادّة ، لقد طار إلىَ عَوَالمِ الروح ، ووقع على عُشٍّ الأزلية فى السماء ، ولم يرض أن يعيش كغيره من المحبين على الأرض ، ولم يقنع كغيره بالحبِّ القريب ، وحق له أن يقول :

نسختُ بحُبِّى آيةَ العشق من قَبْلى
فأهلُ الهوى جُندِى . وحُكْمِى على
وكلُّ فتىً يهوى فإنّى إمامُه
وإنِّى برىءٌ من فتىً سامِع العذلِ
ولى فى الهوى عِلمٌ تجلَّتْ صفاتُه
ومَنْ لم يُفَقِّهْهُ الهوى فهْوَ فى جَهْلِ
ومَن لم يَكُنْ فى عِزَّةِ النفْسِ تائِهاً
بِحُبِّ الذى يهوَى ، فبَشِّرْهُ بالذُّلِّ
إذا جاء أقوامٌ بِمَالٍ رأيتَهُم
يجودون بالأرواح منهم بِلاَ بُخْلِ
لَعَمْرِى هُمُ العُشَّاق عندى حقيقةً
على الجدِّ . . والباقون منهم على الهَزْلِ(٢)

وهناك تجلّى له الجمال المطلق ، فإذا هو يجدُ عزاء قلبه وشفاءَ نفسِه ، وبهجة الروح ، فانصرف عن كل شىء ، إلاّ عن شىءٍ واحِد ، هو هذه المعشوقة التى يتغنّى بها ، وهى الحضرةُ الإلهٰية .

وما بينَ شَوْقٍ واشتِياقٍ فَنيتُ فى
تَوَلٍّ بِحَظرٍ . . أو تَجَلٍّ بِحَضْرَةِ
فَلَوْ لِفِنائى من فنائِكَ رُدَّ لى
فؤادى لم يرغَبْ إلى دارِ غُرْبَةِ
وعُنوانُ شأْنى ما أَبُثُّكَ بَعْضَهُ
وما تَحْتَه إظهارُهُ فوقَ قُدْرَتى(٣)

* * *

وتقدّم فى معارج الروح حتى فنى وذاب ، أو وصل إلى الفناء والذوبان لقد أجهدتْه المعاناةُ والعذاب ، لكنه استعذب الألم ، واستلذَّ المعاناة — :

وما حلّ بى من محنةٍ فهو مِحنةٌ
وقد سلمت مِن حلِّ عقدى عزيمَتى
وكل أذًى فى الحبِّ منكَ إذا بدا
جعلتُ له شكرى مكان شكيَّتى
نَعَم . . وتباريحُ الصبابةِ إن عدَتْ
علىَّ . . من النَّعماء فى الحُبِّ عُدَّتِ(٤)

* * *

ورأى الفناء بعثاً ، والموت حياة ، فأفنى ذاته ونفسه ، وأمات النزوعَ الدنيوى فى قلبِه ، ورأى فى كل ذلك سعادةً أبدِّية .

---

(١) الديوان ص ٣٤ .
(٢) الديوان ص ١٠٨ .
(٣) الديوان ص ٢٦ .
(٤) الديوان ص ٢٧ .

هُوالحُبّ فاسْلَمْ بالحَشا.. ما الهوى سَهْلُ
فما اختارهُ مُضْنًى به وَلَه عَقْلُ
وعِشْ خالياً . فالحبُّ راحتُه عَنًا
وأوّلُهُ : سُقْمٌ .. وآخِرُهُ : قَتْلُ
ولكن لدىَّ الموتُ فيه صبابةً
حياةٌ لِمَن أهوى علىَّ بها الفضْلُ
نصحتُكَ عِلماً بالهَوَى ، والذى أرى
مُخالَفَتِى .. فاخْتَر لِنَفْسِكَ مايَحْلُو
فإِنْ شِئْتَ أن تحيا سعيداً فَمُتْ بِهِ
شهيداً ، وإلا فالغرام له أَهْلُ
فمَنْ لم يَمُتْ فى حبِّه لم يَعِشْ بِهِ
ودونَ اجْتِناءِ النَّحْلِ مَا جنَتِ النَّحْلُ
تَمَسَّكْ بأذْيَالِ الهوى واخلَعِ الحَيا
وخَلِّ سبيلَ الناسكين وَإِنْ جَلُّوا
وقُلْ لقَتِيلِ الحبِّ.. وفَّيْتَ حقَّهُ
ولِلْمُدَّعِى هيهات ما الكحَلُ الكحْلُ (١)

* * *

ومازال الحبّ يُصفِّى قلبه ، ويُمِيتَ نفسه ، ويُحَيِى روحه حتى استحال بكينونته إلى روح لطيفةٍ خالصةٍ ، وحتى وصل إلى درجة من التسامى النبيل ، فأشرقت جوانبُهُ الباطنةُ بأنوار الجمالِ المطْلَق ، وانكشفت الحُجُبُ — :

بِرُوحِى من أتلفتُ روحى بِحُبِّها
فحان حِمَامى قبلَ يَومِ حِمَامِى
ومِنْ أجْلِها طابَ افتِضاحى ولَذَّ
اطِّرَاحِى ، وذُلِّى بَعدَ عِزِّ مقامى
أُصُلِّى فأشدو حين أتْلو بِذِكرِها
وأطربُ فى المحرابِ وهْىَ أمَامى
وبِالحَجِّ إن أحرمْتُ لبَّيْتُ باسْمِها
وعنها أرى الإِمْسَاكَ فِطْرَ صِيامى

إلى أن يقول — :

خَفِيتُ ضَنًى حَتَّى خفِيتُ عن الضَّنا
وعن بُرءِ أسقامى وبَرْدِ أُوامى
ولم يُبْقِ مِنِّى الحبُّ غَيْرَ كآبَةٍ
وحزنٍ وتَبْريحٍ وفرطِ سِقامِ
ولم أدْرِ مَن يدرى مكانى سِوَى الهَوَى
وكِتْمَانَ أسرارى ورَعْىِ زمامى
فأمّا غرامى . واصطبارى . وسَلْوتى
فلم يبق لى مِنْهُنَّ غيرُ أسامى
بمَنْ أقْتَدى فى الحُبِّ.. لو رُمتُ سلوةً
وَبِى يقتَدِى فى الحبِّ كُلُّ إمام
وفى كلِّ عُضْو فِىَّ كلُّ صَبابَةٍ
إلَيْها وشَوْق جَاذِبٍ بزمامى (٢)

* * *

وأصبح فى حيرته لَيَتمَنَّى لو يزداد حيرةً ، وفى احتراقه يودُّ لو زاد احتراقاً وفى فنائِه يرغبُ فى زيادة الفناء — :

زِدْنِى بفرط الحُبِّ فِيكَ تَحيُّرا
وارْحَمْ حَشًى بلَظَى هواكَ تَسعَّرا

(١) الديوان ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) الديوان ص ١٠١ — ١٠٣ .

وإذا سألتُكَ أن أراكَ حقيقةً
فاسمَحْ . . ولا تَجْعَلْ جَوابِىَ لن تَرى
ياقلبُ أنتَ وعَدْتنى فى حُبِّهم
صبْراً فحاذرْ أن تضيقَ وتضْجَرا
إن الغرامَ هُوَ الحياةُ تَمُتْ بهِ
صَبًّا فَحَقُّكَ _ أن تَموتَ وتُعْذَرا
قُلْ لِلَّذِينَ تَقَدَّموا قَبْلى . . ومَن
بَعْدِى ، ومَن أضحَى لإشجانى يَرى
عَنِّى خُذوا . . وبِىَ اقْتَدُوا . ولِىَ اسْمَعُوا
وتحدَّثوا بصَبابتى بين الورى[1]

– وصار فى حالة جَذبٍ روحىٍّ سعيد ، لا يستطيعُ مُبارحَتَها ، وصار شِعْرُهُ عصارة هذه الأحوال جميعاً ، يصوِّر معاناته وأحواله ،

والصوفيّةُ أحوالٌ ومكاشفةٌ ، ومعاناةٌ ومواجِد ، ومعارجُ وتَباريحُ وسهرٌ ولوعةٌ ، وسبحاتٌ فى رحابِ الأضواء العُلويَّةِ الخالدة ، ومحرابِها الأقدس ، وصح له أن يقول – :

يُحشَرَ العاشقُون تحت لِوَائى
وجميعُ المِلاَحِ تحت لِوَاكا[2]

– وأن يقول :

ولا غَرْوَ أن سُدْتُ الأُلى سبقوا وقَدْ
تمسكتُ من طه بأوّثقِ عُرْوَةِ[3]

– لقد نبذ ابنُ الفارض الجمال الحِسِّىَّ بكل صُوره ، والحبَّ الذى يقفُ عندَ الحدودِ البشريةِ ، والشعر الذى يصوّرُ الخمرة الحسيّة ، وتطلع إلى منابع الجمالِ الأبدِىِّ ، والحبِّ الإلهِىِّ ، والخمرةِ الربَّانية التى تُميتُ الحِسَّ وتُحيى الوجدان .

وقالوا : شرِبْتُ الإثْمَ ؟ كلاَّ . . وإنَّما
شَرِبْتُ ، التى تَركهَا عِنْدِىَ الإثْمُ
هنيئاً لأهلِ الدَّيْر كم سَكِرُوا بها
وما شربوا منها . . ولكنَّهم هَمُّوا
وعِندى منها نشوةٌ قَبلَ نشأتى
مَعِى أبداً تبقَى وإن بَلِىَ العظْمُ
فلاَ عَيْشَ فى الدنيا لِمَنْ عاش صاحياً
ومن لم يَمُتْ سُكراً بها فاتَه الحزْمُ ! ؟
على نفسِه فَلْيَبْكِ من ضاع عمرُهُ
وليس له فيها نصيبٌ ولا سَهْمْ[4]

– وما أجمله فى تساميه وهو يقول :

عـذِّبْ بما شئتَ غيرَ الْبُعْدِ عنك تَجدْ
أوْفَى مُحِبٍّ بما يُرضيكَ مُبْتَهِجِ
وخُذْ بَقِيَّةَ ما أبقَيْتَ مِنْ رَمَقٍ
لا خيرَ فى الحبِّ إن أبقَى على المُهَجِ[5]

* * *

– وقد نظم أغلب شعرِهِ ، وهو فى الحجاز ، ولهذا يغلبُ عليه طابع الشعر

(١) الديوان ص ١٠٥ . ١٠٦ .
(٢) ص ١٠٠ . (٣) ص ٤٥ .
(٤) الديوان ٨٧ ، ٨٨ .
(٥) الديوان ٩٠ .

البدوىّ الرقيق ، الذى فيه أثر مواجد العشاق ، ورائحة أكبادِهم المحترقة ، ولقد استمدَّ من البيئة الحجازية ملامح صوره ، وتهاويم خياله وإشراقة روحه ، وصفاء أسلوبه .

– وقد سيطر ذلك الطابَعُ على شعرِهِ حتى بعد عودتِهِ إلى مصر .

– وعاد إلى موطنه مصر ، بعد رؤيا روحية رأى فيها الشيخ البقال يدعوه لِيُشَيِّعَهُ إلى العالم الأخير ، ويتولّى بنفسه أمر تجهيزه .

– ورغم عودة الطائر إلى عشِّه الأصيل فمازالتْ أشواقُه الموصولة تتّجه إلى الحجاز وساكنى الحجاز .

– ويغلب على شعره بعد العودة الشوقُ إلى رسول الله وإلى الديار المقدسة .

يا أُهَيْلَ الحجاز إن حكم الدَّهْـ
ـرُ بِبَيْنٍ قضاء حَتْمٍ إرادِى
فغرامى القديمُ فيكم غرامى
ووادى –كما عهدتم– ودادى
قد سكنتُم من الفؤاد سويدا
ءُ . . ومِنْ مُقلَتِى سواءَ السَّوادِ
ياسميرى روّح بمكة روحى
شادياً إن غِبْتَ فى إسعادى
فَذرَاها سِرْبِى وطيبى ثَرَاهَا
وسبيلُ المسيل وِرْدِى وزادى
كان فيها أنس ومعراج قدسى
ومُقامى المَقام والفتحُ بادِ
نقلَتْنى عنها الحظوظ فجذَّت
وَارِدَاتى . ولم تدُم أَوْرَادِى
آهِ . . لو يسمحُ الزَّمانُ بعَوْدٍ
فعسى أن تعودَ لى أعيادى (١)

* * *

– وقال موجّها حديثه إلى مصر :

عَزِيزةَ مصرِ الحسنِ إنَّا تِجارُهُ
وليس لنا إلاَّ النُفوسُ بضائِعُ
لأرضْكِ فوَّزنا بها . . فتَصَدَّقى
علينا فقد نَمَّت علينا المدامِعُ
عسى تَجْعلى التعويض عنَّا قَبُولها
لِيَرْبَحَه مِنَّا مَبيعٌ وبائِعْ (٢)

* * *

– وقد وصل به الشوق إلى درجة الوصولِ ، وحلّ به الحبّ إلى درجة الحلولِ وحتى صحّ له أن يكون سلطانَ العاشقين ، لا ينازعُه فيه أحد ، وقد حفل شعره بكثير من الرموز الصوفية ، والصوفية فى حدّ ذاتِها رمز والرَّمز غموض ، وفى شعره درجات من الرمز ، وبعضها واضح وبعضه خَفىٌّ .

* * *

(١) الديوان ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) الديوان ١٢٥ .

– ويمكننا أن نقول بشيء من التبسيط : إن حياة ابن الفارض الروحية تتألف من ثلاثِ مراحل .

١ – المرحلة الأولى مرحلة الاستعداد بالرياضة والمجاهدة .

٢ – المرحلة الثانية مرحلة المكاشفة والمشاهدة .

٣ – المرحلة الثالثة مرحلة القرب والوصول .

– وقد كانت المرحلة الثانية ذات أثر فعّال فى حياته ، بل هى عماد حياته الروحية كُلِّها ، ولقد كانت رحلته إلى مكّة مفيدة له .

– لقد تجرد تماما وصفا تماماً ، واندماح بكل كيانه سُموًّا إلى معارج الصفاءِ ، وصقلت البيئة الحجازية بمشاهِدِها وجلالِها وذكرياتها وقداسَتِها نفسَه ، وسمت به من درجة فى الوصول إلى درجة ، ومن حَالٍ فى القرب إلى حال ، ومن وصفٍ فى الفناء والتلاشى إلى وصفٍ وهو فى كل ذلك يزداد إشراقاً وقرباً ، وتمتلئ مواهبُه بالنور ، وجوانحه بالإشراق حتى استفاض ذلك كله على جنباته فتحوّل بِرُمَّتِه إلى روحٍ شفافة لطيفة ، وجذبه القطب النورانىُّ الأكبر ، فدار بدورتِه ونسى كلّ ما حوله ، وغاب عن وعى الوجود ، إلى وجود الوعى ، فحظى بِمَا لم يحظ به سواه من المُريدين ، وشاهد بقلبه وحواسِّه الصوفية مَا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

عاد ابنُ الفارض إلى مصر وكأنه جاء لتحظى به مصر ولتضم رفاته فى حضنها ، فلم يبق بها إلا أربعة أعوام ، أو تزيد قليلا ، حتى توفِّى يوم الثلاثاء الثانى من جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ .

ودُفن حسب وصيته فى القرافة فى سفح جبل المقطم تحت المسجد المعروف بالفارض .

سلام إلى ابن الفارض فى مثواه ، وسلام عليه فى الخالدين ،

دكتور/ سعد ظلام

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الروسى

تولستوى
يتحدث عن نبى الإسلام

هو الكونت ليون تولستوى بن الجنرال تولستوى وحفيد الكونت تولستوى السياسى الروسى المتوفى سنة ١٩٢٧ م

نشأ جنديا ثم اشتغل بإصلاح الهيئة الاجتماعية فأخذ يكتب القصص يودعها مذهبه حتى ذاع صيته وطبق آفاق العالم . .

وتصدى لقادة الأديان وصاح بهم صيحات انتقاد وسخرية حتى اضطروا إلى الحكم بإلحاده .

لقد كان هذا الفيلسوف الروسى كاتبا منصفا ، فعندما رأى تحامل أهل الأديان الأخرى على الدين الإسلامى ، هزته الغيرة على الحق إلى وضع رسالة عن نبى الإسلام وبعض تاريخ حياته فقال فيها :

« ولد نبى الإسلام فى بلاد العرب من أبوين فقيرين وكان فى حداثة سنه راعيا ، يميل إلى العزلة والانفراد فى البرارى والصحارى ، متأملا فى الله خالق الكون . .

لقد عبد العرب المعاصرون له أربابا كثيرة وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها ، وأقاموا لها العبادات وقدموا لها الضحايا المختلفة .

وكان كلما تقدم به العمر ازداد اعتقادا بفساد تلك الأرباب ، وأن هناك إلها واحدا حقيقيا لجميع الناس والشعوب .

وقد ازداد إيمان محمد بهذه الفكرة فقام يدعو أمته وأهله إلى فكرته ، معلنا أن الله اصطفاه لهدايتهم وعهد إليه إنارة بصائرهم وهدم دياناتهم وعباداتهم الباطلة . . وراح يعلن عن عقيدته وديانته .

وخلاصة هذه الديانة التى نادى بها هذا الرسول هو أن الله واحد – لا إله إلا هو – ولذلك لا يجوز عبادة غيره . . وبأن الله عادل ورحيم بعباده . . وأن مصير الإنسان النهائى متوقف عليه وحده ، فإن الله يؤجره فى الحياة الآخرة أجراً حسنا . . وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب فى الآخرة عقابا أليماً . . وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم

بعضا ، ومحبة الله تكون بالصلاة ، ومحبة الناس تكون بمشاركتهم فى السراء والضراء . . . وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم فى البعد عن كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية والابتعاد عن الملذات الدنيوية . . وإنه يحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ولا يعبدوه ، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهذبوها . .

ومحمد لم يقل عن نفسه إنه نبى الله الوحيد بل اعتقد أيضًا بنبوة موسى وعيسى وقال إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم .

وفى سنى دعوته الأولى احتمل كثيراً من اضطهادات أصحاب الديانة القديمة شأن كل نبى قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تثن من عزمه بل ثابر على دعوة أمته . .

وقد امتاز المؤمنون كثيراً عن العرب بتواضعهم وزهدهم فى الدنيا وحب العمل والقناعة – وبذلوا جهدهم فى مساعدة إخوانهم فى الدين عند حلول المصائب بهم .

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احتراما ويعظمون قدرهم ، وراح عدد المؤمنين يتزايد يوما بعد يوم .

ومن فضائل الدين الإسلامى أنه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم ، فقد أمر بحسن معاملتهم . وقد بلغ من حسن معاملته لهم أنه سمح لأتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى . . ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا التسامح العظيم . .

ثم ختم كلمته قائلاً :

لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة خدمة جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماءوتقديم الضحايا . ويكفيه فخرا أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما . .

ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام .

ولقد كانت آراء هذا الفيلسوف الروسى موضع تقدير الأستاذ الشيخ محمد عبده فكتب لهذا الفيلسوف يقول :

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى :

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت فى آفاقنا شموس من

آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك ، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها وإلى الغاية التى هدى البشر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم ، ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه ، وسعيا يبقى ويربى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، ولَمَّا استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها ، فيما كدر راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثلك فى العمل إماما يقتدى به المسترشدون . وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددا من عنايته للضعفاء الفقراء . وإن أرفع مجد بلغته ، وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والإرشاد . هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين فاحمد الله على أن فارقوك فى أقوالهم كما كنت فارقتهم فى عقائدهم .

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك ، فيما تستقبل من أيام عمرك . وإنا نسأل الله أن يمد فى حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ، ويسوق النفوس إلى التأسى بك فى عملك والسلام .

حقائق

- حفظ الصحة أيسر من علاج العلة .
- أوجع الضرب مالم يكن معه البكاء .
- الدنيا كالحية : لين لمسها ، قاتل سمها .
- حياتنا أحلام تنتهى برقاد الموت .
- طوبى لمن كان بصره فى قلبه ، والويل لمن كان قلبه فى بصره .
- ثمرة الأدب العقل الراجح ، وثمرة العلم العمل الصالح .

الدين ضرورة بشرية

الأستاذ/ زاهر عزب الزغبى

تاريخ الإنسانية الطويل لم تخل فترة منه عن العنصر الدينى متغلغلا فى كل أنحاء الشخصية الإنسانية بحيث لا يمكن أن نغض عنه الطرف فى أية دراسة لأية فترة تاريخية وسواء أكانت هذه الدراسة للأشخاص أو للحوادث . . ولم تكن عناية الله تتخلى عن البشرية فتتركها تتخبط فى غياهب الجاهلية . . فكانت الرسالات تترى والنبوات تتوالى ومعها هداية الله وتوجيهه . . ولكن أيضا كانت هناك فجوات زمنية كثيرة على فترة من الرسل . . فكان الإنسان يتخبط مجتهدا تستحثه ضرورة جِبِلَّتِه أن يبحث عن علاقته بالكون وبكل مايحيط به . . وأن يفسر أسباب وجوده ووجود من حوله وكل مافى الكون من خليقة . . ومن ثم كانت الاجتهادات البشرية للتعرف على الخالق وكيفية تبجيله واستجلاب رضاه على الدوام نشيطة ومتنوعة . . وكانت التصورات الإنسانية المتعددة عن الدين دائما شغل الإنسان الشاغل . . وكلما التقطنا قطاعا مّا من التاريخ وجدنا طعم الدين وألوانه ومذاقه واضحة غير خفية . . ومهما أوغلنا فى الرجوع إلى الماضى وجدنا ظل الآلهة حيثما نكتشف تراث الإنسان حتى فى أحلك عصور البدائية الإنسانية فى فترات ماقبل التاريخ . . وكلما وقع فى أيدينا أثر إنسانى : وسواء أكان هذا الأثر لإنسان انفرادى تائه عاش يهيم على وجهه وحيدا فى غابة أوكهف خلال أعمق الأغوار السحيقة للزمن . . أوضمن أسر أوقبائل متوسطة الحجم على سفوح الجبال والأودية . . أوفى جماعات كبيرة منظمة متحضرة فى وديان الأنهار . . أوحيث يمكن أن تتيسر للبشر حياة جماعية . . وجدنا فى هذا الأثر السمة الدينية واضحة جلية . . وكثيرا ماعثر المنقبون عن آثار الإنسان على مخلفات للإنسان البدائى الأول الذى عاش حياة لاترقى كثيرا عن حياة الحيوان فى أحد الكهوف أوبعض مسارب الغابة . . وكانت هذه المخلفات غير واضحة المعالم الإنسانية ، بحيث لم تكن تختلف كثيرا عن مخلفات

الطبيعة نفسها ولكن السمة الدينية فيها هى التى حددت نسبتها للإنسان . . ومن أجل ذلك يستطيع المرء أن يقرر باطمئنان أنه خلال الحياة الإنسانية الطويلة ظل الدين منذ البداية ألمع ظاهرة إنسانية ، وليس من قبيل الادعاء أوالمبالغة القول بأن المادة الدينية فى التاريخ الإنسانى تطغى على كثير غيرها من مواد هذا التاريخ . . بل إن الدين كان فى كثير من الأحيان – إن لم يكن معظمها – هو العامل الأهم – وربما الوحيد – فى المواقف الحاسمة التى تغير فيها مجرى الحوادث أوسير التاريخ كما يقولون . .

وتلك هى المواقف التى انتفضت فيها الإنسانية فقفزت خطوات فى تدرج الرقى أوانتكست درجات فى مهاوى التقهقر . .

ولاشتمال الكيان الدينى على عناصر أخلاقية ظل الدين فى كل الأحوال الضابط الحقيقى للإيقاع فى سيمفونية الحياة الإنسانية . . وكان الوازع الدينى يؤدى دائما وعلى خير وجه مهمة مزدوجة للناس : الحارس اليقظ ضد الانحلال ، والقوة الدافعة فى طريق التطور . . ولذلك فإن الدين لم يكن ألمع وأقدم ظاهرة إنسانية فحسب بل كان أيضا أقوى الظواهر الإنسانية وأشدها فعالية فى حياة الإنسان . .

وهذا الجانب الدينى العريق الفعال فى حياة الإنسان قد تناوله بالبحث علماء مقابلة الأديان فاتفقوا فى شبه إجماع على أن الإنسان قد ترقّى فى عقائده على النحو الذى ترقّى به فى سائر شئون حياته . . وإن عقائده الأولى كانت مساوية لحياته الأولى وكذلك كانت علومه وصناعته . . فأدواته الأولى كانت بدائية بالقدر الذى كانت عليه بدائية عقائده . . ثم كان الترقى فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات حتى انتهى إلى معرفة الله الواحد من خلال صنعته كخالق . . ولم يكن ذلك إلا لأن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة فى عصر واحد ، بل إن الناس يستعدون لمعرفتها عصرا بعد عصر ، وطورا بعد طور ، وأسلوبا بعد أسلوب كما يستعدون لمعرفة الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

وكما اتفق هؤلاء العلماء على تطور الدين وترقّيه خلال الإنسان اتفقوا أيضا على أصالة العقيدة الدينية فى طباعه منذ أقدم أزمنة التاريخ ، وأنه فى الطبع الإنسانى جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام . . فالروح الإنسانية تجوع طلبا

للاعتقاد تماما كالجسد الإنسانى الذى يجوع طلبا للغذاء . . ولايعيب هذه الحقيقة نوع العقيدة سواء أكانت صحيحة كعقيدة الموحدين أوباطلة كمعتقدات الوثنيين . .

وقد قال الأستاذ العلامة عباس العقاد فى مقدمة كتابه الله : « إننا لانخرج بهذه المشابهة عن مداها . . إذا قلنا إن إنكار الحاسة الدينية لرداءة العقيدة الأولى أوسخف موضوعها كإنكار المعدة فى الجوف لرداءة المأكول وسخافة الغذاء ، لأن المرجع إلى بنية الروح وبنية الجسد فى الحالتين ، وكلتاهما حق لايقبل المراء .

حق لايقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان.

وحق لايقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن ولايستقر وسط هذه العوالم بغير إيمان . . »

وأصالة العقيدة الدينية فى الطبع الإنسانى . (كحقيقة لامراء فيها) اتخذها كل من علماء مقابلة الأديان وعلماء النفس نقطة البداية ومحور الارتكاز فى البحث عن الدافع للشعور الدينى ومصدره ومناقشة أشكال العقيدة وصورها التى تقمصتها عبر التاريخ . .

وفى معرض البحث عن مصدر الشعور الدينى ودوافعه شملت مجالات استقراء علماء المقابلة داخل النفس الإنسانية وخارجها ، بينما انحصرت أبحاث علماء النفس أصالة داخل النفس الإنسانية ووسط انفعالاتها وغرائزها . .

وقد اختلفت آراء الأولين من علماء المقابلة فى كنه الباعث للعقيدة الدينية ومصدرها . . فبينما يرى الكثيرون منهم أن الأساطير هى أصل الدين بين الهمج . . يرى تيلور[1] Tylor أن ملكة الاستحياء animism هى أصل الاعتقاد بالأرباب ، ويمثل ذلك بالطفل يضرب الكرسى إذا أوقعه كما يضرب الإنسان والحيوان . . وكان الإنسان الأول كالطفل إذا تخيل النجوم والسحب والظواهر الطبيعية كائنات حية فألّهها وأقام منها أربابا يتعبد لها . . وذهب آخرون إلى أن السحر هو أصل العبادات وأصل الشعائر الدينية . . كما أن كثيرين يعللون العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء . فلاغنى له عن سند يبتدعه ابتداعا يستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات والأدعية فى شدته وبلواه .

أما ماكس موللر[2] Max Muller فيرى

(١) The Primitive Culture

(٢) مقدمة : كتب الشرق المقدسة .
Sacreo Books of the east, Oxford, London.

بأن العقل هو وسيلة الاعتقاد ومنبعه الإحساس بروعة المجهول وجلال الأبد الذى ليس له انتهاء . وهو يؤمن بأن البصيرة هبة عريقة فى الإنسان وأننا مهما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء فلن يفوتنا أن نتبين أن منحة العقل السليم الواعى كانت من خصائصه منذ أول عهده . . وأن القول بإنسانية متسلسلة على التدريج من أعماق البهيمية إنما هو قول لن يقوم عليه دليل .

وقد ناقش الأستاذ العقاد أيضا فى الفصل الأول من كتابه « الله » كثيرا من هذه الآراء وأبطل بعضها كليا أوجزئيا وخلص فى النهاية إلى أنه يجوز أن تنبعث العقيدة من أكثر الفروض المتقدمة ولاتنبعث عن فرض واحد ، ولكنها على تعدد الأسباب يمكن أن تجتمع فى تفسير يشملها جميعا . . ونحن لانهمل سببا يخطر على البال إذا قلنا إن العقيدة هى ترجمان الصلة بين الكون والإنسان ، أوقلنا إنها مظهر الصلة بين العالم الأكبر والعالم الأصغر . إذ لابد من صلة بين الكون وكل موجود فيه .

وفى رأيه أن هذه الصلة تجعل فى الإنسان وعيا خاصا أطلق عليه « الوعى الكونى » . وهذا الوعى هو الذى تترجمه الديانات فى كل قبيل وتمثله بما تشاء من الرموز والعبارات . ومما لاريب فيه أن البداية لم تأخذ شكلا واحدا بين الجماعات البشرية ، كما لم يسر التطور والترقى فى الاعتقاد بسرعة واحدة بينهم ، ولم يكن على نمط واحد متعاقب الحلقات وإنما كان على أنماط شتى وعلى فترات متفاوتة . . وكثيرا ماكان يحصل الانتكاس فى ديانة شعب من الشعوب . . فبينما كان المفروض أن يرقى هذا الشعب إلى درجة أعلى فى تطور عقائده إذا به يسير ولكن إلى وراء .

ويصنف علماء المقابلة بين الأديان مراحل أطوار العقيدة بصفة عامة فيقسمونها إلى ثلاثة أطوار :

١ – دور التعدد Polytheism

٢ – دور التمييز والترجيح Henotheism

٣ – دور الوحدانية Monotheism

ففى الطور الأول كانت تتعدد الآلهة بتعدد القبيلة أو بتعدد الأسرة صغيرة كانت أوكبيرة ، وربما فى البداية كانت تتعدد هذه الآلهة بتعدد الأفراد أيضا . . فقد كان للقبيلة إله تعبده . . . ولم يكن من غير الشائع أن يكون بجوار إله القبيلة إله خاص لكل أسرة أولكل فرد حسب ارتياح نفس الفرد وهواه . . .

أما الطور الثانى – دور التمييز والترجيح – فقد جاء مصاحبا لفترة التكتل

الاجتماعى فى وحدات صغيرة أوكبيرة يشملها نوع من التنظيم السياسى على ضفاف الأنهار أو فى الوديان الخصبة ، حيث أخذت بعض الآلهة فى اللمعان والظهور ، فازداد نفوذها واتسع نطاق عبادتها لأسباب قد ترجع فى معظمها إلى قوة نفوذ القبيلة التى تتعبد لها . . وفى هذا الطور لم يكن من الممتنع أن يجرى التعبد للإله الأكبر الذى اتسع نطاق سلطانه . وفى نفس الوقت تتعبد كل قبيلة لإلهها الخاص بجوار التعبد لذلك الإله . . ثم أخذ ظل الآلهة الفرعية يتقلص شيئا فشيئا . . حين خضع كل الشعب أوالجماعة – حينما تكامل البناء الاجتماعى والسياسى للجماعات الإنسانية – لإله واحد ، فساد هذا الإله بسبب أولآخر . وهذا هو الطور الثالث دور الوحدانية . .

وقياسا على الأشكال الإلهية فى ديانات القبائل الهمجية التى لاتزال تعيش فى بقاع شتى من الكرة الأرضية حتى اليوم ، وفى ظروف لاترتفع كثيرا عن مستوى الظروف التى عاشها إنسان ماقبل التاريخ . . ومثل هؤلاء الهمج يسكنون فى غابات أفريقيا وفى مجاهل أستراليا . وعلى سفوح الهملايا وفى وهاد ألاسكا . . قياسا على الأشكال الدينية لأمثال هؤلاء يفترض علماء مقابلة الأديان أن الإنسان الأول اتخذ إلهه على شكل طوطم من حيوان أوتميمة من حجر أو شجرة أو صخرة فى جبل أو ينبوعا من الماء أو خليجا فى بحر أوخورا فى سهل ، وقدّس كل ذلك وعبده على أن فيه قوة تمنع عن الإنسان الأذى وتجلب له الخير ، وقد يكون سبب اختياره لطوطمه أولمعبوده أن اعتقد أن فيها – لذاتها – قوتها التى تؤهلها لوظيفة الألوهية ، أوأنه قد حلت فيها روح أحد الأسلاف الذين عرفوا بسطوتهم وقوتهم فى حماية القبيلة والمهارة فى جلب الصيد والقوت لها وحفظ النظام بين أفرادها .

وبارتقاء المعرفة والحضارة وازدياد وعى الإنسان نظر إلى معالم الكون البارزة وعلم أن أثرها وفعاليتها فى تصريف أمور الحياة أقوى من مواد الأرض فبدأ يتجه إليها ويتخذها أربابا . . ومن بين هذه المعالم الكونية استأثرت بانتباه الإنسان – بوجه خاص – المعالم الضوئية كالفجر والشمس والقمر والنجوم . . وفى سبيل أن يجعل الإنسان بين أربابه الجدد وبين عالمه نوعا من الصلة أو السيطرة انتحى النزعة الأسطورية التى تمخضت فيما بعد عن آلهة ذات شخصية أسطورية محضة منفصلة تمام الانفصال عن أصلها الذى كان نفس

الشمس أوالقمر أوأحد الكواكب . . وإن بق التعبد للأصل على أنه رمز لذات الإله ، لأنه –كما كان من قبل– هو المقصود بالتأليه والعبادة . . ثم أخذت هذه الشخصية الإلهية تسمو بها الفكرة الإنسانية حتى غدت فى اكتمالها – فى بعض الديانات كالأخناتونية المصرية – إلى مايقارب الصورة المثالية التى وصفت بها الأديان السماوية ذات الله القدير الخالق .

ويعزو علماء مقابلة الأديان تطور الفكرة الدينية من صورتها البدائية حتى شكلها النهائى الذى استساغته العقلية الإنسانية فى الأديان السماوية إلى أنَّ سعى الإنسان لإشباع عاطفته الدينية لم يفتر لحظة مّا طوال تاريخ البشرية . . وكان فى بداية المشوار يقنع بما يتيحه له فكره المحدود من إسباغ الصبغة الإحيائية على ماتتناوله يده وبصيرته من كائنات قريبة منه كالأشجار والصّخور والينابيع والحيوانات . . وكان كلما ارتقى بفكره تجلّت له تفاهة مواضيعه الدينية ، فهو يرتقى بها إلى مايوائم أفكاره التقدمية ، وتظل هذه العملية التلقائية فى اطراد حتى يصل أخيرا إلى النهاية أوإلى مايقاربها .

وكانت نظرته الإحيائية إلى رمزه الإلهى تقل بارتقاء فكره شيئا فشيئا ، حتى غدت صورة الإله فى ذهنه كونا معنويا ، وبقى رمزها مجرد رمز قد لايكون له فى ذهن الإنسان أدنى صلة مادية بالإله المقدس .

بقيت ثلاث نقاط تحتاج إلى توضيح حتى نفرغ من تلخيص مجمل ماخاضت فيه أبحاث علماء مقابلة الأديان من جوانب الدين . .

الأولى : هى مانشأ فى كثير من الأديان القديمة من نظام الكهنوت .

والثانية : تتعلق بما راج فى بعضها عن خلود الروح أوبقائها بعد الموت .

والثالثة : تتعلق بالناحية الأخلاقية التى لازمت العقيدة الدينية وصاحبتها منذ البداية .

وبالنسبة لنشأة النظام الكهنوتى فى الديانات الوثنية القديمة تستبعد الافتراضات التى دارت حول الاحتمالات الممكنة أن يكون قديما قدم الدين نفسه وإنما أتى حثيثا وبالتدريج من أن زعماء القبائل قد زاولوا صفة الزعامة ومقتضياتها فى الشئون الدينية ضمن مزاولتهم لاختصاصات الزعامة فى سائر شئون الحياة ، وكان من ضمن هذه الشئون الدينية تقديم القربان لإله القبيلة باسم جميع أفرادها ، وكذلك تلاوة الصلوات وطلب استجلاب الرحمة ورفع الضر . . وبالتدريج نشأ نوع من الزعامة

الدينية تطور حتى صار وظيفة لها مراسيمها ونظمها الخاصة ومواصفاتها فى من يتولاها من الناس .

وهناك رأى آخر جديد بالمناقشة يُرْجع أصل الكهانة إلى السحر . . ويقول هذا الرأى بأن الإنسان قد عرف السحر قبل أن يعرف الكهانة . وإيمان الإنسان بأن فى مقدرة الأرواح أوالآلهة أن تقوم بالأعمال الخارقة أدى إلى نشوء الطقوس ومزاولتها ، وبالتدريج اتسع نطاق هذه الطقوس وتعقدت أشكالها حتى أصبح من المتعذر على الفرد العادى أن يُلِمَّ بها . . وتخصص فى معرفة أصولها وقواعدها نفر من الناس كانوا هم السحرة الذين يقصدهم الناس لكى يتوسطوا بينهم وبين الأرواح أوالآلهة ، لكى تحقق المآرب وتجيب الطلب ، وبذلك احتكر فريق من الناس الوساطة بين الإنسان وإلهه ، وهذا بدوره أدّى إلى الكهانة التى أصبحت فيما بعد إحدى الوظائف الهامة والتى لعبت دورا كبيرا فى المجالين الاجتماعى والسياسى بل والعملى أيضا فى عصور الوثنية المتأخرة حتى إلى ماقبل الميلاد بعدة قرون .

ويميل كثير من علماء مقابلة الأديان هؤلاء إلى أن يعزو فكرة الكهانة فى الديانات الإسرائيلية كوساطة بين الناس والله إلى أنها تطوير لفكرة الكهانة لدى المصريين والأشوريين والبابليين . وعقدوا بينهما المقارنات من جوانبها الوظائفية والعقائدية .

أمَّا بالنسبة للروح وخلودها . فإن ماكس موللر max muller يستبعد أن يكون الإنسان قد اكتشف الروح أوعرف معناها منذ البداية وأن اكتشافه إياها فى نفسه قد جاء بعد أن اكتسب باجتهاده وتجاربه قدرا من المعرفة . إذ اقتصرت مصادره العلمية فى البداية على تجربته البدائية ، وإنّما اضطر إلى الدين فى هذه البدايات الأولى لتفسير ماغلق على فهمه القاصر من مشاكل كانت تعجز عن حلها تجربته الفجة المحدودة . . وموللر يقول أيضا بأن معرفة الإنسان للروح كانت سابقة لمعرفته البقاء والخلود ، ويعلِّل ذلك بأن معرفة الخلود كانت تستلزم معرفة الأبد واللانهائى . . وهذه الألفاظ لم تتضمنها إلاَّ اللغات المتأخرة . . ولعل طبيعة الأبحاث التى أجراها موللر فى هذا المجال – وكانت تنتهج البحث عن عقائد الدين من خلال الدراسات اللغوية فى لغات الأسلاف القدماء – هى التى جعلته ينتهى إلى هذا الرأى .

وقد ناقضه كثيرون باعتبار أن الإنسان قد اكتشف الروح فى نفسه وفى الحيوان ،

تلك الروح التى تذهب وتخمد بالموت ، وهذه الملاحظة لاتحتاج إلى كبير عناء . . وليست مشكلة ذهنية . .

وهو لابد قد رأى أطياف أسلافه فى الأحلام أثناء النوم وحادثهم وحادثوه فعرف فكرة البقاء بعد الموت . . والبقاء بعد الموت فى ذهن البدائى قد يعنى البقاء المطلق . . وهذا يعنى الخلود بدون ضرورة لمعرفة اللانهائى . . وإذا كانت الألفاظ المعبرة عن الروح وخلودها قد خلت منها اللغات الأولى فهذا لايعنى أن معرفة الروح وخلودها قد تأخر إلى وقت ظهورها فى ألفاظ ضمن اللغات الإنسانية . . لأنه لاشىء يمنع إطلاقا ، أن يستشعر الإنسان المعنى ويدركه دون أن يجد له لفظا بين مفردات لغته . . وقد يظل المعنى قائماً مُحَدَّدا فى ذهن الإنسان بدون لفظ له ، حتى يوفق هذا الإنسان فى اختراع اصطلاح صوتى للتعبير عنه ، وهذا يستغرق وقتا قد يطول أويقصر تبعا لمقدرة الإنسان على اختراع هذا الاصطلاح الصوتى المنشود لكى يأخذ مكانه بين ألفاظ اللغة .

الدين من خلال علم النفس

فكرة الروح وخلودها مرتبطة وثيق الارتباط بالناحية الأخلاقية فى الفكرة الدينية . . وهذا الموضوع قد ناقشه علماء النفس على نحو أكثر موضوعية وتوصلوا فيه إلى نتائج أشد إقناعا وأقرب إلى العقل مما توصل إليه علماء مقابلة الأديان . .

ويرى فرويد Frued أن الإحساس الدينى فى الإنسان إنما هو النتيجة النهائية لعملية ديناميكية عقلية mental Dynamic Process تكمن بدايتها فى اللاشعور unconsciousness بدافع من غريزتى الخوف والجنس . . فالإنسان فى نظر فرويد يستشعر دائماً – حتى إبان رجولته – ضعف الطفولة فى نفسه فلابد له من حماية فى وجه القوى الهائلة المجهولة التى تواجهه ، وهو لذلك دائم البحث عن حماية ضد مصادر خوفه . . والإنسان خلال هذا البحث يحاول أن يسترضى وأن يستميل مايخاف منه ، فيتقدم إليه بالقرابين ، ويتخذه ربا ، ويتعبد له . . وكل هذا كى يأمنه . .

ويتدرج فرويد بالعقيدة الدينية فيفصِّل مراحل تطورها . . وهو يرجِّح أن الإنسان قد بدأ بعبادة الطوطم ثم ارتقى حتى وصل إلى عبادة الخالق . .

وعن كيفية بدء الإنسان بعبادة الطوطم ، يفترض فرويد فى كتابه « الطوطم والمحرم » «Totem and taboo» أن الإنسان كان يعيش فى الماضى السحيق

ضمن قبيلة بدائية يتزعمها أب قوى غيور ، وقد استحوذ هذا الأب القوى على جميع نساء القبيلة اللواتى باعد بينهن وبين أبنائه الناشئين الذين كانوا يحبونه ويعجبون به ، كما كانوا فى نفس الوقت يخشونه ويبغضونه ، لأنه كان يقف عقبة فى سبيل إشباع رغبتهم الجنسية ، ومن هذا الموقف المشبع بالتناقض الوجدانى ampivalence نشأت عقدة الأب Father comples عند الأبناء ، وهى أصل عقدة أوديب «Oedipus complex» وقد تجمع هؤلاء الأبناء المحرومين وقتلوا أباهم وأكلوه . . وبأكله قد حققوا رغبة كان يشعر بها كل منهم وهى تقمص شخصية الأب .

ثم أخذت دوافع الحب نحو الأب المقتول أومظاهر الخشية من روحه وطيفه الباقيين فى مكمن مجهول تظهر بعد ذلك بوضوح . . وأخذ الأبناء يندمون على الذنب الذى اقترقوه . . ودفعهم الإحساس بالذنب إلى وضع قواعد وقوانين فيما بينهم تحرِّم عليهم ماسبق أن حرم عليهم الأب المقتول ، وهذا هو منشأ تحريم زواج المحارم Incent Taboo الذى يقول به المحللون النفسيون . . ثم أقام الأبناء لأنفسهم أباً بديلا رمزيا يسمى الطوطم Totem ويكون عادة حيوانا أونباتا أوقوة طبيعية كالماء والهواء ليقدِّسوه ويحرموا قتله كوسيلة لتخفيف حدة الشعور بالذنب .

وقد لاقت هذه الفكرة رواجا لكثرة القائلين بها من علماء النفس حتى أصبحت فكرة عامة أو مذهبا يسمى بالطوطمية Toteism (وقد يكون سبب رواج هذا الرأى أنه لاتزال هناك فى كل من أفريقيا وأستراليا والأمريكتين وفى بعض أجزاء من آسيا وبعض الجزر المتاخمة لها قبائل همجية تتخذ الطواطم وتعبدها) .

ويرى فرويد فى عقدة أوديب – وفى النظام الطوطمى الذى نشأ عنه نتيجة لها – أهمية اجتماعية كبيرة . . فهو يعتبر أن عقدة أوديب هى الأساس الذى قامت عليه الأنظمة الاجتماعية والدين والأخلاق ، فنشأت الأنظمة بما فيها من الأوامر والنواهى وتحريم القتال والتنافس . . وعن الشعور بالذنب وتأنيب الضمير اللذين تتضمنهما العقدة نشأ الدين . . أما عن الرغبة فى التكفير عن الذنب فقد نشأت الأخلاق . .

ويذهب آخرون من علماء النفس منهم مكدوجل mc. Dougall فى كتابه Psyco analysis and Souial Psycology وفولوجيل Flugel فى كتابه Man's maral and Society يذهب هؤلاء إلى موافقة فرويد فى أن

بداية التسلسل النفسى الذى ينتهى إلى عاطفة التدين إنما هو غريزة الخوف وحدها وليس لغريزة الجنس هنا شأن يذكر.

وفى بسط هذا الرأى يتحدث القائلون به عن مُرَكَّب بوليكراتيس

The Polycratrs complex

وهو أن الإنسان فى كثير من الأوقات يشعر فى قرارة نفسه بأنه لايستطيع أن يصل فى حياته إلى مستوى الذات العليا أى المستوى المثالى الخيِّر الذى يرضى عنه الضمير، وهذا وحده كاف لأن يشعر الإنسان بالذنب والحاجة للعقاب. وقد يخفف وقع الإحساس بالذنب وَحِدَّة تأنيب الضمير تألُّم الإنسان لمصائب تعتريه، ويعتبر وقوعها تكفيرا لذنبه فإذا لم يقابل الإنسان مصائب يتألم منها ألما كافيا لتكفير مايشعر به من ذنب يبدأ يستشعر شيئا من القلق وعدم الارتياح لأن حاجته للعقاب والألم لم تتحقق.. وَكَأَنَّ لدى الإنسان فى أعماق نفسه خوفا لاشعوريا من أن حياته تسير على ماينبغى من النجاح المطرد وفى سعادة متواصلة.. ويشعر بأنه لاشك مقدم على عقاب لابد وأن ينزل به.. وَكَأَنَّ هذا كلَّهُ نذير خفىٌّ بالشر وعلامة على حلول السقوط وتبدل السعادة شقاء.. ألسنا جميعا نقول عندما تحل بنا لحظات سعيدة مرحة ونضحك كثيرا من أعماقنا: «اللهم اجعله خيرا» أليس معنى هذا أن فى أعماقنا خوفا لاشعوريا من أن السعادة المسترسلة قد يعقبها ألم وتعاسة؟؟

وعلى هذا النمط يعاقب الضمير الذات إنْ هى حادت عن الطريق الخيِّر المثالى الواضح فى كنه الضمير. ولابد فى عملية التفاعل العقلى من أن يتجسد الضمير فى تشخص خارجى يكون المصدر الحقيق لمعاقبة المذنبين وردعهم ومكافأة الخيِّرين وإسعادهم.. وتطلع البشر لمعرفة كنه هذا المصدر.. مصدر العقاب والثواب.. كان هذا التطلع طوال حقب التاريخ هو الدافع الفورى لشعور الإنسان بحاجته إلى من يتعبد له..

وقد قال الدكتور محمد كامل النحاس فى كتابه سيكلوجية الضمير: «إنه عن هذا الطريق يكون من السهل علينا أن نثبت وجود الله أوندلل على ضرورة شعور المرء بوجود خالق عظيم تدليلا سيكلوجيا، ويمكن أن نقول إن أغلب الذين ينكرون الله يشعرون فى بعض الأحيان بخوف وقلق عام لايدرون مصدره خصوصا إذا حلت بهم نكبة وكأنَّ لديهم شعور دفين بوجود خالق عظيم وكأن النكبة عقاب لهم على تنكرهم له أولإنكارهم إياه..»

وإذا أخذنا فى اعتبارنا المفهوم العام للدين . . نفس المفهوم الذى فسره به علماء النفس . . وهو أن الدين إنما هو إيمان المرء بكائن ما أيًّا كان هذا الكائن ، يرجو نفعه ويخشى شره وهو لهذا يتقرب إليه بالعبادة والقربان . . إذا اعتبرنا هذا المعنى للدين دخل فى نطاق المتدينين كل ملاحدة وزنادقة هذا العصر لأن آفة هؤلاء على اختلاف مشاربهم – فى أغلب الأحوال – أنهم عجزوا عن إدراك حكمة الخالق فى عدم مسارعته بتلبية كل مطالب الإنسان ، ووجدوا فى العلم وسيلة لتحقيقها أومعظمها بنتاجه من الآلات والمخترعات . . وهكذا تخلى هؤلاء بشكل شعورى عن الإيمان بالله وتحولوا إلى الإيمان بالعقل – أوعلى الأقل بالآلة – وعلى هذا فهؤلاء على نحو ماً يُعتبرون حسب المفهوم العام للدين متدينون وعلى حسب المقاييس الحضارية العامة لايعتبر هذا الدين الجديد أو الإلحاد تقدما فى سير التطور الدينى وإنما انتكاسا إلى الوثنية البدائية . . ويمكن المقارنة هنا بلاإجحاف بين هؤلاء وبين الإنسان البدائى الذى فُتِنَ بالنار عند اكتشافها ولمس منافعها فى الإضاءة وإنضاج الطعام والتدفئة –كما لمس مضارها فى الإحراق والتدمير– فبجلها وعبدها وتقرب إليها بالقربان .

وهؤلاء لم يلحدوا بإنكارهم الله فحسب وإنما استبدلوا تقديس الإلوهية بتقديس العقل واعتمادهم عليه ، فنشأ بذلك نوع من الوثنية . . وهذه الوثنية الجديدة كانت تجد رواجا ظل يستشرى فى خط بيانى اطرد متوازيا مع تقدم العلم والاختراع الآلى والصناعى .

ولقد تشعبت أبحاث علم النفس حول هذ الموضوع . . ولن نستفيد كثيرا من تتبعها واستقرائها فإنها على كثرتها وتشعبها وتضاربها فى كثير من الأحوال تلتقى فى النهاية فتؤكد الفرض الذى نهدف إليه : وهو أن الإحساس الدينى فى الإنسان إن لم يكن غريزة أصيلة فيه فإنه مرتبط ارتباطا مباشرا ووثيقا بالغرائز النفسية ، وله منها دوافعه القوية التى لاتكل ولا تفتر . وأن الدين عنصر ضرورى لطبع الإنسان وحياته ولاغناء للعنصر الدينى حتى تستقيم شخصية الإنسان على سواء خلقها .

الدين من خلال علم الاجتماع

وأما علماء الاجتماع وخصوصا المحدثين منهم فإنهم يناقشون الأشكال الدينية لاعلى أنها فقط من الضرورات الإنسانية التى لابد للإنسان منها حتى يستكمل مقومات

شخصيته ووجوده . . أوأنه لكى يستجيب لداعى هذه الضرورة راح يتلمس عقيدته الدينية باجتهاده وحسبَ هواه أولجأ إلى رجال الدين وعصابات الكهنوت الذين احترفوا تلفيق الديانات لابتزاز المال أواستثمار السلطة والنفوذ . . بل يُجْمِعُونَ على أن بعض هذه الأشكال الدينية يقوم على الحقيقة ويستند على أركان صحيحة . . وهم وإن لم يحاولوا أن يستقرئوا ويحصروا هذه الأشكال الدينية الصحيحة فقد مثَلوا لها بالأديان السماوية الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام . وفى تعليلهم لحكمهم هذا ينكرون جواز أن تبقى مؤسسة لاتستند إلا على الكذب والزيف ، وأن تستمر وتدوم زمنا طويلا ، وأن ترفل فى بحبوحة حيوية عظمى بدون أن تستند إلى الحقيقة حتما . ولولا ذلك لاعترضت سبيلها قوة قاهرة يتعذر التغلب عليها . . وفى نظرهم أن قوة الفكر فى الإنسان ليست بأضعف من حاجته للدين . . فهو دائم النقد لعقيدته وعلى استعداد لأن يحور شكلها حتى يتواءم مع فكره . . ونتيجة لهذا التفاعل الفكرى والعاطفى الذى لايهدأ داخل النفس الإنسانية اندثرت أشكال دينية وحلت محلها أشكال أخرى . . ودالت دولة التعدد والشرك حتى استقر الفكر والنفس فى الإنسان على إدراك مركزه فى الكون ككائن ضئيل فيه وعلى أن سبب وعلة وجود هذا الكون الهائل ذات الإله المنفردة بالكمال والمنزهة عن كل نقص التى لامثيل لها بين الكائنات ولاشريك لها من مثلها . . ولولا استشعار الفكر بالاستقرار والراحة بالاقتناع بالفكرة الإلهية فى الأديان التوحيدية لاتخذ منها موقفا معاديا ولسعى إلى تعديلها على نحو الموقف الذى وقفه دعاة اللوثرية من التعاليم والنظم الكنسية حينما اشتطت بعيدا عن النهج المسيحى السليم .

ومنهج علماء الاجتماع فى دراستهم للدين يتركز على بحث قوته القديرة على تكتيل أفراد البشر ضمن وحدات متماثلة فى المنهجين التفكيرى والسلوكى ، وهم يناقشون الأديان بما فيها أشكالها العقائدية البحتة ، وكذلك ماتمخض عليه من أنماط سلوكية ومثل أخلاقية . . وعلى هذه الاعتبارات يقارنون فيما بينها . . وهذه المقارنات التى بدأها المتأخرون – وإن كانت للاعتبارات المذهبية والطائفية الدينية – لم تسر على نحو جدى . ولم تسفر بعد عن نتيجة إيجابية متفق عليها . قد تمخضت عن قواعد عامة يمكن أن تجدى فى موازنة صحيحة بين الأديان الثلاث

يقوم بها أكفاء مخلصون تجردوا عن الهوى والتعصب .

«وتتلخص[١] هذه القواعد فى أن أجدر الأديان بالتسلط والبقاء هو أعلاها سموا بفكرة الإله ، وأسهلها فهماً على قدرة الفكر وأكملها تحقيقا لاحتياجات الفرد الروحية Spritual والدينية Religious والدنيوية Secular . . وفى اعتبارهم أن الاحتياجات الدنيوية هى ماتتضمنه الديانة من قواعد سلوكية ومثل أخلاقية تضمن الصلاح للفرد فى نفسه وفى جماعته » . .

وعندهم أن الإنسان غير المتدين فرد شاذ غير متلائم مع الإطار العام للمجتمع الذى يعيش فيه . . كما أن المجتمع غير المتدين مجتمع شاذ أيضا . . ومثل هذا المجتمع تظل الفردية فيه غير متفاعلة ولامتجاوبة مع النظام العام وتبقى قوة ضائعة حيرى لاتستطيع أن تتعرف معالم النهج الصحيح للتعاون الجماعى وهذا التعاون الجماعى يمثل نسبة كبيرة من وظيفة الفرد . . وفى مثل هذا المجتمع يبقى هذا القدر من مهمة الفرد فى الحياة معطلا أوغير كامل . . إلا إذا فرض هذا المجتمع على أفراده وسائل معينة تضمن أن يقوم الفرد بتوفية حقوق مجتمعه . . ولكن مثل هذه الوسائل تكون فى الأغلب الأعم أمورا غير مطابقة للعدالة والحقوق الإنسانية .

وطبقا لهذه المقاييس فإن الانتقادات العنيفة التى يوجهها علماء الاجتماع فى إنجلترا وأمريكا للنظام الشيوعى ليست فى الأصالة ذات دوافع سياسية وإنما هى أيضا تعتمد فى الغالب على أسس علمية . .

ضرورة الدين :

وإلى هنا لاأظن أننى فى مناقشتى للدين من خلال العلم قد جابهت كثيرا من المشكلات التى تواجه المؤمن فى عصرنا الحاضر ، وليس من أغراض هذا البحث التعرض لمثل هذه المشاكل ، ولكنها اعترضت طريقى وأنا فى سياق التوصل إلى الهدف من هذا المقال . . وهذا الهدف كان لابد للوصول إليه من أن نبحث كنه التجربة الدينية وأصالة الشعور الدينى فى نفسية الإنسان وطبيعته . . ولمثل هذا البحث كان لابد أن أمتطى ظهر العلم وأن أستعين بذخيرته فى هذا المجال . . وهذا هو الذى دفعنى دفعا إلى التعرض لبعض من هذه المشاكل أعترضت السبيل فى سياق البحث . . وحتى هذه على قلتها فلاأظن أننى قد وفيتها حقها من البسط والمناقشة

---

(١) «Modern Sociology»
By «S.M. Prithivi» New Delhi

ولكنى أعتقد أن الإلماعات المقتضبة التى أوردتها بصدد كل منها تكفى لكى تفتح آفاق الفكر لدى الراغب فى الاستزادة وتدعوه إلى تتبع التفاصيل فى الينابيع الغزيرة والمراجع المطولة . . وحسبى الآن أن أفحص فى النهاية النتيجة التى يمكن أن نستخلصها .

وقد أثبتت الأزمة الشاملة التى يعانيها العالم اليوم بسبب المادية العلمية إفلاس التقدم العلمى والصناعى وعجزهما عن تحقيق الخير للبشر ، وهذا دفع الناس إلى أن يرنوا بأبصارهم نحو الدين على أنه (بمثله وقيمه الأخلاقية) المنقذ الوحيد للبشرية من الأزمة التى تعانيها . . بل من الكارثة التى يقودها إليها الذكاء المتهور . . وفى هذا دليل على أن التعاليم الدينية لم تفقد فعاليتها ولن تفقدها لأن الدين نفسه يقوم على دعائم الحقيقة التى لامراء فيها . . ولهذا كان الدين غير قابل للنقض ولايتعارض مع أى طريق من طرق البحث عن الحقيقة وعن أية وجهة فيها . . ولم يكن مايبدو للعقول القاصرة أنه تعارض بين الدين والعلم سوى خلاف أحمق أعمى بين رجل الدين والعالم . . ولما كان الدين هو المفسر الوحيد لصلة الإنسان بالكون وللعلاقة بين الكون وخالقه الأعظم فإن هذه الصلة قد ظلت على الدوام أمام الإنسان سرًّا أولغزا تدفعه إلى استكناه حقيقته وحـــل مغاليقه غريزته وبصيرته . . وبمعرفته لهذه الحقيقة حدد الإنسان موقفه وعرف مركزه ومهمّة وجوده فاتضحت أمامه الكيفية الصحيحة كى يتصرف فى شئون حياته حيال نفسه ومع غيره من الناس . .

فالدين ضرورى للإنسان حين تتطلبه غريزته وطبيعته . . وهو ضرورى له حين تفتقده بصيرته . . وهو ضرورى له حين يحتاج إليه لحل كافة مشكلات الحياة . . وحياة كل إنسان لاتخلو لحظة أوهنة فيها من مشكلات تبدأ حيث يكون نطفة فى رحم أمه إلى أن يودع القبر بعد الممات . .

زاهر عزب الزغبى

الأزهر جامعًا وجامعة

أو مصر فى ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

ذكرنا فى المقال السابق أن القاهرة قامت بثورتها الثانية ضد الاحتلال الفرنسى فى ٢٠/٣/١٨٠٠م وكان من زعمائها السيد عمر مكرم والشيخ محمد السادات والسيد أحمد المحروقى كبير التجار .

وكانت ثورة شاملة . بدأت أولا فى بولاق بقيادة الحاج مصطفى البشتيلى وامتدت إلى جميع أنحاء القاهرة . وأتى فيها الشعب من ضروب البسالة والفداء ما شهد به الجميع .

والحاج مصطفى البشتيلى كان من كبار تجار بولاق وكان عديل الشيخ سليمان الفيومى عضو الديوان وأعدمه الفرنسيون بعد إخماد الثورة ، وبولاق كانت من ضواحى القاهرة وفيها الميناء النهرية للمدينة .

وهجم الثوار على معسكر الفرنسيين فى الأزبكية . وعلى طوابيهم التى أقاموها حول المدينة . وأقاموا فى الشوارع المتاريس التى يبلغ ارتفاع بعضها أربعة أمتار تقريبا . وحفروا الخنادق واستعملوا فى هجومهم ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين الذين كانوا فى المطرية . واستعاضوا عن القنابل بكرات الموازين الحديد التى جلبوها من الوكالات التجارية والدكاكين .

وقال مسيو مارتان أحد مهندسى الحملة الفرنسية : « لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل . فقد صنعوا البارود . وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع . وفعلوا ما يصعب تصديقه ذلك أنهم صنعوا المدافع » .

وقال كليبر فى يومياته : « استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة فى الأرض وأنشأوا معامل للبارود . ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل . وأبدوا فى كل ناحية

من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية . وهذه هى بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى لها . « عاد كليبر للقاهرة فى ٢٨ مارس بعد موقعة عين شمس وبلبيس » — وإنى لم أكن أتصورها فى هذه الدرجة من الخطورة » — « تاريخ الحركة القومية للرافعى جـ ٢ ص ١٥٦ »

وقال الجبرتى أيضاً : « تم كل ذلك فى ثلاثة أيام . وتطوع الأهالى بإمداد الثوار بالزاد وتوزيع الأقوات . وباشر السيد أحمد المحروق وباقى التجار الكلف وباقى النفقات والمآكل والمشارب وكذلك جميع أهل مصر . وكل سمح بنفسه وبجميع ما يملكه . وأعان بعضهم بعضا . وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة . . إلخ .

ولم يفقد كليبر رشده . واشتد فى حصار المدينة وضربها بالمدافع من الطوابى المحيطة بها . وأراد أن يكسر حدة الثورة فراسل قيادة الكتيبة العثمانية التى تسللت إلى القاهرة بالانسحاب . كما أتم المفاوضات الجارية مع مراد بك على أن يحكم مراد الوجه القبلى تحت الحماية الفرنسية ويدفع قدرا من الخراج سنويا . وبذلك أصبح مراد بك حليف الفرنسيين . فراسل الأمراء المماليك الذين بالقاهرة — وهم الذين قدموا مع العثمانيين ومنهم إبراهيم بك — بالانسحاب . كما نصح مراد الفرنسيين بحريق القاهرة لإخماد الثورة . ولم يكتف بالنصيحة بل أرسل لهم الأحطاب والوقود اللازم لذلك . فضلا عما كان يمد به الجيش الفرنسى من أغنام وقمح ومؤونة .

وأرسل الفرنسيون يطلبون المشايخ للتفاهم . وكان الديوان معطلا منذ معاهدة العريش فى يناير سنة ١٨٠٠ باعتبار أن الفرنسيين بدأوا يستعدون للجلاء .

فانتدب المشايخ أربعة : الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى . فلما اجتمع بهم كليبر قال : إن هذه الفتنة لا خير فيها . وإن العثمانيين والمماليك يشعلونها لمآربهم الخاصة . وإنه مستعد أن يؤمن المصريين أمانا كاملا على أن يخرج العثمانيون ومن معهم من مصر . فقالوا : نخشى إذا خرج العثمانيون وينفرد الفرنسيون بالأمر أن ينتقموا من الشعب فوعدهم بالأمان وأن من قتل من أحد الفريقين مقابل من قتل من الفريق الآخر .

ولم يقبل الشعب هذا . وأهانوا الشيوخ الرسل أكبر إهانة . وصمموا على استمرار المقاومة . واجتهد الفرنسيون فى قمع الثورة . وركزوا جهودهم أولا على بولاق وأعملوا فيها النيران

وقال الجبرتى فى ٢٢ من ذى القعدة

سنة ١٣١٤ هـ ١٧ / ٤ / ١٨٠٠م :

« وقاتل أهل بولاق جهدهم . ورموا أنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم . وحصروهم فى كل جهة . وقتلوا منهم بالحرق والقتل . وبلوا بالنهب والسلب . وملكوا بولاق . وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة . واحترقت الأبنية والدور والقصور . وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر . وكذلك الأطارف . وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة . فنجوا بأنفسهم من الجهة القبلية . ثم أحاطوا بالبلد ومنعوا من يخرج منها . واستولوا على الخانات والوكايل والحواصل والودائع والبضائع . وملكوا الدور وما فيها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات . ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير والأرز والأدهان والأصناف العطرية . وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور » .

وما فعله الفرنسيون ببولاق فعلوه بباقى المدينة . فيهجمون على الحى ويشعلون فيه النيران ويهدمون الدور . ويستولون على الأموال والأمتعة . وينتهكون الأعراض . ويقبضون على الناس . وتساقطت أحياء المدينة بين أيديهم واحدا بعد واحد ، وتحولت المدينة إلى أنقاض وخرابات .

ونجح رسل مراد بك فى إقناع العثمانيين والمماليك . فاتفقوا مع الفرنسيين على الانسحاب . وخرج معهم السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروق . وبقى الشيخ محمد السادات . وقد ذكرنا أن السيد عمر مكرم خرج بعد معركة إنبابة . وأقام فى يافا . فلما استولى نابليون على يافا فى حملته على الشام أعاده معززا إلى مصر . ولكنه بقى ملازما داره غير مخالط للفرنسيين حتى قامت ثورة القاهرة الثانية فكان من ضمن قادتها البارزين .

وانفرد الفرنسيون بالشعب الذى انهارت مقاومته واضطر للتسليم فى ٢٦ / ٤ / ١٨٠٠ م . ودخل كليبر من باب النصر بموكب الفاتحين . وخَلْفه عثمان بك البرديسى وعثمان بك الأشقر مندوبا مراد بك . وأمر الناس بالوقوف أثناء مرور الموكب . كما أمروا بالزينة ثلاثة أيام وتوقد فيها القناديل ليلا .

وأخذ الفرنسيون فى الانتقام . وتنكر كليبر لعهوده بالأمان . وقال للمشايخ : نحن أمّنّاكم على أرواحكم فلا نقتلكم ، وإنما نستولى على أموالكم . وفرض غرامة فادحة على أهالى القاهرة قدرها اثنى عشر

مليون فرنك (كتقدير الرافعى نقلا عن المراجع الفرنسية وقال الجبرتى : عشرة ملايين فرنك)

وخصوا الشيخ السادات بأكبر نصيب من هذه الغرامة . واعتقلوه وأهانوه حتى كان ينام على الأرض متوسدا حجرا . وعذبوه بالضرب أمام زوجته وابنه . وتشفع له عثمان بك البرديسى . فقالوا : نقبل شفاعتك فى عدم قتله ولكن لابد من دفع الغرامة المقررة عليه .

ووُزعت الغرامة على الأهالى من مشايخ وتجار وأصحاب عقارات ومهنيين وحرفيين بقوائم أعدوها لذلك . وتعسَّفوا فى تحصيل هذه الغرامة . وهجموا على الدور . ونقبوا فيها على الأموال والمخبآت . وباعوا ما يجدونه فى الوكائل والدكاكين بأبخس الأثمان . فإذا لم يوفِ ذلك بالغرامة المقررة على شخص أضافوا الباقى على جاره . فباع الناس ما لديهم حتى لم يوجد المشترى لانشغال كل إنسان بسداد ما عليه .

وضاقت الدنيا أمام سكان القاهرة . وتعطلت التجارة . فالإنجليز بأساطيلهم يمنعون ورود البضائع بالبحر . والعثمانيون بجيوشهم يمنعون ورودها من الشام .

مقتل كليبر :

وخيَّم على المدينة وأهلها الحزن والكآبة والشعور بالعجز . ثم ازدادت النفوس قلقا وتوجسا بالشر عندما قُتل كليبر فى ١٤/٦/١٨٠٠ فى حديقة منزله « بشارع الألفى » . إذ قتله سليمان الحلبى أحد طلبة الأزهر .

وحوكم سليمان الحلبى هو وأربعة آخرون من طلبة الأزهر . وحكم عليهم بالإعدام . وكان ذنب شركائه أنه أطلعهم على عزمه بقتل كليبر ولم يبلغوا السلطات . وكان الحكم غيابيا بالنسبة لأحد الأربعة لأنه تمكن من الهرب .

ونفذ الحكم على سليمان الحلبى وزملائه الثلاثة فى مكان كان يعرف بتل العقارب « حاليا بحى المنيرة حوالى كلية دار العلوم » . وشيعت جنازة كليبر باحتفال عسكرى حتى دفن فى حديقة القصر العينى . وكان الفرنسيون قد استعملوا القصر العينى مستشفى لجنودهم . ثم أخذوا جثمان كليبر معهم عندما جلوا عن القاهرة .

وحاول الفرنسيون أن يوجدوا صلة التحريض أو العلم بعزم سليمان الحلبى عند مشايخ الأزهر . خاصة الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ أحمد العريشى ليتمكنوا

من إدانة أحدهم . ولكن لم يستطيعوا .

وقد ذكرنا أن نابليون اعتمد انتخاب الشيخ أحمد العريشى قاضيا للقضاة بعد عزل القاضى التركى . ثم تنكر له الفرنسيون بعد مقتل كليبر لكونه شيخ رواق الشوام . والقاتل من هذا الرواق . فعزلوه عن القضاء . ثم أعاده عبد الله مينو فى يناير سنة ١٨٠١ . وظل فى منصبه حتى جلاء الفرنسيين .

ويقول بعض المؤرخين : أن الدافع لسليمان الحلبى كان دافعاً شخصيا بتحريض من بعض ضباط الجيش العثمانى نظير الوعد بتخفيف الضرائب عن والده فى حلب . وأنهم اختاروه لمعرفته القاهرة حيث أقام بها ثلاث سنوات مجاورا بالأزهر .

ونرى أنه قد يكون هذا صحيحا كاعتراف المتهم فى التحقيق . ولكن قد يكون هذا الاعتراف لدفع الشبهة والاتهام عن آخرين . كما أنه لاشك أن المظالم التى أنزلها كليبر بالمصريين بعد قمع الثورة . والقسوة التى أبداها فى تحصيل الغرامات من سكان القاهرة . والاضطهاد الذى أنزله بالشيخ السادات مع مكانته الدينية والاجتماعية . كان لكل هذا أثره فى تصميم سليمان الحلبى . وإذا كان الدافع شخصيا فلماذا سكت زملاؤه الذين أطلعهم على عزمه عن التبليغ مع خطر الصمت ؟ إلا إذا كان هذا قد صادف هوى فى نفوسهم .

وقد نقل الرافعى عن نابليون فى مذكراته « إن لاضطهاد السادات دخلا فى مقتل كليبر لأنه لا يمكن أن يجهل علماء الأزهر ماكان ينويه سليمان الحلبى . فقد قضى بالأزهر نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل . ولكنهم تجاهلوا نية القاتل . وتجاهلوا كل ما له علاقة به لأنهم كانوا يودون الانتقام من الجنرال كليبر » .

وبعد مقتل كليبر تولى قيادة الفرنسيين الجنرال مينو . الذى كان فى أوائل عهد الحملة الفرنسية قد أعلن إسلامه . وسمَّى نفسه عبد الله . وتزوج بسيدة مصرية من أهل رشيد . ورُزق منها غلاما فى شعبان سنة ١٢١٥ (يناير ١٨٠١) فأسماه سليمان مراد . سليمان على اسم قاتل كليبر لأنه كان يكرهه . ومراد على اسم مراد بك حليف الفرنسيين .

غلق الأزهر :

واستأذن المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى القائد الفرنسى فى غلق الأزهر منعا من الدسائس والفتن . وصادف هذا هوى فى نفسه فصرح بذلك . وسُمِّرت أبوابه فى ٢٧ من المحرم سنة ١٢١٥

(٢٠ / ٦ / ١٨٠٠) أى بعد مقتل كليبر ببضعـة أيام ، وظل مغلقا حتى وقعت اتفاقية جلاء الفرنسيين عن القاهرة فأعيد فتحه فى ٢٥ من صفر ١٢١٦ هـ (٧ / ٧ / ١٨٠١) .

ولم يكن مينو ذا كفاءة عسكرية يفوق بها أقرانه وتؤهله للقيادة . ولكنه كان أقدم ضباط الحملة . وأراد مينو التودد إلى المصريين . فبعد شهور من مقتل كليبر أعاد الديوان الخصوصى بعد أن ظل معطلا منذ معاهدة العريش . ولكن بتشكيل آخر فجعله من مجلس واحد بدلا من التشكيل السابق الذى كان مكونا من مجلسين ديوان عمومى وآخر خصوصى .

وكان هذا الديوان الخصوصى الثالث مكونا من تسعة أعضاء كلهم من العلماء المسلمين . منهم الخمسة الأولون من الديوانين الأول والثانى . وأضيف عليهم الشيخ مرسى السرسى وكان عضوا فى الديوان الخصوصى الأول وعضوا فى الديوان العمومى الثانى ، الشيخ محمد الأمير وكان عضوا فى الديوان العمومى الثانى ، الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ، السيد على البواب الرشيدى وهو أخو زوجة عبد الله مينو .

واجتمع الديوان فى جلسته الأولى فى ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٢١٥ هـ (٣ / ١١ / ١٨٠٠م وانتُخب فيها الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للديوان والشيخ محمد المهدى سكرتيرا له . واطمأن الناس نوعاً ما بعودة الديوان ، فلجأ إليه أرباب الحاجات بشكاويهم وتظلماتهم . كما لجأ إليه الناس فى دعاويهم المختلفة . ولكن كانت قيمته شكلية . فقد استمر تحصيل الغرامات . بل وزادوا عليها كثيرا . وتفننوا فى المصادرات واستحداث ضرائب جديدة . مع التعسف فى الطلب والمغالطة فيما يسدد . حتى ضج الناس وضاقت أمام وجوههم السبل وحاول كثيرون الهروب من القاهرة والالتجاء إلى الأرياف . فصدر قرار بمنع الخروج .

وزاد الهدم فى الدور للانتفاع بما فيها من أنقاض خصوصا الأخشاب لعمل المراكب . وللوقود . فخربت أحياء الحسينية وخارج بابى النصر والفتوح وغيرها من الأحياء . وتعدى هدم الدور إلى هدم المساجد والأضرحة . فزاد هذا – مع الحرائق . السابقة – فى خراب المدينة .

بداية النهاية للحملة الفرنسية

وأخيراً أمكن للإنجليز والأتراك الاتفاق على خطة يطردون بها الفرنسيين من مصر .

والخطة من شقين : أن ينزل الإنجليز والأتراك فى «أبو قير» بمساعدة الأسطول الإنجليزى . وأن يتقدم يوسف باشا ضيا الصدر الأعظم . بجيشه من الشرق .

وتأخرت المراكب التى تحضر القوة التركية إلى « أبو قير » فأنزل الإنجليز جنودهم واستولوا عليها فى أوائل مارس ١٨٠١م . وتقدموا نحو الإسكندرية فهزموا الفرنسيين عند قصر القياصرة « موقعه الآن مصطفى باشا برمل الإسكندرية » . فانسحب الفرنسيون داخل الأسوار القديمة للإسكندرية ووصل مينو إليها وهاجم الإنجليز شرقا منها ولكنه هُزم واضطر للارتداد إلى المدينة .

وقطع الإنجليز سد « أبو قير» فأغرقت المياه كثيراً من القرى وأحاطت بالإسكندرية من الشرق والجنوب . فضلا عن البحر فى الشمال . وأصبح لا طريق للفرنسيين إلا من الغرب فوضع الإنجليز قوة هناك . وبذلك حوصر مينو ومن معه داخل الإسكندرية حصارا كاملا .

ووصلت القوة التركية بقيادة حسين باشا قبطان إلى « أبو قير» فاشتد ساعد الإنجليز . واستولوا على رشيد . وبدأ الزحف نحو القاهرة فاستولوا على الرحمانية فى المحرم سنة ١٢١٦هـ «مايو سنة ١٨٠١م» والرحمانية على الجانب الغربى من فرع رشيد تقابلها دسوق بميل إلى الشمال على الجانب الشرقى من فرع رشيد . وكانت مركزا هاما للقوات الفرنسية فى الطريق بين القاهرة والإسكندرية . وكان عندها مأخذ ترعة الإسكندرية التى جددها محمد على باسم ترعة المحمودية نسبة إلى السلطان محمود الثانى سلطان تركيا من ١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ .

ومن جهة أخرى وصل الجيش التركى القادم من الشرق فاستولى فى طريقه إلى القاهرة على الصالحية وبلبيس ودمياط وشرق الدلتا بصفة عامة والتقى مع قوة فرنسية عند قرية الزوامل « شمال أبو زعبل » فى نصف المسافة بينها وبين بلبيس تقريبا فانهزم الفرنسيون وارتدوا إلى القاهرة فى مايو ١٨٠١ .

وبذلك أصبحت القوة الإنجليزية التركية الآتية من الشمال . والقوة التركية الآتية من الشرق . على مشارف القاهرة بينهما نهر النيل عند إنبابة .

وفكر الفرنسيون فى الاستنجاد بمراد بك حليفهم . ولكنه كان توفى فى ذى الحجة سنة ١٢١٥ هـ « أبريل ١٨٠١ » بالطاعون عند سوهاج . وكان وباء الطاعون قد تفشى منذ أوائل العام .

وكان شديد الوطأة قضى على مئات الآلاف فى أنحاء القطر. وكان يموت يوميا من الفرنسيين فى القاهرة العشرون والثلاثون. وزاد هذا فى حرج الجيش الفرنسى فى القاهرة.

ولا نطيل فى هذا فهو خارج عن الموضوع. فنقول إن الفرنسيين فى القاهرة لم يجدوا مناصا من طلب الصلح. وتوقيع اتفاق الجلاء عن مصر فى ١٨٠١/٦/٢٧م. وتحدد فيه للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنى عشر يوما. ويسافر الفرنسيون بأسلحتهم وأمتعتهم على مراكب إنجليزية وتركية ولمن أراد من المصريين الخروج معهم. وتأمين من يبقى من المصريين الذين كانوا موالين لهم.. إلخ وللقوة الفرنسية الموجودة بالإسكندرية أن تستفيد بنفس الشروط.

نهاية الحملة الفرنسية :

وفعلا تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة فى ١٨٠١/٧/١٤ بعد ثلاث سنوات إلا أياما «دخل نابليون القاهرة فى ١٧٩٨/٧/٢٤م بعد معركة إنبابة». أما القوة الفرنسية فى الإسكندرية بقيادة مينو فقد وقعت اتفاق الجلاء فى ١٨٠١/٨/٣١م «٢١ من ربيع الآخر ١٢١٦ هـ». وتم جلاؤهم عنها فى ١٨٠١/٩/٢م.

وبذلك طويت صحيفة من تاريخ مصر. ولكنها صحيفة بالغة الأثر. فقد فتحت أذهان الشعب المصرى إلى عراقته وتاريخه المجيد بما ذكره لهم نابليون فى تقربه إليه كما أثار وجود القوة الأجنبية فى الشعب عوامل المقاومة والجهاد. وعرف عن طريقها قوته. فازداد ثقة فى نفسه كما سنرى فيما بعد بإذن الله. وكان لعلماء الأزهر دور واضح. فقد استقر فى الأذهان أنهم الوكلاء الطبيعيون عن الشعب والمعبرون عن إرادته.

ونترجم الآن كما وعدنا فى المقال السابق للخمسة العلماء الذين اشتركوا فى الدواوين الثلاثة التى أقامها الفرنسيون وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والسيد خليل البكرى. – الشيخ مصطفى الصاوى – والشيخ سليمان الفيومى – الشيخ محمد المهدى.

الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر.

هو عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الأزهرى الشافعى الشهير بالشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ولد بقرية الطويلة بالقرب من القرين شرق بلبيس من محافظة الشرقية» لذلك عُرف بالشرقاوى. وكان

مولده حوالى سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) . أى أنه كان عند قدوم الفرنسيين فوق الستين من عمره .

وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ م) بعد وفاة الشيخ العروسى . وظل شيخاً للأزهر حتى توفى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) . أى عاصرت مشيخته المماليك والفرنسيين وأوائل حكم محمد على .

وقد ذكرنا فى المقال السابق موقفه ضد المماليك سنة ١٢٠٩ هـ الذى أدى إلى كتابة حجة تعهد فيها أمراء المماليك بالعدول عن المظالم والالتزام بما شرطه العلماء . . إلخ .

وكان رئيساً للديوان الذى أنشأه الفرنسيون فى القاهرة فى أدواره الثلاثة . ولم تكن رئاسته بتعيين الفرنسيين ولكن بالانتخاب من زملائه أعضاء الديوان . وربما كان لمركزه كشيخ للجامع الأزهر نصيب فى انتخاب زملائه له لرئاسة الديوان .

وترجم له الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٢٧ هـ . فذكر أن له ماضيا فى الجهاد ومقاومة ظلم المماليك ولكن يبدو أنه لم يكن محل تقدير كبير من الجبرتى . ففى هذه الترجمة كثير من المغامز والسخرية . ولا نستطيع إلا أن نضع رأى الجبرتى محل الاعتبار . فقد كان الجبرتى فى تاريخه منصفا صحيح الانطباعات بعيدا عن الأغراض ، فقال . . . إنه كان فى مبدأ الأمر فقيرا فى قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة . فلا يطبخ فى داره إلا نادراً . . ثم عرفه الناس وواصله بعض التجار الشوام وغيرهم بالزكوات « جمع زكاة » والهدايا والصلات . فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه . . وكان المترجم خلوتيا تلقى الطريق عن الشيخ الحفنى « هو شمس الدين محمد بن سالم الحفنى أو الحفناوى شيخ الأزهر توفى سنة ١١٨١ هـ » . فلما توفى الشيخ الكردى « محمود الكردى توفى سنة ١١٩٥ هـ » كان المترجم من خلفائه ، فكان المريدون وأتباع الطريقة يجتمعون عند الشرقاوى كل ليلة للذكر . ويعمل لهم الثريد للعشاء . ويذهبون إلى المآتم والحفلات ومعهم المنشدون والمقرؤون وينشدون مدد يا بكرى « نسبة إلى الشيخ مصطفى البكرى أستاذ الشيخ الحفنى توفى سنة ١١٦٢ هـ » . « مدد يا حفنى » « مدد ياشرقاوى » . ثم يقدم لهم صاحب الدار الطارئ « أى العشاء » ويمدهم ببعض الدراهم . فاشترى له دارا بحارة كتامة المسماة بالعينية « جنوبى الجامع الأزهر » وساعده فى ثمنها بعض المساتير . وترك

الذهاب إلى البيوت إلا فى النادر . ولما تولى مشيخة الجامع الأزهر بعد الشيخ أحمد العروسى زاد فى تكبير عمامته وتعظيمها حتى كان يُضرب بعظمها المثل ! !

وذكر الجبرتى منافسة الشيخ الصاوى له فى مشيخة الأزهر . واستقر الاتفاق على أن يكون الشرقاوى شيخاً للأزهر . والصاوى للتدريس فى المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى . وهى وظيفة أصلا تابعة لمشيخة الأزهر . ولكن تعفَّف عنها الشيخ أحمد العروسى فى مشيخته وأجلس فيها الصاوى . وظل الصاوى فيها حتى توفى سنة ١٢١٧ (١٨٠٢) فعادت إلى الشرقاوى بدون نزاع .

وقد ذكرنا إنشاء رواق الشرقاوى لأهل الشرقية ، ونضيف أن السبب فى إنشائه نزاع بين مجاورى الأزهر من الشرقية وكانوا يقيمون بالمدرسة الطيبرسية فتعصب الشيخ السجينى شيخ رواق ابن معمر . ومنع مجاورى الشرقية من الطيبرسية وخزائنها . فأنشأ الشيخ الشرقاوى بواسطة إبراهيم بك الوالى « يقال له إبراهيم بك الصغير وهو زوج ابنة إبراهيم بك الكبير وقتل فى معركة إنبابة » هذا الرواق على قطعة أرض مجاورة للمدرسة الجوهرية . ونقل إليه الأحجار وعمد الرخام من جامع الظاهر بيبرس نكاية فى الشيخ السجينى حيث كان هذا الجامع تحت نظارته . وأضاف الرواق إلى جرايات الأزهر . وأدخله فى دفاتره .

وقال الجبرتى : « ولما حضرت الفرنساوية إلى مصر سنة ١٢١٣ هـ ورتبوا ديوانا لإجراء الأحكام بين المسلمين جعلوا المترجم رئيس الديوان . وانتفع فى أيامهم بما يتحصل إليه من المعلوم المرتب له عن ذلك وقضايا وشفاعات لبعض الأجناد المصرية . وجعالات على ذلك . واستيلاء على تركات وودائع خرجت أربابها فى حادثة الفرنساوية وهلكوا . واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها . واشترى دار ابن بيرة (؟ ؟) بظاهر الأزهر وهى دار واسعة من مساكن الأمراء الأقدمين وزوجته بنت الشيخ على الزعفرانى هى التى تدبر أموره . وتحرر كل ما يأتيه ويجمعه ولا يروح ولا يغدو إلا عن أمرها ومشورتها . وهى أم ولده سيدى على الموجود الآن » يعنى وقت الجبرتى وقد يكون دليلا على نفوذ الزوجة تسمية ابنها باسم أبيها .

وكان خارج باب البرقية مقابل الدرّاسة بالجانب الشرقى من طريق صلاح سالم خانكاه أنشأتها خوند طغاى الناصرية . وهى المعروفة بأم أنوك زوجة الناصر محمد ابن قلاوون وكانت أحب زوجاته إليه

ووصلت من المجد والعز فى عهده وبعده الغاية . وتوفيت عن ألف جارية وثمانين خصيا . وأموال كثيرة . ويقال إنها أخت أقبغا عبد الواحد منشئ المدرسة الأقبغاوية التى بها مكتبة الأزهر الآن .

فلما توفى ناظر الخانكاه المذكورة تعين الشيخ الشرقاوى فى نظرها واستولى على إيرادها ولما أنشأ الفرنسيون القلاع فوق المرتفعات حول المدينة هدموا منارة هذه الخانكاه وبعض جدرانها الشمالية وتركوها على ذلك . فلما خرج الفرنسيون أبطل المترجم الساقية التى تغذى الخانكاه بالمياه . وبنى مكانها زاوية . وعمل لنفسه مدفنا عليه قبة . وجعل تحتها مقصورة بداخلها تابوت عالى مربع وعلى أركانه عساكر فضة . وبنى بجانبها قصرا ملاصقا لها يحتوى على أروقة ومساكن ومطبخ وكلار (مخزن لحفظ الأطعمة يلحق بالمطبخ ويقابله بالأفرنكية «Cellare» ويسميه العامة كرار) وذهبت الساقية من ضمن ذلك وجعلها بئرا وعليها خرزة يملئون منها بالدلو . ونسيت الساقية وانطمست معالمها وكأنها لم تكن . وقال الجبرتى : ويقول الحقير (يعنى نفسه) إنى دخلت هذه الخانكاه فى أواخر القرن الماضى (يعنى الثانى عشر الهجرى) فوجدت بها روحانية لطيفة وبها مساكن وسكان قاطنون بها . وفيهم أصحاب الوظائف مثل المؤذن والوقَّاد والكناس والملاَّء . ودخلت إلى مدفن الواقفة وعلى قبرها تركيبة من الرخام الأبيض . وعند رأسها ختمة شريفة كبيرة على كرسى بخط جميل . وهى مُذَهبة وعليها اسم الواقفة . رحمها الله تعالى . فلو أن الشيخ المترجم عمرَّ هذه الخانكاه بدل هذا الذى ارتكبه من تخريبها لكان له بذلك منقبة ، وذكر حسن فى حياته وبعد مماته .

وعن مؤلفاته العلمية فقد ذكر الجبرتى أن له طبقات جمعها فى تراجم الفقهاء المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن الثانى عشر. نقل تراجم المتقدمين فى طبقات الأسنوى والسبكى . وأما المتأخرون فقد نقلها من تاريخنا هذا بالحرف الواحد ! !

وهذه العبارة تستحق النظر. فكيف نقل الشرقاوى من الجبرتى . والشرقاوى توفى سنة ١٢٢٧ هـ . وتاريخ الجبرتى لغاية ١٢٣٥ هـ . إلا إذا افترضنا أن أجزاء كتاب الجبرتى قد تدوولت قبل إتمامه . وهو بعيد .

وعمل له تاريخاً مختصراً فى أربعة كراريس عند قدوم الوزير يوسف باشا إلى مصر وخروج الفرنسيين وأهداه إليه عدد فيه ملوك مصر وذكر فى آخره خروج الفرنسيين

ودخول العثمانية فى نحو ورقتين . وهو فى غاية البرود . وغلط فيه غلطات منها أنه ذكر أن الأشرف شعبان بن الأمير حسين بن الناصر محمد بن قلاوون فجعله ابن السلطان حسن . ونحو ذلك .

والكتاب المذكور الذى وصفه الجبرتى بالبرود هو (تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين) وطبعته المطبعة الوهبية سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م) فى ٨٢ صحيفة من مقدمة وثلاثة فصول . ويبدو من مقدمته أن السبب فى تأليفه تكليف الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا عندما زاره فى بلبيس فى مارس سنة ١٨٠٠م بعد معاهدة العريش التى نُقضت ، وأتمه وأهداه له عندما قدم بجيشه المرة الثانية التى أدت لخروج الفرنسيين . ولاقيمة تاريخية للكتاب المذكور ففيه كثير من الغلطات غير ماذكره الجبرتى لاداعى للإطالة فى ذكرها . ولكن سنعود للكتاب ثانية بإذن الله لأهميته من ناحية أخرى .

وتوفى الشيخ الشرقاوى فى ٢ من شوال سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢/١٠/٩ م) . وصلى عليه بالأزهر فى جمع كثير ودفن بمدفنه السابق ذكره . وقال الجبرتى : ووضعوا على تابوته المذكور عمامة كبيرة أكبر من التى كان يلبسها فى حياته بكثير. وعَمَّمُوها بشاش أخضر وعصَّبوها بشال كشميرى أحمر . ووقف شخص عند باب مقصورته يدعو الناس لزيارته . ويأخذ منهم دراهم . وقال إن زوجته وابنه ومن يلوذ بهما ابتدعوا له مولدا وعيدا فى أيام مولد العفيفى . وكتبوا بذلك فرمانا (مرسوما) من الباشا . يعنى محمد على باشا . . إلخ . الشرقاوى موجود للآن بشارع قرافة المماليك مقابل الدراسة بالجانب الشرقى من طريق صلاح سالم بقرب مشهد العفيفى ومقابر الخديو توفيق . وبقرب الضريح بقايا الخانكاه المذكورة . ومولد العفيفى فى غرة شوال – ٢٠ منه . وهو الشيخ عبد الوهاب العفيفى شيخ الطريقة العفيفية . وهى فرع من الطريقة الشاذلية توفى ١١٧٢ هـ . وترجمه الجبرتى جـ ١ ص ٢٢٠ . وعلى مبارك فى الخطط جـ ١ ص ٩٠ ، وجـ ١٦ ص ٧٢ فى قرية منية عفيف . وضريحه بالقرافة هناك بين جامع قايتباى ومقابر الخديوى توفيق .

وتعين بعد الشيخ الشرقاوى فى مشيخة الأزهر الشيخ محمد الشنوانى كما سنذكر بإذن الله .

ونجد فى ترجمة الجبرتى للشرقاوى كثيرا من المآخذ وبعض التحامل فى الأسلوب . ولكن الوقائع ثابتة . ولا شك أن الشرقاوى

كان من الأثرياء ، وأن جانبا فى هذا الثراء كان فى عهد الفرنسيين . ونقتطف من كتابه « تحفة الناظرين » المذكور بعض ماورد فيه عن الفرنسيين ص ٧٥ قال :

(وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا لمصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية . يقال لهم نصارى فانوليفية (يعنى كاثوليك) يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا . وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين . ويقول إن الله واحد ولكن بطريق التعليل . ويحكمون العقل . ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء . وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم . ولذلك جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون مايناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر .

فإنهم جعلوا من جملة ديوانها جماعة من المشايخ . وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لاتتعلق بالشرع . والسبب الذى أوجب لأهل مصر الانقياد لهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال . وأنهم عند قدومهم كتبوا كتبا وفرقوها فى البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى . لأنهم يقولون إن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث ، وأنهم يعظمون محمدا ويحترمون القرآن . وأنهم يحبون العثمانلى ولم يأتوا إلالطرد المماليك .

ولكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب المماليك . بل نهبوا الرعايا . وقتلوا جملة من الناس . لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة على البيوت . وقتل منهم مايقرب من الألف . وهتكوا بعض الأعراض فى مصر وقراها . فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها . وقتلوا من علماء الأزهر ثلاثة عشر عالما . ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر . ومكثوا فيه يوما وبعض الليلة الثانية . وقتلوا فيه بعض علماء ونهبوا منه أموالا كثيرة وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لايدخله . فحوَّلوا فيه أمتعة بيوتهم . فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع . ونشروا الكتب التى بالخزائن يعتقدون أن بها أموالا ، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف نفيسة . . إلخ) ا هـ .

ويبدو أن هذا الدفاع مقصود به تبرير موقف أعضاء الديوان أمام الصدر الأعظم . ولكنه دفاع أبتر . فإذا كانوا قد

خُدعوا بكتب الفرنسيين أولا فلماذا قبلوا عضوية الديوان ثانية وثالثة ! ؟ .

ومع هذا فمن الإنصاف للجبرتى والشرقاوى أن نذكر أن الجبرتى عندما ترجم للشيخ محمود الكردى (توفى سنة ١١٩٥ هـ قال إن رسالته شرحها خليفة شيخ الإسلام والمسلمين سيدى عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر شرحا لطيفا جامعا مانعا استخرج به من كنوز معانيها ما أخفاها . فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاأحصاها .

كذلك من الإنصاف للجبرتى والشرقاوى ماذكره الجبرتى فى ٢٠ من ربيع أول سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨/٩/١م) أى بعد شهرين تقريبا من وصول الفرنسيين أن نابليون دعا المشايخ . فلما استقروا عنده نهض نابليون وبيده طيلسانات (أى أوشحة) بثلاثة ألوان أبيض وأحمر وكحلى . فوضع واحدا منها على كتف الشيخ الشرقاوى . فرمى به إلى الأرض . واستعفى وتغير مزاجه . وامتقع لونه واحتد طبعه . واغتاظ نابليون بعد أن أفهمه الترجمان أنهم يقولون إن قدرهم يضيع عند الله وعند إخوانهم المسلمين . وقال نابليون للشرقاوى إنه لايصلح للرئاسة . وصمم أنهم لابد أن يضعوا (الجوكار) على الأقل فوق صدورهم . فطلبوا إمهالهم للتروى اثنى عشر يوما . أما الشيخ السادات فكان أوسع أفقا . فلما حضر عند نابليون أهداه خاتم الماس . وعلق الجوكار على صدره . فسكت وسايره وقام وانصرف . فلما خرج من عنده رفعه على أن هذا لايخل بالدين ! !

والجوكار شارة عسكرية من قماش أوغيره توضع فوق الصدر . ووصفها الجبرتى فقال أنها ثلاث قطع جوخ أوحرير أوغير ذلك . مستديرة على قدر الريال سوداء وحمراء وبيضاء . توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض .

هذه لمحة عن شخصية الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر من ١٢٠٨ – ١٢٢٧ هـ (١٧٩٣ – ١٨١٢ م) ورئيس الديوان الخصوصى فى أدواره الثلاثة . فعاصرت مشيخته المماليك والحملة الفرنسية وأوائل حكم محمد على . وكان بمركزه ضلعا فى شئون البلاد . .

محمد كمال السيد

فلسفة القوانين

عقيد شرطة / فكرى الجوهرى

* إن أخطر ما تملكه الدولة فى مواجهة الأفراد – حق العقاب وهو حق تكتسبه الدولة بمجرد تكون المجتمع للمحافظة على كيانه وحمايته مما يهدده بالداخل أو الخارج ، لهذا تقوم الدول فى حدود طبيعتها الجغرافية وتكوينها الاجتماعى وسياستها الداخلية والخارجية بإصدار قوانين تطبق على الأفراد والجماعات .

* ولضمان تنفيذ هذه القوانين تقوم الدولة بوضع العقوبات المناسبة ، منها عقوبات مقيدة للحرية أو غرامات مالية أو عقوبات تكميلية أو عقوبات أدبية .

* وهذا الحق تعترف به جميع دول العالم وإن اختلفت فيما بينها فى وضع النصوص التى تكفل ضمان حريتها وسيطرتها على أراضيها .

* وقد شرع الله سبحانه وتعالى هذا الحق فى كافة الشرائع السماوية لكفالة حقوق المجتمع وحقوق الناس ، ولهذا كان هذا الحق محل اعتبار واحترام الأفراد اعترافا منهم بأنه ضرورة من ضرورات الحياة ودليل على وجود الدولة .

* وقد اعترفت مصر القديمة منذ آلاف السنين بهذا الحق وأوضحت المعالم والرسوم الأثرية وأوراق البردى مدى استخدام المصريين القدماء لهذا الحق واحترامه .

* ومنذ فجر التاريخ والحضارة إلى نهاية الخليقة تقوم الدول باستصدار قوانين ولوائح وقرارات ونظم مختلفة فى كافة النواحى الجنائية والمدنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع توضيح كيفية تطبيق هذه القوانين وطرق ووسائل تطبيقها والحالات المختلفة التى تطبق عليها وشروط هذا التطبيق . .

* كل هذا من الناحية الوضعية علمية ونظرية ونحن إذا درسنا القوانين أو اللوائح علميا نتوصل إلى مدى أهميتها وضرورتها وأصالتها ولكن تبقى المشكلة العظيمة التى تتطلب منا خروج هذه النظم إلى مجال التنفيذ حيث تصطدم هنا بالطبيعة البشرية لأشخاص المنفذين . . . هذه الطبيعة التى

تتأثر بمؤثرات كبيرة تجعل التباين واضحا بينهم بينما القوانين واحدة ونصوصها ثابتة . .

* وهذه القوانين لها خطورتها فى المجتمع فقد تسلب الفرد حريته أو تسلبه حقه فى التصرف فى أمواله أو تحرمه من مباشرة حقوقه العامة أو السياسية أو تقلد بعض الوظائف أو المناصب الهامة . . . بل قد تحرمه من حقه فى الحياة عندما يحكم عليه بالإعدام مثلا ، وهى عقوبات يؤكد القانون ضرورة تطبيقها على الناس جميعا . .

* وتقوم الدولة بتكليف القائم بالأعمال بتنفيذ القانون كل فى دائرة اختصاصه وقد يكون المنفذ صغيرا أو كبيرا وقد يكون غنيا أو فقيرا مدقعا . . أو يكون مثقفا واسع الإدراك أو جاهلا قليل التجربة ضيق الأفق . . عناصر متباينة من البشر تختلف أنماط سلوكهم وتصرفاتهم مما يستلزم بالتالى اختلافهم فى التنفيذ . .

* ونتيجة لهذا الاختلاف أغفل بعض أن هذا الحق حق للدولة وليس للأفراد ، حق للمجتمع وليس للمنفذ ، حق للجماعة وليس للسلطان وامتدّ هذا الاختلاف إلى تهديد مصالح الأفراد وحقوق المجتمع وأصبح صاحب الحق الفعلى يدور فى دائرة مفرغة . . البعض يلتزم بالقوانين ولكنه يقع تحت طائلة العقاب أو تضيع حقوقه بينما البعض الآخر لا يلتزم بها ولا يناله من العقاب شىء أو يحصل على حق ليس له . . وحاول أصحاب الحقوق البحث عن ملاذ يلجئون إليه فلم يجدوا سوى الشكوى إلى الله . . .

● ولقد تجلت هذه المشكلة لمختلف الدول فسارعت إلى إجراء البحوث العلمية على العامل القائم بالتنفيذ مستخدمة فى ذلك أحدث الوسائل العلمية والثقافية وإعداد برامج دراسية وفرق تدريبية لإطلاع العاملين على أحدث ما وصل إليه العقل البشرى فى سرعة أداء الأعمال وإنجازها . .

● ومع ذلك ظلت مشكلة الفرد قائمة فلم تتمكن هذه الوسائل الحديثة من التأثير تأثيرا ملموسا يوجه القائمين بالتنفيذ فى وقت واحد إلى مسار واحد يلتزم به الجميع . . مسار يعتبر صراطا مستقيما يهتدى به كل مسئول فى الدولة ويضمن تنفيذ النصوص تنفيذا واحدا أو متشابها لإمكان الوصول إلى الهدف الاجتماعى الكبير وهو سيادة القانون لا فرق بين العربى أو الأعجمى . . والأبيض والأسود . . .

● وقد ظهرت هذه المشكلة على مدار

سنين طويلة فى عمر الدول حتى أصبحت تشكل خطورة كبيرة بعد أن تحول حقها العام إلى حق خاص يستعمله البعض فى مزيد من السلطة أو مزيد من الأموال وأصبح حق الدولة مهددا فى ذاته بل منتهكا فى كيانه ووجوده .

● وإذ قمنا بتحليل السبب وجدنا أن حق الدولة يتمثل فى ذاتها وذاتها شخصية اعتبارية لا تقوم بعمل يخرج إلى الوجود إلا على أيدى وجهود العاملين بها . . .

● وأصبح التساؤل واضحا إذا كانت الدراسات المستفيضة والنظم الحديثة لا تتمكن من تحديد الأصول أو القواعد التى يلتزم بها المنفذ وتقرب ملامح الشخصيات فى التنفيذ فما هو الحل الأمثل لمعالجة المشكلة ؟

● ولو بحث الجميع لوجدوا أن الحل قريب والطريق واضح والأمر سهل وميسور ومضمون . . كتاب جامع شامل لكل ما يصبو إليه الفرد والجماعة والحكومات والدول من عدل واستقرار وعلم وثقافة ومعرفة . . كتاب أرسله الله على يد رسوله الكريم محمد لكى يغنينا عن التعقيدات البشرية فى التطبيق والتنفيذ إلى السهل الميسور . .

● وفائدة الرجوع إلى كتاب الله فى معالجة مشكلة الفرد القائم بالتنفيذ أن تأثيره واحد بالنسبة لجميع الأشخاص فهو يعتمد على الإقناع لزرع القيمة الروحية فى الفرد مهما اختلف الأفراد فى شخصياتهم أو ظروفهم . .

● فالقيمة الروحية ليست مجرد قيمة تحفظ من كتاب ولا هى قول على لسان وإنما هى تطبيق عملى لابد له من أن يعبر عن نفسه مؤكدا الترابط القوى بين القيمة الروحية وحياة الإنسان العملية كقوله تعالى :

● ﴿يـٰأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ الصف / ٢ .

● والقيمة الروحية فى القرآن مستوى وحافظ وحافز . . . فهى تعمل على رفع مستوى العمل ومستوى أداء الفرد وكفايته مما يعود بالخير على كليهما العمل والعامل .

● وهى حافظ لأنها ضابط للنفس تمنع العامل من الانغماس فى أمور الدنيا وراء شهواته وحبه لذاته مما يبعده عن عمله . . وهى حافز لأنها تجعله يؤمن بأن العمل واجب بل هو رسالة يؤديها فى الحياة دون أن ينظر إلى منصب أو جاه أو مال . .

● وقد يدفع البعض بأن الدول فى معالجتها للمشكلة تلجأ إلى العلم

والتكنولوجيا فهل أغفل الكتاب العلم ، ورسولنا الكريم يقول « إنما بعثت معلما » والله فى كتابه يقول : (نٓ والقلم وما يسطرون) .

● إن العلم لا يتعارض مع الدين ولا يوجد أى تناقض أو صراع بينهما بل إن العلم يدعمه الدين وهو ضرورة للمجتمع وقد دفع البعض بأن الصراع قائم وقديم منذ قيام رجال الدين فى أوربا بتدعيم وجودهم على سلطة الحق الإلهى وحاولوا السيطرة على المجتمعات الإنسانية باسم هذا الحق ورفضوا أى فكر أو محاولة لتطوير حياة المجتمع لتأثير ذلك على مراكزهم ولكننا نرد عليهم بأن الإسلام عمل على تقديس العلم وحفز على التبحر فيه دون حدود . .

قال تعالى . . (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وقال لرسوله (وقل رب زدنى علما) والمقصود أن آفاق العلم أمام الإنسان مفتوحة ويطالب الله الناس بأن يستزيدوا من العلم والوسائل العلمية فى حياتهم . .

● والقيم الروحية دائرة من الخلق الفاضل تبدأ من الفرد وتتسع إلى الأسرة والعشيرة والمجتمع وهى ليس لها حدود لأنها تهتم بكل أمور الدنيا . .

● ومن أمثلة اهتمام الكتاب بالأمور الاقتصادية ما جاء على لسان شعيب عليه السلام وهو يكافح الانحراف الاقتصادى (يا قوم اعبدوا الله مالكم من الله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) هود ٨٤ .

● كذا وضع بيان عملى للتخطيط الاقتصادى الطويل مثل ما ورد فى قصة يوسف عليه السلام عن تفسيره لرؤيا الملك . .

● كما اهتم الكتاب بالأمور الأخرى الاجتماعية كاهتمامه بشئون الأسرة وعلاقة الأزواج والاهتمام بالوالدين وبالقصر واليتيم والضعفاء .

● كما اهتم بالدعوة إلى الشورى بين الحاكم والمحكوم وبين القادة والقاعدة . . بالإضافة إلى الاهتمام بالأمور الدنيوية الأخرى التى تساعد المجتمع وتساعد الوالى فى استقرار الحكم ورفاهية الشعب .

عقيد شرطة

(فكرى الجوهرى)

من طرائف الشعراء الفتاك

عبد الله بن الحجاج من بنى ذبيان عاصر عبد الملك بن مروان وخرج عليه محاربا له ، انضم إلى جميع أعدائه ، ويصفه صاحب الأغانى وهو من بنى مروان صليبة وإن نسب إلى أصفهان ، يصف ابن الحجاج الذبيانى بأنه شاعر فاتك من معدودى فرسان مضر ، وذوى البأس والنجدة فيهم غير أنه على عادته – الأغانى – لا يعنى بمولد من يتكلم عنه أو وفاته معينا بالسنوات والأيام ، وإنما همه فى طرائف الأخبار كأن الشخصية عنده طرفة أو نادرة لا أكثر ولا أقل .

وشاعرنا هذا الفاتك دفعته الأحداث إلى أن يكون فى كل جيش يقاتل عبد الملك على ملكه ، ولهذا أسباب معروفة لو أرادها صاحب الأغانى لذكرها ، ولكنه اكتفى بفتكه وذكر عداوته لعبد الملك ثم رجوعه إليه حين قلَّ النصير وعزَّ المعين ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت .

والأساس فى ثورة الشاعر موقعة « مرج راهط » التى وقعت بين الضحاك بن قيس الفهرى مناصر ابن الزبير وبين مروان ابن الحكم وكان مع الضحاك القيسية وعدادهم ستون ألفا ، وكان مع مروان اليمانية وعددهم ثلاثة عشر ألفا ، وكانت القوة فى جانب الضحاك ولكن بحيلة من مروان وجنده ، وهى طلب الموادعة والصلح فاستجاب الضحاك ولم يأخذ حذره فهاجمه مروان وانتصر عليه ، فزعموا أن رجالا من قيس عيلان لم يضحكوا بعد موقعة « المرج » حتى ماتوا جزعا على من أصيب من فرسانهم يومئذ ، وهذه الموقعة مكنت مروان من أن يعلن نفسه خليفة فى دمشق سنة ٦٥ هـ وعبد الله بن الحجاج ممن نكأته هذه المعركة ، وملأت قلبه حقدا على مروان وابنه عبد الملك ، فكان من أمره أنه أيد « عمرو بن سعيد الأموى » ضد عبد الملك فكان من جنده ، ثم قتل عبد الملك عمرو بن سعيد غَدْراً ، فهرب صاحبنا إلى عبد الله بن الزبير فعاش فى كنفه مظهرا عداوته لعبد الملك ، فلما قضى الحجاج على عبد الله بن الزبير سنه ٧٣ هـ

اتجه إلى نجدة بن عامر الحنفى الخارجى فكان معه يقاتل ويغامر ، ولكن نجدة قتل فى البحرين ، فنظر فلم يجد قائدا ولا جيشا يستظل بلوائه ، ووجد الأمة الإسلامية عادت إليها وحدتها ، وشاع الأمن بين ربوعها ، ووجد الشعراء الثائرين مثله قد لاذوا بعبد الملك يعتذرون فيقبل اعتذارهم ، إن عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر الزبير بين استعان بعبد الله بن جعفر ابن أبى طالب حتى وقف بين يدى عبد الملك فقبل عذره واستمع المجلس لشعره ، إنه لا يجد شفيعا أو ساعيا بالخير له ، فداخله الرعب والفزع والمصير المخيف ، ففكر وقدر ، واحتال لنفسه حيلة إما أن تنجيه أو تريحه من عذاب القلق والأرق ، فشد الرحال خفية حتى بلغ دمشق فدخل على عبد الملك وهو يطعم الناس ، فجلس ناحيته . فقال له عبد الملك : مالك لا تأكل ؟ – وهو لا يعرفه – فقال : لا أستحل أن آكل حتى تأذن لى . فقال : إنى أذنت للناس جميعا . قال : إنى لم أعلم ، أفآكل بأمرك ؟ فقال : كل . فأكل وعبد الملك ينظر إليه ، ويعجب من فعاله . . فلما أكل الناس جلس عبد الملك فى مجلسه ، وجلس خواصه بين يديه ، وتفرق من الآكلين من تفرق وقف عبد الله ابن الحجاج بين يديه ، ثم استأذنه فى الإنشاء ، فأذن له ، فأنشده ، وهنا نسمع إنشادا وحوارا فيه ذكاء من الجانبين ، وقدرة من الفن الشعرى والذوق الأدبى ، وكان عبد الملك أديبا أريبا بجانب فقهه فى الدين وبراعته فى السياسة وتناول الأمور ، ومجالس عبد الملك الأدبية لم تبخل عليها كتب الأدب بالتدوين ، قال الشاعر يخاطب الخليفة .

أبلغ أمير المؤمنين بأننى
مما لقيت من الحوادث مُوجَعُ
مُنِع القرار فجئت نحوك هارباً
جيش يجر ومقنب [1] يتلمع

فقال له عبد الملك : وماخوفك ؟ لاأم لك ! لولا أنك مريب . فقال عبد الله :

إن البلاد علىّ وهى عريضة
وُعِرتْ مذاهبها وسُدَّ المطلعُ

فقال له عبد الملك : ذلك مما كسبت يداك ، وما الله بظلام للعبيد . فقال عبد الله :

إن الذى يعصيك منا بعدها
من دينه وحياته مُتَودعُ

(١) المقنب : جماعة الخيل زهاء ثلاثين ويتلمع تبرق سيوفه ورماحه .

آتى رضاك ولا أعود لمثلها
وأطيع أمرك ما أمرتَ وأسمعُ
أعطى نصيحتى الخليفة باخعاً
وخِزَامةَ الأنفِ المقودِ فأتبعُ

فقال له : هذا مالا نقبله منك إلا بعد المعرفة بك وبذنبك ؛ فإذا عرفنا الحوبة قبلنا التوبة . قال عبد الله :

ولقد وطئتَ بنى سعيد وطأة
وابن الزبير فعرشه متضعضع

فقال عبد الملك : لرب العالمين الحمد والمنة على ذلك ، فقال له عبد الله :

مازلت تضرب مَنْكِباً عن منكب
تعلو ويسفل غيركم ما يُرْفَعُ
ووطئتهْم فى الحرب حتى أصبحوا
حدثا يُرَسُّ[1] وغابرا مُتَفجَّعُ
وأرى الذين رَجَوْا تراث محمدٍ
أفلت نجومهم ونجمك يسطعُ

فقال عبد الملك : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ما أنت وذاك لا أم لك ؟ فقال عبد الله :

فحوى خلافتهم ولم يظلم بها
القَرْم قرم بنى قصى الأقرعُ[2]
لا يستوى خاوى نجوم أُفَّلٍ
والبدر منبلجا إذا ما يطلعُ

(١) يذكر .
(٢) القوى الشديد .

وُضِعَتْ أميةُ واسطين لقومهم
ووُضِعْتَ وسطهم فنعم الموضعُ
بيت أبو العاصى[3] بناه بربوة
عالى المشارف عزّه ما يُدْفَع

فقال له عبد الملك : إن توريتك عن نفسك لتريبنى ، فأى الفسقة أنت ؟ وما الذى تريد ؟ قال :

فانعش أصيبيتى الذين كأنهم
حجل[4] تدَرَّجُ بالشُّربة[5] جُوَّع

فقال عبد الملك ، لا أنعشهم الله ، وأجاع أكبادهم . فقال عبد الله :

مال لهم مِمّا يُضَنُّ جمعتُه
يوم القليب فحيز عنهم أجمعُ

فقال له : لعلك أخذته من غير حله ، وأنفقته فى غير حقه ، وأرصدته لمشاقة أولياء الله ، وأعددته لمعاونة أعداء الله . فقال عبد الله :

أدنو لترحمنى وتجبر فاقتى
وأراك تدفعنى ، فأين المدفعُ ؟

فتبسم عبد الملك وقال له : إلى النار فمن أنت الآن ؟ فقال : أنا عبد الله ابن الحجاج ، وقد وطئتُ دارك ، وأكلت

(٣) أبو العاصى مجمع النسب لعبد الملك والخليفة عثمان بن عفان .
(٤) ضرب بن الطير .
(٥) موضع .

طعامك ، وأنشدتك ، فإن قتلتنى بعد ذلك فأنت بما عليك فى هذا عارف ، وعاد إلى الإنشاد ، فأنشده :

ضاقت ثياب الملبسين وفضلهم
عنى فالبسنى فثوبك أوسعُ

فرمى عبد الملك إليه برداء كان على كتفه ، وقال ، البسه لالبستَ ، فالتحف به . ثم قال له عبد الملك : أولى لك والله لقد طاولتك طمعاً فى أن يقوم إليك بعض هؤلاء فيقتلك ، فأبى الله ذلك ، فلا تجاورنى فى بلد . وانصرف آمنا ، وأقم حيث شئت .

ولكن هذا العفو لم يحز القبول عند الحجاج بن يوسف الثقفى ، فكتب إلى الخليفة يعرفه آثار عبد الله بن الحجاج وبلاءه فى محاربته ، وأنه بلغه أنه أمنه ، ويحرضه عليه ، ويطلب إليه أن يرسله إليه ليتقوم بالكيد له وتعذيبه وقتله . . وسمع الشاعر ما قال فيه الحجاج ، فجاء إلى عبد الملك ووقف بين يديه وأنشد :

أعوذ بثوبيك اللذين ارتداهما
كريم الثنا من جيبه المسك ينفح
فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى
وإن كنت مذبوحاً فكن أنت تذبح

فكتب عبد الملك إلى الحجاج : إنى قد عرفت من خبث عبد الله وفسقه مالا يزيدنى علما به ، إلا أنه اغتفلنى متنكرا ، فدخل دارى ، وتحرم بطعامى ، واستكسانى فكسوته ثوبا من ثيابى ، وعاذبى فأعذته ، وفى دون هذا ما حظر علىّ دمه ، وعبد الله أقل وأذل أن ينكث عهدا فى قتله خوفا من شره ؛ فإن شكر النعمة فأقام على الطاعة فلا سبيل إليه ، وإن كفر ما أوتى وشاق الله ورسوله وأولياءه فالله قاتله بسيف البغى الذى قتل به نظراؤه ، ومن هو أشد بأسا وشكيمه منه من الملحدين ، فلا تعرض له ولا لأحد من أهل بيته إلا بخير والسلام .

وهكذا نجا الرجل بحيلته وشعره الصادق فى عرض حياته وعذره ، وقد وجد أرضا صالحة للغراس عند كريم يقبل العذر ويعفو عن الذنب ، ويستحق ما قاله فيه عبيد الله بن قيس الرقيات وفى أسرته :

ما نقموا من بنى أمية إلا
أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك ولا
تصلح إلا عليهم العرب

ولم يبق لنا من هذا السلف إلا الذكريات نضعها أمامنا من حين إلى حين .

تحقيق مشروعية القنوت فى الصلاة عند النوازل

الشيخ / محمد الطيب شورم

تحقيق مشروعية القنوت فى الصلاة ، وحكمه عند الأئمة الأعلام ، وما ورد فيه من تفصيلات .

القنوت .. لغة .. الطاعة والدعاء ، وهو مصدر من قنت يقنُت قنوتا ، أطاع الله تعالى وخضع له وأقَرَّ بالعبودية ومنه قوله تعالى : (ومن يقنُت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما) ٣٣ : ٣١ وقوله (يامريم اقنتى لربك) ٣ : ٤٣ ويقال : قنت الله .. لزم طاعته مُتَعدٍّ ولازم ، فهو قانت وهى قانتة ، والجمع قُنَّت .

وشرعا : الطاعة والدعاء ، والالتجاء إلى الله تعالى فى دفع شر ، أو جلب خير فى وقفة فى الصلاة .

بدء مشروعيته : ثبت عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعا ، فى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، والصبح فى دبر كل صلاة ، إذا قال : سمع الله لمن حمده من الركعة الأخرة .. يدعو عليهم . على حيٍّ من بنى سُليم ، على رِعْلٍ وذكوان وعُصَيَّة .. ويؤمِّن مَنْ خلفه » رواه أحمد .. وزاد : وأرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام فقتلوهم » .

قال عكرمة : وكان هذا مفتاح القنوت .

وأما اختصاصه بوقت معين من أوقات الصلاة فذهب أكثر السلف ومَن بعدهم وعلى رأسهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعمر وعثمان وعلى .. وقال به من التابعين ، فمن بعدهم خلائق كثيرة .. على أنه مشروع فى جميع الصلوات المكتوبة إذا نزلت بالمسلمين نازلة – والعياذ بالله تعالى – كَعَدُوٍّ ، وقحط ، ووباء ، وعطن ، وضررٍ ظاهر فى المسلمين .

ماعدا الصبح : فإن القنوت فيه مشروع دائما ، سواء نزلت بالمسلمين نازلة أم لا ، مستدلين على ذلك ، بحديث ابن عباس السابق ، وبحديث سيدنا أنس ،

رضى الله عنه « أن النبى ﷺ قنت شهرا يدعو على قاتلى القُرَّاء » وهم قراءٌ سبعون أرسلهم رسول الله ﷺ لبنى سليم كطلبهم ، فغدروا بهم وقتلوهم فى الطريق ، فكان النبى ﷺ يدعو عليهم فى الصلاة شهرا ، ثم ترك .

فأمَّا فى الصبح « فلم يزل يقنت حتى فارق الدنيا » وهو حديث صحيح صريح .. رواه جماعة من الحفَّاظ ، وصححوه .

وأما فى غير الصبح .. فدليلهم : حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان لايقنت إلاَّ أن يدعو لأحد أويدعو على أحد .. كان إذا قال : سمع الله لمن حمده ، قال : ربنا لك الحمد ، وذكر الدعاء ، وهو - : « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت .. » الحديث

كما استدلوا على أن النبى ﷺ لم يترك القنوت فى الصبح مطلقا ، بما رواه سعيد بن المسيب ، وأبوسلمة بن عبد الرحمن بن عوف .. أنهما سمعا أبا هريرة يقول « كان رسول الله ﷺ يقول ، حين يفرُغ من صلاة الفجر من القراءة ، ويكبر ويرفع رأسه : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد .

ثم يقول : وهو قائم .. « اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعيّاش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم شدد وطأتك [1] على مضر ، واجعلها عليهم كسنى [2] يوسف ، اللهم آلْعَنْ [3] لحْيَان ، ورعْلاً وذكوان ، وعُصَيَّة ، عصت الله ورسوله .. ثم بلغنا أنه ترك ذلك ، لمَّا أُنزل (ليس لك من الأمر شىء أويتوب عليهم أويعذبهم فإنهم ظالمون ٣ : ١٢٨) أى أنه ترك الدعاء على هذه القبائل .

وأما أصل القنوت فلم يتركه حتى فارق الدنيا ، وذهب آخرون .. كعبد الله ابن مسعود ، وأصحابه .. وأبى حنيفة وأصحابه ، وسفيان الثورى ، وأحمد ، إلى أنه لاقنوت فى الصبح .

وقال إسحاق : يقنت للنازلة خاصة .. مستدلين على ذلك :

بحديث أنس رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قنت بعد الركوع شهرا يدعو على

---

(١) وطأتك - الوطأة - بفتح الواو ، وإسكان الطاء بعد همزة : وهى البأس .

(٢) كسنى - بكسر السين وتخفيف الياء - أى اجعلها سنين شداداً ، ذوات قحط وغلاء .

(٣) اللهم العنْ لحْيَانَ - فيه جواز الكفار ، وطائفة معينة منهم .

أحياءٍ من العرب ، ثم تركه .. رواه البخارى ومسلم .

وبحديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قنت فى صلاته شهرا ، يدعو لفلان وفلان ، ثم ترك الدعاء لهم » .

وبما رُوى عن سعد بن طارق ، وهو أبو مالك الأشجعى ، قال : قلت لأبى يا أبى إنك قد صليت خلف رسول الله ﷺ وأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، أفكانوا يقنتون فى الفجر ؟

فقال : أى بُنى مُحْدَثٌ ، أى بدعة .

وبما رُوى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « ماقنت رسول الله ﷺ فى شىء من صلاته » .

وقد أجيب عن هذه الأحاديث — :

أما حديثا أنس رضى الله وحديث أبى هريرة فى قوله ، ثم تركه ، أى ترك الدعاء على أولئك الكفار ولعنتهم فقط لاأنه ترك جميع القنوت ، أوترك القنوت فى غير الصبح .

قال المجيبون : وهذا التأويل متعين للجميع بين الروايات ، لأن حديث أنس فى قوله ، ولم يزل يقنت فى الصبح حتى فارق الدنيا . صحيح صريح ، ويزيد هذا التأويل وضوحا ، وهو إنما ترك الدعاء على أولئك الكفار ولعنتهم رواية أبى هريرة وهى قوله « ثم ترك الدعاء لهم » .

كما أجيب عن حديث سعد بن طارق .. أن الذين أثبتوا القنوت معهم زيادة علم ، وهم أكثر ، فوجب تقديمهم .

كما أجيب عن حديث ابن مسعود رضى الله عنه بأنه ضعيف جداً ، لأنه من رواية محمد بن جابر السَّحمى ، وهو شديد الضعف متروك ، ولأنه نفى ، وحديث أنس إثبات ، فقدم لزيادة العلم . كما أجيب عن الآية التى زعم بعض الكوفيين . أنها ناسخة للقنوت الذى كان النبى ﷺ يفعله بعد الركوع فى الركعة الأخيرة من الصبح .. وأحتج بحديث ابن عمر : أنه سمع النبى ﷺ يقول فى صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال : اللهم ربنا ولك الحمد فى الآخرة ، ثم قال « اللهم الْعَنْ فلانا وفلانا . فأنزل الله عز وجل (ليس لك من الأمر شىء أويتوب عليهم أويعذبهم فإنهم ظالمون ٣ : ١٢٨) أخرجه البخارى ، وأخرجه أيضا مسلم من حديث أبى هريرة أتم منه ، وليس هذا موضع نسخ .. وإنما نبه الله تعالى نبيه ﷺ على أن الأمر ليس إليه . وأنه لايعلم من الغيب شيئا ، إلا ما أعلمه الله تعالى ، وأن الأمر كله لله ، يتوب على من يشاء ، ويعجل

العقوبة لمن يشاء .. والتقدير : ليس لك من الأمر شيء . ولله مافى السموات ومافى الأرض ، دونك ودونهم ، يغفر لمن يشاء – ويتوب على من يشاء . فلانسخ ولما رَوَى سالم بن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ لعن أقواما فقال : « اللهم ٱلْعَنَ أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام .. اللهم العن صفوان بن أمية ، فنزل قوله تعالى (أويتوب عليهم) فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم ، وإنما نص الله تعالى على المنع ، تقوية لعصمته ، والمقصود من الآية منعه ﷺ من كل فعل وقول إلاما كان بإذنه وأمره .

– وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية (فإنهم ظالمون) أى بالمعاصى ، وهذه الجملة مستقلة ، لكن المقصود من ذكرها تعليل لحسن التعذيب والمعنى (أويعذبهم) فإنه تعالى إن عذبهم إنما يعذبهم لأنهم ظالمون .. وتقديم المغفرة على التعذيب للإعلام بأن رحمته سبقت غضبه وبأن الرحمة من مقتضيات الذات دون الغضب ، فإنه من مقتضيات سيئات العصاة .. والمغفرة والرحمة على سبيل الإحسان .. أما التعذيب فعلى سبيل العدل ، لأن الطاعة لاتوجب الثواب ، والمعصية لاتوجب العقاب .. بل الكل من الله تعالى بحكم إلهيته وقهره وإرادته .

وقال الإمام العلامة الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار : إن الحق ماذهب إليه من قال ، إن القنوت مختص بالنوازل . وأنه ينبغى عند نزول النازلة ، ألاّ تخص به صلاة دون صلاة .

وقد ورد من حديث أبى هريرة عند ابن حبّان .. كان لايقنت إلا أن يدعو لأحد ، أويدعو على أحد – وأصله فى البخارى .

ثم قال ابن القيم ما معناه : الإنصاف الذى يرتضيه العالم المنصف أنه ﷺ قنت وترك ، وكان تركه للقنوت أكثر من فعله ، فإنه إنما قنت عند النوازل ، للدعاء لقوم وللدعاء على آخرين ثم تركه لمّا قدم مَنْ من دعا لهم وخَلُصوا من الأسر ، وأسلم مَنْ دَعا عليهم وجاءوا تائبين ، وكان قنوته لعارض ، فلما زال ترك القنوت .

ثم قال : إن أحاديث أنس كلها صحاح ، يصدّق بعضها بعضا .. ولاتتناقض .

وحمل قول أنس « مازال يقنت حتى فارق الدنيا » على إطالة القيام بعد الركوع .

كما أجاب عن تخصيصه بالفجر .. بأنه وقع بحسب سؤال السائل ، فإنه إنما سأل أنسا عن قنوت الفجر فأجابه عما سأل

عنه .. وبأنه ﷺ كان يطيل صلاة الفجر دون سائر الصلوات . . ومعلوم أنه ﷺ كان يدعو ربه ويثنى عليه ويمجده فى هذا الاعتدال ، وهذا قنوت منه بلاريب ، فنحن لانشك ولانرتاب ، أنه لم يزل يقنت فى الفجر حتى فارق الدنيا .

وأمَّا حكمه . . فقد وقع الاتفاق على عدم وجوبه مطلقا أى سواء نزلت نازلة بالمسلمين أم لا . . كما صرح بذلك صاحب البحر وغيرُه . . وحيث لم يكن واجبا ، فهو سُنّة مؤكدة فى الصبح دائماً عند مالك والشافعى . . وفى الوتر فى كل سُنَّة عند جماعة وفى آخر شهر رمضان . . أى فى النصف الأخير منه عند الشافعى . . وأمَّا عند أبى حنيفة ، فهو جائز فى النوازل فى جميع المكتوبة ، وفى غيرها ، فلا قنوت عنده لافى الصبح ولا فى غيرها – وكذلك عند الإمام أحمد فهو سُنَّة عنده فى النوازل وفى غيرها فلا قنوت عنده لافى الصبح ، ولا فى غيرها – ومَحَلُّه فى اعتدال الركوع الأخير ، وعليه كثير من الصحب ، والتابعين ، والشافعى ، وأحمد .

وقال غيرهما : محله قبل الركوع ، وهو مذهب مالك ، وفى رواية عنه : بعد الرُكوع الأخير .

– ويستحب الجهر به فى الصلاة الجهرية ، وهو الأصح .. هذا بالنسبة .. للإمام .. وأما المنفرد فيسر به بلا خلاف ، وأمَّا المأموم ، فإن قلنا : لايجهر الإمام ، قنت وأسر ، وإن قلنا : يجهر الإمام ، فإن كان يسمع الإمام ، فوجهان ، أصحهما : يُؤمِّن على دعاء الإمام ولايقنت ، وإن كان لايسمع ، لبعد أوغيره : أصحهما يقنت – هذا كله فى الصبح ، وفيما إذا قنت فى الوتر فى النصف الأخير من شهر رمضان .. وأمَّا إذا قنت فى باقى المكتوبات حيث قلنا به – فقال الرافعى : كلام الغزالى يقتضى أنه يُسرُّ به فى السرِّيات وفى جهره به فى الجهريات : الوجهان .. والأصح ماسبق ذكره وهو الجهرية .

ويستحب رفع اليدين فيه .. ولا يمسح الوجه – وقيل : يستحب مسحه .

واتفقوا على كراهة مسح الصدر ، والصحيح فيه أيضا : أنه لايتعين فيه دعاء مخصوص بل يحصل بكل دعاء حتى لو قرأ آية فيه من القرآن تتضمن دعاء كآخر سورة البقرة أجزأه ، وإن لم تتضمن دعاء كآية الدّيْنِ وسورة تَبّتْ يَدَا ، فوجهان ، والصحيح عدم الإجزاء .

كما أن الصحيح : أن الدعاء المشهور ، وهو « اللهم اهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت » ، مستحب فيه .. وليس

شرطا فى أنه لايحصل إلاّ به .

ولوترك القنوت فى الصبح عمدا أوسهوا : سجد سجدتين للسهو ، وهو مذهب الشافعي .. وحكى الطبرى الإجماع على أن تركه غير مفسد للصلاة ، كما ذكر الدار قطنى : عن سعيد بن عبد العزيز فيمن نسى القنوت فى صلاة الصبح ؟ قال : يسجد سجدتى السهو .. كما يستحب رفع اليدين فى الدعاء خارج الصلاة .. ولقد وردت فيه عدة أحاديث لاحصر لها .. ولايتسع المقام هنا لذكرها ؟ ؟

– وهذا كله فى الصلوات المكتوبة ، وأما فى غيرها ، فالحكم : أنه لايُقنت فى شىء منها .

قال الشافعى فى الأم ، فى كتاب صلاة العيدين ، فى باب القراءة فى العيدين : ولاقنوت فى صلاة العيدين ، والاستسقاء ، فإن قنت عند نازلة لم أُكرِّهه ، كما يستدل بحديث أبى هريرة رضى الله عنه ، الذى كان يقول الرسول فيه ﷺ فى صلاة الفجر بعد أن يرفع رأسه من الركوع ويكبر ويقول : ربنا ولك الحمد ، ثم يقول وهو قائم : « اللهم انج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة . . » إلخ الحديث .

قال الإمام النووى ، فى شرحه على صحيح مسلم : إن هذا الحديث فيه استحبابُ القنوت والجهرُ به ، وأنه بعد الركوع وأنه يجمع بين قوله : سمع الله لمن حمده ، وربنا لك الحمد .. وفيه جواز الدُّعاء لإنسان مُعَّين وعلى مُعَّين .

وكما قال أيضا صاحب كتاب التاج الجامع للأُصول فى أحاديث الرسول ﷺ ، تعليقا على هذا الحديث ، أن تعيين بعض الناس فى الدعاء فى الصلاة لايبطلها .. وفيه ردٌّ على من يقول : لايجوز الدعاء إلابأُخروى .. وفيه جواز لعن الكفار وطائفة معينة منهم .

وإنى مع الإمام النووى .. ومع صاحب كتاب التّاج .. بأن الدعاء لإنسان مُعيّن ، وفى مُعيّن .. لا يُبطل الصلاة .. وإلاّ لَمَا صرّح الرسول ﷺ بذكر أسماء الذين دعا لهم ، والذين دعا عليهم أثناء القنوت فى الصلاة ! ؟

وأما قول الإمام أحمد رضى الله عنه فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة : إن الدعاء لشخص معين فجائز– بغير كاف الخطاب .. وتبطل الصلاة بالدعاء بكاف الخطاب ، كأن يقول : اللهم أدخلك الجنة ياولدى ، أما لو قال : اللهم أدخله الجنة فلابأس ، فإنى أقول مستفسراً ومستوضحا : بأن هذه الفتوى فى النفس

منها شيء ! ؟ ولامعنى للفرق بين العبارتين ، إلا إذا كان هناك مايؤيدها من السُّنَّة النبوية .

وإنى رأيت من المستحسن تكملة لهذا البحث القيم أن أختمه بذكر الدعاء المأثور فى القنوت عن سيدى وسيد العالمين رسول الله ﷺ .

أما الدعاء الأول ، الذى رواه الترمذى عن الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، قال « علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر : « اللهم اهدنى فيمن هديت[1] وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ماقضيت فإنك تقضى ولايقضى عليك ، إنه لايذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » .

رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وغيرهم ، بإسناد صحيح .

قال الترمذى : هذا حديث حسن قال : ولايعرف عن النبى ﷺ فى القنوت شيءٌ أحسنُ من هذا .

وفى رواية ، رواها البيهق – عن محمد بن الحنفية – وهو ابن على ابن أبى طالب رضى الله عنه – قال : إن هذا الدعاء ، هو الذى كان أبى يدعو به فى صلاة الفجر فى قنوته .

قال البيهق : دلَّ هذا كله على أن تعلم هذا الدعاء وقع فى القنوت فى صلاة الصبح ، وقنوت الوتر .

ثم قال : وهذه الكلمات الثمانى هن اللواتى نص عليهن الشافعى فى مختصر المزنى ، واقتصر عليهن ولوزاد عليهن .. « ولايعز من عاديت » قيل « تباركت ربنا وتعاليت » وبعده « فلك الحمد على ماقضيت أستغفرك وأتوب إليك » فلابأس به .

ثم إن كان إماما لايخص نفسه بالدعاء ، بل يعمم ، فيأتى بلفظ الجمع . بأن يقول « اللهم اهدنا فيمن هديت .. » إلخ الدعاء .

– وإن قنت بما روى عن عمر رضى الله عنه كان حسناً .. وهو كما ذكره أبوداود فى المراسيل : عن خالد بن عمران قال « بيْنَا رسول الله ﷺ . يدعو على مُضر ، إذ جاءه جبريل عليه السلام ، فأومأ إليه أن اسكت ؟ فسكت ، فقال : يامحمد إن الله لم يبعثك سبَّاباً ولالعَّاناً ، وإنما بعثك رحمة ، ولم يبعثك عذابا (ليس لك من الأمر شيء أويتوب عليهم أويعذبهم فإنهم ظالمون ٣ ١٢٨) قال : ثم علمه هذا القنوت ، فقال : « اللهم إنا نستعينك

(١) فيمن هديت – أى مع من هديت .

ونستغفرك ولانكفرك ، ونخنع لك[١] ونخلع ونترك[٢] من يكفرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد[٣] ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجدَّ[٤] ، بالكفار مُلْحق[٥] اللهم عذِّب كفرة أهل الكتاب الذين يصدون عن سبيلك يكذبون رسلك ، ويقاتلون أولياءك ، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، وأصلح ذات بينهم[٦] ، وألف بين قلوبهم[٧] وأجعل فى قلوبهم الإيمان والحكمة[٨] وثبتهم على ملة رسولك ، وأوزعهم[٩] أن يوفوا بعهدك ، الذى عاهدتهم عليه ، وانصرهم على عدوك وعدوهم ، إله الحق ، وأجعلنا منهم »[١٠] .

(١) ونخنع لك – الخنوع : الخضوع والذل .

(٢) ونخلع ونترك – أى : نترك مَنْ يعصك ، ويلحد فى صفاتك .

(٣) وإليك نسعى ونحفد – أى : نسارع إلى طاعتك . . وأصل الحفد : العمل والخدمة .

(٤ إن عذابك الجِدّ – بكسر الجيم .

(٥) بالكفار ملحَق – بكسر الحاء – أى : مَنْ نزل به عذابك : ألحقه بالكفار – وقيل بمعنى لاحق – ويروى بفتح الحاء – على المفعول – أى : إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به .

(٦) وأصلح ذات بينهم – أى : أمورهم ومواصلاتهم .

(٧) وألف بين قلوبهم – أى : اجمعها على الخير ،

(٨) الإيمان والحكمة – هما كل ما منع من القبيح .

(٩) وأوزعهم – أى : ألهمهم .

* * *

– ويستحب الجمع بين قنوت عمر رضى الله عنه وقنوت على كرم الله وجهه ، فإن جمع بينهما ، فالأصح تأخير قنوت عمر . . وفى وجه يستحب تقديمه وإن اقتصر فليقتصر على الأول .

وإنما يستحب الجمع بينهما إذا كان منفرداً ، أوكان إمام محصورين يرضون بالتطويل .

ويستحب أن يصلى على النبى ﷺ بعد الدعاء ، لما رُوى من حديث الحسن رضى الله عنه فى الوتر أنه قال : « تباركت وتعاليت ، وصلى الله على النبى وسلم » .

ويستحب للمأموم أن يؤمن على الإمام فى الدعاء . . لما روى ابن عباس رضى الله عنهما ، قال « قنوت رسول الله ﷺ وكان يُؤَمِّنَ مَن خلفه .

ويستحب له أن يشاركه فى الثناء ، لأنه لايصلح التأمين على ذلك ، فكانت المشاركة أولى .

والله ورسوله أعلم .

محمد الطيب شورم

(١٠) واجعلنا منهم – أى : ممّن هذه صفتهم.

الفتاوى

الأستاذ / عبد الحميد شاهين

س – ما هو التفسير الصحيح لقوله تعالى (حٓم عسق) وما شابهها من الحروف فى أوائل السور ؟

ج – فى القرآن الكريم تسع وعشرون سورة بدئت بحروف هجائية تقرأ مقطعة بأسمائها هكذا : ألف . لام .ميم ، وكان منها ما بدئ بحرف واحد : ص ، ق ، ن . ومنها ما بُدئ بحرفين : طه ، يس . ومنها ما بُدئ بثلاثة أحرف : ألم . ومنها ما بدئ بأكثر : كهيعص ، حم عسق . . . (وحم عسق) هى التى بدئت بها سورة الشورى ، وهى إحدى سور سبع بدئت بحرفى (حم) وتعرف باسم «الحواميم» وكل السور التى بدئت بالحروف من القسم المكى . الذى عنى بتقرير التوحيد والوحى والرسالة والبعث عدا سورتى «البقرة وآل عمران» اللتين تضمنتا مناقشة أهل الكتاب فى إنكارهم الوحى إلى النبى ﷺ .

وليس لهذه الحروف فى اللغة العربية معان تدل عليها سوى مسمياتها التى ينطق بها فى الكلمات المركبة منها ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبى ﷺ بيان للمراد منها . . ولذلك اختلف الناس فيها اختلافاً كثيراً . . وكان لهم فيها آراء وتخمينات ! ! !

وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين :

أحدهما : أنها جميعاً مما استأثر الله به ولا يعلم معناه أحد سواه وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

ثانيهما : أن لها معنى ، وذهبوا فى معناها مذاهب شتى ، ملئت بها كتب التفسير ، وكان منها : أنها أسماء للسورة التى بدئت بها .

ومنها : أنها رموز لبعض أسماء الله أو صفاته ، كأن يجعل للحرف اسماً من الأسماء التى تبدأ به ، فألف لا «الله» مثلاً ، واللام لا سم «لطيف» والميم لاسم «ملك» وهكذا مما يمكن أن يصنعه كل إنسان .

ومنهم من زعم أن منها رموزاً لبعض أحداث تظهر فى مستقبل الأيام . إما عن طريق حساب الجُمَّل المعروف ، أو عن

طريق الروايات التى لا مستند لها ، أو عن طريق الوهم والتخمين ! ! ! ؟

ومنهم من يرى أنها زيادة إمعان فى التحدى بالقرآن ، على معنى أنه كما ترون مؤلف من الحروف التى يتركب منها كلامكم ، فليست مادة غريبة عليكم ، ولا مجهولة لكم ، وإذن فعجزكم مع هذا عن الإتيان بمثله دليل على أنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو وحى من الله خالق القوى والقدر .

والذى يصح أن نطمئن إليه هو الرأى الأول : وهو أنه مما استأثر الله بعلمه . نعم للبدء بها حكمة يمكن استنتاجها من غرابتها ؛ ومن مجيئها بدءاً للسور أنها تنوه بشأن القرآن ، ذلك أن القوم كانوا يتواصون فيما بينهم بالإعراض عن القرآن (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) ففوجئوا بالبدء الغريب قرعاً لأسماعهم ، ودفعاً لهم إلى استماعه ، وهى بذلك تشبه أدوات التنبيه المعروفة فى اللغة العربية .

أما ما نقله الطبرى فى مأثوره من أن (حم عسق) رمز إلى هلاك مدينتين تُبْنيان على نهر من أنهار المشرق ، ينشق النهر بينهما إلى آخر ما ذكر ، فهو من الروايات التى لا يصح التعويل عليها ، والتحدث بها فى مقام التفسير ، فهى روايات مضطربة ليس لها من سند صحيح وليس لما ترمز له من مناسبة معقولة ! !

والجدير بالمسلم أن يؤمن بأنها كسائر القرآن مما أنزله الله على رسوله ، وأن يؤمن بأن له فى كتابه أسراراً يختص بعلمها ، كما أن له فى كونه أسراراً لا يعلمها سواه (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) .

س : يسأل كثير من أهل الريف عن حكم الشرع فيما هو شائع بينهم من رهن الأطيان ، وهل يباح للدائن أن يستغل الأرض المرهونة بزراعتها أو إيجارها لحسابه مدة تطول أو تقصر حتى يؤدى المدين دينه ، ويفك الرهن ، مع العلم بأن هذا بإذن الراهن ورضاه ؟

ج : تنظر الشريعة إلى المال نظرة واقعية ، تطلب تحصيله من الطرق التى لا اغتيال فيها ولا استغلال ، وتطلب المحافظة عليها من الضياع . وقد أرشدت فى حفظه – إذا كان ديناً – إلى كتابته والإشهاد عليه ، وإلى أن يأخذ به رهناً يقوم مقام الكتابة فى الاستيثاق والحفظ ، ونزلت فى ذلك أطول آية فى القرآن وهى قوله تعالى فى سورة البقرة : (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى

فاكتبوه) إلى أن يقول : (وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة) . وصح عن النبي ﷺ أنه أشترى وهو فى المدينة طعاماً من يهودى ورهنه درعاً من حديد .

ودل هذا على أن مشروعية الرهن ليست خاصة بحال السفر ، وأنه مشروع فى السفر والحضر معاً . والرهن بعمومه يشمل المنقول كالمتاع والدابة . والعقار كالدار والأرض .

وعلى هذه المشروعية العامة اتفق الفقهاء ، كما اتفقوا أيضاً على أن عقد الرهن ليس عقد استثمار واسترباح ، وإنما هو عقد استيثاق وضمان للدين ، وهو فى ذلك بمعنى الصك والكفيل ، وقد كان من ضرورة اتفاقهم على أن طبيعة عقد الرهن كما ذكرنا اتفاقهم على أنه ليس للدائن بمقتضاه أن ينتفع بشىء من العين المرهونة .

ولكن هناك شىء آخر وراء عقد الرهن وطبيعته وهو هل يحل للدائن أن ينتفع بالعين المرهونة إذا أذن له صاحبها وهو المدين ؟

وقد عرض الفقهاء لهذه المسألة وكان لهم فيها رأيان : فغير الحنفية يرون أنه لا يحل له أن ينتفع بها وإن أذن له صاحبها ؛ لأنه يكون انتفاعاً جرّه قرض ، وهو منهى عنه بالحديث «كل قرض جرَّ نفعاً فهو رباً» . أما الحنفية فقد جاء فى معتبرات كتبهم التصريح بجواز انتفاعه بها إذا أذن له صاحبها لانها ملكه ، وللمالك أن يأذن لمن يشاء فى الانتفاع بملكه . ويقولون : إن الانتفاع بالرهن انتفاع جره الإذن . ولم يجره القرض فلا يكون حراماً .

* * *

الإذن الصورى لا قيمه له فى رأينا :

ومادام كلامنا فى الحلال والحرام فالذى نراه أن هذا الإذن إن كان منشؤه محض التبرع المبنى على محبة مقابلة الجميل بالجميل ، وتبادل التعاون على الخير . حل للدائن أن ينتفع به . وإن كان منشؤه اضطرار المدين إليه دفعاً لضغط الدائن عليه وهو فى عسرة مالية يستحق بها المعونة من أخيه كان إذناً صورياً لا يدل على الرضا وطيب النفس .

. . . وإذن فلا يحل للدائن أن يستند إلى هذا الإذن الصورى فى استغلال حاجة أخيه المضطر المقهور .

ولاشك أن انتهاز فرص الضرورة ، لاستغلال المعدم ، هو الروح الخبيث الذى لأجله حرم الله الربا . . (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلَمُون وإن كان ذو عسرة فَنَظِرَةٌ إلى ميسرة) .

كيف وقد تمتد عسرة المدين الواقع فى الضرورة مدة تصل فيها منفعة العين المرهونة إلى أضعاف الدين المضاعفة ، يستغلها الدائن باسم الإذن القهرى ، مع بقاء دينه كاملاً على المدين ، وكثيراً ما خربت به بيوت وافتقر ملاك .

وفى الحق أنه إذا دار الأمر بين الانتفاع بالرهن على هذا الوجه ، وبين الفائدة للدين التى يسمح بها القانون [لا الشرع] كانت تلك الفائدة أقل ضرراً وحرمة من هذا الرهن الذى يجب منعه ، قطعاً لأطماع المستغلين لضرورات الناس . ومحافظة على بيوت المضطرين من الخراب .

وبما أن أكثر ما يجرى بين الناس الآن فى رهن الأرض هو من هذا النوع – الاستغلالى – فإنه ولا شك يكون حراماً ويمقته دين الرحمة .

فى كتب الفقه :

ومن قبل شكا العلماء فى مصر من انتشار هذه المعاملة المحظورة ، قال الصاوى من المالكية رضى الله عنه : « ومما عمت به البلوى فى مصر جميعها . حتى لم يقدر أحد من أهل العلم على رفعه . أن يبذل الرجل لآخر دراهم . ثم يأخذ منه أرضاً . زراعة أو حائطاً « بستاناً » رهنا ، على أن يزرع الأرض أو يأخذ ثمر الحائط ، مادامت الدراهم فى ذمة آخذها ، ثم زادوا فى الضلال إلى أنه إذا رد آخذ الدراهم مافى ذمته ليأخذ أرضه أو حائطه توقف معطيها فى القبول ، فتارة يشتكيه إلى أمرائها لينصروا الباطل ، وتارة يصالحونه على دفع شىء ليستمر على ذلك السنة أو السنتين أو الأكثر ، فإنا لله وإنا إليه راجعون » [1] .

وقال الدردير رضى الله عنه فى الشرح الصغير « مسألة رهن الأرض والحائط المسماة بين الناس بالغاروقة . وهى ممنوعة مطلقاً ولو شرط المنفعة فى مدة معينة ، لأنها فى قرض لا بيع ، ولا ينفعه أن يقول وهبتك المنفعة مادامت دراهمك علىّ ، لأنها حيلة باطلة عندنا ، وهى من الربا ، فيجب على واضع اليد على الطين فى نظير دراهمه الإقلاع عنه وتركه لصاحبه ، والاستمرار عليه محرم .

ولكن إذا دفع وزرع الأرض يكون الزرع له وعليه أجرة مثل الأرض لصاحبها ، فَيُقَاصِصُهُ بها من أصل الدين الذى عليه ، فإن كان يدفع الخراج للملتزم وكان قدر أُجرة الأرض لا يلزمه أُجرة لربها كما قدره الأشياخ » والله أعلم . .

عبد الحميد شاهين .

---

(١) من فتاوى الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

فهرس العدد

الموضوع	الصفحة
١ – عودة الروح إلى باكستان	
الدكتور عبد الودود شلبى	٥٧٧ – ٥٨٨
٢ – شعراء العجم فى مدح سيد العرب والعجم	
العلامة أبو الحسن الندوى	٥٨٩ – ٥٩٩
٣ – إلى أين يتجه الإسلام والمسلمون ؟	
العلامة أبو الأعلى المودودى	٦٠٠ – ٦٠٨
٤ – الهجرة النبوية فى ضوء جديد	
الأستاذ أحمد حسين	٦٠٩ – ٦١٦
٥ – مأساة المسلمين فى اليونان وأحوالهم فى يوغوسلافيا وتركيا	
اللواء أحمد عصمت محمود	٦١٧ – ٦٢٥
٦ – لا هو لحساب الإسلام ولا لحساب المسيحية	
الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة	٦٢٦ – ٦٣٨
٧ – مشكلة الهلال أليس لها من حل ؟	
الشيخ على حسن البولاقى	٦٣٩ – ٦٥٧
٨ – الفقه الإسلامى بين المثالية والواقعية	
الدكتور محمد مصطفى شلبى	٦٥٨ – ٦٦٢
٩ – فى مواجهة الإلحاد المعاصر «عقائد العلم»	
الدكتور يحيى هاشم	٦٦٣ – ٦٧٦
١٠ – الأزهر والسلام الدينى	
الدكتور محمد رجب البيومى	٦٧٧ – ٦٨٣
١١ – الردة والخوارج	
الأستاذ السيد حسن قرون	٦٨٤ – ٦٩٦

الموضوع	الصفحة
١٢ – مركز السنة الإسلامية فى التشريع الإسلامى	
الدكتور رءوف شلبى	٦٩٧ – ٧٠٥
١٣ – ابن الفارض سلطان العاشقين	
الدكتور سعد ظلام	٧٠٦ – ٧١٥
١٤ – نبى الإسلام فى مرآة الفكر الروسى	
التحرير	٧١٦ – ٧١٨
١٥ – الدين ضرورة بشرية	
الأستاذ زاهر عزب الزغبى	٧١٩ – ٧٣٢
١٦ – الأزهر جامعاً وجامعة	
الأستاذ محمد كمال السيد	٧٣٣ – ٧٤٦
١٧ – فلسفة القوانين	
عقيد شرطة فكرى الجوهرى	٧٤٧ – ٧٥٠
١٨ – من طرائف الشعراء الفتاك	
التحرير	٧٥١ – ٧٥٤
١٩ – تحقيق مشروعية القنوت فى الصلاة عند النوازل	
الشيخ محمد الطيب شورم	٧٥٥ – ٧٦٢
٢٠ – الفتاوى	
الأستاذ عبد الحميد شاهين	٧٦٣ – ٧٦٦
٢١ – القسم الفرنسى	
إشراف : الأستاذ زاهر الزغبى	٧٧١ – ٧٧٨
٢٢ – القسم الإنجليزى	
الأستاذ مصطفى جلال الدين	٧٧٩ – ٨٠٨

الى السادة راغبى الاشتراك فى مجلة الأزهر

عليكم الاتصال باشتراكات أخبار اليوم (توزيع الأخبار)

٣ (أ) شارع الصحافة — القاهرة

وفيما يلى قيمة الاشتراك للمجلة لمدة ١٠ أعداد سنوياً

أولاً : جمهورية مصر العربية

١,٥٠٠ (جنية وخمسمائة مليم)

ثانياً : دولة اتحاد البريد العربى الأفريقى :

٢,٧٠٠ (جنيهان و ٧٠٠ مليم) أو أربعة دولارات

ثالثاً : باقى دول العالم :

٨,٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ ثلاثة عشر دولار ، تسدد قيمة الاشتراك فى مصر نقداً أو شيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم . تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الأفريقية . والدول الأجنبية بشيك مصرفى مسحوباً على أحد البنوك العالمية لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم :

المراسلة على هذا العنوان

توزيع الأخبار ٣ (أ) شارع الصحافة — القاهرة

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع)

n'en reste pas moins que, depuis des sitècles, l'Imitation de Mohammed a été en Terre d'Islam, sous des modalités diverses, une des méthodes essentielles de spiritualité.

Voici donc ce que j'ai cru bon de proposer à nos lecteurs, en ces jours où le monde islamique fête l'Anniversaire du prophète; que ceux qui en ont la possibilité relisent la Vie du Prophèfe en méditant sur elle!

qui se manifeste sous différentes formes: le rejet des mensonges (ceux qu'on fait intentionnellement, en s'en rendant compte et ceux qu'on se fait à soi-même sans s'en rendre compte, par exemple en confondant l'illusion avec la réalité) l'amour de la vérité et de l'Intelligence sous sous ses formes supérieures...

Toutes ces vertus apparaissent donc en Mohammed comme étroitement liées les unes aux autres, comme fondues dans une Unité dont les noms que nous utilisons ne révèlent que des aspects; en effet, ce qu'exprime ce «faisceau de vertus», c'est que Mohammed a surmonté en lui les incohérences, les déchirements, les contradictions de l'homme ordinaire, guidé qu'il fut par une influence d'En Haut: il apparait comme un Homme unifié, vivant sur un niveau nettement supérieur à celui de l'homme ordinaire.

Si j'ose risquer cette alliance de mots, son détachement le lie à cette influence par un «esclavage spirituel (عبودية) fait de pauvreté totale (فقر) et d'effacement devant Dieu (on pourrait dire, au lieu d'«effacement»,«extinction», mais non «anéantissement», traduction pourtant courante,mais aussi confuse et équivoque que la traduction du terme sanskrit «nirvana» par «néant»; le terme arabe est: فناء)

Cet ensemble de vertus solidaires, qui peut mener aux formes les plus élevées de la contemplation pure,l'exemple du Prophète nous confirme qu'il est tout aussi bien, susceptible de mener à l'action, au sens le plus fort de ce terme, — c'est-à-dire à la réalisation, dans la vie concrète, dans le monde, d'un but volontaire conscient, ou d'une Mission.

Et se trouverait-il quelqu'un pour dire que le Prophète n'a pas dans les circonstances les plus difficiles, accompli sa Mission, faisant revivre sous la forme d'une «nouvelle» Religion la Religion éternelle,unifiant les Arabes dans un mouvement tendu vers l'universalisme, abolissant devant la Religion toute distinction de race, de classe ou de nationalité? et modifiant en quelques décades la physionomie d'une vaste partie du monde,de la Chine jusqu' à la Mauritanie, de l'Espagne jusqu'aux îles de la Sonde?

Ces indications, toutes fragmentaires qu'elles soient, font apparaitre, je l'espére, l'importance que peut prendre l'Imitation du Prophète, même dans les détails de la vie quotidienne: ces détails, orientés vers une perfection croissante, vers les plus hauts niveaux de sagesse et de sainteté, permettent au fidèle engagé dans cette voie, un rappel quasi constant, un RAPPEL qui l'arrache aux distractions, aux imaginations, aux bavardages, aux mensonges qui nous guettent de tous côtés.

Toutefois il est bien évident que le but de l'imitation du Prophète est de réaliser en soi, dans toute la mesure du possible, l'apparition des vertus de Mohammed, leur développement, le passage d'une moins grande à une plus grande perfection»,comme disait Spinoza.Il y a certes d'autres moyens de stimuler et de développer la vie intérieure, orientée vers la recherche de plus d'unité, plus de conscience, plus de capacité à réaliser les buts que nous nous sommes fixés; il

surer les forces et les faiblesses de l'adversaire. Quoi qu'on en ait dit, l'homme fut bon et généreux. A la prise de la Mecque, sa clémence fut plus qu'un acte politique...»

Nous voici donc arrivés à la générosité; reprenons, si vous le voulez bien, deux exemples marquants déjà cités. Le premier concerne le sort des prisonniers après la bataille de Badr. Il faut tout d'abord se souvenir que dans l'Arabie préislamique, il n'existe pas de conventions inter-tribales analogues à la Convention de Genève et autres conventioms internationales actuellement prisonniers de guerre; les Conventions internationales que nous connaissons actuellement remontent à moins d'un siècle et demi. Précisément. c'est le triomphe de l'Islam qui contribuera, dès le 7e siècle, à un meilleur traitement des prisonniers, du moins dans le monde musulman, — et ce, précisément en raison de l'imitation du Prophète, notamment de ses actes de clémence et de miséricorde en ce domaine.

On avait fait à la bataille de Badr une quarantaine de prisonniers; qu'en faire? Mohammed demanda l'avis de trois hommes éminents de son entourage; Omar et abd- Ubaida choisirent le massacre général, chose fréquente àl'époque en de telles circonstances; Abou Bakr pencha pour la clémence; et Mohammed se rangea à son avis. D'un côté, ceci peut apparaître comme plus politique;d'un autre côté selon la mentalité générale de l'époque, le massacre êut été une preuve de résolution, unedémonstration de force et d'intransigeance qui, du point de vue «politique», aurait peut-être risqué de porter plus de fruits.

C'est encore plus net à la prise de la Mecque, triomphe absolu et définitif de Mohammed sur ses adversaires de longue date; il annonce aux habitants que, la ville ayant été prise de force, ils doivent conformément aux usages, se considérer tous en état de captivité; mais immédiatement après cette déclaration, il leur octroie la liberté (c'est pour quoi les Mecquois sont souvent appelés, dans d'anciens livres, les «Relachés»).

Le détachement et la Maitrise de soi.

Ce qui donne à la force et à leur générosité leur valeur suprême, c'est de procéder du détachement: détachement du monde extérieur, détachement de soi-même, effacement devant Dieu. Etre détaché, en effet, ce n'est pas forcément, comme on se l'imagine parfois, se vouer exclusivement à la contemplation pure. On ne peut ětre fort, soi-meme, se consacrer avec toute l'énergie possible à la réalisation de son But, des vraies valeurs (en l'occurrence, pour Mohammed, sa mission prophètique) que si l'on est à l'abri de toutes les influences extérieures ou passionnelles; autrement dit, il faut être

MAITRE DE SOI.

La véracité.

Cette maitise de soi et la détachement qui va de pair avec elle se trouvent associés aussi à la véracité (صدق)

---

a) Le problème de Mahomet, Paris, 1952

dans l'abondance des richesses et des enfants; la vie de ce monde ressemble à une averse: les cultivateurs s'émerveillent de la végétation qui apparaît; puis les plantes se fanent, jaunissent.... elles deviennent sèches et cassantes...»

Cette reconnaissance du néant des «biens de ce monde» allant de pair avec l'évidence du néant de sa propre personnalité, c'est la vraie pauvreté, l'humilité totale, terrain sûr pour la Révélation qui descend dans cette terre vierge, «illettrée», apportant une Certitude sans appel, qui débouche sur les vertus complémentaires de générosité et de force.

L'emploi du mot «force», dans la langue française nécessite quelques précautions. Dans l'esprit de beaucoup de gens, le mot «force» est associé à l'idée de «force brutale», d'«agressivité» (la «force» qui «prime le droit») Aussi, bien souvent, est-il préférable d'utiliser le mot «énergie», qui ne suscite aucune association de ce genre.

C'est pourquoi d'ailleurs la traduction «Dieu n'aime pas les faibles» d'une Parole sacrée bien connue, a pu être mal interprétée; par «faibles», il faut entendre essentiellement les «tièdes», les «mollassons», ceux qui manquent d'énergie et de courage pour défendre les vraies valeurs.

Nous conserverons, dans ce qui suit, le mot «force», pourvu que sa définition soit bien comprise, en accord avec ce que nous venons de dire.

La force et la générosité — L'affirmation de la Vérité par la parole, par les actes, par le combat, c'est la vertu de force, cette affirmation doit se faire aussi bien dans le monde extérieur («petite» guerre sainte) que dans notre univers intérieur(«grande»guerre sainte). La Vérité est intolérante envers l'erreur, mais la tolérance à l'égard des personnes dans l'erreur est possible, et en général souhaitable ou nécessaire: elle est à la fois amour des autres efres et pardon, en un mot miséricorde. La générosité liée à la force enlève à celle-ci toute nuance d'agressivité.

La vie du Prophète témoigne de sa vertu de force, de son énergie toujours vivace au milieu des pires fatigues, des pires dangers, des complots, des trahisons.

«Ni l'indifférence, écrit l'érudit français Blachère, ni les blessures, d'amour-propre, ni le tort fait à ses intérêts matériels, ni les machinations ou les menaces, ni surtout les offres de compromis plusieurs fois présentées par les polythéistes ne purent le détourner de sa mission. Aux heures les plus graves — le Coran en témoigne — il sut conserver son sang-froid, ranimer les courages, fermer les yeux sur les défaillances légères pour mieux frapper la trahison. En vrai meneur d'hommes, il sut choisir ses conseillers, utiliser Ali pour son dévouement,Abou-Bakr pour sa pondération,Omar pour son énergie, Othman pour sa souplesse. Sans illusion sur les hommes, il n'omit jamais de leur rappeler leur devoir et leur mission. Mieux que personne aussi,il connut les vertus et les défauts de la nation où il était né. Cet inspiré, qui pas un jour n'a pensé réussir sans le secours d'Allah, savait cependant prévoir l'avenir, me-

Plutôt done que de s'attarder à «défendre» le Prophète contre des accusations puériles ou malsaines, dictées par la sottise, l'incompréhension ou le fanatisme, il vaut mieux essayer de caractériser les grandes vertus qu'il a proposées à notre imitation.

L'humilité.

Le sentiment qu'il n'est au départ qu'un homme comme les autres, un mortel égaré, lui est pour ainsi dire dicté par la Révélation:

قُل لآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ وَلآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِى مَلَكٌ

«Moi, je ne vous dis pas: je possède des trésors de Dieu: je ne connais pas les choses cachées; je ne vous dis pas que je suis un ange, je me borne à faire ce qui m'a été révélé..»

إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

«Si je n'obéis pas à mon Seigneur, je redoute le châtinent, au jour de la Terreur...»

إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ الذى حرمها ولَهُ كل شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ .

«J'aireçuordre d'adorer le Seigneur de cette Ville.... j'ai reçu ordre d'ëtre soumis et de réciter le Koran...»

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ

«Si je suis sur la mauvaise voie, c'est à mes dépens; si je suis bien dirigé, c'est grâce aux révélations de mon Seigneur...»

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَـٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَاسِ كُونُوا عِبَاداً لِى مِن دُونِ اللهِ

Et encore:

«Un mortel auquel Dieu a donné le Livre, la Sagesse et la Porphétie, il ne lui appartient pas de dire ensuite aux hommes: Soyez mes serviteurs et non pas ceux de Dieu...»

قُل لآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً

«Je ne vous demande point de salaire...»

Ce désintéressement, qui va de pair avec l'humilité, est confirmé par tout ce que nous savons de la vie du Prophète, de sa sobriété, de la frugalité ascétique de son existence quotidienne.

Quoi d'étonnant,puisqu'il avait transmis la révélation que voici:

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوٰلِ وَالأَوْلٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الحيٰوةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ

«Sachez que la vie de ce monde n'est que jeu,divertissement,vain décor,luttes de gloriole entre vous, surenchères

(universaliste) aux liens tribaux (particularistes). Il s'agissait d'une véritable révolution à réaliser, non pas dans une ville ou au sein d'une tribu, mais dans un grand nombre de tribus, fortement organisées au point de vue social et régies depuis des siècles par des us et coutumes qui avaient fait leurs preuves.

Venons-en aux reproches si souvent prodigués, de façon orduriére ou ironique,parfois,au nom d'un puritanisme militant dont on sait bien ce qu'il recouvre en général (impuissance, déviations ou complexes sexuels): Mohammed a eu plusieurs épouses... Le beau reproche... Rappelons que l'existence du Prophète peut se diviser, au point de vue qui nous occupe, en trois périodes:

a) jusqu'à vingt-cinq ans: une jeunesse marquée par l'ascèse, la méditation et la maîtrise des passions;

b) de vingt-cinq à cinquante ans: mariage avec une épouse unique, dont il a plusieurs enfants; ce mariage n'interrompt pas la vie d'ascèse et de méditation, qui, vers quarante ans, va prendre une nouvelle intensité (retraites dans la montagne, en solitude); ce n'est pas sa femme qui y trouve à redire: Khadidjaluiapportesurleplanreligieux et dans les épreuves qu'il subit (visions, interventions d'En Haut réitérées, stupeur d'avoir à penser qu'il a été choisi comme Prophète)(1) un réconfort et un soutien précieux, sinon indispensables.

Ce mariage fut donc remarquablement heureux; écoutons plutôt le Prophète lui-même:

(1) sans compter les dures et tragiques persécutions.

«Quand j'étais pauvre, elle m'a enrichi; quand tout le monde m'abandonnait, elle m'a réconforté: quand on me traitait de menteur, elle a cru en moi».

c) après cinquante ans, devenu chef responsable d'une Communauté de croyants qui l'appuie dans sa Mission Prophètique, confronté avec les conflits qui l'opposent à de nombreuses tribus arabes, Mohammed contracte au cours des années plusieurs mariages.

Autrement dit, trois formes de comportement sont proposés à qui veut imiter le Prophète en ce qui concerne la question du mariage; toutes les trois excluent licence, débauche, adultère, violence; la continence dans la jeunesse est d'ailleurs universellement recommandée par les grandes religions; la possibilité d'une union monogame parfaitement réussie est démontrée, ainsi que la possibilité et l'opportunité d'une polygamie légale dans certaines circonstances de la vie: faut-il rappeler aussi que les unions contractées après cinquante ans ont toutes, ou presque, un aspect «politique», au sens élévé du terme?D'ailleurs la vie conjugale,avec toutes les obligations que le Koran impose à l'époux n'excluait chez le Prophète ni les veilles, ni les prières, ni les jeûnes ni les mille fatigues et épreuves (guerre,diplomatie et services de renseignements, enseignement religieux, justice à rendre, conseils individuels, etc,etc...) auxquelles l'astreignait sa Mission sacrée

a) Ces mariages facilitent la réalisation concrète de la Mission prophètique, en évitant conflits et luttes sanglantes.

le Prophète «illettré», sa famille et ses compagnons, et donne-lui la Paix!»

Cette «Bénédiction» souligne implicitement certaines VERTUS de Mohammed: en effet le mot arabe (عبد) que j'ai traduit par «serviteur» s'applique à un serviteur qui ne possède rien en propre; ceci évoque la vertu de pauvreté (فقر) :la générosité (كرم) est la vertu de l'Envoyé(رسول compatissant et désintéressé); enfin le Prophète «illettré», c'est-à-dire «à l'esprit vierge» (libre de toute «passion» au sens classique du mot en francais, au sens du 17esiècle (a) a comme vertu la véracité (traduction qui nous semble préférable à celle de «sincérité», mot quelque peu usé en francais et, en tout cas, qui prête à équivoque: nous y reviendrons).

Avant de dire quelques mots sur ces vertus et sur leur fusion, chez Mohammed, entre elles et avec d'autres, fusion qui fit du Prophète un être harmonieux sur le plan intérieur, un être unifié, nous devons revenir sur les interprétations détestables auxquelles nous faisions allusion plus haut, et qu'on ne peut ignorer, hélas! parce que toute une propagande s'en sert, de nos jours encore, avec plus ou moins d'habileté.

Ceux qui soulignent la prétendue «cruauté», le prétendu «caractère vindicatif de Mohammed, s'appuient sur quelques exemples de fermeté et d'intransigeance, exemples qui ne manquent pas dans la vie des autres prophètes; le Christ, lorsqu'il chasse les marchands du Temple ne le fait pas au moyen de douces paroles, mais en renversant les tables et en donnant du fouet; l'Evangile ne lui prête-t-il pas les paroles fameuses qu'on traduit en francais,généralement,par«Je ne suis pas venu apporter la paix, mais l'épée»? mais les punitions qui attendent après la mort ceux qui ne peuvent échapper à l'implacable Justice divine n'ont rien de réjouissant, qu'elles soient décrites par tel ou tel prophète juif, ou évoquées par l'Evangile (la «Porte étroite», la Géhenne, etc...) ou par tels ou tels théologiens catholiques ou protestants....

En fait, de son vivant, Mohammed s'est vu plutôt reprocher par son entourage, ou par la masse des gens, sa clémence jugée souvent excessive, que ce soit après la victoire de Badr, après la prise de la Mecque ou en mille autres occasions.

Les cas de fermeté sans clémence sont rares dans l'existence du Prophète, — il serait anormal qu'il n'en existât point. La clémence n'est pas toujours possible. Mohammed devait accomplir sa Mission sacrée, et certaines formes de pardon pouvaient être interprétées, dans le contexte social de l'époque, (relations inter-tribales notamment) comme des faiblesses et des indignités. Mohammed a dû et a su punir en quelques occasions, sans aucune indulgence, des ennemis irréductibles ou des félons; rappelons que ces faits datent tous de l'époque où, devenu chef d'une communauté, il lui fallait, pour obéir aux ordres d'En Haut, substituer dans l'Arabie du 7e siècle le lien religieux

a) c'est la «pauvreté» sur le plan spirituel, dont parle l'Evangile: «Bienheureux les pauvres en esprit»

A propos des Vertus du Prophète par Moustafa Djellaleddine Daumal

L'homme êst un efre limité. Cette limitation humaine a trouvé une conciliation avec l'immensité divine dans la personne des grands Prophètes, et en particulier du Prophète de l'Islam, car, si Mohammed est le «Sceau de la Prophétie», cela signifie qu'il synthètise en lui tout ce qui, dans le domaine prophètique, a précédé son existence terrestre.

Or, des personnes mal informées ou de mauvaise foi, au nombre desquelles beaucoup d'orientalistes, athées ou non, aux prétentions «scientifiques», commettent, volontairement ou non, le plus grave des contre-sens à propos de ce qui fait la «limitation» humaine du Prophète; leur interprétation, négative, les conduit à souligner ce qu ils appellent les «faiblesses» de Mohammed : sa «cruauté» en certaines occasions, son «penchant pour les femmes» J'ai même lu dans la bibliothéque d'une «communauté» qui m'avait autorisé à y faire des recherches (et ce, dans la capitale d'un pays arabe) un document intitulé «Conduite à tenir envers les musulmans en pays islamique» et qui donnait comme conseil fondamental: «devant les musulmans, manifestez un respect constant pour le Koran, mais cherchez à critiquer leur prophète...»

Une telle interprétation pourrait pousser certaines personnes à ne pas attacher à la méditation sur la vie du Prophète et à son Imitation l'intèref fondamental qu'elles méritent. Pourtant un hadith célèbre déclare: «Nul ne rencontrera Dieu s'il n'a d'abord rencontré le Prophète» et la Livre Saint nous dit:

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَٰأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

«Oui, certes, Dieu et les Anges bénissent le Prophète O croyants, bénissez le Prophète et faifes-lui la Salutation» Ce verset est le fondement de la »Bénédiction du Prophéte» (Parfois appelée en français «Priére sur le Prophète», expression incorrecte): cette «Bénédiction» joue un rôle important dans l'Islam, aussi bien exotérique qu'ésotérique:

«Dieu, bénis notre Seigneur Mohammed, Ton serviteur, Ton envoyé,

---

a) C'est-à-dire, ditês «La Paix soit sur lui», formule de respect.

storing etc... all of whom should be remunerated generously so that they accomplish their duties to the letter and feel no temptation towards dishonest behaviour.

(3) One part for those whose hearts are to be reconciled Those are four categories:-

(a) Those who are reconciled to help Muslims

(b) Those who are reconciled to avoid their evil actions against Muslims.

(c) Those who are reconciled to persuade them to embrace Islam.

(d) Those who try to spread the call for Islam among their people.

(4) One for liberating slaves. It is to be paid to those who liberate their slaves, and it may be used to buy slaves and then to set them free.

(5) One for the indigent either because they had debts which they had paid off, and so became poor, or else because they are unable to pay their debts.

(6) One for the cause of God, which was given to the Mujahidin warriors, for their equipment and according to their need, it was also distributed to pilgrims to the Holy Shrine who were short of money to terminate the rites. — In the Tafsir of Fakhr Al-Razi' this share was to be distributed in all charitable or useful purposes such as providing shrouds for the dead, erecting strongholds and mosques, etc., because the expression of 'for the cause of God' is unlimited. Again, Al-Qadi Abu Bakr ibn Al- 'Arabi from the Malki rite wrote in his book, Ahkam Al-Quran that 'for the cause of God' holds many interpretations and may even include conquests.

(7) One for the wayfarer — i.e. one who is away from his home and is short of money though he may have wealth there. His temporary indigence should be attended to until he goes back home.

(8) One for the 'faridah' i.e. any duty that man has to perform in the service of God but is unable to do so.

God Almighty is Omniscient and Wise. He knows best the condition of His subjects, and wherein lie their interest. The laws He sets are intended to purify their souls and lead them to piety and gratitude towards Him.

fifth of this quantity is subject to the ghanaem taxation, (not the Zakat funds).

Metal dust is not subject to Zakat; but pure gold, silver, iron and copper and lead, are subject to one fifth taxation — Expense paid for digging out metals are not subject to Zakat. Other stones such as rubies, turquoise, kohl, mercury, sulpher, if dug cut, are not subject to taxation.

Al-Rikaz

are subject to one fifth taxation. Any mines discovered in non-owned property, are subject to one fifth taxation; the one who discovered it taking the remaining four-fifths since this tax falls under the regulations of Al'Ghanaem.

In the book 'Al-Ahkam Al-S ultaniah' by Al-Mawardy, Al Rikaz is defined as any discovered wealth which was buried and was of the Jahiliyah type, in unoccupied land or a beaten track, and the discoverer paid one fifth of it as taxation.

If it was discovered in someone's property, the discoverer has no right to it and consequently paid no taxes for it. If something were discovered buried — and was of the Islamic type — it was considered as a 'find' and should be made known so within the current year, otherwise it becomes the property of its owner if and until its owner claims it.

Alms-Giving

Concerning alms giving, Abu Youssouf asked Al-Rashid — Amir Al-Mu'menin — to choose an honest and reliable man and put him in charge of collecting almsgiving throughout the Muslim state. The latter was to enquire about alms collectors, their doctrines mode of living and integrity and put them in charge of collecting alms from other countries and hand them over to him.

Alms collecting should not be left in the hands of Kharaj collectors since the two funds are to be left separate, and because it was rumoured that the tax (Kharaj) collectors treated people harshly and unfairly. Besides, Al-Kharaj is to be distributed to all Muslims while alms go to those mentioned in the Quran.

The Quran state clearly how the Zakat should be distributed: «Alms are only for the poor and needy, and those who collect them and those whose hearts are to be reconciled, for those in bondage and those in debt and for the cause of God and for the wayfarer: and ordinance this from God, for God is knowing, wise.» (Al-Tawbah, 60).

From the above verse, we can see that the Zakat is divided into eight shares through which it may be distributed. The Prophet himself mentioned this fact to someone who was asking for alms, He said: God has divided alms into eight shares if 'one' of these apply to you, I shall give you your share in it.

These eight shares were:-

(1) One for the poor and destitute, in equal shares, so as to avoid envy and hatred among them.

(2) One for those who worked in activities connected with alms collection such as statistics, recording, collecting,

It is not limited, either, but is left as in the case of Al-Fai, to the efforts of the Imam.

Al-'Ushur
(The tenth)

In his book about Al-Kharaj, Abu Yousouf relates what he heard from Assem Ibn Sulaiman from Al-Hassan. He says: «Abu Moussa Al-Asha'ri wrote to ' Omar Ibn El-Khattab saying: «Some of the Muslim merchants who go to Daru Al-Harb have to pay one tenth to its people.» So 'Omar wrote back: «Do take from them as they take from Muslim merchants. Take from Zimmis half the tenth; from Muslims one dirhem to every forty. Below two hundred dirhems take nothing. To each two hundred levy five dirhems and so on, prroportionally.»

Such was the tradition under the rule of 'Omar. The tax collector stood at the entrance of the merchants route for importation or exportation. The Muslim merchent paid one quarter of the tenth of his Zakat. The Zimmis paid half the tenth. Warriors were treated on the same basis as their people, paying either one tenth or half a tenth, or a quarter of a tenth. In case they ignored the amount paid by their people, they were charged one tenth.

Again, Yehya Ibn Said said that when Zuraiq Ibn Hayyan, was a customs officer in Egypt he received a written message from Omar Ibn Abdel-Aziz saying: «Check on Muslims who pass by you and collect the tax due on the money and goods that they carry. Calculate one dinar to every forty until you collect twenty dinars. In case they do not have a large enough capital on which you can levy twenty dinars, then leave them alone. When A Dhimmi (a non-Muslim living under the protection of a Muslim State) pass levy twenty dinars, then alone. When a Zimmi trader a non-Muslim living under the protection of a Muslim State) Passes by you, take from him one dinar for every twenty; in case it is less, let it be according to that rate, until the total comes to ten dinars; then leave it without levying anything. In both cases write a receipt for what you take from them during the year»

Metals

Metals belong to the category of seen praperty and opinions differ as to the application of Zakat on them. Abu Hanifa imposed it in all minted silver, gold, brass and copper, and excluded its payments on stones and non-minted metals. Abou Youssouf imposed it on metal used in transactions such as jewelry for example.

According to Al-Shafe'i, Zakat was imperative on Gold and Silver, If after melting the value of the metal carry up to the minimum required for the applying of Zakat, three proposals were submitted: (a) one quarter of the tenth was collected on silver or gold. (b) one fifth just like the Rikaz. (c) a quarter of the tenth on large quantities, or one fifth on small quantities. The Zakat in such cases is paid only once, not annually. If a man lays hand on some metal weighing below two hundred dirhems in silver, or below twenty mithqals in gold, one

enjoining fighting the people of the scripture; it implies the duty of fighting, whenever there is a necessity for that, as in case of aggression, or sedition, endangering public safety etc., (which were all causes that led to the battle of Tabuk). The verse recommends fighting and imposing a tribute upon the enemy within the limits of justice. After the victory and the collecting of the tribute, the enemy should be given the right for protection and peace. In case they embraced Islam, they were treated on the same footing as Muslims.

Scholars unanimously agree that Al-Jizyah may be imposed upon the non Arabic speaking people of the Book, fire-idolaters. Traditions mention that 'Omar did not impose it upon the latter until one of them joined the Muhajerin, then he said: «Treat them as the people of the Book, because they behave like them». (related by Abdel-Rahman Ibn Auf.) — Again Ibn Shihab relates that the first to pay the Jizyah from amongst the people of the Book were the people of Najran, who were Christians; also the Prophet accepted the Jizyah from the people of Bahrain who were idolators; after the battle of Tabuk the people of eylah and Adhroh also paid the Jizyah to the Prophet, and when Khalid Ibn El-Walid was sent by the Prophet to Dawmat Al-Gandal, he captured their leader 'Okaider' and they offered to pay the Jizyah.

The amount of the Jizyah is not definitely stated; Malik believed in following the regulations which were first set by Omar that is four dinars from gold owners, forty dirhams from silver owners, giving employmet to Muslims, and offering them hospitality for three days. El-Shafe'i stipulates a minimum of one dinar, the maximum however is not limited but is fixed according to terms of agreement. Al-Thawry and others believed in no limitation at all and left it to the efforts and ability of the Imam.

In fixing the amount, opinions differ in this respect; the fairest proposition was that which was made by 'Al-M awardy' in the book Al-Ahkam Al-S ultaniah' in which he set no limitations one way or another but left the decision to the Wali within the rules of fair play and justice.

Traditions relate that the Prophet said: «Whoever ill-treats an ally or asks him for anything beyond his capacity, is my enemy.» Before dying, 'Omar recommended their protection. Abu Bakr relates an incident about Omar Ibn Al-Khattab who having come across an old Jew who was blind, begging. sent a messenger to 'Bait El-Mal' to come to the old man's help saying: «Help this man and those like him. We would not be just if we were to employ him in his youth and let him down when he is old and helpless.. Alms are for those in need, be they Muslims or from the people of the Book, Exempt him from the Jizyah». Abu Bakr states that he was present and saw the incident.

Al-Jizyah was due at the end of the year, and not applied upon those who embraced Islam, Only freemales paid it, but the insane, the invalids the needy, aged people and the ascetics were exempted from it.

unbelievers through peaceful means was called fai, such as the tenth imposed on commercial transactions, the tributes, etc., one fifth went to the Prophet and four fifths to the Treasury. The share of the Prophet was divided into five equal parts one for him: one for his relatives, one for the orphans, one for the needy muslims and one for the needy non-m uslims, «What God gave as spoils to His Apstole of the people of the cities is God's and the Apostle's and for kin-sfolk, orphans,the needy and the way-farer».

Opinions differed as to the use of the share of the Prophet after the Prophet's death. Abu Thawr proposed that it should go to the Imam since he takes charge of the duties of the Prophet; El-S hafei' decided that it should be reserved for the defence of the state and public utilities, i.e. maintenance of the army, strong-holds, bridges, etc. The second fifth (that went to his relatives) was subject to controversies: Abu Hanifa stipulates that heirs had no right to it while El-Shafe'i said that they may inherit it. The thrird fifth went to orphans and the poor. The fourth went to the needy unbelievers (fai people). The fifth went to wayfarers.

The remaining $\frac{4}{5}$ of the fai tax were subject to controversial opinions. Some proposed that the tax should be reserved for the army; the others believed that it should be spent for the maintenance of public utilities. The Imam being at liberty to give part of it to those whose hearts are to be reconciled to Muslims.

Al-Ghanaem
(Booty)

The Ghanaem were divided into five partsp $\frac{1}{5}$ went to the Prophet and $\frac{4}{5}$ go to the Treasury. The share of the Prophet was divided according to the instructions of the Quran: «And Know that whenever ye seize anything as a spoil, to God belongs a fifth thereof, and to his Apostle, and to kindred and orphans, and the poor and the wayfarer; if ye believe in God and what We have revealed unto our servants on the day of the Discrimination, the day when the two parties met; and God is mighty over all» (Al-Anfal, 41).

The share of the Prophet in his life- time was divided into $\frac{5}{5}$; $\frac{1}{5}$ for the Prophet, $\frac{1}{5}$ for relatives $\frac{3}{5}$ for the orphans, the poor and the way-farers. After his death, Abu Bakr, Omar and Othman divided the share of the Prophet and his re-latives into three thirds; Ali Ibn Abi Taleb approved of this arrangement and followed it.

Al- Jizyah
(Tributes)

Al-Jizyah was a tax levied on in-dividuals, not on land. As stated in the Quran. «Fight those who belirve not on God nor the Last day, Nor hold that forbidden which hath been forbidden by God and His Apostle, nor acknowledge the Religion of Truth, (even if they are) of the people of the Book, until they pay the *jizya* with willing submissionn, and fell themselves subdued.» (Al-Tawbah, 29).

It is the verse that came down

cause capital, in the form of goods is subject to Zakat from the first year on and suspending its payment for a longer time gives no excuse for exemption during the following years. Commercial transactions, land, goods subject to weight or measures all come under the same rule and may be added to each other to answer the required value for the payment of Zakat.

Land Taxation.

Al 'Kharaj' or land tax is levied on cultivated land or on its products. This kind of land is known as Kharajia, to be distinguished from the land called 'Ushuriyah' i.e. that it is subject to one tenth (or one twentieth) taxation.

Taxation on the Kharaj land is estimated in proportion to its area or its products, the Imam deciding the estimation. Subject to such regulations is called Kharajiah and the tax levied is added to the Fai (money collected from unbelievers, by peaceful means) and is distributed according to its proceeds, while the tenth and the twentieth taxation is subject to the Zakat proceeds and is distributed accordingly. All Kharaj, and Al'Ushur are both land taxes.

Al Kharaj was first imposed by Omar Ibn Al-Khattab. He levied — after taking the advice of the Muhajerin and the Ansars — 'Al-Sawad' land when its owners refused to pay their dues willingly. This measure came to be considered as 'Sunnah' and adopted wherever Muslims settled.

He also imposed the Jizyah on non-Muslims which was to be distributed as 'Fai' among Muslim warriors and their heirs after them.

There are two forms of Kharaj:

(a) Paying a share of the products of the land, the Imam estimating it not below the fifth or above half the yield.

(b) Paying fixed annual dues estimated on a certain unit of land (the unit in Egypt being a feddan).

The annual tax in 'ushur was leviel on land only, not on its products; it was levied only once every year even if the land yielded more than one crop during that year. It also varied according to the various crops. The tax levied on cereals was different from that levied on vinyards. 'Omar ordered Othman Ibn Hunaif to survey the land and submit his report to Omar, which he approved and signed.

In Syria, however, the estimation was made on a different basis Each property was estimated according to the capacity of its yield, not the extent, of its area.

Three points were taken into consideration:-

(a) The quality of the land

(b) The kind of plantations — whether fruits, cereals etc..

different yield having defferent prices.

(c) The mode of irrigation — whether by rain, by water—wheel or other means.

To sum up, when estimating the Kharaj in Syria three points were to be taken into consideration: The quanitiy of the yield, the kind of products and the mode of irrigation.

«Al-Fai»

Any sum of money, collected from

merce, if they are not spent within the year no Zakat, since the Zakat on silver and gold is due annually. Daoud exempts commerce from Zakat and differs in this respect from the majority, El-S hafei exempts silver and gold jewelry from Zakat, so does the Malik doctrine.

In his book: 'Bedayat Al-Mujtahed' Ibn Rushd states: «.. People differ upon the application of Zakat on certain things. It is generally agreed that silver and gold not in the form of jewelry are subject to Zakat. In the opinion of Malik, Al-Laith and Al-Shafei, gold used as ornament is exempted from Zakat, but Abu Hanifa disagrees with them in this respect. The cause of the disagreement is due to the difficulty of deciding the real purpose for which this precious metal is actually used: ornament, or financial dealings? Malik considers even jewelry a means of financial exchange in some cases and subject in such conditions to the payment of Zakat.

In the book of 'I' lam Al-M uwaki'een, Ibn El-Qayyim states: «Gold in the form of jewelry is comparable to clothing and consequently, not subject to Zakat. During the Prophet's lifetime women wore jewelry, and sometime gave it away as charity. It was also sold in time of need, definitely not according to the legal weight, which would have been indiscreet»

In the book Amwàl, by Abu 'Obaid, there is, again a difference of opinion concerning the Zakat on jewelry, due to a story related by 'Amr Ibn Shu'aib, about a woman from Yemen who called on the Prophet, accompanied by her daughter; the latter was wearing two gold bracelets. When the Prophet enquired whether she pays her Zakat on the bracelets, she answered that she did not; so the Prophet told her: «Do you want God to put bracelets of fire on your hand?» Commenting on the above story, Abu 'Obaid says that the story is not necessarily authentic and may be a mere interpretation of an incident that took place in the past. However, should it be true, the only implication is the Prophet considered the bracelets as 'seen property' (as explained by the 'Ulema': Said Ibn Al-Musayyab Al-S ha'bi, Al-Hasan and Qatadah.

If jewelry had been subject to Zakat, the Prophet would not have singled one woman out of the rest who wore jewelry. On the whole, Abu 'Obaid favours the idea of exempting jewelry from Zakat.

5. Zakat and Commercial Dealing

In general, the majority of Imams agree that Zakat is imposed on commercial dealings in goods worth from 200 dirhems or twenty gold mithqals upwards. According to the Zahirites, it is not imposed at all in such cases.

It is paid annually, provided the goods are ready for commerce. Malik stipulates that goods sold are subject to one year's Zakat even if they remain a number of years in the possession of the proprietor. If part of the goods are sold during the year, their value is to be taken into consideration, if it should complete the required value for the Zakat by the end of the year. Malik's viewpoint, however, is not sound be-

are taken into account by themselves in the calculation of zakat. The same is applied to vine trees; dates and grapes may not be weighed together. In case the dates overripen into 'Tamr' and the grapes turn into drying raisins, no zakat is collected until both fruit are completely dry. In case they are picked when still fresh, one tenth of their price is collected from the sale.

3. Zakat on Agricultural Products

Abu Hanifa ordains zakat on all aspects of agriculture. According to el-Shafe'i the zakat is imposed on the *surplus* agricultural food products *only*, and it must not be collected on cereals and vegetables, nor on non-edible plants as cotton and flax, nor on plants that grow in valleys and mountains, whcih plants he limits to ten kinds: wheat, barley, rice, maize, beans haricots, chick-peas, lentils, dukhn and gulbane.

The zakat is not imposed upon agricultural products until they are ripe and fully grown, threshed and sifted, and weighing five «wassaqs» although Abu Hanifa leaves out the condition of weight and imposes it on any quantity at hand, should the plants be cut while still young no zakat is imposed. If the land owned and planted by a Zimmi, it is not subject to either tithes, or land tax according to el Shafe'i while Abu Hanifa stipulates that he should pay the tax even if he embraces Islam. On the other hand, Abu Yussef insists upon the double of sum which a Muslim would pay under similar circumstances, but Muhammad ibn el Hasan and Sufyan al Thawri impose the same zakat upon either Muslim or Zimmi.

A Muslim who plants Kharaj land gives one tenth of the product as zakat plus the tax on the land, (el Shafe'i). Abu Hanifa, however, stipulates that the land tax only is required. When land is rented and planted, the land tax is paid by the lender and the tithes are paid by the tenant, Abu Hanifa stipulates that one tenth of the product is paid by the tenant; these three being «seen» property.

4. Zakat on silver and gold

Both silver and gold are unseen property and one quarter of the tenth of their value is required as zakat according to the Prophet.

Below (200) two hundred silver dirhems (as set by Islam) no zakat is imposed. The zakat required of 200 dirhems is five dirhem, the amounts exceeding 200 dirhems are calculated on the same basis. Abu Hanifa stipulates that one dirhem is to be added as zakat for every forty exceeding 200 (two hundred dirhems). The same rule applies to both 'paper' or silver money.

Below twenty (Islamic) mithqals no zakat is required; the percentage of twenty mithqals being a quarter of the tenth i.e., half a mithqal. Any amount exceeding twenty mithqals are calculated on the same basis. The same rule applies to ingots or minted gold. Silver is not to be added to gold, each being calculated by itself.

A regards profits accruing from com-

cow and one suckling Every eighty require two (2 years old) cow and every ninety require three suckling. Every one hundred and ten require two cows; for every one hundred and twenty the bbenefactor may choose between the (previously mentioned) rule applied to the two hundred camels i.e. four sucklings, or three (2 years old) cows, and so on. Every thirty require one suckling, and every forty require one cow.

The Sheep Zakat: It starts with foryt heads for which it requires one (three years old) sheep, up to one hundred and twenty. From one hundred and twenty one to two hundred it requires two sheep. From two hundred and one up to four hundred, it requires three sheep. Above four hundred, four heads are required; then for every one hundred above the four hundred, one sheep is required.

Lambs may be added to goats; water buffaloes to cows; bakhati, to the erab, since they belong to the same species. However, camels are not added to cows, nor cows to sheep, because they belong to different species.

The Cattle Zakat is Two fold:

1. The animal may either be, grazing in pastures so that it saves forage expense and its owner can in the meantime benefit from its milk and butter, or else it may be working in the fields in which case both kinds are excluded from zakat.

2. The animal should be one year ols so as to be ready for fertilization since the Prophet has said: «No zakat before reaching one year of age.»

The lamb may be offered as zakat even in case it is born before its bearer (mother) is one year old. Horses, mules and donkeys are barred from zakat although Abu Hanifa allows one dinar for every mare. Again, mentioning what the Prophet has said. «I exempt you from the zakat over horses and slaves».

2. Date Palms and Fruit Trees as Zakat

Abu Hanifa ordains the zakat on dates and all kinds of fruit while el Shafe'i insists upon and grapes in particular and leaves out the rest (to personal choice).

The Zakat on fruit is subject to two conditions:

a) It should be edible and in good condition. In case the fruit is picked before being ripe, it is no more fit for the zakat, and it is objectionable to act in such a manner so as to avoid the payment of zakat.

b) According to el Shafe'i fruit is not to be offered as zakat in case the product is below five «Wasq» in weight. (The wasq = 60 sa', and the sa' = 5.33 Iraqi 1b. in weight).

According to Abu Hanifa, Zakat on fruit is acceptable whether in large or small quantities; but he forbids settling the price of fruit by its owner, befor it is ripe while el Shafe'i allows it. At any rate, both the palm and vine trees are not to be evaluated before the fruit is ripe.

The zakat should equal one tenth of the product in case th plants are irrigated by running water, and it should equal half this amount when the plants are watered by hand etc... All palm trees

Zakat is due on funds reserved for investments either on the capital itself, or the capital plus its dividend and is to be used either directly, or for the purification of both its owners and participants.

There are two types of zakat: the seen and the unseen. The first type, I.e. the seen, is obvious and cannot be hidden such as plants, agricultural products, cattle etc. The unseen consists of that which, could be hidden, such as gold silver commercial transactions, etc. The supervisor over the zakat funds has no claim upon the unseen property. However, those who possess it ought to take their responsibility of their own accord in which case the supervisor should accept it and help them to distribute it as they wish. The supervisor of the zakat funds should order the payment of the zakat by those concerned (the wealthy citizens), and he is usually faced by two propositions if he wants to be fair: 1. He enforces the law and assumes the right to interfere in the distribution of the zakat without referring to the opinion of the giver. 2. He collaborates with the giver who responds willingly and gives his leave to distribute his azkat as he sees fit. Nevertheless, in both cases he has the right to fight the givers who refuse to comply with the strict regulations of the law just as Abu Bakr el Seddiq did, because the dissenters in such cases are sinners against the shar'a. However, Abu Hanifa is against the idea of fighting in case they offer to pay themselves their zakat.

There are four sources for the zakat: 1. Cattle 2. Trees 3. Agriculture 4. Silver and gold.

Starting with the first: 1. *Cattle a zakat.*

Cattle as zkat comprise camels, cows and sheep.

The camels' zakat starts on five heads, and should it reach nine heads it requires either a she lamb 3 years old, 3 years old, or two goats. From ten up to fourteen heads, two sheep are required. From fifteen to nineteen, three sheep are required. From twenty to twenty four, four sheep are required. From twenty-f ive up to thirty-five, the sheep are excluded and replaced by a three years old camel. From thirty six upwards, a two years old camel is required.

Consequently, the increase in the number of cattle is followed by changes in the species offered as zakat, so that when the zakat is required for two hundred camels, the giver may choose one of two conditions: 1. He may offer four medium size camels. 2 He may offer five camels just above one year old, and so on, provided that every additional forty camels require a one year old head, and every additional fifty, require a medium size camel.

The Cows Zakat. It starts with thirty heads and requires one male suckling. Up to forty, one (2 years old) cow is required. Over forty cows, as el Shafe'i stipulates, no substitutes are allowed until they reach sixty in number, in which cse two male sucklings are required. Over sixty in number, every thirty cows require a suckling, and every forty require a (two yeares old) cow, so that every seventy would require one

FINANCIAL RESOURCES IN ISLAM

By

His Eminence The Late Sheikh Abdel Rahman Hasan

Member of the Islamic Researches Academy

IN THE NAME OF GOD THE MERCIFUL, THE COMPASSIONATE

The financial resources in Islam are the total sum of what is collected in 'Bait el Mal' (Islamic Treasury) the revenue of which derives from the taxes paid therein in the form of zakat (almsgiving) in its various phases: al Kharaj, i.e. land-tax; al'ushur, i.e. tithes; al jizyah, i.e. tributes; al ghanaem, i.e, booty.

Starting with the zakat which is the third principle upon which Islam is based, we note that it is an essential condition for the purification of the soul from the evil of avarice. It is ordained by the Quran, the Sunnah and scholars; the general tenor being that every Muslim who is of age, free, sane, and owns property subject to azkat, should pay it. Nevertheless, the Sahabah, the disciples and some others disagreed about exempting the orphans, the insane, peoples of the Book and those who do not own property subject to zakat, or are in debt. They also questioned the fact of considering it a form of worship like prayer and fasting, or to look upon it as a rightful share of the poor and needy in the wealth of the rich.

In point of fact, the Zakat is a religious duty the rules of which were set by Islam for the purpose of solidarity and charity since the poor are entitled to be helped by the wealthy in order to safeguard them from want and need. Islam clearly insists upon the levying of zakat, and Abu Bakr fought those who failed to abide by it. He said in this connection «By God! they withhold but the tether of a tithed camel, used to restitute to the Apostle of God, I will fight them for it».

Islam has set the regulations for the zakat and clearly stated its amount and terms of payment so that the wealthy would realize that they are mere guardians of their own wealth and should use it to help the poor. So, as Ali said: «God has ordained the rich to give the poor according to their need; in case the latter starve or go without clothing; or get exhausted the rich are held responsible for their suffering and God will judge them on the Day of Judgment.»

ownership and give rulings which are almost identical, in varying degrees.

To sum up, we can safely say that Islam, as demonstrated in Traditions, legal deductions, recorded sayings; positively establishes the right of individual ownership of land and other kinds of property. Moreover, it clearly defines the rights of all beneficiaries (owners, lease-holders, usufructuaries, etc...) and by such clear-cut definitions secures and guarantees the right of each individual.

LOVE OF GOD

By the light of the moon,
My friend,
Lend me thy pen,
to write a word;
My candle is out,
I've no more fire,
Open your door to me,
For the love of God.

his character or religion; but I am afraid that something may happen to me contrary to Islam, on which account I wish to be separated from him» The Prophet said: «Will you give back to Thabet the garden which he gave to you as your settlement?» She said, «Yes».

This proves that the garden, which was a cultivated land, was used as a dowry and as a compensation for Khol'a divorce. The wife owned it through the marriage contract, and had the right to dispose of it as a compensation.

In the following we quote some certain rulings of the jurists of the four Islamic rites in respect of the indiveduals' ownership of land and its benefits. And it is note-worthy to state beforehand, that all these rulings were deduced and derived from the traditions of the Prophet and the recorded sayings of the Companions and early jurists.

On P. 9 Vol Iv of Zela'ai's 'Sharh El-Kanz' The buildings and keys are tacit by included in the belongings of the house sold, so are the trees on selling a piece of land, and there is no need to mention them.

With respect of the «Right of pre-e mption», Kasani's «Bada'i» P.4, Vol V states: The right of preemption is established throught three cases: Partnership in the property sold; partnership in the right of ownership (the right of usufruct or ownership of the benefit), and neighbourhood.

P. 120 (Vol. VI (ibid) states with respect to the feasibility of granting property which is commonly owned: The common ownership of property does not negate one's right to grant, since the act of granting itself derives from the right of ownership. Hence, it is permissible to grant what is commonly owned as it is permissible to sell it.

As regards Muzara'a (employing a person to irrigate, plough and serve one's land), P. 125 (ibid) states: Muzara'a provides that the landowner gives a certain portion of the yield in return for the services of another person whom he employs to irrigate, plough and cultivate the land. But when the person employed provides the seeds. Muzara'a becomes a kind of land lease by which the lease-holder is entitled to benefit from the yield through mutual agreement with the landlord.

P. 122, Vol. VI (Ibid) describes the various kinds of land. Land is primarily of two kinds: land which is owned, and land which is common, namely, not owned by anyone. Owned land are under two categories: used and unused (waste). Similarly common land is of two kinds: being either a public utility from which people benefit, or a dead land which is not used.

The section dealing with «Wakf and Sadakah» P. 218. Vol Vi (ibid) states: There is general agreement between jurists that 'wakf' is permissible and that the beqeuather (Wakif) has the right to give the yield of his bequeathed property as alms.

Again, P. 262, Vol. VI (Ibid) speaks of the right of ownership and states: The owner enjoys an exclusive right to benefit and dispose of what he owns...

Other schools, other than the Hanafi School, touch upon the same rights of

off pieces of land unlawfully is considered one of the great sins. On the other hand, when one owns a piece of land he has a right to the whole of it, even to what lies beneath and what it contains (stones, metals, etc...) others have no right to dig a tunnel or a well in it, without his own consent.

Ashàth Ibn Kais relates that two men, one from Kindah, the other from Hadramaut, came to the Prophet. The one from Hadramaut said, «O Messenger of God! This man and his father have usurped my land», the one from Kindah said, «O Messenger of God! It is the land inherited from my father». Then the man from Hadramaut said, «Let him, O Messenger of God, swear that he does not know that it is my land and my father's land usurped by his father.» The Kindi was about to swear when the Prophet said, «He who claims ownership of a land only by swearing will face God at Judgment Day a leper.» Here the Kindi said, «O Messenger of God! It is his land, and his father's.

The section which deals with Shufa'a (the right of preemption), PP. 280-284, Vol. V «Nayl Al-Awtat» states: According to Jaber, as related by Muslim, Nasa'ai and Abu Daoud, the Prophet established the right of preemption for partners and neighbours alike. He ruled that a person could not sell his share in a property without taking permission from his partner; should he fail to do so, the other partner had the right to buy the share in question, with or without the consent of the first partner. This rule applies also to the neighbour. Al-Shareed Ibn Sowaid relates, «Once I said to the Prophet «O Messenger of God! What do you say about a land which is not subject to partnership or to division, except neighbouring lands?», he said, «The neighbour has the right of preemption».

Further quotations in this section show positively that the right of pre-emption is established through three cases: partnership in ownership, partnership in the rights of ownership (such as water and free passage), and neighbourhood. Any of these suffices to establish the right of pre-emption.

The section dealing with 'Donation', P. 8 Vol. 'Nayl Al-Awtar'. states: «No'man Ibn Bachir relates that his father once took him to the Prophet and said, «O Messenger of God! This is my son, I have donated him one of my slaves. The Prophet then asked him, «Have you done the same to the rest of your chidren?» My father replied in the negative; then the Prophet said, «Take the slave back.»

Again, Jaber related that a man from the Ansars donated a garden of palm trees to his mother, to benefit from it throughout her life. Upon her death his brothers claimed their right in the garden, but he refused. They consulted the Prophet who divided the garden among them. This shows that the act of donating established a right of ownership for the mother.

The section dealing with Khol'a divorce, Vol. VI, «Nayl Al-Awtar» relates: The wife of Thabet Ibn Qais came to the Prophet and said, «O Messenger of God, I am not angry with Thabet for

states: «According to Anas Ibn Malik, immigrants from Mecca were penniless,while the Ansars had lands and other forms of property. The Ansars gave half of their land to the Mohajireen (immigrants) on condition that the latter should cultivate the land and give them half of the yield» Again, Bokhari and Ibn Omar relate that the Prophet gave the land of Khaiber for half of the yield. This practice remained throughout the Prophet's life and in the days of Abu Bakr and in the early days of Omar's rule. But land-leasing was not renewed in the days of Abu Bakr and Omar after the death of the Prophet.

Shawkani states that what Anas relates shows that land-leasing is permissible.

In «Ihya'u Al Mawát». Vol. V of « Nayl Al-Awtar»: It is related by Djaber that the Prophet said, «He who revives dead land is entitled to own it» Again, the Prophet said, «He who revives a dead land is entitled to own it, provided it is not usurped.» Commentators say that by «not to be usurped», means that it is unlawful to cultivate another's land, or dig into it or build on it. Therefore, reviving a dead land means putting life into a land which is nobody's property, through watering, ploughing and cultivating. Most of the Muslim jurists state that dead lands can be revived with or without the Imam's permission. But the Hanafis hold that this necessitates the Imam's permission, the Hadawiya share with them this point of view.

As for water, fire and grass, the Prophet said «Men are partners in three things: water, fire and grass», related by Ibn Majah, quoting it from the sayings of Ibn Abbas, with the addition «and any price paid for either is unlawful».

Shawkani states that all water is freely available, to all people, whether owned or common.

The above-mentioned quotations are meant to show that land is not primarily common among all people as in the case of water, fire and grass. As we have already seen, land ownership are established through some certain procedure.

Land-granting is recognized by Islam. The section dealing with land-granting, P. 264, Vol V «Nayl Al-A wtar» states: «According to Ibn Omar the Prophet granted a piece of land to Al-Zubair: Al-Zubair applied the whip to his horse, the horse ran and covered a certain distance, then the Prophet said: «Let him have the piece of land covered by the horse».

After quoting some traditions and recorded sayings in this respect, Shawkani concludes that the Prophet and the Imams who succeeded him had the authority to grant land-granting itself establishes the right of ownership.

The section dealing with land usurpation, P. 269, Vol. V «Nayl Al-A wtar» states: «Aisha relates that the Prophet said, «He who usurps a foot of land will be surronded with a ring of Hell's fire». Again Said Ibn Zaid relates a similar tradition, confirmed by Abi Horaira in another version, «He who cuts off a foot of land unlawfully...».

This shows that usurping or cutting

respect, says that such dealings were common among Muslims in the early days of Islam and there was no difference as to the feasibility of such procedure. As to the Prophet's warning against Muzàra's (leasing one's land for a fixed portion of the yield), it was said that it meant the landowner's stipulation that a certain part of the land could be leased in that way. This is confirmed by the following:

Rafe Ibn Khodeig relates (in the same source) «We had most of the land and we used to lease the land of our own choice, that is, we took certain portions of land, and left others to lease-holders. We were warned against this kind of lease on the basis that one portion might yield and the other might not; we were not warned against taking silver as rent» Further, Bukhari relates: «Land-owners, in the days of the Prophet, peace be upon him, used to lease certain portions of land (such as land accessible to water) and to lease their lands for certain portions of the yield,but they were warned against this kind of lease».

According to «Nay1 Al-Awtar»: «The Prophet, peace be upon him, warned against Mohàkala (selling the plant before it ripens) and Mozàbana (selling yield of lands of unknown number or quantity for certain sum of money), and said that only three could use the land: a man who owned land, a man who was granted land, and a man who rented land for gold or silver», related by Nasa'ai and Abu Daoud. Sa'ad ibn Abi Wakkas also relates that: «Landowners in the days of the Prophet, peace be upon him, used to lease their lands for the yields of certain portions of them which were situated near wells and accessible to water. Some of them came to the Prophet, peace be upon him, when a dispute arose; the Prophet warned them against this and ordered them to lease their lands for gold and silver».

What was related about Mokhabara or Muzàra'a (leasing one's land for a third or a fourth of the yield) was taken in the sense that such dealings might involve some abuses. This was confirmed in what Omar Ibn Dinar relates: «I thought if I were to give up 'Mokhabara', they would say that the Prophet had warned against it. The most learned among them, meaning Ibn Abbas, told me that the Prophet had not warned against it, but positively advised us to be kind to each other. Abu Horayra relates: «The Messenger, peace be upon him, said that he who has land may either cultivate it or ask his brother to do so; should he fail, he may keep it unexploited». Jurists unanimously agree that land-leasing is permissible, whereas land-lending is not obligatory.

The traditions and recorded sayings quoted above clearly show that land and its benefits are owned by individuals who are entitled to benefit from their lands in whatever way they choose: either by cultivating, leasing, or lending. They eyen have the right to keep their lands unused, though we are warned against wasting money or property.

The section dealing with land-leasing, p. 248, Vol V in «Nay1 Al-Awtar»

Again in the same Sura, about Thamùd, «Will ye be left secure, in (the enjoyment of) all that ye have here? — Gardens and Springs, and corn-fields and palms the spathes whereof are fine?»

In Sùra Dukhàn, concerning Pharaoh and his people, «How many were the gardens and springs they left behind, and cornfields and the goodly sites, and pleasant things wherein they had taken such delight. Thus (was their end)! And We made other people inherit (these things).

Upon the Islamic Conquest, people in great numbers converted to the Religion of God which confirmed other preceding religions, by which it proved itself to be a constructive code and not a destructivr one. This Religion recognized, guaranteed and respected the right of ownership through its laws and regulations pertaining to the preservation of property, and the freedom of ownership. According to Islamic legislations, land was classified into the following categories:

A land whose people embraced Islam, whereby they were indisputably entitled to retain its ownership.

A land which was taken by Muslims through a treaty. Such a land was retained by its owners, provided they had to pay what was provided by the terms of the peace treaty.

The land of Mecca was retained by its owners, though taken by force.

The land of Khaibar was taken by force and divided among the conquerors, whereby it became their own, and was inherited by their descendants after them.

A land taken by force which was not divided among the conquerors, but retained by the Imam for the State or Beit Ul-Màl (treasury), as in the case when the Caliph Omar kept the land of Iraq (accrding to some jurists).

Lands which were retained by their owners who were unbelievers, but were not defeated by Muslims. Such lands were governed by laws and regulations prevailing in their countries.

Judging by the sayings of the Prophet which were related, and by the recorded sayings and viewpoints of Muslim jurists of different schools, we can safely state that the right of the individual to own land and its benefits has been strongly recognized, safeguarded, and respected, in all times and under various codes.

Traditions (Hadeeth) and recorded sayings

We hereby quote from «Montaqa Al-Akhbar» and commentaries in «Nay1 Al-Awtàr» traditions classified according to branches of Islamic jurisprudence.

In «Musàqàt and Muzara'a» p. 231 Vol. V of «Nay1 Al-Awtar» it is related that Mua'adh ibn Jabal leased his land in the days of the Prohet, peace be upon him, to Abu Bakr, Omar and Othman for the third or the fourth of the yield. Bukhari also relates that all landowners (from the muhagireen 'immigrants') leased their land for the same portion. Omar, according to Bukhari, leased his land for half of the yield when he provided the seeds. Bukhari, in this

mutual consent. (Al-Nissa' 29)

Secondly: God and His Apostle warn us against encroachment on others' property, and seizing it unlawfully. God, The Al-mighty, says: «And eat not up your property among yourselves in vanity, nor seek by it to gain the hearing of the judges that ye may knowingly devour a portion of the property of others wrongfully.
(Al-Baqarah 188).

Thirdly: To safeguard freedom of ownership and to protect property, the Islamic law has enacted certain punishments to be inflicted upon thieves and users. God, the Almighty, says: «Verily, those who devour the property of orphans unjustly, only devour into their bellies fire, and they shall broil in flames.» (Al-Nissa' 10).

The Hadeeth states, «It is unlawful for one to take his brother's property, whether playfully or seriously. And should he do so, he must give it back.» Another Hadeeth states: «A hand is held responsible for what it takes, till it gives it back».

Respect for ownership is further stressed in the Hadeeth, «When you sell something, say: Do not press for what may do me harm, I have the freedom of choice for three days». Again the Prophet, «peace be upon him,» warns us against selling bad or defective things. By establishing the freedom of choice, and warning against selling defective property, Islam warrants that the owner may not dispose of his property while feeling that he is being deceived or oppressed. Again, the establishment of the right of servitude is meant to prevent any harm or impairment on either the neighbour or the partner. All these rights prove that the Muslim code is keen to secure the right of ownership and to safeguard the owner and to establish his right to benefit from his property in the best way and without causing him any harm.

Now we turn to «The individual's ownership of land and its benefits in Islam» to discuss it fully.

Throughout the ages, in different countries, according to various religions and creeds, the land, no doubt, was owned by individuals. Each had his own share, and had the right to keep it or dispose of it, according to the particular laws and regulations in force.

This is clearly shown in the following verses of the Koran:

In Surà Kahf: «Set forth to them the parable of two men: for one of them We provided two gardens of grape-vines and We have surrounded both with date-p alms; in between the two We placed tillage».

In Surâ «The Pen»: «Verily We have tried them as we tried the fellows of the Garden, when they swore, We will cut its fruit next morning».

Again, in Surà Al-Ahzàb: «And He caused you to inherit their lands, their houses, and their wealth».

In Suraà Sabà: «There was indeed for Sabà, a sign in their home-land — two Gardens on the right and the left.»

In Sùrà Shoara, about Aàd: «Yea, fear Him who has bestowed on you freely all that ye know. Freely has He bestowed on you cattle and sons, — and Gardens and Springs.»

Quran: «He it is Who created for you all that is in the earth. Then turned He to the heaven, and fashioned it as seven heavens.» (Al-Baqarah 29).

Throught the first verse aforementioned, scholars came to the comclusion that all things were common property before ownership was defined by legal rules. Virtually, God, the Almighty, owns everything, but He has granted His earth to His needy creatures to benefit from its riches. Hence it was made common property, from it through owning and reviving.

This is clearly shown in the Prophet's saying «The Earth is God's earth, the creatures are all God's creatures; He who revives a dead land has a right to it.» Hence, the process of reviving alone establishes ownership without permission from the ruling authorities, since a land without an owner is common property, the ownership of which does not require permission of the authorities, and since the Prophet's Hadeeth which indicates the way to own a common property does not stipulate getting permission, as is shown in «Saheeh Al-Bukhari» which states: Aisha relates that the Prophet, peace be on him, said: «He who revives a land owned by nobody can have it».

Abu Hanifa holds that reviving a land does not establish ownership, and stipulates that the Imam or his deputy should grant permission. He argues that even though the land itself is common, yet it may be the cause of clash between people who are keen to own it. Hence the Imam's permission is necessary, since he alone has the authority by which he can prevent disputes. This view-point is confirmed by the Hadeeth which says: «A person cannot own a thing except through the consent of the Imam»

To sum up, seizure of land can well establish ownership, provided there is no suspicion of causing dispute, and no prohibition by the Imam. Again, the Imam's permission is imperative in case there be fear of dispute or clash.

In Egypt to-day there is no such thing as dead land, since all lands, other than those owned by individuals or companies, are virtually owned by the state which is solely entitled to pass their ownership to whom she may choose, either for something in return or otherwise.

Freedom of Ownership

All heavenly codes stress the necessity to preserve, respect and protect property. This is confirmed by the Haddeth which says: «Everything pertaining to a Muslim, his blood, property and honour, is unlawful to another Muslim — a Muslim's property is lawful only when he grants it willingly».

Islam has secured freedom of ownership through established legislations:

First: It has made agreement and consent the basis of financial dealings. Agreement and consent are the basis or all that is authorised by God in respect to all forms of transferring the ownership of a property and its benefit, through selling, leasing or lending. In the Quran: «Oh ye who believe! Devour not your property amongst yourselves vainly, unless it be a merchandise by

into voluntary and involuntary cases. Voluntary cases include seizure of common property and contracts. Involuntary case, means the succession which is established by inheritance. In such a case ownership is invluntarily established on both the legator and the legatee. Legislation puts the heir in place of the bequether, hence the new ownership is a continuation of the old one. Therefore this kind of ownership is not established through the heir's acceptance, and it cannot be rejected. The thing owned in this case comprises what is left of the property after paying off the expenses of the funeral, and the debts of the deceased and executing his will. Hence succession applies to what is left only and it does not extend to everything left by the deceased. Hence the heir is not bound to redeem the debt of the deceased out of his own money, in case the former's property does not cover his debts.

Secondly, complete ownership is established either through the seizure of common property, since this kind of property is not the ownership of any person from the legal point or view (this property includes war trophies), or through transferring the ownership by contract or succession, provided the property inherited or transfered should be owned prior to writing the contract or effecting the succession, since common property cannot be the succession, since common property cannot be transfereed by contract or inherited by anyone. Hence the first case of ownership is established through the seizure of what is common, then through transfer either by contract or inheritance.

Thirdly, cases establishing ownership are divided into: actual, verbal and legally virtual. Seizure is an actual case, since it cannot be done exept through the action itself. Accordingly it is valid when it is done even by inexpedient persons, such as children or sequestrated persons: in case a boy, a sequestrated person, or a mad man actually and properly seizes a common property, such a property is legally his, even though contracts made by such persons may be invalid, or cannot be effectual except with the guardian's permission.

The contract, on the other hand, is verbal in most of its forms, since it is contained in oral terms. It can also be effected by action, as when it is put in writing or through making signs. The contract establishes ownership only when the contractor is fully expedient.

Inheritance establishes ownership by itself: hence action or a word of mouth is not required, either from the heir or the bequeather, since inheritance is regarded by the legislator as a right confirming ownership: so, ownership is established for the young as well as the old, the adult or otherwise, and even for the embryo.

Since we are discussing the subject of land-ownership and its benefits in Islam, it follows that we should give some special consideration to the first case establishing ownership, namely, seizure of land, according to which all forms of ownership were established since the beginning of the creation.

God, the Almighty, said in the

3 — This kind of ownership is not temporary and does not cease except in case the property is destroyed and rendered useless or in case it is passed to another through inheritance upon the death of the owner or through a legal disposal transferring the ownership as in case of selling or granting.

4 — Property ownership cannot be dropped, as Islam does not recognize loss property.

Cases of absolute ownership:

It is helpful in this respect to quote from «Al-Bahr» taken from «Al-Hawi» by Maqdissi. The text runs as follows: «Ownership is deterring exclusiveness and is the same as seizure whereby it is established. since what is owned cannot be passed to another owner simultaneously, and since it is imperative that the property to be owned should be a priori without an owner. Property without an owner is common property whose ownership can be established through seizure only which is present in all cases of ownership. By selling, granting and the like the ownership is passed through seizure of the property. since the process of selling stipulates the seisin of the property sold in case of selling, accordingly, ownership cannot be established in respect to a common property priority seizure. Again, seizure cannot be confirmed unless the property is without an owner. Succession is established through either inheritance or will, but not through transfer of ownership, and the heir has the right to reject the property if it proves defective, but the purchaser has not such right (the person who purchased the property from the legator who died ».

Hence, cases of absolute ownership are three, seizure which establishes ownership; selling whereby ownership is transferred: inheritance or Will, namely:

1 — Seizure of common property.

2 2 — Contracts transferring ownerships, such as contracts of sale and grants.

3 — Succession, namely, a person succeeds another through inheritance, but preemption is not considered as such, since it is only a right to ownership and not ownership.

Ownership can be established either through agreement or through the decision of a judge based on the provisions of contract. Waht emanates from the thing owned does not create a new case for establishing ownership for the emanating thing or the benefit arising from the thing owned, since particulars of absolute ownership provide that property and its benefits, both permanent or temporary, are exclusively the owner's. Thus the ownership of what emanates is established through the original ownership, that is, when a person owns an animal through a contract or inheritance, he owns both the property and its accretion, since the accretion is considered as a separate entity when it exists, hence it does not require any new case.

These cases are of a different nature according to which they are put into three categories: First, they are divided

perty has a right to use these public utilities. The proprietors have the right to use such roads, to water their lands from public rivers and canals and to get rid of surplus water through public drains, since these public utilities are considered common property.

2 — When this right is provided in the contract as in the case when a person sells a piece of agricultural land to another and stipulates that another piece of his has a right to water or the rights of passage over the sold one. These rights are established when the buyer acknowledges them.

3 — When one of these rights was established for a property in the unknown past, and when a person inherits a land watered from a neighbouring land or when this land disposes of its surplus water in a drain owned by another person, in case the date of granting the right is unknown. When it is proved that it was legally granted, it becomes valid, but should the owner of the other land prove that it was illegally granted, hence it is declared invalid.

This right of servitude cannot be established through permission or license. In case a person permits his neighbour to use his own path or to water his land from his canal, it does not follow that this land has a right of servitude, since the person who grants can withdraw his permission any time he likes: accordingly those who own the land afterwards, through purchasing or inheritance, cannot claim this right.

Absolute ownership: Particulars and cases

1 — According to the definition describing the absolute ownership, the owner is absolutely free to dispose of the property and its benefit through every legal means (selling, leasing, lending). This freedom is limited by two considerations only: 1st— Other individuals or groups should not be prejudiced. 2nd — The disposal should be within the framework of th orders and regulations set by the governing authorities for the common interset.

This includes public interest, or interest, or temporary seizure of the property in case the country is invaded or a bridge is destroyed, and in case certain restrictions are imposed for the sake of security or public health. such as the restrictions governing buildings and roads. establishing of estates and stables and places causing discomfort or harm to health or being dangerous, and those governing the erection of levers and the installations of steam machines. along with restrictions imposed for the benefit of agriculture binding landowners whose lands are situated in the neighbourhood of canals and drains. Also the restrictions imposed to preserve and develop national wealth such as those dealing with mines, protection of historical antiquities. and prohibiting the growing of certain plants.

2 — The owner has the right to use his property without any time or place limitatons. unless such usage is legally prohibited, as in case he uses the property as a gambling house.

disagree as to some of the forms. They hold that, should the lease be of a fixed period, the heirs inherit the benefit in case the lease-holder dies before the expiration of the lease. Again if a person allows another to occupy or to exploit his house for a certin period, the heirs of the beneficiary are entitled to the benefit for the rest of the period in case the beneficiary dies before the expiration of the period. But complete ownership is brqueathed through agreement.

3 — The beneficiary is responsible for any damage caused to the property through him, such a damage is considered an act of impairment.Should the property be damaged unintentionally, he is not responsible for the damage.

4 — Expeneses and costs of maintenane are borne by the beneficiary in case he owns it freely through a lending contract or a will, and borne by the owner himself in case it is leased. In case of complete ownership the expenses are borne by the owner.

This kind of ownership expires in the following cases:-

1 — Expiration of the period provided by the contract.

2 — The death of the beneficiary, according to the Hanafi School.

3 — The death of either the renter or the lender.

4 — In case the property is seriously damaged and rendered useless as in the case of a land leased for agricultural purposes and becoming morass or flooded by water.

The 3rd kind is the right servitude[1] by which an immovable property is entitled to benefit from another owned by another person. This includes access to water, digging canals and free passage.

The differences between the right of servitude and the right of personal benefit are as follows:-

1 — The right of servitude is always applied to immovable property only. whereas usufruct may apply to immovable and movable property, such as in case of hiring or lending an animal.

2 — The right of usufruct is provided for a certain person by name or capacity, whereas the right of servitude is primarily provided for the property.

3 — The right of servitude is not limited by a fixed period whereas the right of usufruct is temporary as expieres it with the expiration of the period fixed for the lease or the lending.

4 — According to the Hanafi School, usufruct can be inherited even though it is not considered property. But they hold that it can be inherited since it is related to the property. The reverse holds good for the right of usufruct, the inheriting of which is a subject of controversy between jurists.

Cases establishing servitude

1 — General partnership as in the case of roads. rivers and drains which are designated for public usage, and are not private property. Each nearby pro-

(1) The meaning of the term «Servitude» in certain European codes is the right or title to the use of a thing for general or for a particular purpose, without having personal interest or property in it such as right of way. water, etc, on another man's land . (Ed).

tract, whether the permission is given by the owner of the property or by the legislator or the ruler, as in the case of public utilities. Leasing means that the lease holder has a right to the benefit with something paid in return, but he is not entitled to any further rights. When a person rents a land to cultivate it, he has not the right to erect buidings thereon, but he has the right to pass the benefit to others, with or withouf something in return, unless it is provided in the contract that the benefit varies with the beneficiary.

Lending means that the benefit is owned without something paid in return. Jurists of the Hanafi School are not of an opinion on the question of whether lending entitles to ownership. Some say that it does not. but it only authorizes the borrower to benefit from the property, provided the lender retains the ownership. Accordingly it does not entitle the borrower to pass the benefit to another person. The majority, along with the Shafii School, hold that the borrower owns the benefit according to the lending contract, hence he is entitled to pass it to another through lending, without receiving anything in return, provided the lender does not stipulate otherwise, or the benefit itself varies with the beneficiaries. Should both stipulations be absent, the borrower may pass the lending to another, but he cannot pass it through leasing, as the two contracts differ in kind. Lending is not binding so long as the lender can withdraw it when he likes, but leasing is binding.If leasing were to be permitted, the legal description of one of the two contracts should be changed to put both in accord. This process could not be carried as it involves a change in the contract.

But the Maliki School allow the borrower to pass the benefit to another whether by leasing or lending, because he who owns the benefit has the right to dispose of it within the fixed period of the lending contract, provided he should not cause damage to the property, since the lending contract is binding as regards the period, that the lender may not annul it. This shows that the essential difference of both opinions is whether the lending contract is binding or not.

According to «Tahdheeb EL- F orouq» by Qarafi, lending contract bestows ownership on the borrower according to custom. He who is entitled to a borrowing period through custom, becomes the sole owner of the property of which he can dispose within the fixed period. In this case owning the benefit is similar to owning the property itself.

particulars of this kind of ownership:

Ownership of the benefit or the right of usufruct is subject to certain conditions:-

1 — It is primarily limited by time, place and description, but complete ownership is by no means limited.

2 — According to Hanafi School it cannot be inherited, because inheritance applies to the existing property upon death, benefits, according to this School, are not properties.

But the majoriy of the Muslim jurists

beneficiary. Upon his death the property goes back to the owner, and thus his ownership becomes complete.

Thus the ownership of a property alone is recognized through inheritence. and through the will in case the property is willed to a person and the benefit is willed to another. The ownership of the property alone does not entitle the owner to any form of benefit, moreover he cannot dispose of the property in a way that may do harm to the beneficiary. The Hanafi School holds that the owner should not sell the property except to the beneficiary. Other schools hold that the owner may sell his property without permission from the beneficiary. In this case the ownership of the property goes to the new owner accompanied by the right of the beneficiary. The ownership can be passed to his heirs upon his death. and it does not expire except when the owner dies or in case the property is damaged or owned by another. Should the owner causes damage to the property, he has to guarantee the benefit for the beneficiary. Costs of maintenance and levied taxes are bornc by the beneficiary.

The 2nd category is ownership of the benefit or the right of usufruct. It is necessary to show the difference between both rights. Ownership of the benefit permits the owner either to get the benefit for himself or to pass it to a second party. A person who rents a land or a house virtually owns the benefit through the contract, and the benefit becomes exclusively his. This exclusiveness keeps others away from it, and he has the right either to get the benefit for himself or to pass the benefit to another person, with or without a thing in return, except when the contracting parties agree on a different thing.

Usufruct, on the other hand, is a mere licence emanating from a general permission, such as the right to use public utilities as roads and rivers, or from a special permission, as the right to benefit from the property of a certain person. Such a right does not entitle the usufructuary to any right of ownership. Hence he cannot pass it to another.

According to Qarafi, the usufructuary himelf enjoys usufruct personally, whereas in case of the ownership of the benefit, the beneficiary can either enjoy the benefit personally, or pass it to another. Thus the right of usufruct occurs in three cases:

1. — Through general permission as in the case of using public utilities such as roads, schools and hospitals.

2. — When the benefit is bestowed by the owner of the property himself, whether on a certain person known by name or to unspecific persons. as when the owner houses strangers in his home.

3. — Through the lease or the lending contract or other contracts, which provides that the benefit should go to the lease holder or the borrower only. without any right to pass it to others.

The ownership of the benefit occurs in five cases: through general permission, leasing, lending, wakf, and will. General permission permits one to benefit from a property without a con-

either embrace the thing itself and its benefits together or affect the benefits only, or affect the thing owned only. In case it affects them both, it is called complete ownership, whereas when it affects either of them only it is called incomplete ownership.

Complete ownership, then means the right to own a thing and its benefits, thereby entitling the owner to all legal rights.

Incomplete ownership is that which entitles a person to one only of the two. It is of two kinds: ownership of the thing alone, whereas the benefit goes to another person: and the ownership of the benefit such as in the case of Wakf, lease and loan. This, again, is of two kinds: it goes either to a person or to a property. In the first case it is bestowed on a certain usufructuary only, and cannot be passed to another except in cases that will be mentioned later. In the case it is given to a certain property entitled to this right, in which case it does not go to a person, but it belongs to the property itself, whoever its owner may be. It is primarily given to the property, then given to the owner accordingly, (for example the right of access to a certain house through a private road).

Hence the incomplete ownership is of three kinds:

1— The ownership of the property only.

2— The ownership of the benefit alone. Here usufruct is a personal one, namely, given to a certain person.

3— The ownership of the benefit only, the usufruct here follows the property and is accordingly given to the beneficiary of such property.

Both complete and incomplete ownership with their different kinds are governed by particular rules and each of them has its own proofs.

Kinds of incomplete ownership:

1st — The ownership of the property only. This is found in cases where the property is owned by one person and its benefit is owned by another. This kind of ownership is rarely found as it stands in striking contradiction with the purpose of ownership itself which is meant to draw benefit from the thing owned. Though this kind of ownership sound extraordinary, yet it is permitted to encourage people to do benevolent acts at the end of their lives, as this kind of ownership is not recognized except in two forms of a will:

1— When an owner wills the benefit of a property to a person either for live or for a fixed period, the ownership of the benefit goes to the legatee in case the legator dies and he (the legatee) accepts the ownership of the benefit, whether it is valid for life or for a fixed period. Should the heirs refuse, they must be forced to execute the will; and upon the expiration of the will or the death of the legatee, the heirs' ownership becomes complete.

2 — Should a person will his house or his land to one person, and its benefit to another, and should they accept the will, the ownership of each incomplete. The property itself should be handed to the

which changes its form and shape when carried. such as houses and trees: It is to be called property or movable? The Hanafite Creed considers it movable: whereas to The Maliki Creed deems that it is property. Hence. property according to The Hanafite Creed. is that which cannot be moved or carried. and this applies only to land in particular: and movables are those things which can be moved and carried. whether they retain their original form and shape. such as animals and metals. or change their form and shape through moving and carring. such as trees and buildings. Movables. according to The Maliki Creed. are those things that can be moved. provided they retain their original shape. Things other than these are listed as property. including trees and buildings.

This classification is demonstrated on applying the rulings concerning: preemption. the right of the guardian to dispose of the property of the child. the selling of the property of sequestrated persons in order to redeem debts. the right of the buyer to dispose of the thing bought before paying off its price: the rulings here vary according to division of the things owned into property and movables.

In the same way we define ownership as the relative relationship between the owner and the thing owned. through which the owner is exclusively entitled to dispose of the thing owned. except in case there is a legal hinderance. as case of inexpediency or any other legal hinderance pertaining to public or private interest. we also use the word ownership to describe the thing owned. as when we say: This house is may own. meaning that I own it. This definition was meant by the authors of the legal Journal when they define. ownership as being anything that a man owns. whether it is in property or benefits (article 124). Similar to this is the definition laid by the[1] Hanafi School when they hold that benefits and rights are ownership and not property. Thus ownership is more comprehensive than property.

Property that can be owned are under three categories:

1— Property that can never be owned such as things meant to be public utilities: roads. bridges. rivers.public gardens and museums. These things cannot be owned so long as they are public utilities. But in case they become otherwise. they can be owned.

2— Property that cannot be owned unless through legal permission. such as Wakf property and the property of Beit UL-Mal (the Treasury) which are legally called «free property.» The Wakf cannot be sold except in case if falls into ruin. or in case its maintenance costs exceed its returns. Government property cannot be sold except in case Beit UL-Mal is in need of its price. or when it is sold at a double price. or when the ruler.in his capacity as such. sees it fit to sell it.

3— Property. other than these. can be owned.

Kinds of Ounership

Exclusiveness of the right to own a thing in the sense of ownership may

(1) - School = Creed.

ance. Men of law have defined it in a similar way. Muhammad Kamel Morsi in his commentary on Civil Law, says: «Ownership is a right by which a thing is put under the will of a person, who is solely entitled to use, exploit and discharge, within the framework of law».

Things that can be owned are under three categories:

1— Property, namely, perceptible things which have material and volume.

2— Benefits which are derived from the property such as occupying a house,cultivating land, riding an animal and using a dress.

3— Rights, namely, any benefit set by the legislator, and to which a man is entitled. This may be related to property (such as the right to get water and to have free passage); and it may have nothing to do with property such as the right of custody. Jurists are of opinion that houses, land etc..., are considered as property so long as they can be owned and used beneficially. Again they hold that the benefits are considered as property so long as they are the fruits of the things owned, such as the fruits of trees and the plants of land which can be owned and used beneficially.

They also agree that the rights related to things other than property, such as the right of custody and the right of guardianship, cannot be considered as property. But jurists differ widely as regards benefits which cannot be owned.

Some jurists of the Hanafite Creed hold that these rights cannot be described as property, so long as they cannot be owned, as they are virtually non-existent, and in case they exist, they last for a short duration.

Other jurists contend that these benefits can be considered as property, so long as they can be owned through owning the original property, and because the property is owned for its benefits. This opinion is supported by the traditional proceedings applied in financial dealings.

This difference of opinion is clearly manifested in cases related to usurpation, inheritance and lease.

When a land is usurped and then given back to its owner after a year, for instance, its benefit, according to the first group of jurists, cannot be avaluated dexcept in a limited number of cases such as being, a Wakf or owned by an orphan, or prepared for exploitation.

According to the second group of jurists, these benefits are absolutely guaranteed. Again, When a person rents a house for a fixed period and dies before the expiry date, the contract, according to the first group, expires upon his death, because the benefit is not a property that can be inherited. But thr second group holds that the legatees can replace their legator until the period of the lease expires.

All jurists agree that the things owned are of two kinds: property and movables. They alo agree that things that cannot be moved or carried from one place to another are called property, and things that can be moved and carried from one place to another, provided they retain their shape and form, are called movables. But they differ in opinion as regards the thing

benefits in Islam,» and I have chosen to begin my paper with a brief introductory note on the meaning of property: its kinds, origin, related rights. This shall be followed by showing how the legislator has been careful to demonstrate his respect for property, to safeguard it and to secure its privacy and freedom. I shall then proceed to quote the Prophet's traditions and recorded sayings which prove that both land and its benefits are owned by individuals. To complete the subject, I shall cite some texts set by the jurists of the four Islamic Schools, which treat of transactions in Islam, especially those which are concerned with land-owning by individuals and its benefits. I trust this may cover the subject of this paper. It is God whom I ask for guidance and help.

INTRODUCTION

God has entrusted the earth to Adam and his off-spring in order to settle therein, to improve it and to lead their lives securely: «It is He Who has made the earth subservient unto you, so traverse ye through its tracts and enjoy the sustenances which He furnishes». Man is gregarious by nature and constantly in need of other's help to attain his goals and to live his life. Alone, he has not enough means, knowledge or powers. Hence, human life is a communal one, and each individual has his share in building the community.

The inability of the individual to meet all his needs and satisfy his desires all by himself has made it imperative that different jobs be distributed among men. So, one is a farmer, another is a merchant, a third is a worker and so forth.

And, as human souls tend to be selfish and self-loving, and keen to appropriate the land and monopolise its benefits, and as they are driven by various lusts, instincts and leanings which urge them to attack and dominate others; and as living in a community causes a clash of interests and creats various conflicting rights, leanings and lusts, and as the resources are too limited to meet all men's needs, and satisfy all desires, a failure of which entails conflict, oppression and the domination of the strong over the weak, it was deemed necessary, in order to maintain peace and security, to define rights and duties, and to coerce extreme tendencies, and to lay down a set of laws and regulations by which one's lipe, rights and property are safeguarded.

And this gave rist to the five general principles which have been ordained by Heaven and set down by man. These principles which should be maintained and safeguarded are:

Preservation of life, of religion, of mind, of parentage and of property.

From the last principle, the theory of ownership emanates.

OWNERSHIP

Ownership in the Arabic tongue means man's owning of property with an exclusive right to keep or discharge. According to Muslim jurists, it is an exclusiveness that keeps others out and enables the owner to do whatever he likes with it, except for a legal hinder-

MAJALLATU'L AZHAR

(AL-AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd-ul-Wadoud I. Shalaby**
SUPERVISOR : **Zaher A. El-Zoghby**

The fifty first year No : 3 Rabi-Ul-Awwal 1399 A.H. February 1979 A.D.

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

OWNERSHIP OF LAND ITS BENEFITS IN ISLAM

By

His Eminence Shaikh Mohammad Ali AL-Sayis

Member of The Islamic Researches Academy

Praise be to God, the Cherisher and Sustainer of the Worlds whose shelter we seek to guard against our evil deeds and trespasses «such is the guidance of God: He guides therewith whom He pleases, but such as God leaves to stray, can have none to guide». Peace be upon His Apostle Mohammad, the Seal of Apostles and Prophets who was sent «with guidance and the Religion of Truth... Bearer of good tidings and as a warner...,» and as one who invites to God's (Grace) by His leave and as a lamp spreading light».

I have been asked to write on «Land-owning by individuals and its

رئيس التحرير
والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبي

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢ ٩٠٥٩١٤ ٩٠٥٥٠٦

الجزء الرابع – السنة الحادية والخمسون – جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ (أبريل ١٩٧٩ م)

١٢ هـ
٢٢٢٢٦ ع
دوريات

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الأكبر : يشرح سياسته فى أول لقاء صحفى

افتتح فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر دكتور محمد عبد الرحمن بيصار مهام منصبه بأن أدلى بحديث للصحافة وأجهزة الإعلام وضح فيه : بأن تعاليم الإسلام هى المنقذ مما يعانيه العالم المعاصر من مخمصة أخلاقية وفقر روحى وصراع فى العقائد والأفكار والمبادئ ، وأن المولى عز وجل وهو أعلم بمن خلق وماخلق أعلم بطبيعة فطرة خليقته ونزعاتها وملكاتها وماتقوم عليه من مقومات . . وكان من حكمته البالغة ومن علمه الشامل أن تأتى تعاليم الإسلام متناسبة مع هذه الفطرة لتسعدها لالتشقيها ، وتصلحها لالتفسدها ، وتكون مقياسا لحل مشكلاتها فى جميع جوانبها المختلفة . . وأن علماء المسلمين إذا ماأدركوا هذه الحقيقة وعمّقوها فى نفوس شعوبهم وحكوماتهم بصدق وإخلاص كان ذلك – بلاشك – تحركا إيجابيا بنّاء لإصلاح مافسد من شئون المجتمعات الإسلامية .

أما عن دور الأزهر فقد قال فضيلته :

إن هذا الدور ينبغى ألاّ يقتصر على النمط التقليدى فى مجتمعاتنا المعاصرة وإنما يجب أن يتجاوز ذلك إلى فكر جديد يطرحه على الناس بأسلوب جديد فى الإطار المأمول الموثوق به لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبالوعى الإسلامى المستنير . . وإليكم نص الحديث :

بدأ الحديث مع فضيلة الإمام الأكبر ، حول واقع العالم الإسلامى الآن ومايجرى فيه من أحداث واتجاهات فكرية متصارعة . . يقول فضيلته :

إذا كانت رسالة الإسلام عندما جاء بها محمد ﷺ ، بمقاصدها العليا وغاياتها السامية ، أن تخرج الناس من ظلمة الجهالة وحيرة التمزق ، وأدران الشرك والانحراف العقدى . . لتضعهم على طريق الحق والعدل ، ولتجمعهم فى أخوة صادقة ورباط وثيق بين أبناء البشر جميعا على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم ونحلهم . . فإن مايعانيه عالمنا المعاصر اليوم من « مخمصة » أخلاقية وفقر روحى وصراع عقدى . . بل مايعانيه أكثر من ذلك من بعض مظاهر الجاهلية الأولى . . ليفرض علينا جميعا ، معشر المسلمين ، أن نطلب المنقذ والمخرج فى تعاليم الإسلام ، التى جاء بها محمد ﷺ . .

وماقد يقال –بل قيل فعلا– من أن رسالة الإسلام بتعاليمها ونظمها إنما جاءت لمجتمع مضى عليه مايقرب من ألف وأربعمائة عام ، وأنها لاتتناسب مع حاجات مجتمعات القرن العشرين ، فإن ذلك القول ، إنما ينشأ عن قصر النظر وعدم إحاطة بأبعاد الرؤية ، بل وعدم فقه دقيق أونظر عميق فى المبادئ والأسس التى قام عليها الإسلام وقررتها شريعته . . ذلك أن تعاليم الإسلام لم تجاف الفطرة الإنسانية ، وإنما تلاحمت وتواءمت معها .

والمولى عز وجل وهو أعلم بمن خلق وماخلق ، أعلم بطبيعة هذه الفطرة ونزعاتها وملكاتها وماتقوم عليه من مقومات . . كان من حكمته البالغة ومن علمه الشامل أن يأتى بتلك التعاليم التى تتناسب مع هذه الفطرة ، فتسعدها ولاتشقيها وتصلحها ولاتفسدها وتكون مقياسا لحل مشكلاتها فى جميع جوانبها المختلفة . . إنه طريق الله القويم وصراطه المستقيم ، كما وجهنا سبحانه وتعالى : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

ويضيف فضيلة الإمام الأكبر قائلا :

إذا ما أدرك علماء الإسلام هذه الحقيقة ، وهم قطعا على وعى بها ، وإذا

ما وقر ذلك فى نفوس شعوبهم وحكوماتهم بصدق وإخلاص . . كان ذلك لاشك دافعا لتحرك إيجابى بناء لإصلاح مافسد من شئون المجتمعات الإسلامية ، وتقويم مااعوج من أمورها ، وتصحيح ما زاغ من عقائدها وآرائها . فإذا ماتم ذلك على وجه سليم التأم الصدع بين المسلمين ، ونفوا مايثار بينهم من خلافات ، واجتمعوا على كلمة سواء ، ألايتوخوا فى أعمالهم إلاوجه الله وألاّيهدفوا فى تصرفاتهم إلاخير الإنسانية وخير شعوبهم وأوطانهم .

وعندئذ سيكون الوفاق بدل الخصام والشقاق ، وستكون الألفة والمحبة ، بحيث يتحقق المجتمع الإسلامى الكامل بمثله العليا ، وعلى الوجه الذى أراده الله لخلقه : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وماهو واجب علماء المسلمين فى هذا الصدد ، وكيف ؟

واجب علماء المسلمين فى كل بلد إسلامى وعلى أية بقعة من بقاع الأرض أن يتحركوا لأداء واجبهم فى النصح والتوجيه والإرشاد الموجه . . لاإلى فرد دون فرد ، ولاإلى جماعة دون أخرى ، ولاللمحكومين دون الحاكمين . . وإنما يقصد به الإصلاح العام الشامل الذى يضع المجتمع الإسلامى بصفة خاصة ، فى صورته المثلى ، وأهدافه السامية .

وعندئذ يتحقق الرباط القوى بين الفرد ومجتمعه ، وتتأكد الأواصر الإسلامية بين شعوب العالم الإسلامى وأممه وحكوماته ، بل بين شعوب الإنسانية جمعاء .

ماهو إذن دور الأزهر فى إصلاح أحوال المسلمين ، كما تراه فضيلتكم ؟

إن الأزهر – كما أرى – ينبغى ألايقتصر على دوره التقليدى فى مجتمعاتنا المعاصرة وإنما يتجاوز ذلك إلى فكر جديد يطرحه على الناس بأسلوب جديد ، فى الإطار المأمول الموثوق به لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبالوعى الإسلامى المستنير ، الذى ينبغى أن يتصف به كل مسلم غيور على دينه ووطنه وأمته .

فإذا كان الأزهر بمؤسساته ، إنما يقع من حيث المكان على أرض مصر . . فإن رسالته عامة شاملة ، عالمية بين البشر جميعا وفى العالم الإسلامى بصفة خاصة ، لأن رسالته تتكيف بكيفية رسالة الإسلام من العالمية والشمول .

إن هذا يجعلنا نتحدث عن دور الأزهر فى الداخل ودوره فى الخارج أى ازدواجية الرسالة . . ! !

إن الانطلاق إلى العالم الإسلامى من قاعدة إيمانية قوية إنما يعطى عمل الأزهر فى خارج مصر دفعة قوية وإيجابية بناءة . وبهذا يكون الازدواج فى رسالة الأزهر بين الداخل والخارج .

والداخل بعون الله وبحمده تلتئم فيه القوى الإيمانية ويتحقق فيه التماسك والترابط بين أفراد المجتمع المصرى وبين شعبه وحكوماته كذلك . وتتخذ مصر فى واقعها المعاصر –كما اتخذت فى تاريخها الإسلامى الطويل– هذا الدور الطليعى الذى تعكسه أنشطة الأزهر المختلفة فى خارج مصر . . وهى . . وإن كانت أنشطة لاتزال بحق وبصدق تحتاج إلى مزيد من التوسع . . إلاأنها ذات فاعلية ، وأثر بناء فى مقاومة ماينتاب المجتمعات الإسلامية من تيارات فكرية مناوئة ، أوعقائد زائفة ، أو انحرافات أخلاقية مدمرة تتنافى أولا مع مبادئ الإسلام وتتجافى ثانيا ، مع ماتنشده البشرية كلها من حياة الأمن والسلام والاستقرار والازدهار .

لذلك . . رجاؤنا أن تتغلب الشعوب الإسلامية على مشاكلها ، وأن يتغلب الأزهر كأكبر مؤسسة إسلامية عالمية على مايعترض رسالته من عقبات ، ومايقف فى طريقها من معوقات سواء كانت معوقات ، تأهيلية أومادية أوعلمية أوسياسية . .

وعندئذ نستطيع أن ننطلق إلى واجبنا نحو شعوب العالم الإسلامى بيقظة وحذق وحكمة ، حتى يتحقق للعالم الإسلامى مايصبو إليه من مجد ووئام وتقدم وازدهار يؤكد له السبق فى ميدان الحياة ، والرسوخ فى جانب العقيدة والأمن فى مسيره ومصيره .

وما رأى فضيلتكم فى الأحداث الدامية التى استمرت طويلا فى إيران . . الدولة الإسلامية ؟

إن كل مسلم يدفعه إيمانه وإسلامه إلى المتابعة والانتباه لما يجرى فى إيران من أحداث ، فشعب إيران شعب مسلم شقيق ، ويهم المسلمين جميعا صلاح أحواله وسلامة ماله ، وأن ينعم بحياة من الاستقرار والتقدم والرقى .

وإن كل مسلم كذلك ليحذر كل الحذر ويخشى كل الخشية من أن تستقطب أحداث إيران لاتجاه ضار دخيل ، لايتفق مع الإسلام فى مبادئه ولايلتقى معه فى قيمه . . وإنما يحاول أن يستقطب الحركات الإسلامية ليحقق أغراضا مضمرة أوأهدافا مستوردة . .

وكل مانرجوه كمسلمين مخلصين لأشقائنا فى إيران أن يحذروا أن تقفز إلى

الموقف مثل هذه الاتجاهات فينتكس الغرض وتضيع الأهداف . .

لقد كان تقييم منصب مشيخة الأزهر على مستوى رفيع مما أثلج صدور المسلمين ، وكان له انعكاسات طيبة بين جماهيرهم فى داخل مصر وخارجها . . ماذا تقولون ؟

ويجيب فضيلة الإمام الأكبر :

مما لاشك فيه أن مشيخة الأزهر ، أومشيخة الإسلام – كما يصر الكثيرون على تلقيبها – هى القيادة الروحية للمسلمين على مستوى العالم ، تتحمل المسئوليات أمام الله وأمام الناس فى التوجيه الروحى ، وتنشيط الدعوة الإسلامية وتقوية الروابط بين شعوب العالم الإسلامى وحكوماته . . ولذلك كانت الصلة بينها وبين العالم الإسلامى وثيقة ، وكانت الحساسية فى أوضاعها الأدبية يتأثر بها كل مسلم على وجه الأرض .

ولعل أوضاعها السابقة وتقديرها الأدبى فى عصور سالفة كان على مستوى لائق وبصورة يسر لها جميع المسلمين . . إلا أن هذا الوضع قد شابته أشياء ، تشبه فى حياة الفرد خفقان القلب أواضطراب الدورة الدموية . . مما كان له أثر سيئ كذلك فى نفوس المسلمين ، إلى حد أن البعض منهم ظن أن المنصب قد انزوى وأن مركزه الأدبى قد لحقه شيء من الهزات الأدبية التى تحدث بدورها ذبذبات فى القيادة الروحية ولكن ماحدث أخيرا من اتجاه تمثله القاعدة العريضة فى مصر فى شخص أعضاء مجلس الشعب المصرى والتقت مع رغبة السيد رئيس الجمهورية وحكومته من دعم أدبى وغاية فائقة بالارتفاع بمركز مشيخة الأزهر –كما يمثله القانون الذى صدر أخيرا– إنما يدخل ضمن دائرة التصحيح للأوضاع فى مصر وفى العالم الإسلامى وإعطاء كل ذى حق حقه .

ويضيف فضيلة الإمام الأكبر : أن هذا أيضا يعطى المؤشر القوى والبرهان الأكيد على إدراك شعب مصر وحكومته لضرورة الارتفاع بمستوى هذا المنصب استجابة لوازع الإيمان فى قلوبهم ولمشاعر المسلمين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وليس ذلك بغريب على مجتمع مصر الذى قامت أسسه على دعامتين أساسيتين هما العلم والإيمان وأن ذلك بحق بجانب ماهو تقدير أدبى قبل أن يكون تقديرا ماديا ليحدد لنا وللناس كافة حجم المسئولية الكبرى التى تضطلع بها مشيخة الأزهر ، تلك المسئولية التى لايشك أحد فى أن عبئها قد ازداد ورقعتها قد اتسعت وكذلك أنشطتها يجب

أن تشتد وتقوى لتلاحق ركب الإصلاح ولتواجه عوامل الزمن والأحداث بأسلوب سديد وفكر رشيد وعرض جديد وماذلك على الله ببعيد .

وماهى ملامح تلك المسئولية المتزايدة التى تنتظرها جماهير المسلمين فى مصر وفى عالم الإسلام ؟

ويقول الإمام الأكبر : ملامح هذه المسئولية الكبرى باختصار شديد يحددها :

أولا : مايجرى فى العالم الإسلامى من أحداث ، فما يجرى فى العالم الإسلامى من أحداث يقتضى التحرك ويقتضى الدعوة إلى اجتماع علماء المسلمين وقادتهم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى لاليبحثوا فقط نظرية فقهية أوحكما شرعيا وإنما ليواجهوا المشكلات فى الروابط والصلات بين حكومات العالم الإسلامى وشعوبه تذكيرا لهم بواجبهم فى ممارسة مبادئ الإسلام وقواعده التى رسمها الله فى علاقة المسلم بأخيه المسلم .

ثانيا : ماوصلت إليه المعارف الإسلامية من تشويه لمعالمها وماشابها من تحريف ، والواقع أن هذه الظاهرة من شأنها أن تبلبل أفكار المسلمين وتخلط عليهم الحق بالباطل وتدخل عليهم من الشبهات الزائفة والمغالطات المكشوفة مايدخل على بعض ضعاف العقول منهم ، لذلك كان من أول مايعنى به من عناصر هذه المسئولية هو كشف هذه الشبهات وبيان أبعادها وأهدافها ليحذرها المسلمون ويقوا أنفسهم شرها ومما يساعد على ذلك تنقية الفكر الإسلامى من البدع التى تسود فى بعض المجتمعات ويتخذها أعداء الإسلام حجة على طعنهم فيه وتشويه مبادئه .

وهل من ملامح تلك المسئولية أيضا معالجة مايعانيه المسلمون من تمزق عضوى ينشأ عن الخلافات المذهبية ؟

بالطبع إن المعاناة من المخالفات المذهبية فى إطار البيئة الإسلامية مما يتخذه خصوم الإسلام إصبعا لهم يتلاعبون به بين العلاقات ، ويعتمدون عليه فى إثارة الفتن وتمزيق الروابط ، ووضع الحواجز النفسية والوجدانية والعقدية بين المسلم وأخيه المسلم ، ولذلك فإن من أهم واجبات المسلمين بصفة عامة ، والأزهر بصفة خاصة ، أن يجمعوا كلمة المسلمين على مااشترك بينهم من عقائد صحيحة ، وأن يتبادلوا وجهات النظر فيما هو خارج عن العقيدة من ممارسات أوتشريعات قد يختلف فيها البعض عن البعض الآخر . فلربما يكون التفاهم حول وجهات النظر المختلفة مؤديا إلى التقارب وجمع الكلمة .

وماذا عما يمارس من بعض الأفراد المسلمين أوالطوائف أحيانا من مزايدات أوتشنجات أوتصورات مغالى فيها ؟

واجب علماء المسلمين الذين اختصهم الله بسعة فى الفهم ، وإصابة فى الرأى وإحاطة بأصول الاجتهاد وأبعاد الشريعة وروح الإسلام ، أن يعملوا على إزالة هذه المبالغات وذلك الانحراف فى الفهم . . درءا لعوامل الفتن بين المسلمين والخلاف بين أبناء الدين الواحد .

وماهى خطة الأزهر الجديدة لعلاج مايمارس فى المجتمع الإسلامى من الفكر الدخيل ، ومقاومة التيارات الوافدة والأيديولوجيات المتناقضة مع الإسلام ؟

واجب الأزهر والمسلمين – أفرادا وجماعات وشعوبا وحكومات – أن يعملوا جادين على درء هذه الأخطار . ولايستطيعون ذلك إلا إذا فطنوا إلى أساليب الغزاة بهذا الفكر ومناهجه التى تقوم على التظاهر باعتناق مبادئه ، واستقطاب بعض جماعاته ، وينادون ببعض شعاراته حتى إذا أمنهم المسلمون واغتروا بهم ، فوثقوا فيهم . . هنا يظهرون بوجههم الحقيقى ، ويتنمرون لكل ماهو إسلامى . . لأن مبادئهم التى يضمنونها لهذا الفكر الدخيل ، تتنافى كل المنافاة ، مع المبادئ الأصيلة للدين الإسلامى والقيم الرفيعة لآدابه وأخلاقه وصدق الله العظيم إذ يقول : (وما يستوى الأعمى والبصير ولاالظلمات ولاالنور ، ولاالظل ولاالحرور ومايستوى الأحياء ولاالأموات) .

لابد إذن للأزهر فى تطلعه الجديد . . من إطار مع الشباب والنشئ المسلم . . ماهو فى رأى فضيلتكم ؟

بالنسبة للشباب والنشئ لابد من التوعية بالحقائق والقيم الإسلامية سعيا وراء فكر إسلامى مستنير واضح ، لاتعقيد فيه ولاجمود . . وذلك يقتضى عرضا لبقاء يتلاءم مع متطلبات حاجات الشباب الذى يعانى من بلبلات فكرية تدخل عليه الحيرة والتردد ، وتزج به فى متاهات من الشك وعدم اليقين .

إن ماذكرته فضيلتكم يتطلب الكثير من التحرك والجهد والتخطيط الدقيق فما هو محك النجاح فى هذه الرسالة ؟

الحقيقة أنه للنجاح فى كل هذه الجوانب سيعنى الأزهر – إن شاء الله – بدعم دعاته وعلمائه وطلابه بالأسس العلمية التى تساعد على ذلك وبمعارف العصر التى تزود الداعية بقوة من الإقناع ووضوح الحجة والإلزام للمفكرين .

كما أن الأزهر سيعنى بتأهيل العلماء والدعاة بمختلف اللغات الأجنبية السائدة فى المجتمعات الإسلامية على رقعة العالم ومن أهمها اللغات الأوربية التى تتحدث بها شعوب كثيرة من شعوب العالم ، وكذلك اللغات الأفريقية والأسيوية بحيث ترفع الحواجز وتزول العوائق التى تعوق رسالة الأزهر فى أنحاء العالم وتجعل من الممكن تخاطب الأزهر مع المسلمين حيثما كان موقعهم وموطنهم .

ويضيف فضيلة الإمام الأكبر فى نهاية حديثه الهام :

إن التزود باللغات لايساعد على مجرد التحدث مع المسلمين أوالتخاطب معهم وإنما يساعد أيضا على تكوين أجهزة فى الأزهر تكون ذات صلة قوية بما ينشر فى العالم الإسلامى حول الإسلام لترجمته والرد عليه . فتكون أجهزة ذات أخذ وعطاء تستفيد من ثقافات المجتمعات الأخرى وتفيد بنشر ثقافة الأزهر فى الخارج ، وعندئذ يقوى التجاوب ويتم التفاعل بين الأزهر والبيئات العلمية والدينية فى العالم الإسلامى .

الراعى والرعية

قال رسول الله ﷺ :

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته .

فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» .

رواه البخارى – واللفظ له – ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما .

صاحب الفضيلة الإمام الأكبر
دكتور محمد عبد الرحمن بيصار
شيخ الأزهر

ولد – حفظه الله – فى يوم الخميس . ليلة اكتمال البدر فى الخامس عشر من شهر شوال عام ١٣٢٨ الهجرى ، الموافق ٢٠ من اكتوبر عام ١٩١٠ الميلادى . .

وقد أتم فضيلته حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة ، ومن ثم التحق بالمعاهد الأزهرية حتى حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية . . ثم حصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين بتفوق . . وأتاح له تفوقه الالتحاق بقسم تخصص المادة (الدراسات العليا للدكتوراه) . . فحصل على شهادة العالمية من درجة أستاذ بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤٥ الميلادى . . وعين أستاذا بكلية أصول الدين فى نفس عام تخرجه . . وبعثه الأزهر ليتخصص فى تاريخ الفلسفة بجامعة أدنبرة (إسكتلندة) بالمملكة المتحدة فحصل على شهادة الدكتوراه من هذه الجامعة البريطانية عام ١٩٤٩ م . . ثم وافقت جميع حكومات الدول الإسلامية ليشغل منصب مدير المركز الإسلامى بلندن . . ثم تم هذا الاختيار الإسلامى الدولى ليكون مديرا للمركز الإسلامى بواشنطن . . وفى هذه الفترة اهتم فضيلته بنشر الدعوة الإسلامية على المستوى العالمى . . وغزا الأوساط العلمية فى عواصم الدول الغربية بالترويج للأفكار والمبادئ الإسلامية ، كما اهتم بالتوفيق والتقريب بين الخلافات المذهبية والطائفية والسياسية فى العالم الإسلامى ، ثم عاد إلى مصر ليشغل منصب الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر . . ثم اختير أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية . . ثم وكيلا للأزهر فوزيرا للأوقاف وشئون الأزهر . . ثم وقع عليه اختيار رئيس الجمهورية فعينه شيخا للأزهر وإماما أكبر للمسلمين .

ياخير أُمة أُخرجت للناس أين أنتم ؟

على هامش حاضر المسلمين وماضيهم

فضيلة الشيخ/ مصطفى محمد الطير

كنتِ ياخير أمة أُخْرِجت للناس كوكباً دريا يهدى الحيارى إلى سواء السبيل ، وملاذاً منيعا يحتمى به اللائذون ، ومأمنا مرهوبا يأوى إليه الخائفون ، وعملاقا جبارا يرتعد منه الذئاب والمتنمرون فماذا جرى حتى أصبحت ذكرى ولم تعودى تلك الحقيقة الكبرى .

قال لى قائل : أفلست تراهم يملؤون نواحى الغبراء ويُعَدُّون بمئات الملايين ، فكيف لاتراهم وهم يكثرون ولايقلون ، وينتشرون ولاينكمشون .

قلت له ياصاحبى : هؤلاء الذين نتحدث عنهم أسماء بلامسميات ، وأثر بعد عين ، وغثاء فوق منحدر الوادى ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، يقولون مالايفعلون تتناوشهم الذئاب ، ولايتألم منهم أخ لِمُلمَّة بأخيه ، وتنتابهم الأحداث وهم عن اتقائها غافلون ، أليس هؤلاء هم الذين قال فيهم الرسول المعصوم محمد ﷺ « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأَكَلَةُ إلى قصعتها ، قيل يارسول الله : فَمِنْ قلة نحن يومئذ ؟ قال لا ، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، يُجْعَلُ الوهْن فى قلوبكم ، ويُنْزَعُ الرعبُ من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » أخرجه أحمد وأبو داود عن ثوبان .

أليس هذا الحديث يمثل حاضر المسلمين اليوم ، فهل تعتقد ياصاحبى أن المسلمين وهم على ماهم عليه الآن ، هم الذين عناهم الكبير المتعال بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) أترى أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله حق الإيمان ، أليس منهم حلفاء الشيوعية ، وأصدقاء الماركسية ، فوالله لوكانوا على نحو من الإيمان متين ، ومن العمل بالكتاب والسنة مستقيم ، لنصرهم الله كما نصر أسلافهم ، ولأعزَّهم كما أعز من قبلهم (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

المسلمون بعد وفاة الرسول :

انتقل محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقد أرسى قواعد التوحيد فى الجزيرة العربية ، وجمع الناس فيها على دين واحد ودولة واحدة ، يسود العدل قويهم وضعيفهم ، ويتجلى المجتمع الفاضل بين طبقاتهم ، أمرهم مجتمع وكلمتهم واحدة ، لاطمع يفرق بينهم ، ولاحفيظة تشق صفوفهم ، رهبان بالليل فرسان بالنهار ، إن طمع فيهم طامع نفروا سراعاً لتأديبه وردعه ، وإن سالمهم مسالم كانوا إلى السلام أسرع منه ، وإن انشق عنهم منافق أو واهن الإيمان قاتلوه وأدَّبوه .

فهذا أبو بكر رضى الله عنه لمَّا ولى الخلافة بعد الرسول ﷺ ومَنَعَ الزكاة ضعافُ الإيمان ومُحْدَثوه ، وارتد ناشئوه ومتأخروه ، شمَّر عن ساعد الجد ، وأزره المجاهدون والأنصار وقدامى المؤمنين من القبائل ، وكان منهاجه الذى سلكه أن يقاتل مانعى الزكاة ، لأنها أحد أركان الإسلام ، فلو تساهل فيها معهم ، لتطرَّق الخلل إلى سائر الأركان ، ولتداعت قواعد الإسلام ، لهذا قال فيهم مقالته الشهيرة « والله لومنعونى عَنَاقاً[1] كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليها » وكما قاتلهم قاتل مدعى النبوة والمرتدين ، حتى انتهى أمرهم وخلص الدين لله رب العالمين ، وبالجملة ففى خلافته القصيرة الأمد ، قضى على جميع الفتن التى جدت عقب الفجيعة الكبرى بوفاة رسول الله ﷺ ، واستتب الأمر للإسلام فى الجزيرة العربية واستشهد فى حروبه كثيرون من القراء وكرام الرجال فى معركة اليمامة وغيرها ، وكانت الشهادة عندهم أحلى من نعيم الحياة ، ثم قام عمر ابن الخطاب بالأمر بعده ، فنظم الدولة الإسلامية واختار لها ولاة من عظماء الرجال الذين لاتأخذهم فى الله لومة لائم ، وفتح مصر والشام وبلاد الفرس ، وعلا صوت المؤذن هنا وهناك . الله أكبر الله أكبر لاإله إلا الله ، وغزا بلاد الروم وقضى على شوكتهم فى آسيا وأكمل مابدأه أبوبكر من الجد فى نشر الدعوة الإسلامية ، وإليكم أيها القراء الكرام مثلا لجهاد المسلمين فى عهده ، لعل فى ذكره عبرة للمعتبرين وموقظا لأهل الكهف الراقدين .

عبورهم دجلة لإسقاط عاصمة الفرس

كان سعد بن أبى وقاص قائداً لقوات المسلمين فى العراق فى عهد عمر ، وقد انتهت فتوحاته يوما عند دجلة قبالة المدائن

(١) العناق الأنثى من أولاد المعز .

عاصمة كسرى ملك الفرس ، وفيها إيوانه ، ولما رأى نهر دجلة يحول بين جيوشه وبينها خاطب جنوده قائلا : قد عزمت على قطع هذا البحر إلى العدو ، فماذا ترون ؟ فقالوا عَزَم الله لنا ولك على الرشد فافعل ، فندب الناس للعبور ، واختار منهم ستمائة من أهل النجدات ، وجعل عليهم عاصم ابن عدى ذا البأس الشديد ، فاختار عاصم منهم ستين فارسا وجعلهم على خيل ذكور وإناث ، ليكون أَسْلَسَ لسباحة الخيل ، ثم اقتحم بهم دجلة ليحمى المسلمين الذين يعبرون بعده ، فلما رآهم الفرس أخرجوا لهم مثلهم ، فخاضوا دجلة وكانت مليئة بالماء ، فلقيهم عاصم وصحبه وقد قُربوا من الشاطئ ، فقتلوا وأغرقوا أكثرهم ، وفرَّ من سلم منهم مشوها ، وتلاحق بعدهم باقى الستمائة ، ولما رأى سعدٌ عاصما ورجاله على الشاطئ يحميه ويذود عن المسلمين ، أذن للجنود أن يقتحموا وقال : قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه . حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرنَّ الله وَلِيَّه ، وليظهرن دينه ، وليهزِمَنَّ عدوه ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم وتلاحق الناس فى دجلة . وإنهم ليتحدثون كما يتحدثون فى البر ، وطبَّقوا دجلة حتى مايُرَى من الشاطئ شىء لكثرتهم ، وكان يسايرُ سَعْداً فى الماء سلمانُ الفارسى ، فعامت بهم خيولهم وسعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزِمَنَّ عَدُوَّه إن لم يكن فى الجيش بَغْىٌ أوذنوب تغلب الحسنات ، فقال سلمان : الإسلام جديد ، ذُلِّلَتْ والله لهم البحور كما ذُلِّلَ لهم البر ، أمَا والذى نفسُ سَلمان بيده ، ليخرُجُنَّ منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا ، فخرجوا منه كما قال سلمان . لم يفقدوا شيئا ، ولم يغرق منهم أحد ، ثم حملوا على المدائن ففتحوها وقال فى ذلك أبو بُجَيْدٍ نافع بن الأسود :

وأَمَلْنا على المدائن خيلا
بَحرُها مِثْلُ بَرِّهِنَّ أَريضا[1]
فانتثلنا خزائن المرء كسرى
يوم ولَّوا وخَاضَ منها جريضا[2]

ولما دخل سعد الإيوان قرأ قوله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع) إلى قوله (وأورثناها قوما آخرين) من سورة الدخان ، وصلى فيه صلاة الفتح ثمانى ركعات لايفصل بينهن . ومن بعد أبى بكر وعمر فتح الخلفاء الممالك ، ووسعوا رقعة الأرض الإسلامية ، ونشروا فيها كلمة التوحيد ونور العلم والأخلاق ، وحكموا

---

(١) كثير الخير .
(٢) أى مغمومًا .

الناس بشريعة الله العادلة ، فهابَهُمُ القريب والبعيد ، والقوى والضعيف .

وكان الناس من وراء دولة التوحيد والعلم والأخلاق مابين قبائل همجية ودول بدائية فاقتبسوا مع الزمان من نورهم ، واغترفوا عبر الأجيال من ينابيع معارفهم .

تبدُّل الحال بعد السلف الصالح

ثم تبدلت الأمور وحال الحال فبعد أن كانوا أمة واحدة أمرها مجتمع ، أصبحوا أمما كثيرة أمرهم متفرق ، وصدق فيهم قول الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين ومنبر

إنك تجد الآن خير أمة أخرجت للناس عشرات الأمم ، وقد فرقت بينها الأهواء ، ومزقتها العداوة والأغراض إن رضيت دولة منهم أمراً سخطته أخرى ، يرون مصالحهم متعارضة ، ويعلم الله أنها لم تكن من قبل متناقضة ، إنك ترى بأسهم بينهم ، وكان الأجدر أن يكون بين عدوهم ، تولَّى بعضهم أعداء الإسلام وحالفوهم ، ليكيدوا لإخوانهم فخانوهم ، ولسوف يبيعونهم من بعد لأعدائهم ، كما فعلوا بغيرهم .

يا أبناء إسماعيل

إن الهدف الأساسى من مقالى هذا أن تجتمع كلمتكم ياأبناء إسماعيل ضد أعدائكم ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، والطريق إلى ذلك منهج أساسه الحب والتعاون ، والسياسة الموحدة ، والنظام العسكرى الموحد ، والقيادة المشتركة ، وبذل المال بسخاء فى تقوية الجيوش ، واجتماع الكلمة فى المجامع الدولية ، وصفاء النفوس بحيث يكون الباطن والظاهر سواء ، بهذا وأمثاله لايجد الأقوياء سبيلا لتمزيقكم وتفريق كلمتكم وتوهين قواكم .

أىُّ مانع من أن تكون فيكم ممالك وجمهوريات متعاطفة ، يحنو بعضها على بعض ، ويَسْعَدُ بعضُها لرخاء بعض ، أى مانع من أن تعين كل دولة أختها على النهوض من كبوتها ، كونوا أيها الأمجاد كيف شئتم من ألوان الحكم التى ترضونها لأنفسكم ولبلادكم ، ولتكن لكم فيما وراء ذلك سياسة إسلامية موحدة ، يسود بينكم التشريع الإسلامى ، وتربط بينكم عقيدة التوحيد ، ومبادئ القرآن والسنة المطهرة ، كونوا كالجسد الواحد ، إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ،

وتلك هى أضعف أواصر الوحدة ، حتى ييسر الله لها أسباب الكمال ، وتتداعى إليها القلوب ، وإن دُعِيتُم إلى خطة سلام فلاترفضوها ، ولاتتنكروا لمن يدعوكم إليها ، فالحرب ليست غاية وإنما هى وسيلة إلى السلام ، وقد دعاكم الله إلى مثل هذا بقوله (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) وقد كان النبى ﷺ قدوة لنا فى صلح الحديبية الذى كان خيرا وبركة على الإسلام والمسلمين ، وقد جرَّبه الملك صلاح الدين بعد انتصاره على الصليبيين وإخراجهم من معظم البلاد ، حيث أبقاهم فى المنطقة التى تعرف الآن بلبنان ، وأبقى معهم من شاء من المسلمين .

التجمع العربى ثم الإسلامى

إن التجمع العربى ثم الإسلامى هو السبيل إلى هيبتكم فى هذا المجتمع الدولى الغافل عن مآسى المستضعفين ، وبغير وحدتكم أوترابطكم القوى – على الأقل – لن تصلوا إلى اطمئنان على مستقبلكم فى مجتمع دولى ظالم ركب هواه ، ورجَّح مصالحه على مصالح سواه ، إنكم لاتجدون فيه مظلوما أُنصِف ، ولامعتديا عوقِب ، إن الأمم المتحدة هيكل بغير روح ، ومعبد بغير صلاة ، وقبلة بغير قداسة ، وميزان بغير عدالة ، وبغير القوة لايصل أحد إلى حق ، ولاقوة بغير تجمع ، ولاعزة لمن سلك سبيل التنازع (ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) .

عبرة الأندلس

هذه الأندلس الأموية العظيمة ، نشرت العلم والعرفان فى غرب أوروبا وكانوا يومئذ فى جهالة القرون الوسطى ، هذه الأندلس التى خرَّجت أكابر العلماء فى كل فن من فنون العلم ، وزخرت مكتباتها بنفائس المؤلفات ، وشع من أفقها نور العلم على الخافقين ، لمَّا نخر فى جسمها سوس التَّفَرق ، وأصبحت دويلات يحكم كل دولة منها ملك ، شُغِلَ ملوكُها بأبهَة الملك الكاذبة ، وعكفوا على اللذات والشهوات ، فضعفت قواهم ، وذهب ريحهم ، وكاد بعضهم لبعض ، واستعانوا على هذا الكيد بجيرانهم الطامعين فيهم من غير دينهم ، فأعانوا بعضهم على بعض – واحدة بعد أخرى – ثم ابتلعوهم دويلة بعد دويلة ، حتى إذا لم يبق منهم سوى بنى الأحمر فى إقليم غرناطة ، كانت الحرب بينهم وبين هذه الدولة المجاورة الطامعة متتابعة ، وكانت دُولَةً بينهم وبين خصومهم ، فيوماً لهم ويوما عليهم ، وكان

بنو الأحمر حين يُهزَمُون يغلقون دُورَهم ليعودوا إليها فى اليوم التالى حيث ينصرون ، فلما جاءت الطامة الكبرى أغلقوا دورهم ثم لم يعودوا إليها ، فقد هُزِمُوا ومزَّقهم أعداؤهم شر ممزق ، كما مزقوا سواهم ممن سبقهم ، وشردوهم فى الآفاق كما شردوا من قبلهم ، وَنَصَّروا من بقى منهم ، واستولوا على مساجدهم العظيمة وعلى قصورهم الجميلة الفخمة ، ورياشهم الفاخرة التى لم تر الدنيا مثلها ، وقضوا على نفائس العلم فى مكتباتهم ، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

ولما انتهت المعركة مع بنى الأحمر إلى الهزيمة الحاسمة ، صعد ملكهم فوق ذروة جبل هناك ، وجعل يبكى ملكه المضاع ، فقالت له أمُّهُ العظيمة :

ابْكِ مثل النساء ملكا مضاعا
لم تحافظ عليه مثل الرجال

يقول المرحوم العلاَّمة المؤرخ أحمد زكى (باشا) إنه لما زار إسبانيا رأى عيداً لهم يسمونه عيد الفطير ، وعلم منهم أن بنى الأحمر يوم أن هُزِموا تركوا فطيرا صنعوه فى عيد شعبى لهم صادف هذا اليوم الحزين ، فوجده الغزاة المنتصرون ، فأكلوه وجعلوا هذا اليوم عيداً شعبيا يأكلون فيه الفطير على نحو ماكان عليه أهل الأندلس .

أترون أيها المسلمون . لو بقى الأندلس على وحدته ، أكانت تحدث له هذه الكارثة الرهيبة ، كلاًّ ماكان يمكن أن يحدث له هذا الخطب الجلل بل كان يظل منارة هادية للعالمين .

أنصروا الله ينصركم

أيها المسلمون وأيم الله لو نصرتم الله لنصركم كما نصر أسلافكم (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ونصرُكم لله يكون بنصر دينه كما قال تعالى (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) فالذين ينصرهم الله هم الذين إن مكنهم فى الأرض أقاموا الصلاة ولم يضيعوها ، وآتوا الزكاة ولم يبخلوا بها فأمروا بما عرفوه مطلوبا فى دينهم ، ونهوا عما أنكره كتابهم وسنة نبيهم ، وإذا أمروا بمعروف كانوا أسبق إلى فعله ، وإذا نهوا عن منكر كانوا أسبق إلى تركه ، فإن فعلتم ذلك نصركم الله على أعدائكم ، وإلا فلاتلوموا غير أنفسكم

الشباب المسلم بحاجة إلى تبشير

ألا وإن المسلمين بحاجة إلى التبشير فى

بلادهم ، وبخاصة شبابهم ، إنهم ولَّوا ظهورهم للدين ، ونبذوا القيم الإسلامية الرفيعة ، وتخلقوا بأخلاق ينكرها العرف والتقاليد الإسلامية إنك اليوم لاتعرف الفتى من الفتاة ، وربما كانت الفتاة إلى الفتيان أقرب شبها فى زيها ، إنك لاتدرى سر هذه الميوعة فى نفوسهم ، أهو التخنث ، أم هو التقرب إلى نفوس الفتيات بالمظهر المتقارب ، إن الفتيات لايحُبن إلاالأقوياء فى مظهرهم ومخبرهم وجدهم ورجولتهم .

إن كتب الجنس الفاضح تتسرب إليهم بسهولة فتغزو غرائزهم وتحطم معانى الجد والشهامة والنخوة فيهم ، وتصرفهم إلى هدم أخلاقهم ودينهم ، وتُدَمِّر الأمَل المعقود عليهم فى أممهم .

إن التمثيليات الماجنة والأفلام المنحرفة تمزق أخلاق الأسر ، وتبنى جيل الصغار على استباحة القبلات الحارة ، والعناق الطويل ، والحب الفاجر .

إن الشباب يتعرض لغزوات الإلحاد من كتب الملحدين ونشراتهم ، فهم يجدونها بيسر وسهولة ، ويستسلمون لما فيها من التحلل من كل رباط بالثواب والعقاب والجنة والنار ، وهيمنة الحى القيوم على المُلْكِ والملكوت وإن من المجتمع الإسلامى من يفاجأ ببعض أولاده أوإخوته منحرفين ملحدين .

إن ترك الشباب لهذه العوامل بدافع حرية الرأى ، أخطر على الأمم من الغزاة الأجانب ، إنهم سيكونون يوماً ما من أكبر عوامل الهدم فى الأمم الإسلامية .

فلماذا يُتْرك الأمر لهؤلاء وأولئك دون رقيب أوحسيب ، ودون قانون رادع وعقاب زاجر ، اعصموا الشباب بمنع كتب الجنس من التداول ، وكتب الإلحاد من الانتشار ، والأفلام الصارخة من العرض ، والتمثيليات الماجنة أوالمتلصصة الحافزة على الجريمة من الإذاعة ، وسنوا القوانين الملزمة بالاستقامة والحفاظ على الأخلاق والعقائد ونفذوها بحزم ، أدركوا المخاوف قبل أن تستفحل ويصعب درؤها ولاشك أن الوقاية أهم من العلاج وأيسر منه .

إن كثيرا من الشباب لايغشى المساجد ولاأندية الوعظ والإرشاد حتى يُحفَظُوا بالهداية من الغواية ، فلابد من عقد الندوات لهم فى أنديتهم وفى جامعاتهم ومدارسهم ، وأن يكون حضورها ضروريا كحضور المحاضرات ، وأن يكون الدين مادة تدرس فى كل شعب الجامعات والمعاهد العليا .

كلمة إلى الأبناء والآباء

ياأبناء الوطن الإسلامى ، أنتم أمل أممكم فى عزة أوطانكم ومجد بلادكم فانهضوا بدينكم ، واعرفوا حقوق أوطانكم ، وتخلقوا بالخلق النظيف فيما بينكم ، ودعوا استيراد العادات البغيضة من غير بلادكم ، وادرسوا دينكم لتعرفوا مافيه من محاسن ومحامد ، وتتخلقوا بما فيه من أخلاق زكية ، وآداب رفيعة ، واحتشموا فى ثيابكم فإن الحشمة لاتمنع جمال المظهر .

وأنتم أيها الآباء مسئولون بالدرجة الأولى عن أبنائكم وبناتكم ، فإن صلحوا صلح أمرهم وأمركم ، وإن فسدوا كانوا شراً عليكم وعلى أنفسهم وأمتهم ، فنشِّئوهم على الخلق الفاضل والأدب الكريم ، والاستمساك بالفضيلة ، وأداء الصلاة فى أوقاتها ، وصحبة الأخيار وتجنب الأشرار ، وكونوا قدوة لذويكم ، فلاتأمُرُوا بالمعروف وأنتم تاركوه ، ولاتنهوا عن المنكر وأنتم فاعلوه ، لاتتركوا فرائض الله ولاتَغْشَوْا حُرُماته ، وكونوا قوماً صِيحَ بهم فانتبهوا وأرشدوا فاسترشدوا ، واعلموا أن الله لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة أوالنار إلاالموت أن ينزل به ، ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ومَنْ لم يعملوا بكتاب الله وسنة نبيهم ﷺ ، ضربهم الله بالذل وسلط عليهم عدوهم ، ألاهل بلغت اللهم فاشهد .

مصطفى محمد الحديدى الطير

شىء من أخلاقه ﷺ

كان ﷺ أشد الناس تواضعاً ، وأبعدهم عن كبر يعود المساكين ويجالس الفقراء ، ويتفقد أحوالهم ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم وحينما انتهى به المجلس جلس . خرج يوماً على أصحابه فقاموا فقال :

لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» .

نبذة تاريخية عن فضيلة الشيخ
مصطفى محمد الحديدى الطير
وأعماله ونتاجه العلمى

١ – ولد بمدينة المنزلة دقهلية بتاريخ ١٩٠١/٩/٧

٢ – حصل على شهادة العالمية وفقا لقانون رقم ١٠ وحسب النظام الذى وضعه العلامة الكبير الشيخ محمد شاكر والد المحقق ورجل السنة الشيخ أحمد شاكر ، وقد تخرج على هذا النظام كبار علماء الأزهر ورواد النهضة العلمية الأزهرية فى القرن العشرين ، فقد بدأ العمل به سنة ١٩٠٨ م .

٣ – حصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٢٩ بسبب حصوله على أعلى الدرجات وكونه أول دفعته فى الشهادة العالمية كما هو مسجل بالوقائع المصرية (الجريدة الرسمية للدولة) .

٤ – حصل على شهادة التخصص القديم فى التفسير والحديث وعلومها ، وفى التربية وعلم النفس سنة ١٩٣٢ .

٥ – تدرج فى الوظائف الأزهرية ، فكان مدرسا بالمعاهد الأزهرية فشيخا لمعهد دمياط الأزهرى بقسميه ثم أستاذاً للتفسير فى كلية أصول الدين والدراسات العليا ، وقد تخرج على يديه أجيال من العلماء بمصر والعالم الإسلامى ، وكثير منهم يتولون مراكز قيادية هنا وهنالك .

٦ – له نشاط اجتماعى ودينى ، وقد استطاع بتوفيق الله أن يغلق مدرسة تبشيرية بروتستانتية ببلده المنزلة ، وكانت تديرها مس اسطانس ، وكادت تنجح فى تنصير بعض الفتيات ، فدعا الناس إلى مقاطعتها وبيَّن أخطارها وطلب إليهم إخراج بناتهم من مدرستها فاستجابوا ، وحصل على وثائق تدينها وبعث بها إلى فضيلة شيخ الأزهر ، وبين المضار المترتبة على التسامح مع المبشرين ، فجمع شيخ الأزهر هيئة كبار العلماء ، فقررت جمع تبرعات من الناس لتنشيط التوعية ضد المبشرين ، فأقبل الناس على التبرع حتى وصل ماجمع

إلى سبعمائة وخمسين ألف جنيها ، ولكن دار المندوب السامى وقتئذ وقفت ضد المشروع ، وتحول المال إلى خزينة الدولة غير أن الحركة لم تخمد ، بل شب أوارها فى بورسعيد ثم فى أسيوط ضد مراكز التبشير الأجنبى المسعور ونجحت الحركة ، وباء المبشرون بالفشل ، وكان ذلك سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٣ .

٧ - يكتب فى كثير من مجلات العالم الإسلامى دفاعا عن الإسلام ، وتجميعا للمسلمين وتوعية لهم وتحذيرا من الفرقة .

٨ - له مؤلفات علمية كثيرة منها :

١ - عقد الجمان فى تبيان غريب القرآن .

٢ - الإسلام يحارب الجوع .

٣ - هادى الأرواح .

٤ - نافذة على الإيمان .

٥ - غذاء الأرواح .

٦ - البهائية فى الميزان .

٧ - الهجرة المحمدية .

٨ - التفسير المعاصر -نقد وتوجيه -

٩ - من أمجاد الرسالة المحمدية .

١٠- أقباس من نور الحق .

١١- توضيح النسفى .

١٢- أضواء على بعض ماالشتبه من أخبار الأنبياء .

الجهات العلمية التى يسهم فى نشاطها

١ - مجمع البحوث الإسلامية حيث يلى فيه رياسة لجان التفسير الوسيط وتحقيق وتخريج جمع الجوامع والتوفيق بين النصوص المتعارضة فى السنة .

٢ - تحرير قسم الدراسات القرآنية بمجلة الأزهر .

٣ - عضو بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، قسم القرآن والسنة .

كيف نطبق النظام الإسلامى فى العهد الحاضر ؟

العلامة / أبو الأعلى المودودى

(سبق أن نشرنا الحلقة الأولى من المقابلة التى أجرتها إذاعة باكستان مع الأستاذ أبو الأعلى المودودى وكان عنوانها : « أسلوب الرسول ﷺ فى الحكم » . وننشر الآن الحلقة الثانية وهى الحلقة الأخيرة من تلك المقابلة وعنوانها : «كيف نطبق النظام الإسلامى فى العصر الحاضر» (خليل الحامدى) .

سؤال :

ياصاحب السماحة : لقد وضحتم لنا فى الحلقة الإذاعية الأولى ماكان للرسول ﷺ من أسلوب فى الحكم . ولكن السؤال الذى يطرح نفسه فى هذا المقام هو : لانستطيع أن نجد اليوم شخصية مثل شخصية الرسول ﷺ تجمع بين جميع الكمالات والمكارم ، ولانجد كذلك جماعة مثالية ربّاها النبى ﷺ بأروع التربية وأمثلها كجماعة الخلفاء الراشدين والصحابة رضى الله عنهم ، ولاالمجتمع الذى كوّنه النبى ﷺ فى منتهى النظافة ، ولاالتربية الخلقية التى امتاز بها عهد النبى ﷺ . وإذا أردنا البدء فى تطبيق النظام الإسلامى فى المجتمعات المعاصرة فكيف لنا أن نصوغ الخصائص الأربع التى ذكرناها ، فى الحلقة السابقة ، والتى تعتبر خصائص الدولة العصرية فى قوالب النظام الإسلامى ، ثم ماذا سيكون الترتيب والتدريج الذى نأخذ بهما لأجل تحويل المجتمعات الفاسدة الحالية إلى المجتمعات الصالحة . الرجاء أن تتفضلوا مشكورين بإلقاء الأضواء على هذه التساؤلات ؟

الجواب :

إن أول أمر يجب أن تفهموه جيدا فى هذا الصدد هو أن الشىء الذى نصفه بالنظام الإسلامى لاتستطيع حكومة عديمة الإيمان بالله وفاقدة السلوك المستقيم تسييره أبدا . فالإرادة الخالية من خشية الله

لاتستطيع تطبيق الإسلام . كذلك لايمكن أن يقوم الإسلام بصورة سليمة فى مجتمع يكون وضعه الخلقى سيئا بصفة عامة . بل تبذل الجهود المستمرة لتخريبه . وكما تعلمون عشنا مدة من الزمن فى ظل نظام الملوك المسلمين فى شبه القارة الهندية ، الذى لم يكن إسلاميا بمعنى الكلمة ، ولكنه مع هذا كان القانون الإسلامى هو الذى كان يسود المجتمع . وكان أهل العلم والدعوة يتولون مهام تربية الناس وإصلاحهم . ولأجل ذلك فالمجتمع فى ذلك العهد الملكى على رغم أنه لم يكن على مستوى المجتمع الذى كان فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد الخلفاء الراشدين لم تكن حالة الناس الخلقية فاسدة فيه بدرجة الفساد الذى طرأه فيما بعد ، ولم يكن الناس كذلك على جهل بالإسلام بقدر ماأصبحوا جاهلين به فيما بعد .

إن شرب الخمور كان عندهم نادرا جدا وكذلك المحرمات الأخرى . وصحيح أن بعض الناس كانوا يزاولون المنكرات ويرتكبون الآثام ولكنهم لم يكونوا يرتكبونها على مرأى من الناس ومسمعهم .

وحينما قامت الحكومة الإنكليزية أول ماقامت فى البنغال فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى كان الأمر بحيث كتب بعض الكتاب الإنكليز : « إن حوادث السرقة كانت منعدمة إذ كانت تقتطع يد السارق . ولم يكن يتوقع أحد أن يكون المسلم كاذبا . بل لم يكن يتصور أحد أن المسلم يشهد شهادة الزور أمام المحكمة . وعامة المسلمين كانوا مثقفين . بل كانت نسبة التعليم مائة فى المائة » . هذا مابقى عليه المسلمون إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى فى الهند .

ولما احتل الاستعمار الإنكليزى هذه القارة غيّر نظام القانون فيها ، وغيّر نظام الاقتصاد فيها ، وبث فى نظامنا الاجتماعى آثارا سيئة جدا . فأصبح النظام الإسلامى للتعليم والتربية مثلا يعانى عجزًا ماديا لأن الحكومة تخلت عن رعايتها وصارت المعاهد الإسلامية لاتسير إلا بمعونة الأثرياء من المسلمين . وأغلقت الحكومة أبواب الرزق على خريجى تلك المعاهد . بينما النظام الإنكليزى للتربية والتعليم الذى روجه الإنكليز فتح أبواب الرزق على مصراعيها فى وجه خريجه فى جانب ، وفى الجانب الآخر شرع ذلك النظام بمبادئه وأسسه الهدّامة يمحو من أذهان المسلمين التصورات القائلة بالإيمان بالله والرسول واليوم الآخر . هذا ماورثناه من العهد الإنكليزى .

ومن المؤسف جدا أنه لم تبذل محاولات جدية فى تبديل هذه الأوضاع بعد قيام

باكستان ، بل لاأبالغ إذا قلت إن الفساد الذى طرأ على المسلمين فى مدة ثلاثين سنة مضت هو أكبر حجما وأكثر اتساعا من الفساد الذى لحق بهم طيلة العهد الإنكليزى . وإذا قامت حكومة إسلامية اليوم وأرادت تحسين تلك الأوضاع لانتوقع منها أن تقلبها ظهر المجن وتعود إلى الحياة الإسلامية بكامل الوجوه بين عشية وضحاها .

ولكى نبدأ فى تطبيق النظام الإسلامى لامناص لنا من أن يتولى زمام الحكومة أشخاص يكرّسون جميع وسائل الإعلام ، وجميع أجهزة التعليم وجميع الأنظمة الإدارية فى نشر الوعى الإسلامى بين عامة المسلمين وفى إصلاح حالتهم الخلقية على أوسع النطاق ، وبقدر ماينتشر الوعى الإسلامى بينهم ، وبقدر ماتتحسن حالتهم الخلقية بقدر مايتهيأ الجوُّ للنظام الإسلامى الشامل .

وكنا نأمل بأن الحكومة التى ستتولى أزمة الأمور فى باكستان عقب انتهاء العهد الإنكليزى سوف تتخذ نفس المنهج الذى أشرت إليه ، أى سوف تستخدم كل طاقات الوسائل الإعلامية فى إنعاش العقائد الإسلامية وإنشاء الخلق الإسلامى السليم فى عامة المسلمين ، وسوف تضع نظاما للتعليم والتربية يكوّن من عامة الأفراد عنصرًا صالحا للمجتمع الإسلامى ، ومواطنا مخلصا للدولة الإسلامية ، وسوف تقضى على نظام التعليم الذى ينشر الإلحاد . وتروج مكانه نظاما للتعليم يدعو إلى الإيمان بالله وإطاعته . وسوف تحاول جعل الناس يميزون بين الحلال والحرام ، ولكن من سوء حظنا أنه لم يتحقق أمل من تلك الآمال الطويلة العريضة . ولو اتخذت الحكومة التى تولت أمور باكستان فى بداية الأمر كافة الوسائل والتدابير لتحقيق تلك الآمال لكان الوضع فيها غير الوضع الذى نحن فيه اليوم .

إذن لابد لنا اليوم من أن ننطلق من نقطة البداية ولامانع من أن تحاولوا فى تطبيق القوانين الإسلامية ، ولامانع من أن تدونوا تلك القوانين حتى تستطيع محاكمنا أن تحكم بها . إلا أنه لايجوز الاكتفاء بهذا الأمر حتى نقول إن النظام الإسلامى قد قام . بل يجب علينا أن نركز أكثر مانستطيع على أن ندرس فى جميع مدارسنا الابتدائية والثانوية وجميع كلياتنا وجامعاتنا التعليم الإسلامى ، وأن نستخدم جميع الوسائل الإعلامية فى تبصير المسلمين بما هو الإيمان والأخلاق ، بدلا من أن نستخدمها فى نشر الرذائل والمنكرات والجرائم . ويجب علينا

كذلك أن نبين لعامة الناس ماهى الأخلاق الإسلامية وماهى الأخلاق الكافرة ، وما هو الفارق بين هذه وتلك . وسبق أن قلت إن النظام الإسلامى لم يقم إلافى مجتمع عمّق فيه أساس الإيمان قبل كل شيء ، ثم أقيم على ذلك الأساس الوطيد نظام الأخلاق بكامله . ونظام الاجتماع بكامله . ونظام الاقتصاد بكامله ، ونظام السياسة بكامله ، ونظام القانون بكامله .

وإذا أردنا أن نعود إلى ذلك العهد المثالى فلابد لنا أن نعود بنفس الأسلوب ، لأننا إذا لم نعمق فى قلوب الناس دعائم الإيمان بالله ، والإيمان بالرسول ﷺ والإيمان بالقرآن والإيمان بالآخرة لاتثمر جهودنا بمجرد تبديل القوانين . إذ أنكم تعرفون جيدا كيف أن البوليس عندنا يملك مهارة فائقة فى اختلاق القضايا على الناس الأبرياء . بل إنه قد حاز قصب السبق فى هذا الشأن لحد أنه يستطيع أن يتحدى جميع العالم فى اختلاق القضايا وتزويرها وكذلك حدث عن الشهود ولاحرج . فإنهم يعتبرون أداء الشهادة الصادقة فى المحاكم إثما . لأنهم يعتبرون أن المحكمة ليست إلا مكان شهادة الزور . بل إن البوليس نفسه يصنع دائما فئة من الشهود الكاذبين مستعدة للشهادة الكاذبة فى أى وقت. هذه الأمور فقط إذا وضعتموها أمام أعينكم تستطيعون أن تقدروا من خلالها كيف يستقيم أمر القانون الإسلامى بصورة صحيحة مادامت الأجهزة المسؤولة عن نفاذ القانون بلغت من الفساد قمته .

ومع هذا وذاك علينا أن ندرس بكل دقة وإخلاص أساليب ناجحة لتنفيذ قانون الإسلام . وبجانب ذلك يجب على ولاة الأمور الحاليين أوالذين يأتون فى المستقبل أن يدخلوا إصلاحات جذرية على الجهاز التنفيذى . كما يجب عليهم أن يصلحوا نظام التعليم والتربية . وأن يستقطبوا جميع الوسائل لتعميق الإيمان فى قلوب الناس وإصلاح سلوكهم وجعلهم يخشون الله فى السر والعلن ، وفى المنشط والمكره .

السؤال :

باصاحب السماحة ! الشعب الباكستانى عبيد العصا ، هذا المثل كثيرا مايدور على ألسنة عامة الناس ، إذن فهل النظام الإسلامى كذلك لن يقوم إلابقوة العصا ؟

الجواب :

إن للعصا أيضا مكانا فى النظام الإسلامى ، ولكن ذلك فى آخر الأشواط .

والترتيب الفعلى فى الإسلام هوكما يلى : تبذل الجهود أولا وقبل كل شىء فى إصلاح الأذهان والأفكار بالتوجيه العام حتى تتخلى الناس عن الأفكار الفاسدة . ثم تكرس الجهود أضعافا مضاعفة فى تحسين أخلاقهم حتى يتهيأ فى كل حارة وفى كل دار جماعة من الناس الصالحين يقدرون التحكم فى عصابات المجرمين ، ويتولون مهمة إثارة جوانب التدين والأمانة والصلاح فى الناس وهكذا يمكن أن ينشأ فى البلد رأى عام لايسمح للمنكر أن يرفع رأسه . وإذا حاول أحد أن يتجه إلى الفساد فى مثل هذا الجو يجد فى طريقه العديد من العقبات والعراقيل . وإذا حاول أن يتجه إلى الصلاح والتقوى يجد المجتمع كله يشجعه على ذلك . ثم إن الإسلام يريد أن يكوّن مجتمعا يكون الناس فيه متراحمين متضامنين يواسى بعضهم بعضا ويناصر بعضهم بعضا فى حالات الشدة والبؤس . ويكون كل شخص فيه مؤيدا للعدل ومحاربا للظلم . ويكون كل شخص فيه يحرم نفسه من الطعام لو علم أن جاره نام جائعا . ثم إن الإسلام يقيم نظاما للاقتصاد يعتبر الربا حراما والزكاة واجبا ويغلق أبواب الكسب الحرام ويؤمن لكل مواطن تكافوء الفرص للكسب الحلال حتى لايبقى شخص يحرم من ضرورات الحياة .

وبعد هذه التدابير كلها يأتى دور العصا . لأن الشخص الذى لايستقيم أمره بدافع الإيمان ، ولابالتربية الخلقية ، ولابالتعليم ، ولابتوفير العدل له ، ولابتحسين الأوضاع الاقتصادية ، ولابالجو الصالح العام ، إن الشخص الذى لايستقيم أمره بكل ذلك ليس له من علاج إلاالعصا . فتستخدم عليه العصا بصورة علنية يكون عبرة لجميع الأشخاص الذين تراودهم النفس لارتكاب الجرائم وانتهاج طريق السوء .

ومن الخطأ الفاحش أن نتغاضى عن منهجية النظام الإسلامى ، ونتناول موضوع العقوبات فقط . وسبق أن قلت إن الإسلام يشرع ، قبل كل شىء ، بغرس الإيمان فى قلوب الناس ثم يأخذ فى تقويم سلوكهم فيأخذ بكل مايمكن من الأساليب والوسائل فى خلق رأى عام قوى لتنمية المعروفات وسحق المنكرات . ويقيم نظاما للاجتماع والاقتصاد والسياسة يضيّق مجال العمل السيئ ويسهل مجال العمل الحسن ، ويسد جميع الأبواب التى بها تنمو الفواحش وتنتشر الجرائم . وأخيرا بعد كل ذلك هو يستخدم العصا (أى القوة) لقمع كل أمر خبيث يرفع رأسه فى المجتمع .

ومن أظلم ممن يتحدث عن الإسلام فيجعل آخر تدابير الإسلام أولها ويمسح كل الحلقات الوسيطة مسحا إساءة لسمعة الإسلام وتشويها لديباجته الوضاءة .

السؤال :

فيما قلت عن الحكومة صحيح كل الصحة . فمادام لايتوفر للحكومة رجال يريدون بكل أمانة وصدق تطبيق الإسلام ويكونون فى مستواهم الخلق والعلمى صالحين لهذه المهمة الجليلة لايظهر الإسلام بمظهره الكامل ولايثمر نتائجه المرجوة . ولكن ينشأ السؤال هنا : ليس لتغيير الحكومة فى العصر الحاضر إلاطريق الانتخابات ، فهل تتفضلون واضعين أمام عينيكم عهد النبى ﷺ ، بإلقاء الأضواء على طريقة تجعل نظام الانتخاب الغربى المعاصر منسجما مع نظام الإسلام القائم على الشورى . فإلى أى حد وبأى أسلوب ؟

الجواب :

افهموا جيداً أننا مدعوون إلى أن نتقدم إلى الأمام من الوضع الذى نحن فيه الآن . وعلينا أن لانتغافل عن هدفنا الذى نريد تحقيقه . حتى لانضع خطوة إلاإلى ذلك الهدف شئنا أم أبينا . ومما لابد منه أن تكون نقطة انطلاقنا هى الانتخابات لأنه لايمكن أن نغير نظام الحكومة أو رجال الحكومة فى بلادنا إلابهذه الطريقة . ولانجد طريقة أخرى فى الوقت الحاضر نغير بها بصورة سليمة نظام الحكومة فعلينا أن نكرس كل جهودنا فى أن لاتستخدم طرق سيئة فى الانتخابات مثل الإكراه ، أوالتزوير ، أو استغلال العصبيات الإقليمية أو الطائفية أو النسلية أو القبلية ، أو الدعاية الكاذبة ، أوكيل السباب والفسوق للمنافس ، أو شراء الذمم ، أو تزوير أوراق الناخبين ، أو تزوير النتائج الانتخابية ، بل يعطى للناخبين حرية كاملة لينتخبوا من يشاءون من المرشحين الذين نزلوا فى المعركة الانتخابية .

ثم يفرض على الأفراد أو الأحزاب عدم دخول الانتخاب إلابطريقة معقولة : هى أن كل شخص أوحزب يدخل الانتخاب يقدم للجماهير بيانه الانتخابى ومايستهدفه من وراء نجاحه فى الانتخاب . ثم يترك الأمر إلى الناس لكى يختاروا من المرشحين من يشاءون ويرفضوا منهم من لايشاءون ، ومن المحتمل أن لاننجح فى دورة الانتخاب الأولى فى تغيير أسلوب التفكير ومقياس الاختيار عند عامة الناس . ولكن إذا بقى نظام الانتخاب مستقيما سليما

كما قلت فلاجرم أن يأتى يوم ينتقل فيه نظام الحكم بكامله إلى رجال من أصحاب الأمانة والصدق والإخلاص والإيمان . وبعد ذلك نستطيع أن نراجع نظامنا الحالى للانتخاب ونختار مكانه ذلك النظام المثالى من جديد يلائم تماما منهج الإسلام للحكم .

والذى أقصد من ذلك أننا لانستطيع أن نصل إلى هدفنا الذى نستهدفه طفرة وبوثبة واحدة .

السؤال :

ياصاحب السماحة ! هناك تساؤلات كثيرة تخالج الصدر . وندعو الله سبحانه وتعالى أن يسبغ عليكم الشفاء الكامل حتى نتمكن من جلسة أخرى مطولة معكم لمناقشة هذه التساؤلات .

ولكنى أحب أن أعرف منكم أن الدعوة التى جعلتموها نصب عينيكم فى الحياة ثم جاهدتم فى سبيلها طول الحياة وقد وصلتم اليوم – والحمد لله على ذلك – مرحلة تكاد تبلغ الدعوة هدفها المنشود . أحب أن أعرف منكم كيف تتصورون الأوضاع الحالية فى ضوء جهودكم التى بذلتموها حتى الآن : هل إن جهودكم صارت تثمر نتائجها المنطقية وهل قد حققتم فعلا انتصارًا لدعوتكم ؟

الجواب :

هذا سؤال يستعصى علىّ جوابه . من عادتى أن لاأدعى دعاوى فارغة ولاأثنى على نفسى . ولكن الذى لايخفى على أحد أن الجهود المتصلة التى بذلت فى ترويج الأفكار الإسلامية – ولم أكن وحدى فى هذا الميدان بل كثيرون غيرى كذلك استنفدوا جهودهم فى هذا المجال – أصبحت الطبقات المثقفة فى باكستان تحب الإسلام نتيجة لتلك الجهود . وصحيح أن أخلاق تلك الطبقات لم تبلغ المستوى المطلوب إلاأن حركة نشر الأفكار الإسلامية جعلتها تفهم الإسلام بصورته الصحيحة الكاملة وكذلك أثارت فى قلبها حماسا عارما لإقامة النظام الإسلامى .

إن مؤسساتنا التعليمية التى أقيمت على النظام الميكيافيلى للتعليم والتربية نشأ فى المؤسسات نفسها بفضل نلك الجهود جيل ظل يحب الإسلام حبا عميقا ويفهمه فهما جيدًا . وقد تواجهنا اليوم مسألة هامة وهى توعية الجماهير . وأنتم تعرفون أن عامة الجماهير فى باكستان أميون ونحن نفكر هذه الأيام كيف ننشر بينها الوعى الإسلامى .

وبما أن أغلبية الناخبين فى باكستان أميون وهم دائما عرضة للتضليل من قبل المغرضين والهدامين . ولأجل ذلك لاينعقد الانتخاب فى باكستان بصورة صحيحة وسليمة مهما حاول المثقفون عقده صحيحا بنسبة مائة فى المائة .

ومن واجب شبابنا المثقفين وعلمائنا الكرام فى هذه المرحلة أن ينصرفوا كليا إلى تبصير عامة الجماهير فى القرى والأرياف والمدن . وليس من الضرورى أن تكون عامة الجماهير قد تنال قسطا كبيرا من الثقافة فى المدارس والمعاهد . ولم ينتشر الإسلام فى عهد النبى ﷺ بالكتب . بل انتشر بالدعوة والوعظ والتوجيه العام . ولذلك ليس من الضرورى أن نجعل عامة الجماهير تقرأ وتكتب أولا ، ثم نفهمها الدين . بل علينا أن نأخذ بنفس الأسلوب الذى أخذ به النبى ﷺ وأصحابه من تعليم الجماهير شفاهيا وتبصيرها بما فرضه الله عليها من فرائض وواجبات ، وتوعيتها بما هو الحلال والحرام ، وغرس خشية الله فى قلوبها . وتحذيرها من عذابه الشديد على اقتراف الكبائر . وترغيبها إلى الأعمال الصالحة ومكارم الأخلاق . ونؤمن بأن آيات الله وأحاديث رسوله التى بدّلت العرب ظهرًا لبطن إلى ماقبل أربعة عشر قرنا تستطيع أن تحقق الغرائب والمعجزات اليوم أيضا ، بشرط أن نستعين بها لإصلاح المجتمع وتزكية النفوس وتربية الجماهير .

ومن الأهمية بمكان أن نقدم للناس توجيهات أصيلة من القرآن والسنة بما عليه من جلاء ووضوح . ونغرس فى قلوبهم الإيمان بالله ورسوله ﷺ ، ونقول لهم إنكم مهما استطعتم أن تستخفوا عن أعين الناس لاتستطيعون أن تستخفوا عن الله .

ومن الممكن أن تنجوا بأنفسكم من عقاب الناس ولكنكم لاتستطيعون بحال أن تنجوا من عذاب الله . وهناك كتاب يكتبه الكرام البررة عما تعملون . وهو سوف ينطق عليكم بالحق . ولابد لكل نفس أن تذوق ذائقة الموت ، وتحضر يوم القيامة أمام الله فيحاسبها على كل عمل من أعمالها ، وليس من المعقول أن تتركوا الصلوات الخمس ، وتفطروا علنا فى رمضان ، وتهينوا بذلك دين الله ، وتدنسوا أنفسكم بالآثام بكل جرأة ، وتحضروا الله يوم القيامة وأنتم قد سلبتم حقوق الناس وانتهكتم أعراضهم وتعرضتم لكرامتهم وأرقتم دماءهم ثم بعد كل ذلك تنالوا البراءة من عذاب الله . يمكنكم أن تمكروا فى الدنيا ماستطعتم . ولايؤاخذكم عليه أحد . ولكن كيف لكم أن تخلصوا من مؤاخذة الله العلى القدير .

وهو عليم بذات الصدور .

هذا وغيره من التوجيهات الربانية الصافية إذا قدمتم للناس وغرستم فى قلوبهم ترون بأم أعينكم كيف ينشأ الوعى السليم فى عامة السكان رويدا رويدا وكيف تنتعش فيهم المعنوية والإحساس النبيل .

وإذا علم الناس ، بعد ذلك بأنهم مدعوون من الله ورسوله إلى أن يقيموا فى الأرض النظام الإسلامى فلابد من أن يبحثوا عن الذين يصلحون لهذه المهمة الجليلة وينتخبوهم ولايقعوا فى مصايد الدجالين الكذابين .

وعامة الناس يعرفون : إلى أى طبيب يذهب أحدهم إذا مرض ، أو إلى أى محام يذهب إذا أقيمت عليه القضية فى المحكمة . وعلى غرار ذلك إذا أنشأتم فيهم شعورًا صحيحا بالإسلام وفهما سليما عنه لاجرم أنهم يعرفون بأنفسهم بعد ذلك : أى المرشحين فى الانتخابات يصلح لاقامة النظام الإسلامى إذا نجح فى الانتخابات . ونفرض أنهم يخطئون فى انتخابات المرشحين الصالحين فى معركة انتخابية . ولكنهم سوف لايقعون فى نفس الخطأ فى المعركة الأخرى إذا استمرت جهود نشر الوعى الإسلامى بينهم على قدم وساق . ويبقى باب توجيه النقد مفتوحا على مايعمله الحكام من أعمال منحرفة عن الإسلام ، باسلوب علمى ومعقول . ونفرض أن ينجح فى الانتخابات أناس سيئون ويتولون أزمة الأمور ، ويحكمون بما يشاءون . ثم يحاولون تزوير الانتخاب القادم فإنهم إذا فعلوا ذلك سوف يواجهون بإذن الله نفس الحركة الشعبية التى اطاحت بحكم بوتو ذلك الدكتاتور الظالم الفتاك .

وهناك أساليب أخرى لتبصير الجماهير بالإسلام ومقتضياته ، علينا أن نعتنى بها بصفة خاصة . فمثلا فى بلادنا عدد كبير من الاتحادات العمالية . فعلينا أن نبث بين العمال افكارا توضح أن النظام الذى ينصف العامل هو الإسلام وليس الاشتراكية . ولاعلاج لمشكلاته إلافى إتباع الاسلام .

أما الاشتراكية فهى لم تنصف العمال فى الماضى ولن تنصفهم فى المستقبل . ومن الأفضل أن يتولى مهمة نشر الوعى الإسلامى بين العمال شباب درسوا جيدًا الانظمة الاشتراكية والشيوعية وأوضاع الدول الشيوعية ، الاشتراكية . وذلك بدلائل قاطعة وأمثلة واقعية لاقبل لأحد انكارها . وهكذا نستطيع أن نحول الحركات العمالية بالتدريج إلى الحركات الإسلامية . ونستطيع أن نوجد فى العمال شعورًا صافيا يستطيعون بفضله معرفة

قادتهم جيدًا . هل هم أتباع ماركس ولينين أم أتباع الله ورسوله ، ثم يترك لهم : هل هم يحبون أن يبعثوا يوم القيامة تحت لواء ماركس ولينين أوتحت لواء رسول رب العالمين . .

وللفلاحين أيضا مسائل ومشاكل . فعليكم أن تبينوا لهم أن ليست لها حلول عادلة إلافى الإسلام . ولما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة المنورة وجد أهلها من الأنصار يمارسون الزراعة . وكان قبل الإسلام نزاعات كثيرة بين أصحاب الأراضى وبين المزارعين . كما أن الذين كانوا يأتون بالغلات من القرى إلى المدينة كان التجار والسماسرة يغشونهم أفحش الغش ويستغلونهم أسوأ الاستغلال فأصلح النبى ﷺ كل هذه المفاسد بحكمة ، وأقام المعاملات التجارية على العدل والقسط . ولكم أن تراجعوا لمعرفة كل ذلك كتب الحديث والفقه ، وتستطيعون أن توضحوا كل ذلك للفلاحين وتقنعوهم على أن هذه المسائل التى هم يرزحون تحت وطأتها كان الإسلام قدْ قدم لها حلا سليما فيما مضى وهو الذى يستطيع أن يحلها اليوم ولاغير .

وبقدر مايتم عمل التوعية والتوجيه بقدر ماتحسن الظروف ويتهيأ الجو لظهور نتائج الانتخاب الصحيحة . وبقدر مايفوز أهل الدين والصلاح والتقوى فى الانتخابات بقدر ماتتقدم خطواتنا إلى النظام المثالى الذى شهده عصر الخلافة الراشدة .

السؤال :

ياصاحب السماحة ! هناك ينشأ سؤال آخر ، وهو : « قد تفضلتم وقلتم إنه يجب أن يقام النظام الإسلامى بالتدريج ، بل سوف يقام هذا النظام بالمراحل التدريجية » وهل معنى ذلك أن القوانين السائدة والقوانين التى وضعت تحت النظام الديمقراطى الغربى لاتزال تسود خلال مرحلة التغيير التدريجية ؟ فهل لأمرين متناقضين أن يتواكبا جنبا مع جنب ؟

الجواب :

لامناص لنا من أن نبدل نظام الحياة الذى ساوره الفساد ودخله التخريب منذ عهود طويلة بالتدريج . ولايمكن أن نستبدل النظام التربوى الإسلامى الذى وضعه الإنكليز بالنظام التربوى الإسلامى بلمحة من البصر . وكذلك أوضاع الناس الخلقية التى تردت إلى الانحطاط والتدهور فى سنين طويلة بالأفلام السينمائية الماجنة والصور القبيحة والأغانى الخليعة الرائجة

ليلا ونهارا والمجتمعات المختلطة بين النساء والرجال ومناولة الخمور وممارسة القمار وما إلى ذلك من أعمال السوء والأنشطة المحرمة ، لايمكن تبديل أخلاق الناس وعاداتهم بعد كل ذلك بين عشية وضحاها . ولكن مع هذا وذاك علينا أن نبدأ من يومنا هذا فى بذل الجهود واستنفاد المساعى لتبديل الأوضاع وإصلاح المفاسد . ولايجوز لنا التأخير فى إزالة كل منكر من المنكرات يمكن لنا أن نزيله بأسرع خطوة وأقرب فرصة . ونفس الأسلوب نختاره فيما يتعلق بالأنظمة والقوانين . فعلينا أن نلغى من قوانين عهد الكفر والأنظمة التى تخالف الإسلام مانقدر على إلغائه على فوره بدون ماتأخير أوتلكؤ ، ثم بقدر مانقدر على تنفيذ القوانين والشرائع الإسلامية لانؤجل تنفيذها ولاليوم واحد . إذ أن الحكومة التى تؤمن بالإسلام بكل إخلاص وصدق والتى تستهدف إقامة الإسلام فى الحياة الواقعية هى مدعوة إلى إدخال الإصلاحات الجذرية فى جميع الدوائر والشعب ، ومن الخطأ القول بأن لاتنفذ القوانين الإسلامية مادامت لاتستكمل الإصلاحات . ومما لانشك فيه أن قضاتنا فى المحاكم إذا شرعوا فى تحكيم القوانين الإسلامية فى القضايا والنزاعات والمرافعات بدلا من القوانين غير الإسلامية يقتنع الناس من تلقاء أنفسهم بأن هذا البلد لن يسوده نظام الكفر فى المستقبل بل تحتم عليه نظام الإسلام . فهذا الإجراء نفسه سوف يشكل حلقة رئيسية من حلقات تبديل أذهان الناس واتجاهاتهم . الأمر الذى يساعدنا على توطيد دعائم النظام الإسلامى .

ولكم أن تقدروا صحة ماقلت من خلال تاريخنا . إن الإنكليز لما ألغوا قوانيننا السائدة فى تلك الأيام ، واستبدلوها بقوانينهم ، وجاء قضاتهم فى المحاكم الابتدائية والمحاكم العليا يحكمون الناس بموجب تلك القوانين الاستعمارية ظلت مقاييس القوم واتجاهاتهم تتغير وتأخذ فى التقلب . فأصبح الحرام حلالا والحلال حراما لديهم . والأمور التى اعتبرتها القوانين الإنكليزية مشروعة فيما يتعلق بالأخلاق أوالاقتصاد أوالاجتماع أوغير ذلك من شعب الحياة راجت فى حياتنا الاجتماعية ولوكانت هى منكرات وقبائح من وجهة الإسلام . بل أصبحنا نحن المسلمين أنفسنا نصف قوانيننا بالرجعية والتخلف . حيث قد غرس فى قلوبنا بأن قانون الإسلام لايتجاوز شؤون النكاح والطلاق والإرث التى سميت بالأحوال الشخصية ولايصلح

لتسيير الشؤون الدنيوية الأخرى .

ولكن اليوم إذا أصبح الناس يرون بأم أعينهم أن القوانين الإسلامية هى التى تحكم البلد وتقرر مصيرهم فى المحاكم فلاجرم أن التاريخ يعيد نفسه وتتبدد سيطرة القوانين الإنكليزية على الأذهان . وعلى هذا ليس من الصحيح أبدا أن نتفكر فى أننا ندخل الإصلاحات الإسلامية فى شعبة واحدة أوفى بعض الشعب بينما تبقى الشعب الأخرى تسير بموجب القوانين القديمة ، هذا الترقيع لاينفع أبدا .

خذوا مثلا موضوع الانتخاب .

إن الانتخاب فيما يبدو يعتبر شعبة واحدة من شعب الحياة . ولكن إصلاح هذه الشعبة يؤثر أثرا كبيراً فى سائر شعب الحياة . إن طريقة الانتخاب التى راجت ولاتزال فى بلادنا هى تتلخص فى أن المرشح لامانع له من أن يبذل للجماهير الوعود الكاذبة الخادعة ، ومن ذرّ الرماد فى عيونها ، واستغلال مواطن الضعف فيها ، وشراء ذممها بالمـــال ، وممارسة جميع أنواع الضغط لأجل الحصول على الأصوات ، وتجريح المنافسين بأسوأ التهم ووصفهم بأشنع الصفات ، ونشر العصبيات القبلية والإقليمية بكل وقاحة ، وإثارة الفتن والنزاعات الطائفية ، وما إلى ذلك من الأساليب والمكايد والمصايد لأجل السيطرة على رقاب الناس ، فعليكم أن تغيروا كل ذلك رأسا على عقب . وامنعوا استخدام الأساليب غير المشروعة فى الحملة الانتخابية ودعوا الناس ينتخبون من يريدون بكل حرية وبدافع من ضميرهم وإيمانهم . وثقوا بعد ذلك أن تحسين النظام الانتخابى سوف يحسن الجوانب العديدة من الحياة حيث يتعذر بذلك على رجال سيئين فوزهم فى الانتخاب والوصول إلى الحكم . كما تتقوى بذلك نسبة نجاح الصالحين فيه ..

السؤال :

تملك طائفة من الوسائل والأساليب لتبليغ الإسلام وترويجه وماذا علينا المزيد فى هذا المجال ؟

الجواب :

كتبت من هذا الشأن الشيء الكثير فى مؤلفاتى ومن الصعب على فى الوقت الحاضر أن أكرر المكتوب .

السؤال :

ياصاحب السماحة ! نرجو أن تتفضلوا بتوجيهنا إلى ماهو المطلوب من إذاعة

باكستان لأجل تحقيق هذه الغاية فى الوقت الحاضر؟

الجواب :

من الضرورى جدًّا لاستخدام إذاعة باكستان فى نشر الإسلام وترويجه البحث عن أشخاص أكفاء يختارون موضوعا من مواضيع الإسلام ويدرسونه دراسة عميقة ثم يأتون الإذاعة ويلقون منها ذلك الموضوع . فمثلا يجب أن يكون هناك مجموعة من الأشخاص الذين تختارونهم بكل دقة وحذر يتولون شرح العقائد الإسلامية وغرس كل ناحية من نواحيها فى أذهان الناس بكل جدارة ، وإذا جاء شخص واحد فقط يتولى هذا الموضوع يمل منه المستمعون وتتضجر نفوسهم ولكن إذا كان هناك طائفة منوعة من العلماء والخبراء يتكلم كل واحد منهم على طريقته ويناقش الموضوع على سليقته فمن المؤكد أن يستمع الناس إليهم بكل رغبة وشوق وانتظار ، فأول عمل أساسى فى هذا الصدد هو غرس العقائد الإسلامية الصحيحة فى أذهان الناس وتثبيتهم على الإيمان بها والعض عليها بالنواجذ . هذا العمل الأساسى هو الذى يغير مابأنفسهم ، وهو الذى يجلبهم إلى معرفة حقائق الإسلام والاستمساك بها .

وهكذا يجب اختيار مجموعة أخرى من الناس يصلحون ثقافة وأسلوبا لإلقاء الأحاديث والكلمات والدراسات عن أهمية العبادة فى الإسلام ، وفوائدها فى الدين والدنيا ، وأضرار تركها فى الدنيا والآخرة . ويتبعها طائفة ثالثة من أهل العلم والدعوة لعرض مبادئ الإسلام الخلقية وأحكام الإسلام وتعاليمه على الناس . ويتولى جماعة رابعة من المصلحين الاجتماعيين توجيه النقد إلى المنكرات والفواحش المنتشرة فى المجتمع بأسلوب بليغ حكيم يستشعر به كل فرد من أفراد المجتمع بفداحة الأوساخ الخلقية التى يتدنس بها ليل نهار .

وكذلك ينبغى أن ينهض جماعة من أهل العلم بصفة خاصة ليتناولوا الكبائر واحدة واحدة ويركزوا عليها مرة بعد أخرى ويشرحوا للناس مضارها ، ويثيروا فى قلوب الناس الإحساس القوى بأن الكبائر كيف تفسد عليهم الدنيا والآخرة وكيف تدفع مرتكبيها إلى العذاب المهين يوم القيامة . فمثلا يأخذون موضوع قتل الإنسان . ويعدون للناس نتائجه القبيحة ، ويوضحون لهم بأن القاتل الذى يقتل مثلا عشرة أشخاص فى الدنيا لايستطيع القضاء فى الدنيا أن يعاقبه إلابعقاب واحد وهو الإعدام . أما عقاب قتل البقية من المقتولين

التسعة فلاينال العقاب عليه فى هذه الدنيا . وإنما المحكمة الإلهية يوم القيامة هى التى نعاقبه على ذلك بعقاب يتناسب مع فداحة الجريمة . لأن القضاء البشرى لايتناول إلا فعل القتيل . وعليه يعاقب المجرم بإعدامه فقط . ولكن الخسائر والأضرار التى سوف تترتب من ذلك الفعل على أسرة القتيل وأجياله القادمة لاتستطيع محكمة من محاكم الدنيا إدراك نوعية تلك الخسائر والأضرار ومدى استمرارها إلى الأجيال المتلاحقة . والله سبحانه وتعالى هو الذى يعرف ذلك بعلمه المحيط وإحاطته بكل شيء فى السموات والأرض بكل ماتقدم وتأخر . وسوف يعطى للمجرم جزاءه الأوفى على فعله بكل آثاره ونتائجه .

وأرى أن إذاعة باكستان إذا استمرت فى نشر حلقات متسلسلة مما أشرت إليه من المواضيع بواسطة رجال أكفاء يمارسون الأسلوب البليغ الأخاذ فى أحاديثهم يحدث خلال ستة أشهر فقط تغيير كبير فى أفكار الناس وعاداتهم . إذ أن الأجهزة الإذاعية وسيلة فعالة لتوعية الجماهير . والجماهير مولعة بها لحد أن الفلاح - مثلا - لايحب حراثة أرضه إلا ويصحبه جهاز الترانزستور ، وبما أن الجماهير لاتستمع اليوم من الراديو الا أغانى السيدات بل أغانى الأفلام الماجنة بالطلب وبدون الطلب ، إذا أصبحت نفس الجماهير لاتستمع من الراديو إلاأحاديث الدين بلغة سهلة وبأسلوب رائع فلانتوقع منها فى المستقبل أن تغلق الراديو بمجرد أن يقارع آذانها حديث عن الله ورسوله ﷺ .

وأقترح أن تبدأوا فى صدد البرامج الدينية من الحكايات والوقائع الصحيحة من عهد الرسالة وعهد الخلافة الراشدة وعهد الصحابة ، وكذلك حكايات وسير الأسلاف الصالحين التى تأخذ بمجامع الجماهير ، ويتبعها البيان بعقائد الإسلام وبمادئ الأخلاق ، وهكذا تستطيعون رويدا رويدا أن تشوّقوها للاستماع إلى التعاليم الإسلامية وإدراك معانيها وفهم مقتضياتها .

ولا تجدون ولاشخصًا واحدا من هؤلاء القرويين البسطاء يخلو من حبه العميق للرسول ﷺ وتفدية نفسه له ، وتستطيعون أن تقولوا لهم : يامسلمين ! إن الرسول ﷺ الذى تحبونه هذا الحب العميق عليكم أن تتبعوه كذلك وتعضوا على أحكامه بالنواجذ ، وكذلك هل من مسلم من عامة الجماهير لايؤمن بالبعث بعد الموت . فعليكم أن تشرحوا لهم من إذاعتكم ماذا سيواجهونه بعد الموت .

خذوا جميع المعلومات عن كل ذلك من كتاب الله وسنة رسوله . وليس من المستبعد أن عامة الناس إذا سمعوا النتائج التى سوف تترتب على أعمالهم التى عملوها فى الدنيا بعد انتقالهم من الدار الفانية إلى الدار الباقية ترتعد له فرائصهم وتقشعر له جلودهم . بل إنهم إذا سمعوا ماذا يجرى على الإنسان السيئ فى القبر من عذاب وحساب تتفتت أكبادهم وتذوب قلوبهم من كمد .

السؤال :

ياصاحب السماحة ! نحن فعلا ننشر من الإذاعة البرامج الخاصة بالفلاحين والمزارعين والعمال والكادحين والنساء والأطفال ، فلاننشر لهم منها الأغانى ولهو الحديث فقط ومن الجائز ألاّ تكون تلك البرامج على مايرام ؟

الجواب :

أقول : إن معظم برامج الإذاعة تتضمن الأغانى والموسيقى . وشيئا يسيرا عن الدين ومقتضياته وأخلاقه . وعلى هذا من اللازم أن تقللوا من القسم الأول من البرامج شيئا فشيئا وأن تزيدوا فى القسم الثانى منها ، وإذا أفهمتم الناس دينهم ومسوؤلياتهم تجاهه جيدا بنصاعة البيان وروعة الأسلوب لايبقى الناس متعودين على الأغانى والمزامير ، وإذا حاولوا أن يسمعوها من الإذاعات الخارجية فإن ضميرهم الحى سوف ينبههم على ذلك المنكر ويستشعرون بدون ماتأخير بأنهم سوف يحاسبون على ذلك يوم القيامة حيث تشهد عليهم آذانهم بما سمعوا بها وتشهد عليهم ألسنتهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .

قرب العبد من ربه

قال الله تعالى : (فاسجد واقترب) وقال ﷺ : «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد فادعوا ربكم فى سجودكم» وقال ابن عباس رضى الله عنهما :

أقرب ما يكون العبد إلى الله إذا سأله وأبعد ما يكون من الناس إذا سألهم .

تقنين الشريعة الإسلامية

الأستاذ / محمد عطية خميس

منذ رحل الاستعمار العسكرى عن بلاد المسلمين فى العقدين السابقين ، والشعوب الإسلامية تلح فى وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية لاستكمال تحررها تشريعيا واجتماعيا واقتصاديا ، فتعود لها أصالتها ، وشخصيتها الإسلامية الممتازة . إذ لا معنى لهـذا التحـرر العسـكرى ، ولا تزال نظم المستعمرين القانونية والاقتصادية والاجتماعية قائمة ! بعد أن قضوا على كل نظمنا الإسلامية .

وأول سؤال يتبادر إلى الأذهان : كيف نحل الشريعة محل القوانين الوضعية ؟ وكيف نطبق أحكامها ؟

رأى يقول : يجب أن نسارع إلى تقنين الشريعة الغراء بصياغة أحكامها فى مواد قانونية ، وجمع هذه المواد وترتيبها وتنسيقها فى مجموعات مختلفة :

معامـلات وحـدود ، وأحـوال شخصية . . ليسهل على القضاة ورجال القانون تطبيقها والعمل بها .

ورأى آخر يقول : لسنا فى حاجة إلى مثل هذه التقنينات ، وأحكام الشريعة مدونة فى كتب الشريعة والفقه ، ولا حاجة بنا إلى إضاعة الوقت فى صياغتها من جديد وتقنينها فى مواد . . فالمصادر الأصيلة للشريعة بأسفارها ومتونها وشروحها ، موجودة بين أيدينا ، ويمكن الرجوع إليها مباشرة .

الشريعة والفقه والقانون :

ولكى نرجح أحد الرأيين على الآخر ، يتعين أولا أن نحدد مدلول كل اصطلاح من الاصطلاحات الثلاثة : الشريعة . . والفقه . . والقانون .

والشريعة : كما عرفها التهانوى محمد على فى «كشاف اصطلاحات الفنون» — هى مجموعة الأحكام التى سنها الله للناس جميعا على لسان رسوله محمد ﷺ فى الكتاب والسنة .

أما الفقه — كما عرفه السيد الشريف

الجرجانى فى «التعريف» – فهو العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من أدلتها التفصيلية . وطريق الفقه الاجتهادى والاستنباط والنظر والاستدلال .

أما التقنين فهو جمع أكثر القواعد الخاصة بفرع من فروع القانون فى مدونة واحدة مرتبة ومبوبة . والتقنين مأخوذ من كلمة القانون ، وهو مجموعة قواعد تنظم سلوك الأفراد فى مجتمع ، يلزم بها أفراده ، ويقرنها بجزاء يوقع جبرا على من يخالفها .

فالشريعة أعم ، والفقه أخص . ونسبة الفقه إلى الشريعة كنسبة النوع إلى الجنس . والقانون الإسلامى هو مجموعة القواعد المختارة من الفقه الإسلامى ، لتنظيم سلوك الأفراد فى المجتمع المسلم ، وإلزامهم بها . وقد قرنت بجزاء يوقع جبرا على من يخالفها .

اختلاف الفقهاء وأسبابه :

والشريعة كتابا وسنة – تحتاج إلى فقهاء يفهمونها ، ويعلمون جميع أحكامها ، ولهم ملكة خاصة وقدرة على استنباط أحكامها الشرعية ، من أدلتها التفصيلية .

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) . . وقال ﷺ « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

ولذا ظهر الفقه والفقهاء فى المرحلة التالية لظهور التشريعة . ولكن الفقهاء اختلفوا فى كثير من الأحكام الجزئية التفصيلية . ويرجع خلافهم إجمالا إلى :

١ – أن القرآن الكريم ، ولو أنه كله قطعى الثبوت ، إلا أن كثيرا من نصوصه ظنية الدلالة ، لاحتمالها أكثر من وجه من وجوه التفسير .

٢ – السنة باعتبارها المصدر الثانى للشريعة لم تكن جميع نصوصها مجموعة ومدونة ، ليتيسر التعرف عليها ، عند الصحابة والتابعين والفقهاء . هذا علاوة على أن الكثير منها ظنى الدلالة .

٣ – لم يتفق الفقهاء على طريق استنباط الأحكام ، فيما ليس فيه نص صريح فى الكتاب أو السنة . لأن الناس – وتلك سنة الله فى خلقه – ينظرون إلى الأمور الاعتبارية من زوايا مختلفة . هذا إلى اختلافهم فى فهم النصوص ، ووصول الحديث إلى علم البعض دون البعض ، والاختلاف فى الحكم على الحديث بالصحة والضعف ، والاختلاف فى الأخذ بالقياس ، وفى مدى العمل به ، والاختلاف فى المصادر النظرية الأخرى –

كالاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع وقول الصحابى ، واختلاف المصلحة بتغير الظروف والملابسات .

وهذا الاختلاف بين الفقهاء ، لاينال من الفقه على الإطلاق ، لأنه ظاهرة صحية بل هو عين الرحمة بالناس . ولذا قيل « اختلاف الأئمة رحمة » فاختلافهم كان يدور بين العزيمة والرخصة ، وبين موجب التقوى وموجب الفتوى . ومن حق الأفراد – حين تختلف الآراء فى المسألة الواحدة – أن يعملوا بالرأى الذى يجنح إلى التيسير ، ومن حقهم أن يدعوه .

لا غنى عن الفقه :

والفقه وثيق الصلة بالشريعة ، ولا نستطيع أن نستغنى عنه فى تعرفها وتعرف أحكامها . لذلك كثيرا ما تطلق كلمة « الشريعة » ولا يراد منها إلا الفقه ، وهو من باب الإطلاق العام وإرادة الخاص . أى أن إطلاق الشريعة على الفقه ، إطلاق مجازى متعارف عليه .

لماذا يتعين التقنين :

ولقد نما الفقه الإسلامى وتطور ، حتى وصل إلى ذروة مجده ، وقمة عظمته فى بداية الدولة العباسية ، وظهرت المذاهب الفقهية الجماعية ، التى أرسى قواعدها وأوضح ضوابطها الأئمة الأجلاء الأعلام ، الذين نسبت إليهم المذاهب العظيمة . واشتد الخلاف بينهم حتى أن المسألة الواحدة قد تصل إلى ثمانية آراء أو أكثر .

وكان يتعين أن يجىء تقنين الشريعة لاحقا لظهور الفقه ونضوجه . كان هذا أمرا لابد منه فى أحكام القضاء لرفع الخلاف ، بعد أن اختلف الفقهاء والقضاة . فى وجهات نظرهم .

فكرة عبد الله بن المقفع :

وقد بدأ التفكير فعلا فى وضع قانون عام لجميع الأمصار ، يؤخذ من الكتاب والسنة وعند عدم النص يؤخذ من الرأى على ما يقتضيه العدل ومصلحة الأمة ، وذلك لما لوحظ من تباين الآراء ، واختلاف الحكم فى المسألة الواحدة . وكان أول من فكر فى هذا عبد الله بن المقفع فى رسالة كتبها إلى الخليفة أبى جعفر المنصور جاء فيها :

« مما ينظر فيه أمير المؤمنين من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحى اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التى قد بلغ اختلافها أمرا عظيما . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير

المختلقة ، فترفع إليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين فى ذلك ، وأمضى فى كل قضية رأيه ونهى عن القضاء بخلافه ، فكتب بذلك كتابا جامعا ، رجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكما واحدا صوابا .

محاولة المنصور مع الإمام مالك :

ويمكن القول إن هذه أول فكرة أو محاولة للتقنين الإسلامى . ويبدو أن هذه الفكرة قد راقت فى نفس أبى جعفر المنصور ، حتى إنه لما حج فى عام ١٤٨ هـ قابل الإمام مالك – إمام دار الهجرة – وطلب منه أن يحمل الناس على مذهبه ، ولكن الإمام مالكا رضى الله عنه رفض قائلا : « إن لكل قوم سلفا وأئمة » .

وفى سنة ١٦٣ هـ ذهب الخليفة أبو جعفر المنصور ، لأداء فريضة الحج ، وقابل الإمام مالكا فى منى ، وأعاد عليه الفكره مرة أخرى قائلا :

– يا أبا عبد الله ، ضع هذا العلم ودونه ، ودوّن منه كتبا ، وتجنب شدائد عبد الله بن عمر ، ورُخص عبد الله بن عباس ، وشواذ ابن مسعود ، واقصد إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم ، لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ، ونبثها فى الأمصار ، ونعهد إليهم ألاّ يخالفوها ولا يقضوا بسواها .

فقال له الإمام مالك : أصلح الله الأمير ، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ، ولا يرون فى علمهم رأينا .

فقال أبو جعفر : يحملون عليه ، وتضرب عليه هاماتهم بالسيف ، وتقطع ظهورهم بالسياط . فتعجل بذلك ، وضعها ، فسيأتيك محمد ابنى المهدى العام القابل إن شاء الله إلى المدينة ليسمعها منك ، فيجدك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله .

وذكروا أن أبا جعفر المنصور هو الذى خطط للإمام مالك كيف يكتب ويدون ويبوب كتبه . وذكروا أن الإمام مالكا لما أخذ فى تدوين كتبه ووضع علمه قدم عليه المهدى ، فسأله عما صنع فيما أمره به أبو جعفر ، فأتاه بالكتاب ، وهو كتاب الموطأ وقد أبدى الخليفة أبو جعفر المنصور رغبته فى أن تلتزم الدولة بأحكام الموطأ ، ويلزم الناس باتباعها . فأبى عليه مالك ذلك ، لما فيه من التزام مالم يقطع بصوابه ، وذلك غير مستساغ فلما ولى الخلافة هارون الرشيد ، عرض الفكرة مرة

أخرى على الإمام مالك ، ولكنه – رضى الله عنه – أَبَى وقال :

« إن أصحاب رسول الله اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب »

وهكذا بقيت فكرة جمع الناس حول أحكام واحدة ، وبالتالى بقيت فكرة التقنين معطلة بلا تنفيذ ولا شك أن المصلحة كانت تقتضى – فى مجال الحكم والقضاء – اختيار القواعد التى يحمل الناس عليها ، ويلتزم بها القضاة ، رفعا للخلافات ، ومنعا للبلبلة ، وتيسيرا على الناس .

والتقنين لا يخالف الشريعة ، ولا يخرج عنها ، ما دام الأمر فيه يقتصر على تجميع الأحكام المختارة ، وترتيبها وتنظيمها ، وحسن صياغتها بأسلوب ميسر ، لا يخرج عن اصطلاحات الفقه وأحكامه ، المستمدة من الشريعة الغراء .

العرب عرفوا القانون :

ولفظ القانون ليس غريبا على الفقه الإسلامى ورجاله ، فقد عرفه الكثيرون من الفقهاء والأئمة ، وبخاصة فقهاء المالكية . فالقانون عندهم هو وضع قاعدة كلية لمسائل فرعية مختلفة ، ومن كتب المالكية كتاب « القوانين الفقهية » لابن جزىء .

وللشيخ أحمد زروق وهو من علماء المالكية – كتاب قواعد التصوف ، وقد جمع فيه قواعد التصوف المستمدة من أحكام الشريعة ، ونظمها ورتبها فى فصول وأبواب ، وجعل لكل قاعدة رقما . وللإمام جمال الدين محمد أبى المواهب الشاذلى كتاب أسماه « قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميع الآفاق » .

وإن كانت كلمة القانون معروفة عند العرب ، إلا أن اصطلاح التقنين حديث نسبيا فى اللغة العربية ، وكما يطلق على عملية التجميع نفسها ، يطلق أيضا على المدونة الشاملة المتعلقة بفرع من فروع القانون ، فيقال التقنين المدنى ، والتقنين التجارى . . إلخ . وكان الاصطلاح السائد قبل ذلك بالنسبة للمدونة نفسها هو « المجموعة » فكان يقال « المجموعة المدنية » ويقترح المجمع اللغوى تسميتها « المدونة » . وعلى العموم . فهذه كلها اصطلاحات فقهية .

أمثلة من الخلافات الفقهية :

وبالرغم من أن كلمة القانون كانت معروفة ، إلا أن الخلفاء الذين جاءوا بعد أبى جعفر المنصور وهارون الرشيد لم يفكروا فى القانون الإسلامى . فالقانون عندهم هو

الشريعة ، والشريعة هى فقه العلماء جملة ، بما فيه من أحكام متباينة ، وآراء عديدة يخالف بعضها بعضا ، لا بين المذاهب فحسب ، ولكن بين فقهاء المذهب الواحد أحيانا . مثلا بيع الديون . . يبطله الشافعى والحنفى والمالكى ، لأنهم يرون فيه شرطين فاسدين ، أحدهما الهبة ، وثانيهما شرط الرد للمبيع على تقدير ألا يرضى ، بينما يجيز الحنابلة هذا البيع .

ومثلا : بيع الهازل هل ينعقد أو لا ينعقد ؟ يقول الشافعية فيه وجهان وجه ينعقد لأن الهازل يفهم مدلول البيع ، ولا عبرة بهزله ، والوجه الثانى لا ينعقد ، والأصح الوجه الأول :

بلبلة الأحكام لعدم التقنين :

ومن هذا يتضح أن الأخذ بالمذهب بأكمله دون تحديد للرأى الذى يعمل به يترتب عليه اختلاف الأحكام وتباينها ، ويحدث هذا بلبلة بين الناس والخصوم . ويتعين على الإمام أن يرفع هذه البلبلة وهذا الخلاف ، بقانون يختار فيه الرأى الذى ينفذ على الناس .

ولكن حكام المسلمين فى العصور المتأخرة ، لم يفكروا فى هذا ، ولم يكن عجبا أن يأتى الخليفة ، ويجعل للقضاء أربعة قضاة : قاض شافعى وآخر حنفى وثالث مالكى ، ورابع حنبلى . ويختار المدعى القاضى الذى يتفق مذهبه مع مصلحته . .

وأحيانا كان الخليفة يختار مذهبا معينا بأكمله للقضاء حسب أحكامه ، فيصبح المذهب بأصوله وفروعه ، وبكل ما فيه من آراء عديدة متباينة هو القانون .

مجلة الأحكام العدلية :

وهذه البلبلة والخلافات ، هى التى دعت دولة الخلافة العثمانية فى أواخر أيامها إلى التفكير فى إصدار مجلة الأحكام العدلية فى سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٥ م) . . وأمرت بالعمل بها فى تركيا والدول التى تدور فى فلكها فى ٢٦ شعبان ١٢٩٣ هـ .

وتعتبر مجلة الأحكام العدلية للتقنين الرائد فى التشريع الإسلامى . وتعتبر أفضل عمل تشريعى تعتز وتفخر به دولة الخلافة العثمانية .

ومجلة الأحكام العدلية مقصورة على تقنين المعاملات حسب المذهب الحنفى دون التقيد بالرأى الراجح ، مع مراعاة الأخذ

بالقول الموافق لصالح الناس فى المذهب وإن كان خلاف ما جاء بظاهر الرواية .

ثم والت دولة الخلافة بعد ذلك العمل فى تقنين الشريعة ، فأصدرت عام ١٣٢٦ هـ قانون العائلات الذى يختص بالزواج والفرقة ، وقد أخذ فى كثير من المسائل من غير المذهب الحنفى ، كفساد زواج المكره وبطلان طلاقه .

وقد نسف مصطفى كمال أتاتورك كل هذه الجهود ، حينما قام بحركته العلمانية فألغى الخلافة الإسلامية ، وفصل الدين عن الدولة ، واستبدل بالشريعة الإسلامية ومجلة الأحكام العدلية ، القانون السويسرى .

محاولة محمد على تقنين الشريعة :

وقد حاول محمد على باشا (والى مصر من قبل دولة الخلافة العثمانية) أن يقنن الشريعة الإسلامية فى المعاملات ، قبل أن تفكر فى هذا التقنين دولة الخلافة نفسها فأسند فى سنة ١٨٣١ م منصب الإفتاء فى الإسكندرية إلى الشيخ محمد الجزائرى مفتى الجزائر من قبل ، لما آنس فيه من روح الاجتهاد .

فهذا المفتى هو الذى أفتى بجواز حل الأوقاف الأهلية ، تلك الفتوى المشهورة التى طالما نوه بها الشيخ محمد على علوبة باشا فى البرلمان المصرى ، والتى أخذت بها الثورة المصرية فيما بعد فى سنة ١٩٥٢ .

وكان محمد على باشا قد طلب من الشيخ محمد الجزائرى أن يقنن الشريعة الإسلامية تقنينا غير مقيد بمذهب معين . وأخذ المفتى المذكور فى مباشرة مهمته ولكن كان هذا فى أواخر عهد محمد على باشا ، ولم يستمر مشروعه بعده[١]

محاولة قدرى باشا :

ولما كانت الثورة العرابية فى سنة ١٨٨١ ، أسند الخديوى توفيق رياسة الوزارة إلى شريف باشا ، الذى اختار ناظرا (وزيرا) للحقانية الفقيه الشرعى والفقيه الضليع محمد قدرى باشا المستشار بمحكمة استئناف مصر المختلطة . وشكل قدرى باشا لجنة من كبار رجال القانون لوضع تقنين مدنى مطابق للشريعة الغراء . ولكن للأسف الشديد لم تتم هذه اللجنة عملها ، فقد أسقط العرابيون وزارة شريف باشا فى ٤ فبراير ١٨٨٢ لخلاف دستورى دب بينهم .

(١) راجع العدد الخاص من مجلة المحاماة فى مارس ١٩٤٨ نقد مشروع القانون المدنى المقدم من المرحوم محمد بك صادق فهمى المستشار بمحكمة النقض وزملائه من المستشارين وعدد من العلماء الأفاضل .

تقنينات قدرى باشا :

ولكن إن كان عمل هذه اللجنة قد توقف ، فقد قام قدرى باشا وحده بهذا العمل الجليل . لقد قام بعمل ثلاثة تقنينات إسلامية أخذها من المذهب الحنفى ، مسترشدا فى عمله هذا بمجلة الأحكام العدلية . وقد عثر فى تركته بعد وفاته على هذه المجموعات الثلاث مخطوطة . . وهى :

الأولى : أسماها « مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان فى المعاملات الشرعية على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان » وهذه المجموعة خاصة بالمعاملات وتتكون من ٩٤١ مادة . وقد طبعتها الدولة على نفقتها فى سنة ١٨٩٠ م .

والثانية : أسماها «كتاب العدل والإنصاف فى مشاكل الأوقاف » وهى كما يبين من عنوانها خاصة بأحكام الوقف طبقا للمذهب الحنفى ، وتتكون من ٦٤٦ مادة . وقد طبعت فى سنة ١٨٩٣ م .

والثالثة : خاصة بالأحوال الشخصية ، وتتكون من ٦٤٧ مادة .

وهذا العمل الذى قام به قدرى باشا عمل إسلامى جليل دون شك ، أثبت به إمكان تقنين الشريعة الإسلامية ، وبطلان كل دعوى مضادة لفكرة تقنينها ، ومما يبرز عظمة هذا العمل ، أنه مجهود فردى ، ولو فى المظهر على الأقل .

تقنينات الأحوال الشخصية فى مصر :

ومنذ أول القرن العشرين الميلادى ، بدأ يظهر اتجاه قوى نحو تقنين الشريعة الإسلامية ، فى دائرة الأحوال الشخصية ، وشكلت لهذا الغرض لجنة من كبار الفقهاء والمشرعين لوضع قانون الأحوال الشخصية . وتم وضع مشروع له وطبع سنة ١٩١٦ ، ولكنه قوبل بمعارضة قوية حالت بينه وبين صدوره ، واكتفى بمعالجة بعض الأمور ، بقوانين لم تتقيد بالمذهب الحنفى ، رعاية لمصالح الناس . فصدر القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠ بمسائل تتعلق بالنفقة والتطليق والعدة . والقانون ٥٦ لسنة ١٩٢٣ بتحديد سن أدنى للزواج والقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ويتعلق بالطلاق والتطليق للضرر ونفقة العدة والحضانة والمفقود ولم يتقيد القانونان الأخيران بأحكام المذاهب الأربعة .

ثم توسعت مصر فى دائرة تقنين الشريعة الإسلامية ، فأصدرت قانون المواريث سنة ١٩٤٣ وقانون الوقف والوصية فى سنة ١٩٤٦ . واستمدت أحكام الكثير من مواد هذين القانونين من

مختلف الآراء الفقهية ، دون تقيد بمذهب معين أو برأى معين .

توصية المؤتمر الرابع لمجمع البحوث :

وظل تقنين الشريعة الإسلامية فى كافة فروعها حلما تصبو إليه الشعوب الإسلامية باعتبارها خطوة ضرورية وتمهيدية لتطبيقها . لهذا لم يكن بدعا أن يقرر مجمع البحوث الإسلامية فى جلسته رقم ٢٧ فى ٨ / ٣ / ١٩٦٧ أن من مهمة المجمع العمل على إيجاد مشروع قانون شامل للأحوال المدنية والجنائية وغيرها ، إذا ما تقرر فى الدستور اتخاذ الشريعة الإسلامية أساسا للتقنين .

ثم أوصى المؤتمر الرابع للمجمع المنعقد فى ٢٧ / ٩ / ١٩٦٨ بالتوصية التالية :

« يوصى المؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بتأليف لجنة من رجال الفقه الإسلامى والقانون الوضعى ، لتضطلع بوضع الدراسات ومشروعات القوانين التى تيسر على المسئولين فى البلاد الإسلامية الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية فى قوانين بلادها كقوانين العقوبات والقانون التجارى والقانون البحرى وغيرها . .

جهود الدكتور عبد الحليم محمود فى التقنين :

وقد سارع فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود – رحمه الله – وهو أمين عام مجمع البحوث الإسلامية إلى تنفيذ هذه التوصية فشكل لجنة من كبار خبراء الشريعة ورجال القانون فى مصر لتضع خطة العمل ، وقدمت اللجنة اقتراحاتها ، واجتمعت لجنة البحوث الفقهية فى المجمع ، واللجنة التى تم تشكيلها ، واستقر رأيهم فى ١١ / ١٠ / ١٩٦٩ على السير فى هذا المشروع على النحو التالى :

١ – تقنن المذاهب الفقهية التى يعمل بها فى البلاد الإسلامية ، ويبدأ فى المرحلة الحالية بتقنين المذاهب الأربعة لأهل السنة (الحنفية – الشافعية – المالكية – الحنابلة) . ويقنن كل مذهب على حدة ، وتصاغ أحكامه فى مواد ، على أن يصاغ من كل مذهب الرأى الراجح فيه . وعلى أن تلحق كل مادة بمذكرة تفسيرية ، تذكر فيها الآراء الأخرى ، كما يذكر فيها الرأى الذى يرى أنه الأنسب للتطبيق فى العصر الحاضر .

٢ – بعد الفراغ من تقنين كل مذهب على حدة ، يبدأ فى العمل فى وضع قانون مختار من بين المذاهب جميعا . وبذلك يمكن للمجمع أن يقدم لكل بيئة من البيئات الإسلامية التى ترتبط بمذهب معين قانونا إسلاميا يصور ذلك المذهب فى

أمانة ، كما يمكنه أن يقدم قانونا إسلاميا مختارا من بين المذاهب المعمول بها ، يفى باحتياجات البيئات التى تطلبه .

ووافق مجلس المجمع فى جلسته رقم ٦٢ فى ٧ / ١ / ١٩٧٠ على الخطة المرحلية لتقنين الشريعة الإسلامية ، كما وردت فى خطة لجنة البحوث الفقهية على النحو المتقدم .

تقنينات الأزهر ومجمع البحوث :

وأصدر أمين مجمع البحوث الإسلامية فى ذلك الوقت – الدكتور عبد الحليم محمود رضى الله عنه – قراره بتشكيل أربع لجان ، كل لجنة تختص بتقنين مذهب معين ، وكل لجنة تجمع بين كبار العلماء المتخصصين فى المذهب ، وكبار المستشارين القانونيين والباحثين الشرعيين فى المذهب .

وبدأت اللجان بعد ذلك مباشرة فى مباشرة عملها ، مبتدئة بتقنين المعاملات وقد انتهت هذه اللجان جميعها – بحمد الله – بتقنين المعاملات على المذاهب الأربعة ، وتم طبع أجزاء منها .

ثم بدأت اللجان بعد ذلك مباشرة فى تقنين الحدود الشرعية ، وقد أوشكت جميعها على الانتهاء منها .

اللجنة العليا بالأزهر للتقنين :

ولم يكتف الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود – رضى الله عنه – بلجان المذاهب الأربعة فى التقنين ، ولكنه كان تواقا إلى خطوات أوسع ، فقد أصدر فضيلته بوصفه شيخ الأزهر القرار رقم ٣ لسنة ١٩٧٦ بتشكيل لجنة عليا لمراجعة التشريعات الوضعية وتعديلها بما يتفق مع المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية من عدد من العلماء الأجلاء والمستشارين القانونيين وقد توالت اجتماعات اللجنة ومناقشاتها ، وانتهت إلى مشروع قانون الحدود الشرعية فى سنة ١٩٧٧ . وهذا المشروع لم يتقيد بمذهب معين .

تقنين الأزهر للأحوال الشخصية :

ولم تقف جهود الأزهر الشريف عند هذا الحد من تقنين المعاملات والحدود ولكن قام مجمع البحوث الإسلامية ، بمعاونة علماء لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وبعض كبار رجال القانون ، بصياغة مشروع قانون للأحوال الشخصية فى الزواج والطلاق . وقد انتهى الأزهر من هذا المشروع فى أواخر سنة ١٩٧٦ .

مشروع الدستور الإسلامى :

وفى أكتوبر ١٩٧٧ انعقد المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة وأوصى أن يقوم الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية بصفة خاصة ، بوضع دستور إسلامى ليكون تحت طلب أية دولة تريد أن تأخذ الشريعة الإسلامية منهاجا لحياتها ، وطلب المؤتمر أن يؤخذ فى الاعتبار عند وضع هذا الدستور ، أن يعتمد على المبادئ المتفق عليها بين المذاهب الإسلامية ، كلما أمكن هذا .

وتنفيذا لهذه التوصية ، قرر مجلس مجمع البحوث الإسلامية بجلسته المنعقدة فى ١١ من المحرم ١٣٩٨ هـ الموافق ٢١ من ديسمبر ١٩٧٧ م إسناد وضع هذا المشروع إلى لجنة البحوث الدستورية الإسلامية بالمجمع ، على أن يدعى لهذا الاجتماع الشخصيات التى يمكن أن تسهم فى وضع هذا المشروع .

وبناء على ذلك ، قام فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ورئيس المجمع - رحمه الله - بتكوين لجنة عليا ضمت بجانب السادة أعضاء لجنة البحوث الدستورية بالمجمع ، نخبة من كبار الشخصيات المشتغلين بالفقه الإسلامى والقانون الدستورى لتتولى هذه المهمة .

وفى ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٧ و ٣ / ١ / ١٩٧٨ قررت هذه اللجنة العليا - تكوين لجنة فرعية تنبثق عن اللجنة العليا - لوضع الدراسة والبحوث ومشروع هذا الدستور ، على أن تقوم بعرض ما تنجزه من أعمال على اللجنة العليا .

وقد انتهت اللجنة الفرعية المذكورة من صياغة مشروع الدستور الإسلامى ، قبل وفاة الإمام الأكبر - رحمه الله - بثلاثة أيام .

تقنين الدكتور معتوق للحدود :

هذه هى صورة سريعة عن فكرة تقنين الشريعة الإسلامية ، وتاريخها والجهود التى بذلت بشأنها ، والدور الذى قام به الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية .

وليست هذه هى كل المحاولات والجهود التى قدمت فى السنوات الأخيرة لتقنين الشريعة الغراء . ولكن هناك جهودا أخرى مشكورة ، يجب أن تسجل .

فقد قام الدكتور إسماعيل معتوق - رحمة الله - حين كان عضوا بمجلس الشعب المصرى بتقديم مشروع قانون للحدود الإسلامية إلى المجلس المذكور .

وقد اشترك فى صياغة هذا لمشروع بعض رجال الشريعة والقانون ، ومن بينهم فضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل .

تقنينات وزارة العدل للحدود :

كما أن وزير العدل المصرى الأسبق المستشار عادل يونس – رحمه الله – قد أصدر قرارا وزاريا بتشكيل لجنة من نخبة من المستشارين القانونيين وعلماء الشريعة ، برياسة المستشار جمال المرصفاوى ، لوضع مشروع قانون الحدود الإسلام . وقد انتهت هذه اللجنة من مهمتها منذ أكثر من عامين .

جهود المجلس الأعلى للشئون الإسلامية :

كذلك انتهت لجان تقنين الشريعة الإسلامية فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف من إعداد تقنين مدنى إسلامى مستمد من المذاهب الإسلامية المختلفة وهو تحت الطبع .

جهود البلاد الإسلامية فى التقنين :

ولم تقتصر جهود تقنين الشريعة الإسلامية على مصر وحدها ، ولكن هناك بلادا إسلامية أخرى بذلت جهودا مشكورة فى هذا المضمار ، فقد أصدرت ليبيا عدة تقنينات إسلامية فى باب الحدود . وهناك بلاد أخرى أنشأت لجانا لهذا الغرض ، وهى تباشر عملها فعلا . .

وهذه البلاد هى : الأردن والسودان وباكستان واليمن وقطر . .

* * *

هذه الجهود كلها ، جهود طيبه مباركة ، تبشر بالخير ، وهى خطوات هامة جليلة نحو تطبيق الشريعة الغراء فى البلاد الإسلامية . فهذه المشروعات تقضى على كل حجة كان يرددها من قبل معوقو تطبيق الشريعة ، حينما كانوا يتساءلون : أين مشروعات تقنين الشريعة الإسلامية التى تنادون بتطبيقها ؟

واليوم . . يقول الأزهر للمسئولين فى السلطتين التشريعية والتنفيذية : ها هى ذى مشروعات تقنين الشريعة بين أيديكم . لقد أدينا واجبنا ، وعليكم أنتم اليوم أن تؤدوا واجبكم نحو ربكم ونحو شعوبكم . . فاصدقوا النية ، والله يوفقكم .

محمد عطية خميس

صرخة فى الله إلى علماء دين الله !!

الأستاذ / محمد زكى إبراهيم

أصابع الاستعمار والصهيونية :

لقد علم أعداء الإسلام – من قبل ومن بعد – أن هذا الدين متين ، فلن يستطيعوا تدميره من الخارج أبدا ، وبذلك شهدت التجارب القولية والعملية . على اختلاف أنواعها وألوانها ، وها نحن أولاء نرى غاراتهم الفكرية والعسكرية والأخلاقية تتحطم بمجرد ارتطامها بجدار هذا الدين المحفوظ بأمر الله .

ولقد لجأ هؤلاء وأولئك إلى أخطر سلاح على طريق مقاصدهم ، فرصدوا الجهود المدروسة بدقة ، والمخطط لها بعلم ، والمؤيدة بالأموال السخية ، والآمال المغرية ، والموطأ لها بكل أسباب التعمية والتستر والصرفة .

هذه الجهود التى يبذلها (الاستعمار العالمى – والصهيونية العالمية – والإمبرالية الفكرية العالمية قد انحصرت الآن ، ومنذ فترة – فى محاولة تدمير الأمة من الداخل ، وبأيدى أبنائها ، وباسم دينها ، الذى هو كل شىء فى حياتها ، فحاربوا ولايزالون ، حاربوا بأيدينا نحن – فإنما بلغت دقة خططهم أن نفكر بعقولهم ، وأن ينفذوا بأيدينا – فنحن فيما نأتى أوندع لاإرادة لنا فى واقع الأمر ، على حين نعتقد تمام الاعتقاد أننا نحن الذين نخطط أوننفذ .

قلت : إنهم حاربوا بأيدينا محو الأمية الثقافية ، حتى بلغوا من ورائها إلى عدم محو الأمية الدينية . فضاع القرآن أوكاد ، واضطر الأزهر إلى قبول طلبة قد هزل محصولهم القرآنى والدينى ، فى محاولة لإنقاذ مايمكن إنقاذه من القرآن والدين ، وقد عايشنا حروب المصاحف المصحفة والمحرفة ، وعايشنا حروب فصل المواد الدينية عن مجموع مواد الامتحان ، فلايتوقف عليها نجاح ولارسوب ، وعايشنا تعمد تدريس مواطن الإثارة والشك والانفصام فى التاريخ الإسلامى بالكليات والمعاهد العليا ، كالقصد إلى (فتنة عثمان) وإلى (حروب على ومعاوية) وإلى تصوير

المسلمين فى صورة تترية زحفت لتخريب الحضارة ، واستقطاب الغنائم ، والتمتع بمناظر الدم المسفوح ! !

تحطيم الإسلام بأيدى المسلمين واسم الإسلام :

وبعد أن طاب لهم هذا ، وانتشرت الأمية فى شباب الإسلام ، وملئوا فراغها بالمذاهب الفتاكة من نحو الشيوعية والوجودية واللادينية والانحلالية ، وكان لذلك أثره المطلوب فى الشارع الإسلامى ووسائل الإعلام كلها من إذاعة وتلفزة ، وصحف ومجلات وكتب ومنشورات وسينما ومسارح ، حتى اطمأنوا إلى تحويل الثقل الجمهورى إلى جانبهم ، أرسلوا أصابعهم إلى مناطق الحساسية الكبرى من العقيدة ، وأثاروا نعرة المذهبية المتعصبة ، ونفخوا فى نار الفرقة ، وتمزيق الأمة وأثاروها شعوبية متوقحة ، لايقرها إسلام ولايرضاها مسلم

ويوم قامت حرب (لبنان) وكانت بين المسلمين وغير المسلمين ، حدثت رجلا يتزعم طائفة مسلمة بمصر ، أسأله ماذا يجب أن يقدم أعضاء الجماعات الإسلامية ، فى مصر لإخوانهم مسلمى لبنان ؟ فكان جواب هذا الزعيم أشد على نفسى من أهوال حرب لبنان وويلاتها .

إنه يقول : وماذا يعنينا ؟ إن المسلمين فى لبنان بين شيعى أوصوفى وكلاهما عدو لله ورسوله ، وإنما أراد الله بهذه الحرب أن يطهر الإسلام من هذين العنصرين ! ! ولايبقى إلا (الموحدون) ! !

وحين دعونا الجماعات والهيئات الإسلامية إلى مؤتمر تطبيق الشريعة امتنعت من الاشتراك معنا هيئات كان عذرها ، أن فى القوامين على هذه الفكرة طوائف وأفراد (غير موحدين) ! ! والاشتراك معهم معناه الرضا بما هم عليه من (الشرك) ومن (البدعة) ! !

إلى مثل هذا الحد المذهل بلغ أعداء الإسلام من هدم الإسلام بأيدى المسلمين وباسم الاسلام ، ثم باسم التوحيد والسنة ! !

ومنذ فترة قريبة جاءنى صحفى يطلب منى حديثا ، وكان من أسئلته قوله : ألم يأن للمسلمين بعد أن يتخلصوا من تراث (أحفاد المجوس والروم) ومادخلوا به على الإسلام باسم خدمة علوم الإسلام ؟

وهذه الشعوبية المفزعة ، لم يذر قرنها المشئوم بهذه الصورة المخربة إلامنذ سنوات ليست بالبعيدة ، كأنه يشترط فى صحة إسلام المسلم أن يكون عربيا فقط ، وكأن غير العرب من المسلمين (فرسا) كانو أو

(هنودا) أو (روما) أو (مغاربة) أو (أوربيين) أو (أمريكيين) أو (أستراليين) أو (أفارقة) أو (اسكيمو) أو غيرهم ، كأن هؤلاء جميعا قد أغاروا على الإسلام واغتصبوه ودخلوه بغير حق واستعمروه وأن على العرب أن يجلوهم عنه ، وأن يطهروه من آثارهم الفكرية والعملية ، وأما قوله تعالى : (وماأرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) فقول له تفسير جديد عندهم .

شعوبية أخطر من الصهيونية والاستعمار

لقد أثارتنى وآلمتنى هذه (الشعوبية الحديثة) التى أوصلنا إليها أعداء الإسلام من حيث لاندرى ، وهم فى أبراجهم الخبيثة تكاد تتقطع أشداقهم من الضحك علينا ، والسخرية منا ونحن نتقاتل على خلافيات فروعية طبيعية لابد منها فى كل شريعة ، ولايمكن أبداً أن تمحى إلى يوم القيامة .

والذى يزيد الأمر خطرا وألما ، هو نقل أحكام (الجواز) و (المنع) إلى أحكام (الشرك والتوحيد) . إن الفروع محلها الحلال والحرام فنقلها إلى الكفر والإيمان هو نوع من الكفر بالإيمان ، أوالإيمان بالكفر ، جرتنا إليه العصبية المذهبية والانتصار للأفكار والاتجاهات الموروثة لسبب مقبول أومرفوض . وقد دفعنا ولايزال يدفعنا إليه خصوم الإسلام ونحن عن ذلك غافلون .

قلت لهذا الشاب الصحفى المسكين ليتك ياولدى لم توجه إلى هذا السؤال ، وأنت تقرأ قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقول رسول الله ﷺ « إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، أنتم لآدم وآدم من تراب » وقوله ﷺ وقد تمعّر وجهه غضبا « ليدعن أقوام فخرهم بأقوام إنما هم حطب من حطب جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن » .

إن أحفاد المجوس منهم من خدم الإسلام كما خدمه أحفاد أئمة الكفر من العرب من أمثال أبناء وأحفاد الوليد بن المغيرة ، وعقبة بن أبى معيط وأبى لهب بن عبد المطلب ، وأبو جهل بن هشام وابن أبى بن سلول ! !

لقد كان من أحفاد الروم من رفع راية الإسلام حتى وصل إلى قلب أوربا ، ومنهم من حافظ على صورة الوحدة الإسلامية ، وخلافة المسلمين ، حتى كانت تركع أمامه ملوك أوربا وسلاطينها ، ومنذ بدأت هذه الشعوبية بما يسمى (النهضة العربية) ذلت العروبة ، وتمزق العرب ، وما زال يحيط

بهم الضعف والذل وسوء المنقلب .

ألم يأتك أن سيدنا رسول الله ﷺ ألحق به سيدنا سلمان الفارسى فقال : (سلمان منا أهل البيت) إنها حمية الجاهلية يرددها ببغاوات البشر بلا تدبر ولا بينة .

أليس الإمام البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه والطبرانى والبيهقى والأكثرية الغالبة من رجال الحديث كلهم من غير العرب ؟ وكذلك طائفة من أكبر المفسرين كالزمخشرى والنيسابورى وطائفة من أكبر علماء البلاغة كالجرجانى والتفتازانى .

من هو طارق بن زياد ؟ وموسى بن نصير ؟ هذان الموليان اللذان أسسا للإسلام مجدا تاريخيا لا يمحوه الزمان من هو أبو حنيفة النعمان ؟ أليس من الموالى ؟ ولولاه ماكان لبنى (تيم الله) ذكر ولافخر .

إن إمام مصر الليث بن سعد أصله من أصبهان وإمام أهل السنة أحمد بن حنبل أصله من مرو ، والإمام المفسر الطبرى أصله من طبرستان ، والشعبى علامة التابعين ، وإمامهم كانت أمه أمة من جلولاء والحسن البصرى الكوكب الفرد كان أبوه من سبى ميسان .

وهذا علامة اللغة سيبويه والإمام الكسائى كلاهما فارسى الأصل وهذا الإمام الفراء من الديلم ، ثم إن ابن مسكويه وابن سيناء والفارابى كانوا فُرْساً أجمعين .

فقيه مكة ، عطاء بن رباح وفقيه اليمن طاوس بن كيسان وفقيه اليمامة يحيى بن أبى كثير وفقيه الشام مكحول ، وفقيه الجزيرة ميمون بن مهران وفقيه خراسان الضحاك ابن مزاحم . وفقيها البصرة والكوفة إبراهيم النخعى وابن سيرين ، كل أولئك ليسوا من العرب أصلا ، ولكنهم برّزوا فى جوانب العلم والفكر والمعرفة والدين بحيث كانوا الأئمة بكل مافى اللفظ من معنى يتجدد ولايفنى .

لاتنسوا الفضل بينكم :

إنما يتفاضل الناس بالأحلام ، لابالأرحام والناس عند الله سواسية كأسنان المشط والله يقول (ولاتنسوا الفضل بينكم) ولقد أمّر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد مولاه على جيش كان فيه أبوبكر وعمر وعندما أراد عمر أن يستخلف قال : لوكان سالم مولى حذيفة حيا لوليته !

تأمل هذا الموقف الكبير الخطير .

وهاهم أهل العلم لايكادون يذكرون ابن عمر ، إلاذكروا معه مولاه نافعا . ولايكاد يذكر أنس بن مالك إلاومعه

مولاه ابن سيرين .

ولايكاد يذكر ابن عباس إلاومعه مولاه عكرمة ولايكاد يذكر أبوهريرة إلاومعه مولاه ابن هرمز .

قضية الاختلاف الفكرى :

أما بعد فإن الاختلاف الفكرى كما قررنا وكررنا على الفروع الدينية ضرورة شرعية وطبيعية ، وإنه يستحيل استحالة مادية جمع الناس كلهم على مذهب واحد ، أورأى واحد (ولابالسيف) فى مسائل فرعية ظنية هى موضوع نظر واجتهاد بالفطرة ، ومادام مرجع الجميع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والخلاف على الفرعيات إنما هو فى الفهم والتوجيه والترجيح ، وطلب الحق وخوف الله ، فلاخصومة قط ، ولاسوء ظن أبدا ولكن تفاهم على أساس الحب فى الله .

وقد اختلف الصحابة والنبى معهم على مثل الصلاة فى قريظة واختلفوا فى مصير أسرى بدر واختلفوا ومن بعدهم فى مثل مسائل « العول والكلالة وعدة الحامل المتوفى عنها زوجها ، وسكن المبتوتة ، وتوريث الأخ الشقيق مع الأخ لأم ، واختلفوا فى زواج المتعة ، والطلاق الثلاث بلفظ واحد ، والطلاق المعلق على الفعل أوالترك ، واختلفوا فى قراءة المؤتم وفى عدد التراويح والوتر ، وفى السدل والقبض وفى صورة الأذان والتأمين والسلام ، وحتى حركة الأصبع فى التشهد . . إلخ » ولكل قول حجة ودليل .

ومع هذا فقد احترم كبار أئمة المذاهب آراء بعضهم بل قلد بعضهم بعضا أحياء وموتى ، فصلى الإمام الشافعى عند قبر أبى حنيفة بمذهب أبى حنيفة أدبا مع روحه ، وقلد أبو يوسف الإمام مالكا فى مسألة الماء المتنجس ، وقرظ الشافعى الليث بن سعد ، وقرظ أبوحنيفة أباسفيان الثورى والأوزاعى ، بل صلى الإمام ابن حنبل خلف بعض أئمة القدرية بلانكير . .

وهكذا لايعرف عن كبار الأئمة من طعن أخاه أو انتقصه أوأخرجه من دين الله بجرة قلم إذ ليس فى الدنيا مذهب كله خطأ ، أومذهب كله صواب (ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

فلما انتقل الأمر من اجتهاد فى التحقيق إلى تعصب وحزبية عارمة ، ووضع الناس الشتائم والسباب والقذف بالفسق والتبدع والكفر والشرك ، بدلا من التقارب والتفاهم والعلم بما عند الآخرين ، إعزازا لهم وإبقاء على صلات أصول العقيدة ، واتحاد المقاصد ، كان هذا أخطر ماأصيب

به المسلمون من الأمراض الفتاكة .

لقد أدرك السابقون من أمتنا مدى سماحة الإسلام ويسره وصلاحيته لكل زمان ومكان وكل إنسان . . وهذا إمامنا الشافعى قد وضع مذهبه (القديم) بالعراق فى ظروف وأحوال خاصة ، فلما جاء إلى مصر فواجه ظروفاً وأحوالا أخرى ، وضع مذهبه (الجديد) فكلاهما إذن من الكتاب والسنة وكلاهما إذن صواب فى موضعه ، وللمجتهد الثواب على الخطأ والصواب .

وكان أبوحنيفة يقول : « نحن على صواب يحتمل الخطأ وغيرنا على خطأ يحتمل الصواب » وموقف مالك من الخليفة العباسى فى شأن كتاب « الموطأ » معروف فإن مالكا كره أن يفرض على الناس كتاب معين مهما كان صحيحا ، لمخالفة ذلك لمنهج الحياة وطبيعتها وناموسها الكونى ، فالخلاف إذن على الفروع طبيعة وشريعة مادام هناك ! اختلاف فى العقول والفهوم والبيئات والاستعدادات والصحة العامة والتربية والقابليات المختلفة والنفسيات والوراثات والظروف والطوارئ وغيرها وسيبقى الأمر كذلك إلى يوم القيامة (ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ومن زعم أنه يستطيع بالبيان أوالسلطان ، أوبهما معا حمل الناس على رأى واحد فى الفروع فقد خالف دستور الحياة وطلب مايستحيل أن يكون وبخاصة عندما يكون اختيار المذهب أثرا للتوافق الطبيعى بين المذهب والتكوين الذاتى للإنسان كما يفضل الإنسان طعاما أو شرابا أويتأذى من طعام أوشراب .

ثم إن الإنسان مكلف شرعا بالعمل بما وصل إليه اجتهاده ، واستقر عنده نظره ، ويكون هذا هو حكم الله فى حقه وحق من قلده ، حتى يتبين له خطأ ماذهب إليه اقتناعا بيقين لا يرده برهان وإن شئت فاذكر قصة صلاة العصر فى بنى قريظة وكيف اختلف الصحابة فى فهم أمر النبى ، وصلاها كل منهم حسبما فهم ثم لما احتكموا إليه ﷺ قرر أن كليهما على صواب ، وعلى هذا الأساس نحن ننظر إلى كافة مذاهب المسلمين فنحترمها ، ونعتذر عند أنفسنا لأصحابها ونقرب بالتوسط واليسر والاعتدال فيما بينهما ، مادام خلافها على الفروع التى لايمكن الاتفاق عليها كما قدمنا بالطبع والشرع وقانون البحث العلمى الرفيع ، ونحن هنا نقول ماقال الإمام زيد[1] : « حسب الناس أن يجتمعوا على مايصير به المسلم مسلما » وذلك حفاظا على وحدة المسلمين التى لايكون بغيرها قوة

(١) أوهو الإمام جعفر الصادق على قول آخر

ولاعزة ولاسعادة .

ولهذا نعوذ بالله أن نتردى سفلا فنرمى مسلما بشرك أوردة أو ابتداع أوكفر ، من أجل اقتناع اجتهادى فى قول أوعمل فرعى ، ونعوذ بالله أن ننقل أحكام الحلال والحرام إلى الكفر والإيمان (كما هو شائع الآن عند بعضهم) ، تقليدا لمن تورطوا فى ذلك من قبل ، — غفر الله لنا ولهم — فليس هناك أحد يختار الخطأ ليقع فيه ، وليس أحد يعمل ماترجح صوابه عنده ليدخل به النار ؟ ! أوليفضحه به التاريخ ! ! والحق واحد ولكن الطرق إليه كثيرا ماتتعدد بلاتعارض ولا انحراف .

والإسلام الآن مستهدف لغارة مجنونة فاجرة تأخذه من الداخل والخارج ويعانى غزوا فكريا طاغيا ، وغزوا عمليا فعليا مريرا ، هو أولى بالجهد والوقت المضيع فى اجترار أسباب الفرقة وتأريث نيران العداء ، والاحتفاظ بمرارة الغل ، فى حنايا الصدور ، حقدا على أهل القبلة ، والله تعالى يقول : (ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) .

وحين يكون الخطأ مستيقنا تجب النصيحة وتتعين بالدعوة بالحكمة ، وبالتى هى أحسن فدعوى احتكار الصواب والوصاية على دين الله ليست من العلم ولاالخلق ولاالدين ، أليس حسبنا ماجرتنا إليه الفرقة المذهبية من ضعف وتخلف ، وذل وتبعية ، وتخاذل وتنافر ، حتى طمعت فينا هذه (الكلاب الضالة) وعبث بنا (أبناء الأفاعى) ولاتزال تتداعى علينا المذاهب المدمرة من كل صوب وحدب .

أيها المسلمون لاترجعوا بعد نعمة الإسلام كفارا ، يضرب بعضكم أعناق بعض « حقيقة أومجازا » ، حسا أومعنى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) وإن الله سائل كل من ينفخ فى نار الفرقة وتمزيق الأمة ، باسم دعوة المذهب أومافوقها أودونها ، سواء كان عميلا أوصاحب عقيدة أومقلدا أوصاحب هوى ، ولعله لم يمر على الإسلام أيام هى أخطر من هذه الأيام فى كل ماسجله تاريخ الإسلام .

وهذه صرخة فى الله ، إلى علماء دين الله واسأل الله أن يجعل فيهم الخير فيسمعهم وأن يزداد هذا الخير فيكون لهم من كل ذلك موقف يرضى الله ورسوله ويرضى التاريخ ويرضى عقلاء المسلمين .

وقد بلغت ، اللهم فاشهد .

محمد زكى إبراهيم

المسلمون البلاليون فى الولايات المتحدة

سماحة الشيخ / عبد الله بن على المحمود

كان من يمن الطالع أن يحضر وفد من المسلمين الأمريكيين افتتاح مركز الدعوة الإسلامية بإمارة الشارقة برياسة زعيمهم « وارث الدين محمد » الذى اصطحب معه اثنى عشر رجلاً وثلاثا من النسوة فى أول رحلة لهم يتعرفون فيها على إخوة لهم فى العقيدة بالعالم العربى ويطلعونهم على أحوالهم ويشاورونهم فى مسار الحركة الإسلامية والصعاب التى يواجهونها . . . هؤلاء المسلمون هم المسمون « بالبلاليين نسبة » إلى « بلال بن أبى رباح » رضى الله عنه . . وكانوا من قبل يعرفون باسم « المسلمون السود » ثم « أمة الإسلام فى الغرب » . . وترجع بداية هذه الجماعة إلى عام ١٩٣١ عندما ركب الباكستانى المهاجر « محمد فارض » دراجته حاملاً عليها بعض الأقمشة التى يتجر فيها مع الفقراء والعمال بمدينة « ديترويت » مركز الصناعات الكبرى فى الولايات المتحدة الأمريكية . . وأخذ الرجل يبيع بضاعته تارة ويعرض عقيدته على الناس تارة أخرى حتى آمن معه نفر قليل وكان إيمانهم خليطاً من مفاهيم شتى بعضها إسلامى وبعضها كنسى وبرهمى . . وهكذا شب تابعه (ايلاجا محمد) على اعتناق الإسلام المغلف بكثير من الخرافات والترهات . . ولكن الرجل مالبث أن نشط فى دعوته واستطاع أن يستقطب نفراً كثيراً من حوله حتى إذا كان شهر أبريل عام ١٩٧٤ وبمطلع يوم العاشر منه صعدت روح (ايلاجا محمد) إلى بارئها تاركاً خلفه مليونين ونصف مليون من الأتباع واثنتى عشرة مدرسة وأربعين متجراً ومصرفين وثلاث محطات للإذاعة وصحيفتهم الرسمية المسماة « محمد يتكلم » Mohammad Speak بالإضافة إلى ست مزارع كبرى فى شيكاغو ونحو اثنى عشر ألفاً من الشباب المدربين على حمل السلاح والمنتظمين فى تشكيلات عسكرية تسمى « ثمار الإسلام » وهم يعتقدون أن واجب المسلم ألا يلقى سلاحه أبداً ؟ ؟ وشعارهم

قوله تعالى (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) . . . هذه الجماعة هى التى قالت عنها مجلة (التيمس) منذ عامين أنها الولاية الواحدة والخمسون التى تتألف منها الولايات المتحدة الأمريكية ؟ ؟ . . والمعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية عددها خمسون فقط وأن البلاليين لكثرتهم يؤلفون ولاية أو أمة إسلامية داخل الأمة الأمريكية على الجانب الغربى من الأطلنطى ؟ ؟

وما أن حمل « وارث الدين محمد » تبعات المسئولية عن أبيه حتى راح بعزم ومضاء ينقل جماعته إلى العقيدة الصحيحة السمحاء وبدأوا يمارسون الصلوات الخمس فى جمع وجماعات وكانوا من قبل لايؤدونها وشاركوا ألف مليون مسلم صوم رمضان وكانوا لايشهدون هذا الشهر ولايصومونه ويعتزمون هذا العام أداء فريضة الحج لبيت الله الحرام مستأجرين ثلاث طائرات عملاقة « جامبو ٧٤٧ » لنقل أول فريق ممن استطاع إليه سبيلاً . . وسموا دور عبادتهم مساجد بعد أن كانت تسمى معابد وتحولت صحيفتهم السياسية إلى صحيفة إسلامية حديثة باسم « أخبار البلاليين » Bilalian News وأن مصارفهم الربوية المسماة (البنوك الضامنة) سوف تنتقل فى القريب إلى مصارف إسلامية لاربوية إثر موافقة السلطات المعنية على التماساتهم المقدمة بهذا الخصوص .

لقد زرنا هذه الجماعة وعايشنا زعماءها فى دورهم وعرفنا احتياجاتهم من دعاة ومثقفين – ومعلمين ومرشدين . . وأحسب أن هذه الجماعة هى أمانة فى أعناق المسلمين حاكمين ومحكومين . . ويوم أن تتوافر لهذه الجماعة الإمكانيات التى ينشدونها سوف يكون للاسلام قومه وتكون للمسلمين دولة . . إن أربعة ملايين يهودى فى الولايات المتحدة الأمريكية هم سند إسرائيل فى حملاتها على الساسة الأمريكيين رهباً ورغبا . . إن أصواتهم وأموالهم هى كل عدتهم فى الحلبة السياسية . . والآن وقد ساق الله للمسلمين أمة قوامها مليونان ونصف مليون من المهللين المكبرين فالرجل منهم بعشرة من الآخرين وحال ضعفه برجلين . . إنهم ثروة هائلة ينبغى استثمارها .

إن الدول والأقطار تنفق الملايين لشراء عملاء لهم يناصرونهم ويؤازرونهم . أما هؤلاء البلاليون فهم دعاة لله ولرسوله وللمؤمنين . . دعاة دون درهم ولا دولا . . ؟ لقد فطن المسئولون بالشارقة لأهمية هذه الجماعة ومدى فاعليتها حاضراً

ومستقبلاً فشدوا - إليهم الرحال وفى أغسطس عام **١٩٧٥** حمل شيخ الشارقة سلطان بن محمد القاسمى « معوله » وأخذ يضرب به فى الأرض والتراب ينهال على عباءته وسط هتافات الألوف من الرجال والنساء الأمريكيين مرددين الله أكبر . . الله أكبر . . الله أكبر كبيراً . . وحمل الأمير العربى أحجاراً على كتفه ووضعها لتكون أساساً لمسجد ومركز إسلامى يضم مكتبة ومدرسة ومشغلاً ومستشفى وسوقاً تجارية ومطبعة . . على مشارف بحيرة متشيجن فى قلب شيكاغو وعلى مسطح يتجاوز ستة أفدنة قدمتها محافظة الولاية إسهاما فى التطوير العمرانى لها . . وتقدر التكاليف الأولية لهذا المجمع بنحو أربعة عشر مليون دولار قدم رئيس دولة الإمارات منها نصيباً وقدم شيخ الشارقة نصيباً آخر وسوف يبدأ العمل فى المشروع مع مطلع العام الهجرى القادم .

المسلمون الحنفيون فى الولايات المتحدة الأمريكية :

هذا وقد أسهم مركز الدعوة الإسلامية بالشارقة فى فض الصراع وفك الحصار الذى فرضه المسلمون الحنفيون على مراكز ثلاثة فى العاصمة الأمريكية واشنطن يومى التاسع والعاشر من مارس **١٩٧٨** واحتجزت فيه رهائن تجاوز عددها **١٥٩** رهينة . . واثر اتصالات هاتفة مكثفة مع رئيس الجماعة « حماس عبد الخالص » وأمينها العام « عبد العزيز خالص » ووكيله « عبد المذكر » رفض المسلمون الحنفيون ماعرضه عليهم السفراء المسلمون وزعماء الصهاينة فى مقر قيادتهم الحالى والمسمى بناى بريث Bnai Breth وردوا إليهم عرضهم تقديم فدية قدرها خمسون مليونا من الدولارات وطائرتين لنقل الحنفيين إلى مكان ما فى الخليج العربى وقالوا إنما قمنا غضبة لله ولدينه ولرسوله . . وإذا قبلنا المال وآثرنا الفرار كنا كسائر الإرهابيين الذين لايحملون عقيدة ولايدينون بالحنفية السمحاء . . ؟ وأطلقوا سراح الرهائن جميعاً دون المساس بأحد أثر سماعهم لقوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله . .) ؟ وقد أجاروهم بعد أن أسمعوهم الكثير من أحكام الله وقرآنه وأحاديث نبيه محمد ﷺ . .

أما لماذا أقام هؤلاء الحنفيون بغضبتهم العقائدية تلك فمرد ذلك إلى ماحكاه لنا الأمين العام « عبد العزيز خالص » عند زيارته لنا بالشارقة . . قال لقد فوجئنا

بإعلان فى جميع الصحف الأمريكية عن عرض لفيلم الرسالة أو فيلم محمد رسول الله الذى أفتى علماء الأزهر ورجال رابطة العالم الإسلامى بعدم جواز عرضه لما فيه من وقائع محرفة وأقوال متبثرة منسوبة لكرام الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فضلاً عن أن المكان الذى اختير لعرض هذا الفيلم هو شارع (برودواى) فى إحدى دور الخيالة التى تعرض فى نفس الحفل فيلم الرسالة وفيلماً آخر عن الشذوذ الجنسى بين الرجال وبطل الفيلمين واحد هو الممثل الأمريكى (انطوانى كوين) . . ؟ ؟ وكان هذا بمثابة سب علنى للإسلام ولنبى الإسلام ولمعتنق الإسلام فى كل مكان . . ؟ ؟

وأرسل الحنفيون رسائل وبرقيات للمسئولين فى العاصمة الأمريكية وفى مقر رياسة الصهاينة القائمين على شئون الخيالة وللمركز الإسلامى فى واشنطن يطلبون إليهم العمل على وقف هذا العرض ولكن لم يحظ هؤلاء بجواب لا من هنا ولا من هناك . . واعتزم هؤلاء إيقاف هذا الفيلم ولوبالقوة وكانت غضبتهم العقائدية التى استنفروا فيها اثنى عشر رجلاً حملوا بنادقهم وفى مطلع صباح التاسع من مارس حاصروا بناية(بناى بريث) واحتجزوا فيها (١١٤) مائة وأربعة عشر رهينة من كبار الصهاينة ورجال المصارف اليهود وستة من أعضاء الكنيست الإسرائيلى كانوا فى زيارة لهم . . وبعد ساعة أخرى حاصروا مقر العاصمة الأمريكية وجردوا حراسه من أسلحتهم واحتجزوا فيه محافظ العاصمة وكبار معاونيه وبعضاً من رجالات الإعلام ثم حاصروا مكاناً آخر واحتجزوا فيه رهائن أخرى .

وقسمت العاصمة الأمريكية أقساماً ثلاثة وحاول الرئيس الأمريكى مرتين محادثة زعيمهم « حماس عبد الخالص » الذى رفض أن يرد عليه واستجاب لنداء أخ له فى العقيدة السمحاء طلب إليه أن يفض هذا الحصار وأن يعيد الأمن والطمأنينة للبلاد وأن يقبل العهد والأمان الذى عرضه عليه السفراء إذا هم أطلقوا الرهائن دون أذى فى الأرواح والأبدان .

وانتهت الغضبة العقائدية نهـــاية منقطعة النظير؟ ؟ . . قبل حماس عبد الخالص العهد والأمان الذى عرضته عليه السلطات الأمريكية بواسطة السفراء ولكن هذا العهد مالبث أن نقض وألقى القبض على حماس عبدالخالص وقدم ورفاقه للمحاكمة وصدرت عليهم أحكام فريدة فى نوعها فقد أصدر القاضى (انتربو) الحكم بالسجن لمدة ٢٦ عاماً على

الأخ . عبد المذكر وعلى رفاقه بأحكام مماثلة أما زعيم الجماعة فقد كان نصيبه السجن (٤٤) عاماً ودية وغرامات تتجاوز فى مجموعها أربعة ملايين ونصف مليون من الدولارات . . ؟ ؟

والغريب أن المحكمين قد برءوا ساحتهم فى أول اقتراع ولكن القاضى (انتريو) المنتسب لأمه اليهودية قد طلب إليهم إعادة الاقتراع ثانية وأمهلهم يومين آخرين . .

ومارسوا على المحلفين جميع أساليب الضغط حتى تحول اقتراعهم الثانى إلى الإدانة والتجريم بالإجماع بعد أن كان البراءة والتغريم . . وهكذا اهتز ميزان العدالة فى دولة ترفع شعار العدالة وحقوق الإنسان وتتهم سواها بالتجبر والتحيز والاستبداد . . ؟ ؟

لقد اضطر مركز الدعوة الإسلامية بالشارقة إلى الوقوف مع هؤلاء الحنفيين فى محنتهم وأرسل من يناشد جماعة العفو الدولية التدخل فى هذا العدوان الصارخ على حقوق الإنسان وسوف يجند لهم كبار المحامين ليدافعوا عنهم فى قضية الاستئناف الكبرى التى نأمل أن تشد انتباه سائر المسلمين فى الأرض . ليدافعوا عن إخوة لهم ثاروا فى غضبة عقائدية من أجل الدفاع عن الإسلام الذى أوشك المجرمون أن ينالوا منه . . ولكن الفيلم توقف عن العرض وحاش لله أن يجتمع الطهر والفجور والعفة والشذوذ فى دار خيالة واحدة حتى وإن كانت فى برودراى . . ؟ ؟

* * *

إن مركز الدعوة الإسلامية بالشارقة يسره أن يعلن عن العقيدة الصحيحة السليمة السلفية الخالصة لهؤلاء الحنفيين فمنذ نشأتهم من عشرة أعوام مضت وهم سائرون على الهدى الصحيح والإرشاد الخالص ومعلمهم ومرشدهم دكتور « أحمد ناسبورى » البنغالى المسلم الذى تلقوا عنه العقيدة . . إنهم متمسكون نصا وروحاً بالكتاب والسنة . . إنهم سنيون حنفيون (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين .

وكتاب حماس عبد الخالص المسمى « انظر وتأمل » يعتبر ذروة للتعاليم الإسلامية الصحيحة بما يتفق والعقليه المادية الحضارية الأمريكية . . إننا نعتزم بحول الله إعادة طبعه وتوزيعه على الناطقين بالإنجليزية من المسلمين وغير المسلمين والله ولى التوفيق .

عبد الله بن على المحمود

سماحة الشيخ عبد الله بن علي المحمود

فى سطور

● من مواليد الشارقة سنة ١٣٣٥ هـ .

● كان والده من كبار العلماء ، وقد تكفل بتعليم الكثير من الطلاب على نفقته الخاصة وإرسالهم إلى مختلف الأقطار الاسلامية كمصر ، والعراق والسعودية فقد كان ولده من كبار تجار اللؤلؤ فى الخليج كله .

وقد ورث الشيخ عبد الله عن والده مروءته وعلمه . ودينه ، وبيته فى مدينة الشارقة ملتقى العلماء والأدباء وزعماء المسلمين فى العالم كله .

● اشتغل فترة بالقضاء . ثم اختير مديراً للأوقاف والشئون الإسلامية فرئيساً لمركز الدعوة الإسلامية . وعضواً بالمجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى .

● اشترك فى كثير من المؤتمرات الإسلامية فى العالم الإسلامى وفى أوربا وأمريكا .

● من مؤلفاته : الأسرة السعيدة ، وحقوق الإنسان فى الإسلام والمذاهب المعاصرة .

الإسلام فى خطر

الدكتور حسين مؤنس

(١)

من عيوبنا أننا نستريح إلى توسد ذراعنا والاستسلام للنوم حاسبين أن المقادير تتولى أمورنا وتحل مشاكلنا ، حاسبين أن المشاكل لابد أن تحل نفسها مع الزمن .

وهذا العيب يتجلى بصورة أوضح فيما يتعلق بالإسلام ومصيره . .

فنحن نؤكد لأنفسنا ليل نهار أن عالم الإسلام فى زيادة مستمرة ، وأن أعداد المسلمين فى صعود مضطرد ، لأن الإسلام كما تعودنا ينشر نفسه بنفسه ، فهو دين سمح يفتح الله له قلوب الناس ، وله كما يقول المستشرق جان سوفاجيه قوة انفجارية هائلة .

وفى أكثر من كتاب من كتب المهتمين بمسائل الأديان يوصف الإسلام بأنه دين مناضل . .

وهذا كله حق . .

ولكن الذى ليس بحق بحال من الأحوال ، هو أننا نكتفى بترديد ذلك والاكتفاء به . .

وإلى الأمس القريب كان الإسلام يشق طريقه فى قوة وعزم معتمداً على فضائله التى أودعها الله فيه ، وقدرته على فتح مغاليق القلوب . .

وكانت هذه القوة الدافعة تثير الرعب فى نفوس أعداء الإسلام ، فعندما أنهت أوربا سيطرتها على أفريقية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وتدفقت جماعات المبشرين على القارة الأفريقية كانوا يحسبون أن أمر الإسلام قد انتهى فى أفريقية لأنهم سيعرفون كيف يمحونه من مستعمراتهم محوا كما ظنوا . .

ووضعت دول الاستعمار إمكاناتها كلها فى حرب الإسلام ، وانهالت الأموال على هيئات التبشير ، واشتدت الحرب على الإسلام فى أفريقية . .

وفى أواخر القرن الماضى ، تكشفت الأمور عن حقيقة أذهلت أهل الغرب كله : برغم كل هذه الجهود انتشر الإسلام

(١) عن مجلة الهلال المصرية

أكثر فأكثر . . فنى أفريقية المدارية والاستوائية تضاعفت أعداد المسلمين بين ١٨٤٠ ، ١٩٠٠ . . كانوا يقولون فى إحصائياتهم إن المسلمين فى غرب أفريقية السوداء يصل عددهم إلى ٢٠ مليونا ، وكان هذا تدليسا منهم ، فإن العدد الحقيقى كان قريبا من ضعف ذلك العدد .

ولكن الأمر الذى روعهم أنهم اكتشفوا فى إحصاء عملوه سنة ١٩١٢ أن أعداد المسلمين فى الغرب الأفريقى جنوب الصحراء وصل إلى ٦٠ مليونا منهم ٢٥ مليونا فى نيجيريا وحدها .

وقرب نهاية عصر الاستعمار كان هناك تسليم بأن الإسلام فى أفريقية لايقهر . . وبدلا من أن تتجه جهود المبشرين إلى تنصير المسلمين اتجه الاهتمام إلى ترك الإسلام يسير فى طريقه وتوجيه الجهد نحو نشر المسيحية بين الأفريقيين .

مسالك الإسلام فى أفريقية :

ولكنهم حرصوا فى نفس الوقت على إيقاف كل عمل من شأنه المعاونة على انتشار الإسلام . ومن هنا فقد وضعوا قيودا على تشييد المساجد ، وأوقفوا تعليم اللغة العربية (حتى فى تونس والجزائر) ، ورفضوا الموافقة على إنشاء الجمعيات الإسلامية وأقفلوا أبواب مستعمراتهم فى وجوه المسلمين دعاة كانوا أم غير دعاة ، ثم إنهم وضعوا قيودا على حركة التجارة بواسطة القوافل ، لأن قوافل التجارة لها أكبر الفضل على انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية عامة وفى أفريقية المدارية والاستوائية خاصة ، ثم جنوبى خط الاستواء .

ومن المعروف أن الإسلام وصل إلى أفريقية جنوبى الصحراء بواسطة طرق التجارة الرئيسية التى تعبر الصحراء وأهمها ثلاثة طرق :

– طريق الساحل الغربى بمحاذاة شواطئ الأطلسى وقربها من جنوبى المغرب الأقصى (جنوب وادى درعة إلى وادى السنغال) .

– طريق الوسط عبر الصحراء : من طرابلس وغدامس جنوبا إلى فزان ثم كوار ثم منطقة بحيرة تشاد .

– طريق الشرق عن طريق وادى النيل ثم من سنار إلى الفاشر إلى وادى ثم إلى بلاد البورنو والكانم .

وعن هـذه الطرق الثلاثة نشأت الجماعات الإسلامية الكبرى فى أفريقية على جانبى مدار السرطان . ثم إلى خط الاستواء (قبائل المانكى والسوفنكى فى السنغال

وغمبيا وغينيا وسيراليون وغانا وتوجو وداهومى والنيجر وفولتا والكمرون والجابون وتشاد وأفريقية الوسطى والكونغو برازافيل وشمال زائيرى .

أما الإسلام فى شرق أفريقية جنوب السودان النيلى فقد وصل عن طريق السارون إلى البحر الأحمر وقرن الصومال .

ومن هنا وصل الإسلام إلى مجموعات القبائل الكبرى فى شرق أفريقية : الشلوك والدنكا واللو واللانجو (فى جنوبى السودان) وفى منطقة البحيرات وجنوبها (قبائل الماسى والفاندى والصومالى والجالا والدوندى والفياتزا والكيكويو والتشاجا والحدسا وما إليها .

وهذه كلها ليست قبائل ، وإنما مجموعات قبلية كبرى ، وكان الإسلام قبل عصر الاستعمار وبعده ينتشر فيها انتشارا سريعا بفضل قوافل التجارة فى الغرب والوسط ثم بفضل الهجرات العربية (فى شرق أفريقية)

موقف الإسلام اليوم

وفى نهاية عصر الاستعمار (خلال الستينات) كان سكان أفريقية فى مجموعهم يقدرون بحوالى ٣٠٠ مليون نسمة وعددهم فى أوائل السبعينات ٣٣٥ مليون نسمة مقسمون كما يلى :

شمال أفريقية	٦٥ ٠٠٠ ٠٠٠
أفريقية الوسطى	١٠٧ ٠٠٠ ٠٠٠
شرق أفريقية	٧٢٠٠٠ ٠٠٠
وسط أفريقية الغربى	٣٥,٨٠٠,٠٠٠
جنوب ووسط أفريقية	٤٧,٧٠٠,٠٠٠
مدغشقر	٦,٥٠٠٠٠٠
المجموع	٣٣٥,٠٠٠ ٠٠٠

ومن مجموع سكان أفريقية كان عدد المسلمين يقارب النصف ، أى حوالى ١٦٠ مليون مسلم (بما فى ذلك مصر والسودان والمغرب وموريتانيا ومالى والصومالات وأريتريا وهى بلاد إسلامية عربية)

وكانت المؤشرات تدل على أن الإسلام فى تقدم مستمر فى المناطق التى ذكرناها وأنه فى نهاية القرن سيكون ثلثا القارة مسلمين وبهذا تنحسم معركة الصراع الدينى والفكرى الخطيرة فى أفريقية لصالح الإسلام والعروبة بالتالى .

وقد قرر ذلك واحد من أعظم الباحثين الفرنسيين فى شئون الإسلام فى أفريقية وهوفنسان مونتاى .

ماذا حدث عند الاستقلال :

حدث أن المستعمر الأوربى عندما قرر

أن يتخلى عن المستعمرات قرر أن تظل فى دائرة نفوذه وربطها إليه ثقافيا واقتصاديا وكان الدين عنصرا رئيسيا من عناصر هذه السياسة ، إذ أنهم كانوا يعرفون أن عدوهم الحقيق فى أفريقية هو الإسلام وأن المسلمين أصحاب عقيدة حضارية قوية وشخصية لايمكن القضاء عليها ، ثم أنهم المؤسسون لأعظم الحضارات الأفريقية قبل الاستعمار .

فى غرب أفريقية مثلا أقام المسلمون الأفريقيون ثلاث دول كبرى هى غانة ومالى ومنغاى .

وفى وسط أفريقية المدارية أقام المسلمون مملكتى البورنو والكانم ، وفى شرق أفريقية دخلت فى الإسلام أقوى القبائل التى قاومت الاستعمار الصومالى والغاندى والجالو والمساى . وكانت كل قبيلة من هذه – ومازالت – مملكة ورئيسها يسمى بالفعل ملكا .

وفى إقليم نيجيريا كانت القبائل الكبرى هى الإسلامية : الفولا والحوميا (الهاوزا) والكنورى والكوكاوا .

لهذا حرص الاستعمار على أن يهمل هذه القبائل والممالك الإسلامية وأن يوجه همه إلى الأقليات التى استطاع أن ينصّر بعض أفرادها . .

فاجتهد فى تعليم هؤلاء الأفراد وتدريبهم على العمل ، وعندما خرج المستعمرون عهدوا إليهم فى الأمور عن طريق « انتخابات سليمة » أجرتها سلطاته تحت رقابة الأمم المتحدة .

لهذا وجدنا أنفسنا فى معظم بلاد أفريقيا أمام سلطة حاكمة مسيحية تعمل على إيقاف تقدم الإسلام .

حتى فى بلد مثل نيجيريا كانت السلطة فيه فى يد المسلمين فى نهاية الاستعمار قامت ثورة دبروها هم بأيديهم للإطاحة برؤساء البلد من المسلمين .

هنا ندخل فى النقطة الهامة من هذا العرض ، وهى أن هناك سياسة غير منظورة سياسة مدبرة يجرى تطبيقها بنظام ، وهى الوقوف فى وجه الإسلام .

سياسة مرسومة لحرب الإسلام :

ولابد أن نلفت النظر هنا إلى حقيقة هامة هى أن الإسلام بالذات من دون الأديان ينتشر بالقبائل أى أن القبائل تسلم كلها إذا انتشر بين رؤسائها ، ورؤساء القبائل الحقيقيون هم التجار ، وهم أصحاب الأموال .

حقًّا إن كثيراً جدًّا من القبائل منظمة على أساس أنها دول داخل الدول وفى كثير

من الحالات يحمل رئيس القبيلة لقب الملك كما قلنا ، ولكن القوة الحقيقية فى بلاد أفريقية الإسلامية فى يد التجار فقبائل الولف والسوفنكى والمالنكى والبارميارا والفولا والديولا والبامبارا فى غرب أفريقية كلها إسلامية وكلها كذلك قبائل اشتهرت بالمهارة التجارية ، ورجالها يسيطرون على اقتصاد البلاد .

وقبائل اليوروبا (فى غانا وفولتا العليا وتوجو وجنوب نيجيريا) لم تسلم قط ، وكانت من أفقر قبائل غرب أفريقية ولكن المبشرين يعملون اليوم على تنصيرها واستخدامها فى محاربة سير الإسلام .

ومن أظهر الأمثلة على ذلك قبائل الإيبو والتيف والأودو حول حليج بنين فى نيجيريا ، وكلنا نذكر ماذا حدث فى نيجيريا من مقتل أحمد باليو إلى دكتاتورية جون إلى ثورة هذه القبائل التى أرادت أن تحطم وحدة نيجيريا وتستقل بإقليم بيافرا مكونة دولة مسيحية تناوئ نيجيريا المسلمة .

والهدف الرئيسى هنا هو تحطيم وحدة نيجيريا خوفا من أن تتحول كلها إلى الإسلام وتصبح نيجيريا بسكانها الستين مليونا قوة إسلامية ضخمة وسط أفريقية المدارية والاستوائية .

وأمامنا كذلك مأساة تشاد ، وهو بلد غالبية سكانه مسلمين ولكن الفرنسيين أرادوا أن يظل تحت حكم ربيبهم فرانسوا توميلباى .

وهناك مجموعة من بلاد أفريقية يقف الغرب وراءها ويعطيها قدرا يستوقف النظر هى كينيا وتانزانيا وزامبيا وملاوى لأن هذه البلاد تحكمها أقليات غير إسلامية .

ووراء هذه الأقليات الحاكمة تقف الهيئات المسيحية كلها وخاصة البابوية ومجلس الكنائس العالمى الذى حاول من سنوات التدخل أيضا فى شئون جنوب السودان تدخلا لايخدم صالح الوطن السودانى .

وراء ذاك التأييد لتلك البلاد أذن مصالح غير اسلامية ، بعبارة صريحة : هذه السياسة كلها مرسومة للقضاء على الإسلام .

وفى هذه البلاد جماعات اسلامية ضخمة ولكن الحكومات لاتشجع الإسلام ولاتؤيده ، وفى تنزانيا بالذات قضت السياسة على استقلال زنجبار لأنها كانت مركزا لأنتشار الاسلام .

والحكم هناك يقوم بالفعل على تأييد قبائل غالبيتها وطنية . وانظر مثلا إلى الهجوم الضخم على عيدى أمين وحكومة أوغندا .

كانوا جميعا صامتين على أعمال ملتون أوبوتى لأنه كان من قبيلة مسيحية وكان واحدا من زمرة المقاومين للاسلام وكان يحاول أن يدفع المسيحية إلى الأمام وعيدى أمين مسلم من قبيلة اسلامية لهذا يشنون عليه كل هذه الحرب .

الإسلام الأفريقى فى خطر :

هناك إذن عامل دينى وراء كل سياسات البلاد الأفريقية فى البلاد التى تستولى على أزمة الحكم فيها هيئة غير إسلامية ، فهى بكل صراحة تعلن الحرب على الإسلام : توقف أعمال الدعوة ، تضع العقبات أمام الهيئات الإسلامية ، تضع الصعوبات أمام تعليم المسلمين ، ولاتنظر الدول بالارتياح لتعليم اللغة العربية .

ودعنا هنا من الخطب التى تلقى فى اجتماعات مجلس الوحدة الأفريقية

توقف تقدم الإسلام فى أفريقية ككل :

وفى أيامنا هذه توقف تقريبا توسع الإسلام فى أفريقية جنوبى الصحراء . توقف ونحن نائمون مطمئنون إلى أن الإسلام يسير إلى الأمام كما عهدناه .

الزيادة فى أعداد المسلمين هى الزيادة التى تأتى من مواليد المسلمين لامن دخول ناس جدد فى الإسلام .

فى نفس الوقت تضاعف الهيئات التبشيرية نشاطها بكل قوة فيما بين الحكومات – أرجو القارئ أن يصدقنى عندما أقول هذا الكلام – ستنكره الهيئات المسئولة عن الدعوة الإسلامية ، ولكنها لاتستطيع الاعتراف بأنها تخسر المعركة حقًا . .

فى أفريقية المدارية والاستوائية باستثناء زائيرى كان المسلمون عشرة أضعاف المسيحيين ، واليوم أصبح المسيحيون أضعاف المسلمين . المعركة اليوم تدور حول كسب ٧٠٪ من سكان أفريقية وهم وثنيون إلى الإسلام أوالنصرانية .

هؤلاء الوثنيون كسبوا هم كثيرا جدا فى كل منطقة فى حين أننا نحن نتراجع ونريد أن نقول إن مستقبلنا – أى مستقبل عرب أفريقيا – متوقف على نتيجة هذه المعركة ، من يكسب الأغلبية الدينية يكسب .

الأزهر لم يوفق مع الأسف فى رسم سياسة أفريقية ولافى تنفيذ مايقوله رجاله المسئولون عن الدعوة .

وهيئات الدعوة للإسلام فى كل بلادنا العربية تقف وراء الأزهر بكثير فى هذا المجال .

سيقولون : انظروا إلى المراكز الثقافية التى انشأناها .

انظروا إلى أعداد المبعوثين الذين نعلمهم .

انظروا إلى رسائل التأييد التى نتلقاها .

ونقول لهم :

كل هذا الكلام نحن نعرفه وأنتم تعرفون حقيقته .

وحرام أن ندافع عن أنفسنا ونضحى بالإسلام ، وكلكم تعرفون أنكم تخسرون المعركة فى أفريقيا وفى آسيا .

مستقبل العرب فى أفريقية متوقف على نتيجة هذه المعركة :

إذا سارت الأمور على هذا المنوال سنجد أنفسنا فى أفريقية ١٥٠ مليونا فى مواجهة ٣٠٠ مليون غير مسلم على الأقل .

هنا يتزعزع مركز العرب فى القارة والعالم كله تبعا لذلك – هذه حقيقة – ينبغى أن نضعها نصب أعيننا .

وحقيقة أخرى لاتقل أهمية عن هذه ، وهى أن معظم المعلومات التى تذاع عن أفريقية وعن أديان أهلها معلومات كاذبة هدفها تصوير القارة على أنها قارة غالبية سكانها مسيحيون أى غربيون .

فنحن نعرف مثلا معرفة يقين أن سكان نيجيريا الآن ٦٢ مليون نسمة منهم أربعون مليونا على الأقل مسلمون ، بينما تقول الإحصاءات الرسمية إن عددهم ٢٠ مليونا .

وهناك حقائق أخرى نستأذن القارئ ألانذكرها لأنها تثير عواصف سياسية نحن فى غنى عنها الآن .

والعمل ؟

العمل هو أن نضع أمام أعيننا هذه الحقيقة : إما أن يكسب الإسلام معركة أفريقية أو أن مستقبلنا فى هذه القارة سيكون حرجا من أوائل القرن الحادى والعشرين بدلا من توجيه نشاط الدعوة الإسلامية إلى داخل البلاد العربية – والإسلام فيها بخير – ينبغى أن يوجه النشاط إلى أفريقية أولا ثم إلى آسيا ثانيا .

إن القاهرة أودمشق أوحلب أوالكويت أوتونس أوالمغرب حافلة بالمساجد ، فإذا أردنا أن ننشئ مسجداً فلنبنه فى بلد أفريقى ، لأن الإسلام ليس فى خطر فى حى الحسين ولكنه فى خطر فى نيجيريا وفى غينيا وتشاد وتنزانيا وزامبيا وملاوى وفى كل غرب أفريقية .

والذين يرسمون خطط إنشاء المساجد فى مصر مثلا عليهم أن يعرفوا أن هناك قبائل أفريقية مسلمة كاملة لاتجد مسجدا واحدا تصلِّى فيه .

وهل تعلم مثلا أن مسجداً إسلاميا كبيراً واحداً كالذى بنته البلاد العربية فى السنغال كان له أبعد الأثر فى تقوية مركز المسلمين هناك ؟

من رأيى أن نوقف إنشاء المساجد داخل عالم الإسلام وأن نوجه العمل كله خارج عالم الإسلام فى أفريقية وآسيا .

إن المساجد هى قواعد انتشار الدعوة الإسلامية . وهناك مساجد قامت بها جيوش فاتحة خذ مثلا مسجد القرويين فى فاس فهذا المسجد كان ذا أثر حاسم فى نصر الإسلام النهائى فى المغرب الأقصى حتى آخر منطقة الصحراء التى كانت بالأمس إسبانية والآن انضمت إلى عالم الإسلام .

وجامع الفاشر فى كردفان فى جنوب غربى السودان « فتح » للإسلام بلاد وادى القديمة وثبت الإسلام فى بلاد تشاد حيث قامت مملكتا البورنو والكانم الإسلاميتان .

وهل هناك إهانة للإسلام فى أفريقيا هى أشد ألما من سيطرة بلد متأخر هو الحبشة على شعب إسلامى عربى كامل هو الشعب الاريترى .

إن أوربا كلها وراء هذه المأساة . . كانت وراءها أيام هيلاسلاسى ، وهو دون شك كان من ألد أعداء الإسلام ، وكان الغرب كله يؤيده لهذا السبب .

وقد أخطأنا خطأ جسيما عندما وافقنا على أن تكون أديس أبابا مقرًّا لمجلس الوحدة الأفريقية .

وعندما وقع الانقلاب وتخلى الغرب عن الحبشة أسرعت روسيا السوفيتية لتقف إلى جانب منجستو مريم . .

أليس هذا كافيا لكى يفتح المسلمون أعينهم . .

والذين يجهدون أنفسهم فى إنشاء جماعات دينية فى مصر وغيرها من بلاد العروبة مهمتها تقويم إسلام المسلمين ، أليس أولى بهم أن ينشروا الإسلام فى بلاد أفريقية ؟

والذين أرادوا أن يكفروا عن ذنوبهم ويهاجروا إلى الله ألم يكن أولى بهم أن يهدوا الكفار ويهاجروا إلى الجبهة التى يحارب فيها الإسلام وحده اليوم ليكونوا مجاهدين حقًّا ؟

إن مستقبل الإسلام فى أفريقية فى خطر . . وأعتقد أن هذا واضح الآن .

وكل مليم ينفق فى أغراض إسلامية ينبغى أن ينفق اليوم خارج الحدود لا داخل دار الإسلام .

إن عندنا معاهد لتخريج الدعاة ولكنها فى الحقيقة تخرج موظفين على درجات والداعية الحق لا يمكن أن يكون موظفا على

درجة . . إن درجته ينبغى أن تكون عند الله سبحانه وتعالى إذا كان مؤمنا بالله حقًّا . .

قرأت ذات مرة على باب دير يعدون فيه المبشرين فى إسبانيا : « أيها الشباب الذى يريد أن يدخل فى صفوف المبشرين ليس عندنا مال نعطيك إياه » . .

ليس لدينا بيت نبنيه لك . .

ستنضم إلينا وستخرج داعيا للمسيح وكل ماستجده هو التعب والتضحية والعمل والأمراض . .

لأن جزاءك الحق ليس عندنا . . إنه عند الله .

وبيتك الحق ليس عندنا إنه عند الله . .

فإذا أردت أن تنضم إلينا فعلى هذا الأساس . .

وإلافأنت لست بحاجة إلينا ولسنا بحاجة إليك . . » .

(٢)

وفيما يأتى أعرض للميدان الثانى الذى يخوض فيه الإسلام معركته اليوم وهو الميدان الأسيوى .

يقوم الإسلام اليوم على قاعدتين أساسيتين : الأولى أسيوية والثانية أفريقية والقاعدة الأسيوية هى الأضخم ، لأن أعداد المسلمين الأسيويين تكون صلب الكتلة الإسلامية فى العالم ، إنها تمثل ثلثى أعداد المسلمين فى الدنيا .

فى آسيا خمسمائة مليون مسلم ، أى سبع سكان الأرض ، كل سبعة من أهل الأرض فيهم واحد مسلم أسيوى ، إذا ضممن إليهم مسلمى أفريقية وجدنا أن المسلمين يكونون خمس سكان الأرض : كل خمسة من البشر أحدهم مسلم . نسبة لابأس بها . ولكنها بعيدة جدا عما ينبغى أن يكون من وجهة النظر الإسلامية الصرفة ينبغى أن يكون أهل الأرض كلهم مسلمين ، لأن واجب الجماعة الإسلامية هو أن تواصل المغازى حتى يصير الدين كله لله .

ولكن المسلمين قصروا فى حق الإسلام تقصيرا لايقوم لهم فيه عذر . . وهانحن اليوم نمثل خمس سكان هذا الكوكب . بل هانحن نشهد تراجع الإسلام دون أن نتحرك .

ولو تركنا الأمر على هذه الحال فسنصبح سبع سكان الأرض ، ثم تقل نسبتنا فى النقص مع الزمن .

لأن عوامل محاربة الإسلام اليوم أقوى مما كانت عليه فى أى وقت مضى ، لأن

الإسلام عقيدة وثقافة ، فمحاربة الإسلام تدخل ضمن المعركة الثقافية التى تدور رحاها على أعنف صورة فى عالمنا الراهن . .

والغرب اليوم يبذل أقصى جهده لكسب المعركة الثقافية ، لأن ثقافته إذا سادت أقليما لم تلبث شخصية ذلك الإقليم أن تتلاشى فى شخصية الغرب ، ويصبح فى عداد توابعه .

والصراع بين العالمين الرأسمالى والاشتراكى فى صميمه صراع ثقافى ، فالرأسمالية سياسة وأسلوب حياة وثقافة ، والاشتراكية بشتى ألوانها – من التطرف الشيوعى إلى الاعتدال الاشتراكى – سياسة وأسلوب حياة وثقافة .

وإذا كنا نرى روسيا اليوم تؤيد الحبشة ، فهى لاتسعى من وراء ذلك إلا إلى إدخال هذه المساحة الكبيرة من أفريقية ضمن نطاقها الثقافى ، أى ضمن أسلوب الحياة الاشتراكى . .

وإلى الآن كسبت روسيا مساحتين واسعتين فى أفريقية : الأولى أنجولا والثانية موزمبيق ، فإذا كسبت معركة الحبشة أصبحت روسيا تسيطر بمذهبها السياسى وثقافتها الاشتراكية على خمس القارة الأفريقية . وأمامك الخريطة فتأملها لترى بنفسك وسنتحدث الآن عن مأساة الإسلام فى آسيا . .

مأساة الإسلام فى آسيا :

كتلة الإسلام فى أسيا تتكون من خمس مجموعات كبرى :

المجموعة الأولى : هى العربية وتشمل جزيرة العرب والشام كله «بأقسامه الأربعة» سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق .

المجموعة الثانية : هى الإيرانية وتشمل إيران .

المجموعة الثالثة : هى التركية المغولية وتشمل أفغانستان وبلاد ماوراء النهر ومايقع شمالها ، وكلها بلاد وشعوب استولت عليها روسيا وأدخلتها فى نطاقها السياسى والفكرى .

المجموعة الرابعة : هى الهندية وتشمل كل مسلمى شبه القارة الهندية وجزيرة سرى لانكا وجزر ملديف .

والمجموعة الخامسة : هى وحدة جنوب وجنوب شرقى آسيا وتشمل : المسلمين فى بورما وتايلاند وكمبوديا ولاوس والفيتنام وماليزيا وأندونيسيا والفيليبين .

وهذه الوحدات الخمس تضم قرابة ٥٠٠ مليون مسلم ، أى أنها كتلة الإسلام الكبرى فى العالم . .

فلننظر فى أوضاع الإسلام فى كل منها . .

المجموعة العربية :

المجموعة العربية الآسيوية بخير ، فهى تعتمد أساسا على جزيرة العرب مهد الإسلام ، ومازالت إلى يومنا هذا نقطة ارتكاز رئيسية لـلإسلام اليوم . .

ولكن نكبة إسرائيل دقت فى كيان الشام وتدا خطرا يهدد الإسلام . .

لأن نوايا إسرائيل السيئة تستهدف الإسلام أصلا ، فليس فى الدنيا عدو للإسلام هو ألد من الصهيونية . ونحن نرى كيف أن وجود هذا الكيان الدخيل فى صميم أرض الشام يستنزف جانبا ضخما من الطاقات العربية والإسلامية كلها .

ونحن نرى أن إسرائيل تريد أن تنفرد بالقدس ، وتريد أن توهّدها وتجعلها مركزا للصهيونية واليهودية ، وهذا خطر شديد على الإسلام ، وكل ماتقوم به إسرائيل من أعمال تهويد وقضاء على الثقافة العربية جهد موجه ضد الإسلام .

والخطر الصهيونى على الإسلام سيستمر حتى فى حالة الوصول إلى تسوية سياسية أوعسكرية ، لأن وجود إسرائيل نفسه خطر على الإسلام ، واحتلال اسرائيل للقدس خطر مباشر على الإسلام ، لأن الإسلام لايمكن أن يتخلى عن القدس أولى القبلتين ومقر الحرم القدسى .

ووجود إسرائيل على هذا الوضع يقسم العالم العربى قسمين ويهدد عروبة البحر الأحمر ، ويفتح الباب واسعا للتدخل الأجنبى فى قلب العالم العربى .

وها نحن نرى كيف أن وجود إسرائيل عنصر أساسى من عناصر الأزمة اللبنانية والأزمة اللبنانية أخذت مع الأسف وجها دينيا فأصبحت على نحو ما حربا على الإسلام فى لبنان .

ولاحاجة لنا إلى القول بأن الإسلام فى فلسطين والأراضى المحتلة فى خطر .

ومعنى ذلك أن الإسلام فى المجموعة الأولى من مجموعات الإسلام الآسيوية فى خطر .

ويكفى أن نذكر أن الخطر الصهيونى على الإسلام يشبه الخطر الصليبى الذى استهدف كيان الإسلام ابتداء من نهاية القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٩٧) ولم يطمئن الإسلام على مصيره إلابعد أن انكسرت الموجة الصليبية انكسارا حاسما سنة ١١٨٧ فى حطين على يد صلاح الدين .

ولم يطمئن الإسلام على سلامته نهائيا

إلابعد استيلاء الصالح خليل السلطان المملوكى على آخر معاقل الصليبيين سنة ١٢٩١ .

المجموعة الإيرانية :

فى عصور الاضمحلال استولت روسيا على أجزاء ضخمة من أراضى المجموعة الإسلامية الإيرانية . .

وجدير بالذكر أن إيران كانت مساحتها السياسية والثقافية أوسع مما هى عليه اليوم بكثير . .

ولكن روسيا اقتطعت من أراضى الشعوب الإيرانية نصف إقليم أذربيجان ومعظم إقليم خوارزم وجزءا من إقليم خراسان .

وفى كل هذه الأجزاء التى اقتطعتها روسيا تحاول القضاء على الإسلام بحجة أن مذهبها الشيوعى يتنافى مع الأديان . .

وقد أنشأت روسيا فى تلك الأجزاء التى اقتطعتها مراكز الدعوة الشيوعية لتحارب الإسلام ، وأهملت المساجد حتى تهدم القائم منها ، وحرمت إقامة مساجد جديدة .

ومن محطات الإذاعة الروسية (وخاصة محطة أريفان) نسمع دعاية مستمرة ضد الإسلام تحت ستار الاشتراكية حينا ، وتحت ستار الدعوة إلى التحرر من تراث الماضى حينا آخر .

ولاينبغى قط أن نقلل من أهمية هذه الإذاعات المسمومة ، فهى تجتذب الكثير من الشبان وتفسد تفكيرهم بتشكيكهم فى الإسلام وعقيدته وشريعته والتهوين من قدر الثقافة الإسلامية . .

ولابد أنك سمعت عن وجود خلايا شيوعية تحاول إثارة الخواطر والنفوس لافى إيران فحسب ، بل فى أفغانستان وباكستان وغيرها من بلاد الإسلام .

هذه الظاهرة لاتعنينا هنا إلا من الناحية الإسلامية فحسب .

فإن الدعوة الشيوعية دون جدال دعوة معادية للإسلام ، وكل شاب تكسبه يخسره الإسلام . .

والذين يمدون هذه الخلايا بالمال ومادة الدعاية والسلاح يعرفون أنهم يحاربون الإسلام . ومن ثم فهم خطر يهدد الإسلام فى هذه المجموعة . .

أى أن هذه المجموعة الإيرانية الإسلامية تواجه أخطارا من هذه الناحية .

المجموعة التركية :

تلك هى المجموعة التى خسر فيها الإسلام معركة من أكبر معاركه ، ومازال

يخسر مع الأسف . . ! !

إننا نحزن على الأندلس ونؤلف الكتب فى مأساة الأندلس فما بالك وخسارتنا فى الأندلس أقل بقليل من خسائرنا على الجبهة التركية .

ففى القرن الخامس عشر كانت كل البلاد الواقعة شمال إيران فى نواحى ماوراء النهر أى الأراضى المنحصرة بين نهرى سيحون « أموداريا » وجيحون « سروايا » أراضى اسلامية ومساحتها تعادل مساحة الأندلس .

وإلى شمال ماوراء النهر ، والتركستان كانت تمتد بلاد معادية للدولة والإسلام فى إيران ، ومن بينها مثلا حزب تودة الذى يستخدم محطات الإذاعة الروسية فى عواصم الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية فى آسيا .

والسلطات الإيرانية تشعر بهذا الخطر وتواجهه بما ينبغى له من حزم وصلابة حفاظا على كيان إيران نفسه ، وإيران كيان إسلامى عظيم .

وربما استطعنا أن نقول إن الخطر على الإسلام هنا قليل ، ولكنه قائم ، وهو يتزايد مع تزايد انتشار الدعوة الشيوعية التى تجتذب قلوب الكثير من الشباب تحت ستار الاشتراكية وإنصاف الطبقات التى يزعمون أنها مظلومة .

المجموعة التركية المغولية :

تشمل هذه المجموعة بلادا تركية صرفة ثم الجمهورية التركية وأفغانستان وبلاد ماوراء النهر من حوض نهر الفاريم وجبال التاى فى وسط آسيا حتى شمال البحر الأسود كل هذه كانت بلادا إسلامية خالصة ومساحتها تعادل مساحة الشمال الأفريقى كله .

وشمال البحر الأسود حتى مجرى الدنيير (جنوبى الأوكرايين فى روسيا) كانت بلادا إسلامية أيضا تسكنها جماعات من التركمان والمغول المسلمين . .

أين ذهب ذلك كله ؟

ابتلعه الاتحاد السوفييتى ، وحارب الإسلام فيه أيام القيصرية باسم الدين ، وبعد القيصرية باسم الشيوعية .

وأظن أننا لانذيع سرا عندما نقول إن السياسة الروسية تعمل بصراحة على القضاء على مابقى من الإسلام فى كل هذه النواحى .

هناك اليوم ست جمهوريات إسلامية تحت السلطان الروسى . . إنها جمهوريات بالاسم ، وأظن أن هذا واضح ومعروف ، هذه الجمهوريات هى :

أذربيجان — كازاكستان —

قرغيزستان – تاجيق – التركمان – أوزبك .

ماذا يجرى للإسلام فى هذه الجمهوريات ؟

وأليس من واجبنا أن نزيح الستار عن مأساة الإسلام التى تجرى هناك ؟

إن الإسلام هناك ليس فى خطر فحسب ، بل هو فى ضياع حقيق .

لقد كتب فى هذا الموضوع مستشرق فرنسى هو فنان موفئيل ، ولم يكتب فيه – من هذه الزاوية – أحد منا ، ربما كان ذلك فيما مضى مجاملة للاتحاد السوفييتى ، ولكن هل تجوز المجاملة على حساب الدين ؟

ثم ماذا يضيرنا لو بسطنا الحقيقة وطالبنا بحق الإسلام فى هذه النواحى ؟

إن كل مايخالف حقوق الإنسان يرتكب ضد مسلمى الجمهوريات السوفييتية من الحجر على الدين والعمل على تغيير الطابع الثقافى للبلاد ، وإهمال المساجد ومحاربة الإسلام صراحة وغير ذلك .

فهل يجوز السكوت والإسلام فى خطر حقيقى فى هذا الجزء الواسع من آسيا ؟

الإسلام فى شبه القارة الهندية :

عندما استقرت قبضة الإنجليز فى الهند فى القرن السابع عشر كان الإسلام هو القوة السائدة فى شبه القارة . ولم يتصد للدفاع عن الهند إلاالمسلمون . وبعد القضاء على قوة المسلمين لجأ الانجليز إلى سياسة معادية للإسلام ، فشجعوا – غير المسلمين – واجتهدوا فى تعليمهم ، وأخذوا يحرضون الهندوك على الإسلام ، وحرموا المسلمين من الوظائف ونشروا فى الهند فكرة أن الدول الإسلامية فى الهند ليست دولا هندية ، بل دول غازية أومستعمرة كما قالوا ، وقالوا إنهم مغول وأتراك وليسوا هنودا ، مع أن مغول الهند أنفسهم أصبحوا مع الزمن هنودا . ثم إن تسعين فى المائة من مسلمى الهند اختاروا الإسلام دينا . .

وأوقع الإنجليز بين الهنود والمسلمين . قبل دخول الانجليز لم تعرف الهند مذابح المسلمين والهندوس ، وكان الإسلام يسير فى طريقه فى هدوء ، يكسب قلوب الناس شيئا فشيئا كما فعل فى غير الهند من البلاد . ولكن الإنجليز أوقفوا هذا التيار ، ومن المعروف أن مبدأ فرق تسد لم يطبق فى التاريخ على نحو هو أظهر مما حدث فى الهند .

المهم أن الإنجليز فرقوا بين المسلمين وغيرهم فى الهند ، وأوقعوا بينهم عداوات وأحقادا انتهت آخر الأمر بتقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتين سنة ١٩٤٧ وعقب

خروج الإنجليز من البلاد ، وعلى الرغم من أن المسلمين هم الذين طالبوا بهذا التقسيم إلا أنه لم يكن فى صالح الإسلام ، لقد اضطروا إليه اضطرارا ، ومحمد على جناح الذى تم على يده إنشاء باكستان كان أول الأمر عضوا فى حزب المؤتمر الهندى وكان من المنادين بوحدة الهند واستقلالها ، ولكنه اضطر إلى تغيير سياسته ووضع كل همه فى إنشاء دولة خاصة للإسلام فى الهند هى باكستان .

ولكن باكستان عندما قامت كان ينقصها إقليم كشمير . . إننا لانتكلم هنا سياسيا وإنما ثقافيا وإسلاميا ، وكشمير جزء من الوطن الإسلامى ، ووضعها على الصورة الراهنة فيه ضرر على الإسلام .

ومهما كان الرأى فى انقسام باكستان سنة ١٩٧٠ إلى دولتين . فإن ظهور دولة بنجلاديش أى وطن البنغال (بنجلا : البنغال ، دش = وطن) لم يخدم الإسلام قط . وخير لنا – بداهة – أن تكون هناك دولة إسلامية واحدة قوية ، من أن تكون هناك فى شبه القارة الهندية دولتان إسلاميتان لاتملكان القوة التى يتطلبها الإسلام فى صراعه الحاسم اليوم .

هنا أيضا ينبغى أن نقول إن الإسلام فى خطر .

مجموعة جنوب شرق آسيا :

كلنا نفخر بأندونيسيا ونعلق عليها الآمال ، فهى أكبر دولة إسلامية على وجه الأرض من حيث المساحة وعدد السكان . .

ولكن أندونسيا – رغم حبنا لها وتقديرنا إياها – لاتتبع السياسة الإسلامية التى تؤمن الإسلام فى بلادها . .

فمنذ عزل سوكارنو والتفاهم مع الولايات المتحدة تفتحت أبواب البلاد لإرساليات التبشير الأمريكية بوجه خاص . .

وأحب ألايستهين أحد بعمل هذه الإرساليات . لقد طالما استهنا بأعمالها وقلنا إن الإسلام وحده كفيل بإحباط كل جهودها ، ولكننا فى النهاية نجد أنفسنا أمام مواقف تتحول إلى مشاكل إسلامية قومية كما فى جنوب السودان .

إننا نريد أن نقول لإخواننا فى أندونيسيا – والإسلام فى بلادهم أمانة فى أعناقهم – إن هذا التساهل مع بعثات التبشير سيؤدى يوما ما إلى مشكلة قومية مشكلة أمن داخلى لأندونيسيا كلها .

إن الأمريكيين يؤيدون أعمال التبشير بكل قواهم لكى يزعزعوا أقدام الإسلام فى

أندونيسيا ، فهل ننتظر حتى تتعقد المسألة وتصبح مشكلة قومية هناك ؟

ولماذا لاتتخذ حكومة أندونيسيا منذ الآن قرارا حاسما بإيقاف أعمال التبشير فى بلادها لتنقذ نفسها من مشكلة لابد أن تظهر يوما ما ؟

وهل يعلم المسلمون مثلا أنهم عندما قسموا جزيرة غينيا الجديدة إلى قسمين : شرقى يتبع أستراليا وغربى يتبع أندونيسيا (إيريان الغربية) ركزت جمعيات التبشير جهدها فى إيريان الغربية التابعة لأندونسيا لكى يحولوها إلى أرض مسيحية تاركين إيريان الشرقية (وهى تابعة لهم) لأنهم واثقون بأنها بلادهم . .

نريد أن نقول هنا إن الإسلام فى خطر فى أندونيسيا . .

هل تذكر المثل الذى يقول : من مأمنه يؤتى الحذر ؟ إذن فأذكر إلى جانب ذلك أننا سنؤتى فى جنوب شرقى آسيا من مأمننا : أندونيسيا .

والبلد الواعى حقا إلى إسلامه هو ماليزيا . هنا تجد الدولة إسلامية حقا وحرصها على الإسلام وسلامته عظيم . .

ولكنهم يثيرون المشاكل فى طريقها : حروب العصابات التى تشجعها السلطات الشيوعية فى شبه جزيرة ملقا ، تحريض الأقليات الصينية : ضغط الفيليبيين على سلفنى صباح دبروناى فى شمال جزيرة بورنيو .

ثم أين جهودنا للدعوة الإسلامية فى جزيرة بورنيو وهى ميدان خصب للتبشير ؟

ثم الإسلام فى الفلبين ، ماذا فعلنا لمعاونة إخواننا هناك ؟ . . إنهم يقاتلون ويجاهدون ولكن العون من ناحيتنا قليل بل معيب .

إذا ذكرت ماقلناه عن الخطر على الإسلام فى أفريقية وأضفته إلى ماقلناه هنا تبين لك أن الإسلام فى الدنيا فى خطر . .

وكلما تصورت وضع الإسلام فى الدنيا اليوم والمعركة التى يخوضها وحده — أجل وحده — ترددفى خلدى قول نصربن سيار :

أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام
أقول من التعجب ليت شعرى
أأيقاظ أمية أم نيام؟

نعم ، أأيقاظ نحن أم نيام . . ؟

إن الإسلام فى الدنيا فى خطر . . ! !

الإسلام فى الدنيا يتراجع ! !

نحن فى حاجة إلى سياسة بعيدة المدى للحفاظ على الإسلام . .

كل مانعمله فى هذا الباب قليل ، قليل جدا . .

والذين يتيهون بالتمدح فى الإسلام فى حى الأزهر حقيقون بأن يعرفوا أن حى الأزهر ليس ميدان معركة ، فالإسلام هنا بخير . . أما المعركة فتدور هناك على الحدود .

هناك ميدان الجهاد فى سبيل الإسلام حقا .

هناك يخوض الإسلام معركة حياة أو موت . .

هل تسمعون ؟ معركة حياة أوموت . .

د . حسين مؤنس

الاتباع والابتداع

من خطبة لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على منبر مسجد بنى أمية فى دمشق .

« أيها الناس ، ليس بعد نبيكم نبى ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة » « ألا إنى لست بقاض ، وإنما أنا منفذ ، ولست بمبتدع ولكن متبع ، ولست بخيركم وإنما أنا رجل منكم ، إلا أنى أثقلكم حملاً ، ألا لا سلامة لامرئ فى خلاف السنة ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

الإسلام والمستقبل (١)

الأستاذ / فتحى رضوان

لعل المسلمين بين الأمم البانية للحضارات ، والمنشئة للثقافات ، والتى ظفرت يوما ما بالمجد والصدارة ، ثم أدال الزمن عليها . فبادت حضارتها ، وأصبحت آثارا توحى وتلهم ، وركدت ثقافتها ، فباتت مراجع للباحثين ، ومصادر للدارسين . . . لعل المسلمين بين تلك الأمم ، أغربها ، وأبعثها للدهشة ، وأدعاها للحيرة .

فهذه الطائفة من الأمم ذات المجد المندثر ، والماضى الزائل ، واحدة من أمتين : أمة زالت من الوجود تماماً ، بزوال ملكها الأثيل ، وعزها الرفيع ، وأمة بقيت بين الأحياء ، ولكنها نفضت يدها من تجديد المجد الضائع ، واستئناف الحكم المنقرض ، واستنامت للواقع ، ورضيت به .

أما المسلمون ، فلم يكفوا قط عن التحدث عن حضارتهم ، ولا عن الإشادة بثقافتهم ولا عن بذل الوعد وراء العهد ، بأنهم سيقيمون ما تداعى من بنائهم ، وسيسترجعون ما تلاشى من أمجادهم ، وأن الزعامة تنتظرهم ليقودوا الإنسانية إلى عهد جديد من السلام والتآخى والتعالى على مشكلات العصر الحاضر ، والتوقى من آفاته ، واستلهام الدين الحنيف أسسا شبيهة به ، وقائمة عليه ، تحقق ما جاء من آيات القرآن الكريم من مثل قول الله تعالى : (ولقد كرمنا بنى آدم) — (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) — (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) — (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) — (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

وتمضى القرون وهذه الوعود تتبخر فى الهواء ، ثم تسمع ، وتتبدد فى الفضاء وتكرر ، ويبقى كل شىء فى مكانه : فقد أصبحت دولة الإسلام الكبرى أمما تفرقت

(١) عن مجلة الهلال المصرية

الأيدى بها وحضارة أصبحت غرائب فى المدن ، ليس لها حتى ما للآثار عند الأمم المعاصرة من مكانة ورعاية ، وثقافة ركدت حتى استحالت مستنقعات ملأتها الهوام والحشرات ، وفاضت منها روائح تزكم الأنوف ، وتضيق لها الصدور ، فهى إما خرافات وأراجيف ، وإما قطع متناثرة من القديم والجديد ، والبالى والمستحدث والعلم والأمانى . . وعلماؤنا أكثرهم عالة على علماء آخرين يأخذون عنهم ، ولا يلحقون بهم . إلا إذا رحلوا عن بلادهم ، ونأوا عن مجتمعاتهم ، وأظلتهم سماء الأجانب ، وطوتهم مجتمعات الأعداء . . فهل سيبقى هذا مصير المسلمين إلى غير غاية وأمد ؟

لكن ما السر فى هذا الشوق المتجدد عند المسلمين إلى ماضيهم ؟ . . وما سبب عجزهم عن تحقيق ما يتوقون إليه ويطمعون فيه ، وفى أرضهم ومائهم وبرهم وبحرهم ، وموقعهم وبعض حاضرهم ، ما يرشحهم للمكانة التى يحلمون بها ، والزعامة التى يتطلعون إليها ؟

لقد حدثت فى آخر مراحل الحكم الإسلامى المجيد الباهر ، ملابسة ، أربكت المسلمين ، واضطرب لها تاريخهم ، فتعثرت مسيرتهم ، وقد بدأت فى أوائل القرن الثالث عشر . وعلى وجه التحديد سنة ١٢٢٧ ، حينما طارد المغول أمامه قبيلة من الترك فى سهول آسيا الوسطى ، إلى الغرب ، ولم يكن تعداد تلك القبيلة يزيد على حفنة صغيرة من الآلاف من رعاة البدو ، وقد استقر بهم الترحال آخر الأمر على مقربة من (أنقرة) أشبه شىء بأتباع أو عبيد للسلاجقة .

فلما أفل نجم دولة السلاجقة فى سنة ١٣٠٠ ارتفع عن أعناقهم نير العبودية وأصبحوا أحرارا . وما لبث شيمهم أن رفع نفسه إلى مرتبة (السلطان) ، ومنذ ذلك التاريخ ، إلى سنة ١٩٢٢ ، بقيت هذه القبيلة سيدة تركيا ، وصاحبة الكلمة النافذة فيها ، فقد عرفت بدولة بنى عثمان ، وذاع هذا الاسم وشاع ، حينما امتد ملك بنى عثمان ، من فارس إلى (فيينا) عاصمة النمسا فى أوربا فدخلت فى إمبراطوريتهم أجناس وشعوب عديدة لم تجتمع فى ظل إمبراطور آخر . حتى ولا إمبراطورية أسرة هابسبورج ، التى عرفت باسم « إمبراطورية النمسا والمجر » .

فقد أظلت دولة بنى عثمان مع الأتراك والعرب ، الرومانيين ، والصرب ، والكروات واليونان ، والبلغار ، والمجر ، والألبان . فى سنة ١٤٥٣ فتح بنو عثمان القسطنطينية ووضعوا نهاية بذلك الفتح

المبين لحياة الإمبراطورية البيزنطية المتداعية ، آخر طيف لروما الإمبراطورية ، أو امبراطورية روما . وبتحويل كنيسة « أيا صوفيا » فى القسطنطينية إلى مسجد بات للعالم المسيحى الغربى كابوس ثقيل لا يفارقه فى الليل أو النهار ، اسمه (التركى) ربما بسبب ماركبهم من خوف ، إنه لن يمضى وقت طويل حتى تدخل جياد جيوش تركيا إلى مذبح القديس بطرس فى كنيسة هذا القديس ، بعد أن تحوله مذودا . وتصاعد الخوف من (التركى) الرهيب عندما فتحت هذه الجيوش مصر فى سنة ١٥١٧ بعد أن تدفقت جحافلهم على الشرق العربى ، ثم اندفعت إلى شمال أفريقيا . .

وعبر سلطان فرنسا ، فرانسوا الأول باسم الغرب المسيحى عن الفزع الذى تولى هذا الجانب من العالم ، إذ عقد مع سلطان تركيا معاهدة ليكون السلطان المسلم ردءا — للملك المسيحى فى صراعه مع عائلة هابسبورج . وحاصر الأتراك فيينا فى ١٦٧٣ ، ولكنهم ردوا على أعقابهم ، ومنذ ذلك التاريخ انحسرت موجة المد ، وبدأ الجزر واستمر ، وبدأ دور تركيا فى صد هجمات لا نهاية لها من الغرب المسيحى ، الذى كان قد استجمع قواه ، وقرر أن يطرد الأتراك المسلمين من أوربا ، ثم أن يتعقبوا فلولهم ، حتى لا يبقى لهم أثر لا فى أوربا وحدها بل فى المسرح السياسى والعسكرى الدولى قاطبة . . وظل الصراع بين أوربا وتركيا ثلاثة قرون . كان العالم الإسلامى فيها يشاهد ، ولا ينتفع بشىء مطلقا من هذه المأساة الطويلة المريرة ، وقفت تركيا فى وجه حملات الاستعمار الغربى ترده وكان دمها ينزف ، وما لها ينفد ، وقواها تتسرب من جوانبها ، حتى سميت آخر الأمر (بالرجل المريض) . .

فماذا كان أثر هذا كله فى العالم الإسلامى وأحلامه التى تتخذ من المجد وعودة الصدارة إليهم محورا ، تدور حوله ، وتتفرع منه ، ثم تعود فتتجمع وهكذا دواليك . .

كان أول الآثار لوجود دولة بنى عثمان ، واتساعها ثم تداعيها وانسحابها أن المسلمين أحسوا فى قيام (الخلافة) فى الآستانة ، أو دار السعادة ، أو (اسلامبول) ، أو (استانبول) ، بأن مجدهم المادى ، وملكهم الدنيوى لم يزل وأن لهم (دولة) تمثلهم ، وتدافع عنهم ، وتنزل بأعداء المسلمين والإسلام الحاقدين عليهم وعليه ، والخائفين منهم ومنه ، والهزائم تردهم على أعقابهم خاسرين .

وكان سلاطين بنى عثمان يفعلون ذلك

حقا وصدقا ، فقد بقيت دولتهم قرونا . . قوة عسكرية ، وسلطة إمبراطورية ، ثم يشهد تاريخ الإمبراطوريات ، والدول الضخمة ذات السلطان الواسع ، دولة فى مثل اتساعها وصمودها للزمن . وكان السلاطين يعتزون بانتمائهم للإسلام ، ويقيمون وزنا لكلام شيوخ الإسلام ، ويطيعونهم فى أكثر الأمر ، ولما تناقضت قوة هذه الدولة ، وبدأت أمراض الشيخوخة تدب إليها ، استطاعت أن تمنع أوربا الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية من التهام العالم العربى وجزر البحر الأبيض المتوسط الخاضعة لسلطان الأتراك من السقوط فى أيدى هذه الدول واتخاذها مواقع للوثوب على العالم الإسلامى وتغريبه أولا توطئة لنزعه من نطاق الإسلام روحيا وفكريا ، وتهيئته للشك فى دينه وجدوى التمسك به والإصرار عليه ، وإغرائه بالنظر فى فضائل الحضارة الأوربية المسيحية اليهودية ، وجلال آثارها فى مجالات الصناعة والعلوم والفنون .

والثابت أنه لولا السلطان عبد الحميد لذى كان الغرب يسميه (السلطان الأحمر) لأصبحت فلسطين فى يد الصهيونية قبل سنة ١٩١٧ . فلقد زاره هرتزل ، وزاره من قبل هرتزل ومن بعد هرتزل ، رسل الحركة الصهيونية ، وعرضوا عليه القروض الضخمة ، وتحالفا سياسيا يدافعون بمقتضاه عن السلطان التركى فى صحف أوربا وأمريكا ، ويوقفون حملات الدعاية التى سادت فى دوائر السياسة والبرلمانات والمؤتمرات الدولية ، والتى كانت تركيا وسلطانها ، ووزراؤها ، وفسادها وتحللها ، ومذابح الأرمن والمسيحيين فى ولايتها هدفاً دائماً لها ، مقابل أن يسمح لرواد الصهيونية أن يبنوا مستوطناتهم فى فلسطين ولكن السلطان بفضل تمرسه بالسياسة الدولية ، ومعرفته لمهاب الأمور قبل وقوعها ، إن هذه المستوطنات التى تبدو بريئة ، هى أول الغيث أو هى مستصغر الشرر الذى تنجم عنه أكبر الحرائق .

وبقيت تركيا للعالم الإسلامى ، شبحا يخايل شعوبه ، ويمنى مفكريه وزعماءه ومصلحيه ، يعقدون عليه الآمال ، ثم ينفضون يدهم منه ، حتى وقعت الحرب العالمية الأولى وزالت تركيا القوية ثم جاء كمال أتاتورك ، فأراح العالم الإسلامى واستراح ، حينما أسقط الخلافة العثمانية ، وأنهى دولة بنى عثمان ، وأقام جمهورية علمانية فى أنقرة ، وأدار ظهره للعالم

الإسلامى ، تماما ، وخلع العقيق والطربوش ، ونبذ الحروف العربية ، واصطنع الأحوال الشخصية السويسرية ، فهز المسلمين من الأعماق .

غضبوا أول الأمر ، وسخطوا على كمال ونسبوه إلى المتهودة الأتراك ، ثم هدأت الصدمة ، فبدا رد فعل مضاد ، تجاهه : أيكون هذا السبيل المؤلم هو سبيل بعث العالم العربى ، أو العالم الإسلامى ؟ . نصطنع الحضارة الغربية بحلوها ومرها وشرها وخيرها . وننظر فى ديننا بروح العلم ، ونطبقه بعد أن نراجع الكتب التى أورثتنا إياها القرون الوسطى وما بعدها ، والتى قامت سدا بيننا وبين الدين الحنيف ، دين الفطرة والحرية ، دين البساطة والوضوح . .

ولم يفعلوا شيئاً . . .

كان الذى كتبه مفكرو العرب عن انحلال دولة بنى عثمان وزوال سلطانها ، بعد عمر طويل ملىء بالانتصارات والفتوح ، أقل من القليل ، وكان القليل الذى كتبوه نقلا عن كتب الغرب ، وترديدا لدعاويه ولم يستخرجوا من هذا الحدث الضخم ، عظاته الكبيرة والكثيرة ، على الرغم من أنهم تعلقوا بهذه الدولة فى صدق وحب وإعجاب وعلقوا عليها الآمال الكبار ، وبكوا لسقوط الخلافة عن رأى سلطانها ، وغياب الخلافة كلها .

ولا أزعم أنهم كانوا قادرين على أن يردوا عن دولة بنى عثمان عادية الزمان ، ولا أن يطيلوا عمرها أكثر مما طال ، ولكن كانوا جديرين أن يدرسوا أسباب انهيار الدول والمجتمعات فى دولة ضخمة ، كثرت الوشائج والروابط بينهم وبينها باعتبارها أضخم دول الإسلام وباعتبارها وارثة الخلافة الإسلامية ، وباعتبارها واقعة فى المحيط الجغرافى الذى تقع على شواطئ بحاره وعلى مقربة من مجاله أكثر الدول العربية والإسلامية .

ولو تأملوا فى هذه الظاهرة الكبيرة ، لتبينوا أن الخسارة الكبرى التى منى بها المسلمون أن تركيا التى اتسع سلطانها ، وترامت حدودها ، وضخمت قوتها العسكرية برا وبحرا كان ينقصها أكبر ما تحتاج إليه الدول الكبرى لتتماسك ، ثم لتبقى ، ثم ليبقى أثرها بعدها حينما يفعل فيها الزمن فعله . وأعنى به (الثقافة) ، (الطاقة الروحية) ، والرسالة الإنسانية) . .

فقد كانت حضارة دولة بنى عثمان عسكرية بحتة ، ولم تتح قط للفكر الإسلامى أن يتطور ولا للشعوب

الإسلامية ، بفنونها وصناعها وثقافاتها القديمة وحضاراتها المندثرة ، أن تصنع ما صنعته دول المسلمين فى دمشق وبغداد ومصر والأندلس وشمال أفريقيا ، فلا معاهد دين تدرس القرآن وتشرحه ، وتجمع الحديث وتصححه ، ولا فنيون ولا صناع ولا مترجمون ولا بعثات . .

ولو تركت دولة بنى عثمان للعرب أن يسهموا فى بناء دولتها ، لأصبحت عواصم العالم العربى فى ظل الحكم التركى منارات تضىء وتشع ، وتكسب الدولة احتراما ومهابة ولما تدهور الحكم العثمانى إلى الحضيض الذى وصل إليه ، ولاسيما فى القرنين التاسع عشر وأوائل العشرين ، بل والقرن الثامن عشر

ولو أطال المسلمون النظر فيما اعتبر كارثة أى إسقاط الخلافة العثمانية فى تركيا ، لأدركوا أن هذه الخلافة كانت قد سقطت منذ أجيال ، وأن الدين الإسلامى فى تركيا ، كما هو فى أكثر الدول الإسلامية ، فقد قوة دفعه ، وقدرته على تشكيل المجتمع وإلهام أفراد الناس بروح الولاء له ، والتأثر به . وأن ما يجرى فى عالم المسلمين ، هو من قبيل القصور الذاتى . فالناس يمارسون عبادتهم ، ويترددون على مساجدهم ، ويتلون بعض ما يصل إلى أيديهم من كتب الدين ، بحكم العادة والتقليد فى الأغلب الأعم وإن كان هذا الحكم ليس صحيحا فى جملته وتفصيله ، ففى المجتمع الإسلامى الآن ، حركات أيقظت وجدان المسلم وفكره ، وجعلته يتأمل دينه ، ويحاول أن يبحث عن الخلل فى العلاقة التى تربطه بهذا الدين .

ولكن ما هو أهم ما يلزم للمسلمين فى هذا الدور ؟

لقد عانى الفكر الدينى فى القرن العشرين من ضربات متوالية .

فقد كانت الثورة الصناعية ، والتقدم العلمى ، وسرعة تغير المجتمعات الإنسانية وخروجها من إهابها القديم ، والمشكلات التى تكاد تكون بلا حل المصاحبة لكل هذا . صدمات جعلت أكثر المتدينين حيارى وهزت إيمانهم . فمنهم من تزعزع اطمئنانه إلى الدين فاستمسك بعروبته مجاهدا ، ومنهم من قطع صلته به ، ووجّه وجهه لمصدر أو مصادر للإلهام بدت له أكثر غناء .

وجاء الفكر السياسى الحديث ، بدروبه المختلفة ، واتجاهاته المتباينة ، مستعينا بوسائل البحث التى استحدثت ، وطرائق الاستنتاج والتخريج والمقابلة ، فتدفقت فى دنيا الكتب والثقافة ، مع سيل

متدفق من الكتب والبحوث والدراسات ، التى بدت إلى جانبها الكتب القديمة التقليدية ، وبأساليب صياغتها ، وبمنهج دراساتها باعثة على السأم من جهة ، وعاجزة عن الإقناع من جهة أخرى .

وقد نجم عن هذه الصدمة الأخيرة ، شىء أحب أن أقف أمامه طويلاً ، ذلك هو صدمة (النظرية) .

لقد خرج من أنقاض الحربين العالميتين الكبيرتين سنة ١٩١٤ – ١٩١٨ ، و ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ، مذاهب جديدة ، منها الاشتراكية التى اعتبرت الشيوعية خاتمة المطاف فيها ، والنازية ، بأسمائها المختلفة ودار بين المذهبين صراع دام ، كانت الحرب العالمية الثانية إحدى صوره ، ولكنه استمر بعد ذلك ولا يزال مستمرا ، وكانت الصهيونية صورة أخرى من صور التفكير ، انتهزت هذه المجازر ، وحققت لنفسها مكانا ، وظفرت بمكاسب لا يمكن أن نقلل من شأنها .

وقد كان الصراع الفكرى بين هذه المذاهب كلها ، يدور حول نظريات تقدم ويحسن عرضها ويدافع عنها الأنصار ويهاجمها الخصوم ، حتى أصبح (للنظرية) سحر فمن لم يكن له نظرية يعتنقها ويدافع عنها ويهاجم فى ظلها ، يشعر بأنه مكشوف فى دنيا العقائد ، وأن كلامه لا يقنع ، وموقفه لا يفهم ، ولا شك أن (النظرية) هى أسلوب لتنظيم التفكير الإنسانى ، ميزتها الكبرى أنها تحاول أن تضع مبدأ أساسيا للنظر إلى الكون وعلاقة الإنسان به ، ثم تخضع كل ما يتفرع من هذا المبدأ الأساسى لنفس المبدأ .

ولعل سيادة فكرة (النظرية) هى التى أججت الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية والفاشية أو النازية . ولعل هذا الصراع هو الذى ثبت سلطان (النظرية) على عقول الناس وأفهامهم .

ومن هنا كان المتدينون شاعرين بأنه لم يعد لدينهم الذى يؤمنون به وجود فى دنيا الفكر . لأنه لا يقدم (نظرية) متكاملة تحلل فى مضمونها العلاقات الإنسانية من حيث المنشأ ، والتطور والتعقد والانفراج ، ولا علاقات الإنسان بوسائل حياته المادية والروحية ، ولا عناصر وجوده من مال وآلة وحكومة .

والخطأ الذى يقع فيه المتدينون أنهم يريدون أن يكون لديهم نظرية شبيهة من حيث الصياغة والتبويب ، على نسق النظريات الحديثة التى يسمعون دويها وتتجاذبهم تياراتها وأمواجها .

ولقد بلغ من فرط تأثرهم(بالنظرية)

وشغفهم بها ، أن بعضهم وضع للإسلام (نظرية) وصاغها فى قالب بعض المبادئ الحديثة ، واعتبر أن الإسلام قد سد النقص فى جدارة ، وأنه الآن يستطيع أن ينافس بقية المذاهب الحديثة وأن يغلبها .

ولا بأس عندى من كل محاولة جدية ، فالتطور والتفكير المتجدد ، وإن أخطأ أو تعثر خير من الجمود والركود والتصلب .

ولكن على أن نحسن دائماً الابتداء . ولا يمكن أن نضمن الاهتداء إلى البداية الحسنة ، ومن ثم فنحن لا يحق لنا أن نصادر حق أحد فى الاجتهاد ، ولو خطأ ، فقاعدة من قواعد الإسلام ، أن للاجتهاد دائماً ثوابه : لمن اجتهد وأخطأ ، ثواب ، ولمن اجتهد وأصاب ، ثوابان .

ولكن الذى أحب أن أؤكده هنا ، أن الإسلام يقوم على نظرية من أساسين : الأول أن الله واحد ، (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

الثانى أن الإنسان ، سيد هذه الأرض ، وأن الكون الذى يحيط به ويعيش فيه ، سخر له يطيعه ، ويأتمر بأمره ، ويمكن أن يديره يمينا ويسارا ، والتدبر والتأمل والاجتهاد والثقة بنفسه والاعتماد على الله . . (ولقد كرمنا بنى آدم) .

ومن هذين الفرعين يقوم بناء كامل ، يتناول الإنسان من مولده إلى مماته ويقنن للصغيرة والكبيرة ، وما يتصل بالمال والحكم ، والزواج والطلاق ، والرق والعتق والتجارة والزراعة ، والصناعة . ويدخل مع الإنسان فى مخدعه ويصاحبه مع وساوسه وهواجسه ، ومخاوفه ومطامعه .

وهذا الكلام المجمل إذ بسطناه ، استنفد منا وقتا وجهدا كبيراً ، يضيق بهما المجال هنا ، ولكن حسبنا أن نقول أن هذا المنهج الذى وضعه الإسلام جرب فى مجتمع هو أقل المجتمعات مالا وأنأها عن أسباب الحضارة ، وأحقها بأن يتجاهلها التاريخ ، ويتحاشاها الناس ، فهى تقوم على فقر مجدب ، فى صقع مغوار ، فأنبت دينا ودولة ، وحضارة وثقافة وملكا وسلطانا ، وتدفقت له الجيوش الجرارة وأخرج المدارس والمعاهد والجامعات ، وأتقن فى ظله الصناع والفنانون ، والكتاب ، والمفكرون أجمل وأرق وأخفى وألطف ما صنع الإنسان وما ترك الفنان .

وهذا المنهج قادرٌ على أن ينتج نفس الأثر ، فى مثل هذا الوقت القليل ، لو أخذناه بلا تكلف ولا حذلقة ، وفهمناه على وجهه من غير تعال أو تنطع . يعنى أن يفهم أن المسلمين الأوائل ، وصلوا إلى

القوة فى صدر الإسلام وفى الأجيال التى تلته فهم آمنوا فى بساطة تامة ، بكل الذى طلبه الإسلام منهم ، فهم إذا صلوا اعتقدوا أنهم بين يدى الله ، وسعوا جهدهم ليفرغوا ذهنهم من كل شيء ، لتحسين وقفتهم بين يدى الله ، فإذا فرغوا من الصلاة ، أحسوا فعلاً بأن قواهم تجددت ، وروحهم سمت ، وإنهم قادرون على مواجهة متاعب العيش ، ومخاوف الحياة فى قوة وثبات ، وبلا وهن أو ضعف ، فإذا طلب منهم أن يتصدقوا ، شعروا حقا بأنهم يقرضون الله قرضاً حسنا ، وأنه سيرده إليهم أضعافا مضاعفة وأن الحج يكفر ذنوبهم ويغفر خطاياهم وهكذا دواليك . .

ومن كل تلك الألفاظ البسيطة التى يؤدون بها الصلاة ، ومن كل هذه الحركات القليلة التى يقومون بها سجودا وركوعا بين يدى الله ، وبالفرحة التى يستقبلون بها الصوم ، وبالبهجة التى يباشرون بها مناسك الحج ، تكتمل لهم قوة حقيقية ، مادية وروحية أدت بهم إلى هذا التفوق والتجلى الإنسانى .

فما لم يكن فى مقدور المسلمين أن يعودوا إلى هذه البساطة ، وما لم ينزعوا من أنفسهم هزءهم الخفى بها ، وإحساسهم الكامن بأن المسلم الحديث لم يعد يكفيه ما كان يكفى العربى منذ أربعة عشر قرنا وأن الزاد العقلى الذى يليق به ، ويصل إلى سوائه ، هو ما يجب على علماء المسلمين ومشرعيهم ، وفقهائهم ومفكريهم أن يصوغوه ، فى قالب يمكن أن يواجه تحدى النظريات الحديثة ولو واصل المسلمون سيرهم فى هذا الدرب وأصروا عليه ، استمر حالهم على المنوال الذى نراه .

ليفكر كبار المفكرين المسلمين ، وليبدعوا كتباً عظيمة ، وليستخرجوا من آيات الله الكريم وأحاديث رسوله العظيم ، آثارا جديدة بأسلوب يثير الاهتمام ، ويدعو إلى التفكير ويبعث على المناقشة والجدل ، ولكن كل هذا لا يغنى فى قليل أو كثير عن العودة البسيطة غير المتكلفة إلى الإسلام فى صورته التى تلقاها الرسول العظيم ، محمد بن عبد الله ، النبى الأمى ، ثم تلقاها عنه صحابته فالمسلمون الأوائل ، وأكثرهم فقير وضعيف لا يؤبه له .

فإن هذه العودة هى التى سيشتعل لها وجدان المسلمين ، وسيتقد خيالهم فإذا التفاعل بين الإسلام الحقيق ، والنفوس الصغيرة الصادقة ، يتحقق . وإذا الاشتعال يبدأ ، وإذا بالأدوار السابقة تتلاحق وتتابع ويحدث البعث المنشود ،

وعندها سنرى فيضا من الإنتاج الفكرى والفنى يشبع جوع الجائعين إلى بناء عقلى يفلسف لهم أمورهم ويردها إلى قاعدة عامة مستمدة من القرآن الكريم . .

ولكن لا مناص للمسلمين ، ليخرجوا من هذا الموقف الذى جمدوا فيه ولا خلاص لهم بالأسلوب الذى نقترحه ، إلا بالأخذ بأمرين :

أن يكون للمسلمين نواة لزعامة ، وبداية لقيادة فكرية .

فللمسيحيين ، كاثوليك كانوا أو بروتستانت أو أرثوذكس زعامات مركزية كاملة ظاهرة وباطنة ، دينية ودنيوية .

ولليهود مثل هذه الزعامة ، ممثلة فى أكثر من هيئة ومجلس .

أما المسلمون فحبلهم على غاربهم . وليس ثمة مجلس أو هيئة ، تجتمع بصفة دورية تحاول ان تعلو عن التفاصيل والأمور المحلية ، والخلافات الإقليمية ، وتنظر إلى الإسلام فى مجموعه . . وتقف إلى جانبها أمانة تتلقى المعلومات وتجمعها وتبوبها وتحللها . . ثم تحاول هذه الهيئة أن يجتمع لها على مدى الأيام ، شىء من الهيبة والمكانة والتأثير تكسبها على طول الوقت ، بحسن التوجيه ، والجهد المبذول ، والإدارة الموفقة ، والتجرد لوجه الغاية المشتركة .

ولابد من مجلس ثقافى إسلامى ، ينشأ أيضاً إلى جانب الهيئة ، متفرغ للشئون الفكرية فى دنيا المسلمين ، ويستقر ويستمر ، ويكسب بدوره مكانة تؤثر فى النفوس ، والعقول فإنه من غرائب الأمور ، أن يكون لفريق من المسلمين هم العرب ، مشكلة كمشكلة فلسطين ، تبدأ وتستمر وتتعقد ، ولا يوجد للعالم الإسلامى الضخم الغنى المترامى الآفاق ، رأى لا يقف عند حدود المشكلة السياسية العابرة ، إنما يدرك مقدماتها البعيدة ، ونتائجها العميقة فى المستقبل .

وللمسلمين من موسم الحج ، معين على أن يفكروا فى هذه الأمور المجردة التى تعلو على الوقت الذى يمر بنا وحدود الدول الضيقة . .

وقد نستطيع أن نضع الخطوط الأولى فى صورة عظيمة للإسلام العظيم . .

فتحى رضوان

من هنا نبدأ الخطو.. إلى المستقبل

الدكتور / يحيى هاشم فرغلى

من الحقائق المسلمة اليوم : أن المجتمع الإسلامى المعاصر يمر بأزمة شديدة .

قد يذهب الكثيرون إلى أنها أزمة « تقدم » ، – أى وليدة المجاهدة والتحرك نحو مستقبل أفضل – وقد يشك البعض فى ذلك ، ولكنها عند الجميع « أزمة » حقيقية ، تحتاج إلى معالجة وتبصر .

ولقد ذهبت إلى غير رجعة الفلسفة القائلة بميكانيكية التقدم . أو حتمية التلقائية ، وأصبح من المقرر علميا أن إيجابية الإنسان ، ومساهمته الإرادية عنصر أصيل فى التحرك نحو الأفضل . .

وإذا كان المجتمع – أى مجتمع – يتكون من ثلاثة عناصر :

الإنسان أولا ، ومعطياته المعنوية ثانيا ، ومعطياته المادية ثالثا ، فإنه يمكننا أن نقول إن أزمة المجتمع الإسلامى المعاصر لا ترجع إلى شىء من معطياته المعنوية ، أو المادية .

إنه يملك من المعطيات المعنوية ما إن تمسك به فلن يضل أبدا «كتاب الله وسنة رسوله » .

إنه يملك من المعطيات المعنوية ما إن تمسك به فلن يضل أبدا «كتاب الله وسنة رسوله » .

ولقد أسهب الكاتبون فى بيان هذه الحقيقة ، كما أسهبوا – بما فيه الكفاية – فى الرد على المبشرين والمستشرقين الذين يشككون فى صلاحية الإسلام للتقدم فى العصر الحاضر ، وأثبتوا بما لا يدع مجالا لمستزيد أن الإسلام صالح لقيادة حركة التقدم فى كل زمان ومكان ، بل أثبتوا أنه هو وحده الصالح لهذه القيادة ، وأن تقدم الغرب – فى بعض نواحى الحياة – إنما كان بأخذه ببعض القيم الإسلامية ، وأن تأخر الدول الإسلامية إنما كان لإهمالها الأخذ بهذه القيم .

فى هذا المجال أعتقد أنه لا موضع لزيادة إلا بالإيضاح والشرح .

أما من ناحية المعطيات المادية فإن المجتمع الإسلامى المعاصر يملك ما إن أفلح

فى استثماره فلن يخيب أمره أبدا .

(ا) ثروة من البشر تبلغ المئات من الملايين ، تقارب الألف مليون فى بعض التقديرات .

(ب) ثروة زراعية هى اليوم – بحسب إمكانياتها الدفينة – تمثل « مخزن الغذاء » للعالم .

(جـ) ثروة معدنية وبترولية يقوم عليها النشاط الصناعى والتكنولوجى فى العالم المتحضر والمتخلف على السواء .

(د) مواقع جغرافية واستراتيجية هى أخطر وأهم المواقع على خريطة العالم المتحضر .

(هـ) رصيد من النقد الحر « العملة الصعبة » يمثل أخطر قوة نقدية فى الاقتصاد العالمى .

إنه بهذه المقاييس تتوفر له إمكانيات مادية لم تتوفر لأمة فى التاريخ ، وبالرغم من ذلك – بالرغم من هذه المعطيات المعنوية والمادية – فإن هذا المجتمع – المجتمع الإسلامى المعاصر – يرسف فى أغلال الجهل والفقر والمرض والعبودية والتخلف .

وهنا نرجع بالضرورة إلى شخصية المسلم المسئولة عن الاستفادة بهذه الإمكانات . لنتساءل عما أصابها .

وفى اعتقادى أن هناك آفة لحقت بهذه الشخصية .

ويصبح العلاج من ثم يتحتم أن يوجه إليها .

وفى هذا مصداق لقوله تعالى :

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ولقوله فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وفى اعتقادى أن هذه الشخصية – لحسن الحظ – ماتزال غنية فياضة بالمشاعر القوية للإسلام : فرحا له أو غضبا من أجله .

ولكن – لسوء الحظ – فإن سيل المشاعر هذا الذى يتدفق كما يتدفق – البترول من أرض المسلمين – يتوقف عند هذه المرحلة مرحلة الفرح تارة والغضب تارة ، كما يتوقف جهدهم عند حد خروج البترول ، من أرضهم .

بعد ذلك يذهب كل شىء بددا . .

وهنا فلنرجع إلى الشخصية الإسلامية مرة أخرى لنتساءل : إذا لم يكن العيب فى طاقتها الشعورية ، فمن أين يأتى ؟

إن الآفة الخطيرة التى أصابت الشخصية الإسلامية المعاصرة هى نوع من الشلل أصاب مكمن التفكير فيها .

وبدون مواربة هو نوع من « المرض العقلى » .

وبشىء من التحديد هى « فقدان النظرة العملية » .

ولكى أكون واضحاً فإن ما أريده بالنظرة العملية شىء غير العمل . فمع أهمية العمل وضرورته القصوى – ومع الاعتراف بتقصيرنا الشديد فيه – إلا أن جذر القضية يرجع إلى « موضع الربط بين النظر والعمل » .

العمل بلا نظر . . .

والنظر الذى ليس من شأنه أن يؤدى إلى عمل . . . كلاهما ضلال أو دمار . هذه هى آفتنا ، وهذه هى القضية .

والنظر الذى ليس من شأنه أن يؤدى إلى عمل هو ما ينطبق على التأمل العقلى المغلق على ذاته ، ولا ينطبق على ما يمكن أن يطلق فى العرف الحديث « العلم البحت » فالعلم البحت من شأنه أن يؤدى إلى عمل .

ومن هنا فإن الجهود التى تبذل فى « العلم البحت » تسمح بها الفلسفة العملية التى ندعو إليها .

يقول أميل بيكار فى كتابه « العلم الحديث » : إن المنتشين بخمر العلم ، أولئك الحالمين الذين يبدون وكأنهم قد تاهوا فى تأملاتهم هم فى الواقع رجال عمليون على طريقتهم فقد يأتى التطبيق أحيانا بطريقة غير متوقعة .)[1] ومع ذلك فقد أدرك العلماء ضرورة التخطيط لربط هذا العلم البحت بالناحية التطبيقية ، وحذروا من التلقائية التى قد ينساق إليها العاملون فى هذين المجالين .

يقول العالم الفيزيقى الشهير لويس دى بروجلى : (هناك سؤال هام عما إذا كان يجب بذل بعض الجهود فى سبيل الحفاظ على علاقة وثيقة بين العلم البحث والعلم التطبيقى ؟ ولتحاشى انفصال قد يكون كارثة بالنسبة للواحد كما هو للآخر ؟ . . .)

ثم يجيب على هذا التساؤل فيقول : « إن التعاون الوثيق بين العلم والتكنيات أمر مرغوب فيه إلى أقصى الحدود . فمن المحتمل أن يتأخر أو حتى يتوقف التقدم الصناعى إذا لم يقدم له العلم البحت نتائج أبحاثه ، ولكن المنفعة متبادلة ، ويستطيع العلم البحت أن يجنى فائدة كبرى من وراء التطبيقات العملية لأبحاثه .

---

(١) أنظر الفيزياء والمكروفيزياء للويس دى بروجلى ص ٧٨

إن أحد الأخطار الكبيرة التى تواجه العلم البحت هو أن ينطوى على نفسه . »[١]

إن الحضارة الإسلامية إنما ظهرت وتقدمت وارتقت ، بعبقريتها النابعة من الإسلام فى إدراكها « لموضع الربط بين النظر والعمل »

– يقول بعض السلف : العلم يهتف بالعمل . فإن أجاب حل وإلا ارتحل[٢] .

– وعن عثمان وابن مسعود وأُبىّ رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ ، كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخر حتى يتعلموا ما فيها من العمل فيعلمنا القرآن والعمل جميعا[٣] .

– وفى موطأ مالك رضى الله عنه : أنه بلغه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها . وذكر عبد الله عن أبيه رضى الله عنهما قال : تعلم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورا[٤] .

– ويقول رسول الله ﷺ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « اللهم إنى أعوذ بك من الأربع من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع) .

ويقول ﷺ :

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير

– احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز .

وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإنّ لو تفتح عمل الشيطان » .

ويقول ﷺ :

« اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

يقول ﷺ :

« كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

وعن خارجة بن زيد بن ثابت قال : كان زيد إذا سئل عن شىء قال : هل وقع ؟

فإن قالوا له لم يقع لم يخبرهم . وإن قالوا قد وقع أخبرهم .

وعن مسروق قال : كنت أمشى مع أُبىّ بن كعب فقال له رجل – ياعماه كذا وكذا فقال يا ابن أخى أكان هذا ؟ قال :

(١) المصدر السابق ص ٢٩٠ .
(٢) أخلاق العلماء ص ٢٢٥
(٣) تفسير القرطبى ٣٩ جـ ١
(٤) أخلاق العلماء ص ٢٢٧

لا ، قال فاعفنا حتى يكون[1]

ويقول تعالى : (. . . يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

ويقول تعالى : (كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب . .) .

قال بعض المفسرين : معناه كونوا عاملين بما كنتم تعلمون الناس من الكتاب[2] .

قال بعض العلماء : إذا تعلم المرء من العلم مقدار ما يحتاج إليه ينبغى أن يشتغل بالعمل به .

ويترك التعليم .

وقال بعضهم ، إذا اشتغل بزيادة العلم ، فهو أفضل بعد ألا يدخل النقص فى فرائضه[3] .

ويقرر الإمام الغزالى (أن الأولى بأكثر الخلق الاشتغال بالعمل والاقتصار من العلم على القدر الذى يعرف به العمل ،) وهو يرى أيضاً أن (من العلم ، العلم العملى ، أعنى ما يعرف به كيفيته) . إن المقام فى الإسلام وفى توجيهات الرسول هو مقام الدعوة إلى العمل ، وإلى العلم العملى بمفهوم يشمل كل ماله صلة بالعمل .

ومن ذلك الاعتقادات التى لها صلة بالعمل ، كالعلم بالآخرة والعلم بعلم الله ، وشموله للصغيرة والكبيرة والعلم بعصمة الرسل ، إلى أمثال ذلك .

أما العلم بزيادة الصفة على الذات أو عدم زيادتها عليها والعلم بخلق القرآن أو قدمه والعلم بكيفية التوفيق بين ما يشعر به الإنسان من كونه مخيرا فى حالات من ناحية ، وعلم الله وإرادته وقضائه من ناحية أخرى ، كل هذا من العلوم التى لا صلة لها بالعمل ، وهى من العلوم التى لاحظ الإمام الغزالى بحق أنها مما أجمله الرسول ولم يدع إلى التعمق فيه ، فهو ليس مما ينشغل به الإنسان .

والرسول ﷺ لم يكن يتوجه فى ذلك إلى أكثر الناس فحسب كما ذكر الإمام الغزالى ، إذ لو كان العلم النظرى المنبت عن العمل مما يحسن أن ينشغل بعض الناس به أو يحصلوه لندب إليه قلة من الناس ، ولجعله فرض كفاية ، أو لجعله مما يتسابق فيه المتسابقون كما فعل فى العبادة إذ فتح فيها الشارع الطريق إلى منتهاه لمن يسبق إليه ، « قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً) ٢ — ٤ المزمل .

---

(١) نقلا عن أعلام الموقعين جـ ١ ص ٦١

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٢ .

(٣) بستان العارفين ص ٣ .

(والسابقون السابقون أولئك المقربون)
١٠ ، ١١ الواقعة

ومهما يكن من أمر فقد ظل أمر المجتمع الإسلامى منذ ظهور الإسلام على استمساكه بقناة متينة تربط بين ما يعلم ومايعمل ، ثم أخذت الحضارة الإسلامية تتأثر تأثرا واضحا بما نقلته عن الفلسفة الإغريقية ، فمن ثم تحطمت هذه القناة ، وأصبح العالم الإسلامى يتأمل لما لا يعمل ، ويعمل فيما لا يعلم ، وأخذت هذه الحضارة تنتكس ، لتدخل فى أفول « النظرة العملية » .

وها هو يرصد حركة هذا التدهور فيلسوف إسلامى من فلاسفة القرن الرابع الهجرى ، أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى – يقول :

(إن فرقة من الفلاسفة (١) ، وطائفة من الباطنة (٢) قد ادعوا أن المبرز فى العلوم لن يلزمه شىء من وظائف العبودية غير الهداية للخليقة . وأن العاقل منا ليس يلزمه اقتباس العلم ليتوصل به إلى الأعمال الصالحة ، بل يلزمه ذلك ليسلم به عن وحشة الجهالة ، فإنها فى ذاتها قبيحة مظلمة كما أن ضدها فى نفسه حسن ملذ . . .

ونحن نقول : إن كل من آثر لنفسه هذه العقيدة فقد ارتكب خطأً فاحشاً فإن العلم مبدأ للعمل ، والعمل تمام للعلم ، ولا يرغب فى العلوم الفاضلة إلا لأجل الأعمال الصالحة .

ولو جعل الله تعالى الجبلة البشرية مقصورة على تحصيل العلوم دون تقويم العمل لكانت القوة العملية إما فضلاً زائداً وإما تبعا عارضا ، ولو أنها كانت كذلك لما كان عدمها ليخل فى عمارة البلاد وسياسة العباد .

كلا : إن توهم هذا مما يؤدى إلى تقويض الأعمال الصالحة بأسرها إلى ذوى الجهل والغباوة ، ولو جعل الأمر كذلك لوجدت الطبيعة الإنسية عند إقامتها الأعمال الصالحة مستغنية عن العلوم

(١) يقول المحقق الدكتور أحمد عبد الحميد غراب : لعله يشير بذلك إلى فلاسفة الأفلاطونية الجديدة ، فمعظمهم كانوا يعظمون من شأن العقل المجرد والعلم النظرى ، ويضعون ذلك فى مرتبة فوق العمل . ونجد هذا الاتجاه عند أرسطو . .

. . انظر مثلا كتاب الأخلاق ، وفى المجتمع الطبقى الذى أقامه أفلاطون فى جمهوريته ، ويرى الجاحظ أن هذا اتجاه عام لدى اليونان ، يقول عنهم :

(. . يرغبون فى العلم ويرغبون عن العمل . .)

(٢) يقول المحقق أيضاً : « من المعروف أن التأويل بلغ بالإسماعيلية درجة أسقطوا فيها الجانب العملى من الشريعة . »

انظر كتاب الإعلام بمناقب الإسلام ص ٧٧ – ٧٨ .

الحقيقية .) [١]

إن العلم العملى كان هو سر عبقرية العقلية الإسلامية ، وسر ازدهار الحضارة الإسلامية . ثم اتصلت هذه الحضارة بالفلسفة اليونانية والهيلينية فانتكست ، وأخذت تدخل فى ظلام ساد أوربا بسبب هذه الفلسفة ، بينما أخذت أوربا تخرج من ظلامها بما اقتبسته من « النظرة العملية » التى عثرت عليها فى الحضارة الإسلامية .

ولعله من المناسب أن نقرر هنا أنه لم يكن مجرد صدفة أن حركة الترجمة فى الحضارة الإسلامية اتجهت أول ما اتجهت – وطوال قرن بأكمله تقريبا هو القرن الثانى للهجرة – إلى ترجمة الطب والكيمياء والهندسة والفلسفة اليونانية والتفسير الذى نكرره ونؤكده ونصر عليه ونلفت النظر إليه هو أنه لم يكن هناك سبب لذلك إلا أن روح الإسلام – ومن ثم روح الحضارة الإسلامية الأصيلة – هى روح الفلسفة العملية ، أو النظرة العملية ، ومن هنا فإن ما حدث بعد ذلك من اتجاه إلى الفلسفة النظرية « التأملية » لم يكن يمثل تطورا عاديا بقدر ما كان يمثل انحرافا فى مسيرة هذه الحضارة .

هذا هو المحور الحقيقى للصراع الثقافى الذى كان يدور على الصعيد الإسلامى فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام ، ولم يكن السبب هو ما درج على ذكره الكاتبون فى هذا الموضوع : صراعا بين أهل السنة – أو الحشوية – باعتبارهم محافظين ، وبين الفلاسفة – أو العقليين – باعتبارهم مجددين ، بل إننى لأقول عن ثقة إنه كان صراعا بين أتباع النظرة الجديدة ، نظرة الإسلام ، النظرة العملية ، أهل أتباع الرسول ، باعتبارهم أصحاب دعوة ثورية جديدة لم تستكمل إقامة دعائمها بعد ، وبين أتباع الفلسفة القديمة ، الفلسفة اليونانية الهيلينية ، الفلسفة التأملية ، باعتبارهم أصحاب دعوة رجعية تريد أن تنتقل بها من بيئة شائخة من العالم الهيلينى إلى بيئة شابة خصبة ، إلى العالم الإسلامى الجديد ، الذى يرفض جسده الصحيح إدخال قطعة مهترئة عليه من جسد وورى التراب . .

هذا هو المحور الحقيقى لذلك الصراع : الصراع بين الفلسفة العملية التى يمثلها الإسلام وأهل أتباع الرسول ، وبين الفلسفة التأملية التى يمثلها الفلاسفة وأهل أتباع أرسطو وأفلوطين .

---

(١) السابق ص ٧٨ – ٧٩ . ويشير المحقق إلى أن الفلسفة العملية فى عصر المؤلف التى تقابل الفلسفة النظرية هى : علم الأخلاق ، وعلم تدبير المنزل ، وعلم السياسة .

ولنستمع هنا إلى شهادة من أهل أوربا يقول الدكتور هرمان راندال :

(اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العملية التى وجدوها فى مكاتب العرب ، وجامعاتهم الفنية .

وحين أخذ الغرب يستيقظ فى مطلع القرون الوسطى انتقل مركز الثقافة الإسلامية إلى إسبانيا . وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفة لأوربا بمؤلفات أرسطو الكبيرة ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئا كان أرسطو ، بالرغم من عبقريته ، عاجزا كل العجز عنه وهو العلم الرياضى والآلى .

فقد أخذوا المعرفة الرياضية والطبية التى احتقرها الرومانيون ، ونبذها المسيحيون جانباً وراحوا يعملون بصبر وجهد من ذلك الطريق الذى ازدراه الإغريق فى أوج عظمتهم تابعين طريق التطور البطئ والتكيف العملى . وقد اكتسبوا من الهند الأرقام « العربية » التى لا يمكن الاستغناء عنها وشكل التفكير الجبرى الذى لولاه لما استطاع المحدثون قط أن يبنوا على الأسس التى وضعها الإغريق .

وبنوا فى القرن العاشر من إسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب بل كان علما يطبق على الفنون والصناعات الضرورية – للحياة العملية .

وعلى الإجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العملية اللذين تمثلهم فى أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة . وخلافا للإغريق لم يحتقروا المختبرات العلمية والتجارب الصبورة .

أما فى الطب وعلم الآليات ، بل فى جميع العلوم فقد استخدموا العلم فى خدمة الحياة الإنسانية مباشرة ، ولم يحتفظوا به كغاية فى حد ذاته . .

وقد ورثت أوربا بسهولة عنهم ما ترغب أن تسميه بروح « بيكون » التى نطمح فى « توسيع نطاق حكم الإنسان » على الطبيعة .

وبينما امتص التقليد المسيحى صوفية الأفلاطونية الجديدة وأهمل علمها الرياضى فإن العرب أظهروا حبا متساويا للناحيتين ، وعلى ذلك حين نشأت الجامعات فى العالم المسيحى فإنها وجدت أن إسبانيا لم تحتفظ بالعلم الإسكندرى فحسب ، بل أضافت إليه الشىء الكثير أيضاً .

ولقد شهد القرن الثانى عشر عملية التمثيل الكبرى لهذا العلم ، وتم ذلك فى مركزين رئيسيين : صقلية والأندلس حيث تلاقت الثقافتان المسيحية

والإسلامية) . (١)

ثم يبين هرمان راندال كيف أن اهتمام الفكر الأوربى بالحركة الأدبية الإنسانية أخر من ظهور النهضة العلمية التى وضع أسسها العرب فيقول :

(كونت حركة إحياء الأدب الإنسانى عائقا بالغا فى وجه تطور العلم الطبيعى ، فلو لم تحصر هذه الحركة جهود أفضل المفكرين فى حكمة لا علمية بجوهرها كان ينادى بها الرومانيون ، لولا ذلك لكان من الجائز أن تؤدى هذه الاهتمامات العلمية القوية إلى ظهور مثل غاليليو قبل القرن السابع عشر بوقت طويل .

ولو تمت ثقافة علمية أصيلة كنتيجة لتطور الفنون الحرة لكان العالم قد تجنب — خمسمائة سنة من صراع عقيم مع فتات الأدبين اللاتينى والإغريقى .

لقد احتكر الإنسانيون ، من بترارك ومن جاء بعده الطبيعة ، وعبر بترارك عن احتقاره لاهتمام الناس بالكتب الشعبية الشائعة من علم الحيوان وطبائعه وكتب الأسفار فقال : « لأنه حتى لو كانت جميع الأشياء التى ترويها مثل هذه الكتب صحيحة فإنها لا تساعد الإنسان بأى شكل من الأشكال على تحقيق حياة سعيدة . إذ ما هى الفائدة التى نجنيها عندما نعرف طبيعة الحيوانات والعصافير والأسماك والزحافات (؟ ؟)

بينما نجهل طبيعة الجنس البشرى الذى ننتمى إليه ولا نعرف — أولا يهمنا أن نعرف مصدر حياتنا وإلى أين نعود ؟ ؟ ولم يبد حتى أيرازموس العظيم اهتماما بالاكتشافات الكبيرة التى تمت فى أيامه ..لأنه لم يكن فقط عديم الاكتراث بالعلم الطبيعى . بل كان — يكرهه فى الواقع (؟ . .) وهو يسخر فى مقطع مشهور من كتابه « مديح الحمق » من فلاسفة الطبيعة — والرياضيين) (٢) .

وإلى وقت قريب كان تولستوى يسخر من العالم الحديث فيقول فى بعض ما كتب عنه (إنه مشغول بعدٍّ ما على هذه الأرض من أنثيات البق وسائر الحشرات) ويعلق الدكتور جيمس كونانت على سخريته هذه قائلاً بسخرية أيضاً (قال هذا قبل أن يظهر أثر العلم فى الصناعة والطب) (٣) .

---

(١) تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٢) انظر تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ٣١٣ — ٣٢٠ .

(٣) انظر مواقف حاسمة للدكتور جيمس كونانت ص ٣٠٩ .

أما نحن اليوم فقد صدرنا بضاعتنا الأصلية ، واستوردنا منذ أمد بعيد بضاعة العصور الوسطى الرديئة ، وأخذنا نرزح – منذ أمد بعيد أيضاً – تحت وطأة مرض عقلى يمثله انفصام الصلة بين النظر والعمل ، أخذت نذره تلوح منذ ما قبل القرن الرابع الهجرى كما بينا من قبل .

وفى رأيى أن جميع المنعطفات أو المدارج النازلة التى أخذت تنزلق عليها الحضارة الإسلامية ترجع إلى طرو هذا المرض العقلى عليها أو تأصله فيها .

فى المشاكل العقدية :

(انظر إلى مشاكل الذات والصفات ، وخلق القرآن والقضاء والقدر ، والإمام الغائب و . . . إلخ) .

فى المشاكل السياسية :

(انظر إلى مشاكلنا العربية ، ومشاكلنا مع الصهيونية والاستعمار الغربى ، والشيوعية) . .

فى المشاكل التشريعية :

(انظر إلى مشاكلنا النابعة من تجاهل وضع الحلول العملية اللازمة لتطبيق الشريعة الإسلامية) .

فى المشاكل الاجتماعية :

(انظر إلى مشاكلنا فى أزمة العلاقة بين الرجل والمرأة ، ومشاكل الزواج ، ومشاكل الإسكان) .

فى المشاكل الاقتصادية :

(انظر إلى مشاكلنا فى الاستثمار والتضخم والربا . . إلخ) .

فى كل ذلك وفى غيره يبدو « برص » على جلد العقل الإسلامى المعاصر تجد على أحد لونيه نظر عقيم ، وعلى لونه الآخر عمل أعمى .

يقول وليم جيمس :

(لا يقال إننا نعرف الشىء إلا عندما نكون قد تعلمنا كيف نتصرف بالنسبة له ونتجاوب معه أوكيف نواجه ماننتظر منه من نتائج ، أما قبل تلك المرحلة فهو غريب عنا .)[1]

ويقرر بصفة عامة أنه :

(لابد لنا من العمل

وليس لنا الخيار إلا فى نوع النتائج أو فى مقدارها .

وليس هناك من واجب فى هذه الناحية إلا استخراج أغنى ما تسمح به المقدمات من نتائج .

ويوجد الغنى طبعا فى جهد الدوائر العقلية كلها وفى طاقتها : – الأولى : الإدراكات الحسية والوجدانية – الثانية : – القوة النظرية ، الثالثة : الاتجاه

---

(١) العقل والدين ص ٥٥

إلى الفعل – فلا يجوز أن تترك مسألة حسية من مسائل الدائرة الأولى وحدها فى العراء . ولا أن تترك قوة من قوى الدائرة الثالثة مشلولة ومعطلة ، ولابد أن تبنى الدائرة الثانية بينهما جسرا متينا لا يعروه عطب .) [1]

ويقول أميل بوترو :

(يذهب البراجماتيون إلى أن العلم يميل إلى الفعل وليس له غرض آخر إلا خدمة الفعل . ولك أن ترجع إلى أصل التصورات العلمية فستجد دائماً أنها تدل على مناهج يجب اتباعها لتظهر هذه الظاهرة أو تلك ، لنحصل على هذه النتيجة أو تلك .

أنها قواعد للفعل ، وليس لها خارج هذه الدلالة مضمون حقيق .

إن الحقيقة تعنى قابلية التحقيق . وقابلية التحقيق تعنى إمكان هدايتنا أثناء الخبرة .

والعلم لا يتطلع فقط إلى الفعل بل هو نفسه فعل أى قوة فعالة مبدعة . [2] (... لا يزال كثير من العلماء يحملون لواء الفكر اليونانى ، ويقولون مع أرسطو « العلم للعلم » وقد يعترض على هؤلاء بأنهم يقلبون الوسيلة غاية » لكن هذا القلب هو فى حد ذاته قانون عظيم من قوانين الطبيعة والفعل وهو يشبه الذين يتخذون من الغريزة الحيوانية غاية ، فهذا يخدم فى نفس الوقت كونها وسيلة والعلم حين نجرده من المنفعة لا يتحول لهذا السبب وحده إلى غاية مطلقة ، بل يصبح « وسيلة » لنمو العقل الذى هو كما يقول عنه ديكارت : يحتاج إلى أن يرضع لبان الحقائق حتى يوجد ، وينمو والعقل لا يوجد إلا حين يفعل) [3] .

والذى أدعو إليه هنا وفى كل مجال بغير فتور وبغير ملل ، هو نوع من « الفلسفة العملية » . نعيد به التجاوب بين ساقى الأمة : النظر والعمل ، لكى تستعيد وحدتها ، وتسترجع قامتها ، وتهجر منزلقاتها ، وتستعيد الطريق . . .

ولست أبالغ إذا قلت إن نقطة البداية فى العمل على شقاء الشخصية الإسلامية المعاصرة من « دائها العقلى » ومن ثم فى حل أزمة المجتمع الإسلامى المعاصر – لهى فى اعتناق « الفلسفة العملية » ، التى ينبغى أن تنشط لها عقول المفكرين الإسلاميين ، وأن يبحثوا فى أعماق الأصول الإسلامية ، وأن يقدموها وفقا لهذه الأصول .

وعلى الفكر الإسلامى المعاصر بعد أن

---

(١) العقل والدين ص ٩٨ .

(٢) العلم والدين ص ٢١٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

يتعرف على أبعاد هذه الفلسفة . أن يخطو خطوة أخرى نحو إعادة تفسير الحضارة الإسلامية فى ضوء هذه الفلسفة ليخطو بعد ذلك الخطوة العملية المستهدفة ، أى ليقدم حلولا عملية لبعض مشاكلنا المعاصرة .

د . يحيى هاشم

الخير فى الحديث النبوى

- خير الناس من طال عمره وحسن عمله .
- خير الناس أنفعهم للناس .
- خير النكاح أيسره .
- خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه .
- خير ما أعطى الناس خلق حسن .
- خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى .
- خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح .
- خياركم أحسنكم قضاء للدين .

يحيى هاشم حسن فرغلى

١ – ولد بالقاهرة فى ٤ فبراير ١٩٣٣ ، لوالده الشيخ حسن محمد فرغل أستاذ التوحيد والمنطق بكلية أصول الدين ، ووجهه والده للدراسة بالأزهر.

٢ – حصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٨ وكان ترتيبه الثانى .

وحصل على إجازة التدريس من كلية اللغة العربية عام ١٩٥٩ ثم عين مدرسا بالمعاهد الأزهرية للعلوم الشرعية والعربية ، حيث تسلم عمله بمعهد أسيوط فى أواخر عام ١٩٥٩ ، ثم تنقل بين معاهد الأزهر ، إلى أن اختاره الدكتور محمود حب الله للعمل بالأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٦٤ وفى عام ١٩٦٩ عين مديراً للسكرتارية الفنية لمجمع البحوث الإسلامية ، وظل كذلك إلى أن عين مدرسا مساعداً بقسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين عام ١٩٧١ .

وكانت أهم أعماله بالمجمع المشاركة فى إدارة مؤتمرات المجمع السبعة التى عقدت ما بين عام ١٩٦٤ – ١٩٧٢ .

وحصل على درجة الماجستير بتقدير ممتاز فى العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٩٧١ عن رسالته فى نشأة علم الكلام .

وقد طبع مجمع البحوث الإسلامية هذه الرسالة فى مجلدين عام ١٩٧٢ أحدهما بعنوان «نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية فى الإسلام» وثانيهما بعنوان «عوامل وأهداف نشأة علم الكلام فى الإسلام» .

وفى عام ١٩٧٣ انتدب مديراً لمكتب شيخ الأزهر ، ثم انتدب مستشاراً خاصاً

لفضيلة الإمام الأكبر لشئون مجمع البحوث الإسلامية .

وفى عام ١٩٧٦ حصل على الدكتوراه بتقدير ممتاز فى العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين بالقاهرة عن رسالته فى «أصول علم الكلام فى القرآن» ، وقد توصل فى رسالته إلى استنباط منهج جديد لبناء العقيدة الإسلامية قائم على الكتاب والسنة ، ومؤيد بأقوال أئمة الفكر الإسلامى .

ثم عين فى ديسمبر ١٩٧٦ مدرساً للعقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة .

وفى منتصف أغسطس ١٩٧٧ تم انتدابه مرة أخرى مديراً عاماً لمكتب شيخ الأزهر .

له من المؤلفات المنشورة :

رسالة الماجستير فى نشأة علم الكلام :

رسالة الدكتوراه بعنوان «الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية» مجموعة مقالات فى الشئون الإسلامية ، بمجلة الأزهر ، والوعى الإسلامى بالكويت ، والتضامن الإسلامى بالسعودية ، ومنار الإسلام بأبى ظبى .

هَل سَتكون أندونيسْيا دَولة إسْلامية ؟

INDONESIA
NEGARA ISALAM KAH?
Oleh

Dr. R. SHALABY

الدكتور / رءوف شلبى

فى أغسطس عام ١٩٧٦ افتتح الرئيس سوهارتو محطة اتصال تليفونى عن طريق القمر الصناعى الذى يربط بين جزر إندونيسيا المترامية الأطراف البعيدة داخل البحار .

وفى حفل الافتتاح وزعوا خريطة تحمل ملخص المشروع وبها إحصائية عن عدد الجزر عامة ، والجزر الآهلة بالسكان ، وعدد السكان أنفسهم .

وبالاطلاع على ما جاء فى هذه الخريطة وهى آخر ورقة رسمية يعتمد عليها فى معرفة جغرافية الجزر والسكان فى إندونيسيا نجد أن الجزر الإندونيسية عددها ١٣,٦٧٧ جزيرة الآهل منها بالسكان ٦,٠٤٤ جزيرة ، وعدد السكان ١٣٠ مليوناً .

وتقع هذه الجزر بين خط عرض ٦ شمالا وخط عرض ١١ جنوباً وخط طول ٩٥ وخط طول ١٤١ وهى المنطقة الواصلة بين قارة آسيا وقارة أستراليا .

وثراؤها مكشوف وكثير ففيها : البترول ، والقصدير ، والفضة ، والذهب ، والنيكل والحديد ، والفحم ، والنحاس ، وقد اكتشف اليابانيون أخيراً معدن اليورانيوم بالإضافة إلى ثروتها الخشبية والأسماك ، والفواكه ، والمحاصيل الزراعية الأخرى مثل الذرة والأرز والشاى ، والبن ، والفلفل ، والقرنفل . . والتوابل . .

هذه الجزر يعيش فيها المسلمون منذ أربعة عشر قرنا عندما بزغت شمس الإسلام واستقبل الناس فى هذه الجزر دين الله الحنيف ساعة بزوغه .

وكان لهذه الجزر قبل الإسلام شأو بعيد فى عبادة الأوثان ، وكانت هناك عدة ممالك مؤسسة على هذا البطلان مثل :

مملكة ماترام فى جاوا الوسطى
مملكة ماجافاهيت فى جاوا الشرقية
مملكة فجا جاران بجاوا الغربية
مملكة منغ كابو فى سومطرة الشمالية
مملكة سيريوى جايا فى سومطرة الجنوبية

وكان بين هذه الممالك صراع على التوسع والحكم . . . فلما جاء الإسلام الحنيف ودخل الناس فى دين الله عن طريق الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة وذلك فى القرن الأول الهجرى على ما هو المعتمد عند كبار رجالات العلم من أهل هذه الديار قامت فى إندونيسيا عدة ممالك إسلامية بعد أن تلاشت ممالك البدوذية والهندوسية .

وممالك الإسلام هى :

دولة فاساى بسومطرة الشمالية

دولة ملاكا بماليزيا الآن .

دولة ديماق فى جاوا الشرقية

دولة فاجانج .

دولة تشربون فى جاوا الغربية .

ودولة ماترام الإسلامية فى جاوا الوسطى بدل ماترام البوذية .

دولة الإسلام فى آتشه فى سومطرة الشمالية بعد أن سقطت مملكة الإسلام فى فاساى لهجوم دولة ماجا فاهبت عليها .

المملكة الإسلامية فى جهور ماليزيا الآن .

ولقد عاش الإسلام فى هذه الديار يزكى فى أبناء الأرخبيل ميولهم للأمن والطمأنينة ، ويقوى فيهم عواطف البر والحنان ، ويجدون هم فيه متعة الروح ، ولذة العيش الأمين الهادئ .

وكان المسلمون فى هذه الديار أشبه بالملائكة وهم فى المساجد يصطفون للصلاة رجالا ونساء ، ويحيون شعائر الإسلام ومواسم البر والخيرات والبركات . . وعاشوا وحدهم فى دولة إسلامية وهم قوم يحسنون الجوار فيما بينهم وقد زكى الإسلام هذا التقليد فعاشت الدول الإسلامية فى أرخبيل الملايو (إندونيسيا وماليزيا وسنغافورا) والمودة هى الحبل الذى يربطهم ، والعيش الرغيد ، والخير الكثير هو الذى يخيم على مجتمعهم فلم تكن لهم صلة بالدولة الإسلامية فى الشرق العربى على تطورها : لم تكن لهم بالأمويين صلة ، ولا بالعباسيين ، غير أن الصلة الضعيفة التى يذكرها التاريخ أن حكام البلاد أرادوا إقامة علاقة طيبة مع الدول الإسلامية فى عهد العثمانيين فأرسل الأتراك لهم خبراء عسكريين يدربونهم على فنون الحرب .

ولقد كان حكام الممالك الإسلامية فى غاية الشوق إلى الاتصال بالحكام المسلمين فى الشرق العربى فأسموا أنفسهم (سلاطين) تيمنا بالألقاب التى كان يستخدمها سلاطين المسلمين فى بلاد الشرق العربى الإسلامى . . .

لم تكن الدولة الإسلامية فى الشرق العربى ذات صبغة توسعية . .

ولم تكن طبيعة الانتساب إلى الإسلام تعطى هذا المعنى ولا تدفع لهذا الطمع فعاش المسلمون فى الشرق العربى تحت رايتهم الإسلامية ، وعاش المسلمون فى دول الإسلام بجنوب شرقى آسيا تحت رايتهم الإسلامية . . . ولو قوى اللقاء بين أهل الدين الواحد والعلم الواحد (علم الإسلام) لما تمكن الاستعمار الأوربى من تحقيق نَهَمِهِ فى استعباد بلاد الإسلام فى جنوب شرقى آسيا فقد طمعت هولاندا فى أندونيسيا فى أواخر القرن السادس عشر ١٦٠٦ ، وطمعت البرتغال فى ماليزيا فى أوائل القرن السادس عشر ١٥١١ ، وطمع الإسبان فى مانبولاس (الفليبين) فى عام ١٥٢١ م .

وفى القرن الثامن عشر دخلت إنجلترا إلى منطقة جنوب شرقى آسيا فى الملايو ، وسنغافورا . . . وبدأ التعاون الاستعمارى للإجهاز على الممالك الإسلامية فى هذه المنطقة وكانت الخطة كالآتى :

١ - تحويل جميع المواد الخام لتصنع فى أوربا حتى يترك أبناء المنطقة جاهلين بشئون الصناعة .

٢ - تركيز التجارة فى يد الأوربيين والصينيين وإقصاء الجنس العربى عن التجارة الخارجية .

٣ - زرع بذور الخلاف الدينى بين المسلمين .

٤ - زرع بذور الخلاف بين العرب والسكان الأصليين .

٥ - الدعاية ضد الإسلام بأنه دين العرب

٦ - تربية الفكر القومى المعادى للقوميات الأخرى .

٧ - إدخال الفكر الإلحادى ليسهم فى توهين التحمس للإسلام من نفوس الشباب .

٨ - تعليم الأطفال فى المدارس أن العرب مرابون وأنهم بخلاء وأنهم مستعمرون وذلك عن طريق قصص باطلة فى كتب المطالعة .

٩ - التبشير بالمسيحية عن طريق : المدارس ، المستشفيات ، الكتب والنشرات ، الزيارات الشخصية ، المنح الدراسية ، المعونات الاجتماعية . . .

١٠ - إدخال الجنس الصينى ليقوم بدوره فى تشويه الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والدينية .

ولم يفطن المسلمون لهذه الخطة . . وانهمروا فى الدعوة إلى الجهاد السياسى وإخراج المستعمر من البلاد . . .

لقد استمر الاستعمار الهولندى فى إندونيسيا ثلاثة قرون ونصف قرن أتى على

كل خير فيها ولم يترك فيها واحدا قد تعلم كيف يمر الشاى الأخضر بأدوار الصناعة ، وأرسى فى نفوس الأمة صراعا صدَّع الأسس العظيمة التى كان يحيا عليها الشعب المسلم فى إندونيسيا . . . ولم تظهر هذه الصراعات إلا يوم أن أعلن استقلال إندونيسيا عام ١٩٤٥ .

وكان الحصول على الاستقلال نتيجة جهاد علماء الإسلام . . .

الإمام بونجول .

الإمام دى بونو جورو .

الإمام أجوس سالم .

الإمام حسى الدين .

الإمام عبد القهار مذكر .

وغيرهم من العلماء المجاهدين بالسيف والقلم والنفس والنفيس . . .

ولكن الاستعمار كان قد صنع سوكارنو وعشش فى نفسه عنكبوت القومية ، ولذَّذَ له الشيطان الإباق عن الإسلام . . .فظهر ماكان مكتوما وبان ماكان مختفيا وظهر الحسك بشكله القبيح يوم أن اجتمعت الهيئة التأسيسية التى انتخبت لوضع الدستور عام ١٩٥٧ م .

ولم يكن فى الحسبان أن النص على أن إندونيسيا دولة إسلامية أمر عسير لأن ٩٠ ٪ من سكان إندونيسيا بل إن ٩٥ ٪ من سكان الأرخبيل يدينون بالإسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

ولكن الاستعمار كان قد ربى له الأفاعى ، وأعد من الأمة لها أعداء . . . فظهرت فكرة الفانشاسيلا Pancasila (المبادئ الخمسة) وهى :

١ – الإيمان بالله مطلقا .

٢ – الإنسانية .

٣ – سيادة الشعب .

٤ – القومية الإندونيسية .

٥ – العدالة الاجتماعية .

وكانت هذه المبادئ فى مواجهة أن الإسلام هو أساس الدولة وقدم الماركسيون الاشتراكية كأساس للدولة الجديدة فظهرت اتجاهات ثلاثة :

الإسلام

الفانشاسيلا

الاشتراكية

وهذه الاتجاهات لم تكن وليدة الصدفة بل عمل الاستعمار لها منذ ثلاثة قرون . . . وبينما الحركة الإسلامية تجاهد من أجل الاستقلال وإخراج المستعمر الأوربى من البلاد . كان الماركسيون يعملون على اغتصاب الحكم ، وكان القوميون يضمرون السوء للاستيلاء على ثمرة النصر

الذى سيحرزه المسلمون .

وفى اللجنة التأسيسية لوضع الدستور عام ١٩٥٧ ظن المسلمون أن المعركة معركة إقناع وبراهين وأدلة فقدموا تصورا علميا وتاريخيا رائعاً ، ألقاه دولة الأستاذ الدكتور محمد ناصر وطبع تحت عنوان : (اختاروا إحدى السبيلين : الدين أو اللادينية) .

ولكن القضية ليست قضية إقناع ولا قضية براهين وإنما هى قضية تكتيك سياسى سريع وبدأ سوكارنو الخطة وهى :

(ا) تحالف بين الماركسيين والقوميين فى اللجنة التأسيسية .

(ب) تخذيل التجمع الإسلامى وتوهينه وكسر قوته .

(جـ) تخدير المشاعر الإسلامية فى الداخل والخارج . .

(ا) أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى فقد تحالف سوكارنو ممثل الحزب الوطنى القومى الإندونيسى مع الاشتراكيين وهم صنفان : اشتراكيون يتبعون موسكو ، واشتراكيون يتبعون بكين ، وأعلن حل الهيئة ونادى بالفانشاسيلا كأساس للدولة وتمرد المسلمون على هذا الوضع ولكن سوكارنو حل الحزب الإسلامى المتمرد ووصفه بكل ألوان السباب السياسى المعروف عند أشباه سوكارنو .

(ب) وأما فيما يتعلق بتخذيل المسلمين فقد كان حل الحزب الإسلامى إحدى علامات الديكتاتورية التى لن ترحم العمل الإسلامى من قبول الفانشاسيلا فأعلنت الهيئات الإسلامية كلها قبولها لهذه المبادئ وجعلتها أساسا فى برنامجها . . فوجد بذلك جو من الانفصام بين المستمسكين بالحق والهدى وبين القيادات الإسلامية التى أرغمت على قبول الفانشا سيلا واستمر سوكارنو فى تخذيل القيم الإسلامية حتى وصل به الأمر إلى فعل أمور يمنعنى الحياء من ذكرها بل يمنع الشرف الفطرى من قصها . . وبات التجمع الإسلامى فى إندونيسيا يلبس ثوبا خلقا باليا ، ويعيش فى صحة عليلة : القيادات الأمينة فى المعتقلات ، والقيادات المرغمة على العمل تَهْنَأُ مع سوكارنو ، والشباب المسلم حائر بين شق الرحى : الجهاد المر أو الحياة الرغيدة ووجدت الشيوعية جذورها تتمدد فى أرض رخوة سهلة فصار الحزب الشيوعى فى إندونيسيا أقوى الأحزاب الشيوعية فى العالم . . . فقد تسلط على الحكومة والمطيران والبحرية ، والاقتصاد والعمال . . .

وأرغم سوكارنو زعماء الحركة الإسلامية العملاء له أن يعلنوا قبولهم للعمل

مع الشيوعيين احتراما لمبادئ الفانشاسيلا وتحقيقا للوحدة الوطنية التى جعل شعارها (نساكم) اتحاد التحالف الوطنى الدينى الشيوعى فى الأمـــة الإندونيسية . (Nasakom)

واستقرت الحياة عند سوكارنو على هذا المزيج والخليط السيئ المشوش المشوه حتى كانت ثورة الشيوعيين الفاشلة فى سبتمبر سنة ١٩٦٥ م .

وكان الحزب الشيوعى قد أقام له المدارس والجامعات واستورد لها من الصين أساتذة ، وبدأ فى تنفيذ السلوك الشيوعى : لا شرف ، لا خلق ، لا قيم ، لا قانون فانكسرت حدة التحمس الإسلامى فى مظهرها العام لولا بقية استبقاها الله فى بعض الشباب الصابر المحتسب . . (H.M.I.)

وأما فيما يتعلق بتخْدير المسلمين فى الداخل والخارج فقد كان سوكارنو يصلى الجمعة إماماً فى مسجد صغير بناه فى ساحة قصر الجمهورية ، ويقيم احتفالات بالمولد النبوى الشريف ، والإسراء والمعراج ، وليلة القدر ، وليلة النصف من شعبان . . وكان جل الحاضرين من القوميين واللادينيين . . . فهى فرصة للضحك على أصحاب المشاعر الإسلامية ، وهى فرصة للترف والبذخ والإنفاق ، وقيل فى شأن سوكارنو بعد سقوطه إنه كان يحضر هذه الاحتفالات وهو فى حالة غير لائقة بالقيم الإنسانية . هذا فى الداخل .

أما فى الخارج فقد كان سوكارنو يتمتع بأسلوب غاية فى السحر والجاذبية . . . وذلك شأن كذابى السياسة ومنافقى الشعوب .

فقد عملت الديبلوماسية الخبيثة أيام مراكز القوى الموالية للاتجاهات الماركسية فى مصر أن يدعى الرئيس سوكارنو — وهو فى لحظة الفتك بالإسلام هناك — ليمنح الدكتوراة الفخرية من الأزهر كتخدير للشعور الإسلامى الذى استيقظ يصب عليه جام غضبه ، وجاء سوكارنو إلى الأزهر فى أبريل سنة ١٩٦٠ وأقيم له احتفال لم تشهده من قبل قاعة الشيخ محمد عبده وخطب سوكارنو خطبة تقليدية تحدث فيها عن الفانشا سيلا وكان ملخص حديثه :

إننا فى إندونيسيا نستمد قوى كبرى من فلسفتنا القومية (الفانشا سيلا) إنها مجموعة من المعتقدات والإرشادات منحت من خبراتنا وتجاربنا الماضية ومن تاريخنا كله . إنها فلسفة تقوم على الذاتية القومية . وقال :

«إن الفانشا سيلا لا تستبعد على وجه التحقيق أولئك الذين يدينون بأديان أخرى ولا الذين لا يتبعون دينا على الإطلاق . . نحن لا ننسى أبدا أن المسيحى والبوذى واللادينى كل هؤلاء إلى جانب المسلمين هم مواطنون فى الدولة الإندونيسية[1] .

وهذه مغالطة لأن المسلمين — ٩٠٪ — هم الذين أحرزوا الانتصار والبلدان الإسلامية فى الأمم المتحدة هى التى وقفت إلى جوار إندونيسيا فى قضيتها لأنها بلد إسلامى ومصر الإسلامية هى أول الدول التى اعترفت بإندونيسيا وهى أول دولة أرسلت سفيراً إلى العاصمة القديمة (جؤجا كارتا) لأن مصر قلب العالم الإسلامى ، ولأن أندونيسيا فى ذلك الحين تمثل قطرا إسلاميا من أقطار الإسلام .

ولقد صارت الأوضاع فى إندونيسيا منذ الاستقلال إلى يومنا هذا حول هذا الصراع هل ستقام فى إندونيسيا دولة إسلامية ؟

وإذا كانت (الفانشا سيلا) هى الأساس للدولة كما أراد سوكارنو ويريد الذين من بعده . . فهل قبل غير المسلمين هذه المبادئ كأساس للدولة ؟

هل قبل الشيوعيون (الفانشا سيلا) كأساس للدولة مع أنهم ترعرعوا فى أحضان إقطاعها ؟

هل قبل المسيحيون الفانشا سيلا كأساس للدولة مع أنهم تمددوا بمؤسساتهم فى ظلالها ؟

إن التاريخ المعاصر يشهد أن كلتا الطائفتين لم تقبل الفانشا سيلا كأساس للدولة القومية العلمانية .

أما الشيوعيون :

ففى عام ١٩٤٨ إبان حركة التحرر من الاستعمار اغتصبو ١٨ ضابطا من ضباط الجيش وقتلوهم وأشاعوا الإرهاب والنهب فى إندونيسيا حتى كان يوم ١٩ من سبتمبر سنة ١٩٤٨ أعلنت الحركة الشيوعية قيام الجمهورية السوفيتية الإندونيسية من مدينة (ماديون) وتولى رياسة هذه الدولة المزعومة أحد الرفاق المدعو عامر شريف . . .

ولم يقض على هذه الثورة إلا الجنرال المسلم عبد الحارث ناستبون . . .

فهل قبل الشيوعيون بذلك مبادئ الفانشا سيلا ؟

وفى عام ١٩٦٥ م لم يكتف الشيوعيون بالسيطرة على الحكومة والاقتصاد بل قاموا بانقلاب فاشل فى ٣٠ سبتمبر فقتلوا سبعة

---

(١) المحاضرات العامة : الموسم الثقافى الثانى سنة ١٩٦٠ ص ١٣/ ١٥ .

من كبار ضباط الجيش مع وزير الحربية أحمد يانى . A. Yani

ولولا عبد الحارث ناستبون الذى نجا بأعجوبة لسقطت إندونيسيا فى يد الشيوعيين[1] فهل قبل الشيوعيون الفانشا سيلا كأساس للدولة العلمانية فى إندونسيا . . . ؟ ! !

(١) راجع كتابنا : الإسلام فى أرخبيل الملايو ص ١٨٧/١٨٨ .

أما عن المسيحيين فيكفى فى رفضهم للفانشا سيلا ما يلى :

أولاً : أنهم رفضوا التسامح الدينى الذى دعا إليه الرئيس سوهارتو مراراً فى عام ١٩٦٧ ، وفى آتشه عام ١٩٧٤ م وفى العام الحالى ١٩٧٨ م .

ثانياً : التقرير الذى يصور استيلاءهم على كثير من العمل التخريبى من أجل تنصير مسلمى إندونيسيا .

● حقيقة الخطر الذى يتهدد مستقبل الإسلام فى أندونيسيا
● المراكز الهامة المؤثرة لطائفتى البروتستانت والكاثوليك فى مختلف القطاعات الحيوية فى أندونيسيا

١ – مقدمة

يراود الشعور بالقلق كثيرا من ذوى الغيرة الإسلامية فى العالم ، بسبب ما يشاع عن نجاح التبشير الهائل فى تنصير أعداد ضخمة من مسلمى أندونيسيا فى الآونة الأخيرة . ويرد الكثير من الاستفسارات عن هذه الحقيقة ، مما ينم عن شعور إسلامى نبيل واهتمام صادق بمصاير المسلمين على اختلاف ديارهم وأقطارهم .

والحقيقة أن ما يذاع عن أنباء عن قيام نشاط تبشيرى هائل فى أندونيسيا هو صحيح ، ولكن ما يذاع من ضخامة عدد المتنصرين من المسلمين فيه الكثير من المبالغة ، حقا إن الهيئات التبشيرية تملك طاقة مؤهلة لأعمال التنصير وهى كبيرة العدد وتملك من المادة والمعدات التى تسهل لها استغلال الفقر والجهل والمرض التى هى من مخلفات الاستعمار ، ما لا يحصيه عدد ، ويتلقون سيلا مدرارا من المساعدات المالية من مختلف الهيئات والمؤسسات العالمية ، ولكن كل ذلك لم يحقق النصر الذى أرجفوا به وأشاعوا .

إنهم قد يسجلون الشخص الذى يتعالج فى مستشفياتهم ، أو يتقبل شيئا من الأرز يقدم إليه أو قطعة من قماش ، على أنه قد تنصر وتم تعميده ، وما أكثر الذين يترددون على مستشفيات التبشير ومستوصفاتة أو يتلقون معونات الغذاء والكساء بحسن نية باعتبار ذلك مجرد مواساة وبر وعمل إنسانى محض .

نعم هناك جماعات من البدائيين يسكنون فى منطقة الباتاك (بسومطرا الشمالية) وفى كاليمنتان وجماعات فى جاوا الوسطى انتماؤهم الإسلامى فج ، بل مازال أكثرهم يجهلون الإسلام جهلا ، هؤلاء هم الذين يُنَصَّرون ، ولا يزيد معدل الذين يتنصرون من هؤلاء سنويا عن عشرات الألوف .

إن تنصير البالغين من المسلمين قد لا يكون هينا ، أما الذين يتهددهم الخطر

فهم الأطفال الذين يلتحقون بمدارس التنصير ومعاهده ، وهى منتشرة بكثرة كثيرة جدا سواء فى العاصمة أو فى مدن الأقاليم وقراها .

٢ – التسرب إلى مراكز السلطة :

والخطر الذى يتهدد الإسلام ومستقبله فى أندونيسيا بحق وحقيقة فهو آت من سيطرة النصارى على مراكز العصب الحساس فى أجهزة الدولة ، وأزمَّة الاقتصاد ، مما يذكرنا بسيطرة نصارى المستعمرين أيام أوج الاستعمار الهولندى وإذا كان ذلك طبيعيا أيام الاستعمار فإنه من المفارقات جدا أن يستمر بعد ثلاثين سنة من الاستقلال .

وهذه السيطرة قد خططوا لها منذ أمد طويل ، إذ أعدوا كوادرهم وأتاحوا لهم فرص التحصيل العلمى إلى أعلى المستويات فى جامعات أندونيسيا وجامعات الخارج بما يؤمن لشبابهم من منح دراسية سخية . بينما أبناء المسلمين محرومون من تلك الفرص .

وما تم تنفيذه من ذلك المخطط حتى كتابة هذه السطور يتلخص فى الآتى :

٣ – المراكز الهامة التى يحتلها البروتستانت والكاثوليك فى أندونيسيا :

يحتل البروتستانت والكاثوليك مراكز هامة فى أجهزة الحكم والإدارة والتشريع ، سواء على المستوى المركزى أو الإقليمى ، سيطروا عليها باسم الكفاءات والشهادات الرفيعة وباسم مختلف التنظيمات السياسية والانتماءات الحزبية .

القطاع السياسى والعسكرى

(ا) فى مجلس شورى الشعب :

مجلس شورى الشعب (وليس المجلس الاستشارى الأعلى كما يخطئ ترجمته البعض) هو أعلى سلطة تشريعية فى أندونيسيا ، وذلك وفق ما نص عليه دستور سنة ١٩٤٥ م .

يملك هذا المجلس حق صياغة الدستور أو تعديله وحق انتخاب رئيس الجمهورية ونائبه ، وحق وضع الخطوط العريضة لأهداف الدولة ، الملزمة لرئيس الجمهورية بوجوب تنفيذها وعدم الحيدة عنها ، ورئيس الجمهورية مسئول أمام هذا المجلس وليس غيره .

المفروض أن يتكون هذا المجلس من أعضاء منتخبين مباشرة ، إذ يتكونون من

أعضاء البرلمان ومن مندوبى الأقاليم . والمجلس الحالى (هكذا يتوقع فى المجلس الذى يتكون من أغلبية ساحقة من طائفة الجولكار (طائفة الحرفيين التى هى فى الحقيقة المنظمة السياسية للنظام الحالى) وجبهة الجولكار فى البرلمان وفى مجلس شورى الشعب مسيطر عليها من قبل الأعضاء البروتستانت والكاثوليك وتملك الجبهة البرلمانية فى البرلمان وفى مجلس شورى الشعب السلطة الكبرى فى سير المناقشات وفى التصويت ، إذ يمارس تلك السلطة (بدون معقب أو رقيب) رئيس الجبهة فرئيس الجبهة هو كل شيء ، أما أعضاء الجبهة فجل مهمتهم التصويت لدى الاقتراع ، إذ ليس له أن يقترح شيئا إلا عن طريق الجبهة ، والمداولات تتم عن طريق اللجان فى البرلمان وفى مجلس شورى الشعب ، وهكذا تبرز أهمية الجبهة البرلمانية فى ممارسة (أو تزييف) إرادة الأمة .

وفى دورة مجلس شورى الشعب لعام ١٩٧٣ كان أعضاء لجان الصياغة واللجان الخاصة الأخرى يتكونون من هؤلاء النصارى الآتية أسماؤهم :

– كوسماس باتوبارا .
– دكتور أندوس موردوبو .
– الدكتور يوهانس بابتيستا سومارلين .
– جريجوريوس أطونيوس سوقيها رتو .
– يوسف واناندى (وهو صينى كاثوليكى اسمه ليم بيان كيى) .
– ر . روس كامدى (ماجستير قانون) .
– ى ب أوتارا (ماجستير قانون) .
– السيدة سورياتى أتاستينه ليقاوا .
– سابام سيرابيت .
– ياكوب توبينغ .
* دكتور ميديات سيرابيت .

هؤلاء هم الذين قاموا بنشاط مكثف جدا ، خلال جلسات مجلس شورى الشعب عام ١٩٧٣ وهى الجلسات التى أنتجت الخطوط العريضة لأهداف الدولة الحالية التى تستوحى منها الحكومة سياستها العامة .

(ب) فى الحكومة المركزية ومؤسساتها :

يتربع النصارى على مقاعد هامة فى الوزارة وفى المصالح والدواوين الحكومية منهم :

– الجنرال مارادين بانقابيان وزير الدفاع والأمن القومى ، وقائد عام القوات المسلحة (البوليس فى أندونيسيا من القوات المسلحة) .

– البروفسير الدكتور ج . أ . سيوابيسى وزير الصحة .

– دكتور أندوس راديوس براوير وزير التجارة .

– الدكتور يوهانس بابتيستا سومارلين وزير الدولة لإعادة تنظيم وضبط أجهزة الدولة .

– س . سودارمان مدير عام مديرية الجوازات والهجرة .

– أ . ى . مانيهوروك ، مدير عام ديوان الموظفين .

– دكتور و . ب . نابيتوبولو . مدير عام التعليم غير الرسمى بوزارة التربية والثقافة .

– ج . س . ت سيموران كيز . رئيس لجنة تطوير القوانين بوزارة العدل .

– دكتور راندوس برايوقو مدير عام مصلحة السياحة .

ويتضح مما ذكر ، أن سلطة مراقبة وضبط ومعاقبة موظفى الدولة هى بيد وزير كاثوليكى ، وسلطة تعيين وترقية ونقل وتجميد الموظفين بيد وزير بروتستانتى وهو أ . أى ، مانى هوروك ، ومراقبة بوابة الدولة (الهجرة والجوازات وتأشيرات الدخول والخروج) بيد مسيحى هو س . سودار مان ، حيث يُتوقع تسهيلات كثيرة لدخول الإرساليين ورجال الأعمال الفاتيكان ونحوهم . ومما يذكر عن مدير الجوازات المذكور أنه قرر إعفاء القسس ورجال الكنائس من رسوم تأشيرات الخروج وهى رسوم باهظة .

(جـ) وزارة الدفاع والأمن القومى :

تعتبر القوات المسلحة فى أندونيسيا من أهم الهيئات الفعالة لحماية نشاط الأعمال التنصيرية ، سواء فى القيادة العليا أم مشتقاتها وفى قيادات المناطق العسكرية الإقليمية ، حيث يقوم متنفذوها النصارى بمهامهم بولاء ووفاء لانتمائهم النصرانى . ونذكر من بين هؤلاء :

١ – الجنرال مارادين بانقابيان ، وزير الدفاع والأمن القومى وقائد عام القوات المسلحة .

٢ – الجنرال بينى موردانى مساعد القائد العام لشئون المخابرات بوزارة الدفاع .

٣ – الميجر جنرال يوقى سوباردى قائد عام قيادة السوقيات (اللوجستيك) للجيش .

٤ – اللفتنانت جنرال (بوليس) دكتور أندوس ويدودوبودى دارمو قائد عام بوليس الدولة .

٥ - الميجر جنرال كانتر الحقوقى ، رئيس هيئة تطوير القانون بوزارة الدفاع والأمن .

٦ - الميجر جنرال ليو لوبوا ليسا قائد الفرقة الاستراتيجية بالجيش .

٧ - الميجر جنرال ج . هـ مانتيك قائد منطقة جاكرتا العسكرية .

٨ - ى . ب أوتورو القانونى ، رئيس القسم السياسى بالمخابرات المركزية .

٩ - البريجادير جنرال اى . و . ب . تامبونان مدير الكلية الحربية قسم القوات البرية

١٠ - الأميرال سودومو رئيس أركان قيادة عمليات إعادة الأمن والنظام (بالأندونيسية : كوم كام تيب) وهى القيادة التى تستطيع أن تقارف أى شىء بذريعة الضبط والربط والحيلولة دون انتكاسة الشيوعية ، حيث تملك سلطات استثنائية ، بعد إلغاء حالة الطوارئ فى أندونيسيا .

أما مراكز الدرجة الثانية وهى قيادة المناطق العسكرية ، فقد استولى البروتستانت والكاثوليك فيها على مراكز هامة جدا ، مثل قسم المخابرات والعمليات وكذلك بالنسبة لقيادات مناطق الدفاع (كويلهان) التى تضم كل واحدة منها عدة مناطق عسكرية قيادية فقد احتل النصارى فيها مراكز هامة أيضاً . من أمثلة ذلك :

١ - قيادة المنطقة العسكرية الثانية « بوكيت باريسان » وتسيطر على منطقة سومطرا الشمالية ومقرها مدينة ميدان . كان قائدها الجنرال ليولوبوليسا وقد رقى إلى منصب قائد الفرقة الاستراتيجية للقوات البرية ، ويقال إن المرشح لخلافته فى القيادة هو أحد الجنرالات النصارى .

٢ - فى قيادة المنطقة العسكرية السادسة ، سيلى وانغى ، بجاوا الغربية ومقرها مدينة باندونغ ، رئيس مخابراتها كولونيل نصرانى اسمه ساملو .

٣ - فى قيادة المنطقة العسكرية السابعة ديبو نقورو (بجاوا الوسطى) يتولى قيادة مخابراتها الكولونيل ليونغالى ، وقد أزمن هذا الرجل فى هذا المنصب الذى تربع عليه أكثر من عشر سنوات .

ومناصب المخابرات هذه حساسة جدا ومؤثرة جدا كما هو مفهوم بالبداهة فى توجيه سياسة القواد ، لأن كافة التقارير تمر بها وهى التى تقيمها وتستخلص معطياتها وتقدمها إلى القيادة فإذا كان القائمون عليها من أصحاب العواطف الدينية المتطرفين أو ممن جندوا عمدا فيها فمن السهل أن تحور التقارير وتعاد صياغتها وتلون بألوان خاصة .

ويبذل البروتستانت والكاثوليك فى الآونة الأخيرة جهودا مكثفة لتولى مناصب قيادة العمليات العسكرية فى قيادات المناطق العسكرية .

(د) فى الهيئات التشريعية للدولة :

يحتل البروتنستانت والكاثوليك مختلف الانتماءات التنظيمية ، ٨٤ مقعدا فى البرلمان (أو ما يعادل نسبة ٢ ، ١٨ ٪ من مجموع الأعضاء وعددهم ٤٦٠ عضوا) ولم يكن الأمر قاصرا على العضوية فقط ، ولكنهم يحتلون مناصب فى الجهاز البرلمانى يمكنهم من التوجيه والسيطرة .

ولبيان ذلك نذكر أن :

١ – سابام سيرايت (من حزب البروتستانت سابقا) يحتل الآن منصب نائب –رئيس الجبهة البرلمانية للحزب الديمقراطى الأندونيسى .

٢ – ى . هـ . د . تاها ماتا (من حزب البروتستانت أيضاً) يتولى منصب نائب رئيس جبهة الحزب الديمقراطى الأندونيسى البرلمانية .

٣ – فى . بى . داكوستا (من حزب الكاثوليك سابقاً) نائب رئيس أيضاً . .

٤ – دكتور أندوس تام سيما توبانغ (من البروتستانت) يتولى منصب سكرتير جبهة الحزب البرلمانية .

٥ – دكتور أندوس كارو يندينغ (من الحزب القومى سابقا) سكرتير جبهة الحزب البرلمانية .

هؤلاء النصارى يسيطرون على جهاز الجبهة البرلمانية للحزب الديمقراطى الأندونيسى .

جبهة الجولكار البرلمانية :

٦ – جريجوريوس أنطونيوس سوقيهارتو رئيس جبهة الجولكار البرلمانية .

٧ – دكتور أندوس كوسماس باتو بارا منسق الشئون السياسية للجبهة .

٨ – دكتور أندوس ى . سيمان جونتاك منسق الشئون الاقتصادية .

٩ – دكتور أندوس .سوقيهارتو (أخوجريجوريوس سوقيهارتو) . منسق الشئون العامة .

١٠ – وارتو نو منسق الشئون الخاصة .

فى اللجان البرلمانية :

اللجان البرلمانية هى التى تتخصص فى مناقشات البرلمان ، فممثل الحكومة يحضر جلساتها ويقدم بيانات الحكومة أمامها ، وعندما تتم المناقشة وتؤخذ آراء الجبهات يقدم الموضوع إلى الجلسة العمومية حيث

تؤخذ الأصوات .

فنى هذه اللجان البرلمانية نجد الشخصيات الآتية أسماؤهم :

١ – فى . بى داكوستا
نائب رئيس لجنة الشئون القانونية (لجنة ٣)

٢ – دكتور أندوس تام سيناتو بانغ
نائب رئيس لجنة المواصلات (لجنة ٥)

٣ – ياكوب توبينغ
رئيس لجنة الصناعة والثروة المعدنية (لجنة ٦)

٤ – ى . هـ . دتاهاماتا
رئيس لجنة الصناعة والثروة المعدنية

٥ – ل . م . سيان تورى
نائب رئيس لجنة الشئون الصحية والاجتماعية (لجنة ٨)

٦ – بودى ديبويوانا
نائب رئيس لجنة الشئون الصحية والاجتماعية

٧ – آريفين سارى تامبونان
نائب رئيس لجنة البحوث (لجنة ١٠)

٨ – دكتور أندوس . ى . سيمان جونتاك
نائب رئيس لجنة الميزانية

٩ – اى . ى . سوهارنو
نائب رئيس لجنة الشئون الداخلية للبرلمان .

(هـ) فى إدارة الحكم المحلى :

إدارة الحكم المحلى وهى الولايات واسمها مناطق الدرجة الأولى (أو المحافظات وعددها قبل ضم تيمور الشرقية إلى أندونيسيا ست وعشرون ولاية) تتمتع بنوع من اللامركزية (الأوتونومى) فلكل واحدة برلمان محلى يضع ميزانية المحافظة ويسن اللوائح المحلية وينظم واراداتها وينتخب محافظها (ولو نظريا) الذى تعينه بناء على ذلك الحكومة المركزية ولحكومة المحافظة حق جباية بعض العوائد والرسوم والضرائب وتتلقى مساعدة مالية سنويا من الحكومة المركزية تسد عجزها .

ولذلك نرى النصارى حريصين جدا على أن يسيطروا على إدارات الحكم المحلى . وقد نجحوا فى أربع ولايات ، وهى : **ولاية سولاويسى** الشمالية ومحافظها الميجر جنرال هـ . فى وورانغ ، **وسولاويسى الوسطى** ومحافظها البريجادير جنرال – تامبونان **وكاليمنتان الوسطى** ومحافظها سيلفانوس **ونوسا تنقارا تيمور** ومحافظها البريجادير جنرال ايل تارى .

وبرغم أن سولاويسى الوسطى أغلبية سكانها مسلمون إلا أن مجلسها النيابى انتخب البريجادير تامبونان المسيحى وليس

من أبناء المنطقة ، محافظا ، وسارع فعين عددا من النصارى فى مناصبها الهامة ، منهم :

– دكتور أندوس لى ل سلاتا سكرتير حكومة المحافظة .

– دكتور أندوس ف . س . سماك
لإدارة شئون الحكم والإدارات

– سى . ك . توماكاكا
لإدارة شئون التنظيمات العامة

* دكتور أندوس س . تامبونا
لإدارة الشئون المالية

– دكتور أندوس س . سارونقو
لإدارة المكتب العام

– دكتور أندوس نيكو آدم
لإدارة شئون الموظفين

– دكتور أندوس ى . و . سارابانغ
لمصلحة العوائد والإيرادات

(و) الهيئة المركزية لمنظمة الجولكار (الحرفيين)

كلمة الجولكار منحوتة من كلمتين باللغة الأندونيسية وهى جولونغان كاريا Golongankarya أى طائفة أصحاب الحرف ، وينضوى تحت مفهوم أصحاب الحرف كل من يحترف حرفة يعيش منها ، مثل موظفى الحكومة وموظفى المؤسسات العامة للدولة ، ومحترفى القتال (القوات المسلحة) محترفون أيضا والصحفيون ومراسلوا الصحف والفنانون والممثلون والرسامون والنحاتون والمغنون كلهم حرفيون ، وضم هؤلاء إلى منظمة أطلق عليها اسم الجولكار ، ابتدع الفكرة ونفذها سوكارنو ، وكثف نشاطها العهد الجديد وأصبح لها رئيس يتولاه الآن اللفتنانت جنزال اميرمورتونو ، وفى العهد الجديد فرضت المنظمة فرضا على كل من يتقاضى مرتبا أو أجرا من الحكومة ومؤسساتها ، بل فرض على كل من له صلة بالموظف من زوجة وأولاد وأصهار .

وهكذا نجد الوزراء والمديرين العامين والموظفين وحكام الولايات إلى عمد القرى ، وأسست فى كل ديوان أو مصلحة « نقابة لموظفيها » ، تتقاضى نسبة من مرتباتهم اشتراكا فى النقابة ، ويقال إن كل مشتريات الحكومة تتقاضى منها منظمة الحرفيين نسبة عمولة تقدر بـ ١٠ ٪ من ثمنها الإجمالى .

وقد نجحت المنظمة فى انتخابات عام ١٩٧١ فى إجبار الناخبين على انتخاب لائحة مرشحيها مما أثار ضجة ما أسرع ماكممت وتلقى مثيروها تهديدا خطيراً .

وهكذا نجد أغلبية المنتخبين من لائحة

الجولكار فازت بالتعسف والقسر.

وقد أسفر المؤتمر القومى للمنظمة (لهيئتها المركزية فقط) وقد انعقد بمدينة سرابايا، وخيل للمشاهدين أنه مؤتمر للقوات المسلحة لما ساد المؤتمر من الضباط وما استخدم فيها من تسهيلات الجيش ومعداته، فما أسفر، عن هيئة إدارة مكونة من ١٧ عضوا، سبعة منهم (أى بنسبة ٤١ ٪ من البروتستانت والكاثوليك، ولم تقتصر المناصب على الحكم فقط وإنما تمتاز أيضاً بأهميتها. ومن هؤلاء السبعة نذكر ستة وهم :

١ – البريجادير جنرال آ اى. مانيهوروك
رئيس ديوان الموظفين، اختير نائبا لرئيس الهيئة المركزية

٢ – دكتور أندوس موردوبو
أمينا للشئون المالية

٣ – يوسف واناندى (صينى اسمه ليم بيان كى)
أمينا للشئون العامة والتخطيط

٤ – كوسماس باتوبار
أمينا لشئون الكوادر والتربية

٥ – دافيد نابى توبولو
أمينا لشئون الطلبة والشباب

٦ – الدكتور ميحديان سيراييت
أمينا لقطاع المثقفين

(ز) الهيئة المركزية للحزب الديمقراطى الأندونيسى :

أسفر ما يمكن أن يعتبر بالمؤتمر الأول للحزب الديمقراطى الأندونيسى عن تشكيل إدارة عليا وهيئة مركزية للحزب الذى أصبح بوتقة صهر لخمسة أحزاب قديمة وهى الحزب القومى الأندونيسى وحزب البروتستانت وحزب الكاثوليك وحزب الموريا (أتباع تروتسكى) – وحزب إيبكى الذى أنشأه فى الخمسينيات ضباط الجيش الذين أحيلوا إلى الاستيداع بعد حركة أكتوبر سنة ١٩٥٢ التى قادها الجنرال ناسوتيون وفشلت.

ولقد احتل النصارى (بروتستانت وكاثوليك) مراكز مهمة فى قيادة الحزب فقد تقرر عدد مقاعد الهيئة المركزية ٢٩ مقعدا، توزع على أساس حجم كل من الأحزاب السابقة التى أدمجت فى الحزب الديمقراطى، وبذلك تقرر للحزب القومى ٩ مقاعد ولكل من حزب البروتستانت والكاثوليك ستة مقاعد ولكل من حزب الموريا والأيبكى ٤ مقاعد.

وبالإضافة إلى ذلك قرر جعل مقعد الأمين العام للحزب بيد البروتستانت وأسند إلى السيد سابام سيراييت.

لقد نال الكاثوليك والبروتستانت **١٢** مقعدا من أصل **٢٩** مقعدا وهذا وحده يمثل **٤١,٣** ٪ من المجموع . غير أنه قد احتل النصارى أيضاً مقاعد أخرى من حصة الحزب القومى وكل من حزب الموريا والإيبكى على أساس الاعتبارات الخاصة بالانتماء الحزبى وهكذا اكتمل عدد المقاعد فى الهيئة المركزية للحزب الديمقراطى التى يحتلها النصارى **١٦** مقعدا من أصل **٢٩** أى بنسبة **٥٥,١** ٪ من المجموع .

ولا يجوز أن ننسى أن أمثال هؤلاء المسيحيين لهم ولاء مذهل للكنيسة (على العكس من بعض المسلمين الذين لا يرتبطون بأى ولاء إلا لمصالحهم الخاصة) . ولا يضير هذا الولاء الكنسى الانتماء الحزبى الخاص بكل ، أى أنهم فى ممارستهم لمهامهم لا يغفلون التوجيه الكنسى وتنسيقاته .

٣ – فى القطاع الاقتصادى :

من البديهى أن يكون النفوذ السياسى معهدا للسيطرة الاقتصادية . وهكذا كانت سيطرة النصارى فى أندونيسيا على الإدارة والحكم قد وضعت فى أيديهم مقاليد السيطرة على أزمة المال والاقتصاد ، فكثير من قروض الاستثمارات الأجنبية استولى عليها البروتستانت والكاثوليك .

ويوجد هناك (البنك الوطنى العام) (بنك عموم ناشيونال)

وهو مؤسسة كاثوليكية ، ولذلك يحتل قطب الكاثوليك الأندونيسى اى . ى . كاسيمو مكانا هاما فى إدارة البنك وهو شخصية كاثوليكية معروفة بالتعصب .

وهناك الدكتور يوسف بانغلاى كيم (بانغ لاى كيم) Dr. Jusuf Pang Lay Kim وهو بجانب مركزه بمعهد دراسات العلوم الاجتماعية الذى يشغل مبنى شارع تانا بنغ الثالث رقم **٢٥** (المعروف أن هذا المبنى هو عرين الجنرال على مورتوبو) يمثل دور همزة الوصل بين شخصيات « بنك أندونيسيا المركزى ، وبين رجال الأعمال الصينيين » وأغلبهم من البروتستانت والكاثوليك) الذين يريدون الحصول على قروض من ذلك البنك المركزى .

بينما يقوم الدكتور يوهانس باتيستا سومارلين الكاثوليكى ، وزير الدولة لشئون ضبط الجهاز الحكومى ، بنشاط آخر وهو تسهيل تزكية مقترحات المشروعات الكاثوليكية والبروتستانتية المعروضة على الهيئة المركزية للتخطيط الإنمائى القومى ، لأن سومارلين نائب رئيسها .

هناك عدد من الأسماءوهى نبوهان

سيانغ Nyo Han Siang وليم سيوليونغ والمهندس تشيوبو ترا وليم بيان كون وليم بيان كى

وهى شخصيات عرفت بأنها من عمالقة رجال الأعمال والاقتصاد فى أندونيسيا بجانب ما عرف عنهم بأنهم إما من البروتستانت أو من الكاثوليك « المتدينين » أى أنهم من الأجهزة الطيعة لإرساليات التبشير النصرانى فى أندونيسيا .

وتوجد هناك مؤسسة علمية متخصصة فى تطوير وبناء فنون الإدارة ، مقرها بشارع مينتينغ رايا (واحد من أحياء المترفين بجاكرتا) يتم فيها تأهيل الطاقات الإدارية وبرغم أنه يوجد فى هيئة التدريس بهذه المؤسسة عدد من المدرسين المسلمين ، أمثال السيد شفر الدين براوبرا نيقورا Sjafruddin Prawıru Nègara

رحمت لوليو ميسينو (شفر الدين أحد أقطاب حزب مشومى ورحمت من أقطاب نهضة العلماء) إلا أن هذه المؤسسة نصرانية ، رئيس هيئتها العام هو الجنرال المتقاعد الدكتور تاهى بونارسما توبانغ Dr. Tahi Banar Simatupang

(رئيس مجلس الكنائس – الأندونيسى ، وعضو مجلس الكنائس العالمى) وسكرتيرها بى م . سماتوبانغ ومن أعضائها راديوس براويرو (وزير التجارة) . وف . اكس سوهارتو F.Y. Soeharto

وكان يمد هذه المؤسسة التعليمية فى أول نشأتها « جمعية الويسيوس » الكاثوليكية فى سما رانغ ، وياباسان بوربا دانارتا البروتستانتية فى سما رانغ أيضاً . ومن بين الهيئات الخارجية التى تتعاون معها هى مؤسسة صندوق القروض الاقتصادية الكنسية (Econemica Church Loan Fund) فى جنيف ، ووكالة ميسوريور Miserior للمساعدات الإنمائية فى آخن بألمانيا .

ونجد فى قطاع النشاط العامل فى شركات التأمين أسماء (نيوهان سيانغ) وليم بيان كون ، وليم بيان كى ورودى وأنادى (أخو ليم بيان كى أيضاً)

وقد بدلوا اسم شركة تأمينهم القديم (ماسكا باى اسورانسى فاديو) باسم جديد معناه (مؤسسة واهانا تاتا المحدودة للتأمينات) ويتكون مجلس إدارتها من :

نيوهان سيانغ

رئيس مجلس الإدارة المنتدب

دكتور يوسف تانغ لاى كيم

نائب الرئيس

سفيان واناندى
توماس سوبانتو
سوهادى
يوسف واناندى
} أعضاء مجلس إدارة

ساسو سوقيارسو مدير عام

رودى وانا ندى
سنى دوى هارسونو
} مديرون

ومن فى أندونيسيا لا يعرف اسم ليم سوى ليونغ أحد المقربين إلى القصر ، إنه الآن أصبح يستعمل اسمه الجديد سودونو سالم . وقد تردد اسمه بين أقطاب المهربين الذين أفلتوا وهربوا إلى الخارج (اسمه الصينى (Lim Sui Liong) واسمه الأندونيسى Sud no Salim لهذا الرجل ابن أصبح الوكيل الوحيد لسيارات (فولفو) فأصبح الآن اسمه بان دارمادى Jan Darmadi

ومن بين الأسماء اللامعة فى شركة استرا لتجارة السيارات ومصانع تجميعها نجد اسم ليم بيان كى أى يوسف واناندى .

وبجانب القطاع الخاص (الأهلى) حيث نفوذ الصينيين المسيحيين قوى ، نجد بعضهم يملك نفوذا فى الوزارات من ذلك فى وزارة الأشغال العامة والطاقة الكهربية ، فبجانب وزيرها المهندس س سوتا مى نجد شخصا يعرف باسم (بو Po) قوى النفوذ فى الوزارة . وله اسم أندونيسى هو مورديا .

لقد استطاع هذا الصينى الذى لم يتجاوز العقد الثالث من عمره أن ينال من ميزانية الوزارة مبلغ ٣٢٦ بليون روبية لعام ١٩٧٦ قيمة توريدات لمؤسسة كهرباء الدولة ، وقد بلغ من استفحال نفوذه وتأثيره أنه تسبب فى نقل تأديبى لسبعة من رؤساء فروع إدارة الكهرباء اصطدموا معه . وإذا صادف وجود موظف يجرؤ على أن يبدى اعتراضا على أى مقترح لهذا الصينى فسرعان ما يأتى إليه ويهمس فى أذنه (ألا تزال راغبا فى البقاء فى مركزك أم ترغب فى النقل) وطبعا لا يريد أن ينتقل فيلزم أدبه مع الصينى مورداپا . وسر حظوة هذا الصينى الشاب أنه متبنى معالى الوزير سومارلين .

٤ – قطاع الشئون الاجتماعية :

لقد كان للنصارى تجارب قيمة وقدم راسخة فى قطاع الشئون الاجتماعية اكتسبته هيئات التبشير فى مختلف أصقاع أندونيسيا .

ونحن الآن بسبيل تجميع مختلف المعطيات والحقائق الدقيقة لنشاط القوم فى هذا الميدان ، بمساعدة إخوة لنا فى الأقاليم .

على أن نشاط القوم لم يقتصر على عامة

الشعب فقط ، بل استطاع أن ينفذ من خلال أسوار قصور السلاطين ، كسلطان سالا Solo بجاوا الوسطى الذى أنكح بنته للمهندس المسيحى سيلفانوس Sylvanus محافظ كاليمنتان الوسطى ويقال إن لهذه البنت خطيبا شابا مسلما وطالبا جامعيا ، ولكن قوى خفية أجبرت السلطان على اختطاف البنت من خطيبها ليزوجها من هذا المسيحى الذى تجاوز مرحلة الشباب وتم قرانها بقصر أبيها السلطان الذى كان فى يوم من الأيام مقرا « لظل الله فى أرضه » ومركزا لإشعاع الإسلام . وتم الزواج بلا مراسم زواج إسلامى واحتفل به احتفالا باذخا دعى إليه رئيس الجمهورية وعقيلته وكبار رجال الحكومة والسلك الدبلوماسى من جاركتا بالطائرة حيث أرفقت تذاكر الطائرة ببطاقات الدعوة .

٥ – بين أيدى الانتخابات العامة :

واليوم فما الذى أعده المسلمون لكى يستطيعوا أن يحافظوا على كيانهم من الاضمحلال . .

يقول المرحوم الأستاذ براووتو مانكو ساسميتو آخر رئيس لحزب ماشومى قبل أن يأمر سوكارنو بحله : مهما كان عدد الجبهة الإسلامية ضئيلا ، إذا اتحدت ووقفت صامدة فلابد أن يضطر الآخرون إلى الأخذ بعين الاعتبار واحترام موقفها ورأيها .

ولكن كيف يرجى هذا من الذين وضعوا وضعا على قمة القيادة الإسلامية ومضوا يكتبون فى الإسلام وعن الإسلام مما يكرب ويغثى الناس مثل (كتاب الإسلام والسياسة والإسلام والدولة فى أندونيسيا) يملأ بالغث من الكلام والضحل من البحوث عن الإسلام ويفضل أقوال المستشرقين باعتبارهم أعلم بالإسلام ويحث على دراسته فى كتبهم ، ورحم الله القائل :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

يقول كاتب هذا الكتاب وهو رئيس حزب الوحدة الإنمائية (بتقديم النون على الميم) (إنه لا يهمه من الذى سيفوز فى الانتخابات القادمة فالأمر سيان ، عنده على الأقل) ، أما النصارى فقد استولوا على أربعة مقاعد وزارية ، ثلاثة منها فى غاية الأهمية وهى وزارة الدفاع والأمن القومى ووزارة التجارة ووزارة غربلة الموظفين . كما احتلوا مراكز هامة فى دواوين الحكومة ومصالحها وفى الهيئات التشريعية .

وكلها مراكز تتيح الفرصة للتوجيه

والتحكم ، بجانب ما تدره من إيرادات ودخول مشروعة ، فإذا أضفنا إلى ذلك المساعدات الضخمة التى تتلقاها مؤسساتهم المحلية من المؤسسات التبشيرية فى أوربا التى كسدت فيها بضاعتها سواء المساعدات للتبشير أو للاقتصاد واستثمار الأموال ، فإنهم لن يعجزوا عن تحقيق مخططهم الهادف إلى السيطرة الشاملة وبسط النفوذ على قطاعات واسعة ومستويات مختلفة .

وعلى سبيل المثال نذكر أن منظمة (الجولكار) قررت لضمان الفوز فى الانتخابات أن يكون لها مرشحون من منظمة الجنود المتقاعدين ، ويبدو أن النصارى قرروا أيضاً أن يكون لهم مرشحوهم من هذه الفئة وأنه لضمان ذلك يجب أن يتدخلوا فى إنشاء فروع تلك المنظمة فى خارج جاوا تمهيدا للنجاح واحتسابا لكل شىء ، إذ أنه من السهل أن يقدم للترشيح مرشح نصرانى باسم المنظمة إذ قادتها مسيطر عليهم من النصارى . وهكذا أوفدوا كوسماس باتوبار لمنطقة سومطرا ودافيد نابيتوبولو إلى شرقى أندونيسيا وكور نيلوس سيمان جونتاك إلى كاليمنتان ، بحجة تشكيل لجان انتخابات لمنظمة الجولكار .

ولكن يبدو أن ما أبطنوه من نيات قد تسربت أخبارها فحدثت ردود فعل معاكسة خطيرة فقامت اعتراضات على كوسماس باتوبارا الكاثوليكى فى آتشيه ، وعلى دافيد نابيتوبولو فى أندونيسيا الشرقية .

ولكن مخططهم قد استكمل جوانبه ، فالمرشح الحزبى أو الطائفى لا ينجح إلا بعد أن يوافق على ترشيحه من قبل المخابرات وقائد عمليات إعادة الأمن والنظام (كوم كام تيب) وكلاهما شهاب الدين وأخوه أى من النصارى (بينى مورداني وسو دومو) فيستحيل أن يزكى إلا إذا كان على هواهم .

ولذلك فقد أثار العجب أن يتقدم أحد أقطاب حزب الوحدة الإنمائية يستصرخ الأخوة العرب أن يساعدوا على إنقاذ أندونيسيا من أخطار امتصاص النصارى للمسلمين وأنه يجب مساعدة حزب الوحدة الإنمائية ماليا حتى يفوز فى هذه الانتخابات .

أما أن المسلمين فى خطر فهو حق ، وأما أن نقول إن إنقاذهم بتقديم المساعدات المالية لحزب الوحدة الإنمائية حتى يفوز مرشحوه فى الانتخابات ، فنقول :

هذا كلام له خبيئ معناه ليست لنا عقول

إن المسلمين فى خطر منذ عشرات السنين وقبل عشرات السنين ، منذ أيام سوكارنو حين كانوا من بين حوارييه ، فالأجدر أن يكونوا آخر المسلمين الأندونيسين إدراكا لذلك الخطر والاستصراخ لنزح جيوب الغيورين من الموسيرين . إذن فهى كلمة حق أريد بها باطل وهل من السهل تقديم المساعدة لحزب من أجل مواجهة الانتخاب والفوز فيه ألا يسبب ذلك قيام الحكومة بجهاز (الكام تيب) صاحب السر الباتع ليقمع كل ذلك ويمضى الإسلام فى العفاء .

الخلاصة : وبعد : فإن نفوذ النصارى مستفحل يحدث ذلك بموجب مخطط تضافرت على تنفيذه قوى مؤهلة مجندة ، بل يتوقع أن يزداد استفحالا والعياذ بالله مستقبلا ، والذين على مقاعد السلطة من المسلمين « مستضعفين » — أو عملاء وكلما ندت صرخة عن تكالب أخطار التنصير على مسلمى أندونيسيا — نجد واحدا يرفع عقيرته مكذبا أن لا خطر على الإسلام فى أندونيسيا . الإسلام فى أندونيسيا بخير ، والدليل أنه لا يزال بعمامته وجبته ويتلقى الملايين يقول من يقول بخطر التنصير على الإسلام فى أندونيسيا فهو عدو التنمية وعدو الأمة وغيره كثيرون ممن وضعوا على القمة فى مختلف المناصب وهم لا يساوون ملئ آذانهم نخالة ، كما يقول المازنى رحمه الله .

وكل من يجرؤ من الدعاة والمبلغين والخطباء على تحذير الناس من أخطار التبشير سرعان ما يغل بالأصفاد فور نزوله أو عند خروجه من المسجد حيث لا يعرف له مزار خلال أيام ، (وإن عدتم — رغم هذا الإجراء التعسفى — عدنا) كما يقول لسان حال السلطان .

وحين يجتمع مجلس الكنائس الأندونيسى ترى أسيعيدون النظر أم سيدعمون مخططهم من أجل تنصير أندونيسيا خلال خمسين عاما ، عن طريق السيطرة على مقدراتها ومقاليد أمورها . علم ذلك عند ربى ورب العباد [١] .

فهل أصحاب هذا النشاط يؤمنون بالفانشاسيلا ؟؟ .. !

نافذة أمل :

غير أن هذه الجهود التى صورت رفض المسيحين للفاتشاسيلا كأساس تقوم عليه إندونيسيا العلمانية قد وجدت واحدا من أبناء إندونيسيا أنفسهم يجابهونها وهو

---

(١) هذا التقرير قامت به هيئة علمية فى حاكارتا عام ١٩٧٦ م .

الجنرال عالم شاه وزير الشئون الدينية الحالى .

ولقد قابلته مع الوفد الذى أرسله فضيلة مولانا الإمام الأكبر الراحل الشيخ عبد الحليم محمود رضى الله عنه للمشاركة فى أعمال المؤتمر الأربعين للجماعة المحمدية . . وكان الوزير يومها غاضبا مما ينشر عن تنصير أندونيسيا بالصحافة العربية وذكر أنه بصدد قرار ملخصه :

١ – أنه لا يجوز نشر دين من الأديان وسط جماعة متدينة بدين من الأديان .

٢ – أنه لا يجوز نشر الدين بأساليب خداعة تستغل مواقف الضعف البشرى .

٣ – أن كل الخيرات والمعونات التى تقدم لأصحاب الأديان يجب أن تكون عن طريق الوزارة .

٤ – يوجه التبشير بالأديان داخل الجماعة غير المتدينة أصلا . .

وكان الوزير صادقا فيما وعدنا به فأصدر عدة قرارات وهى :

القرار رقم ٤٤ لسنة ١٩٧١ م ويتضمن :

عدم ضرورة الحصول على إذن مسبق من وزارة الشئون الدينية لإلقاء الأحاديث الدينية مادامت هذه الأحاديث لا تتعرض للتنمية الوطنية ولا تتعارض مع الفانشاسيلا ودستور عام ١٩٤٥ .

القرار رقم ٧٠ لسنة ١٩٧٨ .

يحرم على أى طائفة القيام بنشاط تبشيرى بين معتنق الديانات الأخرى سواء عن طريق تقديم هدايا أو توزيع نشرات أو الزيارات التى يقوم بها المبشرون للمنازل .

القرار رقم ٧٧ لسنة ١٩٧٨ .

لا تتم مساعدات من الحكومات الأجنبية أو الهيئات الأجنبية إلا عن طريق وزارة الشئون الدينية .

وهذه القرارات مهمتها تجميد النشاط التبشيرى العلنى وسط الأمة الإسلامية . . ولكنها لا تمنع من التبشير السرى الذى يملك فى الدولة سلطة من المخابرات والوزراء والقانونيين وأعضاء مجلس الشعب .

ومع هذا فقد رفض المسيحيون هذه القرارات ، وأعلن المسلمون الترحيب بها ففى يوم الأحد ١٧ من سبتمبر ١٩٧٨ م عقد دولة الدكتور محمد ناصر رئيس المجلس الأعلى الأندونيسى للدعوة الإسلامية مؤتمرا فى مسجد الفرقان بجاكارتا أعلن فيه موافقته على هذه القرارات وأيد مسلك الجنرال عالم شاه وأهاب بالأمة الإسلامية فى أندونيسيا أن يكون كل بيت من بيوت

المسلمين معقلا وحصنا للإسلام الحنيف .

وهكذا يتبخر الأمل من إنشاء دولة إسلامية فى أندونيسيا إلى نافذة صغيرة هى تلك القرارات التى تحمى بيوت المسلمين فى أندونيسيا من التنصير الكاثوليكى والبروتستانتى .

فلم يؤخذ المسلمون الرافضون لمبادئ الفانشا سيلا بحد السيف والإعدام والتشريد وهم أصحاب الجهاد المقدس الذى أحرزت به أندونيسيا استقلالها ؟

فى حين أن غير المسلمين شيوعيين أو قوميين أو مسيحيين يعادون الفانشا سيلا سلوكيا ومع هذا فهم المنعمون المالكون المتربعون على عرش الحياة فى أندونيسيا ؟ ؟ ؟

أمن العدل أن يعدم المجاهدون فى سبيل الحرية والاستقلال .

بينما ينعم الخونة بالحياة فى جو الحرية التى سعى إليها المسلمون المجاهدون ؟

إن نافذة صغيرة تفتح اليوم لتحمى بيوت المسلمين من مشاغبات التبشير سوف تكون فى الغد إن شاء الله شمس الإسلام الحنيف على دولة الإسلام فى أندونيسيا المعززة . . .

وإننا لنضم صوتنا إلى صوت السيد الوزير الجنرال عالم شاه كمرحلة تضىء الطريق ، ونضم صوتنا إلى صوت دولة الدكتور محمد ناصر لتقوم دولة أندونيسيا الإسلامية والله غالب على أمره إن شاء الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

وبالله التوفيق

دكتور رءوف شلبى

ابن المسيب

سمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة فى صلاته : وكان حسن الصوت وهو إذ ذاك أمير المدينة ، فرفع سعيد صوته وقال : أيها المصلى إن كنت تريد الله بصلاتك فاخفض صوتك ، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً فسكت وخفف ركعته ثم أخذ نعله وخرج .

دكتور رءوف شلبى

من مواليد الشرقية فى ٢٣/٩/١٩٣٠ .

تعلم بالأزهر حتى نال العالية التربوية عام ١٩٥٨ .

ثم حصل على العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٦٠ .

وحصل على ماجستير فى الدعوة الإسلامية عام ١٩٧٠ .

وحصل على الأستاذية (الدكتوراه) فى الدعوة الإسلامية مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٣ .

● عمل بالتدريس فى معهد طهطا بمحافظة سوهاج عام ١٩٦٠/١٩٦٢ م .

● نقل سكرتيرا علميا للدكتور الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية ١٩٦٢/ ١٩٦٤ م

● بعث من الأزهر إلى أندونيسيا وعمل مدرسا بكلية أصول الدين بسومطرة ١٩٦٤/١٩٦٨ .

● منح درجة الدكتوراه الفخرية فى الدعوة الإسلامية من كلية أصول الدين بسومطرة عام ١٩٦٨ م .

● بعث من الأزهر إلى ماليزيا عام ١٩٧٠ .

وأسس مركزا للبحوث الإسلامية وتولى إدارته حتى مايو ١٩٧٣ .

● عين مدرسا بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر فى ٣٠/٦/١٩٧٣ م .

● أسندت إليه أعمال رئيس قسم الدعوة بكلية أصول الدين بالقرار رقم ٢٦١ بتاريخ ٢٢/٤/١٩٧٥ .

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية

الدكتور / محمد شامة

(١)

– تمتد جذور اتصال الإسلام بأوربا المسيحية فى أعماق التاريخ حتى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) أى أن عمرها الآن يربو على ثلاثة عشر قرنا من الزمن ومع ذلك لم يزل الصراع متأججا بينهما ، وإن اختلفت أسلحته ، وتباينت أساليبه فهو أطول صراع دينى فى التاريخ ، دينى بكل معنى الكلمة ، وإن أطلق عليه البعض صراعا سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا ، لأن الكنيسة وإن تنازلت مكرهة عن التوجيه المباشر فى شئون الدولة العلمانية فى أوربا ، فإن تأثيرها لم يزل واضحا فى جميع مجالات الحياة فيها ، إذ كان من الممكن أن يهدأ الصراع السياسى ، لو تحول الشرق الإسلامى إلى المسيحية ، والدليل على ذلك ما حدث مع ألمانيا فى هذا القرن ؛ فقد شنت حربين عالميتين فى مدى نصف قرن على دول الغرب المسيحية ، ومع ذلك فقد انصب غضب أعدائها فى الحرب على أفراد معدودين فقط – وهم الذين شنوا الحرب بحكم موقعهم فى مراكز السلطة – واقتص منهم ، ثم ساعدوا – أى الطرف الآخر فى الحرب – الشعب الألمانى المسيحى على النهوض من كبوته ، لإصلاح مادمرته الحرب ، ولو فعل الشرق مثل مافعلت ألمانيا ، لأبيدت شعوبه إبادة كاملة ، لأنها تدين بدين غير المسيحية ، تدين بذلك الدين الذى غرست الكنيسة الأوربية فى أتباعها غريزة الكره له ، بما نشرت عنه من معلومات خاطئة ، وبما صورته لهم بصورة تنفرهم منه ، وتدفعهم إلى معاداته ، والعمل على محاربته ، وملاحقة أبنائه أينما كانوا ، وحيثما وجدوا . تدفعهم إلى محاربتهم اقتصاديا ، لأنهم لو انتعشوا فى هذا المجال لأصبحوا خطرا على أوربا .

– هكذا قالت لهم الكنيسة ، وعلمتهم إياه مدارسهم المسيحية ، وأكدته لهم مؤلفات كتَّابهم ، لتدفعهم إلى بذل الجهود على كل المستويات – فى مجال الثقافة

والإعلام ، وبين أوساط السلطة التشريعية والتنفيذية – لتغيير النظم الاجتماعية القائمة على أساس من الشريعة الإسلامية ، تمهيدا لتحويل المجتمع إلى اعتناق وتطبيق النظم الأوربية ، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك – هكذا لقنتهم الكنيسة الأوربية – لبقى اتصال هذه الشعوب بالإسلام قويا ، وربما ازدادت قوته يوما بعد يوم ، فيصبحون مصدر تهديد للعالم الغربى .

– وما قلق العالم الغربى لما يحدث فى إيران ، ولما يدور فى الشرق من المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، إلا انعكاس لما رسخ فى أذهانهم – عبر الأجيال الماضية – من الفزع والرعب من عودة الحياة إلى الإسلام ، كنظام شامل للفرد والمجتمع ، نتيجة لدعاية الكنيسة – عن الإسلام وأهله .

– فالصراع السياسى والعسكرى والاقتصادى والاجتماعى يقوم على أساس دينى ولهذا اتجه المفكرون فى الغرب إلى دراسة الدين الإسلامى ، والكتابة عنه ، غير أن الحديث عن الإسلام فى الأوساط الفكرية فى الغرب سار فى قنوات متعددة ، خرج من منبع واحد ، هو تعصب الكنيسة وحقدها على الإسلام ، ويبغى هدفا واحدا ، ألا وهو القضاء على هذا الدين .

وإن لم يمكن ذلك ، فلا أقل من السيطرة على أتباعه ، ومحاولة إضعاف الصلة بينهم وبين عقيدتهم .

– وبين المنبع والهدف اختلفت الأساليب . . وتعددت المناهج :

فآباء الكنيسة اتخذوا الهجوم المباشر أسلوبا ، وتشويه الحقائق منهجا ، فجاءت كتاباتهم عن الإسلام مخالفة للواقع ، طافحة بمظاهر التعصب ، والتحامل ، مما جعل الإسلام يبدو للأوربيين – حين كانت الكنيسة هى المصدر الوحيد للمعرفة – مخيفا ، والمسلمين وحوشا .

– أما المستشرقون (وهم القائمون على كراسى الدراسات الاستشراقية فى الجامعات التى كان الهدف من إنشائها خدمة المستعمرين لأنهم كانوا - وما زالوا – مستشارين لحكوماتهم فى شئون الدول الإسلامية) فقد ادعوا أنهم ينهجون المنهج العلمى الحديث فى الدراسات الإسلامية ، لكن بحوثهم دارت فى دهاليز التعصب ضد الإسلام ، لأن اللاوعى عندهم ملىء بما غرسته الكنيسة فى عقول أسلافهم [1] ومن

---

(١) بدأت حركة الاستشراق فى القرن العاشر الميلادى من الفاتيكان ، فقد كان رجال الدين – وهم تابعون للكنيسة آنذاك – يكونون الطبقة المتعلمة فى أوربا ، فاتجه منهم أناس لتعلم اللغة العربية ليتمكنوا من المجادلة مع فقهاء المسلمين . وقد حمل الفرنسيسكانيون =

الإنصاف القول بأن الطابع العام عندهم أقل حدة مما كتبه آباء الكنيسة ، وبأنه ظهر بينهم أفراد التزموا الحياد العلمى فى بعض جوانب بحوثهم ، لأنه لا يوجد عالم يستطيع أن يتخلص كلية من آثار مجتمعه الثقافى .

– ويلى المستشرقين كتابُ القصص والروايات ، وهؤلاء يعتمدون فى تصوير أبطالهم وشخصيات رواياتهم على ما كتبه الرحالة ، وآباء الكنيسة والمستشرقون ، أما المصدر الأول – وهم الرحالة – فقد غلب عليهم خيال جامح ، وخاصة فى القرون الوسطى ، ولاننسى رائدهم «ماركوبولو» (١٢٥٤ – ١٣٢٣م) الذى دون رحلته إلى الشرق فى جزأين ، حشاهما بغرائب الثراء والأخلاق والأديان ، ولايقل عنهما ما جاء فى رحلة «شاباى» من ضلالات لايصدقها عقل بشر ، مثل قوله :

«إن للشرقيين ثمانية أنامل ورأسين»

والمصدران الأخيران لم يقدما لكتاب القصص سوى صورة مهلهلة ، ممزقة عن الإسلام فخرجت القصص والروايات بلوحة عن الإسلام والمسلمين ، طمست معالمها ، وشوهت جوانب الجمال فيها ، ومحيت معالم الإنسانية من خطوطها وألوانها .

– فإذا هيأت الظروف لواحد منهم الاطلاع على مصادر إسلامية ، موثوق بها ظهر انعكاسها باهتا فى رواياته وقصصه ، لأن هذا التأثير العابر ، لايمكن أن يمحو أثرا رسخ فى ذهنه منذ طفولته ، وواكبه فى مراحل عمره ، ولازمه فى حله وترحاله ، إذ معرفته عن الإسلام فى طفولته من أبويه – ومصدر ثقافتهما عنه فى الغالب الأعم من كتابات آباء الكنيسة والمستشرقين – وفى المدرسة من مدرس لم يكن أوفر حظا منه فى استقاء معلوماته عن الإسلام ، وفى المجتمع من الصورة المشوهة ، التى رسمتها عدة مصادر ، تساندت كلها فى تشويه صورة الإسلام للمجتمع الأوربى ، كى تحول بينه وبين التحول إلى الإسلام .

– وهناك فريق آخر ، كتب عن الإسلام ، ولم يكن الدافع له موقعه فى الكنيسة أو عمله كمستشرق ، كما أنه ليس من هواة كتابة القصص عن الشرق المليء بالأحداث التى تستهوى قطاعا كبيرا من القراء – كقصص «كارل ماى» – ولكنه

= والدومينيكانيون لواء هذه الدراسة . وكان طابع العصبية واضحا فى بحوث هؤلاء ، ثم ازدادت أهمية هذه الدراسة بعد الحروب الصليبية ، وبلغت ذروتها فى أيام الاستعمار حيث كان المستشرقون يعملون مستشارين فى وزارة المستعمرات .

كتب عن الإسلام إشباعا لرغبة البحث عنه ، وتعبيرا عن غريزة الكتابة لديه ، ليسهم فى بناء حضارة أمته وليصحح بعض المفاهيم الشائعة بين بنى قومه – من وجهة نظره – حتى يستقيم بناء المجتمع ، ويشتد أزر الأمة ، وتتجنب الزلل فى تقدمها على طريق الزمن .

– ويضم هذا الفريق فلاسفة ، واجتماعيين ، وسياسيين ، واقتصاديين ، ورجال إعلام وقد تناول كثير منهم الإسلام فى بحوثه ، بعضهم عالجه ، كجزئية ضمن عديد من قضايا بحثه بينما احتل صفحات كثيرة عند الآخرين ، غير أن عددا من الباحثين العصريين كتب مؤلفات ضخمة – وصل بعضها إلى عدة مجلدات – عن الإسلام ، تختلف فى طابعها ومنهجها عما كتبه المستشرقون وآباء الكنيسة فى العصر الوسيط ، إذ يغلب عليها رغبة المؤلف فى التزام الموضوعية ، والبعد عن مهاترات آباء الكنيسة وترهات المستشرقين ، لكن ظروفه الاجتماعية والثقافية منعت تحقيق هذا الهدف على الوجه الأكمل ، فهو وإن تشرب بروح النهضة الحديثة ذات الطابع العلمانى إلا أنه مشدود بجذور ثقافية ، ضاربة فى أعماق التاريخ حتى الحروب الصليبية – إن لم تكن أقدم من ذلك – ومكبل بسلاسل إعلامية – سواء كانت إذاعية ، أو صحفية ، أو نشرات دورية ، أو كتب ثقافية ، وتخصصية – تحجب عنه الجانب الإيجابى فى الإسلام ، وتصوره له بصورة تنفره منه ، وتبعده عنه إذا ما اقترب يوما من الإسلام بفعل الموجات الليبرالية ، التى اجتاحت أوربا فى العصر الحديث .

– إن من المستحيل أن يستطيع الأوربى خلع رداء نسجته عصور طويلة من الحقد والكراهية والكيد للإسلام ، ومن يطلب ذلك ، فهو غير مدرك لطبيعة الإنسان والظروف التى كونته ثقافيا وأخلاقيا ولذا فإذا وجد كاتب يعترف للإسلام بجانب إيجابى فى المجتمع ، فعمله خطوة أولى على الطريق لمعرفة الإسلام ، دفعته إليها ظروف ، اختلفت عن الظروف التى عاشها أسلافه وعلى المسلمين إزاء هذه الظاهرة مراعاة الحقائق التالية :

١ – لاينبغى أن ينخدع المسلمون ، إذا ما قرأوا جملة إنصاف من كاتب ، فيعدوه – بناء على هذه الجملة – من المشيدين بالإسلام ، والمنصفين له ، لأن ذلك يضر بالدعوة الإسلامية ، حيث تؤثر أفكاره السلبية – وما أكثرها – على من يقرأون له بعد سماعهم الحكم عليه بأنه من المنصفين للإسلام .

٢ – لايوجد كاتب أوربى وضحت عنده الصورة الكلية للإسلام (باستثناء عدد قليل جدا منهم (جوستاف لوبون)، (ومحمد أسد الذى اعتنق الإسلام) وإنما هى ومضات أضاءت لهم بعض جوانب الطريق، وعلى المسلمين – إن هم أرادوا خدمة الإسلام – أن يساعدوا أمثال هؤلاء على كشف ما حجب عنهم بفعل الصراع الدينى الذى استمر قرونا طويلة، فإن تقاعس الدعاة عن هذه المهمة، فلا ينبغى أن ينتظر من كاتب أوربى، محاط بالظروف التى شرحناها آنفا، أن يلتزم الخط الإسلامى من أوله إلى آخره.

٣ – ظهرت مؤلفات كثيرة عن الإسلام فى القرن العشرين، تعرض الكتاب فيها لعناصر القوة فى الإسلام سواء من الناحية : الاستراتيجية – جغرافية، ومادية وبشرية – أو من الناحية الروحية، وواجبنا بيان هذه النواحى لشبابنا حتى نخلصه من عقدة الشعور بالضعف وتحريره من الاعتقاد الخاطئ بأن سبب ضعفه، راجع إلى انتمائه للإسلام، كما نحاول الاستفادة من هذه العناصر لنبنى قوة عالمية إسلامية، تقف على قدم المساواة مع القوى الأخرى.

٤ – كما ظهرت مؤلفات أخرى، تناولت حياة النبى ﷺ وتاريخ الإسلام بالشرح والتحليل كما تعرضت للقرآن الكريم فى أحكامه وتعاليمه بالبيان والإيضاح وسواء كان الغرض من نشر هذه الكتب تعريف الشعوب الأوربية بهذا الدين، الذى يزداد تأثير أتباعه فى مجال السياسة الدولية يوما بعد يوم، أو تحذيرهم من سيطرة المسلمين على مصادر الطاقة، فإن على المسلمين تحليل هذه الكتب، وتمييز الأفكار الطيبة فيها للثناء على موقف صاحبها فى هذا المجال، من الأفكار الخبيثة للرد عليها وتصحيحها، لعل كاتبها يرجع عن رأيه، وإلا فلا أقل من تقديم القول الفصل فيها للقارئ.

٥ – لاينتظر أن تتحول أوربا إلى الإسلام – رغم ما يقال وينشر عن إسلام واحد هنا وآخر هناك، ورغم ما ينشره السذج من أن أوربا تبحث عن الروحانية التى فقدتها ولن تجدها إلا فى الإسلام، وسوف نصحو يوما (هكذا يحلمون) فنجدها مسلمة من أدناها إلى أقصاها – إلا إذا تهيأت الظروف لذلك، وليس هذا سهلا، فهو يتطلب :

– بناء قوة إسلامية عالمية (اقتصادية – وسياسية – وعسكرية) بحيث تكون غير خاضعة لقوى أخرى فى اتخاذ القرارات الدولية.

– نهوضا بمستوى الفرد فى المجتمعات الإسلامية ، بحيث يفوق مستوى الفرد الأوربى ،

– دعما ماديا غير محدود للمراكز الثقافية – فى البلاد الأوربية – وإسناد قيادتها للقادرين على القيام بمهام الدعوة ، لا لمن يسعى لغنم دنيوى .

– يجب على المسلم مراعاة هذه الحقائق ، عندما يسمع كلمة مدح فى الإسلام ، أو يقرأ هجوما عليه ، كما ينبغى على مراكز الدعوة أن تضع نصب أعينها متطلبات دراسة الظواهر الفكرية ، عندما تدرس لأبنائها طرق وأساليب نشر الدعوة فى بلاد غير إسلامية ، ولا يجوز لها أن تقرأ عليهم كلمات المدح ، التى قالها مفكرون غير مسلمين ، وتحجب عنهم ما وقع فيه هؤلاء المفكرون من أخطاء فى حق الإسلام ، لأن الداعية يحتاج إلى معرفة النوع الأول ، للاستشهاد به على هداية الفكر البشرى إلى الحق ، كما يجب عليه دراسة النوع الثانى للرد عليه ، حتى لايستفحل خطره بين المسلمين وغير المسلمين ، وسوف تكون هذه هى طريقتنا فى تحليل المؤلفات الأوربية . التى سنعرضها هنا وأولها كتاب بعنوان : « الإسلام قوة عالمية متحركة » كتبه باللغة الألمانية : « هربرت جوتشالك » فى ٣٠٤ صفحة بالبنط الصغير ، كما احتوى الكتاب على أكثر من أربعين صورة فوتوغرافية لأشهر المساجد والشخصيات الدينية ، وكذلك للمسلمين وهم يؤدون الشعائر الدينية .

– والمؤلف ليس من آباء الكنيسة ، ولا من المستشرقين ، بل هو كاتب وصحفى قدمه الناشر بقوله : ولد « هربرت جوتشالك » فى ١٩١٩/٦/٩م ونشأ فى جنوب بروسيا ، بدأ حياته الجامعية بدراسة الطب ، واستمر فيها حتى وصل إلى ما قبل الامتحان النهائى ، حيث استدعى للخدمة الإجبارية فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، أصيب على الجبهة الشرقية ، فترك دراسة الطب ، واتجه إلى دراسة الفلسفة وعلم النفس والتاريخ والأدب ، اشتغل بالصحافة والأدب لمدة سبع سنوات ، جاب فيها دول البلقان ، وكتب كثيرا من المقالات والكتب ، ومن أشهرها كتاب « الإسلام قوة عالمية متحركة » (فى عام ١٩٦٢ – وهو العام الذى ظهر فيه الكتاب فى إحدى دور النشر فى ألمانيا الغربية) .

– فإذا لم يكن قسيسا يدفعه مركزه فى الكنيسة إلى تشويه صورة الإسلام حتى لاتفقد الكنيسة أتباعها واحدا بعد الآخر نتيجة تحولهم إلى الإسلام .

– وإذا لم يكن مستشرقا يبدو ظاهر عمله أبحاثا أكاديمية ، وباطنه أسلوبا من أساليب تمكين الاستعمار فى العالم الإسلامى .

– فما الدافع له إذن ، إلى الكتابة عن الإسلام ؟

يجيب الناشر عن هذا فى نشرته عن الكتاب فيقول :

«كيف يكون ممكنا أن تقوم اليوم هيئات تبشيرية فى قلب العالم الغربى المسيحى ، تدعو إلى الإسلام ؟ هل توجد سفينة نوح إسلامية ؟ (يقصد بذلك أن الإسلام ينقذ الغرب من فراغه الدينى ، كما أنقذت سفينة نوح من آمن بدعوته من الغرق) وما هى المبادئ الروحية والفكرية التى تقدمها هذه العقيدة ؟

– ظهر الإسلام لأول مرة كقوة عالمية متحركة فى القرن السابع الميلادى ، ووصل إلى أبواب فيينا مرتين : الأولى فى الحروب الصليبية ، والثانية : فى عام ١٦٨٣م ، ولكن الأوربيين تمكنوا فى اللحظة الأخيرة من صده ، ومنع تحويل القارة كلها – حتى بحر الشمال والبحر البلطيق – إلى الإسلام . واليوم لايحمل الإسلام السيف . . ولكن الدعوةإليه تزداد كل يوم ، وتتطور أشكالها.

– ويحتم علينا هذا الانتشار العالمى للإسلام – وكذلك الحقيقة الثابتة – بأن الإسلام بأتباعه البالغين (٩٠٠)[١] مليون مسلم ، يمثل القوة العقدية الثانية فى مواجهة الـ ١٠٠٠ مليون مسيحى فى العالم – أن نتعمق فى دراسة تاريخ الشرق الدينى ، وفلسفته وتصوفه وحضارته وفنه .

– وينطلق المؤلف فى بحثه من هذه القاعدة ، فيصور لنا طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ثم يتعرض لحياة النبى ﷺ وللتعاليم التى خلقها لأتباعه كما يتتبع الكتاب بالبحث الانتفاضة السياسية للشعوب الإسلامية حتى منتصف القرن العشرين ويلقى الضوء على تاريخ الحضارة والفن والفلسفة الإسلامية ، ثم تناول بالبحث :

– مدى قدرة الإسلام على اقتلاع جذور المشكلة التى تهدد الإنسان روحيا وفكريا وتقديمه للإنسانية الضائعة نظاما أخلاقيا ينقذها من الانهيار الأخلاقى .

– ومدى التقاء الإسلام الشرقى ، للظروف الغربية المهددة !

– ويفهم من هذا أن الدافع إلى كتابة هذا الكتاب هو ظهور الدعاة إلى الإسلام

---

(١) لقد صححنا الرقم الذى كتبه المؤلف طبقا لـلإحصائيات الأخيرة فى العالم بالنسبة للإسلام والمسيحية

وقيام المراكز الإسلامية فى الغرب ، وخوف المتعصبين للمسيحية من انتشار الإسلام هناك خاصة وأن المجتمعات الغربية تعانى من أزمة دينية وأخلاقية ، فقد أزعجهم : انتشار المراكز الإسلامية فى المدن الأوربية الرئيسية .

« انتشرت فئات من هيئات التبشير فى دول أوربا ، فى هامبورج ، وفرانكفورت ونورمبرج ، ولندن وزيوريخ ، وحتى فى بودابست ، وقد تبلور نشاطها فى تمويل بناء مساجد على أحدث طراز ، وإنشاء مراكز صحفية وثقافية »[1]

واهتمام المسلمين بنشر الإسلام فى إفريقيا :

« وفى عام ١٩٦١ أعلنت الحكومة المصرية عن عزمها تعيين ملحق دينى فى كل سفارات مصر فى إفريقيا ، وينبغى ألا يقتصر نشاطهم على عملهم الرسمى ، وهو الاستشارات الدينية فى السفارة ، بل هم مكلفون أيضا بنشر الإسلام فى أفريقيا[2] وازدياد النشاط الإعلامى للإسلام » :

« كذلك البرنامج الإذاعى « صوت الإسلام » لعله يقصد بذلك : (إذاعة القرآن الكريم) الذى أنشىء فى القاهرة يذيع البرامج الدينية والسياسية فى آسيا وإفريقيا السوداء[3] .

لابد لنا هنا من وقفة قصيرة ، لنجلو حقيقة الظاهرة ، التى تغيب عن كثيرين ألا وهى أن بعض المسلمين المهتمين بالدعوة الإسلامية - وكذلك بعض الحكومات التى تفتقر إلى تأييد الجماهير - يعلنون دائما عما يدور فى ذهنهم من مشروعات لنشر الدعوة سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى وغالبا ما تكون هذه المشروعات أفكارا فقط - أو دعاية لغرض ما - لم تخرج إلى حيز التنفيذ . وقد لاتخرج إطلاقا ، كما حدث فى مسألة تعيين ملحق دينى فى السفارات المصرية فى إفريقيا ، لكن الغرب يرصد كل همسة فى العالم الإسلامى ، فإذا سمع بمثل هذه الأنباء سارع إلى تجنيد الخبراء والباحثين لدراستها من كل الجوانب ، والعمل على وأدها - ومن أساليب الوأد إبعاد الشخص المتحمس لها عن موقع اتخاذ القرار - إن كانت هناك جدية فى تنفيذها ، وأقرب مثل على ذلك ما حدث فى أوربا عندما ناقشت لجان فى مجلس الشعب المصرى مسألة تطبيق

---

(١) مقدمة المؤلف ص ٩

(٢) المصدر السابق ص ٩

(٣) المصدر السابق ص ٩

الشريعة الإسلامية[١] فقد كتبت الصحف تنذر وتحذر ، وجاء العديد من المندوبين يستفسرون ويستطلعون ، وقابل الباحثون – الذين أرسلوا خصيصا لهذه المهمة – كثيرا من علماء الدين وناقشوهم فى مدى إمكانية – وجدية – تطبيق الشريعة الإسلامية فى العصر الحاضر

– أما المراكز الإسلامية – المنتشرة فى العالم فأغلبها لا يمثل وجهة النظر الإسلامية – لأنها تابعة للمذهب القاديانى ، وهو مذهب منشق على الإسلام ، ونظرة سريعة على القائمة التى أوردها المؤلف[٢] يتبين لنا أنها قاديانية :

Deutschland :

Mission des Islam. Hamburg 13. Oderfelder Str. 18.

Ahmadiyya-Mission des Islam. Hamburg-Stellingen. Wieckstr. 24.

Ahmadiyya-Mission des Islam. Frankfurt A.M. Babenhäuser Landstr. 25.

Mission des Islam. Berlin-Charlottenburg, Moschee.

Niederlande :

Ahmadiyya-Mission des Islam.Josef-Israels-Laan 48, Den Haag.

Ahmadiyya-Mission des Islam, Oostduinlaan 79. Den Haag.

Grossbritannien :

The London Mosque, 63 Melrose Road. Southfields SW. 18. London

Mr. Bashir Ahmad Orchard, 36 Mansion House Road. Glasgow Scotland.

---

(١) وكذلك ردود الفعل التى تجتاح أوربا فى هذه الأيام نتيجة لأحداث إيران فقد انطلقت أجهزة الإعلام فى تصوير هذه الأحداث بصورة شبح مخيف أطلقت عليه اسم «الحركة الإسلامية الجديدة» وأحيانا تتهذب فى تعبيرها فتسميها «يقظة المسلمين»

ولم تقتصر ردود الفعل على تعبيرات انفعالية تذيعها أجهزة الإعلام ، بل تجاوزت الحملة ذلك ، فوصلت إلى هيئات رسمية ، ففى اجتماع عقدته مجموعة الدول الأوربية فى بروكسل منذ أيام ، تقرر أن يعقد اجتماع قريب لبحث المشكلة ، التى ظهرت فى هذه الأيام . . وهى مشكلة «يقظة المسلمين»

كذلك يسهم فى تأجج نار هذه الحملة شخصيات ، لها وزنها فى المجال السياسى الدولى مثل «هنرى كسينجر» اليهودى – وزير خارجية أمريكا السابق – فهو يقوم بدور كبير فى حملة التخويف بهذه اليقظة الإسلامية التى يتحدثون عنها ، ومما قاله فى تصريحاته الأخيرة ، إن العالم يجب أن يتيقظ أيضا ، ويتنبه إلى الأخطار التى تهدده من وراء قيام حكومة دينية فى إيران .

أما الصحافة . . أوربية وأمريكية . . وربما فى جميع أنحاء العالم – لأنها تستقى أخبارها ومعلوماتها مما تنشره وكالات الأنباء الكبرى التى تثير هذه الحملة الضارية فإنها مليئة بالأخبار والمقالات والإحصائيات والبيانات عن خطر هذه الحركة الإسلامية الجديدة «أخبار اليوم بتاريخ ١٩٧٩/٢/٣

ولعل هذه الحملة توقظ الذين يحلمون بأن أوربا أصبحت قاب قوسين أو أدنى من اعتناقها الإسلام من نومهم وتزيح عن أعينهم غشاوة السذاجة الفكرية فيخططون للدعوة تخطيطا سليما .

(٢) ص : ٢٩٢ – ٢٩٣

Spanien :

Ahmadiyya Movement. Lista 78, Madrid.

Ahmadiyya Movement. C. Ciudad Real 12. Madrid.

Schweiz :

Ahmadiyya Mission des Islam, Beckhammer 35, Zürich.

Ahmadiyya Mission des Islam F.D. Schweiz und Österreich. Herbstweg 77. Zürich.

Norwegen :

Ahmadiyya Mission des Islam. Tromsögt 19 Oslo.

U.S.A.

2141 Leroy Place. N.W. Washington 8 D.C.

4448 Wabash Ave. Chicago 15. III.

613 Locust Street. St. Louis I. Missouri.

2522 Webster Ave., Pittsburgh 19. Pa.

115 W. 116th.. Suite 2. New York 24. N.Y.

118 W. 87th. St. New York 24 N.Y.

1440 N. Curson St. Los Angeles 46, Calif.

Und 13 Weitere Missionen in Amerika.

West Afrika :

The Ahmadiyya Mission House. P.O. Box 418 Lagos / Nigeria.

sowie 32 weitere Missionen in Nigeria.

Ahmadiyya-Movement, P.O. Box 39, Salt Pond, Ghana.

Ahmadiyya-Movement, P.O. Box 11, B.O., Sierra-Leone.

Ahmadiyya-Movement. P.O. Box 167, Monrovia Liberia.

sowie weitere 43 Missionen in Sierra-Leone.

Ost-Afrika :

Ahmadiyya-Movement. P.O. Box 554, Nairobi Kenya.

sowie 12 weitere Missionen.

Mittlerer Osten :

Ahmadiyya-Movement. Shaghour Damaskus / Syrien.

Ahmadiyya-Movement, Mount Carmel. Haifa / Israel.

Ahmadiyya-Movement. Rose Hill, Mauritius und 4 weitere Missionen in Maurilius.

Ahmadiyya-Movement. 28 Mosque Road, Negombo / Ceylon.

Ferner Osten :

Ahmadiyya-Movement, III. Onnan Road, Singapore Malaya.

Ahmadiyya-Movement, Balakang Ole, 22 Padang, Sumatra / Indonesien.

Ahmadiyya-Movement, Petodtjo ud, Gang VII. No. 10 Djakarta, Java / Indonesien.

sowie 47 weitere Missionen in Indonesien.

Ahmadiyya-Movement, P.O. Box 30, Jesselton, North Borneo.

sowie 4 weitere Missionen auf Borneo.

Missionen :

Burma: 1 Mission / Dänemark: 1 Mission / Frankreich: 2 Missionen / Ghana: 247 Missionen / Libanon: 1 Mission /

Liberia: 1 Mission / Norwegen: 1 Mission / Schweden: 1 Mission / Sierra-Leone: 44 Missionen / Singapur: 1 Mission Trinidad: 2 Missionen / Ungarn: 1 Mission.

فهى لاتنشر المبادىء الإسلامية صحيحة : بل ممزوجة بتعاليم مسيحية ، ومع ذلك ينزعج الغرب منها ويعدها هجوما عليه فى عقر داره ، ولو اطلع هؤلاء المنزعجون على خلفيات إنشاء هذه المراكز لظهر لهم أنها أقيمت بمساعدة الحكومات الاستعمارية ، لتشوه مبادئ الإسلام الصافية للمواطن الأوربى حتى تقيم الحواجز بينه وبين اعتناقه الإسلام .

– أما المراكز غير الأحمدية - سواء كانت تخضع رسميا للحكومات الإسلامية – أو كانت تمول فقط من أموال المسلمين – فهى قليلة بالنسبة للمراكز الأحمدية ، أضف إلى ذلك أنها لاتقوم بواجبها كما ينبغى ، إذ تتحكم فى تعيين القائمين على المراكز الحكومية أغراض شتى ، ليس منها الحرص على نشر الإسلام فى بلاد غير إسلامية ، كما تخضع المراكز غير الحكومية لأهواء متعددة ، ولذا فالخلاف بينها قائم والنزاع مستمر ، والمصادمات تتعدى حدود المهاترات الكلامية .

– أما إذاعة القرآن الكريم ، وإن قامت بجهود لابأس بها ، فهى لم تبلغ بعد المستوى الذى ينبغى أن تصل إليه إذاعة تتحدث باسم الإسلام وسط تيارات إعلامية عالمية جبارة ، تيارات تتحدى وتهاجم وتنقض على الإسلام أينما ، وحيثما وجد صوت يقول : «لا إله إلا الله محمد رسول الله »

– ورغم هذه الصورة الباهتة للإعلام الإسلامى ، فإن الغرب ينزعج عندما تحمل موجات الأثير إلى أذنه كلاما عن الإسلام ، لأنه يعرف قوته ، ويدرك إمكاناته الخلاقة ، إذا ماحمله رجال مخلصون ، يؤدون دور أسلافهم بأمانة وإخلاص ، وقد عبر عن هذا «باول شتمز» بقوله :

«سيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق ، عودا على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة العالمية الإسلامية فى الصدر الأول للإسلام ، وستظهر هذه القوة ، التى تكمن فى تماسك الإسلام ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها ، إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها ، والاستفادة منها ، وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لاتتوافر فى غيرها من تيارات القوى العالمية »

– أدرك المفكر البريطانى «جورج

برناردشو» مدى فاعلية هذه القوة - معارضا بذلك كثيرا من الأحكام السطحية عليها - حين كتب :

«لايساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام ، لاينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه ، من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى ، بأن الإسلام فقد سيطرته على بغض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث .

- لا أستطيع أن أدرك ، لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى مافاته فى هذا الميدان ؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الإلمام بها والتفوق فيها إلى الخبرة ، وتوجيه الخبراء . ومن الأمور المؤكدة أنه غالبا ما يحدث أن تكون حضارة أخرى ، ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى ، أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال ما بلغته الأولى .

- إذاً فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة فى المستقبل سيدا على شعب آخر ، استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره - فلم ينقذه أحد - وتحكمت فى سلوكه النظريات ، التى تسلب الإنسان الإحساس بالطبيعة .

- لماذا لايتعلم العالم الإسلامى ماتعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ وفى مقابل هذا سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية - وهو من العوامل الأساسية لوحدة أوربية - التى فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها . .[1]

-كانت هذه القوة هى إحدى الدوافع ، التى دفعت «جوتشالك» لكتابة مؤلفه : «الإسلام قوة عالمية متحركة» كى يبين لبنى وطنه مراكز القوة فى الإسلام ، فهو يقول : «لاينبغى للمرء أن ينسى أن الإسلام استولى على تراث العصر الكلاسيكى ، فهضمه بأسرع ما يمكن ، ثم طوره ، ومزجه بتعاليمه الخاصة - بحيث لم يستحسنها المتدينون فحسب ، بل يميل إليها كثير من العلمانيين - فصاغه فى صورة إسلامية بحتة ، بحيث أصبح تعبيرا عن ذاتية إسلامية ، لها صفة الدوام والاستمرار ، إذ لم تبل قوته الروحية ولاتأثيره الشامل على الغرائز الإنسانية ،

(١) الإسلام قوة الغد ص ٣٢٣ .

ولاتصوفه المهيمن على أتباعه . . . لم يبل كل هذا على مدى تاريخ تطور مجتمعاته ، كما هو الحال فى الأديان الأخرى ، بل احتفظت بفاعليتها دائما ، حتى فى أثناء قرون الانتكاسة التاريخية لشعوبه ، بل زادت أخيرا فى فترة ضعف الناحية الروحية بين شعوب العالم الغربى . ولكى نبين مدى حتمية هذه القوة وترابطها جغرافيا وإنسانيا ، ينبغى أن نوضح كل خلفيات هذه العقيدة . . وبالإضافة إلى هذا نطرح على مائدة البحث التساؤل عن مركز القوة الشاملة فى الإسلام أو عن المبادئ ، التى يمكن أن تنقذ البشرية ، لأن معالجة هذا التساؤل سوف يبين عما إذا كان من الممكن – كما يدعى المسلمون – أن تنمو الناحية الروحية فى المجتمع بواسطة الالتزام بهذه العقيدة ، وتطبيق نظامها الاجتماعى . وعما إذا كانت قوة الإسلام الإصلاحية ، لاتزال لها الأثر الفعال فى المجتمع المعاصر[1] .

– الغرب مهدد بانهيار أخلاقى ، والإسلام يقف شامخا بين هذه التيارات الهدامة المتصارعة ، له ماض مشرق فى إنقاذ المجتمعات من الانحدار فى أودية الهلاك ، ومع ذلك يخشى الغرب أن تحل تعاليمه محل دين الكنيسة ، فتظهر المؤلفات تحمل طابع البحث العلمى المحايد ، وتستهدف وقف المد الإسلامى بين شعوب الغرب ، فهى ذات وجهين :

أولهما :

رغبة الكتاب – ومنهم مؤلف كتاب « الإسلام قوة عالمية متحركة » فى شرح وتحليل مبادئ الإسلام دون التحامل عليه ، وهى ظاهرة لم تكن موجودة فى العصور السابقة ، غير أن ثقافتهم وخلفيتهم الاجتماعية ، تقودهم إلى عدم فهم بعض التعاليم الإسلامية أو إلى معالجتها من وجهة النظر ، التى اكتسبوها من دراستهم ومجتمعهم ، فيهووا إلى ساحة ينسون فيها ما لقنتهم إياه النهضة الحديثة من الالتزام بالواقعية فى البحث ، والتحرر من العواطف والانفعالات فى الحكم على الأشياء.

ثانيهما :

محاولة إظهار أن بعض تعاليم الإسلام تتعارض مع متطلبات العصر الحديث ولذا فهى لاتصلح كلها للتطبيق فى المجتمع المعاصر.

– وسوف نبين فى عرضنا كلتا الناحيتين ، مع الرد على مزاعمهم ، وتصحيح ما وقعوا فيه من أخطاء.

د . محمد شامة

(١) ص ١٠ – ١١

المد الإسلامى لا جزر له

الأستاذ / محمد كمال السيد

مولد الرسول عليه الصلاة والسلام . ومبعثه وعمره :

وُلد عليه الصلاة والسلام فى عام الفيل فى صباح الاثنين ٩ ربيع الأول (٢٠/٤/٥٧١م) طبقا لما حققه العالم محمود باشا حمدى الفلكى فى كتابه (التقويم العربى قبل الإسلام من ص ٣٣ – ص ٤٤ إصدار مجمع البحوث الإسلامية) . وبنى تحقيقه على أن غرة ربيع الأول من تلك السنة فى مكة وافقت فلكيا الأحد ١٢ أبريل وعلى الحديث الشريف عن يوم الاثنين (ذلك يوم وُلدت فيه ويوم بُعثت – أو أنزل علىّ فيه) وروايات المؤرخين المسلمين قد اختلفت فى تاريخ المولد بين ٨ و ١٠ و ١٢ ربيع الأول . ولا يوافق يوم الاثنين غير ٩ ربيع الأول .

وكانت العرب لاتستعمل غير التقويم القمرى البحت . كما أثبت العالم المذكور والوحى نزل على الرسول عليه الصلاة والسلام فى الأربعين من عمره . ومكث فى مكة بالدعوة الإسلامية ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة إلى المدينة فيكون تاريخ المولد الاثنين ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ ق . هـ

وأُنزل القرآن فى شهر رمضان بنص الآية الشريفة ١٨٥ من سورة البقرة (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وغرة المحرم سنة ١٣ ق . هـ توافق ٣ ديسمبر سنة ٦٠٩ م . فيكون أول رمضان س ١٣ ق . هـ يوافق ٢٧/٧/٦١٠م . وتبقى معرفة أى الأثانين من شهر رمضان المذكور نظرا للحديث الشريف المذكور وهذا مبحث آخر قد نعرض له فى فرصة أخرى بأذن الله .

وأود أن أشير هنا أن المرحوم محمود باشا حمدى الفلكى قد ذهب فى كتابه المذكور (ص ٦٠) أن بدء الرسالة المحمدية كان فى تمام الأربعين سنة قمرية من عمره عليه الصلاة والسلام . فيكون فى ٩ ربيع الأول سنة ١٣ ق . هـ . الموافق أول فبراير سنة

٦١٠ م . واستدل على رأيه أن الرسالة قد نزلت فى زمهرير الشتاء بالسورة الكريمة (يأيها المدثر)

وفى هذا الرأى عدة أخطاء أولها خطأ حسابى فيوم ٩ ربيع الأول ١٣ ق . هـ يوافق ٨ أو ٩ فبراير سنة ٦١٠ م . وليس أول فبراير . والثانى أنه ليس هناك ما يقطع بأن الوحى نزل على الرسول عليه الصلاة والسلام فى تمام الأربعين سنة قمرية من عمره بالضبط والثالث أن هناك خلافا بين المفسرين فى أولى سور القرآن فى النزول بين سورتى العَلَق والمدثر ، فيقال – والله أعلم – إن أولى السور فى النزول هى العلق – ثم القلم – ثم المزمل – ثم المدثر – ثم الفاتحة . . إلخ مع ملاحظة أن بسورة القلم عشرين آية مدنية من آياتها الاثنين وخمسين . وبسورة المزمل ثلاث آيات مدنية من آياتها العشرين . ورابعا أن الرعدة التى أخذته عليه الصلاة والسلام لم تكن ضرورة من شدة البرد بل من الصدمة النفسية لهذا الحادث الجليل من نزول الوحى . وأخيرا فى هذا الرأى مخالفة صريحة للنص القرآنى الذى يقطع بنزول القرآن فى شهر رمضان .

وانتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى فى شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ . وإجماع المؤرخين أنه يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول . ولكن محمود باشا حمدى الفلكى يقرر فلكيا أن غرة ربيع الأول من تلك السنة بالمدينة المنورة وافقت يوم الأربعاء ٢٧ مايو سنة ٦٣٢م . فتكون وفاته عليه الصلاة والسلام إما يوم الأحد ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ الموافق ٦٣٢/٦/٧م أو يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول الموافق ٦٣٢/٦/٨م

ونخلص من هذا أن عمره عليه الصلاة والسلام كان ٦١ سنة شمسية و ٤٨ يوما وتعادل ٦٣ سنة قمرية وثلاثة أيام .

حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وجهاده :

وكانت حياته عليه الصلاة والسلام منذ أن كُلف بالرسالة جهادا فى سبيل نشر الدعوة إلى ترك الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد والإيمان بالبعث والحساب والنهى عن الفحشاء والمنكر والوعد للمتقين بالجنة والوعيد للكافرين بعذاب النار إلى آخر مقومات الدعوة واستجاب له القليلون وعارضه الأكثرون .

ثم كانت الهجرة للمدينة فوصل إلى قباء ضاحية المدينة يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١ هـ (٢٠ سبتمبر ٦٢٢م) ومكث بقباء إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع

الأول حيث دخل المدينة .

وفى المدينة نزلت التشريعات السماوية لتنظيم المجتمع الإسلامى ، وتكاملت عناصر الدولة الإسلامية . من أرض وشعب وحكومة وتشريع . ونظمت الموارد المالية للدولة الحديثة بالزكاة والصدقات .

وأخذت الغزوات الإسلامية تنتشر فى أنحاء شبه الجزيرة العربية ووفود القبائل ترد إلى المدينة مستجيبة للدعوة بعد أن تأكدت أركانها بفتح مكة سنة ٨ هـ وإسلام قريش . ولم تكن القوة العسكرية هى التى دفعت القبائل للإيمان بل هو كتاب الله العزيز ببليغ عباراته . ودقيق تشريعاته فى تنظيم المجتمع وحقوق الإنسان والعلاقة بين الأفراد وبينهم وبين الجماعة . فضلا عن شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام وأدبه الذى هو من تأديب المولى عز وجل .

وعند وفاته عليه الصلاة والسلام كانت شبه الجزيرة العربية قد آمنت بالرسالة المحمدية . أما خارجها فقد اقتصر الأمر على إرسال الكتب بالدعوة إلى رؤساء الدول المجاورة مثل كسرى فارس وقيصر الروم وعظيم القبط فى مصر وغيرهم وفيما عدا غزوتى مؤتة وتبوك على حدود فلسطين والشام لم تكن هناك مناوشات خارج الجزيرة العربية .

الردة لم تكن ارتدادا عن الدين:

وتوفى عليه الصلاة والسلام فى يوم الأحد ، ١٢ ربيع الأول أو الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ كما ذكرنا واختار المسلمون أبا بكر الصديق خليفة له عليهم كما هو معروف .

وارتد كثير من العرب ولم تكن هذه الردة بدافع الكفر بعد الإيمان . ولكنها كانت فى غالب الأمر من رواسب العصبية الجاهلية والتنافس على زعامة العرب .

فإذا نظرنا إلى المرتدين نجد أنهم من قبائل تنافس قريشا فى الجاهلية . فكأنهم استكثروا عليها أن تجمع بين ولاية البيت الحرام والرسالة السماوية .

فقد ارتدت جميع القبائل القحطانية من اليمن غربا حتى الخليج شرقا . وارتدت ربيعة الفَرَس ببطونها من بكر بن وائل وتغلب بز وائل وبنى حنيفة وبنى شيبان وغيرهم وارتدت هوازن وبطونها من عامر ابن صعصعة وجشم وفهم وغيرهم . ماعدا ثقيفا من هوازن فقد ثبتت على إسلامها .

وبالجملة يمكن أن نقول إن الردة شملت جميع القبائل القحطانية ماعدا الأوس والخزرج أنصار الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة ، وشملت جميع

القبائل العدنانية ماعدا قريشا ببطونها وثقيفا – وقحطان وعدنان هما الأصلان لجميع العرب .

وإذا نظرنا إلى أشخاص المتنبئين نجد الصور الآتية فقد ادعى النبوة أربعة :

١ – الأسود العنسى فى اليمن . وعَنْس هو ابن مذْحِج (على وزن مسجد) ابن كهلان بن سبأ من بطون قحطان .

٢ – مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة وهم من بطون بكر بن وائل من بطون ربيعة وربيعة أخو مضر بن نزار بن معد بن عدنان وبطون ربيعة من القبائل العدنانية التى كانت تنافس قريشا فى الجاهلية

٣ – سجاح التميمية . وهى من تميم من بطون أُدّ بن طابخة بن مضر . وتميم ليست من قريش على رأى الفقهاء الذين يرون أن جَمَّاع قريش هو النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مصر . بمعنى أن من كان من غير نسل النضر لايعتبر قرشيا . وساعد سجاحا أخوالها بنو تغلب بن وائل من بطون ربيعة .

٤ – طليحة بن خويلد . من بطون أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس أى ليست من قريش على رأى الفقهاء المذكور . وانضمت إلى طليحة غطفان ببطونها من عبس وزبيان وفزارة وغيرهم وغطفان من بطون قيس بن عيلان بن مضر . أى ليست من قريش على رأى الفقهاء (بين الجاهلية وصدر الإسلام لكاتب المقال . وأرجو ملاحظة الفرق بين بن (ابن) وبين من فالأولى تدل على أنه ابنه مباشرة والثانية تدل على أنه من نسله) وهكذا نرى أن العصبية أو التعصب ضد قريش كان عاملا مهما فى ردة العرب .

ورغبت بعض القبائل المرتدة أن يقيموا شعائر الإسلام وفروضه ماعدا الزكاة وأشار بعض الصحابة على أبى بكر بقبول ذلك منهم بحجة أن العهد حديث والعرب كثيرون وبأن الحديث الشريف يقول : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لاإله إلا الله . فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) . فقال أبو بكر : الزكاة حقها وقد سمعت رسول الله يقول (أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث . شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) (الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص ١٧)

وقضى على المرتدين بحزم وشجاعة وعميق إيمان أبى بكر الصديق . وبتوفيق قائده البطل المظفر خالد بن الوليد . وعاد العرب جميعا فى شبه الجزيرة العربية إلى حظيرة الإسلام بإيمان قوى وإخلاص

صادق مكناهم من الفتوحات الإسلامية العظيمة فى أواخر عهد أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب ومن تلاه كما سنذكر بإذن الله .

المد الإسلامى

بعد الانتهاء من حروب الردة وجه الخليفة أبو بكر الصديق خالداً بن الوليد لغزو العراق العربى وكان تحت الحماية الفارسية خاضعا لها وبالجزء الشمالى منه بأرض الجزيرة — ما بين دجلة والفرات — ديار بكر وربيعة ومضر حيث تقيم قبائل عربية يدين أغلبها بالمسيحية .

وتوفى أبو بكر فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ (٦٣٤/٨/٢٢م) وخلفه فى زعامة المسلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وفى عهده كانت الفتوحات العظيمة التى نشرت الدعوة الإسلامية شمالا وشرقا وغربا . وتطوع العرب من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية بحماس وإيمان لهذه الحروب التى مكنت للدعوة من الانتشار ثم الاستقرار .

ولن نتتبع الفتوحات الإسلامية على مر العصور . فهذا يحتاج للمطولات . ولكن نذكر بعض ما كان فى القرن الأول الهجرى ونتخذ منه دلالة وأمثلة لموضوع هذا المقال .

ففى الشرق كانت فتوح فارس . ومن الوقائع الفاصلة مع الفرس موقعة القادسية سنة ١٤ هـ والاستيلاء على الأُبُلَّة على الخليج . وخططت مدينة البصرة سنة ١٤ هـ ثم الاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس وقتذاك سنة ١٦ هـ . وخططت مدينة الكوفة سنة ١٧ هـ وفتحت الأهواز وخوزستان . ثم موقعة نهاوند الفاصلة فى سنة ٢١ هـ . وتسمى هذه الموقعة بفتح الفتوح إذ لم يكن للفرس بعدها اجتماع . وفى سنتى ٢١ و ٢٢ هـ استولى المسلمون على همزان وأصفهان وأذربيجان والرى (النسبة إليها الرازى على غير القياس ، وجرجان وقزوين وزنجان وفى سنة ٢٣ هـ فتحت خراسان وكرمان ومكران (راجع الخريطة) .

وأرجو أن أوجه نظر القارئ أن بلاد فارس فى ذلك الوقت كانت تمتد شرقا إلى نهر السند وشمالا (من الشرق إلى الغرب) نهرجيحون وبحيرة أورال أو خوارزم ثم بحر الخزر أو بحر قزوين ثم أرمينية بين بحر قزوين والبحر الأسود . وما هو شمال نهر جيحون كان يعرف عند العرب بما وراء النهر وكانت به قبائل الصغد وفرغانة والترك . والآن تركستان بالاتحاد السوفييتى تمتد جنوبى نهر جيحون كما أن أفغانستان تشمل جزءا كبيرا

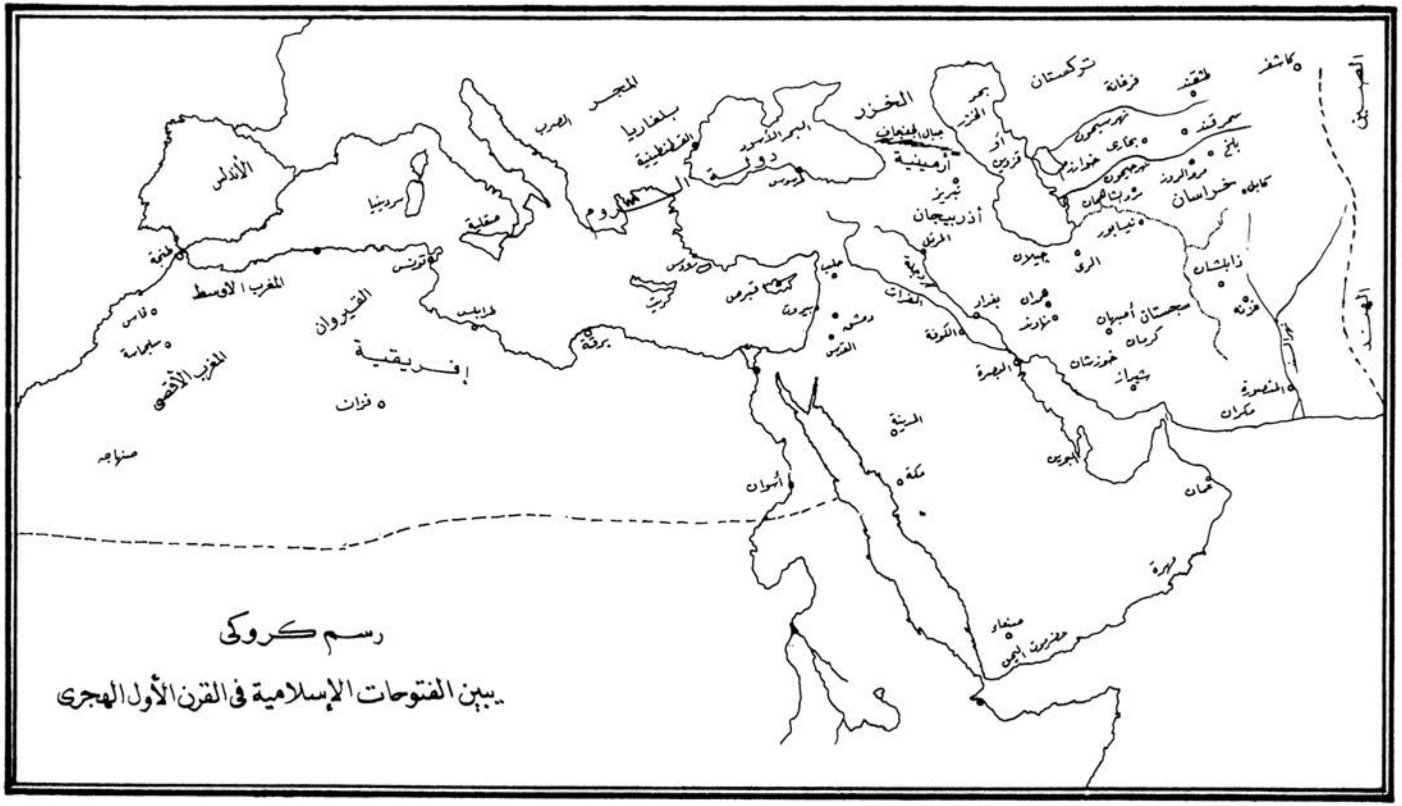

رسم كروكي
يبين الفتوحات الإسلامية في القرن الأول الهجري

من إقليم خراسان وزابلستان . ودولة باكستان تفصل بين أفغانستان ونهر السند وتصل جنوبا إلى المحيط الهندى .

أما فى الشمال فقد أرسل أبو بكر أربعة جيوش لمنازلة الروم بالشام . وجعل على كل جيش أميرا وجعل القيادة العامة لأبى عبيدة ابن الجراح ثم أمدَّهم بخالد بن الوليد بأن أمره أن يسير من العراق إلى الشام ويلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين وقال : فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة .

ونقف هنا وقفة لنرى كيف كان التعاون بين المسلمين فقد كتب خالد بن الوليد إلى أبى عبيدة قال (وقد أتانى كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرنى بالسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتولى لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته إذ وليته فأنت على حالك التى كنت عليه لانعصيك ولانخالفك ولانقطع دونك أمرا فأنت سيد المسلمين لاننكر فضلك . ولانستغنى عن رأيك تمم الله بنا وبك من إحسان ورحمنا وإياك من صلا النار والسلام عليك ورحمة الله وبركاته)

فلما قرأ أبو عبيدة كتاب خالد قال (بارك الله لخليفة رسول الله ﷺ فيما رأى وحيَّا خالدا) وكان أبو بكر كتب لأبى عبيدة : (أما بعد فإنى وليت خالدا قتال العدو بالشام فلاتخالفه . واسمع له وأطع فإنى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرا منه . ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك خيرا والسلام) (الفتوحات الإسلامية للسيد أحمد بن زينى دحلان ج ١ ص ٣٤)

ولما قدم خالد الشام جمع أمراء الجيوش . واقترح عليهم أن يتولى كل أمير القيادة العامة يوما . وطلب لنفسه اليوم الأول فكانت موقعة اليرموك الفاصلة انتصر فيها المسلمون على الروم انتصارا ساحقا . وكانت فى سنة ١٣ على أرجح الأقوال .

وممن حضر اليرموك أبو سفيان بن حرب وفقد فيها عينه الثانية فصار أعمى . وكان فقد الأولى فى غزوة الطائف . وأتى بها الرسول عليه الصلاة والسلام يطلب ردها . فقال إن شئتَ دعوتُ الله . وإن شئت خيرا منها فى الجنة . فرمى بها وقال خيرا منها فى الجنة . وتوفى أبو سفيان فى سنة ٣١ هـ فى خلافة عثمان بن عفان .

وعزل عمر بن الخطاب خالدا وأعاد أبا عبيدة . فلم تفتر همة خالد ولم يتزعزع جهاده وصار مناصرا لأبى عبيدة . فسار أبو عبيدة إلى دمشق ونازلها من ناحية ونازلها خالد من أخرى حتى تم فتحها وتوالت الفتوحات فسقطت حمص سنة ١٥ هـ ثم

حماه صلحاً مع الجزية . ثم اللاذقية عنوة ثم جبلة وانطرسوس . ثم حلب وأنطاكية ومنبج ودلوك وسرمين وتنزين وعزاز ومرعش . كل هذا فى نفس سنة ١٥ هـ .

ويئس هرقل إمبراطور الروم من الشام فغادره إلى القسطنطينية بعد أن وقف على نشز من الأرض وقال قولته المشهورة (السلام عليك ياسوريا سلاما لااجتماع بعده)

بيت المقدس

وطلب أهل بيت المقدس الصلح على أن يمضى عقده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وأن يحضر بنفسه لاستلام المدينة فسار عمر سنة ١٥ هـ أيضا إلى القدس وأمضى عقد الصلح واستولى عليه المسلمون ومن ضمن العهد (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ومن حيزها ولامن صليبهم ولا من شيء من أموالهم . ولايكرهون على دينهم ولايضار أحد منهم ولايسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطو الجزية . . . إلخ

(تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ج ٤ ص ١٥٩)

وفى سنة ١٨ هـ توفى أبو عبيدة بن لجراح بالطاعون الذى اجتاح الشام وعرف بطاعون عمواس . وهو رضى الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وتوفى خالد بن الوليد سنة ٢٠ هـ وقبره بحمص يُزار .

وأما فى الغرب فقد افتتح عمرو بن العاص مصر فى المحرم سنة ٢٠ هـ على أرجح الأقوال وخُططت مدينة الفسطاط فى المحرم سنة ٢١ هـ . وفى سنة ٢٣ هـ سار عمرو بن العاص إلى برقة فصالحه أهلها ثم فتح طرابلس عنوة .

وأصيب عمر بن الخطاب فى ٢٣ ذى الحجة سنة ٢٣ هـ بطعنة من خنجر أبى لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . وتوفى رحمه الله فى آخر ذى الحجة . وتولى الخلافة بعده فى أوائل المحرم سنة ٢٤ هـ عثمان بن عفان بناء على قرار مجلس الشورى الذى أمر عمر بتشكيله قبل وفاته لاختيار الخليفة بعده .

واستمرت الفتوحات فى خلافة عثمان ففى سنة ٢٥ هـ فتحت كابل وفى سنة ٢٦ هـ فتح عبد الله بن سعد بن أبى سرح إفريقية (وهو أخو عثمان فى الرضاعة وكان عثمان ولاه مصر بدلا من معاوية) . والمقصود بإفريقية ماهو غربى برقة (راجع الخريطة).

وفى سنة ٢٨ فتح معاوية بن أبى سفيان من البحر جزيرة قبرص . وكان عثمان قد جمع له ولاية الشام . وفى سنة ٣٠ هـ فتحت طبرستان على يد سعيد بن العاص . . وأعيد فتح قبرص سنة ٣٣ هـ كما فتحت جزيرة رودس سنة ٣٥ هـ .

وفاة يزدجرد آخر الأكاسرة والتقويم الفارسى :

وظل يزدجرد الثالث بن شهريار بن برويز يهرب أمام العرب من بلد إلى أخرى والهزائم تلاحقه حتى قتله جماعة من الترك سنة ٣١ هـ وبوفاته انقرضت دولة بنى ساسان .

وكان الفرس بعد الفتح العربى واستتباب الحكم للعرب يستعملون التقويم الهجرى . ولكن لاعتبارات عملية احتفظوا بتقويمهم المبنى على الحساب الشمسى . وكانوا نقلوه عن المصريين فى القرن الخامس قبل الميلاد والتقويم من عناصر القومية فاتخذوا من ابتداء حكم يزدجرد هذا تقويما خاصا بهم سنته فى ٣٦٥ يوما ولا كبس فيه بالنسبة للربع يوم . وهذا التقويم معمول به للآن وهو يبدأ من يوم الثلاثاء ١٦/٦/٦٣٢م (٢٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ) تاريخ تولى يزدجرد وهو يتقدم على التقويم الميلادى على مر السنين نظرا لعدم الكبس المذكور . مع تفصيل ليس هنا مكانه .

انتقاض وفترة ركود

ونقض أهل خراسان وسجستان وكرمان الصلح فأعيد فتحها على يد عبد الله ابن عامر البطل الصحابى . وهذا الانتقاض لم يكن الوحيد فى عهد الفتوحات فى القرن الأول فكثير من البلدان كانت تفتح مصالحة على أن يدفع أهلها الجزية فما يكادون يصادفون وهنا فى العرب حتى يرفضوا الجزية وينقضوا الصلح ولكن بمضى الوقت واستقرار العرب فى هذه البلدان ومخالطتهم لأهليها وتزاوجهم منهم أخذت هذه البلدان تدخل فى الإسلام إيمانا وتصديقا .

وقتل عثمان بن عفان فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ وتولى الخلافة بعده على بن أبى طالب . وكانت فتنة بين المسلمين من نقض الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله بيعتهما لعلى . وحربهما والسيدة عائشة ضد على فى موقعة الجمل . ثم الحرب بين على ومعاوية ابن أبى سفيان الذى امتنع عن البيعة بحجة طلب ثأر عثمان بن عفان – إذ أبو سفيان وعفان ابنا عم ثم خروج الخوارج على علىّ

لقبوله التحكيم إلى آخر ما هو مبسوط ومعروف بكتب التاريخ حتى قتل على بن أبى طالب فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ

نبوءتان للرسول عليه الصلاة والسلام

وبايع أنصار على ابنه الحسن وجنح الحسن للسلم حقنا لدماء المسلمين فراسل معاوية على أن تكون الخلافة لمعاوية ، ومن بعده للحسن وعلى شروط أخرى لنفسه وأصحابه وقبلها كلها معاوية . ولكنه لم يفِ إلا ببعضها وكان هذا التنازل فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٤١ هـ . وتحققت بذلك نبوءتان للرسول عليه الصلاة والسلام . الأولى أنه قال عن الحسن وهو طفل : (إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين) والثانية أنه قال (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم يعود ملكا عضوضا) وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام فى ربيع الأول سنة ١١ هـ كما ذكرنا .

وتوفى الحسن فى ربيع الأول سنة ٤٩ هـ فى خلافة معاوية قيل من سم سقته له زوجته جعدة بنت الأشعث بتحريض من يزيد بن معاوية على أن يتزوجها بعده فسقته السم وطالبت يزيد بوعده فأبى (المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ١٨٣)

وكان طبيعيا فى هذه الفتن التى أعقبت مقتل عثمان بن عفان وهذه الفرقة بين المسلمين أن تتوقف موجات الفتح وهى حالة سنلاحظها دائما فيما يلى بإذن الله .

وكان عمرو بن العاص واليا على مصر من قبل معاوية فأرسل عقبة بن نافع لغزو إفريقية سنة ٤١ هـ (توفى عمرو سنة ٤٣هـ) وظل عقبة يغزو ودانت له البربر والروم حتى وصل المحيط الأطلسى سنة ٦٢هـ وقال قولته المشهورة : يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد غازيا وهو الذى أنشأ مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ وانتقض البربر بزعامة كسيلة وقتلوا عقبة عند عودته بقرب القيروان واستولوا عليها سنة ٦٢هـ واحتاجت إفريقية لفتح آخر .

واستمرت المناوشات بين المسلمين وبين دولة الروم الشرقية وقد حاول المسلمون الاستيلاء على القسطنطينية فقد أرسل معاوية جيشا كثيفا سنة ٤٩ هـ . وعليهم سفيان بن عوف الأزدى . وكان فى الجيش عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأيوب الأنصارى ويزيد بن معاوية فأوغلوا فى بلاد الروم حتى حاصروا القسطنطينية وقتل أبو أيوب بالقرب من سورها ثم اضطروا للعودة .

فترة ركود أخرى

توفى معاوية بن أبى سفيان بن حرب ابن أمية سنة ٦٠ هـ . وخلفه ابنه يزيد . وكان أبوه بايع له فى حياته بولاية العهد . وكان هذا مناقضا لأصول الحكم الإسلامى من أن الخلافة اختيار وبيعة وليست توريثا ودعا أهل العراق الحسين بن على بن أبى طالب لمبايعته فخرج إليهم ثم غدروا به وقتل فى عاشوراء سنة ٦١ هـ وقتل معه ١٧ من أولاده وأخوته وأولاد أخيه وأهل بيته كما هو معروف وتوفى يزيد سنة ٦٤ هـ وخلفه ابنه معاوية بن يزيد فلم يمكث فى الحكم غير حوالى ثلاثة شهور ثم استقال وتوفى بعد ذلك .

وبايع أهل مكة عبد الله بن الزبير بن العوام بالخلافة ثم بايعه أهل البصرة والعراق واليمن ومصر.

وبايعه فى الشام الضحاك بن قيس سرا ، ولكن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية جمع بنى أمية وانضمت له القبائل اليمانية . وحارب الضحاك وهزمه وقتله فى معركة مرج راهط . ودخل مروان دمشق واستقام له أمر الشام ثم ذهب إلى مصر فأمكنه أن يضمها إليه ولم يطل به الأمر غير تسعة أشهر فقد توفى سنة ٦٥ هـ . حيث خنقته امرأته لأنه أهانها وأهان ابنها خالد بن يزيد بن معاوية . وصاحت : مات فجأة وكان مروان تزوجها خوفا من منافسة ابنها خالد له . وبايع أهل الشام بعده ابنه عبد الملك بن مروان .

وأصبح للمسلمين خليفتان : عبد الملك بن مروان ومعه الشام ومصر وبرقة . وعبد الله بن الزبير فى مكة ومعه الحجاز واليمن والعراق . وكانت البلدان الشرقية حتى خراسان تابعة لولاية العراق .

ثم ثارت الشيعة بالعراق بزعامة المختار بن عبيد وبايعه الناس على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدم أهل البيت . وتمكن المختار من هزيمة عبيد الله بن زياد وقتله . وهو الذى أمر بقتل الحسين بن على وصحبه . ثم قتل مصعب بن الزبير المختار ابن عبيد سنة ٦٧ هـ ثم سار عبد الملك ابن مروان إلى العراق وقتل مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ .

ونوجز فنقول إن هذا الفتنة استمرت من سنة ٦٤هـ إلى سنة ٧٣هـ فتمكن الحجاج بن يوسف الوالى من قبل عبد الملك من حصار ابن الزبير فى مكة حتى رمى الكعبة بالمنجنيق وقتل عبد الله بن الزبير .

فكان طبيعيا أن تتوقف الفتوحات فى هذه الفترة . وأن تنتهز الفرصة بعض البلاد

التى خضعت فتنقض على حكم المسلمين .

فقد توقفت الصوائف (جمع صائفة) منذ وفاة معاوية والصوائف هى الجيوش التى كانت تجهز فى الثغور الإسلامية على الحدود للغزو صيفا . واستمرت الصوائف من صدر الأسلام حتى أواسط عهد الدولة العباسية ولم يكن الغزو قاصرا على الصيف فكثيرا ما وقع فى الشتاء إذا اقتضى الحال .

بل وأكثر من هذا أن إمبراطور الروم طمع فى المسلمين بالشام واضطر عبد الملك ابن مروان على مصالحته بأن يدفع للروم ألف دينار كل أسبوع خوفا على المسلمين (الفتوحات الإسلامية ج ١ ص ١٧٠)

عودة المد الإسلامى

وضم عبد الملك بن مروان ولاية خراسان إلى الحجاج بن يوسف فضلا عن ولايته العراق فولى الحجاج على خراسان المهلب بن أبى صفرة فعبر سنة ٨٠ هـ نهر جيحون وحارب صاحب بخارى وهزمه وصالحه على مال كثير واستمر المهلب ضابطا لأحوال تلك الجهات حتى توفى سنة ٨٥ هـ

وشغل المسلمون بفتنة فى فارس والعراق أثارها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بأن دعا إلى خلع الحجاج أولا ثم دعا لنفسه بالخلافة . واستفحل أمره . وهزم الحجاج مرارا وأخيرا تمكن الحجاج من هزيمته سنة ٨٣ هـ وهرب عبد الرحمن إلى ماوراء النهر محتميا بأحد ملوك الترك هناك فقتله وأرسل رأسه للحجاج .

وتوفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ وتولى ابنه الوليد بن عبد الملك بعده واستمر حكمه حتى سنة ٩٦ هـ

وفى عهد الوليد تمت الفتوحات العظيمة التى سنذكرها بإذن الله وما كانت تتم الا لاستتباب الحكم من ناحية ولحسن اختيار الزعامات من ناحية أخرى .

ففى سنة ٨٦ هـ تولى خراسان قُتيبة بن مسلم من قبل الحجاج . وكان قائدا محنكا وسياسيا بارعا فدانت له تلك البلاد وفى سنة ٩١ هـ غزا شومان وكِش ونسف وفتح سمرقند وفرغانة ثم كاشغر أول مدن الصين . ومكث قتيبة واليا حتى سنة ٩٦ هـ فقُتل هو وأحد عشر رجلا من إخوته وولده وأهله بأمر سليمان بن عبد الملك لقصة ليس هنا محلها .

فتح السند وبعض الهند

حاول المسلمون قبل ذلك غزو السند سنة ٣٤ و٤٤هـ ثم فى سنة ٨٩هـ تم فتح السند للمسلمين على يد محمد بن القاسم بن

الحكم الثقفى . وهو ابن عم الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى . فولاه الحجاج ثغر السند وجهزه بالجيش والمعدات فتقدم من مكران وتوالت انتصاراته واستولى على مدن السند واحدة بعد الأخرى وهرب ملوكها من أمامه . واستولى على غنائم تفوق الحصر .

ثم توفى الحجاج سنة ٩٥ هـ وتوفى الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ . وتولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك فعزل محمداً بن القاسم وولى غيره فقبض الوالى الجديد على محمد وأرسله إلى العراق حيث عذب وقتل . ورجع ملوك السند إلى بلادهم .

وتوفى سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ وتولى بعده عمر بن عبد العزيز فأرسل إلى هؤلاء الملوك يدعوهم للإسلام ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب وتوفى عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ .

وفى ولاية الجنيد بن عبد الرحمن من قبل هشام بن عبد الملك الذى خلف أخاه يزيد بن عبد الملك توغل فى الهند سنة ١٠٧ هـ وأنشأ مدينة المنصورة على نهر السند . ثم تنازع المسلمون هناك وتخلوا عن مراكزهم ورفضوا الإقامة . وكانوا يحاربون ويستولون على ما يستطيعون لأنفسهم وذلك لبدء الوهن فى الدولة الأموية .

خضوع إفريقية والمغرب وفتح الأندلس

ذكرنا ما كان من قتل عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ وانتقاض البربر فى إفريقية بزعامة كسيلة وعجز الدولة عنهم للخلاف بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير من سنة ٦٤ هـ إلى ٧٣ هـ ومع ذلك فقد ولى عبد الملك سنة ٦٩ هـ برقة لزهير بن قيس البلوى وسار زهير إلى إفريقية وحارب كسيلة وهزمه وقتله . ودخل القيروان ثم قصد العودة إلى مصر وكان الروم قد اغتنموا خروج زهير من برقة لقتال كسيلة فهجموا على برقة وصادف ذلك عودة زهير فحاربهم فهزموه وقتلوه . ولم يستطع عبد الملك أن يفعل شيئا لانشغاله بحرب ابن الزبير .

ولما قتل ابن الزبير جهز عبد الملك سنة ٧٥ هـ جيشا بقيادة حسان بن نعمان الغسانى فقاتل البربر الذى كانت تتولى زعامتهم امرأة يلقبونها بالكاهنة فهزمهم حسان وقتلها . ودانت البربر واستمر حسان واليا حتى وفاة عبد الملك سنة ٨٦ هـ فعزله الوليد ابن عبد الملك وولى مكانه عمه عبد الله ابن مروان ثم عزله وولى موسى بن نصير ٨٩ هـ .

وكانت البربر قد عاودوا الانتقاض فحاربهم موسى حتى أخضعهم نهائيا ثم سير مولاه طارق بن زياد إلى الأندلس سنة ٩٢ هـ فعبر المضيق وغزا الإفرنج ولحق به موسى وتوالى سقوط المدن بين أيديهما وحصل العرب على غنائم من كل نفيس تفوق الحصر وتعجز الوصف ودخلت الأندلس فى الإسلام فنما فيها نبت طيب نموذجا راقيا للحضارة الإسلامية فى العلوم والفنون والآداب .

وكان موسى بن نصير يأمل أن يصل إلى القسطنطينية غازيا من الغرب لكنه استدعى إلى دمشق سنة ٩٥ هـ وتوفى سنة ٩٧ هـ فى خلافة سليمان بن عبد الملك .

تلخيص وتعليق

نكتفى بما ذكر عن بعض الفتوحات الإسلامية فى القرن الأول الهجرى . وقد ذكرتها إجمالا فشرح هذه الفتوحات وما كان فيها من بطولة وفداء وبذل وعطاء واستشهاد يحتاج للمطولات وقد يملّ القارئ مماورد من بعض التفصيل فى التواريخ والأرقام ولكن قصدت أن يتتبع معى سير الأحداث لنتخذ منها أدلة وأمثلة لما أريد استخلاصه من نتائج إذ سنخلص إلى الحقائق الآتية :

١ – جميع البلاد التى فتحت فى القرن الأول الهجرى حسب الخريطة المرفقة – ماعدا الأندلس – مازالت باقية على إسلامها للآن بعد ثلاثة عشر قرنا ، ممايدل على انها لم تسلم نتيجة للفتح العربى أو القوة العسكرية . فقد واتتها فرص كثيرة للانتقاض بضعف الحكومة المركزية فى دمشق أو بغداد ولكنها تمسكت بالإسلام عن عقيدة واقتناع . .

وما كان يحصل من انتقاض البعض كما رأينا يرجع إلى أن كثيرا من هذه البلدان كان يفتح صلحا على فدية أو جزية وهذه حالة استعمارية تثير النفوس . ولكن ما أن استقر العرب فيها وتعايشوا مع أهليها مساكنة ومصاهرة ومتاجرة حتى انجزبت قلوب الأهلين للإسلام فدخلوا فيه طواعية وإيمانا . ونبغ من هذه البلاد الكثيرون من علماء الدين ممن يفخر بهم الفقه وسائر العلوم الدينية .

وبعد ذلك كان الانتقاض على الحكومة المركزية لأسباب سياسة ترتبط بشهوة الحكم مع الولاء الروحى لخليفة المسلمين فى بغداد .

٢ – فشل الحملات على الهند فى القرن الأول الهجرى يرجع إلى أن المسلمين تخلوا عن مراكزهم ولم يقيمو فى البلاد . ثم فى

القرن الرابع الهجرى أمكن للسلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين سنة ٣٨٩ هـ أن يقضى على دولة بنى سامان وكانت قاعدة ملكه غزنة فتوغل فى الهند فى غزوات متتالية حتى توفى سنة ٤٢١ هـ وخلفه ابنه مسعود ثم مودود بن مسعود فتابعا غزو الهند حتى انتشرت الدعوة الإسلامية . وظلت دولة بنى سبكتكين حتى قضى عليهم الغور سنة ٥٧٩ هـ وكان ابتداء ملكهم سنة ٣٦٦ هـ .

٣ - رأينا أن موجات المد فى الفتوحات تزداد قوة كلما كان الحكم فى الدولة مستقرا فإذا دبت الفتنة والانقسام فى الدولة توقفت هذه الموجات بل وُجد جزر مؤقت ضدها .

٤ - السنة والشيعة :

انقسام المسلمين إلى سنيين وشيعة لم يؤثر فى جوهر الإسلام بل كان انقساما سياسيا فى غالب الأمر . وبالرغم من أن هذا الاختلاف كان أحد المحاور الرئيسية التى دار حولها التاريخ الإسلامى عدة قرون إلا أنه لم يكن أول الأمر اختلافا دينيا فلم يكن ثمة خلاف بين المسلمين فى صدر الدعوة فالقرآن واضح فهموه على صورته الواضحة المشرقة بإحكام آياته وسلاسة تعبيره وبلغتهم العربية وكانوا قريبى عهد بالرسول عليه الصلاة والسلام فاتبعوا سنته وكانت سلسلة رواة الحديث قصيرة يمكن التثبت من عدالة الرواة فيها . وكان الإيمان عميقا فما استعصى عليهم فهمه عقلا قبلوه إيمانا وتصديقا . ولم يُبدأ فى تقعيد قواعد الفقه إلا بعد القرن الأول الهجرى فالأئمة أبو حنيفة توفى سنة ١٥٠ ومالك توفى سنة ١٧٩ هـ والشافعى توفى سنة ٢٠٤ هـ وابن حنبل توفى سنة ٢٤١ هـ .

ولكن هذا الخلاف كان سياسيا هدفه إمامة المسلمين . وحرَّكته وأزكته رواسب العصبيات الجاهلية والتنافس بين بنى هاشم وبنى أمية قديم منذ الجاهلية وكان بنو هاشم يرون أن عليا بن أبى طالب أحق بالخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام . ولكن تخطته الإمامة باختيار أبى بكر . ثم عمر ثم عثمان . وكأنهم استكثروا أن يجمع بنو هاشم بين النبوة والإمامة . وتشيَّع لعلى كثيرون فكان اسم الشيعة .

ثم كان للشيعة مذهب أو مذاهب كما كان لأهل السنة مذاهب وإذا نظرنا إلى مذاهب الشيعة - ماعدا المتطرفة منها - نجد أن الخلاف بينها وبين المذاهب السنية فى الشكليات ولايمسّ جوهر العقيدة .

٥ - فى القرن الرابع الهجرى كان

بالعالم الإسلامى ثلاث قوى كل منها تطالب بإمامة المسلمين . وهى : الخليفة العباسى فى بغداد ومعه العراق وبعض الشام والبلاد الشرقية والخليفة الفاطمى فى مصر ومعه بعض الشام وبرقة وافريقية والخليفة الأموى بالأندلس . وهذا أيضا انقسام سياسى لا دينى .

٦ – بنو سلجوق والخليفة العباسى

نشأت قوة جديدة بآسيا الوسطى هى بنو سلجوق وكانت بخراسان فانتشرت وقوى ساعدها واستولى السلطان طغرل بك ابن سلجوق على بغداد سنة ٤٤٦ هـ وقبض على الملك الرحيم آخر بنى بُوَيه (بضم الباء وفتح الواو) وتزوج بنت الخليفة العباسى القائم بأمر الله سنة ٤٥٤ هـ .

ونقف هنا وقفة لنؤكد بها أنه مع هذا الانقسام السياسى فى الدول الإسلامية فقد ظل الولاء الروحى لخليفة المسلمين عميقا وهذا من الصورة الآتية التى ذكرها أبو الفدا فى المختصر ج ٢ ص ١٧٦ قال : وفيها (أى فى سنة ٤٤٩ هـ) عاد طغرل بك إلى بغداد بعد أن استولى على الموصل وأعمالها وسلمها إلى أخيه إبراهيم ينال ولما قارب طغرل بك القفص خرج لتلقيه كبراء بغداد مثل عميد الملك وزير طغرل بك ببغداد ورئيس الرؤساء ودخل بغداد وقصد الاجتماع بالخليفة القائم فجلس له الخليفة وعليه البردة على سرير عال عن الأرض نحو سبعة أذرع . وحضر طغرل بك فى جماعته وأحضر أعيان بغداد وكبراء العسكر فقبَّل طغرل بك الأرض ويد الخليفة ثم جلس على كرسى ثم قال له رئيس الرؤساء : إن الخليفة قد ولاَّك جميع ماولاَّه الله تعالى من بلاده . ورد إليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاَّك واعرف نعمته عليك وخلع على طغرل بك وأعطاه العهد فقبل الأرض ويد الخليفة ثانيا وانصرف .

ثم بعث طغرل بك للخليفة خمسين ألف دينار وخمسين مملوكا من الأتراك بخيولهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها ا هـ .

٧ – خلافة المسلمين

هذا الولاء الروحى هو الذى دعا الظاهر بيبرس أن يستدعى إلى مصر أحد أمراء بنى العباس بعد أن حطم التتار الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ وبايعه بالخلافة ليستمدّ من ذلك شرعية حكم المماليك . وبهذا انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة سنة ٦٦٠ هـ ثم نقلها العثمانيون بعد الاستيلاء على مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) إلى سلاطين بنى عثمان

باستانبول وهى التى جعلت الدول العربية تستكين لحكم العثمانيين على مافيه من فساد للولاء بالتبعية لخليفة المسلمين .

٨ – **التتار والإسلام**

فى القرن السابع الهجرى تحركت جحافل التتار من الشرق ضد الدول الإسلامية وتقدموا فى زحفهم يخربون البلاد ويسقطون العروش حتى وصلوا بغداد وقضوا على الخلافة العباسية واستولوا على أغلب الشام . وقصدوا مصر درع الإسلام فقامت مصر بدورها خير قيام وهزمتهم فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ على يد سلطانها المظفر قطز . وكانت هذه أول هزيمة للتتار ولكنها لم تكن الوحيدة من مصر فقد هزمتهم ثانيا عند حمص سنة ٦٨٠ هـ هزيمة منكرة على يد المنصور قلاوون .

ولا أقصد السرد التاريخى ولكن لكى أذكر أن دولة قوية كالتتار غزت البلاد الإسلامية وحطمت الخلافة العباسية فى بغداد . واستولت على كل أملاكها وحكمتها قد دخلت بعد ذلك فى الإسلام – وهى القوية المنتصرة – سواء فى عراق العرب أو عراق العجم أو فارس أو تركستان مما يدل على ما فى هذا الدين القويم من عوامل تحببه إلى النفوس .

٩ – **الحملات الصليبية وفشلها**

بدأت الحروب المسماة بالصليبية سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م) واستولت على كثير من بلدان الشام بل وطمعوا فى مصر ثلاث مرات وقاومهم السلطان نور الدين محمود ابن زنكى وصلاح الدين الأيوبى ومن تلاه من الأيوبيين والسلاطين المماليك بيبرس وقلاوون والأشرف خليل بن قلاوون الذى فتح عكا وصيدا وبيروت وانطرسوس وغيرها سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) وبذلك تم جلاء الصليبيين نهائيا عن سواحل الشام وبلدانه بعد أن لوثوه باحتلالهم ما يقرب من قرنين من الزمان .

ولم تنتج الحروب الصليبية أى أثر سياسى فلم ينقص من البلاد الإسلامية أى شبر وإن كانت لهذه الحروب آثار أخرى عمرانية وعلمية واقتصادية ليس هنا مجال ذكرها .

١٠ – أكثر من هذا أن المسلمين أخذوا فى الانتقاص من دولة الروم الشرقية فقد استولى بنو سلجوق على قونية (شمال طرسوس) وأنشأوا لهم ملكا هناك ثم قامت دولة بنى عثمان سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩م) فقضت على دولة الروم الشرقية بآسيا الصغرى بل تخطتها إلى الاستيلاء على

أملاكها بشبه جزيرة البلقان .

١١ – إن كان المسلمون قد فقدوا الأندلس فقد عوضهم الله عنها باستيلاء السلطان العثمانى محمد الفاتح على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م) وإنشاء دولة إسلامية فى أوربا وصلت شمالا إلى قرب فيينا وغربا إلى البحر الأدرياتيكى

١٢ – فى القرن العاشر الهجرى كان بالشرق الأوسط ثلاث قوى تتنازع السيادة ، مصر وفارس والدولة العثمانية وتغلب السلطان سليم العثمانى على مصر فى معركة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ ودخل سليم مصر سنة ٩٢٣ هـ وأصبحت مصر ولاية تابعة بعد أن كانت سلطنة قوية ذات سيادة واستولى العثمانيون على جميع البلاد العربية (ماعدا المغرب الأقصى) ولم يكن العثمانيون ذوى حضارة فلم يضيفوا شيئا يذكر على علوم العرب بل أصابوا الأمة العربية بالشلل والركود . ولكنهم كانوا ذوى ملكية عسكرية مكنتهم من التصدى للمطامع الأوربية فى البلاد الإسلامية فدافعت عنها حتى أصابها الوهن ودبت فيها الشيخوخة فانتقصت روسيا من أملاكها الشرقية على البحر الأسود وانتقصت منها أوربا أغلب ممتلكاتها الأوربية والعربية . وكانت نهاية بنى عثمان بقيام الجمهورية التركية سنة ١٩٢٢ وإلغاء السلطنة ثم إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م ونقلت عاصمتها إلى أنقرة بدلا من استانبول .

وهكذا أصبحت تركيا دولة علمانية وإن كان دين أغلب شعبها الإسلام وبهذا فقد الترك مناصرة الدول الإسلامية بعد أن كانت تهرع لنجدتها فى جميع المناسبات .

١٣ – **استمر المد الإسلامى** . ولكن ليس عن طريق الفتوحات العسكرية بل عن طريق التجار العرب والهنود فأسلم الكثيرون فى شرقى إفريقيا وآسيا الشرقية بالصين وجزر الهند الشرقية كما أسلم الكثيرون فى غربى إفريقيا عن طريق تجار المغرب . وامتد الإسلام من مصر جنوبا إلى شمال السودان واتجه الأهالى للإسلام بالرغم من وجود جمعيات التبشير المسيحية بإمكانياتها العظيمة وذلك لما فى عقيدة التوحيد من قوة وبساطة ولما فى هذا الدين القويم من سماحة وكريم خلق فى المعاملة والمعايشة بين الناس .

١٤ – وأخيرا نجد الآن موجة من الإسلام تنتشر فى أوربا وأمريكا فقد ازداد كثيرا عدد المساجد التى تقام فى مدن تلك البلاد – ماعدا البلاد الشيوعية فهذه ملحدة لاتؤمن بالديانات وأسلم . ويسلم الكثيرون كل يوم لما يجدونه فى هذا الدين

من حلول صحيحة سليمة لمشاكل المجتمع الاجتماعية والاقتصادية وربما لو وجدت وسائل إعلام أكثر وضوحا وأقرب تناولا وتبسيطا للدعوة الإسلامية لازداد عدد من يدخلون الإسلام .

ولاننسى أن لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ فضلا فى إعادة التقدير للعرب . وأعتقد أنه لولا سَفَه بعض أثرياء العرب ومايرتكبونه فى أوربا وأمريكا من مخزيات وفضائح تشوّه صورة المسلمين لازداد الأوربيون والأميريكيون قبولا واقتناعا بالإسلام .

محمد كمال السيد

إقامة الألسنة

قال عبد الملك بن مروان :

ما الناس إلى شيء من العلوم أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التى بها يتحاورون الكلام ويتهادون الحكم ، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها ، ويجمعون ما تفرق منْها ، إن الكلام قاض يجمع بين الخصوم ، وضياء يجلو الظلام ، وحاجة الناس إلى مواده كحاجتهم إلى مواد الأغذية .

الأستاذ محمد كمال السيد محمد

○ ولد بالفشن محافظة بنى سويف فى ١٩٠٨/٩/١م

○ يتشرف بالانتساب إلى الإمام الحسينى سبط الرسول عليه الصلاة والسلام

○ تخرج فى مايو سنة ١٩٣٠ من كلية الحقوق بجامعة القاهرة التى كان اسمها جامعة فؤاد الأول

○ اشتغل بالمحاماة بالقاهرة ثم اضطر للانتقال إلى الفشن لمساعدة والده فى إدارة أطيانه وأبادر فأقول إنه لم يكن إقطاعيا وتوفى قبل الثورة بمدة .

○ لم يشتغل بالسياسة قبل سنة ١٩٥٧ فتقدم لانتخابات مجلس الأمة ونجح عن دائرة الفشن

○ ثم حُل المجلس بعد الوحدة مع سوريا سنة ١٩٥٨ فكان سكرتيرا للاتحاد القومى بمركز الفشن ومقررا للجنة الصناعة بمحافظة بنى سويف ولما أعيد مجلس الأمة سنة ١٩٦٠ كان من ضمن أعضائه وظل المجلس حتى سبتمبر سنة ١٩٦١ فانحل بناء على خروج سوريا من الوحدة .

○ انقطع بعد ذلك لمباشرة شؤونه الخاصة . وكان من هواياته قراءة التاريخ وكتب التراث مما مكنه من التأليف وكتابة المقالات بالمجلات والصحف .

○ له كتاب كبير من ٤٠٠ صفحة تقريبا اسمه (أسماء ومسميات من تاريخ وخطط القاهرة) ستصدره الهيئة العامة للكتاب هذا العام وكتاب آخر اسمه (الشمس والقمر فى حساب الزمن) سيصدر بعده بإذن الله .

إعادة بناء الحضارة الإسلامية على أساس القرآن هى أبرز تطلعات القرن الخامس عشر الهجرى ..

الأستاذ / أنور الجندى

يجب أن يكون القرن الخامس عشر الهجرى الذى أوشك فجره علامة على خروج المسلمين (فكرا ومجتمعا) من مرحلة التبعية والغزو الثقافى والتغريب إلى مرحلة الرشد الفكرى والأصالة والتماس المنابع انتقالا من اليقظة إلى النهضة وقد جاء هذا العصر الجديد والمسلمون يمتلكون ثلاث قوى : الطاقة والثروة والتفوق البشرى وهى علاقة مع دخول المسلمين إلى مرحلة يبنون فيها قواعد الحضارة الإنسانية التى مازالت تتطلع إليها البشرية مجددة من الحضارة الإسلامية التى توقفت عن العطاء منذ بضعة قرون والتى ماتزال تلتمس مقوماتها من مفهوم القرآن الأصيل ومن قاعدة التوحيد الخالص ومن قيم الالتزام الأخلاقى والمسئولية الفردية والإخاء الإنسانى والرحمة والعدل .

وقد آن الأوان أن يحمل المسلمون رسالة الإسلام إلى كل أطراف الأرض وأن يذيعوا كلمة الله الواحد الحق فى كل مكان وذلك بعد أن يطبقوها على أنفسهم ويقيموا المجتمع الربانى الذى تتطلع إليه البشرية .

وقد سجل الإسلام تقدما واضحا فى القرن الأخير ، وإن كان الإسلام منذ بزوغ فجره لم يتوقف عن الانتشار الذاتى ويبلغ عدد الذين يعتنقونه إلى مفتتح القرن الخامس عشر الهجرى مالا يقل عن ألف مليون مسلم دخل أغلبها إلى ساحته بالاقتناع والإيمان وبفضل مبادئه التى تحمل التوحيد والعدل والكرامة والإيمان .

وقد وجد الإسلام من الملونين والمستعبدين قبولا حررهم من كل عوامل الظلم والعبودية ومازال الإسلام يقتحم آفاق العالم ويصل إلى كل ركن ، وقد أعلن فى مؤتمر لندن الإسلامى (مايو ١٩٧٦) أن عدد المسلمين فى أوربا قد بلغ ٢٥ مليونا و٢١٧ ألف نسمة تقريباً وأن عدد المسلمين بالدول الأوربية غير الشيوعية يبلغ نحو ثلاثة ملايين ، ٩٣٠ ألف أى بنسبة ١,٧٥ فى المائة من عدد السكان أما عدد المسلمين

بالدول الأوربية الشيوعية فيقدر بنحو ١٩ مليونا و ٢٧٧ الف نسمة أى بنسبة ١٨٪ من مجموع السكان (ولا يدخل فى هذا العدد مسلمو الجمهوريات الآسيوية التابعة للاتحاد السوفيتى)

وهكذا نجد أن الإسلام بعد أن طورد من أوربا مرتين : من الأندلس ومن البلقان يعود سلما فيقتحم أوربا ليقيم فيها هذه المرة ، وليصل إلى كل مكان. ليس فى أوربا وحدها ولكن فى الغرب كله وفى أمريكا لا يطلع الصبح يوميا إلا على مسلم جديد.

ويقيم المسلمون فى أوربا كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعى لايقاربه نظام فالمسلمون هناك يقيمون فاصلا بين الحياة فى ظل الإسلام دين الحضارة الغربية فإذا أضفنا إلى هذا أن الفكر الغربى قد انبجس عن تيار جديد يريد أن يتفهم الإسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لصلاح البشرية عرفنا إلى أى مدى تكون قدرة الدعاة إلى الله فى القرن الخامس عشر على توصيل الإسلام علما وقدوة إلى العالمين.

ونقد استطاع الإسلام منذ اليوم الأول لظهوره أن يشكل لونه المميز على خريطة العالم وأن يمتد فى سنوات قليلة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وبذلك أقام عالمه المستقل المفرد ومنهجه الكامل المتجدد بالتوحيد والإيمان بالله والالتزام الأخلاقى فى تفسير الكون والحياة للمسلمين قبلتهم الواحدة التى يتجمعون حولها والتى لن يحيدوا عنها تهوى إليها قلوبهم بالإيمان وعقولهم بالفكر ، ومنذ ذلك اليوم الأول لم تكن لهم قبلة أخرى ولاتزال الكعبة البيت الحرام مثابة للناس دافعا وستظل مركز الدائرة فى أرض الإسلام.

ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام حاولت القوى المختلفة ضربه والإطاحة به ثم لما عجزت عن ذلك حاولت «احتواءه» وإذابته وصهره فى بوتقة الأممية ومازال الإسلام وسيظل قادرا بتركيبه الربانى وتشكيله الإنسانى القائم على الفطرة والحق والعدل على أن يقاوم كل محاولة لضربه ، سواء عن طريق الحروب الصليبية أو الغزو الاستعمارى أو الاحتلال الصهيونى أو محاولات الماركسية والإلحادية والوجودية والفرويدية وغيرها والواقع أن هناك حقيقة كبرى على شبابنا وأجيالنا الجديدة والمتجددة أن تكون موضع نظرها وتقديرها ، لاتغيب عن مفرق رأسها . تلك أننا «نحن المسلمين» نعيش فى ظل تحد قائم كبير فى منطقة زاخرة بالطاقة والذرة والتفوق البشرى ، كانت ولاتزال

وستظل – مصدر مطامع القوى المختلفة وتطلعاتها إلى الغزو والسيطرة ورغبتها إلى استنزاف الثروات وامتصاص الموارد وأن هذه المطامع جاءت فى ثوب الحروب الصليبية بدعوى استنقاذ قبر المسيح مرة ثم عادت فى ثوب تمدين البشرية باسم الاستعمار الغربى ثم عادت ثالثة باسم أرض الميعاد.

لقد عاشت هذه الأمة موضع طمع الطامعين والغزاة قرونا طويلة تنتهز فرصة ضعفها لتنقض عليها ولقد هزمت موجات الغزو واحدة بعد أخرى ولاتزال القدس هى خط الدفاع عن القبلة ولقد قاوم العرب وقاوم المسلمون هذا الغزو فى حطين وفى عين جالوت، وفى الزلاقة، وفى الأرك واستجاشت أرض الإسلام بالقوى الإسلامية المتجددة الظافرة التى حملت اللواء واستشهدت فى سبيل تثبيت الحق وتحرير الأرض وحماية بيضة الدين.

واليوم يواجه عالم الإسلام ثلاث قوى تحاول أن تنال منه:

«الاستعمار والصهيونية والشيوعية»

والمسلمون فى موقف الدفاع ثابتون دائما فى مواقعهم، يستمدون قوتهم من عقيدتهم التى كانت مصدر النصر لهم فى كل أزمة وموقف وسوف لاتستطيع القوى الغازية أن تنتزعهم من حصنهم الحصين، وهم لايعادون الأمم ولايطمعون فى السيطرة والاستعلاء بين العالمين ولكنهم طلاب سماحة وخير.

إنهم يريدون أن يمتلكوا إرادتهم فى أوطانهم متعاونين مع كل الأمم والقوى العالمية على خير البشرية.

إن أخطر التحديات التى تواجه المسلمين اليوم إنما هى: المحافظة على أصالة هذه الأمة وشخصيتها وكيانها النفسى والروحى والعقلى فى مواجهة محاولة إذابة هذه الأمة وصهرها فى بوتقة الأممية والعالمية والقضاء على ذلك الطابع القرآنى الربانى القائم على التوحيد والأخلاق والإيمان بالله والإيمان بالغيب والبعث والنشر، وذلك للحيلولة دون قيام الحضارة الإسلامية ذات الطابع الخاص المختلف والمميز عن الحضارة البشرية.

ويجب أن تكون مطالع القرن الخامس عشر الهجرى علامة على الدخول فى مرحلة الرشد الفكرى وإقرار الطابع الأصيل للشخصية الإسلامية التى تستمد وجودها وكيانها عن قيمها الأصيلة ومن تاريخها الحافل بالأمجاد.

إن هذه محاولات تهدف إلى تحريف مفهوم الإسلام وإخراجه من طابعه الجامع

بين الدين والدنيا والقلب والعقل والروح والمادة ، ومحاولة تصويره دينا لاهوتيا وذلك بانتفاص أبرز معالمه .

(أولا) فريضة الجهاد وتطبيق الشريعة الإسلامية ، والإمعان فى القضاء عليهما بالتمويه والتأويل والتزييف وطرح دعوات لها طابع الخروج عن ضوابط النفس والمجتمع بالتحلل من الحدود التى أقامتها الشريعة لحماية النفس الإنسانية والكيان الإنسانى من الانهيار . السقوط تحت سنابك الخيل الغازية المغيرة ، وإفساد مفاهيم الترابط الجذرى الوثيق بين العروبة والإسلام بطرح مفاهيم القوميات الواحدة التى تختلف اختلافا واضحا فى منطلقها ومفاهيمها عن العروبة فى جذورها الأصيلة المرتبطة بالتوحيد منذ دعوة إبراهيم أبى الأنبياء عليه السلام والممتدة فى إسماعيل عليه السلام جد العرب ، وقد كانت العروبة دائما وعاء الإسلام وكان العرب حملة لوائه إلى أقصى الأرض ومازالوا يحملون مميزات الإسلام إلى العالم كله ويعيدون بناء حضارة التوحيد فى مواجهة حضارة الوثنية التى تصدعت وانهارت قوائمها حين خرجت على قوائم التوحيد والعدل والأخـــلاق والإيمان بالغيب والبعث وقد كشفت مخططات الغزو الاستعمارى الصهيونى الماركسى عن وثائق كثيرة تلقى الضوء على تلك الدعوات التى تطرح نفسها فى العالم الإسلامى وبين جوانب الأمة العربية وأهمها الدعوة إلى هدم الأديان بقولتهم : إن الأمم بدأت وثنية ثم تطورت حتى عرفت التوحيد وهو قول معارض للحقيقة التى أثبتتها كل الدلائل التاريخية والحفريات الأثرية التى تؤكد أن البشر بدءوا موحدين ثم انحرفوا ثم عادوا إلى التوحيد وكان الإسلام خاتم الرسالات السماوية .

(ثانيا) الدعوة إلى هدم الأخلاق عن طريق مناهج الفرويدية والوجودية والنظريات التى تقول : إن الأخلاق نسبية وإنها مرتبطة بالبيئات والعصور وإنها تختلف باختلاف الحضارات . . وهو زيف باطل يستهدف تدمير المجتمعات . ولقد كانت الأخلاق مرتبطة بالعقائد لاتنفك عنها وظلت وستظل مرتبطة بالإنسان نفسه ، هذا الكيان الذى لايتغير .

(ثالثا) الدعوة إلى هدم الأسرة عن طريق مناهج دوركايم وليفى بريل وغيرهم من أتباع الصهيونية ودعاة التلمود وبروتوكولات صهيون وذلك بالقول : بأن الأسرة ليست من الفطرة وإنما الفطرة هى الانحلال وهى محاولة زائفة لمعارضة

مقررات الأديان وحقائق الاجتماع .

(رابعا) الدعوة إلى التماس مفهوم واحد للتاريخ : هو التفسير المادى عن طريق انجلز وماركس وهو تفسير مضلل بشهادة العلماء المنصفين ، ذلك أن التاريخ هو نتاج الحياة البشرية بكل جوانبها : جوانب الجسد والجغرافيا والروح والاجتماع . وللمادة والاقتصاد جزء منها وعامل واحد من عدة عوامل هى التى تشكل التفسير الحقيق والأصيل .

(خامسا) الدعوة إلى إثارة العصبية والعرق والعنصرية عن طريق دعوات متعددة ونظريات متضاربة تحاول أن تفرض صراع الأجناس وايجاد الفوارق بين العروق وضرب الأمم بعضها ببعض ، وإعلاء جنس بعينه .

(سادسا) محاولة إخراج اللغة العربية عن مفهومها الخاص الذى تنفرد به من جميع اللغات كلغة للقرآن الكريم وفرض مناهج من علم اللغات للتحكم فيها ، وهى مناهج — لاتنطبق عليها أصلا من حيث إنها ليست لغة قومية خالصة بحسبانها « لغة أمة » هى الأمة العربية ذلك أنها إلى ذلك لغة فكر وثقافة ودين لأكثر من ألف مليون مسلم .

(سابعا) إدخال مناهج من التربية تنتزع مفهوم العقيدة منها كنظرية ديوى وغيره بينما تقوم التربية الإسلامية أساسا على الترابط الأكيد بين العلم والعقيدة وتجعل من الإيمان بالله تبارك وتعالى حاميا للعلم وموجها له إلى الخير .

(ثامنا) فساد القول بأن هناك حضارة واحدة هى الحضارة التى قامت فى حوض البحر الأبيض المتوسط والحق أن هناك حضارتين متمايزتين لكل منهما طابعه الخاص ، وأنه منذ بزغ ضوء الإسلام قامت على شواطئه الجنوبية حضارة جديدة تختلف اختلافا واضحا عن حضارة شمال البحر المتوسط التى قامت فى العصر الحديث على أساس جذورها اليونانية الوثنية — تلك هى حضارة الإسلام ذات الجذور الأصيلة من التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب ، وهى الحضارة التى أنشأت المنهج العلمى التجريبى الذى كان مصدر الاختراع والعلم الحديث كله .

وإنه منذ قامت حضارة الإسلام فقد تأكدت ركائزها وثبتت جذورها وأصبح من الاستحالة اجتثاثها أو القضاء عليها وإن ظلت تواجه الأزمات والتحديات كلها وإن تخلف أهلها عن مفاهيمهم الأصيلة :

(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) المائدة آية ٣ .

(تاسعا) محاولة خلق هذه التحديات بين الأجيال وإعطاء هذا التحدى طابع الإثارة تحت اسم «صراع الأجيال» والحق أن مابين الأجيال التقاء لاصراع، وأن علاقة الشباب بالأجيال المتقدمة عنها هى علاقة الريادة والتوجيه والتجربة، وليست علاقة الخصومة أو الكراهية أو التسلط وهى علاقة طبيعية تقتضيها حركة المجتمعات ودورات الأمم وطبيعة الوجود البشرى نفسه، وقد وصفت فى إطار الإسلام فى صورة أمينة تقدمية، غير مخططات الغزو الفكرى – تحاول أن تخلق هذا الصراع تحت اسم تحرير الشباب الجديد من سيطرة القيم تحريرا لايدفعه إلى البناء والتقدم وإنما يحمله على الانهيار والتمزق فى ظل فراغ نفسى وثقافى وراء مذاهب ونظريات براقة تتهافت أمام التحقيق العلمى وأمام الواقع نفسه.

(عاشرا) محاولة طرح قضية «النمو السكانى» كأسلوب من أساليب دفع المجتمعات الإسلامية إلى التقلص أمام الهجرة اليهودية المكثفة وزيادة القوى الأخرى كمحاولة لضرب النمو الإسلامى العربى القادر على بناء الجيوش وعمارة الأرض الواسعة التى لم تستصلح بعد والتى تحتاج إلى ملايين الأيدى العاملة.

ومن الحق أن هذه ليست كل التحديات التى تواجه المسلمين على أبواب القرن الخامس عشر وإنما صورة منها نضعها أمام الأنظار فى ظل لمحة يقظة جديدة تسود الفكر الإسلامى والمجتمعات الإسلامية كمحاولة للدخول فى مرحلة جديدة من تأكيد الذات والتحرر من زيف التبعية الفكرية وبناء الأمة من داخل قيمها ومفاهيمها التى كانت دائما مصدر قوتها وانتصارها.

أنور الجندى

الدَّعوة الإسلامية فى أوربا

الدكتور محمد ابراهيم الجيوشى

المسلمون فى أوربا موزعون فى أقليات يختلف حجمها بين الآلاف والملايين ، والدول الأوربية التى يبلغ فيها عدد المسلمين الملايين هى الاتحاد السوفيتى وبعض بلاد أوربا الشرقية وهناك دولة واحدة فى المعسكر الشرقى يشكل المسلمون فيها أغلبية السكان وهى ألبانيا إلا أن المسلمين فى هذه البلاد يعيشون مثلما يعيش غيرهم لا حول لهم ولا قوة .

أما المسلمون فى أوربا الغربية فأحوالهم مختلفة عن المسلمين فى المعسكر الشرقى ، ذلك أن عددهم فى أى من هذه البلاد يبدأ من المئات فى بعضها وينمو حتى يقارب المليون فى بعضها الآخر ، هذا من ناحية العدد أما من ناحية الاستقرار فى تلك البلاد فإن السواد الأعظم من المسلمين فى هذه البلاد وفدوا إليها نازحين من البلاد الإسلامية المختلفة بحكم الصلات السياسية التى كانت تربط بين بلدانهم والبلاد الأوربية التى يعيشون فيها . وقد حضروا إلى تلك البلاد بحثاً عن عمل أو سعياً وراء فرص أحسن فى الحياة لم تتيسر لهم فى بلادهم الأصلية أو أن البلاد التى استضافتهم كانت فى مبدأ الأمر فى حاجة إلى خدماتهم التى كانت تتمثل فى ذلك الوقت فى نوعية الأعمال التى لم يكن الأوربيون يرضون بالعمل فيها إلا كارهين .

وقد لوحظ أن الجاليات الإسلامية فى بلاد أوربا الغربية تتشكل حسب نوعية العلاقة التى تربط بين البلد الأوربى والبلد الإسلامى الذى يرتبط سياسيا به ، وإذا عرفنا أن معظم بلاد العالم الإسلامى كان واقعاً تحت الاستعمار الأوربى فى آخر القرن الماضى ومطلع هذا القرن أمكننا أن نتعرف إلى طبيعة الجاليات الإسلامية التى استقرت فى كل بلد على حدة ففى بلد مثل إنجلترا نجد معظم المسلمين بها قادمين من دول الكومنولث فى آسيا وأفريقيا وخاصة شبه القارة الهندية وهى ما يعرف حاليا بالهند وباكستان وبنجالادش .

وفى بلد مثل فرنسا نجد غالبية المسلمين من المغرب العربى الجزائر وتونس والمغرب لأن فرنسا كانت مستعمرة لهذه المنطقة ، وفى هولندا نجد الجانب الأكبر من المسلمين بها من إندونسيا وذلك أيضا لأن هولندا كانت تستعمر إندونسيا لفترة طويلة وفى بعض البلاد الأخرى مثل ألمانيا والنمسا نجد الجاليات الإسلامية بها يغلب عليها العنصر التركى وهم من الذين هاجروا من تركيا بعد دعوة مصطفى كمال إلى العلمانية أو من أبنائهم .

هذه الجنسيات هى التى تشكل الغالبية العظمى للجاليات الإسلامية فى بلاد أوربا الغربية ، وقد انضم إليها مهاجرون من بلاد إسلامية أخرى خاصة فى السنوات الأخيرة ويمكن أن يقال فى ربع القرن الأخير حيث نمت حركة الهجرة من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، وازداد اتصال الشعوب بعضها ببعض وتعددت المصالح التجارية والاقتصادية والصناعية التى اقتضت هـــذا الاتصال لوجود المواد الخام فى بلاد الشرق الإسلامى عموماً والصناعات فى بلاد الغرب المتقدم صناعيا ، وتبع ذلك أن دخلت أعداد من سكان أوربا فى الإسلام بحكم هذه الصلات التى سبقت الإشارة إليها ، وازدياد فرص التفهم لطبيعة الإسلام عند هؤلاء الأوربيين على اختلاف نزعاتهم الفكرية وأوضاعهم الاجتماعية ، وقد نشأ هذا التفهم بالذات من مخالطة المسلمين عن قرب سواء فى بلادهم أو البلاد التى هاجروا إليها ، ونشأ كذلك من إتاحة الفرصة لقراءة الإسلام فى مصادره الأولى بعيداً عن تشويه المستشرقين ، ومغالطاتهم التى حاولت الأجيال السابقة منهم أن تروجها عن الإسلام بين جمهور القراء من الأوربيين ، وقد تهيأت لهم الفرصة فى الماضى ليذيعوا عن الإسلام أشياء ليست فيه وليست منه ، ويلصقوا به أموراً لاتمت إليه بصلة اعتمادا على أن الجمهور الذى يكتبون له خالى الذهن تماماً عن الموضوع الذى يكتبون فيه ، وليست أمامه فرص مواتية ليقف على الحقيقة من مصادرها الأصيلة أو يقرأ عنها من وجهة نظر معتنقيها والمؤمنين بها أما هذه الأيام فقد تغيرت الصورة كثيراً عما كانت عليه من قبل ، وإن كان لم يزل فى ميدان المشتغلين بالإسلاميات فى أوربا عدد ممن انطوت صدورهم على الكيد للإسلام ولكنهم يحسبون ألف حساب لآخرين من أبناء أوربا الذين أتيحت لهم الفرصة لمعرفة الإسلام من مصادره مباشرة ولأبناء المسلمين الذين يقرءون بتلك اللغات أن

يردوا عليهم مقالهم وأن يظهروا عدم إنصافهم وخطئهم فيما كتبوا والنتيجة أن يظهر للناس أنهم إما جهلاء بحقائق الإسلام وإما حاقدون وكلا الأمرين مر بالنسبة لهم وكان من الأسباب ذات الأثر البعيد فى تغير نظر الأوربيين إلى الإسلام أن اعتنق الإسلام عدد من المثقفين منهم له بعد أن دخلوا ميدانه كغيرهم من المستشرقين ولكنهم أخذوا بما اكتشفوه فى الإسلام من وضوح الرؤية واستقامة العقيدة ومسايرتها للمنطق السليم ، واتفاقها مع الطبيعة البشرية السوية ، وإقناعها لتطلعات العقل ونوازع القلب وهواتف الروح وأصبحنا نجد كثيراً من الكتب نتحدث عن الإسلام وعقيدته وكتابه ورسوله وتاريخه وحضارته ومثله وأخلاقه بلغات أوربية مختلفة كتبها مسلمون ومفكرون أوربيون وبخاصة فى الفرنسية والإنجليزية . تلك صورة عامة عن حالة الإسلام واتجاه النظرة إليه فى أوربا ويحق لنا بعد هذه النظرة العامة أن نأخذ دولة من دول أوربا الغربية ونتحدث عن الإسلام والمسلمين فيها ، بدايتهم وأوضاعهم الحالية ، واحتياجاتهم فى المستقبل وواجب العالم الإسلامى نحوهم لتكون بمثابة نموذج يتبع مع الجاليات الإسلامية الأخرى فى أوربا . أما تلك الدولة فهى إنجلترا وقد وقع اختيارى على إنجلترا كنموذج تعرض من خلاله أوضاع المسلمين فى أوربا لأسباب أهمها أنى عشت فى هذه البلاد حوالى أربعة عشر عاماً كاملاً فى حقل الدعوة الإسلامية هناك .

وثانيها أن المسلمين هناك لهم مطلق الحرية فى أن يتخذوا من الوسائل ما يحافظون به على عقيدتهم الإسلامية وشخصيتهم وأن الجالية الإسلامية فى تلك البلاد قد نمت نمواً ملحوظاً فى السنوات العشر الأخيرة ، وأن إنجلترا صارت محط أنظار عدد كبير من أثرياء المسلمين من العرب وغير العرب بحيث أصبح لكثير منهم فيها إقامة دائمة أو مؤقتة تتجدد كل عدة أشهر ووجد تبعاً لذلك رأس المال العربى بصورة ملحوظة يسهم فى كثير من ألوان النشاط الاقتصادى والتجارى ، ومن الميسور إزاء هذه الظروف أن ينتفع المسلمون المقيمون فى إنجلترا بجانب من بعض تلك الأموال التى تذهب للضرائب يستعينون بها على الاحتفاظ بشخصيتهم وإقامة مؤسساتهم من غير أن يكلفوا أصحاب رءوس الأموال شيئاً يذكر .

بداية المسلمين فى إنجلترا :

بدأ المسلمون يتعرفون إلى إنجلترا

ويتخذون منها مكاناً للإقامة مع مطلع هذا القرن وكان ارتباطهم بالإقامة هناك مؤقتاً أول الأمر جاءوا إليها عمالاً فى السفن التى تقوم بنقل البضائع والمتاجر بين إنجلترا وموانى الشرق العربى والإسلامى . ولعل هذا يكشف لنا عن السبب فى وجود الجاليات العربية الإسلامية منذ البداية فى المدن الساحلية والموانى البحرية الإنجليزية مثل كارديف وليفربول وجلاسجو وساوث شيلد ، ومع مرور الزمن أخذت هذه الجاليات تنمو ويزداد عددها ويشجعها ذلك على الشعور بالاستقرار شيئاً فشيئاً حتى اتخذوا من هذه البلاد محل إقامة دائمة لهم ، وأخذوا يمارسون حياتهم هناك كما كانوا يمارسونها فى بلادهم ، وقد التقيت منذ سنوات برجل يمنى فى مدينة ساوث شيلد طاعن فى السن ، أحببت أن أعرف منه مدة إقامته بإنجلترا ، فأخبرنى أنه قدمها لأول مرة عام ١٩١١م . ومنذ عشر سنوات مضت لم تكن تجد من جاليات عربية فى إنجلترا إلا جاليات قدمت من اليمن الشمالية والجنوبية عن طريق عدن انضم إليهم جماعات من الصومال وكونوا لهم مجتمعات تعيش فى المدن التى سبق ذكرها ويعملون معاً فى الموانى والسفن ، أما فى السنوات العشر الأخيرة فقد تغير الوضع كما كان عليه واصبحت تجد جاليات عربية من بلاد عربية كثيرة وبخاصة مصر وفلسطين والعراق والسعودية والكويت ودولة الإمارات وعدة آلاف من لبنان بعد الحرب الأهلية اللبنانية ، وأصبح من المألوف أن تجد عرباً فى كل ميادين الحياة خاصة ميدان المال والاقتصاد والتجارة ، وأصبح سراة العرب يمتلكون ثلاثين فى المائة من مساكن الأحياء التى تقع فى قلب مدينة لندن ، حتى إنه بعد أن تم بناء مسجد لندن المركزى فى قلب لندن ارتفعت أثمان المنازل من حوله بمقدار ثلاثين فى المائة عما كانت عليه من قبل نظراً لإقبال العرب والمسلمين على اقتناء منازل لهم من حوله .

عدد المسلمين فى إنجلترا :

يقارب عدد المسلمين فى إنجلترا المليون أو يزيدون قليلاً ويشكل الغالبية العظمى منهم القادمون من شبه القارة الهندية يليهم باقى دول الكومنولث فى آسيا وأفريقيا ثم العرب الذين تزايد عددهم فى السنوات الأخيرة بشكل ملحوظ ، وقد انضم إلى ذلك عنصر جديد هم المسلمون الإنجليز فقد تزايد إقبال الإنجليز على الإسلام فى السنوات الأخيرة بصورة تلفت الانتباه ، وهؤلاء الداخلون فى الإسلام من الإنجليز

يمثلون القطاعات المختلفة من أبناء الشعب البريطانى فمنهم الأساتذة فى الجامعات ، ومنهم رجال الأعمال ، والشباب والطلاب والعاملون فى الميادين المختلفة ، وينطبق ذلك على الجنسين من الرجال والنساء وحسبك لتعلم مدى نمو إقبال الإنجليز على الإسلام أن تعرف أن مجموعة ممن اعتنقوا الإسلام فى السنوات العشر الأخيرة قد كونت لنفسها جمعية سموها جمعية المسلمين الإنجليز ، أخذوا يثقفون أنفسهم إسلاميا ، ويعيشون معاً عيشة تعاونية ، ويوجهون جانباً كبيراً من أوقاتهم للدعوة إلى الإسلام بين الإنجليز وغيرهم من بلاد الغرب خاصة فى أمريكا ، وأنهم استطاعوا أن يصدروا مجلة تعبر عنهم وهى مجلة فصلية أنيقة الإخراج والتبويب ، وأنهم كانوا يذهبون إلى حديقة هايدبارك الشهيرة فى لندن كل يوم أحد يقيمون صلاة الظهر جماعة هناك يؤمهم أحدهم أو أحد العلماء الزائرين للندن من بلاد الإسلام ثم يجلسون بعد الصلاة للإجابة على أسئلة الإنجليز الذين تجمعوا حولهم يسألونهم عن دينهم وعن صلاتهم وعن أسباب اعتناقهم لهذا الدين .

وقد رأوا أخيراً – بعد أن نما عددهم وتزاوجوا فيما بينهم ونشأ منهم أطفال مسلمون أن يكون لهم قرية خاصة بهم يقيمونها على أسس إسلامية بحتة ، ويصبغون الحياة فيها بالصبغة الإسلامية حتى ينشأ الجيل الجديد منهم بعيداً عن الضغوط التى تحيط به من منهج الحياة الغربى ، وقد اشتروا قرية فى إحدى المقاطعات الجنوبية الشرقية لإنجلترا بها عدد من المساكن ويحيط بها حوالى سبعين فداناً بلغ ثمنها سبعين ألف جنيه إسترلينى ، لم يكن معهم منها إلا عشرة آلاف كان قد دفعها لهم الشيخ سلطان القاسمى حاكم الشارقة ، فتقدم أحدهم وضمن المبلغ الباقى باسم وقف أسرته ووضعها تحت تصرف الجماعة وعاش معهم فيها كواحد منهم لا ميزة له على أحد منهم مطلقاً وظل الأمر كذلك حتى قدم لهم الشيخ سلطان الستين ألف جنيه الباقية وأخذوا يتخذون منها منطلقاً لنشاطهم واجتماعاتهم وفى تخطيطهم للمستقبل أن يقوم فى وسط هذه القرية مسجد وبجانبه مدرسة يتعلم فيها أبناؤهم وتقوم الحياة فيها على أسس إسلامية خالصة ولمن يريد أن يساكنهم فيها من غير المسلمين الحق كله فى أن يشاركهم هذه الحياة بشرط أن يلتزم بما يلتزمون به من سلوك وأخلاق ومعاملات .

وقد نجحوا حتى الآن فى إقامة مطبعة خاصة بهم طبعوا فيها عدداً من الكتب التى

ترجموها عن العربية وبخاصة من فقه الإمام مالك وبعض الكتب التى كتبها زعيمهم.

وقد سمى نفسه عبد القادر الصوفى، وافتتحوا لهم عدة مراكز للدعوة فى عدد من المدن الأخرى فى إنجلترا وغيرها من بلاد أوربا وبخاصة فى قرطبة وهم يأملون يوماً أن يقيموا صلاة الجمعة فى مسجد قرطبة ولهم مركز أو أكثر فى أمريكا كذلك.

وهم خليط من ذوى الثقافات والأعمال المختلفة إلا أن سمة الشباب تغلب عليهم فنهم الكاتب والمؤلف، ومنهم الكهربائى والنجار، والحذَّاء والطالب، وقد بعثوا أحدهم يدرس الطب فى أمريكا لمدة عامين ثم يصرح له أن يباشر العلاج بعد أن يجتاز امتحاناً بتفوق، وقد قاموا أخيراً بمحاولة فذة وغريبة إذ بعثوا مجموعة منهم تتكون من ثلاثة رجال وزوجاتهم ليقوموا بالدعوة إلى الإسلام فى نيجيريا، ولما سئلوا عن سبب هذا الاختيار أجابوا بأن الأفارقة تعودوا أن يجدوا الرجل الأوربى يذهب إليهم فى صورة المبشر بالدين المسيحى، فأردنا أن نقدم لهم الرجل الأوربى داعياً إلى الإسلام. وقد اتصلوا بعدد من المؤسسات الإسلامية ذات الإمكانات المادية الكبيرة ليتعاونوا معهم على الاستمرار فى هذه المهمة إلا أنهم لم يجدوا أذناً صاغية حتى الآن فيما أعلم.

ولهم محاولات جادة فى تعلم اللغة العربية، وقد حضر زعيمهم عام ١٩٧٦ إلى القاهرة والتقى بفضيلة المرحوم الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود الذى قرر على الفور قبول ثلاثة منهم بالأزهر لتعلم اللغة العربية وقد حضروا بالفعل وظلوا يتلقون العلم هناك لمدة عام أو عامين لست أذكر، وكل هذه المحاولات تعكس مدى اهتمامهم وتحمسهم، ولا يعيبهم إلا أن فيهم تسرعاً فى بعض الأحيان فى الحكم على الأمور حسب ظواهرها ولكنهم لا يلبثون أن يذعنوا للحق حينما يتبين لهم، وقد حاول بعض الناس أن يستغلوا فيهم ذلك الحماس فجروهم إلى المشاركة فى بعض الأمور التى أخذت عليهم من انتقادهم لبعض الأمور فى البلاد العربية التى لم يقفوا على جلية الأمر فيها.

وقد تغلغل المسلمون فى كل أنحاء إنجلترا بحيث إنه قلما تجد قرية ليس فيها أسرة مسلمة، والمسلمون يشكلون ٢٪ من نسبة سكان إنجلترا، وبعد أن استقروا فى مناطقهم أخذوا يكونون لهم جمعيات يتعاونون من خلالها على تهيئة مكان يصلون فيه ويعلمون أولادهم وقد تعددت هذه الجمعيات حتى فاقت الحصر بحيث تجد

جمعية أو أكثر فى كل حى حسب تزايد أعداد المسلمين ، وأخذت تدبر أمور الأعضاء على الصعيد المحلى وأهم ما تتجه إليه العناية أولاً توفير مكان للصلاة ولتعليم الأطفال مبادئ الدين وأصول القراءة والكتابة باللغة العربية حتى يتمكنوا من قراءة القرآن وتأدية الصلاة باللغة العربية ويتعاونوا فى تحقيق ذلك مع المؤسسات الكبرى فى داخل إنجلترا مثل المركز الإسلامى بلندن والمجلس الإسلامى الأوربى ، واتحاد الجمعيات الإسلامية ، واتحاد الطلاب المسلمين ، ودار الرعاية الإسلامية .

والحاجة ماسة إلى توجيه أكبر من العناية بالمسلمين فى هذه البلاد لأنهم يواجهون تحديات أكبر من طاقاتهم ، حقيقة أنهم لا يواجهون أى ضغط رسمى يتعرض لعقيدتهم ومباشرتهم لها ، ولكن نظام الحياة الذى يحكم تلك البلاد ، ووسائل المعيشة ، ومنهج المجتمع الذى يتقلبون فى جنباته وقيم ذلك المجتمع تختلف اختلافاً كليا عن قيم الإسلام ونظمه ومنهجه فى السلوك والأخلاق ، وهذه الأوضاع التى تسيطر على الحياة وتوجهها تمارس بصورة تلقائية فى كل مظهر من مظاهر الحياة فى المدرسة والشارع والحدائق والمنازل والصحف والإذاعة والتليفزيون وإذا استطاع الجيل الذى وفد إلى تلك البلاد بعد أن تلقى قدراً كافياً من المعرفة والتربية الإسلامية فى بلاده أن يدرك مدى مخالفة هذه الاتجاهات لما آمن به من عقائد وما نشأ عليه من مثل وما ألفه من أخلاق فإن الجيل الناشىء الذى ولد وتربى فى هذه البلاد يواجه تحدياً خطيراً يعيش معه فى المدرسة والبيت من خلال أجهزة الإعلام وفى الطريق وساحات التنزه فى الحدائق والشواطئ ، وإذا لم يزود بوسائل على قدر مماثل من الاقتناع والتقدم الحضارى فينغمس فيما حوله من مظاهر الحياة وسيأخذ بها وينجرف فى تيارها ، ويصبح الإسلام فى وجدانه وتفكيره شيئاً غريباً ينتمى إلى مجتمعات أخرى لا تمت له بصلة أو بصلة تجعله يشعر بعدم الرضا من الانتساب إليها ، وهنا يكمن الخطر على الجيل الجديد من أبناء المسلمين فى تلك البلاد ، فإذا كان الإسلام يكسب أتباعاً جدداً من الراغبين فيه من أبناء تلك البلاد فإن أضعافاً مضاعفة من أبنائه المحسوبين عليه سينسحبون من ركبه إذا ترك الأمر على ما هو عليه الآن .

وقد قامت المؤسسات الإسلامية بجهود دائبة تحاول بها أن تفعل شيئاً تحمى به هؤلاء من الضياع إلا أن الإمكانات الميسرة

لها غير كافية لتحقيق صورة مثلى تجعلها قادرة على التأثير المطلوب فى هؤلاء الناشئين الجدد وفى كثير من الأحيان تأتى هذه المحاولات التى تقوم بها الجمعيات الصغيرة نتيجة عكسية تنفر الصغار من الإسلام وتزرع فى قلوبهم بطريق غير مباشرة الإحساس بعدم السعادة من الانتماء إليه.

وينشأ ذلك عن الأسلوب الذى يأخذون به هؤلاء الصغار فى تلقينهم الإسلام وسبب ذلك المقارنة التى تعيش فى داخل الطفل من خلال ممارسته لوسيلتين من وسائل التعليم، فهو فى الصباح يذهب إلى المدرسة الحكومية يتلقى فيها مع غيره من أبناء الشعب الإنجليزى ما يتلقون من معارف وخبرات بطريقة تربوية حديثة وبأسلوب سهل مبسط يتفق مع قدرات الطفل، ويساعد على تنمية قواه الفكرية وخبراته السلوكية ويحاط كل ذلك بوسائل متعددة من ألوان الراحة النفسية والجسمانية والمظاهر الجمالية التى تحيط به سواء فى فناء المدرسة أو فى حجرة الدراسة أو فى وسيلة التعبير وطريقة المعاملة التى يلقاها ممن يتولون تعليمه مدرسين ومدرسات فإذا ما انتقل من ذلك الجو المريح للنفس المغير للعقل المتفهم لطبيعة الطفل فى تلك المرحلة، وأخذ فى وقت غير مناسب وفى مكان غير معد وأجلس أمام شخص غير معدّ إعداداً ثقافيا كافياً أو مؤهل تأهيلاً تربويا مناسبا، ثم أجبر على ترديد كلمات وعبارات لم يمهد لها التمهيد الكافى وأفهم أن هذا هو الإسلام أو أنه يوضع فى هذا الموضع غير المريح ليتعلم الإسلام ارتبط فى ذهنه اليافع وانغرس فى قلبه الغض أن الإسلام شىء غير محبب ولا سهل القبول، ونفر منه، وارتبط فى نفسه بمظاهر التخلف التى ينتهى إليها من المقارنة التى تنعقد فى نفسه بين ما يراه فى المدرسة خلال الأسبوع وبين ما يؤخذ به من هذه المظاهر التى صورناها فى آخر الأسبوع وقد حاولت المؤسسات الواعية أن تتلافى هذا بقدر المستطاع كما يحاول المركز الإسلامى أن يفعل فى الفصول التى يديرها إلا أن ذلك جهد محدود يحتاج إلى تأييد وإمكانات مادية واسعة تجعله يؤدى الهدف المقصود منه، والعلاج الحاسم لهذه الظاهرة فيما أعتقد أن تنشأ مدارس إسلامية كاملة يتلقى فيها التلاميذ المناهج الإنجليزية كغيرهم من أبناء المدارس الأخرى ويضاف إلى ذلك دراسة اللغة العربية والدين الإسلامى ومن حسن الحظ أن قوانين التعليم فى بلد مثل إنجلترا لا تمانع فى ذلك.

وقد قامت الجاليات الأخرى بإنشاء مثل هذه المدارس لأطفالها وتتلقى من وزارة

التربية والتعليم فى إنجلترا مساعدات مالية تعادل ثمانين فى المائة من النفقات التى تحتاجها هذه المدارس سنويا بعد أن تقدم المبنى المناسب الذى تتوافر فيه الاشتراطات الصحية والجمالية المطلوبة فى المدارس الأخرى وقد تقدمت بمشروع جعلته كنموذج لهذه المدرسة منذ عام ١٩٧١م وعرض على مجلس السفراء المسلمين فى حينه وأرسل إلى مؤتمر وزراء خارجية المسلمين فى جدة وأرسلت نسخ منه إلى عدد من ملوك وأمراء ورؤساء الدول الإسلامية ولكن لم يتقدم أحد لتبنى هذا المشروع بعد والقيام بعمل جدى لحماية مستقبل الإسلام فى هذه البلاد والإمكانات المالية متوفرة لدى البلاد الإسلامية ، وهناك من المؤسسات الإسلامية فى العالم الإسلامى من يستطيع النهوض بهذا الأمر ليس فى إنجلترا وحدها ولكن فى كل البلاد الأوربية والأمريكية التى يوجد بها جاليات إسلامسة مماثلة تتعرض لمثل الظروف التى أشرنا إليها .

هذه صورة تحتاج إلى علاج سريع من حكام المسلمين والقائمين على المؤسسات الإسلامية الكبرى فى العالم الإسلامى مثل الأزهر ورابطة العالم الإسلامى ومؤتمر الدعوة الإسلامية ووزارات الأوقاف والشئون الإسلامية فى الكويت وقطر ودولة الإمارات العربية وبعض هذه المؤسسات عنده الكفاءات العلمية والثقافية وبعضها عنده الإمكانات المادية التى تكفل نجاح هذه المشروعات الحيوية بالنسبة لمستقبل المسلمين فى تلك البلاد ولايحتاج الأمر إلا لقدر من التنسيق والتعاون ، والنظر إلى المصلحة الإسلامية البحتة بالدرجة الأولى بصرف النظر عن أن يقترن اسم تلك المؤسسة أو الدولة بذلك المشروع أو ذاك .

والصورة الثانية التى تحتاج إلى العناية إقامة المساجد التى تتخذ شكلا واسعا الآن – فقد قام عدد من المساجد فى أنحاء مختلفة من إنجلترا وهناك أعداد لاحصر لها من المشروعات التى تضع فى خطتها إقامة مساجد ومدارس فى مناطق عديدة من إنجلترا إلا أن هذه المشروعات بعضها طموح لايتفق مع القدرات الميسرة لتلك الجماعات ، وبعضها يتقدم به آخرون لا لشىء إلا لتقترن أسماؤهم بذلك المشروع أو ذاك سواء كان قائماً على دراسة ميدانية للاحتياجات الفعلية للجالية أولا . وترتب على ذلك أن تعددت تلك المشروعات وزاحم بعضها بعضاً وحارب بعض القائمين بها البعض الآخر ، وهذا واقع ملموس يحسه من عايش المسلمين فى تلك البلاد

وعرف مشاكلهم ودرس احتياجاتهم ، ويتقدم جميع هؤلاء إلى المسئولين فى العالم العربى عن المؤسسات الإسلامية يطلبون معاونتهم فى تحقيق المشروع المقترح وكثيراً ماتستجيب تلك المؤسسات أو بعضها لطلب يصلها من هنا أو من هناك . فتساعد على بدء التنفيذ ثم تعجز الموارد المتاحة عن إتمام المشروع فيضيع المال فى غير فائدة ملموسة ولايتحقق النفع المرجو لأبناء الجالية ، والسبب فى ذلك هو الارتجال وعدم التنسيق بين المؤسسات القادرة على المعاونة لعدم توفر الدراسات الكافية لديها عن مدى مايتسم به ذلك المشروع أو ذاك من جدية وما يترتب على إقامته من منفعة لأبناء الجالية المقيمين فى المنطقة المحيطة به ، ورغبة فى أن تؤدى المساعدات دورها الفعال فى معاونة من يحتاجون العون ، وأن تذهب هذه المساعدة للجمعيات الجادة التى يتوفر لدى أعضائها الصدق والإخلاص والرغبة فى العمل والتى لديها من الإمكانات المادية ماتتمكن بواسطتها من الإنفاق على استمرار المشروع بعد إقامتها حتى نضمن له الاستمرار فى خدمة أبناء المسلمين أقترح – ونعيد الاقتراح الآن من على صفحات هذه المجلة – أن تنشأ لجنة تسمى لجنة المساعدات الإسلامية أو المشروعات الإسلامية فى إنجلترا مثلاً وتقوم مثيلات لها فى البلاد التى لها ظروف مماثلة يتكون أعضاء هذه اللجنة من شخصيات تمثل سفارات الدول التى تقوم بالمساعدات المالية ومعهم ممثل من المركز الإسلامى فى لندن والمجلس الإسلامى الأوربى وقد يمتاز معهم من يرد الحاجة إلى مساعداته ، تقوم هذه اللجنة بتلقى الطلبات التى تتقدم بها الجماعات الإسلامية المختلفة وتدرس مدى جديتها ، ثم تحول المساعدات المالية باسم تلك اللجنة ، وبعد القيام بالدراسات المطلوبة تقرر اللجنة بناء على ماتراه من جدية المشروع ومدى الحاجة إليه المساعدة المطلوبة لبنائه ، وعن هذا الطريق نضمن تحقيق أمرين رئيسيين هما مساعدة من يحتاج المساعدة فعلاً ، وتوجيه الأموال وجهة صحيحة يظهر أثرها بين المسلمين ، ويقطعون الطريق على النزعات الشخصية والصراعات المذهبية والأقليمية التى أخرت كثيراً من المشروعات النافعة .

هذا استعراض سريع أرجو أن أكون قد ساعدت من خلاله على إلقاء الضوء على أوضاع الأقليات الإسلامية فى أوربا بعامة وإنجلترا بخاصة .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق .

د . محمد إبراهيم الجيوشى

وثيقة تاريخية

كان يمكن أن تتحول بريطانيا إلى إمارة إسلامية وتدفع الجزية

بقلم : المؤرخ البريطانى جابرييل رونى

فيما يلى النص الحرفى لوثيقة تاريخية هامة ، يكشف عنها المؤرخ البريطانى فى كتابه the tartais khanis english qabriel roray الذى صدر منذ عدة أسابيع فى بريطانيا . وقد قامت صحيفة الصنداى تايمز بنشر هذا الجزء من الكتاب .

وهو جزء يبين جانباً تاريخيا هاما ومهملاً معاً ، وهو أن ملك بريطانيا جون لاكلاند (الصورة) قدم بريطانيا للمسلمين كى تعتنق الإسلام ، أو تدفع الجزية – وكى تكون تابعة للدولة الإسلامية ، غير أن الزعيم العربى محمد الناصر رفض هذا العرض ، لأنه اعتبر ملك بريطانيا أحمق ولا يستحق التحالف معه !

ستكون صدمة لكل من تأثر بـ « غزو » العرب الحالى للعاصمة البريطانية لندن ، ذلك أن لحظة حاسمة من التاريخ البريطانى ، كان ستقرر مصير الاعتقاد الدينى السائد ، فلولا الصدفة وحدها ، لأصبحت بريطانيا المسيحية بلدا مسلماً منذ ثمانية قرون .

ففى عام ١٢١٣ ، وبحركة يائسة من الملك جون لاكلاند أرسل وفداً سريا من ثلاثة أشخاص ، إلى الأمير محمد الناصر ، الحاكم المغربى القوى ، ليعرض له ولاءه وليعده بأنه سيكون أى الملك جون لاكلاند تابعاً مخلصاً ، فيما إذا قبل الأمير أن تكون بريطانيا تحت الرعاية العربية ، وليؤكد له أن الدخول فى الإسلام هو المخرج من ضغط المشاكل السياسية التى تلح عليه .

لقد وقع بالصدفة بين يدى ، النص الحرفى لما حمله الوفد ، فى دورية قديمة ، كانت تصدر فى ذلك الوقت عن أحد الأديرة ، عندما ، كنت أجرى أبحاثاً على الكاهن الكاثوليكى روبرت دى لندن ، الذى كان صدر بحقه حرمان كنسى ، ونفى من بريطانيا ، بسبب دوره فى ثورة الماغنا كارتا .

هذه الحلقة الواقعية المنسية ، من التاريخ البريطانى ، سجلها ماتيو باريس ، المؤرخ الإخبارى الدقيق لأحداث القرن

الثالث عشر ، الذى أخذ حقائقه واستقاها من مصادرها .

وحسب مايقول باريس ، أن رجال الوفد الثلاثة كانوا مكونين من البارونين توماس هارنجتون ورالف فيتزسنكولاس ، والسيد روبرت دى لندن غير أن باريس لم يقدم أى تفسير لضم الكاهن اللندنى للوفد ، إلا أن السبب الأكثر ترجيحاً ، هو أن الملك جون لاكلاند ، عهد إلى السيد روبرت بإدارة شئون أبرشيته الخاصة ، ولذلك فهو من المقربين والموثوقين ، وبالتالى فإن فى اشتراكه فى الوفد يشكل ضماناً ضد البارونين كى لايمارسا عليه خداعاً فى أثناء تأدية المهمة .

وكان توماس هاردنجتون ، رئيس الوفد كان قد أعطى تعليمات من قبل الملك : ليبلغها إلى أمير أفريقيا العظيم وأمير المغرب وإسبانيا ، بأنه – أى الملك البريطانى سيتنازل عن طواعية وطيب خاطر ، عن مكانته ومملكته ، ويصبح تحت تصرف الأمير العظيم . وإذا كان يسره فإنه يضع بريطانيا أمانة بين يديه ، ويتخلى عن الاعتقاد بالديانة المسيحية ، ويتمسك ويلتزم بكل إخلاص بدين وعقيدة محمد .

ونقلت رسالة الملك جون أو تعلياته إلى الأمير بواسطة مترجم ، حيث كان رئيس الوفد بمهارة خطابية هائلة عن غنى الأرض الإنجليزية .

وخصوبة حقولها ومهارة شعبها العظيم الحاذق الخلاق ، ومعرفة هذا الشعب للغات الثلاث : اللاتينية والفرنسية والإنجليزية وإتقانهم لكل مهنة عقلانية .

وكان رد الأمير المغربى المسلم ردا حصيفاً جاء فيه :

« لم أقرأ أو أسمع قط أن ملكا يمتلك مثل هذه البلاد المزدهرة الخاضعة المطيعة له عن طواعية ، يقوم بتدمير سيادته واستقلاله بجعل بلده الحر يدفع الجزية لغريب . علماً أنها يجب أن تكون ملكه وله وحده . وبتحويل السعادة إلى بؤس ، فيسلم نفسه لإرادة آخر ، ويهزم بلده دون سبب » .وطلب الأمير من أعضاء الوفد ألا يمثلوا فى حضرته ثانية ولدى عودتهم إلى بريطانيا « بكى الملك جون لان مساعيه قد أحبطت » . وربما اعتقد أن باروناته قد خدعوه وخانوه . لكنه وضع الكاهن اللندنى مسؤولاً عن جميع شئون دير القديس البانز كمكافأة له . غير أن مسؤلياته عن هذا الدير انتهت ، لأن الرهبان رشوا الملك لإزاحته بسبعمائة من الماركات الفضية (المارك وحدة نقدية إنجليزية قديمة تعادل ١٣ شلناً و٤ بنسات) .

دعوة إلى تدوين التاريخ الحربي الإسلامي

اللواء / محمد جمال الدين محفوظ

كان سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه يعلم بنيه المغازى والسرايا ويقول : يابنى . . إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها

● من أهم ما تعنى به الأمم الحية تدوين تاريخها الحربى . . فالوقائع الحربية فى حياة الأمة أحداث جسام ذات صلة مباشرة بأمنها وسلامتها ، ولها آثار بعيدة المدى على كيانها ووجودها ومصيرها . . ولابد للأمة التى تلقى بأغلى ما عندها من قوى بشرية واقتصادية وسياسية ومعنوية فى الصراع مع أعدائها من تقييم ما قامت به من عمل وجهد لاستخلاص الدروس النافعة لها فى حاضرها ومستقبلها . .

والتاريخ الحربى بالنسبة لصنعة الحرب ، كالتشريح بالنسبة لمهنة الطب . فكلاهما يمنح من يمارسه من الخبرة والمهارة ما يجنبه مواطن الزلل ، ويعصمه من الوقوع فى الخطأ مرتين ، ويفتح أمامه آفاقا عريضة للابتكار والتطوير والتجديد فى مختلف مجالات التخطيط للحروب ، وأساليب إدارة معاركها وعملياتها الحربية بما يحقق الهدف المنشود بأقل الخسائر والتكاليف وفى أقصر وقت . .

وليس هناك قائد شهير على امتداد تاريخ الصراع البشرى الحافل ، إلا وكانت إنجازاته فى مسرح الحرب وليدة اهتمامه الفائق بدراسة معارك الماضى ، وشغفه الشديد بالإحاطة التامة بكل دقائق الحروب وتفاصيلها . وعلى الجانب الآخر يقف القادة المنهزمون يعضون بنان الندم لجهلهم بالتاريخ العسكرى الذى أودى بهم ودفع بجيوشهم إلى الفشل والهزيمة . يقول المشير مونتجمرى فى كتابه (الحرب عبر التاريخ) :

«إن القيمة الحقيقية للحرب الطويلة فى الماضى هى فى الخروج بالحقائق واستخلاص العبر والدروس المفيدة ، وهناك قدر كبير من الخبرة العظيمة والتجارب الكثيرة ، مدفون تحت أنقاض الماضى السحيق والعصور المتعاقبة

للحروب ، ولن يستطيع القادة الإفادة منها إلا بوجود المؤرخين العسكريين الذين يخرجونها من تحت أنقاض الماضى »

ويقول ماوتسى تونج فى كتابه (كتابات حربية مختارة) :

« إن القوانين والنظريات العسكرية ماهى إلاحصيلة وخلاصة الحروب الماضية ، والتى وضعها الأقدمون أو المعاصرون ، وهذه الخلاصة يجب علينا دراستها دراسة عميقة واختبار نتائجها على ضوء ما اكتسبناه نحن من تجاربنا ، ثم استيعاب الجوانب القيمة لهذه النتائج مع رفض الضار منها وإضافة ما يمكن إضافته إليها من خبراتنا ، وهذه الإضافة هامة جدا ، إذ بدونها لن نتمكن من تطوير وتوجيه الحرب »

من أجل ذلك بلغ اهتمام الدول بتاريخها الحربى أن جعلت له أجهزة وإدارات متخصصة تتفرغ لتدوينه .

فقبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها ، كانت إدارة التاريخ بوزارة الحرب الأمريكية قد جمعت أكثر من مائتين من الضباط والعلماء ، وناطت بهم مهمة كتابة تاريخها الحربى . . وقد استغرق منهم إنجاز هذا العمل القومى أربعة عشر عاما ، أتموا خلالها تأليف سبعة وعشرين مجلدا بلغت جملة تكاليفها قرابة سبعة ملايين من الدولارات هذا مثل على أهتمام الدول بتدوين تاريخها الحربى . .

● والذى نلاحظه أن الأمة الإسلامية لم تعن بتدوين تاريخها الحربى على النحو الذى يتكافأ وقدرها ومكانتها بين الأمم ونتج عن ذلك أمران :

الأول : أن رجال العسكرية فى كثير من الدول العربية والإسلامية لا يدرسون إلا التاريخ الحربى للدول الأجنبية ونظرياتها الحربية وأعمال قادتها ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين ، تاريخ حربى أو نظريات حربية أو أعمال قادة تستحق الدراسة

الثانى : أن المؤرخين العسكريين الأجانب أباحوا لأنفسهم أن يهونوا من عظمة المسلمين وما أظهروه من عبقرية حربية ، ومنهم من بلغ حد الادعاء بأن الإسلام متخلف أو لم يضف جديدا فى مجال العلم العسكرى وفن الحرب ! (١)

(١) انظر التفاصيل فى المؤلفات التالية (على سبيل المثال) صفحة ١٩٩ إلى ٢٠١ من كتاب .
The Ensyclopedia of Military History (By. Ernest Dupuy & Trevor N. Dupuy).
وصفحة ١٢٠ إلى ١٢٣ من كتاب
The Arabs, A Short History (By. Philip K. Hitti).
وصفحة ٤٣ إلى ٤٦ من كتاب
War Through The Ages (By. Lynn Montross).
وصفحة ٤٠٥ من دائرة المعارف البريطانية جـ ٢

ولسنا بحاجة إلى إيضاح عناية الإسلام بالتاريخ ، وحث المسلمين على النظر فى آثار السابقين لاستخلاص الدروس والعبر التى يسترشد بها ، والتجارب التى ينتفع بها ، والله عز وجل يقول : (فاعتبروا يا أولى الابصار) ، (الحشر ٢)

فالقرآن الكريم يقص علينا أحسن القصص لنتعظ ونتدبر فنعرف أحوال القرون الغابرة ، ونتيجة الصراع بين الخير والشر ، يقول الله تعالى :

● (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) ، (يوسف ١١١)

● (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ، (آل عمران ١٣٧)

● (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) ، (النساء ٢٦)

● (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاء فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) ، (هود ١٢٠)

● (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا) ، (طه ٩٩)

ولقد كانت عناية المسلمين الأوائل بالتاريخ الحربى واضحة ، وهو ما نلمسه فى قول زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم :

«كنا نعلم مغازى رسول الله ﷺ ، كما نعلم السور من القرآن »

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : «كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول : يابنى إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها »

ويسمى الزهرى التاريخ الحربى «علم المغازى » ويقول : «فى علم المغازى خير الدنيا والآخرة »

● لكن أهم ما يلاحظ – للأسف الشديد – أن مؤرخى السيرة تناولوا المعارك الحربية بأسلوب السرد التاريخى للوقائع بحيث لايجد الباحث العسكرى ما يشفى غلته من بيانات وتفاصيل ومخططات وخرائط وتحليل وغيرها مما تعارف عليه العسكريون فى تسجيل التاريخ الحربى .

يقول الجنرال جون باجوت جلوب فى كتابه «الفتوحات العربية الكبرى » «لقد واجه مؤرخو الفتوحات العربية الأولى مشاكل عدة من النوع الذى يقطع

(١) الفتوحات العربية الكبرى – تعريب وتعليق خيرى حماد ص ١٢ : ١٥

الأنفاس حله . فعندما اندفع العرب فى القرن السابع الميلادى من جزيرتهم ليقيموا إمبراطورية كانوا لايزالون بوجه عام خامات غير مصقولة ، تجهل القراءة والكتابة . ولما كان جل اهتمامهم منصرفا إلى العمل ، فقد فاتهم أن يدونوا ما عملوه ، بل لم يكلفوا أنفسهم عناء تدوينه .

ولم يظهر المؤرخون (العرب) الكبار إلا بعد نحو قرنين من وفاة النبى وبعد أن تحولت السيطرة فى الإمبراطورية الإسلامية من أيدى العرب إلى أيدى الشعوبيين »

« ومن هنا نستطيع القول بأن وجهات نظر هؤلاء المؤرخين كانت إسلامية أكثر منها عربية ويضاف إلى هذا أن أيًّا من المؤرخين لم يكن من أصل عربى صميم . وقد نشأوا فى بلاد مختلفة فبعضهم من المغرب وبعضهم من الأندلس وبعضهم الثالث من فارس . ولم يكن بينهم مؤرخ واحد من العرب البداة الذين جاءوا من الجزيرة العربية وحققوا تلك الفتوحات العظيمة ، ومن هنا يتبين أن مؤرخى العصر العباسى ، لم يكونوا على اطلاع صحيح على الحياة البدوية التى عاشها الفاتحون الأول . كما أنهم لم يكونوا كثيرى العناية بالعمليات العسكرية . ولم يكونوا يهتمون أيضا بالغ الاهتمام بالتواريخ والأرقام والحقائق ، وهى المظاهر التى يعتبرها المؤرخون اليوم شيئا حيويا . وكانوا يكتفون فى وصف معركة من المعارك الحربية بالقول بأن « مشيئة الله أرادت أن ينهزم الكفرة » وكثيرا ما افتقرت التواريخ التى أوردوها إلى الدقة . وكان الواحد منهم يختلف عن الآخر ، فى تحديد تاريخ معركة من المعارك بنحو عامين على الأقل ، وكثيرا ما لف الغموض والإبهام تقديراتهم للقوات المتحاربة . وعلى الرغم من ميلهم إلى إعطاء الأرقام القريبة من الصحيحة بالنسبة إلى قوات المسلمين ، إلا أنهم كانوا ميالين كل الميل إلى المبالغة فى تقدير قوة أعدائهم »

« وبالإضافة إلى افتقار هؤلاء المؤرخين إلى الاهتمام بالعمليات العسكرية فإنهم دونوا تواريخهم ، وقد حرموا من ضرورة وجود خرائط عسكرية تشرح هذه المعارك . فبالنسبة إلينا نحن ألفنا النظر إلى الخرائط منذ نعومة أظفارنا وتعودنا تصور المواقع المتصلة بمختلف الأماكن . نرى من المتعذر علينا أن نتصور كيف يمكن للمرء أن يتابع الحديث عن معركة من المعارك دون أن تكون هناك خريطة يتابع عليها هذا الحديث . ومن الواضح حقا أن المؤرخين العرب لم يكونوا على فهم صحيح بالمعارك والحملات الحربية التى يتحدثون عنها .

وكل ما بقى هنالك اسم موقع هنا أو موقع هناك – تناقلته القصص والروايات القديمة . ومازال قيد الاستعمال حتى يومنا هذا متيحا المجال للمؤرخ المعاصر العثور على أثر أو علامة تصل به إلى الحقيقة »

« وأرى لزاما على أن أورد هنا نقطة أخرى تتعلق بالسجلات العربية الأولى فلم يكن المؤرخون وناقلو السير واضحين كل الوضوح فى ترديد أسماء مصادرهم أو فى الرجوع بهذه المصادر إلى أولئك الذين شهدوا هذه الأحداث التى يدونونها هم عند وقوعها – وكان المؤرخ يحس بعد أن يسرد قائمة بأسماء مصادره أن مهمته قد انتهت – فلا يقوم بأية محاولة أخرى للتثبت مما إذا كانت الأحداث التى يصفها ويسردها قد وقعت حقا . وعندما تكون هناك روايتان عن حادث واحد ، أو مجموعة من الروايات المتناقضة ، يكتفى المؤرخ بسردها كلها . مسندا كل رواية منها إلى مصادرها ومراجعها . وتاركا للقارئ نفسه مهمة الخروج بالرواية الصحيحة من هذه الروايات المتضاربة »

« وقد سارت هذه المتاعب الموروثة من الماضى جنبا إلى جنب مع متاعب لاتقل عنها أهمية نشأت فى العصور الحديثة . فلقد كانت العربية تعلم منذ قرون فى إنجلترا ، وهذه هى الصعوبة الأولى وكأنها إحدى اللغات الميتة . وقد قام المستشرقون الأوربيون بمهمة عظيمة بترجمتهم كتب الأدب العربية القديمة إلى الإنجليزية ؛ وإن كانوا قد ركزوا عملهم على النواحى الدينية والسياسية والعلمية فى المخطوطات الباقية دون أى تركيز على النواحى العسكرية . ولم تكن الفرصة لتتاح إلا نادرا للعسكريين المحترفين لتعلم لغة من اللغات الميتة مع ما فى هذه اللغة من صعوبة » .

« أما الصعوبة الثانية فهى أن الجزيرة العربية كانت حتى الخمسين سنة الأخيرة منيعة الاختراق إلا لأكثر المكتشفين جرأة ومخاطرة ، وهكذا كان من المستحيل بالنسبة إلى المؤرخ الغربى أن يدرس على الطبيعة مواقع هذه المعارك . أو يطلع بنفسه على طراز العرب الذين خاض أمثالهم تلك المعارك التى أدت إلى هذه الفتوحات العظيمة »

« أما الصعوبة الثالثة فهى أن أوربا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات الإسلامية كوارث رهيبة . ولم يكن ثمة مسيحى يود أن يذكره الناس بها ، وليس المؤرخون إلا بشرا . ولذا تثبط عزائمهم إذا لم يجدوا من يقرأ لهم ؛ فلقد كتب سيمون أوكلى ، وهو أحد المؤرخين الإنجليز الأوائل

الذين أرخوا الفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة وهو رهن السجن في كمبردج وفاء لدين عليه – ولم يكن دخله من بيع كتبه كافيا لتمكينه من إعالة أسرته – ولقد كتبت ألوف الكتب منذ عصر النهضة عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية . أما عدد الكتب ذات المستوى الطيب عن الفتوحات العربية فى اللغة الانجليزية فلا يعدو أصابع اليد الواحدة »

هذا ما قاله الجنرال جلوب ، وفيه – من وجهة النظر العسكرية البحتة – ما يكشف أوجه القصور فى كتابات مؤرخى معارك الإسلام .

● ويتصل بهذا الموضوع ما ذكره جورجى زيدان[1] فى (تاريخ التمدن الإسلامى) من مصادر التاريخ الإسلامى ، وفيه بيان لأسلوب تدوين التاريخ الحربى ومتى بدئ فيه .

«للتاريخ الإسلامى مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الأحوال ، وإليك تمثيل ذلك :

لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق الأماكن والأحوال التى نزلت فيها الآيات أو قيلت فيها الأحاديث ، فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها – وأول من دونها على المشهور محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥١ ، ألفها للمنصور – على أننا رأينا فى كشف الظنون أن محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ ألف كتابا فى المغازى وقد توفى قبل ابن إسحق ببضع وعشرين سنة – ولكن يؤخذ من ترجمتها فى وفيات الأعيان إنهما كانا متعاصرين – ويقال أيضا أن أول من صنف المغازى والسير عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣هـ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ وعلى أى حال فإن هذه السير ضاعت ، وأقدم ما وصل إلينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ فى كتابه المعروف بسيرة ابن هشام ، وهى منقولة عن ابن إسحق المذكور وقد طبعت غير مرة .

ولما اشتغل المسلمون فى ضرب الخراج على البلاد ، اختلفوا فى بعضها : هل فتح عنوة أو صلحا أو أمانة أو قوة ، وفى شروط الصلح أو الأمان فاضطروا إلى تدوين أخبار الفتح باعتبار البلاد ، فألفوا كتبا فى فتح كل بلد على حدة ، كفتوح الشام للواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وكتابه مشهور لكنه مملوء بالمبالغات بما يشبه الحكايات – وفتوح

(١) جورجى زيدان – تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٣ ص ٩٩

مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وفتوح بيت المقدس ونحوها . ثم جمعوا فتوح البلاد معا فى كتاب واحد كفتوح البلدان للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وهو أوثق كتب الفتح وأشملها وأقدم ما بين أيدينا منها ، إلا الواقدى . »

« وقد رأيت فيما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والأدب ، أن العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم إلى البحث فى أسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها ، فجرهم ذلك إلى النظر فى رواة تلك الأسانيد وتراجمهم وسائر أحوالهم ، حتى أصبح من شروط الاجتهاد فى الفقه معرفة الأخبار بمتونها وأسانيدها ، والإحاطة بأحوال النقلة والرواة : عدولها وثقاتها ومطعونها ومردودها ، والإحاطة بالوقائع الخاصة بها فقسموا رواة كل فن إلى طبقات ، فتألف من ذلك تراجم العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة وغيرهم ، مما يعبرون عنه بالطبقات ، ومنها طبقات الشعراء ، وطبقات الأدباء ، وطبقات النحاة ، وطبقات الفقهاء وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والأطباء حتى الندماء والمغنين وغيرهم ، وألفوا فى كل باب غير كتاب . ولذلك كان المسلمون أكثر أمم الأرض كتبا فى التراجم لأفراد الرجال .

وأقدم كتب الطبقات التى وصلت إلينا كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكتاب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل فى بضعة عشر مجلدا ، ويحتوى على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء إلى أيام المؤلف وكان هذا الكتاب مشتتا فى مكتبات العالم ، ومنه الجزء الثانى فى دار الكتب الخديوية (المصرية) بمصر ، وقد علمنا ونحن نخط هذه الحروف أن جمعية ألمانية شرعت فى طبعه وأصدرت الجزء الأول منه ثم طبقات الشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع فى ليدن فى هذا العام بعناية الأستاذ دى خويه المستشرق الهولندى الشهير ثم ألف الناس طبقات كثيرة فى أزمنة مختلفة ، ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى ، كوفيات الأعيان ، والوافى فى الوفيات ، وفوات الوفيات وغيرها مما سيأتى ذكره ، غير التراجم الدخيلة فى تواريخ البلاد ، كتاريخ دمشق لابن عساكر فى ثمانين مجلدا ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى فى نحو ذلك وفيها تراجم كثيرة .

وكان طلاب الأدب الراحلون فى جمع اللغة والشعر من أفواه أهل البادية يلتقطون

أخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك فى كتب الأدب كما تقدم . ناهيك بالأخبار المستخرجة من تلك الأشعار .

قال ابن يونس : «لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس ، ولما استبد بنو أمية بالخلافة واعوجوا فى أحكامهم عن سبل الخلفاء الراشدين ، كثر تحدث الناس بأخبار الراشدين وتذكر أعمالهم المؤسسة على العدل والرفق – وذلك طبيعى فى هذه الأحوال . ثم ألف بعضهم كتبا فى تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم فى الخلفاء على الإجمال ، وأقدمهم الدينورى المتوفى سنة ٢٨١ هـ ، ويقال نحو ذلك فى تأليف تراجم الوزراء ، وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الأذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم »

● ويوضح الأستاذ الدكتور أحمد شلبى[١] المنهج الذى اتبعه المؤرخون القدامى فى كتابة التاريخ الإسلامى فيقول :

«ظهر فى كتابة التاريخ الإسلامى طريقان :

أحدهما ، سرد الأحداث فى نظام الحوليات أو بدونه ، من غير تعليق عليها ، وبدون تحليلها والبحث عن دوافعها ونتائجها القريبة والبعيدة .

والطريق الثانى ، اتجه إلى الاهتمام بالتعليق والتحليل لحدث من أحداث التاريخ دون الاهتمام بسرد الأحداث التاريخية المتتابعة .

وقد عنى المؤرخون القدامى بالطريق الأول فألفوا الكتب الضخمة لسرد الأحداث التاريخية ، وعنى المؤرخون المحدثون بالطريق الثانى فامتازت كتاباتهم بأنها تحليل لحدث واحد من أحداث التاريخ ، أو شخصية واحدة من الشخصيات التاريخية .

ومن الواضح أن الطريقين يكمل أحدهما الآخر . ولا يستقيم أحدهما وحده ، فالأحداث التاريخية دون فهم وتحليل عمل يعتبر ساذجا محدود النفع ، وتحليل حدث واحد دون فهم سلسلة الأحداث التاريخية غير كاف ، فهو ترف عملى يحتاج إلى أساس ينبنى عليه

والمؤرخون القدامى بالإضافة إلى عدم اهتمامهم بالتحليل والنقد كانوا غالبا يدونون التاريخ على نسق تدوين حديث الرسول ، فيذكرون الروايات المختلفة للحادث الواحد ، ويذكرون الرواة متسلسلين الواحد بعد الآخرى ولا يهتمون بالأسلوب

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية – جـ ١ ص ٥٧ – ٥٨

الذى يكتبون به ، وكل هذا جعل دراسة التاريخ صعبة المنال .

وفى سنة ٦٥٦ هـ حدث حادث خطير فى العالم الإسلامى هو سقوط بغداد فى أيدى التتار ، وقتل الخليفة العباسى ، وإنهاء الخلافة العباسية بالعراق ، والذى يعنينا من هذا الحادث هنا هو خطورته على كتابة التاريخ الإسلامى ، فقد كانت الخلافة العباسية حتى فى فترات ضعفها رباطا يربط بين أكثر أجزاء العالم الإسلامى ، وكان من المؤرخين من يكتب تاريخ العالم الإسلامى كله جملة واحدة ، فلما سقطت بغداد وانقطع الخيط الذى كان يربط بين أجزاء هذا العالم ، انفرط عقد البلاد الإسلامية ، وأصبح لكل منها تاريخ ومؤرخون ، وكثر أن نجد عراقيا مثقفا يجهل تاريخ اليمن ، ومصريا يجهل تاريخ إيران ، وهكذا .

وعلى هذا يعانى الباحثون المحدثون فى التاريخ الإسلامى مصاعب تشمل تاريخ العصور الإسلامية قبل سقوط بغداد وبعده ، فقبل سقوط بغداد كتب التاريخ الإسلامى ، ولكن بدون تحليل وبأسلوب ونسق بعيدين عن أسلوب العصر الحديث ونسقه ، وبعد سقوط بغداد اتجه الاهتمام إلى التاريخ المحلى للبلدان الإسلامية ، وقل الاهتمام بالتاريخ العام للعالم الإسلامى ، كما اتجه أكثر اهتمام الجامعيين فى العصر الحاضر إلى التحليل والنقد لحادث واحد من أحداث التاريخ كما سبق القول »

وهكذا نرى أن كل ما ذكرناه من أقوال يؤيد وجهة نظرنا فى ضرورة تدوين التاريخ الحربى الإسلامى بالأسلوب الذى تعارف عليه العسكريون وطبقا للمنهج المقرر فى العلم العسكرى .

● وهناك عدة مدارس لدراسة التاريخ العسكرى وفن الحرب ، لكن هذه المدارس قد تختلف فى الأساليب فقط ، ويبقى الهدف من الدراسة واحدا عندها جميعا وهو « الوقوف على الأسباب الحقيقية للنجاح أو الفشل فى المعارك والحروب »

ولكى يمكن تحقيق هذا الهدف فإن دراسة التاريخ الحربى تشتمل على عدة عناصر رئيسية نذكر منها :

● الظروف السائدة محليا ودوليا .

● الهدف من الحرب أو المعركة .

● أحوال مسرح الحرب فيما يتعلق بطبيعة وأحوال الأرض (طبوغرافيته) وبالسكان والقوى البشرية (ديموغرافيته) وبمناخه .

● المقارنة العددية والنوعية بين قوات الطرفين أو الأطراف المتصارعة وأسلحتها ومعداتها وأساليبها القتالية وعقائدها

الحربية [١]

● خطط الأطراف المتصارعة .

● سير القتال .

● القضايا الإدارية والفنية .

● نتائج المعركة أو الحرب .

● الدروس المستفادة والخبرة المكتسبة .

● النظريات الحربية ومبادئ الحرب التى كان تطبيقها سببا فى فوز أحد الأطراف والتى كان إهمالها سببا فى هزيمة الطرف الآخر . وتعتبر الخرائط والمخططات والإحصائيات والصور من أهم الوثائق وألزمها فى عملية تسجيل ودراسة التاريخ الحربى .

● إن كل مسلم غيور على دينه لايرضى بأن تكون الأمة الإسلامية أقل من غيرها من الأمم اهتماما بتاريخها الحربى .

فلقد حققت « العسكرية الإسلامية » إنجازات رائعة فى مجال الصراع بين المسلمين وأعدائهم ، ومن ذلك ما أصبح من حقائق التاريخ التى لاتنازع وهو مانذكره على سبيل المثال فيما يلى :

١ - تأمين الدعوة وتأسيس الدولة الإسلامية وتحقيق الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية .

٢ - امتداد الفتوحات الإسلامية فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا .

٣ - تمكين الأمة الإسلامية « الناشئة » من إدارة دفة الحرب فى جبهتين عظميين فى وقت واحد فى مواجهة أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت وهما فارس وبيزنطة والانتصار عليهما . . وذلك مثل فريد فى التاريخ الحربى لم تبلغه أقوى الأمم .

٤ - إتقان العرب - وهم أبناء الصحراء - ركوب الأساطيل والحرب البحرية وتغلبهم على أسطول بيزنطة وهو أعظم قوة بحرية فى زمانهم حتى يقول عنهم ابن خلدون : « إن المسلمين تغلبوا على لجنة بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وإن أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى تونس ، والرومان والصقالية والفرنجة جميعا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ، ولاتحاول الدنو من أساطيل المسلمين التى ضريت عليهم كضراء الأسد على فريسته » !

٥ - فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية وفتوحاتها العبقرية لخير البشرية فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية ،

---

(١) « العقيدة الحربية » اصطلاح يعبر عن النظريات الأساسية والمبادئ التى تطبقها الدولة فيما يتعلق بالصراع المسلح ، وتتخذ كل دولة لنفسها عقيدة حربية خاصة بها تتفق مع غاياتها العليا وظروفها الاستراتيجية وقدراتها البشرية والاقتصادية وغيرها .

فأصبح العرب – بعد أن كانوا أقل حضارة من الفرس والروم بخاصة – قادة للحضارة العالمية فكان منهم على سبيل المثال لا الحصر جابر بن حيان فى الكيمياء وابن الهيثم فى الطبيعيات وأبو بكر الرازى فى الطب ، وابن سيناء فى الطب كذلك والفلسفة والغزالى فى الجانب الروحى ، وابن رشد فى الفلسفة العقلية وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ ، والخوارزمى فى الرياضيات وعشرات غيرهم .

● فالعسكرية الإسلامية إذن ، تمثل جانبا أساسيا ورائدا من الحضارة الإسلامية ، ومن الحضارة الإنسانية بالتالى ، ولولا جهاد المسلمين الأوائل واسترخاصهم المال والنفس والولد فى سبيل الله ، لتغير وجه التاريخ ، ولتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور .

وإذا كان المسلمون اليوم يسعون إلى نهضة حضارية شاملة ، فإن نقطة الانطلاق – فى يقينى – هى « إحياء العسكرية الإسلامية » لكى تأخذ دورها فى تلك النهضة المرجوة مثلما أخذت دورها فى بناء الحضارة العربية والإسلامية فى الماضى .

ويبدأ تحقيق هذا العمل الكبير بتسجيل وتدوين التاريخ العسكرى الإسلامى بالأسلوب العلمى المعروف فى العلم العسكرى والذى أوضحناه آنفا . وإذا تم هذا العمل ، فسوف يكون من أعظم الإنجازات العلمية فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، وسوف يكون بالنسبة لشباب المسلمين حصنهم الأول الذى يحتمون فيه من سهام الغزو الفكرى العسكرى ، وقاعدة انطلاقهم نحو بناء القوة العسكرية الذاتية للأمة الإسلامية على دعائم راسخة من الأصالة وأمجاد التاريخ .

● إن تسجيل التاريخ الحربى للإسلام أمانة فى عنق الأمة العربية والإسلامية جمعاء ، ولعله من المفيد أن نعلم أن كثيرا من أوجه القصور التى ذكرناها فى كتابات مؤرخى المعارك الإسلامية يمكن تداركه ، فإن بعض الميادين التى دارت فيها معارك عصر النبوة مثلا مازالت على حالها التى كانت عليها وقتها ، ولم يطرأ عليها ما يطمس معالمها الأصلية ، وهذا وضع فريد قل أن يوجد مثله فى أية بقعة على الأرض كانت ميدانا لقتال حتى فى العصر الحديث .

فهى فرصة نادرة حقا ، تستحق أن تنتهز بأسرع ما يمكن قبل أن تمتد يد العمران والتغيير فتطمس تلك المعالم .[1]

---

(١) وأرى أن المملكة العربية السعودية تستطيع أن تتخذ من الإجراءات مايكفل الإبقاء على المناطق (أو =

ولو تصورنا أننا استخدمنا وسائل العلم الحديثة فى التصوير الجوى والأرضى لوضع الخرائط والمخططات لميدان. دارت فيه إحدى الغزوات، وأن مجموعة من رجال العسكرية المعنيين بالتاريخ الحربى الإسلامى فى العالم العربى والإسلامى، قامت بدراسة تلك الخرائط والمخططات ومعاينة الميدان على الطبيعة، وأننا يسرنا لهم الحصول على المصادر والمراجع من كتب ومخطوطات ومقتنيات المتاحف فى العالم أجمع، بحيث نضع بين أيديهم وأمام أعينهم «كل كلمة» قيلت أو كتبت حول هذه المعركة قديما وحديثا.. ثم تصورنا بعد ذلك كله النقاش العلمى الذى سوف يدور حول المعركة والذى تسهم فيه عقول أولئك الخبراء المتخصصين، لو تصورنا كل ذلك، فهل يكون ثمة شك فى أننا سوف نحصل على أفضل وأدق وأكمل ما يمكن أن يقال فى التاريخ الحربى الإسلامى بكل مقياس؟!

إننا بهذا العمل العلمى الكبير نوفر للأمة العربية والإسلامية سجلا وافيا ومرجعا علميا دقيقا ونافعا فى التاريخ الحربى الإسلامى ومن النظريات الحربية الإسلامية فنحقق بذلك هدفين عظيمين:

الهدف الأول: أن يدرس العسكريون فى الأمة العربية والإسلامية تاريخهم الحربى ونظريات الإسلام الحربية على النحو الذى تعارف عليه العسكريون فى كل مكان، وأن يتخذوه أساسا أصيلا لصياغة استراتيجياتهم العسكرية وفق متطلبات العصر.

الهدف الثانى: أن نصحح المفاهيم التى سادت فى الدول الأجنبية عن تخلف الإسلام فى مجال العلم العسكرى وفن الحرب، وحفلت بها المراجع التى تناولت تاريخ الحروب وتطور فن الحرب، وذلك بالأسلوب العلمى المدعم بالحجة والبرهان والوثائق وباللغة المتعارف عليها بين رجال العسكرية.

وبعد.. فهذه دعوة إلى «تدوين التاريخ الحربى الإسلامى» أوجهها إلى كل العرب والمسلمين ملوكا ورؤساء وقادة وشعوبا وهيئات ومنظمات وجمعيات، وأسأل الله أن يوفق الجميع إلى طريق تحقيق هذه الغاية على النحو الذى يتكافأ وقدر هذه الأمة التى أراد لها سبحانه أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

محمد جمال الدين محفوظ

=أجزاء المناطق) التى دارت فيها معارك صدر الإسلام الأول دون أن تمتد إليها يد التغيير، حتى يتسنى كتابة التاريخ الحربى لهذه المعارك بعد دراسة الأرض التى دارت عليها ورسم الخرائط لها وتصويرها إلى غير ذلك من وسائل التسجيل.

اللواء الركن المتقاعد
محمد جمال الدين على محفوظ

● ولد فى أغسطس **١٩٢٢** ميلادية ووالده عالم من علماء الأزهر هو المغفور له الشيخ على محفوظ عضو هيئة كبار العلماء وأستاذ الوعظ والإرشاد .

● مدة خدمته العسكرية **٣٣** سنة قضاها فى وظائف القيادة والتدريس والأركان والإدارة العليا والتوجيه المعنوى والحرب النفسية والإعلام . وقد انتهت خدمته عام **١٩٧٥** م .

● تخرج فى كلية القادة والأركان فى مصر وحصل على دراسات عسكرية عليا فى أكاديمية ناصر العسكرية .

● حصل على دورات دراسية فى كثير من المعاهد الأجنبية لأمريكا وإنجلترا وروسيا .

● حصل على ماجستير فى العلوم السياسية من جامعة القاهرة .

● عمل مديرا للتوجيه المعنوى بعد حرب يونيو **١٩٦٧** م فكان من أبرز أعماله أنه أقام منهج إعادة الروح المعنوية على أساس منهج الإسلام

١ – فجعل « الجهاد فى سبيل الله » عقيدة القتال للجيش .

٢ – وجعل « النصر أو الشهادة » هى شعار الجيش .

٣ – وجعل « الله أكبر » هى صيحة القتال

٤ – وجعل لعلماء الدين ووعاظ الجيش دورا كبيرا فى معايشة الجيش وربط نشاط رجاله فى السلم والحرب بالدين وقد كان هذا المنهج من أهم أسباب النصر فى حرب رمضان

المؤلفات العلمية والكتب :

له أكثر من **٢٠** كتابا فى العلوم العسكرية وفى القيادة العسكرية وأساليب التعليم والإدارة العلمية وفى التوجيه المعنوى ومازال بعض هذه الكتب مقررا للدراسة فى الجيش المصرى .

● تخصص فى دراسة العسكرية الإسلامية منذ أكثر من ربع قرن ووضع فيها عدة كتب وأبحاث ومقالات فى المجلات الإسلامية فى مصر والعالم العربى كما قدم عددا من الأحاديث الدينية فى الإذاعة والتلفزيون وخاصة برنامج « نور على نور » . يحمل لواء الدعوة إلى إحياء أمجاد العسكرية الإسلامية باعتبارها جانباً رائداً من الحضارة الإسلامية .

ومن أحدث مؤلفاته :

١ – كتاب « المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية »

٢ – كتاب « تربية المراهق فى المدرسة الإسلامية » . . .

صفحات مشرقة فى تاريخ الأزهر

الأستاذ / على عبد العظيم

إن تاريخ الأزهر الشريف هو تاريخ مصر. وتاريخ مصر هو تاريخ الأمة العربية والشعوب الأسلامية ولا عجب ! ! فإن التاريخ الإسلامى قائم على العقيدة الإسلامية التى أضاءت بأشعتها جميع الأمم والشعوب التى دانت للإسلام وآمنت به وجاهدت فى سبيله بكل ماتملك من قوة ومال

ولما ضعفت الخلافة العباسية اتجهت الانظار إلى مصر التى حَمَت الإسلام ودافعت عنه دفاعا مجيدا أمام حملات أوربا الصليبية التى استمرت حملاتها زهاء مائتى عام ، كما دافعت عنه أمام غزوات التتار الوثنية التى اجتاحت ربوع القارة الآسيوية وسيطرت عليها فى قوة وعنف وجبروت ، ولقد استطاعت مصر وحدها أن تصد هذه الغزوات البربرية التى كادت تقضى على الإسلام والمسلمين ؛ بل استطاعت أن تجذب إلى الإسلام طوائف قوية من التتار ، وكان الشعب المصرى يستمد قوته المعنوية مما يَنْفُثُه فيه علماء الأزهر الشريف من حماسة دينية ومشاعر وطنية وإيمان عميق .

* * *

ولم يكن علماء الأزهر يكتفون بالقيادة الروحية بل كانوا يقودون الشعب أحيانا قيادة عسكرية كما حدث فى موقعة عين جالوت والحملة الفرنسية والغزوة الانكليزية لرشيد وغيرها من الغزوات .

وكان لعلماء الأزهر مواقف حاسمة وجهود جبارة فى إشعال نيران الثورة العربية وثورة ١٩١٩ وفى تعبئة القوة المعنوية وإذكاء العقيدة الدينية فى نفوس كتائب الجيش المصرى المرابطة على شاطىء القنال ، فى مواجهة العدوان الصهيونى الغاشم المحتل لسيناء ، حيث كان العلماء ينتشرون فى المعسكرات المصرية يلهبون المشاعر ويثيرون العزائم ويدفعون الجنود دفعا إلى التسابق فى التضحية والفداء ، ولقد أسعدنى الحظ بأن أقوم بواجبى فى

التعبئة المعنوية والروحية مع لفيف من صفوة علماء الأزهر الممتازين وشاهدت كيف استطاع هؤلاء العلماء أن يوقظوا العقيدة الدينية فى أعماق النفوس حتى كادت تشتعل نارا ونورا ، وكيف تمكنوا عن طريقها أن يسهموا فى تحويل الهزيمة الساحقة إلى نصر مبين تمت به المعجزة التى بهرت العالمين ولهج بها القادة العسكريون فى أنحاء العالم .

* * *

مكانة العلماء

كان علماء الأزهر منذ إنشائه يؤدون رسالتهم العلمية والروحية والسياسية والاجتماعية فى قيادة الشعب وحفزه إلى الرفعة والسمو والازدهار ، وكانوا يدعمون سلطة الحكام إذا أحسنوا ، ويزلزلون عروشهم إذا جنحوا إلى الظلم والطغيان ، وكان المصريون إذا أحسوا الظلم وجابهوا العدوان فزعوا إلى علماء الأزهر واستغاثوا بهم والتفوا حولهم فإذا اقتنع العلماء بجدية الأمر أمروا بإغلاق أبواب الأزهر ، وأبطلوا حلقات الدروس وصعد نفر من العامة على سطح المسجد فتصايحوا ودقوا الطبول فيحتشد الناس حول الأزهر من أرجاء القاهرة وتتكاثر الجموع بما تحمله من أسلحة حتى تصبح كالبحر المتلاطم الأمواج وحينئذ يخرج شيوخ الأزهر ويتقدمون الصفوف إلى قصور الحكام ، فلا يلبث هؤلاء الحكام أن يفيئوا إلى الصواب وينزلوا على حكم العلماء ويردوا الحقوق إلى أصحاب الحقوق .

فلم يكن الأزهر جامعة علمية فحسب وإنما كان – مع هذا – قواما للعدالة وتقويماً للحكام ، ومصدرا للتحرير وأنموذجا مثاليا للزعامة الروحية منذ وجوده حتى الآن .

* * *

وحسبنا أن نسوق نماذج تاريخية تبرز مكانة الازهر ومنزلة علمائه فى قلوب طوائف الشعب وفى نفوس الامراء والحكام معتمدين على ما رواه الجبرتى [١] ومن جاء بعده من ثقات المؤرخين

١ – حدثت فتنة عاتية بين كبار المماليك وعلى بك الكبير . واستعد الطرفان للقتال فتدخل العالم الكبير الشيخ محمد الحفنى وأغلظ القول لكبار المماليك صائحا بهم : إنكم خربتم البلاد بخصامكم وعنادكم وحروبكم ، فقالوا له : إذا نحن لم نحاربه حاربنا هو ، فقال : إنى مُرْسِلٌ إليه خطابا

(١) « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للشيخ عبد الرحمن الجبرتى » نشرته لجنة البيان العربى فى سبعة أجزاء من سنة ١٩٥٨ حتى ١٩٦٧ وألحقته بجزء ثامن هو كتاب الجبرتى « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » فى سنة ١٩٦٨

أنصحه فيه – وكان خارج القاهرة يستعد للقتال – فلا تتحركوا حتى يأتى جوابه ، وكتب إليه خطابا شديد اللهجة فيه نصيحة وعِظَةٌ وزَجْرٌ له فنزل الجميع على رأيه وانتهت الفتنة ، وبعدها علا شأن على بك الكبير وسيطر على مصر ، وفتح الشام والحجاز ، ومع هذا كان لايجرؤ على مخالفة الشيخ الحفنى فى أمر من الأمور[1]

٢ – ذكر الجبرتى فى ترجمته للشيخ أحمد بن عبد المنعم أبى السرور البكرى : أن والى مصر على باشا بن الحكيم كان يعتقد فى الشيخ اعتقادا عظيما وحدث أن ذهب الشيخ لزيارته فتلقَّاه وقَبَّل يديه وقدميه وقال : هذا الذى كنت رأيته فى عالم الرؤيا وقت كربتى فى السفرة الفلانية ، وعلمت فى الرؤيا أنه الشيخ البكرى وبالغ الوالى فى الحفاوة به وزاره بعد ذلك مرات عديدة وأرسل إليه هدية سنية[2]

٣ – فى ولاية بكير باشا وردت إلى مصر مراسيم سلطانية من استانبول بإبطال بعض المرتبات المستحقة لبعض الأيتام وبعض الأموال المخصصة للخيرات ، وتلاها القاضى العثمانى المقيم بالقاهرة وقال : أمرُ السلطان لايخالف وتَجِب طاعته ، وكان الشيخ سليمان المنصورى من كبار علماء الأزهر حاضرا فقال له : « هذا شىء جرت به العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداولته الناس وصار يباع ويشترى ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة[3] ولايجوز إبطال ذلك وإذا بطل بطلت الخيرات ، وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطل ذلك ، وإن أَمَرَ ولىُّ الأمر بإبطاله لايسلم له ذلك ويخالف أمره ، لأنَّ ذلك مخالفة للشرع ، ولايسلم للإمام فى فعل مايخالف الشرع ولا لنائبه أيضا »

فقال بكير باشا : هذا يحتاج إلى المراجعة وتمت المصالحة ونزل الوالى على ما أورده الشيخ سليمان[4]

٤ – حدثت مناقشة فقهية فى شأن عالم سجين بين الشيخ على الصعيدى من كبار العلماء وبين الحاكم يوسف بك الكبير ، احتدَّ فيها يوسف بك فغضب الشيخ على غضبا شديدا وقال له : لعنك الله ولعن اليسرجى[5] الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا «وكان

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠٥

(٢) المصدر السابق ص ٢٩

(٣) جميع سبيل وهو بناء يستقى منه الناس عند العطش ، وبعض آثار (الأسبلة) باقية إلى الآن .

(٤) الجبرتى جـ ٢ ص ١٢ .

(٥) تاجر الرقيق .

يوسف بك قد اعتقل أحد العلماء فى أمر ظنّه فيه مخالفا للشرع فأطلق يوسف بك سراح العالم السجين واسترضى الشيخ على حتى رضى ، وعاد ومعه العالم حرا طليقا (١)

٥ – حدث أن القاضى التركى عين الشيخ عبد الرحمن العريشى – من علماء الأزهر ومفتى الحنفية – وصيا على أسرة صهره ، وكان الصهر قد مات وهو مثقل بالديون ، وقد أخذ الدائنون حكما قضائيا بها ، فسدّد الشيخ عبد الرحمن ديون صهره من التركة ، وأخذ صكوكا بالسّداد على الدائنين ؛ ولكن زوجة المتوفى اتهمت الشيخ العريشى – بعد سنوات – بأنه نهب ميراث زوجها ، وتواطأ مع الدائنين وقاسمهم فيما أخذوه ؛ وشكته إلى يوسف بك – وكانت فيه حِدَّة – فاستدعاه . فشرح له الموقف وأطلعه على الصكوك فلم يقتنع ، وأمر بسجنه ، وعلم الشيخ السادات بالأمر فركب إلى يوسف بك ودعاه لإطلاق سراحه فلم يسعه إلا التنفيذ (٢) .

٦ – حدثت جفوة بين الوالى حسن باشا من جهة ، وإبراهيم بك ومراد بك حاكمى مصر وأتباعهما من جهة ثانية فتودّد الباشا إلى العلماء وقابلهم بالإجلال والتعظيم وأعد لهم طعام الإفطار والسحور ، وخشى الشيخ العروسى من قيام الفتنة وأن تؤدى إلى تخريب بيوت العامة المحيطة ببيوت الأمراء من زعماء الفتنة وقال لحسن باشا : يامولانا رعية مصر قومٌ ضعاف وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس ، فقال له : لاتخشوا شيئا ، فإنّ أول ما أوصانى به السلطان أوصانى بالرعية وقال : إنها وديعة الله عندى ، وأنا استودعتك ما أودعنيه الله ، فدعا له العلماء بالخير ، وأشفق إبراهيم بك من أن ينْضَّم العلماء إلى الوالى وأن يقودوا ثورة شعبية ضده وضد مراد بك ؛ فذهب إلى الشيخ البكرى وهنأه بالعيد . ثم زار الشيخ العروسى والشيخ الدردير فهنأهما وتودّد إليهما وتصاغر فى نفسه جدًّا وأوصاهم بكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قَوْمَةٍ أو حركة فى مثل هذا الوقت فإنه كان يخاف ذلك جدًّا « لأنه كان موقنا أن زمام الموقف بيد علماء الأزهر ، لما يتمتعون به من مكانة سامية وتقدير كريم بين طوائف الشعب المصرى فى كل مكان (٣)

٧ – ذكر الجبرتى فى أحداث سنة

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ١٥٤ : ١٥٥ .

(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ١٥٥ : ١٥٦ .

(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

١١٩١ هـ أن يوسف بك الحاكم تدخل فى موضوع عقار موقوف على الأزهر. فكتب إليه الشيخ أحمد الدردير من كبار العلماء خطابا يطلب منه فيه عدم التدخل فى شئون الأزهر، وأرسل إليه الخطاب مع عالمين من علماء الأزهر، فنهرهما يوسف بك – وكانت فيه حماقة – وألقى بهما فى السجن، وعلم الشيخ الدردير؛ فأمر بإبطال الدروس بالأزهر وإغلاق المسجد، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وصعد الصغار إلى المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت، وتجمع الناس حول الأزهر وبدأت نُذُرُ الثورة وبلغ الأمراء هذا الموقفُ فأرغموا يوسف بك على إطلاق سراح العالِمَيْن، وخشى إسماعيل بك ثورة الشعب فأرسل إلى العلماء وترضاهم وتكفل بإجابة مطالبهم

٨ – حدث أن حسين بك شفت[1] – وكان طاغية جبارا – اقتحم هو وجنوده بيت الشيخ أحمد سالم شيخ دراويش البيومى ونهبوا ما فيه من الأثاث والمتاع وحلى النساء، فثار أهل الحسينية وذهبوا إلى الشيخ الدردير، فآنسهم وقال لهم: أنا معكم وأمر بإغلاق أبواب الأزهر وصعدت طائفة منهم إلى المنارات يصيحون ويدقون الطبول، وأغلق التجار الحوانيت، وتجمعت حشودٌ كثيرة حول الأزهر وأرسل الشيخ الدردير رسلا إلى سكان أحياء القاهرة وضواحيها فلبُّوا النداء ومعهم أسلحتهم وقال لهم الشيخ: اركبوا وأركب معكم لننهب بيوت المعتدين كما نهبوا بيوتنا، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم، وقاد الشيخ هذه الحملة فخاف الأمراء عاقبة هذه الثورة وذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه وبالغوا فى استرضائه وقالوا له: «اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونحن نأتى بها من محل ماتكون» وتعهدوا للشيخ بالتزام العدل وتلوا الفاتحة ونفذوا وعدهم وانتهت الثورة[2].

٩ – احتشد جمع كبير من الناس فى مولد السيد البدوى فى طندتا (طنطا) فأغار أعوان الكاشف (حاكم الإقليم) على بعض الأشراف وأخذوا جمالهم فذهبوا إلى الشيخ الدردير فأمر بعض أتباعه بالذهاب إلى الكاشف فأشفقوا من الذهاب إليه، فركب الشيخ وتبعه جماعة كثيرة من العامة، فلما وصل إلى خيمة الكاشف استدعاه، فحضر إليه، والشيخ راكب على بغلته، فكلّمه ووبّخه فوعد برد الجمال وانصرف

---

(١) شفت معناها يهودى ويظهر أن المصريين أطلقوا عليه هذا اللقب لكراهتهم إياه

(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ٣١٦، ٣١٧

الشيخ وتحمس بعض العامة فاعتدوا على الكاشف ، وحدث هرج ومرج ، وكان كاشف المنوفية حاضرا المولد فلما علم بالأمر حضر سريعا وأخذ كاشف الغربية معه وذهبا إلى الشيخ الدردير فاسترضياه ، ولما عاد الشيخ إلى القاهرة زاره إبراهيم بك الوالى واسترضاه وفعل مثل ذلك إبراهيم بك الكبير وكتخدا الجاويشية [١]

١٠ - غضب طاهر باشا الوالى على مصطفى أغا الوكيل . فلجأ إلى بيت الشيخ السادات فضَمَّه إليه فأرسل طاهر باشا فى طلبه ، فركب معه الشيخ السادات وذهبا إلى بيت الوالى فانتزع جماعة من الجنود مصطفى أغا وأخذوه إلى القلعة ماشيا على قدميه ، فغضب الشيخ السادات ودخل على طاهر باشا ثائرا فأطلعه الباشا على خطاب مرسل من محمد باشا - عدو الوالى - إلى مصطفى أغا ، واتهمه بأنه يتآمر مع أعدائه عليه ، فقال له السادات : إن هذا لا يوأخذ به مصطفى أغا ، وإنما يؤاخذ إذا كان المكتوب صادرا منه إلى محمد باشا ، وهنا أمر طاهر باشا بالإمساك عن قتل مصطفى أغا ، واعتذر إلى الشيخ السادات وقام بزيارته متوددا إليه [٢]

١١ - لما ولى حسين باشا الجزائرلى حكم مصر من قبل الخلافة العثمانية طرد أمراء المماليك من القاهرة واستباح أموالهم ، وأسر نساءهم وأولادهم ، فذهب إليه الشيخ السادات مع وفد من علماء الأزهر وقال له : أأتيت إلى مصر لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ؟ أم أتيت لبيع الحرائر وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال له الباشا : هؤلاء أرقاء بيت المال ، فقال له الشيخ : هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد ، فغضب الباشا وقال لكاتب الديوان : اكتب أسماء هؤلاء العلماء لأرفعها إلى السلطان ليعلم أنهم يعارضون أمره ، فقال له السيد محمود البنوفرى أحد العلماء : اكتب ما تريد بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا فوجم الباشا ونفذ ما أشار به العلماء ، ثم بلغه أن على بك الكبير قد أودع أمانة عند الشيخ شمس الدين ابن عارفين فطلبها الباشا منه فامتنع عن دفعها قائلا : إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة بها ، ولن أسلمها مادام صاحبها على قيد الحياة ، وحاول الباشا انتزاعها منه ولكنه خشى العاقبة فأمسك وكان يردد قوله عن الشيخ السادات : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٣١٨
(٢) الجبرتى جـ ٦ ص ٥٤

هذا الرجل فإنه أحرق قلبي ! !(١) .

١٢ – روى الجبرتي في حوادث سنة ١٢٠٩ هـ أن فلاحين من بلبيس وفدوا على شيخ الأزهر الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وشكوا إليه ظلم محمد بك الألفي وأعوانه واقتنع الشيخ بصدق شكواهم ، فنصح إبراهيم بك ومراد بك حاكمى مصر بردع الألفي بك عن ظلمه فلم يستجيبا لنصيحته ، فجمع علماء الأزهر وأمر بإغلاق المسجد وأرسل من ينادى بإغلاق الحوانيت ، وتجمع الناس وذهب معهم الشيخ الشرقاوى إلى بيت السادات وهو قريب من بيت إبراهيم بك فرآهم وأرسل إليهم أيوب بك يسألهم ماذا يريدون ؟ فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة أحكام الشرع وإبطال الحوادث والمكوس (الضرائب) التي ابتدعتموها فقال أيوب بك : لا يمكن إجابة هذه المطالب كلها فإننا إن فعلنا ذلك ، ضاقت علينا المعايش والنفقات ، فقالوا له : ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس . وما الباعث على الإكثار من النفقات . وشراء المماليك ؟ والأمير لا يكون أميرا إلا بالإعطاء لا بالأخذ ، وانتهى الموقف بعد أخذ ورد إلى نزول أمراء المماليك على حكم العلماء ، ووقعوا على وثيقة كتبها القاضى تعهدوا فيها بإبطال المظالم ومعظم المكوس وأن يكفُّوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، وأن يرسلوا صُرَّةَ الحرمين (ما وقف عليهما من أموال) وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة ووقع الباشا الوالى على هذا الوثيقة مع الأمراء وهذه الوثيقة يُشَبِّهها بعض الباحثين بوثيقة حقوق الإنسان(٢) .

١٣ – كان بطرس السادس بطريرك الأقباط شديدا على شعبه فى تطبيق الشعائر المسيحية ، وكان ابن إيواظ كبير أمراء المماليك فى هذا الوقت يأخذ على البطريرك شدته وصرامته ، وحدث بينهما خلاف انضم فيه إلى ابن إيواظ عدد كبير من ذوى الرأى والمكانة ، ولكن ابن إيواظ رأى قبل أن يتصرف برأى فى الموضوع أن يتقوى برأى علماء المسلمين . فاستشارهم فأفتوا بحق بطرس السادس فيما يفعله فنزل ابن إيواظ على مشورتهم واستصدر من الوالى أمرا بتمكين البطريرك مما يريد ، وألا يتعرض له أحد بعد ذلك(٣) .

١٤ – ذكر الجبرتي فى أحداث شهر صفر سنة ١٢١٩ هـ أنه حدثت جفوة بين

---

(١) الجبرتى جـ ٧ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٥٥ : ٢٥٧ .

(٣) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك جـ ٦ ص ٨٥

الباشا الوالى التركى والمماليك ، وخرج المماليك من القاهرة فأرسل الباشا أكبر أتباعه إلى بيت السيدة نفسية زوجة مراد بك كبير المماليك ، فاستدعاها لمقابلة الباشا ، وقبض على بعض زوجات المماليك ، واتهم السيدة نفيسة بمساعدة الثائرين على الوالى ، فأنكرت وقالت له : أنا طول ماعشت فى مصر وقدرى معروف عند الأكابر وعند السلطان ورجال الدولة ، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس الذين هم أعداء الدين فما رأينا منهم غير التكريم . . . وأما أنت فلا يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم ، فاعتذر إليها وأمرها بالنزول فى بيت الشيخ السحيمى . . وذاع الخبر فركب نقيب الأشراف والشيخ السادات والشيخ الأمير إلى الباشا وتحدثوا معه فى شأنها فقال لهم : لابأس عليها ، وقد أنزلتها فى بيت الشيخ السحيمى مكرمة فقالوا له : نريد بيان الذنب الذى ارتكبته ، فقال : إنها سعت مع بعض كبار العسكر لاستمالتهم إلى المماليك وطالت المناقشة بين الوالى وبينهم ، فقال له الشيخ الأمير هذا أمر غير مناسب وتترتب عليه المفاسد ، وبعد ذلك يتجه إلينا اللوم ، وقام غاضبا يريد الانصراف فاسترضاه الحاضرون وأطلق الباشا سراح السيدة على أن تقيم ببيت الشيخ السادات[١]

١٥ – كان بعض الولاة العثمانيين يشرف بالتتلمذ لكبار علماء الأزهر ويحرص على أن يحصل على إجازتهم العلمية له بما تلقاه عنهم ، وقد فعل هذا الوالى عبد الله باشا الكبورلى الذى تتلمذ للشيخ أحمد بن عيسى العماوى المالكى وقرأ عليه صحيح البخارى وصحيح مسلم والموطأ وسنن أبى داود وابن ماجه والنسائى والترمذى والمواهب ، قرأ بعضها دراية وبعضها رواية وباقيها إجازة وألفية المصطلح[٢] وقد روى الجبرتى هذه الإجازة كاملة[٣]

وتتلمذ أيضا للإمام الشيخ الشبراوى واستجازه وقال الإمام الشبراوى فى إجازته له : « ولما قدر المولى الاجتماع بأفضل وزراء الدولة عبد الله باشا . . . حين حل بالديار المصرية ، وقد استخرت الله تعالى وأجزته بما قرأه علىّ من ذلك وسمعه منى وبجميع مايجوز لى وعنى روايته مما قرأته على الأشياخ أو سمعته منهم أو رويته عنهم بإجازة خاصة أو عامة بشرطه المقيد عند أهل الأثر »[٤]

١٦ – وشبيه بهذا الموقف السابق

(١) الجبرتى جـ ٦ ص ١٥٢ . ١٥٣

(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ٣٠

(٣) الجبرتى جـ ٢ ص ٦٤ ، ٦٥

(٤) راجع ترجمتنا رقم ١١ للشيخ الشبراوى فى كتاب مشيخة الأزهر

ماروواه الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٢٩ هـ من ذكر العلامة «الفقيه النبيه الشيخ حسين المعروف بابن الكاشف الدمياطى ويعرف بالرشيدى . فقد تعلق بالعلم وانخلع من الأمرية (الإمارة) ومن الجندية ، وحضر على أشياخ العصر ولزم الشيخ عبد الله الشرقاوى وانتقل من مذهب الحنفية (مذهب الدولة العثمانية) إلى مذهب الشافعية لملازمته لهم فى المعقول والمنقول ، وتلقى عن السيد مرتضى أسانيد الحديث والمسلسلات وأكب على الاشتغال بالأزهر وتَزَيَّا بزى الفقهاء فلبس العمامة والفرجية وتصدر دروس الفقه والمعقول . . . ولما وصل محمد باشا خسروى والى مصر إلى القاهرة جعله إماما له وصلى خلفه الأوقات . . . واستمر على القراءة والإقراء حتى توفى سنة ١٢٢٩ هـ »(١)

١٧ – وممن سلك هذه السبيل الأمير سليمان بن خشداشين كتخدا إبراهيم الفازدغلى حيث «رغب عن الإمارة ورضى بحاله وقنع بالكفاف ورغب فى معاشرة العلماء والصلحاء وفى الانجماع (الانعزال) عن أبناء جنسه والتداخل فى شئونهم . وكان يأتى فى كل يوم إلى الجامع الأزهر ويحضر دروس العلماء ويستفيد من فوائدهم ، ولازم درس الشيخ أحمد السليمانى فى الفقه الحنفى إلى أن مات فتقيد بحضور تلميذه الشيخ أحمد الغزى كذلك ، واقترن فى حضوره بالشيخ عبد الرحمن العريشى وكان إذ ذاك فى مقتبل الشبيبة مجردا عن العلائق ، فكان يعيد معه الدروس واتحد به لما رآه فيه من النجابة فجذبه إلى داره وكساه وواساه وظل يطالع معه الفقه ويعيد معه الدروس ليلا وزوّجه وأغدق عليه(٢) . . .

وقريب من هذا حرص عباس الأول حاكم مصر على حضور دروس الإمام الشيخ الباجورى . . .

١٨ – كان علماء الأزهر مشهورين بأنهم لايسكتون عن منكر سواء ارتكبه أمراء المماليك أم الحكام العثمانيون ومن ذلك ما كتبه الشيخ أبو الأنوار إلى الأمير عثمان كتخدا الدولة : «حسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ، وما هى من الظالمين ببعيد :

وظننت أنك عدتى أسطو بها
ويدى إذا اشتدّ الزمان وساعدى
فرميت منك بغير ما أملته
والمرء يشرق بالزلال البارد
أما بعد – فقد نَقَضْتَ عهدى وتركت

(١) الجبرتى جـ ٧ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٢) الجبرتى جـ ٥ ص ٥٥ – ٥٦ .

مودة آل بيت جدى ، وأطعت الظلمة السفلة ، وامتثلت أمر الثفلة ، فأعنتهم على البغى والفجور ، وسارعت فى تنجيز مرامهم الفاسد على الفور . . . من إلزامكم الكبير والصغير ، والغنى والفقير ، إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات ، وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات ، فكان جهادهم فى أماكن الموبقات والملاهى ، حتى أنزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى ، فاستحكم الدمار والخراب ، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب ، فبذلك كان عسكركم مخذولا ، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا . . . وقد أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها ، ثم فررتم فرار الفيران من السنَّوْر ، وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور[١] فواغوثاه ! ! واغوثاه ! ! أغثنا ياغياث المستغيثين ، واحكم بعدلك يا أحكم الحاكمين ، وانصرنا وانتصر لنا فإننا عبيدك الضعفاء المظلومين ، ياأرحم الراحمين[٢]

١٩ – على الرغم من جبروت الفرنسيين وطغيانهم ، كانوا يتقربون إلى العلماء ويحرصون على مودتهم تسكينا لثورة الشعب لأنهم يعلمون انقياده لهم ، واستعانته بهم على تقويم الحكم الشرعى للعثمانيين والمماليك إذا طغوا وتجبروا ، وكانوا يخشون تأثير العلماء فى الشعب ضد الفرنسيين الغزاة ، وقد تظاهر نابليون أمام العلماء بالإسلام وعقد لهم ديوانا يباشرون فيه الحكم بمعونة الفرنسيين ، وحدث فى حفل تكريمى أقامه نابليون للعلماء أن نهض من المجلس ثم عاد إليه وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان أبيض وكحلى وأحمر فوضع واحدا منها على كتف الشيخ الإمام الشرقاوى مبالغة فى الحفاوة به فقذف به الشيخ الشرقاوى إلى الأرض غاضبا ، فقال الترجمان إنكم – معشر العلماء صرتم أحبابا لصارى عسكر (قائد الجيش) وهو يقصد تعظيكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم ، فقالوا له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا المسلمين[٣] .

٢٠ – استطاع العلماء أن يقودوا الشعب وأن يعزلوا الوالى العثمانى وأن يرغموا الخليفة العثمانى على استبدال غيره به وذلك كما حدث فى ثورة الشعب بقيادتهم ضد

(١) يشير إلى تخاذلهم أمام الفرنسيين ، السنور : الهر

(٢) الجبرتى جـ ٥ ص ١٢٦ ـ ١٢٧

(٣) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ص ٥٩ ، ٦٠

الوالى على باشا الخازندار ، وثورتهم ضد الوالى خورشيد باشا ، وقد استطاع الشعب بقيادتهم إرغام الخليفة العثمانى على تولية محمد على باشا حكم مصر[١]

وكما استطاع الأزهر أن يقود الثورة الشعبية ضد المماليك والأتراك قاد أيضا هذه الثورات ضد الحملة الإنكليزية على رشيد وكان له الدور الرئيس فى قيادة الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩[٢]

ولايزال علماء الأزهر موضع الإجلال والتكريم لدى الشعب المصرى وحكامه إلى الآن ، وكثيرون منهم يحتلون مكان الصدارة فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون وسائر وسائل الإعلام

٢٢ – ومن العلماء البارزين الذين أعطونا مثلا رائعا فى الاحتفاظ بكرامة العلماء الإمام الشيخ إبراهيم الباجورى الذى ولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٦٣ هـ وأصر على القيام بالتدريس مع إدارته لشئون الأزهر وكان الحاكم عباس باشا الأول يكثر من حضور دروسه بالأزهر فلا يقوم له وإنما كان يعد له كرسيا من الجريد يجلس عليه للاستماع إلى الدرس ؛ وبعد انتهاء الدروس كان الحاكم يخرج وهو ينثر النقود على الحاضرين[٣]

٢٣ – استطاع الإمام الشيخ محمد المهدى العباسى أن يقف موقفا حازما فى وجه عباس الأول حينما حاول الاستيلاء على جميع مايملكه أفراد الأسرة الحاكمة ، وكانت حجته فى هذا أن جده محمد على مؤسس الأسرة وفد إلى مصر لايملك شيئا وأن ماخلفه لأسرته من أموال طائلة هو ملك للأمة يجب رده إليها ووضعه بيد الحاكم لينفقه عليها – وهى كلمة حق يراد بها باطل – وكان هدفه من ذلك اغتصاب أموالهم واستيلاءه وحده عليها ليضمها إلى ماله الخاص وحاول حمل الإمام على إصدار فتوى تجيز له ذلك فرفض فهدده بالعقاب الرادع فلم يأبه لتهديده ، فاستعمل عباس باشا معه ألوانا من الإرهاب ولكنه أصر على رفضه وفوت عليه ما كان يحلم به من غصب هذه الأموال (راجع ترجمة الإمام محمد المهدى العباسى فى كتابنا مشيخة الأزهر) .

٢٤ – فى سنة ١٢٨٠هـ ١٨٦٣م زار

(١) سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ محمد فريد أبى حديد طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨ ص ١٢٨ : ١٥٢ ، والتاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى جـ ٥ ص ٢٦٥ – ٢٦٧ .

(٢) يلاحظ أن عرابى باشا تعلم بالأزهر وكذلك سعد زغلول

(٣) راجع ترجمة الإمام الباجورى رقم ١٩ فى كتابنا مشيخة الأزهر

السلطان عبد العزيز – الخليفة العثمانى – مدينة القاهرة ، واختار الخديوى إسماعيل طائفة من صفوة العلماء لمقابلته ، وكان فيهم الشيخ حسن العدوى ، وطلب من قاضى القضاة – وكان هذا المنصب مقصورا على علماء الأتراك – طلب منه أن يعلم هؤلاء العلماء التقاليد المرعية فى مقابلة السلطان فأخبرهم أن السلطان سيقف على منصة عالية فى حجرة خاصة ، وأن على العلماء إذا ماوصلوا إلى باب الحجرة أن ينحنوا انحناء عظيما ، ثم يكرروا الانحناء والتحية والتسليم إلى أن يرد عليهم السلطان التحية ، ثم يتراجعون متقهقرين إلى الوراء إلى أن يصلوا إلى باب الحجرة ، فينحنوا مرة أخرى ، وبعد هذا ينصرفون وعند المقابلة كان الخديوى إسماعيل واقفا خلف السلطان ، فدخل العلماء كما علمهم قاضى القضاة إلا الشيخ حسن العدوى ، وكان عالما شجاعا لايخاف إلا الله فدخل منتصبا وأقبل على السلطان ، وتجاوز الحد المتفق على عدم تجاوزه ، وقال للسلطان : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وكان الخديوى إسماعيل قد اصفر لونه واضطرب اضطرابا شديدا – ولكن السلطان رد على الشيخ تحيته ، وانحنى له انحناء خفيفا ، فوعظه الشيخ ، وذكره بما يجب على السلطان لرعيته وبين له عظم المسئولية الملقاة على عاتقه وأن ثوابه عند الله سيكون بقدر تلك المسئولية ، وحسن قيامه بها ، وأن عقابه عنده سيكون بقدر تقصيره فيها ، وخرج الشيخ وقد ولى ظهره للسلطان ، وقال لإخوانه أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين ، وأما أنتم فقابلتم صنما ، وعبدتم وثنا ، وبالغ الخديوى إسماعيل فى الاعتذار للسلطان وادعى أن الشيخ من كبار العلماء ، ولكنه تعتريه جذبة فى بعض الأحيان فقال له السلطان : كلا إنى لم أنشرح لمقابلة أحد انشراحى لمقابلته وأمر له بألف جنيه وبخلعة سنية [1]

٢٥ – لما قامت ثورة عرابى وانحاز للإنكليز ، أصدر علماء الأزهر فتوى بخلع الخديوى لأنه مرق من الدين ، ولما فشلت الثورة تم القبض على زعمائها ، وكان فيمن قبض عليهم الشيخ حسن العدوى ، وقدم للمحاكمة فقال له رئيس المحكمة العسكرية : هل أفتيت بعزل الخديوى ؟ فقال له : لم أفت به ومع هذا فإن جئتمونى الآن بالفتوى فإنى أوقعها ، وما فى وسعكم أن تنكروا أن الخديوى توفيق مستحق للعزل ، وقد خرج على الدين وعلى الوطن ؛ وقد حكم على الشيخ العدوى

---
(١) الأزهر فى ألف عام جـ ٣ ص ٨٧ ، ٨٨

بتجريده من جميع رتبه وامتيازاته [١]

٢٦ – فى أواخر سنة ١٣١٦ هـ حدث خلاف كبير فى شأن إصلاح المحاكم الشرعية ، وعرضت الحكومة على مجلس شورى القوانين اقتراحا بندب قاضيين من مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية لمشاركة قضاة المحكمة الشرعية العليا فى إصدار الأحكام ، ورأى الإمام الشيخ حسونة النواوى فى هذا اعتداءً على المحاكم الشرعية التى تطبق شريعة الله وليست بحاجة إلى الاستعانة برجال القانون المدنى الذى هو من وضع البشر ، ووقف الإمام فى مجلس الشورى يرد على رئيس النظار فى عنف ، واحتد الجدال وخرج الإمام من المجلس مغضبا ، وتبعه فى الخروج القاضى التركى ، وكانت النتيجة أن خذل المجلس الحكومة ورفض المشروع [٢]

٢٧ – اختار الإمام الشيخ سليم البشرى عالماً من العلماء الممتازين – هو الشيخ أحمد المنصورى – فعينه شيخا لأحد الأروقة ، ولم يكن الحاكم راضيا عن هذا العالم ، فأوعز إلى الإمام بالعدول عن تعيينه ، فرفض الإمام الرجوع عن قراره ، وقال : «إن كان الأمر لكم فى الأزهر دونى فاعزلوه ، وإن كان الأمر لى دونكم فهذا هو الذى اخترته ولن أحيد عنه . وانتهز الدساسون الفرصة فأوغروا صدر الحاكم عليه ، فأرسل إليه من يقول له إن تشبثك برأيك قد يضرك فى منصبك فقال له الشيخ الإمام : إن رأى لى ، ومنصبى لهم ، ولن أضحى لهم بما يدوم فى سبيل مايزول » [٣]

٢٨ – فى أواخر سنى الحرب العالمية الثانية ، قامت الحكومة البريطانية بضغط شديد على الحكومة المصرية لتشترك فى الحرب ، وخطب الإمام المراغى فى مسجد الرفاعى فانتقد هذا الطلب وقال فى خطبته : «نسأل الله أن يجنبنا ويلات حرب لاناقة لنا فيها ولا جمل» وغضب الإنجليز غضبا شديدا – وكانوا يسيطرون على مصر كل السيطرة – وكان الموقف بالنسبة لهم موقف حياة أو موت ، وأحدثت خطبة الإمام ضجة كبرى وطلب الإنجليز من الحكومة المصرية بيانا عن خطبة الإمام ، فاتصل رئيس الوزراء بالإمام وخاطبه بلهجة مشوبة بما يشتم منه رائحة التهديد فغضب الإمام غضبا شديدا ، وقال

---

(١) مذكرات عرابى جـ ٢ ص ١٢١ الثورة العرابية للرافعى ص ٤٩٤

(٢) راجع ترجمة الإمام الشيخ حسونة رقم ٢٣ فى هذا الكتاب

(٣) راجع ترجمة الإمام الشيخ سليم البشرى رقم ٢٥ فى كتابنا مشيخة الأزهر

له : أمثلك يهدد شيخ الأزهر؟ وشيخ الأزهر أقوى بمركزه ونفوذه بين المسلمين من رئيس الحكومة ، ولو شئت لارتقيت منبر مسجد الحسين وأثرت عليك الرأى العام ولو فعلت لوجدت نفسك على الفور بين عامة الشعب ، فاعتذر إليه رئيس الوزراء ، ورأى الإنجليز أنه من الخير لهم عدم إثارة هذا الموضوع ، لأنهم يعلمون منزلة شيخ الأزهر فى العالم الإسلامى كله لا فى مصر وحدها[1]

٢٩ – لما حاولت الحكومة التدخل فى شئون الأزهر سنة ١٩٤٦ وقف فى وجهها الإمام الشيخ عبد المجيد سليم بقوة وصلابة وسانده بعض كبار العلماء ، فهدده رئيس الديوان ، وأنذره بغضب الملك وما يتعرض له بسبب هذا الغضب ، فقال له هل تستطيعون الحيلولة بينى وبين المسجد ؟ فقال له لا ، فأجابه بقوله مادمت أتردد بين بيتى والمسجد فلا خطر على وقدم استقالته ولما حاولت الحكومة ضغط ميزانية الأزهر غضب الإمام وقال عبارته المشهورة تقتير هنا وإسراف هناك » فنقل أعداؤه للملك فاروق أنه يقصد بالأسراف ما يبدده الملك على مباذلة حينذاك فى جزيرة كابرى ، وما تنفقه الدولة فى إرضاء نزواته ، وفى هذا الجو الخانق أعفى الإمام من منصبه سنة ١٩٥١ م ولكن فضل الإمام وفضائله وعلمه الغزير وخلقه الكريم حمل الملك والحكومة حملا على إعادته إلى منصبه فى العاشر من فبراير سنة ١٩٥٢[1]

٣٠ – استطاع الإمام الدكتور عبدالحليم محمود أن يقف صامدا فى وجه الزحف الشيوعى الذى تسرب إلى بعض الصحف والمجلات ، وتغلغل فى بعض الكليات وبين عمال بعض الشركات ، وكان الموقف الدولى حينئذ يقتضى مجاملة الاتحاد السوفييتى ، ولكن الإمام الدكتور عبد الحليم محمود واجه الزحف الشيوعى فى قوة وعزم وشن على مبادئ الشيوعية حربا عنيفة كشفت أستارها وأوضحت زيفها واظهرت وسائلها الملتوية فى تدمير العقائد الدينية وتحطيم المشاعر الوطنية وإشعال نيران الحقد والضغينة بين الطبقات فعل هذا دون أن يخشى فى الله لومة اللائمين وهم كثيرون .

كما نادى بأعلى صوته لأول مرة مطالبا رد أوقاف الأزهر إليه ، وأفتى بإثم من اغتصبها أو وافق على هذا الاغتصاب .

وهو أول صوت يرتفع فى قوة وصلابة

---

(١) راجع ترجمة الإمام رقم ٢٩ من كتابنا مشيخة الأزهر

(٢) راجع ترجمة الإمام رقم ٣٣ من كتابنا مشيخة الأزهر .

مطالبا بتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا كاملا ، وبإلغاء كليات الحقوق لأنها من صنع الاستعمار لصرف المسلمين عن تطبيق شريعة الله .

وكان قد ولى مشيخة الأزهر ، وهو بدون لائحة تنفيذية توضح مدى سلطة شيخ الأزهر ، وماطلت الحكومة بضعة عشر عاما فى إصدار هذه اللائحة ، وأحس الإمام محاولات تدبر للحد من استقلال الأزهر فاستقال ، وأصر على الاستقالة حتى صدرت اللائحة التنفيذية التى أعادت للأزهر استقلاله وللمنصب كرامته ، وللعلماء مكانتهم السامية الجديرة برجال الدين .

* * *

ومواقف علماء الأزهر الكريمة فى الذب عن حرمة الإسلام وكرامة المسلمين يحتاج إلى كتاب ضخم ، أو عدة كتب ، سواء كان هؤلاء العلماء قد ولوا مشيخة الأزهر أم فاتتهم ، ونرجو أن يوفقنا الله أو يوفق سوانا لمولاة الكتابة فى هذا الموضوع ؟

على عبد العظيم

حسن الجواب

قيل للعباس بن عبد المطلب – رضى الله عنه : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ . قال هو أكبر منى وأنا ولدت قبله ودخل سعيد بن مرة الكندى على معاوية رضى الله عنه – فقال له أنت سعيد ؟ قال : أمير المؤمنين سعيد ؟ وأنا ابن مرة ، ودخل السيد بن أنس الأزدى على المأمون فقال أنت السيد ؟ فقال أنت السيد يا أمير المؤمنين وأنا ابن أنس ، وقال الحجاج للمهلب أنا أطول أم أنت ؟ قال الأمير أطول وأنا أبسط قامة منه .

الأستاذ على عبد العظيم

تخرج من الدراسات العليا بكلية دار العلوم ، وشغل كثيرا من الأعمال التربوية والإدارية والفنية منها : مدير قسم المخطوطات والقسم الأدبى بدار الكتب ومدير الإدارة الفنية بالمؤتمر الإسلامى ومدير الوثائق والمكتبات بالأوقاف وعمل أستاذاً بالمعاهد العليا والكليات فى مصر والبلاد العربية والغربية وحضر كثيرا من المؤتمرات الثقافية بالخارج ، ويعمل الآن خبيرا فنيا بمجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر.

وصلاته وثيقة بالأزهر وعلمائه منذ نشأته ويشترك فى كثير من لجان المجمع ووزارة الأوقاف ووزارة الثقافة وله مؤلفات ودراسات عديدة نشرتها له هيئات رسمية ونال عن بعضها الجائزة الأولى ، ومنها ماتقررت دراسته بالجامعات العربية ، وتنشر المجلات المصرية والعربية مقالاته وأبحاثه بصفة دورية وله نشاط كبير فيما يلقيه من محاضرات إسلامية عديدة فى الأندية والجمعيات والكليات الجامعية

وأسهم فى كثير من المؤتمرات الأدبية والإسلامية فى مصر والخارج وأقصى آماله أن يلقى الله مجاهدا تحت راية القرآن الكريم .

أدب القمّة وأدب القاع

الأستاذ / السيد حسن قرون

ذكر (ابن عبد ربه) فى كتابه «العقد الفريد» قول بعض الأسلاف[1] : «وددت أنّ لنا مع أسلافنا كرم أخلاق آبائنا فى الجاهلية» ، ألا ترى أن عنترة الفوارس جاهلى لا دين له ، والحسن بن هانئ إسلامى له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه فقال عنترة فى ذلك :

وأَغضُّ طَرْفِى إنْ بَدَتْ لِى جَارَتِى
حَتَّى يُوَارِى جَارَتِى مَأْواها

وقال الحسن بن هانئ (أبو نواس) مع إسلامه :

كان الشباب مَطِيَّةَ الجَهْلِ
ومُحسِّنَ الضَّحِكَاتِ وَالْهَزْلِ
وَالْباعِثِى والنَّاسُ قَدْ رَقَدوا
حَتَّى أَتَيْتُ حَلِيلَةَ البَعْلِ

وأبو نواس فى هذا الشعر بَعُدَ عن مكارم الأخلاق التى تحلّى بها عنترة نحو جارته . فشتّان بين مَنْ يَدِب إلى حليلة الزوج ليلا والناس قد رقدوا وبين من يغمض عينه حين تظهر جارته ولا يفتحها إلا بعد أن تتوارى عنه ، وتختفى منه ، وما يقوله عنترة يرسم مبدأً نبيلا ، ونموذجا جليلا يدعو إلى الاقتداء به ، والسير على منواله ، ولك أن تضعه نصب أعين الناشئة فيتخذوه نبراسا لحياتهم الفاضلة . أما ما يقوله أبو نواس فيرسم صورة للمجون فى أحط مساويه ، وللمجون خلائق لا تحصى سرعان ما يروقهم ويشوقهم هذا القول الماجن الفاتن ، ذلك أن الشعر وهو نوع من الأدب له تأثيره على النفوس ووقعه على القلوب ، فلابد أن ننأى به عن الإغواء حتى لا يكون داعية إلى الفساد وانحلال الأخلاق ، وتحسين الرذائل ، ومن هنا رأينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد وقف بالمرصاد لنوعين من الشعر حاربهما حربا لا هوادة فيها : الشعر الذى يتغنَّى بالمرأة ومجالسِ الأنس ، والشعر الذى يهتف بالعَصَبيَّة التى جعلها النبى ﷺ فى فتح مكة تحت قدميه ، فالأول يكسر باب

(١) العقد الفريد جـ ٦ ص ٣ تحقيق سعيد العريان

العفة ويذهب بالحياء ، وينتهك الحرمات ويشغل النفوس عن معالى الأمور ، وينزع بالشباب إلى الجنس ، فلا يطمحون إلى مجد ، ولا ينهضون بعمل يفيدهم ويفيد مجتمعهم ، ولا يشاركون فى البناء ، ولا يحملون السلاح إذا دعا داعى الجهاد . والنوع الثانى يضرب الأمة فى وحدتها ، لأنه يثير العصبية المقيتة ، ويمزق شمل الجماعة ، وهو الداء العياء الذى يعجز عن طبه نطس الأطباء فما إنْ يحل فى أرض حتى تشتعل نارا ، وتتهاوى دمارا ، فلما عرف عمر الخليفة أن أحد أقربائه – وقد ولاّه مقاطعة بالعراق – أنه يتغنَّى بشعره فى الخمر والنساء عزله واستدعاه فلما وافاه اعتذر إليه بأنه وجد فضلا من قول فأذاعه ، وأنه لم يأت ما تغنى به ، فلم يقبل عمر عذره وحلف بالله لا يولِّيه عملا مادام أمير المؤمنين . وصنع ذلك الصنيع فى الشعر الذى يفرِّق بين أبناء الأمة بإحياء العصبية القبلية ، عاقب الحطيئة وألقاه فى السجن لمدحه الذى فضَّل فيه فريقا على فريق وهما ينتميان إلى قبيلة واحدة . . ممّا كاد أن يشعل الحرب بين أبناء العمومة ، ولأنه أيّد « الرِّدَّة » بنزعة العصبية . . ولم يقبل من خالد بن الوليد أن يسمع الشعر ويثيب عليه بآلاف الدراهم ، وأكبر الظن أن عمر كان يصدر رأيه فى ضوء قوله تعالى : (والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كلِّ وادٍ يَهِيمُونَ . وأَنَّهُمْ يَقُولُون مَا لَا يَفْعَلُون . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون) فالغاوون من الشعراء بنوعيهما اللذين أشرت إليهما يقف لهما عمر بالمرصاد كما قدمت لأنهما يقولان باطلا من القول وزورا ، ويطيرون وراء الأوهام والخيالات ، ويجعلون الباطل حقا ، ويوسوسون فى الصدر كإخوانهم الشياطين . أما من استثناهم القرآن وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذادوا عن الإسلام بلسانهم كما ذادوا عنه بسيوفهم ورماحهم فهم ناجون من منقلبٍ أُعِدَّ للظالمين ، ومن هنا لم ينكر عمر ما قيل من الشعر ذَبًّا عن الإسلام ، وردًّا على شعراء الكفر ، وتنويها بفضل رسول الله الذى جاء بالنور للقضاء على الديجور ، وقد كان عمر يتغنى بما يمدح به الرسول ولا سيما إذا كان على سفر وطاب السرى مثل الأبيات التى أولها .

وَمَا حَمِلَتْ مِنْ ناقَةٍ فَوْقَ رَحْلِها
أَبَرَّ وأَوْفى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ

وقد كثر فى عهده شعرُ الجهاد حين اصطدام المسلمين بالروم والفرس ، فكان

يسمعه ويرويه ، وكانت الجزيرة العربية تأتيها أنباء الانتصارات بالشعر أكثر مما تأتيها بالرسائل بل كان الشعر بلاغات حربية ، معدنه الصدق ، وفحواه البطولة الخارقة ، انظر إلى قيس بن مكشوح المرادى وقد قتل قائد الفرس (رستم) فى المعركة يقول :

ولما أن رأيت الخيل جالت
قصدت لموقف الملك الهام
فأضرب رأسه فهوى صريعا
بسيف لا أَفَلَّ ولا كهام

هذا هو الشعر الذى غطى الجزيرة العربية أيام عمر حيث الفتوحات العظيمة . . حتى رثاء الشهداء كانت فيه العزة والبذل والسخاء والبهجة بالاستشهاد ، قوة وفتوة وبطولة وفن يؤدى ذلك فى مثالية رائعة نائية عن بريق الذهب وبهيج المزارع ، ولكن الذين جاءوا بعد عمر أخذوا ينظرون إلى الوراء ليقولوا مايدور بأنفسهم ، وفى بادئ الأمر كان هذا النوع فلتات تروى على حذر ، ثم أخذ النبر يعلو حتى صار صراخا ينكره أهل التقى وذوو الألباب والنهى ، ويستمع إليه من غرته مباهج الدنيا ، ورأى النصر حليف العرب لا يسبقهم ولا يتأخر عنهم ، فرجعوا إلى الفخر الظالم ، واللهو الآثم ، والجدال فيما لا يستحق الجدال حتى كأنهم أعداء أنفسهم ولو استمسكوا بالعروة الوثقى ، والنهج الأقوم واتبعوا ما أنزل الله وما بينه رسوله ، وسلكوا بالخلافة مبدأها الأول وهو الشورى والانتخاب ولم تعمل فيهم روح القبيلة عملها لجاءت الأيام والسنون بتطويرها ، فإذا هى سياج ومنعة وانطلاق إلى آفاق بعيدة ، ولكانوا نموذجا بشريا لحياة العدالة والحق والمساواة وحب الخير ، ولدخل الناس فى دين الله أفواجاً بذلك السلوك الحميد الذى تجلى منهم فى معاملة الشعوب التى أظلها الإسلام ، ولكن النزاع حول الخلافة والرياسة استهلك ما دعا إليه الدين ، وما يعتز به الخُلُق المتين .

لقد رأينا العصر العباسى – وهو قريب من العهد الأول – يموج بطبقات من أهل المجون الخارجين على تعاليم الدين لا غضبة مضرية أو يمنية على من يتغنى بالخمر والنساء ، ولا زجر لمن يتهاجى بسب أصحاب رسول الله ﷺ بحجة التشيع للعلويين أو التشيع للعباسيين ، وأهدرت كرامة العلماء من الفقهاء والمتحدثين والمتكلمين (أصحاب التوحيد) وصار العبث برواية الحديث، يجد مناخا فسيحا له ، ويسمعون ولا ينكرون ، ويتناقلون ما يقال كأنهم أخذوا على الله عهدا ألا ينالهم بسوء ، وقد غفر لهم ما تقدم من

ذنبهم وما تأخر ، وكأن القضاء على بنى أمية برهان الغفران . قالوا : أقبل أبو نواس على مجلس (عبد الواحد بن زياد) بالبصرة وقد كثر عليه أصحاب الحديث ليسألوا عنها ، فقال لهم : ليسأل كل واحد منكم عن ثلاثة أحاديث وليمض ، ففعل الناس ذلك حتى انتهى إلى أبى نواس فقال : يا غلام ، سل أنت فقعد بين يديه . وقال : هاك الحديث (جعل نفسه محدثا راويا) فقال الشيخ : هات : فأنشد :

ولقَدْ كُنّا روينا عن
سعيدٍ عن قَتَادَهْ
عن زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى
أنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَهْ

قال . . . وهنا ذكر أشياء يعف القلم عن تسطيرها ، ولا يقبلها عصرنا هذا — مع أنه لا يخلو من العبث — على أنى أذكر ما ختم به حديثه ، أو قل شعره ، وهو استمرار للرواية عن سعد بن عبادة المفترى عليه . قال :

إنَّمَا الدُّنْيَا ثَلاثٌ
لَيسَ فيهنَّ زيادَهْ
فَحَبِيبٌ ومُحِبٌّ
ثَمَّ ثَلّثْ بالقِيادَهْ
أَتَرَى ذَاكَ صَوَاباً
نَتَّبعْ مِنْهُ سَدَادَهْ ؟
قَدْ رَوَى ذَاكَ هِشَامٌ
عَنْ أَبَانٍ عَنْ جُنَادَهْ

فقال له عبد الواحد المحدث : قم ، عليك لعنة الله ، والله لا أحدثك بعد ذلك ولا أعرف وجهك ، فقام أبو نواس وقال : والله لا أتيت مجلسك وأنت ترد الصحيح من الأحاديث . وأنا أعتقد أن هذا الشعر الذى عنى به الرواة ، وجمعه (ابن منظور المصرى) فى كتاب « أخبار أبى نواس » صادف أسماعا تتلقف وأقلاما تكتب ، وعشاقاً لَهُ يتناقلونه ويتفكهون به ، ولا يدور فى خلدهم أنه يضعضع من مقدساتهم ، ويحطم معنوياتهم ، ويميت الغيرة والنخوة فى قلوبهم ، فلا يألمون لخلاعة ، ولا يغضبون لعبث ، وفى هذا إضعافٌ للدولة والمجتمع من حيث لا يشعرون ، ثم هو محسوب فى صحائف أعمالهم « وهل يُكِبُّ الناس على مناخرهم يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم ؟ »

والأنكى من ذلك أن تطاوعهم نفوسهم فيكذبوا على رسول الله ، ويصدقوا الكذب : من ذلك ما جرى على رءوس الأشهاد فى يوم مجموع له الناس . أراد أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى البيعة بولاية العهد لابنه (محمد المهدى) وكان ابنه جعفر يعترض عليه فى ذلك ، فأمر

بإحضار الناس فحضروا وقامت الخطباء فتكلمت ، وقالت الشعراء فأكثرت فى وصف المهدى وفضائله ، وفيهم (مطيع ابن إياس) الشاعر ، فقام وقال للمنصور : يا أمير المؤمنين حدثنا فلان عن فلان أن النبى ﷺ قال : « المهدى منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلا كما ملئت جورا » والمهدى اسمه محمد والمنصور واسمه عبد الله ، ويستشهد مطيع بأخى الخليفة قائلاً : وهنا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك . ثم أقبل على العباس . فقال : أنشدك الله ، هل سمعت هذا ؟ قال العباس : نعم (مخافة من المنصور) ، فأمر المنصور بالبيعة للمهدى . ولما انقضى المجلس قال العباس بن محمد لمن يأنس به : أرأيتم هذا الزنديق ؟ لم نرض أن يكذب على الله عز وجل ورسوله ﷺ حتى استشهدنى على كذبه ، فشهدت له خوفا ، وشهد كل من حضر علىَّ بأنِّى كاذب (١) .

إن الحاضرين وعلى رأسهم أبو جعفر الخليفة يعلمون مجون مطيع بن إياس ، وأنه ليس من رواة الحديث ولا عدالة فيه ، فكيف أصغوا إلى هرائه ، وكيف قبل وعمل به ؟ وموقف العباس بن محمد لا يحمد عليه وهو من أذكياء بنى العباس ورجالاتهم . ألا يعلم حديث الرسول : « من كذب عَلَىَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ؟ وإذا كان أبناء بنى العباس بن عبد المطلب يقبلون هذا الكذب الصراح فكيف يكون غيرهم ؟ إنها السياسة والرياسة والتعصب للأسرة أو للولد ، وهذا ما كان يخشاه عمر .

ما أثر هذا فى الرَّعِيَّة أو فى الشعب كما نقول اليوم ؟ إن الناس على دين ملوكهم رأوا الغاية تبرر الوسيلة لدى خليفتهم ، فما عليهم أن يفعلوا مثل ما فعل ؟ وقد سبق أبا جعفر معاوية بن أبى سفيان استمع إلى الخطباء والشعراء فى وصف يزيد ابنه وفضائله وقال لم يبق إلا أبناؤنا وأبناؤهم وأبناؤنا إلينا أحب فليكن يزيد ولى العهد ، ولم يستخدم وثيقة دينية مثل أبى جعفر فيزور حديثا على رءوس الأشهاد ، ومن الحب ما قتل ، والحب هنا لا يقتل فردا وإنما يقتل أمة وقديماً قالوا : الهوى إله معبود .

سقت هذا كله ، وفى كتب التاريخ والتراث أكثر منه لأبيِّن أن الأدب شعره ونثره ما لم يتخذ الصراط المستقيم مهمته ووظيفته اتضع وفقد رسالته ، وصار معولا هدَّاماً فى كيان الأمة .

والأمة الناهضة لا تقبل الأدب

---

(١) الأغانى – أخبار مطيع بن إياس

الداعر ، ولا الخيال الكاذب ، ولا السفسطة الفارغة ، لأن البناء الجديد يستدعى جدًّا لا يقبل الهزل ، وغيرةً لا تعرف التهاون ، وسلوكا لا يميل به الهوى ، إن أبا سفيان – قبل إسلامه – سأله (هرقل) عن رسول الله ، وكانت العداوة على أشدها بين المسلمين وكفار قريش فأجاب صادقا ولم يقبل أن يكذب ، وقال : لو كذبت ماردّنى أحد ممن معى ، ولكنى كنت رجلاً أتكرَّم ، يعنى لا يقبل أن يخدش كرامته بالكذب . وهذا هو النوع الذى أُرْسِلَ إليه محمدٌ صلوات الله عليه بالهدى ، فكانوا حين أسلموا رجالا كراما باطنهم كظاهرهم لا تغرهم المغريات ولا تلعب بهم الدنيا ، ولا تدهشهم المواقف ، ومن ثم تجد « كليلة ودمنة » من اختيار الجادين ، وتجد « ألف ليلة وليلة » من اختيار اللاهين . . . والكتابان ظهرا فى العصر العباسى ، وإن كان الأخير عملت فيه العصور بما تهوى إلى القرن العاشر الهجرى ، فأدب كل أمة هو « الوعاء » الذى يبين عن منهجها وطموحها ومسلكها ، فالأمة الجادة آدابها جادة ، والأمة المترهلة آدابها ساقطة هابطة ، فنى الأربعينات من عصرنا كتب المرحوم أحمد أمين ينعى على أغانينا أنها تدور حول الغرام والهيام والشكوى من الصبابة ولواعج الشوق وخلف المواعيد ، فتصدى له أحد المطربين « يقول له : هات لى ميدانا غير ميدان الحب أغنى لك فيه ، نظر المطرب إلى الاستعمار الجاثم فوق صدورنا ورأى الجنود لتشييع الجنازات ومرافق الدولة فى اليد الأجنبية ، وثورة ١٩ انقلبت أحزابا وتناحراً على كراسى الحكم ، فليس هناك ما يدعوه ليتغنى بشىء غير موجود . هذا ما علق بذهنى من كلام الأديب والمطرب ، وليس لدىّ المقالان فأنقل إليك ما دار على تمامه ويومها عجب القراء لرد المطرب ، إذ أنه لمس كبد الحقيقة وأشار إلى ما ينقصنا ، وليس معنى هذا أنى أؤيد ما ذهب إليه ، فليس الأدب وما يغنى به منه مقصورا على الواقع فأين أحلام الشعوب وأين ما تطمح إليه ؟ إن نظرة فاحصة إلى بناة الشعوب على مدى العصور تجد غذاءهم الخيال ، إنهم ينظرون إلى المستقبل من ستر رقيق ، يحدثون أنفسهم بمستقبل بلادهم ، ثم يخططون ثم يعتقدون بما يحلمون ، ثم يكتبون ويخطبون ، ولا يخافون ما ينتظرهم من آلام وعذاب ، وقد ينجحون فى حياتهم ، وقد يحصد مازرعوا أبناء وطنهم بعد رحيلهم ، ولولا طموح الزعماء وماتصوروه لبقيت شعوبهم إلى الأبد ترزح تحت نير الاستعمار

أو التخلف وهنا يأتى دور الأدب فيأخذ أحلام زعمائه فيصوغها قصصا وشعرا يقبل عليه الشعب فتكون النتيجة على يديه ، بل على الأدباء أن يسبقوا الزعماء فهم أصحاب الخيال وعليهم أن يعملوا لشعوبهم لا لأنفسهم لكن أدبنا كثيرا ما تخلى عن رياسته ، فعاش تابعا مسامرا للأمراء والملوك لا يرفع شعارا ولا ينير منارا ، ولا يعرف للنصيحة موقعا مع أن النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين كما نوه سيد المرسلين ، وينزل الأدب عن سمائه ، وينزوى فى ملهى ، فيقول هراء ، ويذيع هذيانا وبهتانا ، ويكون معوقا لنهضات الشعوب ، انظر إلى قاضى (غرناطة) آخر معقل للعرب والمسلمين بالأندلس ينظم ٩٦ بيتاً فى المجون والخلاعة ، ولا يلتفت إلى ما حل به وبقومه وبالوطن الذى يعيش فيه ، وهذه أبيات أختارها من قصيدته ، فقد نتسامح فى قراءتها لأنها أعف ما فيها وإن كانت من الهزل والاتضاع فى القاع . يقول :

لاَ أُمَّ لى لا أم لى إنْ لَمْ أُبَرِّدْ شَجَنِى
وأخْلَعَنَّ فى الْمُجَونِ والتَّصَابِى رسنى
واجـعـل الصبر على هـجـر الملاح ديـدنى

قاضى غرناطة ماجن خلع رسن النهى وثوب الحياء ، وصار كما صور نفسه بوهيميا ، والصَّبْر الذى هو قيمة المؤمن والسلاح العزيز فى الخطوب والنوازل والمعارك والجنة فى صيانة الحق وأهله جعله القاضى ديدنه وعادته عند « هجر الملاح » أتظن هذا القول يصلح مبدأ للحياة ؟ ألا يدل هذا القول على أفول نجم العرب فى الأندلس ؟ إذا كان القاضى هذا شأنه فماذا ينتظر من غيره ؟ هذا وأمثاله هم الذين ضيَّعوا ما خلفه السادة ، وخاضوا من أجله ميادين القتال البحر من ورائهم والعدو أمامهم وليس لهم إلا الصبر من أمثال طريف بن مالك وطارق بن زياد . وموسى ابن نصير ولو استخدموا عقولهم وآدابهم فى الحفاظ على ما فى أيديهم لكانوا خليقين بالانتساب إلى آبائهم ، وكم من أبناء ضيعوا ما خلف الآباء وكان معاصرو « قاضى غرناطة » فى مصر المملوكية لهم عبث من نوع آخر ، عبث اليائسين الذين لا يشاركون فى حكم ولا يتطلعون إلى تغيير ، جعلوا الأدب والشعر فى مقدمته جسما بلا روح ينظمون الألغاز والأحاجى والبيت الذى تنقط حروفه كلها والبيت

---

(١) أبو عبد الله بن الأزرق ترجم له المقرى فى نفح الطيب .

الذى يخلو من النقط ، والبيت الذى ينقط من أعلى فقط ، ومالا يستحيل بالانعكاس ، والتاريخ الشعرى لكل من ولد أو تزوج أو مات منهم إلى غير ذلك مما لا طائل تحته ، شعر لا يحمل عاطفة ، ولا يتوهج فيه إيمان ، ولا يعترك فيه رأى ، كلمات مخصوصة . وألفاظ مصفوفة لا ترى من بينها هدفا يغلو ، أو همة تعلو ، أو مبدأ يسمو ، أودعوة تفيد ، وإن تحركت شاعريتهم ولو مجازًا تهاجوا بكلام منحول من السابقين أفسدوه حين نظموه من جديد ، فجاء كخبز الشعير كما يقول ابن نباتة الشاعر ، وليس لك من كل ما عاشوا فيه ، وسلخوا حياتهم فى قوافيه إلا البديعيات التى نظمت محاكاة للبردة التى نظمها البوصيرى فى مدح الرسول ، وليتهم كانوا مثله ، ولكنهم جعلوا من مدح الرسول على وزن البردة علما هو البديع ، السيرة النبوية الحبيبة إلى النفوس التى تهدى وترفق القلوب جففوها فصارت فى قصائدهم لا تحرك قلبا ولا تلهم لبا ، ولا تعطى بيانا ، ولو عرضوها بما توحى به لعدلت أخلاقا وسلوكا ، ولنبهت الغافل ، وأيقظت النائم وهدت الضال ولكان الحكام والمحكومون على صراط مستقيم ، ومن ثم عاث المماليك فى الأرض فساداً فَمَنْ يُبَيِّنُ فضائحهم ويثير الناس عليهم إن لم يكن أهل الأدب وأرباب القلم من كتاب وشعراء ؟

إن شاعر عصرهم يقول :

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة

دعونى فإنى آكل الخبز بالجبن

ويرين الظلام ، ويخيم على دور الإسلام وكأن أصحاب الدور نيام ، والعالم الأوربى من حولهم يطير فى كل مكان يبحث وينقب ويجرب ويجدد ويبتكر ، إنهم الأحياء وغيرهم الأموات لا يشعرون بدورة الزمن ولا يدرون ما يحاك لهم من المحن . والشرق الإسلامى من العراق إلى ماوراء النهر يَئِنُّ تحت حفدة جنكيزخان ، ويبعث على البكاء واجترار البأساء ، وتطلع شمس وتغرب شمس على دنيا تتغير ، ودعوات تظهر ، ودول تدول ، ودول تقوم ، وأهل الفكر فى غيبوبة تامة ، ونوم عميق .

واستيقظت مصر يوما على دوى الرصاص ينهال من أفواه المدافع ، فإذا بالمماليك والعثمانيين الذين حرموا أهل البلاد من الجندية وشرف القتال لا يثبتون للمغيرين من الفرنسيين ، ويصيح المصريون . يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف ولا يكون النجاء إلا بيقظة تامة ، وعلم

بالحرب والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، وفى المقدمة التخلى عن الأوهام والخرافات والتواكل ، والأخذ بأسباب القوة ، والعودة إلى الإيمان الصحيح ، والاستجابة لقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

وصحا شعب مصر فكان له رواده ومصلحوه فأيقظ معه أبناء قحطان وعدنان فى كل صقع من أصقاع العروبة ، وامتدت أصواته إلى كثير من ديار الإسلام فى أرجاء الأرض ، والعراقيل تشده وهو يغالبها . صراع مرير ، وجهاد كبير فى الداخل والخارج كان الأدب فى ذلك الحين يتحسس طريقه ، ويتلمس حقوقه ، وما هى إلا سنوات حتى بدت تباشيره على أيدى رواد عرفوا التراث فأخرجوه حيا يتحرك ويتحدث ويصيح ، وظهرت السيرة النبوية ملهمة ومعلمة ومرشدة ، تجلت لنا الجزيرة العربية على عهد الوحى فعرفنا الدين كما أراده الله ، وعرفنا كيف صاغ محمد ﷺ من أهل البادية رجالا وأبطالا لهم قدرهم وخطرهم فى كل ميادين الحياة حتى بهروا من حولهم من أرباب العلم والسلطان فقالوا إنهم « رهبان بالليل فرسان بالنهار » فعاشوا بيننا بفضل ما أداه إلينا روادنا وعشنا معهم نشاهد مكارم أخلاقهم ، وقوة صبرهم ، وإنكار الذات فى سبيل المطلب الأسمى ، وهو نشر الإسلام بسماحته وعدالته وإيمانه وأمنه ، فلم تعد السيرة النبوية علم البديع ولكنها صارت أدبا رائعاً بارعا فيه الحقيقة التاريخية والإلهام الأدبى والهداية إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ترى ذلك فى شعر البارودى وشوقى فى « نهج البردة » وترى صنيعا لغيرهما فى « العمرية » لحافظ و « العلوية » لمحمد عبد المطلب و « الإلياذة الإسلامية » لأحمد محرم ، وبجانب ذلك «العبقريات» للعقاد ، « وعلى هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، وما إلى ذلك مما لا يحتمله هذا البحث الذى بنى على الإيجاز . وكان لهؤلاء الرواد منهجهم فى السياسة والاجتماع فقالوا وكشفوا وصرخوا فى وجه المستعمر وفى وجه الحكم المطلق ، وتحملوا السجن وآلام الحرمان . . ثم مضوا وظهرت بعدهم أمور أثناء حياتهم تسمى وسائل الإعلام وأبرزها صناعة السينما والمسرح والإذاعة المسموعة والمرئية ، فكان ضرها أكثر من نفعها ، يدور كثير من أعمالها على الجنس يمثل ويغنى ويترك آثاراً سيئة تحتاج إلى جهد ومقاومة ، فكنا كأسلافنا فى العصر العباسى ، منا من يلهج بالجد ، ومنا من يلهج باللهو ، وكما ظهرت الشعوبية فى

عصر الأسلاف من زندقة وتعصب ضد العرب ظهرت فى عصرنا دعوات إلحادية وأفكارمستوردةللقضاءعلى الإسلاموتقاليدنا الطيبة ، ويتخذ أصحاب الآراء المستوردة من واقعنا حديثهم عن أسباب تخلفنا ، ويرجعون ذلك إلى جمودنا على ماضينا مما يبغض الشباب فى مفاهيم دينه ، وتعاليمه النيرة حتى رأينا أناسا يقولون : إن ما كان يصلح فى زمن الخلفاء الراشدين لا يصلح فى عصرنا ، وأن تطبيق أحكام الدين الإسلامى تعوق التطور أو أن المجتمع لم يهيأ لتلك القوانين ، وأحكام الدين – كما هى معلومة – من صنع رب العالمين العالم بما يصلح للإنسان فى كل زمان ومكان .

فما واجب الأدب إذن إزاء تلك الأقاويل ؟ واجب الأدب فى زماننا ، وقد صحونا وأخذنا نتطلع إلى المستقبل أن يسلك سبيل الرشاد ، لأننا توانينا عن العمل دهرا طويلاً فلا سبيل إلا الجد والجهد وبذل أقصى ما نملك من قوة وتفكير مع المحافظة على الخلق الحميد ، وصيانة التقاليد الموروثة النابعة من حب الأسرة ورعاية الجار ، وحب العمل لصالح المجموع ، وأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ، أى العودة إلى منهج الأسلاف الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وأن يقوم الأدب بتصوير ذلك فى فنونه من القصيدة والنشيد والأغنية والمقالة والقصة والأقصوصة والرواية ، وما يعد للتمثيل وليس فى هذا تزمت ولا دعوة إلى الوراء ، بل دعوة إلى بناء شخصيتنا على أساس من العلم والإيمان ، والا جرفتنا أبواق الغرب وبريقه ألى ذوبان شخصيتنا ويومئذ لا تجد لنا كيانا ولا سلطانا . فعلى حملة الأقلام أن يتبينوا موقفهم ، ويعرفوا مكانتهم ، ويتقوا الله فيما يقولون ويكتبون . وعليهم أن يهتموا بلغتهم ، فلا يعتمدوا على ما قرءوا فى الآداب الأجنبية ، فمنهم من يعرف كل ما أنتجة أدباء الغرب ويحرص على الدقة فيما يعرضه من كتاباتهم وفنونهم ، فإذا جاء إلى أدب لغته لم يهمه أن يعرف ما أنتجه أدباؤنا قديما وحديثا ، ولا يهتم بتقويم لسانه بمعرفة قواعد لغته ، إن إتقان اللغة العربية من صلب الشخصية ، فالتهاون فيها تهاون فى الشخصية التى تنسب إليها ، فلغتنا غنية بما يحتاج إليه الأديب ، وفيها من المعانى والأساليب ، ولها من جرسها وحلاوة لفظها وشاعريتها ما يصنع الأديب ويلهمه ويعينه على الإجادة والبراعة وجذب الأنظار .

ولقد أحسن الشاعر حافظ إبراهيم حين

جعلها تتحدث عن نفسها قائلة : ولا نهبط به إلى الثرى . .
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن وإنا إن شاء الله لفاعلون .
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى ؟
فعلينا أن نرتفع بالأدب إلى الثريا ،

السيد حسن قرون

الفقيه كل الفقه

قال علىَ كرم الله وجهه : ألا أخبركم بالفقيه كل الفقه ؟ قالوا نعم قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أيها الناس إن أقربكم اليوم إلى الله أشدكم له خوفاً وإن أحبكم إليه أحسنكم له عملاً ، وإن أعظمكم عنْدَه نصيباً أعظمكم فيما عنده رغبة وإن أكرمكم عند الله أتقاكم . . ! !

الإسلام وتطبيق شريعته

الدكتور / توفيق محمد شاهين

إن الدين عند الله الإسلام ، أكمله سبحانه وأتم به النعمة ، وارتضاه تعالى دينا لخير أمة أخرجت للناس ، وهو نظام متكامل : فى الجانب السياسى ، والجانب الاقتصادى ، والجانب الاجتماعى . . وليس ملفقا من أنظمة متباينة ، ولامرقعا من وضع عقول بشرية تصيب وتخطئ ، وتستقيم وتزل .

ولابد أن يؤمن المسلمون بأن دينهم : عقيدة وشريعة ، وعبادة ومعاملة ونظام دين ودولة . ولابد بعدئذ – أن يرتبطوا بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله – ﷺ – فى جميع تصرفاتهم وأحوالهم .

والتزام المسلمين بأحكام شريعتهم لازم ، لاخيار لهم فى غير ذلك : (وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) ، (الأحزاب ٣٦) .

(وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهو) ، (الحشر آية ٧) .

(فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم) ، (الزخرف ٤٣) .

(وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) ، (الأنعام ١٥٣) . (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أويصيبهم عذاب أليم) ، (النور ٦٣) .

فالالتزام بأحكام الشريعة – إذن – حتمى ، والوقوف عند الحدود واجب ، واتباع الرسول فيما جاء به يتبع ، والإسلام هو الصراط المستقيم ، ولايضل المؤمن الطريق الإلهية إلا تنكب عنه ، والخسار والبوار فى مخالفة تعاليمه والزيغ عنها .

وتعاليم الإسلام تؤخذ ككل ، وإلا فخزى الدنيا وعذاب الآخرة لمن اختار منها فنفذه ، وترك بعضها فأهمله (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ؟ (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاخزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد

العذاب) ، (البقرة ٨٥) .

* * *

واحترام الإسلام للإنسان وتكريمه وإعزازه هدف الرسالة الإسلامية بل كل الرسالات الإلهية راعت ذلك : (ولقد كرمنا بنى آدم) ، (الإسراء ٧٠) .

وتلطف الإسلام بالطبيعة البشرية ، فلم يكلفها رهقا ولاشططاولم يتركها هملا وضيعة :

فحفظ للإنسانية صفاءها ونقاءها ، وهذب غرائزها وكبح جماحها ، لأن نفس الإنسان وطبيعته بما ركب فيها من عقل وحكمة ، وغريزة وشهوة .. عرضة للتأرجح بين السمو والرفعة ، والتردى والانحطاط . ولايطلب الإسلام من الإنسان أن يخالف طبائعه فيكون ملكا ، ولايريد له أن يتردى مع غرائزه فيكون حيوانا ، وإنما يحب له أن يكون بشرا سويا ، وإنسانا يعيش المستوى الفاضل فى الإنسانية : (ونفس وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) ، (الشمس ٧ - ١٠) .

فالمواءمة بين طبيعة البشر وانسجام سلوكه نشدة الإسلام ، ومن ثم لم يُحِلَّ الله لعباده إلا مافيه خيرهم ، ولم يحرم عليهم إلا مايزعجهم وينغص عليهم حياتهم ، وبذلك الرفق فى توجيههم داروا فى دائرة الممكن ، وعدم تجاوزه إلى دائرة المستحيل ، أو مايصطدم بالنواميس الفطرية والاجتماعية وغيرها مما ينتظم الوجود الأرضى للإنسان . وبذلك واءم نفسه مع عقله وغرائزه بصمام أمن وتوازن هو القلب والفؤاد مكان الإيمان بالله ، فحقق دوره الاستخلافى والأخلاقى بصورة مهذبة كريمة ، وفى إطار رشد إنسانى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ، (النحل ٧٨) .

والإيمان أمانة المؤمن ، به أعزه الله وفضله ، وكرمه على غيره من المخلوقات حتى لايتجه بالعبادة إلى مماثل له أو مخلوق ، وإنما اتجاهه وقبلته ومقصده وعبادته وخضوعه لمن ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

وكل مشقات الحياة ولأوائها تهون أمام الاستمساك الحق بالإيمان ، فالمؤمن الكامل يثبت بإيمانه فى كل موطن ، ولايطغيه النصر ، ولا تخيفه الشدة والأزمة ، ولكن يحيا بإيمانه وله ، ويموت عليه . وهو فى سبيل ذلك قد تدفعه متطلبات تلك المحافظة

على الرضا بالقليل الحلال ، بل قد يستعذب الحرمان عن طيب خاطر مع الثبات على مبدئه .

هانت عنده الدنيا القصيرة الأمد ، وهانت عليه متعها الزائلة ، وصغرت عنده كل تضحية وحرمان ، وكان له من قوة إيمانه دفع قوى ، ونور هداية فى غياهب الديجور ، ولم تزعزعه الأزمات والمحن ، ولا انتشار الباطل والطغيان : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) ، (الحج ٤٠) .

بينما رقيق الدين أوغير المؤمن ، أوالمنافق تغلبه نفسه وأنانيته ، فيؤثر متع الدنيا مع التنازل عن إيمانه ، أوينافق فى سبيلها فى معتقده وسلوكه ، ذلكم خسر الدنيا والآخرة ، وهو خسران مبين . ولوراجع هذا نفسه وتيقن من أن الحياة كلمح البصر ، أوهى أقصر ، لارعوى وأقصر عن باطله ، ولكن غره شيطانه ، وغلبته نفسه الأمارة بالسوء ، فكان بواره وخساره : (ومن يهن الله فما له من مكرم) ، (الحج ١٨) ، . (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ، (طه ١٢٤ – ١٢٧) .

ومن صفات الله تعالى « العدل » فهو سبحانه لايسوى بين هذا وذاك : فبينما ينتظر المحسن ماوعده الله فى الدنيا من العزة والاستخلاف والأمن والتمكين ، وفى الآخرة من النعيم المقيم والنور ورضاء الله . . بينما ينتظر المسىء الذلة والخوف والإهانة والظلمات جزاء إلفه لظلمه : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا) ، (النور ٥٥) ، (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) ، (٧ – ٨) . (فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) ، (الليل ٥ – ١٠) .

ولم يتخلف قانون الله سبحانه وناموسه بين جماعة المسلمين من لدن كانوا إسلاميين

حتى اليوم ، ولن يتخلف فى الغد إلى أن تقوم الساعة : سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا : فيوم أن اعتز المسلمون بإسلامهم أعزهم الله . ونصروا دينهم وانتصروا على أنفسهم ، فنصرهم الله ولينصرن الله من ينصره ، فكانوا مثلا يحتذى ، ونماذج تقتدى ، ونورا به يهتدى . .

* * *

وأصاب المسلمين الوهن حين تسرب إلى أقطار العالم الإسلامى فى القديم والحديث حب الدنيا ، وحين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وحين تعرضوا لغزو أجنبى نتيجة تقصيرهم . . . أمكن الله منهم ، فأصبح واقعهم مؤلما ، وتعرضوا لغزو فكرى أجنبى جارف ، قذفته عقول واعية حاسبة ، تنفيسا عن داء دوى ، وأحقاد دفينة من صدور تكن عداوة شديدة بدون مبرر .

وازداد وهنهم وضعفهم ، فأصبحوا غثاء كغثاء السيل ، حين تسرب بينهم وهم خاطىء بأن الحضارة شىء ، والدين شىء آخر ، نتيجة انتشار الحضارة المادية الوافدة من الغرب العلمانى ، الذى فصلت فيه الدولة بنشاطها عن الدين (مع أن نفوذ الكنيسة صار نافذا ومسموع الكلمة ومرهوب الجانب بعدئذ) وغفل قادة المسلمين عن أنه لاانفصام بين الدين والحضارة .

فالدين هو الالتزام بما جاءت به رسل الله ، مادام مصونا وناقذ الكلمة ، لم يغير ولم يبدل ، ولم يتخذ ظهريا ولامطية ، والحضارة كل إنتاج مصدره العقل ، لكل ألوان النشاط البشرى ، ماديا أومعنويا ، ويوجهها الدين لإكرام الإنسان وإعزازه . .

ونتيجة لهذا الفهم الخاطئ الذى روجه أعداء الأمة الإسلامية فى الداخل والخارج ، عاشت أمة مستهلكة ، (بفتح اللام . وكسرها) وأمست غثاء كغثاء السيل ، لايؤبه لها ، ولايلتفت إليها ، وتساق إلى مايراد لها ، وتستنزف خيراتها ، وأنهكتها خلافاتها وطوائفها . .

وأصبحت المقارنة الظالمة بين حاضر المسلمين وواقعهم المرير ، والبون الشاسع بين التقدم الهائل فى دنيا « التكنولوجيا » للأمم « العلمانية » والتخلف المريع الذى يرتع فى رقعة الأمة الإسلامية . . أصبحت هذه المقارنة الظالمة مادة للتأليف والرصد والتحليل ، وسبيلا للصد عن الإسلام والحيلولة دون انتشاره ، وسببا إلى قوقعته ، ودعاية رخيصة للحانقين بأنه استنفد أغراضه ، وأمسى جثة بلاحراك . .

والدين من كل هذا براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، والتأخر إنما هو فى الأنفس الخائرة والحائرة ، والقلوب الضعيفة والميتة ، فالمقارنة مغالطة مقصودة .

وضيق الأعداء الخناق على الإسلام بمخططات قوية محكمة بهدف زعزعة عقيدة المسلمين ، حتى يتركوا دينهم ، أويصبح الدين بعيدا عن القيادة والتوجيه والحياة ، وينحصر فى دائرة الطقوس الدينية ، بين المقابر والجنائز ، وبين مساجد بلا روح ، ويعيش على هامش الحياة ، فاستشرت الملل والنحل ، وانتشر الفساد والإلحاد ، وتربعت المادية وعادت سيرتها الأولى فى جاهليتها بكل مظاهرها وطغيانها .

وفصل التعليم المدنى عن الدينى ، وحظى الأول بكل رعاية وعناية ، ونال الثانى الإهمال وأبعده خريجوه عن القيادة والتوجيه ، وحتى تصدر من لادراية لهم بالدين بقيادة المؤسسات الدينية ، وحرم الفاهمون لطبيعة الدعوة الإسلامية عن قيادة أموره وشئونه ، وحتى قدم لرياسة المؤتمرات الإسلامية غير رؤساء المؤسسات الإسلامية . والمثير فى ذلك أن المرءوسين لم يقووا على الاحتجاج ، ولم يثيروا الاعتراض ، مع أن أبسط مظاهره هو الاستقالة . . ولعل من أثر ذلك أن وجه كثره كثيره من أبناء العلماء المسلمين أبناءهم للدراسة فى غير مجال الإسلام .

وأتت ازدواجية التعليم ثمرتها الآثمة ، فى خلق أجيال متصارعة بين القديم والحديث ، وبين الدنيا والدين ، وبين ساخر من التراث وداع إلى نبذه ، وبين محافظ على التراث وداع إلى تنقيته والأخذ به واعتباره . وهنأ الاستعمار ، وترك أبناء المسلمين يصطرعون . وأطلق طائفة رباهم على عينه ، وصدرهم التوجيه ، ومكن لهم من الريادة والرياسة والقيادة ، فكانوا ضغثا على إبالة ، وحربا على أهلهم وأضحوا مثار حيرة وبلبلة لشباب بنى جلدتهم ، ومناوئين ألداء لمعتقدهم وموروث الأمة ، وماضيها المجيد ، وأرقدهم الاستعمار والغزو الفكرى بسيل جارف من المطبوع والمشاهد والمجسم والمعنوى . . فى محاولات مدروسة وذكية لوأد البقية الباقية من تعاليم الإسلام أوقهرها ، فتهدأ القلوب المريضة ، وسرت جوانب الضعف فعلا فى كل المناحى والجوانب ، ولكن بقى الإسلام – والحمد لله ، فى نفوس طاهرة ، وعقول واعية ، عضت على إسلامها بالنواجذ ، وتجرعت فى سبيل المحافظة عليه كل الغصص وكل

المساءات : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ، (الحجر ٩) وأنس الاستعمار من كثرة من القائمين على أمر الأقطار الإسلامية ، بعد الاستقلال الكلى أوالجزئى ، والحقيق أوالشكلى ، أنس منهم نفرتهم من التقرب إلى الإسلام والميل إلى عدم الأخذ بتعاليمه ، وعدم الجدية فى العودة إليه وتطبيق أحكامه . . فوجد ضالته ، وقدم لهم أمانيه فى صورة مشورة ، واهتبل الفرصة السانحة ، وأحدق بالأمة الإسلامية والعربية ، وكرس جهوده بواسطة رسله ، أوحكام هذه المناطق ، أومن المشرعين من أبناء البلاد ممن رباهم على عينه وغذاهم بلبانه لتنفيذ مخططاته ، ونجتزئ منها فى هذه العجالة بما ذكرته « مجلة ألمانية » فى احصائيتها ، ليرى المسلمون ماذا يراد بهم ، وماهو واجبهم نحو دينهم :

فرض الوضعية الاقتصادية المتخلفة على كثير من البلاد الإسلامية لتظل مصدرة للمواد الخام والأولية ، والأيدى العاملة بأرخص الأسعار ، ثم استيرادها بعد التصنيع بأغلاها ، فانتشر الفقر وتمكن ، وصحبته المجاعات والأمراض والجهل والتخلف .

أصبح جيش التبشير للبروتستانت وحدهم ١٠٤ آلاف ميشر ، و٩٣ ألف موزع للكتب والنشرات ، ومعاهد التبشير ١٦٦٧١ معهدا ، وحوالى خمسمائة جامعة وكلية ومعهد عال و٤٨٩ مدرسة لاهوتية متخصصة فى تدريب المبشرين . وتحت سلطتهم ٢٥٩٤ مدرسة ثانوية و٨٣٩٠٠ مدرسة ابتدائية ، و١١١٣ روضة أطفال . وتحت سلطة البابا مايزيد على خمسمائة مليون دولار . . وفى الجانب الطبى والاجتماعى يملك المبشرون ٦٠٠ مستشفى ، و١٠٥٠ صيدلية ، و١١١ مجلسا طبيا ، و٩٣ جمعية للممرضات و٢٩٣ ملجأ للأيتام ، ١٢٠ ملجأ للبرص ، و٨٥ ملجأ للأرامل ، و١١٥ ملجأ للمكفوفين ، و١١٣ مستوصفا لمدمنى المخدرات . .

هذا عدا دور الكتب والمجلات والصحف والإذاعات والملصقات على جميع المستويات ، تؤدى كلها دورها بإتقان وعناية ، وتنطلق كالسهم يعرف وجهته ومستقره .

وكان الأجدى والأولى أن تضع هذه الإمكانات الهائلة يدها فى يد الإسلام لمناوأة الإلحاد والمادية عدو الأديان اللدود .

ولم يقتصر الأمر على ذلك : بل لفقت الدساتير والأحكام من شرق ومن غرب ومما لايتفق ووضعية المسلمين ولايناسب بيئاتهم

من حلول مستوردة ، وكثرت – الإعارات من القوانين الوضعية والإغارات عليها ، وترك المبادئ الإسلامية أونسيانها ، وحصرها فى دوائر ضيقة ، مما سبب خللا فى حياة المسلمين وأصابهم بنكبات وأورثهم الضعف ، لغياب دستورهم ، وبلبلة أفكارهم ، وآمن الجميع بضرورة وجود بديل عن هذه النظم ، وراحوا ينتظرون فجرا جديدا ، بعد أن أفلست تلك النظم ، وفشلت فى أن تقدم الأمن والأمان ، والاستقرار والثبات ، والهدوء والسعادة إلى البشرية .

* * *

وربّ الإنسانية أعلم بدائها ودوائها ، فأرسل لها الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة ، وجاء القرآن هدى ورحمة للمؤمنين ، وكان لابد لدعوة الإسلام أن تقدم البديل لاالحل النظرى فقط ، وأن تصور أبعاد المشكلة ، وأن تعرض مبادئ الإسلام من جديد عرضا يتفق ومتطلبات العصر ، وأن يبعث تراثنا الأصيل فى ثوب جديد ، يدنى مقاصده ، ويمهد لاحترامه والأخذ به . وإنصافا للحق قام علماء مستنيرون بدور هام فى البعث الإسلامى الجديد فى عصرنا الحديث والحاضر أذكر منهم :

● الأستاذ أبو الأعلى المودودى ، فيما سطر فى عمق وإيجاز عن الدستور الإسلامى المقترح .

● والأستاذ الدكتور المرحوم عبد الرازق السنهورى حين أخرج مؤلفات قيمة أبانت عظمة التشريع الإسلامى وميزاته .

● والمرحوم الأستاذ سيد قطب والأستاذ محمد قطب فيما كتبا من تهيئة عامة لهذه النهضة الجديدة .

● والأستاذ أبو الحسن الندوى فيما سطر من أمجاد إسلامية كانت للأولين ، ليحث التابعين .

● والمرحوم المهندس مالك بن نبى ، فيما أبان عن دور الاستعمار الثقافى فى حجب الرؤية عن الإسلام ، والعمل على سيطرة ثقافته وأنظمته .

● والأستاذ الدكتور محمد البهى ، حين أبرز جوانب الأصالة فى الفكر الإسلامى على مدى العصور فى مقابلة الدخيل ، وفيما أدلى من آراء صائبة فى حل مشاكل المجتمع الإسلامى المعاصر ، على هدى الإسلام وفى ضوء تعاليمه فدحض حجة القائلين بأن الإسلام قد انتهى دوره .

● والأستاذ المرحوم عبد القادر عودة ، فيما قنن للتشريع الجنائى فكان خطوة رائدة على الطريق . .

وحين أصبح مطلب تطبيق الشريعة الإسلامية مطلبا جماهيريا ، أيدته جمعيات وهيئات عامة ونقابات ، وتجمعات إسلامية ، فقاربت المسألة أن تكون قضية الساعة الأولى ، لولا أن مشكلة الشرق الأوسط تتصدر الأحداث والقضايا . .

وخطا مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - بعدئذ - خطوات فى سبيل تقنين المذاهب الإسلامية الكبرى : الحنفى ، والمالكى ، والشافعى ، والحنبلى . . . ثم ألف لجانا لتقنين جوانب من الشريعة الإسلامية تمهيدا لوضعها موضع التنفيذ . . وعقد فى هذا العام مؤتمرا خاصا بهذا الشأن ، نرجو له التوفيق .

فكان ذلك كله إيذانا بانبلاج فجر جديد ، ويقظة العرب والمسلمين ، وسعى حثيث لربط الأرض بالسماء .

* * *

ويختلف المفكرون حول تطبيق الشريعة الإسلامية بين محبذ للتطبيق على الفور ومحبذ على التراخى :

فالمطالبون بالفورية يرون أن المذاهب الوضعية قد أخفقت فى أن تهب الإنسانية الأمن والسعادة والاستقرار . وأن الإسلام بدأ غريبا فى وسط تراكمات فاسدة وأوضاع همجية ، فنازل الطغيان ، ونادأ المعوج ، وهاجم الباطل ، حتى أطر الناس على الحق أطرا ، فكانت الهناءة والرخاء والحق والنور والجمال . وطارت الخفافيش بسطوع السنا وانتصاره على الديجور . ويشيرون إلى أن أكثر البقاع استتبابا بالأمن هى مانفذت فيها تعاليم الإسلام وطبقت شرائعه ، وأكثر البقاع تفلتا من القانون ، وتموجا بما يشوه وجه الإنسانية الوضىء هى ماتسير على قوانين وضعية ، بعين تلفيقها على التفلت منها ، لأنها طرحت - فى ظن المقنن لهم - كقيود تحد من الانطلاق وتضاد الحرية ، ولم تلامس شغاف القلوب .

● ومن يطلبون التطبيق على التراخى ، يرون أنه لابد من التخلية قبل التحلية كما يقول الأصوليون ، فلابد للتمهيد للأمر أولا ، كما هيأ الرسول - ﷺ - فى مكة لمدة تزيد على عشر سنوات ، حتى لايكون الأمر بمثابة فجأة تحدث ردود فعل عنادية ، وحتى يتقبل المجتمع الإسلامى فى كل قطر مايلقى إليه بعدئذ عن طيب خاطر ورضى ، بعد ماعلم ، أن الرياح تسير لصالحه وصالح مجتمعه ، وأن الشر والمكر السيئ إنما يحيق بأهله لاغير .

كما يطلبون وحدة التوجيه فى وسائل الإعلام بتقدمها الهائل ، حتى تختفى الذبذبة بين خطى الإصلاح والإفساد ، وحتى

يكون هناك التزام بخط رشد انسانى فاضل ، يلتزمه الفرد والجماعة .

وإذا ماصلحت النيات ، وتضافرت الجهود فإن أمد الانتظار لن يطول ، وسيعود ضوء الشمس ، وهو اقوى من أن أتحجبه غيوم أوظلمات .

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »

دكتور توفيق محمد شاهين

حسن التوكل

روى أن حاتم الأصم قال لأولاده : إنى أريد الحج ، فبكوا وقالوا : إلى من تكلنا ؟ وكان له بنت فقالت : دعوه يذهب ، فليس برزاق فخرج فباتوا جياعاً . فجعلوا يُوَبّخون تلك البنت ، فقالت : اللهم لا تخجلنى بينهم ، فمر بهم أمير البلد ، فقال لبعض أصحابه : إطلب لى ماءً فناوله أهل حاتم كوزاً جديداً وماءً بارداً فشرب ، فقال : دار من هذه ؟ فقالوا دار حاتم الأصم ، فرمى فيها منطقة من ذهب وقال : من أحبّنى وافقنى ، فرمى العسكر كلهم . فجعلت البنت تبكى ، فقالت : أمها ما يبكيك ، وقد وسع الله علينا ، فقالت ، لأن مخلوقا نظر إلينا ، فاستقينا ، فكيف لو نظر الخالق إلينا ؟

- دكتور توفيق محمد شاهين :

من مواليد الغربية .

- تفوق فى كل سنى دراسته بفضل الله ، حتى تخرج من الأزهر .

- يحمل الشهادات الآتية :

(ا) الشهادة العالية من كلية اللغة العربية سنة **١٩٥٥**م بدرجة جيد .

(ب) معهد التربية العالى للمعلمين (جامعة عين شمس) سنة **١٩٥٦** بدرجة جيد جدا .

(جـ) العالمية مع إجازة التدريس سنة **١٩٦٠**م بدرجة جيد جدا .

(د) (ماجستير) فى أصول اللغة سنة **١٩٦٩**م بدرجة جيد .

(هـ) العالمية (الدكتوراه) فى أصول اللغة بالامتياز ، مع مرتبة الشرف الأولى .

- اشتغل بالتدريس فى وزارة التربية والأزهر زمنا .

- عمل فى حقل الثقافة الإسلامية والمطبوعات بالأزهر حينا .

- حقق تفسير وتراث الإمام عبد الحميد ابن باديس الجزائرى .

- رأس تحرير مجلة «الفكر الإسلامى» فى بيروت ثلاث سنوات .

- ألف كتب الأدب والنصوص للمعاهد الدينية الجزائرية .

- مثل جمهورية مصر العربية فى بعض المؤتمرات الإسلامية .

- يسهم بالكتابة فى المجلات الإسلامية والعربية .

- يرأس قسم «أصول اللغة» فى كلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر ، حاليا .

التصوف ومستقبل العالم الإسلامى

الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

إلى أين يتجه العالم الإسلامى ؟

عنوان هذا العدد الخاص من مجلة الأزهر الغراء يتفق مع رسالة الإسلام التى تدعو إلى التذكير والتوجيه ، مصداقاً لقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقد كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة هو الذى حقق الخيرية لأمة الإسلام حسبما قرره الحق جل وعلا (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

ورسالة العلماء الذين اعتبرهم النبى ﷺ ورثة الأنبياء هى رسالة التنبيه والتذكير ومعرفة الداء ووضع الدواء والاهتمام بأمر المسلمين مصداقاً للأثر الكريم الذى يقول : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

لقد جاء هذا العدد فى أوانه حيث تتربص الآن بالمسلمين الإحن ، وتكشر المادية البغيضة عن أنيابها للإسلام ، ويحشد الكفر بجميع صفوفه وملله حشوده محاولاً أن يقضى على هذه الشعلة التى أضاءت وتضىء للعالم الطريق وتهديه سواء السبيل ، لقد أقام الإسلام حضارة عريقة هى أروع مايعرفه العالم من حضارات ، ولعله من نافلة القول أن نذكر بأن ماتتفيأ به الدول الحديثة من ظلال حضارية هى من صنع الإسلام ونعم الإسلام التى انتفع بها غير أهله وادعاها من ليس من أبنائه .

وإذا كان الهدف من هذا العدد أن يوجه أذهان المسلمين فى كل مكان إلى الأخطار المحدقة بهم ، وإلى مايجب عليهم لينجوا بأنفسهم ويدنيهم من هذا الأخطبوط الذى يريد أن يطمس معالم الهدى والنور ويقضى على وسائل الأمن والأمان فإننا مع ذلك – بدافع من الإيمان العميق بديننا ورسالتنا وقرآننا نطمئن أنفسنا أولا وننبه أعداء الإسلام ثانياً بأن الله قد وعد وهو منجز وعده (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون).

وكما باءت محاولات الكثيرين بالفشل ستبوء محاولات من جاءوا بعدهم بالفشل (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

وهذه الآيات البينات كونية لايختص بها زمن دون زمن ولا مكان دون مكان، بل هى للمسلمين جميعاً فى أى وقت كان وفى أى أرض عاشوا، طالما أخذوا بأسباب النصر والعزة والكمال التى يريد هذا العدد أن ينبه إليها ويحمل المسلمين على التمسك بها..

التصوف ودوره فى هذه الأسباب :

وعلى ذكر الأسباب التى ينتصر المسلمون بها على أعدائهم وعلى المؤامرات المحدقة بهم يبرز دور التصوف فى مقدمة هذه الأسباب.

ولعل العقل فى هذا العصر المادى الملحد قد جن بالأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج والتقدم العلمى الهائل الذى حلق بواسطة الإنسان فى الفضاء وغاص تحت الماء وذرع برجله القمر وظن أنه علا على البشر وأصبحت الدنيا فى نظره مجموعة من «الأزرار» يضغط على أيها شاء فإذا مايريده حاضر أمامه، إن شاء طعم وإن شاء ركب وإن شاء أهلك ودمر. فنسى فى طريق ذلك ربه وعفل عن روحه وأطلق العنان لعقله وارتكن على نفسه وقدرته فظن أنه على كل شىء قدير وأنه بإمكانه أن يقول للشىء كن فيكون.

نسى فى طريق ذلك – وأنى له أن يذكر – قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس).

لقد فتنت المادة الإنسان فأعمته عن الحقيقة وأذهلته عن خالقه وأنسته أنه مهما بلغ من قوة وسطوة فهو إنسان ضعيف فقير عاجز أمام أقل طارئ يطرأ له، يصرعه المرض ويقهره الموت وتحيره ظواهر وخفايا فى الكون الكبير لايحير أمامها جواباً ولايملك إزاءها صواباً، وصدق الله إذ يقول (وخلق الإنسان ضعيفاً) وصدق إذ يقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً).

هنا يجىء التصوف ليعيد للإنسان

صوابه وينير له طريقه ويوضح له أنه إنسان من عقل وروح لاحياة لأحدهما بدون الآخر ، ويبين له أن لهذا الكون إلها مدبرا قادراً ، عليه أن يحبه ويعرفه ويعبده حق العبادة فلهذا خلقه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وفى الأثر «كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أُعْرَفَ فخلقت الخلق فبى عرفونى» .

ولقائل أن يقول : لماذا التصوف بالذات والإسلام هذه هى دعوته ؟ أجل ، هذه هى دعوة الإسلام ولكن أهل التصوف من بين المسلمين اعتنوا عناية زائدة بالجوانب الروحية فى الإسلام وعاشوا فى مقام الإحسان الذى هو أعلى درجة فى مقامات العبادة حيث يعبد الإنسان ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه .

ولا يمكن لأحد أن يغفل دور التصوف فى بناء الدولة الإسلامية الزاهرة ، فمؤسسوها الأول رجال روحيون غلَّبوا الجانب الروحى فى حياتهم على بقية الجوانب الأخرى ، فعاشوا لله وجاهدوا فى الله حق جهاده وأحبوا لله وأبغضوا لله وأنكروا ذواتهم وآثروا إخوانهم على أنفسهم حتى امتدحهم ربهم بقوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوَّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم» .

حقيقة التصوف :

والتصوف فى حقيقته سمو فى الخلق وارتفاع بالنفس الإنسانية إلى أعلى مراتبها الكمالية ، حيث تتخطى كل معوقاتها من شهوة وركون للذة وتكاسل عن الطاعات ورضاء بالدون من الأحوال وانصراف عن معالى الأمور . وله فى سبيل ذلك وسائل هى التى دعا إليها الدين القويم من حرص على الطاعة وتزهيد فى الطيبات والملذات وقهر للنفس عن شهواتها وترغيب فى الإقبال على الله والتقريب إليه بالصيام والصلاة والصدقة والصفح والعفو والصدق وغير ذلك . .

وبالجملة فالتصوف هو روح الإسلام وهو الأفق الأعلى للفكرة الإسلامية ، هو

مشهد المراقبة الذى يملى على الإنسان تحرى الكمال المطلق فى أفعاله وتصرفاته لأن الله مطلع على أحواله مراقب له فى أعماله . فهو يأنف أن يقوم بعمل مجاف للصواب رغبة فى الثواب وأنفة من العقاب . بل هناك ماهو أروع من ذلك حيث يعمل حبا لله لارغبة فى الثواب ولا خوفاً من العقاب .

وفى أفق هذا الفهم لحقيقة التصوف جاءت تفسيرات الصوفية للتصوف ، مثل قول السراج الطوسى فى اللمع عن الصوفية : هم العلماء بالله وبأحكام الله العاملون بما علمهم الله المتحققون بما استعملهم الله عز وجل الواجدون بما تحققوا .

ولقد لاحظ بعض العلماء مابين التصوف والصفاء ومابينه وبين التقرب إلى الله فقال الكلاباذى : إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ، وقال معروف الكرخى : الصوفى من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته . وقال غيرهما : إنما سموا الصوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

ولكن الصوفية جميعاً يؤكدون أن أساس التصوف حسن الخلق فكل من زاد عليك فى خلقه زاد عليك فى تصوفه . قال الدكتور حسن الأشمونى فى كتابه التعبئة الروحية فى بناء المجتمع : ومهما يكن من أمر اختلاف الصوفية والمؤرخين فى تحديد الأصل الذى اشتقت منه كلمة تصوف ، فإن الحقيقة التى لا يستطيع أن يختلف فيها منصفان أن التصوف ينطوى على نزعات أخلاقية ووجدانية جديرة بالدراسة والتأمل ، وهو أيضاً وسيلة لمعرفة تسمو على كل ماعداها من المعارف .

أضواء على التصوف :

(١) التصوف فى حقيقة أمره ملازمة للكتاب والسنة وموافقة للشريعة الإسلامية فى جميع الفرائض والسنن والآداب والفضائل ، فقد قال أبو القاسم النصرا باذى : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق وحسن صحبة الرفقاء والقيام بخدمتهم واستعمال الأخلاق الجميلة والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات . . . وما ضل أحد فى هذا السبيل إلا بفساد الابتداء فإن فساد الابتداء يؤثر فى الانتهاء .

وللتصوف آدابه وأحكامه التى يجب على المريد مراعاتها لو أراد أن يصل إلى

غايته لأنه – كما يقول الدكتور الأشمونى – لابد لسالكه أن يتزود بما يعينه على السير فى طريقه ، وليس اجتيازه فى مقدور كل الناس ، وإنما يجتازه الصفوة التى حباها الله بفضل من عنده فأمدها بمزيد من القوة لتحارب أهواء النفس وتصارع وساوس الشيطان ، ونفخ فيها من روحه فصبرت وزهدت وعرفت الله حق معرفته وعبدته بإخلاص وأوت إليه بالشوق والمحبة واتبعت السنة قولاً وعملاً وعزماً وعقدا ونية فجانبت البدع واتبعت ، ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وتباعدت عن مجالس الكلام وأهله ولزمت طريق الاقتداء والاتباع وكرهت نفسها الدنيا فأحبها أهل الأرض وعاف قلبها الدنيا فأحبها أهل السماء .

إن طريق القوم مشيدة على الكتاب والسنة ، يؤكد ذلك أئمتهم وعلماؤهم ، يقول القشيرى فى رسالته : اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولاتعطيل وعرفوا ماهو حق القدم وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم – حكى الشيخ محيى الدين فى الفتوحات وغيرها أن طريق الوصول إلى علم القوم هو الإيمان والتقوى قال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقد اعتنت كتب التصوف ببيان أخلاق الصوفية وأحوالهم على حسب طبقاتهم ومراتبهم ، وباستعراض ذلك لم يعثر فى سلوكهم على مايتعارض مع الكتاب والسنة وإجماع الصالحين فالولى لاياتى بشرع جديد ولكنه قد يأتى بفهم جديد لم يكن لأحد قبله ، ولذلك ربما يستغرب به من لاإيمان له بأهل الطريق ، على أن هذا الفهم لا يتعارض مع غيره من الفهوم الأخرى .

(ب) ومن أجل ذلك فقد وقفوا أنفسهم على فهم أسرار العبادة التى توصلهم إلى حضرة الحق تعالى واجتهدوا فى ذلك حتى تحققوا **بالأحوال والمقامات** التى أثمرت ثمارها البالغة فى حياتهم . فاستنارت أمامهم السبل ووضحت لهم الطرق فوصلوا إلى غاية القصد ونهاية المرام .

والحال عند الصوفية اصطلاح يطلق على المعنى الذى يرد على القلب بلا تصنع ولا اكتساب ، ويغلب عليه عادة صفات النفس من فرح وحزن وانقباض وانبساط .

والمقام على مايتحقق به العبد من آداب نتيجة للمجاهدات الدائمة ، والمقامات بمثابة المراحل للطريق الموصلة إلى الله وفيها

تظهر حقائق السالكين والمريدين ، ومن هذه المقامات التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والتوكل وغير ذلك على حسب مشارب العارفين وأذواقهم .

والمتتبع لهذه المقامات يدرك أنها صفات إنسانية رائعة تدل على مدى عناية الصوفية بالأخلاق ، وإفاضة الله عليهم الفيوضات العظيمة فى هذه المقامات يعد تأييداً مطلقاً لجلال هذه الأوصاف ودعوته للتحقق بها . يقول الدكتور عبد الحكيم حسان فى كتاب التصوف فى الشعر العربى : « المتأمل فى مقامات الصوفية وأحوالهم يجد أنها وثيقة الصلة بالأخلاق بل يمكن أن تتخذ قيماً خلقية ، وما بالنا بإنسان يبدأ تخلقه بالتوبة من الذنوب والخروج عن ماله وإيثار الفقر ، ثم يزهد فى الدنيا ويعرض عنها ويتورع عن كل ماحرم الله ، ويصبر على مايلقى من حرمان ، ويكون فى كل أموره متوكلاً على الله راضياً بكل مايقضى به ، وهو فى كل ذلك لايعرض على نفسه إلا الأحوال المتصلة بالعبادة والروحانية ، فهو بين مراقبة لله تعالى وشعور بالقرب منه أو الحب له أو الشوق إليه أو الأنس به أو الطمأنينة إليه ، وتنتهى به أحواله إلى اليقين الذى هو غاية الأحوال ومنتهاها ؟ » .

(جـ) الصوفية والجهاد :

ولو أننا نظرنا إلى التصوف نظرة منصفة لرأينا الصوفيين الحقيقيين رجال إصلاح وجهاد وعمل ، وكثير منهم لقى مصرعه شهيداً فى سبيل الله والوطن ، وحسبك دليلاً على ذلك شجاعتهم الأدبية التى تفردوا بها وتصدّقوا بها معنى الحديث الشريف « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » فلم يأبهوا بسيوف السلاطين والحكام حين تعرضوا لهم ينصحونهم ويوجهونهم ، وهذا رجل يعترض طريق سليمان بن عبد الملك – على ما يروية كتاب أعلام التصوف الإسلامى للمرحوم طه عبد الباقى سرور – فيقول له : سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم . . » وينصاع له سليمان ويسأله عن طريق الخلاص فيرسمه له .

ويزكى ذلك مايقرره الدكتور إبراهيم بسيونى فى كتابه نشأة التصوف قائلاً : « لم يستطع الزهاد أن يصفقوا مع المصفقين لكل قادم ، إنما راحوا يبحثون عن حياة أخرى داخل هذه الحياة يجدون فيها العزاء ، ويعيدون إلى القيم ثباتها وإلى

الأوضاع استقامتها وإلى الدين سيطرته ، ولقد وجدوا فى هذا العالم الصغير آفاقاً رحيبة جذابة نأت بهم عن تطاحن الأحزاب السياسية والمذهبية وفتن الحروب الأهلية . . وذلك جعلهم يجهرون برأيهم فى الزمان والناس ، ولم يمنع بأس السلطان هؤلاء الزهاد أن يطلقوا صيحاتهم النافذة لأنهم كانوا يشعرون أنهم يعبرون عن الضمير الدينى للأمة ، وكثيراً ماأرهف الحكام أسماعهم لهذه الصيحات . . وهذا الدور القيادى الذى اضطلع به الزهاد ينبنى فى صميمه على الثقة بالخالق والناس مما فى يد المخلوق » .

ولهم إلى جانب ذلك بطولات رائعة فى صفوف الغزاة المجاهدين ردا لعدوان المعتدين ، ومشاركة فى الفتوحات الإسلامية فى العصور الأولى أو مقاومة المستعمرين بعد ذلك ، وهذا حاتم الأصم رضى الله عنه يقول : الجهاد ثلاثة ، جهاد فى سرك مع الشيطان حتى تكسره ، وجهاد فى العلانية فى أداء الفرائض حتى تؤديها ، وجهاد مع أعداء الله فى عز الإسلام » .

ويقول أحمد بن الحوارى المتوفى سنة ثلاثين ومائتين « فى الرباط والغزو نعم المستراح ، إذا مل العبد من العبادة استراح إلى غير معصية » .

والصوفية هم الذين أشئوا الرباطات الإسلامية استجابة لقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية – ومحرروها من المستشرقين – عند حديثها عن الرباطات وهى الزوايا الإسلامية المحصنة : الرباط هو المكان الذى يجتمع فيه الفرسان متأهبين للقيام بحملة من الحملات ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على منشأة دينية حربية ، ويتصل نظام الرباط والجهاد ، والرباطات قلاع وأماكن يتجمع فيها الجنود عند الثغور الإسلامية المعرضة للخطر ، تشبه القلاع عند أهل الغرب كما تتخذ أبراج مراقبة لتحذير أهل البلاد المهددين ، وجنود الحاميات التى فى داخل البلاد وعلى الحدود ، وكان معظم هذه الرباطات منشآت حكومية إلا أن خدمة المحاربين فيها لم تكن بأى حال من الأحوال إجبارية ، فرجال الرباط متطوعون من أهل التقى والورع نذروا أنفسهم للذب عن الإسلام ، وكان أهل الرباطات ينفقون حياتهم فى التدريب العسكرى وفى الحراسة ، كما كانوا ينفقونها أيضاً فى التعبد ، وكان المرابطون يعدون أنفسهم للاستشهاد بالصلوات الطويلة يقيمونها تحت إرشاد شيخ من

الشيوخ المبجلين وكان لهذه الرباطات أثر كبير وشأن حربى هام على تخوم البلاد الإسلامية ، وبتطور التصوف وتشعب المتصوفة فرقاً استمرت هذه التكنات » .

أنشد أمام الفضيل بن عياض قول عبد الله بن المبارك :

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب . .

فذرفت عيناه ، وقال : صدق أبو عبد الرحمن ، ثم ذكر هذا الحديث رواية عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رجلاً قال يارسول الله : علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله فقال الرسول ﷺ : هل تستطيع أن تصلى فلاتفتر وتصوم ولا تفطر ؟ فقال يارسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبى ﷺ : فوالذى نفسى بيده ولو طوقت ذلك مابلغت المجاهدين فى سبيل الله » .

والتاريخ يحدثنا عن أن شيوخ التصوف الأجلاء كانوا يشتركون فى مقاومة الغزو من أمثال الشاذلى والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد والبدوى وابن عطا الله وغيرهم ممن اشترك فى مقاومة الصليبيين .

كما يذكر الجبرتى أن هزيمة الفرنسيين كانت على أيدى رجال المقاومة الشعبية من أبناء الطرق الصوفية ، وفى دائرة معارف الشعب : الجماعات الصوفية امتداد لحركة روحية سياسية سادت العالم الإسلامى من قديم وأدت فيه دوراً خطير الشأن وربما جاء وقت كانت تتجلى فيها وحدها كل حركة المقاومة للغارة الأوربية على العالم الإسلامى ، وهذه الجماعات هى التى أمدت حركة المقاومة فى شمال أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسى بكل عناصر الثبات والبطولة والتى لم تفقد الأمل فى النصر مهما اشتد الخطر وتفاقم الخطب » .

إن هذا يذكرنا بما يمكن أن يفعله أبناء الطرق الصوفية لو أعادوا تنظيم صفوفهم وتنبهوا إلى واجبهم الدينى ورسالتهم الإسلامية التى تتخطى الحدود والسدود .

(د) **التصوف والعمل** :

وفى الحقيقة أياكانت حملات خصوم الصوفية ضدهم فى مجال العمل فإن تاريخهم الحقيقى يرتفع بهم إلى مقام العاملين النشيطين الذين يبرءون من الخمول وينفرون من التواكل ، فالصوفية فى جملتهم لم يدعوا إلى هجر الأسباب أوترك التكسب ولكنهم دعوا إلى العمل وحذروا من

التكاسل فيه . قال بنان الحمال : الإعراض عن الأسباب جملة يؤدى إلى ركوب البواطل . وقال عبد الله بن المبارك : لاخير فيما يذوق لذة المكاسب . والشعرانى كان ينصح أتباعه من الصناع بإتقان العمل ، وكان يقول لهم : الاجتهاد فى العمل مقدم على النوافل والتطوع للعبادة . والشواهد على ذلك كثيرة تحفل بها كتب التصوف كما يشهد بها تاريخهم ، وألقاب الصوفية المنسوبون إليها تدل على أعمالهم التى كانوا يتكسبون منها كالحمال والزجاج والقصار والنساج والقواريرى والحريرى والحداد والمقرى وغير ذلك من الألقاب التى تحمل معنى العمل وهى شهادة صدق تؤيد قول حمدون القصار رحمة الله « قعود المؤمن عن الكسب إلحاف فى المسألة » .

وتوكلهم الذى كانوا يعتزون به لا ينافى العمل . يقول أبو جعفر الحداد رحمه الله : مكثت بضع عشرة سنة أعتقد التوكل وأنا أعمل فى السوق آخذ كل يوم اجرتى .

ومعنى التوكل كما يفسره الدينورى « التوكل حسم الطمع عن كل مايميل إليه قلبك ونفسك » أو كما يفسره النيسابورى « التوكل أن تأكل بغير طمع ولاشره » .

هذه لمحات عن التصوف فى عصوره الغابرة ، وهو كما رأيناه صورة مشرقة مشرفة .

فكيف هو الآن ؟

إن واقع الطرق الصوفية الآن يشهد ببعد المسافة بينها وبين التصوف الحقيقى الذى شهدناه على أيدى رجاله القدامى من الذين رسخت أقدامهم فى طريق الوصول إلى الله . وربما لبس التصوف روح عصره ، فقديماً كان الإسلام قويا فى نفوس أبنائه فقوى التصوف ، وحين اجتاحت عوامل الضعف نفوس المسلمين سرى هذا الضعف إلى التصوف فأصبح صورة واهنة لاروح فيها ولاقوة ولاغناء إلا من رحم الله وسار على الجادة . .

لقد كان حال الصوفية القدامى الفناء فى الله والاستهانة بكل رخيص وغال فى سبيل رضاه ، أسهروا ليلهم وأظمأوا نهارهم وقتلوا شهوات نفوسهم وآثروا ماعند الله على مافى هذه الدنيا من عرض فان ومتاع زائل ، وتحملوا فى جهادهم أنفسهم الجوع والمشقة والفاقة حيث كان أنسهم بالله وفرحهم به وغايتهم الوصول إليه ، وكانوا عمليين فى جهادهم منطقيين مع أنفسهم لايراودهم شك ولا يقعدهم ضعف ولايساورهم قنوط أو يأس .

كان الواحد منهم يستشعر الفرح فى الضيق والرحمة فى الشدة والغنى فى الفقر وحتى كان أحدهم يقول : أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القدر . وحتى قال أبو على الكاتب حين سئل إلى أى الجنتين أنت تميل ؟ إلى الفقر أم إلى الغنى ؟ فقال : إلى أعلاها منزلة وأسناهما قدراً . ثم أنشأ يقول :

ولست بنظار إلى جانب الغنى
إذا كانت العلياء فى جانب الفقر
وإنى لصبار علىماينوبنى
وحسبك أن الله أثنى على الصبر

ومن طريف مايروى فى ذلك أن أحد الأثرياء قصد الجنيد بصرة مملوءة بالدنانير وقال له : خذ فرق هذه فى أصحابك . فقال له الجنيد : « ألك غيرها ، قال : نعم كثير . قال الجنيد : وتطمع فى غيرها ؟ قال الرجل : نعم ، فقال له الجنيد : إذن خذ صرتك فأنت أحوج إليها منا .

ويروى أن علة لحقت أبا الحسين النورى ولحقت الجنيد فى نفس الوقت علة أخرى . فأخبر الجنيد عن وجده بينما كتم النورى علته . فسئل : لم لم تخبر كما أخبر صاحبك ؟ فقال : ماكنا لنبتلى ببلوى فنوقع عليها اسم الشكوى . ثم قال :

إن كنت للسقم أهلاً
فأنت للشكر أهلاً
عذب فلم يبق قلب
يقول للسقم : مهلاً

فأعيد ذلك على الجنيد فقال : ماكنا شاكين ولكن أردنا أن نكشف عن القدرة فينا ثم قال :

أجل مامنك يبدو
لأنه عنك جلا
وأنت يأنس قلبى
أجل من أن تجلا
أفنيتنى عن جميعى
فكيف أرعى المحلا ؟

فبلغ ذلك الشبلى فقال :

محنتى فيك أنى
لا أبالى بمحنتى
ياشفائى من السقام
وإن كنت علتى —

هكذا كان رجال التصوف : الله شغلهم الشاغل ، والوصول إليه هدفهم الأساسى ، وجهاد أنفسهم طريق هذا الوصول ، ولم تلههم تجارة ولابيع عن ذكر الله ، تحولت قلوبهم إلى مساجد عامرة بالإيمان وأصبحت أرواحهم شعلة من النور لاتنطفئ وهم مع ذلك موصولون بكتاب الله وسنة رسوله لايفرطون قيد أنملة فيها

ولايبتعدون مقدار خطوة عنها .

إن الناظر إلى حال التصوف الآن يرى تخلفاً لاينبئ عن الماضى المشرق . فنحن نرى الآن مظهرية ينأى عنها التصوف الحقيقى بل يحذر منها ، لأن إنكار الذات أساس من أسس التصوف ، والعروف عن الشهرة وسيلة من وسائل قهر النفس ، وابن عطا الله السكندرى رحمه الله يقول فى حكمه : من دفن نفسه فى أرض الخمول نبت ، وقال رجال التصوف : حب الظهور يقصم الظهور ، وهذا معنى يهدفون من ورائه إلى قطع علائق النفس حتى يستطاع سياستها والتحكم فى قيادتها .

ونحن نرى الآن غيرة تتنافى مع التنافس المحمود الذى ورد فيه قول الحق (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) هذه الغيرة قد تؤدى إلى تطاحن أحياناً بين أبناء الطرق وخلافات يظهر أثره فى البيئات الريفية وبين طبقات العامة ويجر ذلك إلى مالا يحمد عقباه ، بل ربما تظهر الخلافات بين أبناء الطريقة الواحدة وهو أمر يحذر منه التصوف الحقيقى الذى يدعو إلى الإيثار والحب والمغفرة والتسامح .

ونحن نرى الآن خروجاً على آداب الشريعة فى الاحتفالات والأذكار ، يظهر ذلك الخروج فى استعمال الدفوف والطبول وغيرها من ألوان الطرب والموسيقى مما يتنافى مع مايهدف إليه التصوف من رعاية للآداب الشرعية فى الأذكار .

حلقات الذكر :

وحلقات الذكر مطلوبة شرعاً لقوله عليه الصلاة والسلام : إذا أمررتم برياض الجنة فارتعوا . فقيل وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر .

والحق يدعونا إلى الذكر بقوله (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا) والذكر أساس من أسس الطريق الصوفى وعليه المعول الأكبر فى الوصول إلى الله تعالى وليس له وقت خاص ولا وضع خاص ، ففى الذاكرين يقول الله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) والذكر كما يكون باللسان يكون كذلك بالقلب والوجدان ، ويكفى فى جلال الذكر أن الله يقابل ذكر العبد له بذكره إياه (فاذكرونى أذكركم) ومن آثار الذكر أن الذاكر لايجد أثر الوحشة ولايمسه ضيق ولا ألم ولا يصيبه مكروه فالله يقول (ألاَ بذكر الله تطمئن القلوب) وقال بعض العارفين : إن الصواعق لاتصيب الذاكرين .

وإذا كان المذكور هو الله فلابد أن يجنب مجلس الذكر كل مايتنافى مع جلال

الله وقدسيته من آلات اللهو والطرب التى هى من أدوات الشيطان .

والصوفية لايرون بأساً من المنشد بشرط أن يكوصالحاً معروفاً بالورع وأن يكون إنشاده هادفاً لتنشيط الذاكرين وتذكيرهم بالله وجماله وجلاله عاملاً بما يقول ، وليس هدفه إظهار جمال صوته رغبة فى انتزاع الإعجاب أو جمع المال .

وربما ظهر بين صفوف المريدين من يقصر فى العبادات ، وربما أسندت الخلافة إلى غير مستحقيها ، مع أن تربية المريدين مهمة شاقة تحتاج إلى شيخ عارف بصير عالم يأخذ بيد أبنائه ويكون قدوة طيبة لهم ، وقد أطنبت كتب التصوف جميعها فى صفات الشيخ الذى يصلح لقيادة المريدين ، وخلاصة مايقال فى ذلك هو قول ابن عربى « شرط الشيخ أن يكون عنده جميع مايحتاج إليه فى التربية ، وقوله : لابد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء وتدبير الأطباء وسياسة الملوك وحينئذ يقال له أستاذ .

وإذا كان هذا واجب الشيخ فواجب المريد لايقل عن ذلك من عمل بالآداب مع شيخه وملازمته وامتداحه وعمل بإرشاده . إذا راعى من شيخه حسن الأدب فتح الله عليه فى ميدان الطلب .

وربما رأينا أبعد من ذلك ، رأينا هذه الكثرة الكثيرة التى تضم إلى صفوف التصوف وتنتسب إلى طرقه المتعددة دون أن يكون لذلك أثره المتوقع من ارتفاع فى الروح وصعود فى الهمة وتحليق فى سماء العزة وقضاء الباطل وتقويض لصروح الشرك والإلحاد . . . وماذلك إلا لأن هذه الكثرة الكثيرة كغثاء السيل تمسكت بالقشور وتركت اللباب – وأصابها ماأصاب غيرها من ادعاءات تحتاج إلى الدليل ومزاعم ينقصها البرهان .

وإذا كان القشيرى المتوفى فى منتصف القرن الخامس الهجرى رحمه الله – قد كتب رسالته الصوفية يقول فى مقدمتها : إن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل :

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، لابل اندرست الطريقة بالحقيقة ، مضى الشيوخ الذين كانوا بهم اهتداء وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة

ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا فى ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات . . ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال . . إلى آخر ماقال فى رسالته ليبين آداب هذه الطريقة وأصول الحقيقة غيرة منه على الدين وحرصاً منه على رجال اليقين . .

إذا كان القشيرى قال هذا الكلام فى تلك الفترة السحيقة فماذا نقول الآن وقد مضى على تحرير هذه الرسالة مايقرب من عشرة قرون ، لابد أن يكون الجرح قد أصبح جروحاً والقرح صار قروحاً ، لقد ازدادت الأحوال سوء واستشرى الداء وعز الدواء .

الهدف المنشود :

إن التصوف قوة فائقة لو أمكن استخدامها لتحول رجالها إلى نماذج رائعة من البطولة والفداء ، يرفعون من شأن أمتهم ويقدمون لها كل ماتصبو إليه من إعزاز ورفعة .

دعونا من النواحى الفردية التى لاتدخل تحت نطاق الحكم العام لرجال التصوف كجنوح بعضهم إلى التجرد والعزوق عن الزواج والميل إلى العزلة فتلك أحوال خاصة لشخصيات قليلة لاتحول التصوف ورجاله إلى قاعدة عامة نحكم عليه من خلالها مع أن هؤلاء لم يلزموا أحداً بهذا المنهج الذى ألزموا أنفسهم به ، بل ربما اعتبروا من توسع فى أحواله أفضل ممن ضيق على نفسه فيها ، فهذا أبو طالب المكى صاحب قوت القلوب يقول فى كتابه : كان بشر بن الحارث يقول عن أحمد بن حنبل : إنه فضل على بثلاث ، بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جعل إماماً للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى .

إننا لننظر الآن إلى الطرق الصوفية فنجد آلافاً مؤلفة من الشباب ينضمون تحت لوائها ، والشباب هم ذخر الأمة وعتادها وعلى كواهلهم تقدم نهضتها ، فما أحرى شيوخ الطرق أن يبثوا فى روع هؤلاء الشباب القوة الروحية الحقيقية ويحولوا أنفسهم إلى طاقات هائلة من الحركة الإيجابية الحية النابضة بالصدق والصراحة والوفاء والإخلاص والمثل العليا .

يقول الدكتور حسن الأشمونى : نحن لانجانب الصدق إن قلنا إن التصوف

يستطيع أن يكون قوة دفع تخدم جميع أهداف المجتمع حتى المادية منها ، فليس من شك فى أن بناء المجتمع بناء قوى متينا عزيز الجانب يرجع إلى مدى مايكون لأفراده من صفاء النفس ومتانة الخلق واستعداد للتضحية وإنكار للذات وهى كلها صفات يتصف بها الصوفية ويأخذون أنفسهم بها ويروضون مريديهم عليها ، وهكذا تستطيع الحياة الروحية أن تسلك طريقها إلى المشاركة فى مطالب الحياة اليومية فتؤدى إلى تدعيم أركان المجتمع وتحقيق خيره بدلاً من أن تكون دافعاً إلى العزلة والعزوف عن الدنيا .

التصوف ودوره فى نهضة الإسلام :

لعله لايكون تكراراً أن نذكر بأن التصوف هو روح الإسلام وأن دعوته هى لب الإسلام وحقيقته ففى نهوضه نهوض بالإسلام ، وواجب المسلمين اليوم يقضى بأن يتحمل كل منهم مسئوليته الكبرى فى العمل على تقدم دينه ووطنه والبحث عن مواطن العلل فى جسم الدولة الإسلامية والقضاء على ماينتابها من أمراض وأسقام ، وللتربية الروحية أثرها الفعال فى هذا المجال ، فإن أى حضارة مهما بلغت من رقى إنما هى قصور مبنية على الرمال إذا فقدت الأساس الروحى ، إنها تصبح زيفاً لاقيمة له وبهرجا لاغناء فيه إذا لم تعن فى إقامة صرحها بالنواحى الروحية ، وهذا هو دور التصوف . فالقيم الروحية هى التى تستطيع أن تحفظ للناس سعادتهم وهدوءهم وهى التى تجعلهم يعملون وهم يستشعرون لذة العمل والكفاح .

التصوف والتقدم العلمى :

ولسائل أن يسأل : وما للتصوف والتقدم التكنولوجى الآن ؟ وهل يشجع التصوف على العلم . . وأبناؤه عجزة عن اللحاق بركب التقدم ؟ ولكنها الذى يرمى الصوفية بذلك متجن عليهم ، فالتصوف لايجافى العلم بل يشجع عليه ، وقد كان الصوفية المحققون القدامى منهم والمحدثون علماء أجلاء فى مختلف علوم عصرهم العملية والنظرية . ودعوا إلى تعلم العلوم على اختلافها من قدر الإسلام وتغنى المسلمين عن استغلال أعدائهم لهم وسيطرتهم عليهم ، واعتبر الغزالى فى إحيائه أن فرض الكفاية فى العلم يأثم المسلمون جميعاً إن تركوه كعلم الطب والكيمياء والهندسة وغيرهما ، والشعرانى الذى يتهمه بعض الناس بالجمود يقول فى كتابه آداب العبودية .

« واعلم أن أهل الحق يشهدون جميع العلوم حتى الحساب والهندسة وعلوم الرياضيات والمنطق والعلم الطبيعى لها دلالة وطريق إلى العلم بالله ، فتسمية هذه العلوم حجبا عن الحق لكون الناظر فيها لاينظر فيها من حيث دلالتها على الحق فلذلك حجبوا عن موضع الدلالة التى فيها على الحق ، فعلم أن جميع العلوم التى تحجب أكثر الناس هى عند أهل العلم لاحجاب فيها » ويقصد الشعرانى من ذلك أن تكون العلوم على اختلاف أنواعها وفروعها وسيلة للهداية إلى الله لاسبباً فى الابتعاد عنه كما يحدث من كثير من المتعلمين الآن .

والصوفية فى منتهى الجرأة ولعلهم أسبق الناس فى توجيه أنظارهم إلى السماء وأفلاكها باحثين عن الحقيقة المجردة وقد اهتدوا إليها بالفطرة السليمة والإلهام الصادق . جاء فى كتاب التصوف عند المستشرقين : « وقد تألق فى تاريخ المسلمين مئات من المبرزين فى شتى العلوم ومختلف نواحى الدراسات الكونية والأسرار المنبثقة فى مختلف الآفاق كانت المعلم الأول والأكبر لأولئك الذين استيقظوا أخيراً فى الغرب » ، والصوفية فى قمة هؤلاء المبرزين .

وإنى لأحسب أن الصوفية يتحمسون لهذه الفتوح العلمية الحديثة إذا كانت تهدف إلى النفع ، لأنهم يعتقدون أنها من أبواب الخير للإنسانية وبشرى تحمل فى طياتها انتصار الروح على المادة ، جاء فى كتاب أعلام التصوف « لقد آمن المتصوفة أن فجر الذرة إنما هو صحيفة جديدة فى تاريخ الكون تتمشى مع التسخير الإلهى لقوى الكائنات كافة للإنسان الخليفة ، بل لقد رأوا فى الفجر الجديد إرهاصا لعالم جديد سيبلغ كماله الروحى مع الوثبة الروحية » .

فالتصوف لايجافى العلم ولكن يدعو إلى أن يكون التقدم العلمى وسيلة بناءة لمعرفة الله ولخير الإنسانية لاوسيلة للانصراف عن الله والإضرار بالناس . ولايتحقق الخير من العلم إلا بأن يتخذ العالم والمتعلم زادا روحيا يحرسهما من الفساد والإفساد .

بوادر نهضته :

إننا نشهد الآن بوادر نهضته ، وعلى الرغم من الظلام المدلهم فإن أشد الساعات حلكة أقربها إلى طلوع الفجر ، وسيعم نور الله الآفاق من جديد ، لأن الله لن يتخلى عن دينه الذى اختاره للبشرية ، وإذا كان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم فإن بوادر التغيير بدأت تظهر فى الأفق فى صور

مختلفة نراها فى الغيرة الدينية واليقظة الروحية . .

وقد ظهرت تباشير ذلك أيضاً بين صفوف المتصوفة أنفسهم ، فالمظهر الذى كانت تطالعه عيوننا كثيراً للدروشة السلبية والنكوص عن العمل وادعاء الجذب والتجرد بدأ يتلاشى وأوشك أن يزول نهائيا بإذن الله واتجهت عناية الصوفية إلى تطهير صفوف التصوف من أدعيائه الذين أساءوا إليه بقصد أو بغير قصد ، وبذلك لايجد الإنسان غضاضة فى أن ينتسب إلى التصوف بعد أن انتقل كما يقول أحد الكتاب الظرفاء من صفوف اللحى والمرقعات إلى صفوف الكبراء والعلماء والمفكرين لأنهم أدركوا نقاء جوهره وصفاء معدنه وضياء حقيقته التى كان يحجبها الأدعياء والجاهلون والمتصنعون . ولأن كثيراً من المثقفين عرفوا قيمته بعد أن قرءو تاريخ رجاله القدامى والمحدثين ، وعرفوا أن صفوفه كانت تضم كثيراً من العباقرة الأعلام حتى وقت قريب ، وما ظنك برجل كجمال الدين الأفغانى أو محمد عبده أو السيد رشيد رضا وهم السادة الأعلام الذين لامجال للطعن فى تفكيرهم أنهم من رجال التصوف كما تدل على ذلك تراجمهم .

تذكير وتنبيه :

على القائمين بأمر التصوف الآن أن يعيدوا إليه إشراقه وبهاءه ورواءه ليزداد المتمسكون به تمسكاً وليزداد البعيدون تقرباً ، وعليهم أن يبعثوا فى نفوس المريدين روح الإخلاص والصدق والمحبة والعمل التفانى فى أداء الواجب وعليهم ألا يمنحوا الإجازات لكل من هب ودب بل يحسنوا اختيار من يتصدى لإرشاد الناس وهدايتهم وعليهم أن يوضحوا رسالة التصوف الحقيقية للناس حتى يفهموه على علم عن طريق إصدار نشرات أو مجلة خاصة تشرف عليها هيئة تعمل على تحقيق ذلك وبخاصة بعد أن صدرت لائحة جديدة لرجال الطرق الصوفية تنص المادة الأولى فيها على مايلى :

تستهدف الطرق الصوفية بكافة تشكيلاتها التربية الدينية والروحية بما يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية والدعوة إلى العمل بالوعظ والإرشاد وتنظيم الذكر الصوفى وغير ذلك من السبل والوسائل الصوفية .

وصدور هذه اللائحة خطوة مشكورة — على تحفظ ذكرته مجلة المسلم التى نشرت هذه اللائحة وهو :

— أن يكون هناك تطبيق فعلى عملى

إيجابى واقعى عادل صادق ظاهراً وباطناً قولاً وعملاً لهذه اللائحة .

– أن يأخذ هذا التطبيق طريقه القوى القويم الحاسم بلا حساسيات ولا مجاملات ولاتسيب .

– ليكن معلوماً أن قيمة اللائحة فى احترامها بالتطبيق الجاد وإلا كانت مرضاً جديداً يضاف إلى أمراض جسد التصوف المظلوم .

إن رسالة التصوف تقدم على الإيمان الكامل والتفانى فى خدمة المجموع والجهاد بنوعيه فى سبيل رفعة الإسلام وعزته والوصول بالإنسان إلى أعظم غاية فى الحياة وهى التعرف إلى الله والفناء فيه وبناء قمم خلفية شامخة تنحنى القامات أمامها إعزازاً وإجلالاً ، إلى غير هذه الأهداف النبيلة التى ترانا فى حاجة إليها اليوم . والتى لاتتحقق إلا بالرجوع إلى المنابع الأولى للتصوف والعودة إلى سيرة رجاله قدوة واتباعاً .

وقصارى مايقال إن مسئولية القائمين على أمر التصوف من شيوخ ومرشدين ومريدين أن يكونوا صورة صادقة للتصوف وأن يرتقوا إلى المستوى الذى هيأته له رسالته حتى يؤتى ثماره المرجوة بين الشباب المتعطش الحائر وبذلك يؤدى رسالته فى نهضة الإسلام ، ولعله إذا حقق التصوف أهدافه المنشودة يساهم مساهمة فعالة فى الإجابة عن السؤال الذى طرحه هذا العدد : إلى أين يتجه المسلمون ؟ .

والله أسأل أن يوفقنى إلى أن أكون عاملاً بما أقول . .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى .

حوائج الناس إليكم نعمة

قال ﷺ : « إن لله عند أقوام نعماً يقرها عندهم ، ما لم يملوا ، فإذا ملوها نقلها إلى غيرهم » .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

● من مواليد النخيلة محافظة أسيوط فى ١٩٢٥/٩/٢٠ م

● التحق بالأزهر الشريف وتخرج فى كلية اللغة العربية سنة ١٩٥٠ ثم فى معهد التربية العالى سنة ١٩٥١م

● يعمل فى حقل التعليم بوزارة التربية والتعليم

● اشتغل بالتأليف ومن مؤلفاته :

مصر العربية فى مجال التاريخ سلسلة كتب قومية ١٩٦٦ م

محيى الدين بن العربى سلسلة أعلام العرب ١٩٦٨ م

المبرد أديب النحاة سلسلة أعلام العرب ١٩٧١

الإشعاعات الإسلامية فى معركة العاشر من رمضان المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٣ م

أهل البيت فى مصر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٥ م

مثالية الدعوة والدعاة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٦ م

نهضة إسلامية

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

اليقظة الإسلامية أصبحت حقيقة وأمرا واقعا ، كما أن المد الإسلامى أوشك أن يفيض من جزر الفلبين إلى سواحل الأطلسى ، والإسلام – هدية الله إلى خليقته – أصبح الآن فى أعين المسلمين – على الأقل – المنقذ الوحيد للبشرية من الضياع والتمزق والانحلال التى تعانى منها أجيالنا المعاصرة . .

ومن ثم كان التلهف المشاهد فى سائر الدول الإسلامية على التنقيب فى صيدلية الإسلام عن المبادئ والتشريعات التى نزل بها وحى الله على رسوله المصطفى ﷺ ، لتكون هاديا للبشرية إلى الطريق الأقوم والنهج الأصلح إلى ما فيه الخير والنجاح للإنسان وإلى ما يحقق له السعادة فى دنياه وفى أخراه . . فتطبيق الشريعة الإسلامية قد بدأ فعلا وبصورة جدية فى باكستان ، أما فى بنجلاديش فإن نتائج الانتخابات التى أعلنت توًّا قد كانت فى صالح الذين التزموا بتطبيق الشريعة الإسلامية فى نظام الحياة اليومية للفرد وفى السياسة العامة للدولة . . .

وفى إيران قد ظهرت قوة الحركة الإسلامية حتى وصلت إلى دست السلطة ، وسيكون نجاحها فى التغلب على الصعوبات وجيوب المقاومة التى تناهضها الآن مرهونا بمدى التزامها وصدقها فى تطبيق شريعة الله بوعى وفهم حقيقيين . .

أمّا فى مصر فإن بمجلس الشعب المصرى نشاطاً بلجنته التشريعية للفراغ فى مراجعة التشريعات المصرية ، وإعادة صياغتها على نهج إسلامى ، أو بعبارة أخرى فإن الذى يجرى فى مجلس الشعب المصرى هو تقنين المبادئ والتشريعات الإسلامية وصياغتها فى مواد قانونية مضبوطة وواضحة ، وقد صرح مؤخرا رئيس المجلس د . صوفى أبو طالب بأن هذا العمل الضخم سيتم إنهاؤه خلال الدورة البرلمانية الحالية أى قبل انتهاء سبعة شهور . .

وفى المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين الذى انعقد فى القاهرة بدعوة من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر كانت أظهر توصيات هؤلاء العلماء وضع دستور للدولة الإسلامية يكون جاهزا أمام أية دولة ترغب فى صياغة مجتمعها على نمط إسلامى . . وفى اقتفاء وحى الله فى سياستها العامة من جميع نواحيها الداخلية والخارجية . .

وهذه اليقظة الإسلامية تجعلنا نرجع البصر كرّتين إلى التاريخ ونحاول أن نستشف منه الأسباب التى أخرت هذه اليقظة حتى اليوم ، مع أن كثيراً من الدول فى أنحاء شتى من العالم الإسلامى قد سلمت لها حريتها السياسية منذ ربع قرن أو يزيد وكان فى مقدورها تطبيق الشريعة الإسلامية من قبل . . والسبب الذى جعلنى أورد هذا السؤال وأوضح الإجابة عليه هو أن كثيراً من الأسباب التى أعاقت المسلمين من تطبيق شريعة الله فى الدول التى نالت استقلالها السياسى منذ أمد ليس بالقصير مازالت ذات فعالية ، وربما أخرت تطبيق الشريعة الإسلامية فى كثير من الدول إلى أمد أرجو أن لا يطول ، كما أن هذه الأسباب نفسها قد تكون عاملا فى بعض الدول الإسلامية يجعل تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا جزئيا . . وفى هذا الخطر كل الخطر . . فإن الإسلام كل لا يتجزأ . . والأخذ بنصيب منه قد يترك ثغرات تفوِّت المصلحة من القاعدة الشرعية التى تكملها قاعدة أخرى قد يبدو لصاحب النظر القصير أن لا ثمة رابطة بينهما . . والفقهاء فى جميع الأزمنة والأمكنة ومن بينهم فقهاء العصر فى شتّى أرجاء العالم الإسلامى لا يجهلون هذه الحقيقة الأكيدة التى لا شك فيها . .

وإذا نحن راجعنا تاريخنا الحديث فى مصر واستعرضنا وقائعه لوضحت لنا الأسباب التى جعلت الشعب المصرى المؤمن يتقاعس عن تطبيق شريعة دينه ردحا طويلا من الزمن ويترك المجال لقوانين لقيطة غريبة عن تقاليده، وعن عاداته وعن الدين الذى ارتضاه وآمن به . .

وفى الواقع فإن الشريعة الإسلامية كانت على نحو مَّا مطبقة فى مصر حتى قبل الغزو الفرنسى لمصر . . فلما دخلها نابليون عرف الشعب المصرى لأول مرة منذ ولاية عمرو بن العاص قوانين غير إسلامية . . ومنذ ذلك الوقت وحتى فى عهد محمد على وخلفائه من بعده كان الأخذ بالشريعة الإسلامية غير كامل ، أو بالأحرى غير صحيح . . وبعد أن أخمد الإنجليز الثورة العرابية بدأت النكسة التشريعية فى مصر تتسع شيئاً فشيئاً ويزداد نفوذ القوانين

الأجنبية فى البلاد حتى انتهى الأمر بإنشاء المحاكم القنصلية والمحاكم المختلطة التى كانت تطبق فيها كل القوانين الأوربية ، وبجوارها أنشئت محاكم وطنية طبقت رقاعا من القوانين الأوربية ولم تترك للشريعة الإسلامية إلا محاكم اقتصر اختصاصها على النظر فى قضايا الأحوال الشخصية للمسلمين . . وحتى هذه المحاكم لم يكن لها من التنظيم القانونى سوى لائحة تنظم إجراءات التقاضى بها . . أما المبادئ القانونية نفسها فلم تسن بها قوانين ذات مواد منضبطة ، بل ترك الأمر للقضاة يستوحون أحكامهم من أقوال فقهاء مذهب الأحناف وحده دون سائر المذاهب الفقهية الأخرى . . وكان القاضى حرا يصدر أحكامه فى المسائل الخلافية باختيار أحدها حسب ما يرتئيه . . ثم إذا عرضت نفس القضية على قضاة آخرين فى المحكمة الاستئنافية أو فى المحكمة العليا صدرت الأحكام بالرأى الآخر ، وهكذا سارت الأمور ، وللأسف فإنها هكذا حتى اليوم مع بعض الانضباط القانونى الذى جدّ على فترات وليست له قيمة ذات أهمية . .

ولا أريد أن أدخل بالقارئ فى متاهات تاريخ التشريع المصرى فى هذه الفترة العاصفة من تاريخ مصر . . ولكن يجب أن أنبه على أن الذين شرعوا للمحاكم الوطنية التى بقيت حتى اليوم بعد إلغاء المحاكم القنصلية والمختلطة لم يكونوا فى الأغلب من المصريين ، بل لم يكونوا فى أغلب القلة المصرية منهم من المسلمين . . ومن ثم راحوا ينقلون من القوانين الفرنسية والإنجليزية قوانين تبيح الزنا واللواط إباحة مطلقة إذا تمت بين البالغين العقلاء فى غير اغتصاب أو علنية . . ولا زالت هذه القوانين المرقّعة الدخيلة ذات صلاحية حتى اليوم . .

ولقد قامت بوادر النهضة المصرية المطالبة بالاستقلال والتخلص من نير المستعمر الأوربى على بذور وأسس مِلِّيَّةٍ : أى على فكرة طرد النفوذ الأجنبى وإحياء ما سمى آنذاك بالخلافة أو الأمة الإسلامية . . وقد تزعم هذه الدعوة كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ولكن سرعان ما أخمدت هذه الحركة وماتت بموت دعاتها . .

ولكن سرعان أيضاً ما أعقبتها حركة استقلالية أخرى ولكن على نطاق قومى مصرى تزعمها مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم من الزعماء السياسيين فى مصر . . وأسفرت هذه الحركة عن ثورة سنه ١٩١٩ م التى جعلت المستعمر يلائم نفسه

مع الأمر الواقع ويلهى المصريين بما سمى بدستور سنة ١٩٢٣ م الذى يتيح الشعب المصرى استقلالا شكليا وَيُبْقِى النفوذ الأجنبى يدير سياسة البلاد ويستنزف مواردها الاقتصادية . . . ولم يترك – فى حقيقة الأمر – للمصريين سوى أن ينعموا باستقلال موهوم يدورون فيه حول أنفسهم ماداموا يساعدونه فى النهاية – حكاما وأحزاباً وَمَلِكاً – على استغلال كل موارد الشعب ويسيرون فى فلكه ويحققون أغراضه . . ولم يكن المستعمر الإنجليزى فى هذه الفترة متستِّرا ، أو حتى يحاول أن يخفى كامل سيطرته على مصر ومقدّراتها ، بل إنه تعمد أن يبقى ممثله الدبلوماسى فى القاهرة بلقبه الذى كان له فى أيّام الاستعمار الكامل : « المندوب السامى » . . ولم يتغير هذا اللقب إلى ما يجب أن يكون عليه « سفير » إلاّ بعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ التى حولت مصر من دولة تابعة لبريطانيا العظمى إلى دولة حليفة لها . . ولم يتح الكافى من الوقت أمام هذه المعاهدة لكى تبرهن على قدرتها أو فشلها فى إضافات جديدة على واقع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر . إذ سرعان ما أُعْلِنَتْ الحرب العالمية الثانية ، وكانت أجزاء من مصر من أهم ميادين وقائعها الحربية وأشدها ضراوة وشراسة ، مما جعل بريطانيا تتجاهل استقلال مصر وتعيد سيطرتها وتحشد فيها جيوشها وتجند كل إمكانياتها لخدمة حربها التى ليس للمصريين شأن بها ، ولا ناقة لهم فيها ولا جمل . . ووضحت هذه السيطرة وضراوتها فى فبراير سنة ١٩٤٢ م حينما قاد السفير البريطانى كتيبة من الدبابات المسلحة بالمدافع ، وحاصر بها قصر الملك آمراً إياه بأن يسند مقاليد الحكم إلى شخصية موالية ، بمقولة أن الشعب سيرتضيها ويوقف هياجه الذى يقلق القوات البريطانية المدافعة عن البلاد ! ! . . وهكذا ظلت مصر تحت النفوذ الأجنبى حتى بعد سقوط الملكية وقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ م : تلك الثورة التى نجحت فى انهاء النفوذ البريطانى بتمام جلاء القوات الإنجليزية عام ١٩٥٦ ، بمقتضى معاهدة أنهت الوجود العسكرى الأجنبى فى مصر مع بقاء قاعدة دفاعية لبريطانيا فى منطقة القناة يديرها مدنيون . . وحتى هذه القاعدة قد صُفِّيَتْ تماما نتيجة لفشل الغزو البريطانى الإسرائيلى الفرنسى المشترك فى نفس العام ١٩٥٦ م ، حينما أمم جمال عبد الناصر شركة قناة السويس العالمية . .

والذى يعنينا هنا أن نقرر بأنه حتى

وقت قريب من تاريخ مصر لم تتهيأ أية ظروف مناسبة لأية حركة إسلامية كى تعيد إلى مصر صبغتها الإسلامية، أو للشريعة الإسلامية كى تبسط سلطانها على الحياة المصرية . . . فكل الذين تصدَّروا الحياة السياسية والاجتماعية والتشريعية فى مصر منذ بداية النهضة القومية كانوا من الذين تثقفوا ثقافة غربية ... المقتنعين بجدوى وصلاحية النظم الديموقراطية والسياسية والاجتماعية والتشريعية الأوربية فى النهوض بالحياة المصرية . .

فكل أعلام مصر وزعماء نهضتها : مصطفى كامل وسعد زغلول ولطفى السيد وقاسم أمين ومصطفى النحاس وعبد العزيز فهمى وطلعت حرب وغيرهم وغيرهم كانوا – بدون طعن أو تجريح فى حسن نواياهم الوطنية أو الدينية – على هذا الرأى . . بل إن بعضهم كان لا يأنف من المجاهرة بأن الشريعة الإسلامية شىء قد عدت عليه عوادى الدهر وأصبحت تراثا بطل مفعوله ولكن لا بأس من التفاخر به بين الحين والحين . .

وكان من أخطر نتائج هذه الملابسات ازدواجية التعليم . فالنهضة الثقافية فى مصر قامت على مدارس علمانية تهمل تدريس الدين إهمالا تامّا فإذا ما حصلت ضغوط شعبية أحنت السلطات المهيمنة على التعليم رأسها للعاصفة وقررت تدريس الدين، ولكن كمادة تَرَفٍ لا يجرى عليها اختبار أو امتحان واكتفت بقشور من المواضيع الدينية وكميات ضئيلة من المبادئ الأخلاقية (لا العقائدية ولا التشريعية) لتكون المنهج الدينى فى البرامج التعليمية بهذه المدارس .

أما الأزهر فلأنه كان القوة الشعبية لكل انتفاضة وطنية فلم يكن أمام هؤلاء سوى أن يبقوا عليه، وأن يقصروا ميزانية الإنفاق عليه على بعض دخول الأوقاف الخيرية . . وضيقوا على خريجيه أبواب العمل وشغلوهم – بقدر ما وسعهم – بالمطالبة بالوظائف الحكومية أو بمساواتهم بخريجى كليات أنشأوها خصيصا لمنافسة الأزهر كدار العلوم . . وبذلك استنزفوا حيوية خريجى الأزهر فى المطالبة بالكف عن معاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية فى فرص العمل والمرتبات . .

ولكننا – ونحن فى سياق هذا السرد التاريخى – لا يسعنا إلا أن نسجل أنه فى الأربعينات قد جرت حركة إصلاحية فى التشريع المصرى تزعمها بعض من أساتذة القانون المصريين على رأسهم الدكتور عبد الرزّاق السنهورى والدكتور عثمان خليل

والشيخ على الخفيف . . وقد نجحت هذه الحركة فى تعديل بعض مواد القانون المدنى إلى ما يطابق النهج الإسلامى ، ولكنها لم تتمكن من منع التعامل بالربا ، وإن كانت قد نجحت فى ضبط الحد الأقصى للفائدة بما منع المرابين من أن يفحشوا فى الربا المجحف بالمواطنين المدينين . .

ولقد أصبح الآن واضحاً أن التجربة العلمانية فى أوربا الرأسمالية قد فشلت وكان من نتائج هذا الفشل أن قامت الماركسية التى فشلت مثل الرأسمالية فى تحقيق السعادة للبشر . . ومن ثم فإن كلا من النظامين الآن يبحث عن علاج يداوى به الأخطاء الشنيعة التى أظهرتها الممارسة والتطبيق . . ولكن هيهات فما من عقار ناجع لعلاج نظم قامت على أسس فاسدة . .

وحتى نحن هنا فى مصر قد جربنا الاشتراكية العلمانية المستوردة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ م .

والآن فإن الرئيس محمد أنور السادات قد رفع منذ بداية عهده شعار « العلم والإيمان » كسياسة رشيدة بنّاءة . . ومشى بخطى حثيثة إلى إعادة صياغة الحياة المصرية طبقا لهذا الشعار . . ولا ريب فى أن الجهود المبذولة الآن فى مجلس الشعب لتقنين الشريعة الإسلامية تمهيدا لترسيمها كدستور وكقانون للدولة إنما كانت بتوجيه منه . .

والأسباب التى أخرت تطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر حتى اليوم هى نفس الأسباب التى سببت نفس الشىء فى باكستان وإندونيسيا وإيران وسائر الدول الإسلامية . . وهذه الأسباب تعود فى معظمها إلى النفوذ الاستعمارى الأوربى وإلى انخداع الزعماء الوطنيين الذين تقلدوا زمام السلطة بعد الاستقلال – ببهرج الحياة الأوربية ومدنيتها الزائفة . .

وإذا كنا فى مصر قد وضح لنا أننا كنا مخطئين حين أهملنا شريعة الله فإن كل مسلم فى شتى أنحاء الأرض يؤمن فى صميم قلبه بأن لا نجاة ولا خلاص من المعاناة إلا بالاعتصام بحبل الله . .

وتنفيذا لتوصية علماء المسلمين فى مؤتمرهم الثامن بالقاهرة قام صاحب الفضيلة الإمام الأكبر المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق بتأليف لجنة من الفقهاء ورجال القانون لصياغة دستور إسلامى يكون تحت طلب أية دولة تريد أن تأخذ الشريعة الإسلامية منهاجا لحياتها على أن يؤخذ فى الاعتبار عند وضع هذا الدستور أن يعتمد على المبادئ المتفق عليها بين المذاهب الإسلامية كلما

أمكن ذلك . .

وقد قام مجمع البحوث الإسلامية بالإشراف على هذه المهمة حتى تمامها . .

وفيما يلى نص المذكرة التى رفعها مجمع البحوث الإسلامية إلى فضيلة الإمام الراحل بالخطوات والإجراءات التى اتخذت حتى تمام صياغة الدستور الذى ننشر صورته مع المذكرة . .

وسيقوم المؤتمر التاسع لعلماء المسلمين الذى سينعقد بالقاهرة بدعوة من مجمع البحوث الإسلامية ابتداء من يوم السبت ٢٤ من جمادى الأولى الموافق ٢١ أبريل ببحث مواد هذا الدستور والنظر فيه واعتماده من سائر الوفود الممثلة لجميع المسلمين فى جميع أنحاء العالم . .

وسيعقد هذا المؤتمر برئاسة حضرة صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر الجديد . . وهو كما عرفناه وعرفته الأمة الإسلامية عالما حجة وأستاذا فيلسوفا جمع بين الثقافة الإسلامية التى عرف حضارتها الحقة الخلاقة والثقافة الغربية التى استبان له زيف مدنيتها . . وكان – قبل تدرجه فى المناصب كوكيل للأزهر وكوزير للأوقاف – أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية فأدار العمل جادا بلجان المجمع حتى تم تقنين الشريعة الإسلامية على المذاهب الأربعة كل مذهب على حدة . . ومن ثمّ فهو ليس بجديد على هذا الميدان وليس غريبا عنه . .

ونأمل ويأمل المسلمون معنا أن يتحقق على يديه الكثير من الخير للأمة الإسلامية . .

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل . .

زاهر عزب الزغبى

الفراسة

قال ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وقال على بن أبى طالب – رضى الله عنه : ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وحكى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلا ، فقال أحدهما : إنه نجار ، وقال الآخر : إنه حداد ، فسألاه عن صنعته ، فقال : كنت حداداً وأنا الآن نجار .

الأستاذ زاهر عزب الزغبى

الأستاذ زاهر عزب الزغبى وقد تخرج فى كلية الشريعة الإسلامية بالأزهر، ثم حصل على العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٥٥ م . . وعمل محررا بالصحف اليومية ووكالات الأنباء . . وحصل على عضوية نقابة الصحفيين فى نفس عام تخرجه ، ثم عين فى الأزهر مدرسا بالمعاهد الأزهرية وتدرج فى مناصب التدريس حتى كان وكيلا لمعهد القاهرة الثانوى . . وقد اختير لنشر الثقافة الإسلامية بشبه القارة الهندية ، فحاضر فى جامعات الهند المختلفة لمدة سبع سنوات . . ثم اختير للعمل بمجمع البحوث الإسلامية وهو الآن بمجلة الأزهر يتابع نشر بحوثه .

مشكلة الأقليّات الإسلاميّة

الدكتور / عبد الودود شلبى

من أين يبدأ الحديث عن هذه المشكلة ؟

لابد أولا من العودة إلى الماضى ، لنعرف كيف نشأت مشكلة الأقليات . . وحين نقول أقليات فلانعنى بها أقليات غير إسلامية . . فهذه الأقليات لاتعانى مشكلة أبدا بسبب اللون أوالجنس أوالعقيدة . . لأن هذه المأساة أوالمشكلة خاصة بالمسلمين وحدهم دون سائر الناس .

ولماذا ؟

دعونا نقرأ أولا ثم نحكم بعد ذلك .

يقول المفكر الإسلامى محمد أسد :

إن الحروب الصليبية هى التى حددت فى المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربا من الإسلام . . ويمكننا أن نقول من غير مبالغة . .

إن أوربا الحديثة ولدت من روح الحروب الصليبية . . وقد ولدت أثناء الحروب الصليبية فكرة المدنية الغربية . . وكانت تلك المدنية عداوة للإسلام . .

وبالرغم من أنه كان فى الجانب الإسلامى دائما رغبة مخلصة فى التعاون إلا أنه لم يلق أبدا المعاملة بالمثل . .

وكما يقول جوستاف لوبون : لقد استمر التعصب الذى ورثناه ضد الإسلام جزءا من تركيبنا العضوى .

إن النصرانية على حد قول الكاتب العالمى « حيدر بامات » لاتزال تواجه الإسلام بحقد وشراسة . . ومنذ نشأة القانون الدولى الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية وعدم الاعتراف بتمتع المسلمين بالحقوق التى يقررها هذا القانون .

لقد كان أول عمل قامت به فرنسا بعد احتلالها الجزائر تحويل أكبر مسجد فيها إلى كاتدرائية . . وأصدرت هيئة البريد الفرنسى طابعا تذكاريا يمثل الهلال رمز الإسلام وهو يسقط منحدرا إلى قاع البحر بينما الصليب يرتفع إلى أعلى ليغمر بسناه الأفق .

وأعلن ملك إسبانيا أمام البابا : أن إسبانيا قد جندت نفسها لحرب المسلمين فى أفريقيا حتى تغرس الصليب فى ديار الإسلام وتجعل أتباع محمد يخضعون له قهرا . .

وعندما تم حفر قناة السويس أرسل الأفاق العالمى ديليسبس برقية إلى البابا يعلن فيها أن الطريق إلى قلب العالم الإسلامى أصبح ممهدا . .

وكان لإيطاليا نشيد يحفظه جنودها إبان الحملة الطرابلسية تقول كلماته التى تقطر حقدا وسما . .

صلى ياأماه ولاتبكى . .
بل اضحكى وتأملى . .
ألاتعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة . .
ولأحارب الديانة الإسلامية . .
سأحارب بكل قوتى لمحو القرآن . .
وإن لم أرجع فلاتبكى على ولدك . .
وإذا سألك أحد عن عدم حدادك عليه فأجيبيه انه مات فى محاربة الإسلام . .

* * *

هذا هو المدخل الحقيقى لهذه المشكلة . .

فالمسلمون خارج نطاق القانون الدولى ، فلايصح أن يعاملوا بهذا القانون وغيره من القوانين . .

والمسلمون أمة ملعونة . ولهذا يجب أن يطاردوا ويقضى عليهم فى أى مكان فيه يكونون .

وقد قرأنا أخيرا . . أن جهاز « السافاك » – البوليس السرى الإيرانى – كان يدرب على أحدث وسائل التعذيب بأيدى خبراء أمريكيين الأمر الذى لو حدث مثله لأحقر مواطن أمريكى لقامت القيامة ودقت بسببه طبول الجهاد والثورة . .

ولكن الإيرانيين مسلمون . . وتعذيب المسلمين مباح فى قانون الصليبية التى لاتلتزم بقانون ، ولاتؤمن بدين . .

إن مأساة نيجيريا ومصرع الزعيمين المسلمين أحمدوبللو وتافاوا باليوا لاتزال ماثلة أمام أعيننا حتى هذه اللحظة . . فعندما قام أيرونسى السفاح . . بحركته ضد الزعامة الإسلامية لم يتحرك ضمير أحد فى هذا العالم لقتلها غدرا بهذه الطريقة . . وحين استرد المسلمون السلطة انفصل أوجوكو بإقليم « بيافرا » وهبطت عليه طائرة الإخوة بالسلاح والذخيرة . .

إن قتل عشرات الألوف من مسلمى زنجبار لم يحرك ساكنا فى ضمير العالم أوهيئة الأمم المتحدة . . ولكن إطلاق الروس

لسفينة فضاء تحمل كلبة اسمها (لايكا) أفزع الرأى العام فى أوربا وأمريكا لوحشية الروس . . وقامت المظاهرات تهتف بحياة « الكلبة الشهيدة » وسقوط الوحشية والهمجية فى روسيا . .

وباكستان . .

لقد كانت عضوا فى منظمة دفاع جنوب شرقى آسيا ، وأبسط مبادئ هذا الحلف أن يتعاون أعضاؤه فى رد أى عدوان يقع على أى عضو من أعضائه المتضامنين فى الدفاع ضد أى غزو أجنبى أوتدخل خارجى . .

ولكن أمريكا وحلفاءها التزموا الصمت أمام الاجتياح الهندى لباكستان الشرقية ووقفوا موقف المتفرج من هذه المؤامرة . . فى الوقت الذى حول فيه الاتحاد السوفييتى اتجاه بوارجه الحربية لتفرغ حمولتها من السلاح والذخيرة الى موانئ الهند حتى تجهز على الدولة الإسلامية .

إن الشعارات الماركسية التى رفعها زيادبرى لم تشفع له عند الروس فى حربه الأخيرة مع اثيوبيا . . وإن طرد الخبراء السوفييت من «مقديشيو» لم يقربه من أمريكا . . لأن الشعب الصومالى مسلم قبل مجىء زياد برى ، وسيبقى مسلما بعد زواله وإلى ماشاء الله . . وأى معركة تخوضها الصومال ضد أثيوبيا ينظر إليها من زاوية العقيدة الدينية لامن أية زاوية أخرى مهما تغيرت الأسماء والظروف .

* * *

هذه هى جذور المأساة بين المسلمين وغير المسلمين فى هذه الدنيا . بل هى الأساس لمشكلة الأقليات الإسلامية فى أى مكان توجد فيه هذه الأقلية . .

والآن أين توجد هذه الأقليات ؟

إن هذه الأقليات موجودة فى حوالى سبعة وخمسين بلدا وقطرا . . ويبلغ مجموعها حسب آخر إحصائية ثلاثمائة مليون نسمة . . أى ثلاثة أضعاف عدد المسلمين العرب المنتشرين فى قارتى آسيا وأفريقيا . .

إن الأغلبية الساحقة فى أفريقيا مسلمة موحدة . . والديانة الوحيدة التى تلى الإسلام فى الكثرة العددية هى الديانة الوثنية . . ومانراه على سطح الحياة فى هذه القارة ليس إلاخداعا يطمس هذه الحقيقة ، فالاستعمار قبل أن يحمل عصاه ويرحل عن هذه القارة أسلم الحكم والسلطة إلى نوع من الرجال الذين دربوا على صناعة الحقد والكراهية . . وزيفوا الواقع بعقائد وشعارات لاصلة لها بالواقع والحقيقة . . وإلافمن يصدق أن الحبشة التى قادت معركة الحقد ضد الإسلام والمسلمين

فى أفريقيا أمة مسلمة وأغلبية سكانها مسلمون . .

ومن يصدق أن تنزانيا أمة مسلمة وأكثرية شعبها مسلمون . .

ومن يصدق أن فى الصين حوالى تسعين مليونا من المسلمين . .

وفى الهند أكثر من ثمانين مليونا . . وفى الاتحاد السوفييتى ستون مليونا . .

ومن يصدق أن الخطر الذى يتهدد الاتحاد السوفييتى فى المستقبل هو خطر انتشار الإسلام وزحفه داخل الاتحاد السوفييتى نفسه حيث يبلغ عدد المسلمين — سنة ألفين ميلادية — حوالى مائة مليون أى ثلث عدد السكان . .

حقائق خطيرة وكبيرة لانعرف عنها شيئا . . ومأساة المسلمين فى هذا العصر هى هذا الجهل الذى تفشى فى معاهدهم ومدارسهم . وعشش فى عقول المثقفين منهم فمتى نتعلم ومتى نعرف ؟ سؤال تجيب عنه هذه الإحصائية التى تثير فى النفس الأسى والحسرة :

الدولة	نسبة المسلمين
أنجولا	٢٥٪
الأرجنتين	١,٥٪
أرمينيا السوفييتية	١٢٪
استراليا	١٪
باسوتولاند	١٠٪
باتشواناالاند	٥٪
بريطانيا	٢٪
بوتان	٥٪
بلغاريا	٥٪
بورما	١٠٪
بورندى	١٠٪
بكلوروسيا السوفييتية	٦٪
كمبوديا	١٪
كندا	١٪
سرى لانكا	١٠٪
الصين	١٠٪
الكونغو برازفيل	١٥٪
قبرص	٣٢٪
فرناندويد	٢٥٪
جزر فيجى	٩,٥٪
فنلندا	١٪
فرنسا	٢٪
الجابون	٤٠٪
جورجيا السوفييتية	١٩٪
ألمانيا	١٪
غانا	٣٠٪
الهند	١٣٪
الولايات المتحدة	١٪

الدولة	نسبة المسلمين
كينيا	٢٠٪
ليبيريا	٣٠٪
مالاجاسى	٢٠٪
مالطة	١١٪
جزر مورشيس	١٧٪
ملدافيا السوفييتية	٣٪
موزمبيق	٣٥٪
نيبال	٤٪
تياسا لاند	٢٠٪
زامبيا	١٥٪
الفليبين	١٠٪
بولندا	٢٪
جزر تيمور	٢٠٪
ريونيون	٢٠٪
روسيا السوفييتية	٦٪
روديسيا الجنوبية	١٥٪
سوازى لوند	١٠٪
نامبيا	٢٪
تايلاند	١١٪
ترينداد	٦٪
أكرانيا	١٢٪
فيتنام	٣٪
يوغوسلافيا	١٣٪

* * *

إن بعض هذه الأقليات يعيش فى بلاد مسيحية ، وبعضها يعيش فى بلاد وثنية وقسم ثالث من هذه الأقليات يعيش فى بلاد شيوعية . .

فهل يختلف الأسلوب باختلاف العقيدة والمذهب ؟ وهل تختلف معاملة المسلمين من بلد إلى بلد ؟

كنت أظن ذلك أول الأمر ، غير أنى لاحظت فى قراءتى للتقارير الخاصة بأحوال الأقليات الإسلامية أن هذا الأسلوب واحد ، وأن الكيد والتآمر ضد الإسلام والمسلمين متفق عليه وإن اختلفت المذاهب والعقائد . .

هناك التصفية الجسدية للمسلمين أفرادا وجماعات . .

وهناك السجن والتشريد والنفى لكل من يجأر بالشكوى . .

وهناك المصادرة للثروة وتطبيق سياسة الإفقار والحرمان . .

وهناك التبشير والإغراء لمن يريد السلامة من الخراب والموت . .

وهناك حرمان المسلمين من التعليم والترقى فى وظائف الدولة . .

وهناك فرض حصار على المسلمين بعدم الخروج أوالسفر من مدينة إلى مدينة ، أومن قرية إلى قرية .

وهناك هدم المساجد ، وإغلاق الكتاتيب ، ومنع أى تعليم دينى يعرف المسلمين بفرائض عقيدتهم الدينية . .

وهناك الصلب على جذوع الأشجار . .

وإشعال النار فى الكبار والصغار .

وحرق قرى وأحياء كاملة بما فيها من الحيوانات والإنسان . .

إن إثيوبيا لم تكن تسمح لأى مسلم أن يعمل جنديا أوموظفا إلافى دائرة ضيقة ، كان هناك قانون يسمح للقسيس أن يأمر بإعدام أى مسلم لأدنى شبهة . .

وكان هناك قانون يبيح للحبشى أن يسترق المسلم ويتخذه عبدا إذا لم يسدد دينه .

وكان هناك قانون يفرض على المسلمات القيام بخدمة رجال الجيش الإثيوبى إذا ماطلب منهن ذلك .

وفى بورما البوذية لايختلف الحال عنه فى إثيوبيا أو روسيا ، إن أمامى تقريرا يقول :

لقد تعرض المسلمون فى بورما لظروف قاسية رهيبة تتمثل فيما يأتى :

- منع المسلمين من أداء فريضة الحج وعدم السماح لهم بأداء الصلاة .
- الغاء الدراسة الإسلامية فى المدارس والكليات .
- مصادرة الكتب والمنشورات والمجلات الإسلامية .
- القيام بحملات إرهابية لإخراج المسلمين عن دينهم .
- مصادرة البيوت والعقارات الموقوفة على المساجد والمدارس الإسلامية .

ولما اشتد بطش السلطة واضطهادها لجماعات المسلمين بدأت قوافل النزوح إلى « بنجلاديش » وبأعداد هائلة تصل إلى خمسين ألف مسلم فى الشهر ، وقد بلغ عدد المهاجرين من مسلمى بورما حتى الآن أكثر من مائتى ألف مسلم ، وتعيش هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين البورماويين ظروفا قاسية وأليمة .

وقد كنت أستمع صباح اليوم إلى إحدى الإذاعات العالمية [1] ففوجئت بخبر أصابنى بالوجوم والهم . . فقد مات أكثر من سبعة آلاف طفل مسلم من هؤلاء المهاجرين بسبب الجوع والمرض . .

وفى تقرير آخر عن حال المسلمين فى تايلاند لاتختلف صورة المأساة عن واقعها فى بورما . . الإبادة الكاملة للقرى المسلمة . . قتل الزعماء فى السجون بالسم . . فرض « البوذية » بالقوة على المسلمين فى هذه الأرض . .

---

(١) الجمعة ٢٧ صفر ١٣٩٩ ٢٦يناير ١٩٧٩ .

ولست فى حاجة إلى وصف مايتعرض له المسلمون فى الفليبين . . إن أخبار المذبحة تترى كل يوم . . ولم يتوقف حتى هذه اللحظة سلاح الطيران الفليبينى عن تدمير أماكن المسلمين وحرقها بقنابل النابالم . .

وقد ارتكبت الشيوعية نفس الجرائم والمظالم . . ومايقع على المسلمين فى الحبشة أوبورما أوالفليبين وتايلاند وقع أضعاف أضعافه عليهم فى الاتحاد السوفييتى ومن يدور فى فلكه من دول الكتلة الشيوعية بل إن شعوبا بأكملها أبيدت على ايدى الشيوعيين فى الاتحاد السوفييتى فى أعقاب الحرب العالمية الأخيرة . .

وأشهر هذه الأمم التى أبيدت « الكريمين Crimeen » والتتار Tatar والكالموك Kalmuks والكرك Karakys والشيشن Chechen والكولاك Kulaks والأنجش Ingush .

وقد حدث فى يناير ١٩٤٤ م أن دخلت جموع غفيرة من الجيش الروسى إلى بلاد الأنجش فملأت المدارس والمستشفيات والحمامات . . وقيل فى تعليل ذلك أنهم عائدون من الجبهة ويحتاجون إلى شىء من الراحة . وبعد مايقرب من شهرين وبالضبط فى ٢٣ فبراير أقيمت مهرجانات فى الميادين العامة سواء فى المدن الكبرى أم فى المدن الصغرى . . وخرج الأهلون رجالا ونساء وأطفالا ليشاركوا فى الاحتفال بهذه المهرجانات ، ورحبوا بقوات الجيش الروسى ووزعوا على رجاله الهدايا والحلوى . . وفجأة أعلن مكبر الصوت أمر القبض على هؤلاء جميعا ، وتقدم الجيش رحاصرهم وسيقوا فى طوابير طويلة إلى قطارات بضاعة كانت تنتظرهم ثم نقلوا إلى المنفى .

واتجهت قطارات الموت إلى آسيا الوسطى . . كان الفصل شتاء والبرد قارصا ، والثليج يغطى كل شبر من الأرض ، والقطارات بدون تدفئة والطعام قليل . واستغرقت الرحلة أسبوعين ولكن زحام المنفيين كان يخف يوما بعد يوم . . آلاف منهم قضى عليه البرد والجوع والعرى ومشقة السفر الطويل . .

أما الزعماء والقادة فأعدموا رميا بالرصاص . . وهكذا أبيد فى عملية واحدة نصف مليون . . ثم استدار الروس بعد ذلك ليزيلوا كل أثر للمساجد والمدارس . .

* * *

أين حقوق الانسان ؟ بل أين ضمير العالم من هذه المأساة التى تخص المسلمين وحدهم دون سائر الناس ؟

بل أين هى مواثيق الأمم المتحدة

وقوانينها التى تقول وتنص بأنه « لايجوز لأى دولة أن تسمح بالتعذيب أو غيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أواللاإنسانية أو المهينة ولايجوز اتخاذ الظروف الاستثنائية مثل حالة الحرب أوخطر الحرب ، أوعدم الإستقرار السياسى الداخلى أوأية حالة طوارئ عامة أخرى ذريعة لتبرير التعذيب أوغيره من ضروب المعاملة أوالعقوبة القاسية أواللاإنسانية أوالمهينة . .

إنه لاأمل فى كل ذلك . .

لأن المسلمين كما قلنا خارج نطاق القانون الدولى ، ولأنهم أمة « ملعونة » كما يقول النشيد الإيطالى .

والحل ؟

إننا نملك الحل . . فمقومات الحياة الاقتصادية العالمية فى أيدينا . . ونستطيع –لو أردنا– أن نوقف عجلة الحياة لمن يعتدون علينا .

إن أهم المواقع الإستراتيجية تقع فى بلادنا . . ونستطيع – لو أردنا – أن نسد منافذ الحياة فى وجه اعدائنا .

أن المواد الخام كلها فى اوطاننا ونستطيع – لو أردنا – أن نحرم الطغاة والظلمة من مصادر القوة التى يسيئون بها إلينا .

ولابد من اتخاذ موقف إسلامى موحد تجاه هذه المظالم . .

ولابد من إنشاء صندوق إغاثة للمطاردين والمحرومين من إخوتنا فى العقيدة . .

ولابد من إنشاء مجلس أعلى لشئون هذه الأقليات على مستوى العالم الإسلامى كله . .

وهذا هو واجب المؤتمر الإسلامى العالمى فى جدة . .

ورابطة العالم الإسلامى فى مكة . .

وواجب الأزهر الشريف فى القاهرة . .

دكتور عبد الودود شلبى

دكتور عبد الودود شلبى

* من مواليد ميت عفيف محافظة المنوفية .
* تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى فى معهد القاهرة ، ثم حصل بعد ذلك على الشهادة العالية من كلية أصول الدين ، والعالمية مع الإجازة سنة ١٩٥٣ م .
* حصل على شهادة الدكتوراه PH. D. من كلية الدراسات الشرقية Oriental College فى باكستان وكان بحثه فى هذه الشهادة عن « الأصول الفكرية لحركة المهدى السودانى ودعوته » .
* عمل فترة بالتدريس ثم انتقل إلى وزارة الأوقاف مفتشا عاما للشئون الثقافية ، ونقل إلى الأزهر بعد ذلك رئيسا للسكرتارية الفنية فى مكتب الإمام الأكبر شيخ الأزهر المرحوم الشيخ شلتوت سنة ١٩٦٢ م .
* شارك فى نشاط المؤتمر الإسلامى بالقاهرة ، وتولى الإشراف فى هذه الفترة على تحرير مجلة « نور الإسلام » لسان حال علماء الدعوة والإرشاد فى الأزهر .
* عمل بعد ذلك مديرا للمساجد والشئون الإسلامية فى إمارة الشارقة — دولة الإمارات العربية .
* سافر إلى أوربا للدراسة ، واشترك فى مؤتمرات إسلامية كثيرة وطاف معظم بلاد العالم الإسلامى فى آسيا وأفريقيا .
* من مؤلفاته : « كيف أرى الله » و « حتى لانُخدع » و « مجتمع بلافوارق » و « رسالة إلى البابا » .
* يعمل الآن مديرا ورئيسا لتحرير مجلة الأزهر . .

أنقذوا هذه الكنوز الإسلامية

الأستاذ / أحمد أبو كف

حضارة الإسلام .. هى حضارة ثقافة بالدرجة .

ودين الإسلام .. دين علم وتفقه واستيعاب ..

والثقافة شيء متجدد باستمرار .. وحضارة الإسلام كان لها أدوات متنوعة بعد ما حمل المسلمون الأوائل اللواء الأخضر لينشروا الإسلام شرقا وغربا ، وليشرقوا بالدين الحنيف على أقاصى الأرض وأدانيها ..

والمسلمون الأوائل حين فتحوا الأمصار والممالك .. برزت أمامهم ثقافات جديدة ، كان عليهم من دراستها وتمحيصها والنظر فيها ، واستصفاء ماهو صالح منها . ولذلك ترجم المسلمون أمهات الكتب فى مختلف فروع العلوم .. ثم نسخوها ، وأضافوا إليها .. وهذه الكتب تنوعت من الحجارة إلى العظام إلى رق الغزال .. ثم الورق .. وكل شيء يمكن أن تسجل عليه ملامح هذه الثقافة ، التى يمكن أن نطلق عليها ثقافة الإسلام ..

ومصر .. قبل أن تشرق عليها حضارة الإسلام ، وقبل أن ينشأ فيها الأزهر . كعبة المسلمين العلمية ، كانت مركزا من مراكز الحضارات القديمة ، بل كانت مركز أقدم الحضارات .. تلك التى سادت ثم بادت .. لأنها حضارات وثنية .. مهما طالت وتفجرت فمصيرها إلى انهيار

ولذلك .. فإنه ما إن دخلت جيوش عمرو بن العاص مصر .. حتى بدأت تنسج تاريخها الإسلامى المشرق .. ثم بنى فيها جامع عمرو فى الفسطاط ، وبعد جامع القطائع ، ثم جامع ابن طولون .. وبعد الجامع الأزهر .. الذى صار من أهم المراكز العلمية الإسلامية فى بلاد الإسلام .

ولكن قبل أن نتحدث عن مكتبة الأزهر .. كمكتبة عامة لأبناء المسلمين .

إلى القارئ الكريم إطلالة على مكتبات عالم الإسلام ..

* * *

يقال : إن أول مكتبة جرى إنشاؤها فى عالم الإسلام ، كانت مكتبة دمشق فى القرن الأول الهجرى ، تلك التى أنشأها خالد بن يزيد الأموى .. هذه المكتبات بالإضافة إلى أنها كانت تضم المنسوخات الإسلامية ، ومنها المصحف الشريف . بعد جمعه .. كانت تضم بعض الترجمات التى قام بها العرب والمسلمون فى الطب والكيمياء .. عن اليونانيين وغير اليونانيين .. وقد ضمت بالطبع نسخا من أوائل المؤلفات والمصنفات والرسائل الإسلامية .

ثم كانت المكتبة الثانية فى العصر العباسى ..

بدأت أولى المكتبات العامة فى بغداد . حاضرة العباسيين .. تلك التى تأسست فى عهد الخليفة العباسى الشهير هارون الرشيد . وقد جاء بعده الخليفة المأمون ، لينمى هذه المكتبة ، التى عرفت باسم «بيت الحكمة» وكانت «بيت الحكمة» .. أول مكتبة عامة بالمعنى الحديث ، فى عالم الإسلام ، أو بالمعنى الأكاديمى للمكتبة . فقد كانت الكتب فيها تترجم وتنسخ ، كما كان يتردد عليها الباحثون للاطلاع والدراسة . ويقال : إن كتبها كانت محفوظة فى خزائن أو دواليب .. فالمسلمون قدروا العلوم ككنوز ثمينة ، لابد من وضع كتبها بين أحداق العيون .

ولقد أسندت أمانة هذه المكتبة إلى كبار العلماء والمتفقهين ، ومنهم سهل بن هارون .. بل إن الخلفاء اهتموا بتلك المكتبة ، حتى ليقال : إنهم كانوا يشترطون فى معاهداتهم مع أعدائهم .. بنودا لتوريد الكتب ، لتزويد المكتبة بها .. كى تدرس فيها وتصنف وتترجم وتنسخ .

على أن «بيت الحكمة» .. لم تكن هى المكتبة الوحيدة فى بغداد ..

كانت لها صنو على الضفة الأخرى من النهر وهى «مكتبة الكرخ» .. التى أنشأها الوزير بهاء الدولة ، وضمت أكثر من عشرة آلاف مخطوط .. نسخها وكتبها الأدباء والكتاب المسلمون .

كما كانت فى دمشق فى تلك الفترة «دار المعرفة» .. التى وصفها المؤرخ المسلم ابن خلدون – فى القرن الرابع عشر الميلادى – بأن كتبها كانت تفوق الحصر ، وكان بها ثلاثة آلاف مجلد من نوادر المخطوطات .

وفى هذه الفترة أيضا ، كان حكام الأندلس ينافسون حكام بغداد ، فقد أنشأوا «مكتبة قرطبة» فى القرن الرابع الهجرى ، والتى ضمت – كما وصفها ابن خلدون أيضا – حوالى ٤٠٠ ألف مجلد . بل

إن « غرناطة » كان بها وحدها سبعين مكتبة يضاف إلى ذلك مكتبة القيروان ، وغيرها من مكتبات العالم الإسلامى .

* * *

ونأتى إلى منتصف القرن الرابع الهجرى ، حيث الفاطميون بناة القاهرة المعزية ، وبناة الأزهر الشريف .. « الذين بدأوا يتنافسون مع حكام دمشق وبغداد والأندلس فى الاهتمام بالحركة العلمية » .

ومن أشهر المكتبات أيام الفاطميين هى « خزانة الكتب » تلك التى أنشأها العزيز بالله الفاطمى ، ووضع مسئوليتها فى يد وزيره يعقوب بن كلس .. وقيل : إنه كان بها من الكتاب الواحد عشر نسخ ، بل ومائة نسخة فى بعض الأحيان . كما كان بهذه المكتبة أربعة وثلاثون نسخة من كتاب « العين » للخليل بن أحمد الفراهيدى ، وكانت كلها بخط يده . ومائة نسخة من كتاب « الجمهرة » لابن دريد .

ويذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى ، أن عدد كتب « خزانة الكتب » .. كان يربو على مليون و ٦٠٠ ألف نسخة ، فى مختلف العلوم : فى الفقه ، واللغة ، والنحو ، والتاريخ ، والكيمياء ، والفلسفة ، والهندسة ..

ونأتى إلى ثانى المكتبات فى عصر بناة الأزهر ، وهى المكتبة المشهورة باسم « دار الحكمة » .. والتى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله عام **٣٩٥** الهجرى وهذه الدار كانت أشبه بأكاديميات العصر الحديث فى البحث والدراسة والتأليف والترجمة وعمليات النسخ .. التى كانت بديلا عن الطباعة ، التى لم تكن تعرف حتى ذلك الوقت .

ولقد شاهدت دار الحكمة هذه المئات والألوف من المؤلفين والكتاب المسلمين ، ومنهم ابن النفيس ، العالم والفقيه ، الذى اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، قبل هارفى الإنجليزى بعدة قرون . بل إن « دار الحكمة » كان يقيم بها العلماء والقراء ، والمنجمون ، والنحويون ، واللغويون والأطباء .. وتجرى عليهم الرواتب .. ولقد وفّر الخلفاء الفاطميون للمترددين على مكتبة دار الحكمة المناخ ، لكى يدرسوا وينسخوا مايشاءون ، وفرّ لهم الحبر والورق والأقلام المتعددة الأغراض .. تلك التى شرحها فيما بعد القلقشندى فى موسوعته العلمية التى ظهرت فى عصر المماليك بعنوان « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » وقد بلغ عدد كتب هذه المكتبة ما يربو على مائة ألف كتاب .

* * *

ثم نأتى إلى مكتبة الأزهر .. أو خزانة الكتب فى الجامع الأزهر والتى كانت لها شهرتها ، لكن برغم شهرة هذه المكتبة ، فإن تاريخ تأسيسها لايزال مجهولا .. إلا من شذرات فى هذا السفر أو ذاك تدل عليها ..

فالمؤرخ ابن ميسّر فى كتابه «أخبار مصر» ، يقول : إنه قد أسند إلى داعى الدعاة أبو الفخر صالح . الخطابة فى الجامع الأزهر مع خزانة الكتب

والمؤرخ المقريزى فى خططه يقول : «إن الحاكم بأمر الله أمر بنقل نصف الكتب من دار الحكمة إلى الجامع الأزهر ، والباقى إلى مسجده ، ومسجد المقس»

ونحن إذا عرفنا أن منصب داعى الدعاة فى دولة الفاطميين ، كان هو المسئول عن إدارة جهاز من أهم أجهزة الدولة .. لاتضح لنا أهمية خزانة الكتب فى أيام الفواطم فى الجامع الأزهر ، والتى كانت من أهم مؤسسات الفاطميين الثقافية .

والتاريخ يقول : إنه بزوال دولة الفاطميين ، فإن مؤسساتهم الثقافية .. ومنها الأزهر وخزانة كتبه قد تعطلت .

لكن الثابت تاريخيا أن السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٥ الهجرى فتح الجامع الأزهر وفتح معه خزانة كتبه .. وأنه بداية من هذا التاريخ بدأت تدخل الكتب — خاصة الجديدة والمنتمية إلى الفقه السُّنِّى — إلى الأزهر . بل إن عشرات الألوف من الكتب دخلت إلى الأروقة ، تلك التى بلغت مع مرور الأزمان حوالى ثلاثين رواقا ، كان اخرها الرواق الذى أنشىء قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل وهو الرواق العباسى .

ولقد توزّعت الكتب على الأروقة لتكون فى متناول طلبة الأزهر الذين جاءوا من كل أنحاء عالم الإسلام .. وقد أُلقيت مسئولية هذه الكتب — أو المخطوطات — على أبناء البلاد التى جاءوا منها . وبذلك ظل الأزهر بأروقته ، ومكتبات الأروقة ، قبلة لطالبى العلم.

لكن الكتب فى الأزهر جاء عليها حين من الدهر ، أخرج الكثير منها من الأزهر ، بل خارج مصر كلها . فالعثمانيون الذين فتحوا مصر فى بداية القرن السابع عشر الميلادى ، نقلوا إلى الأستانة الكثير من الكتب التى كانت فى الأروقة والحارات . والفرنسيون الذين جاءوا لغزو مصر .. نهب علماؤهم الكثير من تلك الكتب وأرسلوا بها إلى عاصمتهم بأريس .

يقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتى حول الفرنسيين : «دخلوا الأزهر ، وهم راكبون

خيولهم وفيهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ماوجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبئات بالدواليب والخزانات ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها »

ويتضح مما قاله الجبرتى . . أنهم برغم استقصائهم للكتب .. فقد داسوها بنعالهم

لكن حين عاد الفرنسيون إلى بلادهم بعد ثورتى القاهرة الأولى والثانية ، وبعد أن قاومهم شعب مصر من خلال الأزهر وشيوخه وعلمائه وطلبته .. بل إن سليمان الحلبى الطالب بالأزهر هو الذى قتل الجنرال كليبر .. أقول : بعد أن رحل الفرنسيون بعدما فعلوا ما فعلوا بكتب الأزهر ، وكانوا قبل دخوله قد سلطوا عليه القنابل من فوق جبل المقطم .. ظل الأزهر يجمع الكتب من هنا وهناك .. بل ويرتق الكتب التى بقيت .. حتى استيقظ ديوان الأوقاف بمصر عام ١٨٥٣ م . .

لقد بدأ منذ هذا التاريخ بجرد الكتب والمخطوطات فى الأروقة والنكايا والحارات والمساجد المجاورة للأزهر ، مثل جامع الفكهانى ، وجامع العينى .. وقد تم تسجيل هذه الكتب ، فبلغ عددها حوالى ١٨٥٦٤ كتابا ومخطوطا . وهذا السجل للكتب لازالت نسخة منه موجوده ، وهو من جزءين . وكان قد سرق من الأزهر ، ولم يعد إليه إلا فى عام ١٩١١ م ، حيث وجده أحدهم ، واشتراه بخمسة وعشرين قرشا ، وأعاده إلى المكتبة .

* * *

على أنه فى تقرير قدم إلى مجلس إدارة الأزهر فى مفتتح القرن العشرين ، وأيام الشيخ محمد عبده حين كان مفتيا لمصر وقدم برنامجه لإصلاح الأزهر .. هذا التقرير يقول : «كان فى الأزهر خزائن كتب ، وضعت فى بعض الأروقة والحارات ، ويعضها وضع فى المساجد القريبة من الأزهر .. وقد نيط بحفظ هذه الكتب إلى أشخاص يقال لهم « المغيرون » .. وأن هؤلاء الأشخاص تصرفوا فى الكتب تصرفا سيئا .. وبالجملة لم يكن يعرف للكتب قيمة ، ولا ينتفع بها لعدم إمكان الانتفاع » .

على أن هناك تقريرا آخر بعد هذا التقرير بحوالى خمسة وثلاثين عاما حول الأزهر .. حين تطلبت الحالة إصلاح وتطوير الأزهر ، وقد قام بكتابة التقرير كل من عبد الخالق ثروت باشا وإسماعيل باشا

صدقى ، وفتحى باشا زغلول . لكن هذا التقرير لم يشر إلى مكتبة الأزهر التى جاهد الأستاذ الإمام محمد عبده . قبله فى جمع شمل كتب الأزهر والمخطوطات من الأروقة والحارات فى مكتبة خاصة مستقلة .. وكان الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر أيام الأستاذ الإمام قد وافق على جمع الكتب فى مكتبة خاصة بها ، بل بادر بإهداء مكتبته الخاصة للأزهر

وقيل وقتها : إنه بعد مناقشات طويلة .. اختير مكان مناسب لتجمع فيه الكتب .. وقد أبلغ ديوان الأوقاف — وكان يتولى الإشراف على الأزهر — بتنفيذ الفكرة ، التى تعثرت بعض الشىء لأن أغلب الأروقة رفضت وضع كتبها فى المكان الذى اختير ليكون مكتبة عامة للجامع الأزهر .. وهذا هو السبب فيما يبدو أن الأستاذ الإمام قد دعا العلماء والكبراء للتبرع بمكتباتهم الخاصة للأزهر .

وجدير بالذكر : أن قرار مجلس إدارة الأزهر حدد أربعة أمكنة لتسكن فيها كتب ومخطوطات ومقتنيات الأزهر وهى :

- المدرسة الأقبغاوية وتقع على يسار الداخل من باب المزينين — الباب الرئيسى — للجامع الأزهر ، وهى التى فيها المكتبة الأزهرية حاليا
- رواق الأحناف الملحق بالمدرسة الأقبغاوية
- المدرسة الطيبرسية . وهى على يمين الداخل للأزهر .. وتشغلها الآن هيئة الفتوى
- الرواق العباسى ، خلف المدرسة الطيبرسية

ويذكر هنا .. أن المكتبة بدأت أيام الأستاذ الإمام بحوالى ٧٧٠٣ كتاب . ومن هذه الكتب حوالى ٦٦١٧ كتاباً أهديت أو وقفت على الأزهر .. و ١٠٨٦ كتاباً بطريق الشراء ثم بعد أن نقلت كتب أغلب الأروقة ، مثل رواق المغاربة « ٢٠ ألف كتاب ومخطوط » ورواق الشوام « ٥ آلاف كتاب ومخطوط » .. بالإضافة إلى المكتبات المهداة .. فقد بلغت الآن حصيلتها حوالى ربع مليون كتاب ، منها ٢٥ ألف مخطوط ، تعتبر من أندر المخطوطات .

على أنه مايزال هناك فى الأروقة بعض الكتب ، ومنها رواق الأتراك .. والسبب أن المكتبة الحالية ، ضاقت بعد أن نقلت إليها مكتبات مقتنيات المدرسة الطيبرسية ، ورواق الأحناف والرواق العباسى . كما يوجد أيضا بعض الكتب والمخطوطات فى أروقة الصعايدة والمغاربة وغيرهما

* * *

والواقع أن المكتبة الحالية مكان غير مناسب لأن يكون مكتبة .. أو حتى قاعة للاطلاع فهذا المكان يبلغ عمره الآن حوالى ستة قرون أو يزيد .. وهو مكان قام بإنشائه الأمير أقبغا عبد الواحد ، أستاذ الناصر محمد بن قلاوون ، فى عام ٧٤٠ الهجرى ١٣٤٠م .

والمدرسة الأقبغاوية مكان جميل بلاشك فى معماره الإسلامى ، وفى قبته المزينة والمزخرفة لكن بفعل القدم ، وبفعل الزمن تشقق فى الكثير من جدرانه — ثم إن مساحته صغيرة جدًّا ، لاتكاد تستوعب مجموعة دواليب الكتب .. ودواليب المخطوطات النادرة ، فمياه الأمطار تعبث بداخل المدرسة الأقبغاوية ، كما أن الأتربة الكثيفة لاتستطيع حتى عوامل إزالتها المستمرة من الموظفين أن تمنعها .. وهذه الأتربة وعوامل الجو .. صارت مناخا طيبا ومختاراً لحشرات الكتب والمخطوطات .. التى تعيش عليها ، والتى تعبث بهذه الكنوز عبئا ثقيلا جدًّا

إن ثروة علمية هائلة ، داخل أغلفة الكتب والمخطوطات والمصاحف تتآكل كل يوم ، ونحن نخشى أن نصبح فى يوم ونمسى ، فلا نجد هذه الثروة .. التى تقع فريسة للحشرات والتراب والأمطار .

ومكتبة الأزهر الشريف ، هى فى الواقع عنوان مشرف للأزهر الشريف .. وهى تتبع مجمع البحوث الإسلامية إشرافا

ومكتبة الأزهر الشريف تحمل من الذخائر مالايوجد فى أى بلد إسلامى آخر

ولذلك فإن مكتبة الأزهر الشريف ، أمانة فى أعناق الأفاضل من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية .. عليهم أن يلتفتوا إليها ، وأن يجتمعوا ليساهموا فى إنقاذها

إن المملكة العربية السعودية تفضلت مشكورة فاقترحت تصوير هذه الكنوز فى مكتبة الأزهر بالميكروفيلم .. وهذا التصوير للميكروفيلم ، وإن كان يحفظ ما فى بطون الكتب والمخطوطات من كنوز ، فإنه بالطبع لايحفظ هذه الكتب والمخطوطات .

وجمهور مصر العربية من خلال الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية ، أسندت إلى مركز الترميم والميكروفيلم فى هيئة الكتاب العربى ، عمل دراسة للكتب ، وكتابة تقرير عن حالة هذه الكنوز وكيفية ترميمها لكن هذا العمل فى الواقع يحتاج إلى أموال كثيرة من أجل إنقاذ هذه الكنوز العلمية الفريدة .

ولابد لعلماء المسلمين فى مؤتمرهم التاسع من زيارة هذه المكتبة ، ودراسة إمكانية أن تقوم حملة عامة بين المسلمين

لجمع الأموال لإنقاذ هذه المكتبة بل من أجل « فك أسر » هذه الكنوز ، ونقلها إلى أى مكان صحى تعيش فيه ، ويكون فيه قاعات للبحث والمطالعة .. أو إعادة تعمير المكان الأصلى التاريخى الذى تعيش فيه هذه الكتب وتوسيعه

والواقع أن تضامن علماء المسلمين وتوفرهم على إنقاذ هذه الكنوز الأزهرية سيكون عملا كبيرا يليق بالمسلمين . فالأموال زائلة والعلم باق . ومكتبة الأزهر الشريف ، . . ليست مكتبة مصرية وحسب .. إنها مكتبة تفيض بغزير العلم على أبناء المسلمين جميعهم من كل أنحاء العالم الإسلامى .

لقد استطاع اليونسكو – مثلا – أن يقوم بحملة عالمية تساهم فيها دول اليونسكو جميعها بإنقاذ آثار منطقة النوبة منذ عام ١٩٦١ م وحتى الآن . . ومكتبة الأزهر الشريف ، والبناء الذى تقبع فيه وهو المدرسة الأقبغاوية ، هذه تحتاج إلى حملة كبيرة من بلاد الإسلام ، ومن اليونسكو كذلك .. لإنقاذ هذه الثروة العلمية الهائلة قبل أن تبلى ..

ولابد أن يشترك فى هذه الحملة منظمة التضامن الإسلامى .. كما يشترك فيها كل المنظمات والبنوك الإسلامية ، حتى ننقذها مما هى فيه

* * *

إن الثروة فى مكتبة الأزهر الشريف .. لايمكن أن نحصى جوانبها فى مثل هذه السطور

وهى ثروة تتمثل فى المصاحف المتنوعة فى مختلف العصور والمكتوبة بفنون وأنواع الخط الإسلامى ، من الكوفى المنقط وغير المنقط إلى النسخ والثلث والرقعة والديوانى .. وهذه المصاحف المخطوطة فى حد ذاتها ، وأغلبها مخطوط بماء الذهب .. تعتبر ثروة إسلامية كبيرة لاتقدر بمال ..

ومن هذه المصاحف مصحف بالخط الكوفى المنقط ، مكتوب على رق غزال يعود تاريخه إلى القرن الرابع الهجرى . وهذا المصحف النادر ، قد تم ترميمه فى فترة سابقة .. ولكن هذا الترميم بدأ يتلاشى أثره .. وبدأت حشرات الكتب تعبث فيه ، وإن لم يتم إنقاذه فسينهار كلية .

وهناك مصحف كبير الحجم .. وهو مصحف وقفه « أقبغا » صاحب البناء فى عام ٧٤٠ الهجرى على الأزهر .. وهو مصحف مخطوط بالخط الثلث .. وفيه بعض الشروح . بالإضافة إلى صندوق – خزانة – مصحف مصنوع من البرونز والفضة ، به « ربعه » قرآن فى ثلاثين

جزءاً ، باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون .. وهو غاية فى فن الإسلام . ثم مصحف مخطوط فى ١٩ ورقة ، يعود تاريخه إلى أيام الخديو إسماعيل مكتوب بماء الذهب . فضلا عن حبة قمح مكتوب عليها سورة «قريش» كاملة .. بالإضافة إلى عدد كبير من المصاحف التى صارت فى حالة سيئة تحتاج إلى العمل الفورى لإنقاذها

ومن التفاسير المخطوطة ، هناك العشرات بل المئات ..

فهناك «غريب القرآن» للسجستانى منذ عام ٥١٤ الهجرى

وهناك تفسير الفاتحة لابن جزى ، من الأندلس يعود إلى تاريخ ٦٢٧ الهجرى وهناك «تفسير الكشاف» للزمخشرى ، الذى يعود إلى عام ٦٥٤ الهجرى وفى تجويد القرآن ، نسخة نادرة من «الرعاية» تعود إلى عام ٥٥٧ الهجرى ثم غريب الحديث لابن سلام الجمحى والذى يعود إلى عام ٣١١ الهجرى وهذه المخطوطات تعتبر من أندر المخطوطات فى العالم الإسلامى كله .

يضاف إلى ذلك مجموعة من المخطوطات النادرة فى علوم الفقه والتفسير واللغة والتاريخ ومن هذه الكنوز :

«رسوم دار الخلافة» .. للصابى .. ويعود إلى عام ٤٥٥ الهجرى والمعجم المؤسس للمعجم المفهرس لابن حجر ، بخط يده ويعود إلى عام ٨٢٩ الهجرى

ونسخة مخطوطة للإمام السيوطى من «حسن المحاضرة» تعود إلى عام ٨٧٩ الهجرى

وفى الفقة من بين المخطوطات النادرة توجد نسخة من «كتاب زاد الملوك» لابن المظفر والتى تعود إلى عام ٨٦٠ الهجرى .. وعليه إهداء جميل للسلطان الناصر محمد ابن قلاوون .

ورسالة لأبى عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ بعنوان «الحسد والمحسود» وهى رسالة مخطوطة ، من نوادر المخطوطات

ومن المخطوطات النادرة كذلك ، مما نقل إلى مكتبة الأزهر من رواق الأتراك .. نسخة مخطوطة من «رباعيات الخيام» بماء الذهب يرجع تاريخها إلى ١٨٦٠ الميلادى وكان قد أوقفها على رواق الأتراك محمد على باشا حاكم مصر فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ومن التحف الموجودة ، مجموعة صور لمشايخ الجامع الأزهر الشريف ، ملونة وغير ملونة بالإضافة إلى لوحات قرآنية كتبت فى فترات مختلفة .. وكانت هناك عمامتان للشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر أكلتهما الحشرات ! !

وهناك صندوق خشبى ، وصفه على باشا مبارك فى خططه بأنه «يقال : إن به قطعة من سفينة نوح» . لكن لما فتح الصندوق عام ١٩٣٤ م وجدوا به عدة رقوق من المصاحف الكوفية ، وقطعة من الخشب ملفوفة بقماش أخضر.

هذا فضلا عن مزولة ضمن المزاول التى أهداها أحمد باشا شاكور للأزهر الشريف ثم مرصد فلكى أهداه لطلبة الأزهر إسماعيل باشا الفلكى عام١٨٩٨ الميلادية.

* * *

إن الكتب والمخطوطات والتحف كثيرة ونادرة فى نفس الوقت ، وهى تاريخ رائع للأزهر الشريف .. بالإضافة إلى تلك المجموعات من الكتب والمخطوطات التى تقبع فى الخزانات الخشبية .. والمهداة إلى المكتبة والتى تحتاج إلى الكثير.

إن مكتبة الجامع الأزهر فى حاجة إلى إنقاذ من علماء المسلمين ودول الإسلام ؟ إننا نستصرخ علماء المسلمين فى كل مكان أن يبادروا إلى إنقاذ هذه الكنوز الإسلامية قبل فوات الأوان.

ونحن نعتقد أن مكتبة الأزهر لابد أن تكون «ديناً» فى عنق كل من درس بالأزهر الشريف وتلقى العلم فيه .. فالمكتبة وكتبها ومخطوطاتها كانت الزاد الكبير الذى تزود منه الدارسون . . ! ؟

وهذا الذى هو فرض عين وكفاية على كل من درس بالأزهر وتلقى العلم فيه .. من أجل إنقاذ هذه الكنوز الإسلامية ! !

أحمد أبو كف

يبكون وهم ظالمون

قال الشعبى : كنت جالساً عند شُريح القاضى ، إذ دخلت امرأة تشتكى زوجها – وهو غائب – وتبكى بكاءً شديداً ؟

فقلت : ما أراها إلاّ مظلومة .

قال : وما علمك ؟

قلت : لبكائها ! ؟

قال : فإن إخوة يوسف «جاءوا أباهم عشاءً يبكون وهم ظالمون» ؟ !

أول دستور إسلامى يناقشه علماء المسلمين

فى مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية التاسع بالقاهرة
فقيد الأمة الإسلامية الدكتور عبد الحليم محمود يختتم حياته بمراجعة الدستور

الأستاذ / محمد نعيم عكاشة

اختتم فقيد الأمة الإسلامية الدكتور عبد الحليم محمود حياته بوضع اللمسات الأخيرة لأول مشروع دستور إسلامى فى العالم . . المشروع الجديد يستمد أحكامه من مختلف المذاهب والآراء الفقهية ، وتغطى مواده كافة احتياجات المسلمين فى مسائل الدين والحياة . .

وإذا كان القدر لم يسعف الشيخ الجليل فى إدراك آخر أمنيات عمره بخروج المشروع إلى دائرة الضوء فإن ماقدمه من خدمات جليلة للإسلام والمسلمين سيظل دوماً علامة بارزة على الطريق ، وأثراً باقياً على مر الأجيال والسنين . . رحم الله الدكتور عبد الحليم محمود رحمة واسعة وأنزله منازل الشهداء والصديقين جزاءً وفاقاً على صالح أعماله . . ودعاؤنا إلى الله القدير أن يقيض للأزهر شيخاً جديداً يكون خير خلف لأعظم سلف فيكمل مابدأه الفقيد الكبير ويحقق ماكان يرجوه للأزهر من نهضة وتقدم واستقلال . .

قبل الحديث عن مشروع الدستور الإسلامى المقررمناقشته أمام مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية التاسع ، هناك حقيقة لابد من ذكرها فى البداية وهى : أن الأزهر جبين مصر الدينى والواجهة العريضة التى تطل من خلالها على العالم الإسلامى كله . .

وقد لمست فى لقاءاتى المتعددة وجولاتى مع المسلمين فى الخارج اسم مصر يتردد دائماً مقروناً باسم الأزهر ، فهى تُعْرَفُ وتُرى به . . ولاخلاف أن دعم الأزهر ومعاونته على تأدية رسالته أمانة فى عنق كل أزهرى بل فى عنق كل مسلم . . وكل من يعمل على مجده يعمل على مجد مصر . .

وفى ضوء ظروف العصر وتحدياته تتعاظم رسالة الأزهر فى التصدى للمذاهب والتيارات المنحرفة ، ومواجهة الغزو الفكرى الأجنبى وبخاصة الفكر الماركسى الملحد . . ونشر الدين على صورته الصحيحة . .

ومن ثم فإن اجتماع علماء المسلمين من شتى أقطار العالم فى رحاب لمدارسة خطط الدعوةالإسلامية ، وإيجاد الحلول لما جدّ من مشكلات فى حياة جماهير المسلمين أمر ضرورى للغاية . .

وإذا كانت مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية الثمانى الماضية قد توافرت على مناقشة ونشر العديد من البحوث حول قضايا المسلمين المعاصرة ، فإن المؤتمر التاسع يتميز عن سوابقه من المؤتمرات بنظر أول مشروع دستور إسلامى أعدته لجان المجمع العلمية والفقهية وبذلت فى سبيل صياغته الكثير من الجهد والعمل المخلص حتى استكمل صورته المقترحة . .

والمشروع كما هو وارد تحكمه روابط الأُخوة الإسلامية ، وإن تعددت النظم وأشكال الحكم فى كل دولة من دول الإسلام ، فالمسلمون أُمة واحدة يعملون بكتاب واحد ويستظلون تحت راية واحدة ، هى راية القرآن . .

وحيث إن فى الاتحاد قوة فقد أجاز المشروع اتحاد دولة إسلامية مع أُخرى أو أكثر فى الشكل الذى يتفق عليه . . وفوّض الشعب المسلم سلطة مراقبة الإمام وأعوانه وسائر الحكام ومحاسبتهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية . .

● **أُسس المجتمع الإسلامى** . . وأكد الباب الثانى من المشروع على التعاون والتكافل بين المسلمين كافة . . وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض يأثم من يُقَصِّر فيه مع القدرة عليه . . وعُنى بالتربية الدينية

كمنهج أساسى فى جميع مراحل التعليم وكذلك حفظ القرآن الكريم ، وإنشاء معاهد خاصة لتحفيظه لعامة المسلمين ، وطبع المصحف الشريف وتيسير تداوله بين الناس . .

كما نص على قيام الأُسرة على الدين والأخلاق وقرر كفالة الدولة فى دعم الأُسرة وحماية الأُمومة ورعاية الطفولة بكل الوسائل . . وتشجيع الشباب على الزواج وتيسير أسبابه . . وأكد على الترابط الأُسرى وحسن رعاية المرأة للزوج والأبناء . . وأناط الولاية العامة بمصلحة الرعية وخاصة حماية الدين والنفس والعقل والمال والعرض . . وإلى غير ذلك من مواد .

● **الاقتصاد الإسلامى** . . وأرسى الباب الثالث دعائم الاقتصاد وكفالة حرية التجارة والصناعة والزراعة وفقاً لأحكام الشرع . . ومقاومة الدولة للاحتكار ، والتشجيع على تعمير الصحراء . وزيادة الرقعة الزراعية . . وتحريم التعامل بالربا إطلاقاً ، وموافقة خطط التنمية الاقتصادية لأحكام الشريعة . ، وجواز الوقف على الخيرات بموجب قانون ينظم ذلك . .

● **الحقوق والحريات الفردية** . .وكفل الباب الرابع حقوق الدفاع والتقاضى والاعتقاد الدينى والفكرى وحرية العمل وإبداء الرأى والكتابة والحرية الشخصية وحرية الانتقال والسفر وغيرها ، على أن تكون فى حدود الشريعة الإسلامية . . كما أكد على حرمة المساكن والمراسلات والخصوصيات وحظر التجسس ، على أن يحدد القانون مايَرِدُ على هذه الحرية من قيود تمارسها الدولة فى جرائم الخيانة العظمى أو الخطر الداهم ، ولاتكون تلك الممارسة إلا بإذن قضائى . . كما اعتبر تعذيب الأشخاص جريمة لاتسقط بمضى الوقت ، وخوّل لكل إنسان حق تقديم الشكوى عن جريمة تقع عليه أو على غيره أو على اختلاس المال العام أو تبديده . .

وحق العمل والكسب والتملك مكفول ولايجوز المساس به إلا بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية ، وللمرأة أن تعمل فى الحدود المباحة شرعاً . . ولايجوز للدولة مصادرة حرية الملك وحقوق الملكية بأية صورة ، وعدم نزع ملكية أحد إلا للمصلحة العامة ومقابل تعويض كامل . .

● **الإمام** . . ونظم الباب الخامس قواعد اختيار الإمام وشروط المرشح لرئاسة الدولة ومنها : الإسلام والذكورة والبلوغ والعقل والصلاح والعلم بأحكام الشريعة . . وأوجب طاعته وإن خولف فى الرأى وأكد

على أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق . . ولا للإمام فى أمر مقطوع بمخالفته للشريعة . . وحدد مسئولية الإمام فى قيادة جيشه لجهاد العدو وحفظ الثغور وتراب الوطن وإقامة الحدود وعقد المعاهدات بعد إقرارها وكذلك تمكين الأفراد من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأداء الفرائض .

● **القضاء** . . ونص الباب السادس على استقلال القضاء وتجريم المساس باستقلاله ، وعدم جواز تمييز أحد أو فئة بمحاكم خاصة ، فالناس سواسية أمام القضاء ، كما اشترط فى جرائم الحدود مثول المتهم أمام المحكمة بشخصه أو مع محام يوكله ، فإن لم يفعل نصبت له الدولة محامياً للدفاع عنه .

كما نص على توقيع عقوبات الحدود الشرعية فى جرائم الزنى والقذف والسرقة والحرابة وشرب الخمر والردة . . وأوجب الجلد فى التعزيرات ، والحبس محظور إلا فى جرائم معدودة ولمدد محدودة يُبيِّنها القاضى . . ولايجوز إذلال المحبوس أو إرهاقه أو الإساءة إلى كرامته .

● **المجلس النيابى** . . واشتمل الباب السابع على ٤٦ مادة وهو أطول ماجاء بمشروع الدستور ، وقد رسم باستفاضة سلطات المجلس النيابى وحدود اختصاصاته وتتمثل بإيجاز فى : سن القوانين وإقرار السياسة العامة للدولة والخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والميزانية العامة للدولة وكذلك ممارسة الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية بما يتفق على أحكام الشريعة الإسلامية .

بالإضافة إلى أحكام أُخرى تتعلق بنظام الدوائر الانتخابية وشروط العضوية ومحاسبة العضو ومدة دورة المجلس النيابى وسير عمله ، ومسئولية الوزراء أمام المجلس وسحب الثقة منهم وغيرها . .

ويؤدى عضو المجلس قبل مباشرة عمله هذه اليمين :

« أُقسم بالله العظيم على طاعة الله ورسوله وأن أحافظ مخلصاً على سلامة الوطن وترابه وعلى النظام الدستورى وأن أرعى مصالح الأُمة وأحترم الدستور والقانون وأن أُعلى أحكام الشريعة الإسلامية وذلك كله فى صدق وشرف وإيمان » .

وحرّم على عضو المجلس شراء أو استئجار شَىْءٍ من أموال الدولة أويؤجرها أويبيعها شيئاً من أمواله أويقايضها عليه أوأن يبرم مع الدولة عقداً بوصفه ملتزماً أومورِّداً أومقاولاً . . وإلى غير ذلك .

● **الحكومة** . . واختص الباب الثامن بصور التشكيل الوزارى والقَسَم الذى يؤديه كل عضو ، وهو مطابق فى مضمونه للقَسَم الذى يؤديه عضو المجلس النيابى . . كما نص على أن الوزير هو الرئيس الإدارى الأعلى لوزارته ويتولى رسم سياسة الوزارة فى حدود السياسة العامة للدولة ويقوم بتنفيذها ، ولا يجوز للوزير أثناء تولى منصبه أن يزاول مهنة حرة أو عملاً تجارياً أو مالياً أو صناعياً أو أن يشترى أو يستأجر شيئاً من أموال الدولة أو أن يؤجرها أو يبيعها شيئاً من أمواله أو أن يقايضها عليه . . وخوّل للإمام والمجلس النيابى حق إحالة الوزير إلى المحاكمة عما يقع منه من جرائم أثناء تأدية أعمال وظيفته أو بسببها ويكون قرار المجلس النيابى باتهام الوزير بناء على اقتراح يقدم من خُمْس أعضائه على الأقل . . ولايصدر قرار الاتهام إلا بأغلبية ثلثى الأعضاء . . ويوقف من يتهم من الوزراء عن عمله لحين الفصل فى أمره . .

● **أحكام عامة وانتقالية** . . أما الباب التاسع والأخير فقد ترك المجال مفتوحاً أمام كل دولة لاختيار مايتواءم مع ظروف ونظم كل منهم . . كما أبقى على الأحكام الصادرة من قبل وإن أجاز إلغاء هذه الأحكام أو تعديلها وفقاً للقواعد والإجراءات المقررة فى هذا الدستور ، وحدد العمل به من تاريخ إعلان موافقة الأمة عليه فى استفتاء . .

وبعد . .

فالمشروع فى جملة موادِّه وعددها ١٤٢ مادة يتجانس مع الأنظمة المتبعة فى كل دولة من الدول الإسلامية ، فضلاً عن مطابقة تفاصيله لأحكام الشريعة نصاً وروحاً ، وهو الآن رهن مناقشة علماء المسلمين المؤتمرين بالقاهرة وفى حالة إقراره فى صورته النهائية يوضع بعد ذلك تحت تصرف الدول الإسلامية التى ترغب العمل بمقتضاه . .

ولاشك أن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يتطلعون اليوم باهتمام إلى مؤتمر علمائهم هذا والأمل يحدوهم فى أن يحقق ما انْعقد عليه ، وأن يرى الدستور الإسلامى الموحد طريقه إلى النور والتنفيذ حتى تعم شريعة الله بين الناس . .

والله الموفق والمستعان .

محمد نعيم

مستقبل الإسلام ..
والدراسات الحديثة للمسيحية

على هامش كتاب
المسيح فى مصادر العقائد المسيحية

تجرى فى أروقة المسيحية وبخاصة فى السنوات الأخيرة دراسات علمية تستهدف التحقق من صحة الكتاب المقدس من حيث نسبة النصوص الواردة به إلى أصحابها . من ناحية ، ومن حيث عزوها إلى الوحى الإلهى من ناحية ثانية .

وتنهج هذه الدراسات منهج المقارنات اللغوية ، لهذه النصوص ، وتتبع العصور التى تنسب إليها ، والمخطوطات التى نقلت عنها ، والترجمات التى مرت بها كما تنهج منهج النقد الداخلى لهذه النصوص من حيث الكشف عن مقدار مابها من توافق أو تناقض ، سواء كان ذلك بالنسبة للنص الواحد ، أو لمجموعة من النصوص المنسوبة إلى أشخاص مختلفين ..

وتذكرنا هذه الدراسات التى أخذ ساعدها يشتد فى هذا القرن العشرين بدراسات شبيهة بها أو مقاربة لها أجراها المسلمون فيما يخص الحديث النبوى أو السيرة ، مع فارق مهم هو أن المسلمين بدءوها فى الوقت المناسب ، فى صدر الرسالة الإسلامية ، حيث كان الاتصال القريب بالصحابة والتابعين وتابعيهم ، وبسلسلة الرواة ممكنا ميسرا .

أما الذى يجرى الآن فى مجال الدراسات المسيحية فتكتنفه صعوبات هائلة لايعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى ، وهو إن دل فإنما يدل على أن هذه الدراسات كان ينبغى أن تتم وأن المسيحية ماتزال مفتقرة إليها .

وبالرغم من الصعوبات التى أشرنا إليها فإن الذين يطلعون على هذه الدراسات أو على شىء منها ، لابد أن يقلعوا عن نظرتهم التشاؤمية إليها ، وأن يجدوا أنفسهم فى نهاية الأمر على ثقة كاملة بجديتها وجدواها .

وهدفنا فى هذا المقال أن نشرك القارئ معنا فى هذه الاهتمامات ، وأن نطلعه على مجال خصب من هذه الدراسات ، وأن نضمه إلينا فى نظرتنا التفاؤلية لها .

وإننى لأذهب إلى أبعد من ذلك إذ

أرى أن هذا المنهج العملى فى البحث هو ماينبغى أن تسير فيه قضية تقويم المسيحية ، وأنه آن الأوان للإقلاع عن منهج قديم تبعه بعض العلماء إذ كانوا – ومايزال بعضهم كذلك – يفتحون ميادين البحث النظرى الجدلى الماورائى .. وهو منهج جد عسير ، وباهظ التكلفة ، قليل الجدوى .

* * *

وبالرغم من كثرة ما وقع فى أيدينا من الكتب التى أخذت بمنهج الدراسات النقدية للنصوص ، فإننا نقتصر فى هذا المقال على تقديم نموذج منها ، بلغ فى تقديرنا درجة عالية من الدقة والموضوعية ، وسنختم هذا العرض بانطباعاتنا التى خرجنا بها من هذه الدراسة .

والدراسة التى نقصدها جاءت فى كتاب بعنوان « **المسيح فى مصادر العقائد المسيحية** . . »[(١)] للمهندس أحمد عبد الوهاب وللمؤلف دراسات سابقة ولاحقة فى هذا المجال ، منها « إسرائيل حرفت الأناجيل » ومنها « الوحى والملائكة فى اليهودية والمسيحية والإسلام » ومنها « النبوة والأنبياء ، فى اليهودية والمسيحية والإسلام » .

وأهمية الكتاب ترجع إلى كونه كما جاء فى عنوانه « خلاصة أبحاث علماء المسيحية فى الغرب » وأهم هذه الأبحاث التى اعتمد عليها جاءت فى الكتب الآتية :

كتاب « الأناجيل ، أصلها وتطورها » للدكتور فريدريك كلفتن جرانت ، أستاذ الدراسات اللاهوتية فى الكتاب المقدس بمعهد اللاهوت الاتحادى بنيويورك .

وكتاب « كتابات مقدسة » لمؤلفه الأستاذ جنترلانسز كوفسكى ، المتخصص فى تاريخ العقائد بجامعة هيدلبرج الألمانية .

وكتاب « تفسير إنجيل مرقس » للأستاذ دنيس اريك نينهام ، أستاذ اللاهوت بجامعة لندن ، ورئيس تحرير سلسلة بليكان لتفسير الإنجيل .

وكتاب « تفسير إنجيل متى » لمؤلفه جون فنتون ، عميد كلية اللاهوت بليتشفيد بإنجلترا .

وكتاب « تفسير إنجيل لوقا » لمؤلفه الدكتور جورج بردفورد كيرد الذى عمل أستاذا لدراسات العهد الجديد بجامعة مكجيل بكندا ، ثم عميدا لكلية اللاهوت المتحدة ، ثم أستاذا بجامعة أكسفورد ، ثم رئيسا للجمعية الكندية لدراسة الكتاب المقدس .

وكتاب « حسب الكتب » لمؤلفه الدكتور تشارلز هارولد دود الذى عمل

---

(١) نشر مكتبة وهبه – القاهرة – ١٣٩٩ هـ .

أستاذا لتفسير الكتاب المقدس بجامعة مانشستر ، ومديرا عاما للجنة الترجمة الحديثة للكتاب المقدس ، ويمثل هذا الكتاب ، مجموعة محاضرات ألقاها فى كلية اللاهوت بجامعة برنستون .

وكتاب «أمثال الملكوت» لمؤلفه المذكور سابقا ويمثل الكتاب مجموعة محاضرات ألقاها فى مدرسة اللاهوت بجامعة بيل .

وكتاب «تاريخ العقيدة» لمؤلفه الدكتور أدولف هونك» أستاذ تاريخ الكنيسة بجامعة برلين ، ويعتبر واحدا من أكبر العلماء فى التاريخ الكنسى – كما يقول المؤلف – وله أبحاث ومؤلفات عديدة من أهمها هذا الكتاب الذى يقع فى سبعة أجزاء ، وقد ظهرت طبعته الثالثة الألمانية عام **١٨٩٣** م .

وكتاب «اعتراضات على العقيدة المسيحية» لمؤلفيه :

أساتذة كلية اللاهوت بجامعة كمبردج : الأساتذة ماكينون ، وفيدلر ، ووليامز وبيزنت يقول مؤلفو هذا الكتاب :

وقد نشر لأول مرة فى أبريل عام **١٩٦٣**م ، وتلقفته الأيدى حين ذاك ، فصدرت منه ثلاث طبعات فى نفس الشهر :

«**إن هذا عصر أصبحت فيه أساسيات العقيدة المسيحية موضع ارتياب وأن الدعاوى التى تقوم ضد المسيحية لم يعد من الممكن مواجهتها بتكرار الحجج القديمة أو تلك التبريرات الواهية**» .

* * *

ويبدأ الكتاب الذى بين أيدينا بالكلام عن مصادر العقائد المسيحية كما جاءت فى العهد الجديد ، وينصب البحث هنا على التحقق من «قانونيتها» ويخرج القارئ من هذه الدراسة بخلاصة مؤداها :

إنه فيما يتعلق بالزمان والمكان والكيفية التى اكتسبت بها الأناجيل الأربعة الصبغة القانونية – أى صارت مقبولة من الكنيسة – ومن ثم اعتبرت مقدسة ، ووفقا لما جاء فى دائرة المعارف البريطانية الجزء **١٧** ص **٥١٤** لعام **١٩٦٠** لا يملك العلماء إلا أن يقولوا : «ليس لدينا أى معرفة محددة بالكيفية التى تشكلت بموجبها قانونية الاناجيل الأربعة ولا بالمكان الذى تقرر فيه ذلك – ومما يجب ملاحظته أن كليمنت الرومى – عام ٩٧م – ويوليكارب عام **١١٢** م – قد استشهد كل منهما بأقوال للمسيح فى صيغ مستقلة عما فى الأناجيل التى صارت قانونية فيما بعد .. وأما فيما

يتعلق بقانونية العهد الجديد ككل فمن الملاحظ أن عملية بنائه وتقرير شرعية كتبه قد استغرقت حوالى ٣٥٠ عاما – وإلى بداية القرن الرابع «كان يوجد كثير من البلبلة – ويصف ايزبيوس هذا الوضع فيقسم الكتب إلى ثلاث طبقات :

كتب قبلت بوجه عام ، وكتب لاتزال موضع جدل لكن اعترف بها على نطاق واسع ، وكتب مرفوضة .

يقول المؤلف : «أىُّ الكتابات المسيحية تعتبر مقدسة وتجمع معا لتكون فى العهد الجديد ؟ إلى الآن – وبعد أن اقترب الألف الثانى لميلاد المسيح – لم يمكن الوصول إلى السؤال الأهم ، بل والأخطر ألا وهو : أى الأقوال نطق بها المسيح فى انجيله وتحدث بها التلاميذ فى رسائلهم ؟ لقد ظهرت الأناجيل بنصوص مختلفة وكلما مرت عشرات من السنين ظهرت نفس الأناجيل بنصوص مخالفة لما عرفت به من قبل وبالمثل كان الحال مع رسائل التلاميذ .. إن مشكلة «النص» تعتبر بحق مشكلة المشاكل التى تشغل بال العلماء اليوم ، والتى استحدثت بسببها دراسات وعلوم تهدف أول ما تهدف إلى معرفة حقيقة النص الأصلى ، فحين يمكن تحقيق ذلك تتحدد كثير من المواقف)

وتقول دائرة المعارف البريطانية :

(إن النسخ الأصلية لكتب العهد الجديد – وهى أغريقية – فنيت منذ مدة طويلة وفيما عدا بعض بقايا من صعيد مصر فإن كل النسخ التى استخدمها المسيحيون فى الفترة التى سبقت مجمع نيقية قد غشيها نفس المصير . ومما يجب ذكره أنه حتى اختراع الطباعة لم يكن قد تم الوصول إلى اتفاق كامل فى أى من نصوص العهد الجديد)

وتتحدث الدائرة – ص ٥١٩ – ٥٢١ ج ٢ عن الأناجيل فتقول (إن التغييرات قد حدثت فيها عن قصد ، مثل إضافة أو إدخال فقرات بأكملها ، وبالتأكيد فإن بعضا منها قد استمد من مصدر خارجى .

ويقول فردريدريك جرانت فى كتابه الذى ذكرناه سابقا ص ٣٢ (إن نصوص جميع المخطوطات الأصلية للعهد الجديد تختلف اختلافا كبيرا ، ولا يمكننا الاعتقاد بأن أيا منها قد نجا من الخطأ ، ومهما كان الناسخ حى الضميّر ، فإنه ارتكب أخطاء وهذه الأخطاء بقيت فى كل النسخ التى نقلت عن نسخته الأصلية . إن أغلب النسخ الموجودة من جميع الأحجام قد تعرضت لتغييرات أخرى على أيدى المصححين الذين لم يكن عملهم دائما

إعادة القراءة الصحيحة) .

أما عن إنجيل مرقس بالذات

فإن مرقس لم يكن قد سمع عيسى عليه السلام ، ولا كان تابعا شخصيا له لكنه فى مرحلة متأخرة كما يقول – بابياس المسيحى المتوفى ١٣٥ م – قد تبع بطرس ..

ويقول نينهام فى كتابه الذى ذكرناه ص ٣٩ .

(لم يوجد أحد بهذا الاسم عرف أنه كان على صلة وثيقة وعلاقة خاصة بيسوع أو كانت له شهرة خاصة فى الكنيسة الأُولَى . . .) .

وبالنسبة لتاريخ كتابة هذا الإنجيل يقول فى ص ٤٢ :

(غالبا ما يحدد فى الفترة ٦٥ – ٧٥م وغالبا فى عام ٦٥ أو ٦٦ م .. ويعتقد كثير من العلماء أن ما كتبه مرقس فى الإصحاح ١٣ قد سطر بعد عام ٧٠م . . .)

ويقول الدكتور فريدريك كلفتن جرانت فى كتابه «الأناجيل : أصلها وتطورها» ص ٧٤ :

(إذا كان الرأى الشائع كذلك أن مرقس كاتب الإنجيل كان هو مبشر الإسكندرية وأول أسقف لكنيستها فإن بعض العلماء يعتبر هذا الرأى من المأثورات العجيبة تماما مثل الاستدلال الخاطىء الذى توصل إليه أوغسطين من أن مرقس كان واحدا من الذين تبعوا متى واختصروا إنجيله .)

وتقرر دائرة المعارف البريطانية ص ٥٢٣ أن إنجيل مرقس هو الأساس الذى استمد منه كل من متى ولوقا بجانب مصادر أخرى فتقول (إن القول بأن متى ولوقا استخدما إنجيل مرقس قد أصبح على وجه العموم مسلما به ولكن بجانب إنجيل مرقس فلابد أنهما قد استخدما وثيقة أخرى أصبح يشار إليها الآن بالحرف (ص) .

وبجانب هذا المصدر المفقود ص ، يرى العلماء أن هناك مصادر أخرى نقل عنها ما كتبته الأناجيل مثل المصدر m ، وعنه نقل متى بعض المواد ، والمصدر L ، ومنه استقى لوقا المادة التى انفرد بها وهى تبلغ حوالى نصف الإنجيل . وأما عن إنجيل متى :

فيوضح جون فنتون فى كتاب تفسير إنجيل متى ص ١٣٦ كيف أن متى كاتب الإنجيل لم يكن هو متى المذكور فيه على أنه تلميذ عيسى عليه السلام ويقرر أن ربط متى (لشخصيته كمؤلف بهذا التلميذ إنما هى محض خيال) ويقول (إنه من المحتمل أن مؤلف هذا الإنجيل نسب عمله إلى مؤسس الكنيسة التى كتب من أجلها هذا

الإنجيل أو معلمها الذى كان اسمه متى ..)

أما بالنسبة لتاريخ كتابة هذا الإنجيل فيمكن القول – كما يقول جون فنتون ص ١١ إنه (كتب حوالى الفترة من ٨٥ – ١٠٥ م)

والمشاكل الرئيسية لهذا الإنجيل تشتمل على خطأ الاستشهاد بتنبؤات العهد القديم ، وتوقع نهاية العالم سريعا وما جاء فى خاتمته من ذكر التعميد باسم الآب والابن والروح القدس ، إذ إن هذه الصيغة كما يقول الدكتور أدولف هرنك فى كتابه تاريخ العقيدة ص ٧٩ ج ١ .

(غريب ذكرها على لسان المسيح ، ولم يكن لها نفوذ فى عصر الرسل)

وأما عن إنجيل لوقا ، فإن لوقا : يعترف بأنه لم ير المسيح ولم يكن من تلاميذه . ويرجح العلماء كما يقول الدكتور فريدريك كلفتن جرانت فى كتابه ص ١٢١ – ١٢٨ أن يكون لوقا قد أصدر إنجيله حوالى ٨٠ أو ٨٥م وبعد ذلك بحوالى عشر سنوات ذيل كتابه برسالة ثانية هى (أعمال الرسل) ونشره حوالى ٩٥ م .

هذا وإن كان بعض العلماء الألمان أو الأمريكيين يرجحون القول بأن مؤلف كل من الإنجيل وأعمال الرسل شخصان مختلفان .

وأما عن إنجيل يوحنا : يقول الأستاذ جون مارش فى مقدمته لتفسير إنجيل يوحنا ص ٢٠ (من كان هذا اليوحنا الذى قيل إنه المؤلف ؟ أين عاش ؟ أى المصادر كان يعتمد عليها ؟ متى كتب مصنفه ؟ حول كل هذه الأسئلة وحول كثير غيرها توجد أحكام متباينة) ثم يقول ص ٨١ (من المحتمل أنه خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الأول الميلادى قام شخص يدعى يوحنا من الممكن أن يكون يوحنا مرقس خلافا لما هو شائع من أنه يوحنا بن زبدى أحد التلاميذ الاثنى عشر – وقد تجمعت لديه معلومات وفيرة عن يسوع ، ومن المحتمل أنه كان على دراية بواحد أو أكثر من الأناجيل المتشابهة متى ومرقس ولوقا – فقام عندئذ بتسجيل شكل جديد لقصة يسوع . .)

وعلى العموم :

فلقد كتبت الأناجيل الأربعة القانونية على مدى فترة زمنية تقدر بأكثر من ٦٠ عاما ما بين عام ٦٨م وعام ١٢٥م – والأخطر من هذا أن أقدمها لم يكتب فى حياة المسيح ولا عقب رفعه مباشرة أو حتى بعد ذلك ببضع سنين – لكنه كتب بعد ٣٥ سنة مضت منذ رفع المسيح ، لهذا جد العلماء فى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تأخير كتابة هذه الأناجيل وذكروا أسبابا

من بينها أن الغالبية العظمى من المسيحيين الأوائل لم يكونوا متعلمين ، وأن العادة كانت جارية بنقل التعاليم الدينية شفاها (وثمة عامل آخر .. ألا وهو تفشى فكرة المجىء الثانى للمسيح . . .) على وجه السرعة بحيث يشاهد الجيل الأول هذا المجىء ، هذا بالإضافة إلى الاضطراب والاضطهاد الذى اتسمت به الكنيسة فى عهدها الأول ..

فلما أوشك الجيل الأول الذى عاصر المسيح على الانقراض وتباعد الأمل فى تحقيق المجىء الثانى للمسيح ظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين الذكريات وكان هذا العمل من نصيب الجيل الثانى فى المسيحية وهكذا بدأت كتابة الأناجيل بعد عشرات السنين من رحيل صاحب الدعوة .

ثم يفيض المؤلف فى ذكر المشاكل الكثيرة التى تحول بين هذه الأناجيل الأربعة وبين الاعتقاد بصحتها أو بكونها وحيا إلى كاتبيها .. ويصنف هذه المشاكل إلى أربعة أبواب رئيسية تتناول : **التناقضات والاختلافات القائمة بين هذه الأناجيل ، ووقوعها فى خطأ الاستشهاد بالعهد القديم ، ووقوعها فى خطأ تقرير صلب المسيح ، ووقوعها فى خطأ تقرير قيامته .**

أما عن التناقضات فيذكر **الاختلاف بين متى ولوقا فى نسب المسيح** ، ويعقب على ذلك بقوله (إنه لايمكن الأخذ برواية أى من متى أو لوقا عن نسب المسيح إذ لو اعتبرنا أحدهما صحيحا لكان الآخر مخطئا ولاشك)

ويذكر **الاختلاف بين متى ومرقص من جانب وبين لوقا ويوحنا من جانب آخر فى أسماء التلاميذ** ، ويعقب على ذلك بقول الدكتور جون بردفورد كيرد فى كتابه تفسير إنجيل لوقا ص ١٠١ (عند ماكتب الإنجيل لم يكن هناك حتى مجرد التحقق الكامل من شخصية التلاميذ)

ويذكر من هذه الاختلافات أيضا الاختلاف فى سرد الروايات المتعلقة بكثير من الوقائع .

ويذكر بعض الروايات المتنافرة فى الإنجيل الواحد وعلى سبيل المثال ماجاء فى إنجيل متى من قول المسيح لبطرس :

« **طوبى لك ياسمعان بن يونا** أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماوات وكل ماتحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات » متى ١٦ : ١٧ — ١٩ ، ثم جاء فى هذا الإنجيل نفسه بعد هذا القول مباشرة من أن المسيح (ابتدأ يُظهر لتلاميذه أنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرا من

الشيوخ ورؤساء الكهنة فأخذه بطرس اليه وابتدأ ينتهره قائلا : حاشاك يارب ولا يكون لك هذا – **فالتفت وقال لبطرس** : **اذهب عنى ياشيطان** : أنت معثرة لى لأنك لاتهتم بما لله بل للناس) متى ١٦ : ٢١ – ٢٣ ومرقس ٨ : ٣١ – ٣٣

ومن هذا التناقض الشديد أيضا ما جاء فى لوقا ومتى من **قول المسيح (كل من أنكرنى قدام الناس ينكر قدام ملائكة الله)** لوقا ١٢ : ٨ – ٩ ومتى ١٠ : ٣٢ – ٣٣ وفى ختام الدعوة جلس المسيح بين تلاميذه الاثنى عشر وفيهم بطرس وقال لهم : (كلكم تشكون فى هذه الليلة ..) فأجاب بطرس وقال له (وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبدا ..)

قال له يسوع : **الحق أقول لك إنك فى هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرنى ثلاث مرات** . قال له بطرس : ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك . هكذا قال أيضا جميع التلاميذ) متى ٢٦ : ٣١ – ٣٥ مرقس ١٤ : ٢٧ – ٣١ لوقا ٣٢ : ٣٤ .

وتقول الأناجيل إن نبوءة المسيح فى بطرس قد تحققت ، وأنكر بطرس المسيح ثلاث مرات أمام الذين قبضوا عليه (متى ٢٦ : ٥٦ – ٧٤ مرقس ١٤ : ٦٦ – ٧١ لوقا ٢٢ : ٥٤ – ٦٠

ويقول المؤلف : (**بهذا وقع بطرس فى المحظور وألقى بنفسه فى دائرة الهلاك إذ لابد وأن ينكره المسيح أمام الله تحقيقا لما سبق أن نطق به** ..)

ومع ذلك يأتى أنه بعد قيامة المسيح وظهوره لتلاميذه عين بطرس خليفة له فيهم ورئيسا عليهم يوحنا ٢١ : ١٥ – ١٧

وهكذا تأتى عشرات الأمثلة على هذا التناقض الصارخ من المقابلة بين النصوص وتأتى أمثلة أخرى على **نبوءات نطق بها المسيح ولم تتحقق** فمن ذلك ما جاء فى متى ١٩ : ٢٧ – ٢٩ من أنه قال (متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون أنتم أيضا على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر) ولقد كان يهوذا – الاسخريوطى الخائن الذى أصبح يعرف « بابن الهلاك » من بين هؤلاء الاثنى عشر وبهذا يستحيل تحقيق هذه النبوءة .

ومن أجل هذا نجد لوقا يحذف هذا التحديد بالاثنى عشر فى النبوءة عند ذكره لها .

ويقول جون فنتون (لعل ذلك يرجع إلى أنه كان يفكر فى يهوذا الاسخريوطى)

ولقد تنبأ المسيح كما نسب إليه بأنه يدفن فى الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال متى

١٢ : ٣٨ - ٤٠ ومرقس ٨ : ٣١ ، ٩ : ٣١ ، ١٠ : ٣٤ ويوحنا ٢ : ١٩ وبحسب الأناجيل أيضا ، وبعملية حسابية بسيطة نجد أن الأيام التى قضاها الميت فى بطن الأرض - فى القبر - كانت يوما واحدا هو يوم السبت ، وعدد الليالى اثنتان : ليلة السبت وجزء من ليلة الأحد على أحسن الفروض .

يقول المؤلف (وبذلك استحال تحقيق هذه النبوءة)

أما عن روايات الأناجيل عن أحداث الصلب فقد اختلفت فيها اختلافا بينا شديدا

وعلى سبيل المثال فقد اختلفت فى مقدمة هذه الأحداث - مسح المسيح بالطيب - اختلفت فى توقيتها واختلفت فى مكانها ، واختلفت فى شخصية المرأة التى قامت بالمسح واختلفت فيما فعلته ، واختلفت فى رد الفعل الذى حدث عند المشاهدين .

كذلك اختلفت الأناجيل فى ذكر الأحداث المتعلقة بالقبض على المسيح

ويستخلص المؤلف من روايات الأناجيل فى هذه المسألة نتائج هامة يبنيها على ماجاء فيها من أن المسيح قال لتلاميذه «كلكم تشكون فى هذه الليلة » ، وماجاء فى الأناجيل أيضا من أن التلاميذ لم يشكوا فيه فى تلك الليلة .. والنتائج المترتبة على ذلك هى : إما أن نبوءة المسيح بشكهم لم تتحقق ، ويترتب على هذه النتيجة نتيجة أخرى : هى أنهم لم يشكوا لوثوقهم بنجاته ، مما يضر بصحة نبوءات المسيح وصحة ما ذكر عن صلبه معا ، وإما أنها تحققت أى أنهم شكوا فى نجاته بالفعل وهذا - يعنى ارتدادهم ، كما يعنى نجاته أيضا .

وهكذا تجرى الروايات المتناقضة فى مايتعلق بقصة إنكار بطرس ، والمحاكمات التى جرت للمسيح أمام مجمع الكهنة ، وهيرودت ، وبيلاطس ، وحامل الصليب ، واللصين اللذين صلبا بجواره ووقت الصلب ، وصلاة المصلوب وصراخه على الصليب ، وموت المصلوب ، وشهود الصلب ، وعملية الدفن ، ونهاية يهوذا ، وهلاك بيلاطس ، وتنبؤات المسيح بنجاته من القتل ، وتنبؤات المزامير - التى اعتمدت عليها الأناجيل - بنجاته أيضا ، واختلاف المسيحيين الأوائل فى صلب المسيح ، واختلاف الأناجيل فيما يتعلق برواية أحداث قيامة المسيح ، وظهوره لتلاميذه ، وشك التلاميذ فى روايات القيامة والظهور ، وصعوده للسماء ، أو نزوله أولا

إلى الجحيم كما جاء فى قانون إيمان الرسل الذى تذكر بعض المصادر المسيحية أن تلاميذ المسيح وضعوه بعد رحيله .

* * *

هذا السياق يلفتنا إلى حقيقة أساسية هى - كما يعبر عنها مؤلفو كتاب « اعتراضات على العقيدة المسيحية » ص٥٨ الذى ذكرناه سابقا بقولهم : (**إن المسيحية عقيدة تاريخية** بمفهوم قلما تناظرها فيه أى من العقائد الأخرى ذلك أنها إما أن تظل قائمة أو تنهار بناء على حقيقة ماكان من أحداث معينة جرى الزعم بأنها وقعت خلال فترة زمنية محددة تقدر بثمان وأربعين ساعة فى فلسطين منذ ألفى عام تقريبا)

أى أنها كما يقول المؤلف أيضا : (ربطت المسيحية التقليدية نفسها بالقول بأنها تقوم على أحداث تاريخية مثل قتل المسيح على الصليب ، وقيامته اليوم الثالث - بحيث لو تعذر إثبات وقوعها ماكان للمسيحية من برهان يدعمها ، كما أنه لو أمكن إثبات عدم حدوثها لانهارت العقيدة التقليدية من أساسها ولم يبق منها شىء)

ولعل هذا هو السبب الذى جعل القرآن الكريم يذكر هذه الأحداث - التاريخية نافيا لها فى قوله تعالى : (وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه)

وهنا نسجل أن التحقيقات العلمية التى قام بها علماء اللاهوت المسيحى المحدثون تشهد ليس بصدق القرآن الكريم فى هذا التقرير الجازم فحسب ، ولكن **فوق ذلك تشهد بإعجازه إذ يقرر حقائق لايمكن أن يطلع عليها البشر** ، **ولا أن يقتربوا منها بغير الجهود العلمية المتواصلة** ، يذكرها على لسان الرسول ﷺ مما يضيف إعجازا جديدا إلى الإعجاز المعروف للقرآن ويضيف شاهد صدق جديدا إلى شواهد صدق سلفت ، تقطع بأن محمدا ﷺ ماكان ليجرؤ على تقرير هذه الحقائق إلا أن يكون الناطق بها هو وحى الله المنزل عليه .

ويشمل الإعجاز القرآنى فى هذا المقام ماجاء فيه من تقرير حقيقة حدوث التحريف فى الكتاب المقدس ، قبل أن يكشف البحث العلمى عن ذلك بعشرات القرون .

كما نسجل هنا أيضا أن التخلص من هذه الوقائع الموهومة (الصلب - القتل - القيامة) يعنى التخلص بالتالى من كل ما يحول بين المسيحية وبين الانضواء تحت

رسالة السماء الخالدة التى لم يتنزل غيرها على نبى وهى رسالة الإسلام التى جاء بها الأنبياء منذ آدم ونوح إلى عيسى إلى محمد عليهم جميعا أفضل الصلاة والتسليم ، وهنا تنزاح الغاشية التى لحقت برسالة عيسى ويظهر صفاؤها ويبدو صدق القرآن فيها إذ يقول فى شأن عيسى وصحبه الحواريين واصفا إياهم بالإسلام :

(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) آل عمران **٥٢** .

وهذه الأبحاث تجعلنا نقرر أن المسيحية فى العصر الراهن تدخل فى طور خطير من أدوار تطورها لم تتعرض لمثله منذ مجمع نيقية الذى عقد فى القرن الرابع الميلادى ، تطور يمهد للقيا تاريخية مع الإسلام بل انضواء كامل تحت لوائه .

إن هذه البحوث فى طريقها إلى أن تأخذ الصورة النهائية : كإعلان يبدو بمعجزة القرآن الذى قرر هذه الحقائق من قبل ، وسوف يمثل إعلان هذه المعجزة القرآنية الجديدة – فى حينه – فتحا هائلا لاعتناق الإنسانية كلها للإسلام – إسلام الإنجيل وإسلام القرآن معا .

وعندئذ سوف يدخل بلايين البشر الجدد فى العقيدة الشاملة عقيدة الإسلام الحق ، ولسوف يلتمسون القرآن حين ذاك لينظروا كأنهم ينظرونه للمرة الأولى .

إن هدف هذه الدراسات عند أصحابها ليس كما يظن البعض هدم المسيحية ولكن كما يقول المؤلف لكى (تتحدد كثير من المواقف ولكى يتحقق الأمل الذى يراود الكثير من المسيحيين وغيرهم من المؤمنين فى الاتفاق على عقيدة مسيحية واحدة بدلا من العقائد المسيحية المختلفة التى عرفت ولاتزال تعرف منذ عرف اسم المسيح إلى اليوم والتى اصطبغت فى أغلب عهودها بصراعات دموية تمثل تطبيقا معاكسا لكل ماجاء به المسيح) .

إن التطور الخطير الذى تتعرض له المسيحية بهذه البحوث النقدية ليس من الدقة وصفه – كما قد يحلو للبعض – بأنه انهيار للمسيحية أو حتى .. انهيار للكنيسة . وإنما هو – فى تقديرى – لو سيطر على مجال البحث روح الحرية والموضوعية والحكمة وبعد النظر والرؤية وسعة الصدر – وهذا مانراه حتى الآن سائدا فى هذه المجالات – يمثل حركة إصلاحية ثورية تتم فى داخل الكنيسة وفى ظلها وبقيادتها ومن ثم فسوف يكون لها الإشراف على حركة تحول العالم المسيحى إلى الإسلام – الإسلام الذى

لاينبغى أن ينظر إليه على أنه **ملك للشعوب** الإسلامية **المعاصرة** – إن **تحول** العالم المسيحى إلى الإسلام سوف **يحتاج** إلى الكنيسة أولا وأخيرا ، **إنه فى اعتقادى وأنا** فى أشد الأسف أن أرانى **مضطرا** لقول ذلك – لن يتم هذا التحول بعمل إيجابى **يقوم** به المسلمون بحالتهم الراهنة ، **فهم** أعجز من ذلك ، **هم** أعجز من ذلك على المستوى العلمى ، وهم أعجز من ذلك على المستوى الحضارى ، وهم أعجز من ذلك على مستوى القوة ..

إن هذه البحوث تقضى علينا بالإيمان بوقوع مثل هذا التحول فى القريب وإن لم يكن فى القريب العاجل ، وذلك لأمر بسيط .. هو إن العقيدة المسيحية بحالتها الراهنة لايرضى عنها المسيحيون أنفسهم ، فكيف يرضى عنها غيرهم ؟ وإذن فى ظل هذه العقيدة لا أمل يرجى فى مستقبل لابد آت يقول عنه المسيح .. (وعلى الأرض السلام) وإنما الأمل يأتى عن طريق ماتنبئ عنه هذه البحوث من تطور حتمى تسير العقيدة المسيحية نحوه ، وهنا يأتى الالتحام الكامل بين عالم المسيحية **وعالم المسلمين تحت راية الإسلام .**

بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك **لقول** إن هذا **التطور** الذى **تنبئ عنه** هذه **البحوث ضرورى لمجىء عيسى إلى الأرض مرة ثانية ، كما هى عقيدة الإسلام والمسيحية معا** ، إذ من غير المتصور أن ينزل المسيح قبل تمهيد قوى يشير بقرب اللقاء بين هاتين الطائفتين على يده ، وإذا كان الخلاف بينهما قائما بعنف فإنه لايتوقع أن ينزل ، إنه لايمكن أن ينزل ليقود طائفة من الطائفتين فى حرب ضد الأخرى ، كما إنه لايمكن أن ينزل ليتعرض لتكذيب عارم نهائى من إحدى الطائفتين ، وإذن ففى اعتقادى أن هذه البحوث سوف تستمر ، وسوف تتزايد ، وسوف تنتشر ، وسوف تهز أعماقا كثيرة ، وسوف تؤتى أكلها (ليتحقق ما بالكتب) من نزول المسيح وعودة السلام إلى الأرض ، وليكون الدين كله لله .

وبالله التوفيق .

د . يحيى هاشم

كتاب الشهر

وصيّتي وإيماني

دورة الحضارة

خرجت من مصر والشرق

وإليهما تعود

للباحث الإسلامي

الأستاذ أحمد حسين

تمهيد :

هذا كتاب أكتبه وقد شارفت السبعين من عمرى حسب وثيقة الميلاد الرسمية ، أما العمر الحقيقى ، فعلمه عند الله .

وإنه لقدر عجيب يعمق إيماننا بالله ، إنه هو وحده يحيى ويميت وقد جعل لكل أجل كتابا ، فحيث كان اعتقادى أننى سأموت مبكرا ، وقد تعرضت بالفعل لمخاطر ومهلكات كان آخرها ، هذا المرض العنيف القاتل والذى أصابنى منذ عشر سنوات وجعلنى عاجزا مشلولا . ومع ذلك فها أنذا لاأزال حيا ، وصدق الله العظيم من أنه (لكل أجل كتاب) ومادام فى العمر بقية ، ومادام فى رأسى فكر ويدى تتحرك بالقلم فلامناص من أن أسجل فكرى ليستفيد منه من يستفيد إذا كان يتضمن فائدة .

وموضوع هذا الكتاب أوبالأحرى الْكُتَيِّبْ أوالرسالة ، أوسمه ماشئت ، هو الموضوع الذى بدأ يتملكنى ويسيطر على فكرى ووجدانى معا ، ولقد كتبت فيه عدة مقالات ، ولكنى كنت أكتبها فى اختصار وتعجل ، فالحيز محدود ، والوقت ضيق فشعرت بأن واجبى يحتم على أن أكتب غير متقيد بوقت أوحيز ، فجئت إلى جمعية الوفاء والأمل ، لأبتعد أكثر وأكثر عن صخب الحياة ، ولأتفرغ كل التفرغ للكتابة فى هذا الموضوع الذى أصبح التفكير فيه يسعدنى ، فما بالك أن أكتب فيه ، والفكرة ليست جديدة ، ومنذ أمسكت بالقلم ونزلت الى الحياة العامة وأنا أبشر بها ، ولكن ثمة فارق بين مانحس به بوجداننا ، ومانتفرد بالإحساس به لايشاطرنا إلا قلة ، وبين أن يقوم الدليل على صحة مشاعرنا ، وأن يتسع الشعور وسط قطاعات عريضة من المفكرين فى الشرق والغرب معا . وتتلخص هذه الفكرة فى أقوال ماسمى بأنه حضارة حديثة أوربية ، وبعد قيام أمريكا سمى بالحضارة الغربية ، والحقيقة أنه ليس هناك سوى حضارة إنسانية واحدة ، لاقديم فيها ولاجديد ، حضارة تفرق بين الإنسان والحيوان ، فهى تقوم على الإيمان بالله واليوم الآخر ومايترتب على ذلك ، من قوانين وتقاليد وأخلاق ، مكنت البشر من العيش فى جماعة آمنة عاملة متعاونة مسالمة ، هذه هى مقومات الحضارة الإنسانية التى لامقومات غيرها وكانت قد انتهت إلى أوربا كما سوف نرى ، ولكن أوربا فى غرورها ، تصورت أنها تبدأ حضارة جديدة ، تستغنى فيه عن الأساس الروحى للحضارة ، وهو الإيمان بالله واليوم

الآخر ، وتصورت أن فى المحسوسات فقط أى « المادة » مايكفى لبناء الحضارة ، فكان هذا الذى كان من تجمد حضارتها ، ثم أفولها وتدهورها مما سنشرحه فيما يلى داعين المصريين والعرب ، إلى أن يدركوا ماأدركه الشرقيون « اليابان والصين » من أنه ليس سوى حضارة واحدة ، هى تلك التى انبثقت من الشرق بعامة ، ومن الشرق الأوسط بخاصة « مصر والعرب وإيران » وهى فى طريقها إلى العودة إلى الشرق بعد أن تخلى الغرب عن أسسها .

وغنى عن البيان ، أننى لو حاولت الاستشهاد بالوثائق ، والمراجع لاحتاج الأمر إلى عشرات من المجلدات وسنوات من التأليف ، وهذا هو ماأتركه لشباب العلماء فى كل ميدان ، فهذا الذى أكتبه فى هذه العجالة ، هو خلاصة الخلاصة لما طالعت ، وألفت ، وفوق ذلك وقبل ذلك ماجربت وعانيت وعاينت ، كرؤية الإمبراطورية البريطانية فى أوج عظمتها ، ورؤيتها بعد ذلك وقد دالت دولتها وتحولت من النقيض إلى النقيض ، كماسوف يرى[1] .

(١) كان آخر مظاهر هذا التدهور أن توقفت جريدة « التيمز » عن الصدور وهى التى كان الإنجليز يتصورون أن الشمس قد تقف ، أما هى فلا .

بعد هذا التمهيد أقول وبالله التوفيق .

أحمد حسين

دار الوفاء والأمل ١٩٧٨/١٠/٧

الفصل الأول

١

دورة الحضارة

يجب أن أعترف ، أنه برغم مطالعاتى ، لم أستطع أن أتابع هذه المباحث التى أريد بها التفريق بين كلمتى الحضارة والمدنية ، فالكلمتان فى تصورى مترادفتان فالحضارة ضد البداوة ، وهى منسوبة إلى الحضر ، ومنه الحاضرة ، أى المدينة الكبرى والمدنية منسوبة إلى المدينة ، والناس لم تستقر فى مدن ، إلا بعد أن تَركوا البداوة وآثروا الحضارة ، ومع ذلك فقد يكون ثمة فارق بين الكلمتين وفوق كل ذى علم عليم . وقد ألف الكاتب الأمريكى الكبير « ول دورانت » موسوعة ضخمة فى تاريخ الحضارة الإنسانية تتكون من عديد من المجلدات الضخمة ، وقد تتبع نشوء الحضارة وتكونها ، وازدهارها ، ثم ذبولها فى إقليم ، ونشوئها فى إقليم آخر وعناصر الحضارة عنده ، هى الدين والقانون ثم العلم والفنون ، واستعرض هذه العناصر فى

مصر وبابل وفينيقيا والإغريق ثم الرومان وتحدث عن الهند والصين ، ثم عاد إلى الشرق الأوسط ، ليحدثنا عن الحضارة الإسلامية العربية ، وأوربا المظلمة فى العصور الوسطى وكيف انتقلت إليها الحضارة ونحن نعتبر هذا الكتاب وثيقتنا ومرجعنا الأول فيما سنقوله فى كتابنا هذا فليرجع إليه من يريد الدراسة ، خاصة وأن كتاب « ول دورانت » ذكر مئات المراجع التى استند إليها فى تقرير ماقرر .

دورة الحضارة

بقى ثمة مبحث تمهيدى ، يجب أن نقول فيه كلمتنا قبل أن نسترسل فى موضوعنا فقد شك مفكرو أوربا ، وقد تملكهم الغرور ، أن يتصوروا أن ماوصلت إليه أوربا هو ذروة الحضارة التى لم تشهدها الإنسانية من قبل ، وأن كل ماشهدته البشرية ، كان تمهيدا وإعدادا لظهور الحضارة الأوروبية وكان داروين الإنجليزى هو أول من قال ذلك ، فتحدث عن النشوء والارتقاء من الأدنى إلى الأعلى ، فالإنسان هو وليد القرد ، وسرت هذه الفكرة ، فكرة التطور سائر علوم المعرفة ، وأصبحت البنية الأساسية لفهم كل شىء فى الكون ، وهكذا وجد الأساس الفكرى والعلمى لإشباع غرور الأوربيين ، فى أن حضارتهم ستظل تعلو وتعلو فهذا هو قانون الطبيعة حيث أثبتت التجارب والمشاهدات وسنن الطبيعة الثابتة ، أن لاشىء فى هذه الدنيا يسير فى خط مستقيم أبدا ، فليس هناك ارتفاع إلى مالانهاية ، أوهبوط إلى مالانهاية أوسير فى اتجاه واحد إلى مالا نهاية بل إن كل شىء فى هذا الكون يسير فى دوائر فهو يبدأ حيث ينتهى ، والنهاية هى البداية ، ابتداء من الشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم ، حتى أصغر شىء فى الكون وهى الذرة فهى مؤلفة من أجزاء تدور الإنسان والحيوان والنبات بعض مافى هذا الكون فلايمكن أن تخرج عن سننه فهى بدورها وكل مايتصل بها يدور ، وإذا كان كل إنسان يرى هذه الدورة فى النبات ، حيث ينبثق من الأرض لينمو ويورق ثم يزهر ثم يثمر ، ثم يذبل ويذوى ، لتعود الأرض ترابا كما كانت ، فليس سوى جاهل وغافل معا من يتصور أن الإنسان خارج عن هذه القاعدة ، وما من إنسان إلا وهو يولد طفلا ثم ينمو وينمو ، حتى إذا وصل إلى أوج نموه عاد إلى الانحدار فالتدهور فالموت وبعد الموت يتحول إلى تراب ، وكل مايتصل بالإنسان ، من مدن وحضارة لابد أن يخضع لكل مايخضع إليه

كل مافى هذا الكون وهو أن يسير فى دوائر ينتهى حيث بدأ .

ماركس والدوران اللولبى

وقد شهدت أوربا فى القرن التاسع عشر عالما اقتصاديا ، أراد أن يهدم كل تاريخ البشر ليبدأ دنيا جديدة ، تضرب عرض الحائط بكل عناصر الحضارة المتعارف عليها وبنى ذلك بطبيعة الحال على نظرية التطور والنشوء والارتقاء وأن المجتمعات البشرية تتطور دائما من الأدنى إلى الأعلى ، ولكن ماركس الذى زعم أن نظريته مؤسسة على العلم المحض ، جابهته هذه الحقيقة العلمية الثابتة ، من أن كل شىء فى هذه الدنيا يدور ، وينتهى حيث بدأ ، فخرج من المأزق بكلمة فارغة ، ونعنى بكونها فارغة أنها مجرد كلمة لاسبيل للتحقق منها فهى غير قابلة للقياس ، لأن أحد الطرفين غائب (وهو الماضى البعيد والبعيد جدًّا) فكيف يمكن قياسه بالحاضر ، فمن هنا وصفنا الكلمة بأنها مجرد كلمة جوفاء فارغة ، ولكنها كانت كافية لإشباع غرور بعض الأوربيين بأنهم أعظم كل من سبق فهم ثمرة الرقى الذى يجب أن يواصل الارتقاء إلى مالانهاية .

فماذا قال ماركس ؟ ، قال : إن كل شىء يدور ، نعم ، ولكنه يدور بشكل حلزونى لولبى ، أى أن كل لفة تدور لتعود إلى نقطة البداية ولكن فى مستوى أعلى .

وهذا كلام لانناقشه لأنه لايناقش وهو لايزيد عن كونه مجرد قول لادليل عليه .

ولنا الحقيقة العلمية الثابتة والتجربة التى يشهدها كل إنسان ويراها بعينيه ويلمسها بيديه فى كل من حوله بل وفى داخل نفسه ، من أن كل شىء يدور ويدور وينتهى من حيث بدأ ، وأن الحضارة شأنها فى ذلك شأن أى شىء فى الكون تدور .

٢

الحضـــارة

أبسط صور الحضارة ، أن يعيش الإنسان فى جماعة آمنة متعاونة ، يحملها على التعاون الإيمان بإله خالق مشترك ، وشعور الجميع بالمصلحة والفائدة التى تعود على كل منهم نتيجة هذا التعاون ، وسرعان ماا كتشف الإنسان أن التعاون لايعطى ثمرته الكاملة إلامن خلال تقسيم العمل ، وقيام رئيس مطاع لإعطاء كل ذى حق حقه .

وهكذا فى ظل الدين والحكومة والقانون وجدت الحضارة ، ولما كانت السكنى فيما سمى بالمدينة هى مظهر الاستقرار الحضارى فقدأطلق على الحضارة اسم المدنية .

بدأ الإنسان كاملا

ونحن نخالف النظرية الأوربية التى سادت فترة من الزمان . من أن الإنسان تطور من الحيوان « القرد » ونعتبر ذلك نوعا من الغرور الذى تملك الأوربيين ردحا من الزمان . وأرادوا أن يصوروا لأنفسهم أنهم هم وحدهم الناس وأن كل ماسبق . كان تمهيدا لظهورهم هم وهو عبث على خلاف كل معقول ومنقول فلو أن كل مافى الكون قد تطور من الأدنى للأعلى . لوجب أن ينقرض الأدنى نهائيا ولكن الأدنى لايزال حيث هو وهكذا فحيوانات الخلية الواحدة تزحم الكون كما تزحمه الكائنات الأخرى . والحيوانات الضخمة المنقرضة . تثبت أن الحياة قد شهدت كائنات أقوى وأعظم ، والقول بأنها انقرضت لأنها كانت أضعف من احتمال تطور الحياة . هو مجرد قول لادليل عليه فإذا زعموا مثلا أن الديناصور قد انقرض لأنه لايأكل اللحوم ، فأن أضخم وأقوى حيوان على ظهر الأرض اليوم وهو « الفيل » . ويليه الكركدن « وحيد القرن » . وكل حيوانات الجرى والجر وحمل الأثقال ، والأعمال الشاقة « الخيل والحمير والبغال والبقر والجاموس » فكل هذه حيوانات لاتأكل سوى الأعشاب فباطل مايقال إن الحيوانات العملاقة التى عاشت على الأرض منذ ملايين السنين لم تقو على الاستمرار فى معركة الحياة التى تقوم على « تنازع البقاء » .

وربما يكون أصح من ذلك إن يقال أن هذه الحيوانات قد تدهورت ، وإذا كانت الحيوانات اليوم يتناقص عددها فذلك لأن الإنسان يقتلها أويذبحها ليأكل لحمها حيث تنهش لحمه هو ميكروبات لاتكاد ترى .

ومع ذلك قال « داروين » وصدقه العلم الأوروبى الحديث ، هذا القول الفارغ من أن كل شىء يتطور من الأدنى إلى الأعلى أما نحن فنقول بقول القرآن ، من أن الإنسان ولد كاملا (وعلم آدم الأسماء كلها) ومن الذروة السابقة يهبط الإنسان حينا ويرتفع حينا ، ويعود دائما سواء فى ارتفاعه أوانخفاضه إلى نقطة البداية أى أنه يدور ودليلنا العقلى على أن الإنسان بدأ كاملا فى قواه الجسدية ، والفكرية ، إذ لولا هذا لما استطاع أن يكتشف مااكتشف وأن يخترع على مر العصور ، فاختراع اللغة للتخاطب وبعد ذلك للكتابة واكتشاف النار . والزراعة وغير ذلك ، كل هذا يحتاج إلى قدرة فكرية عالية جدًّا وقد اعتاد البشر على مر التاريخ . أن يجعلوا عصورهم

الذهبية فى ماضيهم ، وأن يجعلوا قصارى جهدهم ، أن يجعلوا حاضرهم فى مستوى ماضيهم .

ولقد تعلمنا فى المدارس كيف كانت إسبانيا والبرتغال وكيف أصبحتا ، وكانوا يعلموننا عظمة تركيا وماانتهت إليه ، كل ذلك ليصلوا إلى القول بأن الإمبراطورية البريطانية هى ذروة ماانتهى إليه البشر من حضارة ولاشك أن إنجلترا اليوم تعتبر القرن التاسع عشر هو عصرها الذهبى .

والخلاصة أنه مامن مجتمع من المجتمعات ألاويرى أن ماضيه كان أسعد من حاضره وأصلح وأكمل ، وهو مايقضى على فكرة التطور من الأدنى للأعلى ، ونزداد إيمانا بقرآننا الذى يعلمنا أن الإنسان ولد كاملا وعلى ضوء ذلك نستعرض حضارات الدنيا .

٣
الشرق الأوسط والأقصى شهدا ازدهار الحضارة لأول مرة

أين نشأت الحضارة ؟

أين نشأت الحضارة الإنسانية حديث يطول وقد اختلفت الآراء حسب الميول والأهواء ولكنها فى نهاية الأمر تجمع على أنها نشأت فى الشرق وحول أحواض الأنهار فيه بالذات . وقال قائلون إنها نشأت فى الهند أوالصين ، ورأى أخر أكثر وزنا على أنها نشأت فى مصر والعراق .

ونحن هنا لايعنينا الفصل فى هذه القضية ولنا حقيقتان لاخلاف عليهما :

الأولى :

هو ماقلناه آنفا من الإجماع على أن الحضارة نشأت فى الشرق .

الثانية :

إن أقدم أثر وأعظمه فى نفس الوقت وهو « الأهرام » قائم على أرض مصر ، وإذا كان معجزة البناء فى كل العصور ، يجعل المؤرخون الثقات تاريخ إنشائه إلى مايقرب من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، فباستطاعتنا أن نتصور أنه سبق إنشاؤه بهذه الطريقة المعجزة عدة ألوف أخرى من السنين .

بابل وآشور وفينيقيا :

وثمة مراكز أخرى حضارية قامت فى بابل وآشور وفينيقيا ، ومرة أخرى يرى المؤرخون أن فينيقيا (لبنان) هى ناقلة

الحضارة إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ومرة أخرى نرى حقيقة لاخلاف عليها ، وهى أن الحضارة بالفعل وجدت فى العصر التالى للعصر السابق عند الإغريق والرومان وقرطاجنة وكلها تقع على البحر الأبيض المتوسط وإلى الشرق أقرب ، وجاء الوقت الذى أغارت فيه القبائل الأوربية التى كانت لاتزال فى حالة البداوة ، ولانقول الهمجية والبربرية ، كما يسميها الأوربيون ، أغارت هذه القبائل على روما ، فوضعت حدًّا للحضارة الرومانية ولكنها سرعان مااعتنقت المسيحية التى هى بدورها حضارة شرقية ، ولكن دولة الرومان التى كانت قد أنتقلت إلى الشرق وأصبحت هى زعيمة العالم المسيحى منذ أنشأ قسطنطين مدينة « القسطنطينية » (استنبول – فى الوقت الحاضر) وأصبحت دولة الرومان تسمى « بيزنطة » ولقربها من الشرق (مصر وسوريا ولبنان وفلسطين) أصبحت ذروة حضارية ، وراحت تتقاسم معالمها مع الحضارة الفارسية .

ثم جاء الإسلام

وجاء الإسلام وسرعان ماأظل عالم ذلك الزمان (أوربا وأفريقيا وآسيا والبحار السبعة) مايسمى بـ « الحضارة الإسلامية » والتى سادت من القرن الثامن الميلادى حتى الثالث عشر أوالرابع عشر ، ونعنى بالسيادة ، أنه انتهى إليها العلم والقوة والازدهار بحيث أصبح كل راغب فى التطلع نحو حياة أحسن ، لاسبيل أمامه إلا اتباع أساليب الحضارة الإسلامية اعتنق الإسلام أولم يعتنق وفى هذه الفترة (٥٠٠ – ٦٠٠ سنة على الأقل) أصبح البحر الأبيض بحيرة إسلامية فقد كانت كل جزره وشواطئه ، تقريبا ، قد أصبحت إسلامية ، أوتعمل حساب القوة الإسلامية .

٤
الحالة فى أوربا

انتهينا إلى أن نور الحضارة قد بزغ من الشرق وأن أوربا إذا كانت قد عرفت الحضارة فى دور تال (ألف سنة قبل الميلاد فقط) فقد كان ذلك قاصرا على اليونان وإيطاليا ثم بيزنطة وهى أجزاء أقرب إلى الشرق ماديا وروحيا من أوربا ، أما أوربا نفسها ، فيطلق مفكروها ومؤرخوها على تاريخها فى العصور الوسطى بالعصور المظلمة ، وقد قدمنا أن أوربا قد خرجت من الظلمات تحت وهج الحضارة الإسلامية ولكنا قبل أن نذكر كيف حدث هذا نرى

أولا أن نشير لبعض المظاهر التى جعلت المفكرين والمؤرخين ، يصفون أوربا بأنها كانت تعيش فى عصور الظلام ولايتصورون متصور أننا سنلقى الكلام على عواهنه ، وأننا سنقول كلاما عاما لنصف به حياة دامت خمسة أوستة قرون على الأقل قبل أن يعكس الإسلام والحضارة الإسلامية عليها أثرها وإنما سنقف أمام وقائع محددة متفق عليها ، وهى يمكن أن تصور حالة أوربا فى هذه الفترة فأعظم ملوك أوروبا فى هذه الفترة وهو « شارلمان » الذى كان معاصرا لهارون الرشيد كان يجهل القراءة والكتابة ، وكان يوقع على رسائله وأوامره بأن يرسم علامة الصليب ، ويحدثنا مؤرخ أوربى معاصر أنه عندما أرسل له هارون الرشيد ساعة تعمل بقوة الماء وصفها من حول شارلمان بأنها لابد أنها من عمل الجن .

مركز المرأة

وكانت بعض المؤتمرات تبحث إذا كان للمرأة روح كالرجل ، وهل هى أهل للقيام بالواجبات الدينية وكانت تحرم من دخول الكنائس ، وهى فى كل الأحوال « أحبولة الشيطان » وكان هناك مايسمى « نطاق العفة » وهو حزام وله قفل مصنوع بطريقة مخصوصة يلبسه الزوج لزوجته أثناء سفره أوغيابه ، ليحول بطريقة مادية دون خيانته ، وستجد فى بعض المتاحف نموذجا من نطاق العفة .

صكوك الغفران

ومن الأمور التى اشتهرت مايعرف فى التاريخ باسم « صكوك الغفران » وهى بطاقات لدخول الجنة يصدرها البابا للحصول على المال ، وماعلى مشتريها إلا أن يضع اسمه فى الفراغ المخصص لذلك كى يضمن دخول الجنة .

فرض الحرمان من دخول ملكوت السماء

وكان البابا يفرض حرمانا على شعوب بأكملها ، فيتوقف رجال الكنيسة ، عن تعميد الأطفال ليكونوا مسيحيين ، وعن تزويج العرائس ، وعن الصلاة على روح من يموت ، وكان ذلك يعنى أن هذا الشعب بأطفاله ورجاله ونسائه ، أصبح مآله الجحيم وقد استطاع البابوات ، ومن خلال التلويح باستعمال هذه السلطة أن يذلوا الملوك والأباطرة ولسنا نكتب تاريخا ، وإنما هى مجرد إشارات ، وفى هذا الباب ماأشتهر فى التاريخ باسم « إذلال كانوسا » .

محاكم التفتيش

ومن سمات أوروبا فى هذه الفترة ماأطلق عليه اسم محاكم التفتيش ، وهى تغنى عن كل شرح ، والتعذيب البشع . كان وسيوجد فى كل زمان ، ولكنه فى محاكم التفتيش كان يمارس بصفة عامة باسم المسيحية والرغبة فى تطهير نفس من يعذبونه ويقطعون أوصاله ويشعلون فيه النار . وحسبنا فقط أن نذكر واقعتين مشهورتين ، ومتفق عليهما باعتبارهما نماذج من نشاط محاكم التفتيش .

أما الأولى فهى حرق « جان دارك » التى حررت فرنسا من حكم الإنجليز ، فقد قبض عليها الإنجليز وجعلوا محكمة التفتيش تحاكمها وتحكم عليها بالحرق باعتبارها ساحرة .

أما الواقعة الثانية فتتلخص فيما وقع فى إسبانيا ، فحيث حكم المسلمون فى إسبانيا بضعة قرون وصلت فيها الحضارة الإسلامية الذروة ، فلن تجد فى إسبانيا والبرتغال على طولها وعرضها ، عائلة واحدة إسلامية . وذلك بفضل مافعلته محاكم التفتيش .

الحكم الإقطاعى

والكثيرون فى العالم الإسلامى يرددون كلمة الإقطاع والحكم الإقطاعى ، دون أن يدركوا مدلول هذه الكلمة والتى يستحيل أن توجد فى ظل الإسلام . وحقيقتها ، أن الإقطاعى كان يملك الأرض ومن عليها من بشر ومواشى . بحيث يستطيع أن يتصرف فى الجميع تصرف المالك بكل صنوف التصرف من بيع وإيجار وإعارة وتنازل . وكان القن « أى الفلاح التابع للأرض » ، لايستطيع أن يغادرها وإلا كان مرتكبا لجريمة . وكان إذا تزوج فإن الليلة الأولى هى لسيده ، إن شاء .

وأخيرا كانت الإقطاعية تساق أحيانا باعتبارها مهرا وكانت تورث . وقد تألفت دول أوربا الحديثة بهذا الأسلوب أسلوب الميراث والمصاهرة بين الملوك والأمراء .

وأخيرا الحياة العامة :

ولن أتحدث بعد ذلك عن الجهل ، وضروب القسوة ، والقذارة ، وتفشى الأوبئة فلن يصدق القارئ مثلا ، أن ملك فرنسا أغمى عليه فى أحد المرات من الروائح النتنة التى كانت تحيط بقصره ولن يصدقوا أن جثث الخنازير والكلاب الموتى كانت تزحم الشوارع ، وكانوا لايعرفون معنى الاستحمام . ومن هنا فلاداعى لذكر تفاصيل لن تصدق ولنا الإجماع على تسمية هذه الحقبة بـ « عصور الظلام » .

٥
الصورة فى العالم الإسلامى

وهكذا حيث كانت أوربا غارقة فى ظلامها حيث يتقسم الناس إلى سادة يملكون بقية البشر كعبيد ومواشى ، وحيث القسوة والبربرية والجهل والقذارة ، كانت الصورة فى العالم الإسلامى على النقيض من ذلك تماما فأوربا التى تحكم بمئات وألوف من السادة الإقطاعيين ، مابين أمراء ودوقات وكونتات . . إلخ ، كان العالم الإسلامى الذى شمل آسيا الغربية وشمال أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط وإسبانيا يؤلف دولة واحدة تدين بالولاء لإمام المسلمين فى ظل التعاليم الإسلامية التى ستعرفها أوربا بعد ألف سنة من ظهور الإسلام فى الثورة الفرنسية عندما نادت بالحرية والإخاء والمساواة ، وسقوط الإقطاع ، فكل هذه كانت أساس الحياة فى المجتمع الإسلامى فلا أبيض ولاأسود ، ولاأمير وحقير ، وإنما الكل يسجدون لإله واحد ويتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح .

وحيث كان الجهل هو المفخرة فقد كانت مئات الألوف من المساجد تشع العلم ، بل كانت هناك المدارس والمعاهد والجامعات بمعناها الحديث ، كالنظامية فى بغداد والأزهر فى مصر ، والمسجد الجامع فى قرطبة ، وحيث كان شارلمان وخلفاؤه يتبرمون بالعلم ويضطهدون المتعلمين كان المأمون الخليفة العباسى عندما يهزم إمبراطور الروم فى بيزنطة ، يشترط عليه فى معاهدة الصلح تسليم بضع مئات من الكتب .

وحيث كان المرضى يعاملون أحيانا بمنتهى القسوة فى أوروبا باعتبار أرواح شريرة قد تملكتهم ، كان العالم الإسلامى يغص بالمستشفيات العامة التى تعالج بعض الحالات النفسية والعصبية بالموسيقى

وحيث كان الأوربيون لايعرفون سوى الصيد والقنص كمصدر رئيسى للغذاء كان العالم الإسلامى يعيش فى الدرجة الأولى على الزراعة وفنونها .

وحيث القذارة والعفن والنتن ، كانت أشياء عادية فى أوروبا ، كانت المدن الإسلامية غاصة بالحمامات العامة والحدائق الجميلة .

ولسنا بصدد كتابة تاريخ ، ولكنها مجرد إشارات كما قدمنا ، لنعرف منها الطابع العام لأوربا والعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، وسنرى فى الفصل التالى كيف تأثرت أوربا بالعالم الإسلامى فنهضت وتحضرت .

الفصل الثانى

كيف وصلت الحضارة إلى أوربا ؟

١

لسنا فى حاجة إلى إعمال كبير خيال لنتصور مقدار الزلزال الذى أصاب أوربا المسيحية وهى تشهد انتصار الإسلام هذا الانتصار الساحق الذى لم يسبقه مثيل فى كل عصور التاريخ ، ففى أقل من قرن واحد كان الإسلام يقضى نهائيا على أعظم إمبراطورية وثنية عرفها الشرق ، وهى فارس ، وكان يدحر قلعة المسيحية فى أوربا وهى بيزنطة برا وبحرا ويحاصر عاصمتها ، ويتصور كثيرون فى أيامنا الحاضرة ، أن الأخبار لم تكن تعرف وهو وهم مفرط فى السذاجة ، فلم يكن يخفى على من يتتبع الأخبار شىء منها ، وكان الفارق بين الأمس واليوم ، هو فى التوقيت الزمنى ، فنحن اليوم نعلم الخبر ساعة وقوعه عن طريق الراديو ، وأصبحنا (بعد الأقمار الصناعية) نراه ساعة وقوعه ، وعندما لم يكن هناك راديو أوتليفزيون ، فقد كنا نسمع كل مايقع فى العالم بعد يوم أويومين ، وهذا ماكان يحدث دائما ، حيث تعرف الأخبار حتما وبالتوالى وبترتيب وقوعها وإن كان ذلك يحدث بعد فترة تقدر بزمن المواصلات اللازمة ، وعلينا أن نتصور أى فزع يصيب الأوروبيين ، وهم يرون موجة الإسلام تغمر كل شواطئ البحر الأبيض الجنوبية ثم تنتقل عبر مضيق هرقل (جبل طارق) لتعبر إلى إسبانيا ، فإذا استحضرنا فى أذهاننا أن سكان أوربا فى ذلك الوقت كانوا مسيحيين مؤمنين بمسيحيتهم إلى أبعد حدود الإيمان ، فقد أحدث انتصار الإسلام وانتشاره رد فعل مباشر فى شرق أوربا وغربها على السواء وهما اللذان باتا فى ظل الخطر الإسلامى كما تصوروه فى ذلك الوقت .

اصلاح دينى فى بيزنطة

فأما فى دولة الروم الشرقية بيزنطة حيث لم تكن تنقصها المدنية والحضارة ، فقد تأثرت بطهارة المسلمين الناصعة من الوثنية وكل مظاهرها وأشكالها فسرت فى بيزنطة روح من الإصلاح الدينى ، أخذ صورة تحطيم التماثيل فى الكنائس باعتبارها ضربا من ضروب الوثنية وقد ظلت الدعوة إلى إصلاح الكنيسة تنمو وتتصاعد حتى انتهت إلى البروتستانتية كما سوف نرى ، وقد كانت

حركة الإصلاح الأولى التى بدأت فى بيزنطة تسمى الحركة اللاأيقونية .

وماذا حدث فى الغرب

وحيث كان هذا يحدث فى الشرق ، فقد حدث فى الغرب (فرنسا وإيطاليا) تفكير من نوع جديد ، وهو وجوب المقاومة وعدم الاستسلام ووجوب التعاون والتضامن لدفع ماتصوره خطرا مشتركا ، فعندما زحف جيش إسلامى من إسبانيا ليفتح فرنسا ، تنادى كل فرسان أوربا لإيقاف هذا الزحف ، وفى معركة « بواتييه » الحاسمة فى جنوب غرب فرنسا أمكن الصمود لأول مرة فى وجه جيش إسلامى ، ويقول مؤرخو أوربا فى ذلك الزمان (القرن الثامن الميلادى) إن انتصار الفرنجة على المسلمين فى هذه المعركة أنقذ أوربا من الإسلام . أما مفكرو ومؤرخو أوروبا فى القرن التاسع عشر (المنصفون منهم) فقد قالوا إن هزيمة العرب (أى المسلمين) فى هذه الموقعة قد أخر وصول الحضارة إلى أوربا خمسمائة سنة . فظلت تعيش فيما وصفناه ، فيما سبق ، خمسمائة سنة .

والذى يهمنا أن الإسلام قد هز أوربا شرقا وغربا ، بكل قوة وعنف ، وظلت فى رعب وقلق أن يدهمها المسلمون ، فشحذ ذلك من قواها ، وعاون على تجميع صفوفها وتكتلها وحمل الأوربيين بالأكثر على أن يدرسوا سر تفوق المسلمين ، ولم يكن ذلك بعيدا عن متناول أيديهم ، فقد خرجت إسبانيا حيث كان الحكم الإسلامى من ظلمات العصور الوسطى الأوربية وراحت تشع بالنور فيما حولها .

٢
إسبانيا أو الأندلس

حديث الإسلام والعرب فى إسبانيا حديث طويل وعريض ، وقد حل الإسلام إسبانيا بكل ثقله وجلاله فى موجة الفتوح الاسلامية فى القرن الأول للإسلام ولم تكن هناك قوة فى العالم تستطيع أن توقفها لأنها كانت قوة تسير بجناحين « العدل والرحمة » وفى دنيا كان يسودها الظلم والقسوة ، وقفت الشعوب كلها إلى جانب العدل والرحمة ، فكان هذا النصر الذى لم يعرف له التاريخ مثيلاً من قبل أومن بعد .

وباستقرار المسلمين فى إسبانيا ، كانت هذه الحضارة العجيبة ، التى استمرت مئات السنين حيث كان الجهل والقسوة والوحشية والقذارة والتعصب هو أخص

خصائص الحياة فى بقية أوربا ، وكان من غير الطبيعى أن يستمر ذلك طويلاً فقد بدأ الأوربيون ويسميهم العرب والمسلمون « الفرنجة » بدأوا يتعلمون اللغة العربية لينقلوا علم المسلمين ، فتأسست فى مدينة « طليطلة » بالأندلس أعظم دار للترجمة من اللغة العربية إلى اللاتينية ، وعن هذا الطريق ، انتقلت العلوم والمعارف الحضارية من إغريقية ورومانية ومصرية وهندية وصينية وعربية . وقد كان المجتمع الإسلامى قد استقطب كل هذه المعارف على هدى القرآن ، الذى أسبغ على ذلك كله روحاً جديدة ، وسرى ذلك كله إلى فرنسا وإنجلترا بخاصة وإلى بقية أوربا المسيحية بعامة ، ومن هنا كانت إنجلترا وفرنسا فى مقدمة الدول الأوربية التى بدأت النهضة .

٣

الحروب الصليبية

رأينا كيف حاصر الإسلام أوربا المسيحية من الشرق بتقليصه سلطان بيزنطة ، وحاصرها من الجنوب بالسيطرة على البحر الأبيض المتوسط وحاصرها من الغرب باستقراره فى إسبانيا والبرتغال .

ودام الحال على ذلك قرنين أوثلاثة ، ولاحاجة لنا لبذل جهد كبيرأن الحضارة الإسلامية التى حاصرت أوربا راحت تضغط على قلب أوربا ، فانفجرت بالحقد والتعصب ضد الإسلام والعالم الإسلامى ، فكانت الحروب الصليبية التى اندلعت بكل قوة وعنف فى القرن الحادى عشر الميلادى ، حيث توافدت الجيوش الصليبية من إنجلترا وفرنسا وألمانيا محملة على سفن إيطاليا ، فاستطاعت أن تستولى على القدس وأجزاء من فلسطين وسوريا وأن تؤسس بها دويلات أوربية بالنظام والعقلية والأساليب الأوربية ، وقد استمرت الحروب الصليبية قرابة ثلاثة قرون ، تقابل فيها التعصب الأوربى بالسماحة الإسلامية ، والوحشية الأوربية بالرحمة الإسلامية والبداوة الأوربية بالحضارة الإسلامية ، وحسب أى قارئ أن يعود لكتب التاريخ ليقارن بين الفظائع البربرية التى ارتكبها الصليبيون عندما استولوا على بيت المقدس حيث كانت خيولهم تسبح فى دماء من ذبحوا من المسلمين ، وكيف بنوا هرماً من جماجم القتلى ، وما فعله صلاح الدين عندما استرد القدس من الصليبيين ، لقد ذهلت أوربا من التصرف الإنسانى والحضارى لصلاح الدين وجيوش

المسلمين ، ولم يعودوا يسمعون لصيحات الكنيسة الكاذبة ضد المسلمين من أنهم متوحشون وهمج ، بل أدركوا أنهم هم المتوحشون والهمج ، وراحوا ينقلون عن المسلمين ويقلدون ، بدأوا يتعلمون وينشئون المدن ، ويؤلفان الدول ، ويعتمدون على الزراعة ، ويستعملون الصابون للنظافة والورق للكتابة ، وبدأوا فى الدرجة الأولى يعتمدون على الطب العربى والحساب العربى والبيان العربى ، وقد لايعرف الكثيرون أن الأرقام الأوربية (١ ، ٢ ، ٣ ، إلى آخره) هى الأرقام العربية .

ولاينكر أى مؤرخ أوربى كائنا من كان أثر الحروب الصليبية فى نهضة أوربا والحقيقة التى يترددون فى الاعتراف بها ، هى أن حركة الإصلاح الدينى الكبرى (البروتستانتية) هى ثمرة الحضارة الإسلامية ومالنطوت عليه من تعاليم دينية ، وهو ماسوف نشير إليه فى الفقرة التالية .

٤
تعاليم البروتستانتية ومبادئ الإسلام

لايستطيع المنطق العلمى الصارم أن يفر من الإقرار بما تحتمه البديهة والاستنتاج المنطقى .

١ - فعندما يسجل التاريخ علاقة خاصة بين فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى .

٢ - وتستمد هذه العلاقة الخاصة أصولها من كون فردريك الثانى كان يحكم جزيرة صقلية وهى التى ظلت لعدة قرون مركزاً للحضارة الإسلامية من الدرجة الأولى ، تزخر بالعلماء من أمثال « الإدريسى » وبالشعراء من أمثال « ابن حمد يس » ، وظل البلاط سواء فى صقلية أو فى ألمانيا نفسها يغص بالعلم الإسلامى ، حتى أن فردريك نفسه كان يجيد اللغة العربية ويكتب كتابة بليغة .

٣ - وإذا علمنا أن بابا روما دخل فى خصومة عنيفة ضد فردريك الثانى لتصالحه وتحالفه مع المسلمين ، إلى الحد الذى جعل البابا يفرض على فردريك الحرمان .

٤ - فإذا ماانبثقت البروتستانتية (ومعناها الاحتجاج ضد البابا) من ألمانيا بالذات ، دون أى بقعة أخرى من أوربا ، ووجدنا البروتستانتية تقوم على مبادئ إسلامية لاعهد للمسيحية بها من قبل .

٥ - فيكون الاستنتاج العلمى الذى لامناص منه ، من قبيل ١+١ = ٢ ، أن

البروتستانتية هى المبادئ الإسلامية فى الديانة المسيحية .

* * *

فما هى هذه المبادئ الإسلامية التى نادت بها حركة الإصلاح الدينى فى أوربا والتى يجمعون على أنها بدء النهضة الأوربية .

١ – البابا غير معصوم من الخطأ .

٢ – لاوساطة لإنسان بين الله وخالقه ، فلا يملك البابا حرمان أحد من دخول الجنة كما لايملك إدخال أحد إلى النار .

٣ – يجب أن تتطهر دورة العبادة (الكنائس) من التماثيل والأنصاب .

٤ – مطالعة الكتاب المقدس حق لكل إنسان مسيحى وليست وقفاً على رجال الكنيسة .

٥ – القساوسة والأساقفة وسائر رجال الدين هم بشر كسائر البشر ، فمن حقهم أن يتزوجوا وأن تكون لهم أسر وعائلات .

٦ – وليس فى نيتنا بطبيعة الحال أن ندرس البروتستانتية ، وفى هذا الذى ذكرناه مايكفى لإظهار أن ماسموه إصلاحاً دينياً كان هو بعض المسلمات التى كانت تمارس فى المجتمع الإسلامى بيسر وسهولة .

٥

رد الفعل
فى إسبانيا وإيطاليا والبرتغال

وإذا كان التأثر العميق بالحضارة الإسلامية ، قد أخذ فى وسط أوربا ، صورة الإصلاح الدينى للحاق بركب الحضارة ، فقد كانت الحضارة الإسلامية ، موجودة بالفعل فى إسبانيا والبرتغال وأجزاء من إيطاليا ، فإن ملوكها المسيحيين ، بعد أن استطاعوا أن يستولوا على السلطة من المسلمين ، رأوا أن يستخدموا ماتحت أيديهم من حضارة فى تحدى المسلمين ، فبدأت المحاولات للسيطرة على البحار الخارجة والبعيدة عن نفوذ المسلمين فكان هذا التفكير للوصول إلى الشرق عن طريق الغرب ، ولم يكن بمحض الصدفة أن وجد كوليس الإيطالى من يقتنع بكروية الأرض وإمكان الوصول إلى الهند عن طريق السير غرباً فى البلاط الإسبانى ، فقد كانت كروية الأرض بعض تعاليم ابن رشد فى الأندلس ولم يكن بمحض الصدفة ، إن نشطت حركة الملاحة والكشوف البحرية فى إسبانيا والبرتغال ، فقد كان العرب والمسلمون هم سادة

البحار ، وكانوا هم الملاحين والنوتية وكل المصطلحات البحرية ، ابتداء من أصغر شيء وهو « الحبل » حتى « أمير البحر » و« دار الصناعة » لاتزال هذه الألفاظ العربية ، فى كل اللغات الأوربية شاهدة ، على أن نهضة اوربا البحرية ، هى مانقلوه عن العرب والمسلمين ، ومن الحقائق التاريخية الثابتة ، ان فاسكو دى جاما البرتغالى ماكان يصل إلى الهند لولا أحمد بن ماجد الذى أوصله إلى الهند .

وهكذا نرى أن مقدمات مايسمونه النهضة الأوربية بشقيها ، إصلاح دينى فى الشرق ونشاط بحرى فى الغرب ، ليس إلا الأثر المباشر للحضارة الإسلامية التى سادت فى العصور الوسطى .

الفصل الثالث

١

بدء نقل الحضارة

وبدأت إيطاليا وفرنسا بعد ألمانيا فى نقل الحضارة الإسلامية ، لتدرك أوربا العالم الإسلامى ولما كانت أوربا دولة وثنية ، قطعت فى وثنيتها شوطا بعيدا جدا ، سواء فى عهد الإغريق أو الرومان ، فقد بدأت حركتها فى عالم الفن (النحت والتصوير) بالشيء الوحيد الذى خلت منه الحضارة الإسلامية لتشددها الصارم فى محاربة الوثنية ، ورأى الأوربيون فى هذين الفنين (النحت والتصوير) مايميز الشخصية الأوربية عن الشخصية الإسلامية فساروا فى هذا الطريق حتى نهايته وظهرت الأسماء اللامعة فى هذين الفنين (النحت والتصوير) من أمثال ليوناردى فنشى ، وميكائيل انجل ، وقد حرصنا ونحن نتحدث عن نقل أوربا للحضارة الإسلامية ، أن نشير إلى هذه الناحية من النشاط العمرانى ، باعتباره الشيء الوحيد الذى لم تنقله أوربا عن العالم الإسلامى فقد كانت بقايا الآثار الإغريقية من تماثيل وصور ، تملأ أوربا من أقصاها إلى أدناها ، وفيما عدا ذلك ، فقد بدأت أوربا تنقل كل شيء عن المجتمع الإسلامى الذى كان متقدماً فى كل شيء ، فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن والعلم والعمل والسلوك ولاتزال اللغات الأوربية ، تحمل أثر هذا النقل المباشر ، فترى الكلمة العربية مستعملة بنصها ونطقها أحيانا ، وتارة تراها معدلة بعض الشيء لتوافق النطق الأوربى كأن يسمى القماش الموصلى ، موسولين ، أما مانراه بنصه ونطقه فنى مثل كلمة « السكر » والأرز .

ونقلت علوم الهندسة والزراعة وتخطيط المدن ومختلف الصناعات ، وهو ماتراه واضحاً فى مبانى العصور الوسطى ، مما يسمونه الطراز الغوطى « جوتيك » فلأول مرة ترى « القبو » وما يشبه القباب ، ولم تلبث القباب ، أن ظهرت بكل أبهتها فى كنيسة « سانت بطرس » فى روما . وهو شيء لم يعرف إلا فى ظل الحضارة الإسلامية أما فى سائر العلوم فقد ظلت جامعات أوربا التى بدأت تتكون . تعتمد اعتماد مباشر على كتب العلماء ، فى الطب والرياضة والفلك ، والكيمياء التى لاتزال تحمل أسماءها العربية من مثل الجبر ، واللوغاريتمات (نسبة إلى الخوارزمى) أما الرازى وابن سينا فقد كانا هما العمدة فى الطب ، حتى نهاية القرن السابع عشر .

ولما كان الأدب هو ذروة التطور الحضارى وهو الثمرة الناضجة للثقافة . فسنرى قمة الإنتاج الأدبى والأوربى . يكرر أشهر الكتب العربية والإسلامية . فنرى قصص « لافونتين » فى فرنسا . تقوم على فكرة كتاب . «كليلة ودمنة» . حيث يجرى الكتاب على ألسنة الحيوانات وبخاصة « الثعلب » هذا فى فرنسا . ونرى دانتى فى إيطاليا يؤلف « الكوميديا الإلهية » على غرار رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى وفى كل الأحوال فهى مستوحاة ، من حادث الإسراء والمعراج ، وفى ألمانيا ترى« جوته » الشاعر متأثراً كل التأثر فى كل مايكتب بالتعاليم الإسلامية ، ونرى فى إنجلترا كتب الف ليلة وليلة وقد ترجمت ، وقصص « ولترسكوت » تدور حول الحروب الصليبية وعظمة الشرق الإسلامى وحضارته ، وفروسية فرسانه .

٢

وبدأت أوربا من حيث وقف العالم الإسلامى

ليس من مهمتنا فى هذا البحث إن نتعقب الأسباب التى أدت بالمجتمع الإسلامى إلى الجمود . فالتخلف (إلا فى الناحية العسكرية التى رفعت تركيا لواءها لعدة قرون) والذى يهمنا إن أوربا قد بدأت نهضتها من منطلق التحدى للعالم الإسلامى فابتدأت من حيث انتهى معتمدة على كل مقومات العالم الإسلامى الذى وصلت به إلى ماوصل .

وإذا كان من المستطاع دائماً ، معرفة الأسس التى شاد عليها المجتمع الإسلامى حضارته . فإنه يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ – إيمان شديد بالله واليوم الآخر .

٢ – مدارسة العلم بلا نهاية والعمل الدءوب فى شتى مناحى الحياة .

٣ – التحلى بالفضيلة والأخلاق الحميدة فى السلوك والمعاملة مع الآخرين .

٤ – إرادة القتال للدفاع عما يعتبره الإنسان حقًّا للدفاع عن البشر .

٥ – النظافة والنظام فى كل شئون الحياة ماصغر منها وما كبر .

هذه هى المبادئ الأساسية للمجتمع الإسلامى التى اعتنقتها أوربا ، وتهاون فيها المسلمون ونحن ممن يؤمن بالدورة فى كل شىء ، أى الشيخوخة والذبول والتلاشى ، لتبدأ دورة جديدة من النمو والازدهار . . . إلخ .

وشرعت أوربا ، تبنى وتضيف على مانقلت من علوم المسلمين ومعارفهم وسلوكهم فأصبحت مدنهم عنوان النظافة ، وأصبح النظام فى كل شىء طابع حياتهم ، وأصبح شعارهم فى دنيا العلم ماأمر به القرآن الكريم :

(وقل رب زدنى علما) وساروا فى الأرض وجابوا البحار ، وصنعوا وأبدعوا ، وهى كلها تعاليم إسلامية ، وبلغ من نشاطهم فى البحار إن وفقوا لاكتشاف أمريكا ، وطافوا حول أفريقيا وحول العالم ، وبلغ من غرورهم أن قسموا العالم إلى قسمين ، إحدهما من سلطان إسبانيا ، والثانى من سلطان البرتغال وكان الدرس الوحيد الذى وعوه عقب الحروب الصليبية ألا يتعرضوا للعالم الإسلامى ، خاصة وأن تركيا (دولة آل عثمان) كانت مرهوبة الجانب فى الشرق .

٣

ماذا فعل اليهود بأوربا ؟

مابقى الأوربيون ملتزمين ، بما نقلوه من التعاليم الإسلامية الحضارية ، فى الآداب والسلوك ، والمعاملات ، فقد نجحت أوربا وتطورت نحو الأحسن والأصلح ، وانتقلت بالعلم الذى تلقته عن المسلمين ، إضافات جديدة ، وتحققت اكتشافات وثبتت نظريات ، وهنا طرأ على أوربا ، الإحساس بالغرور والإفراط فى الثقة بالنفس ، وسرعان ما أستغل اليهود هذه الظاهرة لتثبيت نفوذهم ومد سلطانهم وتحقيق أوهامهم فى تدمير الحضارة الإنسانية ، ليخلو لهم الجو فى السيادة على البشر كما يتوهمون ، فبدءوا يصورون للأوربيين انهم وحدهم الناس ، وان كل ماسبق من تاريخ الإنسانية ، كان تمهيدا لهم ، فأما وقد وجدوا فيجب إغفال كل شىء عن

الماضى ، وإسقاطه من الحساب ، وخاصة إذا كان مصدره الشرق ، ولما كان الدين ، هو أعظم ما انبثق من الشرق ، فليكن الدين ، أول ماتضرب به أوربا عرض الحائط ، فانطلقت الصيحات تدعو إلى فصل الدين عن الدولة ، وساعد فساد الكنيسة الأوربية وانحرافها ، ووقوفها فى وجه العلم ، مما أشرنا إلى بعضه فيما سبق ، أقول ساعد ذلك ، على إخراج الدين من تيسير شئون الدولة والمجتمع ، وبدأ الاقتصاد اليهودى القائم على الربا واعتبار المال هو أعظم قيمة فى الوجود ، وبدأ فساد مايسمى بالثورة الصناعية ، حيث أصبحت القيمة الكبرى والأساسية ، هى أن يجمع المال عن أى طريق ولو بسحق النفس البشرية على صورة نساء وأطفال ، وظهرت معادلات عجيبة كشفت عن الوحشية المستترة للأوربيين من مثل القول : إن العمال فى سوق العمل شأنهم شأن أى سلعة ، فكلما وجد عمال ، حتى لو كانوا أطفالاً ونساء فإن أجورهم يجب أن تتناقص حتى تصل إلى درجة الكفاف وتظل الأجور تنقص حتى لاتعود تكفى لإبقاء العمال على قيد الحياة فيتناقص عددهم فترتفع أجورهم ، وهكذا دواليك .

الدارونية :

ووجدت النظرية التى تلغى الأديان جملة ، فالكائنات التى لم تخلق على سبيل الاستقلال ، والإنسان لايعدو أن يكون سليلاً للقرد وإذا كان الإنسان الأبيض قد بلغ ذروة التطور ، فإن الإنسان الزنجى ، لم يتطور بعد ، وعلى غرار الزنجى ، الشعوب الأخرى من صفراء وحمراء ، وقد دخل ذلك دائرة التطبيق فى أمريكا التى كانت قد اكتشفت ، وأصبحت مهمة الرجل الأبيض أن يبيد الهنود الحمر ، وأن يستجلب الزنوج ليكونوا عبيده ، وتفتحت شهية الأوربيين وبدءوا عهد الاستعمار حيث خضعوا كل شعوب العالم لسلطانهم واستغلالهم وعلى عكس الحضارة الإسلامية ، حيث ارتقت بالشعوب أينما حلت ، فلم تفهم أوربا من الاستعمار إلا أنه استغلال للشعوب والحيلولة دون تقدمها ، وليس ذلك إلا نتيجة للتعاليم الفاسدة ، من أن الأوربيين هم الناس ومن عداهم ليسوا ناساً

والفرويدية :

وكان من إفرازات الفكر الأوربى وسيطرت الأفكار اليهودية عليه مانادى به

فرويد ، وأصبح أساساً لكل الفكر الأوربى من تخريب لما كان يطلق عليه فضائل وآداب عامة ، وأصبح الجنس هو الذى يشكل كل شىء فى هذه الدنيا بالنسبة للإنسان منذ ولادته ، عندما يلتقم ثدى أمه فليس ذلك إلا جنساً ، وبعد ذلك على مدى رحلة الحياة ، ليس هناك سوى الجنس بالليل والنهار ، هو محرك نشاط الإنسان ، وأصبح الحديث عما سمى العقل الباطن ، وكبت الغرائز الجنسية ، هو أساس الأمراض والاحلام وما سموه « العقد النفسية » .

الماركسية :

وإذا كانت الفرويدية قد تصدت لتدمير القيم الروحية والأدبية ، بطريق غير مباشر ، فقد كان يهودى آخر « كارل ماركس » قد سبقه إلى ذلك بطريق مباشر ، فالاقتصاد المادى (ملكية وسائل الإنتاج) هى محور النشاط الإنسانى ، وكل مايقال بخلاف ذلك من أفكار عن وجود إله ، وجانب روحى أو معنوى فى هذا الكون هو محض هراء وبقايا خرافات قديمة ، وأصبح مايسمى بالآداب العامة والأخلاق والفضيلة والأسرة والرحمة والإحسان ، كل هذا ليس إلا لوناً من الوان الهذيان ، فرضته قلة حاكمة على الشعوب ودعى العمال فى جميع أنحاء العالم لاعتبار أنفسهم هم وحدهم الجديرون بالحياة وعليهم عن طريق الثورة ، أن يستولوا على الحكم وأن يقضوا من خلال حكم ديكتاتورى على بقية الطبقات الأخرى ، ولقد شهدت روسيا تطبيقاً لهذه الدعوة ، فقتل فيها عشرون مليوناً للوصول إلى هذه الغاية ، فلم يتحقق سوى مزيد من البؤس والشقاء .

٤
الحرب العالمية الأولى والثانية

مابقيت أوربا تطبق مبادئ إسلامية ، فقد خرجت من ظلمات العصور الوسطى وحققت ماحققت ، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حتى إذا ماتصورت أنها أصبحت كل شىء ولاحضارة إلا حضارتها ، ولافكر إلا فكرها ، وأنه لاتوجد قوة على ظهر الأرض تعترض مشيئتها ، بدأت تحصد ثمار مازرعت فكانت الحرب العالمية الأولى والتى إن دلت على شىء فعلى مدى الوحشية والبربرية التى هى جوهر الشعوب الأوربية ، وأنه عندما زال المجتمع الإسلامى كقوة يعمل

حسابها ، فقد انكفأت أوربا على نفسها بقتل شعوبها بعضهم البعض بصورة لم تعرفها البشرية من قبل ، وانتهت الحرب العالمية الأولى ليبدأ التحضير لجولة ثانية ، وسرعان ما إندلعت الحرب العالمية الثانية ، أشد هولاً من الأولى وأوسع رقعة ، وإذا كان قد قتل فى الحرب الأولى بضعة عشر مليونا وجرح وشوه ضعفان أو ثلاثة أضعاف هذا العدد ، أما فى الحرب الثانية ، فقد اعتبر ذلك أمراً مألوفاً ، بحيث أصبح إبادة مدينة بأسرها برجالها ونسائها وشيوخها وأطفالها ، مجرد خبر عادى لاغرابة فيه فهو من إجراءات الحرب العادية .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ، كان آخر مقومات الحضارة الإنسانية ، ينهار فى أوربا من مشرقها لمغربها ، فنرى إنجلترا المحافظة يتناقش مجلس نوابها العريق فى حق الذكور فى الاتصال الجنسى بعضهم ببعض ، وفى فرنسا تقوم كتب الأطفال عن حقهم فى السخرية بمعلمهم ، وفى إيطاليا يصدر قانون يبيح حرية الاتصال الجنسى بين الذكور والإناث وذلك بإباحة الإجهاض واعتباره عملاً مشروعاً لاحرج على الأطباء فى أن يزاولوه بدون قيد أوشرط .

كل هذا فى غرب أوربا ، حيث لايزال التدين قائماً من الناحية النظرية على الأقل ، فلك أن تتصور ماذا يحدث فى شرق أوربا حيث لادين ولاأسرة ، أو قيم خلقية من أى نوع كان ، وحسبنا مؤشراً على ماوصلت إليه روسيا المادية ، أنها أصبحت تستورد غلالها من الدول الرأسمالية ، حيث كانت روسيا أعظم دول العالم فى إنتاج الغلال . أما فى أمريكا فالحياة مخيفة ، يعبد فيها الدولار وتسود الجريمة ، ويعم الجنون والقلق ، وكان آخر مظاهر تدهورها الشائن هو هزيمتها المنكرة ، فى فيتنام .

٥
أمّا فى العالم الشرقى

وحيث كان هذا يجرى فى أوربا وأمريكا كان يسرى بكل تقسيماته البشرية والدينية والجغرافية ، روح من اليقظة فالنهضة بدأت من اليابان ، أما فى الهند والمجتمعات العربية والإسلامية فقد بدأت تقاوم الاستعمار الأوربى متذكرة تقاليدها وقيمها الموروثة التى تؤهلها لدور أكثر حضارة ، وتحررت كل شعوب آسيا ، وسائر الشعوب العربية والإسلامية . وفقدت أوربا البقرة الحلوب التى كانت تدر

عليها اللبن والزبد وأصبح عليها أن تعمل وتكدح لتحصل على مقومات حياتها ، وهو مالم تعتد عليه ثم حدث الأمر الذى لاأتصور إلا أنه أمر إلهى ، وهو تفجر البترول عصب الحياة الحديثة ، فى العالم الإسلامى بعامة ، والعالم العربى بخاصة ، وفى جزيرة العرب بأخص من الخصوص .

وبدأت الثورة تتكدس فى الأيدى العربية والإسلامية .

وكانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ العاشر من رمضان ١٣٩٣ .

حيث هزمت الجيوش المصرية ، الجيش الإسرائيلى وعبرت قناة السويس وأستولت على خط بارليف ، وذلك كله فى ست ساعات ، وكان ذلك يعنى نهاية التفوق الأوربى الحضارى ، ذلك أن إسرائيل اعتبرت نفسها ذروة الحضارة الحديثة ، فلما أن هزمت فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان ذلك بمعنى ، بدء النهاية لهذه الحضارة وحيث بدأ شباب أوربا ، يضيق بالنظافة والعمل والإنتاج والنظام والقانون ويسرف فى تعاطى العقاقير التى تذهب بالعقل ، أصبح شباب العرب يتطلع إلى كل مقومات الحضارة من دين وعلم وعمل ونظام . . إلخ .

٦

التقدم التكنولوجى ليس هو الحضارة

بقى أن نرفع عن أعين شباب المسلمين والعرب بخاصة غشاوة لاتزال قائمة على أعين الأغلبية الساحقة منهم ، وهو أن التفوق التكنولوجى الذى لايزال مستقراً فى أوربا وأمريكا ، هو الحضارة الحديثة التى يتعين عليهم الأخذ بها وترسم خطواتها والذين يزورون أوربا وأمريكا اليوم من شباب المسلمين والعرب يسرهم ويأخذ بلبهم مايرونه من مظاهر النظافة والنظام والنشاط والجمال والأناقة ، وذلك بالمقارنة لماتوجد عليه بلادهم ، غير مدركين ، أن مايعجبهم هو ثمرة الماضى ، حيث كفر الشباب الجديد بكل القيم التى أنتجت كل هذا الذى يعجبهم ، وأنهم فى الحقيقة قد شرعوا يتدهورون فى سائر الاتجاهات وأصبحت عصورهم الذهبية من أحاديث الماضى ، ولحقت إنجلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا ، وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا واليونان ، من حيث كونها بلاد سياحية ، يأتيها السواح ليشهدوا عظمة أيام غابرة ، وليس التقدم التكنولوجى بما يتضمنه من

صنع الأسلحة المتطورة والطائرات النفاثة والصواريخ عابرة القارات ، وسفن الفضاء والصعود إلى القمر ، إلا وليد الدفعة الحضارية التي كانوا قد تلقوها من الشرق والشيء المحقق أن هذه الدفعة قد انتهت ، يدلنا على ذلك بكل بساطة ، أن دول أوربا مجتمعة ومعها أمريكا ، بدأت تئن وتشكو من الإنتاج الياباني ، وثروة اليابان وعمل اليابان ، كل هذا والصين لاتزال فى أول خطوات تحركها ، والعالم العربي والأفريقي فى طريقها للوعي بإمكانياتها ، حيث لاتعيش أوربا فى ازدهار نسبي إلا بمقدار غفلة العرب والأفريقيين عن هذه الإمكانيات .

فلا يتصورن أحد أن التفوق التكنولوجى هو حضارة ، بل هو ثمرة مقومات الحضارة مما أشرنا إليه سابقاً ، فإذا انهارت مقومات الحضارة ، من إيمان بالله وبالعمل والعلم والاستعداد للتضحية بالماديات فى سبيل المعنويات . . إلى آخره . فإن التفوق التكنولوجى لايلبث أن ينهار كذلك ، وينتقل العلم التطبيقى بالتدرج إلى الشرق والغرب والمسلمين ، بل ويتهافت الأوربيون على نقل مصانعهم أو بيعها للشرق ، بعد أن كف عمالهم من الرغبة فى احتمال أى نوع من المشقة ، وأصبح هدف حياتهم ، أن يحصلوا على مزيد من الطعام والرفاهية ، والتبطل .

الفصل الرابع

١

رؤياى الخاصة

والآن وأنا أصل إلى بيت القصيد من هذا العرض التاريخى ، فلا مناص من أن أسجل رؤيتى للمستقبل ، لتكون هذه الرؤية مناراً للشباب ومرشداً ، وإذا كان الغيب ، وما سوف يحدث فى المستقبل هو من أخص خصوصيات الله الخالق المدبر المهيمن العزيز المتعال ، تقرير ماتقضى به سنن الله عز وجل كأن نقول إن الشمس سوف تشرق الغد ، وأن الشتاء سوف يعقب الخريف ، حقاً قد تقع نهاية الحياة فى أى لحظة كما يموت الإنسان فى أى لحظة ، وهذا هو الغيب الذى احتفظ الله بعلمه ، حديثنا عن الليل الذى سوف يعقب النهار ، وعن الشتاء الذى سوف يجىء حتماً مهما اشتدت حرارة الصيف ، أو قولك إن فلاناً سوف يموت حتماً فى يوم من الأيام ، فليس ذلك من الغيب ، وإنما هو إيمان بسنن الله التى لن تتغير أو تتبدل

« إلا أن يشاء هو ومشيئته هذه لايعلمها إلا هو » .

فأنا عندما أرى دورة الحضارة ستعود من جديد للشرق بعامة ، وللأمة العربية بخاصة ، فأنا أتنبأ ، وإنما أتحدث عن سنة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلا غير أن مايجب أن أعترف به ، هو أننى لم أكن أتصور مطلقاً أننى سوف أظل على قيد الحياة حتى أشهد بعينى رأس طلائع ذلك فمنذ صباى المبكر « سنة ثانية ابتدائى بمدرسة محمد على الابتدائية » اشتركت فى تكوين جمعية لنصر الدين الاسلامى ، وفى شبابى المبكر تصديت لمقاومة الإمبراطورية البريطانية (بالرأى والكلمة طبعاً) ومازلت أذكر أننى فى عام ١٩٣٥ وقفت خطيباً بين نفر من طلاب جامعة كارديف (عاصمة ويلز) فكان أن قلت لقد كانت من قبلكم إمبراطوريات كالإغريق والرومان والإسبان والبرتغال ، ولكن هذه الإمبراطوريات كلها قد زالت ورحت أحذرهم من أن يلحقوا بهم ، إذا لم يجلوا عن مصر والسودان ، وهاآنذ أعيش لأشهدزوال الإمبراطورية البريطانية ، وصيرورتها من نوع ألمانيا والبرتغال . وعندما تصور الكثيرون ، أن أدلوف هتلر (رئيس ألمانيا) فى طريقه لسيادة العالم ، رأيت فى أفكاره ومبادئه وأساليبه ، ماقد ينتهى به إلى تدمير نفسه وأمته من هذا المصير ، وعقب الحرب العالمية الثانية ، دعوت فى لندن ونيويورك ، إلى سقوط الاستعمار .

هذا فى الخارج ، أما بالنسبة لما كان يجرى فى مصر فقد تحدثت وإخوانى عن زوال الملكية والإقطاع ، ولم أكن فى كل ذلك أتنبأ وما فوجئت به « أنا شخصياً » هو أن هذه السنن وقعت بأسرع ماتوقعت ، وأن أعيش لأراها ، وبحكم هذه السنن فلن أعيش على وجه القطع واليقين لأشهد رؤيتى الجديدة ولكنها آتية لاريب فيها .

وتتلخص هذه الرؤية بأن الحضارة بحكم الدورة ، سوف تعود للعالم الإسلامى بقيادة العالم العربى ، حيث تقوم مصر كما كان شأنها دائماً ، بالدور الأكبر ، وإذا كان العالم اليوم يتحدث عن قرب نفاذ الطاقة التقليدية ، من فحم وبترول ، كان المعين الذى لاينضب من الطاقة ، وهو الشمس ، فإن حظ البلاد العربية والإسلامية منها هو النصيب الأكبر والأوفر وهو مايجعل أوربا وأمريكا ، لايهتمان كثيراً بالعمل فى هذه الناحية ، ويهتمان بالأكثر بما يسمونه الطاقة « النووية » وليس ذلك إلا مرحلة مؤقتة ، وسوف تثبت الأيام ، أن نصيب العالم الإسلامى والعربى من المواد

المشعة أضعاف أضعاف ، ماتمتلك أوربا وأمريكا على أننى أعود فأذكر أنه لا الطاقة ، ولا الآلات والمكنات ، ولا الصواريخ أو القنابل الذرية بالتى تصنع حضارة ، ولكنها تصلح لشىء واحد وهى أن تدمر أوربا وأمريكا .

٢

مالذى يجب أن يفعله الشباب ؟

والكلمة اليوم هى للشباب فى مصر والبلاد العربية والإسلامية والشرقية بعامة وذلك أن الشيوخ قسمان ، أقلية وأغلبية ، فأما الأقلية وأنا واحد منهم ، فعلى الرغم من أننا نؤمن بهذه الأفكار منذ اليوم الأول حتى لنرى على صفحات مجلتنا منذ أربعين عاماً مقالات من مثل « أوربا تتداعى » « ونضوب الحضارة فى أوربا » و « إفلاس الغرب نهائياً » .

أقول بالرغم من أننا كنا نؤمن بهذه الدعوة ، فنحن فى طريقنا إلى النهاية يوما بعد آخر ، ولا أحسب أنه بعد عشر سنوات من الآن سيكون باقياً منا أحد ، (إلا واحد أو اثنين على سبيل الاستثناء بطبيعة الحال) أما الأغلبية الساحقة من جيلنا فقد تعلموا على أيدى إعلام ونجوم آمنوا فى القسم الأخصب من حياتهم ، بأن خير مصر والعرب والمسلمين كامن فى النقل عن أوربا واحتذاء نموذجها وأساليبها ، أعلام من مثل طه حسين والعقاد وحسين هيكل ، وإذا كانوا فى أخريات حياتهم ، بدأوا يتشككون فى الحضارة الغربية وجنحوا مرة أخرى نحو القيم الشرقية والإسلامية ، فقد كانوا قد غرسوا فى ألوف من تلاميذهم الإيمان بالغرب وحضارته وهم المسيطرون اليوم على حياتنا التربوية والثقافية ، وسيظل هذا شأنهم إلى حين .

ومن هنا فإنى أوجه حديثى للشباب ، بعد أن أزيل من نفسه شبهة ، وألفت نظره إلى حقيقة لايقدر إبعادها .

فأما الشبهة التى أرغب فى إزالتها ، فهى انبهار مئات الألوف من شبابنا الذين أصبحوا يسافرون إلى أوربا وأمريكا ، بما يرون من نظافة ونظام وعمل وإنتاج ، وإذا كانوا شباباً فهم يغتبطون بما يرونه من حرية جنسية ، ويتصورون أن هذه الإباحية الجنسية هى جزء من هذه الحضارة ومن مقوماتها ، وقد بقى أن يعرف الشباب أن هذا الذى يبهرهم من نظافة ونظام ، وعمل وإنتاج ، هو قسم صغير يتناقص يوما بعد آخر مما كانوا عليه فى هذه النواحى ، وأما

الإباحية الجنسية فشىء وافد على أوربا ، وهو نذير ماتندفع إليه فى تدهور وفوضى هذه هى إزالة الشبهة ، وقد بقى أن يعرفوا أننى فى عام ١٩٣٠ أى من خمسين سنة سافرت باريس ، وكان ذلك يعتبر شيئاً غريباً ، ولقد اعتبر فى محيط أسرتى « ثورة وتمرد » أما اليوم فسفر عشرات الألوف من الطلاب يعتبر أمراً عادياً ، ويتصور هؤلاء الطلاب عندما يحصلون على عمل (فى غسيل الأطباق أو مسح البلاط أو حمل الأثقال) أن الأمر كان كذلك دائماً ، غير شاعرين أن هذه هواية التدهور الأوربى ، فقد كانت مزاولة هذه الأعمال هى آية حضارة هذه الشعوب التى ترى فى العمل ، أى عمل هو شرف الإنسان فأما وقد عادوا للتفرقة بين عمل وعمل فهذا عمل شريف أما هذا فعمل وضيع فليس ذلك إلا عودة لتقاليد أوربا فى تقسيم المجتمع إلى طبقات .

أما الحقيقة التى ألفت النظر إليها ، فهى غزو مئات الألوف من شباب مصر لميادين العمل والعلم والإدارة فى أوربا وأمريكا ، بحيث أصبح يشار إليهم بالبنان .

وهذه ظاهرة جديدة ، يتصور معها الشباب المصرى أنها دليل قدرته إذا أتيحت له الظروف ، ولكنه لايتصور ولم يدرك بعد ، أنها تعنى قبل ذلك انحلال هذه الشعوب ، وأنها لم تعد قادرة على مواجهة التطور وما يحتاجه من جهد وعمل .

٣
تفاصيل مايجب أن يفعله الشباب

أولاً – إيمان عميق بالله واليوم الآخر إلى الحد الذى يجعل لكل شباب ضميراً بين جنبيه يقوده لأداء واجبه لخدمة الناس والمجتمع ، لاخوفاً من قانون وضعى ، أو طمعاً فى جزاء مادى ، وإنما التماساً لراحة الضمير فى الدنيا ، والمكافآة فى الآخرة .

ثانياً – يجب أن لايعنى الإيمان بالله واليوم الآخر بحال ، الانعزال عن الناس أو المجتمع فضلاً عن التعالى عليهم ، فكل هذه انحرافات وجدت على مر العصور ، حتى جعلت البعض يرتكبون « أبشع الجرائم » بحجة التدين ، وإرضاء الله والفوز بالجنة والله برىء مما يعملون ، بل مما يتصورون ، فكل أوامر الله ونواهيه لايقصد بها إلا خير العالمين ، لا أن ينقلب هذا إلى إيذائهم .

ثالثاً – يجب أن يكون التعبير الوحيد عن الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو العمل فى هذه الدنيا لما يعود على الإنسان بالنفع ثم

على من يحيط به الأقرب فالأقرب .

رابعاً – أن كل مايحتاجه العالم الشرقى والعربى ، هو القدوة الصالحة فى كل شىء فى النظافة والنظام وأداء الواجب ، والدقة وتحرى الإجادة فيما يعمل الإنسان فعلى كل فرد أن يبدأ بنفسه مقدماً بذلك القدوة للآخرين .

وبعد .

فهذه وصيتى خلاصة تجاربى فى هذه الدنيا ، أسوقها للشباب فى مصر وفى العالم العربى والإسلامى فالمستقبل لهم . هذه حتمية تاريخية وطبيعية ، لأنها سنة إلهية والمطلوب هو العمل الدائب بالليل والنهار والكف عن تقليد ما يجرى فى أوربا وأمريكا ، بعد أن انسلخوا من مقومات الحضارة ، وهى الإيمان بالله وقدسية الأسرة والعمل والإنتاج ، وسلوك طرق الفضيلة والتعاون والرحمة بين الناس أجمعين .

فإذا كنت قد قدمت للشباب « إيمانى » عام ١٩٣٦ فهذا هو إيمانى عام ١٩٧٩ . .

والله ولى التوفيق . . .

أحمد حسين فى سطور

● والده ريفى من كفر البطيخ ، أما والدته فمن سمنود .

● ولد هو فى القاهرة فى ٨ مارس ١٩١١ وإن كان لايفتأ يصرح أنه ولد قبل هذا التاريخ .

● تلقى علومه فى كتاب الحى بطولون ثم التحق بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية الابتدائية وانتقل منها إلى مدرسة محمد على الأميرية ، حيث ألف فى هذه الفترة جمعية « نصر الدين الإسلامى » .

● تلقى تعليمه الثانوى فى المدرسة الخديوية وانخرط فى نشاطها المدرسى وكان التمثيل هو النشاط المسيطر ، فقدم لهم مسرحية « أبو مسلم الخراسانى » . كما أشرف على إصدار مجلة المدرسة .

● التحق عام **١٩٢٩** بكلية الحقوق .

● دعا عام **١٩٣١** إلى تصنيع مصر بجهود الشعب ، مما أطلق عليه فى حينه « مشروع القرش » .

● أسس عام **١٩٣٣** جمعية مصر الفتاة التى تحولت بعد الحرب العالمية الثانية إلى الحزب الاشتراكى ، وكانت التعاليم الإسلامية هى نبراسه دائماً ، فدعا عام **١٩٣٨** إلى تطبيق أحكام الشريعة واتهم ونفر من أعضاء جماعته ، فيما اشتهر آنذاك باسم « تحطيم الحانات » .

● كان له دور كبير فى محاربة الملك السابق وكل فساد وطغيان مما جعل حكام ذلك الزمان يعملون على التخلص منه فانتهزوا فرصة حريق القاهرة فى يناير **١٩٥٢** لكى يعتبروه مسئولا عن هذا العمل .

● كان لقيام الثورة فى **٢٣** يوليو **١٩٥٢** الفضل فى إنقاذه من حبل المشنقة .

● هاجر من مصر عام **١٩٥٥** ولكنه لم يلبث أن عاد إليها ، فلما أن خاب أمله مرة أخرى اعتزل الحياة وأوى إلى بيته عام **١٩٦٠** .

● وفى بيته تفرغ للمطالعة والتأليف فأصدر ثلاثة من ألمع كتبه :

- الطاقة الإنسانية
- الأمة الإنسانية
- نبى الإنسانية

● جاوزت مؤلفاته الأربعين كتابا أحدها يقع فى ألفى صحيفة وهو موسوعة « تاريخ مصر »

● ولكن عمله الأكبر والذى يعتبره تتويجا لحياته كلها هو تفسيره للقرآن الكريم .

● أصيب بالشلل الكامل الذى أعجزه عن الحركة تماما ، فيما خلا الكتابة وهو مايجعله يقول : ما بقى الله يحفظ لى عقلى ، ويقدرنى على الكتابة ، فسوف أكتب لنهضة المسلمين .

● يعتز باللقب الذى أطلقته عليه « مجلة الأزهر » من أنه « الكاتب الإسلامى » .

ملف خاص عن المؤتمر التاسع
لعلماء المسلمين

الموضوعات

- مشروع الدستور الإسلامى المقدم إلى المؤتمر .
- أسماء السادة أعضاء المؤتمر .
- أعضاء مجمع البحوث الإسلامية .
- خطة أعمال المؤتمر التاسع لعلماء المسلمين .
- النص الإنجليزى لمشروع الدستور الإسلامى .

إعداد : محمد أمين البدوى

مشروع
الدّستور الإسلامى

مقدم من
اللجنة الفرعية المنبثقة عن اللجنة العليا
لوضع مشروع الدستور الإسلامى

البـاب الأول
الأمـة الإسـلامية

مـادة ١

(ا) المسلمون أمة واحدة .

(ب) والشريعة الإسلامية مصدر كل تقنين .

مـادة ٢

يجوز أن تتعدد الدول فى الأمة الإسلامية وأن تتنوع أشكال الحكم فيها .

مـادة ٣

يجوز للدولة أن تتحد مع دولة إسلامية أوأكثر فى الشكل الذى يتفق عليه .

مـادة ٤

يقوم الشعب بمراقبة الإمام وأعوانه وسائر الحكام ومحاسبتهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية .

البـاب الثانى
أسس المجتمع الإسـلامى

مـادة ٥

التعاون والتكافل أساس المجتمع .

مـادة ٦

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض ويأثم من يقصر فيه مع القدرة عليه .

مـادة ٧

الأسرة أساس المجتمع ، قوامها الدين والأخلاق وتكفل الدولة دعم الأسرة وحماية الأمومة ورعاية الطفولة وتهيئة الوسائل المحققة لذلك .

مـادة ٨

حماية الأسرة واجب الدولة بالتشجيع على الزواج وتيسير أسبابه المادية بالإسكان والمعونات الممكنة وتكريم الحياة الزوجية وتهيئة الوسائل لحسن تبعل المرأة لزوجها وخدمة أولادها واعتبار العناية بالأسرة أول واجباتها .

مادة ٩

العناية بسلامة الأمة وصحة الأفراد واجب الدولة وعليها توفير الخدمات الطبية المجانية للمواطنين من وقائية وعلاجية .

مادة ١٠

طلب العلم فريضة والتعليم واجب الدولة وفقا للقانون .

مادة ١١

التربية الدينية منهج أساسى فى جميع مراحل التعليم .

مادة ١٢

تلتزم الدولة بتعليم المسلمين الأمور المجمع عليها من الفرائض وتدريس السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين دراسة وافية على مدار سنوات التعليم .

مادة ١٣

تلتزم الدولة بتحفيظ ماتيسر من القرآن الكريم للمسلمين فى سنوات التعليم حسب أنواع الدراسة كما تنشئ معاهد خاصة بالقرآن لتحفيظه لغير الطلاب وتطبع المصحف الكريم وتيسر تداوله .

مادة ١٤

التبرج محظور والتصاون واجب وتصدر الدولة القوانين والقرارات لصيانة الشعور العام من الابتذال وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ١٥

اللغة العربية اللغة الرسمية والتاريخ الهجرى واجب ذكره فى المكاتبات الرسمية .

مادة ١٦

الولاية العامة منوطة بمصلحة الرعية وخاصة حماية الدين والعقل والنفس والمال والعرض .

مادة ١٧

لايكفى أن تكون الغايات مشروعة بل يجب فى جميع الحالات أن تكون الوسائل مطابقة لأحكام الشريعة الإسلامية .

الباب الثالث

الاقتصاد الإسلامى

مادة ١٨

يقوم الاقتصاد على مبادئ الشريعة الإسلامية بما يكفل الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ويوجب السعى فى الحياة بالفكر والعمل وتحمى الكسب الحلال .

مادة ١٩

حرية التجارة والصناعة والزراعة مكفولة فى حدود الشريعة الإسلامية .

مادة ٢٠

تضع الدولة خططا للتنمية الاقتصادية وفقا للشريعة الإسلامية .

مادة ٢١

تقاوم الدولة الاحتكار ولاتتدخل فى الأسعار إلا للضرورة .

مادة ٢٢

تشجع الدولة على تعمير الصحراء وتوسيع رقعة الأرض المنزرعة .

مادة ٢٣

لايجوز التعامل بالربا أخذا أوعطاءاً أوأن يستر أى تصرف معاملة ربوية .

مادة ٢٤

للدولة ملكية ما فى باطن الأرض من المعادن والخامات وغيرها من الثروات الطبيعية .

مادة ٢٥

كل مال لامالك له يكون ملكا لبيت المال . وينظم القانون طريقة تملك الأفراد له .

مادة ٢٦

تصرف الدولة الزكاة التى يقدمها إليها الأفراد فى مصارفها الشرعية .

مادة ٢٧

الوقف على الخيرات جائز ويصدر قانون بتنظيمه من جميع النواحى .

الباب الرابع
الحقوق والحريات الفردية

مادة ٢٨

العدل والمساواة أساس الحكم وحقوق الدفاع والتقاضى مكفولة ، ولايجوز المساس بها .

مادة ٢٩

الاعتقاد الدينى والفكرى وحرية العمل وإبداء الرأى بالقول والكتابة أوغيرها وإنشاء الجمعيات والنقابات والانضمام إليها والحرية الشخصية وحرية الانتقال والاجتماع كلها حقوق طبيعية أساسية تكفلها الدولة فى حدود الشريعة الإسلامية .

مادة ٣٠

للمساكن والمراسلات والخصوصيات حرمة والتجسس محظور . ويحدد القانون مايرد على هذه الحرمة من قيود تمارسها الدولة فى جرائم الخيانة العظمى أوالخطر الداهم ولاتكون تلك الممارسة إلابإذن قضائى .

مادة ٣١

حق التنقل داخل البلاد وخارجها مباح ولايمنع المواطنون من السفر إلى الخارج ولاإلزامهم البقاء فى مكان دون آخر

إلا بحكم قضائى يبين القاضى أسبابه ولا يجوز نفى المواطنين .

مادة ٣٢

تسليم اللاجئين السياسيين محظور وينظم تسليم المجرمين العاديين باتفاقات مع الدول المعنية .

مادة ٣٣

تعذيب الأشخاص جريمة . ولاتسقط الجريمة أوالعقوبة طول حياة من يرتكبها ويلتزم فاعلها أوالشريك فيها بالمسئولية عنها فى ماله فإن كان بمساعدة موظف أوبموافقته أوبالسكوت عنها فهو شريك فى الجريمة جنائيا ومسئول مدنيا وتسأل معه الحكومة بالتضامن .

مادة ٣٤

يعاقب بعقوبة التعزير الموظف الذى تقع فى اختصاصه جريمة تعذيب علم بها ولم يبلغ السلطات المختصة عنها .

مادة ٣٥

لايطل دم فى الإسلام وعلى الدولة تعويض المستحقين من قتلى لايعرف قاتلهم . أوعجزة لايعرف من أعجزهم أوعرف ولم يوجد لديه مال يكفل التعويض .

مادة ٣٦

لكل إنسان حق تقديم الشكوى عن جريمة تقع عليه أوعلى غيره أوعلى اختلاس المال العام أوتبديده .

مادة ٣٧

حق العمل والكسب والتملك مكفول ولايجوز المساس به إلا بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٣٨

للمرأة أن تعمل فى حدود أحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٣٩

تكفل الدولة حرية الملك وحقوق الملكية وحرمتها ولاتجوز المصادرة العامة بأية أداة كانت أما المصادرة الخاصة فلاتكون إلا بحكم قضائى .

مادة ٤٠

لاتنزع ملكية أحد إلا للمصلحة العامة ومقابل تعويض كامل وفقا لأحكام القانون المنظم لذلك .

مادة ٤١

إنشاء الصحف مباح والصحافة حرة وذلك كله فى حدود أحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٤٢

للمواطنين حق تكوين الجمعيات والنقابات على الوجه المبين فى القانون ويحظر منها مايكون نشاطه معاديا لنظام المجتمع

أو سريا ذا طابع عسكرى أومخالفا بأى وجه من الوجوه لأحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٤٣

تمارس الحقوق وفقا لمقاصد الشريعة .

الباب الخامس

الإمام

مادة ٤٤

يكون للدولة إمام وتجب الطاعة له وإن خولف فى الرأى .

مادة ٤٥

لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا للإمام فى أمر مقطوع بمخالفته للشريعة .

مادة ٤٦

يبين القانون طريقة البيعة العامة فى اختيار الإمام على أن تتم البيعة العامة تحت إشراف القضاء وتكون البيعة بالأغلبية المطلوبة لأصوات المشتركين فى البيعة .

مادة ٤٧

يشترط للمرشح لرئاسة الدولة الإسلام والذكورة والبلوغ والعقل والصلاح والعلم بأحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٤٨

يتم تعيين الإمام ببيعة عامة من جميع طبقات الأمة طبقا للقانون ويجوز للمرأة أن تطلب الاشتراك فى الانتخاب متى استوفت شروطه وتُمكن من الانتخاب .(١)

مادة ٤٩

لاجُناح على من أبدى رأيه ضد البيعة للإمام قبل تمامها .

مادة ٥٠

لأصحاب الحق فى البيعة عزل الإمام متى تحقق سببه وبالطريقة التى يبينها القانون .

مادة ٥١

يخضع الإمام للقضاء وله الحضور بوكيل عنه .

مادة ٥٢

يتمتع رئيس الدولة بكافة الحقوق التى يتمتع بها المواطنون ويلتزم بما يلتزمون به وتسرى فى حقه الأحكام المالية التى يحددها القانون .

مادة ٥٣

لاتجوز الوصية للإمام أوالوقف عليه أوعلى أقاربه حتى الدرجة الرابعة إلا أن تكون وصية ممن يرثه الإمام ، كما لايجوز للإمام أن يشترى أويستأجر شيئا من أملاك الدولة أوأن يبيع أويؤجر شيئا من أملاكه إليها .

---

(١) قررت اللجنة رفع الموضوع للجنة العليا بالرأيين بالنسبة للفقرة الأخيرة .

مادة ٥٤

الهدايا للإمام غلول ومايتم فيها يضاف إلى بيت المال .

مادة ٥٥

الإمام قدوة للرعية فى العدل والإحسان والعمل الصالح وهو يشارك غيره من أئمة المسلمين كل مايهم الجماعة الإسلامية كما يبعث بعثا للحج كل عام يشارك به فى مؤتمرات المسلمين الرسمية وغير الرسمية .

مادة ٥٦

الإمام مسئول عن قيادة جيشه لجهاد العدو وحفظ الثغور وتراب الوطن وإقامة الحدود وعقد المعاهدات بعد إقرارها .

مادة ٥٧

الإمام مسئول عن تمكين الأفراد والجماعة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأداء الفرائض .

مادة ٥٨

يعين الإمام موظفى الدولة ويجوز أن يخول القانون غيره تعيين الموظفين من غير المستويات العليا .

مادة ٥٩

العفو عن الجرائم فيما عدا الحدود لايكون إلابقانون . وللإمام العفو عن عقوبات الجرائم فى ظروف خاصة فيما عدا عقوبات الحدود والخيانة العظمى .

مادة ٦٠

للإمام عند الضرورة اتخاذ تدابير استثنائية يبينها القانون إذا قامت قلاقل أوقام ما ينذر بحدوث قلاقل أوتهديد كيان الدولة أوحرب أهلية أوحرب مع إحدى الدول على أن يعرضها على المجلس النيابى خلال أسبوع من اتخاذها . وإذا لم يكن قد تم انتخاب المجلس فيدعى المجلس القديم وتبطل هذه التدابير إن لم يتبع فيها هذا الإجراء . ويصدر قانون بتنظيم هذه التدابير الاستثنائية والآثار المترتبة عليها والجهات المختصة باتخاذها وكيفية تسوية الآثار المترتبة عليها فى حالة عدم إقرارها .

الباب السادس

القضاء

مادة ٦١

يحكم القضاة بالعدل وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٦٢

الناس سواسية أمام القضاء ولايجوز تمييز أحد أوفئة بمحاكم خاصة .

مادة ٦٣

لايجوز إنشاء محاكم خاصة أوحرمان صاحب قضية من قاضيه الطبيعى .

مادة ٦٤

لايجوز منع القضاء من سماع الدعوى ضد الإمام أوالحاكم .

مادة ٦٥

تصدر الأحكام وتنفذ باسم الله الرحمن الرحيم ولايخضع القاضى فى قضائه لغير الشريعة الإسلامية .

مادة ٦٦

تنفيذ الأحكام مسئولية الدولة والإمتناع أوالتراخى فى تنفيذها جريمة معاقب عليها .

مادة ٦٧

تكفل الدولة استقلال القضاء والمساس باستقلاله جريمة .

مادة ٦٨

تختار الدولة للقضاء أصلح المؤهلين له من الرجال وتيسر أداءه لعمله .

مادة ٦٩

يشترط فى جرائم الحدود أن يحضر المتهم المحاكمة أو أن يحضر معه محام يختاره هو أو تندبه الدولة إن لم يختر هو محاميا ،

مادة ٧٠

مجلس القضاء علنى وللعامة حضوره ولايجوز جعله سريا إلاالضرورة شرعية .

مادة ٧١

توقع عقوبات الحدود الشرعية فى جرائم الزنا والقذف والسرقة والحرابة وشرب الخمر والردة .

مادة ٧٢

يحدد القانون التعزيرات التى يوقعها القاضى فى غير جرائم الحدود .

مادة ٧٣

يبين القانون أحكام القسامة ولايجوز أن تجاوز المسئولية المدنية مقادير الديات .

مادة ٧٤

يبين القانون شروط قبول التوبة وأحكامها .

مادة ٧٥

لايحكم بالإعدام فى جناية إلا إذا امتنع الصلح أوعفو ولى الدم .

مادة ٧٦

يجوز التصالح فى القصاص على أكثر من الدية .

مادة ٧٧

يجوز أن تتساوى المرأة والرجل فى الدية .

مادة ٧٨

شروط القصاص فى الجروح التماثل الكامل وكمال اليقين بذلك عند القاضى .

مادة ٧٩

الجلد هو العقوبة الأساسية فى التعزيرات والحبس محظور إلافى جرائم

معدودة ولمدد محدودة يبينها القاضى .

مادة ٨٠

لايجوز إذلال المحبوس أو إرهاقه أو الإساءة إلى كرامته .

مادة ٨١

تنشأ محكمة دستورية عليا تختص بالفصل فى مدى مطابقة القوانين واللوائح لأحكام الشريعة الإسلامية وأحكام هذا الدستور ويحدد القانون اختصاصاتها الأخرى .

مادة ٨٢

ينشأ ديوان للمظالم يحدد القانون تشكيله واختصاصاته ومرتبات أعضائه

الباب السابع (١)

الشورى والرقابة وسن القوانين

مادة ٨٣

يكون للدولة مجلس للشورى يمارس الاختصاصات الآتية :

١ – سن القوانين بما لايتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية .

٢ – اعتماد الموازنة السنوية للدولة وحسابها الختامى .

٣ – ممارسة الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية .

٤ – تقرير مسئولية الوزارة عن أعمالها وسحب الثقة بها عند الاقتضاء .

مادة ٨٤

يحدد القانون شروط الانتخاب وطريقة إحداثه وشروط العضوية ، وذلك على أساس من الشورى على وجه يكفل مشاركة كل بالغ عاقل حسن السمعة فى إبداء رأيه ، وكذلك كيفية معاملة أعضاء المجلس من الناحية المالية ، ويضع المجلس لائحته الداخلية .

الباب الثامن

« الحكومة »

مادة ٨٥

تتولى الحكومة مسئولية إدارة شئون الحكم وتحقيق المصالح الشرعية المعتبرة وتكون مسئولة أمام الإمام (٢)

مادة ٨٦

يحدد القانون شروط تعيين الوزراء والأعمال المحظورة عليهم أثناء تولى مناصبهم وطريقة محاكمتهم عما يقع منهم فى عملهم .

---

(١) يحذف هذا الباب فى الدول التى ليس لها مجالس للشورى .

(٢) تحذف هذه الفقرة فى الدول التى لها مجالس للشورى .

الباب التاسع
أحكام عامة وانتقالية

مادة ٨٧

مدينة . . حاضرة البلاد

مادة ٨٨

يبين القانون علم الدولة وشعارها ويحدد الأحكام الخاصة بكل منها .

مادة ٨٩

تسرى القوانين على مايقع من تاريخ نفاذها . ولاتسرى بأثر رجعى إلافيما تنص عليه ويلزم لذلك موافقة ثلثى أعضاء المجلس النيابى ولاتجوز الرجعية فى المسائل الجنائية .

مادة ٩٠

تنشر القوانين فى الجريدة الرسمية خلال أسبوعين من يوم إصدارها ويعمل بها بعد شهر من اليوم التالى لتاريخ نشرها إلا إذا حددت لذلك ميعاد آخر .

مادة ٩١

لكل من الإمام والمجلس النيابى طلب تعديل مادة أوأكثر من مواد الدستور ويجب أن يذكر فى طلب التعديل المواد المطلوب تعديلها والأسباب الداعية إلى هذا التعديل ، فإذا كان الطلب صادرا من المجلس النيابى وجب أن يكون موقعا عليه من ثلث أعضاء المجلس على الأقل .

وفى جميع الأحوال يناقش المجلس مبدأ التعديل ويصدر قرار فى شأنه بأغلبية ثلثى أعضائه فإذا رفض الطلب فلايجوز إعادة طلب تعديل المواد ذاتها قبل مضى سنة على هذا الرفض .

وإذا وافق المجلس النيابى على مبدأ التعديل يناقش بعد شهرين من تاريخ هذه الموافقة المواد المطلوب تعديلها فإذا وافق على التعديل ثلثا أعضاء المجلس عرض على الأمة لاستفتائها فى شأنه .

فإذا ووفق على التعديل اعتبر نافذا من تاريخ إعلان نتيجة الاستفتاء .

مادة ٩٢

كل ماقررته القوانين واللوائح من أحكام قبل صدور هذا الدستور يبقى صحيحا ونافذا ومع ذلك يجوز إلغاؤها أوتعديلها وفقا للقواعد والإجراءات المقررة فى هذا الدستور ، فإذا كانت مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية وجب إلغاؤها أواستبدالها بغيرها .

مادة ٩٣

يعمل بهذا الدستور من تاريخ إعلان موافقة الأمة عليه فى الاستفتاء .

كشـــف
بأسماء السادة الذين رشحوا للمؤتمر التاسع لمجمع البحوث الإسلامية
جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ - أبريل ١٩٧٩م

الدولة	رقم العضو	الاســــــم	ملاحظات
اتحاد الإمارات	١	الشيخ عبد الله المحمود	رئيس المركز الإسلامى بالشارقة
	٢	الشيخ محمد عبد الرحمن البكر	وزير العدل والأوقاف والشئون الإسلامية .
الأردن	٣		
افغانستان	٤	السيد هارون صادق المجددى	(مقيم بالقاهرة)
	٥	السيد هاشم صادق المجددى	(عن طريق السعودية)
إنجلترا	٦	الدكتور أبو بكر سراج الدين	الأستاذ بجامعة القاهرة سابقا
	٧	الدكتور زكى بدوى	مدير المركز الإسلامى بلندن
أندونيسيا	٨	الدكتور عبد الملك كريم أمر الله	شيخ مسجد الأزهر بجاكرتا ورئيس مجلس علماء أندونيسيا
	٩	الجنرال علم شاه	وزير الشئون الدينية
	١٠	الدكتور محمد رشيد	مدير جامعة جو جاكرتا
أوغندا	١١		يترك للسفارة إختيار أحد العلماء البارزين

الدولة	رقم العضو	الاســـــم	ملاحظات
إيران	١٢		يرجى من السفير ترشيح شخص جديد من العلماء
الباكستان	١٣	مولانا مفتى محمود	رئيس وزراء سابق (روالبندى)
	١٤	مولانا طغيل محمد	أمير الجماعة الإسلامية
	١٥	الأستاذ خليل أحمد الحامدى	رئيس دار العروبة للدعوة الإسلامية
البحرين	١٦	الشيخ عبد الرحمن بن محمد آل خليفة	وكيل وزارة العدل والشئون الإسلامية
بلجيكا	١٧	الأستاذ محمد العلوينى	مدير المركز الإسلامى والثقافى ببروكسل
بنجلاديش	١٨	الدكتور حبيب الرحمن شودرى	أستاذ بجامعة دكا
تركيا	١٩	السيد الدكتور نجم الدين أربيكان	رئيس حزب السلام الوطنى بتركيا
	٢٠	الدكتور على أرسلان	
تشاد	٢١	الإمام موسى إبراهيم	زعيم مسلمى تشاد
تنزانيا	٢٢	الشيخ محمد على حميد	سكرتير عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
توجو	٢٣	السيد إدريس تورى	المشرف على الشئون الدينية بتوجو

الدولة	رقم العضو	الاســـــم	ملاحظات
تونس	٢٤	السيد محمد الحبيب الشاذلى بلخوجة	مفتى الجمهورية التونسية وعضو المجمع
الجزائر	٢٥	السيد مولود قاسم	وزير الشئون الدينية
جزر القمر	٢٦	السيد عمر عبد الله	
جزر المالديف	٢٧	الأستاذ محمد جميل ديدى	مستشار رئيس الجمهورية للشئون الدينية
روسيا	٢٨	السيد ضياء الدين بابا خانوف	مفتى المسلمين بطشقند
السعودية	٢٩	الشيخ عبد العزيز بن باز	رئيس هيئة البحوث والفتوى والدعوى .
	٣٠	الشيخ محمد على الحركان	أمين رابطة العالم الإسلامى
	٣١	الأستاذ سليمان عبيد	مدير إذاعة نداء الإسلام
	٣٢	الدكتور عبد الله عبد المحسن ترك	مدير جامعة محمد بن سعود الإسلامية
	٣٣	الدكتور عبد المحسن العبادى	مدير الجامعة الإسلامية بالمدينة
	٣٤	الشيخ عمر محمد فلاته	أمين الجامعة الإسلامية بالمدينة
	٣٥	الدكتور	وكيل جامعة الملك عبد العزيز بجده
	٣٦	الدكتور غريب الجمال	مستشار منظمة المؤتمر الإسلامى بجدة .

الدولة	رقم العضو	الاســــــم	ملاحظات
	٣٧	الدكتور محمد شوقى الفنجرى الدكتور محمد الوائلى	الرياض ص . ب : ٣٣٠٧ عميد كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية
السنغال	٣٨	السيد عبد العزيز سى	من علماء السنغال
السودان	٣٩	الشيخ على عبد الرحمن الأمين	عضو مجمع البحوث الإسلامية
	٤٠	الدكتور كامل الباقر	مدير جامعة أم درمان
	٤١	الدكتور صديق الضرير	لجنة الدستور
سوريا	٤٢	الدكتور معروف الدواليبى	مستشار الملك خالد
سيراليون	٤٣	السيد جبريل سى	السفير السابق
سيريلانكا	٤٤	السيد محمد حنيفة محمد	رئيس رابطة مسلمى سيلان ووزير المواصلات .
	٤٥	الأستاذ محمد شكرى محمد	الأستاذ بجامعة سيريلانكا
الصومال	٤٦	الأستاذ حسن عبد الله فارح	رئيس المحكمة الشرعية العليا
العراق	٤٧	الشيخ محمد الصواف	عن طريق السعودية
	٤٨	اللواء الركن محمود شيت خطاب	عضو مجمع البحوث الإسلامية
عمان	٤٩	الشيخ الوليد بن زاهر الهنائى	وزير الأوقاف والشئون الإسلامية

الدولة	رقم العضو	الاســــــم	ملاحظات
فرنسا	٥٠	الشيخ أبو بكر حمزة	إمام مسجد باريس
الفليبين	٥١	السيد سلامات هاشم	رئيس جبهة تحرير مورو (عن طريق رابطة العالم الإسلامى) .
فلسطين	٥٢	دكتور إسحاق موسى الحسينى	عضو مجمع البحوث الإسلامية
قبرص	٥٣	السيد رفعت مصطفى رفعت	مفتى قبرص
قطر	٥٤	الدكتور يوسف القرضاوى	جامعة قطر
الكويت	٥٥	الشيخ يوسف الحجى	وزير الأوقاف
كينيا	٥٦	الأستاذ محمود سليمان سعيد	مدير بالمجلس الأعلى لمسلمى كينيا
لبنان	٥٧	الشيخ نديم الجسر	عضو مجمع البحوث الإسلامية
	٥٨	الأستاذ وفيق القصار	عضو مجمع البحوث الإسلامية
	٥٩	الشيخ حسن خالد	مفتى لبنان
ليبيا	٦٠	الشيخ محمود صبحى	الإمام العام لجمعية الدعوة الإسلامية
مالى	٦١	السيد أحمد حماه الله	إمام جامعة أهل السنة فى باماكو

الدولة	رقم العضو	الاســـــم	ملاحظات
ماليزيا	٦٢	الدكتور عبد الجليل حسن	عضو مجمع البحوث الإسلامية
	٦٣	الأستاذ داتو محمد عصرى	رئيس الحزب الإسلامى
	٦٤	الأستاذ محمد على هارون	رئيس مركز الدراسات العليا (كلنتون)
المغرب	٦٥	الشيخ عبد الله كنون	الأمين العام لرابطة علماء المغرب – عضو مجمع البحوث الإسلامية
موريتانيا	٦٦	السيد محمد سالم ولد داود	
النمسا	٦٧	الدكتور إسماعيل بالتش	زعيم المسلمين بالنمسا
النيجر	٦٨	الشيخ ابو القاسم البيهقى	رئيس الجمعية الإسلامية بالنيجر
نيجيريا	٦٩	السيد آدم عبد الله	
الهند	٧٠	الشيخ أسعد مدنى	سكرتير عام جمعية علماء المسلمين
	٧١	الشيخ محمد يوسف	أمير الجماعة الإسلامية
	٧٢	الأستاذ سعيد الأعظمى	الأستاذ بدار العلوم (ندوة العلماء)
	٧٣	الأستاذ كاكا عمر	الأمين العام لجامعة دار السلام
اليابان	٧٤	الدكتور عبد الكريم سايتو	رئيس جمعية مسلمى اليابان سابقا

الدولة	رقم العضو	الاســـــــم	ملاحظات
اليمن	٧٥	الشيخ عبد المجيد الزندانى	مكتب التوجيه والإرشاد برياسة الجمهورية
يوغسلافيا	٧٦	دكتور أحمد اسماعيل وتش	شيخ مشيخة إسلام البوسنة والهرسك .
	٧٧	الشيخ حمدى يوسف	مفتى بلجراد .
اليونان	٧٨	السيد رشدى آدم إمام	واعظ ومرشد لمسلمى اليونان
المنظمة الإسلامية الأوربية	٧٩	السيد سالم عزام	سكرتير عام المنظمة الإسلامية الأوربية .
منظمة المؤتمر الإسلامى بجدة	٨٠	السيد محمد كريم جاى	سكرتير عام المؤتمر الإسلامى بجدة

إدارة السكرتارية الفنية

بيـــان
بأسماء السادة أعضاء مجمع البحوث الإسلامية
من داخل جمهورية مصر العربية

رقم	اسم العضـــو	ملاحظـات
١	فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار	شيخ الأزهر ورئيس المجمع
٢	فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى	
٣	فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد العال هريدى	
٤	فضيلة الأستاذ الدكتور الحسينى هاشم	أمين عام المجمع
٥	فضيلة الأستاذ الدكتور بدوى عبد اللطيف	
٦	فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف	
٧	السيد الأستاذ الدكتور سليمان حزين	
٨	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى	
٩	السيد الأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى	
١٠	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز عيسى	
١١	فضيلة الأستاذ الدكتور عبد المنعم طه النمر	
١٢	فضيلة الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر	
١٣	فضيلة الأستاذ الدكتور محمد البهى	
١٤	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد خاطر محمد الشيخ	
١٥	السيد الأستاذ محمد خلف الله أحمد	
١٦	فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى	
١٧	فضيلة الأستاذ الدكتور محمد حسن فايد	
١٨	فضيلة الأستاذ الدكتور محمد محمد الفحام	
١٩	السيد الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام	

بيـــان
بأسماء السادة أعضاء مجمع البحوث الإسلامية
من خارج جمهورية مصر العربية

رقم	اسـم العضـو	ملاحظات
١	السيد الأستاذ الدكتور محمد الحبيب الشاذلى بلخوجة	تونس
٢	السيد الأستاذ على عبد الرحمن الأمين	السودان
٣	السيد اللواء محمود شيت خطاب	العراق
٤	السيد الأستاذ وفيق القصار	لبنان
٥	السيد الأستاذ الشيخ نديم الجسر	لبنان
٦	السيد الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسينى	فلسطين
٧	السيد الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن محمد	ماليزيا
٨	السيد الأستاذ عبد الله كنون	المغرب

خطة أعمال
المؤتمر التاسع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ – أبريل ١٩٧٩م

خطة أعمال المؤتمر

أولا :

ينعقد المؤتمر التاسع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر بالقاهرة لمدة شهر ابتداء من ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ – الموافق ٢١ من أبريل سنة ١٩٧٩م .

وينعقد على فترتين :

أولاهما : لمدة أسبوع

وثانيتهما : لمدة ثلاثة أسابيع

ثانيا :

تدور بحوث المؤتمر حول « مشروع الأزهر للدستور الإسلامى »

ومن الموضوعات المقترحة التى تندرج تحت هذا العنوان :

١ – الأمة الإسلامية

٢ – أسس المجتمع الإسلامى

٣ – الاقتصاد الإسلامى

٤ – الحقوق والحريات الفردية

٥ – الإمام

٦ – القضاء

٧ – الشورى والرقابة وسن القوانين

٨ – الصورة المثلى للحكومة الإسلامية

ثالثا :

يسير العمل اليومى للمؤتمر على النحو التالى :

١ – يؤدى أعضاء المؤتمر صلاة الجمعة بالجامع الأزهر يوم الجمعة ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ – الموافق ٢٠ من أبريل سنة ١٩٧٩م .

٢ – حفل شاى مساء الجمعة ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٠ من أبريل سنة ١٩٧٩م ،

٣ – حفل افتتاح المؤتمر صباح يوم السبت ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢١ من أبريل سنة ١٩٧٩م ويحضره كبار رجال الدولة . وسفراء العالم الإسلامى ، وأعضاء المؤتمر والمعنيون بالشئون الإسلامية والعلمية .

٤ – جلسات الفترة الأولى للمؤتمر لمدة أسبوع .

تبدأ من جلسة يوم السبت ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢١ من أبريل سنة ١٩٧٩م . وتنتهى بجلسة يوم الخميس ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ الموافق ٢٦ من أبريل سنة ١٩٧٩م وتخصص هذه الجلسة لإعلان توصيات وقرارات الفترة الأولى لأعمال المؤتمر .

ويشترك فى هذه الفترة أعضاء المجمع والمدعوون من الخارج .

٥ – حفل عشاء مساء يوم الخميس ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٦ من أبريل سنة ١٩٧٩ م .

٦ – سفر السادة المدعوين من خارج الجمهورية من غير أعضاء المجمع .

(يبدأ السفر يوم الجمعة ٣٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ الموافق ٢٧ من أبريل سنة ١٩٧٩م)

٧ – جلسات الفترة الثانية للمؤتمر ، لمدة ثلاثة أسابيع .

تبدأ من يوم الاثنين ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٣٠ من أبريل سنة ١٩٧٩م وتنتهى بجلسة يوم الخميس ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩هـ – الموافق ١٧ من مايو سنة ١٩٧٩م وتخصص هذه الجلسة لإعلان توصيات وقرارات الفترة الثانية لأعمال المؤتمر

ويشترك فى هذه الفترة السادة أعضاء المجمع من داخل الجمهورية وخارجها ، ويحضرها بعض الباحثين أثناء إلقاء بحوثهم ومناقشتها . والله ولى التوفيق

إدارة السكرتارية الفنية

لمجمع البحوث الإسلامية

فهرس العدد

الموضوع	الصفحة
١ – الإمام الأكبر يشرح سياسته فى أول لقاء صحفى	
الإمام الأكبر الدكتور عبد الرحمن بيصار/ شيخ الأزهر	٧٧١ – ٧٧٩
٢ – ياخير أمة أخرجت للناس . أين أنتم ؟	
فضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير	٧٨٠ – ٧٨٩
٣ – كيف نطبق النظام الإسلامى فى العهد الحاضر؟	
العلامة أبو الأعلى المودودى	٧٩٠ – ٨٠٤
٤ – تقنين الشريعة الإسلامية	
الأستاذ محمد عطية خميس	٨٠٥ – ٨١٦
٥ – صرخة فى الله . إلى علماء دين الله	
الشيخ محمد زكى إبراهيم	٨١٧ – ٨٢٣
٦ – المسلمون البلاليون فى الولايات المتحدة	
سماحة الشيخ عبد الله بن على المحمود	٨٢٤ – ٨٢٩
٧ – الإسلام فى خطر	
الدكتور حسين مؤنس	٨٣٠ – ٨٤٦
٨ – الإسلام والمستقبل	
الأستاذ فتحى رضوان	٨٤٧ – ٨٥٦
٩ – من هنا نبدأ الخطو إلى المستقبل	
الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل	٨٥٧ – ٨٧٠
١٠ – هل ستكون أندونيسيا دولة إسلامية ؟	
الدكتور رءوف شلبى	٨٧١ – ٨٩٦

الموضوع	الصفحة
١١ – الإسلام فى الفكر الأوربى	
الدكتور محمد شامة	٨٩٧ – ٩٠٩
١٢ – المد الإسلامى لاجزر له	
الأستاذ محمد كمال السيد	٩١٠ – ٩٢٩
١٣ – إعادة بناء الحضارة الإسلامية على أساس القرآن	
الأستاذ أنور الجندى	٩٣٠ – ٩٣٥
١٤ – الدعوة الإسلامية فى أوربا	
الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى	٩٣٦ – ٩٤٧
١٥ – دعوة إلى تدوين التاريخ الحربى الإسلامى	
اللواء محمد جمال الدين محفوظ	٩٤٨ – ٩٦١
١٦ – صفحات مشرقة فى تاريخ الأزهر	
الأستاذ على عبد العظيم	٩٦٢ – ٩٧٧
١٧ – أدب القمة وأدب القاع	
الأستاذ السيد حسن قرون	٩٧٨ – ٩٨٨
١٨ – الإسلام وتطبيق شريعته	
الدكتور توفيق محمد شاهين	٩٨٩ – ٩٩٨
١٩ – التصوف ومستقبل العالم الإسلامى	
الأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى	٩٩٩ – ١٠١٦
٢٠ – نهضة إسلامية	
الأستاذ زاهر عزب الزغبى	١٠١٧ – ١٠٢٤
٢١ – مشكلة الأقليات الإسلامية	
الدكتور عبد الودود شلبى	١٠٢٥ – ١٠٣٣
٢٢ – انقذوا هذه الكنوز الإسلامية	
الأستاذ أحمد أبو كف	١٠٣٤ – ١٠٤٣

الموضوع	الصفحة
٢٣ – أول دستور إسلامى يناقشه علماء المسلمين	
الأستاذ محمد نعيم عكاشة	١٠٤٤ – ١٠٤٨
٢٤ – مستقبل الإسلام والدراسات الحديثة للمسيحية	
الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل	١٠٤٩ – ١٠٦٠
٢٥ – كتاب الشهر : دور الحضارة خرجت من مصر والشرق وإليهما تعود	
الأستاذ أحمد حسين	١٠٦١ – ١٠٩٠
٢٦ – ملف خاص بالمؤتمر التاسع لعلماء المسلمين	
التحريـر	١٠٩١ – ١١١١
٢٧ – النص الإنجليزى لمشروع الدستور الإسلامى	١١١٨ – ١١٢٦

إلى السادة راغبى الاشتراكات فى مجلة الأزهر

عليكم الاتصال باشتراكات أخبار اليوم (توزيع الأخبار)

٣ (أ) شارع الصحافة – القاهرة

وفيما يلى قيمة الاشتراك لمدة ١٠ أعداد سنويًا .

أولاً – جمهورية مصر العربية :

١,٥٠٠ (جنيه وخمسمائة مليم)

ثانياً – دول اتحاد البريد العربى الأفريقى :

٢,٧٠٠ (جنيهان و٧٠٠ مليم) أو أربعة دولارات .

ثالثا – باقى دول العالم :

٨,٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ ثلاثة عشر دولارا تسدد قيمة الاشتراك فى مصر نقداً أو بشيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الأفريقية .

والدول الأجنبية بشيك مصرفى مسحوباً على أحد البنوك العالمية لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم :

المراسلة على هذا العنوان

توزيع الأخبار ٣ (أ) شارع الصحافة – القاهرة

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع)

CHAPTER 8
GENERAL AND TRANSITIONAL PROVISIONS

ARTICLE 87

The city of ... is the capital of the country.

ARTICLE 88

The laws provides for the State's flag, its slogan and the provisions of each of them.

ARTICLE 89

The laws are applicable as from the dat of application. They are not enforced on a retroactive basis unless stipulated in them This requires the approval of a two-third majprity of members of the Parliament. Retroactiveness is not applicable to criminal offences.

ARTICLE 90

Laws are to be published in the official gazette within two weeks from their promulgation and they are enforced a month after the date of publication unless otherwise provided for.

ARTICLE 91

The Imam and or the Parliament have the right to require the amendment of one or more articles of the constitution. The amendment appeal must specify the articles to be amended and the reasons for this amendment. If the appeal is submitted by the Parliament it must carry the signature of at least a two-thirds majority of the members.

In all cases, the Parliament must discuss the principle of amendment issuing a decision with a two-third majority. If the appeal is to be turned down, the articles mentioned are not to be the subject of any other amendment unless after a year of rejecting the first one.

If the parliament agrees upon the principle of amendment, it will discuss the articles to be amended after two months of the first approval. If a two- thirds majority is agreed upon that amendment, it must be put into a referendum for the nation.

If the referendum is agreed upon, this amendment is applica from the date of announcing the results of the referendum.

ARTICLE 92

All the provisions agreed upon by laws and regulations before the promulgation of this constitution are valid and applicable. But they can be cancelled or amended according to the rules and procedures provided for by this constitution. If they are not in line with the provisions of the Islamic Sharia, they must be cancelled or replaced.

ARTICLE 93

This constitution is applicable from the date of announcing the nation's agreement to it according to the referendum.

Concluded with Allah's help and praise by the Islamic Constitution Drafting Committee on Sunday Zul Keada 13, 1398 H. (October 15, 1978).

ciliation is impossible.

ARTICLE 76

Compensation exceeding the amount of the Deia, can be agreed upon.

ARTICLE 77

Deia could be thes same for man and woman.

ARTICLE 78

Punishment by return of injury is conditioned by complete equality and the judje must be fully confident in this.

ARTICLE 79

Lashing is the basic punishment in Taazir and imprisonment is prohibited except in certain crimes and for limited periods specified by the judge.

ARTICLE 80

It is prohibited to humiliate the prisoner, exhaust him or insult him.

ARTICLE 81

A higher constitutional tribunal is to be formed to decide on the conformity of laws and regulations to the provisions of islamic Sharia and this constitution. The law provides for the jurisdiction of this tribunal.

ARTICLE 82

A petitions department is to be formed according to the law which provides for its attributions and reimbursements of its staff.

CHAPTER 7
SHURA, CONTROL AND LAWS ENACTMENT

ARTICLE 83

The state is so have a Shura Council with the following authorities:

1. Enacting laws in line with the provisions of islamic Sharia.
2. Ratifying the State's annual budget and the balance sheet.
3. Controlling the performance of the executive authority.
4. providing for the responsibility of the cabinet and withdrawing its confidence when the need arises.

ARTICLE 84

The law provides for the conditions of election, its procedures and the conditions of membership on a basis of Shura to guarantee the participations of every sane, adult and well- reputed preson in giving his opinion as well as providing for the financial status of the members as well as working out its internal regulations.

THE GOVERNMENT

ARTICLE 85

The government is responsible for administration and achieving the Sharia interests. It is answerable before the Imam.

ARTICLE 86

The law provides for the conditions of appointing ministers, prohibited actions while in office and suing them for illegal actions while in office.

This paragraph is deleted in the countries having Shura Council.

CHAPRET 6
JUDICIAL AUTHORITY

ARTICLE 61

The judicial Authority's judgements must be characterised by justice according to the provisions of the Islamic Sharia.

ARTICLE 62

All people are equal before law. None of them will be granted any privilege and no class will be answerable to special courts.

ARTICLE 63

No special courts are to be set up and no one is to be deprived of his natural judge.

ARTICLE 64

The judicial authority is not to be prevented from hearing a case against the Imam or the ruler.

ARTICLE 65

Judgments are taken and carried out in the .Name of Allah, All Beneficial, All Merciful. The judge is to apply no code but the Islamic Sharia.

ARTICLE 66

The implementation of the judgements her the state's responsibility Refrainment or negligence in carrying out these judgments is a criminal offence.

ARTICLE 67

The state provides for the independence of the judicial authority Tampering with this independence is a criminal offence.

ARTICLE 68

The state chooses tfder best- q ualified staff for the judicial authority and facilitates its procedure.

ARTICLE 69

In the Hudud crimes, the accused must attend his trial. The criminal may be accomp anied by his lawyer or by a lawyer appointed by the state if he does not choose one.

ARTICLE 70

The court is to be held in public and the public may attend it The court's session must not be held in camera unless there is Sharia necessity.

ARTICLE 71

All Sharia penalties (Hudud) are inflicted in cases of adultery.

Libel or slander, theft, violent robbery, drinking alcobolics and apostacy.

ARTICLE 72

The law specifies the punishments sanctioned by the judge in non-Hudud crimes (Taazir).

ARTICLE 73

The law provides for the provisions of distributing the compensation (Deia). The civil responsibility must not exceed the Deia.

ARTICLE 74

The law provides for the conditions of repentence and its provisions.

ARTICLE 75

Capital punishments is not to be levied to any criminal unless recon-

ARTICLE 51

The Imam is subject to the judicial procedure and he has the right to deputise some body to attend for him.

ARTICLE 52

The Head of the State enjoys all the rights of the individuals and is bound by the same commitments. His financial status is provided for by law.

ARTICLE 53

The Imam is not to be mentioned in anybody's will. Himself and his relatives up to the fourth remove are not to be allocated any wakfs unless he is one of the legal heirs of the Imam. The Imam should not involve himself in any transaction with the government or its properties.

ARTICLE 54

Giving gifts to the Imam is not permissible, and if given, they should be added to the property of the House of Treasury (Beit el Mal)

ARTICLE 55

The Imam should be a good example for his people in justice, charity and good deeds, he joins all the other Imams of the islamic states in discussing the interests of the Islamic nation. He is to be sent for pilgrimage every year and to participate in the all official and non-official Islamic conferences.

ARTICLE 56

The Imam is responsible for leading his army to fight the enemy and he protects the ports and the sacred territory of the country demarking borders and concluding the treaties after ratifying them.

ARTICLE 57

The Imam is responsible for injunctioning the people to follow the ordained of Gospels Allah and to practise their rituals.

ARTICLE 58

The Imam appoints the civil servants and he might delegate others in appointing lower ranking elements according to the law.

ARTICLE 59

Amnesty in all crimes except the Islamic penaltics (Hudud) is according to the law. The Imam has the right to give amnesty in special cases except those charged with Hudud and high treason.

ARTICLE 60

The Imam-when necessary - is entitled to take exceptional procedures stipulated in the law in case of tremors or any threat posed to the sovereignty of the state or civil war or war against any other state provided that he submits them to the parliament within one week of taking them. If the Parliament has not yet been elected, the old Parliament is to be summoned to consider these measures null and void unless these procedures are taken. A law is to be passed regulating these exceptional procedures and their subsequent results and the authorities concerned with taking them and the means of settling their results in case they are not ratified.

property. These rights are untouchable except according to the provisions of islamic Sharia.

ARTICLE 38

Women have the right to work within the limits of Islamic Sharia.

ARTICLE 39

The government guarantees the freedom of ownership, the rights of possession and their sacredness. Confiscation is not admissible by any means. Impoundment is subject to acourt's decision.

ARTICLE 40

Disappropriation is only permissible for the public interests in return for full compensation according to the law regulating that issue.

ARTICLE 41

Setting up newspapers is permissible and this in addition to the freedom of the press is within the provisions of Islamic Sharia.

ARTICLE 42

The citizens have the right to form societies and associations according to the law. Those organizations which are banned are of an aggressive nature which violate the systen of the society or which are clandestine or of a military nature or not in line wiht the rule of the Islamic Sharia.

ARTICLE 43

Rights are enjoyed according to the objectives of the sharia.

CHAPTER 5
THE IMAM

ARTICLE 44

The state must have an Imam who must be obeyed even if there are other opinions.

ARTICLE 45

«No creature is to be obeyed who counsels disobediene to the Creator»

ARTICLE 46

The law regulates the means of selecting the Imam under the supervision of the judicial authority. Selection of the Imam is by the required majority of the participants.

ARTICLE 47

Those standing for the elections of the Presidency must be muslims, males, adult, sane, righteous, and well- v ersed in the provisions of Islamic Sharia.

ARTICLE 48

The Imam assumes office by means of public allegiance from all the clases of the nation according to the law. Women may participate in the elections provided they are eligible and capable of voting.

(The Committee decided to submit this topic to the Higher Committee)

ARTICLE 49

No legal action is taken against those who reject the allegiance to the Imam before his election.

ARTICLE 50

Those who have the right to elect the Imam have the right of forcing him to abdicate when the need arises according to law.

CHAPTER 4
INDIVIDUAL'S RIGHTS AND FREEDOMS

ARTICLE 28

Justice and equality are the bases of rule and the rights of defence and suit are untouchable and provided for.

ARTICLE 29

Within the limits of the Islamic Sharia, the Government provides for the natural basic fights of religious and intellectual beliefs freedom of labour and expression and the establishment of societies and associations as well as the right to them and guarantees personal freedom and freedom of transfer and communication.

ARTICLE 30

Homes, correspondence and personal privacies are sacred and espionage is forbidden, The government passes the laws organising the restrictions to be imposed upon them in the cases of high treason or major threats. These restrictions are not to be imposed except according to a high court's decision.

ARTICLE 31

Freedom of internal or external travel is provided for. The individuals are not to be banned from travelling or subjected to homearrest unless according to a court's decision in which the judge gives his justifications. Citizens are not to be sent into exile.

ARTICLE 32

Reparriating those who seek political asylum is forbidden. Handing over criminals is to be organised with the concerned countries.

ARTICLE 33

Torturing people is a crime. The crime and its prosecution are not to be discharged during the life time of the criminal. The criminal or his partner are to be financially responsible. In case the crime is committed or agreed upon by a civil servant, he is to be considered a criminal partner and to be responsible for the crime, the government is also collectively responsible with its civil servants.

ARTICLE 34

The civil servant who knows about a torturing crime without reporting it or if the crime was committed in his jurisdiction is to be punished according to the traditions of «Taazir».

ARTICLE 35

No blood is shed unaccounted for in Islam. The government is to compensate the family of those who are killed without knowing their murderes or whose murderers cannot afford the compensation. This also applies for the handicapped the offenders of whom are not identified or who are incapable of compensating.

ARTICLE 36

Every body has the right to lodge a complaint for a crime inflicted upon him or upon anybody else or concerning the embezzlement or waste of public funds.

ARTICLE 37

Every body has the right to work and earn his living and to personal

and decisions to preserve the feelings of the public against profligacy according to the rules of the Islamic Sharia.

ARTICLE 15

Arabic is the official language. The hejri date should be mentic in all the official documents.

ARTICLE 16

Public hegemony is subject to the interests of the public special in preserving religion. self. money and honour.

ARTICLE 17

It not sufficient that the ends are legal. but in all cases the means must conform to the provision of Islamic Sharia.

CHAPTER 3
ISLAMIC ECONOMY

ARTICLE 18

Economy should be based on the principles of Islamic Sharia as to guarantee human dignity and social justice. it should encourage thought and labour as means of making living and also protect the legal (Halal) earnings.

ARTICLE 19

Freedom of trade. industry and agriculture is provided for within the limits of Islamic Sharia.

ARTICLE 20

The government is to set plans for economic development according the Islamic Sharia.

ARTICLE 21

The government is to fight monopoly but it is not to interfere with the fixing of prices except when the need arises.

ARTICLE 22

The government should encourage reclaiming deserts and expanding the cultivated area.

ARTICLE 23

All forms of usury are prohibited together with any shade of usury in any transaction.

ARTICLE 24

The government is the owner of the sub-earth minerals and raw materials and all the other natural resources.

ARTICLE 25

The House of Treasury (BEIT EL MAL) is the owner of any unappropriated items. Law regulates the means of individual property.

ARTICLE 26

The government channels the alms (..akah) in its legal public expenditure according to the Sharia.

ARTICLE 27

Wakf is permissible and a law organising it should be passed.

ARTICLE 3

Any country could unite with one or more other Islamic countries in the form agreed within.

ARTICLE 4

In the Islamic Nation: The people are responsible to be guardian of imam. his assistants and the whole of the state governers and officials. as wellas to revise and inspect about them according to islamic Jurisprudence.

CHAPTER 2
BASES OF ISLAMIC SOCIETY

ARTICLE 5

Cooperation and reciprocal responsibility are the bases of the society.

ARTICLE 6

To enjoin The Right and to forbid The Wrong are obligatory. Who neglects them — While he is able to do so — is sinner.

ARTICLE 7

The family is the basis of the society. The family should be based on religion and morals. The government should guarantee support for the family, protection of mothers and children and provision towards the means to that end.

ARTICLE 8

It is the government's duty to protect the family by encouraging early marriage and facilitating its material means of housing and the other possible facilities. Marital life should be held in great respect through providing the means according to which the wife would obey her husband and look after her children and consider keeping the family the first of her tasks.

ARTICLE 9

Looking after the wholesomeness of the nation and the health of the individuals is the government's duty and it should provide medical services whether preventive or curative.

ARTICLE 10

Seeking knowledge is a duty. Education is the government's task according to the law.

ARTICLE 11

Religious education is a main subjectat all levels of education.

ARTICLE 12

It is the government's task to teach all Muslims, the agreedupon duties «Farida» as well as the Prophet's and the orthodex Caliphs' traditions which are to be carefully studied along the stages of education.

ARTICLE 13

The government is to encourage Muslims to memorise parts of the Holy Koran during the stages of education. It should also set up special institutions to teach the Koran to the rest of the people as well as printing the koran and having it circulated.

ARTICLE 14

Bedizement is forbidden and observing others' feelings is a duty.

The government is to pass the laws

MAJALLATU'L AZHAR

(AL-AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd-ul-Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El-Zoghby**

Volume 51 No 4 — Jomada-Al-Ula 1399 A.H. April 1979 A.D.

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

ISLAMIC RESEARCHES ACADEMY
TECHNICAL SECRETARIAL DEPARTMENT

DRAFT OF THE ISLAMIC CONSTITUTION

Submitted by
The Sub-Committee of the Higher Islamic Constitution Drafting Committee

CHAPTFR 1
ISLAMIC NATION (UMMA)

ARTICLE 1

a) Muslims are one nation

b) Islamic (Jurisprudence Shari'a Islamiiah) is the source of all legislations.

ARTICLE 2

In The Islamic Nation : Numerousness of states and diversity of the forms of their governments are permitted.